
بيتر فرانكوبان
طرق الحرير
تاريخ جديد للعالم
ترجمة : د. أحمد العدوي



طُرق الحرير

تاريخ جديد للعالم

تأليف

بيتر فرانكوبان

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

د. أحمد العدوي

هـذا الكتـاب صـادر عن مشـروع «مـدّ» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع ضمـن مبـادرة إثـراء المحتـوى إحـدى مبـادرات مركـز الملـك عبـد العزيـز الثقافـي العالمـي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

The Silk Roads
By
PETER FRANKOPAN

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

بموجب اتفاق حصري مع:
Bloomsbury Publishing Plc.

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ح دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فرانكوبان، بيتر.

طرق الحرير؛ تاريخ جديد للعالم / بيتر فرانكوبان؛ أحمد عبد المنعم العدوي. - ط١. - الرياض، ١٤٤٤هـ

٧٤٤ ص؛ المقاس ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٣-٩١٩٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١. التجارة - تاريخ أ. العدوي، أحمد عبد المنعم (مترجم) ب .العنوان

ديوي ٣٨٢ ٩٢٦ / ١٤٤٤

رقم الإيداع: ٩٢٦ / ١٤٤٤
ردمك: ٥-٣-٩١٩٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ = ٢٠٢٢م



info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

تقريظ كتاب «طرق الحرير»

- «شيِّق، يحبس الأنفاس، يُدمن القارئ على قراءته»

صحيفة «الديلي تلغراف» *Daily Telegraph* «كتاب العام في مجال التاريخ».

- «دراسة مَلحميَّة؛ من طبقة الكتب المبهرة والطموحة».

صحيفة «نيو ستاتسمان» *New Statesman*

- «كتاب جريء، واسع النطاق».

صحيفة «الإندبندنت» *Independent*

- «نوصي بقراءته»

مجلة «موني-ويك» *Moneyweek*

- «كتاب رائع، يُعيد رسم خرائطنا، وتوجيه عقولنا كذلك».

مجلة «بروسبكت» *Prospect*

- «تحفة من تحف الكتابة التاريخية».

صحيفة «أخبار الصين الجنوبية» *South China Morning Post*

- «كبير... ومُعجِز... ومدهش. إن فرانكوبان هو خير مرشد لرحلة تمتد على طول الطرق التي نقلت الحرير، والعبيد، والأفكار، والأديان، والأوبئة، وما يزال مصير العالم متعلقًا بها حتى يومنا هذا».

مجلة «ڤانيتي فير» *Vanity Fair*

- «بهي... ورائع... أظهر صاحبه سعة اطلاع استثنائية، وكتَبه بأسلوب يكاد ينبض بالحياة، يأخذنا في رحلة مبهرة».

مجلة «أوبن» *OPEN Magazine*

- «تفاصيل سردية آسرة... ولوحة شاملة، غطت أكثر من عشرين قرنًا من التاريخ... إنها رحلة سريعة ورائعة».

مجلة «بيزنس ستاندرد-نيودلهي» *Business Standard*, New Delhi

- «الكتاب الأكثر بهاءً لهذا العام... وهو ترياقٌ مضادٌّ لرواية المركزية الأوروبية للتاريخ».

الملحق الأدبي لجريدة «التايمز» (كتاب العام)

Times Literary Supplement, Books of the Year

- «طموح للغاية في نطاقه... يفيض بالقصص».

صحيفة «الصين اليومية» China Daily

- «تاريخ سياسي، واقتصادي، واجتماعي مقنع، يشرح كيف سيُعاود التاريخ سيرته الأولى».

دليل المسافر العالمي World Travel Guide

- «سِفر جليل ... وتاريخ مغامر مدهش. . . كُتِب بحماسة ودقة».

صحيفة «صن داي تايمز» Sunday Times

- «مُنذرٌ... هبُّوا من سُباتكم؛ لدينا عمل في هذا العصر الشبكي الذي نعيش فيه».

صحيفة الإمارات الأهلية (الناطقة بالإنجليزية) The National AE

- «عَدْو سريع عبر ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، من بلاد فارس القديمة والإسكندر الأكبر إلى يوم الناس هذا... وإن كان على المرء أن يختار كتابًا حديثًا، يسعه من خلاله أن يلم بتاريخ العالم إلمامةً عامة، فقد يكون هذا الكتاب هو ضالته».

المجلة الآسيوية لمراجعات الكتب Asian Review of Books

- «كُتِبَ بإتقان، وهو مسلٍّ، وباعث على القلق، ومثير إثارة القصص البوليسية».

صحيفة «سفينسكا داجلاديت» Svenska Dagladet

- «نوصي بقراءته».

مجلة «بروسبير» Prosper Magazine

- «دراسة تحبس الأنفاس، وشيق حتى إن المرء قد يدمن على قراءته... وانعكاساته لم تخطئ الحكمة»

صحيفة «نيوزلند هيرالد» New Zealand Herald

بيتر فرانكوبان (PETER FRANKOPAN) هو أستاذ التاريخ العالمي في جامعة أكسفورد. وهو يشغل أيضًا منصب كبير الباحثين في كلية ورسيستر (Worcester College) في الجامعة نفسها. نشَر ترجمته المنقحة لكتاب **الألكسياد** *The Alexiad* لـ آنّا كومنين (Anna Komnene) في عام ٢٠٠٩، ثم نشَر كتاب **الحملة الصليبية الأولى** *The First Crusade* في عام ٢٠١٢.

للتواصل مع المؤلف

peterfrankopan.com / @peterfrankopan

«ووقفنا في بلد قوم من الأتراك... ورأينا طائفة منهم تعبد الحيَّات، وطائفة تعبد السَّمك، وطائفة تعبد الكراكي» [يعني طيور الكركي].

ابن فضلان، رحلة ابن فضلان

«أنا الكاهن يوحنا، أنا سيد السَّادات، ليس ثَم ملك من ملوك العالم -بأسره- يَفضُلني في الثروة، والفضيلة، والقوة... في بلادنا يتدفق الحليب والعسل فلا يعوقهما عائق؛ حيث لا يضرُّ السُّم أحدًا؛ وحيث لا يُسمَع للضفادع نقيقٌ؛ وحيث ليس ثَم عقارب، ولا حيَّات تزحف على العُشب».

مقطع من رسالة منسوبة إلى الكاهن يوحنا (Prester John)، أرسلها إلى روما والقسطنطينية، (القرن الثاني عشر الميلادي)

«وله [يعني خان الشرق العظيم] قصر منيف، مسقوف بأكمله بالذهب الخالص».

ملحوظات كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) البحثية حول خان الشرق العظيم، (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي).

«فإذا لم نبادر بتقديم تضحيات -ضئيلة نسبيًّا- وإذا لم نُغيِّر من سياساتنا في بلاد فارس الآن، فسوف نُعرِّض صداقتنا مع روسيا للخطر، ومن ثم نواجه... وضعًا يكون فيه وجودنا -بوصفنا إمبراطورية- على المحك في قابل الأيام».

مقطع من رسالة وجَّه بها السير جورج كليرك (Sir George Clerk) إلى السير إدوارد جراي (Sir Edward Grey)، وزير الخارجية البريطاني، مؤرخة بـ ٢١ يوليو (تموز) ١٩١٤.

«سيفوز الرئيس حتمًا، وإن قعدنا، ولم نحرِّك ساكنًا».

رئيس ديوان الرئيس الكازاخستاني نور سلطان نزاربايف، قُبيل الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٥.

المحتويات

مقدمة المترجم

فرغـت مـن قـراءة هذا الكتـاب -في طبعتـه الأولى- في شتـاء عـام ٢٠١٩، وكان الانطبـاع الأول -الـذي تولَّـد لـديَّ عقب فراغي من قراءة خاتمة المؤلف- هو أن ذلك العمل يليق حقًّا بأستاذ للتاريخ العالمي في جامعة أكسفورد.

أسـمى المؤلـف كتابه **طُـرق الحرير؛ تاريخ جديد للعالم**. وطُرق الحريـر موضوعٌ مطروق كتَب فيه المؤرخـون الغربيـون من قبل، كما سـيواصلون الكتابة فيه من بعد بطبيعة الحـال. ولكن ما تميز به هذا الكتـاب هـو أنه تنـاول هذا الموضـوع من منظور التاريـخ العالمي. كمـا أن فرانكوبان لـم يتناول طرق الحرير بمفهومه الكلاسـيكي الجامد الذي يشـير إلى طُرق ومسـالك بعينها، أو تأريخًا للتجارة وحركة البضائـع والسـلع فضلًا عن الأفكار. بل حاول إقامـة البرهان على أنه كان لكل إمبراطورية كبرى طريق الحرير الخاصة بها، وأن انهيار تلك الإمبراطوريات جاء مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بانهيار طرق الحرير فيها. لقـد كان لطـرق الحريـر -عند المؤلف- دور مركـزي في الصراع بين الإمبراطوريـات الكبرى، وهكذا كانت سببًا رئيسًا من أسباب الحربين العالميتين، على الرغم من أن مسرحهما الرئيس كان قلب أوروبا. فضلًا عن أن طرق الحرير -بتعبير المؤلف- كانت مسـرحًا رئيسًـا للحرب الباردة، وظلت كذلك حتى بعد أن انهار الاتحاد السوڤيتي، وانفردت الولايات المتحدة بالسيادة والهيمنة على العالم.

وإحـدى مناقـب هذا الكتاب -كما سـيلحظ القارئ- أنه مبني على خُلاصات عشـرات من الكتب والمقالات والدراسات الحديثة للغاية. وتلك النزعة واضحة عند المؤلف في معرض تفنيده للمُسلمات، وأشـباه البديهيات في ثنايا طرحه لعدد من القضايا التاريخية. وعلى هذا النحو سـيجد القارئ المؤلفَ في هذا الكتاب يفند انطباعات، وتصورات، وبديهيات، ومسلمات عمَد إلى جرحها، كما أشار في نهاية مقدمته. ومن ذلك -على سـبيل المثال- أنه يُنظَر عادةً إلى القرن التاسـع عشـر على أنه العصر الذهبي للإمبراطورية البريطانية؛ فهو الحقبة التي استمرت فيها بريطانيا في تعزيز مواقعها في مستعمراتها؛ ومع ذلك عرض المؤلف دلائل تشير إلى أن قبضة إنجلترا على مستعمراتها أخذت تضعف في تلك الآونة، الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ إجراءات شـبه يائسـة بغرض الحفاظ على مسـتعمراتها من التهديدات التي شكلتها القوى المعادية الأخرى.

ومـن ذلـك أيضًـا أن شـبح ألمانيـا، والتنافـس الألمانـي البريطاني المتصـور لم يكن دافـع الحرب العالمية الأولى؛ بل كان شـبح روسـيا الحليفة! ذاك أن تمدد نفوذ روسـيا واتسـاع حدودها شـرقًا، مثَّل تهديدًا حقيقيًّا للهند كان دافع بريطانيا في التضحية بعلاقاتها بألمانيا، ومحاولة احتواء روسيا بأي ثمن.

وعلى هذا النحو كانت روسيا وبريطانيا حليفتين في الظاهر، إلا أنهما كانتا خصمتين لدودتين في الباطن، وكل ما هناك أن المصالح أجبرتهما على التنكر على هيئة حليفتين.

كما حاول المؤلف في هذا الكتاب هدم ركن رئيس من أركان المركزية الأوروبية؛ ذاك أنه حاول تفنيد قصة صعود الغرب، والتي تقضي بأن روما انبثقت عن اليونان القديمة، وأن أوروبا النصرانية انبثقت عن روما، وأن عصر النهضة انبثق عن أوروبا النصرانية، وأن عصر التنوير انبثق عن عصر النهضة، فأثمر ديمقراطية التنوير السياسية، التي أثمرت بدورها الثورة الصناعية. ولما تقاطعت الصناعة مع الديمقراطية وُلِدت الولايات المتحدة. وعلى هذا النحو تجسَّد الحق في الحياة، والحرية، والسعي خلف السعادة. واجتهد فرانكوبان على امتداد صفحات هذا الكتاب في محاولة إثبات أن مجد الإمبراطوريات الأوروبية الكبرى جاء مرتبطًا بالشرق، وبالانفتاح على الشرق في المقام الأول. وفي الحقبة الكولونيالية بالاستيلاء على ثروات الشرق، فضلًا عن ثروات العالم الجديد.

كما خلص المؤلف -بعد دراسة عميقة- إلى أن التنوير، وعصر العقل، والتقدم نحو الديمقراطية، والحرية المدنية، وحقوق الإنسان، لم تكن نتاجًا لسلسلة وهمية متصورة تعود إلى أثينا في العصور القديمة، أو إلى حالة طبيعية تطورت في أوروبا؛ بل كان ثمرةً للنجاح السياسي، والعسكري، والاقتصادي الذي تحقق في قارات العالم البعيدة عن القارة العجوز. كما خلص أيضًا إلى أن البحر المتوسط «الحقيقي» هو قلب العالم، حيث نشأت الحضارة ابتداءً، وحيث تقاطعت حدود الإمبراطوريات الكبرى. ثم أنهى المؤلف كتابه بأفكار هي أقرب إلى النبوءات، وتقضي نبوءاته بأن الميزان آخذ في الميل الآن -وعلى نحو متزايد- للبقاع التي ازدهرت منذ القدم، مثل: بخارى، ومرو، ونيسابور، وطشقند، وأن تلك البقاع ستعود سيرتها الأولى، وستكون منارات للعلم والحضارة كما كانت كذلك منذ آلاف السنين. أما الغرب، فربما بات على مشارف مفترق طرق، بل قد يكون على مشارف نهاية طريق.

نشر فرانكوبان هذا الكتاب في عام ٢٠١٥. وأثار الكتاب ضجة كبيرة، واختارته صحيفة الديلي تلغراف *Daily Telegraph* كتابًا للعام في السنة التي صدر فيها. واحتل مكانة بارزة في قائمة أكثر الكتب مبيعًا حول العالم، وقيل: إن عدد النسخ التي ابتيعت منه بلغت ١,٥ مليون نسخة. كذلك اختير الكتاب -في ديسمبر ٢٠١٨- بوصفه واحدًا من أكثر ٢٥ كتابًا تُرجمت إلى اللغة الصينية في العقود الأربعة الأخيرة تأثيرًا، كما انتخبته الحكومة الباكستانية في أحد برامجها الوطنية للقراءة والثقافة ومحو الأمية في البلاد. فضلًا عن ذلك تُرجم الكتاب إلى أكثر من ثلاثين لغة حتى الآن، بحسب موقع المؤلف الرسمي على شبكة الإنترنت.

* * *

لا شك أن بيتر فرانكوبان شخصية استثنائية -على الأقل من المنظور الأكاديمي- فهو مزيج يجمع بين الأكاديمي، ورجل الأعمال، والرياضي، والصحفي. فأما الأكاديمي فـ فرانكوبان أستاذ مرموق

للتاريخ في واحدة من أعرق الجامعات في العالم. وأما رجل الأعمال فهو يدير -وزوجته- سلسلة من الفنادق والمطاعم الراقية، في لندن، وأمستردام، وباريس. وأما الرياضي فقد احترف فرانكوبان رياضة الكروكيت، وبرع في اللعبة حتى اختير لاعبًا في الفريق الوطني لكرواتيا -بلده الأم ومسقط رأس أبيه لويس دويمي دي فرانكوبان (Louis Doimi de Frankopan) (١٩٣٩-٢٠١٨). وأما الصحفي فهو يكتب لعدد كبير من كبريات الصحف والمجلات العالمية، ومنها: نيويورك تايمز *The New York Times*، وفاينينشال تايمز جارديان *Financial Times Guardian*، فضلًا عن أنّ له عمودًا منتظمًا في صحيفة لندن إيڤننج ستاندرد *London Evening Standard*.

ويُثري ذلك التنوع في الاهتمامات شخصية المؤرخ بلا شك، ومع ذلك فإننا معنيون -في هذا المقام- بمسيرته الأكاديمية دون غيرها. درس فرانكوبان بكلية إيتون (Eton College)، ثم حصل على الماجستير في التاريخ البيزنطي من كلية المسيح- كامبريدج (Jesus College, Cambridge)، قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه من كلية كوربوس كريستي، أكسفورد (Corpus Christi College, Oxford). ثم يصير أستاذًا في جامعة أكسفورد، وما زال يتقلب في المناصب حتى صار كبير الباحثين في كلية ورسيستر، أكسفورد (Worcester College, Oxford)، ومديرًا لمركز أكسفورد للبحوث البيزنطية (Oxford Centre for Byzantine Research). والمدير المشارك لدراسات طرق الحرير في كلية كينجز، كامبريدج (King's College, Cambridge).

* * *

بما أن المؤلف أهمل الحديث عن تقسيم كتابه في مقدمته، فقد وقعت هذه المهمة على كاهلي. ومن ثم أقول: قسَّم المؤلف كتابه الضخم الذي تجاوز الخمسمئة صفحة إلى ٢٥ فصلًا، فضلًا عن المقدمة والخاتمة، ويحمل كل فصل من فصول كتابه عنوان «طريق كذا» على نحو لم يخل من طرافة.

ونستطيع القول -من منظور التحقيب التقليدي-: إن الفصول الثلاث الأولى من الكتاب تغطي العصور القديمة المتأخرة. بدأ الفصل الأول منها بنشأة الإمبراطورية الفارسية، وفتوحات الإسكندر الأكبر، ونشأة طريق الحرير، مرورًا بصراعات الأديان الكبرى عبر طرق الحرير بدءًا بالبوذية، ومرورًا بالزرادشتية (المجوسية)، وظهور النصرانية وانتشارها. أما الفصول من الرابع إلى العاشر فقد عالجت تاريخ طُرق الحرير في القرون الوسطى، وأبرز المعالم التي طرأت عليها في ظل الصراع بين الفُرس والروم، وأثر ظهور الإسلام، وازدهار مملكة الخزر، وإسكندنافيا، ودويلات المدن الإيطالية. كما عرض لفصول من تاريخ الحروب الصليبية، والأثر الذي نجم عن ظهور المغول على مسرح التاريخ العالمي.

ونستطيع أن نقول كذلك: إن الفصول من الحادي عشر إلى الثامن عشر تستعرض التاريخ الحديث؛ حيث بدأ الفصل الحادي عشر بحركة الكشوف الجغرافية التي أدت إلى نتائج غيّرت وجه التاريخ،

فقد أضحت أوروبا -أو بالأحرى غرب أوروبا مركزًا للعالم- كما انهارت قوى تقليدية مثل المماليك في مصر. واستعرض المؤلف ازدهار تجارة الرقيق على أيدي البرتغاليين والإسبان خاصة، وكيف نشأت طرق جديدة للحرير على إثر اكتشاف الأمريكيتين. ثم عرض المؤلف للدور الذي لعبته حركة الكشوف الجغرافية في ازدهار بعض القوى البحرية الثانوية مثل إنجلترا وهولندا، في الوقت الذي كانت فيه شمس القوى الحرية الكبرى، مثل: البرتغال وإسبانيا آخذة في الأفول؛ حيث كانت ترضخ تحت وطأة الديون بعد قرون من الازدهار.

وفي الأخير نستطيع القول: إن الفصول من التاسع عشر إلى الخامس والعشرين تغطي التاريخ المعاصر منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية وحتى انسحاب الولايات المتحدة من أفغانستان، وتستعرض فصولًا من تاريخ الحرب الباردة، ومقدمات احتلال الولايات المتحدة للعراق وتداعياته. وأنهى المؤلف كتابه بخاتمة طويلة نوعًا ما، تناول فيها الوضع الراهن للدول المطلة على طرق الحرير، وتنبأ في آخرها بعودة الدول المطلة على طرق الحرير لممارسة دورها الحضاري الريادي -مع دور بارز للصين- في قابل الأيام، تمامًا كما كانت كذلك طيلة العصور القديمة والوسطى.

هنا قد آخذ على المؤلف ذلك التشوش في عرض الفكرة الرئيسة، ذاك أن المؤلف يحملنا -عبر صفحات الكتاب- على الاعتقاد في أنه كان لكل إمبراطورية طريق حرير خاص بها، أو «هندها» أو «جنة عدن خاصتها»، ومن ثم فإن طريق الحرير يعد اصطلاحًا مجازيًا -إلى حدٍّ ما- لوصف الرافد الذي رفد تلك الإمبراطوريات -على اختلافها- بالمواد الخام، والموارد المالية من خلال الضرائب ... إلخ. وعلى هذا النحو شكَّل العالم الجديد شكل طريقًا للحرير بالنسبة لإسبانيا، بينما شكل طريق رأس الرجاء الصالح طريقًا للحرير بالنسبة للبرتغال. إنها طرق للحرير وليست طريقًا واحدًا. ومع ذلك فإن خاتمة الكتاب تركز على نحو رئيس على طرق الحرير بمفهومها التقليدي الكلاسيكي، أي قلب العالم -بمفهوم هالفورد ماكندر (Halford John Mackinder) (١٨٦١-١٩٤٧)- ومن ثم ينبغي أن يحمل القارئ عبارة المؤلف «قلب العالم» -التي تكررت في غير موضع- على أن لها خلفية نظرية هي تحديد ماكندر لقلب العالم، حتى لو صمَت المؤلف عن ذلك. الأمر الذي أدى إلى إحداث نوع من التشوش على إحدى الأفكار الرئيسة التي حملها هذا الكتاب بين جلدتيه.

* * *

من بين الدوافع التي دفعتني إلى ترجمة هذا الكتاب أنه تاريخ عالمي. لقد أردت من خلال ترجمته تقديم نموذج لدراسة بارزة من دراسات التاريخ العالمي الحديثة -كتبها أحد المؤرخين البارزين في هذا المجال- للباحثين والمؤرخين العرب، آملًا أن يُثير هذا الكتاب فضولهم حول الأسس النظرية التي يقوم عليها التاريخ العالمي.

سأستعير هنا تجسيد فرانكوبان للتاريخ العالمي على أنه بمثابة خطوة إلى الوراء، ومن ثم يتيح ذلك التراجع للخلف للرائي رؤية أشمل من خلال اتساع المنظور؛ إنها رؤية تقفز على التفصيلات مقارنة

بنظـرة المـؤرخ المتخصـص في تاريخ حضـارة ما، وحقبة زمنية ما. إن الأمر يشـبه منظـور رائد الفضاء -المنتمـي إلـى جنسـية ما- إلى كوكب الأرض على أنه كوكبه؛ حيث قـد لا يرى دولته التي ينتمي إليها أصلًا.

وتحظى دراسات مؤرخي التاريخ العالمي بأهمية خاصة في ضوء الحاجة الماسة للمفكر المعاصر إلى فهم الروابط التي أخذت تتشكل في عصرنا الحاضر؛ إذ توفر دراسة التاريخ من منظور عالمي بعدًا تاريخيًّا واضحًا لظاهرة الروابط والتكتلات العالمية الحالية العابرة للحدود. ولما كان واقع العالم اليوم يفـرض علـى الـدول والحضارات أن تؤثـر بعضها في بعضها الآخر، بات يتوجَّـب على كل حضارة أن تُعيد قراءة تاريخها القومي على أنه جزء من تاريخ أكبر وأشمل.

كان إدخال تخصص التاريخ العالمي -بوصفه تخصصًا تاريخيًّا مستقلًّا- عملية بطيئة في الجامعات الغربيـة، ولا شـك فـي أن ظهور عـدد من المقـالات النقدية التي شـكَّكت في الفرع مـن التأريخ، وفي هذا التخصص من التأريخ -بوصفه تخصصًا مسـتقلًّا- شـكَّلت أحد أسـباب هذا البطء. ومع ذلك فقد نُشِـر -فـي المقابـل- عدد كبيـر من المقـالات العلمية التي عكسـت قدرًا كبيرًا من الأسـف والحسـرة علـى قلـة اكتـراث المؤرخيـن للتاريـخ العالمي. أمـا اليوم؛ فتُعنـى أكبر الجامعـات في العالـم بالتاريخ العالمـي -بوصفه تخصصًا لطلاب الدراسـات العليا- كمـا تُعنى كذلك باصطفاء أعضاء هيئة التدريس المتخصصيـن فـي هـذا الفرع مـن التأريخ. بـل إن بعض هـذه الجامعات أنشـأ مراكز متخصصـة معنية بدراسة التاريخ العالمي وتدريسه؛ فضلًا عن إصدار الدوريات العلمية المتخصصة، والمؤتمرات التي تُعقَد لمناقشة قضاياه الموضوعية والمنهجية.

وفي خضم عملية تطور التاريخ العالمي بوصفه تخصصًا مسـتقلًّا في دراسـة التاريخ، اختفت الآن تقريبًـا التسـمية القديمـة؛ أعني: التاريـخ الكوني(Universal History) ، التي سـادت في القرن التاسـع عشـر. والتسـمية الأكثـر تداولًا لهـذا التخصص في التاريـخ الآن هـي: «التاريخ العالمي» التـي تقابلها عبارة (World History) في الإنجليزية، و (l'histoire mondiale) في اللغة الفرنسية، أو (-Globalges chichte) في الألمانية.

ومما يؤسف له أنَّ الجامعات العربية لا تهتم بهذا التخصص على الإطلاق[1]. ولا ينبغي أن يُفاجئنا

---

(١) وفقًـا لـ عمـرو عثمان لا تبرز المواقع الإلكترونية لأقسـام التاريخ عـادة في كليات الآداب في البلـدان العربية حضورًا لـ«التاريـخ العالمـي» بوصفـه تخصصًا مسـتقلًّا، بـل إن هذه الجامعات لا تقـدم أصلًا مقررات باسـم التاريخ العالمي، فضـلًا عـن أن تقدمـه بوصفه تخصصًا قائمًا بذاته. فإذا كانت الجامعات العربية لا تهتم بهذا الفرع من التاريخ، فلا دافع لأسـاتذة التاريـخ كي يبحثوا فيـه ويؤلفوا؛ ذلك أنَّ التخصص في التاريخ العالمي يتطلب قـدرًا كبيرًا من العلم والوقت والجهـد، وهـو مـا لا يمكـن أن يكـون متاحًا مـن دون دعم مؤسسـي للمهتمين بـه. انظر: مقالـة عمرو عثمـان المهمة المسـماة: التاريـخ العالمـي، موضوعه، ومناهجه، ودراسـته من خلال تاريخ الأشـياء، مجلة أسـطور، ١/ ١ (٢٠١٥)، ٧-٢٣. وتجدر الإشارة إلى أنني اعتمدت على هذه المقالة في أثناء تعرضي للتاريخ العالمي في غير موضع.

غياب الاهتمام بالتاريخ العالمي في العالم العربي؛ لأسباب أخصها أنَّ دراسة التاريخ العالمي لا تتوافق بالضرورة مع النظرة التقليدية إلى التاريخ بوصفه جزءًا من عملية تعميق الانتماء الوطني للدولة القومية الحديثة. وبطبيعة الحال يثير غياب ذلك التوافق إشكالية مألوفة عند المفكرين المعنيين بالعلاقة بين الشرق والغرب؛ ففي حين يستطيع الغرب تجاوز أفكاره بما في ذلك ما يعده مسلمات وبديهيات، ثم تطويرها والبناء عليها، فإننا نظل دائما أسرى أفكار الحداثة الغربية، ومن ثم مؤسساتها.

إضافةً إلى ذلك يهتم التاريخ العالمي بالبحث عن القوى المحركة للتاريخ على نحو يتجاوز الشعوب والدول، وهو ما قد يُسبب نوعًا من الحساسية لأولئك الذين يرفضون النظر إلى حضاراتهم على أنها جزء من تاريخ الإنسان على الأرض، فضلًا عن أن ينظروا إلى تاريخ دولهم العريقة بوصفه جزءًا ضئيلًا من ذلك التاريخ. كما لا يتلاءم التاريخ العالمي مع النظرة إلى التاريخ بوصفه مجرد تحقق من معلومات وفرضيات تاريخية معينة، والاهتمام بالتفصيلات الخاصة بالدول والأشخاص والحوادث التاريخية. فالتاريخ العالمي -في بعض صوره- لا يهتم دائمًا بالتفصيلات بقدر اهتمامه بالصورة العامة للصيرورة التاريخية، والظواهر العابرة للأقاليم الجغرافية، وكذلك للتقسيمات العرقية.

ويقوم التاريخ العالمي على أساس افتراض منطقي، يقضي بوجود تفاعل ما بين البشر منذ وجودهم على الأرض؛ إذ لا يمكن كتابة تاريخ عالمي إذا افترضنا أن كل حضارة أو منطقة ما من مناطق العالم تطورت بمعزل عن غيرها. ولا يعني ذلك بالطبع أن مؤرخي التاريخ العالمي لا يقرون بتفرد الحضارات واختلافها، في أثناء تطورِها وفي تفاعلها، بل يعنون أن التفاعل ظل ماثلًا دائمًا، سواء تمثل ذلك التفاعل إيجابيًّا في الاستعارة الحضارية، أو سلبيًّا في الصدام بين الحضارات فيما تعلق بالأفكار والمعتقدات... إلخ. واستنادًا إلى ذلك، لا تعد الدراسة الشاملة لتاريخ العالم منتمية إلى التاريخ العالمي إذا قُسّمت فصولها على أساس الحضارات أو الدول كل على حدة، فمنظور التاريخ العالمي -كما رأينا- يقتضي دراسة تفاعل الحضارات مع بعضها، كما أن منظوره يختلف عن منظور التاريخ القومي، ولو كان موضوعهما واحدًا.

ويقتضي الإنصاف -هنا- أن نشير إلى أن دراسة التاريخ العالمي ليست بالمهمة السهلة، فهي بحاجة إلى مؤرخ من طراز خاص، بعبارة أوضح: بحاجة إلى عقل قادر على هضم كمٍّ ضخم من المعلومات التاريخية، ومن ثم نَظْم تلك المعلومات بطريقة تُظهر الأثر، والأثر المتبادل بين الأحداث الكبرى التي أثرت في الصيرورة التاريخية العالمية، توطئة للوصول إلى تعميمات حول دينامية التطور التاريخي. ويقوم مؤرخ التاريخ العالمي بذلك دون أن يخوض في التفصيلات الجزئية؛ ذاك أنَّ الخوض في تلك التفصيلات من صميم عمل المؤرخ المهتم بتاريخ أحداث بعينها في سياق زمني ومكاني بعينه. بعبارة أخرى، يحتاج مؤلف التاريخ العالمي إلى النظر إلى تاريخ العالم، أو إلى أية ظاهرة تاريخية يدرسها بنظرة شاملة. إن الأمر أشبه بمنظور الطائر الذي يحلق فوق مدينة ما، فيرى مبانيها العالية، وشوارعها الرئيسة التي يستطيع تتبُّع تخطيطها العام، ورؤية مداخلها ومخارجها المختلفة، مع التسليم

بأنه لا يستطيع -في الوقت نفسه- رؤية بعض التفصيلات الدقيقة. ولا يعني ذلك أنَّ المشتغل بالتاريخ العالمي يُعَد في جملة فلاسـفة التاريخ؛ ذاك أن فيلسـوف التاريخ يفكر بمنهج أكثر تجريدًا، وأقل إشارة إلـى حـوادث التاريـخ. وعلى هذا النحو فمـؤرخ التاريخ العالمي دائم الإشـارة إلى الأحـداث الكبرى بصفة مسـتمرة، ومع ذلك فإنه يسـعى في الوقت نفسه إلى نظمها على هيئة بناء منطقي، تُظهر العلاقات بينها في إطار صيرورة تاريخية كبرى.

وتبقـى الإشـارة إلـى أن التاريـخ العالمي دراسـة بينيّة عابـرة للتخصصـات بالضرورة فـي التحليل الأخيـر؛ فهـذا النمط من دراسـة التاريخ يشـتمل علـى التاريخ السياسـي، والاقتصـادي، والاجتماعي، والثقافـي، والإثنـي، فضـلًا عن غيرها مـن التخصصات، مع ما يتطلبـه هذا من معرفة كافيـة بالنظريات الأساسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ومـع ذلـك فإن إحدى مثالـب التاريخ العالمي أنه يتخذ من أوروبا مركـزًا وبؤرة، فالتاريخ الحقيقي هـو تاريـخ أوروبا، وتنتمي الشـعوب الأخرى إلـى هذا التاريخ بمقـدار تأثرها بأوروبـا، وليس العكس فـي معظـم الأحـوال. ومـن قَبيل المفارقـات أن مؤلف هذا الكتاب حـاول الخروج من إسـار المركزية الأوروبيـة -بـل ووُصِف كتابه بأنه ترياق مضاد لسـمومها- ومع ذلك فإنه منـذ الصفحات الأولى حتى دخـول الولايـات المتحـدة على الخـط -بوصفها قوة عظمى في معرض المنافسـة بيـن القوى الكبرى علـى طُـرق الحريـر- قدَّم تاريخ هـذه الطرق من منظور أوروبي تقريبًا؛ فيشـعر القـارئ بحضور أوروبا -التي وصفت في بعض الصفحات بأنها قارة منعزلة وراكدة- منذ فتوحات الإسـكندر الأكبر، ومرورًا بالحـروب الصليبيـة، وانتهـاء بالحربيـن العالميتيـن والحرب الباردة. ومع ذلك فتفاعل آسـيا وشـمال إفريقيا مع أوروبا القروسـطية، ظل حاضرًا -على نحو أو آخر- في ثنايا الكتاب. وربما تمحَّلت العذر للمؤلف بأن الواقع يفرض ذلك، فالتاريخ من منظور عالمي يقتضي الحديث عن أوراسـيا -فضلًا عن شـمال إفريقيـا- بوصفها كتلـة واحدة. وكذلك فقد كان لغرب أوروبا حضور فعلي في تاريخ المشـرق من خلال الحروب الصليبية، وينسـحب الحكم نفسـه على القوى الاسـتعمارية، وكانت أوروبا موطنًا لها. وفي الأخير فإن المتلقي الأخير لهذا الكتاب هو القارئ الغربي، وقد قُدِّمت له هذه المادة التاريخية علـى أنهـا تصحيح لمعلوماته فـي التاريخ، أي إن تلك المعلومات على التمـاس مع تاريخ أوروبا -في الأخير- ضربة لازب. ومع ذلك فقد لا يقنع مؤرخو ما بعد الكولونيالية بهذا النوع من الأعذار.

والحق أن مشاعر المؤلف السلبية تجاه الإمبريالية، والقوى الاستعمارية، والسلوك البغيض للبشر، بـل وممـا وصفـه بالنزعة الأوروبيـة العدوانية، واضحـة في غير موضع من كتابه، سـواء فـي عباراته أو في أسـلوبه، أو في سـخريته اللاذعة من ممارسات القوى الاسـتعمارية، أو استعباد البشر واستغلالهم. وتـرى ذلـك أوضـح ما يكون في تهكمـه من حصول الاتحـاد الأوروبي على جائزة نوبل للسـلام على سبيل المثال.

أمـا المأخـذ الثانـي علـى التاريخ العالمي فهـو أنه يحتاج -كما أسـلفنا- إلى عقل قـادر على هضم

كمٌّ ضخم من المعلومات، ومن ثم إعادة نظْم هذه المعلومات بطريقة تُظهر الأثر والأثر المتبادل بين الأحداث الكبرى التي أثرت في الصيرورة التاريخية العالمية، سبيلًا للوصول إلى تعميمات حول دينامية التطور التاريخي. ويفعل المؤرخ ذلك دون أن يخوض في التفصيلات والجزئيات؛ ذاك أنَّ الخوض في تلك التفصيلات هو من صميم عمل المؤرخ المهتم بتاريخ بقعة بعينها في حقبة بعينها.

بيد أن التعامل مع المادة التاريخية على هذا النحو، يضع مؤرخ التاريخ العالمي في القلب من ظاهرة ندعوها بظاهرة «الانتقاء»، والانتقاء هو عملية تعسفية -بالضرورة- تحدث في عقل المؤرخ، تجعله يصطفي حوادث بعينها، ويستبعد أخرى، ويصر على أن حوادث دون حوادث هي التي أدت إلى كذا، وأن هذا الحدث رئيس وأن ذاك ثانوي، بمعنى آخر يهدد الانتقاء عملية إعادة بناء الحوادث كما وقعت في الماضي فعليًّا، فتغدو تلك العملية من إعادة بناء الحوادث أشبه بسلسلة منطقية في رأس المؤرخ فحسب، دون الواقع الذي كان. ومن ثم فإن الانتقاء يجعل الاستنتاجات التاريخية أقرب إلى الفكر منها إلى العلم، على النحو الذي حذر منه فلاسفة التاريخ من شاكلة بول ڤاليري (Paul Valéry) والأدباء من شاكلة أناتول فرانس (Anatole France)، فضلًا عن غيرهما. وإذا كان الانتقاء ظاهرة تواجه المؤرخين على اختلاف تخصصاتهم، فيكاد يكون التاريخ العالمي -بوصفه تخصصًا- قائمًا على هذا الانتقاء، ويمثل هذا تحديًا كبيرًا للتاريخ العالمي بوصفه تخصصًا مستقلًّا.

أما المأخذ الثالث على التاريخ العالمي، فهو أن دارس التاريخ العالمي لا يعتمد بالضرورة على المصادر الأولية، على النقيض من المؤرخ المتخصص في حقبة زمنية بعينها وإطار مكاني بعينه؛ إذ إنه لا يسع المؤرخ المتخصص في التاريخ العالمي -في أثناء سعيه إلى عقد المقارنات الكبرى وتتبُّع الظواهر التاريخية عبر قرون عديدة- الاعتماد على المصادر الأولية؛ ومن ثم يجد نفسه مضطرًّا إلى الاعتماد على المصادر الثانوية التي تدرس الحضارات، والدول، والأحداث التاريخية الكبرى، اعتمادًا كثيفًا في محاولة لنظمها معًا في عقد واحد. إن القصد هنا هو الذي حدد السَّعي بطبيعة الحال. ومع ذلك لا يخفَى أنَّ الإفراط في الاعتماد على المصادر الثانوية مدعاة للنقد عند جمهور المؤرخين. وتظل النتائج والاستنتاجات التي يتوصل إليها مؤرخ التاريخ العالمي موضع أخذ ورد، وإن سُلِّم بأن طبيعة التاريخ العالمي تقتضي ذلك؛ ذاك أنَّ الدراسات التاريخية الجادة لا تقوم إلا على المصادر الأولية، والمخطوطات، والوثائق الأصيلة المحفوظة في الأرشيفات الكبرى.

* * *

أعدت الاقتباساتِ النصية من المصادر العربية، التي حواها هذا الكتاب بين دفَّتَيْه، والتي استقاها المؤلف من ترجمات إنجليزية لها -نُشِرت بأخرة- إلى أصلِها العربي، كما جرت بذلك عادتي في ترجماتي. بيد أن تحقيق هذا المطلب استعصى في بعض خطب وتصريحات الزعماء العرب، فترجمتها من الإنجليزية -كما وجدتها- ونوَّهت عن هذا التصرف في مواضعه.

كما علَّقت على بعض ما أورده المؤلف، واستدركت عليه في مواضع. وحاولت الاقتصاد في تعليقي على النص ما وسعني هذا، راغبًا عن إثقاله والمصادرة على مؤلِّفه. ومن ثم لم أعلِّق على النص، أو أستدرك على المؤلف إلا لضرورة رأيتها. ووضعت تعليقاتي على المتن في حواش مفردة اختتمتها بكلمة المترجم بين قوسين.

أما القسم المتعلق بالتاريخ الحديث والمعاصر فلا ينبغي أن يُحمَل سكوتي عن التعليق عن أغلب ما ورد به، على أنه إقرار مني للمؤلف فيما ذهب إليه ضربة لازب. إن حجم الكتاب من جهة، وكثرة مواطن التعليق التي عنَّ لي التعليق عليها حالت بيني وبين ذلك. وقد تركت مهمة التعليق على ما أورده المؤلف في هذا الصدد لجمهور القراء، وعلى رأسهم الأساتذة المتخصصون في التاريخين الحديث والمعاصر.

كما حرصتُ على إدراج التواريخ الهجرية المكافئة للتواريخ الميلادية التي رأى المؤلف الاقتصار عليها، وإهمال ذكر التواريخ الهجرية المكافئة لها. ولما كانت التواريخ الهجرية ذات أهمية كبيرة للقارئ العربي، -على النقيض من القارئ الغربي- لم يكن ثم بدٌّ من إلحاقها بالتواريخ الميلادية متى وردت في المتن مباشرةً. ولم أهمل ذلك إلا في سياق التاريخ الأوروبي وحده، فانعدمت الحاجة إلى ذكر التاريخ الهجري المكافئ للتَّاريخ الميلادي تقريبًا ثمَّة. ومع ذلك فقد اضطرني أسلوب المؤلف إلى بعض المرونة في خضم هذه العملية، فعلى سبيل المثال حرصت على تأخير المقابل الهجري في بعض المواضع، وقدَّمت التاريخ الميلادي عليه إذا ذكر المؤلف عقدًا أو أكثر من القرن الميلادي إجمالًا، عندئذ اضطررت لتأخير المقابل الهجري كي لا يختلط الأمر على القارئ العربي فيظن أن ذلك العقد أو العقدين من القرن الهجري دون الميلادي.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف أوتي لسانًا فصيحًا بلغته، وفعل -بمقتضاه- كل ما بوسعه ليُبقي القارئ يقظًا، ويذب عنه الملل في أثناء قراءة كتاب تجاوز الخمسمئة صفحة، ومن ثم لجأ إلى لغة أدبية ساحرة، استعار فيها من الكتاب المقدس تارةً، كما لجأ إلى التهكم الساخر تارة أخرى، بل وإلى أسلوب التشويق أحيانًا. ومن جانبي بذلت جهدًا كبيرًا في مباراة المؤلف، سعيًا للحفاظ على سمات أسلوبه السردي المميز، ظاهرًا بارزًا في هذه الترجمة العربية. وآمل أن أكون قد وُفِّقت الحفاظ على أسلوب المؤلف، وروح الكتاب. كما صنَعت كشافات ملائمة لطبيعة الكتاب، من باب التيسير على جمهور القراء في العثور على بغيتهم فيه، ومن أقصر سبيل، وبأيسر جهد.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب -في طبعتيه الأولى (٢٠١٥) والثانية (٢٠١٦)- افتقر إلى جريدة للمصادر والمراجع؛ حيث لم ير المؤلف فائدة عملية لها؛ حيث إن كل فصل من فصول الكتاب يعالج مرحلة تاريخية مختلفة، ومن ثم فلكل فصل من فصول الكتاب مصادره القائمة بذاتها. والكتاب -من هذه الزاوية فحسب- يُشبه الكتب المجمعة المحررة حيث يحرص كل باحث على إدراج قائمة

مصادره في نهاية بحثه، كل على حدة. ومع ذلك يسع القارئ أن يتخيل جريدة للمصادر والمراجع تجمع بين هيرودوت، وإسخيلوس، ورواية تاجر البندقية لشكسبير، ورحلتي ابن بطوطة، وماركوبولو، ومذكرات هنري كيسنجر، ووثائق وكالة الاستخبارات الأمريكية بوصفها مصادر أساسية. لقد جمع مؤلف هذا الكتاب شتات مادة لا تكاد تجدها مجتمعة -على هذا النحو- في كتاب آخر. وهذه إحدى سمات التاريخ العالمي بالفعل.

* * *

لا يسعني -في الأخير- إلا تقديم الشكر لهؤلاء الذين أسهموا في رؤية هذا الكتاب للنور، أو بالأحرى اشتمال المكتبة العربية عليه. ويتعين عليَّ أن أبدأ أولًا بصديقي العزيز، الناشط والباحث، والأكاديمي المثقف، الدكتور عبد الله بن رفود السفياني. والدكتور عبد الله مولع -مثلي- بتاريخ طريق الحرير، ومساراته، وتاريخه، ويتتبع المؤلفات فيه، بل إنه زار موقع معركة نهر طلاس الفاصلة بين جيش المسلمين وجيش الصين، وهي المعركة التي حسمت أمر سيطرة المسلمين على آسيا الوسطى. ولما كنت أشاطره الولع بطرق الحرير، فقد أثمر ذلك الولع المشترك عن ترجمة كتاب **قصة الورق: تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة**، وهو الكتاب الذي احتفت الأوساط الثقافية في عالم العربي بصدوره قبل عامين.

وتجدر الإشارة إلى أنني رأيت من الدكتور عبد الله السفياني نُبلًا، ووفاءً، وكرمًا وأخلاقًا عز نظيرها في زماننا هذا؛ حيث استغرقت مفاوضاته مع المؤلف عامًا تقريبًا، وكنت شاهدًا على فصولها الأخيرة التي اتسمت بالتوتر، نتيجة وجود تعقيدات قانونية ومالية نجمت عن وجود طرف ثالث كان قد اتفق مع المؤلف شفهيًا على الحصول على حقوق الترجمة العربية. ومع أنه كان يسع أدب التفاوض مع المؤلف مباشرة، إلا أن الدكتور السفياني أصرَّ على اعتبار الطرف الثالث طرفًا أصيلًا في الاتفاق. وعلى هذا النحو استغرق الحصول على موافقة الطرفين معًا وقتًا طويلًا، وبعد مفاوضات شاقة معهما حصلت «أدب» على حقوق الكتاب في الأخير.

كذلك يطيب لي توجيه الشكر للشباب في دار أدب؛ فقد كانوا دائمًا عند حسن الظن بهم منذ أن حصلت دار أدب على حقوق الكتاب، واعتُمِد الكتاب في مشروعاتها لهذا العام؛ فقد أظهروا العناية في المتابعة، والكفاية في المراجعة اللغوية، والتنضيد، والإخراج الفني. كما أخص الأستاذ أحمد نسيرة -الذي أشرف على التنضيد والإخراج الفني لهذا الكتاب، وبذل في ذلك جهده -ليخرج الكتاب على هذه الصورة- بشكر خاص.

والشكر الجزيل للمؤلف بيتر فرانكوبان، فقد كان دومًا حاضرًا، ليشرح لي معاني بعض الكلمات الإنجليزية العتيقة التي تضمنها أحد فصول الكتاب، وكذلك لتوضيح مقاصده في مقاطع بعينها في

الكتاب، بعثت إليه بشأنها مستوضحًا. وكان يستقبل الاستفسارات، أو النقدات، والتعليقات على مادة هـذا الكتـاب بصـدر رحب، ويُخلِص فـي الجواب إلى حد الاسـتطراد والإطالة أحيانًا. فله كل الشـكر والتقدير.

أخيرًا؛ لا أدري إن كان يتوجب عليَّ توجيه الشكر لأسـرتي الصغيرة أم الاعتذار منهم؛ فقد قدَّروا انشـغالي هـذا الصيـف، وحبسـوا أنفسـهم -اختياريًّا- معي فـي البيت، واضطـروا إلى إلغـاء أكثر بنود البرنامج الحافل الذي وضعوه مُسبقًا لعطلة صيف مثيرة في القاهرة، وقنَعوا مني بالوعد بتعويضهم في قابل الأيام. والله أسأل أن يكون ذلك الكتاب إضافةً للمكتبة العربية في بابه.

والحمد لله في الأولى والآخرة

د. أحمد العدوي

القاهـرة: وقـد مالت شـمس يـوم الجمعة - الموافـق ٢٨ مـن المحـرم مـن عـام ١٤٤٤ للهجرة؛ الرابع والعشرين من شهر أغسطس (آب) من عام ٢٠٢٢ للميلاد- للمغيب.

مقدمة المؤلف

كان لـدي -وأنـا إذ ذاك طفـلٌ- خريطة كبيـرة للعالم، وكانت أثمن مقتنياتـي. وكانت تلك الخريطة معلقة على الجدار بجوار سـريري، وكنت أحدق فيها كل ليلة قبل أن أخلد إلى النوم. ومن ثم حفظت أسـماء جميـع البلـدان ومواقعهـا -قبل مدة طويلـة- بما في ذلك أسـماء عواصمها، إضافةً إلى أسـماء المحيطات، والبحار، والأنهار التي تدفقت عبرها؛ وكذلك أسماء سلاسل الجبال والصحاري الرئيسة، المفعمة بروح المغامرة والخطر، والتي كُتِبت بخط مائل عجول.

ولمـا أصبحـت صبيًّا، كنت أشـعر بالتشـوش حيال التركيـز الجغرافي الضيق المُلح لدروسـي التي تلقيتها في المدرسة؛ حيث ركزَت على غربي أوروبا والولايات المتحدة فحسب، ونبذت معظم أرجاء العالـم ظهريًا. لقد درسـنا تاريخ الرومان في بريطانيا، والغـزو النورماندي عام ١٠٦٦م، وهنري الثامن (Henry VIII) وآل تيـودور (Tudors)، وحـرب الاسـتقلال الأمريكيـة، والثورة الصناعيـة الڤيكتورية، ومعركة السـوم (battle of the Somme)، وقيام ألمانيا النازية وسـقوطها. فلما كنت أنظر إلى خريطتي كنت أرى مناطق شاسعة من العالم جرى تجاوزها في صمت.

ثـم اتفـق أن أهدانـي أبواي -في ذكـرى مولدي الرابعة عشـرة- كتابًـا للأنثروبولوجي إريك وولف (Eric Wolf)، وهو الكتاب الذي أشـعل جذوة الحماسـة في نفسـي حقًّا. كتَب وولف قائلًا: إن تاريخ الحضـارة المقبـول والخمول هو التاريخ الذي يقضي بأن روما انبثقت عن اليونان القديمة، وأن أوروبا النصرانيـة انبثقـت عن رومـا، وأن عصر النهضة انبثق عن أوروبا النصرانيـة، وأن عصر التنوير انبثق عن عصـر النهضة، فأثمر ديمقراطية التنوير السياسـية، التي أثمرت بدورهـا الثورة الصناعية. ولما تقاطعت الصناعة مع الديمقراطية وُلِدت الولايات المتحدة، وعلى هذا النحو تجسد الحق في الحياة، والحرية، والسـعي خلـف السـعادة[1]. ثـم ما لبثتُ أن أدركـت أن شـعار الانتصـار السياسـي والثقافي والأخلاقي للغـرب هـو المغـزى من هذه الرواية التي أُخبِرتُها، على وجه الدقة. بيد أن هـذه الرواية مَعيبةٌ ابتداءً؛ إذ إن هناك طرق بديلة للنظر إلى التاريخ، تخلو من النظر إلى الماضي بأعيُن الظافرين في التاريخ الحديث.

كنت مشغوفًا لم أزل، وقد تبين لي فجأة أن المناطق التي لا نعلم عنها شيئًا قد سقطت مختنقة تحت وطـأة الإصـرار على رواية ظهور أوروبا. وهكذا توسَّـلت إلى أبواي ليأخذانـي لرؤية خريطة «هيرفورد مونـدي» (Hereford Mappa Mundi)، التـي جعلـت مـن القـدس مركزًا وبـؤرة لها، ونـحَّـت إنجلترا إضافـةً إلـى دول غربية أخرى جانبًا، كسَـقْطِ المتاع. ثم ما لبثت أن قـرأت عن الجغرافيين العرب الذين

(1) E. Wolf, *Europe and the People without History* (Berkeley, 1982), p. 5.

ألحقوا مخططات بمصنفاتهم، بدت لي مقلوبة؛ حيث وُضِع بحر قزوين في مركزها. كما أصابتني الدهشة أيضًا عندما اكتشفت خريطةً تركية مهمة من القرون الوسطى في إستانبول، وكان في القلب منها مدينة تُدعى «بلاساغون»! لم أكن قد سمعت قط باسم هذه المدينة من قبل، فضلًا عن أنها لم تظهر على أية خريطة أخرى قط، بل إن موقعها ذاته لم يكن مؤكدًا حتى وقت قريب، ومع ذلك فقد كانت تُعد -يومًا ما- مركزًا للعالم![1].

كنت أود لو اطلعت على المزيد من أحوال روسيا، وآسيا الوسطى، وبلاد فارس، وبلاد الرافدين. كما أردت أن أقف على أصول الديانة النصرانية عند النظر إليها من آسيا. وأردت أيضًا الوقوف على الكيفية التي نظر بها الصليبيون لأولئك الذين عاشوا في المدن الكبرى، مثل: القسطنطينية، والقدس، وبغداد، والقاهرة في القرون الوسطى. وأردت كذلك التعرف على الإمبراطوريات الكبرى في الشرق، مثل المغول وفتوحاتهم على سبيل المثال. فضلًا عن ذلك أردت أن أفهم كيف بدت الحربان العالميتان عند النظر إليهما من أفغانستان والهند، لا من فلاندرز (Flanders) أو من الجبهة الشرقية.

وكان من حسن حظي أن درست اللغة الروسية في المدرسة؛ حيث درَّسنيها ديك هادون (Dick Haddon)، وهو رجل مرموق، كان قد خدم في الاستخبارات البحرية. وكان هادون يؤمن أن طريقة فهم اللغة الروسية والدوشا (*dusha*)، أو الروح (Soul)[٢] ، لا يتأتَّى إلا من خلال استيعاب أدبها الرائع، وموسيقاها الريفية. وكنت أسعد حظًّا لمَّا عرض علينا أن يدرِّسَنا اللغةَ العربية، وهكذا جعل الرجلُ ستةً منا يُلمُّون بالثقافة والتاريخ الإسلاميين، كما غمَرنا في لُجَّة جمال العربية الفُصحى. وهكذا فتحت هذه اللغات أمامنا عالمًا بِكرًا كان ينتظر من يستكشفه، أو بالأحرى أن يعيد بنو جلدتنا في الغرب اكتشافه، كما ما لبثت أن أدركت ذلك.

* * *

يولي المعاصرون -في يومنا الراهن- قدرًا كبيرًا من الاهتمام لتقييم التأثير المحتمل للنمو الاقتصادي السريع في الصين، حيث يُتوقَّع أن يتضاعف طلب الصينيين على السلع الكمالية أربع مرات خلال العَقد المقبل. كما يولون القدر نفسه من الاهتمام لتقييم التغيير الاجتماعي الحاصل في الهند،

---

(1) A. Herrman, 'Die älteste türkische Weltkarte (1076 n. Chr)', *Imago Mundi* 1.1 (1935), 21–8;
محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك، تحقيق ر. دانكوف R. Dankhoff وج. كيلي J. Kelly، ثلاث مجلدات، (Cambridge, MA, 1982–5), 1, pp. 82–3.. وعن موقع هذه المدينة انظر:
V. Goryacheva, *Srednevekoviye gorodskie tsentry i arkhitekturnye ansambli Kirgizii* (Frunze, 1983), esp. pp. 54–61.

(٢) الروح (Soul) فيلم موسيقي سوفيتي، كتبه ألكسندر بورودیانسكي (Alexander Borodyansky) وأخرجه ألكسندر ستيفانوفيتش (Alexander Stefanovich)، ويشتمل الفيلم على أغانٍ وموسيقى بأداء صوفيا روتارو (Sofia Rotaru) وميخائيل بويارسكي (Mikhail Boyarsky) على أنغام فرقة الروك الروسية. وينطوي الفيلم على حوار جوهري حول النقد الذاتي، والنهج الوجودي، والإبداع الفني، وكرامة الإنسان. (المترجم)

حيث ينمو عدد الأشخاص الذين يسعهم اقتناء الهواتف النقالة، متفوقًا على عدد أولئك الذين يتمتعون بمرافق الصرف الصحي[١]. ومع ذلك لا يقدم كلا الفريقين أفضل منظور لمعاينة ماضي العالم وحاضره. فالحق أن المنطقة الواقعة بين الشرق والغرب التي ربطت أوروبا بالمحيط الهادئ، كانت المحور الذي دارت حوله الكرة الأرضية منذ آلاف السنين.

تمتد نقطة منتصف الطريق بين الشرق والغرب -على نطاق واسع- من السواحل الشرقية للبحر المتوسط، والبحر الأسود، حتى جبال الهيمالايا، وقد تبدو هذه البقعة موقعًا مُوفقًا يمكن من خلاله تقييم العالم. وهذه البقعة الآن هي موطن للدول التي تُثير [في نفوس الغربيين] كل ما هو غريب وهامشي، مثل: كازاخستان، وأوزبكستان، وقيرغيزستان، وتركمانستان، وطاجيكستان، إضافةً إلى دول القوقاز. إنها منطقة تضم أنظمة قلقة، وعنيفة، وتشكل تهديدًا للأمن الدولي، مثل: أفغانستان، وإيران، والعراق، وسوريا. كما أنها تضم في الوقت نفسه دولًا خبرت أفضل الممارسات الديمقراطية، مثل: روسيا وأذربيجان. ويبدو أن هذه المنطقة -بصفة عامة- موطنٌ لسلسلة من الدول المتخلفة أو الفاشلة، يقودها زعماء ديكتاتوريين فازوا بأغلبية كبيرة -يستحيل تحقيقها- في الانتخابات الوطنية، وتتحكم أسرهم وأصدقاؤهم في المصالح التجارية المترامية الأطراف، ويمتلكون أصولًا ضخمةً، ويمارسون السياسة السلطوية. وهي بلدان ذات سجلات سيئة في مجال حقوق الإنسان، حيث حرية التعبير عن مسائل مثل: العقيدة، والوجدان، والجنس محدودة، وحيث تُسيطر السُلطة على وسائل الإعلام، فتُملي على الصحافة ما يُنشَر، وما لا ينبغي أن يُنشَر[٢].

وعلى الرغم من أن مثل هذه البلدان قد تبدو بدائية بالنسبة إلينا، فإنها ليست مناطق منعزلة، كما أنها ليست أراضٍ قاحلة غامضة؛ فالحق أن الجسر الرابط بين الشرق والغرب إنما هو تقاطع طرق الحضارة. وبعيدًا عن كونها على هامش الشؤون العالمية، فإن هذه البلدان تقع في القلب من تلك الشؤون، كما كانت كذلك منذ فجر التاريخ. فهناك وُلِدت الحضارة، حيث يعتقد كثير من الناس أن البشر قد خُلِقوا في «جنة عدن» التي «غرَسَها الرَّبُّ الإله» وفيها «كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وجَيِّدَةٍ للأكْلِ»، ويُعتقد كثيرٌ من الناس أن تلك الجنة إنما كانت تقع في الحقول الغنية المحصورة بين نهري دجلة والفرات[٣].

---

(١) لإلمامةٍ عن الطلب الصيني المتزايد على السلع الكمالية، انظر، على سبيل المثال:

Credit Lyonnais Securities Asia. *Dipped in Gold: Luxury Lifestyles in China* (2011);

أما بشأن الهند، فانظر:

Ministry of Home Affairs. *Houselisting and Housing Census Data* (New Delhi, 2012).

(٢) انظر، على سبيل المثال:

Transparency International. *Corruption Perception Index 2013* www.transparency.org); Reporters without Borders, *World Press Freedom Index 2013-2014* (www.rsf.org); Human Rights Watch, *World Report 2014* (www.hrw.org).

(٣) سفر التكوين ٢: ٨-٩. وعن التصورات حول موقع جنة عدن، انظر:

J. Dulumeau, *History of Paradise: The Garden of Eden in Myth and Tradition* (New York, 1995).

أُنشِئت -في هذا الجسر الرابط بين الشرق والغرب- مدنٌ كبرى منذ ما يقرب من خمسة آلاف عام، حيث كانت مدن هارابا (Harappa) وموهينجو-دارو (Mohenjo-daro) -الواقعتان في وادي نهر السّند- من عجائب العالم القديم، وكان عدد سكانهما يناهز عشرات الآلاف. واتصلت الشوارع فيها بنظام متطور للصرف الصحي، لم تتمكن أوروبا من منافسته لآلاف السنين(١). واشتهرت المراكز الحضارية العظيمة الأخرى مثل: بابل، ونينَوى، وأوروك، وأكاد في بلاد الرافدين بعظمتها وابتكارها في مجال العمارة. وفي تلك الأثناء أشار أحد الجغرافيين الصّينيين -قبل أكثر من ألفي عام- إلى أن سكان باكتريا، المقيمون حول نهر جيحون (Oxus) -أي شمالي أفغانستان الآن- مُفاوضون وتجار أسطوريون. وكانت عاصمتها -أعني باكتريا- موطنًا لسوق ابتيعت منه مجموعة كبيرة من المنتجات، كما حُمِلت إليه كذلك من كل حدبٍ وصوب(٢).

تلكم البقاع هي المكان الذي انتشرت فيه الأديان الكبرى في العالم، حيث نافست اليهودية، والنصرانية، والإسلام، والبوذية، والهندوسية بعضها بعضًا. كما كانت بمثابة المرجل؛ حيث تنافست المجموعات اللغوية ثمة، فغدا المتحدثون باللغات الهندو-أوروبية، والسامية، والصّينية، والتبتية، والألتية (Altaic)، والتركية، والقوقازية، وراحوا. لقد كانت تلك البقاع هي المكان الذي نشأت فيه الإمبراطوريات العظمى وسقطت، وحيث سرى الشعور بآثار الصدامات بين الثقافات والمتنافسين على بعد آلاف الأميال من أماكن وقوعها. ويفتح التوقف هنا طرقًا جديدة لعرض الماضي، فيُظهِر عالمًا كان مترابطًا أشد الترابط، حيث كان لحدث يقع في قارة ما تأثيرٌ على قارة أخرى، حيث يمكن الشعور بآثار الصدمات التي وقعت في سهوب آسيا الوسطى في شمال إفريقيا، وحيث ترددت أصداء الحوادث التي وقعت في بغداد في إسكندنافيا، وحيث أدت الكشوف الجغرافية في الأمريكتَيْن إلى تغيير أسعار السلع في الصين، كما أدت إلى زيادة الطلب على الخيول في أسواق شمال الهند.

تردد صدى هذه الارتجاجات على طول شبكةٍ انتشرت في كل حدبٍ وصوبٍ، فكانت الطرق التي سافر من خلالها الحجاج، والمقاتلة، والبدو، والتجار، وابتيعت البضائع والمنتجات وبيعت كذلك، وحيث جرى تبادل الأفكار وتكييفها وصقلها. ولم تحمل تلك الشبكة الازدهار فحسب، بل حملت الموت، والعنف، والمرض، والجوائح أيضًا. وسمَّى عالم جيولوجي ألماني بارز -في أواخر القرن التاسع عشر- هو فرديناند ڤون ريشتهوڤن (Ferdinand von Richthofen) (وهو «عَم» الحرب العالمية الأولى، وهو أيضًا الطيار البطل الملقب بـ «البارون الأحمر Red Baron») شبكة الاتصالات المترامية الأطراف هذه «طرق الحرير Seidenstraßen» وهو الاسم الذي ظل علمًا عليها منذ ذلك الحين(٣).

---

(١) عن موهينجو-دارو (Mohenjo-daro) وغيرها، انظر:

J. Kenoyer, *Ancient Cities of the Indus Valley* (Oxford, 1998).

(2) *Records of the Grand Historian by Sima Qian, Han Dynasty*, tr. B. Watson, 2 vols (rev. edn, New York, 1971), 123, 2, pp. 234–5.

(3) F. von Richthofen, 'ber die zentralasiatischen Seidenstrassen bis zum 2. Jahrhundert. n. Chr.', *Verhandlungen der Gesellschaft fur Erdkunde zu Berlin* 4 (1877), 96–122.

عملت هذه المسارات بوصفها جهازًا عصبيًا مركزيًا في العالم، ومن ثم ربط هذا الجهاز الأشخاص والأماكن معًا، إلا أنه اختبأ تحت الجلد، فلم يُرَ بالعين المجردة. ومتى فهمنا هذه الروابط، أدركنا كيفية عمل العالم، تمامًا كما يشرح علم التشريح الكيفية التي يعمل بها الجسم. وعلى الرغم من أهمية هذا الجزء من العالم، فإن التيار السائد في التأريخ قد تناساه. ويرجع ذلك جزئيًا إلى ما يسمى بـ «الاستشراق *Orientalism*» - الذي حمل رؤيةً مغرقة في السلبية للشرق، فصوره على أنه متخلف وأدنى من الغرب، ومن ثم لا يستحق الدراسة الجادة[1]. ومع ذلك ينبع ذلك التناسي أيضًا من حقيقة أن رواية الماضي قد أضحت مهيمنةً وراسخةً، حتى إنها لم تدع مكانًا لمنطقة كان يُنظر إليها -ولم يزل يُنظر إليها كذلك- على أنها هامشية في قصة ظهور أوروبا والمجتمع الغربي.

اليوم، أضحت جلال آباد وهرات في أفغانستان، والفلوجة والموصل في العراق، وحمص وحلب في سوريا مرادفًا للأصولية الدينية، والعنف الطائفي. شدَّما جرفت أمواج الحاضر الماضي بعيدًا! لقد ولَّت تلك الأيام التي كان اسم كابول يستحضر صورًا للحدائق التي زرعها بابُر الأكبر -مؤسس إمبراطورية المغول في الهند- ورعاها. لقد اشتملت باغي-وفا (Bagh-i-Wafa) (أي حديقة الإخلاص) على مسبحٍ أُحيط بأشجار البرتقال والرمان والمروج التي طالما افتخر بها بابُر الفخر كله، فنُقِل عنه قوله: «إن هذه البقعة هي أفضل ما في الحديقة، وهي أجمل ما تكون عندما تنضج ثمار البرتقال. لله ما أروع موقع هذه الحديقة!»[٢].

وعلى المنوال نفسه، تحجب الانطباعات الحديثة عن إيران أمجاد تاريخها السحيق عندما كانت سلفُها - أعني بلاد فارِس- مثالًا يُضرب على الذوق الرفيع في كل شيء، من الفاكهة التي تُقدَّم على العشاء، إلى المنمنمات المذهلة التي رسمها فنانون أسطوريون، إلى الورقة التي خط عليها العلماء خطوطهم. ويُعد المصنف الرائع الذي وضعه سيمي النيسابوري -وكان خازنًا لمكتبة مشهد الواقعة شرقي إيران نحو عام ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م- وسجَّل فيه -بتفصيل دقيق- نصيحة عاشقٍ للكتب أسداها لمَن شاركه الشغف بها. فقد نصح مخلصًا مَن يفكر في الكتابة، بأن يعلم أن أفضل ورقة صُنعت للخِطاطة إما صُنعت في دمشق، أو في بغداد، أو في سمرقند. وليعلم أيضًا أن الورق المصنوع في غير هذه الأماكن «خشن بصفة عامة، ومبقَّع، وسريع التحلل». ثم استطرد محذرًا: اعلم أنه يحسُن أن يُصبغ

---

(1) E. Said, *Orientalism* (New York, 1978).

الحظ أيضًا ردود أفعال المفكرين الفرنسيين المفعمة بالإيجابية والرومانسية العالية عند أمثال: فوكو (Foucault)، وسارتر (Sartre)، وجودار (Godard) إلى الشرق، ولا سيما الصين، انظر في هذا الصدد:

R. Wolin, *French Intellectuals, the Cultural Revolution and the Legacy of the 1960s: The Wind from the East* (Princeton, 2010).

(٢) بابُرنامه. الترجمة الإنجليزية:

Bābur-Nāma, tr. W. Thackston, Memoirs of Babur, *Prince and Emperor* (London, 2006), pp. 173–4.

الورق بصبغة خفيفة قبل أن يُخطّ عليه بالمداد؛ ذاك «أن اللون الأبيض تمجُّه العيون، وأن أروع نماذج الخط المعروفة كُتبت كلها على ورق مصبوغ»[1].

سادت الأماكن -التي نسينا أسماءها جميعًا الآن- الدنيا يومًا ما، مثل: مرو، التي وصفها أحد الجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بأنها: «قصبةٌ نَفيسةٌ، طيبةٌ، ظريفةٌ، بهيةٌ، رحبةٌ، خفيفةٌ» و«أم القُرى»؛ وكذلك الرَّي - على مقربة من طهران الحديثة- التي كانت بالنسبة لكاتبٍ معاصرٍ آخر من أجلّ المدن بحيث يمكن عدها «عروس الدُّنيا»، و«أحسنُ الأرضِ مخلوقةٌ»[2]. لقد تناثرت هذه المدن كاللؤلؤ المنظوم عبر العمود الفقري لآسيا، وربطت المحيط الهادئ بالبحر المتوسط.

وحفزت المراكز الحضرية بعضها بعضًا، وذلك من خلال التنافس بين الحكام والنخب، الأمر الذي أدى إلى المزيد من العمارة الطموحة والنُّصب الأثرية. وانتشرت المكتبات، ودور العبادة، والكنائس، والمراصد على نطاق هائل، وانتشر تأثيرها الثقافي في المنطقة؛ فاتصلت القسطنطينية بدمشق، وأصفهان، وسمرقند، وكابول، وكاشغر. وأصبحت مثل هذه المدن موطنًا لعلماء كبار اجتهدوا في توسيع آفاق العلوم التي درسوها. وتبدو أسماء حفنة منهم مألوفة لنا اليوم فحسب، مثل: ابن سينا، المعروف لدينا باسم (Avicenna)، والبيروني، والخوارزمي، الذين كانوا أساطين في علوم الفلك والطب، ومع ذلك فقد وُجِد هناك كثيرون غيرهم. ولم تكن المراكز الفكرية المتميزة في العالم، مثل تلك التي: في أكسفورد (Oxford) وكامبريدج (Cambridge)، وهارفارد (Harvard)، وييل (Yale)، موجودة في أوروبا أو الغرب آنذاك، بل وُجدت في بغداد، وبلخ، وبُخارى، وسمرقند لقرونٍ قبل مستهل العصر الحديث.

وكان هناك سبب وجيه لتطور الثقافات، والمدن، والشعوب التي عاشت على طول طرق الحرير وتقدمها: فبينا كانت تلك الشعوب تتاجر، تبادلت الأفكار، وتعلمت، وأَخَذ بعضها عن بعضها الآخر، الأمر الذي أدى إلى مزيد من التقدم في الفلسفة، والعلوم، واللغة، والدين. وكان التقدم ضروريًا، كما

---

(1) W. Thackston, 'Treatise on Calligraphic Arts: A Disquisition on Paper, Colors, Inks and Pens by Simi of Nishapur', in M. Mazzaoui and V. Moreen (eds), *Intellectual Studies on Islam: Essays Written in Honor of Martin B. Dickinson* (Salt Lake City, 1990), p. 219.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الترجمة الإنجليزية:

Al-Muqaddasī, *Ahsanu-t-taqāsīm fī ma'rifati-l-aqālīm*, tr. B. Collins, Best Division of Knowledge (Reading, 2001), p. 252;

ابن الفقيه الهمذاني، كتاب البلدان. الترجمة الإنجليزية:

Ibn al-Faqīh, *Kitāb al-buldān*, tr. P. Lunde and C. Stone, 'Book of Countries', in *Ibn Fadlan and the Land of Darkness: Arab Travellers in the Far North* (London, 2011), p. 113.

أحاط أحد حكام مملكة تشاو (Zhao) الواقعة في أحد أطراف آسيا شمالي شرق الصين قبل أكثر من ٢٠٠٠ عام علمًا. فقد قال الملك وو-لينج Wu-ling في عام ٣٠٧ق.م: «إن مَلَكة اقتفاء آثار السَّلفِ لا تكفي لتحسين العالم في الحاضر»[١]. لقد كان القادة في الماضي يدركون أهمية مواكبة العصر.

غير أن عباءة التقدم سرعان ما غيَّرت الكتف الذي انسدلت عليه في أوائل العصر الحديث، وذلك نتيجة لبعثتين بحريتين عظيمتين أبحرتا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ووضعتا الأُسس لإحداث اضطراب كبير في إيقاع أنظمة التبادل التجاري الراسخة في غضون ست سنوات فحسب، في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي. فأولًا، عبر كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) المحيط الأطلسي، الأمر الذي مهد الطريق أمام كتلتين كبيرتين من اليابسة -لم تطأهما قدم أحد حتى ذلك التاريخ- للاتصال بأوروبا وما وراءها. ثم لم تكد تمضِ سُنيَّاتٍ، حتى نجح ڤاسكو دا جاما (Vasco da Gama) في الإبحار عبر الطرف الجنوبي من إفريقيا إلى الهند، ففتح برحلته هذه طرقًا بحرية جديدة. وعلى هذا النحو غيَّرت الكشوف الجغرافية أنماط التفاعل والتجارة، وأحدثت تغييرًا ملحوظًا في مركز الثقل السياسي والاقتصادي في العالم؛ فقد تحولت أوروبا الغربية -بغتةً- من موقعها بوصفها إقليمًا منعزلًا إلى نقطة ارتكاز لاتصالات مترامية الأطراف، ونظام نقل وتجارة. وعلى هذا النحو أضحت أوروبا المركز الجديد بين الشرق والغرب بضربة واحدة.

وأشعل ظهور أوروبا معركة شرسة على القوة، وكذلك على التحكم في الماضي. فلما انبرى الخصوم يجادل بعضهم بعضًا، أُعيد تشكيل التاريخ للتأكيد على الحوادث، والموضوعات، والأفكار التي قد تُستخدم في الصراعات الأيديولوجية التي اندلعت على هامش الصراع على الموارد والسيطرة على الممرات البحرية. وهكذا صُنعت التماثيل النصفية لكبار السياسيين والقادة وهم يرتدون التوجا (Togas) لجعلهم يبدون وكأنهم أبطال رومانيون من الماضي؛ كما شُيِّدت المباني الجديدة الرائعة بأسلوب كلاسيكي إلى حدٍّ كبير استولى على أمجاد العالم القديم، فبدا وكأنه تراث أجدادهم المباشرين. لقد حُرِّف التاريخ واستُغِل لخلق رواية أصرت على أن ظهور الغرب لم يكن أمرًا طبيعيًّا وحتميًّا فحسب، بل كان استمرارًا لما حدث في الماضي من قبل.

* * *

حملني عددٌ كبيرٌ من القصص على النظر إلى ماضي العالم بطريقة مختلفة. لكن إحدى تلك القصص بزَّت غيرها خاصةً. تقول الأساطير اليونانية: إن زيوس -كبير الآلهة- أطلق عقابين، وأمر كل منهما بالطيران عكس اتجاه الآخر إلى نهاية الأرض. ثم وضع حجرًا مقدسًا (Omphalos) حيث التقيا،

---

(١) نقلاً عن:

N. di Cosmo, *Ancient China and its Enemies: The Rise of Nomadic Power in East Asian History* (Cambridge, 2002), p. 137.

وهـو مـا عُرف بـ «سُـرة العالم»، لتمكين البشـر من التواصل مـع الإله. ثم علِمت بأخَـرةٍ أن مفهوم هذا الحجر كان -منذ فترة طويلة- مصدرًا لافتتان الفلاسفة وعلماء النفس[1].

وأذكُر أنني كنت أحدق في خريطتي عندما سـمعت هذه القصة للمرة الأولى، فتسـاءلت: تُرى، أين يمكـن أن يكـون هـذان العقابان قد التقيـا؟ لقد تخيلتهما يقلعان من شـواطئ غرب المحيط الأطلسـي وسـاحل المحيـط الهـادئ للصين ويتجهان إلـى الداخل. وتغيـر الوضع الدقيق لكليهمـا، اعتمادًا على المكان الذي وضعت فيه أصابعي وشرعت منه في قياس مسافات متساوية بين الشرق والغرب. بيد أن المطـاف كان ينتهـي بي دائمًا في بقعة ما بين البحر الأسـود وجبال الهيمالايا. وفي الليل كنت أسـتلقي مُسـتيقظًا، أفكر في الخريطة المعلقة على جدار غرفة نومي، وعقابي زيوس، وتاريخ تلك المنطقة التي لا اسم لها، والتي لـم تُذكر قط في الكتب التي طالعتها.

قسَّـم الأوروبيون -بأخَرةٍ- آسيا إلى ثلاث مناطق واسعة: الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى. وكلما سمعت أو قرأت عن مشكلات عالـم اليوم -بينما كنت أشب عن الطوق- كان يبدو لي أن ثانـي هذه المشـكلات -أعني الشـرق الأوسـط- قد تغير في معنـاه، بل في موقعـه أيضًا؛ حيث كان يُسـتخدم للإشـارة إلى إسرائيل وفلسـطين والبقاع المحيطة بهما تارةً، وإلى الخليج العربي تارةً أخرى. ولـم أسـتطع أن أفهـم سـبب الإلحاح المسـتمر علـى أُذني بشـأن أهمية البحر المتوسـط بوصفـه مهدًا للحضارة، في الوقت الذي بدا واضحًا لي أن هذا لم يكن المكان الذي تشكلت فيه الحضارة حقًّا. إن البوتقة الحقيقية «البحر المتوسط» بمعناها الحرفي -متى كانت تعني مركز العالم- لم تكن بحرًا يفصِل بين أوروبا وشمال إفريقيا، بل كانت قلب آسيا.

إن غايـة أملـي أن أتمكـن مـن تشـجيع غيري على دراسـة الشـعوب والأماكن التي طالمـا تجاهلها العلماء لأجيالٍ من خلال طرح أسـئلة جديدة، ومجالات بحث جديدة. كما آمل أيضًا أن أطرح أسـئلة جديـدة حـول الماضـي، تجرح المسـلَّمات وتُعيد التدقيق فيهـا. وفوق ذاك، آمل أن أُلهـم أولئك الذين يقرؤون هذا الكتاب النظرَ إلى التاريخ بطريقة مختلفة.

بيتر فرانكوبان

كلية ورسيستر (Worcester College)، أكسفورد

أبريل ٢٠١٥

---

(١) انظر على سبيل المثال:

S. Freud, *The Interpretation of Dreams*, ed. J. Strachey (New York, 1965), p. 564; J. Derrida, *Resistances de la psychanalyse* (Paris, 1996), pp. 8-14.

-١-

نشأة طريق الحرير

كان قلب آسيا -منذ الأزل- هو البقعة التي شهدت بناء الإمبراطوريات. فقد شكّلت الأراضي السهلية الغرينية الخصبة التي يغذيها نهرا دجلة والفرات -في بلاد الرافدين- الأساس للحضارة نفسها؛ فتشكلت المدن والبلدات الأولى في تلك البقاع. وتطورت الزراعة المنظمة في بلاد الرافدين وعبر «الهلال الخصيب»، وهو حزام من الأراضي الخصبة، روته المياه الوافرة، حتى امتد من الخليج العربي إلى ساحل البحر المتوسط. وفي هذه البقعة جرى تعميم بعض من قوانين الملك البابلي حمورابي المدونة قبل ما يقرب من ٤٠٠٠ عام؛ حيث فصّل فيها التزامات رعيّته، ووضع عقوبات قاسية على المتجاوزين منهم[١].

وعلى الرغم من أن عددًا كبيرًا من الممالك والإمبراطوريات نشأ في هذه البوتقة، فإن إمبراطورية الفُرس كانت أعظمها طُرًّا. فقد توسع الفُرس على حساب جيرانهم في القرن السادس قبل الميلاد، فخرجوا من موطنهم -الذي يعرف الآن بجنوب إيران- حتى وصلوا إلى شواطئ بحر إيجه، وغزوا مصر، كما توسعوا شرقًا حتى أشرفوا على سفوح جبال الهيمالايا. ويعود نجاحهم -في جزء كبير منه- إلى انفتاحهم على الآخر، حتى قال عنهم المؤرخ اليوناني هيرودوت (Herodotus): «إن الفُرس يُظهرون ميلًا شديدًا لتقليد عادات الشعوب الأجنبية». ثم استطرد قائلًا: كان الفُرس يبدون استعدادهم للتخلي عن ذوقهم في اللباس إذا تبيَّن لهم أن أذواق أعدائهم المهزومين أفضل من أذواقهم هم أنفسهم، وعلى هذا النحو استعاروا أذواق الميديين، وكذلك أذواق المصريين في اللباس[٢].

كذلك كان استعداد الفُرس لتبني أفكار وممارسات جديدة، عاملًا مهمًا في تمكينهم من بناء نظام إداري أتاح لهم تسيير شؤون إمبراطورية -كانت تضمُّ عددًا كبيرًا من الشعوب المختلفة- على نحو سَلِس. فقد أشرفت إدارة بيروقراطية -نال أبناؤها تعليمًا راقيًا- على إدارة فعالة للحياة اليومية للإمبراطورية، وسجّلت كل شيء، بدءًا من رواتب العمال الذين خدموا العائلة المالكة، وانتهاءً

---

(1) C. Renfrew, 'Inception of Agriculture and Rearing in the Middle East', *C.R. Palevol* 5 (2006), 395-404; G. Algaze, *Ancient Mesopotamia at the Dawn of Civilization: The Evolution of an Urban Landscape* (Chicago, 2008).

(2) Herodotus, *Historiai*, 1.135, in *Herodotus: The Histories*, ed. and tr. A. Godley, 4 vols (Cambridge, MA, 1982), 1, pp. 174-6.

بالتحقق من جودة البضائع المشتراة والمباعة في الأسواق وكمياتها. كما أشرفت تلك البيروقراطية على إدارة نظام الطرق المتقاطعة داخل الإمبراطورية وصيانتها، وهو النظام الذي كان العالم القديم يحسد الفُرس عليه[١].

ومكّنت شبكة الطرق -التي ربطت ساحل آسيا الصغرى بـ بابل (Babylon) وسوسة (Susa) وبرسيبوليس (Persepolis)- من تغطية مسافة زادت عن ١٦٠٠ ميل في غضون أسبوع، وهو إنجاز نظر إليه هيرودوت مذهولًا، حيث أشار إلى أنه لا الثلج، ولا المطر، ولا الحرارة، ولا الظلام يمكن أن تكون سببًا في إبطاء سرعة نقل الرسائل[٢]. وساعد استثمار الفُرس في الزراعة، وتطوير تقنيات الري السائدة، وتحسين غلات المحاصيل على نمو المدن، من خلال تمكين أعداد متزايدة من السكان من زراعة الحقول المحيطة بمساكنهم؛ ليس في نطاق الأراضي الزراعية الخصبة الواقعة على جانبي نهري دجلة والفرات فحسب، بل في الوديان التي غذاها نهرا جيحون (Oxus) وسيحون (Iaxartes) (المعروفان الآن باسم Amy Darya و Syr Darya) أيضًا، وكذلك في دلتا النيل بعد أن استولت جحافل الفُرس على مصر في عام ٥٢٥ق.م. لقد امتدت الدولة الفارسية امتدادًا عظيمًا، حتى إنها ربطت البحر المتوسط بقلب آسيا.

وقدمت بلاد فارس نفسها بوصفها منارةً للاستقرار والعدالة، كما يتضح من خلال نقش كتب بثلاث لغات بالغائر على واجهة منحدر يقع في بيهستون (Behistun). كُتِب ذلك النقش بالفارسية، والعيلامية والأكادية، وسجّل الكيفية التي أخمد بها دارا الأكبر (Darius the Great) -أحد أشهر ملوك الفُرس- الثورات والانتفاضات، وكيف سيَّر الجيوش إلى جميع الجهات، ولم يُظلَم عنده فقير ولا غني. ويأمر النقش بالحفاظ على أمن البلاد، ومعاملة الرعية بالحق؛ ذاك أن العدالة هي حجر الأساس التي قامت عليه المملكة[٣]. لقد كان تسامح الفُرس مع الأقليات أسطوريًا؛ حتى إن أحد الأكاسرة لُقِّب بـ«المسيح»، «المبارك من الرب إله السماء» بسبب سياساته التي اشتملت على إعتاق اليهود من السبي البابلي[٤].

وازدهرت التجارة في بلاد فارس القديمة، حيث عملت على توفير الإيرادات التي أتاحت للحكام تمويل الحملات العسكرية التي استهدفت ضم مزيد من البقاع، فجلبت هذه البقاع -بدورها- المزيد

(١) انظر بصفة عامة:

J. Curtis and St J. Simpson (eds), *The World of Achaemenid Persia: History, Art and Society in Iran and the Ancient Near East* (London, 2010).

(2) Herodotus, *Historiai*, 8.98, 4, p. 96; D. Graf, 'The Persian Royal Road System', in H. Sancisi Weerdenburg, A. Kuhrt and M. Root (eds), *Continuity and Change* (Leiden, 1994), pp. 167–89.

(3) H. Rawlinson, 'The Persian Cuneiform Inscription at Behistun, Decyphered and Translated', *Journal of the Royal Asiatic Society* 11 (1849), 1–192.

(4) H. Rawlinson, 'The Persian Cuneiform Inscription at Behistun, Decyphered and Translated', *Journal of the Royal Asiatic Society* 11 (1849), 1–192.

مـن المـوارد إلـى الإمبراطورية. كما مكنتهم تلك التجارة -كذلك- من الاستمتاع بـالأذواق الفاخرة. وأقيمت مبانٍ مذهلة في مدن ضخمة مثل بابل وبرسيبوليس وباسارغاد (Pasargadae) وسوسة، حيث بنى الملك دارا قصرًا رائعًا باستخدام أفخر أنواع خشب الأبنوس، والفضة المجلوبة من مصر، وخشب الأرز المجلـوب مـن لبنـان، والذهـب الخالـص المجلـوب مـن بـلاد باكتريـا، والـلازورد، والزنجفر المجلوبـان مـن بـلاد الصُغد، والفيـروز المجلوب من خـوارزم، والعـاج المجلوب من بـلاد الهند[1]. واشتُهر الفُرس كذلك بولعهم بالمتع، فوفقًا لـ هيرودوت، فإنهم ما كانوا يسمعون عن متعة جديدة حتى تتوق أنفسهم إلى التلذذ بها[2].

وكان دعامة ذلك الاتحاد التجاري جيش شرس، ساعد على توسيع الحدود، وكان وجوده ضروريًا أيضًا للدفاع عنها. وواجهت بلاد فارس قلاقل مستمرة جاءت من جهة الشمال، وهو عالم كان يسيطر عليه البدو الرحَّل الذين عاشـوا مع قطعانهم على أحزمة عشـبية شـبه قاحلة، تُعرف بالسهوب. وامتدت تلك السهوب من البحر الأسود عبر آسيا الوسطى حتى منغوليا. واشتهر أولئك البدو الرحل بشراستهم، حتـى قيـل عنهـم: إنهم كانوا يشـربون دمـاء أعدائهم، ويصنعون لأنفسـهم ثيابًا من فـراء رؤوس أولئك الأعـداء، بـل إنهم كانوا يأكلون لحوم آبائهم أحيانًا. واتسـم التفاعل مع البدو بالتعقيد، فعلى الرغم من أنهـم وُصِفـوا بأنهم كانوا يعيثون في البلاد فسـادًا، فإنه لم يكن من قبيـل الممكن التنبؤ بتصرفاتهم قط. ومع ذلك فقد كانوا شركاء مهمين في توريد الحيوانات، ولا سيما الخيول الفارهة. بيد أنهم كانوا سببًا للكوارث والنكبات التي حاقت بالدولة أيضًا، مثلما حدث عندما قُتل قورش الكبير -باني الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد- وهو يناضل لكسر شوكة قبائل السكيثيين (Scythians)؛ وقال أحد الكُتَّاب: إن رأسه -يعني قورش- حُملت في قربة من الجلد امتلأت بالدماء التي عساها تكون قد روت تعطشه للسُّلطة التي كانت مصدر إلهامه[3].

ومـع ذلـك، فلم تعـدُ تلك العَثرة أن تكون كبـوة الجواد؛ إذ لم تتوقف بلاد فارس عن التوسـع قط. ونظر القادة اليونانيون إلى الشرق بمزيج من الخوف والاحترام، فسعوا للتعلم من تكتيكات الفُرس في سـاحات الوغـى، وتقليدهـم فـي تقنياتهـم فـي الحـرب والقتـال. واحتفـى مؤلفـون مثـل إسـخيلوس (Aeschylus) بانتصـارات اليونانييـن على الفُرس، وكذلك بالبراعة العسـكرية، وبنعمة الآلهة، وبإحياء ذكرى المقاومة الباسلة لمحاولات الفُرس غزو بلاد اليونان في المسرحيات وأدب الملاحم[4].

---

(1) R. Kent, *Old Persian Grammar, Texts, Lexicon* (New Haven, 1953), pp. 142–4.

(2) Herodotus, *Historiai*, 1.135, 1, pp. 174–6.

(3) Ibid., 1.214, 1, p. 268.

(4) Aeschylus, *The Persians*.

الحَظْ أيضًا مزيدًا من المواقف المتضاربة في:

P. Briant, 'History and Ideology: The Greeks and "Persian Decadence"', in T. Harrison (ed.), *Greeks and Barbarians* (New York, 2002), pp. 193–210.

وقال ديونيسوس (Dionysus) في افتتاحية مسرحيته المسماة الباخوسيَّات (*Bacchae*): «لقد جئت إلى اليونان من الشرق ذي الثراء الفاحش»، حيث تغمر أشعة الشمس سهول بلاد فارس، وحيث تحمي الأسوار البلدات في باكتريا، وحيث تطل الأبراج المشيدة الرائعة على السَّواحل. لقد كانت آسيا والشرق هي الأراضي التي جعل منها ديونيسوس «مسرحًا» للأسرار الإلهية، وذلك قبل فترة طويلة من استبدالها ببلاد اليونان[1].

* * *

لم يكن ثَم طالبٌ أكثر حرصًا على تحصيل مثل هذه الأعمال من الإسكندر المقدوني. وكذلك لم يكن هناك أدنى شك في الاتجاه الذي سيسلُكه القائد الشاب في أثناء بحثه عن المجد، بعد أن تولى العرش عام ٣٣٦ق.م في أعقاب اغتيال أبيه الملك المجيد فيليب (Philip). فلم يولِّ الإسكندر وجهه شطر أوروبا -التي لم تخطر على باله ولو للحظة واحدة- إذ ليس ثَم مدن، كما ليس ثم ثقافة، ولا مكانة، ولا مكافأة. فعند الإسكندر -كما هي الحال عند اليونانيين القدماء قاطبةً- جاءت الثقافة، والأفكار، والفرص، بل والتهديدات أيضًا، من الشرق دومًا؛ لذا لم يكن من المستغرب أن يتطلع الإسكندر إلى أعظم قوة في العصور القديمة؛ أعني بلاد الفُرس.

ما أن نجح الإسكندر في طرد ولاة مصر من الفُرس بضربة خاطفة عام ٣٣١ق.م، حتى انطلق ليشن هجومًا شاملًا على معاقل إمبراطورية الفُرس. ووقعت المواجهة الحاسمة في أواخر عام ٣٣١ق.م على سهول جوجاميلا (Gaugamela) الترابية -الواقعة على مقربة من مدينة أربيل الحديثة في كردستان العراق- حيث ألحق الإسكندر هزيمة نكراء بجيش الفُرس -الذي كان يفوق جيشه عددًا وعتادًا- بقيادة دارا الثالث (Darius III)؛ ربما لأنه -أعني الإسكندر- كان منتعشًا الانتعاش كله، بعد ليلة نام فيها نومًا هنيئًا؛ فوفقًا لـ بلوتارخ (Plutarch)، أصر الإسكندر على أن ينال قسطًا من الراحة قبل الاشتباك مع العدو، فنام نومًا عميقًا، حتى إن قوّاده -الذين استبد بهم القلق- اضطروا إلى إيقاظه من نومه. فنهض الإسكندر، وارتدى لباسَه المفضَّل، ووضع على رأسه خوذة رفيعة مصقولة بعناية بحيث «كانت أكثر إشراقًا من الفضة النقية، واستلَّ بيده اليمنى سيفًا ماضيًا، وقاد قواته إلى نصر ساحقٍ ماحقٍ، فتح أمامه أبواب إمبراطورية»[2].

---

(1) Euripides, Bakhai, in Euripides: Bacchae, Iphigenia at Aulis, Rhesus, ed. and trans. D. Kovacs (Cambridge, MA, 2003), p. 13.

(2) Plutarch, *Bioi Paralleloi: Alexandros*, 32–3, in *Plutarch's Lives*, ed. and tr. B. Perrin, 11 vols (Cambridge, MA, 1914–26), 7, pp. 318–26.

كان الإسكندر يرتدي سترة حظّه، إذا حكَّمنا رسمًا على فسيفساء مشهورة كانت تزين أكبر بيت في مدينة بومبي (Pompeii)، انظر:

A. Cohen, *Alexander Mosaic: Stories of Victory and Defeat* (Cambridge, 1996).

كان الإسكندر -الذي تلقى تعليمه على يد أرسطوطاليس (Aristotle)- يحمل على عاتقيه آمالًا كبارًا. وكان عند حُسن الظنّ به. فبعد أن قضى على زهرة الجيوش الفارسية في جوجاميلا، واصل التوغُّل شرقًا. فاستسلمت له المدينة تلو المدينة، واستولى على الأراضي التي كان يسيطر عليها خصومه المهزومون. وهكذا سقطت البلاد الأسطورية ذات الحجم الهائل، والثراء الفاحش، والجمال الأخاذ أمام البطل الشاب. فاستسلمت له بابل، وفرش أهلها طريقه المؤدية إلى المدينة العظيمة بالورود، في حين وُضعت مذابح من الفضة امتلأت باللبان، وأصناف العطور على جانبي الطريق. وجُلبت الأسود والفهود في أقفاصها لتقدم له هدايا[1]. ولم يمض وقت طويل، حتى استولى الإسكندر ورجاله على جميع النقاط على طول الطريق الملكي الرابط بين المدن الرئيسة في بلاد فارس وشبكة الاتصالات التي كانت تربط ساحل آسيا الصغرى بآسيا الوسطى.

وعلى الرغم من أن بعض العلماء المحدَثين ينكرون على الإسكندر تعطشه لسفك الدماء، ويصفونه «بالسفاح السِّكِّير»، فيبدو لنا أن الإسكندر كان يتمتع بحساسية مدهشة متى تعلق الأمر بالتعامل مع المناطق والشعوب التي سقطت في يده للتو[2]. فغالبًا ما كان يظهر التسامح والاحترام متى تعلق الأمر بالمعتقدات والممارسات الدينية المحلية، فعلى سبيل المثال، قيل: إنه أبدى انزعاجه من الطريقة التي دُنِّس بها قبر قورش الكبير، ولم يقتصر أمره على تطهير الضريح فحسب، بل إنه عاقب كذلك أولئك الذين دنسوه بفعالهم[3]. كما حرص الإسكندر على التأكد من أن جثمان دارا الثالث قد وُورِي الثرى بعد مراسم تليق بمقامه. كما أظهر الحرص على دفنه بجوار غيره من الأكاسرة في أعقاب العثور على جثته ملقاة في عربة، بعد أن قتله أحد أعوانه[4].

كان الإسكندر قادرًا أيضًا على إخضاع المزيد والمزيد من الأراضي تحت سلطانه؛ ذاك أنه كان على استعداد للاعتماد على النخب المحلية في إدارتها. وقيل إنه قال لرجاله: «إن كنا نرجو الاحتفاظ بآسيا، وليس مجرد الاجتياز بأراضيها فحسب، فعلينا أن نظهر الرأفة لهؤلاء الناس؛ إن ولاءهم وحده هو الذي سيجعل إمبراطوريتنا مستقرةً ودائمةً»[5]. وعلى هذا النحو ترك الإسكندر المسؤولين المحليون، والنخب القديمة في أماكنهم لإدارة البلدان والأراضي التي سقطت في يده. كما حرص

---

(1) Quintus Curtius Rufus, *Historiae Alexandri Magni Macedonis*, 5.1, in *Quintus Curtius Rufus: History of Alexander*, ed. and tr. J. Rolfe, 2 vols (Cambridge, MA, 1946), 1, pp. 332–4.

(2) M. Beard, 'Was Alexander the Great a Slav?', *Times Literary Supplement*, 3 July 2009.

(3) Arrian, *Anabasis*, 6.29, in *Arrian: History of Alexander and Indica*, ed. and tr. P. Brunt, 2 vols (Cambridge, MA, 1976–83), 2, pp. 192–4;

وتحدث «بلوتارخ» أيضًا عن أهمية هدوء الإسكندر، وسخائه، وكرمه، انظر:

Alexandros, 59, 1, p. 392.

(4) Arrian, *Anabasis*, 3.22, 1, p. 300.

(5) Quintus Curtius Rufus, *Historiae*, 8.8, 2, p. 298.

على التلقُّبِ بالألقاب التقليدية، وارتدى -كذلك- اللباس الفارسي تأكيدًا على قبوله للعادات المحلية. وكان يحرص أيضًا على أن يظهرَ بوصفه الوريث الأخير لعالم قديم، لا على أنه فاتحٌ غازٍ، وذلك على الرغم صيحات الاستهزاء التي أطلقها أولئك الذين قالوا لكل من أصغى إليهم: إنه -أعني الإسكندر- فأل شؤم، وإنه ليصبغنَّ أديم الأرض بالدماء القانية كلما سار[١].

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن كثيرًا من معلوماتنا حول حملات الإسكندر، وانتصاراته، وسياساته إنما هي أخبارٌ مستمدة من المؤرخين المتأخرين، الذين غالبًا ما تُعد رواياتهم مثالية للغاية، ومفعمة بالحماسة في أثناء تناولهم مناقب القائد الشاب[٢]. ومع ذلك، حتى لو كان ينبغي علينا أن نكون أكثر حذرًا بشأن الطريقة التي غطَّت بها المصادر أخبار انهيار بلاد فارس، فإن السرعة التي سار بها الإسكندر في أثناء توسيع حدود دولته شرقًا تسرد روايتها الخاصة. لقد كان الإسكندر مؤسِّسًا نشطًا لمدن جديدة، وعادة ما أسماها باسمه، وهي تُعرف الآن بأسماء أخرى في أغلب الحالات: مثل هَرات (إسكندرية آريا Aria)، وقندهار (إسكندرية آرخوسيا Arachosia)، وبجرام Bagram (إسكندرية القوقاز). وكان بناء هذه المراحل الرئيسة؛ إلى جانب تقوية مواقع أخرى في الشمال، امتدت إلى وادي فرغانة؛ بمثابة نقاطٍ جديدة امتدت على طول العمود الفقري لآسيا.

شُيِّدت المدن الجديدة -ذات التحصينات القوية، فضلًا عن الحصون والقلاع المستقلة- بغرض أساسي هو الدفاع ضد التهديدات الذي كانت تشكلها قبائل السهوب، وهم أقوامٌ برعوا في شن الغارات المدمرة على المجتمعات الريفية المستقرة. ووضع الإسكندر برنامجًا لتحصين المناطق الجديدة التي احتلها مؤخرًا. وقوبلت مخاوف مماثلة بردود أفعال مماثلة في الشرق في هذا الوقت تحديدًا. فقد طور الصينيون مفهوم «هوكسيا (Huaxia)» الذي كان يرمز إلى العالم المتحضر، ضد تهديدات قبائل السهوب. فوضعوا برنامج بناء كثيف استهدف توسيع شبكة التحصينات حتى اكتمل بناء ما يُعرف بـ «سور الصين العظيم»، وكان بناؤه مدفوعًا بالمبدأ نفسه الذي تبناه الإسكندر: التوسع دون الدفاع عديم الفائدة[٣].

---

(1) A. Shahbazi, 'Iranians and Alexander', *American Journal of Ancient History* 2.1 (2003), 5–38.

وانظر أيضًا:

M. Olbryct, *Aleksander Wielki i swiat iranski* (Gdansk, 2004); M. Brosius, 'Alexander and the Persians', in J. Roitman (ed.), *Alexander the Great* (Leiden, 2003), pp. 169–93.

(٢) انظر في المقام الأول:

P. Briant, *Darius dans l'ombre d'Alexandre* (Paris, 2003).

(٣) عن مفهوم «هوكسيا» (Huaxia) انظر:

C. Holcombe, *A History of East Asia: From the Origins of Civilization to the Twenty-First Century* (Cambridge, 2010);

وعن سور الصين العظيم، انظر:

=

وعـودة على ذي بدء، فقد واصل الإسـكندر -في القرن الرابـع قبل الميلاد- حملته بلا هوادة، فقد طوَّف بـ هندوكوش، وتوغل في وادي السِّند، وأسس معاقل جديدة وثبَّت فيها الحاميات مجدَّدًا- على الرغـم مـن أنه أضحى -آنـذاك- يواجه صرخات اعتراض منتظمة كان رجاله المرهقون -الذين اسـتبد بهـم الشـعور بالاغتراب، وأخذت منهم مشـاعر الحنين للوطن كل مأخذ- يجـأرون بها. ومن المنظور العسكري، كانت إنجازات الإسكندر -في الوقت الذي مات فيه عن عمر ناهز الثانية والثلاثين في بابل عـام ٣٢٣ق.م، فـي ظروف لا يزال يكتنفهـا الغموض- لا تقل إثارة[١]، فكانت سـرعة فتوحاته ومداها مذهليـن حقًّـا. وما لـم يكن أقل إثارة للإعجاب -علـى الرغم من أنه لطالما جـرى تجاهله- هو حجم الإرث الـذي خلَّفـه الإسـكندر، والكيفية التـي اختلطت بها حضارة اليونان القديمـة مع حضارات بلاد فارس، والهند، وآسيا الوسطى، بل والصين أيضًا في الأخير.

أعقبـت وفـاة الإسـكندر -المفاجئة- فتـرة من الاضطراب والاقتتـال الأهلي الذي نشَـب بين كبار قادتـه، ومـع ذلك سـرعان مـا ظهر زعيم للنصف الشـرقي من الأراضـي الجديدة؛ وهـو ضابط ولد في شـمال مقدونيا، ويدعى سـلوقس (Seleucus)، وكان قد شـارك في جميع حملات الإسكندر الكبرى. وفي غضون سنوات قليلة من وفاة مولاه، ألفى سلوقس نفسَه حاكمًا على الأراضي التي امتدت من نهر دجلة إلى نهر السـند. لقد بلغت تلك الأراضي من السَّـعةِ حدًّا أنه لا يسـتقيم معه أن توصف بالمملكة، بل بالإمبراطورية.

كيفما كان الأمر، فقد أسـس سـلوقس سُلالة نُسـبت إليه، فصارت تُعرف باسم «السلوقيين»، والتي حكمت ما يقرب من ثلاثة قرون[٢]. وغالبًا ما يجري جحد انتصارات الإسـكندر بوصفها سلسـلة رائعة من المكاسـب قصيرة المدى، كما يُنظر إلى إرثه -إلى حدٍّ كبير- على أنه مؤقت، وسـرعان ما تلاشـى

= A. Waldron, 'The Problem of the Great Wall of China', *Harvard Journal of Asiatic Studies* 43.2 (1983), 643–63,

وانظر في المقام الأول:

di Cosmo, *Ancient China and its Enemies*.

(١) انظر هذه الدراسة التي صدرت مؤخرًا بعنوان:

J. Romm, *Ghost on the Throne: The Death of Alexander the Great and the War for Crown and Empire* (New York, 2011).

وتضاربـت الروايـات فـي شـأن موت الإسـكندر، فقيل: إنه مـات مريضًـا بالتيفـود، أو بالملاريا، أو بسـرطان الدم، أو متسـممًا مـن أثـر الخمـر (أو الأمراض المترتبـة على إدمان الخمر)، أو مـن أثر تلوث بعض جراحـه. بينما يزعم بعض المؤرخين أنه قُتل. إن أردت تفصيلًا، فانظر:

A. Bosworth, 'Alexander's Death: The Poisoning Rumors', in J. Romm (ed.), *The Landmark Arrian: The Campaigns of Alexander* (New York, 2010), pp. 407-11.

(٢) انظر:

R. Waterfi eld, *Dividing the Spoils: The War for Alexander the Great's Empire* (Oxford, 2011).

مـن بعـده. بيد أن إرث الإسـكندر لـم يكن مجرد إنجازات مؤقتـة، بل كان بداية لفصـل جديد للمنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وجبال الهيمالايا.

وشـهدت العقـود التـي أعقبـت وفـاة الإسـكندر برنامجًـا تدريجيًـا لا لبـس فيـه مـن «الهَلْيَنـة» (Hellenisation) أي الصَّبغ بالحضارة اليونانية، حيث أُدخِلت أفكار، وموضوعات، ورموز من حضارة اليونان القديمة إلى الشرق. فلم ينسَ أحفاد قواد الإسكندر جذورهم اليونانية قط، بل ما برحوا يؤكدون عليها ما وسـعهم ذلك. وتعد العملات المعدنية -التي ضُربت في دور سـك العملة في المدن الرئيسـة التـي كانـت تقـع على نقاط مهمة اسـتراتيجيًا على طول طـرق التجارة، أو في مراكـز حيوية من الناحية الزراعيـة- مثـالًا بليغًـا على ذلـك. فقد أصبح شـكل هذه العمـلات معياريًّا، فعلى وجه العملة نُقشـت صورة الحاكم بشـعره المعقوص المطوق بإكليل، وهو يرنو إلى جهة اليمين -تمامًا كفعل الإسـكندر- وعلى ظهرها صورة أبولو، محددة بأحرف يونانية[1].

ويسعنا سماع اللغة اليونانية -بل ورؤيتها كذلك- في جميع أنحاء آسيا الوسطى ووادي السند. ففي آي خانم (Ai Khanoum) شـمالي أفغانسـتان -وكانت مدينة جديدة أسسها سلوقوس- نجد نقشًا على نصب تذكاري يحمل أقوالًا مأثورةً مصدرها مدينة دلفي (Delphi)، تضمنت الحِكَم التالية:

«إن كنت صبيًّا، فأحسِن التصرف.

وإن كنت شابًّا، فاكبح جماح نفسك.

وإن كنت رجلًا، فأنصِف.

وإن كنت شيخًا، فكن حكيمًا.

وإن كنت تُحتضَر، فلا تُظهِر آلامَك»[2].

واسـتُخدمت اللغـة اليونانيـة لغـةً للحيـاة اليومية من قبل المسـؤولين -بعـد أكثر من قـرن من وفاة الإسكندر- حيث تُظهر ذلك إيصالاتٌ ووثائق ضريبية متعلقة بأجور الجنود من باكتريا نحو عام ٢٠٠

(1) K. Sheedy, 'Magically Back to Life: Some Thoughts on Ancient Coins and the Study of Hellenistic Royal Portraits', in K. Sheedy (ed.), *Alexander and the Hellenistic Kingdoms: Coins, Image and the Creation of Identity* (Sydney, 2007), pp. 11–16; K. Erickson and N. Wright, 'The "Royal Archer" and Apollo in the East: Greco-Persian Iconography in the Seleukid Empire', in N. Holmes (ed.), *Proceedings of the XIVth International Numismatic Congress* (Glasgow, 2011), pp. 163–8.

(2) L. Robert, 'De Delphes à l'Oxus: inscriptions grecques nouvelles de la Bactriane', *Comptes Rendus de l'Academie des Inscriptions* (1968), 416–57.

الترجمة من اليونانية مأخوذة عن:

F. Holt, *Thundering Zeus: The Making of Hellenistic Bactria* (London, 1999), p. 175.

ق.م[1]. والحق أن تلك اللغة تغلغلت في عمق شبه القارة الهندية، فبعض المراسيم التي أصدرها الحاكم الموورياني آشوقا (Ashoka) -وهو أحد أعظم ملوك الهند القدماء- كانت مصحوبة بترجمات يونانية موازية، ويبدو لنا أنها كانت موجهة لبعض الأهلين[2].

وكانت حيوية التبادل الثقافي التي جرت في أعقاب تصادم أوروبا وآسيا مدهشةً حقًّا. فقد بدأت تماثيل بوذا في الظهور ما أن ترسَّخت عبادة أبولو في وادي جوندهارا (Gundhara) غربي الهند. عندئذ شعر البوذيون بالتهديد من نجاح الممارسات الدينية الجديدة، فشرعوا في نحت تجسيدهم المرئي لإلههم. والحق أن ثَمَّ ارتباط قوي بين كلا السياقين لا نجده في تواريخ ظهور أقدم تماثيل بوذا فحسب، بل نجده أيضًا في هيئتها وتصميمها. ويبدو لنا أن أبولو شكَّل النموذج الذي نُحِتَت تماثيل بوذا على غراره. لقد كان البوذيون -قبل ذلك- يشددون على حُرمة التمثيل البصري لإلههم؛ بيد أن المنافسة الحامية -آنئذ- أجبرتهم على الاستجابة، والاقتراض، ومن ثَم الابتكار. وعلى هذا النحو كان تأثير الحضارة اليونانية على المشرق[3].

كما تكشف المذابح الحجرية المزينة بالنقوش اليونانية، إضافةً إلى صور أبولو، والقطع العاجية الرائعة التي تصور الإسكندر -فيما يُعرف الآن بجنوب طاجيكستان- عن المدى الذي تغلغلت به تلك التأثيرات القادمة من الغرب[4]. وكذلك فعلت انطباعات التفوق الثقافي المستمدة من البحر المتوسط، فقد نسَب الهنود إلى اليونان الآسيويين الفضل الكبير، لمهارتهم في العلوم، فعلى سبيل المثال، جاء في النص المعروف باسم «جراجي سمهيتا» (Gārgī Samhitā) قولهم: «إنهم برابرة؛ ومع ذلك فهم واضعو أساس علم الفلك؛ لذا ينبغي علينا توقيرهم كما نوقِّر آلهتنا»[5].

ووفقًا لـ بلوتارخ (Plutarch)، فقد تيقَّن الإسكندر من أن اللاهوت الإغريقي كان يُدرَس في أماكن نائية مثل الهند، وهو الأمر الذي أدى إلى تبجيل آلهة الأوليمب في مختلف أرجاء آسيا. وعلى هذا النحو تربى الشباب في بلاد فارس -وما وراءها- على قراءة هوميروس (Homer) و«ترديد مآسي سوفوكليس (Sophocles) ويوريبيدس Euripides»، بينما دُرِّست اللغة اليونانية في وادي السِّند[6]. وقد

---

(1) J. Jakobsson, 'Who Founded the Indo-Greek Era of 186/5 bce?', *Classical Quarterly* 59.2 (2009), 505–10.

(2) D. Sick, 'When Socrates Met the Buddha: Greek and Indian Dialectic in Hellenistic Bactria and India', *Journal of the Royal Asiatic Society* 17.3 (2007), 253–4.

(3) J. Derrett, 'Early Buddhist Use of Two Western Themes', *Journal of the Royal Asiatic Society* 12.3 (2002), 343–55.

(4) B. Litvinsky, 'Ancient Tajikistan: Studies in History, Archaeology and Culture (1980–1991)', *Ancient Civilisations* 1.3 (1994), 295.

(5) S. Nath Sen, *Ancient Indian History and Civilisation* (Delhi, 1988), p. 184; R. Jairazbhoy, *Foreign Influence in Ancient India* (New York, 1963), pp. 48–109.

(6) Plutarch, *Peri tes Alexandrou tukhes he arete*, 5.4 in *Plutarch: Moralia*, ed. And tr. F. Babitt et al., 15 vols =

يكون هذا هو السبب في أنه يسعُنا اكتشاف الاستعارات في الأعمال الأدبية العظيمة. لقد رأى بعض الباحثين، على سبيل المثال، أن الرامايانا (*Rāmāyana*) -وهي القصيدة الملحمية السنسكريتية- تدين لـ **الإلياذة** (*Iliad*) **والأوديسا** (*Odyssey*) بالكثير، فموضوع اختطاف رافانا (Rāvaṇa) للسيدة سيتا (Sita)، ما هو إلا رجع صدى لهرب هيلين (Helen) مع باريس الطروادي (Paris of Troy). كما تدفقت التأثيرات والإلهام في الاتجاه الآخر أيضًا، حيث يرى بعض العلماء أن **الإنيادة** (*Aeneid*) قد تأثرت -بدورها- ببعض النصوص الهندية، مثل المهابهاراتا (*Mahābhārata*)[١]. وعلى هذا النحو مهدت فتوحات الإسكندر الطريق لتوسيع آفاق عقول سكان الأراضي التي استولى عليها، وكذلك أولئك الذين وُجدوا على أطرافها وخارجها، والذين اتصلوا بأفكار جديدة، وصور جديدة، ومفاهيم جديدة، من خلال الأفكار والموضوعات والقصص التي انتشرت عبر الطرق السريعة، حيث نشرها المسافرون والتجار والحجاج في أثناء رحلاتهم.

بل إن الثقافات في السهوب البرية تأثرت أيضًا، كما يتضح لنا من خلال المتاع الجنائزي الرائع الذي دُفن إلى جانب الشخصيات الرفيعة التي وُجدت في مقابر تيليا تيبي (Tilya Tepe) شمالي أفغانستان والتي تُظهر تلك التأثيرات الفنية المستمدة من بلاد اليونان وكذلك من سيبيريا والهند وما وراءهما. وجرى تبادل السلع الفاخرة في عالم البدو، مقابل الماشية والخيول، وفي بعض الأحيان بوصفها جزية مقابل السلام[٢].

* * *

تسارعت عملية ربط السهوب في عالم متشابك مترابط، بسبب الطموحات المتزايدة للصين. فقد أخذت الصين -في عصر سلالة هان (٢٠٦ق.م-٢٢٠م)- تتوسع في حدودها حتى بلغت ولاية كانت تسمى شييو (Xiyu) (أي «المناطق الغربية»)، إلا أنها تُعرف اليوم باسم شينجيانغ (أي «أرض الحدود الجديدة»). وكان يليها طريق تقع خلف ممر جانسو (Gansu)، بطول ٦٠٠ ميل، وكانت تربط المناطق الداخلية الصينية بواحة تُسمى دونهوانغ (Dunhuang) وكانت تقع عند مفترق طرق على حافة صحراء تاكلامكان (Taklamakan). عند هذه النقطة، كان يسع المسافرين اختيار سلوك طريق من طريقين: الشمالي أو الجنوبي، وكان كلاهما خطيرًا، ثم ما يلبث الطريقان أن يلتقيا عند كاشغر، التي تقع عند تقاطع جبال الهيمالايا، وجبال بامير، وسلسلة جبال تيان شان (Tien Shan)، وهندوكوش[٣].

= (Cambridge, MA, 1927–76), 4, pp. 392–6; J. Derrett, 'Homer in India: The Birth of the Buddha', *Journal of the Royal Asiatic Society* 2.1 (1992), 47–57.

(1) J. Frazer, *The Fasti of Ovid* (London, 1929); J. Lallemant, 'Une Source de l'Enéide: le Mahabharata', *Latomus* 18 (1959), 262–87; Jairazbhoy, *Foreign Influence*, p. 99.

(2) C. Baumer, *The History of Central Asia: The Age of the Steppe Warriors* (London, 2012), pp. 290–5.

(3) V. Hansen, *The Silk Road* (Oxford, 2012), pp. 9–10.

وأدى توسع الصين إلى ربط أوصال آسيا بعضها ببعضٍ. بيد أن قبائل يوزهي (Yuezhi) وفي المقام الأول قبيلة شيونجنو (Xiongnu) اعترضت هذه الشبكات من الطرق. لطالما كانت قبائل البدو -مثل السكيثيين في آسيا الوسطى- مصدرًا للقلاقل، إلا أنهم كانوا شركاء تجاريين مهمين للثروة الحيوانية في الوقت عينه أيضًا. ووصف المؤلفون من عصر سلالة هان -في القرن الثاني ق.م- عشرات الآلاف من رؤوس الماشية التي ابتاعتها حكومة الصين من شعوب السهوب[1]. بيد أن الطلب الصيني على الخيول كان منهومًا لا يشبع قط، ونشأ من الحاجة إلى الحفاظ على قوة عسكرية فعالة، وفي حالة تأهب دائم للحفاظ على النظام الداخلي في الصين. وكان ينبغي أن تكون تلك القوة قادرة على الرد على الهجمات والغارات التي قد تشنها قبائل شيونجنو أو غيرها كذلك. وكانت الخيول المستوردة من غربي شينجيانغ (Xinjiang) تحظى بتقديرٍ كبيرٍ من أهل الصين، وكان الاتجار فيها يمكن أن يحقق ثروات طائلة لزعماء القبائل. فذات مرة بادل زعيم قبيلة يوزهي الخيل بشحنة كبيرة من البضائع الصينية، ثم باع تلك البضائع بعد ذلك لغيره، فبلغ مكسبه فيها عشرة أضعاف[2].

ورُبيت أشهر الخيول وأغلاها قيمة في وادي فرغانة، على الجانب البعيد من سلسلة جبال بامير الرائعة التي تمتد عبر شرق ما يعرف الآن بـ طاجيكستان وشمال شرق أفغانستان. وأُعجب الصينيون كثيرًا بقوة هذه الجياد، فوصفها الكُتَّاب الصينيون بأنها بقية سلالة «التَّنانين»، وأطلقوا عليها اسم «هانكسو ما» (*Hanxue ma*) أي «عَرق الدم»، وذلك بسبب لون عرَقِها الأحمر المميز الذي إمَّا كان ناتجًا عن أثر طفيلي محلي، أو كان بسبب سمات تلك الخيول نفسها، فكان جلدها شديد الرقة عرضة لانفجار الأوعية الدموية في أثناء بذلها الجهد. وأضحت بعض هذه الخيول الرائعة مشهورةً في حد ذاتها، وموضوعًا للقصائد، والتماثيل، والتصاوير التي أشير إليها كثيرًا باسم (*Tianma*) أو «الخيول السماوية» أو «خيول السماء»[3]. حتى إن بعضًا من هذه الخيول رافق أصحابها في رحلتهم إلى العالم الآخر؛ فقد دُفن أحد الأباطرة إلى جانب ثمانين من جياده المفضلة، وحرس قبره تمثالين لجوادين فحلين، ومحارب من الطين «التراكوتا» (Terracotta)[4].

ولم تكن علاقات الحكومة الصينية مع قبائل شيونجنو -التي بسطت نفوذها على سهول منغوليا وعبر السهوب حتى شمال الصين- ودية دائمًا. فوصف المؤرخون المعاصرون القبيلة بأنها بربرية،

---

(1) Sima Qian, *Records of the Grand Historian of China*, 123, 2, p. 238.

(2) Ibid., 129, 2, p. 440.

(3) H. Creel, 'The Role of the Horse in Chinese History', *American Historical Review* 70 (1965), 647–72.

وتحتوي كهوف «دونهوانغ» على عدد كبيرٍ من الخيول السماوية التي رُسمت على جدرانها، انظر:

T. Chang, *Dunhuang Art through the Eyes of Duan Wenjie* (New Delhi, 1994), pp. 27–8.

(٤) تقرير عن الحفريات الأخيرة التي كشفت عن قبر الإمبراطور «ووس» (Wu's) في «شيان» (Xi'an) عام ٢٠١١: انظر:

.Wu's mausoleum in Xi'an in 2011, *Xinhua*, 21 February 2011

وأن أبناءها يميلون إلى أكل اللحوم النيّئة، وشرب الدماء. ولم يتجاوز أحد الكتّاب الحقيقة، عندما قال عنهم: إنهم شعب «تخلّت عنه السماء»[١]. وكان الصينيون على استعدادٍ لدفع الجزية لهم بدلًا من المخاطرة بشن الغارات على مساكنهم. وأرسل أباطرة الصين السفراء لزيارة البدو -الذين اعتادوا -منذ نعومة أظفارهم- على اصطياد الجرذان، والطيور، والثعالب، والأرانب البرية- على نحو منتظم، وكان دأب الإمبراطور السؤال بأدبٍ عن صحة زعيم القبيلة[٢]. وتطور نظام رسمي للجزية، مُنح البدو بموجبه هدايا فاخرة من الأرز والنبيذ والمنسوجات، مقابل السلام. وكان الحرير أهم ما قدمه الصينيون لهم، فهو النسيج الذي كان البدو يعتزون به بسبب ملمسه المخملي وخفة وزنه، فاستخدموه بطانة لفرشهم وملابسهم. كما كان أيضًا رمزًا للسلطة السياسية والاجتماعية؛ فقد كان لف الجسم بكميات كبيرة من نسيج الحرير الثمين وسيلة مهمة أكد بها تشانيو (*chanyu*) (الزعيم الأعلى للقبائل) على وضعه الخاص، كما كافأ به رجاله[٣].

وكانت الجزية المدفوعة مقابل السلام كبيرة، فعلى سبيل المثال، مُنِحَت قبيلة شيونجنو -في عام ١ ق.م- ثلاثين ألف لفافة من الحرير، وكمية مماثلة من المواد الخام، إضافةً إلى ٣٧٠ ثوبًا[٤]. وكان بعض المسؤولين الصينيين يأملون في أن يؤدي ولع أبناء القبيلة بالرفاهية ووسائلها إلى اضمحلال تلك القبيلةِ، ومن ثَم زوالها. وقال أحد السفراء -بأسلوب لم يخلُ من وقاحةٍ- لزعيم قبلي: «أراك مولعًا بالسلع الصينية»، ثم أردف: إن عادات قبيلة شيونجنو آخذة في التغير، وإن الصين -كما توقع واثقًا- «ستنجح في القضاء على أمة شيونجنو عن بكرةِ أبيها في النهاية»[٥].

لقد كان هذا تفكيرًا قائمًا على التمنّي. أما لسان حال الواقع، فكان أثرًا سلبيًا لتلك الدبلوماسية التي صانت السلام، وحافظت على العلاقات الودية، على الصعيدين المالي والسياسي. فقد شكّل دفع الجزية الباهظة عبئًا على الخزانة، فضلًا عن كونه أمارة من أمارات الضعف السياسي؛ لذا قرر أباطرة

---

(1) Huan Kuan, *Yan Tie Lun*,

نقلًا عن:

Y. Yu, *Trade and Expansion in Han China: A Study in the Structure of Sino-Barbarian Economic Relations* (Berkeley, 1967), p. 40.

(٢) انظر، على سبيل المثال:

Sima Qian, *Records of the Grand Historian of China*, 110, 2, pp. 145–6.

وعن بعض الملحوظات المتعلقة بقبائل «شيونجنو» (Xiongnu) من حيث التعليم، والعادات، واللباس، انظر:

op. cit, pp. 129–30.

(٣) انظر:

Yu, *Trade and Expansion in Han China*, pp. 48–54.

(4) Ibid., p. 47, n. 33; R. McLaughlin, *Rome and the Distant East: Trade Routes to the Ancient Lands of Arabia, India and China* (London, 2010), pp. 83–5.

(5) Sima Qian, *Records of the Grand Historian of China*, 110, 2, p. 143.

الصين من سلالة هان إعمال السيف في قبائل شيونجنو لاستئصال شأفتهم مرةً واحدة، وإلى الأبد. فبذلوا جهودًا حثيثةً للسيطرة على المناطق الغربية والأراضي الزراعية الخصبة الواقعة في شيو (Xiyu)؛ وطرد البدو منها، حيث سيطر الصينيون على ممر جانسو بعد سلسلة من الحملات التي استمرت لعقد من الزمن وانتهت عام ١١٩ق.م. وكانت جبال بامير تقع إلى الغرب من هذه البقاع، ويليها «العالم الجديد». وهكذا فتحت الصين لنفسها بابًا أطلت منه على شبكة عابرة للقارات؛ لقد كانت هذه هي اللحظة التي وُلِدت فيها طريق الحرير.

وأسفر توسع الصين في تلك البقاع عن زيادة فضول أهل الصين بما هو كامنٌ خلف تلك الجبال. فكُلِّف المسؤولون بالتحقيق، وكتابة التقارير حول المناطق الواقعة وراء الجبال. ووصلنا بعض من هذه التقارير مثل «شي جي *Shi Ji*» (أي «السجلات التاريخية»)، التي دونها سيما قيان (Sima Qian) -وهو ابن المؤرخ الكبير في البلاط الإمبراطوري (تايشي *Taishi*)- الذي استمر في العمل على تدوين هذا السجل حتى بعد أن وُصِم بالعار، وأُمِر بإخصائه عقابًا له على جرأته في الدفاع عن قائد شاب متهور قاد قواته إلى حتفها[1]. وحدد سيما قيان ما استطاع اكتشافه من مادة حول تواريخ شعوب وادي السِّند، وبلاد فارس، وآسيا الوسطى، واقتصاداتها، وجيوشها تحديدًا دقيقًا. وأشار إلى أن ممالك آسيا الوسطى أضحت ضعيفة بسبب ضغوط البدو الذين مزقتهم جيوش الصين شر ممزق، فضغطوا بدورهم على أماكن أُخَر. وكتَب قائلًا: إن سكان هذه الممالك «ليسوا مهرةً في استخدام السلاح، إلا أن المهارة لا تُعوِزهم في التجارة»، في ظل ازدهار الأسواق في العاصمة باكترا (Bactra) «حيث يجري شراء جميع أنواع السلع والبضائع وبيعها»[2].

وعلى هذا النحو تطورت التجارة بين الصين والعالم وراءها، وإن كان ذلك التطور بطيئًا. ولم يكن التفاوض على اجتياز الطرق على طول حافة صحراء جوبي أمرًا سهلًا، ولا سيما ما وراء بوابة جادة (Jade)، وهي مركز حدودي كانت قوافل التجار تمر عبره في طريقها إلى الغرب. وكان المرور من واحة إلى أخرى عبر التضاريس الوعرة أمرًا عسيرًا سواء كان طريق القوافل يمر عبر صحراء تاكلامكان (Taklamakan) أو عبر ممرات جبال تيان شان (Tian Shan)، أو عبر جبال البامير (Pamirs). وكان لابد من أخذ درجات الحرارة المتطرفة في الحُسبان عند التفاوض، وكان هذا هو أحد الأسباب التي جعلت الجمل الباكتري يحظى بتقدير كبير في أوساط التجار. وقد أشار أحد الكُتَّاب إلى أن هذه الحيوانات تتمتع بشجاعة كبيرة، وتحمل الظروف القاسية للصحراء، ولديها حدسٌ يمكّنها من التنبؤ بالعواصف الرملية القاتلة؛ حيث كانت «تقف من فورِها، وتهدر مزمجرةً معًا»، وكانت هذه الزمجرة نذيرًا للتجار، وقادة القوافل «بتغطية أنوفهم وأفواههم من خلال لفها باللباد». بيد أنه من الواضح أن

(1) S. Durrant, *The Cloudy Mirror: Tension and Conflict in the Writings of Sima Qian* (Albany, NY, 1995), pp. 8-10.

(2) Sima Qian, *Records of the Grand Historian of China*, 123, 2, p. 235.

الجمـل -بوصفـه دليلًا على اتجاه الريـح- لم يكن معصومًا من الخطأ دائمًـا؛ إذ تتحدث المصادر عن وجـود أعـداد كبيرة من الحيوانات النافقة، والهياكل العظمية متناثرةً على طول الطرق[1]. وفي مثل هذه الظـروف الصعبـة، كان ينبغي أن تكون المكافـآت عالية حتى تهون المخاطر في عين المجازِف. وعلى الرغـم من أنه يسـعنا العثور علـى مواد مثل: الخيـزران والقماش المصنوعين في سيشـوان (Sichuan) معروضـة للبيـع علـى بعد آلاف الأميال في أسـواق باكتريـا، إلا أنهما كانا من السـلع النـادرة والباهظة الثمن، حيث نُقِلت عبر مسافات طويلة[2].

وكان الحريـر أهـم عنصـر في هذه التجارة. وأدى الحرير عددًا من الأدوار المهمة في العالم القديم بصـرف النظـر عـن قيمتـه عند قبائـل البدو. فقـد استُخدم الحرير -في عصر سـلالة هـان- إلى جانب العمـلات المعدنية والغلال لدفع رواتـب الجنود بالجيش. وكان الحرير -عمليًا- العملة الأكثر وثاقةً، فقـد كان إنتـاج النقـود بكمياتٍ كافيةٍ يمثل مشـكلة، كما أن الصين -بأكملها- لـم تكن قد تحولت إلى الاقتصاد النقدي؛ وشكَّل هذا صعوبة، ولا سيما متى تعلق الأمر برواتب جنود الجيش خاصةً؛ ذاك أن مسـارح عمـل تلـك الجيوش كانـت تقع غالبًا فـي مناطق نائية، حيث لـم تكن العمـلات المعدنية كافةً تجـدي نفعًـا. أمَّـا الغلال فلا تلبـث أن يصيبها السـوس والعفن بمـرور الوقت؛ لذا اسـتخدم الصينيون براغـي مـن الحريـر الخام بوصفها عملةً، إما لدفع الأجور، أو -كما يتبيـن من حالة أحد الأديرة البوذية في آسـيا الوسـطى- بوصفها غرامةً على الرهبان الذين خالفوا قانون الدير[3]. كما أضحى الحرير عملة دولية أيضًا، وذلك بوصفه منتجًا فاخرًا.

ونظم الصينيون التجارة من خلال إنشـاء إطار رسـمي للتحكم في التجار الذين يفدون على الصين من خارجها. وترسم مجموعة رائعة مؤلفة من ٣٥ ألف مَتنٍ اكتشفت في بلدة شوانكوان (Xuanquan) -علـى مقربـة من دونهوانغ، كما كانت مقرًا لإحدى الحاميات- صـورة حية للحوادث اليومية في بلدة كانـت تقع عند خانق ممر جانسـو. وقد علمنا من خـلال هذه النصوص -المدونة على ألواح الخيزران والخشـب- أن الزوار الذين وفدوا على الصين كان ينبغي عليهم الالتزام بالسـير في طرقٍ حُدِّدت لهم سَـلفًا، وكانـت تصـدر لهـم تصاريـح مكتوبـة، كمـا كان يجـري إحصاؤهـم على نحـوٍ منتظـمٍ من قبل المسؤولين للتأكد من أن جميع الذين دخلوا البلاد قد غادروها وعادوا إلى ديارهم في الأخير. واحتُفِظ بسجلاتٍ لكل زائر، مع الإشارة إلى مقدار ما أنفقه على طعامه، وموطنه الذي جاء منه، ولقبه، ومقصده الذي يتجه إليه، على نحوٍ أشبه بسجل نزلاء الفندق في أيامنا هذه[4].

---

(1) E. Schafer, *The Golden Peaches of Samarkand: A Study of Tang Exotics* (Berkeley, 1963), pp. 13–14.

(2) Hansen, *Silk Road*, p. 14.

(3) T. Burrow, *A Translation of Kharoshthi Documents from Chinese Turkestan* (London, 1940), p. 95.

(4) Hansen, *Silk Road*, p. 17.

وينبغـي أن تُفهـم هـذه الإجـراءات على أنها كانت وسـيلة لتتمكـن الدولة من خلالهـا من ملاحظة الوافديـن علـى الصيـن ومغادريها بدقة، وكذلـك ما الذي كانـوا يفعلونه فيها، إضافةً إلى تسـجيل قيمة البضائع التي اشـتروها وباعوها لأغراض جمركية في المقام الأول، ولا ينبغي أن تُفهم على أنها كانت شـكلًا من أشـكال المراقبة والاشتباه. ويكشـف تطور التقنيات وتطبيقها المبكر عن الكيفية التي تعامل بهـا البـلاط الإمبراطـوري فـي العاصمـة -فـي تشـانجان (Chang'an) (وهـي شـيان Xi'an الحديثة)، وكذلـك فـي لويانغ (Luoyang) منذ القرن الأول الميـلادي- مع عالم بدا وكأنه يتقلص أمام أعين أهل الصيـن[١]. إننـا نفكر في العولمة بوصفها ظاهرةً حديثةً وفريدةً؛ ومع ذلك فقد كانت العولمة حقيقةً من حقائق الحياة قبل ألفي عام مضت، وهي حقيقة وفَّرت الفرص بالقدر نفسه الذي خلقت به المشكلات، وحفزت على التقدم التقني.

* * *

عملـت التطـورات التـي جـرت على بعـد عـدة آلاف من الأميـال على تحفيـز الطلب على السـلع الكمالية إلى جانب القدرة على دفع ثمنها. ففي بلاد فارس، أقصى رجلٌ يدعى أرسـاكيس (Arsaces) -ولا نكاد نعرف شيئًا عنه- أحفاد سلوقس نحو عام ٢٤٧ ق.م من المشهد. وأحكمت ذريته المعروفة باسم الأرساكيين (Arsacids)، قبضتهم على السلطة، ثم شرعوا في توسيعها، فصادروا التاريخ بمهارةٍ بوصفه وسـيلةً لدمج الأفكار اليونانية والفارسـية في هوية جديدة، غدت أكثر تماسـكًا وصلابةً إلى حدٍّ كبير. الأمر الذي أسفر عن عصر من الاستقرار والازدهار[٢].

ولكن ما كان يحدث على ضفاف البحر المتوسط هو الذي وفر الحافز الأكبر للجميع. فقد تمكنت بلدة صغيرة في موقع غير واعد ألبتة -يقع في منتصف الطريق إلى الساحل الغربي لإيطاليا- من تحويل نفسـها ببـطء مـن إقليم معـزولٍ إلى قوة عالمية كبـرى. فقد ابتلعت رومـا المدن السـاحلية الواحدة تلو الأخـرى، وهيمنـت على غرب البحر المتوسـط. وتوسـعت طموحاتهـا إلى حد كبيـر بحلول منتصف القرن الأول ق.م. ثم ركزت اهتمامها على الشرق بقوة.

تطـورت رومـا إلـى دولة عدائية شـديدة الجشـع، تمجـد الجيش، وتهتـف للعنف والقتـل. وكانت ألعـاب المصارعـة تمثـل حجـر الأسـاس للترفيه العـام، وكانـت حلباتها هي المـكان الـذي احتُفِل فيه بالسيطرة على الشعوب الأجنبية، وعلى الطبيعة بطريقة وحشية.

وكانـت أقـواس النصـر -التي أُقيمت فـي جميع أنحاء المدينـة- لا تفتأ تُذكِّر أهـل روما الصاخبين

(1) R. de Crespigny, *Biographical Dictionary of Later Han to the Three Kingdoms (23–220 AD)* (Leiden, 2007).

(2) M. R. Shayegan, *Arsacids and Sasanians: Political Ideology in Post-Hellenistic and Late Antique Persia* (Cambridge, 2011).

بالانتصارات العسكرية التي أحرزوها على أعدائهم في كل يوم. لقد غُرِست النزعة العسكرية، والجسارة، وحب المجد بعناية بوصفها السمات الرئيسة لمدينة طموحة، كانت آخذة بالتوسع على نحو مستمر[1].

وكان الجيش يمثل العمود الفقري للسلطة الرومانية، وجرى تدريبه وتأهيله وفقًا لمعايير معينة. فكان من المتوقع أن يتمكن الجنود من السير مترجّلين لمسافة تزيد عن عشرين ميلًا في خمس ساعات، حاملين معهم ما لا يقل عن خمسين رطلًا من العتاد في الوقت عينه. ولم يكن زواج الجنود أمرًا مرفوضًا فحسب، بل كان محظورًا عليهم بالكلية من أجل إبقائهم مرتبطين ببعضهم. لقد كانت العزوبة هي الصخرة التي شيِّدت عليها[2] روما فيالق من الشباب المدربين تدريبًا راقيًا، والذين اكتسبوا لياقةً بدنيةً عاليةً، فنشؤوا واثقين من قدراتهم، ومطمئنين إلى مصائرهم[3].

وجلب غزو بلاد الغال (وهي معظم فرنسا الحديثة، والأراضي المنخفضة، وجزء من ألمانيا الغربية) في عام ٥٢ق.م غنائم هائلة، حتى إن سعر الذهب شهد انخفاضًا في الإمبراطورية الرومانية[4]. ولكن لم يكن هناك عددٌ كبيرٌ من البقاع الأخرى المماثلة في أوروبا؛ وقليل منها هو الذي بدا واعدًا فحسب. وكان المحك في عظمة الإمبراطوريات هو الأعداد الكبيرة من المدن التي تسيطر عليها هذه الإمبراطورية أو تلك، حيث كانت هذه المدن تدر العائدات والضرائب. وكذلك كان الصناع والحرفيون هم المحك في جعل هذه الإمبراطوريات مذهلة على الصعيد الثقافي؛ فهم الذين طوروا أفكارًا جديدةً عندما نافس الرعاة الأثرياء بعضهم على شراء خدمات أولئك الحرفيين، وكافؤوهم على مهاراتهم. ولم يكن من المحتمل أن تشكل أماكن، مثل: إنجلترا إضافة ذات بال لثروة روما، كما تشهد بذلك

---

(1) N. Rosenstein, *Imperatores victi: Military Defeat and Aristocratic Competition in the Middle and Late Republic* (Berkeley, 1990);

وانظر أيضًا:

S. Phang, *Roman Military Service: Ideologies of Discipline in the Late Republic and Early Principate* (Cambridge, 2008).

(٢) استعارةٌ أدبية مشهورة من الإنجيل مستوحاة من قول المسيح لـ بطرس: «وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ [وهو اسم يوناني يعني: الصخرة]، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا». مت: ١٦: ١٨. (المترجم)

(3) P. Heather, *The Fall of the Roman Empire: A New History of Rome and the Barbarians* (Oxford, 2006), p. 6.

عن حظر الزواج على الجنود الرومان، انظر في المقام الأول:

S. Phang, *Marriage of Roman Soldiers (13 BC–AD 235): Law and Family in the Imperial Army* (Leiden, 2001).

(4) C. Howgego, 'The Supply and Use of Money in the Roman World 200 b.c. to a.d. 300', *Journal of Roman Studies* 82 (1992), 4–5.

الرسائل المكتوبة على ألواح الإردواز التي أرسلها الجنود الرومان المتمركزون ثمة إلى روما، لقد كانت هذه الولاية مرادفًا للعزلة القاتمة والمجدبة[1].

بيد أن تحول روما إلى إمبراطورية لم يكن له علاقة بأوروبا قط، ولا بفرض السيطرة على قارة فقيرة في الموارد، وفقيرة في المدن الجاذبة للسكان من المستهلكين ودافعي الضرائب. إن ما دفع روما إلى عصر جديد هو إعادة ضبطها لبوصلتها نحو شرق البحر المتوسط وما وراءه. ونجاح روما ومجدها ينبعان من استيلائها على مصر في المقام الأول، ومن ثم ترسيخ وجودها في الشرق، أعني آسيا.

حكَم أحفاد بطليموس (Ptolemy) -وكان أحد حراس الإسكندر الأكبر- مصر لما يقرب من ٣٠٠ عام. وجنَت مصر ثروةً هائلةً بسبب نهر النيل، الذي فاضت مياهه على الأرضين، فأثمرت محاصيل هائلة من الغلال. ولم تكن كمية هذه الغلال كافية لسد رمق أهلها فحسب، بل وفرت فائضًا عظيمًا مكن الإسكندرية -الواقعة عند مصب النهر- من التطور لتصبح أكبر مدينة في العالم وفقًا لأحد الكتّاب المعاصرين، الذي قدر عدد سكانها في القرن الأول قبل الميلاد بنحو ثلاثمئة ألف نسمة[2]. وروقبت شحنات الغلال بعناية، حيث كان على ربابِنة السفن أداء القسم الملكي في كل مرة قبل أن يجري شحن سفنهم بالغلال، ثم الحصول على إيصال موقع من ممثل الكاتب الملكي، عندئذٍ كان يُسمح بتحميل الغلال وشحنها على متون تلك السفن[3].

لطالما نظرت روما إلى مصر نظرة ملؤها الجشع. وانتهزت الفرصة عندما تورطت الملكة كليوباترا (Cleopatra) في صراع عبثي من أجل السيادة والسلطة بعد اغتيال يوليوس قيصر. فكان أن تحالفت مع مارك أنطونيو (Mark Antony) في معركة أكتيوم (Actium) عام ٣٠ ق.م. وسرعان ما واجه الحاكم المصري جيشًا رومانيًا بقيادة أوكتافيان (Octavian) -وكان سياسيًا داهيةً- أخذ يضغط بجحافله على الإسكندرية. وبعد سلسلة من القرارات الدفاعية -التي جمعت بين الإهمال الجسيم وانعدام الكفاءة- لم تجد كليوباترا بدًّا من الانتحار، إما نتيجة لدغة أفعى سامة، أو ربما تجرَّعت السمَّ مباشرةً. وهكذا سقطت مصر في حجر روما كثمرة ناضجة[4]. وعلى هذا النحو ترك أوكتافيان روما بوصفه قائدًا

(1) A. Bowman, *Life and Letters from the Roman Frontier: Vindolanda and its People* (London, 1994).

(2) Diodorus Siculus, *Bibliotheke Historike*, 17.52, in *The Library of History of Diodorus of Sicily*, ed. and tr. C. Oldfather, 12 vols (Cambridge, MA, 1933–67), 7, p. 268.

قدر بعض العلماء المحدَثين عدد سكان الإسكندرية بنصف مليون نسمة، انظر على سبيل المثال:

R. Bagnall and B. Frier, *The Demography of Roman Egypt* (Cambridge, 1994), pp. 54, 104.

(3) D. Thompson, 'Nile Grain Transport under the Ptolemies', in P. Garnsey, K. Hopkins and C. Whittaker (eds), *Trade in the Ancient Economy* (Berkeley, 1983), pp. 70–1.

(4) Strabo, *Geographika*, 17.1, in *The Geography of Strabo*, ed. and tr. H. Jones, 8 vols (Cambridge, MA, 1917–32), 8, p. 42.

عسكريًا؛ وعاد إليها بوصفه حاكمها الأعلى، حيث لُقِّب بلقبٍ جديد منحه له مجلس الشيوخ (Senate) ممتنًا: وهو لقب أغسطس (Augustus). لقد غدت روما إمبراطوريةً.

وغيَّر الاستيلاء على مصر ثروات روما تغييرًا كليًا. فبعد أن سيطرت على المحاصيل الهائلة في وادي النيل، تراجعت أسعار الغلال فيها، الأمر الذي أدى إلى زيادة كبيرة في القدرة الشرائية للأسر الرومانية. وانهارت أسعار الفائدة، حيث انخفضت من نحو ١٢٪ حتى بلغت ٤٪ فحسب؛ وسرعان ما أدى هذا بدوره إلى تغذية الطفرة المألوفة المصاحبة لتدفق رأس المال الرخيص، أعني ارتفاع أسعار العقارات[١]. وزاد متوسط الدخل زيادةً حادةً؛ حتى إن أغسطس رفع النصاب المالي اللازم لعضوية مجلس الشيوخ بمقدار ٤٠٪[٢]. ولمَّا كان أغسطس نفسه رجلاً يحب الفخر، فقد تباهى بأنه وجد روما مدينة مشيدة بالطوب، وتركها مُشيدة بالرخام[٣].

كانت هذه الزيادة في الثروة نتيجة لمصادرة روما القاسية لعائدات الضرائب المصرية ومواردها الهائلة. فقد انتشرت فرق جباة الضرائب الرومان في جميع أنحاء مصر لفرض ضريبة رأس جديدة، وجب دفعها على جميع الرجال الذين تراوحت أعمارهم بين ١٦ إلى ٦٠ عامًا. ولم يُعفَ أحدٌ منها إلا في حالات خاصة قليلة، وعلى رأسهم الكهنة -على سبيل المثال- فقد أعفاهم الرومان من دفع الضريبة، ولكن بعد تسجيل أسمائهم في سجلات المعابد بدقة[٤]. وكان هذا جزءًا من نظام أطلق عليه أحد العلماء المحدَثين اسم «نظام الفصل العنصري القديم» 'Ancient apartheid'؛ وكان الهدف من هذا النظام تعظيم الأموال المتدفقة على روما[٥].

---

(1) Cassius Dio, *Historia Romana*, 51.21, in *Dio's Roman History*, ed. and tr. E. Cary, 9 vols (Cambridge, MA, 1914–27), 6, p. 60; Suetonius, *De Vita Cesarum. Divus Augustus*, 41, in *Suetonius: Lives of the Caesars*, ed. and tr. J. Rolfe, 2 vols (Cambridge, MA, 1997–8), 41, 1, p. 212; R. Duncan-Jones, *Money and Government in the Roman Empire* (Cambridge, 1994), p. 21; M. Fitzpatrick, 'Provincializing Rome: The Indian Ocean Trade Network and Roman Imperialism', *Journal of World History* 22.1 (2011), 34.

(2) Suetonius, *Divus Augustus*, 41, 1, pp. 212–14.

(3) Ibid., 28, 1, p. 192; Augustus' claim is supported by the archaeological record

وتؤيد السجلات الأثرية مزاعم أغسطس. انظر:

P. Zanker, *The Power of Images in the Age of Augustus* (Ann Arbor, 1989).

(٤) عن الضرائب على طرق القوافل انظر:

J. Thorley, 'The Development of Trade between the Roman Empire and the East under Augustus', *Greece and Rome* 16.2 (1969), 211. Jones, *History of Rome*, pp. 256–7, 259–60; R. Ritner, 'Egypt under Roman Rule: The Legacy of Ancient Egypt', in *Cambridge History of Egypt*, 1, p. 10; N. Lewis, *Life in Egypt under Roman Rule* (Oxford, 1983), p. 180.

=

(٥) انظر في هذا الصدد:

وتكررت عملية تخصيص الخراج في مكان آخر جراء التوسع الاقتصادي والعسكري الروماني. فبُعيد ضم الرومان مصر، أُرسِل الجباة الرومان إلى فلسطين لإجراء تعداد لسكانها، لحساب الضرائب حسابًا دقيقًا. ونفترض أنهم اتبعوا هناك الإجراءات نفسها التي عملوا بها في مصر سابقًا، فتطلب عملهم تسجيل جميع المواليد والوفيات، إضافة إلى أسماء جميع الذكور البالغين، وربما جرى تسجيل ميلاد يسوع المسيح بقلم موظف لم يكن ليكترث بهوية الرضيع، ولا بمن عساهم يكونون أهله، بل كان جل اهتمامه منصبًّا على هؤلاء المواليد أنفسهم، وما يمثلونه من زيادة مرتقبة في أعداد القوى العاملة، ومن ثم زيادة عدد دافعي الضرائب للإمبراطورية في المستقبل[1].

وعلى هذا النحو انفتحت عيون روما على العالم الذي واجهته في الشرق. واكتسبت آسيا بالفعل سمعة طيبة للرفاهة، والدعة، والكسل. وكتب شيشرون (Cicero) قائلًا: إن آسيا ثريةٌ ثراءً فاحشًا، وحصادها مادة الأساطير، وتنوع منتجاتها لا يكاد يُصدَّق، وحجم قطعانها وأسرابها مذهل ببساطة، وصادراتها هائلة[2]. وكانت هذه هي ثروة آسيا التي رأى الرومان أن سكانها قوم مرفهون خاملون. ومن ثم فلا عجب أن الجنود الرومان بلغوا سن الرشد في الشرق، على حد تعبير الشاعر سالوست (Sallust): فكانت آسيا هي المكان الذي تعلم فيه الجنود الرومان كيف يحبون، وكيف يسكرون حتى الثُّمالة، وكيف يستمتعون بالتماثيل، وبالتصاوير، وبالفنون. بيد أن هذا لم يبدُ جيدًا، على الأقل في عيني سالوست. وربما كانت آسيا «أرض المتع الحسّية والانغماس في الشهوات»، وأدت «ملذاتها إلى فتور همم الجنود»[3]. وعلى هذا النحو مثَّل الشرق نقيضًا لكل ما كانت روما تمثِّله من قِيم العسكرية الصارمة.

وبذل أغسطس نفسه جهودًا حثيثة لفهم ما الذي يكمن وراء الحدود الجديدة في الشرق. فأرسل قوات من المشاة إلى مملكة أكسوم (Axum) (إثيوبيا الحديثة)، وكذلك إلى مملكة سبأ في اليمن، بينما

= Lewis, *Life in Egypt*, pp. 33–4; Ritner, 'Egypt under Roman Rule', in *Cambridge History of Egypt*, 1, pp. 7–8; A. Bowman, *Egypt after the Pharaohs 332 BC–AD 642: From Alexander to the Arab Conquest* (Berkeley, 1986) pp. 92–3.

(١) عن تسجيل المواليد والوفيات في مصر الرومانية، انظر:

R. Ritner, 'Poll Tax on the Dead', *Enchoria* 15 (1988), 205–7.

عن التعداد، بما في ذلك تاريخه، انظر:

J. Rist, 'Luke 2:2: Making Sense of the Date of Jesus' Birth', *Journal of Theological Studies* 56.2 (2005), 489–91.

(2) Cicero, *Pro lege Manilia*, 6, in *Cicero: The Speeches*, ed. and tr. H. Grose Hodge (Cambridge, MA, 1927), p. 26.

(3) Sallust, *Bellum Catilinae*, 11.5–6, in *Sallust*, ed. and tr. J. Rolfe (Cambridge, MA, 1931), p. 20; A. Dalby, *Empire of Pleasures: Luxury and Indulgence in the Roman World* (London, 2000), p. 162.

كان يجري استكشاف خليج العقبة تزامنًا مع العمل على ترسيخ أركان الحكم الروماني في مصر[١]. وفي عام ١ ق.م، أمر أغسطس بإجراء مسح مُفصَّلٍ لضفتي الخليج العربي، بهدف إعداد تقرير عن التجارة في هذه المنطقة، ولتسجيل الكيفية التي ترتبط بها الممرات البحرية بالبحر الأحمر. كما أشرف على التحقيق في الطرق البرية المؤدية إلى أعماق آسيا الوسطى من خلال بلاد فارس. وثَمَّ متنٌ يُعرَف باسم **محطات البارثيين** (Stathmoi Parthikoi) دوِّن في هذا الوقت تقريبًا؛ وسُجِّلت فيه المسافات بين النقاط الرئيسة في الشرق، كما حُددت فيه بعناية المواقع الأكثر أهمية من نهر الفرات حتى ألكسندروبوليس (Alexandropolis)، وهي قندهار الحديثة الواقعة شرقي أفغانستان[٢].

وتوسعت الآفاق التي بلغها التجار إلى حدٍّ كبير. فوفقًا للمؤرخ سترابو (Strabo)، كان هناك ١٢٠ سفينة رومانية -بُعيد استيلاء الرومان على مصر- تُبحر إلى الهند كل عام من ميناء ميوس هرموس (Myos Hormos) الواقع على البحر الأحمر. ويسعنا القول: إن التبادل التجاري مع الهند لم ينفتح، بل انفجر، كما يتضح ذلك من خلال السجل الأثري الغني في شبه القارة الهندية. فقد عثرنا على كميات وفيرة من الجرار الخزفية الرومانية الشهيرة المسماة «أمفورا» (Amphorae)، إضافةً إلى المصابيح، والمرايا، وتماثيل الآلهة في مجموعة واسعة من المواقع، مثل: باتَّانام (Pattanam) وكولهابور (Kolhapur) وكويمباتور (Coimbatore)[٣]. كما اكتشفنا كمياتٍ كبيرةً من العملات المعدنية التي يرجع تاريخها إلى عهود أغسطس وخلفائه في سواحل الهند الغربية وجزر لكشديب (Laccadive). وقال بعض المؤرخين عن تلك العملات: إن الحكام المحليين في الشرق استخدموا العملات الذهبية والفضية الرومانية عملةً لهم، أو صهروا هذه المعادن لإعادة استخدامها[٤].

---

(1) F. Hoffman, M. Minas-Nerpel and S. Pfeiffer, *Die dreisprachige Stele des C. Cornelius Gallus. Ubersetzung und Kommentar* (Berlin, 2009), pp. 5ff.
G. Bowersock, 'A Report on Arabia Provincia', *Journal of Roman Studies* 61 (1971), 227.

(2) W. Schoff, *Parthian Stations of Isidore of Charax: An Account of the Overland Trade between the Levant and India in the First Century BC* (Philadelphia, 1914)
وغالبًا ما يُنظر الباحثون إلى هذا المتن على أنه متعلق بطرق التجارة؛ بينما يرى ميلر أن هذا غير صحيح. انظر:
'Caravan Cities', 119ff.
ولإلمامة عن «الكسندروبوليس» (Alexandropolis)، انظر:
P. Fraser, *Cities of Alexander the Great* (Oxford, 1996), pp. 132–40.

(3) Strabo, *Geographica*, 2.5, 1, p. 454; Parker, 'Ex Oriente', pp. 64–6; Fitzpatrick, 'Provincializing Rome', 49–50.

(4) Parker, 'Ex Oriente', 64–6; M. Vickers, 'Nabataea, India, Gaul, and Carthage: Reflections on Hellenistic and Roman Gold Vessels and Red-Gloss Pottery', *American Journal of Archaeology* 98 (1994), 242; E. Lo Cascio, 'State and Coinage in the Late Republic and Early Empire', *Journal of Roman Studies* 81 (1981), 82.

ويسـرد الأدب التاميلي من تلك الحقبة رواية مماثلة، حيث سـجل وصول التجار الرومان تسـجيلًا مثيرًا. فتتحدث إحدى القصائد عن «النبيذ الرائع ذي الرائحة الشهية» الذي جلبه التجار الرومان الذين أبحـروا علـى متـون «سُـفن رائعة». بينمـا تتحدث قصيدة أخـرى عن «السـفن الكبيرة الجميلـة... التي مخـرت عبـاب مياه [نهر] البريار فكدَّرت صفاء مائه بالزَّبـد الأبيض، وغدت محملةً بالذهبَ، وراحت محملة بالفلفل، على وقع موسـيقى هدير البحر، عندئذ يقدم الملك العظيم للزائرين المنتجات النادرة المسـتخرجة مـن البحر والجبل»[1]. ويمدنـا مصدر آخر بقصيدة فيها وصفٌ للتجـار الأوروبيين الذين اسـتقروا في الهند، حيث جاء فيها: «أشـرقت الشـمس على الشـرفات المفتوحة، وعلى المسـتودعات القريبة من الميناء، وعلى أبراج السُّـفن التي بدت نوافذها للناظر أشـبه بعيون الغزلان. هنا وهناك... لا يلفت نظر المرء إلا مشهد مساكن [الأوروبيين]، المزدهرين دومًا»[2]. ويكشف متن **محطات البارثيين** *Stathmoi Parthikoi* عن البضائع التي كان الرومان يسـعون إلى شـرائها من غرب الهند، مع الإشـارة إلـى الأماكـن التـي كان يسـعهم شـراء المعـادن الثمينة منهـا، مثل: القصديـر، والنحـاس، والرصاص، والزبرجد. إضافة إلى الأماكن التي كانوا يجدون بها العاج، والأحجار الكريمة، والتوابل بسهولة[3].

ومـع ذلـك، لم تقتصر التجارة مع الموانئ في الهند على منتجات شـبه القارة الهندية فحسـب، فقد أظهرت الحفريات في ميناء برنيكي (Berenike) -وكان يقع في مصر على البحر الأحمر- أن مجموعة مـن البضائـع المجلوبـة من مناطـق بعيدة، مثل: ڤيتنـام وجاوا وجـدت طريقها إلى البحر المتوسـط[4]. وكانت الموانئ على السـواحل الغربية والشـرقية للهند بمثابة مراكز تجارية لتجميع البضائع المجلوبة من جميع أنحاء شـرق، وجنوب شـرق آسـيا وتجهيزها للشـحن غربًا[5]. ثم كانت هناك سلع ومنتجات البحـر الأحمـر، وكانـت منطقة تجاريـة نابضة بالحيـاة في حد ذاتهـا، إضافة إلى دورها فـي ربط البحر المتوسط بالمحيط الهندي وما وراءه[6].

---

(١) نقلاً عن:

G. Parker, *The Making of Roman India* (Cambridge, 2008), p. 173.

(٢) تجد هذه الأبيات في:

H. Kulke and D. Rothermund, *A History of India* (London, 2004), 107–8.

(3) L. Casson (ed.), *The Periplus Maris Erythraei: Text with Introduction, Translation and Commentary* (Princeton, 1989), 48–9, p. 80; 56, p. 84.

(4) W. Wendrich, R. Tomber, S. Sidebotham, J. Harrell, R. Cappers and R. Bagnall, 'Berenike Crossroads: The Integration of Information', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 46.1 (2003), 59–62.

(5) V. Begley, 'Arikamedu Reconsidered', *American Journal of Archaeology* 87.4 (1983), 461–81; Parker, 'Ex Oriente', 47–8.

(٦) انظر:

T. Power, *The Red Sea from Byzantium to the Caliphate, AD 500–1000* (Cairo, 2012).

وعلى هذا النحو أضحى باستطاعة مواطني روما الأثرياء -آنئذٍ- الاستمتاع بأكثر الأذواق غرابةً وإسرافًا. وجأر بعض المراقبين بالشكايات من الإسراف الفاحش، كما تحسروا على التبذير الذي تجاوز الحد في السَّفه[1]. وسُجِّل هذا على نحو مثالي في كتاب بيترونيوس (Petronius)، المسمى ستريكون *Satyricon*، حيث يصور أشهر مشاهده وليمةَ العشاء التي أقامها تريمالشيو (Trimalchio)، وكان عبدًا في الماضي، ثم أُعتِق بأخَرةٍ، وبعد أن نال حريته استطاع جمع ثروة طائلة. ويسخر النص -في ثنايا تصويره- من أذواق مُحدَثي النِّعمة سخريةً لاذعة. فقد وضع تريمالشيو نصب عينيه اقتناء أفضل ما يمكن أن يُشترى بالمال، فاشترى لضيوفه الديكة البرية المجلوبة خصيصًا من الساحل الشرقي للبحر الأسود؛ والدجاج الحبشي المجلوب من إفريقيا؛ والأسماك النادرة باهظة الثمن، ناهيك عن الطواويس، بل قدَّم لضيوفه ما هو أثمن من ذلك بكثير في تبذيرٍ عزَّ مثله. وبلغ السَّيل الزبى في مشهد تقديم الطبق تلو الآخر للضيوف، عندما قدم الخدم خنزيرًا محشوًا بالطيور الحية، التي طارت في اللحظة التي شق فيها أحد المدعوين جوف الخنزير. ثم أُعطي كل ضيف خلة أسنان مصنوعة من الفضة. لقد كانت تلك محاكاة ساخرة لاذعةً للابتذال، والتبذير، والسفه في ثروة روما الجديدة. وهكذا نتج عن إحدى فترات الازدهار الكبرى -في العصور القديمة- تعبير أدبيٌّ عظيمٌ عن الغيرة المريرة من محدَثي النعمة[2].

ومكنت الثروة الجديدة روما وأهلها من الاتصال بعوالم جديدة، وأذواق جديدة. وجسد الشاعر مارتيال (Martial) الطابع الدولي، والمعرفة الواسعة في هذه الحقبة في قصيدة رثى فيها جاريةً شابةً؛ حيث شبَّه فيها تلك الجارية بزهرةِ زنبق عذراء لم تمسَسْها يد، وبعاج هندي مصقول، وبلؤلؤة مجلوبة من البحر الأحمر، ووصف شعرها بأنه كان أرق من الصوف الإسباني، أو خصلات الشعر الأشقر لأهل نهر الراين[3]. وكان الأزواج الذين يرغبون في إنجاب أطفال يمتازون بالجمال يجامعون زوجاتهم وقد أحاطت بهم التصاوير المثيرة جنسيًّا في الماضي، أما «الآن» -على حد تعبير كاتب يهوديٍّ مذعورٌ- «فقد بات الأزواج الرومان يجلبون عبيدًا إسرائيليّين ويربطونهم مصطفين على هيئة قاعدة السرير» للاستلهام؛ ولأنهم يستطيعون تحمل ذلك[4]. بيد أن الجميع لم يكونوا مُعجبين بالأذواق الجديدة، فقد عكَّرت مياه نهر العاصي -وهو النهر الذي يتدفق عبر سوريا وجنوب تركيا- مياه نهر التبر في إيطاليا، على حد تعبير جوڤينال (Juvenal) في هجائياته المسماة *Satires*؛ فهو ذا الانحطاط

(1) Tacitus, *Annales*, ed. H. Heubner (Stuttgart, 1983), 2.33, p. 63.

(2) Petronius, *Satyricon*, ed. K. Müller (Munich, 2003), 30–8, pp. 23–31; 55, p. 49.

(3) Martial, *Epigrams*, 5.37, in *Martial: Epigrams*, ed. and tr. D. Shackleton Bailey, 3 vols (Cambridge, MA, 1993), 1, p. 388.

(٤) التَّلمود البابلي، نقلاً عن:

Empire of Pleasures, p. 266.

الآسيوي قد دمَّر الفضائل الرومانية القديمة. واستطرد قائلًا: «إن تألقت في عينيك عاهرة فاتنة ترتدي غطاء رأس بربري، فاعرض عنها»[1].

كان ظهور سلعة بعينها -بالنسبة لبعض الكتَّاب المحافظين- أكثر إثارة للفزع من غيرها، كانت تلك السلعة هي الحرير الصيني[2]. وتسبب تزايد وجود هذا النسيج في البحر المتوسط في حدوث خلاف في أوساط المحافظين. فقد شعر سينيكا (Seneca) بالذعر من شعبية النسيج الرقيق المتدفق من الشرق، وجهر بالقول: إن الملابس الحريرية لا يمكن أن تسمى ملابس، ذاك أنها تفضح أجساد نساء روما، أكثر مما تسترها. وقال: إن أساس العلاقة الزوجية قد قُوِّض بالفعل، حيث بات في وسع جميع الرجال رؤية أجساد جميع النساء من خلال القماش الخفيف الذي يلتصق بأجسادهن فيصفُها للرائي وصفًا، حتى إنه لا يترك سوى أقل القليل للخيال. لقد كان الحرير -في نظر سينيكا- مجرد رمز للغرابة والإثارة الجنسية معًا. كما عدَّ المرأة التي ترتدي ثوبًا مصنوعًا من الحرير وتنفي عن نفسها تهمة العُري، امرأةً كاذبةً[3]. وشعر آخرون بشعور سينيكا نفسه، حيث بُذلت جهود حثيثة لمنع الرجال من ارتداء الملابس المصنوعة من الحرير، حتى إن بعض المراسيم صدرت في هذا الصدد. وقال بعض الناس ببساطة: كفى بالرومان خِزيًا إن اتفق اثنان من أعيانهم على أنهما لا يجدان غضاضة في ارتداء الرجال الرومان ملابس حريرية مجلوبة من الشرق[4].

ومع ذلك، أعرب آخرون عن قلقهم بشأن انتشار الحرير لأسباب مختلفة تمامًا. فقد استاء بليني الأكبر (Pliny the Elder) (وهو كاتب من أهل النصف الثاني من القرن الأول الميلادي) من الكُلفة العالية للسلع الفاخرة لمجرد «رغبة السيدات الرومانيات في التأنق في الأماكن العامة»[5]. وكانت أسعار تلك السلع الباهظة جنونية، فقد ناهزت مئة ضعف التكلفة الحقيقية لها[6]. وأُنفقت مبالغ طائلة من المال سنويًا على الكماليات المجلوبة من آسيا «لنا ولنسائنا» -على حد قول بليني؛ حيث ضَخَّ الرومان مبلغًا ناهز ١٠٠ مليون سيسترس (Sesterces) سنويًا في الأسواق التجارية الواقعة خارج حدود البلاد[7].

ويمثل هذا المبلغ المذهل ما يقرب من نصف إنتاج دور السَّكة الإمبراطورية سنويًا، وأكثر من عشرة بالمئة من الميزانية السنوية للإمبراطورية. ومع ذلك، لا يبدو أن بليني كان مبالغًا في تقديره إلى

(1) Juvenal, *Satire* 3, in *Juvenal and Persius*, ed. and tr. S. Braund (Cambridge, MA, 2004), pp. 172–4.

(2) Casson, *Periplus Maris Erythraei*, 49, p. 80; 56, p. 84; 64, p. 90.

(3) Seneca, *De Beneficiis*, 7.9, in *Seneca: Moral Essays*, ed. and tr. J. Basore, 3 vols (Cambridge, MA, 1928–35), 3, p. 478.

(4) Tacitus, *Annales*, 2.33, p. 63.

(5) Pliny the Elder, *Naturalis Historia*, 6.20, in *Pliny: The Natural History*, ed. And tr. H. Rackham, 10 vols (Cambridge, MA, 1947–52), 2, p. 378.

(6) Ibid., 6.26, p. 414.

(7) Ibid., 12.49, p. 62.

حد كبير. وينهض عقد مدون على ورق البردي -اكتُشف مؤخرًا، ودوِّنت فيه شروط شحنة من البضائع بيـن ميناء موزيريس (Muziris) في الهند، وميناء روماني كان يقع على البحر الأحمر- دليلًا على مدى انتظام الأعمال التجارية الكبيرة الحجم بحلول القرن الثاني الميلادي. كما يحدد سلسلة من الالتزامات المتبادلة بين المصدِّر والمستورِد، ويشرح بوضوح عند أي نقطة ينبغي اعتبار البضائع في عهدة المستورد، ويوضح العقوبات إذا لم يُسدَّد ثمن البضائع في التاريخ المحدد للسداد[1]. لقد تطلبت الأعمال البعيدة مزيجًا من الدقة والصرامة معًا.

ومع ذلك، لم يدفع التجار الرومان بالعملات المعدنية فحسب، بل تاجروا في الزجاج، والفضة، والمشغولات الذهبية دقيقة الصنع، وكذلك في المرجان والزبرجد المجلوبان من البحر الأحمر، واللبان المجلوب من الجزيرة العربية، وبادلوها بالمنسوجات، والتوابل، والأصباغ، مثل النيلة[2]. ومهما كان الشكل الذي اتخذه التدفق الخارجي لرأس المال الروماني، وأيًا كان نطاقه، فقد كان له عواقب بعيدة المدى. لقد أدى -في المقام الأول- إلى تقوية الاقتصادات المحلية على طول طرق التجارة. فقد تحولت القرى إلى بلدات، وتحولت البلدات إلى مدن بازدهار الأعمال التجارية واتساع شبكات الاتصالات والشبكات التجارية، وأصبحت أكثر ارتباطًا من أي وقت مضى. وأقيمت آثار معمارية مثيرة للإعجاب على نحو متزايد في أماكن مثل تدمر (Palmyra)، على حافة صحراء الشام، حيث ازدهرت بوصفها مركزًا تجاريًا يربط الشرق مع الغرب، حتى أُطلق على تدمُر اسم «فينيسيا الرمال»، ولم تكن هذه التسمية عبثًا[3]. كما تغيرت المدن الواقعة على المحور الشمالي الجنوبي، مع المثال الأكثر إبهارًا في البتراء، التي أضحت إحدى عجائب العصور القديمة، بفضل موقعها على الطريق بين مدن شبه الجزيرة العربية والبحر المتوسط. ثم كانت هناك أسواق استقطبت التجار من مئات -إن لم يكن آلاف- الأميال في نقاط تقاطع الطرق الملائمة. وكانت مدينة باتنة (Batnae) -على مقربة من نهر الفرات- تغص بالتجار الأغنياء في شهر سبتمبر/ أيلول من كل عام، حيث تجمعت حشود كبيرة في السوق لشراء السلع المجلوبة من الهند والصين وبيعها، إضافة إلى جميع أنواع البضائع الأخرى المجلوبة أيضًا برًا وبحرًا[4].

---

(1) H. Harrauer and P. Sijpesteijn, 'Ein neues Dokument zu Roms Indienhandel, P. Vindob. G40822', *Anzeiger der Osterreichischen Akademie der Wissenschaften, phil.-hist.Kl.122* (1985), 124–55; L. Casson, 'New Light on Maritime Loans: P. Vindob. G 40822', *Zeitschrift fur Papyrologie und Epigraphik* 84 (1990), 195–206; F. Millar, 'Looking East from the Classical World', *International History Review* 20.3 (1998), 507–31.

(2) Casson, *Periplus Maris Erythraei*, 39, p. 74.

(3) J. Teixidor, *Un Port roman du desert: Palmyre et son commerce d'Auguste a Caracalla* (Paris, 1984); E. Will, *Les Palmyreniens, la Venise des sables* (*Ier siècle avant–IIeme siecle apres J.-C.*) (Paris, 1992).

(4) Ammianus Marcellinus, *Rerum Gestarum Libri Qui Supersunt*, 14.3, in *Ammianus Marcellinus*, ed. and tr. J. Rolfe, 3 vols (Cambridge, MA, 1935–40), 1, p. 24.

وكانت القوة الشرائية لروما كبيرة، حتى إنها حددت تصاميم العملة المعدنية في عمق شرق آسيا. فبعد أن طرد الصينيون بدو يوزهي (Yuezhi) من حوض التاريم (Tarim)، تمكنت تلك القبيلة من السيطرة على موقع حاكم في شرق بلاد فارس، واستولت على المناطق التي حكمها أحفاد قادة الإسكندر. وبمرور الوقت، أثمرت إمبراطورية مزدهرة، سميت على اسم فرع مزدهر من القبيلة، وهم الكوشانيون (Guishang، أو Kushan)، والذين شرعوا في سك كميات كبيرة من العملات المعدنية على غرار تلك التي كانت تصدر في روما[١].

وتدفقت العملة الرومانية على أراضي كوشان من خلال الموانئ في شمال الهند، مثل: بربريكوم (Barbaricum) وبريجازا (Barygaza) في المقام الأول، حيث كان الاقتراب من الميناء والرسو فيه خطيرًا؛ حتى إن المرشدين كانوا يُرسَلون لتوجيه السفن إلى الميناء. وكان التفاوض بشأن الاقتراب من كلا المينائين خطيرًا للغاية، ولاسيما للبحارة الذين كانوا يفتقرون إلى الخبرة أو الدراية بالتيارات البحرية[٢]. وما أن تطأ أقدام التجار الأرض، حتى كانوا يجدون ضالتهم من الفلفل والتوابل وكذلك العاج والمنسوجات، بما في ذلك الحرير المنسوج، وخيوط الحرير. لقد كان الميناءان مركزين تجاريين لتجميع البضائع من جميع أنحاء الهند وآسيا الوسطى والصين، ووفرا ثروة طائلةً للكوشانيين، الذين سيطروا على مدن الواحات وطرق القوافل التي كانت تربط بينها[٣].

وكانت سيطرة الكوشانيين تعني انحسار دور أهل الصين في التجارة مع روما عبر المحيط الهندي، على الرغم من استيراد البضائع وتصديرها من البحر المتوسط إلى الصين بكميات متزايدة. وعلى هذا النحو قاد القائد العظيم بان تشاو (Ban Chao) سلسلة من الحملات حيث وصلت قواته إلى بحر قزوين في أواخر القرن الأول الميلادي، وأُرسل سفيرٌ صيني لجمع مزيد من المعلومات عن السكان «طوال القامة وأصحاب السِّمات المميزة» من سكان الإمبراطورية القوية في الغرب. وقيل إن: دا قين (Da Qin) -أو «قين الكبرى»- كما كان الصينيون يطلقون على الإمبراطورية الرومانية- تمتلك مخزونًا وفيرًا من الذهب، والفضة، والجواهر الفاخرة؛ فقد كانت مصدرًا لعدد كبير من الأشياء الرائعة والنادرة[٤].

---

(1) J. Cribb, 'The Heraus Coins: Their Attribution to the Kushan King Kujula Kadphises, c. ad 30–80', in M. Price, A. Burnett and R. Bland (eds), *Essays in Honour of Robert Carson and Kenneth Jenkins* (London, 1993), pp. 107–34.

(2) Casson, *Periplus Maris Erythraei*, 43, pp. 76–8; 46, pp. 78–80.

(3) Ibid., 39, p. 76; 48–9, p. 81.

عن كوشان، انظر مجموعة من المقالات في:

V. Masson, B. Puris, C. Bosworth et al. (eds), *History of Civilizations of Central Asia*, 6 vols (Paris, 1992–), 2, pp. 247–396.

(4) D. Leslie and K. Gardiner, *The Roman Empire in Chinese Sources* (Rome, 1996), esp. pp. 131–62; R. Kauz and L. Yingsheng, 'Armenia in Chinese Sources', *Iran and the Caucasus* 12 (2008), 157–90.

وأصبحت تعاملات الصين مع بلاد فارس منتظمة ومكثفة. وأرسلت السفارات عدة مرات في السنة؛ حيث أشار مصدر صيني، إلى ما لا يقل عن عشر سفارات قصدت بلاد فارس، وحتى في الفترات الأكثر هدوءًا، أُرسلت خمس أو ست سفارات إلى الغرب[١]. وعادة ما رافقت القوافل الكبيرة السفراءَ والدبلوماسيين، حيث كانت تجلب البضائع للتجارة، وتعود بعد ذلك محملة بالمنتجات التي كان الطلب يشتد عليها في الوطن، مثل: لآلئ البحر الأحمر، واليشم، واللازورد، والمواد الاستهلاكية، مثل: البصل، والخيار، والكزبرة، والرمان، والفستق، والمشمش[٢]، وكذلك اللبان والمر الذي اشتد الطلب عليهما، وكانا يُجلبان من اليمن والحبشة، وكانت هذه السلع تُعرف في الصين باسم «بو-سو» (Po-ssu) أي «السلع الفارسية»[٣]. وكما علمنا -من خلال مصدر متأخر- فإن خوخ سمرقند كان ذا قيمة كبيرة، فكان «بحجم بيض الأوز» ولونه نضر معروف، وكان يُعرف في الصين باسم «الخوخ الذهبي»[٤].

ولما كانت تعاملات أهل الصين المباشرة مع روما محدودة، فقد كانت كذلك معرفة الصينيين بمنطقة البحر المتوسط، والعالم خارج جبال الهيمالايا والمحيط الهندي محدودة بالمثل، حيث سُجِّل نبأ وصول إحدى السفارات الرومانية إلى بلاط الإمبراطور هوان (Huan) نحو عام ١٦٦م. لقد كان اهتمام روما بالشرق الأقصى ومعرفتها به عابرين؛ لقد كانت عيناها مثبتتين دائمًا على بلاد فارس فحسب[٥]. ولم تكن بلاد فارس مجرد منافس أو ندٍّ فحسب، بل كانت هدفًا محتملاً للغزو في حد ذاته. فلم تُشبع السيطرة على مصر نهم الرومان للتوسع، بل إن مؤلفين مثل ڤيرجيل (Virgil) وبربرتيوس (Propertius) تحدثوا بحماسة عن توسيع دائرة النفوذ الروماني. ففي قصيدة كتبها هوراس (Horace) في رثاء أغسطس وأعماله، لم يلتفت إلى الهيمنة الرومانية على البحر المتوسط، بل تطرق إلى السيطرة على العالم بأسره، بما في ذلك قهر أمم مثل الهنود، والصينيين[٦]. وكان فعل ذلك ينطوي على تجييش

---

(1) Sima Qian, *Records of the Grand Historian of China*, 123, 2, p. 241.

(٢) انظر:

B. Laufer, *Sino-Iranica: Chinese Contributions to the History of Civilisation in Ancient Iran* (Chicago, 1919), and R. Ghirshman, *Iran: From the Earliest Times to the Islamic Conquest* (Harmondsworth, 1954).

(3) Power, *Red Sea*, p. 58.

(4) Schafer, *Golden Peaches of Samarkand*, p. 1.

(٥) إن حرص السفارة على حمل أصداف السلحفاة، وقرون وحيد القرن، والعاج، يشير إلى أن السفراء كانوا يعرفون الأذواق الصينية عن كثب، انظر:

F. Hirth, *China and the Roman Orient* (Leipzig, 1885), pp. 42, 94. See here R. McLaughlin, *Rome and the Distant East: Trade Routes to the Ancient Lands of Arabia, India and China* (London, 2010).

(6) Fitzpatrick, 'Provincializing Rome', 36; Horace, *Odes*, 1.12, in *Horace: Odes and Epodes*, ed. and tr. N. Rudd (Cambridge, MA, 2004), p. 48.

الجيوش لغزو بلاد فارس أولًا بطبيعة الحال، وأصبح هذا الشغل الشاغل لعدد متعاقبٍ من الأباطرة. وجرى وضع خطط -مدفوعة بالشعور بالعظمة- لدفع حدود الإمبراطورية إلى أبعد من الممر الجبلي المعروف باسم «بوابات قزوين»، أي إلى عمق الأراضي الفارسية، لقد كانت روما بحاجة للسيطرة على قلب العالم[١].

والحق أن جهودًا كبيرةً قد بُذِلت لتحويل هذه الأحلام إلى حقيقة، ففي عام ١١٣م قاد الإمبراطور تراجان (Trajan) حملة هائلة على الشرق بنفسه. وتوغل سريعًا عبر القوقاز قبل أن ينعطف جنوبًا ويسير بحذاء نهر الفرات، فغزا نَصيبين وباتنة، ثم أمر بسك العملات المعدنية التي أعلنت أن بلاد الرافدين قد أضحت «خاضعةً لسلطة شعب روما». ومع انهيار مقاومة الفُرس، شدد الإمبراطور ضغطه، وقسم قواته إلى قسمين. واستولى على المدن الفارسية الكبرى في انتصار سريع، حيث سقطت أدينيسترا (Adenystrae) وبابل (Babylon) وسلوقية (Seleucia) والمدائن (Ctesiphon) في أيدي الرومان بعد حملة رائعة استمرت لأشهر. وأمر الإمبراطور بسكِّ العملات المعدنية على الفور، حيث نُقشت بنقشٍ عنيدٍ (PERSIA CAPTA) أي «سقَطت بلاد فارس»[٢]. ثم سار تراجان إلى شركس (Charax)، وهي البصرة الحديثة، عند مصب الخليج العربي، ووصَل إلى الشاطئ في الوقت الذي أبحرت فيه سفينة تجارية أخذت تشق طريقها متجهة إلى الهند. فنظر إلى السفينة متأسفًا، ولا بد أنه جال بخلدِه آنذاك أنه لو كان شابًا صغيرًا -مثل الإسكندر الأكبر- لما تردد في المسير إلى نهر السِّند قط[٣].

بدت روما -مع وضع خططها لإنشاء ولايات جديدة في آشور وبابل- مستعدة لبدء فصل جديد، حيث كان توسيع حدودها حتى وادي نهر السند يقربها من بوابة الصين. بيد أن نجاح تراجان لم يدم طويلًا، فقد خاض معارك شرسة بالفعل في مدن بلاد الرافدين قبل أن يعاني الإمبراطور من وذمة دماغية قاتلة، ثم ما لبثت الأنباء أن جاءته تترى تفيده باندلاع ثورة لليهود في فلسطين، وأن ثورتهم انتشرت سريعًا، الأمر الذي كان يتطلب تصرفًا عاجلًا. ومع ذلك، وضع الأباطرة المتعاقبون بلاد فارس نصب أعينهم؛ حيث كان الإنفاق العسكري مركّزًا على الحدود، كما لقيت الأخبار القادمة من تلك الحدود وما وراءها اهتمامًا شديدًا في روما.

وشن الأباطرة حملاتهم بانتظام على آسيا، وذلك في تناقض حاد مع الحال في الولايات الأوروبية للإمبراطورية، ومع ذلك لم يكن التوفيق حليفها دائمًا. ففي عام ٢٦٠م -على سبيل المثال- تعرض

---

(1) B. Isaac, *The Limits of Empire: The Roman Army in the East* (Oxford, 1990), p. 43; S. Mattern, *Rome and the Enemy: Imperial Strategy in the Principate* (Berkeley, 1999), p. 37.

(2) Cassius Dio, 68.29, 8, pp. 414–16; H. Mattingly (ed.), *A Catalogue of the Coins of the Roman Empire in the British Museum*, 6 vols (London, 1940–62), 3, p. 606.

وعن حملة تراجان، انظر:

J. Bennett, *Trajan: Optimus Princeps* (London, 1997), pp. 183–204.

(3) Jordanes, *Romana*, in *Iordanis Romana et Getica*, pp. 34–5

الإمبراطور ڤاليريان (Valerian) لهزيمة نكراء، فوقع في أسـر أعدائه، وعاش في ظل «شـكل بغيض من أشكال العبودية»، حيث استُخدِم «مِرقاةً لكسرى فارس، فكان عليه أن يحني ظهره فيصعد عليه كسرى ليمتطي صهوة جواده كلما أراد. وما زال كسرى يفعل هذا حتى «تسلَّخ جلد ڤاليريان». فلما مات سُلِخ جلـده، وصُبـغ باللون القرمزي، ووضع في معبد آلهة البرابرة، إحياءً لذكرى النصر، وكان هذا المشـهد يُعـرض دائمًـا أمـام سـفرائنا»[١]. لقـد حنَّط الفُـرس جثمانه حتى يتمكـن الجميع من رؤيـة حماقة روما وعارها.

ومـن المفارقـات أن نمـو رومـا وطموحها هو الذي سـاعد علـى ازدهار بلاد فارس نفسـها؛ وذلك لسـبب واحـد، فقد اسـتفادت بلاد فـارس -إلى حدٍّ كبير- من مـرور التجارة طويلة المدى بين الشـرق والغـرب، والتـي عملت أيضًـا على إزاحة مركز الثقل السياسـي والاقتصادي في بـلاد فارس بعيدًا عن الشـمال. لقد كانت الأولوية -في الماضي- للأماكن القريبة من السـهوب من أجل التفاوض مع قبائل البدو على شـراء الماشـية والخيول، والإشراف على الاتصالات الدبلوماسـية اللازمة لمداهنة شعوب السـهوب المخيفـة. وهذا هو السـبب في أن مدن الواحات مثل نِسـا (Nisa) وأبيـوَرد (Abivard) ودارا (Dara) غدَت مدنًا مهمة، ومواطن للقصور الملكية الرائعة[٢].

وشـرع الفُـرس -مـع امتلاء الخزائن المركزية مـن خلال الضرائب والجمارك التـي جبَوها من نمو التجـارة المحليـة وتلـك البعيدة المدى- في إقامة مشـاريع البنية التحتية الكبرى. وشـمل ذلك تحويل المدائـن -وكانـت تقـع على الضفة الشـرقية لنهر دجلة في وسـط بـلاد الرافدين- إلـى عاصمة جديدة جديرة بالاسـتثمار فيها، وكذلك الاسـتثمار المكثف في موانئ مثل ميسان (Characene) -وكانت تقع علـى الخليـج- للتعامل مع حركـة المرور البحرية الآخذة في التزايد آنـذاك. ولـم تكن كل هذه التجارة متجهة لروما فحسب بطبيعة الحال، فقد نشأت تجارة مزدهرة للفخار المزجج من بلاد فارس، اتجهت إلى الهند وسريلانكا خلال القرنين الأول والثاني قبل الميلاد[٣].

---

(1) Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, ed. and tr. J. Creed (Oxford, 1984), 5, p. 11.

(2) A. Invernizzi, 'Arsacid Palaces', in I. Nielsen (ed.), *The Royal Palace Institution in the First Millennium BC* (Athens, 2001), pp. 295–312; idem, 'The Culture of Nisa, between Steppe and Empire', in J. Cribb and G. Herrmann (eds), *After Alexander: Central Asia before Islam: Themes in the History and Archaeology of Western Central Asia* (Oxford, 2007), pp. 163–77.

تعد مدينة «نِسا» -التي طالما جرى تجاهلها- موطنًا لعددٍ كبيرٍ من الأمثلة الرائعة لأشكال الفن الهِلّينستي، انظر:

V. Pilipko, *Rospisi Staroi Nisy* (Tashkent, 1992); P. Bernard and F. Grenet (eds), *Histoire des cultes de l'Asie Centrale preislamique* (Paris, 1991

(٣) عن «ميسـان» (Characene) انظر:

L. Gregoratti, 'A Parthian Port on the Persian Gulf: Characene and its Trade', *Anabasis* 2 (2011), 209–29.

وعن صناعة الفخار -على سبيل المثال- انظر: =

بيد أن التأثير الأكثر أهمية لضغوط روما العسكرية على بلاد فارس هو أن ذلك الضغط أسفر عن ثورة سياسية اندلعت في فارس. ففي مواجهة الضغوط الشديدة من جارتها، خضعت بلاد فارس لتحول كبير، وظهرت سلالة حاكمة جديدة، وهم بنو ساسان، نحو عام ٢٢٠م. الذين حملوا رؤية جديدة صريحة، تطلبت نزع السلطات من حكام الولايات، الذين طالما تمتعوا بالاستقلال في كل شيء عدا الاسم. ومن ثم مال الساسانيون إلى المركزية في إدارة شؤون الدولة، وشهدت بلاد فارس سلسلة من الإصلاحات الإدارية التي رمت إلى إحكام السيطرة على كل جانب من جوانب الدولة تقريبًا: وأولى بنو ساسان المساءلة أولوية قصوى، فمنحوا مرؤوسيهم أختامًا لتسجيل قراراتهم، وعلى هذا النحو تتبعت الدولة المسؤوليات، وضمِنت الإفصاح الدقيق عن المعلومات. ووصلتنا آلاف من هذه الأختام التي توضح لنا المدى الذي بلغته عملية إعادة التنظيم هذه[١].

وألفى التجار والأسواق أنفسهم خاضعين للتنظيم، حيث سجل أحد المصادر الكيفية التي جرى بها تخصيص مناطق معينة للصناع والتجار -فنظِّم عدد منهم في نقابات- في الأسواق. وسهل ذلك على المفتشين ضمان استيفاء معايير الجودة والكمية، وفي المقام الأول جمع الضرائب والرسوم بكفاءة[٢]. وأدى التركيز على البيئة الحضرية -وهي مواقع معظم عمليات التبادل التجاري- إلى تحسين أنظمة شبكات المياه التي امتدت -في بعض الحالات- لعدة أميال، وذلك لزيادة الموارد المتاحة، وتوفير مجال لمزيد من النمو الحضري. وأُنشِئ عددٌ لا يكاد يُحصى من المدن الجديدة، وثَم نص فارسي متأخر -استند إلى مادة قديمة- يشهد على ازدهار التنمية الحضرية في جميع أنحاء آسيا الوسطى، والهضبة الإيرانية، وبلاد الرافدين والشرق الأدنى[٣].

ونُفِّذت مشاريع ري واسعة النطاق في خوزستان والعراق بوصفها جزءًا من محاولة واعية لتعزيز الإنتاج الزراعي، والتي كان لابد أن يكون لها أيضًا أثرٌ ما في خفض أسعار المواد الغذائية[٤]. وتظهر

= H. Schenk, 'Parthian Glazed Pottery from Sri Lanka and the Indian Ocean Trade', *Zeitschrift fur Archaologie Ausereuropaischer Kulturen* 2 (2007), 57–90.

(1) F. Rahimi-Laridjani, *Die Entwicklung der Bewasserungslandwirtschaft im Iran bis in Sasanidisch-fruhislamische Zeit* (Weisbaden, 1988); R. Gyselen, *La Geographie administrative de l'empire sasanide: les temoignages sigilographiques* (Paris, 1989).

(2) A. Taffazoli, 'List of Trades and Crafts in the Sassanian Period', *Archaeologische Mitteilungen aus Iran* 7 (1974), 192–6.

(3) T. Daryaee, *Šahrestānīhā-ī Ērānšahr: A Middle Persian Text on Late Antique Geography, Epic, and History* (Costa Mesa, CA, 2002).

(4) M. Morony, 'Land Use and Settlement Patterns in Late Sasanian and Early Islamic Iraq', in A. Cameron, G. King and J. Haldon (eds), *The Byzantine and Early Islamic Near East*, 3 vols (Princeton, 1992–6), 2, pp. 221–9.

الوثائق الأثرية أن جميع الشحنات قد فُحِصت قبل تصديرها، بينما تشهد النصوص المعاصرة على نُسخ العقود التي كانت تُختم ويُحتفظ بها في الدواوين[١]. كما أتاح ضم المدن والأقاليم التي كانت خاضعة لسيطرة كوشان -لقرنين من الزمان تقريبًا- تكثيف عمليات التبادل التجاري مع المشرق[٢].

ولما أخذت بلاد فارس في الازدهار، بدت روما تترنح في مهب الريح. لم يكن بنو ساسان هم مشكلتها الوحيدة، فبحلول عام ٣٠٠م، كانت الحدود الشرقية للإمبراطورية -الممتدة من بحر الشمال إلى البحر الأسود، ومن القوقاز حتى الطرف الجنوبي لليمن- واقعة تحت ضغط شديد. لقد قامت الإمبراطورية الرومانية على التوسع، وحماها جيش مدرب تدريبًا عاليًا. ومع تراجع النمو الإقليمي نتيجة الوصول إلى الحدود الطبيعية لنهري الراين والدانوب وسلسلة جبال طوروس (Taurus) -الواقعة شرقي آسيا الصغرى- أصبحت روما ضحية تقليدية لنجاحاتها؛ إذ أمست هدفًا لأولئك الذين عاشوا على تخوم أراضيها.

وسرعان ما اتخذ الرومان خطوات يائسة رمت إلى إعادة التوازن بين الإيرادات المتحصلة من الضرائب الآخذة في الانخفاض، والتكاليف اللازمة للدفاع عن الحدود الآخذة في الارتفاع. بيد أن تلك الخطوات أدت إلى إثارة الاحتجاجات التي لم يكن ثم مفر من اندلاعها. وأعرب أحد الكُتّاب عن أسفه من أن الإمبراطور دقلديانوس (Diocletian) -الذي أراد حل مشكلة العجز المالي جذريًا، قد خلق مشكلات جديدةً بدلًا من حل المشكلات المتأصلة، و«في خضم جشعه وقلقه، قلب العالم كله رأسًا على عقب»[٣]. لقد أمر الإمبراطور بإجراء مراجعات فرعية لأصول الإمبراطورية، تمهيدًا لإصلاح النظام الضريبي المعمول به. وأرسل الجباة والمفتشين إلى السهل، والجبل، وإلى كل فج عميق. وعلى هذا النحو باغت المفتشون المواقع دون سابق إنذار، فأحصوا كل كرمة، وكل شجرة فاكهة بهدف زيادة الإيرادات الإمبراطورية[٤]. وصدر مرسوم إمبراطوري يحدد أسعار السلع الأساسية وكذلك الواردات الفاخرة مثل بذور السّمسم، والكمون، والجرجير، والقرفة. وتُظهِر شذرة عُثر عليها من هذا المرسوم، اكتُشفت مؤخرًا في بودروم (Bodrum)، المدى الذي كانت الدولة تحاول من خلاله الوصول إلى الأسواق والمتاجر؛ فهناك ما لا يقل عن ستة وعشرين نوعًا من الأحذية بدءًا من الصنادل النسائية المذهبة، وصولًا إلى «الأحذية الأرجوانية المنخفضة على الطراز البابلي»، حيث حدد مفتشو الضرائب في روما الحدود القصوى لأسعارها[٥].

---

(1) R..Frye, 'Sasanian Seal Inscriptions', in R. Stiehl and H. Stier (eds), *Beitrage zur alten Geschichte und deren Nachleben*, 2 vols (Berlin, 1969–70), 1, pp. 77–84; J. Choksy, 'Loan and Sales Contracts in Ancient and Early Medieval Iran', *Indo-Iranian Journal* 31 (1988), 120.

(2) T. Daryaee, 'The Persian Gulf Trade in Late Antiquity', *Journal of World History* 14.1 (2003), 1–16.

(3) Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, 7, p. 11.

(4) Ibid., 23, p. 36.

(٥) متحف «بودروم» للآثار الغارقة (Bodrum Museum of Underwater Archaeology). وعلى حد علمي، فإن هذا النقش الذي اكتُشف عام ٢٠١١ لم يُنشر بعد.

وسَرعان ما أنشَب الإجهاد أظفاره في جسد دقلديانوس -في أثناء محاولته الرامية لإعادة تأسيس الإمبراطورية- فأصابه الضعف والوهن، ومن ثم ترك كل شيء وتقاعد إلى ضُويعَةٍ له كانت تقع على ساحل كرواتيا، ليحول تركيزه إلى أمور وجدها أكثر إمتاعًا من إدارة شؤون الدولة. فكتب إلى رفيق سابق له قائلًا: «كم تمنيتُ لو كان يسعُك الحضور إليَّ هنا في سالونا (Salona)، لترى بعينك ثمار «الملفوف» (الكُرنب) الذي زرعته بنفسي»؛ إنها أكثر من رائعة، ثم استطرد دقلديانوس قائلًا: «لا شيء يمكن أن يغريني بالعودة للسلطة مجددًا ألبتة»[1]. وبينما صور أغسطس نفسه جنديًا في تمثالٍ شهير ورائع عُثر عليه في بريما بورتا (Prima Porta) -إحدى ضواحي روما- فضَّل دقلديانوس أن يقدم نفسه بوصفه مزارعًا. ويلخص هذا التطور كيف تغيرت طموحات روما على مدى ٣٠٠ عام، من التفكير في التوسع حتى بلوغ بلاد الهند، إلى التفكير في زراعة الخضروات التي قد تنافس على الفوز بالجوائز.

كانت سُحب عاصفة قوية آخذة بالتجمع في الأفق، ومن ثم شعر الرومان بالتوتر الذي سرى في جميع أرجاء الإمبراطورية. وكان الإمبراطور قسطنطين (Constantine) هو المبادر بالحركة. كان قسطنطين ابنًا لأحد القادة البارزين في الإمبراطورية، وكان رجلًا طموحًا وقديرًا، وخُصَّ بمَلَكة وضع نفسِه في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب. وكانت لديه رؤية لما كانت روما بحاجةٍ إليه، وكانت رؤياه واضحة، بل كانت مذهلة. لقد كانت الإمبراطورية بحاجة إلى قيادة قوية، وكان ذلك واضحًا للعيان. بيد أن خطة قسطنطين تجاوزت مجرد تركيز السلطة في يديه؛ لقد أمر ببناء مدينة جديدة، أي لؤلؤة جديدة نُظِمت في الخيط الرابط بين البحر المتوسط والمشرق. وكان المكان الذي اختاره موقعًا لمدينته -على نحو ملائم- هو النقطة التي تلتقي عندها أوروبا بآسيا.

* * *

سرى كثير من الشائعات -قبل فترة طويلة- عن نية بعض أباطرة روما نقل مقر السلطة الإمبراطورية. ووفقًا لأحد الكتَّاب الرومانيين، فكر يوليوس قيصر في جعل الإسكندرية، أو موقع طروادة القديمة (Troy) في آسيا الصغرى عاصمةً للإمبراطورية؛ لأنهما كانتا في موقع أفضل للحُكم، حيث تكمن مصالح روما[2]. بيد أن الفكر أضحى واقعًا في مستهل القرن الرابع الميلادي، مع إنشاء مدينة رائعة على مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا وكان ذلك بمثابة تجسيد للأماكن التي كانت الإمبراطورية تركز عليها.

شيَّد قسطنطين مدينة جديدة رائعة في موقع مدينة بيزنطة القديمة، على ضفاف مضيق البوسفور، والتي لم تكن لتنافس روما -عندما آن أوان ذلك- فحسب، بل فاقتها بهاءً أيضًا. فشُيدت القصور

(1) Pseudo-Aurelius Victor, Epitome de Caesaribus, ed. M. Fesly, Pseudo-Aurelius Victor. Abrégé de Césars (Paris, 1999), 39, p. 41.

(2) Suetonius, *Divus Julius*, 79, in *Lives of the Caesars*, 1, p. 132.

المنيفة، وكذلك ميدان لسباق الخيل وسباق العربات. وأُنشِئ عمود هائل في وسط المدينة، نُحِت من كتلة واحدة ضخمة من الرخام السماقي، وانتصب تمثال ضخم للإمبراطور يرنو إلى أسفل. وسميت المدينة الجديدة بـ «روما الجديدة»، إلا أنها سرعان ما عرفت باسم مؤسسها قسطنطين، أي «القسطنطينية». كما أُنشِئت مؤسسات موازية لتعكس تلك التي وُجدت في المدينة الأم، بما في ذلك مجلس الشيوخ، الذي سخر بعض الرومان من أعضائه بوصفهم محدَثي نعمة. فقد اشتملت عضويته على أبناء الصفَّارين، والحماميِّين، والنقانقيِّين ومن هم على شاكلتهم[١].

وكان ينبغي أن تصبح القسطنطينية أكبر مدينة على البحر المتوسط، وأكثر مدنه أهمية، متفوقةً بذلك على أقرانها من حيث الحجم والتأثير والأهمية. وعلى الرغم من أنَّ عددًا كبيرًا من العلماء المحدَثين يرفضون فكرة أن قسطنطين كان يقصد أن تكون المدينة عاصمة جديدة للإمبراطورية رفضًا شديدًا، فإن الموارد الكبيرة التي أنفقها قسطنطين على بنائها تسرد روايتها الخاصة[٢]. كانت القسطنطينية تقع في موقع حاكم على الطرق الحساسة الأخرى كافةً، ولا سيما البحرية منها، فكانت تتحكم في حركة المرور داخل وخارج البحر الأسود، كما كانت نقطة مهمة لاستراق السَّمع والاطلاع على التطورات الجارية في الشرق والشمال أيضًا، أعني البلقان وسهول بانونيا (Pannonia)، حيث كانت المتاعب تختمر ثمة.

أما بالنسبة للغالبية العظمى من السكان في العصور القديمة، فقد كانت آفاقهم محلية ولا ريب، حيث كانت التجارة والتفاعل بين الناس تجري على مسافات قصيرة. ومع ذلك، فقد تداخلت شبكات المجتمع مع بعضها فخلقت عالمًا معقدًا، حيث تشكلت الأذواق والأفكار من خلال المنتجات والمبادئ الفنية والتأثيرات التي قدمت من أماكن دون بلوغها آلاف الأميال.

وكان الأثرياء وأصحاب النفوذ - قبل ألفي عام- في قرطاج ومدن أخرى في البحر المتوسط يرتدون الحرير المصنوع يدويًا في الصين، كما كان يسع الناسُ شراء الفخار المصنوع في جنوب فرنسا في إنجلترا والخليج العربي على حدٍّ سواء. وكانت البهارات والتوابل المزروعة في الهند تُستخدم في مطابخ شينجيانغ (Xinjiang)، كما تستخدم في مطابخ روما سواءً بسواء. وكانت المباني في شمال أفغانستان تحمل نقوشًا يونانية، بينما كانت خيول آسيا الوسطى تُمتطَى بفخرٍ على بعد آلاف الأميال إلى الشرق.

ويسعنا أن نتخيل حياة عملة ذهبية قبل ألفي عام، قد تكون ضُربت في دار سكة إقليمية، وأخذها جندي شاب جزءًا من أجره، فاشترى بها سلعة ما على الحدود الشمالية في إنجلترا، ثم وجدت تلك

(1) Libanius, *Antioch as a Centre of Hellenic Culture as Observed by Libanius*, tr. A. Norman (Liverpool, 2001), pp. 145–67.

(٢) عن الرفض القاطع لـ «أسطورة» نقل العاصمة الإمبراطورية (Translatio imperii)، انظر:
L. Grig and G. Kelly (eds), *Two Romes: Rome and Constantinople in Late Antiquity* (Cambridge, 2012).

العملة طريقها إلى روما حيث أُرسِلت إلى خزينة موظف إمبراطوري مسؤول عن جباية الضرائب، قبل أن تجد طريقها إلى يد تاجر وضعها في صرَّته واتجه شرقًا، ثم دفع بها ثمن سلع اشتراها من التجار الذين قدموا لبيع ما لديهم من بضائع في باريجازا (Barygaza). وهناك أُعجِب بها واحد من أهل البلاد، فقدمها إلى زعماء هندوكوش، الذين دهشوا من جودة تصميمها، وشكلها، وحجمها، فسلموها لعاملهم على السَّكَّة، وربما كان ذلك العامل رومانيًا، أو فارسيًا، أو هنديًا، أو صينيًا، أو ربما كان رجلًا محليًا يتقن مهارات سك العملة. لقد كان هذا العالم مترابطًا، ومعقدًا ومتعطشًا للتبادل التجاري.

قد يسهل علينا قولبة الماضي في شكلٍ نجده مناسبًا لأذهاننا، ويسعنا أن نتخيله بسهولة. بيد أن العالم القديم كان أكثر تعقيدًا وترابطًا مما نود أن نعتقد أحيانًا. إن النظرة إلى روما على أنها سلف أوروبا الغربية تتغاضى عن حقيقة أنها كانت تتطلع باستمرار إلى الشرق، وأنها تشكلت -من نواحٍ عديدة- من تأثيرات مشرقية. لقد كان عالم العصور القديمة نذيرًا بالعالم كما نراه اليوم- فكان نابضًا بالحياة، وتنافسيًا، وفعالًا، وحيويًا. وتشكَّل حزام من المدن في سلسلة امتدت عبر آسيا. وبدأ الغرب يتطلع إلى الشرق، كما أخذ الشرق يتطلع كذلك إلى الغرب. وكانت طرق الحرير القديمة في العصور القديمة تضج بالحياة، مع زيادة حركة المرور التي ربطت الهند بالخليج العربي والبحر الأحمر.

وظلت عيون روما مركزة على آسيا منذ اللحظة التي تحولت فيها من جمهورية إلى إمبراطورية. ثم سرعان ما اتضح لها أن روحها تكمن في آسيا كذلك؛ ذاك أن قسطنطين -والإمبراطورية الرومانية بأسرها- وجدوا الله هناك؛ فقد جاء الدين الجديد من الشرق أيضًا. والمثير للدهشة أنه لم يأت من بلاد فارس، كما لم يأت من الهند، بل جاء من ولايةٍ غير واعدةٍ، حيث تجلَّل بيلاطس البُنطي (Pontius Pilate) -وكان واليًا عليها- بالعار قبل ثلاثة قرون خلَت. لقد كانت النصرانية على وشك الانتشار في كل حدب وصوب.

-٢-

طريق الإيمان

لم تكن السلع التي تدفقت على طول الشرايين هي كل ما كان يربط المحيط الهادئ وآسيا الوسطى والهند والخليج العربي والبحر المتوسط في العصور القديمة فحسب؛ فكذلك كانت الأفكار أيضًا. وكانت المفاهيم المتعلقة بالله من بين أقوى تلك الأفكار. لطالما جرى تنشيط التبادل الفكري والديني في جميع أنحاء هذه المنطقة، حتى صار أكثر تعقيدًا، كما أضحى أكثر قدرة على المنافسة. وكانت الطوائف وأنظمة المعتقدات المحلية على اتصال مع الكونيات (*Cosmologies*) الراسخة. لقد كانت مرنةً طَيِّعةً ملائمة تمامًا لبوتقة انصهار غنية، حيث استُعيرت الأفكار، وصُقِلت، ثم أُعيد تقديمها مجددًا.

لم يمض وقت طويل -بعد أن نقلت حملات الإسكندر الأكبر الأفكار اليونانية إلى الشرق- حتى أخذت الأفكار تتدفق في الاتجاه العكسي. فحققت المفاهيم البوذية تقدمًا سريعًا عبر آسيا، ولاسيما بعد أن دافع عنها الإمبراطور آشوقا (Ashoka)، الذي قيل: إنه اعتنق البوذية بعد أن أنعم النظر في الكلفة الباهظة للحملات العسكرية التي أدت إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في الهند في القرن الثالث قبل الميلاد. وتشهد النقوش من هذا العصر على أن عددًا كبيرًا من الناس باتوا يتبعون المبادئ والطقوس البوذية في مناطق نائية مثل سوريا، بل وربما ما وراءها أيضًا. وتحمل معتقدات الطائفة المعروفة باسم الثيرابوطائية (Therapeutai) -التي ازدهرت في الإسكندرية بمصر لقرون- أوجه شبه لا لبس فيها مع البوذية، من تلك الأوجه: استخدام الكتب الدينية المقدسة، والتفاني في التنوير من خلال الصلاة، والانفصال عن الإحساس بالذات سبيلًا للوصول إلى السلام الداخلي[1].

ويصعِّبُ الغموض في المادة المستقاة من المصادر مهمة تتبع انتشار البوذية تتبعًا دقيقًا. ومع ذلك، فمما يلفت النظر أن هناك أدبيات معاصرة واسعة النطاق وصفَت لنا الكيفية التي انتشَر بها هذا الدين من شبه القارة الهندية إلى مناطق جديدة. وكان ينبغي على الحكام المحليين أن يقرروا ما إذا كانوا سيتسامحون مع البوذية، أم يتوجب عليهم القضاء عليها، أم أن عليهم اعتناقها ودعمها. وكان ميناندر (Menander) -وهو ملك باكتريا في القرن الثاني قبل الميلاد- من بين الحكام الذين لجؤوا إلى هذا

---

(1) H. Falk, *Asókan Sites and Artefacts: A Source-book with Bibliography* (Mainz, 2006), p. 13; E. Seldeslachts, 'Greece, the Final Frontier?- The Westward Spread of Buddhism', in A. Heirman and S. Bumbacher (eds), *The Spread of Buddhism* (Leiden, 2007), esp. pp. 158–60.

الخيار الأخير. انحدر ميناندر من ذرية أحد رجال الإسكندر الأكبر. ووفقًا لنص يُعرف باسم ملِيندابنها (Milindapañha)، اقتنع الملك باتباع مسار روحي جديد بفضل شفاعة راهب مُلهَم، كان ذكاؤه يتناقض مع سطحية العالم المعاصر، وكذلك كانت رحمته وتواضعه. وكان ذلك -على ما يبدو لنا- كافيًا لإقناع الحاكم بالسعي إلى التنوير من خلال التعاليم البوذية[1].

كانت الفضاءات الفكرية واللاهوتية لطرق الحرير مزدحمة؛ حيث زاحمت الآلهة، والطوائف، والكهنة والحكام المحليون بعضهم بعضًا، كما كانت المخاطر كبيرة بالمثل. وكانت المجتمعات -إبانئذٍ- شديدة التقبل لتفسير كل شيء، استهلالًا بالعادي من الأمور، وانتهاءً بالخوارق. عندئذ تطوع الدين ليقدم حلولًا لعدد من المشكلات، كما كانت الصراعات بين مختلف الأديان ذات طابع سياسي تمامًا. وسار الظفر في حالات كل هذه الديانات -سواء كانت هندية الأصل، مثل: الهندوسية، والجاينية، والبوذية، أو كانت متجذرة في بلاد فارس، مثل: الزرادشتية، والمانوية، أو تلك التي وُجِدت غربًا مثل: اليهودية، والنصرانية، ثم الإسلام (ما أن ظهر بطبيعة الحال)- في ساحات المعارك أو على طاولات المفاوضات كتفًا بكتِف مع إظهار التفوق الثقافي والبركة الإلهية. لقد كانت المعادلة بسيطة، وقوية في الوقت نفسه، وتقضي بأن المجتمع الذي يصطفيه الربُّ الإله -أو الآلهة الحقة- فينصره ويحميه يزدهر. أما أولئك الذين يعبدون الأصنام المُضِلة، ويتبعون أهواءهم، فقد كُتب عليهم الذل والخضوع.

ومن ثم، كانت هناك حوافز قوية للحكام للاستثمار في البنية التحتية الروحية الحقة، مثل بناء دور العبادة المنيفة. ووفَّر هذا رافعةً للتحكم في المجتمع داخليًا، الأمر الذي أتاح للحكام تشكيل علاقة تعزيز متبادلة مع رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بسلطة أخلاقية وسياسية كبيرة في جميع الأديان الرئيسة. إلا أن هذا لا يعني أن الحكام كانوا سلبيين، أو أنهم رضخوا للمذاهب التي وضعتها طبقة مستقلة (أو في بعض الحالات طائفة). بل جرى الأمر على النقيض من ذلك، فقد كان يسع الحكام من أولي العزم تعزيز سلطانهم وهيمنتهم من خلال فرض ممارسات دينية جديدة.

وتُقدم إمبراطورية كوشان -التي توسعت من شمال الهند لتضم معظم آسيا الوسطى في القرون الميلادية الأولى- مثالًا على ذلك. فقد اعتنق ملوك هذه الإمبراطورية البوذية، بيد أنهم رسموا مسار تطورها أيضًا. فقد كان من المهم بالنسبة للسلالة الحاكمة -التي كانت أجنبية عن المنطقة- أن تخلق تبريرًا لتفوقها. وسبيلًا إلى ذلك، مزجوا الأفكار المستقاة من مجموعة من المصادر معًا، بغرض تشكيل قاسم مشترك أصغر من شأنه أن يرضي أكبر عدد ممكن من السَّاكنة في الإمبراطورية. ومن ثم، رعى الكوشان بناء المعابد - ديڤاكولا (*Devakula*)، أو «معابد الأسرة الإلهية» التي طورت مفهومًا كان قد

---

(1) Sick, 'When Socrates Met the Buddha', 271;

وعن الأدب البالي (Pali literature) المعاصِر، انظر:

Handbook of Pali Literature (Berlin, 1996).

ترسَّخ بالفعل في تلك الديار، والذي يقضي بأن الحكام كانوا الواسطة بين السماء والأرض[١].

وأعلن ميناندر -منذ وقت مبكر- على عملته أنه لا يعد نفسه حاكمًا زمنيًا فحسب، بل إنه «مُنقذٌ» أيضًا. وكان التأكيد على ذلك أمر من الأهمية بمكان، حتى إنه حرص على تدوين ذلك باليونانية (Soteros)، وبالهندية (Tratasa) في النقوش ثنائية اللغة على عملاته المعدنية[٢]. ومضى الكوشان قُدمًا، فأنشؤوا عبادة للحاكم ادعوا من خلالها وجود علاقة مباشرة بينه وبين الله، وعمل هذا الاعتقاد على خلق مسافة بين الحاكم والمحكوم. وهناك نقش في تاكسيلا (Taxila) -في البنجاب- يسجّل هذا المعنى على نحو مثالي. وتنص عبارته بوضوح على أن الحاكم هو: «الملك العظيم، وملك الملوك، وابن الله»[٣]. ولما كان هذا المفهوم يقضي بأن الحاكم مُنقذ ومخلّص، ومعبر إلى الحياة الآخرة، فقد كان لهذه العبارة أصداء واضحة في التوراة والإنجيل[٤].

ووقع تحول في الطريقة التي شكَّلت بها البوذية الحياة اليومية لأتباعها، فيما عُدَّ تغيرًا ثوريًا طرأ على هذه الديانة في القرن الأول الميلادي؛ حيث كانت تعاليم بوذا -في أبسط أشكالها التقليدية- واضحة ومباشرة، وتدعو إلى ولوج طريق من المعاناة (وهي بالسنسكريتية: Duḥkha) المؤدية إلى حالة من السلام (Nirvāna)، من خلال اتباع ثماني «طرق نبيلة». وعلى هذا النحو لم يشمل الطريق إلى التنوير طرفًا ثالثًا، فلم يشتمل على العالم المادي أو الطبيعي بأية طريقة لها مغزى. لقد كانت الرحلة روحية، وماورائية، وفردية أيضًا.

بيد أنه قُدِّر لهذا أن يتغير إلى حد كبير مع ظهور طرق جديدة للوصول إلى حالة أعلى من الوعي. وما كان يعد رحلة داخلية محضة -تخلو من الزُّخرف، والتأثيرات الخارجية- استُكمل آنئذ ببذل النصيحة، ومد يد العون، وتشييد الأماكن المقدسة التي صمِّمت لجعل الطريق إلى التنوير والبوذية نفسها أكثر إقناعًا. فقد شُيِّدت النُصب أو الأضرحة التي ارتبطت ظاهريًا ببوذا، لتصبح نقاطًا للحج، في حين جعلت النصوص -التي حددت كيفية التعبُّد في مثل هذه المواقع- المثل العليا الكامنة وراء البوذية واقعية وملموسة أكثر من ذي قبل. فتقديم الزهور أو العطور قربانًا إلى الضريح من شأنه أن يساعد على تحقيق الخلاص، كما نصَح متن ساذارمابونداريكا *Saddharmapundarīka*، المشهور

---

(1) G. Fussman, 'The Mat *Devakula*: A New Approach to its Understanding', in D. Srivasan (ed.), *Mathurā: The Cultural Heritage* (New Delhi, 1989), pp. 193–9.

(٢) انظر على سبيل المثال:

P. Rao Bandela, *Coin Splendour: A Journey into the Past* (New Delhi, 2003), pp. 32–5.

(3) D. MacDowall, 'Soter Megas, the King of Kings, the Kushana', *Journal of the Numismatic Society of India* (1968), 28–48.

(٤) الْحَظ على سبيل المثال وصف الله في سفر المزامير على أنه... «رَبَّ الأَرْبَابِ» (سفر المزامير، ١٣٦: ٢-٣)، أو «إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ» (سِفر التثنية، ١٠: ١٧). ويقص علينا سفر الرؤيا كيف سينهزم الوحش، لأن «الخروف» هو «رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ» (سفر الرؤيا، ١٧: ١٤).

باسم كتاب اللوتس *Lotus Sutra*، الذي يعود إلى هذه الحقبة. وكذلك كان الأمر بالنسبة لاستخدام العازفين «لدق الطبول، ونفخ الأبواق والمحار، والأنابيب والقصب، والعزف على العيدان والمزامير والصنوج والقيثارات؛ فإن ذلك سيمكن المريد من بلوغ «طريق بوذا»»[١]. لقد كانت هذه جهودًا متعمدةً لجعل البوذية مرئية ومسموعة؛ كي تتمكن من المنافسة على نحو أفضل في بيئة دينية أخذت تزداد صخبًا.

وكان المفهوم الجديد الآخر هو مفهوم «الوقف»، وعلى وجه التحديد الوقف على الأديرة الجديدة التي ظهرت عبر الطرق الممتدة من الهند إلى آسيا الوسطى. وأصبحت ممارسة التبرع بالمال والجواهر وسائر الهدايا الأخرى ممارسات شائعة، وتحمل في طياتها مفهومًا يقضي بأن أولئك المتبرعين سوف «يتجاوزون محيطات المعاناة» مكافأة لهم على كرمهم وجودهم[٢]. والحق أن كتاب اللوتس *Lotus Sutra* -فضلًا عن متون أخرى من هذه الحقبة أيضًا- ذهب إلى حد سرد المقتنيات الثمينة الأكثر ملاءمة لتهدى إلى الأديرة، مثل: اللؤلؤ، والبلور، والذهب، والفضة، واللازورد، والمرجان، والماس، والزمرد. وكلها كانت هدايا تحظى بالترحيب والقبول[٣].

وتُظهر مشاريع الري واسعة النطاق -التي شُيِّدت نحو مستهل هذه الحقبة في أودية ما نعرفه الآن باسم «طاجيكستان، وجنوب أوزبكستان»- أن هذه الحقبة شهدت ثراءً وازدهارًا إضافة إلى نشاط في التبادل الثقافي والتجاري على نحو متزايد[٤]. ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح المراكز الرهبانية -مع تحولها إلى نُخب محلية ثرية- خلايا نشاط، ومواطن للعلماء الذين عكفوا على تأليف النصوص البوذية، ونسخها، وترجمتها إلى اللغات المحلية، ومن ثم جعلها متاحة لجمهور أكبر، وأوسع نطاقًا. وكان هذا أيضًا جزءًا من برنامج نشر الدين من خلال تيسيره على العوام. وعلى هذا النحو فتحت التجارة الباب أمام توسع الدين[٥].

وتسارع انتشار البوذية -قُرابة القرن الأول الميلادي- من شمال الهند على طول طرق التجارة التي سلكها التجار، والرهبان، والمسافرون. وشُيِّدت العشرات من معابد الكهوف إلى الجنوب، في هضبة ديكان (Deccan)، في ظل وجود هياكل بوذية انتشرت في عمق شبه القارة الهندية انتشار النجوم في

(1) The Lotus of the Wonderful Law or The Lotus Gospel: Saddharma Pundarīka Sūtra Miao-Fa Lin Hua Chung, tr. W. Soothill (London, 1987), p. 77.

(2) X. Liu, *Ancient India and Ancient China: Trade and Religious Exchanges AD 1–600* (Oxford, 1988), p. 102.

(3) *Sukhāvatī-vyūha: Description of Sukhāvatī, the Land of Bliss*, tr. F. Müller (Oxford, 1883), pp. 33–4; *Lotus of the Wonderful Law*, pp. 107, 114.

(4) D. Schlumberger, M. Le Berre and G. Fussman (eds), *Surkh Kotal en Bactriane*, vol. 1: *Les Temples: architecture, sculpture, inscriptions* (Paris, 1983); V. Gaibov, 'Ancient Tajikistan Studies in History, Archaeology and Culture (1980–1991)', *Ancient Civilizations from Scythia to Siberia* 1.3 (1995), 289–304.

(5) R. Salomon, *Ancient Buddhist Scrolls from Gandhara* (Seattle, 1999).

الأفـق[١]. وانتشـرت البوذية إلى الشـمال والشـرق بقوة على أيـدي التجار الصُغديين الذيـن لعبوا دورًا حيويًا في ربط الصين بوادي السِّند. وكان هؤلاء تجارًا رُحَّل من قلب آسيا الوسطى، ووسطاء تقليديين وجعلتهم شبكاتهم المتماسكة، إضافةً إلى استخدامهم الفعال للائتمان، في وضع مثالي للسيطرة على التجارة بعيدة المدى[٢].

وكان سر نجاح الصُغديين في التجارة هو سلسـلة من المحطات التي كان يسـعهم الركون إليها في أثنـاء ترحالهـم. ولمّا اعتنق المزيد من الصغديين البوذية، شـيدوا الأبراج على جانب طرقهم الرئيسـة. ويمكـن رؤيتهـا فـي وادي هونـزا (Hunza) شـمالي باكسـتان. ونحت عشـرات مـن المـارة الصغديين أسـماءهم علـى الصخـور إلـى جانب صور بـوذا، على أمـل أن تكون رحلاتهـم الطويلة مثمـرة وآمنة؛ فأضحت تذكيرًا مؤثرًا بحاجة المسافر إلى الراحة الروحية متى كان بعيدًا عن الوطن[٣].

ولـم تكن تلك الخدوش الصغيرة هي الشـاهد الوحيد على الانتشـار النشـط للبوذية في هذه الحقبة فحسـب. فقد أُحيطت كابول بأربعين ديرًا بوذيًا، وكان أحدها ديرًا وصفه زائر متأخر برهبة. وكتَب هذا الزائـر قائـلًا: إن جمـال هـذا الدير كان يضاهي جمـال فصل الربيع. واسـتطرد قائـلًا: «وكان بلاطه من العقيق، وجدرانه من الرخام النقي. وكان بابه من الفضة الخالصة المطعمة بالذهب. ومُثِّلت النجوم في كل مـكان ينظـر إليـه المـرء... وفي الـرواق، كان هناك تمثال ذهبـي جميل كالقمر، جالـسٌ على عرش ضخم، مرصع بالجواهر»[٤].

وسـرعان مـا انتشـرت الأفكار والممارسـات البوذية شـرقًا عبر جبـال بامير حتى الصيـن. وبحلول أوائـل القـرن الرابـع الميـلادي، كانـت هنـاك مواقـع بوذيـة مقدسـة في جميـع أنحـاء إقليم شـينجيانغ (Xinjiang) شـمال غربـي الصيـن، مثل: مجمـع الكهوف المذهل في قيـزل (Qyzyl) في حوض تاريم (Tarim) الذي اشـتمل على قاعات للعبادة، وأماكن أخرى مخصصة للتأمل، وأماكن واسـعة للمعيشة. ولـم يمـض وقت طويل، حتى كان غـرب الصين يغص بالبقاع التي تحولت إلى بقاع مقدسـة، توزعت علـى كاشـغر (Kashgar) وكوتشـا (Kucha) وتورفـان (Turfan) على سـبيل المثـال[٥]. وبحلول العقد السـابع من القرن الخامس الميلادي أضحى الفكر، والممارسـات، والفنون، والصور البوذية جزءًا من

---

(1) J. Harle, *The Art and Architecture of the Indian Subcontinent* (New Haven, 1994), pp. 43–57.

(٢) انظر في المقام الأول:

E. de la Vaissière, *Sogdian Traders: A History* (Leiden, 2005).

(3) K. Jettmar, 'Sogdians in the Indus Valley', in P. Bertrand and F. Grenet (eds), *Histoire des cultes de l'Asie centrale préislamique* (Paris, 1991), pp. 251–3.

(4) C. Huart, *Le Livre de Gerchāsp, poème persan d'Asadī junior de Toūs*, 2 vols (Paris, 1926–9), 2, p. 111.

(5) R. Giès, G. Feugère and A. Coutin (eds), *Painted Buddhas of Xinjiang: Hidden Treasures from the Silk Road* (London, 2002); T. Higuchi and G. Barnes, 'Bamiyan: Buddhist Cave Temples in Afghanistan', *World Archaeology* 27.2 (1995), 282ff.

التيار السـائد في الصين، حيث تنافسـت البوذية بقوة مع الكونفوشيوسـية التقليدية، وهي كونية واسـعة تعلقت بالأخلاق الشـخصية أكثر من تعلقها بالمعتقدات الروحية، ومع ذلك فقد كان لها جذور عميقة تعود إلى عشرة قرون خلت. وساعد على ذلك الترويج القوي لسلالة حاكمة جديدة كانوا من الغرباء؛ ذاك أنهم كانوا غزاة من السـهوب. فكان لدى قبيلة وي الشـمالية (Northern Wei) -كما كانت الحال مـع قبيلـة كوشـان مـن قبلهم- الكثير لتكسبه من خـلال الترويج للجديد على حسـاب القديـم، وتبني المفاهيـم التـي أكـدت على شـرعية حكمها. وأقيمـت تماثيل ضخمة لــ بوذا في بينشـينغ (Pincheng) ولويانغ (Luoyang)، في أقصى شرق البلاد، إلى جانب الأديرة والمزارات الفخمة. ولـم يكن هناك ثم خطأ في اسـتقراء المغزى من ذلك: لقد انتصرت قبيلة وي الشـمالية؛ لأنهم كانوا جزءًا من دورة إلهية، وليسوا مجرد برابرة حققوا النصر في ساحة الحرب[١].

كمـا حققـت البوذيـة تقدمًـا كبيرًا على طـول الشـرايين التجارية الرئيسـة الواقعة إلى الغـرب أيضًا. وتشـهد مجموعات الكهوف المنتشـرة حول الخليج العربي -إضافةً إلى أعداد كبيرة من الاكتشـافات حول مرو في تركمانستان الحديثة، وسلسلة من النقوش التي وُجدَت في أعماق بلاد فارس- على قدرة البوذيـة على منافسـة المعتقدات المحلية[٢]. كما تشـهد سلسـلة الكلمـات البوذية المسـتعارة في اللغة البارثية على التبادل الفكري الكثيف في تلك الحقبة[٣].

❋ ❋ ❋

على الرغم مما سبق ذكره، فإن الاختلاف كان يكمن في أن تعميق التبادل التجاري حفز بلاد فارس على السـير قدمًا في اتجاه آخر، حيث شـهدت البلاد نهضة اقتصادية، وسياسـية، وثقافية. ولما أعادت الهويـة الفارسـية المميـزة إثبـات ذاتها، ألفـى البوذيون أنفسـهم مضطهدين، لا قُدوات يُحتـذى مثالها. وأرغمت ضراوة الهجمات -التي شُـنَّت على البوذية- البوذيين على التخلي عن المزارات التي كانت لهم في الخليج العربي، وأدت إلى تدمير الأبراج التي نفترض أنها أُقيمت على طول الطرق البرية داخل الأراضي الفارسية[٤].

(1) M. Rhie, *Early Buddhist Art of China and Central Asia*, vol. 1 (Leiden, 1999); R. Wei, *Ancient Chinese Architecture: Buddhist Buildings* (Vienna, 2000).

(2) G. Koshelenko, 'The Beginnings of Buddhism in Margiana', *Acta Antiqua Academiae Scientiarum Hungaricae* 14 (1966), 175–83; R. Foltz, *Religions of the Silk Road: Premodern Patterns of Globalization* (2nd edn, Basingstoke, 2010), pp. 47–8; idem, 'Buddhism in the Iranian World', *Muslim World* 100.2–3 (2010), 204–14.

(3) N. Sims-Williams, 'Indian Elements in Parthian and Sogdian', in R. Röhrborn and W. Veenker (eds), *Sprachen des Buddhismus in Zentralasien* (Wiesbaden, 1983), pp. 132–41; W. Sundermann, 'Die Bedeutung des Parthischen für die Verbreitung buddhistischer Wörter indischer Herkunft', *Altorientalische Forschungen* 9 (1982), 99–113.

(4) W. Ball, 'How Far Did Buddhism Spread West?', *Al-Rāfidān* 10 (1989), 1–11.

لقد ظهرت الأديان واندثرت عندما انتشرت في جميع أنحاء أوراسيا، فقاتل بعضها بعضًا صراعًا على الأتباع، والولاء، والمرجعية الأخلاقية. وكان التواصل مع الله أكثر من مجرد رجاء للتدخل في الحياة اليومية، لقد أصبح ذلك التواصل نفسه مسألة خلاص أو لعنة. وعلى هذا النحو أضحى ذلك التدافع بين الأديان عنيفًا. وكانت القرون الأربعة الأولى من الألفية الأولى بمثابة عاصفة من الحروب الدينية، حيث شهدت خروج النصرانية من قاعدة صغيرة في فلسطين، لتكتسح البحر المتوسط وآسيا.

وجاءت اللحظة الحاسمة عندما استولى بنو ساسان على السلطة، وأطاحوا بالنظام الحاكم في بلاد فارس من خلال إشعال الثورات، والتخلص من الخصوم، واستغلال الارتباك الذي أعقب النكسات العسكرية على الحدود مع روما، ولا سيما على جبهة القوقاز[1]. وشرع أردشير الأول (Ardashīr I) بعد أن تولى السلطة في عام ٢٢٤م في تنفيذ سياسة رمت للتحول الشامل إلى نظام الدولة، وكذلك تأسّى به خلفاؤه. واشتملت تلك السياسة على تأكيد صارم على الهوية، التي أهملت التاريخ الحديث، وسعت إلى إبراز الروابط مع الإمبراطورية الفارسية العظيمة في العصور القديمة[2].

تحقق ذلك من خلال دمج المشهد المادي والرمزي المعاصر بالمشهد في الماضي. فقد خُصِّصت المواقع الرئيسة في إيران القديمة، مثل برسيبوليس (Persepolis) -وكانت عاصمة الإمبراطورية الأخمينية- ومقبرة نقش رُستام، المرتبطة بالملوك الفُرس الكبار مثل دارا، وقورش- للدعاية الثقافية؛ وأُضيفت النقوش الجديدة، والعمارة الضخمة، والمنحوتات الصخرية التي أعرضت عن ذكر النظام السائد، فاكتفت باستعراض الذكريات المجيدة من الماضي[3]. كما أُصلِحت العملة: واستُبدل النص اليوناني، والتماثيل النصفية التي نُحِتت على غرار تماثيل الإسكندر الأكبر -التي استُخدمت لعدة قرون- بصورة مَلكية جديدة ومميزة من جهة -ترنو إلى الاتجاه المعاكس- في حين صوّر مذبح النار المقدسة على ظهر العملة[4]. وكان النقش الأخير استفزازيًا عن عمد؛ إذ كان أشبه ببيان نوايا حول الهوية الجديدة، وكذلك حول الموقف الجديد من الدين.

وبقدر ما تسمح لنا المصادر المحدودة -العائدة إلى تلك الحقبة- بأن نفهم ما جرى آنئذٍ، فقد أظهر حكام هذه المنطقة التسامح بشأن مسائل الدين والعقيدة على مدى قرون، الأمر الذي سمح بدرجة

(1) T. Daryaee, *Sasanian Persia: The Rise and Fall of an Empire* (London, 2009), pp. 2–5.

(٢) كتب عدد كبير من العلماء حول مسألة الاستمرارية والتغير. انظر في هذا الصدد:

M. Canepa, *The Two Eyes of the Earth: Art and Ritual of Kingship between Rome and Sasanian Iran* (Berkeley, 2009).

(3) M. Canepa, 'Technologies of Memory in Early Sasanian Iran: Achaemenid Sites and Sasanian Identity', *American Journal of Archaeology* 114.4 (2010), 563–96; U. Weber, 'Wahram II: König der Könige von Eran und Aneran', *Iranica Antiqua* 44 (2009), 559–643.

(٤) عن العملات الساسانية بصفة عامة، انظر:

R. Göbl, *Sasanian Numismatics* (Brunswick, 1971).

كبيرة من التعايش[1]. بيد أن ظهور سلالة حاكمة جديدة سرعان ما أدى إلى التشدد في المواقف على صعيد الدين، فجرى الترويج لتعاليم زرادشت (أو زاراثشترا Zarathushtra) على حساب الأفكار الأخرى على نحو لا لبس فيه. وكانت تعاليم زرادشت -المعروف لدى الإغريق القدماء باسم (Zoroaster)- النبي الفارسي الأكبر الذي عاش نحو عام ١٠٠٠ ق.م إن لم يكن قبل ذلك- تقضي بأن الكون منقسِم لجوهرين، أهورا مازدا (Ahura Mazda) (حكمة النور) ونقيضها «روح الشر» (Angra Mainyu)، وكانا في حالة صراع دائم؛ لذا فقد كان من المهم عبادة أهورا مازدا، الذي كان يشرف على انتظام سير الأمور في الحياة الدنيا، وجريان الأمور فيها بمقاديرها. وطال تقسيم العالم إلى قوى الخير والشر كل جانب من جوانب الحياة؛ حتى وصل الأمر إلى تصنيف الحيوانات[2]. وكان التطهير الطقوسي طقسًا حيويًّا في الطقوس الزرادشتية، ومن خلال النار في المقام الأول. وكان يسع أهورا مازدا -كما نصت على ذلك العقيدة- أن يخرج «الخير من الشر، والنور من الظُّلمة» وأن يخلِّص أتباعه من مسّ الشياطين[3].

وأتاحت هذه الكونية للأكاسرة من بني ساسان الفرصة لربط سلطتهم بالسلطة في العصر الذهبي لبلاد فارس القديمة، عندما جهر الأكاسرة العظماء بإخلاصهم الدين لـ أهورا مازدا[4]. بيد أن تلك الفرصة قدمت أيضًا إطارًا أخلاقيًا قويًا لحقبة شهدت توسعًا عسكريًّا واقتصاديًّا، فبينا هيَّأ التركيز على النضال المستمر العقول للقتال، أكد التركيز على النظام والانضباط على الإصلاحات الإدارية التي أصبحت بمثابة البصمة لدولة قوية، آخذة في التوسع على نحو متزايد. وكان للزرادشتية مجموعة قوية من المعتقدات التي كانت تتماشى مع الثقافة العسكرية للتجديد الإمبراطوري على نحو تام[5].

وتوسع الساسانيون في عهد أردشير الأول، وابنه سابور الأول توسُّعًا كبيرًا، الأمر الذي جعل مدن الواحات وطرق الاتصال ومناطق بأكملها تحت سيطرة الفُرس المباشرة، أو أُجبِرت على القيام بأدوار

(1) M. Boyce, *Zoroastrians: Their Religious Beliefs and Practices* (London, 1979).

(2) R. Foltz, 'Zoroastrian Attitudes toward Animals', *Society and Animals* 18 (2010), 367–78.

(3) The Book of the Counsel of Zartusht, 2–8, in R. Zaehner, The Teachings of the Magi: A Compendium of Zoroastrian Beliefs (New York, 1956), pp. 21–2.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

M. Boyce, *Textual Sources for the Study of Zoroastrianism* (Manchester, 1984).

(٤) انظر على سبيل المثال:

M. Boyce, *Textual Sources for the Study of Zoroastrianism*, pp. 104–6.

(5) M. Boyce and F. Grenet, *A History of Zoroastrianism* (Leiden, 1991), pp. 30–3.

وعن المعتقدات الزرادشتية، وفي جملتها الصلاة والعقيدة، انظر:

Boyce, *Textual Sources*, pp. 53–61;

وعن الطقوس والممارسات، انظر:

Boyce, *Textual Sources*, pp. 61–70.

العملاء. واستولى الساسانيون على مدن مهمة، مثل: سيستان، ومرو، وبلخ، في سلسلة من الحملات التي بدأت في العقد الثالث من القرن الثالث الميلادي، بينما أصبح جزء كبير من أراضي كوشان ولايات تابعة، يديرها الولاة الساسانيون الذين اتخذوا لقب كوشانشاه (أي ملك كوشان)(١). ويحدد النقش الذي احتفى بالنصر في نقش رستام حجم هذا الإنجاز، مشيرًا إلى الكيفية التي امتد بها عالم سابور في عمق المشرق حتى بلغ بيشاور و«تخوم» كاشغر، وطشقند(٢).

ووضع أتباع الزرادشتية أنفسهم بالقرب من مركز السلطة عندما تولى الساسانيون العرش، وبذلوا جهدًا عظيمًا لتركيز السيطرة الإدارية في أيديهم على حساب جميع الأقليات الدينية الأخرى(٣). ثم انسحب هذا على المناطق الجديدة التي سيطر عليها الحكام الفُرس آنئذ. واحتفت النقوش التي أمر بنقشها قردار -وكان رئيس الكهنة، في منتصف القرن الثالث الميلادي- بتوسع الزرادشتية. وأصبح الدين وكهنته موضوعًا للتقدير والتكريم على نطاق واسع، بينما ازدهر «عدد كبير من معابد النار ومدارس الكهنوت» في الأراضي التي انتزعها الفُرس من أيدي الرومان. ويشير النقش بوضوح إلى أن نشر الإيمان تطلب قدرًا كبيرًا من العمل الصارم، أو كما قالها قردار بتواضع: «لقد عانيت كثيرًا من الكدّ والاضطراب من أجل صالح اليزدية (yazads) [يعني القوى الإلهية] والحكام، ومن أجل الصلاح لروحي»(٤).

وكان الترويج للزرادشتية مصحوبًا بقمع الطوائف المحلية، والكونيات المتنافسة، والتي رُفِضَت بوصفها عقائد باطلة. وهكذا اضطُهد اليهود، والبوذيون، والهندوس، والمانوية وغيرهم؛ ونُهبت دور العبادة، و«دُمرت الأصنام، وهُدِمت ملاجئ الشياطين، وتحوَّلت إلى معابد للآلهة»(٥). ورافق توسع الدولة الفارسية فرضٌ صارم للقيم والمعتقدات التي قُدِّمت على أنها تقليدية، وضرورية للنجاح السياسي والعسكري. أما أولئك الذين قدموا تفسيرات مختلفة، أو قيمًا منافسة فقد جرى تعقبهم، وأُمِر

(1) J. Harmatta, 'Late Bactrian Inscriptions', *Acta Antiqua Hungaricae* 17 (1969), 386–8.

(2) M. Back, 'Die sassanidischen Staatsinschriften', *Acta Iranica* 18 (1978), 287–8.

(3) S. Shaked, 'Administrative Functions of Priests in the Sasanian Period', in G. Gnoli and A. Panaino (eds), *Proceedings of the First European Conference of Iranian Studies*, 2 vols (Rome, 1991), 1, pp. 261–73; T. Daryaee, 'Memory and History: The Construction of the Past in Late Antiquity', *Nameye Iran-e Bastan* 1.2 (2001–2), 1–14.

(4) Back, 'Sassanidischen Staatsinschriften', 384.

عن النقش الكامل، انظر:

M.-L. Chaumont, 'L'Inscription de Kartir à la Ka bah de Zoroastre: text, traduction et commentaire', *Journal Asiatique* 248 (1960), 339–80.

(5) M.-L. Chaumont, *La Christianisation de l'empire iranien, des origines aux grandes persécutions du IV siècle* (Louvain, 1988), p. 111; G. Fowden, *Empire to Commonwealth: Consequences of Monotheism in Late Antiquity* (Princeton, 1993), pp. 28–9.

بقتلِهم في كثير من الحالات، مثل ماني -وكان نبيًّا تمتع بشخصية كاريزمية في القرن الثالث الميلادي- وكان دينه مزيجًا من الأفكار المستقاة من مصادر شرقية وغربية. وقد دافع عنه سابور الأول يومًا ما؛ ثم سرعان ما أُدينت تعاليمه بوصفها تخريبية، ومسمِّمة، وخطيرة، وطورد المانوية مطاردة لا هوادة فيها[١].

ومن بين الذين خُصُّوا بالاضطهاد، وذكرهم قردار صراحةً في قائمته المتعلقة بالمستهدفين، النصارى (Nasraye) والمسيحيين (kristyone). لقد نشب قدر كبير من الجدل العلمي حول هوية الطائفتين المعنيتين بهذين المصطلحين، ومع ذلك فإن الرأي القائل: إن المصطلح الأول يعني السكان الأصليين في الإمبراطورية الساسانية الذين بُشِّروا بالنصرانية في ديارهم، بينما المعنيون بالمصطلح الثاني هم المسيحيون الذين رُحِّلوا شرقًا بأعداد كبيرة بأمر من سابور الأول غداة استيلائه على سوريا الرومانية -وهو الأمر الذي فاجأ السلطات المحلية والمركزية- بات يحظى بقبول عام في أوساط الباحثين الآن[٢].

وكانت الاستجابة لاجتياح النصرانية -التي بدأت تنتشر على نحو مثير للقلق على طول طرق التجارة، تمامًا كما فعلت البوذية في الشرق- أحد الأسباب التي تفسر لنا تلك الكيفية التي ترسخت بها الزرادشتية في وعي بلاد فارس وهويتها في القرن الثالث الميلادي. وتسارعت وتيرة التطرف المأساوي للفلسفة الزرادشتية في هذا الوقت تحديدًا من خلال رد فعل عدائي للأفكار والمثل النصرانية التي جلبها التجار والأسرى الذين أُعيد توطينهم في الأراضي الفارسية بُعيد ترحيلهم من سورية[٣].

* * *

---

(1) R. Merkelbach, *Mani und sein Religionssystem* (Opladen, 1986); J. Russell, 'Kartir and Mani: A Shamanistic Model of their Conflict', *Iranica Varia: Papers in Honor of Professor Ehsan Yarshater* (Leiden, 1990), pp. 180–93; S. Lieu, *History of Manicheanism in the Later Roman Empire and Medieval China: A Historical Survey* (Manchester, 1985).

عن «سابور» و«ماني»، انظر:

M. Hutter, 'Manichaeism in the early Sasanian Empire', *Numen* 40 (1993), 2–15.

(2) P. Gigoux (ed. and tr.), *Les Quatre Inscriptions du mage Kirdir, textes et concordances* (Paris, 1991).

وانظر أيضًا:

C. Jullien and F. Jullien, 'Aux frontières de l'iranité: "nasraye" et "kristyone" des inscriptions du mobad Kirdir: enquête littéraire et historique', *Numen* 49.3 (2002), 282–335; F. de Blois, '*Nasrānī* (Ναζωραῖος) and *Hanīf* (ἐθνικός): Studies on the Religious Vocabulary of Christianity and of Islam', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 65 (2002), 7–8.

(3) S. Lieu, 'Captives, Refugees and Exiles: A Study of Cross-Frontier Civilian Movements and Contacts between Rome and Persia from Valerian to Jovian', in P. Freeman and D. Kennedy (eds), *The Defence of the Roman and Byzantine East* (Oxford, 1986), pp. 475–505.

لطالمـا ارتبطـت النصرانية بالبحر المتوسـط وغربي أوروبا. ويرجع ذلك جزئيًا إلى موقع الكنيسـة الأم؛ حيـث وجدت الشـخصيات البارزة فـي الكنائس: الكاثوليكية، والإنجليكانية، والأرثوذكسـية في روما، وكانتربري، والقسطنطينية (وهي إستانبول الحديثة) على الترتيب. ولكن الحق أن كل جانب من جوانـب النصرانيـة المبكرة كان آسـيويًا. وبطبيعة الحال كانت القدس هي بـؤرة النصرانية جغرافيًا، إلى جانـب المواقـع الأخـرى المتعلقـة بميلاد المسـيح، وحياتـه، وصلبه؛ وكانـت الآراميـة -وهي إحدى اللغات السـامية التي تعود أصولها إلى الشـرق الأدنى- لغتها الأصيلة. وكانت اليهودية -التي تشـكلت في أرض إسـرائيل، وفي أثناء الشـتات في مصر وبابل- خلفيتها اللاهوتية، ونسـيجها الروحي كذلك. وتشـكلت قصصهـا بفعل الصحاري، والفيضانات، والجفاف، والمجاعـات التي لم يكن لأوروبا عهدٌ بها[1].

إن الروايات التاريخية عن توسع النصرانية عبر منطقة البحر المتوسط راسخة، بيد أن تقدمها المبكر كان أكثر إثارةً ووعدًا في الشـرق مما كان عليه أمرها في حوض البحر المتوسـط؛ حيث انتشـرت على طـول الممـرات البحريـة[2]. وحرصت السـلطات الرومانية على ترك النصارى وشـأنهم في أول الأمر، على الرغم من أنهـم -أعني الرومان- قد أظهروا الارتباك عندما لحظوا شغف أتباعها الأوائل بها. فعلى سـبيل المثال، كتب بليني الأصغر (Pliny the Younger) إلى الإمبراطور تراجان (Trajan) -في القرن الثانـي الميلادي- طالبًا النصيحة بشـأن ما يجب أن يفعله حيال النصـارى الذين كانوا يَمْثلون أمامه في آسيا الصغرى. وكتب بليني قائلًا: «لم أشارك في محاكمات النصارى من قبل قط؛ لذا لا علم لي بنوع العقوبـة المناسـبة، ولا بالمـدى الذي يجب النظر من خلاله في أنشـطتهم». وكان بلينـي قد أمر بإعدام بعضهـم، وبـرر ذلـك بقوله: «لأنني لم أشـك قط في أنه مهما كان ما يؤمنون بـه؛ فينبغي أن يُعاقبوا على صلفهم، وعنادهم بكل تأكيد»[3]. فرد الإمبراطور ناصحًا إياه بالتسامح، وقائلاً: لا تبحث عن النصارى،

---

(1) A. Kitchen, C. Ehret, S. Assefa and C. Mulligan, 'Bayesian Phylogenetic Analysis of Semitic Languages Identifies an Early Bronze Age Origin of Semitic in the Near East', *Proceedings of the Royal Society B*, 276.1668 (2009), 2702–10.

يرى بعض العلماء أن شمال إفريقيا كان موطنَ اللغات الساميَّة. انظر على سبيل المثال:

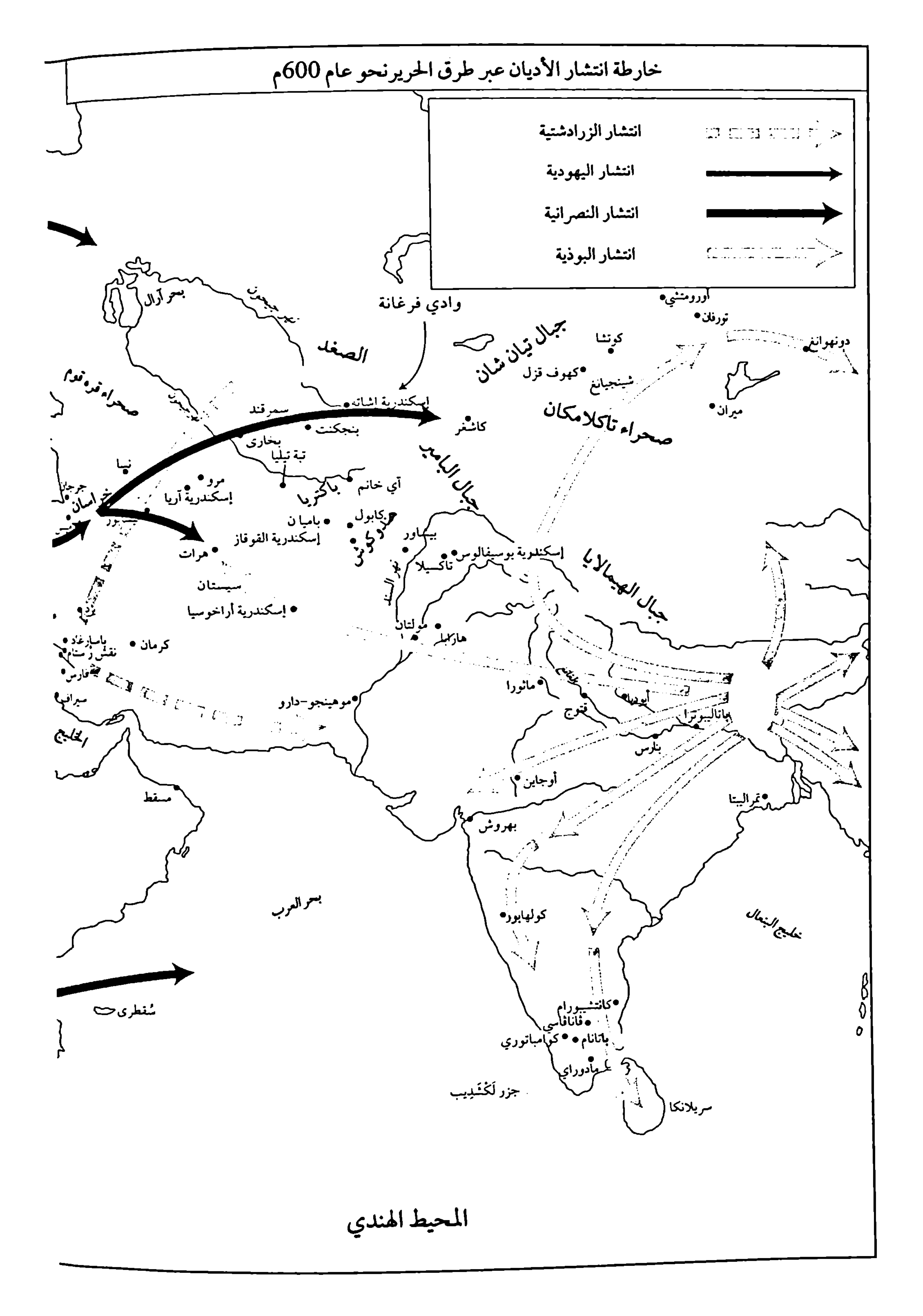
D. McCall, 'The Afroasiatic Language Phylum: African in Origin, or Asian?', *Current Anthropology* 39.1 (1998), 139–44.

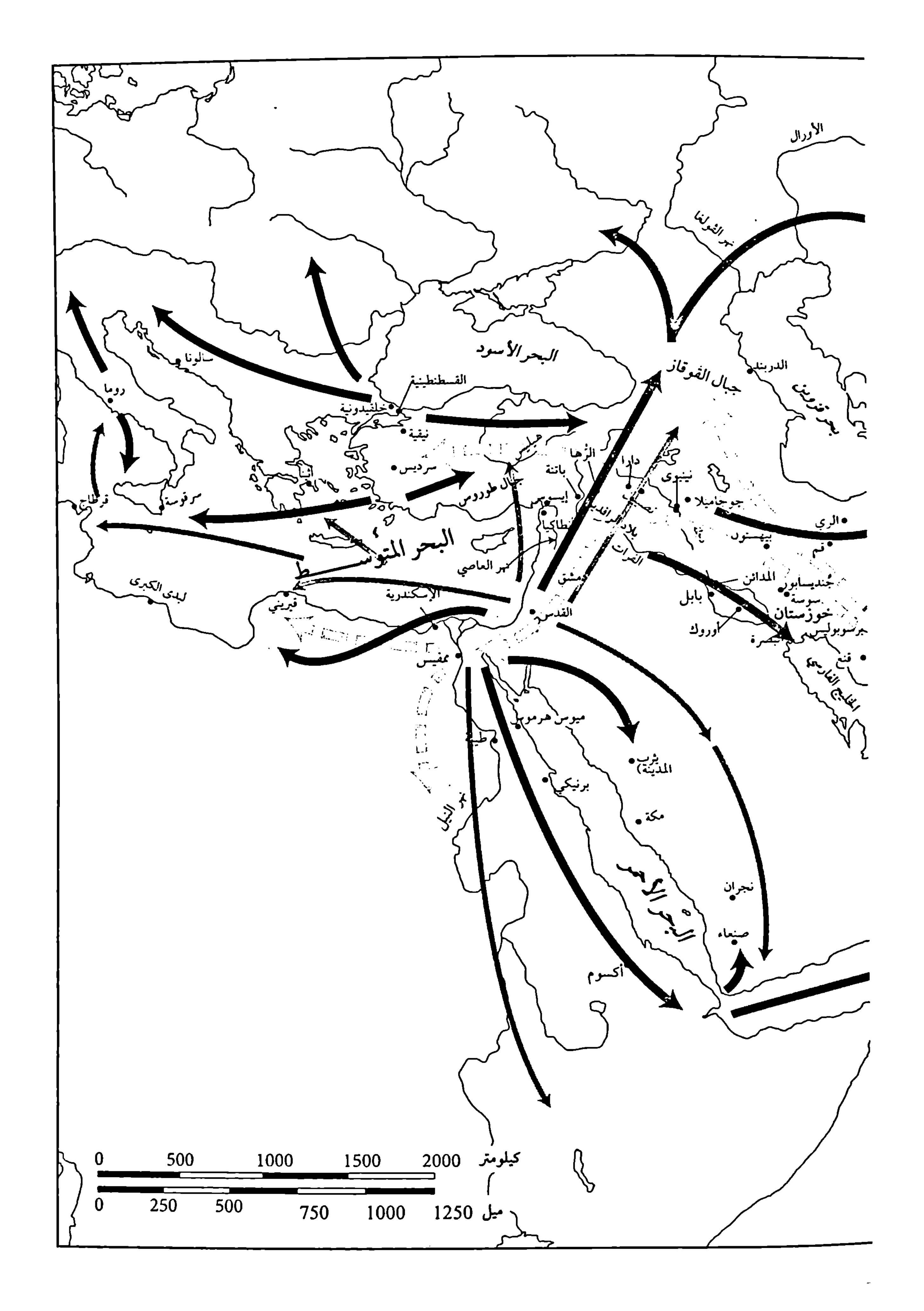
(2) R. Stark, *The Rise of Christianity: A Sociologist Reconsiders History* (Princeton, 1996), and idem, *Cities of God: The Real Story of How Christianity Became an Urban Movement and Conquered Rome* (San Francisco, 2006).

ثم ثبت أن آراء «ستارك» ومناهجه مثيرة للجدل، انظر:

Journal of Early Christian Studies 6.2 (1998).

(3) Pliny the Younger, Letter 96, ed. and tr. B. Radice, *Letters and Panegyricus*, 2 vols (Cambridge, MA, 1969), 2, pp. 284–6.


خارطة انتشار الأديان عبر طرق الحرير نحو عام 600م
انتشار الزرادشتية
انتشار اليهودية
انتشار النصرانية
انتشار البوذية
بحر آرال
وادي فرغانة
الصغد
جبال تيان شان
كوتشا
تورفان
دونهوانغ
كهوف قزل
شينجيانغ
ميران
صحراء تاكلامكان
صحراء قره قوم
سمرقند
إسكندرية أشانة
كاشغر
بنجكنت
بخارى
تبة تيليا
نيسا
مرو
إسكندرية آريا
باكتريا
آي خانم
جبال البامير
باميان
كابول
إسكندرية القوقاز
هرات
بيشاور
تاكسيلا
إسكندرية بوسيفالوس
جبال الهيمالايا
سيستان
إسكندرية أراخوسيا
مولتان
كرمان
ماثورا
موهينجو-دارو
قنوج
بنارس
أوجاين
مسقط
بهروش
تمراليتا
بحر العرب
كولهابور
خليج البنغال
سُقطرى
كانتشيبورام
جزر لكشديب
مادوراي
سريلانكا
المحيط الهندي


الأورال
نهر الفولغا
البحر الأسود
جبال القوقاز
الدربند
القسطنطينية
خلقيدونية
نيقية
سالونا
روما
أثينا
سرديس
جبال طوروس
الرها
باتنة
داورا
نينوى
جوجاميلا
إيسوس
أنطاكيا
الري
قم
بيهستون
الفرات
البحر المتوسط
قرطاج
سرقوسة
نهر العاصي
دمشق
المدائن
جنديسابور
سوسة
بابل
خوزستان
أوروك
البصرة
لبدى الكبرى
قيريني
الإسكندرية
القدس
ممفيس
ميوس هرموس
طيبة
يثرب (المدينة)
برنيكي
مكة
نهر النيل
البحر الأحمر
نجران
صنعاء
أكسوم
الخليج الفارسي
قنغ
كيلومتر
0 500 1000 1500 2000
ميل
0 250 500 750 1000 1250

ولكـن متى أنكـرت منهم شيئًا، فتعامل مع كل حالة على حـدة؛ ذاك «أنه لا يمكن الاسـتناد إلى قاعدة بعينهـا ثـم تطبيقها في جميع الحالات، بغض النظر عن الظرف السـائد». ولكن لا يحق لك -بحال من الأحـوال- أن تتصرف اسـتنادًا إلى شـائعة، أو إلى اتهامٍ من مجهـول. ثـم أردف الإمبراطور قائلًا بعبارة حرص على أن تُكتَب بخط كبير، سيكون ذلك «بعيدًا عن مواكبة روح عصرنا»[1].

مـا لبثـت المواقـف أن تشـددت بعد فتـرة وجيزة من هذه المراسـلات، الأمر الـذي يعكس تغلغلًا عميقًا للنصرانية في جميع أنحاء المجتمع الروماني. وبدأ الجيش الإمبراطوري -خاصةً- في النظر إلى الدين الجديد، شذرًا؛ ذاك أنه مثَّل تهديدًا للقيم العسكرية التقليدية، ولا سيما مواقف هذا الدين الهدامة تجاه الخطيئة، والجنس، والموت، والحياة بصفة عامة[2]. وشهدت جولات الاضطهاد الوحشي -منذ القرن الثاني الميلادي- مصارع النصارى بالآلاف، وجرى ذلك -غالبًا- في أثناء عروض الترفيه العام. ونشـأت نتيجـة لذلـك مجموعة غنية مـن النصوص التي خلدت ذكرى الشـهداء الذين سـقطوا صرعى بسـبب إيمانهـم[3]. وكان على النصارى الأوائل أن يناضلوا ضـد الاضطهاد، فصدرت صرخات مؤلمة عـن كتَّاب مثـل ترتليـان (Tertullian) (١٦٠-٢٢٥م)، حيث قـارن أحد العلماء المرموقين مناشـدات أولئك النفر من الكتَّاب بمناشـدة شـيلوك (Shylock) -تلك الشخصية التي ابتدعها شكسبير[4]- حيث ناشـد ترتليـان معاصريه قائلًا: نحـن النصارى «نعيش بيـن ظهرانيكم، ونشـارككم المطعم، والملبس، والعادات، والضروريات التي تمليها الحياة على الأحياء، تمامًا كما تفعلون»[5]. ثم استطرد قائلاً: فهل يعني عزوفنا عن حضور الاحتفالات الدينية الرومانية أننا لسـنا بشـرًا؟! «وهل وجدتم أسـناننا تختلف عن أسنانِكم في شيء، أم ترون أننا نشتهي إتيان محارمنا؟!»[6].

انتشـرت النصرانية شـرقًا من خلال المجتمعات اليهودية التي عاشـت في بلاد الرافدين منذ السبي البابلـي[7]. لقـد تلقـت تلـك المجتمعات التقاريـر عن حياة المسـيح وموته ليس من خـلال الترجمات اليونانية، كما فعل أولئك الذين اعتنقوا النصرانية في الغرب -برمَّتهم تقريبًا- بل تلقوها باللغة الآرامية،

---

(1) Ibid., Letter 97, 2, pp. 290–2.

(2) J. Helgeland, R. Daly and P. Patout Burns (eds), *Christians and the Military: The Early Experience* (Philadelphia, 1985).

(3) M. Roberts, *Poetry and the Cult of the Martyrs* (Ann Arbor, 1993); G. de Ste Croix, *Christian Persecution, Martyrdom and Orthodoxy* (Oxford, 2006).

(٤) هي شخصية اليهودي المُرابي في رائعة شكسبير المسماة تاجر البندقية *The Merchant of Venice*. (المترجم)

(5) Tertullian, *Apologia ad Nationes*, 42, in *Tertullian: Apology: De Spectaculis*, ed. and tr. T. Glover (London, 1931), p. 190; G. Stoumsa, *Barbarian Philosophy: The Religious Revolution of Early Christianity* (Tübingen, 1999), pp. 69–70.

(6) Tertullian, *Apologia*, 8, p. 44.

(7) W. Baum and D. Winkler, *Die Apostolische Kirche des Ostens* (Klagenfurt, 2000), pp. 13–17.

وكانت لغة الرسل، بل كانت لغة المسيح نفسه. وكان للتجار دور فعال في عملية التبشير في الشرق، تمامًا كما كانت الحال عليه في البحر المتوسط، فانتشرت النصرانية في مدينة الرها (Edessa)، أو «أورفا» الحديثة جنوبي شرق تركيا، التي برزت خاصة بسبب موقعها عند مفترق الطرق الرابطة بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب[1].

وسرعان ما وصل المبشرون إلى القوقاز، حيث تكشف ممارسات الدفن والنقوش في جورجيا عن وجود عدد كبير من السكان اليهود الذين اعتنقوا النصرانية[2]. بُعيد ذلك، وُجدت مجتمعات نصرانية تناثرت هنا وهناك حول الخليج العربي. وتظهر ٦٠ مقبرة تقع بالقرب من البحرين -منحوتة في الضفاف المرجانية- المدى الذي بلغه الدين في مستهل القرن الثالث الميلادي[3]. ويذكر نص يُعرف باسم كتاب شرائع البلدان (*The Book of the Laws of the Countries*) -كُتب في ذلك الوقت تقريبًا- أن النصارى وُجدوا في جميع أنحاء بلاد فارس، وإلى أقصى الشرق، مثل الأراضي التي كان الكوشانيون يسيطرون عليها. أي بعبارة أخرى، وُجِد النصارى فيما يُعرف الآن بـ أفغانستان[4].

وجرى تشجيع انتشار النصرانية من خلال عمليات الترحيل واسعة النطاق للنصارى من بلاد فارس خلال حكم سابور الأول في القرن الثالث الميلادي. وكان من بين المنفيين شخصيات بارزة مثل ديمتريوس (Demetrius) -وكان أسقفًا لأنطاكية- حيث نُفي إلى بيت لابات (Beth Lapat)، وهي جُنْدَيْسابور الحديثة الواقعة جنوب غربي إيران، حيث جمع أقرانه النصارى حوله، وأسس أسقفية جديدة ثمة[5]. ووُجد أيضًا بعض النصارى من أصحاب المكانة الرفيعة في بلاد فارس، فوفقًا لرواية نصرانية -رمت إلى التحذير من تعطش الشاه للدماء- كانت هناك امرأة رومانية تُدعى كانديدا (Candida)، وكانت محظية مفضلة في البلاط، ثم أدى رفضها ترك دينها إلى استشهادها[6].

وتندرج هذه القصص المثيرة في فئة الأدب الذي كان يسعى إلى إثبات تفوق العادات والمعتقدات النصرانية على الممارسات التقليدية السائدة. وعلى الرغم من شح المصادر، فإن بوسعنا الإلمام

---

(1) S. Rose, *Roman Edessa: Politics and Culture on the Eastern Fringes of the Roman Empire, 114–242 CE* (London, 2001).

(2) T. Mgaloblishvili and I. Gagoshidze, 'The Jewish Diaspora and Early Christianity in Georgia', in T. Mgaloblishvili (ed.), *Ancient Christianity in the Caucasus* (London, 1998), pp. 39–48.

(3) J. Bowman, 'The Sassanian Church in the Kharg Island', *Acta Iranica* 1 (1974), 217–20.

(4) *The Book of the Laws of the Countries: Dialogue on the Fate of Bardaisan of Edessa*, tr. H. Drijvers (Assen, 1965), p. 61.

(5) J. Asmussen, 'Christians in Iran', in *The Cambridge History of Iran: The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods* (Cambridge, 1983), 3.2, pp. 929–30.

(6) S. Brock, 'A Martyr at the Sasanid Court under Vahran II: Candida', *Analecta Bollandiana* 96.2 (1978), 167–81.

بالمعارك الدعائية التي دارت رحاها آنئذٍ. فقد كتب أحد المؤلفين قائلًا: إن «أتباع المسيح [في آسيا] يترفعون عن العادات المنكرة التي تمارسها هذه الشعوب الوثنية»، وذلك على النقيض من غيرهم من ساكنة بلاد فارس. وأشار كاتب آخر إلى أن هذا كان مرحَّبًا به، بوصفه أمارةً على الكيفية التي حسَّن بها النصارى المعايير الأخلاقية في بلاد فارس، فضلًا عن أماكن أخرى في الشرق؛ «فلم يعد الفُرس الذين أصبحوا من أتباعه [يعني المسيح] ينكحون أمهاتهم اللائي ولدنهم»، بينما أولئك الذين يعيشون في السهوب لم يعودوا «يأكلون لحوم البشر، بسبب كلمة المسيح التي وصلتهم». ثم استطرد ذلك الكاتب قائلًا: «إن مثل هذه التطورات ينبغي أن تلقى ترحيبًا حارًّا»[1].

لقد كان الاختراق المتزايد للنصرانية، وما رافقه من ظهور النصارى في بلاد فارس في منتصف القرن الثالث الميلادي هو دافع الكهنوت الزرادشتي إلى الرد بعنف متزايد، وذلك في رجع صدى لما حدث في الإمبراطورية الرومانية[2]. ولكن كما يشهد نقش قردار، كانت المواقف في بلاد فارس آخذة في التشدد؛ ليس فيما تعلق بالنصرانية فحسب، بل فيما تعلق بغيرها من الأديان الأخرى أيضًا. لقد سار القضاء على الكونيات البديلة كتفًا بكتف مع الزرادشتية المتحمسة التي ميزت عودة بلاد فارس إلى الظهور. وبدأ دين الدولة في الظهور على غيره؛ وهو دين حدد القيم الزرادشتية على أنها مرادفة للفارسية، وقدم ما يسمى بـ «الركيزة الداعمة للمملكة الساسانية»[3].

وانطلقت سلسلة من ردود الفعل المتعاقبة؛ حيث دفعت المنافسة على الموارد من جهة، والمواجهات العسكرية من جهة أخرى، إلى تطوير أنظمة عقائدية متقدمة، لم تكن تعني الانتصارات والنجاحات فحسب، بل تقويض انتصارات المنافسين في الجوار على نحو مباشر. وفي حالة بلاد فارس، كان هذا يعني كهنوتًا صارمًا، وواثقًا من نفسه؛ حيث امتد دوره إلى عمق السياسة على نحو متزايد، كما توضح النقوش ذلك.

وكان لهذا التطور عواقب لا مناص منها، ولا سيما عندما صُدِّرت الزرادشتية إلى المناطق الحدودية أو الأراضي المحتلة حديثًا. إن إقامة معابد النار -التي كان قردار يفتخر بها- لم تكن عملًا ينطوي على مقامرة بمقاومة الأهلين فحسب، بل انطوى أيضًا على محاولة لفرض العقيدة والدين بالقوة الجبرية. ومن ثم أصبحت الزرادشتية مرادفة لبلاد فارس. ولم يستغرق الأمر طويلًا حتى بات يُنظر إلى هذا

---

(1) Eusebius, *Evaggelike Proparaskeus*, ed. K. Mras, *Eusebius Werke: Die Praeparatio Evangelica* (Berlin, 1954), 1.4, p. 16; A. Johnson, 'Eusebius' *Praeparatio Evangelica* as Literary Experiment', in S. Johnson (ed.), *Greek Literature in Late Antiquity: Dynamism, Didacticism, Classicism* (Aldershot, 2006), p. 85.

(2) P. Brown, *The Body and Society: Men, Women and Sexual Renunciation in Early Christianity* (London, 1988); C. Wickham, *The Inheritance of Rome: A History of Europe from 400 to 1000* (London, 2009), pp. 55–6.

(3) B. Dignas and E. Winter, *Rome and Persia in Late Antiquity* (Cambridge, 2007), pp. 210–32.

الدين على أنه أداة احتلال، لا على أنه شكلٌ من أشكال التحرر الروحي. ولم يكن من قبيل المصادفة -إذن- أن شرع بعض الناس في النظر إلى النصرانية -تحديدًا- على أنها ترياق ضد هذا الترويج الثقيل للمعتقدات القادمة من حاضرة بلاد الفُرس.

ولا تكاد الظروف المحددة للكيفية وللوقت الذي اعتنق فيه الحكام في القوقاز النصرانية تتضح لنا بجلاء. لقد كُتبت روايات -بُعيد ذلك- عن اعتناق الملك الأرميني تيريدات الثالث (Tiridates III) في مستهل القرن الرابع الميلادي، وهذه الرواية مدينة -إلى حد ما- للتوق إلى سرد رواية شيقةٍ، إضافة إلى تعصب أصحابها للنصرانية[1]. وعلى أية حال، فوفقًا للروايات، فقد مُسِخ تيريدات خنزيرًا، وتجول عاريًا في الحقول قبل أن يشفيه القديس جريجوري (Gregory)، الذي أُمِر بإلقائه في خندق يمتلئ بالحيَّات لرفضه عبادة الآلهة الأرمينية. وشفى جريجوري تيريدات، فسقط عنه أنفه وأنيابه وجلده، قبل أن يُعمَّد الملك الشرير في مياه نهر الفرات[2].

لم يكن تيريدات هو الشخصية السياسية المهمة الوحيدة التي اعتنقت النصرانية في هذه الحقبة، ذاك أن قسطنطين -وهو أحد أكثر الشخصيات نفوذًا في روما- حذا حذوه في أوائل القرن الرابع الميلادي أيضًا. فقد جاءت اللحظة الحاسمة في خضم حرب أهلية عاصفة واجه فيها قسطنطين منافسه ماكسينتيوس (Maxentius) في جسر ميلفيان (Milvian) في وسط إيطاليا عام ٣١٢م. وقيل: إن قسطنطين -قبيل نشوب المعركة- حدَّق في السماء، فإذا به يرى «نورًا قد اتخذ هيئة الصليب» فوق قرص الشمس، إلى جانب كلمات يونانية «بهذا ستنتصر». وظهر المعنى الكامل لما رآه بعد أن رأى في منامه يسوع المسيح يتجلى له، ويخبره أن علامة الصليب ستساعده على دحر خصومه كافةً. وعلى أية حال فقد كانت هذه هي الطريقة التي أحبَّ بعض الناس وصف ما حدث بها[3].

---

(١) انظر:

A. Sterk, 'Mission from Below: Captive Women and Conversion on the East Roman Frontiers', *Church History* 79.1 (2010), 1-39.

(٢) عن اعتناق «تيردات» للنصرانية انظر:

R. Thomson (ed. and tr.), *The Lives of St Gregory: The Armenian, Greek, Arabic and Syriac Versions of the History Attributed to Agathaneglos* (Ann Arbor, 2010).

أما عن تاريخ ذلك الاعتناق الذي كان مثارًا لجدل كبير، فانظر:

W. Seibt, *Die Christianisierung des Kaukasus: The Christianisation of Caucasus (Armenia, Georgia, Albania)* (Vienna, 2002), and M.-L. Chaumont, *Recherches sur l'histoire d'Arménie, de l'avènement des Sassanides à la conversion du royaume* (Paris, 1969), pp. 131–46.

(3) Eusebius of Caesarea, *Bios tou megalou Konstantinou*, ed. F. Winkelmann, *Über das Leben des Kaisers Konstantin* (Berlin, 1992), 1.28–30, pp. 29–30.

عن اعتناق قسطنطين للنصرانية، انظر بصفة عامة مجموعة من المقالات في:

N. Lenski (ed.), *The Cambridge Companion to the Age of Constantine* (rev. edn, Cambridge, 2012).

لا تدع الروايات النصرانية مجالًا للشك في الحماس الشديد الذي أشرف به الإمبراطور شخصيًا على نشر النصرانية على حساب جميع الديانات الأخرى. وقد علمنا -من خلال أحد الكتَّاب، على سبيل المثال- أن مدينة القسطنطينية الجديدة لم «تُدنَّس بالمذابح، أو بالمعابد اليونانية، أو بالقرابين الوثنية»، بل كانت تغصُّ بـ«بيوت الصلاة الرائعة التي وعد الله فيها بمباركة جهود الإمبراطور»[(١)]. وذكر كاتب آخر أن الإمبراطور أغلق المعابد الكبرى، وأصدر أمره بحظر الكهانة والإلهام، وكانتا سمتين أساسيتين للاهوت الروماني. وبالمثل، حُظرت الأُضحية التي اعتاد الناس تقديمها قبل انعقاد الأعمال الرسمية، في حين هُدِمت التماثيل الوثنية، وصدرت التشريعات ضد إقامتها[(٢)]. وعلى هذا النحو لم يكن هناك مجال لتأويل الرواية التي رواها مؤلفون كان دينهم وديدنهم إظهار قسطنطين بوصفه عازمًا على نشر دينه الجديد خاصةً.

والحق أن دوافع قسطنطين لاعتناق النصرانية كانت أكثر تعقيدًا مما تقصُّه علينا تلك الروايات التي دوِّنت خلال حياته، أو بُعيد وفاته بكل تأكيد؛ وذلك لسبب واحد، لقد كان اعتناق النصرانية -وهو الدين الذي كان يعتنقه عدد كبير من الجنود بالجيش- سياسةً حاذقةً. ومن جهة أخرى، تصور الآثار، والعملات، والنقوش -في جميع أنحاء الإمبراطورية- قسطنطين بوصفه مؤيدًا قويًا لعبادة الشمس التي لا تُقهر أو (SolInvictus)، الأمر الذي يشير إلى أن التجلي الذي وقع له ربما كان أمرًا عابرًا، بولغ في تقديره في ثنايا عبارات الثناء المنبهرة. وفوق ذاك، فإن الإمبراطورية لم تصبأ عن دينها القديم بين عشية وضحاها، وذلك على الرغم من تلك التأكيدات التي شددت على النقيض من ذلك؛ ذاك أن الشخصيات البارزة في روما والقسطنطينية -فضلًا عن أماكن أخرى غيرهما- استمروا عاكفين على أديانهم التقليدية بعد فترة طويلة من رؤيا الإمبراطور، والحماسة التي استهل بها دعم دينه الجديد[(٣)].

ومع ذلك، فمن الواضح أن قبول قسطنطين للنصرانية قد أدى إلى حدوث تغيير جذري في الإمبراطورية الرومانية. لقد أنهى ذلك القبول الاضطهاد الذي بلغ ذروته في عهد دقلديانوس قبل عَقد من الزمان أو نحو ذلك. فقد أُمر بإبطال حلقات المصارعة، التي كانت العنصر الرئيس في الترفيه الروماني لحقبةٍ طويلةٍ، وذلك نتيجة اشمئزاز النصرانية من العروض التي دنَّست قدسية الحياة. وتقول شذرة من قانون صدر عام ٣٢٥م وسُجِّل في مجموعة متأخرة من التشريعات الإمبراطورية: «أمست النظارات الدموية تثير غضبنا. [لذلك] أمرنا بحظر المصارعين حظرًا تامًّا». أما أولئك الذين أُرسلوا سابقًا إلى الساحة عقابًا لهم على الجرائم التي ارتكبوها، أو المعتقدات التي رفضوا تركها، فسيرسلون من الآن فصاعدًا لـ «الخدمة في المناجم؛ حتى يتحملوا أوزار ما اقترفته أيديهم دون سفك دمائهم»[(٤)].

---

(1) Sozomen, *Ekklesiastike Historia*, ed. J. Bidez, *Sozomenus: Kirchengeschichte* (Berlin, 1995), 2.3, p. 52.

(2) Eusebius, *Bios tou megalou Konstantinou*, 2.44, p. 66.

(3) A. Lee, 'Traditional Religions', in Lenski, *Age of Constantine*, pp. 159–80.

(4) *Codex Theodosianus*, tr. C. Pharr, *The Theodosian Code and Novels and the Simondian Constitutions* (Princeton, 1952), 15.12, p. 436.

واختُصَّت القدس -في خضم توجيه الموارد لدعم النصرانية في جميع أنحاء الإمبراطورية- بأعمال البناء الضخمة، واستكمال الأوقاف الجليلة فيها. وإذا كانت روما والقسطنطينية مركزين إداريين للإمبراطورية، فقد كانت القدس قلبها الروحي. وعلى هذا النحو أُمِر بتسوية أجزاء من المدينة بالأرض، وحُفرت التربة أسفل المعابد الوثنية، ونُبذت ظهريًا، لكونها «نجسة، حيث كان الشيطان يُعبَد فيها». وكشفت الحفريات آنذاك عن مكان مقدس تلو الآخر، بما في ذلك الكهف الذي دُفِن فيه المسيح، والذي أُمر بترميمه «مثلما بُعِث مخلّصنا للحياة مجددًا»[1].

وتولى قسطنطين النظر في هذه الأعمال بنفسه؛ حيث أمر بتوجيه المواد التي ينبغي استخدامها في بناء الكنيسة في الموقع الذي شهد «قِيامة المسيح». وكان الإمبراطور مستعدًّا لتفويض اختيار الأقمشة، وتزيين الجدران لشخص بعينه، بيد أنه أراد أن يشارك في اختيار نوع الرخام، وكذلك في اختيار شكل الأعمدة كذلك. وكتب إلى مقاريوس (Macarius)، أسقف القدس، قائلًا: «وددت لو عرفت رأيك فيما إذا كان ينبغي تكسية السقف أو تزيينه بنمط آخر من نوع ما. فإذا كانت مكسية بالألواح، فيسعنا تطعيمها بالذهب أيضًا». لقد كانت مثل هذه الخيارات، تتطلب موافقته شخصيًا على حد قوله[2].

وكان الاحتفال باعتناق قسطنطين للنصرانية بمثابة بداية فصل جديد في تاريخ الإمبراطورية الرومانية. وعلى الرغم من أن النصرانية لم تصبح دينًا للدولة، إلا أن تخفيف القيود والعقوبات فتح الباب أمام العقيدة الجديدة على مصراعيه. وكانت هذه بشرى سارة للنصارى والنصرانية في الغرب، بيد أنها أدت إلى كارثة للنصرانية في الشرق. فعلى الرغم من أن بداية اعتناق قسطنطين للنصرانية شهدت اعتدالًا، حيث أُمِر بإصدار عملات معدنية تحمل صورًا وثنية مميزة، ونصب تمثالًا لنفسه باسم هيليوس أبولو (Helios-Apollo) في مدينته الجديدة، إلا أنه سرعان ما أصبح أكثر تعصبًا[3]. لقد بات يصور نفسه على أنه حامي النصارى أينما وُجدوا، بمَن في ذلك أولئك الذين كانت مساكنهم تقع خارج الإمبراطورية الرومانية.

وسرت شائعات -في العقد الرابع من القرن الرابع الميلادي- مفادها أن قسطنطين كان يستعد للهجوم على بلاد فارس، مُستغلًا فرصة أتاحها له لجوء شقيق الشاه الثائر إلى البلاط الإمبراطوري الروماني مُستجيرًا بالإمبراطور. ولا بد أن سخط الفُرس قد بلغ مداه عندما تلقوا رسالة من قسطنطين يعلنهم فيها بأنه سُرَّ لما علم أن «أفضل الولايات في بلاد فارس باتت تغص بالرجال الذين أتحدث نيابةً عنهم في الوقت الحالي؛ أعني النصارى». لقد كان قسطنطين يغمز لـ سابور الثاني -كسرى فارس- عندما استطرد قائلًا: «وأثني عليك خيرًا لحمايتك لأولئك الناس... فلْتَكلأهم بإنسانيتك ولطفك

(1) Eusebius, *Bios tou megalou Konstantinou*, 3.27–8, p. 96.

(2) Ibid., 3.31–2, p. 99.

(3) P. Sarris, *Empires of Faith* (Oxford, 2012), pp. 22–3.

المعتادين؛ ذاك أنه من خلال هذا البرهان على الإيمان سنجني -وإياك- نِعمًا لا تُحصى»[1]. وربما تعمد قسطنطين أن يصوغ كلماته لتبدو كالنصيحة الطيبة، بيد أنها حملت في طياتها التهديد. قُبيل ذلك، كانت روما قد مدت حدودها الشرقية إلى عمق الأراضي الفارسية، وشرعت على الفور في وضع برنامج لإقامة التحصينات وشق الطرق، تأمينًا لهذه المكاسب[2].

وعاين حاكم جورجيا -وكانت مملكة قوقازية أخرى ذات قيمة تجارية واستراتيجية- تجليًا آخر كان أقل حيوية من التجلي الذي وقع لـ قسطنطين (فقد تغشى الملك النور حرفيًا بعد أن اجتاحه الظلام في أثناء الصيد)، وتحول قلقه إلى ذعر[3]. وانتهز سابور الثاني فرصة غياب قسطنطين على حدود نهر الدانوب، فشن هجومًا مفاجئًا على القوقاز، حيث أطاح بأحد الحكام المحليين، وعين أحد أتباعه في مكانه. فهبَّ قسطنطين من فوره، وجمع جيشًا هائلًا، وأمر أساقفته بمرافقة الحملة القادمة، وصنعوا له نسخة طبق الأصل من الخيمة، والهيكل المستخدم لحفظ تابوت العهد. ثم أعلن عن نيَّته شن هجوم على بلاد فارس عقابًا للفرس، ثم بعد ذلك يتجه صوب نهر الأردن ليُعمَّد ثمة[4].

لم يكن لطموحات قسطنطين حدود. فقد منح ابن أخته -غير الشقيقة- لقبًا ملكيًا جديدًا هو «حاكم بلاد فارس»، وأمر بسك العملات المعدنية مقدمًا[5]. وانتشرت تلك الأخبار المثيرة بين النصارى في الشرق انتشار النار في الهشيم. نلمس ذلك في رسالة كتبها أفراهات (Aphrahat) -وكان رئيس دير مهم، كان يقع بالقرب من الموصل- قال فيها: «أي شعب الله، قد أهلَّ الخير». لقد كانت هذه هي اللحظة التي كان ينتظرها، لقد كان ملكوت المسيح على الأرض على وشك أن يتأسس مرة واحدة، وإلى الأبد. واختتم رسالته قائلًا: «كونوا على يقين، سيُصرَع الوحش حين يبلغ الكتاب أجله»[6].

وبينا كان الفُرس يستعدون لمقاومة شرسة، إذا بالحظ يحالفهم؛ فقبل أن يخرج قسطنطين على رأس جيشه، مرض ثم ما لبث أن مات. عندئذ أطلق سابور الثاني حمم الجحيم على الساكنة من

---

(1) Eusebius, *Vita Constantini*, 4.13, p. 125; translation in Dodgeon and Lieu (eds), *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars A. D. 226–363: A Documentary History* (London, 1991), p. 152.

عن التاريخ انظر:

G. Fowden, *Empire to Commonwealth: Consequences of Monotheism in Late Antiquity* (Princeton, 1993), pp. 94–9.

(2) J. Eadie, 'The Transformation of the Eastern Frontier 260–305', in R. Mathisen and H. Sivan (eds), *Shifting Frontiers in Late Antiquity* (Aldershot, 1996), pp. 72–82; M. Konrad, 'Research on the Roman and Early Byzantine Frontier in North Syria', *Journal of Roman Archaeology* 12 (1999), 392–410.

(3) Sterk, 'Mission from Below', 10–11.

(4) Eusebius, *Vita Constantini*, 5.56, p. 143; 5.62, pp. 145–6.

(5) T. Barnes, 'Constantine and the Christians of Persia', *Journal of Roman Studies* 75 (1985), 132.

(6) Aphrahat, *Demonstrations*, M.-J. Pierre, *Aphraate le sage person: les exposés* (Paris, 1988–9), no. 5.

النصارى في بلاد فارس انتقامًا من عدوان قسطنطين. و«تعطش الشاه لدماء القديسين» بتحريض من السلطات الزرادشتية[1]. وسقط الشهداء صرعى بالعشرات. وسجلت إحدى المخطوطات التي دوّنت في الرُّها في مستهل القرن الخامس الميلادي إعدام عددٍ لا يقل عن ستة عشر أسقفًا، إضافة إلى خمسين كاهنًا في هذه الحقبة[2]. لقد بات يُنظر إلى النصارى -آنئذٍ- على أنهم طلائع، أو على أنهم «طابور خامس» للرومان، ومن شأنهم أن يفتحوا أبواب بلاد فارس أمام الإمبراطورية الرومانية في الغرب. واتُّهم كبار الأساقفة بتحريض «أتباع الشاه وشعبه على الثورة على جلالته، وعلى أن يصبحوا عبيدًا للإمبراطور الذي يؤمن بدينهم»[3].

وكان حمام الدم هذا نتيجة مباشرة لاعتناق النصرانية بحماسة في روما. لقد نبع الاضطهاد الذي شنه الشاه من حقيقة أن قسطنطين قد أعزَّ الإمبراطورية الرومانية بالنصرانية. وقد تكون التصريحات العظيمة للإمبراطور قد أثارت إعجاب رجال مثل أفراهات وألهمتهم، إلا أنها كانت تمثل تحديًا كبيرًا للقيادة في بلاد فارس. وكانت الهوية الرومانية واضحة المعالم قبل أن يعتنق قسطنطين النصرانية، بيد أن الإمبراطور -وكذلك خلفائه- أضحى على استعدادٍ للحديث، نيابةً عن النصارى بصفة عامة أيضًا، وليس عن حماية روما وأهلها فحسب. لقد كانت تلك لعبة سياسية ملائمة، ولا سيما في الوطن؛ حيث كان من المؤكد أن ذلك النوع من الخطابة كان يروق الأساقفة وجموع المؤمنين. أما أولئك الذين كانوا يعيشون خارج حدود الإمبراطورية، فقد كان من المحتمل أن تكون تلك الخطابة كارثيةً، تمامًا كما خبِر ضحايا سابور ذلك.

ومن المفارقات -إذن- أنه بينما اشتهر قسطنطين بكونه الإمبراطور الذي وضع الأساس لتنصر أوروبا، لم يلحظ أحد أنه كان هناك ثمن يجب أن يُدفَع مقابل اعتناقه دينًا جديدًا قط: لقد أضر بمستقبل النصرانية في الشرق ضررًا جسيمًا. وكان السؤال هو ما إذا كانت تعاليم يسوع المسيح التي ترسخت عميقًا في آسيا ستغدو قادرةً على الصمود أمام تحدٍّ حاسمٍ.

---

(1) J. Walker, *The Legend of Mar Qardagh: Narrative and Christian Heroism in Late Antique Iraq* (Berkeley, 2006), 6, p. 22.

(٢) انظر بصفة عامة:

J. Rist, 'Die Verfolgung der Christen im spätkirchen Sasanidenreich: Ursachen, Verlauf, und Folgen', *Oriens Christianus* 80 (1996), 17–42.

بيد أن الدليل لا يخلو من مشكلات في تأويله، انظر:

S. Brock, 'Saints in Syriac: A Little-Tapped Resource', *Journal of East Christian Studies* 16.2 (2008), esp. 184–6.

(3) J. Wiesehöfer, *Ancient Persia, 500 BC to 650 AD* (London, 2001), p. 202.

-٣-

الطريق إلى الشرق النصراني

خفت حدة التوترات بين روما وبلاد فارس في الوقت المناسب، كما لانت المواقف تجاه الدين؛ ذاك أن روما أُجبرت على التراجع بشدة في القرن الرابع الميلادي، حتى إنها ألفت نفسها تقاتل من أجل بقائها ذاته. واستطاعت بلاد فارس الاستيلاء على نقاط رئيسة على طول طرق التجارة والاتصالات الممتدة نحو البحر المتوسط في سلسلة من الحملات التي استمرت حتى وفاة سابور الثاني عام ٣٧٩م. وعلى هذا النحو، استعاد الفُرس السيطرة على نَصيبين وسنجار، كما ضمت إليهما نصف أرمينية. وعلى الرغم من أن عملية إعادة التوازن الإقليمي هذه قد ساعدت على تهدئة نيران العداوات، فإن العلاقات تحسنت تحسنًا حقيقيًا عندما واجهت روما وبلاد فارس معًا تحديات جديدة؛ فقد كان ثَم كارثة تلوح في السهوب.

كان العالم يمر بحقبةٍ من التغيير البيئي. وتجلى ذلك في أوروبا، حيث ارتفع مستوى سطح البحر، وانتشر وباء الملاريا في منطقة بحر الشمال، بينما عانت آسيا من انخفاض حاد في مستوى الملوحة في بحر آرال منذ أوائل القرن الرابع الميلادي، وكذلك تباين الغطاء النباتي على نحو ملحوظ في السهوب (ويتضح ذلك من خلال التحليل عالي الدقة لتركيز حبوب اللقاح) وكذلك الأنماط الجديدة لتقدم الأنهار الجليدية في منطقة تيان شان (Tian Shan)، وهي أمارات تنم جميعًا عن حدوث تحولات جوهرية في المناخ العالمي[1].

وكانت النتائج مدمرة، تشهد عليها رسالة لافتةٌ للنظر، كتبها تاجر صُغدي في أوائل القرن الرابع الميلادي، وعُثر عليها على مقربة من دونهوانغ (Dunhuang) غربي الصين. وروى ذلك التاجر في

(1) O. Knottnerus, 'Malaria in den Nordseemarschen: Gedanken über Mensch und Umwelt', in M. Jakubowski-Tiessen and J. Lorenzen-Schmidt, *Dünger und Dynamit: Beiträge zur Umweltgeschichte Schleswig-Holsteins und Dänemarks* (Neumünster, 1999), pp. 25–39; P. Sorrel et al., 'Climate Variability in the Aral Sea Basin (Central Asia) during the Late Holocene Based on Vegetation Changes', *Quaternary Research* 67.3 (2007), 357–70; H. Oberhänsli et al., 'Variability in Precipitation, Temperature and River Runoff in W. Central Asia during the Past 2000 Yrs', *Global and Planetary Change* 76 (2011), 95–104; O. Savoskul and O. Solomina, 'Late- Holocene Glacier Variations in the Frontal and Inner Ranges of the Tian Shan, Central Asia', *Holocene* 6.1 (1996), 25–35.

رسـالته لأقرانه من التجار كيف أن نقص الغذاء والمجاعة تسـبَّبا في إحداث خسـائر فادحة، وكيف أن الكارثـة التـي حلَّت بالصين تقصر عـن وصفها الكلمات. وكان الإمبراطور قد فرَّ من العاصمة، وأضرم النـار فـي قصـره قبل أن يغادره، بينما اختفت طوائف التجار الصُّغديـيـن، حيث أفناهم الجوع والموت. ونصـح الكاتـب أقرانه قائلًا: لا تتَّجروا في الصين: «فليس ثَـم ربح تجنونه هناك». ثم أخذ يتحدث عن نهب المدن، المدينة تلو الأخرى. لقد كان الوضع مروعًا حقًّا[1].

وخلقت الفوضى ظروفًا مثاليةً لتوحيد شتات قبائل السهوب. وكان أولئك الناس يسكنون في نطاق الأرض التـي تربـط منغوليا بسـهول وسـط أوروبا، حيث كانت السـيطرة على أفضـل المراعي، ومنابع المياه التي لا تنضب تمنح أولئك المسيطرين قوة سياسية كبيرة. وما لبث أبناء إحدى القبائل أن أصبحوا أسـيادًا على السـهوب، فاجتثوا كل ما اعترض طريقهم. وأشـار ذلك التاجر الصغدي إلى مهندسي يوم القيامة (Apocalypse) في رسالته باسم «شون» (xwn). لقد كانت تلك قبيلة «شيونجنو» (Xiongnu)، وهي نفسها التي اشتهرت في الغرب باسم قبائل «الهون Huns»[2].

كانـت الحقبـة بين عامـي ٣٥٠-٣٦٠م قد شـهدت موجة هجرة ضخمـة، حيث نُفيَـتِ القبائل عن أراضيهـا ودُفِعـت غربًا. وحدث هذا -على الأرجح- بسـبب تغير المناخ، الأمـر الذي جعل الحياة في السـهوب أشـد قسـوةً بما لا يُقاس، وأثار ذلك صراعًا شديدًا على الموارد. وامتد هذا التأثير من باكتريا -شـمالي أفغانسـتان- حتى حـدود الدولة الرومانية على نهر الدانوب، حيث بـدأ اللاجئون في الظهور بأعداد كبيرة، وتوسَّـلوا السـماح لهم بالاسـتقرار فـي أراضـي الإمبراطورية بعد أن طُـردوا من أراضيهم الواقعة شـمالي البحر الأسـود في أثناء تقدم الهون. وسـرعان ما أصبح الوضـع مقلقًا على نحو خطير. فقد لقي جيشٌ روماني ضخم -كان قد أُرسل لإعادة الأمور إلى نصابها- هـزيمة منكرة في سهول تراقيا (Thrace) المنبسـطة فـي عـام ٣٧٨م، وقُتـل الإمبراطـور ڤالنـس (Valens) وسـقط عدد كبيـر من قواته صرعـى[3]. وانهـارت خطـوط الدفـاع الرومانيـة، فتدفقـت القبيلـة تلـو الأخرى إلـى الولايـات الغربية

---

(1) N. Sims-Williams, 'Sogdian Ancient Letter II', in A. Juliano and J. Lerner (eds), *Monks and Merchants: Silk Road Treasures from Northern China: Gansu and Ningxia 4th–7th Century* (New York, 2001), pp. 47–9.

وانظر أيضًا:

F. Grenet and N. Sims-Williams, 'The Historical Context of the Sogdian Ancient Letters', *Transition Periods in Iranian History, Studia Iranica* 5 (1987), 101–22; N. Sims-Williams, 'Towards a New Edition of the Sogdian Letters', in E. Trembert and E. de la Vaissière (eds), *Les Sogdiens en Chine* (Paris, 2005), pp. 181–93.

(2) E. de la Vaissière, 'Huns et Xiongnu', *Central Asiatic Journal* 49.1 (2005), 3–26.

(3) P. Heather, *Empires and Barbarians* (London, 2009), pp. 151–88; A. Poulter, 'Cataclysm on the Lower Danube: The Destruction of a Complex Roman Landscape', in N. Christie (ed.), *Landscapes of Change: Rural Evolutions in Late Antiquity and the Early Middle Ages* (Aldershot, 2004), pp. 223–54.

للإمبراطورية، مُهددةً بذلك روما نفسها. لطالما كان يُنظر -في الماضي- إلى الضفة الشمالية للبحر الأسود وأراضي السهوب الممتدة في أعماق آسيا على أنها مناطق بربرية عنيدة، تغصُّ بالمقاتلين الأشداء، وتخلو من الحضارة أو الموارد. بيد أنه لم يخطر ببال روما قط أن هذه المناطق يمكن أن تعمل بوصفها شرايين، أُسوةً بالطرق التي ربطت الغرب بالشرق عبر بلاد فارس ومصر. لقد غدت هذه المناطق ذاتها على وشك نقل الموت والدمار إلى قلب أوروبا.

وكانت بلاد فارس تترنَّح أيضًا تحت وطأة الكارثة القادمة من السهوب. فقد نُكِبت ولاياتها في الشرق جرَّاء غارات قبائل البدو، قبل أن تنهار بالكلية. وأُخليت المدن من سكانها، وأضحَت شبكات الري الحيوية في حالة يرثى لها، ثم ما لبثت أن انهارت بسبب الغارات التي أدت إلى إيقاع خسائر فادحة[1]. وكانت الهجمات التي شنتها قبائل البدو عبر القوقاز ساحقة ماحقة، وأسفرت عن استيلاء البدو على الأسرى والغنائم من مدن بلاد الرافدين وسوريا، وآسيا الصغرى. ثم ما لبث أن دمر هجوم كبير بعيد المدى مدن نهري دجلة والفرات في عام ٣٩٥م، حتى وصل المهاجمون إلى المدائن (Ctesiphon) العاصمة، قبل أن ينجح الفُرس في صدهم وإعادتهم من حيث أتوا في الأخير[2].

عندئذٍ شكلت بلاد فارس وروما آنذاك تحالفًا رائعًا، فقد عملت المصلحة المشتركة لكليهما على توحيد الصفّ لصد جحافل البرابرة. وشُيِّد جدار محصن ضخم، امتد بين بحر قزوين والبحر الأسود لمسافة تقترب من ١٢٥ ميلًا لمنع البدو من التسلل عبر القوقاز. وعمل هذا السور على حماية المناطق الداخلية الفارسية من الهجوم، وكذلك بوصفه حاجزًا ماديًا بين العالم المتحضر إلى الجنوب، والفوضى الضاربة أطنابها في الشمال. وكان هذا السور مرصَّعًا بثلاثين حصنًا وُزِّعت بالتساوي على طوله، كما كان محميًا بخندق بلغ عمقه نحو خمسة عشر قدمًا. لقد كان أعجوبة في التخطيط والهندسة المعمارية، حيث شُيِّد من الطوب المقطوع بأحجام قياسية صُنع في عشرات الأفران التي شيدت في مواقع البناء. وحرس هذه التحصينات نحو ثلاثين ألف جندي، جرى إيواؤهم في ثكناتٍ أقيمت على مقربة من السور نفسه[3]. ولم

---

(١) انظر:

F. Grenet, 'Crise et sortie de crise en Bactriane-Sogdiane aux IVe–Ve s de n.è.: de l'héritage antique à l'adoption de modèles sassanides', in *La Persia e l'Asia Centrale da Alessandro al X secolo. Atti dei Convegni Lincei* 127 (Rome, 1996), pp. 367–90; de la Vaissière, *Sogdian Traders*, pp. 97–103.

(2) G. Greatrex and S. Lieu, *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars, Part II, AD 363–630* (London, 2002), pp. 17–19; O. Maenchen-Helfen, *The World of the Huns* (Los Angeles, 1973), p. 58.

(٣) على الرغم من أن العلماء قد ناقشوا التأريخ المحتمل لبناء هذا السور منذ فترة طويلة، فإن التطورات الحديثة في التأريخ بالكربون المشع، والتأريخ بالتوهج المحفز بصريًا (Optically simulated luminescence) يؤرخان الآن إقامة هذا التحصينات الضخمة بهذه الحقبة على نحو دقيق، انظر:

J. Nokandeh et al., 'Linear Barriers of Northern Iran: The Great Wall of Gorgan and the Wall of Tammishe', *Iran* 44 (2006), 121–73.

يعدُ ذلك السور كونه مجرد خطوة واحدة من عدة خطوات مبتكرة اتخذها الساسانيون للدفاع عن الحدود الشمالية الطويلة لبلاد فارس مع السهوب، ولحماية المواقع التجارية غير المحصنة مثل مرو، التي كانت طليعة المدن التي يواجهها المهاجمون القادمون ما أن يجتازوا صحراء قره قوم (فيما يعرف الآن بتركمانستان)[1].

لم توافق روما على دفع جزية مالية منتظمة لصيانة هذا السور الفارسي فحسب، بل قدمت أيضًا -وفقًا لعدد كبير من المصادر المعاصرة- جنودًا للمساعدة في الدفاع عنه[2]. ويشير هذا إلى الكيفية التي نُحّيت بها الخصومات السابقة جانبًا؛ حتى إن الإمبراطور أركاديوس (Arcadius) لم يجد -في عام ٤٠٢م- في القسطنطينية أحدًا يصلح أن يكون وصيًّا على ولده ووريثه سوى الشاه[3].

أما بالنسبة لـ روما فقد كان الأوان قد فات؛ إذ نتج عن نزوح القبائل عبر السهوب شمال البحر الأسود عاصفة كبرى داهمت حدود الإمبراطورية على نهر الراين. فقد أدت سلسلة من الغارات -في أواخر القرن الرابع الميلادي- إلى فتح بوابات الولايات الغربية لروما على مصراعيها، حيث نال زعماء القبائل شهرة كبيرة اكتسبوها من خلال من انتصاراتهم العسكرية، هذا فضلًا عن المكاسب المادية التي اجتذبت المزيد من الأتباع وشحذت همم المهاجمين، وشجعتهم على شن مزيد من الغارات. وبينما كان الجيش الإمبراطوري يناضل من أجل صد جحافل المهاجمين، تحطمت موجة تلو الأخرى من دفاعات الإمبراطورية، الأمر الذي أدى إلى دمار مقاطعة بلاد الغال (Gaul). وزاد الطين بلة عندما سار ألاريك (Alaric) -وكان قائدًا مغوارًا، شديد الطموح- على رأس قبيلته من القوط الغربيين (Visigoths) عبر إيطاليا، ثم خيموا خارج روما لإرهاب المدينة وإجبارها على أن تعقد معهم صفقة. وحاول مجلس الشيوخ (Senate) يائسًا إبرام تلك الصفقة. ولما سئم ألاريك المماطلة، اقتحم المدينة في عام ٤١٠م واستباحها[4].

وكان سقوط روما صدمة ترددت أصداؤها عبر البحر المتوسط. ففي القدس، قوبل الخبر بالتكذيب. وكتب القديس جيروم (St. Jerome)، قائلًا: «تهدج صوت المتكلّم، وقاطعت التنهدات المتحسرة كلامه. من ذا الذي يصدّق أن المدينة التي احتلت العالم كله قد سقطت؟! من ذا الذي يصدق أن روما، التي غزت العالم عبر العصور، قد سقطت، وأن أُم الأمم أصبحت مقبرةً لتلك

(1) J. Howard-Johnston, 'The Two Great Powers in Late Antiquity: A Comparison', in A. Cameron, G. King and J. Haldon (eds), *The Byzantine and Early Islamic Near East*, 3 vols (Princeton, 1992–6), 3, pp. 190–7.

(2) R. Blockley, 'Subsidies and Diplomacy: Rome and Persia in Late Antiquity', *Phoenix* 39 (1985), 66–7.

(3) Greatrex and Lieu, *Roman Eastern Frontier*, pp. 32–3.

(٤) انظر:

Heather, *Fall of the Roman Empire*, pp. 191–250.

الأمم؟»[١]. كما كتب المؤرخ جوردانيس (Jordanes) قائلاً: على الرغم من أن استسلام روما تأخر قرنًا من الزمان، فإن عزاءنا أنها لم تُحرق[٢].

وسواءً حُرقت روما أم لم تُحرق، فقد انهارت إمبراطورية روما في الغرب آنذاك. وسرعان ما تعرضت إسبانيا للدمار والهجوم من قبل قبائل مثل الألانز (Alans)، الذين كانت مساكنهم تقع بعيدًا بين بحر قزوين والبحر الأسود؛ حيث حرص الكتَّاب الصينيون على ذكر اشتغالهم بالتجارة في جلود السمور لأول مرة قبل ما يقرب من قرنين من الزمان[٣]. وثم مجموعة قبلية أخرى -أعني الواندال- وكانوا قد نزحوا تحت ضغط الهون، ووصلوا إلى شمال إفريقيا الرومانية بحلول عام ٤٢٠م، ثم ما لبثوا أن سيطروا على قرطاج -وكانت أم المدائن ثمة- إضافة إلى الولايات المحيطة النابضة بالحياة والمربحة؛ حيث كانت تزود معظم أنحاء النصف الغربي من الإمبراطورية بالذُّرة[٤].

وزاد الطين بلة عندما ظهر الهون بأنفسهم في أوروبا -في منتصف القرن الخامس الميلادي- بعد أن دفعوا أمامهم خليطًا من القبائل إلى الأمام، وعلى رأسهم القوط التيريفينجيون (Terevingian Goths)، وقبائل الآلان، وقبائل الواندال، وقبائل سيوفي (Suevi)، وقبائل الجيبديز (Gepids)، وقبائل النيوريان (Neurians)، وقبائل الباسترن (Bastarnians) وغيرهم. وكان على رأس قبائل الهون الشخص الأشهر في العصور القديمة المتأخرة، أعني أتيلا Attila[٥]. وتسبب الهون في إشاعة شعور من الذعر والخوف لا مزيد عليهما. وكتب أحد الكتَّاب الرومان قائلًا: إنهم «بذرة الشر» و«متوحشون كل الوحشية». لقد تعوَّد رجال الهون منذ نعومة أظافرهم على احتمال البرد القارس، والجوع، والعطش. وارتدوا ملابس صنعوها من جلود فئران الحقل وكانوا يخيطونها معًا؛ ويأكلون الجذور والنباتات النيئة، وكانوا يدفئونها جزئيًا من خلال وضعها بين أفخاذهم[٦]. وأشار كاتبٌ آخر إلى أنهم تركوا

---

(1) St Jerome, 'Ad Principiam', *Select Letters of St Jerome*, ed. and tr. F. Wright (Cambridge, MA, 1933), 127, p. 462.

(2) Jordanes, *Getica*, 30, in *Iordanis Romana et Getica*, ed. T. Mommsen (Berlin, 1882), pp. 98–9.

(3) J. Hill, *Through the Jade Gate to Rome: A Study of the Silk Routes during the Late Han Dynasty, 1st to 2nd Centuries CE: An Annotated Translation of the Chronicle of the 'Western Regions' from the Hou Hanshu* (Charleston, NC, 2009).

(4) Sarris, *Empires of Faith*, pp. 41–3.

(٥) تسرد وثيقة مؤرخة بأوائل القرن الرابع الميلادي أسماء القبائل التي تدفقت على الإمبراطورية الرومانية، انظر:
A. Riese (ed.), *Geographi latini minores* (Hildesheim, 1964), pp. 1280–9.

وتجد مثالًا آخر في:
Sidonius Apollinaris, 'Panegyric on Avitus', in *Sidonius Apollinaris: Poems and Letters*, ed. and tr. W. Anderson, 2 vols (Cambridge, MA, 1935–56), 1, p. 146.

(6) Ammianus Marcellinus, *Rerum Gestarum Libri XXX*, 31.2, 3, p. 382.

الزراعـة، واشـتغلوا بنهـب جيرانهـم، واسـتعبادهم بعدهـا؛ لقد كانوا كالذئـاب[1]. وشـوه الهون خدود أولادهـم الرضـع ما أن يولـدوا؛ كي لا تنمو اللحى في وجوههم عند بلوغهـم مبلغ الرجال. ولما كانوا يمضون وقتًا طويلًا على ظهور خيولهم، فقد تشوهت أجسادهم على نحو غريب؛ فقد كانوا يبدون مثل الحيوانات التي تنتصب على قائمتيها الخلفيتين[2].

وعلـى الرغـم من أننا قد نُغرى برفض مثل هـذه الأوصاف بوصفها علامة من العلامات الدالة على التعصب الأعمى، فإن فحوصات بقايا الهياكل العظمية تُظهر أن الهون مارسـوا نوعًا من أنواع التشـويه الاصطناعـي لجماجـم صغارهـم، حيـث قاموا بربـط الجمجمة بأربطةٍ بهدف تسـطيح العظـام الأمامية والقذالية من خلال الضغط عليها. وأدى هذا إلى نمو الرأس مدببةً على نحو واضح. وعلى هذا النحو لـم يكـن سـلوك الهـون هو الـذي بدا خارجًـا عن المألـوف على نحو مثيـر للرعـب فحسـب، بل كانت أشكالهم كذلك أيضًا[3].

وشكل وصول قبائل الهون خطرًا جسيمًا على النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، التي لم تتأثر نسبيًّا بالاضطرابات التي دمرت جزءًا كبيرًا من أوروبا. بينما ظلت ولايات آسيا الصغرى، وسوريا، وفلسـطين، ومصر سـالمةً، وكذلك كانت مدينة القسطنطينية الرائعة. ولـم يدع الإمبراطور ثيودوسيوس الثانـي (Theodosius II) شـيئًا للظـروف، فعمـل علـى إحاطـة المدينـة بدفاعات هائلة، اشـتملت على مجموعة ضخمة من الأسوار والتحصينات الأرضية، وقايةً للمدينة من الهجوم عليها.

وقـد برهنـت هذه الأسـوار والشـريط المائي الضيـق الذي يفصل أوروبا عن آسـيا علـى أنها موانع حاسمة بالفعل. فما أن وطَّد أتيلا أركان عرشه شمال نهر الدانوب، حتى سار قاصدًا البلقان ليعيث فيها فسـادًا مدة خمسـة عشـر عامًا. وانتزع لنفسـه جزية ثقيلة من الحكومة في القسطنطينية، كما حصل على كميـات هائلـة مـن الذهـب، مقابـل أن يقـف عنـد هـذا الحد. ثـم سـار غربًا -بعـد أن عصَر السـلطات الإمبراطورية عصرًا، وجبى منها الأموال، على سـبيل الجزية تارة، وعلى سـبيل الرِّشوة تارة أخرى- ثم ما لبث أن اضطرَّ للتراجع، ولكن ليس بسبب مقاومة جيوش روما، بل بسبب هزيمته على يد حِلف كان قـد تشـكل من عـدد كبير من أعداء الهون على المدى الطويل؛ فقد هُـزِم أتيلا في عام ٤٥١م في معركة السـهول الكاتالونية (Catalaunian Plains) -فيما يُعرف الآن بوسـط فرنسا- على يد قوة كبيرة ضمت مجموعة مذهلة من الأجناس التي انحدرت من شعوب السهوب. ثم ما لبث زعيم الهون أن قضى نحبه

(1) Priscus, *Testimonia*, fragment 49, ed. and tr. R. Blockley, *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodorus, Priscus, and Malchus*, 2 vols (Liverpool, 1981–3), 2, p. 356.

(2) Ammianus Marcellinus, *Rerum Gestarum Libri XXX*, 31.2, 3, p. 380.

(3) D. Pany and K. Wiltschke-Schrotta, 'Artificial Cranial Deformation in a Migration Period Burial of Schwarzenbach, Central Austria', *VIAVIAS* 2 (2008), 18–23.

بُعيد ذلك في ليلة زفافه على عروسٍ لم تكن أولى زوجاته. وأشار أحد المعاصرين إلى إنه أفرط في الاحتفال، «فاستلقى على ظهره نائمًا، والخمر تقطر من فمه»، ثم عانى نزيفًا في المخ ومات في أثناء نومه. «وعلى هذا النحو وضع السُكر نهاية مخزيةً لملك ظفر بالمجد في ساحات الوغى»[1].

* * *

إن الحديث -في يومنا هذا- عن التحول والاستمرارية في أعقاب استباحة روما يبدو مواكبًا لروح العصر؛ وذاك من باب تجنب نعتِ الحقبة بأكملها بـ«العصور المظلمة» (Dark Ages). ومع ذلك فإن آثار الاستباحة، والنهب، والفوضى السياسية -وهي ظواهر تميز بها القرن الخامس الميلادي- حيث انتشرت قبائل القوط، وَالآلان، والوندال، والهون في جميع أنحاء أوروبا وشمال إفريقيا، تجعل المبالغة في المضي قدمًا في هذا النهج أمرًا من الصعوبة بمكان، كما يؤكد على ذلك أحد العلماء المحدَثين. فقد انخفضت مستويات معرفة الناس بالقراءة والكتابة، واختفى البناء بالحجر تمامًا، وهما أمارتان واضحتان على ضياع الثروة، والافتقار إلى الطموح. كما انهارت التجارة البعيدة التي كانت تحمل الفخار من مصانعه في تونس حتى منطقة إيونا (Iona) في اسكتلندا، وحلت محلها الأسواق المحلية التي لم تكن تتعامل إلا في السلع الصغيرة؛ كما كان هناك تقلص كبير في أعمال صهر المعادن، حيث تراجعت مستوياتها إلى ما كانت عليه في عصور ما قبل التاريخ، وفقما أظهرت قياسات أعمال صهر المعادن من خلال قياس التلوث في القمم الجليدية القطبية في جرينلاند (Greenland)[2].

وبذل المعاصرون جهدًا عظيمًا لفهم حقيقة ما كان يبدو لهم انهيارًا كاملًا للنظام العالمي. فكتب الكاتب النصراني سالفيان (Salvian) -من أهل القرن الخامس الميلادي- مُنتحبًا: «لمَ سمح [الله] بأن نكون أضعف وأكثر بؤسًا» من كل هذه الشعوب القبلية؟ «لمَ سمح للبرابرة بغزونا؟ لمَ سمح لنا بالخضوع لحكم أعدائنا؟» ثم ختم تساؤلاته بجواب بسيط: لقد أخطأ الناس، وكان الله يعاقبهم[3]. وتوصل آخرون إلى نتيجة جاءت على النقيض من ذلك، فقد خلص المؤرخ البيزنطي زوسيموس (Zosimus)، (الذي كان على الوثنية لم يزل) إلى أن روما سادت العالم عندما كانت وفية لجذورها الوثنية؛ فلما صبأت عن دينها، واعتنقت دينًا جديدًا، حفرت قبرها بيدها. واستطرد قائلًا: إن هذا ليس رأيًا، بل هي الحقيقة[4].

---

(1) Priscus, *Testimonia*, fragment 24, 2, pp. 316–17.

عن انتصارات الهون انظر:

Heather, *Fall of the Roman Empire*, pp. 300–48.

(2) B. Ward-Perkins, *The Fall of Rome and the End of Civilization* (Oxford, 2005), pp. 91ff.

(3) Salvian, *OEuvres*, ed. and tr. C. Lagarrigue, 2 vols (Paris, 1971–5), 2, 4.12. Translation from E. Sanford (tr.), *The Government of God* (New York, 1930), p. 118.

(4) Zosimus, *Historias Neas*, ed. and tr. F. Paschoud, *Zosime, Histoire nouvelle*, 3 vols (Paris, 2000) 2.7, 1, pp. 77–9.

لقد أزال انهيار روما الحرج على النصرانية في آسيا، فتحسنت علاقات النصارى مع الفُرس في معرض انشغال الجميع بمقاومة شعوب السهوب. وعلى هذا النحو لم تعد النصرانية -في ظل الإمبراطورية المتهاوية- تشكل تهديدًا -أو فلنقل إنها لم تعد مُقنعةً- كما كانت كذلك قبل قرن من الزمان، عندما كان قسطنطين يتهيَّأ لمهاجمة بلاد فارس، وتحرير سكانها النصارى. ومن ثم فقد عُقد الاجتماع الأول -من بين عدة اجتماعات- في عام ٤١٠م، بتشجيع من الشاه يزدجرد الأول، لإضفاء الطابع الرسمي على وضع الكنيسة النصرانية في بلاد فارس، وتوحيد عقائدها.

وظهر عدد كبير من الآراء المختلفة حول ما يعنيه اتِّباع المسيح تحديدًا، أسوةً بما كانت عليه الحال في الغرب، وكذلك بشأن الطريقة التي ينبغي أن يعيش بها المؤمنون، وما يجب أن يدينوا به، وكيف لهم أن يمارسوا شعائر دينهم. وكما ذكرنا آنفًا، فإن نقش قردار -من القرن الثالث الميلادي- يتحدث عن طائفتين من النصارى، وهما: النصارى (*Nasraye*)، والمسيحيون (*Kristyone*). ويُفهم هذان الاسمان عادةً على أنهما يميزان بين الأهالي الذين بُشِّروا بالنصرانية في ديارهم فاعتنقوها، وبين أولئك الذين جرى ترحيلهم بلاد فارس من الأراضي الرومانية. وكان الاختلاف في الممارسات والعقيدة مصدرًا دائمًا للقلاقل، وقد لا نستغرب وجود كنيستين في أماكن مثل ريف أردشير (Rev-Ardashīr) في فارس -جنوبي إيران حاليًا- كانت إحداهما تقيم طقوسها باليونانية، بينما كانت الأخرى تقيمها بالسُّريانية. وأدت المنافسة أحيانًا إلى اللجوء إلى العنف، كما هو الحال في سوسيانا Susiana (فيما يعرف الآن بجنوب غرب إيران) حيث حاول الأساقفة المتنافسون تصفية حساباتهم قتالًا بالأيادي العارية[١]. ولم تسفر الجهود التي بذلها أسقف سلوقية-المدائن -وكانت إحدى أهم مدن الإمبراطورية الفارسية- لإحلال النظام والوحدة لجميع الطوائف النصرانية، اللهم إلا عن إظهار عجزه وقلة حيلته[٢].

وكان من الأهمية بمكان تسوية الخلافات مرة واحدة وإلى الأبد؛ فقد كان آباء الكنيسة الأوائل يجتهدون في التشديد على أن الخلاص يتوقف على تلقي مسائل الإيمان الصحيح منذ البَدء[٣]. فكذا ذكَر القديس بولس أهل غلاطية (Galatians) قائلًا: «كَمَا سَبَقْنَا فَقُلْنَا، أَقُولُ الآنَ أَيْضًا: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُبَشِّرُكُمْ بِغَيْرِ مَا قَبِلْتُمْ، فَلْيَكُنْ منبوذًا!» (غلاطية ١: ٩). وفي هذا السياق كُتبت متون التبشير بأسلوب أدبي، محاولة تفسير مَن هو «ابن الله»، وما هي رسالته، فضلًا عن تنظيم المعتقدات[٤].

---

(1) Asmussen, 'Christians in Iran', pp. 929–30.

(2) S. Brock, 'The Church of the East in the Sasanian Empire up to the Sixth Century and its Absence from the Councils in the Roman Empire', *Syriac Dialogue: First Non-Official Consultation on Dialogue within the Syriac Tradition* (Vienna, 1994), 71.

(3) A. Cameron and R. Hoyland (eds), *Doctrine and Debate in the East Christian World 300–1500* (Farnham, 2011), p. xi.

(4) W. Barnstone, *The Restored New Testament: A New Translation with Commentary, Including the Gnostic Gospels of Thomas, Mary and Judas* (New York, 2009).

ودعا الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مجمَع في نيقية (Nicaca) في عام ٣٢٥م، لوضع حد للجدل الذي أزعج الكنيسة النصرانية المبكرة في الغرب، حيث أمر باستدعاء الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية لإنهاء الخلاف حول علاقة الأب بالابن -وكانت تلك المسألة قد تسببت في إثارة قدر عظيم من اللغط- إلى جانب الفصل في عدد من الآراء المتنافسة الأخرى. وتعامل المجمع مع هذه الموضوعات من خلال الاتفاق على هيكل للكنيسة، ومن خلال تسوية مسألة حساب تاريخ عيد الفصح، ومن خلال تدوين قانون الإيمان الذي لم يزل معمولًا به في الكنيسة النصرانية حتى يوم الناس هذا، ويُعرف بـ «قانون إيمان نيقية». لقد كان قسطنطين عازمًا على وضع حد للانقسام، والتأكيد على أهمية الوحدة[1].

لم يُدعَ الأساقفة من بلاد فارس وكذلك من أماكن أخرى خارج حدود الإمبراطورية الرومانية لحضور مجمع نيقية. ونظمت المجامعُ التي عُقدت في بلاد فارس في ٤١٠م، ومجددًا في عامي ٤٢٠-٤٢٤م، لتمكين الأساقفة من حل القضايا نفسها التي كان أقرانهم في الغرب ينظرون فيها. وكان الدافع للاجتماع والمناقشة مدعومًا من الشاه، الذي وُصِف في أحد المصادر بأنه «ملك الملوك المظفَّر، الذي تعوّل عليه الكنائس من أجل السلام، والذي كان مثل قسطنطين حريصًا على الاستفادة من دعم المجتمعات النصرانية، لا التدخل فيما شجر بينها»[2].

إن الرواية التي تقص ما جرى الاتفاق عليه في هذه الاجتماعات ليست موثوقة بالكامل، الأمر الذي يعكس صراعات متأخرة على السلطة، دارت رحاها بين الزعماء ورجال الدين. ومع ذلك، فمن الواضح أن ثمة قرارات مهمة قد اتُّخذت فيما يتعلق بتنظيم الكنيسة. ويُزعم أنه اتُّفِق على أن يتصرف رئيس أساقفة سلوقية-قطسيفون بوصفه «رئيسًا ووصيًّا علينا، وعلى جميع إخواننا الأساقفة في جميع أنحاء الإمبراطورية [الفارسية]» (وإن جرى الإقرار بذلك على خلفية من الجدل الكبير، وسوء الظن)[3]. كما نوقشت مسألة مهمة تتعلق بآليات التعيينات الكهنوتية نقاشًا مُسهبًا، وذلك بهدف القضاء على الهيراركية الكنسية المزدوجة في المواقع التي اشتملت على دوائر نصرانية متنافسة. كما جرى بحث تقويم الأعياد الدينية الرئيسة، وتقرر أيضًا وقف الممارسة الشائعة المتمثلة في مناشدة «الأساقفة

---

(1) N. Tanner, *The Decrees of the Ecumenical Councils*, 2 vols (Washington, DC, 1990), 1; A. Cameron, *The Later Roman Empire, AD 284–430* (London, 1993), pp. 59–70.

(٢) انظر:

P. Wood, *The Chronicle of Seert. Christian Historical Imagination in Late Antique Iraq* (Oxford, 2013), pp. 23–4

(3) S. Brock, 'The Christology of the Church of the East in the Synods of the Fifth to Early Seventh Centuries: Preliminary Considerations and Materials', in G. Dagras (ed.), *A Festschrift for Archbishop Methodios of Thyateira and Great Britain* (Athens, 1985), pp. 125–42.

في الغرب» للتوجيه والتدخل؛ لأن هذا يعمل على تقويض قيادة الكنيسة في الشرق[١]. وأخيرًا جرى قبول عقيدة مجمع نيقية وشرائعه، إلى جانب مواطن الإجماع الأخرى التي جرى التوصل إليها في المجامع الغربية اللاحقة في الفترة الفاصلة[٢].

وكان ينبغي أن تكون هذه اللحظة لحظة حاسمة في تاريخ النصرانية، أعني المفصل الذي ارتبطت عنده عضلات النصرانية ورأسها على نحو محكم، الأمر الذي أدى إلى إنشاء مؤسسة ربطت المحيط الأطلسي بسفوح جبال الهيمالايا، بذراعين حُرَّتين تمامًا؛ ذراع لروما، وذراع لبلاد فارس -وهما الإمبراطوريتان العظيمتان في العصور القديمة المتأخرة- وكان ينبغي أن يعمل كلا الذراعين في توافق تام. وعلى هذا النحو كان ينبغي للنصرانية أن تصعد منبرًا تُحسد عليه، في ظل الرعاية الإمبراطورية من جانب الرومان، والقبول المتزايد لها من قِبل شاه فارس. وكان ذلك من شأنه أن يجعل النصرانية الدين المهيمن ليس في أوروبا فحسب، بل في آسيا أيضًا. ولكن بدلًا من ذلك، اندلع صراع أهلي مرير.

لم يكتفِ بعض الأساقفة -الذين شعروا بضياع سلطانهم جراء محاولات التوفيق بين الكنائس- باتهام كبار رجال الدين بأنهم لم يتلقوا تعاليمهم على نحو صحيح فحسب، بل اتهموهم بأن ترسيمهم أساقفةً لم يجر على نحو صحيح أيضًا. ثم كانت هناك المشكلات التي تسبب بها التعصب للنصرانية، والتي أدت إلى تخريب سلسلة من معابد النار الزرادشتية، الأمر الذي وضع الشاه -بدوره- في موقف لا يُحسَد عليه، وأجبره على تغيير موقفه المتسامح إلى موقف منحاز لمعتقدات الارستقراطية في مملكته. لقد كانت تلك نكسة كبيرة، ووجدت الكنيسة نفسها تواجه موجة جديدة من الاضطهاد، بدلًا من أن تستقبل عصرها الذهبي[٣].

وكانت الخلافات الدينية النارية متوطنة في الكنيسة الأولى. وسجل جريجوريوس النزينزي (Gregory of Nazianzus) -وكان رئيس أساقفة القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، وأحد أكابر العلماء النصارى الأوائل- صيحات غضب منتقديه. فكتب قائلًا: إن خصومه نعقوا في وجهه مثل سرب عظيم من الغربان، وأردف قائلًا: «فشعرت وكأني في وسط عاصفة رملية هوجاء عندما هاجموني، أو بأنني تعرضت لهجوم قطيع من الحيوانات، لقد كانوا أشبه بسرب من الدبابير طار في وجه المرء على حين غرة»[٤].

ومع ذلك، فإن توقيت هذا الانهيار في منتصف القرن الخامس كان مؤسفًا خاصةً. فقد كان هناك نزاع مرير يختمر بين اثنين من رجال الدين المتنافسين في الغرب، هما: نسطور (Nestorius)، وكان

---

(1) Baum and Winkler, *Apostolische Kirche*, pp. 19–25.

(2) Synod of Dadjesus, *Synodicon orientale, ou Recueil de synods nestoriens*, ed. J. Chabot (Paris, 1902), pp. 285–98; Brock, 'Christology of the Church of the East', pp. 125–42; Brock, 'Church of the East', 73–4.

(3) Wood, *Chronicle of Seert*, pp. 32–7.

(4) Gregory of Nazianzus, *De Vita Sua*, in D. Meehan (tr.), *Saint Gregory of Nazianzus: Three Poems* (Washington, DC, 1987), pp. 133–5.

بطريرك القسطنطينية، وكيرلس (Cyril) -وكان بطريرك الإسكندرية- حول مسألة الطبيعة الإلهية والبشرية لـ يسوع المسيح. لم تجر تسوية هذا الجدل بالعدل والقسطاس بالضرورة؛ لقد ولد كيرلس سياسيًّا، ولم يكن يتوانى عن كسب المؤيدين إلى صفه بأية وسيلة يراها ممكنة، ومن ثم وضع جدولًا موسعًا للرّشا التي دفعها، ظهرت فيه أسماء الشخصيات الفاعلة وأسماء زوجاتهم، فأغدق عليهم بالهدايا القيّمة، مثل: السجاجيد الفاخرة، والكراسي المصنوعة من العاج، ومفارش المائدة باهظة الثمن، فضلًا عن المال[١].

ووجد بعض رجال الدين في الشرق الخلاف -وطبيعة حله- لغزًا محيرًا. وتكمن المشكلة، كما رأوها، في الترجمة اليونانية الغامضة لمصطلح سُرياني وصَف التجسُّد، وذلك على الرغم من أن الجدل كان يدور حول التنافس على السلطة بين منبرين رئيسيين في هيراركية الكنيسة، والشهرة التي جاءت من قبول المواقف العقائدية واعتناقها. ثم ما لبث الصدام أن وصل إلى ذروته بشأن مكانة العذراء، التي كان نسطور يرى أنها لا ينبغي أن تلقَّب بـ«أم الإله» (التي حملت بالله)، بل ينبغي أن تلقب بـ«التي حملت بالمسيح» (*Christotokos*)، بعبارة أخرى، حملت يسوع بوصفه إنسانًا، دون الإله[٢].

وحاصر كيرلس نسطورَ وتفوق عليه في المناورة، فخلعه من الكنيسة، وهي خطوة زعزعت استقرار الكنيسة، حيث غيَّر الأساقفة مواقفهم اللاهوتية على عجل بطريقة أو بأخرى. وكان بالإمكان الطعن على القرارات المتخذة في أحد المجامع في مجمع آخر، فضغطت الفصائل المتنافسة بقوة في الخلفية. واندلع جدل عظيم حول مسألة ما إذا كان ليسوع المسيح طبيعتان -إحداهما إلهية والأخرى بشرية- اتحدتا على نحو غير قابل للانفصام في شخص واحد، وتلك الكيفية التي ارتبطت بها الطبيعتان. وكانت العلاقة الدقيقة بين يسوع والله أيضًا موضوعًا لنقاش حاد، دار حول مسألة ما إذا كان الله قد خلق المسيح، فيكون المسيح بذلك عبدًا لله، أو أن المسيح مظهر من مظاهر القدير، ومن ثم فهو كفؤ له، وسرمدي مثله. وطُرحت الردود على الأسئلة بقوة في مجمع خلقيدونية (Chalcedon) الذي انعقد عام ٤٥١م، مع صياغة تعريف جديد للإيمان كان يُفترض أن يُقبل في جميع أنحاء العالم النصراني، وكان مصحوبًا بتهديد صريح مفاده: إن كل من يعترض عليه سيُطرد من الكنيسة من فوره[٣]. وردت الكنيسة في الشرق على ذلك بغضب.

---

(1) St Cyril of Alexandria, Letter to Paul the Prefect, in J. McEnerney (tr.), *Letters of St Cyril of Alexandria*, 2 vols (Washington, DC, 1985–7), 2, 96, pp. 151–3.

(2) S. Brock, 'From Antagonism to Assimilation: Syriac Attitudes to Greek Learning', in N. Garsoian, T. Mathews and T. Thomson (eds), *East of Byzantium: Syria and Armenia in the Formative Period* (Washington, DC, 1982), pp. 17–34;

وانظر أيضًا المؤلف نفسه:

'Christology of the Church of the East', pp. 165–73.

(3) R. Norris, *The Christological Controversy* (Philadelphia, 1980), pp. 156–7.

ورأى الأساقفة المشارقة أن هذه التعاليم الجديدة للكنيسة الغربية ليست خاطئة فحسب، بل إنها توشك على أن تكون هرطقة؛ لذلك صدرت عقيدة أعيد صياغتها تحدد طبيعة يسوع المتميزة والمنفصلة، وهددت بلعن أي شخص «يحسبُ -أو يعلم غيره- أن المعاناة والتغيير قد ارتبطتا بألوهية سيِّدنا»[1]. وتورط الإمبراطور في هذا الجدل، وأمر بأغلاق مدرسة الرُّها (Edessa) التي أضحت نقطة محورية في الشرق النصراني، كانت تُخرج المتون وسير القديسين وتعاليمهم، ليس باللغة السريانية، باللهجة الآرامية -التي كانت شائعةً في الرها آنذاك- فحسب، بل بمجموعة من اللغات الأخرى مثل: الفارسية والصُّغدية أيضًا[2]. وكان هناك اعتراف في الشرق منذ البداية بأنه متى.اعتنق النصرانية أناسٌ جُدد، فينبغي أن تكون هناك مواد متاحة يسع عدد كبير من الطوائف المختلفة فهمها بقدر الإمكان، وذلك على النقيض من منطقة البحر المتوسط ، حيث كانت اليونانية هي لغة النصرانية.

وأدى إغلاق مدرسة الرُّها إلى تعميق الانقسام بين كنائس الغرب والشرق، ولا سيما بعد طرد عدد كبير من العلماء من الأراضي الإمبراطورية؛ حيث طلبوا اللجوء إلى بلاد فارس. وبمرور الوقت، أصبح هذا الأمر إشكاليًا على نحو متزايد، حيث كان من المتوقع أن يدافع الأباطرة المقيمون في القسطنطينية عن العقيدة الأرثوذكسية، وأن يتخذوا إجراءات صارمة ضد التعاليم التي كانوا يعدونها منحرفة، وهرطقة محضة. وعندما جرى الاتفاق على معاهدة سلام مع بلاد فارس في عام ٥٣٢م، بعد فترة من القلاقل والصراع في القوقاز، كان أحد البنود الرئيسة في الاتفاقية هو وجوب تقديم المسؤولين الفُرس يد العون في تعقب الأساقفة، والكهنة، المخالفين لقرارات مجمع خلقيدونية، والذين عدت السلطات الرومانية أنشطتهم خطيرة[3].

وكانت محاولة تهدئة المشاعر بين الطوائف الدينية المتنافسة مهمة لم تخلُ من جحود، كما تظهر حالة الإمبراطور جستنيان (Justinian) جليًا. فقد حاول جستنيان -مرارًا- إقناع أطراف النزاع بالتوفيق بين آرائهم، وأمر بعقد مجمع مسكوني كبير في عام ٥٥٣م في محاولة لوضع حد لهذه النزاعات بعد فترة من الاتهامات المريرة المتزايدة، بينما حضر بنفسه مزيدًا من الاجتماعات على نطاقٍ أصغر لكبار

---

(1) Brock, 'Christology of the Church of the East', pp. 125–42;

وانظر أيضًا:

Baum and Winkler, *Apostolische Kirche*, pp. 31–4.

(2) F.-C. Andreas, 'Bruchstücke einer Pehlevi-Übersetzung der Psalmen aus der Sassanidenzeit', *Sitzungsberichte der Berliner Akademie der Wissenschaften* (1910), 869–72; J. Asmussen, 'The Sogdian and Uighur-Turkish Christian Literature in Central Asia before the Real Rise of Islam: A Survey', in L. Hercus, F. Kuiper, T. Rajapatirana and E. Skrzypczak (eds), *Indological and Buddhist Studies: Volume in Honour of Professor J. W. de Jong on his Sixtieth Birthday* (Canberra, 1982), pp. 11–29.

(3) Sarris, *Empires of Faith*, p. 153.

رجال الدين لإيجاد طريقة لتسوية الخلافات[١]. وتُظهر رواية دُوِّنت بُعيد وفاته الكيفية التي نظر بعض الناس إلى جهوده الرامية لإيجاد أرضية مشتركة بين الفُرقاء، فكتب أحد الكتَّاب قائلًا: «بعد أن أشاع الارتباك والاضطراب في كل مكان، وجنى عاقبة فِعاله، توفِّي، وحُمل إلى الدِّرك الأسفل» من النار[٢]. ونحا الأباطرة الآخرون نحوًا مختلفًا، في أثناء محاولاتهم الرامية لإخماد نيران التنافر والاتهامات المتبادلة؛ لقد أمروا بمنع الجدل في المسائل الدينية ببساطة[٣].

* * *

بينا انهمكت الكنيسة في الغرب في القضاء على الآراء المخالفة، شرعت الكنيسة في الشرق في وضع أحد أكثر البرامج التبشيرية طموحًا وبعدًا في المدى في التاريخ، وهو أحد البرامج التي يمكن مقارنتها من حيث الحجم بالتبشير بالنصرانية في الأمريكتين وإفريقيا مؤخرًا. وسرعان ما توسعت النصرانية إلى مناطق جديدة دون حاجة إلى القبضة الحديدية للسلطة السياسية. وتظهر سلسلة من الشهداء في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية ذلك المدى الذي بلغته مجسات الدين، وكذلك تشير إلى حقيقة اعتناق ملك اليمن النصرانية[٤]. بل إن زائرًا لـ سريلانكا -كان يتحدث اليونانية- وجد فيها طائفةً قويةً من النصارى نحو عام ٥٥٠م، يخضعون لرجال دين معينين «من بلاد فارس»[٥].

---

(١) عن مجمع عام ٥٥٣م انظر:

R. Price, *The Acts of the Council of Constantinople of 553: Edited with an introduction and notes*, 2 vols (Liverpool, 2009).

وعن النص السُّرياني مع ترجمة له، انظر:

S. Brock, 'The Conversations with the Syrian Orthodox under Justinian (532)', *Orientalia Christiana Periodica* 47 (1981), 87–121,

وانظر أيضًا المؤلف نفسه:

'Some New Letters of the Patriarch Severus', *Studia Patristica* 12 (1975), 17–24.

(2) Evagrius Scholasticus, *Ekklesiastike historia*, 5.1, *Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus*, tr. M. Whitby (Liverpool, 2005), p. 254.

(٣) عن تأليف النص وتاريخه انظر:

R. Lim, *Public Disputation: Power and Social Order in Late Antiquity* (Berkeley, 1991), p. 227.

(4) Sterk, 'Mission from Below', 10–12.

(٥) عن الـ ٣٠٠ شهيد في نجران، انظر:

I. Shahid, 'The Martyrdom of Early Arab Christians: Sixth Century Najran', in G. Corey, P. Gillquist, M. Mackoul et al. (eds), *The First One Hundred Years: A Centennial Anthology Celebrating Antiochian Orthodoxy in North America* (Englewood, NJ, 1996), pp. 177–80.

وعن رحلة كوسماس إنديكوبلوتس (Cosmas Indicopleustes)، انظر:

S. Faller, *Taprobane im Wandel der Zeit* (Stuttgart, 2000); H. Schneider, 'Kosmas Indikopleustes, Christliche Topographie: Probleme der Überlieferung und Editionsgeschichte', *Byzantinische Zeitschrift* 99.2 (2006), 605–14.

بـل وصلـت النصرانيـة إلى شـعوب البـدو الرحل في السـهوب. فقد بلغت دهشـة المسـؤولين في القسطنطينية مبلغها عندما أخذوا بعض البدو بوصفهم رهائن، تنفيذًا لشرطٍ من شروط اتفاقية سلام بين الدولة وبين بعض القبائل، فوجدوا «جباه بعضهم موشـومة بالصليب بالمداد الأسـود». فلما سـألوهم عـن ذلـك، أجابهـم البدو بأن وبـاءً كان قد استشـرى فيهم، «فأشـار عليهم بعض النصارى أن يرسـموا الصلبان على جباههم [استجلابًا للحماية الإلهية]، ومنذ ذلك الحين أضحت بلادهم آمنة»[١].

وبحلـول منتصـف القرن السـادس الميلادي، وُجِد أسـاقفة في جوف آسـيا. وازدهر عدد السـكان النصـارى فـي مـدن مثـل: البصرة، والموصـل، وتِكريـت. وكان حجم التبشـير كبيرًا، حتـى إن الكوهة -الواقعـة قـرب المدائـن- كان يخـدم فيهـا خمسـة أسـاقفة علـى الأقـل[٢]. وكان لمـدن مثـل: مرو، وجُنْدَيْسَـابور، بـل وكاشـغر -وهـي الواحة التي كانت بمثابة البوابة للصين- رؤسـاء أسـاقفة قبل وقت طويل من إنشاء كنيسة كانتربري (Canterbury). لقد كانت هذه المدن مراكز رئيسة للنصرانية قبل عدة قرون من وصول المبشرين الأوائل إلى بولندا أو اسكندناڤيا. وكانت سمرقند وبخارى (في أوزبكستان الحديثة) أيضًا موطنًا لمجتمعات نصرانية ازدهرت قبل ألف عام من ظهور النصرانية في الأمريكتين[٣]. والحـق أن عـدد النصـارى فـي آسـيا في القـرون الوسـطى، كان أكبـر بكثير ممـا كان عليـه عددهم في أوروبا[٤]. وفي الأخير، فإن بغداد[٥] كانت أقرب إلى القدس مقارنة بأثينا، كما كانت طهران أقرب إلى الأرض المقدسـة مقارنة بروما، وكانت سـمرقند أقرب إلى القدس مقارنة بباريس ولندن. شـدَّما نُسِـي نجاح النصرانية في المشرق!

ويعود الفضل في انتشـار النصرانية إلى التسـامح والبراعة التي تحلى بهما الحكام الساسـانيون في بـلاد فـارس، الذيـن اتبعوا سياسـات شـمولية في أوقات اسـتطاعوا فيهـا تهدئة مخاوف الأرسـتقراطية والكهنـوت الزرادشـتيين. وكان هـذا النهـج التصالحي هو النهج الذي تعامل به خُسـرو الأول (٥٣١-٥٧٩م) مـع العلمـاء الأجانب، حتى إنه عُرف في القسـطنطينية المعاصرة بأنه «عاشـقٌ للأدب، وطالبٌ

---

(1) *The History of Theophylact Simocatta: An English Translation with Introduction and Notes*, ed. and tr. M. Whitby and M. Whitby (Oxford, 1986), 5.10, p. 147.

(٢) انظر:

Wood, Chronicle of Seert, p.23.

(3) B. Spuler, *Iran in früh-Islamischer Zeit* (Wiesbaden, 1952), pp. 210–13; P. Jenkins, *The Lost History of Christianity* (Oxford, 2008), pp. 14, 53;

وانظر أيضًا:

S. Moffett, *A History of Christianity in Asia*, 2 vols (San Francisco, 1998); J. Asmussen, 'Christians in Iran', pp. 924–48.

(4) A. Atiya, *A History of Eastern Christianity* (London, 1968), pp. 239ff.

(٥) من الواضح أن القلم سبق هنا، فلم يكن ثم بغداد في هذا التاريخ. (المترجم)

متعمقٌ في الفلسفة»، وهو الأمر الذي جعل أحد الكُتّاب في القسطنطينية يغمغم غير مصدّق، قائلًا: يستحيل أن يعقِل المرءُ هذا. وأكد المؤرخ أغاثياس (Agathias) -بُعيد ذلك- على أنه كان رجلًا ألمعيًا حقًا، يتكلم بلسان فظٍّ بربري. ثم تساءل مندهشًا: فلله كيف وقف على الفروق الدقيقة في الفلسفة؟!(١).

وبحلول أواخر القرن السادس الميلادي، بدأت اجتماعات الكنيسة في الشرق بالدعاء بالصحة لشاه فارس. وبُعيد ذلك، ألفَينا الشاه ينظم انتخاب بطريرك جديد للنصارى، ويحث جميع الأساقفة في مملكته على «القدوم سريعًا... لانتخاب قائد وحاكم... يقع كل مذبح وكل كنيسة لربنا يسوع المسيح في إمبراطورية الفُرس تحت إدارته وإشرافه»(٢). لقد تحول الشاه الساساني من مضطهد للنصارى في آسيا إلى بطل لهم.

جاء هذا نتاجًا لتنامي الثقة بالنفس في بلاد فارس؛ واستمد الفُرس هذه الثقة من خلال الجزية المنتظمة التي دأبت السلطات في القسطنطينية على دفعها، على الأقل جزئيًا؛ فقد تحولت أنظار القسطنطينية إلى حل المشكلات العسكرية والسياسية في بقاع أخرى. ومن ثم شهدت بلاد فارس ازدهارًا متزايدًا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين؛ إذ ركن البدو من ساكنة السهوب إلى الهدوء، وانصب تركيز روما على استقرار ولاياتها، واستعادة تلك الولايات التي خسرتها في البحر المتوسط. وعلى هذا النحو سار التسامح الديني مع النمو الاقتصادي كتفًا بكتف؛ فأُنشِئ عدد كبير من المدن الجديدة في جميع أنحاء بلاد فارس، حيث أنفقت الحكومة المركزية مزيدًا من عائدات الضرائب على مرافق البنية التحتية بها(٣). وعززت مشروعات الري الضخمة -ولا سيما تلك التي أقيمت في خوزستان والعراق- الإنتاج الزراعي، بينما شُيدت أنظمة إمدادات المياه، أو في بعض الحالات جرى تمديدها لعدة أميال. وحملت الآلة البيروقراطية الواسعة على عاتقها الإدارة السلسة من بلاد الشام إلى جوف آسيا الوسطى(٤). لقد شهدت هذه الفترة قدرًا كبيرًا من المركزية للدولة الساسانية(٥).

---

(1) Agathias, *Historion*, 2.28, *Agathias: Histories*, tr. J. Frendo (Berlin, 1975), p. 77.

(٢) عن الصلوات، انظر:

Brock, 'Church of the East', 76;

وعن الانتخابات انظر:

Synod of Mar Gregory I, *Synodicon orientale*, p. 471.

(3) T. Daryaee (ed. and tr.), *Šahrestānīhā-ī Ērānšahr: A Middle Persian Text on Late Antique Geography, Epic and History* (Costa Mesa, CA, 2002).

(4) M. Morony, 'Land Use and Settlement Patterns in Late Sasanian and Early Islamic Iraq', in Cameron, King and Haldon, *The Byzantine and Early Islamic Near East*, 2, pp. 221–9; F. Rahimi-Laridjani, *Die Entwicklung der Bewässerungslandwirtschaft im Iran bis Sasanidisch-frühislamische zeit* (Weisbaden, 1988); R. Gyselen, *La géographie administrative de l'empire sasanide: les témoignages sigilographiques* (Paris, 1989).

(5) P. Pourshariati, *Decline and Fall of the Sasanian Empire: The Sasanian–Parthian Confederacy and the Arab Conquest of Iran* (London, 2009), pp. 33–60. =

ووصل مستوى التحكم إلى حد تحديد تصميم الدكاكين في الأسواق والمتاجر الفارسية. وسجل أحد المتون كيفية تنظيم الصفقات في نقابات منظمة، كما أشار إلى أن المفتشين وُجدوا ثمة لضمان ضوابط الجودة، وتقييم الضرائب المستحقة للخزانة[1]. ولما نمَتِ الثروة، ازدهرت تجارة المسافات الطويلة للسلع الفاخرة، وازدهرت أيضًا السلع الثمينة. فقد وصلتنا الآلاف من الأختام التي استُخدِمت لتمييز العبوات المعدة للبيع محليًا عن تلك المعدَّة للتصدير خارج البلاد، وكذلك كانت الحال في مجموعة كبيرة من الوثائق التي تشهد على العقود التي أُبرمت واحتُفظ بها في سجلات الدواوين الرسمية في هذه الحقبة[2]. ونُقلت البضائع من الخليج العربي إلى بحر قزوين، كما نُقلت من الهند وإليها بحرًا وبرًّا. وارتفعت مستويات التبادل التجاري مع سريلانكا والصين ارتفاعًا حادًّا، أسوةً بما حدث مع شرق البحر المتوسط[3]. وأبدت السلطات الساسانية اهتمامًا دائمًا بما كان يجري داخل حدودها وخارجها.

وجرى التعامل مع جزء كبير من هذه التجارة طويلة المدى من قِبل التجار الصغديين المشهورين بقوافلهم، وبفطنتهم فيما تعلق بالأمور المالية، وعلاقاتهم الأسرية الوثيقة التي مكنتهم من تجارة البضائع على طول الشرايين الرئيسة التي امتدت عبر آسيا الوسطى وصولًا إلى شينجيانغ (Xinjiang) وغربي الصين. وهناك خبيئة رائعة من الرسائل التي اكتشفها أوريل شتاين (Auriel Stein) في برج مراقبة يقع بالقرب من دونهوانغ (Dunhuang) في أوائل القرن العشرين[4]، وتشهد تلك الخبيئة على ماط التجارة، وكذلك على التسهيلات الائتمانية المتطورة، والبضائع والمنتجات التي نقَلها صغديون وباعوها. ومن بين السلع الكثيرة التي تاجروا فيها كانت الحلي الذهبية والفضية، مثل: مشابك الشعر، والأواني دقيقة الصنع، والقنب، والكتان، والمنسوجات الصوفية، والزعفران، والفلفل، والكافور؛ إلا أنهم تخصصوا في تجارة الحرير[5]. وكان الصُّغديون بمثابة الغراء الذي ربط المدن

= وانظر أيضًا:

Z. Rubin, 'The Reforms of Khusro Anushirwān', in Cameron, *Islamic Near East*, 3, pp. 225–97.

(1) A. Taffazoli, 'List of Trades and Crafts in the Sassanian Period', *Archaeologische Mitteilungen aus Iran* 7 (1974), 192–6.

(2) R. Frye, 'Sasanian Seal Inscriptions', in R. Stiehl and H. Stier, *Beiträge zur alten Gesichte und deren Nachleben*, 2 vols (Berlin, 1969–70), 1, pp. 79–84; J. Choksy, 'Loan and Sales Contracts in Ancient and Early Medieval Iran', *Indo-Iranian Journal* 31 (1988), 120.

(3) Daryaee, 'Persian Gulf Trade', 1–16.

(٤) عن تلك الخبيئة، انظر: جوناثان بلوم، قصة الورق؛ تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة، نقله إلى العربية أحمد العدوي (الرياض، دار أدب، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م)، ١٠٢ وما يليها.

(5) E. de la Vaissière, *Histoire des marchands sogdiens* (Paris, 2002), pp. 155–61, 179–231. N. Sims-Williams, 'The Sogdian Merchants in China and India', in A. Cadonna and L. Lanciotti (eds), *Cina e Iran: da Alessandro Magno alla dinastia Tang* (Florence, 1996), pp. 45–67; J. Rose, 'The Sogdians: Prime Movers between Boundaries', *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 30.3 (2010), 410–19.

والواحات والمناطق معًا. فقد لعبوا دورًا محوريًا في وصول الحرير الصيني إلى شرق البحر المتوسط، حيث حظي بتقدير كبير من قبل الأباطرة الرومان وعِلية القوم. وبالمثل، فقد عادوا بالبضائع إلى الجهة الأخرى؛ فقد عُثِر على العملات المعدنية المسكوكة في القسطنطينية في جميع أنحاء آسيا الوسطى، بما في ذلك في جوف الصين نفسها، وكذلك كانت الحال مع السلع الفخمة مثل إبريق مصنوع من الفضة يصور مشاهد من حرب طروادة دُفنت في منتصف القرن السادس إلى جوار صاحبها المتنفِّذ لي شيان (Li Xian)[١].

ولما كانت الأديان متصلة ببعضها بعضًا، فقد اقترض كل منها من الآخر حتمًا. وعلى الرغم من صعوبة تتبع هذا الاقتراض تتبعًا دقيقًا، فإنه من قبيل اللافت للنظر أن هالة الضوء قد أضحت رمزًا مرئيًا شائعًا في الفن الهندوسي، والبوذي، والزرادشتي، والنصراني، بوصفها حلقة وصل بين ما هو أرضي وما هو إلهي، وبوصفها أمارة على التألق والنورانية، وكان ذلك أمرًا مهمًّا في جميع هذه الأديان. وثم نصب تذكاري رائع في طاق بستان -في إيران الحديثة- يصور أحد الحكام ممتطيًا صهوة جواده، ومحاطًا بملائكة مجنحة، وحول رأسه هالة نورانية في مشهد مألوف لأتباع جميع الديانات الكبرى في هذه المنطقة. وبالمثل، فإن الرموز البوذية، مثل: ڤيتاركا مودرا (*vitarka mudra*)، التي تشكلت من الإبهام الأيمن التي لامست السبابة في يد واحدة، بينما اتخذت بقية الأصابع وضعًا ممدودًا غالبًا، اقتُبِست لتوضيح الروابط مع ما هو إلهي مقدس، وكانت موضوعًا مفضلًا عند الفنانين النصارى خاصة[٢].

وتدفقت النصرانية على طول طرق التجارة، بيد أن تقدمها لم يمر صفوًا عفوًا. لقد كان قلب العالم صاخبًا، ومكانًا تقترض فيه الأديان والأفكار والعقائد من بعضها بعضًا. ومع ذلك فقد تصادمت تلك الأديان أيضًا؛ حيث زادت المنافسة على السلطة الروحية. لطالما ميز التوتر العلاقة بين النصرانية واليهودية، حيث سعى كبار رجال الدين من كلا الجانبين إلى رسم خطوط فاصلة بين كلتا الديانتين. وفيما تعلق بالنصارى خاصةً، شُرِّع الزواج من الأغيار مرارًا، وفي الوقت نفسه جرى تغيير تاريخ عيد الفصح عمدًا حتى لا يتزامن الاحتفال به مع تاريخ احتفال اليهود به[٣]. ولم يكن هذا الإجراء كافيًا عند

---

(1) F. Thierry and C. Morrisson, 'Sur les monnaies Byzantines trouvés en Chine', *Revue numismatique* 36 (1994), 109–45; L. Yin, 'Western Turks and Byzantine Gold Coins Found in China', *Transoxiana* 6 (2003); B. Marshak and W. Anazawa, 'Some Notes on the Tomb of Li Xian and his Wife under the Northern Zhou Dynasty at Guyuan, Ningxia and its Gold-Gilt Silver Ewer with Greek Mythological Scenes Unearthed There', *Cultura Antiqua* 41.4 (1989), 54–7.

(2) D. Shepherd, 'Sasanian Art', in *Cambridge History of Iran*, 3.2, pp. 1085–6.

(٣) عن عيد الفصح، انظر:

Eusebius, *Vita Constantini*, 3.18, p. 90.

وعن أمثلة للتشريعات ضد الزواج من الأغيار، انظر:

Codex Theodosianus, 16.7, p. 466; 16.8, pp. 467–8.

بعض الناس، فقد حث يوحنا الذهبي الفم (John Chrysostom)، رئيس أساقفة القسطنطينية في مطلع القرن الرابع الميلادي، على أن يكون القداس أكثر تشويقًا للحضور، وشكا من أنه يصعُب على النصارى منافسة مسرح المعبد اليهودي حيث تُستخدم الطبول، والقيثارات، والآلات الموسيقية الأخرى للترفيه في أثناء العبادة، تمامًا كما يفعل الممثلون والراقصون الذين يُجلبون بغرض إضفاء الحيوية على الطقوس(١).

ولم يعد كبار اليهود -من جانبهم- متحمسين لاستقبال معتنقين جدد للديانة. حيث قال حِيًّا الكبير (Ḥiyya the Great) -وكان أحد الأحبار المشهورين: «لا تثق بالمرتد عن دينه حتى انقضاء أربعة وعشرين جيلًا؛ لأن الشر المتأصِّل لا يزال بداخله». وأشار حيلبو (Ḥelbo) -وكان حاخامًا مُتنفذًا- إلى أن معتنقي اليهودية الجدد مزعجون، ولجوجون كالجرب(٢). وازداد موقف اليهود من النصرانية في بلاد فارس تشددًا نتيجة الغارات التي شنتها النصرانية، ويمكن رؤية هذا بوضوح في التلمود البابلي -وهو مجموعة النصوص التي ركزت على التفسير الحاخامي للشريعة اليهودية- فعلى النقيض من التلمود الفلسطيني الذي أشار إلى يسوع -عرضًا- باستخفاف، اتخذت النسخة البابلية موقفًا عنيفًا ولاذعًا من النصرانية، وهاجمت العقائد، والحوادث، والشخصيات المذكورة في الأناجيل. فقد تهكم اليهود على الولادة من العذراء -على سبيل المثال- وسخروا منها بوصفها أشبه شيء بذُرِّية البغل، كما سخروا أيضًا من قصة القيامة من الموت سخريةً لاذعة. وتُظهر الروايات المضادة المفصلة والمعقدة لحياة يسوع -بما في ذلك المحاكاة الساخرة لمشاهد من الإنجيل، وكذلك من إنجيل القديس يوحنا في المقام الأول- مدى التهديد الذي بات تقدم النصرانية يشكله لليهودية. لقد كانت هناك جهود حثيثة ومنظمة للتأكيد على أن يسوع كان نبيًّا كاذبًا، وأن صَلبه كان مُبررًا. بعبارة أخرى، صرف اليهود اللوم والمسؤولية في ذلك عن أنفسهم. وكانت ردود الفعل العنيفة هذه محاولة لمواجهة المكاسب المستمرة التي تحققت على حساب اليهودية(٣).

وعلى هذا النحو، بات من المهم أيضًا أن تكون هناك مواقع أخرى أحرزت فيها اليهودية نفسها تقدمًا؛ ففي مملكة حمير في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية -فيما يُعرف الآن بالمملكة العربية السعودية واليمن- أضحت الجاليات اليهودية أكثر بروزًا على نحو متزايد، كما تُظهر الاكتشافات الحديثة للمعابد كما يظهر هيكل «قَنَع» في القرن الرابع الميلادي(٤). والحق أن قبيلة حمير اعتنقت

---

(1) L. Feldman, 'Proselytism by Jews in the Third, Fourth and Fifth Centuries', *Journal for the Study of Judaism* 24.1 (1993), 9–10.

(2) Ibid., 46.

(3) P. Schäfer, *Jesus in the Talmud* (Princeton, 2007); P. Schäfer, M. Meerson and Y. Deutsch (eds), *Toledot Yeshu (The Life Story of Jesus) Revisited* (Tübingen, 2011).

(4) G. Bowersock, 'The New Greek Inscription from South Yemen', in A. Sedov and J.-F. Salles (eds), *Qānī': le port antique du Hadramawt entre la Méditerranée, l'Afrique et l'Inde: fouilles russes 1972, 1985–89, 1991, 1993–94* (Turnhout, 2013), pp. 393–6.

اليهودية بحماسة واتخذت منها دينًا للدولة. وبحلول أواخر القرن الخامس الميلادي، كان النصارى يُستشهدون على نحو منتظم بسبب معتقداتهم، بمن فيهم الكهنة، والرهبان والأساقفة، بعد أن يدينهم مجلس الأحبار(١).

وأسفرت حملة عسكرية حبشية فاشلة -كانت تهدف لاستبدال الحاكم اليهودي بحاكم صوري نصراني- شنَّها الأحباش عبر البحر الأحمر في أوائل القرن السادس الميلادي، عن أعمال انتقامية شرسة، حيث اتخذت خطوات لمحو جميع آثار النصرانية من المملكة. فهُدمت الكنائس، أو جرى تحويلها إلى معابد يهودية. واعتُقل مئات النصارى وقُتلوا. وذات مرة أُحرق ٢٠٠ شخص لاذوا بالكنيسة أحياء. وأرسل الملك الرسائل إلى مختلف البقاع في شبه الجزيرة العربية يُظهر فيها ابتهاجه بالمعاناة التي سببها للنصارى(٢).

وكان للكهنوت الزرادشتي رد فعل أيضًا على تقدم النصرانية في الإمبراطورية الساسانية، ولا سيما بعد أن اعتنق عدد كبير من النخبة الحاكمة النصرانية دينًا لهم. وقد أدى ذلك أيضًا إلى سلسلة من الهجمات العدوانية على المجتمعات النصرانية، اشتملت على حوادث إستشهاد متعددة(٣). وفي المقابل، بدأ النصارى في إنتاج قصص أخلاقية لا مهادنة فيها، وأشهرها القصة الملحمية لـ قرداغ (Qardagh)، وهو شاب نبيل كان يصطاد مثل شاه فارس، ويجادل مثل فيلسوف يوناني؛ إلا أنه رفض منصبًا واعدًا؛ حيث تقرر تعيينه واليًا على بعض الأقاليم؛ وفضل أن يصير نصرانيًا؛ فأُمر بقتله، إلا أنه استطاع الفرار من السجن، ثم رأى في منامه رؤية أُخبر فيها بأنه أولى له أن يموت في سبيل دينه بدلًا من الفرار من طالبي نفسه. وجرى إحياء ذكرى قتله، في سرد طويل وممتع؛ حيث رماه أبوه أولًا بحجر. وكان الهدف الواضح للقصة تشجيع الآخرين على أن يثقوا بأنفسهم، ويصيروا نصارى(٤).

ويكمن جزء من سر نجاح النصرانية في التزام رسالتها التبشيرية وطاقتها. وكان الحماس المشبع بجرعة صحية من الواقعية عاملًا مساعدًا في هذا الصدد بطبيعة الحال. وتصور متونٌ كُتِبت أوائل القرن السابع الميلادي رجال الدين وهم يعملون بجد للتوفيق بين أفكارهم والأفكار البوذية، إن لم يكن بوصفها مدخلًا، فعلى الأقل بوصفها طريقة لتبسيط الأمور. فكتب أحد المبشرين النصارى الذين وصلوا إلى الصين قائلًا: إن الروح القدس متوافق تمام التوافق مع ما يعتقده الأهالي بالفعل: «إن بوذا كله يجري ويتدفق بسبب هذه الريح ذاتها [يعني الروح القدس]، بينما ليس ثم مكان لا تصل إليه هذه

(1) J. Beaucamp, F. Briquel-Chatonnet and C. Robin (eds), *Juifs et chrétiens en Arabie aux Ve et Vie siècles: regards croisés sur les sources* (Paris, 2010); C. Robin, 'Joseph, dernier roi de Himyar (de 522 à 525, ou une des années suivantes)', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 34 (2008), 1–124.

(2) G. Bowersock, *The Throne of Adulis: Red Sea Wars on the Eve of Islam* (Oxford, 2013), pp. 78–91.

(3) Brock, 'Church of the East', 73.

(4) Walker, *The Legend of Mar Qardagh*; text, pp. 19–69.

الريح في هذا العالم». واستطرد قائلًا: وبالمثل، إن الله مسؤول عن الخلود والسعادة الأبدية منذ خلق العالم. وعلى هذا النحو، «فإن الإنسان... سوف يُكرَم دائمًا لأجل اسم بوذا»[1]. لم يكتف هذا المبشر بقوله: إن النصرانية متوافقة مع البوذية فحسب؛ بل إنه قال: إن النصرانية هي البوذية على الحقيقة إجمالًا.

وحاول آخرون إضفاء الشرعية على اندماج الأفكار النصرانية والبوذية معًا، فأخرجوا مجموعة هجينة من الأناجيل التي سهّلت الرسالة المعقدة، وقصة النصرانية على نحو فعال، فربطتها بعناصر مألوفة وفي متناول السكان في الشرق، سبيلًا لتسريع وتيرة تقدم النصرانية عبر آسيا. وكان هناك منطق لاهوتي لهذا النهج الثنائي الذي يُسمى عادةً بـ «الغنوصية» (Gnosticism). وكانت تلك الغنوصية ترى في التبشير بعبارات تحتوي على نقاط مرجعية ثقافية مفهومة -وباستخدام لغة يسهل استيعابها- طريقة واضحة لنشر الرسالة[2]. لا عجب إذن أن وجدت النصرانية رواجًا بين مجموعة واسعة من السكان. لقد كانت هذه أفكارًا اصطُنعت عن عمد لتبدو مألوفةً، سهلة الاستيعاب.

واستفادت الطوائف والمذاهب الأخرى من العملية نفسها. فقد ثبت لنا أن تعاليم مزدك -وكان واعظًا ذا شخصية آسرة- كانت شائعة للغاية في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادين- كما يمكننا أن نستنبط ذلك من خلال النقد الغاضب والحيوي الذي تعرض له أتباع هذا الواعظ سواءً من قِبل الكُتّاب النصارى أو الزرادشتيين على حدٍ سواء. لقد كانت مواقف وممارسات تلاميذ مزدك -التي تراوحت مما يأكلونه إلى ولعهم المفترض بممارسة الجنس الجماعي- مذمومة ممقوتة. والحق أن دعوة مزدك إلى حياة الزهد -بقدر ما تسمح لنا مادة المصدر الجزئية للغاية بالفهم- إنما كانت رجع صدى واضح للمواقف البوذية تجاه الثروة المادية، والشكوك الزرادشتية في العالم المادي، والزهد الراسخ في النصرانية[3].

في هذه البيئة الروحية التنافسية، كان من قبيل المهم الدفاع عن مناطق النفوذ الفكرية والمادية. فقد لحَظ رحالة صيني -كان قد اجتاز بسمرقند في القرن السادس الميلادي- أن الأهالي هناك كانوا يعارضون شِرعة بوذا بعنف، وكانوا يطردون أي بوذي أراد أن يلوذ بـ«النار المشتعلة»[4]. وفي هذه

(1) Y. Sacki, *The Nestorian Documents and Relics in China* (2nd edn, Tokyo, 1951), pp. 126–7; D. Scott, 'Christian Responses to Buddhism in Pre-Medieval Times', *Numen* 32.1 (1985), 91–2.

(٢) انظر:

E. Pagels, *The Gnostic Gospels* (New York, 1979); H.-J. Klimkeit, *Gnosis on the Silk Road: Gnostic Texts from Central Asia* (San Francisco, 1993); K. King, *What is Gnosticism?* (Cambridge, MA, 2003).

(3) P. Crone, 'Zoroastrian Communism', *Comparative Studies in Society and History* 36.4 (1994), 447–62; G. Gnoli, 'Nuovi studi sul Mazdakismo', in *Convegno internazionale: la Persia e Bisanzio* (Rome, 2004), pp. 439–56.

(4) Hui Li, *Life of Hiuen-tsang*, tr. Samuel Beal (Westport, CT, 1973), p. 45.

المناسـبة خاصةً، انتهى الاسـتقبال العدائي نهاية سعيدة؛ حيث سُـمِح للزائر في النهاية بالاجتماع بأهل المدينـة، واسـتمر -على مـا يبدو لنا- في إقنـاع كثيرين باعتنـاق البوذية بفضل قوة شـخصيته، ونجاعة حجاجه[1].

ولـم يكـن هناك من يفوق البوذييـن إدراكًا لأهمية الدعايـة للعناصر التي تعضـد الإيمان، وعرضها علـى نحـو أمثـل. فقـد نظر حـاج صيني آخر -كان قد شـق طريقه إلى آسـيا الوسـطى بحثًا عـن المتون السنسـكريتية لدراسـتها- بدهشـة في الآثار المقدسـة التي كان أهل بلخ يقدسـونها. وقد اشتملت هذه الآثـار علـى إحـدى أسـنان بـوذا، وكذلك على الحـوض الذي كان يسـتخدمه للغسـيل، ومكنسـة كان يستخدمها في الكنس، صُنعت من نبات السُّليخة (kasha)، إلا أنها زُيِّنت بالجوهر النفيس[2].

ومع ذلك، كانت هناك شـهادات أكثر وضوحًا، وأكثر شـجنًا صُممت لأسـر القلوب والعقول. فقد أضحـت معابـد الكهـوف طريقة راسـخة لإثارة رسـالة روحية وفرضهـا، حيث قبعت علـى طول طرق التجـارة، وتجاهلـت مفهوم «الحرم»، و«المكان المقدس» من جهة، ومالت إلى التجارة والأسـفار من جهـة أخـرى. ويقدم مجمـع إليفانتـا (Elephanta) قبالة سـواحل مومباي، وكهوف إلـورا (Ellora) في شـمال الهنـد أمثلة رائعة على ذلك. فقد امتلأت بالمنحوتـات المهيبة والمزخرفة للآلهة، وقد صُمِّمت لإظهار التفوق الأخلاقي واللاهوتي، وفي هذه الحالة تحديدًا، إظهار سمو الهندوسية[3].

وكان لهذا تشابه واضح مع باميان (Bamiyan) (في أفغانستان الحديثة). وهي مدينة تقع عند مفترق الطرق التي تربط الهند بالجنوب، وباكتريا من الشـمال، وبلاد فارس من الغرب، وتحتوي على مجمع مكون من ٧٥١ كهفًا تكملها تماثيل ضخمة لبوذا[4]. وثم تمثالان، أحدهما بارتفاع ١٨٠ قدمًا والآخر، وهـو أقـدم قليـلًا، يقترب من ثلثي حجم الأول، نُحتت في خوانق شاسـعة من الصخور، وظلت كذلك لما يقرب من ١٥٠٠ عام، حتى جرى تفجيرها وتدميرها على أيدي رجال حركة طالبان في عام ٢٠٠١ فـي تصـرف دالٌ على نزقٍ، ووحشـية ثقافية، قـد تُقارن بتدمير القطع الأثرية الدينية في بريطانيا وشـمال أوروبا في أثناء حقبة الإصلاح (Reformation)[5].

---

(1) Ibid., p. 46; R. Foltz, 'When was Central Asia Zoroastrian?', *Mankind Quarterly* (1988), 189–200.

(2) S. Beal, *Buddhist Records of the Western World* (New Delhi, 1969), pp. 44–6.

(3) G. Mitchell and S. Johar, 'The Maratha Complex at Ellora', *Modern Asian Studies* 28.1 (2012), 69–88.

(٤) أجريت أعمال التنقيب والمسوحات في السبعينيات من قبل فرق مشتركة من اليابان وأفغانستان. انظر:
T. Higuchi, *Japan–Afghanistan Joint Archaeological Survey 1974, 1976, 1978* (Kyoto, 1976–80).

(٥) عن تأريخ مجمع «باميان» بنحو عام ٦٠٠م، انظر:
D. Klimburg-Salter, 'Buddhist Painting in the Hindu Kush *c.* VIIth to Xth Centuries: Reflections of the Co-existence of Pre-Islamic and Islamic Artistic Cultures during the Early Centuries of the Islamic Era', in E. de la Vaissière, *Islamisation de l'Asie Centrale: processus locaux d'acculturation du VIIe au XIe siècle* (Paris, 2008), pp. 140–2; =

عندمـا نفكـر فـي طُـرق الحرير، فمـن المغري أن نفكر فـي الدوران من الشـرق إلى الغـرب دائمًا. والحق أنه كان هناك فضول كبير، وتبادل تجاري يمر في الاتجاه المعاكس أيضًا، كما يوضح متنٌ صيني مثير للإعجاب من القرن السابع الميلادي؛ حيث كتب المؤلف قائلًا: إن بلاد الشام إقليم «ينتج قماشًا مقاومًـا للحريـق، وبخورًا يعيد الحياة للميت، ولآلئ القمر السـاطعة، والأحجار الكريمة الليلية. وهذه البـلاد لا تعـرف قطـاع الطرق واللصوص، والناس فيها ينعمون بالسـعادة والسـلام. ولا تسـود سـوى القوانين المجيدة؛ ولا يُرفَع إلى مرتبة السلطة والسيادة سوى الفضلاء. والأرض هناك واسعة وفسيحة، ومنتجاتها الأدبية لا تخفى»[1].

وعلى الرغم من المنافسة الشرسة وكذلك جوقة الأديان التي ناضلت من أجل إيصال أصواتها، فإن النصرانية كانت الديانة التي اسـتمرت في تقويض المعتقدات، والممارسـات، وأنظمة القيم التقليدية. ففي عام ٦٣٥م، تمكن المبشرون في الصين من إقناع الإمبراطور بإنهاء معارضته للنصرانية، والاعتراف بها بوصفها دينًا شرعيًا، لا تمس رسالتها الهوية الإمبراطورية قط، بل قد تعمل على تعزيزها[2].

وبحلـول منتصـف القـرن السـابع الميلادي بـدا التنبؤ بالمسـتقبل أمرًا يسـيرًا. لقد كانـت النصرانية تزحف عبر آسيا، وتشق طريقها على حساب الزرادشتية، واليهودية، والبوذية جميعًا[3]. وكانت الديانات دائمًـا تسـتغل بعضها بعضًا في تلك الديار؛ حيث أدركت أنـه يتعين عليها التنافس لجذب الانتباه إليها. ومع ذلك فقد اتضح أن الدين الأكثر تنافسية ونجاحًا، كان دينًا وُلِد في بلدة بيت لحم الصغيرة[4]. ونظرًا للتقدم الذي أُحرز خلال القرون التي أعقبت صلب يسـوع على يد بيلاطس البُنطي، فقد كان ينبغي أن تكـون مسـألة وصول مجسـات النصرانيـة إلى المحيط الهـادئ، وربط هـذا المحيط العظيـم بالمحيط الأطلسي في الغرب مجرد مسألة وقت فحسب.

ومع ذلك، فقد تدخلت الصدفة في ذروة انتصار النصرانية. فقد نشأ منبرٌ للغزو الروحي، لن يكون من شأنه ربط المدن والمناطق ببعضها بعضًا فحسب، بل إنه سيمتد عبر القارات كذلك. ولكن في تلك

= وانظر أيضًا:

F. Flood, 'Between Cult and Culture: Bamiyan, Islamic Iconoclasm, and the Museum', *Art Bulletin* 84.4 (2002), 641ff.

وانظر -في هذا الصدد- أيضًا:

L. Morgan, *The Buddhas of Bamiyan* (London, 2012).

(١) نقلاً عن:

Power, *Red Sea*, p. 58.

(2) I. Gillman and H.-J. Klimkeit, *Christians in Asia before 1500* (Ann Arbor, 1999), pp. 265–305.

(3) G. Stroumsa, *Barbarian Philosophy: The Religious Revolution of Early Christianity* (Tübingen, 1999), pp. 80, 274–81.

(4) J. Choksy, 'Hagiography and Monotheism in History: Doctrinal Encounters between Zoroastrianism, Judaism and Christianity', *Islam and Christian–Muslim Relations* 14.4 (2010), 407–21.

اللحظة التي شهدت ميلاد هذا الدين، اندلعت حرب منهكة قوضت القوى القائمة، ومن ثم أتاحت الفرص لأتباع ذلك الدين الجديد للحلول محلها. لقد كان الأمر أشبه بإطلاق خدمة الإنترنت في أواخر العصور القديمة؛ فقد هددت مجموعة جديدة من الأفكار، والنظريات، والاتجاهات النظام القائم بالتقويض بغتةً، بل والاستفادة من الشبكات التي أُنشِئت على مدى قرون. ولم يعكس اسم الدين الجديد مدى ثوريته قط. ذاك أن «الإسلام» يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكلمتي: الأمان والسلام؛ بحيث لم ينبئ عن الكيفية التي كان على وشك أن يغير العالم بها. هاكم الثورة قد قامت.



-٤-

الطريق إلى الثورة

ظهر الإسلام في عالم شهد قرنًا من الاضطرابات، والفتن، والنكبات. ففي عام ٥٤١م، أي قبل نحو قرن من الزمان من بدء نزول الوحي على النبي [ﷺ]، وردت الأنباء تترى عن تهديد مختلف نشر الذعر في أرجاء البحر المتوسط. وكان ذلك التهديد يتحرك بسرعة البرق، حتى إن الناس ما كادوا يشعرون بالذعر، إلا ويكون الأوان قد فات بالفعل، فلم ينج أحد. لقد كان حجم الموت لا يُتصوَّر، ووفقًا لأحد المعاصرين -الذي فقد معظم أفراد أسرته- فقد درَست إحدى المدن التي كانت تقع على الحدود المصرية، فلم يبقَ من سكانها سوى سبعة رجال وصبي لمَّا يبلغ من العمر عشر سنوات آنئذٍ. وكان هؤلاء هم كل من تبقى من ساكنة مدينة كانت تضج بالنشاط ذات يوم. لقد كانت أبواب البيوت مفتوحة، إلا أنه لم يكن هناك من يحرس الذهب، والفضة، والمقتنيات الثمينة بداخلها[١]. وتحملت المدن العبء الأكبر للهجمات الوحشية، حيث كان عشرة آلاف شخص يلقون مصارعهم كل يوم في القسطنطينية نحو منتصف العقد الخامس من القرن السادس الميلادي[٢]. ولم تُكتب المعاناة على الإمبراطورية الرومانية وحدها، فقبل فترة طويلة اندرست المدن في الشرق أيضًا، حيث انتشرت الكارثة على طول شبكات الاتصالات والتجارة، فخربت المدن في بلاد الرافدين الفارسية حتى وصلت إلى الصين[٣]. لقد جلب الطاعون الدُّبلي (Bubonic plague) الكارثة، واليأس، والموت.

كما تسبب الطاعون أيضًا في كساد اقتصادي مزمن، حيث خلت الحقول من المزارعين، كما خلت البلدات من المستهلكين، وغيَّر الجيل الذي قضى نحبه في ريعان شبابه التركيبة السكانية في العصور

(١) تاريخ ديونسيوس التلمحري (المنسوب إلى التلمحري، ويعرف أيضًا بـ تاريخ الزُّقنيني)، الجزء الثالث. الترجمة الإنجليزية:

tr. W. Witaksowski (Liverpool, 1996), p. 77.

(2) Procopius, *Hyper ton polemon*, 2.22–3, in *History of the Wars, Secret History, Buildings*, ed. and tr. H. Dewing, 7 vols (Cambridge, MA), 1, pp. 450–72.

(3) M. Morony, '"For Whom Does the Writer Write?": The First Bubonic Plague Pandemic According to Syriac Sources', in K. Lester (ed.), *Plague and the End of Antiquity: The Pandemic of 541–750* (Cambridge, 2007), p. 64; D. Twitchett, 'Population and Pestilence in T'ang China', in W. Bauer (ed.), *Studia Sino-Mongolica* (Wiesbaden, 1979), 42, 62.

القديمـة المتأخرة، الأمر الذي تسبب في انكماش اقتصـادي حاد[1]. وكان لهذه النكبة تأثير على النهج الذي سعى به الأباطرة في القسطنطينية لتسيير السياسة الخارجية آنئذٍ؛ فقد تمكنت الإمبراطورية خلال الشطر الأول من عهد جستنيان (Justinian) (٥٢٧-٥٦٥م)، من تحقيق سلسلة من النجاحات الباهرة؛ فقـد انتعشـت ولايات شـمال إفريقيـا، وأُحرز تقدم كبيـر في إيطاليا. واقترن الاسـتخدام الرشـيد للقوة بجهـود متعمـدة للتعامـل بالمرونـة الواجبـة مـع المشـكلات التي قـد تندلع فـي أي وقت علـى حدود الإمبراطوريـة الممتدة، بما في ذلك حدودها في المشـرق. بيـد أن تحقيق هذا التوازن ازداد صعوبة في أواخـر عهد جسـتنيان؛ حيث أدى نقـص الأيدي العاملة، إضافـة إلى ارتفاع كلفة الحملات العسـكرية -التي لم تؤدِّ إلى تحقيق نتائج حاسـمة- إلى اسـتنزاف الخزانة التي كانت خاوية على عروشـها بالفعل قبل أن يضرب الطاعون ضربته[2].

ولمَّا ساد الركود، تعكر مزاج الجمهور تجاه جستنيان. وانتُقِدت الطريقة التي أبدى بها الإمبراطور اسـتعداده لشـراء صداقة جيران الإمبراطورية -من خلال دفع الجزية لهم، ومنحهم الامتيازات- انتقادًا علنيًّا لاذعًا. فقد بلغت الحماقة بـ جستنيان حدًّا اعتقد معه بأنه «بضربة حظ واحدة يمكنه التخلص من ثروة الرومان ليقذف بها إلى البرابرة» على حدِّ وصف بروكوبيوس (Procopius)، وهو المؤرخ الأبرز، والناقد سـليط اللسان في عهد جسـتنيان. وواصل بروكوبيوس هجومه الضاري على الإمبراطور قائلًا: «إن الإمبراطـور لـم يهمـل فرصـةً يمكنه بها إفراغ أمـوال طائلة في جيوب جميع البرابرة»، في الشـمال والجنوب والشرق والغرب؛ بل إنه بعث بالمال إلى أُناس لم يُسمَع بهم من قبل[3].

وسرعان ما تخلى خلفاء جستنيان عن هذه السياسة وانتهجوا سياسةً صارمةً لا هوادة فيها مع جيران روما. فعندما وصل سـفراء قبائل الآفار (Avars) -وكانوا إحدى القبائل العظيمة من سـاكنة السـهوب- إلـى القسـطنطينية -عُقَيـب وفـاة جسـتنيان عـام ٥٦٥م- للمطالبـة بالجزيـة المعتـادة، لم يكتـرث لهم الإمبراطور الجديد، جوستين الثاني (Justin II)، وابتدرَهم قائلًا: «لن تكفلكم الإمبراطورية مجدَّدًا، ثم تذهبـوا إلـى حال سـبيلكم دون أن تقدموا خدمةً تُذكـر لنا. اعلموا أنكم لن تتلقوا منِّي فِلسًـا واحدًا بعد الآن». وعندمـا هـددوه بعاقبـة فعلـه، صرخ الإمبراطور فيهـم غاضبًا: «وهل تجرؤ جيـفُ الكلاب على تهديد المملكة الرومانية؟! اعلموا إذن أنني سأقص خُصلات شعوركم، قبل أن أضرب أعناقكم»[4].

---

(1) P. Sarris, *Economy and Society in the Age of Justinian* (Cambridge, 2006); idem, 'Plague in Byzantium: The Evidence of Non-Literary Sources', in Lester, *Plague and the End of Antiquity*, pp. 119–34; A. Cameron, *The Mediterranean World in Late Antiquity: AD 395–700* (London, 1993), pp. 113ff.; D. Stathakopoulos, *Famine and Pestilence in the Late Roman and Early Byzantine Empire: A Systematic Survey of Subsistence Crises and Epidemics* (Birmingham, 2004), pp. 110–65.

(2) Sarris, *Empires of Faith*, pp. 145ff.

(3) Procopius, *The Secret History*, tr. P. Sarris (London, 2007), p. 80.

(4) John of Ephesus, *Ecclesiastical History*, 6.24, tr. R. P. Smith (1860), p. 429.

كما اتُّخِذ موقف عدواني مماثل تجاه بلاد فارس، ولا سيما بعد أن وردت الأنباء عن أن قبيلة قوية من الأتراك البدو تمكنت من إزاحة الهون وحلت محلَّهم في سهول آسيا الوسطى، ثم أخذوا يضغطون على حدود الفُرس الشرقية. وكان الأتراك يلعبون دورًا مهيمنًا في التجارة، وأخذ دورهم يتعاظم بمرور الوقت، الأمر الذي أثار انزعاج أهل الصين، الذين صوروهم على أنهم قوم أشدَّاء، ولا عهد لهم. وهو الأمر الذي نعدُّه مؤشرًا مؤكدًا على نجاحهم المتنامي على الصعيد التجاري[1]. وكان على رأس الأتراك قائد جليل يقال له: سيزابول (Sizabul)، وكان يستقبل الشخصيات الرفيعة في خيمة متقنة الصُّنع، متكئًا على سريرٍ من الذهب، تدعمه أربعة طواويس مذهَّبة، في حين وُضعت عربة كبيرة امتلأت بالفضة على نحو واضح بالقرب من المكان[2].

وكان للأتراك طموحات كبيرة؛ ومن ثم فقد أرسلوا سفراءهم إلى القسطنطينية يقترحون على الروم تحالفًا عسكريًّا طويل الأمد. وأخبر السفراء جوستين الثاني بأن هجومًا مشتركًا يقومون به في الوقت نفسه من شأنه أن يدمر بلاد فارس عن بكرة أبيها[3]. ولمَّا كان الإمبراطور حريصًا على الفوز بالمجد على حساب منافس القسطنطينية التقليدي، فقد تفاءل خيرًا، وأبدى موافقته على تلك الخطة. ثم تملك الغرور من الإمبراطور، وراح يهدد الشاه مطالبًا إياه بـ إعادة البلدات والأراضي التي سبق أن تنازل الروم عنها بموجب الاتفاقات السابقة. ولما فشلت الضربة العسكرية -التي لم يُحكم الروم تنفيذها- شن الفُرس هجومًا مضادًّا على دارا (Dara) (الواقعة الآن جنوبي تركيا)، وكانت حجر الزاوية في الدفاعات الحدودية الرومانية. واستطاع الفُرس الاستيلاء على المدينة في عام ٥٧٤م، بعد حصار مرير دام ستة أشهر. ولما بلغت تلك الأنباء الإمبراطور، جُن جنونه، ثم تملك منه المرض[4].

وأقنع ذلك الفشل الذريع الأتراك بأن القسطنطينية لا تعد حليفًا يُعوَّل عليه، أو يوثق به، وهو أمر صرح به سفير قبائل الترك في عام ٥٧٦م، رافضًا بغضب عرضًا آخر للهجوم على بلاد فارس مجددًا. فبعد أن وضع أصابعه العشرة في فمه، صاح غاضبًا: «بما أن هناك عشرة أصابع في فمي، فإنكم أيها الروم قد استخدمتم ألسنة كثيرة». لقد خدع الروم الأتراك عندما وعدوهم ببذل وسعهم في الهجوم على بلاد فارس؛ فباء كلاهما بالخُسران المُبين[5].

---

(1) M.-T. Liu, *Die chinesischen Nachrichten zur Geschichte der Ost-Türken (T'u-küe)*, 2 vols (Wiesbaden, 2009), I, p. 87.

وانظر أيضًا:

J. Banaji, 'Precious-Metal Coinages and Monetary Expansion in Late Antiquity', in F. De Romanis and S. Sorda (eds), *Dal denarius al dinar: l'oriente e la monetà romana* (Rome, 2006), pp. 265--303.

(2) *The History of Menander the Guardsman*, tr. R. Blockley (Liverpool, 1985), pp. 121–3.

(3) Ibid., pp. 110–7.

(4) Sarris, *Empires of Faith*, pp. 230–1.

(5) *Menander the Guardsman*, pp. 173–5.

ومـع ذلـك، كان تجـدد الأعمـال العدائيـة مع بلاد فـارس بمثابة اسـتهلالٍ لحقبة مضطربـة كان لها عواقـب اسـتثنائية. فقـد تبـع ذلك عقدان من القتـال، تخللتهما لحظات مأسـاوية شـديدةٌ، مثلما حدث عندما توغل جيش الفُرس في عمق آسـيا الصغرى، قبل أن يعود إلى ثكناته. وفي أثناء مسـيره، تعرض لكمين محكم من جيش الروم، فأُسِرت ملكة الفُرس، وكذلك العربة الملكية المذهبة والمزينة بصنوف الأحجـار الكريمـة واللآلـئ. كما اسـتولى الروم علـى النار المقدسـة «النار العُظمى» التي كان كسـرى الفُرس قد حملها معه في أثناء حملته، وأُلقيت في النهر، بينما غرق كاهن الزرادشتية (المجوس) الأكبر ومعـه «عـدد كبيـر من النبـلاء»، بل ربما أُغرِقـوا. وكان إخماد النار المقدسـة عملًا عدوانيًا واسـتفزازيًا يهـدف إلـى تحقيـر حجر الزاويـة الديني للهوية الفارسـية. وقد احتفـى الروم وحلفاؤهـم بهذه الأخبار بحماسة شديدة[١].

وازدادت أهمية الدين مع استمرار الأعمال العدائية. فعلى سبيل المثال، ثار بعض جيش الروم لما تناهى إلى أسماع الجنود نبأ عزم الدولة على تخفيض أجورهم، فما كان من الضابط الآمر إلا أن عرض أيقونة مقدسـة لـ «يسـوع» على مرأى من الجنود الثائرين؛ سـبيلًا لإقناعهم بأن خدمة الإمبراطور تعني خدمة الله. ولمَّا توفي الشـاه خسـرو الأول في عام ٥٧٩م، ادعى بعض النـاس -دون مُسـوغ- «أن نور الكلمـة الإلهيـة أضـاء حوله على نحو باهـر؛ ذاك أنه آمن بالمسـيح»[٢]. وأدت المـواقف المتشـددة إلى إدانـات صاخبة للزرادشـتية في القسـطنطينية بوصفها ديانـة منحطة، وكاذبة، وفاسـدة: وكتب أغاثياس (Agathias) قائـلًا: إن الفُـرس اكتسـبوا «عـادات منحرفـة ومنحطـة، منـذ أن تعرضـوا لسـحر تعاليـم زرادشت»[٣].

كان لمـزج العسـكرة بجرعـة كبيـرة مـن التديـن تداعيات علـى أولئك الذيـن وُجِدوا علـى أطراف الإمبراطورية، والذين توددت الإمبراطورية إليهم وعملت على تنصيرهم، وكان ذلك جزءًا من سياسـة متعمدة طمحت إلى كسب دعمهم، ومن ثم ولائهم[٤]. وقد بُذل جهدٌ حثيثٌ لكسب ولاء قبائل جنوب الجزيرة العربية وغربها مع وعد بالعطاء الجزيل. كما ساعد إغداق الألقاب الملكية، الذي أدخل بدوره

(١) عن المصادر في هذا الصدد انظر:

Greatrex and Lieu, *Roman Eastern Frontier, Part II*, pp. 153–8.

(2) R. Thomson, *The Armenian History Attributed to Sebeos. Part I: Translation and Notes* (Liverpool, 1999), 8, p. 9.

(3) Agathias, *Historion*, 2.24, p. 72.

(4) G. Fisher, 'From Mavia to al-Mundhir: Arab Christians and Arab Tribes in the Late Antique Roman East', in I. Toral-Niehoff and K. Dimitriev (eds), *Religious Culture in Late Antique Arabia* (Leiden, 2012), p. x; M. Maas, '"Delivered from their Ancient Customs": Christianity and the Question of Cultural Change in Early Byzantine Ethnography', in K. Mills and A. Grafton (eds), *Conversion in Late Antiquity and the Early Middle Ages* (Rochester, NY, 2003), pp. 152–88.

مفاهيم جديدة عن النَّسبِ (والملكية) كان بوسع القبائل استغلالها محليًا بقوة، في إقناع عدد كبير من الناس بالرهان على القسطنطينية[١].

وعلى هذا النحو كان لتشدد المشاعر الدينية في أثناء المواجهة مع بلاد فارس عواقب؛ ذاك أن النصرانية التي اعتنقتها بعض القبائل لم تكن بالصيغة التي اتُّفق عليها في مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م، بل كانت صيغةً -أو ربما كانت صِيغًا- حملت آراءً مختلفة حول طبيعة المسيح. ومن ثم توترت علاقات القسطنطينية بالغساسِنة، وكانوا حلفاء للروم منذ أمدٍ طويلٍ في شبه الجزيرة العربية، وذلك جراء الرسائل الفظَّة التي وردتهم من العاصمة الإمبراطورية[٢]. وانهارت العلاقات في هذه اللحظة الحساسة بسبب الشكوك الدينية المتبادلة جزئيًا، الأمر الذي أتاح للفرس فرصة مثالية لاحت لهم في الأفق. ولما سيطر الفُرس على الموانئ والأسواق في جنوب شبه الجزيرة العربية وغربها، انفتح طريقٌ بريٌّ جديد للتجارة يربط بلاد فارس بمكة وعُكاظ. ووفقًا للروايات الإسلامية فإن هذا الاختلال دفع أحد أعيان مكة إلى التقرب من القسطنطينية بطلب لترشيحه حاكمًا للقبيلة (*Phylarch*)، أو وصيًّا على مكة بوصفه ممثلًا لروما، ومن ثم منح الإمبراطور لقبًا ملكيًا لشخص يُدعى عثمان[٣] وقد ملَّكه على مكة. وجرت عملية موازية لتعيين مرشح للقيام بدور مماثل في يثرب، نيابة عن بلاد فارس[٤].

* * *

بينما كانت هذه الغيوم تتجمع في سماء شبه الجزيرة العربية، كان هناك تقدم ضئيل يجري في الحرب التي طال أمدها على مسرحها الرئيس في الشمال. ولم تكن نقطة التحول في ساحة المعركة، بل كانت في البلاط الفارسي، عندما أخذ بهرام (Vahrām) -وكان قائدًا يحظى بشعبية بين جنوده المرابطين على الحدود الشرقية مع الأتراك- زمام المبادرة في أواخر العقد التاسع من القرن السادس الميلادي، وثار على الشاه خُسرو الثاني. وفر الشاه إلى القسطنطينية حيث وعد الإمبراطور موريس

(1) R. Hoyland, 'Arab Kings, Arab Tribes and the Beginnings of Arab Historical Memory in Late Roman Epigraphy', in H. Cotton, R. Hoyland, J. Price and D. Wasserstein (eds), *From Hellenism to Islam: Cultural and Linguistic Change in the Roman Near East* (Cambridge, 2009), pp. 374–400.

(2) M. Whittow, 'Rome and the Jafnids: Writing the History of a Sixth-Century Tribal Dynasty', in J. Humphrey (ed.), *The Roman and Byzantine Near East: Some Recent Archaeological Research* (Ann Arbor, 1999), pp. 215–33.

(٣) يشير المؤلف إلى عثمان بن الحُويرث، وقصته مشهورة مع قيصر الروم. عنه انظر -على سبيل المثال- ابن حبيب البغدادي، المنمق من أخبار قريش، (بيروت: ١٩٨٥) ١٥٤ وما بعدها. (المترجم)

(4) K. Atahmina, 'The Tribal Kings in Pre-Islamic Arabia: A Study of the Epithet *malik* or *dhū al-tāj* in Early Arabic Traditions', *al-Qan ara* 19 (1998), 35; M. Morony, 'The Late Sasanian Economic Impact on the Arabian Peninsula', *Nāme-ye Irān-e Bāstān* 1.2 (201/2), 35–6; I. Shahid, *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century*, 2 vols (Washington, DC, 1995–2009), 2.2, pp. 53–4.

(Maurice) بتنازلات كبيرة في القوقاز وبلاد الرافدين تتضمن إعادة دارا إلى الروم مقابل دعم الإمبراطور. ولمَّا عاد خسرو إلى وطنه عام ٥٩١م، فاجأ الجميع عندما لم يماطل خصمه، واحترم اتفاقه على الفور. لقد كانت تلك اللحظة -كما وصفها أحد العلماء البارزين- لحظة ڤرساي (Versailles moment)؛ حيث سلَّم الفُرس عددًا كبيرًا للغاية من المدن، والقلاع، والمواقع المهمة إلى الروم، الأمر الذي جرد بلاد فارس من المناطق الاقتصادية والإدارية. لقد بلغ الإذلال بالفُرس حدًّا عظيمًا، حتى إن هذه التنازلات كان لا بد أن تثير استجابة قوية[١].

كان البندول قد تأرجح في كلا الاتجاهين خلال جولات من القتال العنيف على مدى العقدين السابقين. وبدا -من جميع المقاصد والأغراض- كما لو أن روما قد أمَّنت انقلابًا دبلوماسيًّا وسياسيًّا كبيرًا. ولما عادت إليها القواعد الأمامية التي كانت قد فقدتها سابقًا، أتيحت لها أخيرًا الفرصة لترسيخ وجودها على نحو دائم في الشرق الأدنى. وكما أقر المؤرخ بروكوبيوس (Procopius)، فإن سهول بلاد الرافدين التي انتشرت عبر الحوض الهائل لنهري دجلة والفرات لم توفِّر إلا قليلًا من النقاط الحدودية الواضحة على هيئة أنهار، أو بحيرات، أو جبال[٢]. وكان هذا يعني أن أية مكاسب قد تُحقَّق كانت معرضة للخطر ما لم يجر ضم مساحة ضخمة من الأراضي والاحتفاظ بها. وعلى هذا النحو، فربما استعاد خسرو الثاني عرشه، إلا أنه دفع الثمن باهظًا.

ومع ذلك، فلم يكد يمضي عقد من الزمن حتى انقلبت الأمور رأسًا على عقب. فقد اغتيل الإمبراطور موريس على يد فوقاس (Phokas) -وكان أحد قواده- في انقلاب وقع في القصر عام ٦٠٢م. وانتهز خسرو الثاني الفرصة للهجوم كي يفرض على الروم إعادة التفاوض. ثم سرعان ما اكتسب الثقة بعد هجوم شرس على دارا أطاح بنقطة حيوية في نظام الدفاع الروماني في شمال بلاد الرافدين، ثم واصل الهجوم قُدمًا في الوقت الذي انشغل فيه فوقاس بالنضال لفرض سلطانه في الداخل. ثم رفع الشاه سقف طموحاته لما جاءته الأخبار تترى عن موجة جديدة من هجمات البدو أخذت تعصف بمنطقة البلقان. وسرعان ما تفكك نظام إدارة العملاء التقليدي الذي استخدم لحكم الشعوب الخاضعة في شمال الجزيرة العربية؛ تحسبًا لإعادة تنظيم كبيرة للحدود كانت ستتبع التوسع الفارسي حتمًا[٣].

عامل الفُرس السكان النصارى بحذر. لقد كان الأساقفة -بالتجربة- يخافون من احتمال اندلاع الحرب؛ حيث كانت الأعمال العدائية ضد الروم غالبًا ما تنتهي باتهاماتٍ بالتعاون مع الغزاة. وأشرف الشاه شخصيًا على انتخاب بطريرك جديد عام ٦٠٥م، داعيًا كبار رجال الدين للاجتماع لاختيار شاغل

---

(1) Sarris, *Empires of Faith*, pp. 234–6.

(2) Procopius, *Buildings*, 3.3, 7, pp. 192–4.

(3) J. Howard-Johnston, *Witnesses to a World Crisis: Historians and Histories of the Middle East in the Seventh Century* (Oxford, 2010), pp. 438–9.

جديـد للمنصـب. وكانـت هـذه إشـارة متعمدة مـن الفُـرس لطمأنـة الأقلية من السـكان، ولإشـعارهم -كذلك- بأن حاكمهم متعاطف معهم. وكانت تلك خطوة فعالة، فسـرها المجتمع النصراني على أنها علامة على الرعاية والعناية؛ ومن ثم تلقى خسرو الشكر من قِبل الأساقفة، الذين اجتمعوا معًا للإشادة بـ «ملك الملوك، القوي، والسخي، واللطيف، والكريم»[1].

ولما انهارت الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة ثورة داخلية تلو الأخرى، قلَبت القوات الفارسـية ظهر المجن، وسقطت المدن في بلاد الرافدين مثل قطع الدومينو، واستسلمت الرُّها أخيرًا عام ٦٠٩م. فتطلـع الفُـرس بعـد ذلـك إلى سـوريا؛ فسـقطت أنطاكيـة -وهي المدينـة العظيمـة على نهـر العاصي، والكرسـي الأول للقديـس بطرس، والمدينة الكبرى في سـوريا الرومانية- في عـام ٦١٠م، تلتها مدينة حمص (Emesa) غربي سوريا في العام التالي. ثم ما لبث الروم أن فقدوا مركزًا إقليميًّا كبيرًا آخر عندما سقطت دمشق في أيدي الفُرس عام ٦١٣م.

وزاد الطين بلة بمقتل فوقاس -الإمبراطور المكروه والمتغطرس- في القسطنطينية، وطُرحت جثته عاريـة في شـوارع المدينة وقد مُزِّقت أشـلاءً. ومع ذلك، أثبت الإمبراطور الجديـد، هرقل، أنه لم يكن أكثـر كفـاءةً من سـلفه في وقـف تقدم الفُرس، الذين اكتسـب تقدمهـم الآن زخمًا مدمـرًا. فبعد أن صدَّ الفُرس هجومًا رومانيًّا مضادًّا في آسـيا الصغرى، تحولت جيوش الشـاه جنوبًا باتجاه القدس. لقد كان الهدف واضحًا: الاسـتيلاء على أقدس مدينة في العالم النصراني، ومن ثم، تأكيد انتصار الفُرس ثقافيًّا ودينيًّا.

ولما سقطت المدينة -في مايو ٦١٤م- بعد حصار قصير، أصاب الجنون العالم الروماني في ردود أفعاله. لم يتهم الروم اليهود بالتعاون مع الفُرس فحسب، بل اتهموهم بتقديم الدعم لهم كذلك. ووفقًا لأحـد المصـادر، كان اليهود «مثل الوحوش الشـريرة»، يسـاعدون جيوش الغزاة. وقورنـوا بالضواري وبالأفاعي ذات الفحيح. كما اتُّهموا بلعب دور فعال في ذبح الأهالي الذين ابتهجوا بالتقوى عندما لقوا مصارعهم؛ «لأنهم قُتلوا من أجل المسـيح، وسُـفِكت دماؤهم من أجل دمه». وانتشـرت الروايات عن هـدم الكنائـس، ووطء الصلبـان بالأقدام، والبصـق على الأيقونات. واسـتولى الفُـرس على «الصليب الحقيقـي» الـذي صُلِب المسـيح عليه، وأرسـل إلى العاصمة الفارسـية غنيمة وتذكارًا لحرب خسـرو. وكان هذا تحولًا كارثيًّا بالفعل في مسـار الحوادث بالنسـبة لروما، والحدث الذي حوَّل صُنَّاع الدِّعاية للإمبراطور الانتباه إليه على الفور في محاولة للتقليل من شأن الخسارة[2].

---

(1) Synod of Mar Gregory I, *Synodicon orientale*, p. 471.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Walker, *Mar Qardagh*, pp. 87–9.

(2) F. Conybeare, 'Antiochos Strategos' Account of the Sack of Jerusalem in AD 614', *English Historical Review* 25 (1910), 506–8,
=

وفكر هرقل في التنازل عن العرش، في مواجهة هذه النكبات المتتالية. ثم ما لبث أن قرر اتخاذ إجراء يائس: فأرسل السفراء إلى خُسرو لبحث إمكانية عقد اتفاق سلام معه بأية شروط يمليها الشاه. وتوسل هرقل -على لسان سفرائه- ملتمسًا العفو، وملقيًا باللائمة على سلفه فوقاس، في أعمال العدوان الأخيرة التي ارتكبها الروم. وقدم الإمبراطور الروماني نفسه على أنه تابع خاضع، وأشاد بالشاه بوصفه «الإمبراطور الأعلى Supreme Emperor». واستمع خسرو -باهتمام- لما قاله السُّفراء، ثم أمر بقتلهم جميعًا[1].

وعندما وردت الأخبار إلى القسطنطينية، ساد الذعر فيها، الأمر الذي أتاح دفع عجلة إصلاحات جذرية مرت دون معارضة تقريبًا؛ فجرى تخفيض رواتب المسؤولين في الإمبراطورية إلى النصف، وكذلك كانت الحال مع رواتب الجنود بالجيش. وأُمِر بوقف التوزيع المجاني للخبز على السكان، وكان توزيع الخبز مجانًا أداة سياسية قديمة لكسب تعاطف سكان العاصمة[2]. وصودرت المعادن الثمينة من الكنائس في محاولة محمومة لتعزيز الخزانة. وعدَّل هرقل في تصميم العملة سبيلًا لإبراز أهمية المعركة المقبلة، وتكفيرًا عن الخطايا التي جعلت الله يوبخ الروم، ويعاقبهم على هذا النحو. وبينما ظل تمثال نصفي للإمبراطور على وجه العملة كما هو، نُقِشَت صورة الصليب على ظهر العملات المعدنية الجديدة، بأحجام كبيرة وفئات جديدة، ووضعت صورة الصليب على مِرقاة؛ وعلى هذا النحو لم يكن قتال الفُرس أقل شأنًا من النضال دفاعًا عن النصرانية[3].

ولم تحقق هذه الإجراءات سوى أقل القليل على المدى القصير؛ فقد تحول الفُرس -بعد تأمين فلسطين- إلى دلتا النيل، واستولوا على الإسكندرية في عام ٦١٩م[4]. وفي أقل من عامين، سقطت مصر، وكانت سلة الخبز في البحر المتوسط، والقاعدة الصلبة التي كان الاقتصاد الزراعي الروماني يستند إليها لمدة ستة قرون. ثم تحول الفُرس بعد ذلك إلى آسيا الصغرى، التي تعرضت للهجوم في عام ٦٢٢م. وعلى الرغم من أن الروم نجحوا في عرقلة تقدم جحافل الفُرس إلى حين، فإن الجيش

= وانظر أيضًا:

Howard-Johnston, *Witnesses to a World Crisis*, pp. 164–5.

عن الدِّعاية، انظر:

J. Howard-Johnston, 'Heraclius' Persian Campaigns and the Revival of the Roman Empire', *War in History* 6 (1999), 36–9.

(1) *Chronicon Paschale*, tr. M. Whitby and M. Whitby (Liverpool, 1989), pp. 161–2; Howard-Johnston, 'Heraclius' Persian Campaigns', 3; Sarris, *Empires of Faith*, p. 248.

(2) *Chronicon Paschale*, pp. 158, 164.

(3) Howard-Johnston, 'Heraclius' Persian Campaigns', 37.

(٤) الحظ أن تاريخ استيلاء الفُرس الدقيق على الإسكندرية مثير للجدل:

R. Altheim-Stiehl, 'Würde Alexandreia im Juni 619 n. Chr. durch die Perser Erobert?', *Tyche* 6 (1991), 3–16.

الفارسي خيَّم تحت أسوار القسطنطينية بحلول عام ٦٢٦م. وزاد الطين بلةً عندما تحالف الشاه مع الآفار -وكانوا من البدو الرحل الذين اجتاحوا البلقان- فساروا قاصدين المدينة من جهة الشمال. عندئذ لم يكن هناك ما يحول بين ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية والإبادة الكاملة إلا سماكة أسوار مدينة قسطنطين العظيمة؛ أعني القسطنطينية، أو روما الجديدة. لقد كانت النهاية وشيكة، بل بدت وكأنها قدرًا مقدورًا.

ومع ذلك فقد حالف الحظ هرقل؛ إذ فشلت جهود الفُرس الأولية للسيطرة على المدينة، ونجح الروم في صد الهجمات اللاحقة بسهولة. وسرعان ما بدأ الوهن يدب في صفوف الأعداء، فحاق الفشل أولًا بالبدو الآفار الذين عانوا الأمرَّيْن في توفير الأعلاف لخيولهم، ثم لم يجدوا مناصًا من الانسحاب بعد أن هددت الخلافات القبلية بتقويض سلطة زعيمهم. ثم ما لبث الفُرس أن انسحبوا بُعيد ذلك أيضًا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى ورود أخبار عن غارات شنتها قبائل الترك على القوقاز، الأمر الذي أثار قلقهم. وكان التوسع الإقليمي -المثير للإعجاب حقيقةً- قد استنفد موارد الفُرس، وأدى إلى ترك الأراضي التي فتحت حديثًا مكشوفة على نحو خطير، وكان الأتراك يدركون ذلك. لقد نجت القسطنطينية من السقوط بشق الأنفس[١].

ومزق هرقل -الذي كان على رأس الجيش الإمبراطوري في آسيا الصغرى في أثناء حصار عاصمته، جيش العدو -الذي كان ينسحب آنذاك- شر ممزق في هجوم مضاد مذهل. وتوجه الإمبراطور في البداية إلى القوقاز، حيث التقى بخاقان الترك الذي وافق على التحالف معه، فأغدق عليه هرقل الأوسمة والهدايا، وزوَّجه ابنته إيوديكيا (Eudokia)، إضفاءً للطابع الرسمي على وشائج الصداقة[٢]. ثم تجرَّأ الإمبراطور وسار جنوبًا، وسحق جيشًا فارسيًّا كبيرًا قرب نينَوى (فيما يعرف الآن بشمال العراق) في خريف عام ٦٢٧م، قبل أن يزحف نحو المدائن (Ctesiphon) في ظل انهيار المقاومة الفارسية.

وسُحقت القيادة الفارسية تحت الضغط. وقُتل خسرو، وناشد ابنه وخليفته قباذ (Kavad) هرقل التسوية الفورية[٣]. وبدا الإمبراطور قانعًا بالوعد باستعادة الأرض والمجد، فانسحب عائدًا أدراجه إلى القسطنطينية، تاركًا سفيره للاتفاق على شروط السلام، والتي تضمنت عودة الأراضي الرومانية التي

---

(1) J. Howard-Johnston, 'The Siege of Constantinople in 626', in C. Mango and G. Dagron (eds), *Constantinople and its Hinterland* (Aldershot, 1995), pp. 131–42.

(2) Howard-Johnston, 'Heraclius' Persian Campaigns', 23–4; C. Zuckerman, 'La Petite Augusta et le Turc: Epiphania-Eudocie sur les monnaies d'Héraclius', *Revue Numismatique* 150 (1995), 113–26.

(٣) انظر:

N. Oikonomides, 'Correspondence between Heraclius and Kavadh-Siroe in the *Paschal Chronicle (628)*', *Byzantion* 41 (1971), 269–81.

استولى الفُرس عليها خلال الحروب، وكذلك عودة أجزاء من الصليب الحقيقي المسلوب من القدس في عام ٦١٤م[١]. وكان ذلك بمثابة نصر ساحق للروم.

ومع ذلك، لم تكن هذه نهاية المطاف، فقد كانت هناك نُذر عاصفة قد أخذت في التجمع، وكان من شأنها أن تجرف بلاد فارس إلى شفا الانهيار. فقد استجاب القائد الميداني الكبير شهربراز -وكان العقل المدبر لهجوم الفُرس الأخير على مصر- لتلك النكسات التي حاقت بالفُرس بأن عرض على إمبراطور الروم عرضًا ينال بمقتضاه العرش. فمع ضياع حظوظ الفُرس، وفي ظل تعرض الحدود الشرقية للهجمات الانتهازية من قبل المغيرين الأتراك، بدت قضية الرجل العملي وكأنها لا تقاوم. ومع تسارع وتيرة الانقلاب، فاوض شهربراز هرقل مباشرة لكسب دعم الروم في ثورته على الشاه، وعرض عليه الانسحاب من مصر، شريطة أن يدعمه الإمبراطور في زحفه على المدائن.

ولما خرجت الأوضاع عن السيطرة في بلاد فارس، احتفل هرقل بحماسة شديدة بذلك الانقلاب المذهل للحظ، تعزيزًا لشعبيته. لقد عزف الإمبراطور على وتر الدين -إلى حدٍّ كبير- لبِّ الثقة، وشحذ الهمم خلال الساعات الحالكة التي مرت بها الإمبراطورية. وهكذا فُسِّر هجوم خسرو على أنه هجوم مباشر على النصرانية، وهو أمر جرى التأكيد عليه على نحو قاطع في عرضٍ شبه مسرحيٍّ جرى أمام القوات الإمبراطورية، حيث قُرئ نص رسالة قيل: إنها كُتبت بخط يد الشاه. ولم يسخر الشاه -في رسالته تلك- من شخص هرقل فحسب، بل سخر من عجز إله النصارى عن نُصرة أتباعه[٢]. وعلى هذا النحو حُرِّض الروم للقتال في سبيل ما يؤمنون به، لقد كانت هذه الحرب حربًا دينية.

قد لا نستغرب إذن أن ينجم عن انتصار الرومان مشاهد قبيحة. فبعد أن قاد هرقل دخولًا احتفاليًا إلى القدس في مارس ٦٣٠م وأعاد ما تبقى من الصليب الحقيقي إلى كنيسة القيامة، قيل: إنه أمر بتعميد اليهود بالقوة، عقابًا لهم على الدور الذي كان يُعتقد أنهم لعبوه في سقوط المدينة قبل ستة عشر عامًا. أما أولئك الذين فروا من المدينة، فقد مُنعوا من الاقتراب من القدس لمسافة ثلاثة أميال[٣]. كما استُهدف النصارى الشرقيون الذين وصم عملاء الإمبراطورية معتقداتهم بأنها غير قويمة؛ فاضطروا إلى التبرؤ من عقائدهم القديمة، وأُجبروا على قبول تعاليم النصرانية الأرثوذكسية المبسطة التي باتت تدعي الآن أن لديها دليلًا قويًا على أنها وحدها التي تتمتع ببركة الله حقًّا[٤].

وكان هذا يمثل إشكالية بالنسبة للكنيسة في بلاد فارس، التي لم تلتق وجهًا لوجه مع نظيرتها الغربية لأكثر من قرنٍ من الزمان، حيث نظر كبار رجال الدين فيها إلى أنفسهم -على نحو مستمر- على

---

(1) Sebeos, *Armenian History*, 40, pp. 86–7; Theophanes, *The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History, AD 284–813*, tr. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997), pp. 455–6.

(2) *Chronicon Paschale*, pp. 166–7; Sebeos, *Armenian History*, 38, pp. 79–81.

(3) G. Dagron and V. Déroche, 'Juifs et chrétiens en Orient byzantin', *Travaux et Mémoires* 11 (1994), 28ff.

(4) Cameron and Hoyland, *Doctrine and Debate*, pp. xxi–xxii.

أنهم حملة الإيمان الحقيقي، وذلك على النقيض من الكنيسة في الغرب التي أفسدتها التعاليم المنحرفة علـى نحـو ممنهج. أو كما قال أسـاقفة بلاد فـارس عندما اجتمعوا عام ٦١٢م: إن جميع البدع الرئيسـة ظهـرت فـي الإمبراطوريـة الرومانيـة، وذلك علـى النقيض من بلاد فـارس؛ حيث «لم تظهـر فيها بدعة واحـدة قـط»[1]؛ لذلـك عندمـا «أعاد هرقل الكنيسـة إلـى الأرثوذكس» فـي الرهـا (Edessa)، أمر بطرد النصارى الشرقيين الذين كانوا يتعبدون هناك في الماضي، وبدا الأمر كما لو أن خطته ترمي لتنصير بلاد فـارس برمتهـا، وهي فكرة يبدو أن هرقل كان يفكر فيها بهمة منذ الانقلاب الدرامي في موازين القوى. لقد كان من المقرر أن يعتنق أهل فارس النصرانية على المذهب الغربي الروماني[2].

عصفـت الديانـة المهيمنـة التي أيدتها القسـطنطينية بكل شـيء وقف فـي طريقها. وترك التسلسـل الاسـتثنائي للحـوادث مجموعـة مـن الأفـكار القديمة في حالـة يرثى لهـا. وعندما اندلـع الطاعون في المدائـن، قيل: إن الشـاه قبـاذ راح ضحيةً له. وبدا واضحًا للعيان أن الزرادشـتية لم تكن أكثر من مجرد أمـانٍ، لقـد كانت النصرانية هي الدين الحق، وقد جوزي النصـارى عن إيمانهم خيرًا[3]. وفي هذا الجو المشـحون للغاية، كان يسـع الناس استراق السمع إلى صوت هدير جديد جاء من الجنوب، من أعماق شبه الجزيرة العربية. وكانت هذه المنطقة بمنأى عن القتال الأخير بين الرومان والفُرس، إلا أن ذلك لا يعنـي أنهـا لـم تتأثـر بالاشـتباكات الكبرى التي وقعـت على بعد مئـات الأميال منها. والحـق أن أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية كان مسرحًا للمواجهة بين الإمبراطوريتين لفترة طويلة، حيث راهنت مملكة حمير -قبل أقل من قرن من الزمان- وكذلك مدينتا مكة والمدينة على بلاد فارس بإزاء تحالـف نصرانـي لقـوات من القسـطنطينية والحبشـة، وكانـت الأخيرة خصـم حِمير اللدود فـي البحر الأحمر[4].

كانـت هـذه منطقة تغيرت فيهـا المعتقدات، وتأقلمت، ونافس بعضها بعضًـا في معظم فترات ذلك القـرن. وأفسـح عالـم وثني من الآلهة والأصنام والمعتقـدات المتعددة المجال للتوحيد والأفكار حول إله واحد كلي القدرة. وأصبحت الأماكن المقدسة التي خُصِّصت للأصنام مهمشة للغاية، حتى إن أحد

---

(١) تجد رسالة أساقفة بلاد فارس في:

Synodicon orientale, pp. 584–5.

(2) Theophanes, *Chronicle*, p. 459; Mango, 'Deux études sur Byzance et la Perse sassanide', *Travaux et Mémoires* 9 (1985), 117.

(3) B. Dols, 'Plague in Early Islamic History', *Journal of the American Oriental Society* 94.3 (1974), 376; P. Sarris, 'The Justinianic Plague: Origins and Effects', *Continuity and Change* 17.2 (2002), 171.

(4) Bowersock, *Throne of Adulis*, pp. 106–33.

وانظر أيضًا:

G. Lüling, *Die Wiederentdeckung des Propheten Muhammad: eine Kritik am 'christlichen' Abendland* (Erlangen, 1981).

المؤرخين قال: «إن الشـرك التقليدي كان يُحتضَر» عشـية ظهور الإسـلام، وحلت محله مفاهيم يهودية ونصرانيـة عـن إله واحد كلي القـدرة، وكذلك عن الملائكة، والجنة، والصـلاة، والزكاة التي يمكن أن نجدهـا فـي النقـوش التي بدأت في الانتشـار فـي مختلف أرجاء شـبه الجزيرة العربية فـي أواخر القرن السادس، وأوائل القرن السابع الميلاديين[1].

* * *

بينا كانت نيران الحرب مستعرة في الشمال لم تزل، لاذ تاجر في هذه المنطقة، يُدعى محمدًا [ﷺ] -وهو من عشيرة بني هاشم من قريش- بغار كان يقع قرب مكة للتأمل. ووفقًا للروايات الإسلامية، فقد بدأ في عام ٦١٠م في تلقي سلسـلة من الآيات من وحي الله إليه. فقد سـمع النبي [ﷺ] صوتًا يأمره أن ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾[2]. فتـرك الغـار علـى إثـر ذلـك مذعـورًا مضطربًـا، فرأى رجـلاً كلتا قدميـه في أُفق السـماء، وسـمع صوتًـا مدويًا ينادي عليه: «يا محمد، أنت رسـول الله، وأنا جبريـل»[3]. ثم أعقب ذلك نـزول سلسـلة مـن الآيـات علـى مـدى السـنوات التاليـة، دُوِّنت لأول مـرة فـي منتصف القرن السـابع الميلادي/ الأول الهجري في نص واحد يُعرف بالقرآن[4].

أرسل الله الرسل، كما أخبر الملاك جبريل (أو جبرائيل) محمدًا [ﷺ]؛ ليبشروا، أو لينذروا أقوامهم[5]. وقد اختار الله تعالى محمدًا [ﷺ] رسولًا. وقيل له: إن كثيرًا من الظلمات قد غشيت العالم، وزاد خوف النـاس، وإن السـاعة آتيـة لا ريب فيها. كما حثّه الآيات على قـراءة القرآن ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾[6]. وقيل له [ﷺ] كذلك: إن الله رحمن رحيم، إلا أنه شديد العقاب لمن يأبى طاعته[7].

---

(1) C. Robin, 'Arabia and Ethiopia', in S. Johnson (ed.), *Oxford Handbook of Late Antiquity* (Oxford, 2012), p. 302.

(٢) سورة العَلَق: ١. (تحقيق وترجمة ن. داود التي نشرها بعنوان):

N. Dawood, *The Koran: With a Parallel Translation of the Arabic Text* (London, 2014).

(٣) ابن هشام، سيرة رسول الله [ﷺ] الترجمة الإنجليزية:

A. Guillaume, *The Life of Muhammad: A Translation of Ishāq's Sīrat rasūl Allāh* (Oxford, 1955), p. 106;

سورة التين، ٢٣.

(٤) انظر:

H. Motzki, 'The Collection of the *Qurān*: A Reconsideration of Western Views in Light of Recent Methodological Developments', *Der Islam* 78 (2001), 1–34,

وانظر أيضًا:

A. Neuwirth, N. Sinai and M. Marx (eds), *The Qurān in Context: Historical and Literary Investigations into the Qur ānic Milieu* (Leiden, 2010).

(٥) سورة الكهف، ٥٦.

(٦) سورة النحل، ٩٨-٩٩.

(٧) انظر على سبيل المثال: سورة البقرة: ١٦٥- ١٩٧- ٢١١.

إن المصـادر المتعلقـة بالحقبـة الإسـلامية فـي طورهـا المبكـر معقدة، وتشـكل مشـاكل جدية في تفسـيرها[1]. فإثبات الكيفية التي شـكلت بها الدوافع السياسـية المعاصرة والمتأخرة سـيرة النبي [ﷺ] والوحـي الـذي تلقـاه ليـس بالأمـر الهين. والأدهى مـن ذلك، أن هذا موضـوع جدال حاد بيـن العلماء المحدَثين. ويصعُب علينا -على سـبيل المثال- أن نفهم الدور الذي لعبه الإيمان في تشـكيل المواقف والحـوادث بوضـوح، علـى الأقـل منـذ أن جـرى التمييز -فـي وقت مبكر- فـي منتصف القـرن الأول الهجري/ السـابع الميـلادي بيـن «المؤمنيـن» وبيـن أولئـك الذيـن لحقـوا بهـم، وخضعوا لهـم، أعني «المسلمين». لقد ركز الكُتَّاب المتأخرون عن كثب على دور الدين، ولم يشددوا على قوة الوحي على الصعيد الروحي فحسـب، بل شـددوا أيضًا على وحدة العرب الذين أحدثوا الثورة، حتى بات من غير المُقنـع وصـف الفتوحات في تلك الحقبة بـ«الإسـلامية» بل ينبغي وصفهـا بـ«العربية». وفوق ذاك، لم تتغيـر الهويـات بعد هذه الحقبة فحسـب، بل تغيرت خلالها أيضًا، ونحـن نعتمد -بطبيعة الحال- على أعين الناظرين لمثل هذه الهويات في المقام الأول.

وعلى الرغم من أن إنشـاء تسلسـل آمن للحوادث قد يكون أمرًا مُشـكلًا، إلا أن هناك شـبه إجماع يقضي بأن النبي [ﷺ] لم يكن وحده الذي تحدث عن إله واحد في شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي؛ ذاك أنه كان هناك «أنبياء مُقلّدون» برزوا في حقبة الحروب الفارسية- الرومانية تحديدًا. وقدم أبرزهـم رؤى مسـيحانية ونبوية كان لها أوجه شـبه لافتة للنظر لتلك التي قدمها النبـي [ﷺ] -بوحـي واعِد من الملاك جبرائيل- كما دلُّوا الناس على طريق الخلاص، بل قدم بعضهم -أحيانًا- كتبًا مقدسة لدعم مزاعمهم[2]. لقد شهدت تلك الحقبة ظهور الكنائس النصرانية، والمزارات المقدسـة في مكة وما حولها، كما يتضح ذلك من خلال السـجل الأثري، الذي يشـهد أيضًا على وجود الأيقونـات، وعلـى وجـود مقابـر للسـكان الذيـن تنصـروا حديثًا. لقـد كانت المنافسـة علـى القلوب، والعقول، والنفوس شرسة في هذه البقعة، وفي تلك الحقبة أيضًا[3].

---

(١) انظر في المقام الأول:

F. Donner, *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing* (Princeton, 1998).

انظر على سبيل المثال:

T. Holland, *In the Shadow of the Sword: The Battle for Global Empire and the End of the Ancient World* (London, 2012).

(2) E. El Badawi, *The Qurān and the Aramaic Gospel Traditions* (London, 2013).

(3) P. Crone, *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Princeton, 1977);

وانظر أيضًا:

R. Serjeant, 'Meccan Trade and the Rise of Islam: Misconceptions and Flawed Polemics', *Journal of the American Oriental Society* 110.3 (1990), 472–3.

وثَمَّ أمر آخر يكاد يكون محل إجماع من الدراسين أيضًا، يقضي بأن النبي [ﷺ] كان يدعو مجتمعًا كان يعاني من انكماش اقتصادي حاد جراء الحروب الفارسية الرومانية[1]. وكان للمواجهة، والعسكرة الفعالة للروم والفُرس تأثير مهم على التجارة الناشئة في الحجاز أو التي تلك التي كانت تمر عبرها. إذ ينبغي أن يكون الطلب على السلع الكمالية قد انخفض إلى حد كبير، في ظل تدفق الإنفاق الحكومي على الجيش، والضغط المزمن على الاقتصادات المحلية لدعم المجهود الحربي. إن حقيقة أن الأسواق التقليدية، ولا سيما في مدن بلاد الشام وبلاد فارس، كانت عالقة في القتال، لا يمكن أن تكون قد أدت إلا إلى مزيد من الكساد في اقتصاد جنوب شبه الجزيرة العربية[2].

وكانت قبيلة قريش بمكة من أكثر القبائل التي ضاقت ذرعًا بهذا الوضع؛ إذ كانت قوافلها تحمل الذهب والبضائع الثمينة الأخرى إلى الشام مادة للأساطير. فقد خسرت قريش عقدها المربح لتزويد الجيش الروماني بالجلود اللازمة لصناعة السروج، وأربطة الأحذية والدروع، والأحزمة وغيرها[3]. وربما تعرضت مصادر رزقهم لمزيد من التهديد بسبب انخفاض أعداد الحجاج الذين كانوا يزورون الحرم، وهو مزار مهم مكرس للآلهة الوثنية في مكة. حيث نُصبت حول الحرم سلسلة من الأصنام، قيل إنها كانت تتضمن صنمًا لـ«إبراهيم على هيئة رجل طاعن في السن»، بيد أن أهم هذه الأصنام كان صنمًا مصنوعًا من العقيق الأحمر لرجل بيده اليمنى الذهبية سبعة أقداح للنبوءة[4][5]. وأحسنت قبيلة قريش -بوصفهم أوصياء على مكة- بيع الطعام والماء للزوار والحجيج. وامتدت تداعيات الاضطرابات التي سادت في بلاد الشام وبلاد الرافدين إلى أبعد من تلك البقاع، فساد الاضطراب عددًا كبيرًا من جوانب الحياة اليومية المختلفة. وعلى هذا النحو ليس من قبيل المفاجئ أن يصيب إنذار النبي [ﷺ] بقرب قيام الساعة وترًا قويًا وحسَّاسًا.

سقطت دعوة النبي [ﷺ] كبذرة على أرض خصبة بكل تأكيد؛ فكان يقدم تفسيرًا جريئًا ومتماسكًا لما أشكل واستغلق، بشغف وقناعة هائلين. ولم يكن الوحي الذي تلقاه قويًا فحسب، بل كانت

---

(1) C. Robinson, 'The Rise of Islam', in M. Cook et al. (eds), *The New Cambridge History of Islam*, 6 vols (Cambridge, 2010), pp. 180–1; M. Kister, 'The Struggle against Musaylima and the Conquest of Yamāma', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 27 (2002), 1–56.

(2) G. Heck, '"Arabia without Spices": An Alternative Hypothesis: The Issue of "Makkan Trade and the Rise of Islam"', *Journal of the American Oriental Society* 123.3 (2003), 547–76; J. Schiettecatte and C. Robin, *L'Arabie à la veille de l'Islam: un bilan clinique* (Paris, 2009).

(3) P. Crone, 'Quraysh and the Roman Army: Making Sense of the Meccan Leather Trade', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 70.1 (2007), 63–88.

(٤) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، الترجمة الإنجليزية:

N. Faris, *The Book of Idols Being a Translation from the Arabic of 3the Kitāb al-Asnām* (Princeton, 1952), pp. 23–4.

(٥) ينبغي أن يكون هذا الصنم هو تمثال «هُبَل». (المترجم)

التحذيرات التي صدرت عنه قوية بدورها. فأولئك الذين اتبعوه سيلفون أرضهم مثمرة قد أتت أُكلها؛ أما أولئك الذين خالفوه فلن يجنوا إلا بوارًا[1]. وسيجلب الخلاص مكافآت اقتصادية للمؤمنين؛ فهناك الكثير ليربحوه؛ إذ سيفوزون بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. وسيُكافأ المؤمنون من كل فاكهة، ويحظون بمغفرة الله في الوقت نفسه[2]. أما أولئك الذين كفروا فلن يواجهوا العذاب والنِّقم فحسب، بل اللعنة أيضًا؛ فأولئك الذين حاربوا الله ورسوله سيعانون معاناةً شديدة، ولن يُرحَموا. وينبغي أن يُقتَّلوا، أو يُصلَّبوا، أو تُقطع أيديهم وأرجلهم، أو ينفوا من الأرض. ومن يحاد النبي [ﷺ] فقد حادَّ الله، وسيلقى مصيرًا مروعًا حقًّا[3]. وستحترق جلودهم بالنار، ثم تستبدل من بعد ذلك بجلود جديدة، تُحرق بدورها، ومن ثم فإن آلامهم وعذاباتهم ستكون بلا نهاية[4]. ومن لم يؤمن فهو ﴿خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[5].

قوبلت هذه الرسالة الراديكالية والعاطفية بمعارضة شرسة من جانب النخبة المحافظة في مكة، الذين أثار انتقاد الممارسات والمعتقدات الشركية التقليدية حفيظتهم[6]. وأُجبر النبي [ﷺ] على الهجرة إلى يثرب (التي سُمِّيت فيما بعد بالمدينة) في عام ٦٢٢م هربًا من الاضطهاد؛ وأصبحت هذه الرحلة، المعروفة باسم الهجرة، اللحظة الحاسمة في التاريخ الإسلامي، فهي السنة صفر في التقويم الهجري. وكما توضح أوراق البردي المكتشفة مؤخرًا، كانت تلك هي النقطة التي أثمرت فيها دعوة النبي [ﷺ] دينًا جديدًا، وهوية جديدة[7].

---

(١) سورة يس، ٣٣-٣٦.

G. Reinink, 'Heraclius, the New Alexander: Apocalyptic Prophecies during the Reign of Heraclius', pp. 81–94; W. E. Kaegi Jr, 'New Evidence on the Early Reign of Heraclius', *Byzantinische Zeitschrift* 66 (1973), 308–30.

قلت: لا تعطِ الآيات المشار إليها في سورة يس هذا المعنى قط. (المترجم)

(٢) سورة محمد، ١٥.

(٣) سورة المائدة: ٣٣.

(٤) سورة النساء، ٥٦. وانظر أيضًا:

W. Shepard, *Sayyid Qutb and Islamic Activism: A Translation and Critical Analysis of Social Justice in Islam* (Leiden, 2010).

وتجد أيضًا بعض الملحوظات المهمة حول النوع الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية في الإسلام المبكر، في:

A. Wadud, *Qurān and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective* (Oxford, 1999).

(٥) سورة محمد، ١٥.

(6) P. Crone, 'The Religion of the Qurānic Pagans: God and the Lesser Deities', *Arabica* 57 (2010), 151–200.

(7) R. Hoyland, 'New Documentary Texts and the Early Islamic State', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 69.3 (2006), 395–416.

عن تاريخ هجرة النبي [ﷺ] انظر: =

وكان محور هذه الهوية الجديدة فكرة قوية عن الوحدة؛ فقد سعى النبي [ﷺ] بهمَّةٍ إلى توحيد القبائل الكثيرة في جنوب شبه الجزيرة العربية في أمة واحدة. لطالما استغل البيزنطيون والفُرس الخصومات المحلية، وتلاعبوا بزعماء القبائل فألَّبوا بعضهم على بعض. وساعدت الرعاية والتمويل في إنشاء سلسلة من العملاء والنخب الذين كانوا عيالًا إما على روما[1] أو المدائن، حيث نُظِّموا وكوفئوا من خلال العطاء الذي جاء من هنا أو من هناك. وخلَّفت الحرب الشديدة [بين الروم والفُرس] هذا النظام في حالة يرثى لها. وأدت الأعمال العدائية -التي طال أمدها- إلى حرمان بعض القبائل من «الثلاثين رطلًا من الذهب التي كانت تحصل عليها عادة من خلال تحقيق مكاسب تجارية من خلال التبادل التجاري مع الإمبراطورية الرومانية». والأسوأ من ذلك، أن الإمبراطورية عاملت طلبات تلك القبائل بالوفاء بالتزاماتها بطريقة خرقاء. فقد قال أحد العملاء: «إن الإمبراطور لا يستطيع أن يدفع لجنوده أجورهم إلا بشق الأنفس، فما ظنك بالكلاب؟!». وعندما أخبر سفير آخر رجال القبائل بأن آفاق التجارة مع الإمبراطورية في المستقبل قد أضحت محدودة، قُتل، ثم وُضعت جثته في جوف جمل، ثم خيط عليه. ولم يمض وقت طويل قبل أن تأخذ القبائل زمام المبادرة. لقد كان جوابهم: «دمروا أرض الروم» انتقامًا[2][3].

لم يكن من قبيل المصادفة إذن أن تكون الدعوة إلى الدين الجديد باللغة المحلية؛ فتقول احدى آيات القرآن: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[4]. لقد قُدِّم للعرب دينهم الخاص، الذي خلق هوية

= A. Noth, *The Early Arabic Historical Tradition: A Source Critical Study* (Princeton, 1994), p. 40; M. Cook and P. Crone, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge, 1977), pp. 24, 157.

(١) كذا في الأصل الإنجليزي. ولعله يعني القسطنطينية (روما الجديدة). (المترجم)

(2) Nikephoros of Constantinople, *Chronographikon syntomon*, ed. and tr. C. Mango, *Short History* (Washington, DC, 1990), pp. 68–9; Theophylact Simokatta, *History*, 3.17.

عن الهوية العربية قبل ظهور الإسلام، انظر:

A. Al-Azmeh, *The Emergence of Islam in Late Antiquity* (Oxford, 2014), p. 147;

وانظر أيضًا:

W. Kaegi, 'Reconceptualizing Byzantium's Eastern Frontiers', in Mathisen and Sivan, *Shifting Frontiers*, p. 88.

(٣) لا يبدو هذا الطرح مقنعًا في ظل إصرار المؤلف على استبعاد الحماسة لنشر الدين من جهة، وكذلك الإصرار على إثبات تضرر التجارة في ظل الحرب بين الروم والفُرس. تغص السيرة النبوية بأخبار تلك التجارة المزدهرة بين اليمن والشام التي تولى كبرها تجار قريش. ولو كان الأمر كما طرحه المؤلف لنجح الروم -وينسحب الحكم أيضًا على الفُرس- في وقف تقدم المسلمين بدفع الجزية لهم. ولعاد المسلمون من حيث أتوا بعد تسلمهم الجزية التي تشكل تعويضًا عن هذه التجارة (المفقودة). أما ما تعلق بالتدمير، فسيقر المؤلف نفسه بأن السجل الأثري يثبت أن الفتوحات الإسلامية لمدن الشام لم تكن مدمرة، وأن المسلمين لم يستبيحوا مدن الشام والعراق ومصر، بل أمروا بترميم المتشعث من الكنائس، ووهبوا الأديرة الهبات. (المترجم)

(٤) سورة الزخرف، ٣.

جديدة. وكان هذا الدين مُصممًا للسكان المحليين، سواء كانوا من البدو أو الحضر، أو كانوا أبناء قبيلة أو أخرى، بغض النظر عن الخلفية العرقية أو اللغوية. وتشير الكلمات الكثيرة المستعارة من اليونانية، والآرامية، والسريانية، والعبرية، والفارسية، في نص القرآن، إلى بيئة متعددة اللغات؛ حيث كان التأكيد على أوجه التشابه بدلًا من الاختلاف أمرًا مهمًّا[1]. وكانت الوحدة عقيدة أساسية، وسببًا رئيسًا لنجاح الإسلام الوشيك. وكانت كلمات النبي [ﷺ] الأخيرة: «لَا يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ»، وفقًا لتحقيق أحد العلماء المسلمين الكبار الذين كتبوا في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[2].

لم يبد أن مُستقبل النبي [ﷺ] واعدٌ عندما كان محاصرًا في يثرب مع ثلة من أوائل أتباعه. وكانت جهود الدعوة والإضافة إلى الأمة -أي جماعة المؤمنين- بطيئة، وكان الوضع محفوفًا بالمخاطر مع اقتراب القوات القادمة من مكة لمهاجمة الداعية المنشق. وتحول النبي [ﷺ] وأتباعه إلى المقاومة المسلحة، واستهدفوا القوافل في سلسلة من الغارات المتزايدة والطموحة[3]. وتراكمت القوة الدافعة سريعًا، وبرهن انتصار النبي [ﷺ] على أعدائه المتفوقين عليه في العَدد والعُدة، وكذلك تغلبه على الصعاب على نحو ما حدث في غزوة بدر عام ٢هـ/ ٦٢٤م على أن النبي [ﷺ] وصحبه يتمتعون بالحماية الإلهية بالدليل الدامغ. كما أثارت الغنائم المربحة بالمثل انتباه النظارة. وأدت جولة مفاوضات مكثفة مع زعماء من قبيلة قريش في مكة في النهاية إلى التوصل إلى اتفاق، عُرِف منذ ذلك الحين باسم «صلح الحديبية»، ونص هذا الصلح على هدنة مدتها عشر سنوات بين مكة ويثرب، ورفع القيود التي سبق أن وُضِعت على أنصار النبي [ﷺ]. لقد أخذ الناس يدخلون في الإسلام أفواجًا.

***

لمَّا ازدادت أعداد المسلمين، ازدادت تطلعاتهم وطموحاتهم أيضًا. وكان من حاسم الأمور في هذا الصدد تعيين قِبلة واضحة للصَّلاة. لقد طُلب من المؤمنين في الماضي استقبال القدس كلما هموا بالصلاة. ومع ذلك، فقد شهد عام ٧هـ/ ٦٢٨م نزول المزيد من آيات الوحي التي نسخت آيات أخرى سابقة عليها. ولم تكن القبلة التي ينبغي أن يستقبلها المسلمون عند الصلاة مكانًا آخر سوى مكة[4][5].

---

(1) C. Robinson, 'Rise of Islam', p. 181.

(٢) ذكر مالك روايتين متشابهين، ويفترض أن كلتاهما يعكسان الرواية الأصل، انظر: مالك بن أنس، الموطأ، ٤٥٥. والترجمة الإنجليزية:

tr. A. Abdarahman and Y. Johnson (Norwich, 1982), p. 429.

(٣) ربما يجد المرء تناقضًا هنا مع دعوى المؤلف التي تقضي بتضرر التجارة. (المترجم)

(٤) سورة البقرة، ١٤٣. وانظر أيضًا:

al-Azmeh, *Emergence of Islam*, p. 419.

(٥) التاريخ المذكور غير صحيح، والصواب أن الآيات التي نزلت تأمر النبي ﷺ بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام نزلت في منتصف شهر رجب من عام ٢هـ، الموافق ١٤ يناير (كانون الثاني) من عام ٦٢٤م. (المترجم)

ليس هذا فحسب، بل نزل الوحي يقضي بأن الكعبة -وكانت قبلة المشركين القديمة في شبه الجزيرة العربية- قد أضحت حجر الزاوية في الصلاة والحج داخل المدينة. كما نزل الوحي بأنها من بناء إسماعيل ابن إبراهيم، وهو الجد المفترض لاثنتي عشرة قبيلة عربية[١]. وأُمِر زوار المدينة بالطواف حول الكعبة المقدسة والتلبية باسم الله؛ فإذا فعلوا، يكونون قد صدعوا بذلك للأمر الذي صدر إلى إسماعيل[٢] ويقضي بأن ينادي في الناس بالقدوم من شبه الجزيرة العربية ومن كل فج عميق، رِجالًا، وعلى كل ضامر، للحج حيث يوجد الحجر الأسود -الذي جلبه ملك من السماء- في قلب الكعبة[٣]. ولما جرى التأكيد على قدسية الكعبة، جرى التأكيد أيضًا على الاستمرارية مع الماضي، الأمر الذي ولد إحساسًا قويًا بالألفة الثقافية. وكانت هناك مزايا واضحة في ترسيخ مكانة مكة بوصفها مركزًا دينيًا راسخًا، سواء على الصعيد السياسي، أو الاقتصادي، أو الثقافي، إضافة إلى الفوائد الروحية التي قدمها الدين الجديد لأتباعه. هذا فضلًا عن نزع فتيل العداوة مع قريش؛ حتى إن كبار رجالات القبيلة بايعوا النبي [ﷺ]، ودخلوا في الإسلام.

ولم تقف عبقرية النبي [ﷺ] -بوصفه قائدًا- عند هذا الحد. فمع العقبات واندلاع المعارضة في شبه الجزيرة العربية، أرسل النبي [ﷺ] السرايا لاستغلال الفرص التي قد تتاح في أماكن أُخر، حيث بدا من الأمثل ألا تُفوَّت مثل تلك الفرص. وبالنسبة لبلاد فارس لم يكن من الممكن أن يكون التوقيت أمثل، حيث تفاقم الانهيار المأساوي لبلاد فارس مع انتشار الفوضى؛ فبين عامي ٦-١٠هـ/ ٦٢٨-٦٣٢م القصيرة، وُجد ما لا يقل عن ستة أكاسرة، كلهم ادعوا الملك لأنفسهم؛ بل قدَّر مؤرخ عربي متأخر ومطلع أن عددهم كان ثمانية، فضلًا عن ملكتين[٤].

واجتذب النجاح أنصارًا جدًا، وكانت أعدادهم تزيد كلما استولى المسلمون على المدن والبلدات والقرى الواقعة على التخوم الجنوبية لبلاد فارس. ولمَّا لم تكن هذه المواقع معتادة على الدفاع عن نفسها في السابق، استسلمت تحت أول بادرة للضغط. وكانت مدينة الحيرة (الواقعة الآن فيما يعرف بجنوب وسط العراق) نموذجًا، حيث استسلمت على الفور، ووافقت على دفع الجزية للمهاجمين مقابل ضمانات السلام[٥]. ونصح كبار القادة الفُرس [أهل المدينة] بدفع الجزية للطلائع العربية المتقدمة، شريطة أن يرحلوا عنها[٦].

وكان تأمين موارد أكبر أمرًا مهمًا؛ ذاك أن المكافآت الروحية المعروضة لم تكن هي التي أثارت اهتمام الناس بتعاليم الإسلام فحسب. فمنذ ظهور النبي [ﷺ]، قيل: إن أحد القادة المسلمين قال

---

(١) الإشارة إلى العرب المستعربة. (المترجم)

(٢) كذا في الأصل، والصواب أن ذلك إنما طلب من إبراهيم u. (المترجم)

(٣) سورة الحج، ٢٧-٢٩.

(4) R. Frye, 'The Political History of Iran under the Sasanians', in *Cambridge History of Iran*, 3.1, p. 178; Tabarī, *The Battle of al-Qādisiyyah and the Conquest of Syria and Palestine*, tr. Y. Friedmann (Albany, NY, 1992), pp. 45–6.

(5) H. Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London, 2007), pp. 103–5.

(6) Tabarī, *Battle of al-Qādisiyyah*, p. 63.

لنظيره الساساني: لم نعد نريد عَرض الحياة الدنيا؛ لقد باتت الحملات الآن تدور حول نشر كلمة الله[1]. ومن الواضح أن الحماس للدعوة كان حيويًا لنجاح الإسلام في طوره المبكر. بيد أنه كانت هناك أيضًا تلك الطريقة المبتكرة التي جرى بها تقاسم الغنائم والأموال. فقد أباح النبي [ﷺ] الغنائم مقابل الولاء والطاعة، وأعلم أتباعه بأن ما سُلِب من الكفار إنما هو غنيمة للمؤمنين[2]. وهكذا ارتبطت المصالح الاقتصادية والدينية بوشائج وثيقة العُرى[3].

وكوفئ السابقون في الدخول في الإسلام بحصة أكبر من الغنائم، فيما شكَّل نظامًا هرميًا بالفعل. وجرى إضفاء الطابع الرسمي على هذا التقسيم في أوائل العقد الرابع من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري مع إنشاء الديوان، وهو هيئة رسمية أشرفت على توزيع الغنائم. وكان ينبغي تقديم حصة بنسبة الخمس لأمير المؤمنين -أعني الخليفة- بيد أن الجزء الأكبر كان ينبغي أن يقتسمه أنصاره وأولئك الذين شاركوا في شن غارات ناجحة[4]. واستفاد السابقون في الدخول في الإسلام استفادة أكبر من الفتوحات الجديدة، بينما كان المؤمنون الجدد حريصين على الاستمتاع بثمار النجاح. وكانت النتيجة محركًا عالي الكفاءة لدفع التوسع قُدمًا[5].

ولما استمرت الجيوش المشكلة حديثًا في تأسيس سلطة سياسية ودينية على رجال القبائل الرحَّل -المعروفين مجتمعين باسم «الأعراب»، أو «البدو»- حققوا تقدمًا هائلًا، وأخضعوا مساحات شاسعة من الأراضي لسيطرتهم بسرعة كبيرة. وعلى الرغم من صعوبة إعادة تحديد التسلسل الزمني للحوادث على وجه اليقين، فقد أظهرت الدراسات الحديثة -على نحو مقنع- أن التوسع في بلاد فارس حدث قبل عدة سنوات مما كان يُعتقد سابقًا، في الوقت الذي كان المجتمع الساساني ينهار فيه بين عامي ٦-١٠هـ/ ٦٢٨-٦٣٢م، وليس بعد ذلك[6][7]. وهذا التبكير بتأريخ غزو المسلمين لبلاد فارس مهم

(1) Ibid.

(٢) سورة العنكبوت، ١-٥.

(3) Crone, *Meccan Trade*, p. 245.

(4) C. Robinson, *The First Islamic Empire*, in J. Arnason and K. Raaflaub (eds), *The Roman Empire in Context: Historical and Comparative Perspectives* (Oxford, 2010), p. 239; G.-R. Puin, *Der Dīwān von Umar Ibn al-Hattab* (Bonn, 1970); F. Donner, *The Early Islamic Conquests* (Princeton, 1981), pp. 231-2, 261-3.

(٥) على الرغم من حرص المؤلف على ذكر البعد الروحي لحركة الفتوح الإسلامية، فإن التركيز على الطمع في الغنائم لشرح حماسة العرب للقتال والفتح يُعد ترديدًا لتبريرات الاستشراق الكلاسيكية لحركة الفتوح الإسلامية الكبرى. (المترجم)

(6) Pourshariati, *Decline and Fall of the Sasanian Empire*, pp. 161ff.

وانظر أيضًا في هذا الصَّدد:

Donner, *Early Islamic Conquests*, pp. 176-90; Kennedy, *Arab Conquests*, pp. 105-7.

(٧) هذا التاريخ مبكر للغاية ليشهد مرحلة متقدمة من الفتوح مثل التوغل في العراق وبلاد فارس، إن هذا التأريخ =

للغاية؛ ذاك أنه يساعد في وضع سياق للمكاسب السريعة التي تحققت في فلسطين؛ حيث استسلمت جميع المدن للمسلمين في منتصف العقد الرابع من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، بما في ذلك القدس، التي كان الرومان قد استعادوها من الفُرس مؤخرًا لتوهم[1].

واستجابت روما وكذلك بلاد فارس للتهديد بعد فوات الأوان؛ ففي حالة الفُرس، كان انتصار المسلمين الساحق في القادسية عام ١٥هـ/ ٦٣٦م بمثابة دفعة قوية لجيوش العرب المتزايدة ولثقة الإسلام بنفسه. وتنهض حقيقة أن مجموعة من النبلاء الفُرس سقطوا صرعى في أثناء القتال شاهدًا على شدة الضرر الذي حاق بمقاومة الفُرس مستقبلًا، فباتت دولتهم تترنح في مهب الريح[2]. ولم تكن استجابة الروم أكثر فاعلية من تلك التي كانت لنظرائهم الفُرس. لقد هُزم جيش بقيادة شقيق الإمبراطور ثيودور (Theodore) هزيمة منكرة عام ١٥هـ/ ٦٣٦م على نهر اليرموك، جنوب بحيرة طبرية، بعد أن استخف بحجم القوة العربية، وقدراتها، وتصميمها على نحو خطير[3].

لقد بات قلب العالم مفتوحًا الآن؛ فقد استسلمت المدينة تلو الأخرى، حيث كانت القوات المهاجمة تتوغل باتجاه المدائن نفسها. وبعد حصار طويل، سقطت العاصمة الفارسية في النهاية، واستولى العرب على خزائنها. وكانت بلاد فارس قد كُسرت بفعل الحركة الرائعة للحرس الخلفي للروم، بيد أن الذين ابتلعوها في جوفهم كانوا أتباع النبي [ﷺ]. واشتدت شوكة مجموعة متباينة، ضمت المؤمنين الذين قبلوا تعاليم نبيهم، إلى جانب أولئك الانتهازيين والقادة الذين انضموا إليهم آملين الحصول على نصيبهم من الغنائم. ومع توافق المصالح، وتحقيق النجاح بعد النجاح، بات السؤال الوحيد المطروح هو: أي مدى سيبلغه الإسلام انتشارًا؟



= المقترح يمتد بين غزوة الخندق وفتح مكة، فمتى وقعت حروب الردة، وحروب الممتنعين عن أداء الزكاة (؟!). (المترجم)

(١) عن تاريخ فتح القدس، انظر:

P. Booth, *Crisis of Empire: Doctrine and Dissent at the End of Late Antiquity* (Berkeley, 2014), p. 243.

(2) Sebeos, *Armenian History*, 42, p. 98.

(٣) انظر:

Howard-Johnston, *Witnesses to Crisis*, pp. 373–5.

-٥-

الطريق إلى الوفاق

مكنت العبقرية الإستراتيجية، والفطنة التكتيكية النبيّ [ﷺ] وأتباعه من تحقيق سلسلة من النجاحات المذهلة في ساحات الوغى. وكان دعم قبيلة قريش والنخبة السياسية المهيمنة في مكة أمرًا حاسمًا أيضًا؛ حيث وفر هذا الدعم منبرًا لإقناع قبائل جنوب الجزيرة العربية بسماع رسالة الدين الجديد وقبولها. وبالمثل سنحت الفرص عندما انهارت بلاد فارس في الوقت المناسب تمامًا. بيد أن ثَم سببان مهمان آخران من شأنهما المساعدة على تفسير انتصار الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري؛ وهما الدعم الذي قدمه النصارى، وكذلك الدعم الذي قدمه اليهود في المقام الأول.

يسهل التغاضي عن الطرق التي استفادت بها الأديان الكبرى واستعارت من بعضها بعضًا، في عالم بدا الدين وكأنه سبب الصراع وسفك الدماء. ومن ثم فقد يبدو لنا -في يومنا هذا- أن النصرانية والإسلام هما طرفا نقيض، ومع ذلك فالحق أن العلاقة بينهما -في السنوات الأولى من تعايشهما معًا- لم تكن سِلميَّة بقدر ما كانت ودية ودافئة. وإذا كان هناك شيء يجدر ذكره في هذا الصدد، فإن العلاقة بين الإسلام واليهودية كانت أكثر لفتًا للانتباه؛ وذاك بسبب توافقهما المتبادل. وكان دعم اليهود في الشرق الأوسط أمرًا حيويًا في نشر رسالة النبي [ﷺ].

وعلى الرغم من تعقيد المادة المتعلقة بالتاريخ الإسلامي المبكر، إلا أن ثم سمة واضحة، وملفتة للنظر يمكن استخلاصها من أدبيات هذه الحقبة، سواء العربية، أو الأرمينية، أو السُّريانية، أو اليونانية، أو العبرية، وكذلك من خلال الأدلة الأثرية؛ وهي أن النبي [ﷺ] وأتباعه ذهبوا إلى أبعد مدى لتهدئة مخاوف اليهود والنصارى، كلما اتسع نطاق سيطرة المسلمين.

ولمَّا حوصر النبي [ﷺ] في يثرب -في جنوب شبه الجزيرة العربية في العقد الثالث من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري- كان طلب العون من اليهود إحدى استراتيجياته الرئيسة. وكانت يثرب بلدة -ومنطقة- عريقة في اليهودية، وفي التاريخ اليهودي. آنئذٍ لم يكد ينقضي قرن من الزمان منذ أن اضطهد أحد الحكام اليهود المتعصبين لـ «حِمير» الأقلية النصرانية، الأمر الذي نتج عنه تشكيل نمط واسع من التحالفات كانت ما تزال راسخة عندما دخل النبي [ﷺ] يثرب مهاجرًا؛ فقد هرع الفُرس لتقديم يد العون للحِميريين ضد تحالف تكون من الروم والأحباش. وعلى هذا النحو كان النبي [ﷺ] حريصًا على الصُلح مع يهود جنوب الجزيرة العربية، وعلى رأسهم شيوخ يثرب.

وتعهد زعماء اليهود في البلدة -التي سُميت فيما بعد بالمدينة- بتقديم يد العون للنبي [ﷺ] مقابل ضمانات الدفاع المشترك. وصيغَت هذه الشروط في وثيقة رسمية نصَّت على احترام المسلمين لعقيدة اليهود وممتلكاتهم آنذاك، وفي المستقبل. كما وضعت أسسًا للتفاهم المتبادل بين اليهودية والإسلام؛ فقد تعهد المسلمون واليهود بالدفاع عن بعضهم بعضًا في حالة تعرض أي منهما للهجوم من قِبل طرف ثالث؛ كما تعهد المسلمون بألا يلحق ضرر باليهود، وبألا يعينوا أعداءهم عليهم. كما نصت أيضًا على أن يُعين المسلمون واليهود بعضهم بعضًا، وأن يمحض بعضهم بعضًا «النصح والمشورة الصادقة»[١]. وقد ساعد على ذلك أن آيات القرآن لم تكن تصالحيَّة فحسب، بل كانت مألوفةً أيضًا؛ فقد كان هناك الكثير من القواسم المشتركة مع التوراة، منها -على سبيل المثال- ذِكر الأنبياء، ولا سيما إبراهيم [عليه السلام]. كما كانت هناك أرضية مشتركة واضحة كذلك لهؤلاء الذين جحدوا مكانة يسوع بوصفه المسيح[٢]. ولم يكن الأمر يتلخص في أن الإسلام لم يكن يشكل تهديدًا على اليهودية قط فحسب، بل كان هناك عناصر متشابهة بدت وكأنها القفاز في اليد[٣].

وسرعان ما بدأت الأخبار تنتشر بين المجتمعات اليهودية، تفيد بأن النبي [ﷺ] وأتباعه أضحوا حلفاء لليهود[٤]. ويسجل نص استثنائي دُوِّن في شمال إفريقيا في أواخر العقد السابع من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري كيف أن أخبار التقدم العربي كانت موضع ترحيب من قبل اليهود في فلسطين؛ ذاك أنها كانت تعني تخفيف القبضة الرومانية-النصرانية على السلطة في المنطقة. وسرت التكهنات بأن ما يحدث قد يكون تحقيقًا لنبوءات قديمة: «قالوا: إن النبي قد ظهَر، قادمًا مع السَّراسِنة[٥]،

---

(١) عن هذا النص، انظر:

F. Donner, *Muhammad and the Believers: At the Origins of Islam* (Cambridge, MA, 2010), pp. 228–32.

وانظر أيضًا:

M. Lecker, *The 'Constitution of Medina': Muhammad's First Legal Document* (Princeton, 2004).

(٢) كذا في الأصل الإنجليزي «and there was obvious common ground for those who repudiated Jesus' status as the Messiah». وفي هذه العبارة -وصيغتها على هذا النحو- مغالطة واضحة، إلا أن يكون المؤلف أراد: «جحدوا [أي المسلمين] مكانة المسيح بوصفه ابن الله» وخانه التعبير. (المترجم)

(٣) انظر مجموعة المقالات المهمة في:

M. Goodman, G. van Kooten and J. van Ruiten, *Abraham, the Nations and the Hagarites: Jewish, Christian and Islamic Perspectives on Kinship with Abraham* (Leiden, 2010).

(٤) الإشكالية في هذا الطرح أنه يتجاهل عمدًا طرد النبي ﷺ لقبائل اليهود من المدينة، ثم فتح خيبر. ومن ثم لابد أن هؤلاء المطرودين المشردين قد نقلوا لبني جلدتهم في الشام ومصر صورة سلبية عن الإسلام ونبيه ﷺ. (المترجم)

(٥) أي العرب (Saracens)، وهو اللَّقبُ الذي دأب الغربُ اللاتينيُّ على تلقيبِ العرب المُسلِمين به. وتشتقُّ هذه الكلمة من كلمة يونانية قديمة كانت تعني «البَدو قُطَّاع الطُّرق». وذهب بعض الدَّارسين إلى أنها تحريف أوروبي لكلمة «شَرقي»، وهذا هو الراجحُ فيها. وذهب آخرون إلى أنها تُشتق من اسم «سارَة» زوج إبراهيم الخليل عليه السلام، فيكون مَعناه «طَريدي سارَة» وهذا تَمحُّل. وقد عرف الأوروبيُّون اللَّاتين عربَ حوض البحر المتوسِّ بـ «الإسماعيليِّين»، لكنهم أطلقوا على مُسلمي الأندلس اسم «السَّراسِنة»؛ نسبةً إلى التَّدمير والنَّهب والسَّلب. (المترجِم)

وأنـه كان نذيـرًا بقـدوم الممسـوح، المسـيح الآتـي»[1]. وخلص بعض اليهـود إلى أن هـذا يعني مجيء المسـيح في الوقت المناسـب تمامًا لإقامة البرهان على أن يسـوع المسـيح كان محتالًا، وأن نهاية أيام الإنسـان علـى الأرض قـد حانت[2]. وعلى حد تعبير أحد أحبار اليهـود، كان محمدٌ [ﷺ] نبيًا كاذبًا[3]؛ «لأن الأنبياء لا يُبعثون مسلحين بالسيف»[4].

إن حقيقـة أن هنـاك نصوصًـا أخرى تقول: إن اليهـود رحبوا بالعرب بوصفهـم محررين من الحكم الرومانـي، توفـر أدلـة مهمة وداعمـة فيما تعلق بردود الفعـل المحلية الإيجابية التـي ترتبت على تصور ذهني للإسلام كان آخذًا في النمو آنئذ. فيذكر أحد النصوص التي دوِّنت عن هذه الحقبة -بعد قرن من الزمان لاحقًا- كيف رأى الحبر شمعون بن يوحاي (Shim'on b. Yoḥai) مَلكًا في منامه -وكان الحَبر قـد انزعـج مـن المتاعب التـي عاناها في أعقاب اسـتعادة هرقل لأورشـليم، وما تبع ذلـك من اضطهاد لليهود، ثم صدور أمر الإمبراطور بتعميدهم رغمًا عنهم- فسأل الحبر الملاك -على ما يبدو لنا- قائلًا: «كيـف لنا أن نعرف أنهم [يعني المسـلمين] خلاصنا؟». فطمأنه المـلاك قائلًا: «لا تخف؛ لأن الله يأتي بملكوتهـم [يعنـي العـرب] مـن أجل إنقـاذك من أولئك الأشـرار [يعنـي الروم] فحسـب. وقد اقتضت مشـيئته أن يقيـم عليهم نبيًا، وسـوف يفتح لهم الأرض فيأتون ويسـتعيدونها بمَجـدٍ». لقد كان يُنظر إلى النبي [ﷺ] على أنه وسيلة لتحقيق آمال اليهود في قدوم المسيح المنتظر. لقد كانت هذه الأراضي ملكًا لذرية إبراهيم، الأمر الذي كان يعني تحقيق التضامن بين العرب واليهود[5].

---

(1) *Doctrina Iacobi* in Dagron and Déroche, 'Juifs et chrétiens', 209.

والترجمة هنا نقلًا عن ر. هويلاند (R. Hoyland):

R. Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam* (Princeton, 1997), p. 57.

(٢) الحظ في هذا الصدد:

W. van Bekkum, 'Jewish Messianic Expectations in the Age of Heraclius', in G. Reinink and H. Stolte (eds), *The Reign of Heraclius (610–641): Crisis and Confrontation* (Leuven, 2002), pp. 95–112.

(٣) كذا في الأصل، واقتضت أمانة النقل إثبات العبارة كما وردت في الأصل الإنجليزي. ولكني أعقب فأقول: حاشاه ﷺ فما كان ينطق عن الهوى. (المترجم)

(4) Dagron and Déroche, 'Juifs et chrétiens', 240–7.

وعن صحة كثير من المعلومات الواردة في هذا النص، انظر:

Howard-Johnston, *Witnesses to a World Crisis*, pp. 155–7;

وعن الجمهور المستهدف بالنص، والغرض من وضعه، انظر:

D. Olster, *Roman Defeat, Christian Response and the Literary Construction of the Jew* (Philadelphia, 1994).

وفي المقام الأول، انظر في هذا الصدد:

Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It*.

(5) J. Reeves, *Trajectories in Near Eastern Apocalyptic: A Postrabbinic Jewish Apocalypse Reader* =

وكانت هناك أسباب تكتيكية أخرى، اقتضت تعاون اليهود مع الجيوش المتقدمة. فقد عرض القادة اليهود في الخليل -على سبيل المثال- عقد صفقة مع القادة العرب، قائلين: «أعطنا الأمان حتى نكون مِثلكم سواءً بسواء»، وأذَنوا لنا «ببناء كنيس أمام مدخل كهف المكفيلة» حيث دُفن ابراهيم. واستطردوا قائلين: وفي المقابل «سوف ندلكم على ثغرة» تتجاوزون من خلالها دفاعات المدينة الهائلة[١].

وكان الدعم الذي تلقاه العرب من الأهالي عاملًا حاسمًا في انتصاراتهم في فلسطين وسوريا في أوائل العقد الرابع من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري كما استعرضنا آنفًا. وأظهرت البحوث الحديثة التي تناولت المصادر اليونانية، والسريانية، والعربية، في أقدم الروايات، أن وصول الجيوش المهاجمة كان موضع ترحيب من قِبل اليهود. ولا نستغربنَّ هذا؛ ولا سيما إن نحَّينا الإضافات الملونة المتأخرة، والتفسير الحقود (مثل المزاعم التي تقضي بأن المسلمين كانوا مذنبين بـ «النفاق الشيطاني») جانبًا، فسنقرأ أن القائد العربي الذي دخل القدس على رأس قواته، دخل المدينة المقدسة في لباس الحجيج المتواضع، وحرص على العبادة كتفًا بكتف مع أولئك الذين كان يُنظَر إلى عقائدهم على أنها ليست متوافقة مع الإسلام، ومع ذلك فإنها ليست مخالفة له كل المخالفة على الأقل[٢].

وكانت هناك فرق أخرى في الشرق الأوسط لم تشعر بخيبة أمل من ظهور الإسلام. فقد كانت المنطقة برمتها تغص بالمتدينين المخالفين؛ فقد وُجد هناك عدد كبير من الطوائف النصرانية التي اعترضت على القرارات التي اتُّخذت في المجامع الكنسية، أو اعترضت على العقائد التي عدوها هرطقة. وكان هذا ينطبق على ساكنة فلسطين وسيناء خاصة؛ حيث كان هناك عدد كبير من المجتمعات النصرانية التي عارضت القرارات التي جرى التوصل إليها في مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م حول المعنى الدقيق للطبيعة الإلهية ليسوع المسيح معارضةً شديدةً، ومن ثم تعرضوا للاضطهاد الرسمي نتيجة لذلك[٣]. وألفت هذه الجماعات النصرانية نفسها مضطهدةً بعد استفاقة هرقل المذهلة في حربه

= (Leiden, 2006), pp. 78–89; B. Lewis, 'An Apocalyptic Vision of Islamic History', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 13 (1950), 321–30.

وانظر أيضًا:

S. Shoemaker, *The Death of a Prophet: The End of Muhammad's Life and the Beginnings of Islam* (Philadelphia, 2012), pp. 28–33.

(1) *Canonici Hebronensis Tractatus de invention sanctorum patriarchum Abraham, Ysaac et Yacob*, in *Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Occidentaux* 1, p. 309; translation by N. Stillman, *The Jews of Arab Lands: A History and Source Book* (Philadelphia, 1979), p. 152.

(2) M. Conterno, '"L'abominio della desolazione nel luogo santo": l'ingresso di Umar I a Gerusalemme nella *Cronografia* de Teofane Confessore e in tre cronache siriache', in *Quaderni di storia religiosa* 17 (2010), pp. 9–24.

(3) J. Binns, *Ascetics and Ambassadors of Christ: The Monasteries of Palestine 314–631* (Oxford, 1994); B. Horn, *Asceticism and Christological Controversy in Fifth-Century Palestine: The Career of Peter the Iberian* (Oxford, 2006); Cameron and Hoyland, *Doctrine and Debate*, p. xxix.

ضد الفُرس، وذلك جرَّاء المواقف الدينية الأرثوذكسية الصارمة التي رافقت عمليات استرداد الإمبراطور للأراضي التي استولى عليها الفُرس في الماضي.

وعلى هذا النحو، لم ير بعض الناس في نجاحات العرب وسيلة لتحقيق غاية فحسب، بل إنهم تعاطفوا مع العرب دينيًا كذلك. فقد منَّى قائد عربي بصير -كان يطمح إلى الاستيلاء على نَصيبين- يوحنا الداسني (John of Dasen) -وكان مطران المدينة إبانئذٍ- بأنه إذا قدم الداسني دعمه له، فإن القائد بدوره لن يُعين المطران على عزل الشخصية البارزة في الكنيسة النصرانية في الشرق فحسب، بل سينصِّبه مكانه[1]. وتشير رسالة أرسلها أحد كبار رجال الدين في العقد الخامس من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري إلى أن الحكام الجدد لم يقاتلوا النصارى قط، «بل امتدحوا ديننا، وأظهروا الكرامة للكهنة، والأديرة، والقديسين ولسيِّدنا»، وحبسوا الأوقاف على المؤسسات الدينية[2].

وفي هذا السياق أيضًا، حظيت رسالة النبي [ﷺ] وأتباعه بتعاطف السكان النصارى المحليين؛ وذاك لسبب واحد، فقد كان لنهي الإسلام الصارم عن الشِّرك، وعبادة الأصنام صدى واضح عند النصارى، الذين عكست تعاليم دينهم هذا النهي على نحو دقيق. كما تعززت روح الصداقة الحميمة بسبب مجموعة مألوفة من الأنبياء، مثل: موسى، ونوح، وأيوب، وزكريا [عليهم السلام] الذين ظهرت أسماؤهم في القرآن إلى جانب أقوال صريحة تقضي بأن الله أنزل الكتاب على موسى، وقفى على آثاره من بعده برسل آخرين، وها هو الآن قد أرسل نبيًّا آخر لنشر كلمة الله[3].

وتعزز ذلك الوعي بالخلفية المشتركة مع النصارى واليهود من خلال اللجوء إلى نقاط مرجعية مألوفة، وإبراز أوجه التشابه في مسائل العادات والعقيدة الدينية. فلم يوح الله إلى النبي [ﷺ] وحده، بل جاء في إحدى آيات القرآن: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾[4]. بينما ذكَرت آية أخرى بحديث الملائكة لمريم، أم المسيح، مرددة صدى عبارة: «السَّلام عَلَيْكِ يا مَرْيَم»، فقد ورد في القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[5].

أما عن النصارى الذين انهمكوا في الجدل حول طبيعة يسوع والثالوث، فربما كان الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو حقيقة أن وحي النبي [ﷺ] احتوى على رسالة أساسية قوية وبسيطة؛ مؤداها إن هناك إلهًا

---

(1) S. Brock, 'North Mesopotamia in the Late Seventh Century: Book XV of John Bar Penkaye's Rish Melle', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 9 (1987), 65.

(2) *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, Series 3, 64, pp. 248–51; Donner, *Muhammad and the Believers*, p. 114.

(٣) سورة البقرة، ٨٧.

(٤) سورة آل عمران، ٣.

(٥) سورة البقرة، ٤٢-٤٣.

قلت: كذا في الأصل الإنجليزي، والصواب سورة آل عمران، ٤٢-٤٣. (المترجم)

واحدًا؛ وإن محمدًا [ﷺ] هو رسوله[1]. وكان من السهل إدراك مدى انسجام هذه الآيات مع أساس الإيمان في النصرانية الذي يقضي بأن الله كُلي القدرة، وأنه من وقت لآخر يرسل الرُّسل لنقل الرسائل من السماء.

وتسجل آية أخرى في القرآن أن النصارى واليهود الذين جادلوا بعضهم بعضًا في الدِّين قد فقدوا عقولهم، بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2]، ونهى القرآن عن الفُرقة؛ ذاك أنها من عمل الشيطان، فلا ينبغي للمؤمنين أن يسمحوا بتعميق الخلافات فيما بينهم، بل ينبغي عليهم الاعتصام بحبل الله جميعًا، وألا يتفرَّقوا[3]. لقد كانت رسالة النبي [ﷺ] رسالة تصالحية. ويقول القرآن -في غير موضع-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4]. وإن أولئك الذين يؤمنون بالله الواحد الأحد ينبغي أن يُكرَّموا، وأن يُوقَّروا.

كما كانت هناك أيضًا عادات وأحكام سبقت عصر النبي [ﷺ] ثم ارتبطت لاحقًا بالإسلام، وعمل بها المسلمون، وأقرها النبي [ﷺ] -بنفسه- على ما يبدو لنا. ومنها -على سبيل المثال- قطع اليد عقوبة على السرقة، كما كان قتل المرتد عن دينه من الممارسات الشائعة عند المسلمين. وأصبحت عناصر، مثل: الصدقة، والصوم، والحج، والصلاة من أركان الإسلام، الأمر الذي زاد من الشعور بالاستمرارية والألفة[5]. ثم ما لبثت أوجه التشابه مع النصرانية واليهودية أن أضحت فيما بعد موضوعًا حساسًا جرى التعامل معه -جزئيًا- من خلال الاعتقاد بأن النبي [ﷺ] كان أميًا، ومع ذلك فقد ذكر بعض المعاصرين[6] أن النبي [ﷺ] كان «متعلّمًا»، وأنه كان مُلمًّا بالتوراة والإنجيل. وأدى ذلك إلى عزل أقوال النبي [ﷺ] عن المزاعم القائلة: إنه -أعني النبي- كان محيطًا علمًا بتعاليم التوراة والإنجيل[7]. بل ذهب بعض المحدَثين إلى ما هو أبعد من ذلك، فزعم بأن للقرآن نواة احتوت على كتاب نصراني دُوِّن بالآرامية، ثم جرى تنقيحه وإعادة صياغته لاحقًا. وقد نُبذت هذه المزاعم ظهريًا -شأنها في ذلك شأن عدد كبير من المزاعم التي تحدت الروايات الإسلامية، أو رفضتها بالكلية- ومع ذلك فإن نفرًا قليلًا من المؤرخين المحدَثين يقولون بها[8].

---

(1) Cameron and Hoyland, *Doctrine and Debate*, p. xxxii.

(٢) سورة آل عمران، ٦٥.

(٣) سورة آل عمران، ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، ٦٢؛ وانظر أيضًا: سورة المائدة ٦٩.

(5) R. Hoyland, *In God's Path: The Arab Conquests and the Creation of an Islamic Empire* (Oxford, 2015), pp. 224–9.

(٦) ليس المعاصرون، بل نفر من المستشرقين. وبصرف النظر عن تفسير كلمة «الأمي» التي دار لغط حول تفسيرها، فإن بعض المحدَثين يرون أنها تعني الأمميين (أي الأغيار، وهي بهذا مكافئة للكلمة العبرية «جوييم») -ومن ثم لا علاقة لها بالجهل بالقراءة والكتابة- فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٨). (المترجم)

(7) Robinson, 'The Rise of Islam', p. 186.

(8) C. Luxenburg, *The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran* (Berlin, 2007); =

ويفسّر كـون النصارى واليهـود هم الجمهور الأساسـي للدعم خلال المرحلة الأولى من التوسـع الإسلامي سبب حديث إحدى الآيات القليلة في القرآن -التي تعلقت بالحوادث المعاصرة التي وقعت فـي حيـاة النبـي [ﷺ]- عن الروم بعبارات إيجابية(١). لقد غُلِبت الـروم -كما جاء في نص القرآن- في إشـارة إلـى إحـدى الانتكاسـات التاريخيـة التي وقعت فـي أثناء الحروب مـع الفُرس فـي أواخر العقد الثالـث من القرن السـابع الميـلادي/ الأول الهجـري. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾(٢). ويسع المؤمنين الاعتقاد في هذا، والعمل بمقتضاه؛ ذاك أنه وعـد الله، وأن الله لا يخلـف وعـده(٣). لقد كانت الرسـالة شـاملة ومألوفـة، ويبدو أنها كانـت تميل إلى التقليـل مـن الحجج المتفرقة التي كان من شـأنها جعل النصارى يشـعرون بالتوتر. فمن منظورهم، بدا الإسلام شاملًا واسترضائيًّا، ويبشر بتهدئة التوترات(٤).

والحق أن المصادر تغص بأمثلة لنصارى أُعجبوا بما رأوه من المسـلمين وجيوشـهم. ويشـير أحد النصوص من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى الكيفية التي أُرسل بها راهب نصراني لمراقبة العـدو فعـاد متأثـرًا بمـا رآه، قائلًا: «جئتك من عنـد قوم يقومون الليـل كله، يصلون ويصومـون النهار، ويأمـرون بالمعـروف وينهـون عـن المنكـر، رُهبان بالليـل، لُيوث بالنهـار» كما يُفترض أنـه أخبر بذلك أقرانـه. وبـدا هذا الوصف جديرًا بالثنـاء تمامًا، بل إنه عمل على طمس الخطوط الفاصلة بين النصرانية والإسلام. كما أن حقيقة أن هناك روايات أخرى من هذه الفترة تتحدث عن رهبان نصارى تبنوا تعاليم النبـي [ﷺ] تقـدم قرينـة أخرى على أن الاختلافات في العقيدة لم تكـن واضحة تمام الوضوح(٥). فقد كان الزهد الذي تبناه المسلمون الأوائل معروفًا في النصرانية، بل ومحمودًا أيضًا، وهو الأمر الذي وفر نقطة مرجعية مألوفة للعالم اليوناني-الروماني على الصعيد الثقافي(٦).

واسـتُكمِلت جهـود المصالحـة مع النصارى بسياسـة حماية أهل الكتـاب -أي اليهود والنصارى- واحترامهم. ويوضـح القرآن أن المسلمين الأوائل لـم يروا أنفسهم منافسين لهاتين العقيدتين؛ بل نظروا

= وانظر أيضًا في هذا الصدد:

D. King, 'A Christian Qur ān? A Study in the Syriac background to the language of the Qurān as presented in the work of Christoph Luxenberg', *Journal for Late Antique Religion and Culture* 3 (2009), 44–71.

(١) هـذا أيضًـا تنظير منبت الصلة بالسـياق التاريخي، فتلـك الآيات مكية بلا خلاف، حيث لـم يكن ثم فتوحات، ولا تفكير في فتوحات آنذاك. (المترجم)

(٢) سورة الروم، [٣-٤].

(٣) سورة الروم، ٦.

(٤) لا يخفى على فطنة القارئ أن هذه قراءة مبتسرة مجتزأة. (المترجم)

(5) T. Sizgorich, *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam* (Philadelphia, 2009), pp. 160–1.

(6) R. Finn, *Asceticism in the Graeco-Roman World* (Cambridge, 2009).

إلى أنفسهم على إنهم شركاؤهم في هذا الإرث نفسه: إن وحي النبي [ﷺ] قد أُنزل سابقًا على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط؛ لقد عهد الله بالرسالة نفسها إلى موسى وإلى المسيح أيضًا. ثم جاء في القرآن ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾. وبعبارة أخرى، فإن الأنبياء في اليهودية والنصرانية هم أنفسهم الأنبياء في الإسلام[1].

وليس من قبيل المصادفة إذن أن يشير القرآن إلى كلمة «الأمة» أكثر من ستين مرة، وهي كلمة لم تُستخدم بوصفها إشارة عرقيَّة، بل كانت تعني جماعة المؤمنين. ويشير القرآن -في مناسبات عدة- بحزن إلى أن البشر كانوا ذات يوم أمة واحدة، قبل أن تفرق الخلافات بين الناس[2]. وكانت الرسالة الضمنية في هذا هي أن الإرادة الإلهية تقتضي تنحية الخلافات جانبًا. وجرى التطرق إلى أوجه التشابه بين الديانات التوحيدية العظيمة في القرآن وفي الحديث -وهو مجموع تقريرات النبي [ﷺ] وأقواله وأفعاله- بينما جرى التقليل من أهمية الاختلافات، والتأكيد على معاملة اليهود والنصارى -على حد سواء- باحترام وتسامح لا لبس فيه.

من المعروف أن مصادر هذه الفترة يصعب تفسيرها؛ ليس لأنها معقدة ومتناقضة فحسب، بل لأن كثيرًا منها دوِّن بعد فترة طويلة من وقوع الحوادث التي تناولتها أيضًا. ومع ذلك، فإن التطورات الحديثة في علم الكتابات القديمة (*Palaeography*)، واكتشاف نزر يسير من المتون التي لم تكن معروفة من قبل، والطرق المعقدة -على نحو متزايد- لفهم المادة المدونة، تعمل على تغيير الآراء القديمة في هذه الحقبة الملحمية في التاريخ. وعلى هذا النحو، فإن الروايات الإسلامية لم تزل تؤكد على أن النبي [ﷺ] توفي عام ١١هـ/ ٦٣٢م، بينما تشير الدراسات الحديثة إلى أن النبي ربما كان ما يزال على قيد الحياة بعد هذا التاريخ. وتشهد مصادر متعددة من القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين على وجود شخصية داعية كارزمية -رأى بعض الباحثين مؤخرًا أنها محمد [ﷺ]- كانت تُوجه جيوش العرب وتُحفزهم وهم على أبواب القدس[3][4].

* * *

(١) سورة آل عمران، ٨٤.

(٢) سورة يونس، ١٩.

(3) Shoemaker, *Death of a Prophet*, pp. 18–72.

وانظر أيضًا:

R. Hoyland, 'The Earliest Christian Writings on Muhammad: An Appraisal', in H. Motzki (ed.), *The Biography of Muhammad: The Issue of the Sources* (Leiden, 2000), esp. pp. 277–81; Cook, 'Muhammad', 75–6.

(٤) قلت: لا يحتاج هذا الرأي إلى جهد في تفنيده. ومع ذلك قد يسأل المرء نفسه متعجبًا: إذا كان من الثابت أن القبائل العربية التي امتنعت عن دفع الزكاة قد فعلت ذلك بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، وكذلك تلك التي ارتدت عن الدين، فهل تكون تلك القبائل قد أقدمت على ذلك بعد معركة اليرموك وفتح القُدس؟! أما الشخصية الكارزمية المشار إليها أعلاه، فهي شخصية الفاروق عمر بن الخطاب، وكان نسيج وحده في الإيمان، والورع، والزهد، والعدل، والقوة في الحق. (المترجم)

كان التوغل الاستثنائي لأتباع النبي [ﷺ] في فلسطين يُقابَل باستجابة عاجزة بليدة من قِبل السلطات [البيزنطية]. وحارب بعض رجال الدين النصارى بوصفهم حرسًا خلفيًا في عمل يائس، حيث حاولوا تشويه صورة العرب ما وسعهم ذلك، في محاولة -محكوم عليها بالفشل مقدَّمًا- رمت لإقناع الأهالي بألا ينخدعوا ويقدموا يد العون لرسالة بدت بسيطة ومألوفة. وحذر بطريرك القدس، بُعيد سقوط المدينة من أن «السَّراسنة» منتقمون، ويكرهون الله. فهم ينهبون المدن، ويبيدون الحقول، ويضرمون النار في الكنائس، ويدمرون الأديرة. إن الشر الذي يرتكبونه ضد المسيح وضد الكنيسة مروع، وكذلك «التجديف البغيض الذي يلفظونه على الله»[1].

والحق أنه يبدو لنا أن الفتوحات العربية لم تكن وحشية ولا صادمة كما ذكر الكتَّاب. فلا يكاد السجل الأثري يظهر أدلة على وقوع اجتياح عنيف في مدن سوريا وفلسطين، على سبيل المثال[2]. كما استسلمت دمشق وكانت المدينة الأكثر أهمية في شمال سوريا، سريعًا بعد الاتفاق على الشروط بين الأسقف المحلي والقائد العربي المهاجم. وحتى إذا أفسحنا المجال لبعض المبالغة الشاعرية، فقد كان الحل الوسط معقولًا وواقعيًا في الوقت نفسه؛ فقد وافق السكان على الاعتراف بسيادة السادة الجدد، في مقابل أن تظل الكنائس مفتوحة، ولا شأن لها بما يجري، وكذلك مقابل أن يُقرَّ السكان النصارى على جاري عاداتهم دون مضايقات. وكان هذا يعني عمليًا دفع الضرائب، ليس للقسطنطينية والسلطات الإمبراطورية، بل لممثلي النبي [ﷺ] من «الخلفاء والمؤمنين»[3].

لقد كانت عملية تكررت مرارًا وتكرارًا كلما أخذ العرب في التوسع في كل حدبٍ وصوب، متسابقين في طرق التجارة والاتصالات. فقد اندفعت الجيوش إلى جنوبي غرب بلاد فارس، قبل أن ينصب تركيزهم على مطاردة يزدجرد الثالث -آخر أكاسرة بني ساسان- الذي فرَّ شرقًا. وتسببت طلائع الجيش التي انطلقت لفتح مصر في إيقاع الفوضى بالبلاد؛ ذاك أنهم قاتلوا كأنهم بُنيان مرصوص، الأمر الذي أدى إلى مقاومة عسكرية محدودة، وعديمة الأثر. وزاد الطين بلة عندما قاتل الأهالي بعضهم بعضًا، أو استعدوا للتفاوض على الشروط وقد انتابتهم المخاوف والرِّيب. وجُرِّدت الإسكندرية -جوهرة شرق البحر المتوسط- من السلاح وأُجبرت على التعهد بدفع جزية كبيرة لقاء التأكيد على صيانة الكنائس، وترك السكان النصارى وشأنهم. وقوبلت أنباء هذا الاتفاق بالبكاء والنحيب في

(1) Sophronius of Jerusalem, 'Logos eis to hagion baptisma', in A. Papadopoulos-Kermeus, 'Tou en hagiois patros hemon Sophroniou archiepiskopou Hierosolymon logos eis to hagion baptisma', *Analekta Hierosolymitikes Stakhiologias* 5 (St Petersburg, 1898), 166–7.

(2) G. Anvil, *The Byzantine–Islamic Transition in Palestine: An Archaeological Approach* (Oxford, 2014); R. Schick, *The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Islamic Rule* (Princeton, 1995).

(٣) البلاذري، كتاب فتوح البلدان، الترجمة الإنجليزية:

al-Balādhurī, *Kitâb furû al-buldân*, tr. P. Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York, 1916), 8, p. 187.

الإسكندرية، بل بدعوات برجم الرجل الذي توسط فيها -أعني البطريرك المقوقس (Cyrus)- عقابًا له على خيانته. وصرخ الرجل في معرض دفاعه عن نفسه، قائلًا: «ما أبرمت هذه المعاهدة إلا لإنقاذكم، أنتم وأبنائكم». وعلى هذا النحو، ذكر أحد الكتّاب -وكان قد كتَب بعد قرن أو نحو ذلك من وقوع تلك الحوادث- قائلًا: «سيطر المسلمون على مصر برمتها، من أقصاها إلى أقصاها. وعلى هذا النحو ضاعفوا دخلهم من الضرائب ثلاثة أضعاف»[١]. وكتب مؤلف معاصر آخر: كان الله يعاقب النصارى على خطاياهم[٢].

وأدى التهديد بالقوة العسكرية -في نموذج توسع شبه مثالي- إلى تسويات جرت من خلال التفاوض عليها، حيث خضعت الولاية تلو الأخرى للسادة المسلمين الجدد. فبادئ ذي بدء، كانت السيطرة على الأراضي المحتلة خفيفة، بل وغير مزعجة. وسُمح لأغلبية السكان -بصفة عامة- بمباشرة أعمالهم دون مضايقة من قِبل السادة الجدد الذين أنشؤوا حاميات عسكرية، وأقاموا بعيدًا عن المراكز الحضرية القائمة[٣]. وفي بعض الحالات، أنشؤوا مدنًا جديدةً للمسلمين، مثل: الفسطاط في مصر، والكوفة على نهر الفرات، والرملة في فلسطين، وأيلة في الأردن المعاصر؛ حيث كان يسع المسلمين اختيار مواقع المساجد وقصور الولاة وبناؤها من العدم[٤].

وفي الوقت نفسه تشير حقيقة بناء الكنائس الجديدة، في المغرب، ومصر، وفلسطين، إلى أن سياسة التسويات المؤقتة (*Modus vivendi*) سرعان ما برهنت على نجاعتها، حيث كان التسامح الديني معياريًّا[٥]. ويبدو أن صدى هذا قد تردد في الأراضي المسلوبة من الساسانيين، حيث بُدئ على

---

(١) يوحنا النقيوسي، تاريخ يوحنا النقيوسي، الترجمة الإنجليزية:

John of Nikiu, *Khronike*, tr. R. Charles, *The Chronicle of John of Nikiu* (London, 1916), 120.17–28, pp. 193–4.

(2) G. Garitte, '"Histoires édifiantes" géorgiennes', *Byzantion* 36 (1966), 414–16; Holyand, *Seeing Islam*, p. 63.

(3) Robinson, *First Islamic Empire*, pp. 239ff.

(4) W. Kubiak, *Al-Fustat, Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo, 1987); N. Luz, 'The Construction of an Islamic City in Palestine: The Case of Umayyad al-Ramla', *Journal of the Royal Asiatic Society* 7.1 (1997), 27–54; H. Djaït, *Al-Kūfa: naissance de la ville islamique* (Paris, 1986); D. Whitcomb, 'The Misr of Ayla: New Evidence for the Early Islamic City', in G. Bisheh (ed.), *Studies in the History and Archaeology of Jordan* (Amman, 1995), pp. 277–88.

(5) J. Conant, *Staying Roman: Conquest and Identity in Africa and the Mediterranean, 439–700* (Cambridge, 2012), pp. 362–70.

وانظر أيضًا:

P. Grossman, D. Brooks-Hedstrom and M. Abdal-Rassul, 'The Excavation in the Monastery of Apa Shnute (Dayr Anba Shinuda) at Suhag', *Dumbarton Oaks Papers* 58 (2004), 371–82; E. Bolman, S. =

الأقل بالزرادشتيين، فإما تجاهل العرب وجودهم، أو تركوهم وشأنهم[1]. أما في حالتي اليهود والنصارى، فلم يكن يصعب إضفاء الطابع الرسمي على العلاقة معهم. فثم نص معقد ومثير للجدل يُعرف باسم «عهد عمر»، ويرمي إلى تحديد الحقوق التي منحها السادة الجدد لمن أسموهم «أهل الكتاب»، وكذلك لوضع أسس التعامل مع المسلمين: فلا يجوز وضع الصلبان في المساجد؛ ولا يُعلَّم القرآن لأبناء غير المسلمين، ولكن لا يُمنَع أحد من اعتناق الإسلام؛ وينبغي احترام المسلمين على الدوام، فإذا طلبوا العون محضهم أهل الكتاب النصيحة. لقد كان التعايش بين الأديان سمة مميزة للتوسع الإسلامي في طوره المبكر، بل كان جزءًا مهمًّا من نجاحه[2].

وفي المقابل، تحفظ آخرون في رهاناتهم، كما تُظهر أفران الفخار من جرش، الواقعة شمالي الأردن. فقد أُنتِجت القناديل في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي تحمل نقوشًا نصرانية كُتبت باللاتينية من جانب، وأدعية إسلامية كُتبت بالعربية من جهة أخرى[3]. وكان هذا -جزئيًّا- استجابة عملية للتجارب الأخيرة، فنظرًا إلى أن الاحتلال الفارسي لهذه المنطقة قد استمر لمدة ربع قرن فحسب، فلم يكن هناك ما يضمن أن السادة العرب لن يبرحوا الأرض بالضرورة، كما يوضح ذلك نص يوناني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بعبارة قاطعة: «سوف يجدد الجسد نفسه». لقد كان الأمل يحدو بعض الناس في أن الفتوحات الإسلامية لم تكن تعدو كونها وميض شرارة، سَرعان ما يخبو، فيذهب ضوءُه[4].

كما أثبتت مرونة النظام الجديد نجاعتها في شؤون الإدارة. فقد استُخدمت العملات المعدنية الرومانية لعدة عقود بعد الفتوحات إلى جانب العملات المعدنية المسكوكة حديثًا مع الصور المألوفة والنقوش الثابتة؛ وكذلك تُركت الأنظمة القانونية القائمة على حالها على نطاق واسع. وتبنَّى الفاتحون الأعراف القائمة في مجموعة من الممارسات الاجتماعية، بما في ذلك تلك الأعراف المعمول بها في الإرث، والمهور، والأيمان، والزواج، بل والصوم أيضًا. وترك المسلمون -في كثير من الحالات-

---

= Davis and G. Pyke, 'Shenoute and a Recently Discovered Tomb Chapel at the White Monastery', *Journal of Early Christian Studies* 18.3 (2010), 453–62;

وعن فلسطين، انظر:

L. di Segni, 'Greek Inscriptions in Transition from the Byzantine to the Early Islamic Period', in Hoyland, *Hellenism to Islam*, pp. 352–73.

(1) N. Green, 'The Survival of Zoroastrianism in Yazd', *Iran* 28 (2000), 115–22.

(2) A. Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects: A Critical Study of the Covenant of Umar* (London, 1970); Hoyland, *God's Path*, esp. pp. 207–31.

(3) N. Khairy and A.-J. Amr, 'Early Islamic Inscribed Pottery Lamps from Jordan', *Levant* 18 (1986), 152.

(4) G. Bardy, 'Les Trophées de Damas: controverse judéo-chrétienne du VIIe siècle', *Patrologia Orientalis* 15 (1921), 222.

الحكام والبيروقراطيين في مناصبهم في الأراضي الساسانية والرومانية السابقة[1]. وكان السبب في ذلك -جزئيًا- هو إجادة القوم للرياضيات البسيطة. وكان الفاتحون -سواء كانوا عربًا أو عجمًا، أو سابقون إلى الإسلام (المؤمنون) أو أولئك الذين انضموا إليهم، وخضعوا لهم (المسلمون)، ينتمون إلى أقلية زمنية، الأمر الذي يعني أن التعاون مع المجتمع المحلي لم يكن خيارًا، بقدر ما كان ضرورة.

وقع ذلك أيضًا؛ لأن المخطط الكبير للحوادث اشتمل على معارك أكبر، بات من المحتم خوضها بعد الانتصارات في بلاد فارس، وفلسطين، وسوريا، ومصر. وكانت إحدى تلك المعارك ذلك الصراع المستمر مع ما تبقى من أطلال الإمبراطورية الرومانية. فقد تعرضت القسطنطينية نفسها لضغط مستمر حيث سعت القيادة العربية إلى القضاء على الروم واستئصال شأفتهم. لكن الأهم من ذلك كانت المعركة من أجل روح الإسلام.

وأسوة بما حدث من خلافات داخلية في النصرانية المبكرة؛ أصبح تحديد ما قال به النبي [ﷺ] على وجه التحديد، وكيفية تسجيله ونشره، ولمَن، مصدر قلق كبير بعد وفاته. وامتازت الصراعات بالشراسة؛ فقد اغتيل ثلاثة من الرجال الأربعة الأوائل الذين جرى تنصيبهم بوصفهم خلفاء للنبي [ﷺ] على أتباعه. وكانت هناك خلافات حادة حول كيفية تفسير تعاليمه، كما كانت هناك جهود يائسة لتحريف إرثه، أو تكييفه بحيث يتناسب مع أغراض أولئك المُحرِّفين. وفي محاولة لتوحيد رسالة النبي [ﷺ] على وجه الدقة، صدر الأمر في الربع الأخير من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري -على الراجح عندنا- بجمع القرآن في نص واحد[2].

وأدى العداء بين الفصائل المتنافسة إلى تشدد المواقف تجاه غير المسلمين. مع ادعاء كل فرقة أنهم الأكثر إخلاصًا لسُنَّة النبي [ﷺ]، ومن ثم لإرادة الله. وقد لا نستغرب أن ينصرف الانتباه وشيكًا إلى الكفار، أي أولئك الذين لم يكونوا على الإسلام.

وكان القادة المسلمون متسامحين، بل وكرماء مع النصارى، فقد أعادوا بناء كنيسة الرُّها بعد أن دمرها زلزال في عام ٥٩هـ/ ٦٧٩م[3]. ولكن في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بدأت

(1) J. Johns, 'Archaeology and the History of Early Islam: The First Seventy Years', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 46.4 (2003), 411–36; A. Oddy, 'The Christian Coinage of Early Muslim Syria', *ARAM* 15 (2003), 185–96.

(2) E. Whelan, 'Forgotten Witnesses: Evidence for the Early Codification of the Qur'an', *Journal of the American Oriental Society* 118.1 (1998), 1–14; W. Graham and N. Kermani, 'Recitation and Aesthetic Reception', in J. McAuliffe (ed.), *The Cambridge Companion to the Qurān* (Cambridge, 2005), pp. 115–43, S. Blair, 'Transcribing God's Word: Qur'an Codices in Context', *Journal of Qur'anic Studies* 10.1 (2008), 72–97.

(3) R. Hoyland, 'Jacob of Edessa on Islam', in G. Reinink and A. Cornelis Klugkist (eds), *After Bardasian: Studies on Continuity and Change in Syriac Christianity* (Leuven, 1999), pp. 158–9.

الأمور تتغير. وتحول الاهتمام إلى الدعوة ونشر الإسلام، ودعوة أهالي البلاد للدخول في الإسلام، إلى جانب تصاعد الموقف العدائي تجاههم.

وتجسد أحد مظاهر ذلك من خلال ما وصفته التعليقات الحديثة أحيانًا بـ «حروب العملة Coin wars»، حيث جرى تبادل الضربات الدعائية على قطع العملات. فبعد أن بدأ الخليفة بإصدار عملات معدنية تحمل نقش «لا إله إلا الله وحده. محمد رسول الله» -في أوائل العقد الأخير من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري- جاء رد القسطنطينية، فضُربت عملات معدنية لم تعد تحمل صورة الإمبراطور على وجهها، بل نُقِشت على ظهرها. أما على وجه العملة فقد ظهرت صورة جديدة مثيرة؛ لقد كانت تلك صورة يسوع المسيح. وكان القصد من وراء ذلك تعزيز الهوية النصرانية، وإثبات تمتع الإمبراطورية بالحماية الإلهية[1].

وفي تطور استثنائي، أضحى العالم الإسلامي يزاحم العالم النصراني كتفًا بكتف. واللافت للنظر، أن الاستجابة الأولية لإصدار عملات معدنية تحمل صورتي يسوع والإمبراطور كانت الرد بصورة على عملات معدنية سُكّت لبضع سنوات فحسب، وحملت صورة لرجل قام بدور موازٍ للدور الذي لعبه يسوع، بصفته حامي أراضي المؤمنين. وعلى الرغم من أنه يُفترض أن هذه الصورة هي صورة الخليفة عبد الملك، فمن المحتمل تمامًا أن هذه الصورة لم تكن سوى صورة النبي [ﷺ] نفسه. حيث ظهر في سترة منسدلة، ولحية براقة، وممسكًا غمد سيفه بيده. إن كان هذا هو النبي [ﷺ]، فهذه أقدم صورة معروفة له. وتجدر الإشارة إلى أن أولئك الذين عرفوه في حياته كانوا يعرفونه، ورأوه بأعينهم. وكتب البلاذري -بعد أكثر من قرن من الزمان- قائلًا: إن بعض أصحاب النبي [ﷺ] -الذين عرفوه جيدًا- كانوا ما يزالون على قيد الحياة في المدينة، وقد رأوا هذه العملات المعدنية. وذكر كاتب آخر متأخرٌ إلا أنه كان مطلعًا على المصادر الإسلامية المبكرة -إلى حد كبير- الشيء نفسه، مشيرًا إلى أن أصحاب النبي [ﷺ] أنفسهم كرهوا التصوير على هذا النحو. ولم تبق العملات المعدنية من هذا النمط متداولة لفترة طويلة، فبحلول نهاية العقد الأخير من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري أُعيد تصميم العملة المتداولة في العالم الإسلامي بالكلية، فأزيلت جميع الصور، واستبدلت بآي من القرآن على كلا وجهي العملة[2].

---

(1) M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium, 600–1025* (London, 1996), pp. 141–2.

(2) R. Hoyland, 'Writing the Biography of the Prophet Muhammad: Problems and Sources', *History Compass* 5.2 (2007), 593–6.

وانظر أيضًا:

I. and W. Schulze, 'The Standing Caliph Coins of al-Jazīra: Some Problems and Suggestions', *Numismatic Chronicle* 170 (2010), 331–53; S. Heidemann, 'The Evolving Representation of the Early Islamic Empire and its Religion on Coin Imagery', in A. Neuwirth, N. Sinai and M. Marx (eds), *The Qurān in Context: Historical and Literary Investigations into the Qurānic Milieu* (Leiden, 2010), pp. 149–95.

ولـم يكـن اعتنـاق النصارى الإسـلامَ هـو الهدف الأهم فـي أواخر القـرن الأول الهجري/ السـابع الميلادي، ذاك أن سـاحة المعركة الرئيسـة إنما كانت بين الفرق الإسـلامية المتنافسـة. فقد اندلع جدل حـاد بيـن الخصوم الذين ادعى كل منهم أنهم الورثة الشـرعيون للنبي [ﷺ]، وأصبحت الورقة الرابحة -خلال هذا الجدل- هي الإحاطة بسيرة النبي [ﷺ] المبكرة. كما أضحت المنافسـة شـديدة حتى إن جهودًا حثيثة ومتضافرة قد بُذلت لنقل مركز الدين بعيدًا عن مكة، وترسيخه في القدس بعد ظهور فرقة قوية في الشرق الأوسط، انقلبت على التقليديين في جنوب الجزيرة العربية. وشُيِّد مسجد قبة الصخرة، وهـو أول مبنـى مقـدس إسـلامي رئيـس، فـي بدايـة العقـد الأخير مـن القـرن الأول الهجري/ السـابع الميـلادي، وكان يهـدف -جزئيًا- إلى صرف الانتباه بعيدًا عن مكـة[1]. وكانت المباني والثقافة المادية -على حد تعبير أحد الكتّاب المحدَثين- تُستخدم بوصفها «سلاحًا للصراع الأيديولوجي» خلال حقبة مضطربـة مـن الاقتتال الأهلي، في الوقت الذي كان فيه الخليفة يحمل السـلاح ضد أحفاد النبي [ﷺ] المنحدرين من ذريته[2].

ويفسر الصراع داخل العالم الإسلامي النقوش التي ظهرت على الفسيفساء على الوجوه الخارجية والداخلية لمسجد قبة الصخرة، والتي كانت تهدف إلى طمأنة النصارى. فقد جاء فيها: بسم الله الرحمن ... الرحيم، الصلاة والسلام على محمد رسول الله. بيد أنها ذكرت أيضًا أن يسوع هو المسيح. «فآمنوا بالله ورسـله ... اللهم صل على رسـولك وعبدك عيسـى بن مريم، والسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويـوم يبعـث حيًا»[3]. بعبارة أخرى، كانت هناك حلقـة ضبابية من الحدود الدينية حتى العقد الأخير من القـرن السـابع الميـلادي [الأول الهجري]. والحق أن الإسـلام بدا قريبًا للغاية مـن النصرانية، حتى إن بعـض علمـاء النصـارى اعتقـدوا أن تعاليمـه لم تكـن تعاليم ديـن جديد بقدر مـا كانت تفسـيرًا مختلفًا للنصرانية. وبحسـب يوحنا الدمشـقي (John of Damascus) -وكان أحد المفسـرين البارزين في ذلك الوقـت- لـم يكـن الإسـلام يعدو كونه بدعـة نصرانية، ولم يكن دينًا مختلفًا. واسـتطرد قائـلًا: إن النبي [ﷺ] جاء بأفكاره استنادًا إلى قراءته للتوراة والإنجيل، وإلى محاورة مع راهب نصراني ضال[4].

---

(1) B. Flood, *The Great Mosque of Damascus: Studies on the Makings of an Umayyad Visual Culture* (Leiden, 2001).

(2) Johns, 'Archaeology and History of Early Islam', 424–5.

وانظر أيضًا:

Hoyland, *Seeing Islam*, esp. pp. 550–3, 694–5,

وانظر بصفة عامة:

P. Crone and M. Hinds, *God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam* (Cambridge, 1986).

(3) O. Grabar, *The Dome of the Rock* (Cambridge, MA, 2006), pp. 91–2.

(4) John of Damascus, *On Heresies*, tr. F. Chase, *The Fathers of the Church* (Washington, DC, 1958), 101, p. 153; Sarris, *Empires of Faith*, p. 266.

وعلى الرغم من الصراع الدؤوب على الهيمنة والسلطة في مركز العالم الإسلامي -أو ربما بسبب ذلك الصراع- فإن أطراف العالم الإسلامي استمرت في التوسع على نحو مذهل. وتمكن القادة الذين كانوا أسعد حظًّا في ميادين القتال مقارنة بأولئك الذين خاضوا المعارك السياسية والعقائدية، فقادوا جيوشهم متوغلين في أعماق آسيا الوسطى، والقوقاز، وشمال إفريقيا. وفي حالة شمال إفريقيا، بدا التقدم بطيئًا. وبعد عبور مضيق جبل طارق، تدفقت الجيوش عبر إسبانيا إلى فرنسا، حيث واجهت مقاومة في مكان ما بين بواتييه (Poitiers) وتور (Tours)، على بعد ٢٠٠ ميل فحسب من باريس في عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م. في معركة اكتسبت لاحقًا مكانة شبه أسطورية بوصفها اللحظة التي توقف فيها التوسع الإسلامي الذي كان أشبه شيء بالطفرة؛ فقد قاد شارل مارتل (Charles Martel) قواته لتُنزل هزيمة ساحقة بجيوش المسلمين. وكان مصير أوروبا النصرانية معلقًا بخيط، على حد وصف بعض المؤرخين المتأخرين، ولولا بطولة المدافعين ومهارتهم، لكانت القارة برمتها قد أضحت مسلمة بكل تأكيد[1]. والحق أن الهزيمة مثَّلت نكسة بالتأكيد، إلا أن هذا لا يعني أن المسلمين لم يشنوا هجمات جديدة في المستقبل، إذا كانت هناك غنائم تستحق الظفر بها. وفيما يتعلق بأوروبا الغربية في هذه الفترة، كانت هذه الجوائز قليلة ومتباعدة، لقد كانت الثروة والمكافآت كامنةٌ في أماكن أُخَر.

* * *

كرَّست الفتوحات الإسلامية عزلة أوروبا، وهي العزلة التي بدأت باجتياح القوط والهون وغيرهم للقارة قبل قرنين من الزمان. وما تبقى من أراضي الإمبراطورية الرومانية -ولم يزد عن القسطنطينية وأعمالها- ذبل وأضحى على شفير الانهيار الكامل. وتعثرت التجارة في البحر المتوسط النصراني، التي كان تتضاءل بالفعل عشية الحروب مع بلاد فارس. وما أن تقلصت المدن الصاخبة، مثل: أثينا، وكورنثا (Corinth) على نحو حاد، حتى انخفض عدد سكانها وأضحت مراكزها كلها شبه مهجورة. وخير مؤشر على ذلك هو حطام السفن العائد إلى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي وما يليه؛ فهو شاهد على حجم التبادل التجاري الجاري الذي كاد يختفي بالكلية تقريبًا. لقد انتهت التجارة الدولية ببساطة[2].

---

(١) انظر: على سبيل المثال:

M. Bennett, *Fighting Techniques of the Medieval World AD 500–AD 1500: Equipment, Combat Skills and Tactics* (Staplehurst, 2005).

(2) P. Reynolds, *Trade in the Western Mediterranean, AD 400–700: The Ceramic Evidence* (Oxford, 1995); S. Kinsley, 'Mapping Trade by Shipwrecks', in M. Mundell Mango (ed.), *Byzantine Trade, 4th–12th Centuries* (Farnham, 2009), pp. 31–6.

وانظر أيضًا:

M. McCormick, *Origins of the European Economy: Communications and Commerce, AD 300–900* (Cambridge, 2001); Wickham, *Inheritance of Rome*, esp. pp. 255ff.

لم يكن من الممكن أن يكون التناقض مع العالم الإسـلامي أكثر حدة مما كان بالفعل. فلم يستول المسـلمون على معاقل الإمبراطوريـة الرومانية وبلاد فارس الاقتصادية فحسـب، بـل وحدوها أيضًا. فرُبطت مصر وبلاد الرافدين لتشكل جوهر عملاق اقتصادي وسياسـي جديد امتد من جبال الهيمالايا إلى المحيط الأطلسـي. وعلى الرغم من الخلافات الأيديولوجية، والخصومـات، والفتن التي وقعت فـي العالم الإسـلامي بيـن الفينة والأخرى، من قَبيـل الإطاحة بالخلافة [الأمويـة] عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م على أيدي بني العباس- فإن الإمبراطورية الجديدة كانت تعج بالأفكار والسلع والمال. والحق أن هذا بالضبط ما كان يكمن خلف الثورة العباسية؛ لقد كانت مدن آسيا الوسطى هي التي مهدت الطريق أمام تغييـر النظـام. كما كانت البؤرة التي جـرى فيها صقل الحجج الفكرية، وتمويل الثورات. وكان هذا هو المكان الذي جرى فيه اتخاذ قرارات حاسمة في المعركة التي خِيضَت في سبيل روح الإسلام(١).

سـيطر المسـلمون على عالـم كان منظمًـا تنظيمًا جيـدًا، ويعج بمئـات المدن التي غصَّـت بدورها بالمستهلكين، أو بعبارة أخرى: المواطنون الدافعون للضرائب. ومع سـقوط كل مدينة منها في حوزة الخلافـة، أضحـى المزيـد من المـوارد والأصول تحت سـيطرة حاضرة المسـلمين. واستُهدفت طرق التجـارة، والواحـات، والمدن، والموارد الطبيعية، واستُوعبت كذلك. كمـا ضُمَّت الموانئ التي كانت تربط التجارة بين الخليج العربي والصين، وكذلك طرق التجارة التي نشأت عبر الصحراء، الأمر الذي أتـاح لمدينـة فاس (في المغرب الحديث) أن تبلغ «الغاية فـي الازدهار» وأن تكون موطنًا للتجارة التي جنـت منهـا «أرباحًا ضخمة» على حد تعبير أحد الكتَّاب المعاصرين. وجلب إخضاع مناطق وشـعوب جديـدة مبالـغ مذهلـة إلى الإمبراطورية الإسـلامية؛ فقدَّر أحـد المؤرخين العرب أن غزو السـند (أو ما يعـرف الآن بباكسـتان) قـد أثمر عن ٦٠ مليون درهـم، ناهيك عن الثروات المسـتقبلية التي كان يمكن جنيُها من الضرائب وسائر الجبايات والرسوم الأخرى(٢). ووفقًا لمعايير اليوم، فإن هذا المبلغ يساوي مليارات الدولارات.

ومـع توغـل الجيوش شـرقًا، أضحت عملية جباية الخراج مربحة وناجحة، كما كانت في فلسـطين ومصر فضلًا عن أماكن أخرى غيرهما. وجرى انتقاء مدن آسـيا الوسـطى الواحدة تلو الأخرى، وأدت الروابط المفككة بينها إلى انهيارها، فكانت كل مدينة منها تنتظر مصيرها، عندما يحين دورها، في ظل الافتقار إلى هيكل تنظيمي لتنسـيق الدفاعات عنها جميعًا(٣). وجرى الضغط على سـكان سمرقند لدفع جزية كبيرة من المال للقائد المسلم كي ينسحب بجيشه، ومع ذلك كان يتوجب على المدينة الاستسلام

---

(1) de la Vaissière, *Sogdian Traders*, pp. 279–86.

(٢) اليعقوبي، والبلاذري. نقلاً عن:

J. Banaji, 'Islam, the Mediterranean and the Rise of Capitalism', *Historical Materialism* 15 (2007), 47–74, esp. 59–60.

(٣) عن الهياكل الفضفاضة في عالم الصُغد آنذاك، انظر:

de la Vaissière, *Marchands sogdiens*, pp. 144–76.

عندما آن أوان ذلك. وعلى الأقل فقد تجنب حاكم المدينة مصير الإخشيد (Dewashtich)، حاكم بنجكنت (Panjikent) (في طاجيكستان الحديثة) الذي نصب نفسه ملكًا على الصغد؛ لقد خُدِع، وحُبس، وصُلب أمام رعيته. وعانى حاكم بلخ (فيما يعرف الآن بشمال أفغانستان) من المصير نفسه[١].

وسهلت الفوضى التي ضربت أطنابها في منطقة السهوب -في الوقت نفسه الذي انهارت فيه بلاد فارس- عملية تقدم المسلمين في آسيا الوسطى إلى حد كبير. فقد أدى شتاء مدمر بين عامي ٦-٧هـ/ ٦٢٧-٦٢٨م إلى حدوث مجاعة، وموت أعداد كبيرة للغاية من الماشية، ومن ثم أدى ذلك إلى تحول كبير في السلطة. وواجهت الجيوش الإسلامية -في أثناء توغلها شرقًا- القبائل البدوية التي استفادت أيضًا من انهيار بلاد فارس. ثم لحقت هزيمة نكراء بقبائل الأتراك البدو في العقد الرابع من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، ولم تأتِ مصائب القوم فُرادى، حيث قُتل صولو (Solu)، وكان الزعيم المهيمن على السهوب، في أعقاب مقامرة غير محسوبة[٢].

ولما تفكك الحاجز القبلي، توغل المسلمون شرقًا، نعم ببطء، ولكن بثبات، فاستولوا لأنفسهم على المدن وبلدات الواحات، وعقدوا الاتصالات، وما زالوا يتوغلون حتى وصلوا إلى تخوم الصين من غربها مع بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[٣]. وما لبث الفاتحون العرب أن واجهوا الصينيين وجهًا لوجه في عام ١٣٤هـ/ ٧٥١م، حيث ألحق المسلمون هزيمة منكرة بالجيش الصيني في معركة نهر طَلاس في آسيا الوسطى. وأدى هذا إلى وصول المسلمين إلى حدود طبيعية، فلم يعودوا بحاجة إلى مزيد من التوسع، على الأقل على المدى القصير. وفي غضون ذلك، جلبت الهزيمة في الصين تداعيات واضطرابات، الأمر الذي أدى إلى اندلاع ثورة كبيرة ضد أسرة تانغ (Tang) الحاكمة بقيادة القائد الصغدي آن لوشان (An Lushan)، الأمر الذي دشن حقبة طويلة من الاضطرابات والقلاقل التي خلقت فراغًا للآخرين لاستغلاله[٤].

وبادرت قبائل الأويغور (Uighurs) -وكانوا بدوًا قدموا الدعم لأسرة تانغ- سريعًا إلى استغلال تلك الفرصة، واستفادوا -إلى حد كبير- من انسحاب سادتهم السابقين إلى معاقل مناسبة وآمنة لهم في داخل الصين ليلعقوا جراحهم. وشيَّد الأويغور مستوطنات دائمة، للسيطرة على أراضيهم المتنامية

---

(١) انظر في هذا الصَّدد:

F. Grenet and E. de la Vaissière, 'The Last Days of Panjikent', *Silk Road Art and Archaeology* 8 (2002), 155-96.

(٢) انظر في هذا الصدد:

J. Karam Skaff, *Sui-Tang China and Its Turko-Mongol Neighbours: Culture, Power, and Connections, 580–800* (Oxford, 2012).

(3) D. Graff, 'Strategy and Contingency in the Tang Defeat of the Eastern Turks, 629–30', in N. di Cosmo (ed.), *Warfare in Inner Asian History, 500–1800* (Leiden, 2002), pp. 33–72.

(4) de la Vaissière, *Sogdian Traders*, pp. 217–20.

على نحو أفضل، وكان من أهم تلك المستوطنات بلاساغون أو قوز أوردو (Quz Ordu) (في قيرغيزستان الحديثة)، والتي أضحت مقرًّا للحاكم، أو الخاقان. لقد كانت مزيجًا غريبًا من المدينة والمعسكر معًا؛ حيث أُفردت للقائد خيمة ذات قبة ذهبية، ووُضِع عرش بداخلها. وكان للمدينة اثنتي عشرة بوابة، وكانت محمية بأسوار وأبراج. وإذا حكمنا الروايات المتأخرة، فقد كانت هذه مجرد مدينة من عدد كبير من مدن الأويغور التي نشأت منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وما تلاه[١].

وسرعان ما أصبح الأويغور القوة البارزة على الحدود الشرقية للإسلام. فلما قويت شوكتهم، ضموا بلاد الصُّغد أولًا، ثم حلوا محلهم بوصفهم روادًا في تجارة المسافات الطويلة، ولا سيما تجارة الحرير. وتشهد سلاسل مجمعات القصور الرائعة على الثروات المتولدة خلال هذه الفترة[٢]. وكانت مدينة خوخ أوردونغ (Khukh Ordung) -على سبيل المثال- مدينة محصنة، كانت موطنًا للمخيمات إضافة إلى المباني الدائمة التي تضمنت جناحًا استخدمه الخاقان لاستقبال الزوار من ذوي الشأن، وكذلك لإقامة الاحتفالات الدينية[٣]. وحاول الأويغور -في معرض التنافس مع المسلمين- الاحتفاظ بهويتهم الخاصة، فقرروا اعتناق المانوية؛ ربما بوصفها توسطًا بين العالم الإسلامي الواقع غربًا، والصين في الشرق.

وكانت فتوحات المسلمين قد أخضعت شبكة واسعة من طرق التجارة والاتصالات لسيطرتهم، فارتبطت واحات أفغانستان وفرغانة بشمال إفريقيا والمحيط الأطلسي لسلطان المسلمين. وكانت الثروة المتركزة في وسط آسيا مذهلة. وتشهد التنقيبات التي أجريت في بنجكنت وبالاليك تيبي (Balalyk-tepe) إضافةً إلى مواقع أخرى في أوزبكستان الحديثة على رعاية الفنون من الطراز الرفيع. كما تشير بوضوح إلى الأموال التي كانت تكمن وراءها. فقد صُوِّرت مشاهد من حياة البلاط، وكذلك من الأدب الملحمي الفارسي على جدران المساكن الخاصة، على نحو لم يخلُ من بهاء. وتُظهر إحدى مجموعات الصور المأخوذة من قصر في سمرقند العالم الأُممي الذي كان المسلمون يتوغلون فيه؛ حيث صُوِّر الحاكم المحلي وهو يتلقى الهدايا من شخصيات أجنبية بارزة، وفدوا عليه من الصين وبلاد فارس والهند وربما حتى

---

(1) C. Mackerras, *The Uighur Empire According to the T'ang Dynastic Histories* (Canberra, 1972); T. Allsen, *Commodity and Exchange in the Mongol Empire: A Cultural History of Islamic Textiles* (Cambridge, 1997), p. 65.

(2) C. Beckwith, 'The Impact of Horse and Silk Trade on the Economics of T'ang China and the Uighur Empire: On the Importance of International Commerce in the Early Middle Ages', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 34 (1991), 183–98.

(3) J. Kolbas, 'Khukh Ordung: A Uighur Palace Complex of the Seventh Century', *Journal of the Royal Asiatic Society* 15.3 (2005), 303–27.

كوريا. وسقطت مدن، وولايات، وقصور من هذا القبيل في أيدي الجيوش الإسلامية التي احتشدت على طول طرق التجارة[1].

وضُخِّت استثمارات ضخمة في أماكن مثل الشام، مع تدفق هذه الثروة الجديدة على الخزائن المركزية؛ حيث شُيِّدت الساحات والمحال التجارية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي على نطاق واسع في مدن جرش وبيسان (Scythopolis) وتدمُر[2]. ومع ذلك، فقد كان الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو بناء مدينة جديدة هائلة. وكان من المخطط لها أن تصبح الأغنى والأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم، وظلت كذلك لعدة قرون، على الرغم من إفراط بعض التقديرات التي أُجريت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في إحصاء عدد سكانها. فقد قدَّر أحد المؤلفين -استنادًا إلى حساباته لعدد الحمامات، وعدد القومة المطلوب لصيانتها، والتوزيع المحتمل لها مقارنة بعدد المنازل الخاصة- عدد سكان المدينة بنحو ١٠٠ مليون نسمة[3]. إنها «مدينة السلام» التي عرفناها نحن باسم «بغداد».

* * *

كانت [بغداد] الرمز المثالي لثراء العالم الإسلامي، وقلب الخلافة، والرعاية، والهيبة. ومثلت مركزًا جديدًا لهيبة خلفاء النبي [ﷺ]، وكانت المحور السياسي والاقتصادي الذي ربط بلاد المسلمين في كل حدبٍ وصوب. لقد وفرت مكانًا للاحتفال والتباهي على نطاق مذهل، ومن ذلك -على سبيل المثال- مناسبة زواج هارون الرشيد، ابن الخليفة، في عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م. وبصرف النظر عن تقديم الرشيد مجموعة من اللآلئ من ذوات الحجم والعدد لعروسه، فضلًا عن الثياب المرصعة بالياقوت، والمأدبة التي «استعَدَّ لها ما لم يُسْتَعَدّ لامرأةٍ قبلها»، فقد جاد الرشيد بسخاء على الناس من جميع أنحاء البلاد. فتقاسم الحضور الأواني الذهبية المطعمة بالفضة، وتلك الفضية المطعمة بالذهب، وكذلك

(1) L. Albaum, *Balalyk-Tepe: k istorii material'noĭ kul'tury i iskusstva Tokharistana* (Tashkent, 1960); F. Starr, *Lost Enlightenment: Central Asia's Golden Age from the Arab Conquest to Tamerlane* (Princeton, 2014), p. 104.

(2) A. Walmsley and K. Damgaard, 'The Umayyad Congregational Mosque of Jerash in Jordan and its Relationship to Early Mosques', *Antiquity* 79 (2005), 362–78; I. Roll and E. Ayalon, 'The Market Street at Apollonia – Arsuf', *BASOR* 267 (1987), 61–76; K. al-Asad and Stepniowski, 'The Umayyad *suq* in Palmyra', *Damazener Mitteilungen* 4 (1989), 205–23; R. Hillenbrand, 'Anjar and Early Islamic Urbanism', in G.-P. Brogiolo and B. Ward-Perkins (eds), *The Idea and Ideal of the Town between Late Antiquity and the Early Middle Ages* (Leiden, 1999), pp. 59–98.

(٣) هلال بن المحسن الصابئ، رسوم دار الخلافة، الترجمة الإنجليزية:
Hilāl al-Ṣābi, *Rusūm dār al-khilāfah*, in *The Rules and Regulations of the Abbasid Court*, tr. E. Salem (Beirut, 1977), pp. 21–2.

العطـور باهظـة الثمن فـي القوارير. وأهديت النسـاء الحاضرات صُـررًا احتوت على الدنانيـر الذهبية، والدراهـم الفضيـة، إضافـةً إلـى «صينيـة كبيرة فضـة فيها طيـب، ويخلع عليها وشِـيٌ مثقلة. فلـم يُر في الإسلام مثله»[1].

لقـد أصبـح مثـل هذا التـرف ممكنًا بفضل عائـدات الضرائب الهائلـة التي جُمعت مـن إمبراطورية شاسـعة ومنتجة، وثرية. ولما توفي هارون الرشـيد عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، خلَّف في خزائنه نحو ٤٠٠٠ عمامة، و١٠٠٠ وعاء ثمين من الخزف، وأنواع لا تحصى من العطور، وكميات لا تحصى من الجواهر والفضـة والذهـب، و١٥٠ ألـف رمـح، ومثل ذلك من الـدروع، وآلاف من الأحذية أزواجًـا، كثير منها كانـت مبطنـة بفراء السـمور والمنك فضلًا عـن أنواع أخرى من الفـراء[2]. وقيـل: إن الخليفة كتب إلى الإمبراطـور في القسـطنطينية في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميـلادي قائلًا له: «إن أخسَّ ناحيةٍ، عليها أخسُّ عبيدي، خراجها أكثر من خراج أرضك»[3]. لقد غذت الثروة فترة ازدهار لا تُصدَّق، وكذلك أشعلت جذوة ثورة فكرية.

ونمـت المشـروعات الخاصـة مع ارتفاع مسـتويات الدخل المتـاح إلى حد كبير. واكتسـبت مدينة البصرة -الواقعة على الخليج العربي- سمعةً بوصفها سوقًا يسع المرء فيها أن يعثر على أي شيء، بما في ذلك الحرير، والكتان، واللؤلؤ، والأحجار الكريمة، إضافة إلى الحناء، وماء الورد. وكانت السوق فـي الموصـل -وهي مدينة تغص بالمنازل الرائعة، والحمامات العامة الفاخرة- مكانًا رائعًا يسـع المرء فيهـا أن يجـد السِّـهام، أو الركائب، أو السـروج، وفقًا لأحـد الكتَّاب في القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي. وعلى صعيد آخر، أشـار هذا الكاتب إلى أن المرء إذا كان يريد أجود أنواع الفسـتق، أو زيت السمسم، أو الرمان، أو التمر، فإن أفضل مكان يجده هذه الأصناف فيها هو نيسابور[4].

وكان هنـاك تعطش لألذ الأطعمـة، وأرقى المصنوعات، وأفضل المنتجات. كما أصبحت الأذواق أكثر تطورًا، وكذلك كانت الشـهية للمعلومات. فإذا افترضنا أن الرواية التقليدية المتعلقة بتقديم سـبي الصيـن -الذيـن أُسِـروا فـي معركة طـلاس في عـام ١٣٣هــ/ ٧٥١م- مهـارات صناعة الـورق للعالم الإسلامي، رواية مفرطة في الرومانسية، فمن المؤكد أن توفر الورق منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أدى إلى تسـجيل المعرفة على نطاق أوسـع، ونشـرها، ومشـاركتها على نحو أسـهل

(١) ابن الزبير، كتاب الذخائر والتحف، الترجمة الإنجليزية:

Book of Gifts and Rarities: Selections Compiled in the Fifteenth Century from an Eleventh-Century Manuscript on Gifts and Treasures, tr. G. al-Qaddūmī (Cambridge, MA, 1996), pp. 121–2.

(2) B. Lewis, *Islam: From the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople* (New York, 1987), pp. 140–1.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم (الترجمة الإنجليزية):

Best Divisions for Knowledge, p. 60.

(٤) المصدر نفسه، Ibid., pp. 107, 117, 263.

وأسرع. وشمل انفجار المعرفة الأدب فضلًا عن جميع مجالات العلوم، والرياضيات، والجغرافيا، والرحلات(١).

وقال [بعض] الكُتّاب: إن أفضل أنواع السفرجل يأتي من القدس، وأجود الفطائر تأتي من مصر. وكان التين الشامي ينفجر بالذوق، في حين استحق البرقوق العمري -في شيراز- أن يموت المرء من أجله. ونظرًا لأنه بات في الوسع توفير المزيد من الأذواق التمييزية، فإن المراجعات النقدية الصارمة لم تكن أقل أهمية. وأوصى المؤلف نفسه بضرورة تجنب شراء الفاكهة من دمشق؛ لأنها لا طعم لها «وأهلها غاغة». وعلى الأقل لم تكن المدينة سيئة مثل القدس التي شُبِّهت بـ «طِشتِ ذهب مليء عقارب»، حيث كانت الحمامات قذرة، والمؤن باهظة الثمن، والمعيشة مُكلفة، بما يكفي لإثناء المرء عن التفكير حتى في مجرد زيارة قصيرة لها(٢). وعاد التجار والمسافرون إلى أوطانهم حاملين معهم حكايات عن الأماكن التي زاروها، دارت حول ما يمكن أن تقدمه الأسواق هناك لزوارها، وما هي سمات الشعوب خارج ديار الإسلام. وأشار أحد الكتّاب -الذين جمعوا التقارير من الخارج- إلى لباس أهل الصين من جميع الأعمار، بقوله: «ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير في الشتاء والصيف». بيد أن هذا التأنق لم يمتد إلى جميع عادات الصينيين، فقد استطرد قائلًا: «وليس لهم نظافة، ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا، بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية»(٣).

ومع ذلك فقد استمتع أهل الصين بالموسيقى على الأقل، وذلك على النقيض من أهل الهند، الذين كانوا يعدون مثل هذه العروض «عارًا». وتجنب الحكام في جميع أنحاء الهند الخمر أيضًا. ولم يفعلوا ذلك بوازع من دين، بل بسبب رأيهم الحصيف الذي يقضي بأن المرء إذا سَكِر «كيف يدبر أمر مُلكه؟»، ثم خلص المؤلف إلى أنه على الرغم من أن الهند هي «أرض الطب والفلاسفة»، فإن «بلاد الصين أصح، وأقل أمراضًا، وأطيب هواءً» ولا يكاد يُرى بها «أعمى، ولا أعور، ولا من به عاهة»، بينما «هذا كثيرٌ ببلاد الهند»(٤).

وتدفقت السلع الفاخرة من الخارج. فاستُورد الخزف، والأواني الحجرية من الصين بكميات كبيرة، وشكل الخزف الصيني اتجاهات تصميمات الفخار المحلي وتقنيات صناعته، حيث أصبح

---

(1) J. Bloom, *Paper before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World* (New Haven, 2001).

قلت: ترجمتُ هذا الكتاب المهم، بعنوان: **قصة الورق؛ تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة**، (الرياض: در أدب، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م). (المترجم)

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

Muqaddasī, *Best Divisions for Knowledge*, pp. 6, 133–4, 141.

(3) *Two Arabic travel books: Accounts of China and India*, ed. and trans. T. Mackintosh-Smith and J. Montgomery (New York, 2014), p. 37.

(4) Ibid., pp. 59, 63.

الترجيج الأبيض المميز لأوعية تانغ شائعًا للغاية. وساعد التقدم في تقنيات صناعة الأفران الإنتاجَ على مواكبة الطلب، تمامًا كما فعلت التطورات في الحجم. وتُشير التقديرات إلى أن أكبر الأفران الصينية أضحت قادرة على إخراج عدد يتراوح بين اثني عشر ألف إلى خمسة عشر ألف قطعة في المرة الواحدة. ويمكن إثبات المستويات المتزايدة للتبادل عبر ما يسميه أحد العلماء البارزين «أكبر نظام للتجارة البحرية في العالم» من خلال حقيقة أن حطام إحدى السفن الغارقة قبالة سواحل إندونيسيا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كان يحمل نحو سبعة آلاف قطعة من الخزف، إضافة إلى أدوات الزينة، والأواني الفضية، وسبائك الذهب والرصاص[1]. لقد كان ذلك الحطام مجرد مثال واحدٍ فحسب على وفرة الخزف، والحرير، والأخشاب الصلبة الاستوائية، والحيوانات الغريبة التي أماطت المصادر اللثام عن أنها كانت تورد إلى العالم العباسي في هذه الحقبة[2]. وكانت كمية البضائع المتدفقة إلى موانئ الخليج العربي من الكبر؛ حتى إنه جرى استئجار الغواصين المحترفين حول الموانئ لانتشال طرح البحر، أو ما تخلصت منه السُّفن عمدًا، أو ما سقط منها عفوًا[3].

كانت هناك ثروات ضخمة يمكن جنيها من توريد السلع التي اشتد الطلب عليها؛ فكان ميناء سيراف -الذي كان له نصيب الأسد من حركة المرور البحري من الشرق- يشتمل على مساكن فخمة ذات أسعار باهظة لتتناسب مع مستوى الدخول فيها. وكتب أحد المؤلفين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قائلًا: «ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن»[4]. وتشهد مجموعة من المصادر على وجود تجارة واسعة النطاق داخل الخليج وخارجه، وكذلك على طول الطرق البرية التي تقاطعت مع آسيا الوسطى[5]. وأدى الطلب المتزايد إلى إلهام الإنتاج المحلي للخزف والفخار وتعزيزه، حيث كان من المفترض أن عملاءه الذين أقبلوا على شرائه كانوا أولئك الذين لم يكن يسعهم شراء أفضل القطع، وأغلاها بطبيعة الحال؛ أي تلك التي كانت تُجلب من الصين؛ لذا لا نستغربن تقليد

(1) J. Stargardt, 'Indian Ocean Trade in the Ninth and Tenth Centuries: Demand, Distance, and Profit', *South Asian Studies* 30.1 (2014), 35–55.

(2) A. Northedge, 'Thoughts on the Introduction of Polychrome Glazed Pottery in the Middle East', in E. Villeneuve and P. Watson (eds), *La Céramique byzantine et proto-islamique en Syrie-Jordanie (IVe–VIIIe siècles apr. J.-C.)* (Beirut, 2001), pp. 207–14; R. Mason, *Shine Like the Sun: Lustre-Painted and Associated Pottery from the Medieval Middle East* (Toronto, 2004); M. Milwright, *An Introduction to Islamic Archaeology* (Edinburgh, 2010), pp. 48–9.

(3) H. Khalileh, *Admiralty and Maritime Laws in the Mediterranean Sea (ca. 800–1050): The Kitāb Akriyat al Sufun vis-à-vis the Nomos Rhodion Nautikos* (Leiden, 2006), pp. 212–14.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

Muqaddasī, *Best Divisions for Knowledge*, p. 347.

(5) Daryaee, 'Persian Gulf Trade', 1–16; Banaji, 'Islam, the Mediterranean and the Rise of Capitalism', 61–2.

الخزافين في بلاد الرافدين والخليج العربي للتزجيج الأبيض الذي اتسمت به الواردات الصينية، فقاموا بتجربة القلويات والقصدير، وفي الأخير حجر المرو (الكوارتز)؛ لتطوير مظهر الخزف الشفاف (والأعلى جودة) المصنوع في الصين. وجرى تطوير تقنيات باستخدام الكوبالت في البصرة وسامراء، لصنع «أواني زرقاء وبيضاء» مميزة، والتي لم تعد -بعد قرون- شائعة في الشرق الأقصى فحسب، بل إنها ستغدو السمة المميزة للفخار الصيني الحديث المبكر[١].

ومع ذلك، لم يعد هناك مجال للشك في أماكن وجود الأسواق الكبرى، في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين. فقد أبدى رحالة صيني زار العالم الإسلامي في هذه الفترة دهشته من ثراء ذلك العالم قائلًا: «كل شيء تخرجه الأرض تجده هناك؛ حيث تنقل العربات عددًا لا يحصى من البضائع إلى الأسواق؛ وحيث يتوفر كل شيء، وبثمن بخس. وعُرِض الديباج، والحرير المطرز، واللؤلؤ، والأحجار الكريمة الأخرى في جميع الأسواق والمحلات التجارية في الشوارع»[٢].

وظهرت أفكار رائقة حول الصيد والتسلية المناسبة إلى جانب الأذواق المتطورة على نحو متزايد. وعرضت متون مثل كتاب التاج، الذي كُتِب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، للآداب الصحيحة للتعامل بين الحاكم وبطانته، كما أوصى الكاتب بأن يمارس النبلاء الصيد، والرماية، ولعب الشطرنج «وما أشبه ذلك»[٣]. واستعيرت كل هذه الأنشطة مباشرة من المُثل الساسانية، بيد أننا قد نلحظ مدى تأثيرها في الصيحات المعاصرة في التصميم الداخلي للقصور، حيث تمتعت مشاهد الصيد -خاصةً- بشعبية كبيرة في القصور التي امتلكها علية القوم[٤].

وبدأ الرعاة الأثرياء أيضًا في تمويل إحدى أكثر فترات ازدهار العلوم إدهاشًا في التاريخ. فانجذبت شخصيات رائعة -عدد كبير منهم لم يكونوا مسلمين- إلى البلاط في بغداد، وإلى مراكز التميز العلمي في جميع أنحاء آسيا الوسطى مثل: بخارى، ومرو، وجُنْدَيْسابور، وغزنة، وكذلك في مناطق نائية مثل: الأندلس ومصر، للعكوف على مجموعة من العلوم التي اشتملت على الرياضيات، والفلسفة، والفيزياء، والجغرافيا.

---

(1) E. Grube, *Cobalt and Lustre: The First Centuries of Islamic Pottery* (London, 1994); O. Watson, *Ceramics from Islamic Lands* (London, 2004).

(2) Du Huan, Jinxing Ji,

نقلًا عن:

X. Liu, *The Silk Road in World History* (Oxford, 2010), p. 101.

(٣) كتاب التاج (في أخلاق الملوك)، الترجمة الفرنسية في:

Le Livre de la couronne: ouvrage attribute à *Ǧahiz*, tr. C. Pellat (Paris, 1954), p. 101.

(٤) عن الاقتراض من المثل الساسانية، انظر:

Walker, *Qardagh*, p. 139.

وعن مشاهد الصيد في مجموعة من القصور تقع قرب طهران، انظر:

D. Thompson, *Stucco from Chal-Tarkhan-Eshqabad near Rayy* (Warminster, 1976), pp. 9–24.

وجُمعت أعداد كبيرة من المتون، وتُرجمت من اليونانية، والفارسية، والسريانية إلى العربية، بدءًا من الرسائل في عِلل الخيل، والبيطرة، وانتهاءً بالمصنفات في الفلسفة اليونانية القديمة[١]. والتهمها العلماء الذين استخدموها أساسًا للبحث في المستقبل. وأصبح التعليم والتعلُّم نموذجًا ثقافيًا. واكتسبت أُسرٌ مثل البرامكة -وكانت في الأصل أسرة بوذية تعود أصولها إلى مدينة بلخ- نفوذًا وسلطة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في بغداد، ووقفت خلف ترجمة مجموعة واسعة من المتون من اللغة السنسكريتية إلى العربية؛ حتى إنهم أنشؤوا مصنعًا للورق ليعينهم على انتشار هذه المصنفات على نطاق أوسع[٢].

كما كان هناك بنو بُخْتِيشوع -وهم نصارى من جُنْدَيسابور في بلاد فارس- خرج منهم أجيالٌ من العلماء الذين صنَّفوا الرسائل في الطب، بل وفي العشق أيضًا، وفي الوقت نفسه مارسوا فيه المهنة بوصفهم أطباء، بل إن بعضهم خدم الخلفاء بصناعته[٣]. وشكلت متون طبية صُنفت في هذه الحقبة حجر الأساس للطب الإسلامي لعدة قرون. «كيف يكون نبض امرئ يعاني القلق؟» كان ذلك السؤال هو السؤال السادس عشر في متن حمل سؤالًا وجوابًا كُتِب في مصر في القرون الوسطى؛ وحيث يجد المرء الإجابة «ضعيف، وواهن، ومضطرب»، كما أشار المؤلف، في موسوعة كُتبت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٤].

وتسرد كتب الأدوية المفردة -وهي متون في تركيب الأدوية- التجارب التي أُجريت على مواد مثل: عشبة الليمون، وبذور الآس، والكمون، وخل النبيذ، وبذور الكرفس، والسنبل الهندي[٥]. وعمل

(1) D. Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (2nd–4th/8th–10th Centuries* (London, 1998); R. Hoyland, 'Theonmestus of Magnesia, Hunayn ibn Ishaq and the Beginnings of Islamic Veterinary Science', in R. Hoyland and P. Kennedy (eds), *Islamic Reflections, Arabic Musings* (Oxford, 2004), pp. 150–69; A. McCabe, *A Byzantine Encyclopedia of Horse Medicine* (Oxford, 2007), pp. 182–4.

(2) V. van Bladel, 'The Bactrian Background of the Barmakids', in A. Akasoy, C. Burnett and R. Yoeli-Tlalim, *Islam and Tibet: Interactions along the Musk Route* (Farnham, 2011), pp. 82–3; Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture*, p. 13.

(٣) انظر:

P. Pormann and E. Savage-Smith, *Medieval Islamic Medicine* (Edinburgh, 2007); Y. Tabbaa, 'The Functional Aspects of Medieval Islamic Hospitals', in M. Boner, M. Ener and A. Singer (eds), *Poverty and Charity in Middle Eastern Contexts* (Albany, NY, 2003), pp. 97–8.

(4) Pormann and Savage-Smith, *Medieval Islamic Medicine*, p. 55.

(5) E. Lev and L. Chipman, 'A Fragment of a Judaeo-Arabic Manuscript of Sābūr b. Sahl's Al-Aqrābādhīn al-Ṣaghīr Found in the Taylor-Schechter Cairo Genizah Collection', *Medieval Encounters* 13 (2007), 347–62.

آخرون في مجال البصريات، مثل ابن الهيثم، وهو عالم عاش بمصر، وكتب رسالة رائدة توصلت إلى استنتاجات لم تتوقف عند الكيفية التي ترتبط بها الرؤية بالدماغ فحسب، بل تناولت الاختلافات بين الإدراك والمعرفة أيضًا[1].

كما كان هناك أبو الريحان البيروني الذي أثبت أن الأرض تدور حول الشمس على محور. كما كان هناك الموسيقيون من أمثال: أبي علي الحسين بن سينا، المعروف في الغرب باسم (Avicenna)، الذي كتب في المنطق، والعقيدة، والرياضيات، والطب، والفلسفة؛ حيث تعكس كتاباته في هذه المجالات ذكاءً مذهلًا، ووضوحًا، وصدقًا. كتب ابن سينا قائلًا: «قرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه؛ حتى أعدت قراءته أربعين مرة، وصار لي محفوظا». ثم قيَّد على حاشية الكتاب قيدًا ليريح طلاب هذا النص المعقد أنفسَهم من محاولة فهمه، قائلًا: «لا سَبيل إلى فهمه». ثم اتفق أنه زار دكان ورَّاق في سوق الوراقين ذات يوم، فابتاع نسخة من شرح أبي نصر الفارابي -وهو مفكر عظيم آخر من هذا العصر- على كتاب أرسطو. ثم اتضح له ما غمض عليه من النص، وأضحى لكل شيء معنى بغتةً؛ فكتب ابن سينا قائلًا: «وفرحت بذلك وتصدَّقت بشيء على الفقراء شكرًا لله تعالى»[2].

ثم كانت هناك مواد جُلبت من الهند، بما في ذلك متون في العلوم، والرياضيات، والفلك وضعت باللغة السنسكريتية، وأمعن النظر فيها رجال مرموقون من أمثال: محمد بن موسى الخوارزمي، الذي أشار بامتنان إلى بساطة النظام العددي الذي أدخل مفهوم الصفر إلى الرياضيات. لقد وفر ذلك المفهوم قاعدة لطفرات هائلة في الجبر، والرياضيات التطبيقية، وعلم حساب المثلثات، وعلم الفلك. وكان الاهتمام بهذا العلم الأخير مدفوعًا بالحاجة العملية لمعرفة الاتجاه الذي تقع فيه مكة -جزئيًا- بحيث يمكن إقامة الصلاة على نحو صحيح.

ولم يفتخر العلماء بجمع المواد من جميع أنحاء العالم ودراستها فحسب، بل بترجمتها أيضًا. وكتب أحد المؤلفين قائلًا: «وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانيَّة، وحوِّلت آداب الفُرس. فبعضها ازداد حسنًا». ورأى أنه مما يؤسف له أن اللغة العربية بلغت من الجمال حدًّا ؛حتى أضحى يكاد يكون من المستحيل أن تُترجم إلى لغة أخرى[3].

كان هذا العصر عصرًا ذهبيًّا، دفع فيه رجال مرموقون مثل الكندي حدود الفلسفة والعلم. كما

---

(١) ابن الهيثم، المناظر، الترجمة الإنجليزية:

The Optics of Ibn al-Haytham, Books I–III: On Direct Vision, tr. A. Sabra, 2 vols (London, 1989).

(2) W. Gohlman, *The Life of Ibn Sina: A Critical Edition and Annotated Translation* (New York, 1974), p. 35.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان، نقلاً عن:

Pormann and Savage-Smith, *Medieval Islamic Medicine*, p. 23.

تصدرت نساء مرموقات الصفوف أيضًا، من أمثال شاعرة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي التي اشتهرت بـ«رابعة بلخي»، فيما يُعرف الآن بأفغانستان؛ حيث أُطلق اسمها على مستشفى للولادة في كابول؛ كما كانت هناك مهستي الكنجوية (Mahsati Ganjavi) التي ألفت المصنفات بالفارسية ببلاغة وجزالة، وبلغة مفعمة بالحيوية[1].

* * *

لما كان العالم الإسلامي ينعم بالابتكار، والتقدم، والأفكار الجديدة، كان أكثر أجزاء أوروبا النصرانية ذابلٌ، ومُنزوٍ في غيابات الظلام، بل كان مصابًا بالشلل بسبب نقص الموارد، وقلة الفضول. وكان القديس أغسطين (St Augustine) من أشد المعادين لمفهومي البحث والتحقيق. وكتب قائلًا عن المعرفة بازدراء: «على الرغم من أن الناس ينشدون المعرفة من أجل المعرفة، فإن هذه المعرفة لا قيمة لها عندهم». ولم يكن الفضول -على حد وصفه- يعدو كونه مرضًا[2].

وحارت عقول المعلقين المسلمين -الذين كانوا يجلون بطليموس (Ptolemy)، وإقليدس (Euclid)، وهوميروس (Homer)، وأرسطوطاليس (Aristotle)- في تفسير ازدراء أخلافهم للعلم والعلوم. ولم ينتب أكثرهم أدنى شك في السبب الكامن وراء ذلك؛ فقد كتب المؤرخ المسعودي، قائلًا: إن اليونان والرومان القدماء أذنوا للعلوم بالازدهار، ثم اعتنقوا النصرانية. ولما فعلوا ذلك، «عفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، ومحوا سُبلها»[3]. لقد هزم الإيمان العلم؛ ويكاد ذلك العالم أن يكون نقيض العالم كما نراه اليوم؛ حيث لم يكن الأصوليون فيه مسلمين، بل كانوا نصارى. كان أولئك الذين كانت عقولهم منفتحة، وفضولية، ومتسامحة يقيمون في الشرق، وليس في أوروبا بكل تأكيد. فإذا تعلق الأمر بالكتابة عن غير ديار الإسلام، علق أحد المؤلفين قائلًا: «لم نُدخِلها [في كتابنا] ولم نر فائدة في ذكرها». لقد كان أهل تلك البقاع منعزلين فكريًا[4].

كما انعكست صورة التنوير والتطور الثقافي في طريقة التعامل مع ديانات الأقليات وثقافاتهم. ففي الأندلس، دُمِجت سمات عمارة القوط الغربيين في أسلوب معماري مألوف للسكان الخاضعين، على أنها استمرار للماضي القريب. ومن ثم فلم تكن في نظرهم عدوانية، كما لم تكن ظافرة[5]. ويسعنا أيضًا

---

(1) Mahsatī, *Mahsati Ganjavi: la luna e le perle*, tr. R. Bargigli (Milan, 1999);

وانظر أيضًا:

F. Bagherzadeh, 'Mahsati Ganjavi et les potiers de Rey', in *Varia Turcica* 19 (1992), 161–76.

(2) Augustine, *The Confessions of St Augustine*, tr. F. Sheed (New York, 1942), p. 247.

(٣) المسعودي، [مروج الذهب]، نقلاً عن:

Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture*, p. 89.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، في:

Best Divisions for Knowledge, p. 8.

(5) M. Barrucand and A. Bednorz, *Moorish Architecture in Andalusia* (Cologne, 1999), p. 40.

قراءة الرسـائل التي بعث بها تيموثي (Timothy) -وكان رئيس كنيسـة المشرق، ومقره بغداد في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وأوائل القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي- التي تصف عالمًا تمتع فيه كبار رجال الدين النصارى بعلاقات شخصية جيدة وإيجابية مع الخليفة؛ حيث استطاعت النصرانية الحفاظ على قاعدة يمكن من خلالها إرسـال البعثات التبشـيرية إلى الهند، والصين، والتبت وكذلـك إلـى السـهوب، واتضح لنـا أنها حققت نجاحًـا كبيرًا ثمـة[١]. لقد كان نمطًا انعكس في شـمال إفريقيا، حيث نجت المجتمعات النصرانية واليهودية، بل لعلها ازدهرت بعد فترة طويلة من الفتوحات الإسلامية[٢].

قد يسـهُل أيضًا نقد الصورة التي رسـمناها آنفًا؛ وذاك لسـبب واحد، هو أنه على الرغم من الوحدة الواضحة التي منحتها عباءة الدين، فقد عانى العالم الإسـلامي انقسـامًا مريرًا. وقد تطورت ثلاثة مراكز سياسية رئيسة في مستهل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أولها: في قرطبة من أرض الأندلس. وثانيها في مصر وأعالي النيل. وثالثها: في بلاد الرافدين و(معظم أرجاء) شبه الجزيرة العربية. وقاتلت هـذه القـوى بعضهـا بعضًا على العقيـدة، وكذلك على النفوذ والسـلطة. وظهر الانقسـام الخطير داخل الإسلام في غضون جيل واحد من وفاة النبي [ﷺ]، فقد تنافس الخصوم على تفسير الخلافة الصحيحة للنبي [ﷺ]. وسرعان ما توحد أولئك المتخاصمون تحت لواء حجتين متنافستين، دعمتهما التفسيرات السُّنية والشـيعية، حيث جادل الشـيعة بحماسـة أن ذرية علي -وهو ابن عم النبي [ﷺ] وصهره- هم الأولى بالخلافة، بينما دافع أهل السُّنة عن فهم أوسع آفاقًا.

وعلى الرغم من حقيقة وجود وحدة دينية نظرية شـاملة ربطت بين هندوكوش وجبال البرانس من خـلال بـلاد الرافدين وشـمال إفريقيا، فإن الوصول إلى إجماع في الرأي تعد مسـألة أخرى. وعلى هذا النحو، لم تكن المواقف المتسامحة تجاه المعتقدات موحدة ولا متسقة. وعلى الرغم من وجود فترات تمتعـت فيهـا الديانـات الأخرى بالقبول، فـإن هناك أيضًا مراحـل من الاضطهاد والدعوة إلى الإسـلام بأسـلوب لم يخل من خشـونة. وبينما شـهد القرن الأول الهجري بعد وفاة النبي [ﷺ] جهودًا محدودة لإدخـال أهالي البلاد في الإسـلام، سـرعان ما بذل المسـلمون جهـودًا حثيثة ومتوالية لتشـجيع أولئك الذيـن يعيشـون تحـت سـلطانهم على اعتناق الإسـلام. ولم يقتصر هذا التشـجيع علـى التعاليم الدينية والدعوة فحسب؛ فعلى سبيل المثال أعلن والي بخارى -في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي- أن الأمير سـيهب كل مـن يحضر صلاة الجمعة هبة قدرها درهمين، وهـو حافز جذب الفقراء وأقنعهم

---

(١) انظر على سبيل المثال:

M. Dickens, 'Patriarch Timothy II and the Metropolitan of the Turks', *Journal of the Royal Asiatic Society* 20.2 (2010), 117–39.

(2) Conant, *Staying Roman*, pp. 362–70.

بقبـول الديـن الجديد، وإن جرى ذلك بشـروط أساسـية؛ إذ لم يتمكن العوام من قـراءة القرآن بالعربية، وكان يتعين إخبارهم بما يفعلون أثناء الصلاة[١].

وكان لسلسـلة الحـوادث التي بدأت مع التنافس الشـديد بيـن الإمبراطوريـة الرومانية وبلاد فارس عواقـب اسـتثنائية. فمع قيـام القوتين العُظميين في العصور القديمـة المتأخرة باسـتعراض عضلاتهما والاسـتعداد للمواجهة النهائية، لم يكن أحد يتوقع أن ينهض قوم من أقصى شـبه الجزيرة العربية ليحل محـل كليهمـا. لقـد كان أولئك الذيـن اتبعوا هدي النبـي [ﷺ] هم الذين ورثوا الأرض حقًّا، وأسسـوا إمبراطورية لعلها الأكبر من نوعها في العالم. وكان من شأنها إدخال تقنيات الري والمحاصيل الجديدة من نهري دجلة والفرات إلى شبه جزيرة إيبريا، فخلقت ثورة زراعية امتدت آثارها لآلاف الأميال[٢].

وخلقـت الفتوحـات الإسـلامية نظامًـا عالميًا جديـدًا، وعملاقًا اقتصاديًـا، مدعومًا بالثقـة بالنفس، واتسـاع الأفق، والحماسـة المتقدة بالعاطفة تجاه التقدم. لقد كان ذلك العالـم ثريًّا شديد الثراء، في ظل ضعف شأن المنافسين الطبيعيين على الصعيد السياسي، أو حتى الديني. لقد كان مكانًا ساد فيه النظام؛ حيث كان يسع التجار أن يصبحوا أثرياء؛ وحيث تمتع العلماء بالتقدير؛ وحيث كان يسع الجميع عرض آرائهم على اختلافها ومناقشتها. لقد أثمرت البداية غير الواعدة في غار بالقرب من مكة، مدينة فاضلة عالمية من نوع ما.

قد تجدر الإشـارة إلى أن الرجال الطموحين الذين وُلدوا على أطراف العالـم الإسـلامي، أو بمنأى عنه، انجذبوا إليه انجذاب النحل إلى العسـل؛ ذاك أن الأفق في مسـتنقعات إيطاليا، أو وسط أوروبا، أو اسكندنافيا لم تبد واعدة للغاية للشباب الذين كانوا يتطلعون إلى ذيوع صيت، أو تكوين ثروة. في القرن التاسـع عشـر، بحث أمثال هؤلاء عن الشـهرة والثروة في الغرب والولايات المتحدة. ولكن قبل ألف عام، يمَّم أسلافهم أنظارهم صوب الشرق؛ ذلكم أنه وُجدت هناك سلعة توفرت بكميات كبيرة؛ وكانت هناك سوق متعطشة لهذه السلعة في بلاد أولئك الذين رغبوا في تكوين ثروة، بجد وسرعة.

---

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، الترجمة الإنجليزية:

Narshakhī, *The History of Bukhara: Translated from a Persian Abridgement of the Arabic Original by Narshakhī*, tr. N Frye (Cambridge, MA, 1954), pp. 48–9.

قلتُ: قال النرشـخي: «بنى قتيبة [بن مسـلم] المسـجد الجامع... فكان يأمر بمُنادٍ كل يوم جمعة، يقول بأن كل من يأتـي لصـلاة الجمعـة أعطيه درهمين، وكان أهـل بخارى في أول الإسـلام يقرأون القرآن بالفارسـية، ولـم يكونوا يسـتطيعون تعلـم العربيـة، وحينمـا كان يحين وقت الركوع كان يقـف وراءهم رجل يصيح فيهـم «بكنيتا نيكنت»، وحينمـا كانـوا يريـدون السـجود كان يصيح فيهـم «نكونيا نكوني». انظر: النرشـخي، تاريخ بخـارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي؛ نصر الله مبشر الطرازي، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ٧٨. (المترجم)

(2) A. Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World* (Cambridge, 1983); T. Glick, 'Hydraulic Technology in al-Andalus', in M. Morony (ed.), *Production and the Exploitation of Resources* (Aldershot, 2002), pp. 327–39.

-٦-

طريق الفراء

كانت بغداد -في ذروة مجدها- مدينة تسَر الناظرين؛ فكانت تغص بالحدائق، والأسواق، والمساجد، والحمامات، والمدارس، والمستشفيات، والمؤسسات الوقفية. كما كانت تعجُّ بالقصور «المذَّهبة التي بولغ في زخرفتها ببذخٍ؛ حيث تدلَّت منها المفروشات الجميلة، والستائر المصنوعة من الدمقس والحرير». وكانت أواوين تلك القصور «مؤثثة بذوق رفيع، فكان فيها الأرائك الفاخرة، والمناضد باهظة الثمن، والمزهريات الصينية الفريدة، وما لا يُحصى من الحلي المصنوعة من الذهب والفضة». وأُنشِئ على ضفاف دجلة القصور، والأكشاك، والحدائق المخصصة لعلية القوم. «وكان المشهد على النهر يفيض بالحيوية؛ حيث مخرت عبابه آلاف الزوارق، وقد تزينت بالرايات الصغيرة، وتهادت على الماء تهادي أشعة الشمس، وحملت سكان المدينة -الساعين إلى المباهج- من شطر من بغداد إلى شطرها الآخر»[1].

وكانت حيوية الأسواق، وكذلك القدرة الشرائية للبلاط والأثرياء والعوام أشبه بالمغناطيس. وامتد تأثير الطفرة إلى ما وراء حدود العالم الإسلامي؛ حيث خلقت الفتوحات الإسلامية طرقًا جديدة امتدت في كل حدب وصوب، وسارت على دروبها السلع، والأفكار، والشعوب معًا. بيد أنه بدا في أعين بعض الناس أن امتداد هذه الشبكات من الطرق باعث على للقلق. فقد أرسل الخليفة الواثق في العقد الخامس من القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، بعثةً للتحقيق في رؤية كان قد أُرِيها في منامه؛ إذ رأى قومًا من أكلة لحوم البشر وقد نقبوا سورًا أسطوريًا، كان الله قد أمر ببنائه[2] لحجز القبائل البربرية الشرسة خلفه. واستغرقت البعثة -التي قادها مستشار ثقة يدعى سلَّام- ما يقرب من عام ونصف العام، لتقدِّم تقريرًا عن حالة هذا السور. وشرح سلَّام -في تقريره- كيف سارت عملية ترميم السور والتحصينات. وكانت حراسة ذلك السور عملًا جادًّا، حيث كُلِّفت إحدى الأسر بمسؤولية التفتيش على الأسوار دوريًا. وكان يتوجب على أفرادها ضرب الناقوس على السُّور ثلاثًا، ولمرتين في الأسبوع، للتأكيد على أن السور آمن. وفي كل مرة، كان المفتشون ينصتون إلى أي تغير عساه يكون قد

(1) W. Davis, *Readings in Ancient History: Illustrative Extracts from the Sources*, 2 vols (Boston, 1912–13), 2, pp. 365-7.

(٢) الإيماءة إلى السد الذي بناه ذو القرنين ليحول بين يأجوج ومأجوج وبين الغارة على غيرهم من القبائل المسالمة المتاخمة لهم، كما ورد في سورة الكهف، الآيات ٨٢-٩٨. (المترجم)

حصـل فـي سـلوك هـذه القبائل: «فيُسمَع لهم جلبة مثل كـور الزنابير ثـم يخمدون»، وفقًـا لما جاء في إحدى الروايات. وكان ذلك يهدف إلى أن يسمع أولئك البرابرة -الذين قد يتسببون في قيام الساعة- تلك الجلبة فيعرفون أن الجدار محميٌّ لم يزل، وأنه لن يُسمح لهم باجتيازه قط(١).

إن روايـة التحقـق مـن حـال السـور واضحـة للغاية، كمـا أنهـا مقنعة بالقدر نفسـه؛ حتـى إن بعض المؤرخين رأوا أن تلك الرواية تُشير إلى بعثة حقيقية، وإلى وجود سور حقيقي، وربما كانت بوابة جادة (Jade) هـي المعنيـة فـي هـذه الرواية، وكان اجتياز تلـك البوابة أمارة دالة على ولـوج أرض الصين من غربي دونهوانغ(٢). والحق أن الرعب من تغلب القبائل -التي عاثت في الأرض فسادًا- على محتجزيهم خلف سلاسـل جبال الشـرق كان موضوعًا ربط العالم القديم بالإنجيل، والتوراة، فضلًا عن القرآن(٣). وبصرف النظر عما إذا كانت رحلة سلَّام حدثًا تاريخيًّا بالفعل، أم رواية موضوعة، فقد كان الرعب مما يكمن وراء الحدود حقيقيًّا تمامًا؛ ذاك أن العالم انقسـم إلى قسـمين: عالـم فارسـي، حيث يسـود النظام والحضارة؛ وعالم طوراني تسوده الفوضى والأخطار. وكما توضح عدد كبير من الروايات التي رواها الرحالة والجغرافيون الذين زاروا أراضي السـهوب في الشـمال، فإن أولئك الذين عاشوا خارج حدود العالم الإسلامي كانوا أغرابًا، وقد بدوا في أعين مراقبيهم شعوبًا غريبة الأطوار من بعض الجوانب، إلا أنها كانت رائعة من جوانب أخرى، بيد أنها كانت مرعبة غالبًا.

وكان ابـن فضـلان مـن أشـهر كتَّاب الرسـائل الذين أُرسـلوا إلى السـهوب فـي أوائل القـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي استجابةً لطلـب زعيـم بلغار نهـر الڤولغا، الـذي كان قد أرسـل -بدوره- ملتمسًـا من الخليفة إرسـال بعض العلماء لشـرح تعاليم الإسـلام لهم. وكما توضـح رواية ابن فضلان، فـإن قيـادة هـذه القبيلة -التي امتدت مسـاكنها على نهر الڤولغا شـمال بحر قزوين؛ حيـث يتقاطع النهر العظيـم مـع نهـر كاما (Kama)- قـد اعتنقت الإسـلام بالفعل، بيـد أن معرفتهم بمبادئ الإسـلام كانت محـدودة. وعلـى الرغـم من أن زعيم بلغـار الڤولغا التمس المسـاعدة في بناء جامـع بمملكته، ومعرفة المزيد عن القرآن، فسـرعان ما تبين أن غرضه الحقيقي كان حشـد الدعم لمواجهة المنافسـة التي كانت القبائل الأخرى تفرضها على السهوب.

---

(١) ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'Book of Roads and Kingdoms', in *Ibn Fadlan and the Land of Darkness*, pp. 99–104. .

(2) E. van Donzel and A. Schmidt, *Gog and Magog in Early Christian and Islamic Sources: Sallam's Quest for Alexander's Wall* (Leiden, 2010);

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

F. Sezgin, *Anthropogeographie* (Frankfurt, 2010), pp. 95–7; I. Krachovskii, *Arabskaya geographitcheskaya literatura* (Moscow, 2004), esp. pp. 138–41.

(3) A. Gow, 'Gog and Magog on *Mappaemundi* and Early Printed World Maps: Orientalizing Ethnography in the Apocalyptic Tradition', *Journal of Early Modern History* 2.1 (1998), 61–2.

وكان ابن فضلان بدوره مرتبكًا، ومذهولًا، ومذعورًا في أثناء رحلته شمالًا. فقد كانت حياة البدو الرحَّل، تتناقض كل المناقضة مع الثقافة الحضرية الراقية، والمستقرة، والمتطورة في بغداد، فضلًا عن غيرها من المدن. وكانت قبيلة الغُز من أوائل الشعوب الذين التقاهم ابن فضلان في أثناء رحلته؛ فكتب عنهم قائلًا: «وإذا هم بادية لهم بيوت شَعْر، يحلون ويرتحلون». وإذا هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة، لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئًا. ثم استطرد قائلًا: «ولا يستنجون من غائط، ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة». كذلك لا تستر المرأة شيئًا من بدنها عن أحد من الناس؛ فذات أُمسية جلس ابن فضلان إلى رجل وزوجته. «فبَيْنا هي تحدثنا إذ كشَفت فرجها وحكَّته، ونحن ننظر إليها»؛ فسترنا وجوهنا وقلنا: «أستغفر الله». فما كان من زوجها إلا أن ضحك من احتشام الضيوف[١].

ولم تكن ممارسات غيرهم من ساكنة السهوب، وكذلك معتقداتهم أقل إثارة للدهشة. فقد كانت هناك قبائل تعبد الحيَّات، وغيرهم يعبد السمك، وبعضهم يصلي للطيور بعد أن اقتنعوا بأنهم إنما انتصروا في الحرب بفضل تدخل سرب من طيور الكركي. ثم كان هناك أولئك الذين لفُّوا حول أعناقهم قضيبًا من الخشب، كانوا يقبلونه من باب الفأل الحسن قبل السفر والترحال. لقد كان الأخيرون أبناء قبيلة الباشغرد (Bashgird)، وهم شعب أسطوري وحشي، وجرت عادة أبناء تلك القبيلة بحمل رؤوس أعدائهم بوصفها غنائم لهم. وكانت عاداتهم مروِّعة حقًا، فقد كانوا يأكلون القمل والبراغيث؛ فقد رأى ابن فضلان -بأم عينيه- رجلًا وجد قملة في ثيابه، فسحقها بظفره، ثم أكلها، واستطرد ابن فضلان قائلًا: «ولما لاحظني قال: جيد»[٢].

وعلى الرغم من صعوبة فهم طبيعة الحياة في السهوب على الزوار من أمثال ابن فضلان، فقد كان هناك تفاعل كبير بين البدو والعالم المستقر في الجنوب. وكان انتشار الإسلام بين القبائل إحدى الأمارات الدالة على وجود ذلك التفاعل، وإن لم يكن ذلك عن قناعة وإيمان إلى حد ما. فعلى سبيل المثال، كان الغز يزعمون أنهم مسلمون، وكانوا يتلفظون بعبارات إسلامية «تقرُّبًا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين»، على حد قول ابن فضلان. إلا أنه -أعني ابن فضلان- أشار إلى أن إسلامهم كان رقيقًا؛ ذاك أنه «إذا ظُلم أحد منهم، أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال: بير تنكري». بعبارة أخرى: لم يكن يدعو الله، بل كان يدعو تنكري، الإله السماوي الأعلى للبدو الرحل[٣].

والحق أن المعتقدات الدينية في السهوب كانت من التعقيد بمكان، فنادرًا ما كانت منسجمة أو

---

(١) ابن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, *Land of Darkness*, p. 12.

(2) Ibid., pp. 23–4.

(3) Ibid., p. 12;

عن «تنكري»، انظر:

U. Harva, *Die Religiösen Vorstellungen der altaischen Völker* (Helsinki, 1938), pp. 140–53.

موحدة، بل اختلطت بتأثيرات من النصرانية، والإسلام، واليهودية، والزرادشتية، والوثنية وتزاحمت معًا فخلقت رؤى عالمية مركبة، يصعب فصل مكونات بعضها عن بعضها الآخر(١). وانتشر جزء من هذه الرؤى الروحية المتغيرة والمتكيِّفة على أيدي نوع جديد من رجال الدين المسلمين، لقد كان هؤلاء هم المتصوفة الذين كانوا يدعون غيرهم إلى الدخول في الإسلام. وجاب أولئك المتصوفة السهوب عراةً أحيانًا إلا من مجموعة من قرون الحيوانات. وأثارت رعايتهم للحيوانات المريضة إعجاب النظَّارة من ساكنة السهوب، ولا سيما سلوكهم الغريب، وكذلك فعَل الوجد الناتج من الانقطاع للعبادة، فضلًا عن سيماء الورع على وجوههم. ويبدو أنهم لعبوا دورًا حاسمًا في اعتناق عدد كبير من أهل السهوب للإسلام، وعملوا على دمج المعتقدات الشامانية والوثنية -التي كانت منتشرة في آسيا الوسطى- بتعاليم الإسلام(٢).

لم يكن المتصوفة هم الفاعلون المؤثرون وحدهم. فقد تدخل زوار آخرون تدخلًا حاسمًا في نشر الأفكار حول الدين. وتسجل رواية متأخرة نبأ دخول بلغار حوض نهر الڤولغا في الإسلام؛ حيث عالج تاجر مسلم -كان عابر سبيل- حاكم القبيلة وزوجته من مرضٍ عضال ألمَّ بهما بعد أن فشلت جميع المحاولات الأخرى في شفائهما. وقبِل التاجر مداواتهما بعد أن وعده الحاكم بأن يدخل في دينه إذا شفاه وزوجته، «فعالجهما فدخلا في دين الإسلام، وأسلم أهل تلك البلاد معهما»(٣). لقد كانت تلك رواية تقليدية لاعتناق دين جديد؛ فقد كان قبول الزعيم أو المقربين منه لعقيدة جديدة هو اللحظة الحاسمة في تبني قومه مجموعة من الممارسات، والمعتقدات على نطاق واسع(٤).

ومن المؤكد أن توسع الدين إلى مناطق جديدة أضحى شعارًا للهيبة بالنسبة للحكام والسلالات المحلية، الأمر الذي ساعدهم على لفت أنظار الخليفة من جهة، وكذلك على الفوز بالصيت في مجتمعاتهم على الصعيد المحلي من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال أظهر السامانيون -وكانوا من ساكنة بخارى- حماسة شديدة لنُصرة الإسلام. وكانت إحدى الطرق التي نشروا بها الدين استحداثهم لنظام المدارس الدينية، وقد استعاروا المفهوم من الأديرة البوذية، واستخدموا تلك المدارس لتعليم القرآن على نحو سليم، وكذلك أظهروا الاهتمام بدراسة الحديث؛ وهو سجل الأقوال والأفعال

(1) R. Mason, 'The Religious Beliefs of the Khazars', *Ukrainian Quarterly* 51.4 (1995), 383–415.

(٢) الحظ في هذا الصدد رأيًا حديثًا يقضي بالنقيض، فيفصل بين المتصوفة وبين عالم البدو، انظر:

J. Paul, 'Islamizing Sufis in Pre-Mongol Central Asia', in de la Vaissière, *Islamisation de l'Asie Centrale*, pp. 297–317.

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'The Travels', in *Land of Darkness*, p. 68.

(4) A. Khazanov, 'The Spread of World Religions in Medieval Nomadic Societies of the Eurasian Steppes', in M. Gervers and W. Schlepp (eds), *Nomadic Diplomacy, Destruction and Religion from the Pacific to the Adriatic* (Toronto, 1994), pp. 11–34.

[والتقريرات] المنسوبة إلى النبي [ﷺ]. كما كان توزيع الأموال على أولئك الذين يقصدون المساجد طوعًا يضمن امتلاء تلك المساجد إلى حد الاكتظاظ[1].

* * *

على الرغم مما سبق ذكره، فإن السهوب كانت أرحب بكثير من الشمال البري، وهي المنطقة الحدودية التي اكتظت بأناس برابرة ذوي عادات غريبة؛ بل مثلت السهوب فراغًا يمكن أن يتوسع فيه الإسلام؛ حيث يمكن أن يتحضَّر السكان الذين كانوا يعيشون على الفطرة. ومع أن روايات الرحالة -مثل ابن فضلان على سبيل المثال- رسمت صورةً للبربرية والفظاظة، فالحق أن أسلوب حياة البدو كان منظمًا ومرتبًا على شروطهم. ولم يكن الارتحال من مكان إلى آخر سياحةً في الأرض على غير هدى، بل كان انعكاسًا لمقتضيات الرعي وتربية الحيوانات. وكانت الحاجة للعثور على المراعي الجيدة بمثابة إحدى حقائق الحياة في ظل وجود قطعان كبيرة من الماشية كانت بحاجة إلى المراعي. وعلى هذا النحو مثَّل الترحال -بطريقة منظمة- أمرًا حيويًا، ليس لنجاح القبيلة فحسب، بل لبقاء أبنائها على قيد الحياة أيضًا.

وقد سُجِّل هذا -على نحو مثالي- في متن رائع دُوِّن في القسطنطينية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ووضح ذلك المتن كيف جرى تنظيم الطوائف الرئيسة التي عاشت شمال البحر الأسود لإتاحة أفضل فرص النجاح. فجرى تقسيم قبيلة البجناق[2] إلى ثماني عشائر، قُسِّمت بدورها إلى ما مجموعه أربعين بطنًا، لكل منها مناطق محددة بوضوح ينبغي عليها استغلالها. وعلى هذا النحو، لم يكن الترحال من مكان إلى آخر يعني أن الحياة في المجتمعات القبلية كانت مضطربة[3].

وعلى الرغم من أن الكُتَّاب المعاصرين، والرحالة، والجغرافيين، والمؤرخين -الذين أبدوا اهتمامًا بعالم السهوب- افتتنوا بأنماط الحياة والعادات التي لاحظوها، فقد أثار اهتمامهم أيضًا تلك الإسهامات الاقتصادية التي قدمها البدو من ساكنة السهوب، ولا سيما المتعلقة منها بالمنتجات الزراعية. فقد زودت السهوب المجتمعات المستقرة بخدمات ومنتجات ثمينة. وكان هناك أفراد من قبيلة الغز

---

(1) E. Seldeslachts, 'Greece, the Final Frontier? The Westward Spread of Buddhism', in A. Heirman and S. Bumbacher (eds), *The Spread of Buddhism* (Leiden, 2007); R. Bulliet, 'Naw Bahar and the Survival of Iranian Buddhism', *Iran* 14 (1976), 144–5;

النرشخي، تاريخ بخارى، الترجمة الإنجليزية:

Narshakhī, *History of Bukhara*, p. 49.

(٢) كانت قبائل البجناق (Pechenegs) أو (Patzinaks) قبائل تركيَّة شبه رحل في آسيا الوسطى. وقد انحدرت تلك القبائل من قبائل الأُغوز التركية. (المترجم)

(3) Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, tr. R. Jenkins (Washington, DC, 1967), 37, pp. 166–70.

امتلكوا ما ناهز عشرة آلاف جواد، و ١٠ أضعاف هذا العدد من الماشية، وفقًا لتقديرات ابن فضلان. حتى وإن لم يكن متعينًا علينا أن نحصي إمكانات السهوب الاقتصادية بأرقام محددة، فمن الواضح تمامًا أن حجم العمليات الاقتصادية هناك كان كبيرًا(١).

وكانت الخيول جزءًا حيويًا من اقتصاد السهوب، وهو أمر يتضح من خلال الإشارات التي وردت في مجموعة من المصادر حول العدد الكبير من الفُرسان الذين تمكنت بعض القبائل الكبرى في السهوب من حشدهم في الميدان. وربَّت القبائل الخيول لأهداف تجارية، ولا سيما إذا حكَّمنا رواية تدمير مزارع خيول كبرى على يد قوة عربية مُغيرة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وكذلك العظام التي عثَر عليها الآثاريون شمالي البحر الأسود(٢). كما أضحت الزراعة أيضًا جزءًا مهمًا من اقتصاد السهوب على نحو متزايد، مع انتشار زراعة المحاصيل في جميع أنحاء الفولغا السفلى، والتي تضمنت «عددًا كبيرًا من الحقول المحروثة والبساتين»(٣). وتشهد الأدلة الأثرية العائدة إلى هذه الحقبة على زراعة القمح، والجاورس، والشيلم على نطاق واسع في شبه جزيرة القرم(٤). كما كان البندق، والصقور، والسيوف سلعًا أخرى صُدِّرت للأسواق الواقعة جنوبًا(٥). وكذلك كان الشمع والعسل؛ إذ كان يُعتقد -على نطاق واسع- أن العسل مقاومٌ للبرد(٦). كما صدّر العنبر بكميات كبيرة، ليس من خلال السهوب فحسب، بل من غربي أوروبا كذلك، حيث صاغ أحد المؤرخين البارزين مصطلح «طريق العنبر The amber trail» لوصف الطرق التي جُلِب من خلالها الصمغ اليابس إلى المشترين الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر في الشرق(٧).

ومع ذلك فقد كان للاتجار في جلود الحيوانات قصب السبق في هذا المضمار. وقد حظي الفراء

---

(١) ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

'Book of Ahmad ibn Fadlān', p. 22.

قلل بعض الباحثين من أهمية البداوة الرعوية في السهوب، انظر على سبيل المثال:

B. Zakhoder, *Kaspiiskii svod svedenii o Vostochnoi Evrope*, 2 vols (Moscow, 1962), 1, pp. 139–40.

(2) D. Dunlop, *The History of the Jewish Khazars* (Princeton, 1954), p. 83; L. Baranov, *Tavrika v epokhu rannego srednevekov'ia (saltovo-maiatskaia kul'tura)* (Kiev, 1990), pp. 76–9.

(3) A. Martinez, 'Gardīzī's Two Chapters on the Turks', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 2 (1982), 155; T. Noonan, 'Some Observations on the Economy of the Khazar Khaganate', in P. Golden, H. Ben-Shammai and A. Róna-Tas (eds), *The World of the Khazars* (Leiden, 2007), pp. 214–15.

(4) Baranov, *Tavrika*, pp. 72–6.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

Land of Darkness, pp. 169–70.

(٦) أبو حامد الغرناطي، رحلة أبي حامد الغرناطي، الترجمة الإنجليزية:

Abū Hāmid, 'Travels', p. 67.

(7) McCormick, *Origins of the European Economy*, pp. 369–84.

بتقدير كبير بسبب الدفء الذي يمنحه لمن يرتديه، فضلًا عن الهيبة والمكانة الرفيعة[1]. وذهب أحد الخلفاء في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى حد إجراء سلسلة من التجارب؛ كي يقف من خلالها على أي من تلك الفراء يوفر أفضل وقاية من البرد القارس؛ فعمَد إلى تجميد مجموعة من أنواع الفراء المختلفة، وملأ سلسلة من الأوعية بالماء وتركها طيلة الليل في جو شديد البرودة، ثم -بحسب أحد الكتاب العرب- «دعا بها حين أصبح فوجدها جامدة، إلا ما شُدَّ رأسه بجلد الثعلب الأسود فإنه لم يجمد، فعلم أنه أشدها حرًّا ويبسًا»[2].

وميز التجار المسلمون بين جلود الحيوانات المختلفة، وحددوا أسعارها وفقًا لذلك. وذكر أحد الكتَّاب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي واردات السهوب من السمور، والسنجاب الرمادي، والقاقم الأبيض، والمنك، والثعلب، والخز، والقندس، والأرنب المرقط من بين الأصناف التي كان ينبغي على التجار بيعها بعد ذلك في أسواق أخرى بهدف جني ربح جزيل من إعادة بيعها[3]. والحق أن الجلود الصغيرة استخدمت في بعض أجزاء من السهوب، كأنها العملة، بل وبأسعار صرف ثابتة. فكانت ثمانية عشر قطعة من جلود السناجب القديمة تساوي درهمًا فضيًّا واحدًا، في حين أن قطعة الجلد الواحدة كان ثمن «قرص خبز فائق، يكفي رجلًا قويًّا». ولم يكن هذا مفهومًا لأحد الكتَّاب العرب، الذي علَّق قائلًا: «فلو كانت تلك الجلود في أي البلاد كانت، ما يشتري منها ألف حِمل بحبٍّ، ولا تصلح لشيء ألبتة»[4]. ومع ذلك، فقد كان هناك منطق واضح لهذا النظام، فقد كان نظامًا فعالًا للعملة؛ إذ كان وجود وسيلة للتبادل أمرًا مهمًّا للمجتمعات التي تتعامل مع بعضها بعضًا، إلا أنها تفتقر إلى الخزائن المركزية التي يمكنها الإشراف على سك العملات المعدنية على نطاق واسع؛ لذا فإن الجلود والفراء كانت تؤدي وظيفةً واضحةً في اقتصاد غير مُدرٍّ للنقد.

ووفقًا لأحد المؤرخين، فربما صدَّرت السهوب ما يصل إلى نصف مليون قطعة من الجلود كل عام. وأدى ظهور الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف إلى نشأة قنوات اتصال وطرق تجارية جديدة. وكان إنشاء «طريق الفراء» في السهوب وعبر نطاقات الغابات إلى الشمال نتيجة مباشرة للزيادة

---

(1) J. Howard-Johnston, 'Trading in Fur, from Classical Antiquity to the Early Middle Ages', in E. Cameron (ed.), *Leather and Fur: Aspects of Early Medieval Trade and Technology* (London, 1998), pp. 65–79.

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'The Meadows of Gold and Mines of Precious Gems', *Land of Darkness*, p. 161.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'Best Divisions for the Knowledge of the Provinces', *Land of Darkness*, p. 169.

(٤) أبو حامد الغرناطي، رحلة أبي حامد الغرناطي، الترجمة الإنجليزية:

Abū Hāmid, 'Travels', p. 75.

الهائلة في الثروة التي كان يسع المسلمين إنفاقها في القرون التي أعقبت الفتوحات الكبرى في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين[1].

لا نستغربن -إذن- أن يكون القرب عاملًا حاسمًا في كل شيء. فالقدرة على جلب الحيوانات والجلود وغيرها من المنتجات بسهولة إلى السوق كان أمرًا بالغ الأهمية. وكانت أغنى القبائل البدوية هي تلك التي كانت في موقع جيد ضربة لازب؛ حيث كان موقعها يؤهلها لممارسة التجارة بنشاط وثقة مع العالم المستقر. وبالمثل، شهدت المدن الأقرب إلى السهوب طفرات في ثرواتها. وكانت مدينة مرو إحدى أهم المدن التي استفادت من موقعها، فتوسعت، وزادت في العمران، حتى إن أحد المعاصرين وصفها بـ «أم القُرى». وكانت مرو تقع على الضفة الجنوبية من السهوب، وكانت في موقع مثالي للتعامل مع عالم البدو، وفي الوقت نفسه كانت نقطة حاسمة على المحور الشرقي الغربي الذي يمر عبر العمود الفقري لأوراسيا. وعلى حد تعبير أحد المؤلفين، كانت: «قصبةً نَفيسةً، طيبةً، ظريفةً، بهيةً، رحبةً، خفيفةً»[2]. أما الري التي تقع في الغرب فكانت يُعرف باسم «متجر الناس» و«عروس الدنيا» و «أحسن الأرضِ مخلوقةٌ»[3]. كما كانت هناك مدينة بلخ التي نافست مدن العالم الإسلامي الأخرى قاطبةً، فقد كان يسعها المفاخرة بشوارعها الرحبة، ومبانيها الفخمة، ومياهها الجارية النظيفة، فضلًا عن أسعار السلع الاستهلاكية المنخفضة في أسواقها، وذلك بفضل التجارة الكثيفة، والمنافسة بين التجار في المدينة[4].

وشعرت المدن الأقرب إلى هذه الأسواق بالتأثير الأكبر، تمامًا مثلما يتوقف الشعور بقوة الموجات الناشئة عن حجر أُلقي في الماء على الموقع من مكان سقوط الحجر؛ فليس يراودنا أدنى شك في الأهمية البالغة للقدرة على الوصول إلى الأسواق، والاستفادة من وجودها. ولما كان حجم الثروات هو المحك، تطورت الضغوط بين التجمعات القبلية على السهوب. فقد اشتدت بينهم المنافسة على أفضل المراعي، وكذلك على مصادر المياه بسبب التنافس على القدرة على الوصول إلى المدن، وأفضل المراكز التجارية. وبات من المحتم أن ينتج عن هذه الضغوط أحد تفاعلين: إما أن تتصاعد التوترات، الأمر الذي قد يؤدي إلى وقوع فتنة عنيفة، أو أن تتوحد القبائل فيما بينها. بعبارة أخرى كان الخيار بين إحدى اثنتين: إمّا القتال أو التعاون.

* * *

---

(1) R. Kovalev, 'The Infrastructure of the Northern Part of the "Fur Road" between the Middle Volga and the East during the Middle Ages', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 11 (2000–1), 25–64.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

Muqaddasī, *Best Division of Knowledge*, p. 252.

(٣) ابن الفقيه، كتاب البلدان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn al-Faqīh, *Land of Darkness*, p. 113.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية:

al-Muqaddasī, *Best Division of Knowledge*, p. 245.

بمرور الوقت، تطور الوضع المتوازن توازنًا دقيقًا؛ الأمر الذي وفر الاستقرار والازدهار الكبير عبر السهوب الغربية. وكان حجر الزاوية فيه جزءًا من التجمع القبلي التركي الذي كان يسيطر على المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود وبحر قزوين.

حكمت قبائل الخزر -كما اشتهروا بهذا الاسم- السهوب شمال البحر الأسود، وزاد نفوذهم بسبب المقاومة العسكرية التي أبدوها للمسلمين إبان حقبة الفتوحات الكبرى في العقود التي أعقبت وفاة النبي [ﷺ][١]. لقد أكسبهم صمودهم وصدهم الجيوش الإسلامية دعم كوكبة من القبائل الأخرى التي اتَّحدت تحت لوائهم. كما لفت الخزر انتباه الأباطرة الرومان في القسطنطينية الذين أدركوا أن هناك فوائد متبادلة يمكن جنيها من التحالف مع تلك القوة المهيمنة على السهوب. وكان الخزر حلفاء مهمين للغاية؛ حتى إنه جرى عقد مصاهرتين في مستهل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي بين البيوت الحاكمة في بلاد الخزر وبيزنطة، والمسمى الأخير هو الذي أُطلق عادة على الأطلال التي تبقت من الإمبراطورية الرومانية في هذه الحقبة[٢].

كانت المصاهرات الإمبراطورية -من منظور القسطنطينية، عاصمة بيزنطة- مع الأغيار نادرة؛ ولم يكن التحالف مع بدو السهوب إجراءً مسبوقًا[٣]. وكان هذا التطور مؤشرًا واضحًا على مدى أهمية الخزر في الفكر الدبلوماسي والعسكري البيزنطي، في الوقت الذي كان ضغط المسلمين على الحدود الشرقية للإمبراطورية في آسيا الصغرى شديدًا. وكان للعطايا ومن ثم الهيبة الممنوحة للخاقان -زعيم الخزر- تأثير كبير على مجتمع الخزر، حيث عملت على تعزيز مكانة الحاكم الأعلى، كما مهدت الطريق للتقسيم الطبقي عبر القبيلة، حيث سُلِّمت الهدايا، ومُنِحت المكانة للنخبة المختارة من أبناء القبيلة. كما كان لها تأثير إضافي في تشجيع القبائل الأخرى على أن تصبح دافعة للجزية، مقابل الحماية والعطايا. ووفقًا لابن فضلان، كان للخاقان ٢٥ زوجة، كل واحدة منهن من قبيلة مختلفة، وكل منهن كانت ابنة لحاكم تلك القبيلة[٤]. ويتحدث مصدر عبري من القرن الثالث الهجري/ التاسع

---

(١) لإلمامة حديثة، انظر:

G. Mako, 'The Possible Reasons for the Arab–Khazar Wars', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 17 (2010), 45–57.

(2) R.-J. Lilie, *Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber. Studien zur Strukturwandlung des byzantinischen Staates im 7. und 8. Jahrhundert* (Munich, 1976), pp. 157–60; J. Howard-Johnston, 'Byzantine Sources for Khazar History', in Golden, Ben-Shammai and Róna-Tas, *World of the Khazars*, pp. 163–94.

(٣) كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو زواج ابنة الإمبراطور هرقل من خاقان الترك في ذروة المواجهة مع الفُرس في أوائل القرن السابع الميلادي، انظر:

C. Zuckermann, 'La Petite Augusta et le Turc: Epiphania-Eudocie sur les monnaies d'Héraclius', *Revue numismatique* 150 (1995), 113–26.

(٤) ابن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Fadlān, 'Book of Ahmad ibn Fadlān', p. 56.

الميلادي بالمثل عن القبائل التي كانت خاضعة للخزر، ولم يكن مؤلف هذا النص على يقين مما إذا كان عدد القبائل التي كانت تدفع الجزية للخاقان ٢٥، أو ٢٨ قبيلة[١]. وكانت القبائل، مثل: بوليان (Poliane)، ورادميتشي (Radmichi)، وسيڤيرليان (Severliane) من بين تلك القبائل التي اعترفت للخزر بالسيادة عليها، الأمر الذي مكَّن الخزر من تعزيز موقعهم، حتى أصبحوا القوة المهيمنة على السهوب الغربية، فيما بات يُعرف الآن بأوكرانيا، وجنوبي روسيا[٢].

وأدى ارتفاع مستويات التجارة، إضافة إلى فترات الاستقرار والسلام الطويلة إلى تحول عميق طرأ على مجتمع الخزر. وشهدت الطريقة التي كانت تعمل بها قيادة القبيلة تغييرًا، حيث نأى الخاقان بنفسه عن الشؤون اليومية للقبيلة شيئًا فشيئًا، وتطور وضعه إلى ما يشبه المَلَكيَّة المقدسة[٣]. كما تغيرت أنماط الحياة؛ فقد بدأت المستوطنات في الظهور حيث تطورت في النهاية إلى مدن في ظل الطلب القوي في المناطق المجاورة على المنتجات التي كان الخزر -والقبائل التي كانت تؤدي الجزية لهم- يزرعونها، أو يديرونها، أو ينتجونها، فضلًا عن ثمار التجارة بعيدة المدى[٤].

وبحلول أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت مدينة أتِل الصاخبة بمثابة العاصمة والمقر الدائم للخاقان. كانت أتِل تقع على امتداد حوض نهر الڤولغا السفلي، وكانت موطنًا لمجموعة عالمية من السكان. وكانت المدينة متطورة للغاية حتى إنه وُجدت فيها محاكم منفصلة لحل النزاعات وفقًا للقوانين العرفية المختلفة، وكان على رأس تلك المحاكم قضاة يفصلون في النزاعات التي قد تشجر بين المسلمين، أو بين النصارى، أو حتى بين الوثنيين، بينما كانت هناك أيضًا آلية تُطبَّق لحل النزاعات في المسائل التي كان القاضي يعجز عن الوصول إلى حكم فيها[٥].

* * *

---

(1) Dunlop, *History of the Jewish Khazars*, p. 141.

(٢) انظر:

P. Golden, 'The Peoples of the South Russian Steppes', in *The Cambridge History of Early Inner Asia* (Cambridge, 1990), pp. 256–84; A. Novosel'tsev, *Khazarskoye gosudarstvo i ego rol' v istorii Vostochnoy Evropy i Kavkaza* (Moscow, 1990).

(3) P. Golden, 'Irano-Turcica: The Khazar Sacral Kingship', *Acta Orientalia* 60.2 (2007), 161–94.

ويُفسِّر بعض العلماء التغيير في طبيعة دور «الخاقان» على أنه ناتج عن تحول في المعتقدات، والممارسات الدينية جرى خلال تلك الحقبة. انظر على سبيل المثال:

J. Olsson, 'Coup d'état, Coronation and Conversion: Some Reflections on the Adoption of Judaism by the Khazar Khaganate', *Journal of the Royal Asiatic Society* 23.4 (2013), 495–526.

(4) R. Kovalev, 'Commerce and Caravan Routes along the Northern Silk Road (Sixth–Ninth Centuries). Part I: The Western Sector', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 14 (2005), 55–105.

(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، الترجمة الإنجليزية:

Masūdī, 'Meadows of Gold', pp. 131, 133; Noonan, 'Economy of the Khazar Khaganate', p. 211.

لـم تكـن أتِل -بمسـاكنها المصنوعة مـن اللبـاد، وخزائنها، وقصرهـا الملكي- تعـدو كونها مجرد واحدة من المستوطنات التي غيرت طريقة حياة البدو[1]. وقد نشأت مدن أخرى في منطقة الخزر نتيجة للنشاط التجاري المتزايد، مثل «سمندر» التي تميزت مبانيها الخشبية بأسقفها المقبَّبة التي نفترض أنها شُيدت علـى غرار الخيـام التقليدية. وبحلـول أوائل القرن الثالـث الهجري/ التاسـع الميلادي، بلغت أعـداد النصـارى المقيميـن فـي جميع أنحاء بـلاد الخزر حدًّا من الكثرة، بحيث اسـتحقوا تعيين رئيسًـا للأسـاقفة فـي بلادهم، وليس مجرد أسـقف لخدمـة المؤمنين ثمة[2]. ومن الواضح أنـه كان هناك أيضًا عـدد كبيـر مـن السـكان المسـلمين اسـتقروا في سـمندر وأتـل، فضلًا عـن غيرهمـا من المسـتوطنات المجـاورة، وهـو الأمر الـذي يتضح من الروايات التي وردت في المصادر العربية عن أعداد المسـاجد الكبيرة التي شُيدت في جميع أنحاء المنطقة[3].

لـم يعتنـق الخـزر أنفسـهم الإسـلام، بل اتخذوا لأنفسـهم دينًـا جديدًا؛ ففـي منتصف القـرن الثالث الهجري/ التاسـع الميـلادي، قرروا اعتناق اليهوديـة. ووصل مبعوثون من بلاد الخزر إلى القسـطنطينية نحو عام ٢٤٥هـ/ ٨٦٠م، مطالبين بإرسـال المبشـرين إلى مساكنهم لشرح أسس النصرانية. وقالوا: «لم نعرف -منذ الأزل- إلا إلهًا واحدًا [هو تنگري]، مالك كل شيء ... والآن يحثُّنا اليهود على التأسي بهم، واعتناق دينهم. بينما يحضُّنا العرب على الدخول في دينهم، ووعدونا بالسلام، وبجزيل العطاء»[4].

علـى إثـر هـذا أُرسـل وفـدٌ بهـدف تحويـل الخـزر إلـى النصرانيـة. ورأس هـذا الوفـد قسـطنطين (Constantine) الذي اشـتُهر باسـمه السـلافي «كيريل» (Cyril)، وهو الذي نُسب إليه اختراع الأبجدية التـي حملـت اسـمه والتي ابتكرها للسـلاف، أعنـي الأحـرف الكريليـة (Cyrillic). وكان كيريل علَّامة -مثَله في ذلك مثَل أخيه ميثوديوس (Methodius). على أية حال فقد توقف قسـطنطين في أثناء مسـيره شرقًا ليقضي فصل الشتاء في تعلم العبرية، ودراسة التوراة تحسبًا للمناظرة مع أحبار اليهود الذين كانوا فـي طريقهـم أيضًا قاصديـن بلاط الخاقان[5]. وعند وصوله إلى عاصمة الخزر، شـارك في سلسـلة من المناظـرات حاميـة الوطيـس ضد خصومهـم الذين جرت دعوتهـم للتعريف بالإسـلام واليهودية. وقد

(١) الاصطخري، صور الأقاليم، الترجمة الإنجليزية، في:

tr. Lunde and Stone, 'Book of Roads and Kingdoms', in *Land of Darkness*, pp. 153–5.

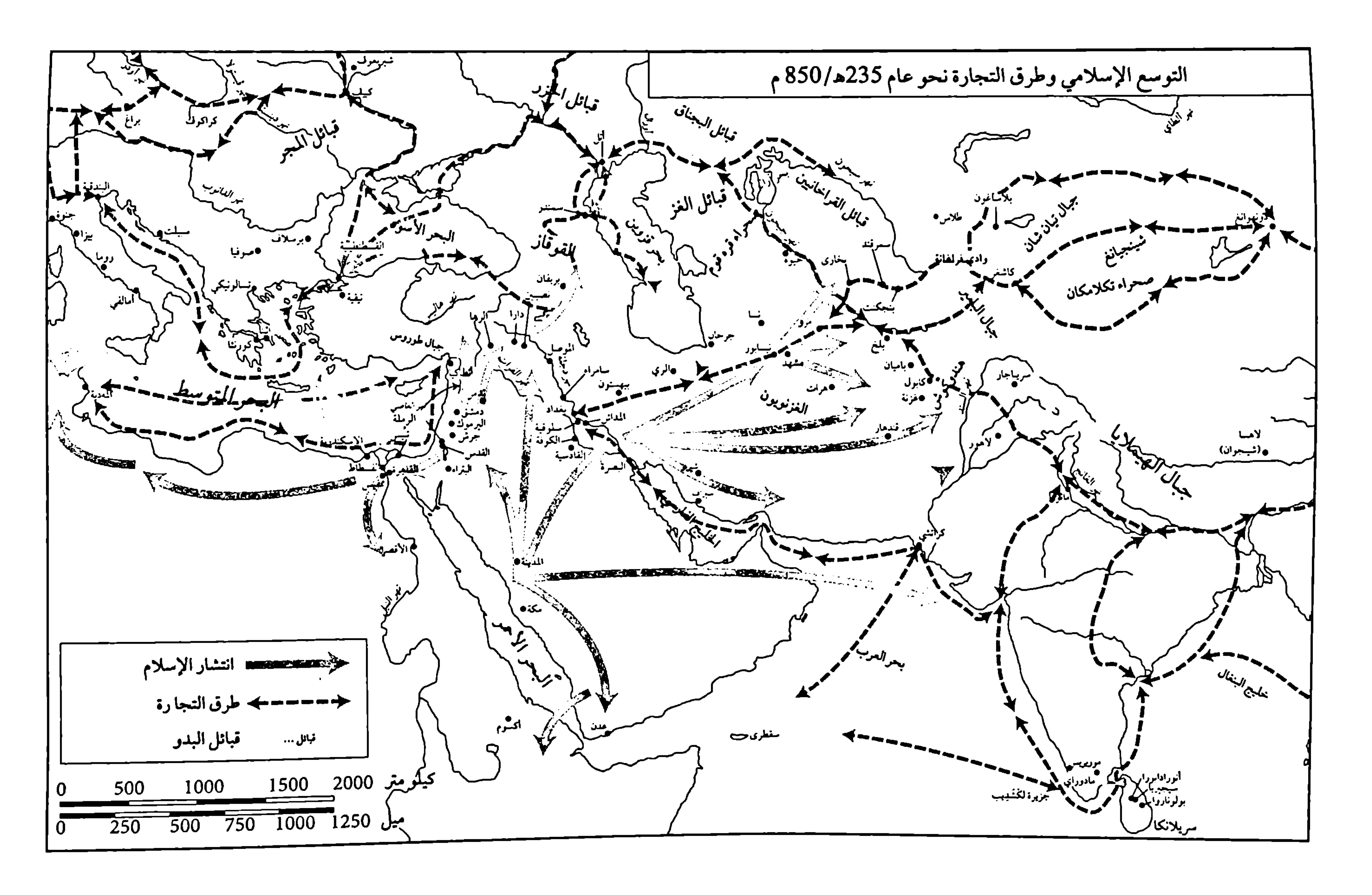
(2) J. Darrouzès, *Notitiae Episcopatuum Ecclesiae Constantinopolitanae* (Paris, 1981), pp. 31–2, 241–2, 245.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، الترجمة الإنجليزية، في:

Iśtakhrī, 'Book of Roads and Kingdoms', pp. 154–5.

(4) Mason, 'The Religious Beliefs of the Khazars', 411.

(5) C. Zuckerman, 'On the Date of the Khazars' Conversion to Judaism and the Chronology of the Kings of the Rus' Oleg and Igor: A Study of the Anonymous Khazar Letter from the Genizah of Cairo', *Revue des Etudes Byzantines* 53 (1995), 245.



التوسع الإسلامي وطرق التجارة نحو عام 235هـ/850م
قبائل الخزر
قبائل البجناك
قبائل المجر
قبائل الغز
قبائل القراخانيين
القوقاز
البحر الأسود
البحر المتوسط
البحر الأحمر
بحر العرب
خليج البنغال
جبال الهيمالايا
جبال طوروس
جبال تيان شان
صحراء تكلاماكان
الغزنويون
القسطنطينية
بغداد
سامراء
الكوفة
البصرة
المدينة
مكة
عدن
سقطرى
سمرقند
بخارى
بلخ
كابل
غزنة
هراة
قندهار
الري
جرجان
نيسابور
مرو
كاشغر
لاهور
كراتشي
الإسكندرية
القدس
دمشق
القيروان
سريلانكا
انتشار الإسلام
طرق التجارة
قبائل البدو
كيلومتر
ميل
0 500 1000 1500 2000
0 250 500 750 1000 1250

جرفت سعة اطلاع قسطنطين كل شيء وقف أمامه، أو هكذا يبدو لنا من خلال سيرته التي استندت إلى كتاباته إلى حد كبير[1]. والحق أنه على الرغم من تألق قسطنطين في هذه المناظرات -حيث أخبره الخاقان أن حديثه عن الكتاب المقدس كان «حلوًا كالشَّهد»- فإنه لم يكن لسفارته الأثر المنشود؛ ذاك أن زعيم الخزر قرر أن اليهودية هي الدين الصحيح الذي يجب أن تدين به رعيته[2].

ثَم رواية مماثلة لهذه الرواية وُضِعت بعد مُضي نحو قرن من الزمان تقريبًا؛ فقد تلقت المجتمعات اليهودية أخبار اعتناق الخزر لليهودية بذهول. وسرَت تلك الروايات على بعد آلاف الأميال إلى الغرب، ومن ثم حاول أولئك اليهود معرفة المزيد عن هوية الخزر، وكيف أصبحوا يهودًا، وتتبعوا أخبارهم متهلفين. كما سرت التكهنات بين أولئك اليهود؛ حيث ذهب بعضهم إلى أن الخزر ربما كانوا إحدى القبائل المفقودة في إسرائيل القديمة. وتمكن العالم المتفنِّن حسداي بن شبروط (Ḥasdai b. Shaprūṭ)، الذي كان يقيم في قرطبة بالأندلس أخيرًا من التواصل مع القبيلة. أراد حسداي التوثق مما إذا كان الخزر يهودًا بالفعل، أو ما إذا كانت هذه مجرد رواية طويلة موضوعة، وضعها أولئك الذين كانوا يريدون مداهنته والتقرب منه. وعندما تيقن من أن الخبر صحيح، وأن الخزر يهود بالفعل، كما أنهم أثرياء و«أقوياء للغاية ولديهم جيوش كثيرة»، خرَّ على ركبتيه ساجدًا شكرًا لإله السماء. وكتب إلى الخاقان قائلًا: «أصلي من أجل صحة سيدي الملك وذويه، وآل بيته، وأن يثبِّت عرشه إلى أبد الآبدين. فلتطُل أيامه، وأيام أبنائه في وسط إسرائيل!»[3].

وما يلفت النظر أن هناك نسخة من رد الخاقان على هذه الرسالة قد وصلتنا؛ حيث سرد ملك الخزر نبأ اعتناق قبيلته اليهودية. فكتب الخاقان [في معرض ردِّه على حسداي] قائلًا: إن قرار اعتناق اليهودية جاء نتاجًا لحكمة عظيمة لأحد أسلافه؛ حيث استدعى وفودًا تمثل الديانات المختلفة، ليُعرِّف كل منها بدينه أمامه. وبعد أن أنعم الملك فكره، وبحث عن أفضل السبل لإثبات الحقائق، سأل النصارى عما إذا كان الإسلام أو اليهودية هو الدين القويم. عندئذ أكد النصارى للملك أن اليهودية تفضُل الإسلام بما لا يُقاس. ثم تحول ملك الخزر إلى المسلمين وسألهم: أي ملة تفضُل الأخرى في دينكم، النصرانية

---

(1) Ibid., 243–4.

عن الاستعارات من كتابات قسطنطين، انظر:

P. Meyvaert and P. Devos, 'Trois énigmes cyrillo-méthodiennes de la "Légende Italique" résolues grâce à un document inédit', *Analecta Bollandiana* 75 (1955), 433–40.

(2) P. Lavrov (ed.), *Materialy po istorii vozniknoveniya drevnishei slavyanskoi pis'mennosti* (Leningrad, 1930), p. 21; F. Butler, 'The Representation of Oral Culture in the *Vita Constantini*', *Slavic and East European Review* 39.3 (1995), 372.

(3) 'The Letter of Rabbi Hasdai', in J. Rader Marcus (ed.), *The Jew in the Medieval World* (Cincinnati, 1999), pp. 227–8.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

N. Golb and O. Pritsak (eds), *Khazarian Hebrew Documents of the Tenth Century* (London, 1982).

أم اليهودية؟ عندئذ ذم المسلمون النصرانية، وأجابوه بأن اليهودية أهون الشَّرين. عندئذٍ فطن ملك الخزر إلى الحقيقة؛ إذ إن كلتا الفرقتين اعترفتا بأن «دين بني إسرائيل يفضُل سواه»، وعلى إثر ذلك قال: «واثقًا في رحمة الله، وقوة العلي القدير، أختار دين إسرائيل، أي دين إبراهيم». ثم أمر الوفود بأن تعود من حيث أتت. ثم اختتن، ثم أمر بطانته وخدامه وكل رعيته أن يتأسوا به[١][٢].

حققت اليهودية غزوات كبيرة في مجتمع الخزر بحلول منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وبصرف النظر عن الإشارات التي وردت في المصادر العربية إلى المبشرين اليهود في العقود التي سبقت وصول الوفود إلى بلاط الخاقان، وحقيقة أن ممارسات الدفن خضعت لتحول ما طرأ عليها خلال هذه الحقبة أيضًا، فإن الاكتشاف الأخير لسلسلة من العملات المعدنية المسكوكة في بلاد الخزر يمدنا بأدلة قوية على أن اليهودية قد أضحت الدين الرسمي للدولة نحو عام ٢١٤هـ/ ٨٣٠م. وحملت هذه العملات كتابة قدمت مثالًا رائعًا لكيفية استغلال الدين لتوحيد السكان المختلفين. فقد دافعت النقود عن أعظم أنبياء العهد القديم بعبارة «موسى رسول الله»[٣].

ربما كان هذا النقش أقل استفزازًا مما يبدو لنا في أيامنا هذه؛ ذاك أن القرآن ينص صراحة على أنه لا ينبغي للمؤمنين التفريق بين الأنبياء، وأن الرسالة التي حملها جميع الأنبياء ينبغي اتباعها في

---

(1) 'The Letter of Joseph the King', in J. Rader Marcus (ed.), *The Jew in the Medieval World*, p. 300.

عن مناقشة للتاريخ والسياق، انظر:

P. Golden, 'The Conversion of the Khazars to Judaism', in Golden, Ben-Shammai and Róna-Tas, *World of the Khazars*, pp. 123-62.

(٢) لما كان بنو إسرائيل اثني عشر سبطًا، فقد كانت قبائل الخزر بمثابة «السّبط الثالث عشر»، على حد وصف بعض الباحثين. ومن قبيل المفارقات أن اضمحلال الخلافة الأموية ثم سقوطها هو الذي أدى إلى قيام دولة إسرائيل في الأخير. حيث ألحق مروان بن محمد -وكان واليًا على أرمينية آنذاك- هزيمة منكرة بقبائل الخزر عام ١١٩هـ/ ٧٣٧م، ودخل عاصمتهم «أتل» وأجبر زعيمهم على اعتناق الإسلام. ثم لما وقع النزاع على الخلافة في دمشق، غادر مروان أرمينية متجهًا إلى دمشق، وعزل إبراهيم بن الوليد، وانتزع الخلافة لنفسه ليكون بذلك آخر خلفاء بني أمية، وما لبث أن سقطت خلافة بني أمية على أيدي العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م. وتنفس الخزر الصعداء لما كف مروان يده عنهم. ثم ما لبثوا أن اعتنقوا اليهودية. وبعد قيام روسيا، مثَّل يهود الخزر «يهود روسيا»، وقدّرت أعدادهم بنحو ٧٠٪ من اليهود في العالم، ثم أخذوا يهاجرون زرافات ووحدانًا إلى أوروبا وأمريكا منذ القرن السادس عشر. أي إن اعتناق الخزر لليهودية -في تلك الظروف الغامضة- هو الذي أدى -تقريبًا- إلى قيام دولة إسرائيل المعاصرة. (المترجم)

(3) R. Kovalev, 'Creating "Khazar Identity" through Coins – the "Special Issue" Dirhams of 837/8', in F. Curta (ed.), *East Central and Eastern Europe in the Early Middle Ages* (Ann Arbor, 2005), pp. 220–53.

وعن التغيير الذي طرأ على ممارسات الدفن، انظر:

V. Petrukhin, 'The Decline and Legacy of Khazaria', in P. Urbanczyk (ed.), *Europe around the Year 1000* (Warsaw, 2001), pp. 109–22.

الأخير(١). وكان موسى نبيًا عظيمًا ومهيبًا في تعاليم الإسلام؛ لذا فإن مدحه لم يكن لينتطح فيه عنزان. وعلى صعيد آخر، كان استحضار المكانة الخاصة لمحمد [ﷺ] بوصفه رسول الله عنصرًا أساسيًا في الأذان الذي كان يرفع من المساجد خمس مرات في اليوم. وعلى هذا النحو، كان وجود اسم موسى على العملة بمثابة تصريح متحدٍّ يقضي بأن الخزر لهم هوية خاصة بهم، ومستقلة عن العالم الإسلامي. وكما هي الحال في المواجهة بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، لم تدر المعارك بين الجيوش فحسب، بل دارت أيضًا حول الأيديولوجية واللغة، بل حتى حول الصور على العملات المعدنية.

والحق أن معرفة الخزر باليهودية كانت من خلال مصدرين. أولهما: كانت هناك مجتمعات يهودية قديمة قد استقرت في القوقاز منذ أقدم العصور، ولا بد أن هذه القبائل قد عملت على تحفيز التنمية الاقتصادية في السهوب(٢). ووفقًا لأحد الكتّاب من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد حفز وجود تلك القبائل كثيرًا من اليهود على الهجرة إلى بلاد الخزر «من مدن المسلمين والنصارى» بعد أن شاع أن اليهودية لم تكن ديانة تتمتع بالقبول على الصعيد الرسمي فحسب، بل كانت الدين الذي دان به نفرٌ كثيف من علية القوم(٣). وتشير المراسلات بين حاكم الخزر وحسداي في قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى أن أحبار يهود مارسوا التبشير باليهودية بحماسة، بينما شُيِّدت المدارس والمعابد اليهودية لضمان تدريس الدين على نحو سليم؛ حيث أشار عدد كبير من المؤرخين إلى المباني الدينية المنتشرة في جميع أنحاء مدن بلاد الخزر، وكذلك المحاكم التي توصلت إلى أحكامها بعد معاودة التوراة(٤).

وجاء المحفز الثاني -الذي أثار اهتمام الخزر باليهودية- من التجار الذين جُذبوا من أماكن بعيدة، وقد اجتذبهم ظهور بلاد الخزر بوصفها مركزًا تجاريًا دوليًا رئيسًا، ليس بين السهوب والعالم الإسلامي

---

(١) سورة البقرة، ٢٨٥.

(2) Zuckerman, 'On the Date of the Khazars' Conversion', 241.

وانظر أيضًا:

Golb and Pritsak, *Khazarian Hebrew Documents*, p. 130.

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، الترجمة الإنجليزية:

Masūdī, 'Meadows of Gold', p. 132;

عن علية القوم من اليهود، انظر:

Mason, 'The Religious Beliefs of the Khazars', 383–415.

(4) Pritsak and Golb, *Khazarian Hebrew Documents*;

المسعودي، التنبيه والإشراف، الترجمة الإنجليزية

Masūdī, 'Meadows of Gold', p. 133;

الاصطخري، المسالك والممالك، الترجمة الإنجليزية:

Iśtakhrī, 'Book of Roads and Kingdoms', p. 154.

فحسب، بل بين الشرق والغرب أيضًا. فنشط التجار اليهود -كما يشهد عدد كبير من المصادر- في التجارة بعيدة المدى، ولعبوا الدور نفسه الذي لعبه الصغديون الذين ربطوا الصين وبلاد فارس غداة ظهور الإسلام.

وكان التجار اليهود لغويين بارعين للغاية، فتحدثوا عددًا من اللغات، فكانوا «يتكلّمون بالعربيّة، والفارسيّة، والروميّة، والإفرنجيّة، والأندلسيّة، والصقلبيّة» وفقًا لمصدر معاصر[١][٢]. وقد اتخذوا من البحر المتوسط قاعدة لهم، ويبدو أنهم كانوا يسافرون إلى الهند والصين على نحو منتظم، ويعودون حاملين معهم المسك، والعود، والكافور، والدارصيني (القرفة) «وغير ذلك» من المنتجات الشرقية التي كانوا يتّجرون فيها على طول سلسلة من الموانئ والبلدات التي كانت تزود الأسواق في مكة، والمدينة، والقسطنطينية، وكذلك المدن على نهري دجلة والفرات[٣]. كما استخدموا الطرق البرية، سالكين بها عبر آسيا الوسطى إلى الصين إما من خلال بغداد وبلاد فارس، وإما مرورًا ببلاد الخزر في طريقهم إلى بلخ، وشرقي نهر جيحون (Oxus)[٤]. وكانت الري -الواقعة جنوب بحر قزوين (إيران الحديثة)- إحدى أهم النقاط على هذا المحور، وهي مدينة كانت تستقبل البضائع القادمة من القوقاز، ومن الشرق، ومن بلاد الخزر، فضلًا عن مواقع أخرى في السهوب. ويبدو أن تلك البضائع كانت تُفرز للمرة الأولى في بلدة جرجان (شمالي إيران)؛ حيث نفترض أن الرسوم الجمركية كانت تحصَّل هناك، قبل أن يجري نقلها إلى الري. وكتب أحد المؤلفين العرب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قائلًا: «الرَّي عروس الدنيا، وإليها متجر الناس»[٥].

* * *

انجذب التجار من اسكندنافيا -أيضًا- إلى الفرص السانحة؛ فعندما نفكر في الفايكنج، فإن أذهاننا تنصرف دومًا إلى صور لغارات كانت تُشَن عبر بحر الشمال في بريطانيا العظمى وأيرلندا، بقوارب طويلة بمقدمة على هيئة التنين، تظهر بغتة من الضباب، وتكتظ برجال مسلحين مستعدين للاغتصاب والنهب. أو قد ننعم النظر في التساؤل عما إذا كان الفايكنج قد تمكنوا من الوصول إلى أمريكا الشمالية قبل قرون من رحلات كريستوفر كولومبوس وغيره. ولكن في عصر الفايكنج، لم يتوجه الرجال الأشجع والأقوى منهم غربًا؛ بل اتجهوا شرقًا وجنوبًا. وحقق كثيرون منهم ثروات طائلة، واكتسبوا

---

(١) ابن خُرداذبه، المسالك والممالك، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Khurradādhbih, 'Book of Roads and Kingdoms', p. 110.

(٢) وهم التجار الراذانيّة، كما وردت تسميتهم عند ابن خُرداذبه. (المترجم)

(3) Ibid., pp. 111–12.

(4) Ibid., p. 112.

(٥) ابن الفقيه، كتاب البلدان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn al-Faqīh, 'Book of Countries', p. 114.

الشـهرة، ليس في وطنهم فحسـب، بل في الأراضي الجديدة التي احتلوها. وفوق ذاك، لم تكن البصمة التـي تركوهـا باهتة وعابـرة، كما كانت كذلك في أمريكا الشـمالية؛ بل كان يتوجب عليهم أن يؤسسـوا دولة جديدة في الشرق، سُمِّيت على اسم التجار، والمسافرين، والغزاة الذين لجؤوا إلى شبكات المياه الكبـرى التـي ربطت بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسـود. لقد عُرف هؤلاء الرجال باسـم الروس (Rus) أو (*Rhos*) ربما بسبب شعورهم الحمراء المميزة، أو على الأرجح بفضل براعتهم في التجديف. لقد كان هؤلاء هم آباء روسيا[١].

وكان إغـراء التجـارة والثـروات في العالم الإسـلامي هـو دافع الڤايكنـج في البدايـة للانطلاق في الرحلـة إلـى الجنوب. بدأ أهل اسـكندناڤيا فـي الاتصال بعالم السـهوب، ومع الخلافة [العباسـية] في بغداد منذ بداية القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي. وأخذت مسـتوطناتهم في الانتشار على طول نهـر الأوديـر (Oder)، ونهـر نيڤـا (Neva)، والڤولغـا (Volga)، والدنيبـر (Dnieper)، مـع ظهور قواعد جديدة كانت كالأسواق في حد ذاتها، كما كانت بمثابة محطات تجارية للتجار الذين يجلبون البضائع مـن الجنـوب وإليه. وكانت سـتاريا لودوجا (Staraya Ladoga)، وروريكوڤو جوروديشـه (Rurikovo Gorodische)، وبلوزيـرو (Beloozero)، ونوڤجـورود (Novgorod) (التـي تعنـي حرفيًـا «المدينـة الجديدة») نقاطًا جديدة، وسَّعت طرق التجارة الأورو-آسيوية الكبرى حتى طالت أقصى مناطق شمال أوروبا نأيًا وبُعدًا[٢].

وجرى تكييف السـفن الطويلة -التي طالما احتفى بها الخيال الشـعبي- لتلائم تلك الرحلة، فصغَّر الڤايكنج الروس (Viking Rus) حجمها على هيئة القوارب؛ لتمكينهم من حملها لمسافات قصيرة من نهر أو من بحيرة إلى نهر، أو بحيرةٍ أخرى. وانطلقت هذه القوارب أحادية الهيكل على هيئة القافلة في رحلـة طويلـة وخطيرة. ويسـجل متن دُوِّن في القسـطنطينية في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي -بنـاءً على المعلومات التي جمعها العمـلاء البيزنطيون- تلك الظروف الخطيرة التي كان لا بد من التفاوض بشـأنها في الرحلة جنوبًا. فقد كانت هناك مجموعة منحدرات نهر دنيسـتر (Dniester) المحفوفـة بالمخاطـر خاصـة؛ فكان الخانق الضيق يحتوي على مجموعـة قاتلة من الصخور برزت في

---

(١) ظـن ليودبرانـد الكرمونـي (Liudprand of Cremona)، وهـو رحالـة زار القسـطنطينية في القـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي، أن اسـم «الـروس» جـاء مـن الكلمـة اليونانيـة (Rousios)، التي تعنـي «الأحمر»، بسـبب لون شعورهم المميز، انظر:

The Complete Works of Liudprand of Cremona, tr. P. Squatriti (Washington, DC, 2007), 5.15, p. 179.

والحق، أن الكلمة اشتقت من الكلمات الاسكندناڤية (roþrsmenn) و (Roðr) التي تعني التجديف، انظر:

S. Ekbo, 'Finnish Ruotsi and Swedish Roslagen- What Sort of Connection?', *Medieval Scandinavia* 13 (2000), 64–9; W. Duczko, *Viking Rus: Studies on the Presence of Scandinavians in Eastern Europe* (Leiden, 2004), pp. 22–3.

(2) S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750–1200* (London, 1996).

منتصفه كالجُزر. وبإزاء ذلك كانت شلالات الماء وينابيعه تعلو وتنخفض، بضجيج عظيم ورائع. وأُطلق على هذه العقبة اسمًا حمل في طياته دعابة ثقيلة هي «لا تغفُ»[1].

ويُشير هذا المتن نفسه إلى أن الروس كانوا معرضون لخطر القنص من قبل المغيرين العدوانيين الذين كمنوا للحصول على غنائم سريعة وباردة بينما يمر المسافرون المرهقون عبر المنحدرات. فكان بدو البجناق يكمنون بينما يسحب تجار الفايكنج القوارب من الماء ثم يهاجمون حامليها، ويستولون على حمولتهم من البضائع لأنفسهم، ثم تنشق الأرض وتبلعهم مجددًا؛ لذا بات متوجبًا على الحراس أن يكونوا على أهبة الاستعداد للتصدي لأي هجوم مباغت. لقد كان الإسكندنافيون يشعرون بالراحة عند تجاوز هذه المخاطر؛ حتى إنهم كانوا يجتمعون في إحدى الجزر وينحرون الديكة على سبيل القرابين، أو يغرسون السّهام في الأشجار المقدسة شكرًا للآلهة الوثنية[2].

وكان الرجال الذين يصلون بأمان إلى الأسواق حول بحر قزوين والبحر الأسود جبارين، على أقل تقدير. فقد وصفهم الكتّاب المسلمون بإعجاب بقولهم: «لهم رجلةٌ وبسالة»[3]. وكان الروس طوال القامة «كأنهم النخل» على حد وصف ابن فضلان، بيد أن الأهم من ذلك أنهم كانوا مسلحين، وخطرين على الدوام. وكل منهم يحمل فأسًا، وسيفًا، وسكينًا[4].

وتصرف الروس مثل عصابات من المجرمين غلاظ القلوب. وذلك لسبب واحد، فعلى الرغم من أنهم اصطفوا للقتال ضد أعدائهم صفًا واحدًا، فقد كانوا يرتابون في بعضهم بعضًا أشد الريبة؛ حتى إن أحد الكتّاب أشار إلى أنهم لم يكونوا يذهبون لقضاء الحاجة بمفردهم قط، قائلًا: «ولا يبرز أحدهم لقضاء حاجته وحده، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه، يتحارسونه بينهم. ومع كل واحد منهم سيف؛ لقلة أمانتهم والغدر الذي فيهم»؛ إذ لن يتردد أحدهم في سرقة رفيقه، ولو كان في ذلك قتله وإزهاق روحه[5]. كما كانوا يتشاركون في العربدة، ويضاجعون النساء على مرأى ومسمع من بعضهم بعضًا؛ بل إنهم كانوا يتبادلون النساء فيما بينهم؛ وإذا أصاب المرض أحدهم، خلّفوه وراءهم غير مبالين. لقد كانت أشكالهم مُتناسبة مع الأخطار التي كانوا يواجهونها، [حتى إن ابن فضلان وصفهم قائلًا]: «ومن حدّ ظفر الواحد منهم إلى عنقه مُخْضَرٌّ شجر وصور»[6]. لقد كان الفايكنج رجالاً أشداء، واجهوا أوقاتًا عصيبةً.

---

(1) Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, 9, pp. 58–62.

(2) *De Administrando Imperio*, 9, p. 60.

(٣) ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'Book of Precious Gems', in *Land of Darkness*, p. 127.

(٤) ابن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان:

Ibn Fadlān, 'Book of Ahmad ibn Fadlān', p. 45.

(٥) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Rusta, 'Book of Precious Gems', p. 127.

(٦) ابن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Fadlān, 'Book of Ahmad ibn Fa lān', pp. 46–9.

شـارك الڤايكنج في تجارة الشـمع، والعنبر، والعسل، وكذلك السـيوف الفاخرة التي كانت موضع إعجـاب واسـع النطـاق فـي العالـم الناطق بالعربيـة. ومع ذلـك، فقد كان هنـاك نوع آخر مـن الأعمال التجاريـة الأكثـر ربحًا، وكان مصدرًا لكميـات هائلة من الأموال التي انجرفت شـمالًا، ودعمت أنظمة الأنهار في روسيا باتجاه اسكندناڤيا. يتضح هذا من خلال عدد كبير من أنسجة الحرير الناعم المجلوب مـن الشـام وبيزنطـة، بل ومـن الصين أيضًا، وقد عُثـر عليها في قبـور تناثرت في جميع أرجاء السـويد، والدانمارك، وفنلندا، والنرويج. ولا بد أن هذه الكميات التي عُثر عليها لم تكن تمثل سوى جزء ضئيل من المنسوجات التي حُملت إلى اسكندناڤيا، واندرست آثارها ثمة[1].

ومـع ذلـك، فإن سـجل العملات هو الذي يتحدث بصوت جهور قاصًـا حجم الأعمال التي جرت فـي مناطـق نائيـة. فقـد وُجِـدت عملات معدنيـة غنيـة -على نحـو مذهل- علـى طول الأنهـار العظيمة المتجهة شمالًا، كما عُثِر عليها في جميع أنحاء شمال روسيا، وفنلندا، والسويد، وفي المقام الأول في جوتلاند (Gotland) (أكبر جزر السويد)، الأمر الذي يدل على أن ڤايكنج روسيا قد حققوا أرباحًا هائلة مـن التجـارة مع المسـلمين وأطـراف الخلافة العباسـية[2]. ويقدر أحـد المختصين البارزيـن في تاريخ العملات أن كمية العملات الفضية التي أعيدت من التجارة مع بلاد الإسلام تصل إلى عشرات، وربما مئات الملايين؛ أي إنها كانت -بالمصطلحات الحديثة- صناعة تدر مليارات الدولارات[3].

كان ينبغـي أن تكـون المكافآت كبيرة؛ كي تسـتحق قطع المسـافة الطويلة، والمخاطـر التي ينطوي عليها السـفر بعيدًا عن اسـكندناڤيا إلى بحر قزوين. لقد كانت رحلة تقترب من ثلاثة آلاف ميل؛ لذا قد لا نستغرب من أن تباع البضائع بكميات كبيرة في سبيل تحقيق أرباح كبيرة في المقابل. وكان هناك عدد كبير من السـلع التي شُـحِنت جنوبًا، بيد أن أهمها كان العبيد. لقد كان هناك أموال يمكن اكتسـابها من خلال الاتجار بالبشر.

---

(1) A. Winroth, *The Conversion of Scandinavia* (New Haven, 2012), pp. 78–9.

(2) M. Bogucki, 'The Beginning of the Dirham Import to the Baltic Sea and the Question of the Early Emporia', in A. Bitner-Wróblewska and U. Lund-Hansen (eds), *Worlds Apart? Contacts across the Baltic Sea in the Iron Age: Network Denmark–Poland 2005–2008* (Copenhagen, 2010), pp. 351–61.

عن السويد، انظر:

I. Hammarberg, *Byzantine Coin Finds in Sweden* (1989); C. von Heijne, *Särpräglat. Vikingatida och tidigmedeltida myntfynd från Danmark, Skåne, Blekinge och Halland (ca. 800–1130)* (Stockholm, 2004).

(3) T. Noonan, 'Why Dirhams First Reached Russia: The Role of Arab–Khazar Relations in the Development of the Earliest Islamic Trade with Eastern Europe', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 4 (1984), 151–82,

وفي المقام الأول، انظر للمؤلف نفسه:

'Dirham Exports to the Baltic in the Viking Age', in K. Jonsson and B. Malmer (eds), *Sigtuna Papers: Proceedings of the Sigtuna Symposium on Viking-Age Coinage 1–4 June 1989* (Stockholm, 1990), pp. 251–7.

-٧-

طريق الرِّق

متى تعلق الأمر بسـبي الأهالي واسـتعبادهم، وحملهم جنوبًا، فلقد قُدَّت قلوب الروس من الصخر حقًا. عُرِف الڤايكنج الروس بأن «لهم رُجْلَةً وبسـالةً»، كما عُرفوا كذلك بأنهم «ليس لهم مزارع؛ وإنما يأكلون مما يحتملونه من أرض الصقالبة»، على حد قول أحد الكُتّاب العرب[١]، وعلى هذا النحو عانى السـكان المحليون منهم الأمرَّين. وما زال الروس يُغيرون عليهم، ويَسـبونهم ويأسـرونهم، حتى أُطلِق على هؤلاء الساكنة «السلاڤ Slavs» (الصقالبة)، فأضحى ذلك الاسم علمًا على كل من سُلِب حريته؛ أعني العبيد (Slaves).

أشار أحد الكتاب المعاصرين أيضًا إلى أن الروس كانوا يحرصون على أسراهم، بقوله: «ويُحسنون إلـى رقيقهـم، ويتنوَّقون فـي ثيابهم؛ لأنهم يتعاطون التجـارة»[٢]. ونقَل الروس العبيد علـى امتداد النهر وروافـده، وظـل أولئـك العبيد مُقيدين في الأصفـاد أثناء التفاوض علـى المنحدرات[٣]. وكان للنسـاء الجميلات خاصةً قيمة عالية، وكان الروس يبيعونهن للتجار في بلاد الخزر، والڤولغا بيلغاريا، ثم كان هـؤلاء التجـار يحملونهـن -بدورهـم- إلـى الجنوب، ولكن ليـس قبل أن يـودِّع الخاطفون أسـيراتهم بمُضاجعتهن لآخر مرة[٤].

ومثَّلت العبودية جزءًا حيويًا من مجتمع الڤايكنج، وجزءًا مهمًّا من اقتصاده كذلك؛ تمامًا كما كانت الحال في الشـرق. وتُظهر الأدلة الأدبية والمادية الوافرة المتعلقة بالجزر البريطانية، أن أهم غرض من أغراض غارات سفن الڤايكنج الطويلة لم يكن الاغتصاب العشوائي والنهب كما وقر في أذهان العوام، بل كان السَّبي وحمل الأسـرى معهم أحياءً[٥]. وفي القرن التاسع الميلادي، توسَّل فرنسي إلى الله بهذا الدعـاء: «اللهـم أغِثْنا من رجال الشـمال البرابرة الذين دمروا بلادنا؛ وحملـوا... بناتنا الصغار العذارى بعيدًا. نتوسَّل إليك يا الله أن ترفع عنا هذا البلاء»[٦].

---

(١) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Rusta, 'Book of Precious Gems', pp. 126–7.

(٢) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(3) *De Administrando Imperio*, 9, p. 60.

(٤) ابن فضلان، رسالة أحمد بن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Fadlān, 'Book of Ahmad ibn Fa lān', p. 47.

(5) D. Wyatt, *Slaves and Warriors in Medieval Britain and Ireland, 800–1200* (Leiden, 2009).

(6) L. Delisle (ed.), *Littérature latine et histoire du moyen âge* (Paris, 1890), p. 17.

وعثـر الآثاريـون علـى الأصفاد، والقيـود، وأقفالها على طول طريق الرقيق، ولا سـيما في شـمالي أوروبـا وشـرقها. بينما أظهرت البحوث الحديثة أن الحظائر التـي كان يُعتقد -في الماضي- أنها كانت مخصصة للماشية، إنما كانت مصممة لتجميع الأسرى الذين كان ينبغي بيعهم في أماكن مثل نوفجورود (Novgorod)، حيـث كانـت سـوق الرقيـق تقـع عنـد تقاطـع شـارعي «هـاي سـتريت» (High Street) و«سليف ستريت» (Slave Street)[1].

وسـرت الرغبـة بين أهل اسـكندنافيا في جني المـال من خلال بيع الرقيق سـريان الدم في العروق. فعلى الرغم من حصولهم على تراخيص من بعض الحكام المحليين بنهب مناطق جديدة بهدف سـبي العبيد منها، فإنهم لم يتورعوا عن سـبي رفاقهم أنفسـهم، وتكبيلهم بالأصفاد؛ حتى إن أحد القساوسـة المطلعيـن فـي شـمال أوروبا في القرن الحادي عشـر الميـلادي قال ما نصه: «مـا إن يقدر أحدهم على رفيقه، فلن يراود المغلوب أدنى شك فيما سيفعله به الغالب بعد ذلك؛ سيبيعه عبدًا في أول فرصة، إما لأحد أقرانه، أو إلى أحد البرابرة، ولن يرحمه»[2].

ووُجِّه عددٌ كبير من العبيد إلى اسـكندنافيا. فوفقًا لإحدى القصائد الإسـكندنافية القديمة الشـهيرة -وهي القصيدة المسـماة «الريجسـبولا» ('Rígspula') أو أنشـودة ريجر (The Lay of Rigr)- انقسـم المجتمـع الإسـكندنافي إلـى ثـلاث فئـات بسـيطة، هـي: الأرسـتقراطية (jarlar)، والأحـرار (karlar) والعبيـد (ðrælar)[3]. بيـد أن عـددًا كبيـرًا من هـؤلاء العبيد حُملوا إلى حيث كانت تُدفـع أموال جزيلة، مقابل أعداد قليلة منهم. ولم يكن هناك طلب أكبر في أي مكان يمكن أن ينافس الطلب في أسواق أتِل، كما لم يكن ثَم مكان آخر يُنفَق فيه ما يُنفَق في هذه الأسـواق المزدهرة والغنية؛ ثم كانت تلك الأسـواق

---

(١) انظر:

J. Henning, 'Strong Rulers – Weak Economy? Rome, the Carolingians and the Archaeology of Slavery in the First Millennium AD', in J. Davis and M. McCormick (eds), *The Long Morning of Medieval Europe: New Directions in Early Medieval Studies* (Aldershot, 2008), pp. 33–53;

عن نوفجورود (Novgorod) انظر:

H. Birnbaum, 'Medieval Novgorod: Political, Social and Cultural Life in an Old Russian Urban Community', *California Slavic Studies* (1992), 14, p. 11.

(2) Adam of Bremen, *History of the Archbishops of Hamburg Bremen*, ed. and tr. F. Tschan (New York, 1959), 4.6, p. 190.

(3) B. Hudson, *Viking Pirates and Christian Princes: Dynasty, Religion and Empire in the North Atlantic* (Oxford, 2005), p. 41;

وبصفة عامة، انظر أيضًا:

S. Brink, *Vikingarnas slavar: den nordiska träldomen under yngre järnålder och äldsta medeltid* (Stockholm, 2012).

-بدورها- تغذي بغداد ومدن أخرى في آسيا في الأخير، وكذلك في أماكن أخرى من العالم الإسلامي، بما في ذلك أسواق العبيد في المغرب والأندلس.

وشكلت القدرة على الدفع -ناهيك عن الاستعداد لإنفاق مبالغ باهظة- مكافآت سَنية للتجار الأوروبيين، وأرست الأساس لتحفيز الاقتصاد في شمالي أوروبا. وإذا حكّمنا اكتشافات العملات الأثرية المعدنية، فسنلحظ وجود ارتفاع في معدلات التبادل التجاري في أواخر القرن التاسع الميلادي، وهو القرن الذي شهد نموًا اقتصاديًا كبيرًا في بحر البلطيق، وجنوب السويد، والدانمارك؛ حيث توسعت مدن مثل: هيدبي (Hedeby)، وبيركا (Birka)، وولين (Wolin)، ولوند (Lund) سريعًا. كما تُظهر نقاط التنقيب -المنتشرة على مساحة آخذة في الاتساع على طول أنهار روسيا- كثافة حادة في مستويات التبادل التجاري، وكذلك ارتفاعًا ملحوظًا في عدد العملات المعدنية التي عُثر عليها في آسيا الوسطى، ولا سيما في سمرقند، وطشقند (الشاه)، وبلخ، فضلًا عن أماكن أخرى توزعت على طول طرق التجارة، والنقل، والاتصالات التقليدية، وصولًا إلى ما يُعرف الآن بأفغانستان[١].

واشتد الطلب على العبيد في هذه المواقع الغنية بالمال. ولم يقتصر الأمر على العبيد المجلوبين من الشمال فحسب؛ بل جُلبت أعداد ضخمة من إفريقيا جنوب الصحراء؛ حتى إن أحد النخاسين فاخَر ببيع أكثر من اثني عشر ألف عبد زنجي في أسواق بلاد فارس[٢]. وسُبي العبيد أيضًا من القبائل التركية في آسيا الوسطى، حيث أشار أحد المؤلفين المعاصرين إلى تقدير أهل عصره الشديد لبسالتهم، وسعة حيلتهم. ومتى تعلق الأمر باختيار «أثمن العبيد»، فقد أشار كاتبٌ آخر إلى أن أفضل العبيد كانوا يُجلبون من بلاد التُرك بقوله: «وهم [يعني الأتراك] خير رقيق، وأفرههم، وأحسن ما يحيط بالمشرق»[٣].

وربما يسعنا الإلمام بحجم تجارة الرقيق -ولو على نحو تقريبي- من خلال المقارنة مع العبودية في عصر الإمبراطورية الرومانية، وهو موضوع دُرس بتفصيل أوسع نطاقًا؛ إذ تشير البحوث الحديثة إلى أن الإمبراطورية الرومانية -في ذروة مجدها- كانت تتطلب عددًا تراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى

---

(1) T. Noonan, 'Early Abbasid Mint Output', *Journal of Economic and Social History* 29 (1986), 113–75; R. Kovalev, 'Dirham Mint Output of Samanid Samarqand and its Connection to the Beginnings of Trade with Northern Europe (10th Century)', *Histoire & Mesure* 17.3–4 (2002), 197–216; T. Noonan and R. Kovalev, 'The Dirham Output and Monetary Circulation of a Secondary Samanid Mint: A Case Study of Balkh,' in R. Kiernowski (ed.), *Moneta Mediævalis: Studia numizmatyczne i historyczne ofiarowane Profesorowi Stanisławowi Suchodolskiemu w 65. rocznicę urodzin* (Warsaw, 2002), pp. 163–74.

(2) R. Segal, *Islam's Black Slaves: The Other Black Diaspora* (New York, 2001), p. 121.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، نقلاً عن:

D. Ayalon, 'The Mamluks of the Seljuks: Islam's Military Might at the Crossroads', *Journal of the Royal Asiatic Society* 6.3 (1996), 312.

٤٠٠,٠٠٠ عبد جديد كل عام للحفاظ على عدد العبيد في الإمبراطورية[1]. بيد أن حجم السوق في العالم الناطق بالعربية -الذي امتد من الأندلس إلى أفغانستان- كان أكبر بكثير، فإذا افترضنا أن الطلب على العبيد حمل أوجه تشابه في كلا السياقين، فإن ذلك يشي بأن عدد العبيد الذين بيعوا للعالم الإسلامي قد يفوق عدد نظرائهم في العصر الروماني أضعافًا. وعلى الرغم من أن المصادر المحدودة التي بين أيدينا لا تكاد تُعيننا في هذا الصدد، فإن بعض الأفكار عن المقياس المحتمل لتلك التجارة تنبع من حقيقة أن إحدى الروايات تحدثت عن امتلاك الخليفة لألف جارية، وكان لزوجته مثل هذا العدد. بل قيل: إن خليفة آخر كان يمتلك ما لا يقل عن أربعة آلاف جارية. لقد كان للعبيد في العالم الإسلامي وجود، بيد أنهم كانوا صامتين، وكذلك كانوا في روما[٢].

توفر روما أيضًا مقارنة مفيدة أيضًا فيما تعلق بالطريقة التي جرى بها بيع العبيد وشراؤهم. فقد كانت هناك منافسة شديدة في العالم الروماني بين الأثرياء على الغنائم من السَّبي من خارج حدود الإمبراطورية. وكان بعض العبيد تُحف كانت تُقدَّر وفقًا لمظهرها الاستثنائي، كما شكَّلت موضوعًا للنقاش في المجال العام. ولعب الذوق الشخصي دوره في هذا الصدد أيضًا؛ حيث أصر أحد النبلاء المترفين على اقتناء عبيد متشابهين، وكلهم على القدر نفسه من الجمال، وكلهم من العُمر نفسه[3]. وسادت أفكار مماثلة لدى الأثرياء المسلمين، كما توضح المتون المتأخرة التي وُضعت لتكون أدلةً هاديةً لمن يرومون شراء العبيد. فكتب أحد المؤلفين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قائلًا: «من جملة أجناس السودان، ذوات ترف، ولطف، وقصف، أبدانهن يابسة، مع لين بشرة قوية، مع دقة وصلابة... وفيهن ... إذعان للمولى، كأنهن فُطرن على العبودية». وكانت نساء قبيلة البجا -التي استوطنت ما يُعرف الآن بالسودان، وإريتريا، ومصر- «مُذهَّبات الألوان، حسنات الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جواري متعة إن جلبت صغيرة». لم يكن المال قادرًا على شراء الحب قبل ألف عام، بيد أنه كان بوسعه أن يساعد المرء في الحصول على ما يشتهي[٤].

وقدمت متون أخرى مؤشرات أخرى مفيدة بالقدر نفسه. فقد نصح صاحب كتاب **قابوس نامه** في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قُراءه قائلًا: «إن أردت أن تشتري الرقيق فكن فطنًا؛ لأن شراء الآدمي علم صعب، فكثيرًا ما يكون العبد مليحًا»، ثم سرعان ما يتضح أن الحقيقة نقيض ذلك تمامًا. واستطرد ذلك المؤلف قائلًا: «وأكثر الخلق يظنون أن شراء الرقيق من جملة التجارات الأخرى،

---

(1) W. Scheidel, 'The Roman Slave Supply', in K. Bradley, P. Cartledge, D. Eltis and S. Engerman (eds), *The Cambridge World History of Slavery*, 3 vols (Cambridge, 2011–), 1, pp. 287–310.

(٢) انظر:

F. Caswell, *The Slave Girls of Baghdad. The Qiyan in the Early Abbasid Era* (London, 2011), p. 13.

(3) Tacitus, *Annals*, 15.69, p. 384.

(٤) ابن بطلان، تقويم الصحة، نقلاً عن:

G. Vantini, *Oriental Sources concerning Nubia* (Heidelberg, 1975), pp. 238–9.

ولا يعرفون أن شراء الرقيق، وعلم ذلك، من علوم الفلسفة»[1]. وحذَّر ذلك المؤلف من اصفرار البشرة، فهي علامة مؤكدة على إصابة صاحبها بالبواسير. كما حذَّر أيضًا من الرجال ذوي الوسامة الظاهرة، والشعر السبط، والعينين الواسعتين؛ فالرجل الذي هذه سماته لا يخلو حاله من إحدى خصلتين: «إما ولوعًا بالنساء، أو قوَّادًا». كما محض المؤلف المشتري النصيحة بأن يحرص على أن يُضجِع العبد الذي ينوي شراءه؛ ثم أردف قائلًا: «تضغط على كلا جانبيه»، وتراقب عن كثب ظهور أية أمارات دالة على وجود التهاب أو ألم؛ ثم على المشتري أن يتحقق مجددًا من «العيوب غير الظاهرة»، مثل رائحة الفم الكريهة، أو الصمم، أو التلعثم في الكلام، كما عليه أن يتفقد صلابة اللثة. ثم استطرد ذلك المؤلف قائلًا: إن حرصت على اتباع هذه التعليمات (وغيرها الكثير)، فلن يخيب لك أمل قط[2].

* * *

ازدهرت أسواق العبيد في جميع أنحاء أوروبا في القرون الوسطى، وكانت تغص بالرجال والنساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون دورهم في الرحلة إلى الشرق، وكذلك إلى البلاط الأندلسي في قرطبة؛ حيث كان هناك أكثر من ثلاثة عشر ألف عبد صقلبي (Slavic) في عام ٣٤٩هـ/ ٩٦١م[3]. ولم تلبث براغ (Prague) أن أصبحت -بحلول منتصف القرن العاشر الميلادي- مركزًا تجاريًّا رئيسًا يجذب التجار من الفايكنج الروس، وكذلك نظرائهم من التجار المسلمين؛ لشراء القصدير، والفراء، والعبيد وبيعها كذلك. وبالمثل، كانت المدن الأخرى في بوهيميا (Bohemia) أماكن طيبة لشراء الدقيق، والشعير، والدجاج، والعبيد أيضًا. وكانت جميع هذه السلع تباع بأسعار معقولة للغاية، وفقًا لما ذكره رحالة يهودي[4].

وغالبًا ما كان العبيد يُرسلون بصفة هدايا للحكام المسلمين. فعلى سبيل المثال، طرقت سفارة

---

(١) كيكاوس بن إسكندر بن قابوس، قابوس نامه، المسمى نصيحة نامه، تحقيق وترجمة:

R. Levy, *Naṣīhat-nāma known as Qābūs-nāma*, (London, 1951), p. 102.

(2) Ibid.

(3) D. Abulafia, 'Asia, Africa and the Trade of Medieval Europe', in M. Poštan, E. Miller and C. Poštan (eds), *Cambridge Economic History of Europe: Trade and Industry in the Middle Ages* (2nd edn, Cambridge, 1987), p. 417.

وانظر أيضًا:

D. Mishin, 'The Saqaliba Slaves in the Aghlabid State', in M. Sebök (ed.), *Annual of Medieval Studies at CEU 1996/1997* (Budapest, 1998), pp. 236–44.

(4) Ibrāhīm ibn Yaqūb, tr. Lunde and Stone, in *Land of Darkness*, pp. 164–5.

عن دور براغ بوصفها مركزًا لتجارة الرقيق، انظر:

D. Třeštík, '"Eine große Stadt der Slawen namens Prag": Staaten und Sklaven in Mitteleuropa im 10. Jahrhundert', in P. Sommer (ed.), *Boleslav II: der tschechische Staat um das Jahr 1000* (Prague 2001), pp. 93–138.

قادمة من توسكانيا (Tuscany) أبواب بغداد، قاصدة بلاط الخليفة العباسي المكتفي -في مستهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي- وأهدت الخليفة مجموعة منتقاة من الهدايا الثمينة، اشتملت على السيوف، والدروع، وكلاب الصيد، والطيور الجارحة. وكان من بين الهدايا التي قُدِّمت للخليفة رمزًا للصداقة، عشرون خصيًّا صقلبيًّا (سلافيًّا)، وعشرون جارية صقلبية (سلافية) كلهن فاتنات. لقد انتُزعت زهرة الشباب من جزء من العالم؛ لكي تُغرس في تربة جزء آخر منه[1].

وغطت التجارة بعيدة المدى نطاقًا واسعًا؛ حتى إن إبراهيم بن يعقوب شعر بالذهول مما وجده في أسواقماينز (Mainz)، عندما اجتاز بها في أثناء رحلته، فقد كتب قائلًا: «ياللعجب! كيف يجد المرء المسك والتوابل -التي تنمو في أقصى الشرق دون غيره من البقاع- في هذه المناطق النائية من الغرب؟ إن المرء ليجد الفلفل، والزنجبيل، والقرنفل، والنردين، والخُلُنجان (Galingale)؛ وكل هذه الأصناف النباتية إنما تأتي من الهند؛ حيث تنمو بوفرة هناك». ولم يكن هذا كل ما أدهش الرجل فحسب؛ بل إنه أبدى دهشته كذلك من حقيقة أن الدراهم الفضية كانت تُستخدم ثمة بوصفها عملة، بما في ذلك العملات المعدنية التي سُكَّت في سمرقند[2].

والحق أن تأثير العملات الإسلامية كان ملموسًا في مناطق نائية عن العالم الإسلامي، بل وسيظل كذلك لأعصرٍ تاليةٍ. فنحو عام ١٨٣هـ/ ٨٠٠م، نسخ الملك أوفا ملك مرسيا (Offa of Mercia) من أرض إنجلترا -وهو الملك الذي بنى السور المشهور لحماية بلاده من غارات الويلزيين- تصميم العملات الذهبية الإسلامية، ووسم بها عملته الخاصة. فقد أصدر عملات معدنية تحمل نقش «أوفا ريكس Offa Rex» (أي الملك أوفا) على وجه العملة، وعلى ظهرها نص غير مكتمل من النقش العربي. ومع ذلك، فإن هذا لم يكن يعني شيئًا لمن يتعاملون بالعملات المعدنية في مملكته[3]. كما عُثر على كنز كبير في لانكشاير (Lancashire) -يحتفظ به اليوم متحف أشموليان (Ashmolean) في أكسفورد- ويشتمل على عدد كبير من العملات المعدنية العباسية التي ضُربت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. ويُعد وصول العملة إلى المناطق النائية بالجزر البريطانية مؤشرًا على المدى الذي بلغه اتساع نطاق الأسواق في العالم الإسلامي.

لقد عوَّضت أوروبا أثمان الواردات التي بدأت في التدفق عليها في القرن الثالث الهجري/ التاسع

---

(١) ابن الزبير، الذخائر والتحف، الترجمة الإنجليزية:

Ibn al-Zubayr, *Book of Gifts and Rarities*, pp. 91–2.

وانظر أيضًا:

A. Christys, 'The Queen of the Franks Offers Gifts to the Caliph Al-Muktafi', in W. Davies and P. Fouracre (eds), *The Languages of Gift in the Early Middle Ages* (Cambridge, 2010), pp. 140–71.

(2) Ibrāhīm ibn Ya'qūb, pp. 162–3.

(3) R. Naismith, 'Islamic Coins from Early Medieval England', *Numismatic Chronicle* 165 (2005), 193–222; idem, 'The Coinage of Offa Revisited', *British Numismatic Journal* 80 (2010), 76–106.

الميـلادي بأثمـان بيع العبيد. وموّل الاتجار بالبشـر -على نطاق واسـع- شـراء التوابـل والعقاقير التي أخـذت تظهـر علـى نحو متزايد فـي المصادر بوصفها سـلعًا فاخرة اشـتد إقبـال أهل أوروبـا عليها، أو بوصفهـا ضـرورات طبية[1]. ولـم يكن الڤايكنج الـروس وحدهم هم الذين أفادوا من الطلب النَّهِم على العبيـد؛ بل جنى التجـار في ڤردون (Verdun) أرباحًا هائلة من بيـع العبيد الخصيان، وباعوهم -عادةً- للتجـار المسـلمين الأندلسـيين؛ وكذلك أقبـل التجار اليهود علـى التجارة طويلة المـدى للعبيد إقبالًا، فباعوا «الغلمان والجواري»، بل والخصيان أيضًا، كما تُشير المصادر العربية العائدة إلى هذه الحقبة[2].

وبالمثـل، تشـير مصـادر أخرى إلـى الدور الذي لعبـه التجار اليهـود في جلـب «العبيد [و]الغلمان والجواري» من أوروبا، وإجراء عمليات الإخصاء للصبية ما إن يمثلوا بين أيديهم، فكأن الخصاء صار شـكلًا بغيضًا من أشـكال التصديق البشـعة على ما يبدو لنا[3][4]. لقد كانت تجارة الرقيق تجارة مربحة للغايـة، وكان هـذا أحد الأسـباب التي جعلـت العبيد الأوروبيين مجرد رافدٍ فحسـب لنهر العبيد الذي تدفق على الشرق؛ ذاك أنه قيل: إن التجار المسلمين شاركوا في الغارة والسَّبي بهدف بيع العبيد أيضًا؛ حيث أغاروا على بلاد الصقالبة من شـرقي بلاد فارس، إلا أنهم كانوا يتركون أسـراهم المسترقين على فحولتهم، فقال أحد الكتَّاب: «تُركوا فحولة على أحوالهم، مقرورين على صحَّة أجسامهم»[5].

وأخصـى تجـار الرقيـق العبيد من الصبيان، فارتفعت أثمـان أولئك الخصيان ارتفاعًـا كبيرًا. وكتب مؤلف عربي من هذه الحقبة قائلًا: إذا أخذت توأما صقلبيًا، وأخصَيت أحدهما، فسيصير الخصي أكثر مهـارة، وأحـد ذكاءً، وأفصـح لسـانًا من أخيه، الذي سـيظل علـى حاله جاهلًا، وسـفيهًا، وغِـرًّا يحكي سـذاجة قومه من الصقالبة. وعلى هذا النحو كان يُعتقد أن الخِصاء يشـحذ عقول الصقالبة ويعمل على

---

(1) M. McCormick, 'New Light on the "Dark Ages": How the Slave Trade Fuelled the Carolingian Economy', *Past & Present* 177 (2002), 17–54;

انظر أيضًا:

J. Henning, 'Slavery or Freedom? The Causes of Early Medieval Europe's Economic Advancement', *Early Medieval Europe* 12.3 (2003), 269–77.

(٢) ابن خرداذبة، المسـالك والممالك، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Khurradādhbih, 'Book of Roads and Kingdoms', p. 111.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، الترجمة الإنجليزية:

tr. Lunde and Stone, 'Book of the Configuration of the Earth', in *Land of Darkness*, p. 173.

(٤) الإيماءة هنا إلى أن اليهود انفردوا بهذا العمل، فكأن الخِصاء كان ختمهم الذي وسموا به هؤلاء العبيد الخصيان. (المترجم)

(5) Ibid.

وانظر أيضًا: المقدسي، أحسن التقاسيم، الترجمة الإنجليزية

Al-Muqaddasī, *Land of Darkness*, p. 170.

تحسينها[١]. واستطرد ذلك المؤلف قائلاً: إن ذلك الحكم لا ينسحب على الزنوج؛ ذاك أن الخصاء يسلبهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم، ويحطهم عن مقادير إخوانهم[٢]. وكان حجم الاتجار بالعبيد الصقالبة كبيرًا؛ حتى إنه أثر على اللغة العربية: فكلمة الخصي (صقلبي) تُشتق من التسمية العرقية التي تشير إلى السلاف (الصقالبة).

وكثّف التجار المسلمون أنشطتهم في البحر المتوسط، فجلبوا الرجال، والنساء، والأطفال من جميع أنحاء شمال أوروبا إلى مرسيليا (Marseilles) حيث كانت هناك سوق مزدهرة مزدحمة لبيع العبيد وشرائهم، وغالبًا ما كان العبيد يجتازون أيضًا بالأسواق الفرعية مثل: روان (Rouen)، حيث كان العبيد الأيرلنديين والفلمنكيين يباعون لأطراف ثالثة[٣]. كما كانت روما مركزًا رئيسًا آخر لتجارة الرقيق، وذلك بغض الطرف عما إذا كان بعض أهلها قد كرهوا هذا النوع من التجارة. فقد شجب البابا هادريان الأول (Hadrian I) في عام ١٦٩هـ/ ٧٧٦م بيع البشر كالماشية، وأدان بيع الرجال والنساء إلى «جنس السَّراسنة [يعني العرب] الرهيب». كما زعم أن بعض الناس كانوا يصعدون على متون السفن التي كانت على وشك الإبحار إلى الشرق بمحض إرادتهم؛ «إذ لم يكن لديهم أمل آخر في البقاء على قيد الحياة» بسبب المجاعة الأخيرة، والفقر المدقع الذي كانوا يعانونه. ومع ذلك، فقد استطرد البابا قائلاً: «ما عاذ الله أن نتورط في مثل هذا العمل المشين» المتمثل في بيع إخواننا النصارى قط، «فلا سامحنا الله إن فعلنا ذلك»[٤]. لقد انتشرت العبودية في البحر المتوسط والعالم العربي؛ حتى إن صيغ التحيات المعتادة لم تزل مشيرةً إلى الاتجار بالبشر حتى يومنا هذا. فمتى اجتمع إيطاليان في جميع أنحاء إيطاليا، فإن أحدهما يقول للآخر: «Schiavo»، وهي كلمة مأخوذة من لهجة أهل البندقية. وكلمة «Ciao» -كما يشيع نطقها- لا تعني «مرحبًا» كما يُعتقَد على نطاق واسع؛ بل إنها تعني «أنا عبدُك»[٥].

ووجد أناسٌ آخرون أن وضع النصارى في الأصفاد مُقيدين، وبيعهم لسادة من المسلمين أمر لا يسع أحدًا تبريره. وكان ريمبرت (Rimbert) -وهو أسقف بريمن (Bremen)- أحد هؤلاء الذين كانوا يرون هذا الرأي. واعتاد ريمبرت التجوال في الأسواق في هيدبي (Hedeby) (وهي تقع على التخوم بين ألمانيا والدانمارك الحديثتين) في أواخر القرن التاسع الميلادي؛ حيث كان يفتدي أولئك الذين يجهرون بإيمانهم بالنصرانية، وكان يترك من لا يُقر بذلك إلى مصيره[٦]. بيد أن هذا الشعور لم يكن

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، نقلاً عن:

C. Verlinden, *L'Esclavage dans l'Europe medièvale*, 2 vols (Bruges, 1955–77), 1, p. 213.

(2) Ibid.

(3) Verlinden, *Esclavage*, 2, pp. 218–30, 731–2; W. Phillips, *Slavery from Roman Times to the Early Transatlantic Trade* (Manchester, 1985), p. 62.

(4) H. Loyn and R. Percival (eds), *The Reign of Charlemagne: Documents on Carolingian Government and Administration* (London, 1975), p. 129.

(٥) وجرى الحال في ألمانيا على المنوال نفسه، فقد شاع استخدام كلمة «Servus» بوصفها تحية شائعة.

(6) Adam of Bremen, *Gesta Hammaburgensis ecclesiae pontificum*, tr. T. Reuter, *History of the Archbishops of Hamburg-Bremen* (New York, 2002), I.39–41.

عامًّا عند الجميع، فكان سكان بحيرة غير واعدة -تقع شمال البحر الأدرياتيكي- من بين أولئك الذين لم يكن يرف لهم جفن فيما تعلق بالاتجار بالبشر. وكانت الثروة التي تراكمت من خلال تجارة الرقيق ومعاناة البشر هي التي وضعت حجر الأساس لتحولها إلى واحدة من جواهر التاج في البحر المتوسط في القرون الوسطى. لقد كانت تلك المدينة هي البندقية (Venice).

متى تعلق الأمر بالعمل والتجارة، فقد أثبت البنادقة ذواتهم بأسلوب فريد. ومن ثم فقد نشأت مدينة مبهرة في وسط الأهوار والمستنقعات، ثم تزينت بالكنائس المجيدة، والقصور المنيفة، من خلال العوائد المربحة للتجارة الكثيفة مع الشرق. واليوم؛ تقف المدينة شامخة لتعكس أمجاد الماضي المجيد، ومع ذلك فقد كانت معظم نيران البندقية من مُستصغر شرر نشاط تجَّارها في بيع أجيال من العبيد الذين وقعوا في أسرهم. وعلى هذا النحو انخرط التجار البنادقة -منذ فجر تاريخ البندقية عندما كانت مجرد مستوطنة- في تجارة الرقيق في أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمر استغرق وقتًا حتى تدفقت الفوائد والأرباح على المدينة أكداسًا مكدسة. وقيل: إن التجار البنادقة أُجبروا في النهاية على الالتزام بتقييد بيع العبيد، وكذلك إعادة العبيد الذين جُلبوا إلى المدينة بطرق غير قانونية، بغرض بيعهم إلى مدن أخرى في إيطاليا، وذلك من خلال سلسلة من المعاهدات التي أُبرمت بعد قرن من الزمان. وكانت هذه المفاوضات -في جزء منها- بمثابة رد فعل على النجاح المتزايد للمدينة، ومحاولة لنتف ريش أجنحة البندقية من قبل أولئك الذين كانوا يرون أن ثراء المدينة يمثل تهديدًا لهم[١].

وسرعان ما تحايل التجار البنادقة على تلك القيود المفروضة عليهم فيما تعلق بتجارة الرقيق، فعلى المدى القصير، شن البنادقة الغارات على الأطراف، حيث كان يسعهم أسر غير النصارى من بوهيميا (Bohemia)، ودالماسيا (Dalmatia) والتربح من بيعهم في الأسواق بوصفهم رقيقًا[٢]. أما على المدى الطويل، فقد استأنف البنادقة ممارسة التجارة على جاري عاداتهم. وتشير الرسائل العائدة إلى أواخر القرن التاسع الميلادي إلى أن البندقية دأبت على تملق الحكام المحليين الذين لم يخفوا قلقهم من أن تجار المدينة لم يكونوا يبيعون العبيد فحسب، بل كانوا يبيعون الأحرار أيضًا دون أن ترجف لهم خلجة. واتُّهم البنادقة كذلك ببيع رعايا المناطق المجاورة سواءً كانوا من النصارى، أم كانوا من غيرهم[٣].

وفي الأخير، بدأت تجارة الرقيق تضمحل، على الأقل في شرق أوروبا ووسطها. وكان أحد الأسباب الكامنة وراء ذلك الاضمحلال هو أن الڤايكنج الروس تركوا الاشتغال بالتجارة طويلة المدى، واحترفوا الابتزاز. لقد استرعى انتباه الڤايكنج الروس تلك الفوائد التي عادت على الخزر من

---

(1) *Pactum Hlotharii I*, in McCormick, 'Carolingian Economy', 47.

(2) G. Luzzato, *An Economic History of Italy from the Fall of the Roman Empire to the Sixteenth Century*, tr. P. Jones (London, 1961), pp. 35, 51-3; Phillips, *Slavery*, p. 63.

(3) McCormick, 'Carolingian Economy', 48-9.

التجـارة التـي كانـت تمر بمدن مثل أتِل، وذلـك بفضل الجمارك المفروضة على البضائع والسـلع التي كانت تمر عبر أراضي الخزر. وينص صاحب الرسـالة الجغرافية الفارسـية المشـهورة المسـماة حدود العالم على أن أساس اقتصاد الخزر كان يكمن في عائدات الجمارك بقوله: «وأغلب ما يأتي إلى ملك الخزر، يأتي من ضرائب البحر»[١]. كما أشار غيره من الكتَّاب المسلمين إلى الخراج الكبير الذي جمعه الخزر من النشاط التجاري مرارًا، بما في ذلك تلك الضرائب المفروضة على سكان العاصمة[٢].

وجذبت هذه العوائد انتباه الڤايكنج الروس بلا أدنى شك، وكذلك فعلت الجزية التي كانت تدفعها القبائـل المختلفـة للخاقـان. ومن ثم اسـتهدف الڤايكنـج تلك القبائـل، القبيلة تلو الأخـرى، وأمروهم بالخضوع لهم، ومن ثم دفع الجزية إلى زعمائهم العدوانيّين. وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي لم تكن قبائل السـلاف (الصقالبة) -في وسـط روسيا وجنوبها- تدفع الجزية إلى اسكندناڤيا فحسـب، بل منعهم الڤايكنج الروس من دفع الجزية «للخزر مجددًا؛ ذاك أنه لم يعد ثَم موجِب لدفعها لهم»، ولم يكن ينبغي دفع الجزية إلا إلى زعيم الروسيَّة، وحده دون غيره[٣]. وطُبِّقت هذه الممارسات فـي أماكـن أخـرى -مثل أيرلندا على سـبيل المثال- حيث حلَّـت الجزية مقابل الحمايـة محل الاتجار بالبشـر شيئًا فشيئًا، فقد سـجلت حوليات سـانت بيرتين (Annals of St Bertin) نبأ إذعان الأيرلنديين لدفع جزية سنوية مقابل السلام، بعد أن تعرضوا للغارات عامًا بعد آخر[٤].

أما في الشرق، فلم يمض وقت طويل قبل أن يؤدي استيطان الروس -الذي أخذ ينمو ويتزايد- إلى نشـوب المواجهة العسـكرية المباشرة بينهم وبين الخزر. فبعد أن شن الروس سلسلة من الغارات على المجتمعـات التجارية المسـلمة علـى بحر قزوين -التي «أراقت أنهارًا من الدمـاء» ولـم تزل قائمة حتى «أتـى عليهـا الروسـيَّة»- سـرعان مـا حـان دور الخـزر أنفسـهم في الأخيـر[٥]. فدمـر الروسـية أتِل عام

(١) مؤلف مجهول، كتاب حدود العالم، في:

Hudūd al- Ālam, in *The Regions of the World: A Persian Geography 372 AH–982 AD*, tr. V. Minorsky, ed. C. Bosworth (London, 1970), pp. 161–2.

(٢) ابن فضلان، رسالة أحمد ابن فضلان، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Fadlān, 'Book of Ahmad ibn Fadlān', p. 44;

ابن خرداذبه، المسالك والممالك، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Khurradādhbih, 'Book of Roads and Kingdoms', p. 12; Martinez, 'Gardīzī's Two Chapters on the Turks', pp. 153–4.

(3) *Russian Primary Chronicle*, tr. S. Cross and O. Sherbowitz-Wetzor (Cambridge, MA, 1953), p. 61.

(4) *Annales Bertiniani*, ed. G. Waitz (Hanover, 1885), p. 35.

(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، الترجمة الإنجليزية

Masūdī, 'Meadows of Gold', pp. 145–6;

ابن حوقل، صورة الأرض، الترجمة الإنجليزية:

Ibn awqal, 'Book of the Configuration of the Earth', p. 175.

٣٥٣هـ/ ٩٦٥م فلـم يبقوا فيهـا حجرًا على حجر؛ حتى إن أحد الكتَّاب علَّـق قائلًا: «إن كان بقي هناك ورقة على ساق، فقد أتى عليها الروسيَّة، ولـم يبق بالبلد [يعني بلاد الخزر] عِنبة ولا زبيبة»[١]. لقد خرج الخزر فعليًّا من المعادلة، وتدفقت أرباح التجارة مع العالم الإسلامي بأحجام أكبر نحو شمال أوروبا، كما تُظهر ذلك كميات العملات المعدنية التي عُثر عليها على طول الممرات المائية في روسيا[٢].

* * *

بحلـول نهاية القرن العاشـر الميلادي أضحـى الروس القوة المهيمنة على السـهوب الغربية؛ حيث سـيطروا على الأراضي الممتدة من بحر قزوين -شـمالي البحر الأسـود- حتى نهر الدانوب. وتحدث أحد المصادر عن حيوية الأسـواق التي باتت في قبضتهم آنذاك، حيث كان يسـع المرء شـراء «الذهب، والحريـر، والنبيـذ، والفواكه المختلفة من بلاد اليونان؛ والفضة والخيول من المجر وبوهيميا، والفراء، والشـمع، والعسـل، والعبيد من بلاد الروس»[٣]. بيد أن سـلطتهم التي مارسـوها على هذه الأراضي لم تكن سـلطة مطلقة، فغالبًا ما شـاب التوتر علاقات الروس مع البدو الرحَّل؛ وذلك بسبب التنافس على الموارد. وتُظهر طقوس إعدام أحد الأمراء الروس الكبار من هذه الحقبة على أيدي بدو السـهوب من قبائـل البجنـاق تلـك التوتـرات؛ حيـث احتفـت القبيلة بأسـر الأمير الروسـي. فلمـا قتلوه، عمـدوا إلى جمجمته فبطنوها بالذهب، واحتفظوا بها بوصفها كأسًا للنصر، لشرب النخب في الاحتفالات[٤].

ومع ذلك، اسـتمر الروس في إحكام قبضتهم على الممرات المائية والسـهوب خلال القرن العاشر الميـلادي؛ حتـى باتت طرق الاتصال الممتدة جنوبًـا أكثر أمنًا بمرور الوقت. ورافق هذه العملية تحول تدريجي في التوجهات التجارية، والدينية، والسياسـية. وكان أحد الأسـباب الكامنة وراء ذلك التحول أن الخلافة [العباسية] في بغداد أضحت مسرحًا لسلسلة من الاضطرابات بعد ما يقرب من ثلاثة قرون من الاسـتقرار والرخاء؛ الأمر الذي أدى إلى تفكيك الروابط بين المركز والأطراف، ما أدى -بدوره- إلى زيادة الاحتكاكات بين الولاة المحليين الذين زاد نفوذهم، فاشتدت الصراعات فيما بينهم. وجرى تجسـيد هـذه المخاطـر عندما نُهبـت البصرة عام ٣١٠هــ/ ٩٢٣م على أيـدي الثوار الشـيعة[٥]، قبل أن يهاجموا مكة بعد ذلك التاريخ بنحو سبع سنوات، ويسلبوا الكعبة الحجر الأسود[٦].

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Hawqal, 'Book of the Configuration of the Earth', p. 178.

(2) R. Kovalev, 'Mint Output in Tenth Century Bukhara: A Case Study of Dirham Production with Monetary Circulation in Northern Europe', *Russian History/Histoire Russe* 28 (2001), 250–9.

(3) *Russian Primary Chronicle*, p. 86.

(4) Ibid., p. 90.

(٥) الإشارة إلى القرامطة، وهجومهم على مكة عام ٣١٧هـ/ ٩٠٨م. (المترجم)

(6) H. Halm, *Das Reich des Mahdi. Der Aufstieg der Fatimiden (875–973)* (Munich, 1991); F. Akbar, 'The Secular Roots of Religious Dissidence in Early Islam: The Case of the Qaramita of Sawad Al-Kufa', *Journal of the Institute of Muslim Minority Affairs* 12.2 (1991), 376–90. =

وأدت سلسلة من فصول الشتاء قارسة البرودة بين العقدين الثالث والسابع من القرن التاسع الميلادي إلى تفاقم الأوضاع. وبلغت الظروف من السوء حدًّا؛ حتى إن شح الغذاء أضحى ظاهرة منتظمة على نحو متزايد. وكتَب أحد المؤلفين قائلًا: بات مشهدًا مألوفًا أن يُرى الناس وهم «يخلّصون حبات الشعير من روث الخيول والحمير ويأكلونها». واندلعت الثورات والاضطرابات المدنية مرارًا[1]. وكتب أحد المؤرخين الأرمن -بعد سبع سنوات عجاف متتالية في العقد السادس من القرن العاشر الميلادي- قائلًا: «أُصيب عدد كبير من الناس بالجنون»، وهاجم بعضهم بعضًا كما يفعل المجانين[2].

ومكنت الاضطرابات الداخلية بنو بويه -وهم سلالة جديدة- من فرض السيطرة السياسية على جزء كبير من أرض الخلافة في بلاد فارس والعراق، فأقرّوا الخليفة العباسي على منصبه بوصفه زعيمًا صوريًا ذا سلطات محدودة إلى حدٍّ كبير. وعلى صعيد آخر أطاح الفاطميون بالسلطة القائمة في مصر بالكُلية. وانتقل المسلمون الشيعة -الذين تمكنوا في السابق من إنشاء إمارة في المغرب مستقلة عن الخلفاء السُّنة في بغداد وقرطبة- إلى العاصمة المصرية الفسطاط، في نسخة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من «الربيع العربي». واستغل الفاطميون القحط الناجم عن جفاف النيل، الذي خلّف عددًا كبيرًا من الموتى والجوعى، في عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، ونشروا الثورة في شمال إفريقيا[3]. وعُرف السادة الجدد بالفاطميين -الذين كان لهم بوصفهم مسلمين شيعة آراء مختلفة تمامًا حول الشرعية والسُّلطة، والإرث الحقيقي الذي تركه النبي [ﷺ]. وكان لظهورهم تداعيات خطيرة على وحدة العالم الإسلامي؛ فقد كانت الفتن تتسع كلما جرى طرح أسئلة أساسية حول ماضي الإسلام، وحاضره، ومستقبله.

وكان شيوع الاضطراب -وما نتج عنه من تدهور في التجارة- أحد الأسباب التي جعلت الفايكنج الروس يولون وجوههم شطر نهري دنيبر (Dnieper)، ودنيستر (Dniester) -وكانا رافدان يصبان في البحر الأسود- شيئًا فشيئًا، بدلًا من التحرك على طول نهر الفولغا، وبحر قزوين كما كان ذلك دأبهم

= عن انهيار الخلافة في هذه الحقبة، انظر:

M. van Berkel, N. El Cheikh, H. Kennedy and L. Osti, *Crisis and Continuity at the Abbasid Court: Formal and Informal Politics in the Caliphate of al-Muqtadir* (Leiden, 2013).

(1) Bar Hebraeus, *Ktābā d-maktbānūt zabnē*, E. Budge (ed. and tr.), *The Chronography of Gregory Abul Faraj*, 2 vols (Oxford, 1932), 1, p. 164.

(2) Matthew of Edessa, *The Chronicle of Matthew of Edessa*, tr. A. Dostourian (Lanham, 1993), I.1, p. 19; M. Canard, 'Baghdad au IVe siècle de l'Hégire (Xe siècle de l'ère chrétienne)', *Arabica* 9 (1962), 282–3.

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

R. Bulliet, *Cotton, Climate, and Camels in Early Islamic Iran: A Moment in World History* (New York, 2009), pp. 79–81; R. Ellenblum, *The Collapse of the Eastern Mediterranean: Climate Change and the Decline of the East, 950–1072* (Cambridge, 2012), pp. 32–6.

(3) Ellenblum, *Collapse of the Eastern Mediterranean*, pp. 41–3.

في الماضي. ثم سرعان ما تحول انتباههم بعيدًا عن العالم الإسلامي، فيمموا وجوههم صوب الإمبراطورية البيزنطية وإلى مدينة القسطنطينية العظيمة، التي عُرفت في التراث الشعبي الإسكندناڤي باسم «ميكلي جارور Mikli-garðr» (أو ميكليجارث Miklegarth) - أي «المدينة العظمى». وكان البيزنطيون يحذَرون الروس، على الأقل منذ شن الروس غارة جريئة على المدينة في عام ٢٤٥هـ/ ٨٦٠م فأعملوا السيف في سكانها، ودمروا تحصيناتها، على حين غرة؛ حيث انتحب بطريرك القسطنطينية وهو يتساءل: تُرى مَن هم أولئك المقاتلون «الأشداء البرابرة الذين عاثوا فسادًا في الضواحي، ودمروا كل شيء، وأعملوا سيوفهم في كل حي، ولم يُشفِقوا على شيء، ولم يُبقوا ولم يذروا؟» ثم استطرد قائلًا: إن أولئك الذين لقوا مصارعهم كانوا أسعد حالًا! إذ لم يُعاينوا النكبات التي أعقبت موتهم[١].

ونظمت السلطات البيزنطية أمر دخول الروس أسواق القسطنطينية تنظيمًا محكمًا. وتشير إحدى المعاهدات التي عُقدت في القرن العاشر الميلادي إلى أن الحد الأقصى لعدد الروس المسموح لهم بدخول المدينة في أي وقت من العام كان خمسين رجلًا فحسب. ليس هذا فقط، بل كان يتعين عليهم الدخول من بوابة بعينها؛ كما كانت أسماؤهم تُسجَّل ثمة، وكذلك خضعت أنشطتهم في المدينة للمراقبة؛ ووُضعت قيود على ما يمكنهم شراؤه، وما يُحظَر بيعه لهم[٢]. وجرى تصنيفهم على أنهم رجال خطرين، ينبغي أن يُعَاملوا معاملة خاصة. ومع ذلك، سَرعان ما تحسنت العلاقات بين البيزنطيين والروس حتى أضحت علاقات طبيعية في الأخير؛ حيث تطورت مدن مثل: نوڤجورود، وتشرنيجوڤ (Chernigov)، وكييڤ (Kiev) -ولا سيما الأخيرة- من محطات تجارية، إلى معاقل محصنة، حتى أصبحت مستوطنات دائمة في الأخير[٣]. وكان اعتناق ڤلاديمير (Vladimir) -وكان أمير الروسية- للنصرانية في عام ٩٨٨م حدثًا من الأهمية بمكان؛ ذاك أن اعتناق الروس للنصرانية أدى إلى إنشاء شبكة كنسيَّة خدمها منذ البدء كهنة وقساوسة مبتعثون من القسطنطينية، كما تسبب كذلك في تلك الآثار الثقافية التي تدفقت على روسيا شمالًا قادمة من العاصمة الإمبراطورية. وعلى هذا النحو تركت هذه التأثيرات بصمتها على كل شيء، بداية من الأيقونات والآثار الدينية، وانتهاءً بتصميم الكنائس، وذوق الروس في اللباس[٤]. ولمَّا أضحى الاقتصاد الروسي أكثر ميلًا إلى التجارة، أصبح المجتمع -شبه المحارب- حضريًّا، وعالميًّا شيئًا فشيئًا[٥]. وصُدِّرت السلع الفاخرة مثل: النبيذ، والزيت، والحرير، من

(1) C. Mango, *The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople* (Cambridge, MA, 1958), pp. 88–9.

(2) *Russian Primary Chronicle*, pp. 74–5.

(3) Shepard, 'The Viking Rus' and Byzantium', in S. Brink and N. Price (eds), *The Viking World* (Abingdon, 2008), pp. 498–501.

(٤) انظر على سبيل المثال:

A. Poppe, 'The Building of the Church of St Sophia in Kiev', *Journal of Medieval History* 7.1 (1981), 15-66.

(5) Shepard, 'Viking Rus'', p. 510.

بيزنطة وبيعت في مدن الروس، وسجل التجار الفواتير والصكوك على لحاء البَتولا (Birch)[1].

وكان تحول الروس عن العالم الإسلامي، وتطلعهم إلى القسطنطينية نتاجًا لتغيُّرٍ واضح حاق بغربي آسيا؛ إذ استغل الأباطرة المتعاقبون الفتن والقلاقل التي أنشبت أظفارها في جسد الخلافة العباسية. وكان البيزنطيون قد فقدوا عددًا كبيرًا من الولايات الشرقية خلال حقبة الفتوحات الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى إعادة تنظيم جذرية لإدارة الولايات في الإمبراطورية. فلما انحسر المد الإسلامي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وجرت الرياح بما اشتهته سفن البيزنطيين، استهدفوا القواعد التي كان المسلمون ينطلقون منها لشن الغارات على أراضي الإمبراطورية في الأناضول، واستعادوها، الواحدة تلو الأخرى. كما استعادت الدولة البيزنطية جزيرتي كريت وقبرص أيضًا، الأمر الذي أعاد الاستقرار إلى الأراضي الواقعة شرقي البحر المتوسط، وبحر إيجة، وهي مناطق عانت الويلات من غارات القراصنة العرب على مدى عقود. ثم استولى البيزنطيون في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م أيضًا على مدينة أنطاكية العظيمة، وكانت سوقًا تجاريًا رئيسةً، ومركزًا من مراكز صناعة النسيج[2].

وأثار هذا الانقلاب في الحظوظ إحساسًا بالانتعاش في العالم النصراني. كما مثَّل إعادة توجيه مهمة للأصول والعائدات بعيدًا عن بغداد، دافعةً إياها نحو القسطنطينية؛ فطفقت العوائد من الضرائب والجمارك -التي كانت تتدفق في الماضي نحو بيت مال الخلافة- تملأ الخزائن الإمبراطورية آنذاك. وبشر هذا الازدهار ببداية عصر ذهبي لبيزنطة، وهو العصر الذي شهد نهضة فنية وفكرية في أوساط الفلاسفة، والعلماء، والمؤرخين البيزنطيين. كما شهدت ذلك العصر أيضًا بناء الكنائس والأديرة على نطاق واسع، وتأسيس مؤسسات، مثل: مدارس القانون؛ لتدريب القضاة بحيث يمكنهم الإشراف على إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف. كما كانت بيزنطة أيضًا المستفيد الأول من حالة العداء بين بغداد ومصر في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ حيث توصل الإمبراطور باسيل الثاني (Basil II) إلى اتفاق مع الخليفة الفاطمي -الذي تولى سدة الخلافة في أواخر العقد التاسع من القرن التاسع

(1) T. Noonan and R. Kovalev, 'Prayer, Illumination and Good Times: The Export of Byzantine Wine and Oil to the North of Russia in Pre-Mongol Times', *Byzantium and the North. Acta Fennica* 8 (1997), 73–96; M. Roslund, 'Brosamen vom Tisch der Reichen. Byzantinische Funde aus Lund und Sigtuna (ca. 980–1250)', in M. Müller-Wille (ed.), *Rom und Byzanz im Nordern. Mission und Glaubensweschel im Ostseeraum während des 8–14 Jahrhunderts* (Stuttgart, 1997), 2, pp. 325–85.

(2) L. Golombek, 'The Draped Universe of Islam', in P. Parsons Soucek (ed.), *Content and Context of Visual Arts in the Islamic World: Papers from a Colloquium in Memory of Richard Ettinghausen* (University Park, PA, 1988), pp. 97–114.

وعن المنسوجات الأنطاكية بعد عام ١٠٩٨م، انظر:

T. Vorderstrasse, 'Trade and Textiles from Medieval Antioch', *Al-Masāq* 22.2 (2010), 151–71.

الميلادي/ الثالث الهجري[١]- تأسست بموجبه روابط تجارية رسمية بين كلتا الدولتين، وتعهد البيزنطيون بموجب ذلك الاتفاق أيضًا بأن تُتلى الخطبة في جامع القسطنطينية باسم الخليفة الفاطمي، وليس خصمه الخليفة العباسي في بغداد[٢].

وازدهرت الأسواق في العاصمة الإمبراطورية، وكان النمو الاقتصادي والديموجرافي يرفدانها، في حين سادت التكهنات والريب الأسواق في الخلافة العباسية. وأسفرت تلك التطورات عن إعادة توجيه طرق التجارة من الشرق، فقد تحولت إلى البحر الأحمر، ونأت بنفسها عن المناطق القارية عبر بلاد الخزر والقوقاز. واستُبدلت الطرق البحرية -على امتداد الممرات البحرية- بالطرق البرية التي أدت في الماضي إلى ازدهار مدن مثل مرو، والري، وبغداد. وكان الازدهار الذي حققته الفسطاط، والقاهرة، ولا سيما الإسكندرية واضحًا، حيث نمَت الطبقات الوسطى مع ازدهار هذه المدن[٣]. وألفَت الدولة البيزنطية نفسها في وضع مواتٍ، وسرعان ما نعمت بجني بثمار علاقاتها الجديدة مع الفاطميين، فكانت السفن التجارية تبحر من الموانئ المصرية على مدار الساعة متجهة إلى القسطنطينية منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كما توضح الروايات العربية والعبرية ذلك[٤].

وأصبحت المنسوجات المصرية سلعة نفيسة في شرقي حوض البحر المتوسط، فاشتد الطلب على الكتان الذي كانت تنّيس تنتجه؛ حتى إن ناصر خسرو -وكان أحد كبار الكتاب والرحالة الفُرس في تلك الحقبة- علّق قائلًا: «سمعت أن سلطان الرُّوم كان قد أوفد رسولًا ليعرض على سلطان مصر أن يُعطيه مئة مدينة على أن يأخُذ تنيس»[٥]. ويكشف ظهور تجار أمالفي والبندقية في مصر منذ العقد الرابع من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، وتجار جنوة لاحقًا -بعد ثلاثة عقود من ذلك القرن نفسه- أن سكان بقاع أخرى -أبعد من القسطنطينية- فطنوا لانفتاح مصادر جديدة للسلع والبضائع[٦].

---

(١) ينبغي أن تكون الإشارة إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) بيد أنه تولى الخلافة في منتصف العقد الثامن من القرن العاشر الميلادي. (المترجم)

(2) D. Jacoby, 'Byzantine Trade with Egypt from the Mid-Tenth Century to the Fourth Crusade', *Thesaurismata* 30 (2000), 36.

(3) V. Piacentini, 'Merchant Families in the Gulf: A Mercantile and Cosmopolitan Dimension: The Written Evidence', *ARAM* 11–12 (1999–2000), 145–8.

(4) D. Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, 6 vols (Berkeley, 1967–93), 4, p. 168; Jacoby, 'Byzantine Trade with Egypt', 41–3.

(٥) ناصر خسرو، سفر نامه، الترجمة الإنجليزية:

tr. W. Thackston. *Nā er-e Khosraw's Book of Travels* (Albany, NY, 1986), pp. 39–40.

(6) Jacoby, 'Byzantine Trade with Egypt', 42; S. Simonsohn, *The Jews of Sicily 383–1300* (Leiden, 1997), pp. 314–16.

أمَّـا مـن منظـور الـروس، فلم تمثـل التغييرات فـي الطرق الرئيسـة، والشـبكات التجارية الشـمالية الجديـدة للتجـارة فـي التوابل، والحرير، والفلفل، والأخشـاب الصلبة -وغيرها من السـلع التي كانت تجلـب من الشـرق- فرقًا يُذكـر؛ إذ لم يكن الروس مُجبـرون على الاختيار بين القسـطنطينية النصرانية وبغداد الإسـلامية، بل على النقيض من ذلك، لقد كان وجود مصدرين محتملين لبيع السـلع وشـرائها أفضل من احتكار مصدر واحد لها. لقد وصل الحرير بكميات كبيرة إلى اسـكندناڤيا، كما يشـهد على ذلك اكتشاف أكثر من مئة قطعة حرير في سفينة رائعة، أسفرت أعمال التنقيب عن اكتشافها في أوسبرج (Oseberg) في النرويج؛ وكذلك في قبور الڤايكنج حيث دُفن الحرير -المجلوب من العالم البيزنطي، وكذلك من بلاد فارس- بوصفه مقتنيات ثمينة إلى جانب جُثث الرجال الذين امتلكوه يومًا[1].

❊ ❊ ❊

مـع مـا تقـدَّم، كان هنـاك من لم يـزل يعتقد -فـي منتصف القـرن الخامس الهجري/ الحادي عشـر الميلادي- أنه سـيجني ثروة إن شـدَّ رحاله، ويمم صوب مشرق العالم الإسلامي أسوةً بما كان أجداده يفعلـون مـن قبل. وكان أحـد الأمثلة على ذلك هو حجـر روني (Rune-stone)، الـذي ينتصب بجانب بحيـرة مـالار (Mälar) على مقربة من سـتوكهولم في السـويد. أنشَـأت ذلـك الحجر امـرأة تُدعى تولا (Tóla) فـي منتصـف القـرن الخامـس الهجري/ الحادي عشـر الميـلادي إحياءً لذكـرى ولدها هارلدر (Haraldr) ورفاقه في السـلاح. وجاء في النقش: «إنهم فتيةٌ قطعوا الفيافي والقفار سـعيًا وراء الذهب، كمـا يفعـل الرجـال»؛ وقد أصابـوا النجاح، إلا أنهـم قضوا نحبهم «فـي الجنوب، في أرض سـيركلاند (Serkland)». لقد كانت تلك المرأة تعني أرض السَّراسـنة، أي بلاد المسـلمين[2]. وهناك أيضًا الحجر الذي أقامه جوдليف (Gudleif) تخليدًا لذكرى ولده سلاجف (Slagve)، الذي «قضى نحبه في الشرق، في أرض خوارزم»[3]. واحتفت نصوص مثل: ملحمة الرحالة ينجڤار (Yngvar) -وكان أخًا لـ هارلدر (Haraldr)- أيضًا بذكرى الطموح الذي حمل أهل اسكندناڤيا إلى المغامرة في بحر قزوين وما وراءه. والحق أن البحوث الحديثة تشـير إلى أن الڤايكنج ربما أنشَـؤوا مسـتوطنة دائمة في الخليج العربي في تلك الحقبة[4].

بيد أن تركيز غرب أوروبا أخذ ينصب على الشرق النصراني على نحو متزايد، وعلى بيزنطة خاصةً. فسـاد الاهتمـام -شـيئًا فشـيئًا- بزيـارة الأرض التي عاش فيها يسـوع المسـيح، ومات، ثم قـام من بين الأمـوات. وارتبط ذلك الاهتمام بتوسـع آفاق سـكان غربي أوروبا، وأصبح الحـج إلى القدس مصدرًا

(1) M. Vedeler, *Silk for the Vikings* (Oxford, 2014).

(2) E. Brate and E. Wessén, *Sveriges Runinskrifter: Södermanlands Runinskrifter* (Stockholm, 1924–36), p. 154.

(3) S. Jansson, *Västmanlands runinskrifter* (Stockholm, 1964), pp. 6–9.

(4) G. Isitt, 'Vikings in the Persian Gulf', *Journal of the Royal Asiatic Society* 17.4 (2007), 389–406.

للفخـر علـى نحو يسـعنا اسـتيعابه وفهمه[1]. لقد كانـت الرغبة في شـد الرحال للمدينة المقدسـة نتاجًا لافتقـار أوروبـا الغربية للتراث النصراني، لا سـيما متى قورنت بالإمبراطوريـة البيزنطية. وكانت هيلينا (Helena) -وهي أم الإمبراطور قسـطنطين- أول من جلب الآثار المقدسـة إلى القسـطنطينية في القرن الرابـع الميلادي. وبحلول القرن الحادي عشـر الميلادي، توسـعت المجموعـات المذهلة في المدينة على نطاق واسـع لتشـتمل على آثارٍ مثل: المسـامير التي اسـتُخدمت في صلب المسيح، وتاج الشوك، وملابسه التي اقتُرِع عليها، وأجزاء من الصليب الحقيقي، إضافة إلى خصلات من شعر السيدة العذراء، ورأس يوحنا المعمدان، وما خفي أعظم[2]. وعلى النقيض من ذلك، كانت أوروبا مفتقرة إلى مثل هذه الذخائر على نحو واضح. وعلى الرغم من أن الملوك، والمدن، ومؤسسـات الكنيسـة غدت أكثر ثراءً من ذي قبل، فإن بلادهم لم تكن مرتبطة قط بقصة يسوع المسيح وحواريّيه ارتباطًا طبيعيًّا.

وجذبـت القـدس -بوصفهـا مهد النصرانيـة- والقسـطنطينية -بوصفهـا القيّم على الديـن- أعدادًا متزايدة من الرجال من غربي أوروبا إلى الشـرق النصراني، وإلى العاصمة الإمبراطورية خاصةً، سـواءً مـن أجـل التجـارة، أو الخدمـة، أو مجـرد الاجتيـاز بالطريق إلـى الأراضي المقدسـة ببسـاطة. وجرى الترحيب برجال من اسكندنافيا والجزر البريطانية في حرس ڤارانجيان (Varangian guard)، وهو فيلق من النخبة كان مُكلفًا بحراسة الإمبراطور شخصيًّا. وما زال أهل غربي أوروبا ينضمون إلى هذا الفيلق؛ حتـى أضحـت الخدمة فيه طقسًـا من طقوس المـرور بالمدينة. وخـدم بهذا الفيلق الرجـال من الغرب الأوروبي -مثل هالدر سيجورارسون (Haraldr Sigurðarson)، الذي أصبح لاحقًا ملكًا على النرويج (وهو المعروف باسـم هارلد هـاردرادا Harald Hardrada)- قبل أن يعودوا أدراجهم إلى أوطانهم[3]. وتردد صدى نداء القسـطنطينية عاليًا في جميع أرجاء أوروبا في القرن الحادي عشـر الميلادي. وتُشـير الوثائق إلى أن القسـطنطينية كانت في هذا القرن موطنًا لرجال من بريطانيا، وإيطاليا، وفرنسـا، وألمانيا، وكذلـك من كييـف، واسـكندناڤيا، وأيسـلندا. وكذلك أقـام التجار من البندقية، وبيـزا، وأمالفي، وجنوة مستعمرات في المدينة لشراء السلع والبضائع، ومن ثم تصديرها إلى بلادهم[4].

وعلى هذا النحو لم تكن الأماكن المهمة في باريس أو في لندن، كما لم تكن في ألمانيا أو إيطاليا، بل وُجِدت في الشـرق. وكانت المدن المرتبطة بالشـرق تحظى بأهمية، مثل خيرسـون (Kherson) في

---

(1) P. Frankopan, 'Levels of Contact between West and East: Pilgrims and Visitors to Constantinople and Jerusalem in the 9th–12th Centuries', in S. Searight and M. Wagstaff (eds), *Travellers in the Levant: Voyagers and Visionaries* (Durham, 2001), pp. 87–108.

(٢) انظر:

J. Wortley, *Studies on the Cult of Relics in Byzantium up to 1204* (Farnham, 2009).

(3) S. Blöndal. *The Varangians of Byzantium*, tr. B. Benedikz (Cambridge, 1978); J. Shepard, 'The Uses of the Franks in 11th-Century Byzantium', *Anglo-Norman Studies* 15 (1992), 275–305.

(4) P. Frankopan. *The First Crusade: The Call from the East* (London, 2012), pp. 87–8.

شبه جزيرة القرم، أو نوفجورود، وهي مدن ارتبطت بطرق الحرير المار بالعمود الفقري لآسيا. وأضحت كييف محورًا أساسيًا من محاور عالم القرون الوسطى، كما يتضح ذلك من خلال المصاهرات التي جرت مع البيت الحاكم فيها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي. فقد تزوجت بنات ياروسلاف الحكيم (Yaroslav the Wise) -الذي كان أمير كييف الأكبر حتى عام ١٠٥٤م- من ملك النرويج، وملك المجر، وملك السويد، وملك فرنسا. وتزوج أحد أبنائه من ابنة ملك بولندا، بينما صاهر آخر الأسرة الإمبراطورية في القسطنطينية. وكانت المصاهرات التي انعقدت في الجيل التالي أكثر إثارة للإعجاب؛ فقد تزوجت أميرات روسيات من ملك المجر، وملك بولندا، والإمبراطور الألماني القوي هنري الرابع (Henry IV). وكانت جيثا (Gytha) من بين النساء النبيلات اللائي تنافسن على الانضمام إلى البيت الحاكم في كييف؛ فكانت زوج ڤلاديمير الثاني مونوماخ (Vladimir II Monomakh)، أمير كييف الكبير: وهي أيضًا ابنة هارولد الثاني (Harold II) ملك إنجلترا الذي قُتل في معركة هاستينجز (Hastings) عام ١٠٦٦م. لقد كان البيت الحاكم في كييف أفضل البيوتات الحاكمة في أوروبا قاطبة.

وانتشرت مجموعة متزايدة من البلدات والمستوطنات في كل حدب وصوب عبر روسيا، كل لؤلؤة جديدة كانت تُنظَم في عقد المدن التي ربطت الشرق بالغرب. فظهرت بلدات مثل ليوبيش (Lyubcch)، وسمولينسك (Smolensk)، ومينسك (Minsk)، وبولوتسك (Polotsk)، وحققت ما حققته كييف، وتشرنيجوف، ونوفجورود من قبلها. كما ازدهرت مدن مثل: البندقية، وجنوة، وبيزا، وأمالفي، وارتقت في الثروة والنفوذ بالفعل. وكان سر نمو هذه المدن جميعًا وازدهارها هو التجارة مع الشرق.

وينطبق الأمر نفسه على جنوب إيطاليا، فقد تمكن المرتزقة النورمانديون -الذين اجتذبتهم أبوليا (Apulia)، وكالابريا (Calabria) أولًا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي- من أن يصبحوا قوة رائدة في البحر المتوسط، في إنجاز من أكثر الإنجازات لفتًا للانتباه في أوائل القرون الوسطى؛ فقد أطاح النورمانديون بسادتهم البيزنطيين في غضون جيل واحد فحسب، ثم يمموا وجوهم نحو صقلية الإسلامية فاكتسحوها. وكانت صقلية محطة تجارية مربحة على الصعيد الاقتصادي، كما كانت بقعةً حيويَّةً على الصعيد الاستراتيجي، إذ كانت تربط شمال إفريقيا بأوروبا، وتسيطر على البحر المتوسط في الوقت نفسه[1].

وكان الدافع الكامن وراء ظهور تلك القوى -في كل حالة على حدة- هو التجارة، والوصول إلى السلع التي كان الطلب يشتد عليها. وبهذا المعنى، لم يكن السؤال مع مَن تتاجر أمرًا ذا بال؛ فبحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بات الخط الفاصل بين النصرانية والإسلام رقيقًا.

---

(1) H. Hoffmann, 'Die Anfänge der Normannen in Süditalien', *Quellen und Forschungen aus Italienischen Archiven und Bibiliotheken* 47 (1967), 95–144; G. Loud, *The Age of Robert Guiscard: Southern Italy and the Norman Conquest* (Singapore, 2000).

وعلى الرغم من إصرار عدد كبير من المصادر على أهمية السياسة العليا والدين، فإن معظم التجار نظروا إلى هذه القضايا على أنها تعقيدات، من الأفضل تجنبها بالكلية؛ فلم يتساءل التجار عما إذا كانت أفضل الأسواق في القسطنطينية، أو في أتِل، أو في بغداد، أو بُخارى، ثم في المهدية أو الإسكندرية أو القاهرة عندما ازدهرتا من بعد. والحق أن المشكلة لم تكن متعلقة بمكان التجارة، أو بالطرف الذي يُتاجر، بل تمثلت في كيفية دفع ثمن السلع الفاخرة التي يمكن بيعها بعد ذلك في أماكن أُخر لتحقيق ربح جزيل. وكانت السلعة الأساسية المتاحة للبيع -بين القرنين الثاني والرابع الهجريين/ الثامن والعاشر الميلاديين- هي العبيد. ومع ازدهار الاقتصادات في شرق أوروبا وغربها، وزيادة قوتها ونفوذها، مدفوعة بالتدفقات الهائلة للعملات الفضية القادمة من العالم الإسلامي، نمت المدن وازداد عدد سكانها. وفي غضون ذلك، تكثفت مستويات التفاعل الاقتصادي، الأمر الذي أدى بدوره إلى زيادة الطلب على النقود السائلة، أي التجارة القائمة على العملات المعدنية، بدلًا من الفراء على سبيل المثال. ولما وقع هذا التحول، أضحت المجتمعات المحلية أكثر تعقيدًا وتطورًا؛ فتطور التقسيم الطبقي، وظهرت الطبقات الوسطى الحضرية. وبدأ استخدام المال بوصفه عملة للتجارة مع الشرق، وليس البشر.

وكان للقوى المغناطيسية التي اجتذبت الرجال من أوروبا وجود في الشرق أيضًا، كأنها صورة مرآة معكوسة. فقد بدأت الحدود التي رسمتها الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى في التلاشي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وجلبت الدول الإسلامية المختلفة -في جميع أنحاء آسيا الوسطى- رجالًا من السهوب ليكونوا جنودًا في جيوشها. وهكذا فعلت الخلافة في بغداد، وهكذا أيضًا فعل الأباطرة في القسطنطينية في الوقت نفسه، فجلبوا الرجال من شمالي أوروبا ومن غربها للخدمة في جيوشهم كذلك. وقامت تلك الدول -مثل السامانيين على سبيل المثال- بتجييش جيوش من القبائل التركية، بوصفهم قوات من الغلمان أو المماليك عادةً. وسرعان ما تجاوز نطاق الاعتماد على هؤلاء المماليك المناصب العسكرية، وامتد إلى المناصب القيادية. ولم يمض وقت طويل قبل أن يتطلع كبار الضباط الأتراك إلى كرسي الحكم نفسه. لقد كان من المفترض أن توفر الخدمة في مؤسسات الدولة فرصًا للطموحين؛ بيد أنه لم يكن من المفترض أن يتسلم هؤلاء الطامحون مفاتيح المملكة أيضًا.

وأسفر ذلك التحول عن نتائج مثيرة؛ فلما أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تأسست إمبراطورية جديدة اتخذت من غزنة (الواقعة الآن شرقي أفغانستان) حاضرةً لها، على أيدي أحفاد القائد التركي المملوك الذي كان بوسعه أن يكوّن جيشًا كبيرًا من الأتراك في هذه البلاد؛ حتى إن كاتبًا معاصرًا قارن أعدادهم بما لا يُحصى من «الجراد، أو النمل، أو رمال الصحراء»[1]. واستولى

---

(١) العتبي، كتاب يميني، الترجمة الإنجليزية:

tr. J. Reynolds, *Historical memoirs of the amir Sabaktagin, and the sultan Mahmúd of Ghazna* (London, 1868), p. 140. =

الغزنويون لأنفسهم على الأراضي التي امتدت من شرق بلاد فارس إلى شمال الهند، وأصبحوا رعاة كبارًا للفنون البصرية والأدب؛ فأجزلوا العطاء لكبار الكتّاب، مثل الفردوسي، صاحب كتاب الشاهنامه المجيد، وهو أحد عيون الشعر الفارسي في أوائل القرون الوسطى. ولا تغير حقيقة ما توصلت إليه البحوث الحديثة من أن الشاعر العظيم ربما لم يرحل إلى بلاط الغزنويين في أفغانستان لتقديم مصنَّفه بشخصه، كما كان يُفترض منذ أمد طويل[١]؛ ومع ذلك فإن هذا لا ينفي أن البلاط في غزنة كان يرعاه على بُعد الشُّقة.

كما أفاد الأتراك القراخانيون من ضعف المركز في بغداد، حيث فرضوا سيطرتهم على بلاد ما وراء النهر، وأنشؤوا مملكة إلى الشمال من نهر جيحون (نهر أوكسوس العظيم الذي يتدفق عبر حدود أوزبكستان وتركمانستان الحديثتين)، ثم اتفقوا مع الغزنويين على أن يرسم النهر الحد الفاصل بين الدولتين[٢]. ورعى القراخانيون -مثلهم في ذلك مثل جيرانهم- مدرسة مزدهرة من العلماء. ولعل أشهر النصوص الباقية من تراثهم هو ديوان لغات الترك الذي صنَّفه محمود الكاشغري، الذي اتخذ من مدينة بلاساغون -وكانت عاصمة القراخانيين في آسيا الوسطى- مركزًا للعالم، على النحو المبين في خريطة جميلة تخبرنا بالكثير عن الكيفية التي نظر بها هذا العالِم المتفنن إلى العالم من حوله[٣].

كذلك صُنِّف عدد كبير من المتون الأخرى الغنية الرائعة، وهي مصنفات عكست أوضاع مجتمع ثري، ومتحضر، ونابض بالحياة، وكذلك اهتماماته. وأحد المتون البارزة من هذا القبيل هو كتاب *Kutadgu Bilig* (**كتاب الحكمة الجالب لسعادة الأبد**) الذي ألَّفه يوسف خاص حاجب في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي باللغة التركية القراخانية. وهو متن يغص بالنصائح التي شددت على ضرورة معالجة القائد للمشكلات بعقلانية وتروٍّ، وحذرت من مغبة تحكيم العواطف والانفعالات. كما اشتمل ذلك المتن أيضًا على النصائح المتعلقة بكيفية قيام الثَّري بواجبات الضيافة تجاه ضيوفه، وإعداد مأدبة جيدة لهم. ولما كانت الكتب الحديثة في آداب السلوك تحرص على صوغ نصوصها بلغة سهلة واضحة، فلا يسعنا ألا نفتتن بأسلوب هذا المؤلف -الذي وضع كتابه قبل ألف عام- وحث فيه الحكام على الاستعداد جيدًا لمأدبة عشاء طيبة. قال المؤلف: «نظِّف الأكواب،

= وانظر بصفة عامة:

C. Bosworth, *The Ghaznavids, 994–1040* (Cambridge, 1963).

(1) A. Shapur Shahbāzī, *Ferdowsī: A Critical Biography* (Costa Mesa, CA, 1991), esp. pp. 91–3;

وانظر أيضًا:

G. Dabiri, 'The Shahnama: Between the Samanids and the Ghaznavids', *Iranian Studies* 43.1 (2010), 13–28.

(2) Y. Bregel, 'Turko-Mongol Influences in Central Asia', in R. Canfield (ed.), *Turko-Persia in Historical Perspective* (Cambridge, 1991), pp. 53ff.

(3) Herrman, 'Die älteste türkische Weltkarte', 21–8.

والمناديـل، وطهّـر البيـت والإيـوان، ورتـب المفروشـات. واختـر طعامًا وشـرابًا صحّيـين، ولذيذين، ونظيفيـن، حتـى يلتذ ضيوفـك بالطعام على النحو الـذي يُرضي قلوبهم». واحرص علـى التأكد من أن كؤوس ضيوفك تملأ ما أن تفرغ، ثم استطرد في نصائحه قائلًا: اعتنِ بضيفك الذين قد يأتون متأخرين بلطف، وأكرم وفادتهم: ولا ينبغي لك أن تأذن بأن يقوم واحدٌ من مجلسك جائعًا، أو لاعنًا[1].

لقـد كان المتنفـذون من محدثي النعمة بحاجة إلى مثل هـذه النصائح؛ فهم يعانون دومًا من مركب نقص -مثَلهم في ذلك مثل الأثرياء الجدد في أيامنا هذه- حيث يتوقون إلى أن يكون التصميم الداخلي للبيت (الديكور) مناسبًا، وكذلك وجود الطعام والشـراب على الطاولة عند وصول الضيوف. ونصح مؤلف ذلك الكتاب المضيِّف قائلًا: ولا يسعك أن تخطئ فتنسى إضافة ماء الورد إلى الماء.

ومع ذلك، لم يقنَع أولو العزم من الترك بإنشاء دولة لهم، أو الاكتفاء بتناول ما لذَّ وطاب من الطعام والشـراب؛ بل وضعوا الجائزة الكبرى نصب أعينهم؛ أعني بغداد. اسـتوطن السـلاجقة -وكانوا أحفاد زعيـم ينحـدر من قبيلة الغز- الأرض التي نعرفها الآن بـ كازاخسـتان الحديثة، منـذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي. واستطاعوا تكوين جيش استطاعوا به اجتياح بلاد فارس والعراق. وأبدى السلاجقة مهارة في المناورة السياسية، وفي اللحظة المناسبة؛ حيث قدموا خدماتهم للحكام المحليين مقابـل العطـاء والمكافـآت المناسـبة. ثم لم يمض وقـت طويل قبـل أن يتحولوا إلى قـوة حقيقية. ففي أواخر العقد الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، سيطر السلاجقة بمهارة على المدينـة تلـو الأخـرى؛ فخضعـت لهـم مـرو، ثم نيسـابور، فـ بلخ. ثـم ما لبثـوا أن ألحقوا هزيمـة نكراء بعدوهم الذي كان يفوقهم في العدد والعُدَّة في عام ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م، لقد هزموا الغزنويين في معركة دانداناقان[2].

* * *

سـرعان مـا تحـول السـلاجقة مـن كونهم مماليـك إلى رجال سياسـة وحُكـم اسـتثنائيين، ففي عام ٤٤٧هــ/ ١٠٥٥م دخلـوا بغـداد بدعوة مـن الخليفة، وطردوا منهـا البويهيين الذين لـم يكونوا يحظون بدعم الرعية، كما كانوا يعانون الضعف والوهن. وسُكَّت النقود المعدنية باسم القائد طُغرلبك، وصدر مرسـوم يقضي بأن تُقرأ الخطبة باسـمه. كما لُقب طغرلبك بلقبين جديدين، هما: السلطان ركن الدولة، ويمين أمير المؤمنين[3]، وكان ذلك بمثابة أمارة أخرى على هيمنته على بغداد وأرض الخلافة.

---

(1) Yūsuf Khās Hājib, *Kutadgu Bilig*, tr. R. Dankoff, *Wisdom of Royal Glory (Kutadgu Bilig): A Turko-Islamic Mirror for Princes* (Chicago, 1983), p. 192.

(٢) عن ظهور السلاجقة انظر:

C. Lange and S. Mecit (eds), *The Seljuqs: Politics, Society and Culture* (Edinburgh, 2011).

(٣) عن مناقشة لبعض التناقضات في المصادر في هذا الصدد، انظر:

O. Safi, *Politics of Knowledge in Pre-Modern Islam: Negotiating Ideology and Religious Inquiry* (Chapel Hill, NC, 2006), pp. 35–6.

ومن مفارقات التاريخ أن أسماء أبناء مؤسس دولة السلاجقة[1] تُشير إلى أن السلاجقة الأوائل كانوا إما نصارى، أو يهودًا. فقد تسمَّوا بأسماء مثل: ميكائيل، وإسرائيل، وموسى، ويونان[2]. وربما كانوا من بين ساكنة السهوب الذين بُشِّروا بالنصرانية إما من قِبل المبشرين الذين أشار إليهم البطريرك تيموثي (Timothy)، أو من قبل التجار الذين حملوا الخزر على اعتناق اليهودية[3]. وعلى الرغم من أن توقيت اعتناق السلاجقة الإسلام، والملابسات المحيطة بهذا الحدث ليست واضحة تمام الوضوح، فإن تمسك الحكَّام بمعتقدات دينية تخالف معتقدات السواد الأعظم من المسلمين دون أن يفقدوا شرعيتهم كان أمرًا محالًا. لقد تقدم السلاجقة سريعًا، ولو تحققت نجاحاتهم بوتيرة أبطأ، لبدا العالم مختلفًا تمامًا اليوم؛ إذ كان من المحتمل أن تظهر دولة في الشرق وعلى رأسها حكام من النصارى أو اليهود[4]. ولكن ما كان قد كان، فقد اعتنق السلاجقة الإسلام بمحض إرادتهم، وسرعان ما ألفى محدثو النعمة من غير المسلمين -الذين أقاموا على أطراف دولة الخلافة- أنفسهم أوصياء على تراث النبي [ﷺ]، وأبطال الإسلام المغاوير، وسادة واحدة من أقوى الإمبراطوريات في التاريخ.

وما لبث البيزنطيون أن شعروا بالقلق من صعود السلاجقة حتى قبل استيلائهم على السلطة في العاصمة العباسية؛ ذاك أن صعود السلاجقة السريع عمل على تشجيع غيرهم من البدو المقيمين على التخوم، فاستأسدوا وشنوا غارات جريئة على البيزنطيين في عمق البلقان، والقوقاز، وآسيا الصغرى، وذُهل السكان المحليون من سرعة غاراتهم. وأشار أحد الكتَّاب إلى أن خيول المغيرين كانت «سريعة كالعُقبان، وحوافرها صلبة كالصخر». لقد انقضوا على المدن «تمامًا كما تتداعى الذئاب الجائعة على فريستها»[5].

وخرج الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجين (Romanos IV Diogenes) من القسطنطينية على رأس جيش كبير في محاولة يائسة لتعزيز الدفاعات في الشرق، فلقي كارثة مروعة في مانزكرت عام

(١) الإشارة إلى سلجوق (أو سلجُق) بن دقاق (أو تقاق). (المترجم)

(٢) كان ڤاسيلي ڤلاديمير بارتولد (Vasily Vladimirovich Bartold) أول من أشار إلى هذا الاحتمال استنادًا إلى أسماء السلاجقة الأوائل، ورجح أن السلاجقة الأوائل كانوا يهودًا أو نصارى. بيد أن التمعن في هذه الأسماء يكشف عن أنها في مجملها مستقاة من العهد القديم (أي التوراة)، في حين ليس هناك اسم واحد يمكن رده إلى أصول نصرانية. ويشير هذا على الأرجح إلى خضوع الغز إلى قبائل الخزر، أو إلى اعتناق قبائل الغز اليهودية، ربما تقيَّة أو تأثرًا، أو تقربًا للخزر. أما الأصول النصرانية للسلاجقة فأنا أستبعدها بالكلية. (المترجم)

(3) Dunlop, *History of the Jewish Khazars*, p. 260; A. Peacock, *Early Seljuq History: A New Interpretation* (Abingdon, 2010), pp. 33–4; Dickens, 'Patriarch Timothy', 117–39.

(٤) هذا ليس صحيحًا، فلا ريب أن السامانيين بادروا بإرسال الأئمة والدعاة إلى قبائل الغز السلاجقة بمجرد أن طلب السلاجقة الإذن بالاستقرار على تخومها، ولا ريب أن الغز دخلوا في الإسلام (على المذهب الحنفي) قبل عقود من معركة داندانقان. (المترجم)

(5) Aristakes of Lastivert, *Patmut iwn Aristakeay Vardapeti Lastivertts woy*, tr. R. Bedrosian, *Aristakēs Lastivertc i's History* (New York, 1985), p. 64.

٤٦٣هـ/ ١٠٧١م؛ حيث بوغتت القوات البيزنطية، ولقيت هزيمة مذلة في معركة مشهورة، لم يزل الأتراك يحتفون بها -حتى يوم الناس هذا- بوصفها اللحظة التي شهدت ولادة دولة تُركيا الحديثة؛ حيث طوّق جيش السلاجقة الجيش الإمبراطوري وسحقه. ثم حُمل الإمبراطور أسيرًا، وطرحه السلطان السلجوقي ألب أرسلان أرضًا، وداس بقدمه على رقبته[١].

والحق أن السلاجقة في بغداد لم يكترثوا للإمبراطورية البيزنطية، بل كانت أعينهم مثبتة على الخلافة الفاطمية في مصر الشيعية. وسرعان ما انتطحت القوتان، حين تصارعتا للسيطرة على القدس. وفي أوج ذلك الصراع، أبدى السلاجقة رغبتهم في تطبيع العلاقات مع القسطنطينية، ولم تكن تلك العلاقات حارة بقدر ما كانت مستندة إلى تداخل المصالح المشتركة بين كلتا الدولتين؛ إذ كان لكليهما مصلحة في الحد من أنشطة العصابات التي أخذت تجوب آسيا الصغرى، وتلجأ إلى استراتيجية السهوب التقليدية في الإغارة وجباية الجزية مقابل السّلم. فبالنسبة للبيزنطيين، مثّلت هذه الغارات وهذه الأموال المدفوعة تهديدًا لاقتصادهم الإقليمي الهش. أما بالنسبة للسلاجقة، فقد كان ذلك يمثل تحديًا للسلطان، حيث نمت طموحات أمراء الحرب إلى ما يفوق قدراتهم. وعلى هذا النحو تعاون الإمبراطور والسلطان خلال عقدين من الزمن، من خلال مناقشات رفيعة المستوى، وصلت إلى حد بحث أمر عقد مصاهرة تربط كلا الحاكمين معًا بوشائج القُربى. ومع ذلك، فقد انهار التوازن بغتة عندما تردي السلاجقة في هوة صراع اندلع على السلطة عام ٤٨٢هـ/ ١٠٩٠م[٢]. وعلى هذا النحو ألقى صغار الأمراء في آسيا الصغرى الميدان مفتوحًا أمامهم على مصراعيه، فأنشؤوا إمارات لأنفسهم استقلوا بها عن بغداد[٣] تقريبًا، فشكلوا بذلك جِرابًا قاتلة في خاصرة بيزنطة[٤].

وبعد أن تلقت الإمبراطورية البيزنطية النصرانية الضربة تلو الضربة، جثت على ركبتيها أخيرًا. ولما أُسقِط في يد الإمبراطور، اتخذ إجراءً صارمًا؛ لقد أرسل يستجدي كبار الشخصيات والمتنفذين في جميع أنحاء أوروبا، بمن فيهم البابا أوربان الثاني (Urban II). وكانت مناشدة البابوية بمثابة محاولة أخيرة لوقف تردي الدولة البيزنطية في الهاوية. ولم يخلُ ذلك التصرف من المخاطرة؛ فقبل أربعة عقود، أدى تصاعد التوتر بين كنيستي روما والقسطنطينية إلى حدوث فتنة أدت إلى حرمان البطاركة والأباطرة بعضهم بعضًا كنسيًّا، وتهديد رجال الدين لبعضهم بعضًا بنيران الجحيم المستعرة، عندما تحول جزء من الجدل إلى العقيدة، ولا سيما مسألة ما إذا كان الروح القدس قد انبثق من الابن أيضًا،

---

(١) عن مصادر معركة مانزكرت (ملاذكرد)، انظر:

C. Hillenbrand, *Turkish Myth and Muslim Symbol* (Edinburgh, 2007), pp. 26ff.

(٢) الإشارة إلى الصراع الذي اندلع في أعقاب وفاة السلطان ملكشاه بين ابنه البكر بركياروق، وبين تحالف مكون من تركان خاتون -وكانت امرأة السلطان ملكشاه وأم ولي عهده محمود (وكان يبلغ من العمر ٤ سنوات)- وتاج الدولة تتش أخي السلطان ملكشاه وعم بركياروق. (المترجم)

(٣) حكم السلاجقة من أصفهان، وليس من بغداد. (المترجم)

(4) Frankopan, *First Crusade*, pp. 57–86.

كما انبثق من الأب. بيد أن بيت القصيد في هذا كله كان المنافسة على السيطرة على قلوب المؤمنين النصارى. وكانت محاولة الإمبراطور التواصل مع البابا يعني استعداده للتغاضي عن تلك الاختلافات في العقيدة، وكذلك التطلع إلى إعادة بناء العلاقات مع البابوية، وكان قول ذلك أيسَر من فعله بما لا يُقاس[1].

وجد مبعوثو الإمبراطور البابا أوربان الثاني في بياتشنسا (Piacenza) في مارس (آذار) من عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م، حيث «ناشدوا قداسته، وكل من يؤمن بالمسيح، تقديم يد العون ضد الوثنيين للدفاع عن الكنيسة المقدسة، التي أوشك الكفار في تلك المنطقة على إبادتها؛ حيث توغلوا حتى ألفوا أنفسهم على مرمى حجر من أسوار القسطنطينية»[2]. وأنعم البابا فكره في هذه الدعوة، فأدرك الفرصة الكامنة في طياتها. ومن ثم فقد اتخذ إجراءً؛ حيث عقد مجمعًا كنسيًّا في كليرمونت (Clermont) -في طريقه شمال جبال الألب- وأعلن فيه أن من واجب الفُرسان النصارى المسير لمساعدة إخوانهم في الشرق. ومن ثم بدأ أوربان جولة مرهقة لحشد دعم الأمراء والمتنفذين -ولا سيما في فرنسا- وتملقهم، وإقناعهم بالمشاركة في حملة كبيرة تنتهي بالاستيلاء على مدينة القدس المقدسة. لقد بدت الحاجة الماسة للنصارى المشارقة إلى المدد وكأنها قد تُفضي بالكنيستين إلى الوحدة[3].

وأصابت الدعوة إلى امتشاق الحسام وترًا حساسًا؛ حيث وُجِدت أعداد متزايدة من الحجاج النصارى كانت قد شقت طريقها للحج في الأماكن المقدسة في العقود التي سبقت مناشدة الإمبراطور للبابا. ومن ثم فقد وصلت الأخبار سريعًا إلى غربي أوروبا؛ من خلال الصلات الواسعة التي كانت تربط بين غربي أوروبا وبين القسطنطينية. لقد جاءتهم الأنباء تترى بأن جميع طرق الحج قد أُغلقت تقريبًا بسبب الاضطرابات السائدة في آسيا الصغرى، والشرق الأوسط. فضلًا عن ذلك سرت في أوساطهم أنباء مقلقة حول توغل الترك في الأناضول في أوروبا سريان النار في الهشيم، كما انتشرت كذلك أنباء تنكيلهم -أعني الترك- بالنصارى في الشرق. وعلى هذا النحو بات أكثر الناس في غربي أوروبا على يقين من أن قيام الساعة بات وشيكًا، ومن ثم لقيت دعوة البابا لهم استجابة هائلة؛ ففي عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٦م، شق عشرات الآلاف من الرجال طريقهم إلى القدس[4].

وكان الدافع الذي حث أولئك الذين انطلقوا إلى الشرق هو الإيمان، وأخبار الفظائع، والأعمال

---

(1) Ibid., pp. 13–25.

(2) Bernold of Constance, *Die Chroniken Bertholds von Reichenau und Bernolds von Konstanz*, ed. I. Robinson (Hanover, 2003), p. 520.

(3) Frankopan, *First Crusade*, pp. 1–3, 101–13.

(4) Ibid., passim.

عن الخوف من صراع الفناء، انظر:

J. Rubenstein, *Armies of Heaven: The First Crusade and the Quest for Apocalypse* (New York, 2011).

الوحشـية التـي ارتُكبت ضد النصارى، وكانـت تلك التفصيلات هي الجوهرية بالنسـبة لهم، كما تُظهِر المصـادر الغزيـرة العائدة إلى تلك الحقبة. وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية تُذكَر على أنها حرب دينيـة علـى نحو أساسـي، فإن أهم آثارهـا كانت دنيوية في المقـام الأول. لقد كان أول صـراع كبير بين القوى الأوروبية على المناصب والثروات والمكانة في الأراضي البعيدة على وشك أن يندلع، مدفوعًا بالرغبة في الاستحواذ على الجوائز التي كانت في متناول اليد. لقد تغيرت الأمور بغتةً على نحو جعل غرب أوروبا على وشك أن يجر نفسه إلى بقعة أقرب إلى قلب العالم.

-٨-

الطريق الى الجنة

سقطت القدس في أيدي فرسان الحملة الصليبية الأولى يوم ١٨ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليو (تموز) ١٠٩٩م. وكانت الرحلة إلى الشرق شاقة، تكاد تكون لا تُطاق؛ حتى إن كثيرًا من الذين خرجوا قاصدين المدينة المقدسة، لم يصلوا إلى وجهتهم قط؛ فإما قتلوا في معركة ما، أو قضوا نحبهم جوعًا أو مرضًا، أو وقعوا في الأسر. ولما أشرف الصليبيون على القدس، ذرفوا الدموع فرحًا وراحةً على مرأى من أسوار المدينة[١]. وعندما نقب المهاجمون أسوار المدينة بعد حصار دام ستة أسابيع، سفكوا دماء أهلها غير مُبالين. وكما قال أحد شهود تلك المذبحة: سَرعان ما تكدست الجثث في أرجاء القدس، حتى تشكلت على هيئة التلال الكبيرة مثل المنازل خارج بوابات المدينة، فلم يسمع أحدٌ بمثل هذه المذبحة من قبل[٢]. وقال آخر بعد سُنيَّات من تلك الحادثة: «لو كُتب لك أن تكون هناك، لغطت دماء القتلى قدميك حتى كاحليك. ماذا عساي أقول؟ لم يبق منهم أحد حيًّا؛ بل لم تنج النساء ولا الأطفال»[٣].

انتشرت أخبار الاستيلاء على المدينة المقدسة انتشار النار في الهشيم. وأصبح قادة الحملة أسماءً مألوفة بين عشية وضحاها. بيد أن أحدهم استحوذ على خيال الجمهور أكثر من غيره؛ ذاك هو بوهيموند (Bohemond)، وهو ابن أسطورة نورماندية، صنَع لنفسه اسمًا في جنوب إيطاليا وصقلية، وكان نجم أقدم الروايات عن الحملة الصليبية الأولى. كان بوهيموند وسيمًا إلى حدٍّ ما، ذا عينين زرقاوين، وذقن

---

(1) Albert of Aachen, *Historia Iherosolimitana*, ed. and tr. S. Edgington (Oxford, 2007), 5.45, p. 402; Frankopan, *First Crusade*, p. 173.

(2) Raymond of Aguilers, *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, tr. J. Hill and L. Hill, *Le 'Liber' de Raymond d'Aguilers* (Paris, 1969), 14, p. 127.

عن تلك الحملة، وعن الحملات الصليبية بصفة عامة، انظر:

C. Tyerman, *God's War: A New History of the Crusades* (London, 2006).

(3) Fulcher of Chartres, *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium*, tr. F. Ryan, *A History of the Expedition to Jerusalem 1095–1127* (Knoxville, 1969), I.27, p. 122.

هناك الكثير لنتعلمه من البحوث التي تجرى حاليًا حول العلاقة بين صحة العقل، والعنف الشديد في القتال. انظر على سبيل المثال:

R. Ursano et al., 'Posttraumatic Stress Disorder and Traumatic Stress: From Bench to Bedside, from War to Disaster', *Annals of the New York Academy of Sciences* 1208 (2010), 72–81.

قوي ناعم، وشعر قصير مميز. وأظهر شجاعةً ومكرًا كانا حديث الناس في غربي أوروبا. ولما عاد من الشرق في مستهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كُرِّم بوصفه بطلًا، وتبعته المضايقات كظله أينما ذهب، فتدافعت الفتيات يعرضن أنفسهن عليه؛ كي يختار لنفسه واحدة من بينهن زوجة له[1].

ويبدو أن بوهيموند كان يمثل كل شيء عن العالم الجديد الناشئ. وبدا في أعين المؤرخين الفرنجة -آنذاك- مثل تعويذة نقلت السلطة من الشرق إلى الغرب على نحو حاسم. لقد أنقَذ الفُرسان الشجعان -الذين قطعوا آلاف الأميال إلى القدس سيرًا على الأقدام- العالم النصراني، وحرر النصارى المدينة المقدسة بالفعل، بيد أنهم لم يكونوا النصارى الأرثوذكس اليونانيين من ساكنة الإمبراطورية البيزنطية، بل نصارى نورماندي، وفرنسا، وفلاندرز الذين شكلوا الغالبية العظمى من قوات الحملة. وعلى هذا النحو طُرِد المسلمون من مدينة سيطروا عليها منذ قرون. وكانت التنبؤات المشؤومة بقرب قيام الساعة تتردد في كل مكان عشية الحملة الصليبية، ثم سَرعان ما حل محلها التفاؤل بالمستقبل، والثقة بالنفس، والطموح. وفي غضون خمس سنوات فحسب تحولت التنبؤات من الخوف من قيام الساعة إلى الترحيب ببداية حقبة جديدة؛ أو فلنقل: عصرًا جديدًا، تهيمن عليه أوروبا الغربية[2].

وتأسست مستعمرات جديدة فيما بات يُسمى «أوتريمر» (Outremer) التي تعني حرفيًا «ما وراء البحار»، وحكمها سادة نصارى جدد. لقد كان توسعًا تخطيطيًا للقوة الأوروبية. وغدت القدس، وطرابلس، وصور، وأنطاكية كلها تحت سيطرة الأوروبيين، وتحكمها القوانين العرفية المجلوبة من الغرب الإقطاعي، والتي أثرت على كل شيء، بدءًا بحقوق الملكية للوافدين الجدد، ومرورًا بجمع الضرائب وتحصيلها، وانتهاءً بصلاحيات ملك القدس. لقد كانت عملية إعادة تشكيل للشرق الأوسط؛ ليكون على صورة أوروبا الغربية.

وبُذلت جهود هائلة -على مدى القرنين التاليين- للاحتفاظ بالأراضي التي استولى عليها الصليبيون إبان الحملة الصليبية الأولى، وفي أعقابها كذلك. وسعَت البابوية -المرة تلو الأخرى- إلى إقناع فرسان أوروبا بأنهم مُلزمون بالدفاع عن الأرض المقدسة. وكانت خدمة ملك أورشليم تعني خدمة الله، وجرى التعبير عن هذه الرسالة بقوة، كما انتشرت على نطاق واسع، الأمر الذي أدى إلى تشمير أعداد كبيرة من الرجال عن ساعد الجد، وشق طريقهم إلى الشرق، وشكَّل بعضهم ما عُرف

---

(1) Anna Komnene, *Alexias*, tr. P. Frankopan, *Alexiad* (London, 2009), 13.11, pp. 383–4;

وعن عودة بوهيموند إلى أوروبا، انظر:

L. Russo, 'Il viaggio di Boemundo d'Altavilla in Francia', *Archivio storico italiano* 603 (2005), pp. 3–42; Frankopan, *First Crusade*, pp. 188–9.

(2) R. Chazan, '"Let Not a Remnant or a Residue Escape": Millenarian Enthusiasm in the First Crusade', *Speculum* 84 (2009), 289–313.

بطائفة «فرسان الهيكل (Templar knights)»، وكانت طائفة جديدة حظيت بشعبية كبيرة، وأثبت مزيج معتقداتها الحماسي -المكون من الخدمة العسكرية، والإخلاص، والورع- سحره العظيم.

وأصبح الطريق إلى القدس طريقًا إلى الجنة نفسها؛ فقد أعلن البابا أوربان الثاني -في مستهل الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م- أن أولئك الذين يحملون الصليب، وينضمون إلى الحملة الذاهبة إلى المدينة المقدسة سيُغفر لهم ما تقدم من خطاياهم. وتطور هذا المفهوم في أثناء الحملة، إلى فكرة مؤدَّاها: إن أولئك الذين يسقطون في القتال ضد الكفار صرعى، ينبغي أن يُعدوا شهداء على طريق الخلاص. لقد كانت الرحلة إلى الشرق رحلة في الحياة الدنيا، وطريقًا إلى الجنة في الآخرة في الوقت نفسه.

وبينا تردد صدى روايات انتصار النصرانية، والبابوية، والفروسية، في الخطابة، والأناشيد، والشعر، من المنبر إلى المنبر، ومن الحانة إلى الحانة في الغرب النصراني، كان عدم الاكتراث هو رد الفعل في العالم الإسلامي غالبًا. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بُذلت لصد الصليبيين قُبيل استيلائهم على القدس وبُعيد ذلك مباشرة، فإن المقاومة كانت محلية ومحدودة. وكان بعض المسلمين في حيرة من أمرهم بإزاء هذا الموقف المتخاذل، وقيل: إن قاض اقتحم مجلس الخليفة في بغداد منددًا بتقاعس المسلمين عن الجهاد بُعيد وصول الجيوش من أوروبا، وأنشد الحاضرين قائلًا:

وكيف تنام العين ملء جفونها	على هنوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

وكان هناك رضًى غير معلن في بغداد والقاهرة لسقوط القدس في أيدي الصليبيين؛ فقد شعرت كل منهما بأن استيلاء النصارى على القدس كان خيرًا من استيلاء الشيعة أو السُّنة المتنافسين على المدينة. وعلى الرغم من أن الخطاب أثر في بعض المحيطين بالخليفة فجادت أعينهم بالدموع، إلا أن معظمهم رضي من الغنيمة بالإياب، ولم يحرك ساكنًا[1].

ولم يكن في نجاح الحملة الصليبية الأولى عزاءٌ ليهود أوروبا أو فلسطين، الذين شهدوا أعمال عنف مروعة على أيدي الصليبيين «النبلاء». ففي راينلاند (Rhineland) -على سبيل المثال- قُتل العَجزة، والنساء، والأطفال في فورة مفاجئة لمعاداة السامية في أوروبا. وكان ينبغي على اليهود أن

(١) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، نقلاً عن:

A. Maalouf. *The Crusade through Arab Eyes* (London. 1984), p. xiii.

وانظر أيضًا: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، نقلًا عن:

C. Hillenbrand. *The Crusades: Islamic Perspectives* (Edinburgh, 1999), p. 78.

وانظر بصفة عامة في هذا الصدد:

P. Cobb. *The Race for Paradise: An Islamic History of the Crusades* (Oxford, 2014).

يدفعوا ثمن إعادة تركيز القوى البشرية في أوروبا الغربية، وتطلعها إلى الشرق[١]. وارتبطت إراقة الدماء ارتباطًا مباشـرًا بمفهوم يقضي بأن اليهود هم الذين صلبوا المسـيح، وأن أرض إسـرائيل ينبغي أن يرثها نصارى أوروبا. وهكذا، لم يكن ثم شيءٌ ليعترض طريق الاتصالات الجديدة التي كان يجرى شقُّها في بلاد الشام.

وبالمثـل؛ لـم تكـن الحملة الصليبيـة قصة انتصار من منظـور البيزنطيين. فقد كمنـت خلف النجاح العسـكري للحملـة الصليبيـة -ورمزهـا «بوهيمونـد»- روايـة لا بطولة فيهـا، ولـم تذُرْ عـن الإنجازات المجيـدة، والنجـاح الباهـر، بـل عـن الخيانـة المزدوجـة للإمبراطورية. لقد التقـى جميع قـادة الحملة الإمبراطـور ألكسـيوس الأول (Alexios I) فـي أثنـاء اجتيازهـم بالعاصمـة الإمبراطوريـة عـام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٦-١٠٩٧م وأقسموا أمامه -بأغلظ الأيمان على الصليب المقدس الحقيقي الذي صُلب عليـه المسـيح- على أنهم سيسـلمون جميـع البلدان والأراضي التي سـيغزونها -وهـي التي كانت في الماضي جزءًا من أرض بيزنطة- إلى الإمبراطورية[٢]. ولما واصلت الحملة طريقها، انهمك بوهيموند في التفكير في كيفية التملص من هذه العهود والمواثيق، والاسـتيلاء على الغنائم لنفسـه، وعلى رأسـها مدينة أنطاكية العظيمة.

ولمـا اسـتولى الصليبيـون على المدينة بعد حصـار منهك، انتهز بوهيمونـد الفرصة؛ حيث ناظر في كاتدرائية القديس بطرس (Basilica of St Peter) في أنطاكية -في إحدى أكثر المواجهات مأساوية في هـذا العصـر- ودافـع متحديًا عن رفضه تسـليم المدينة إلى الإمبراطـور البيزنطي كما وعـد. فلما ذكَّره ريمونـد التولـوزي (ريمونـد الصنجيلـي) (Raymond of Toulouse) -وكان واحـدًا مـن أقـوى القادة الصليبيين- بقوله: «أقسمنا أمام صليب الرب، وتاج الشوك -فضلًا عن عدد كبير من الآثار المقدسة- على أننا لن نسـتولي لأنفسـنا على أية مدينة أو قلعة تقع تحت سـلطان الإمبراطور دون موافقة منه». رد عليـه بوهيمونـد ببسـاطة: إن القسـم باطل، وكأنه لـم يكن؛ ذاك أن ألكسـيوس نفسـه أخلـف وعوده؛ ثم رفض بوهيموند ببساطة الاستمرار في الحملة[٣].

لقـد كان وضـع الناس لـ بوهيموند في القلب مـن انتصار الحملة الصليبية مباشـرةً أمارة على تألق

---

(١) عن الروايات المتعلقة بمعاناة اليهود، انظر:

S. Eidelberg (tr.), *The Jews and the Crusaders* (Madison, 1977).

وانظر أيضًا:

M. Gabriele, 'Against the Enemies of Christ: The Role of Count Emicho in the Anti-Jewish Violence of the First Crusade', in M. Frassetto (ed.), *Christian Attitudes towards the Jews in the Middle Ages: A Casebook* (Abingdon, 2007), pp. 61–82.

(2) Frankopan, *First Crusade*, pp. 133–5, 167–71; J. Pryor, 'The Oath of the Leaders of the Crusade to the Emperor Alexius Comnenus: Fealty, Homage', *Parergon*, New Series 2 (1984), 111–41.

(3) Raymond of Aguilers, *Le 'Liber'*, 10, pp. 74–5.

الحملة الدعائية التي شُنت في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي؛ حيث تجاهلت تلك الحملة حقيقة أن بطل الصليبيين المفترض لم يكن قريبًا من المدينة المقدسة عندما سقطت في أيديهم. وعلى أية حال فقد انطلق جيش الصليبيين في النهاية بدونه بعد تأخير دام قرابة عام، انقضى جُله في محاولة حل أزمة أنطاكية. ولما كان الفُرسان يطوفون حول القدس شكرًا لله قبل أن يشرعوا بحصارها، وقد خلع بعضهم نعليه إظهارًا للتواضع- كان بوهيموند على بعد مئات الأميال، ينعم بجائزته الجديدة، التي حصل عليها بعناد وقسوة مطلقين[1].

نبع نجاح بوهيموند -في أنطاكية وأعمالها- من إدراكه أن هناك فرصًا استثنائية متاحة في شرق البحر المتوسط. وبهذا المعنى كان استيلاؤه على المدينة الخطوة التالية في العملية المغناطيسية التي جذبت رجالًا طموحين وذوي بأس من شمال أوروبا وغربها لعقود وقرون تالية. ويبدو من قبيل الأمثل أن نتذكر أن الحملة الصليبية كانت حربًا دينيةً، بيد أنها كانت في الوقت نفسه منطلقًا لجني الثروة، وممارسة السلطة على نحو جدي.

ولم يكن البيزنطيون وحدهم الذين أبدوا استياءهم من رفض بوهيموند تسليم أنطاكية لهم، وكذلك من سلوكه العدواني الخبيث؛ حيث افترى أنصاره في جميع أرجاء أوروبا الأباطيل عن ألكسيوس. لقد وُجد غيرهم ممن استقبلوا أنباء الإعداد للحملة الصليبية بفتور، ولا سيما روجر الصقلي (Roger of Sicily). وكان روجر واحدًا من المعمَّرين الذين حققوا ثروات لأنفسهم، وكانوا يشفقون من رؤية ما شيدوه يتعرض للخطر. ووفقًا لأحد المؤرخين العرب، فقد رفض روجر خطط مهاجمة القدس، وحاول تثبيط عزائم أولئك المتحمسين لإنشاء مستعمرات نصرانية جديدة في البحر المتوسط. وعندما سمع روجر بخطة الاستيلاء على القدس، «رفع رِجْلَه وحبَق حَبْقَةً عظيمةً». ثم قال: «وحقِّ ديني، هذه خَيْرٌ من كلامِكم!»؛ لقد أدرك روجر أنه من شأن الحرب على المسلمين إلحاق الضرر بعلاقاته بالشخصيات المؤثرة في المغرب الإسلامي، ناهيك عن المشكلات التي قد تخلقها مثل تلك الحرب في صقلية نفسها، حيث كان يعيش فيها عدد كبير من السكان المسلمين، الأمر الذي قد يتسبب في إثارة احتكاكات وقلاقل قد تؤدي إلى تعويق التجارة. وقال روجر: إن الخسارة الناتجة في الدخل سوف تتفاقم بسبب انخفاض خراج الأراضي الزراعية، ومن ثم فإنه من قبيل المحتَّم أن تتأثر الصادرات سلبًا. ثم أردف قائلًا: «إذا عزمتم على جهاد المسلمين»، فدونكم وما تريدون. ولكن اتركوا صقلية وشأنها[2].

وكانت هناك أسباب للقلق عبر عنها أمثال روجر الصقلي. فقد شهدت أسواق البحر المتوسط تقلبات في العقود التي سبقت الحملة الصليبية؛ إذ انخفضت القدرة الشرائية للقسطنطينية سريعًا في

---

(1) Frankopan, *First Crusade*, esp. pp. 186ff.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الترجمة الإنجليزية:

tr. D. Richards, *The Chronicle of Ibn al-Athir for the Crusading Period from al-Kāmil fī l-tarīkh* (Aldershot, 2006), p. 13.

مواجهة أزمة مالية كبرى. فعلى سبيل المثال انخفض سعر صبغة النيلي التي كانت تباع في الإسكندرية في عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٤م وحده بمقدار تجاوز ٣٠٪. ومن قبيل المتصوَّر أن هذا الانخفاض قد أثر -بالمثل- على تجارة الفلفل، والقرفة، والزنجبيل، حتى وإن لم تنص المصادر على ذلك صراحة[١]. وينبغي أن تكون التجارة المربحة بين المغرب وأوروبا عبر فلسطين، والتي شهدت بيع الخشب الاستوائي[٢] بأرباح بلغت ١٥٠٪ تقريبًا في عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م، قد تعرضت أيضًا لكسادٍ على نحو أو آخر[٣]. بل ربما أدت الصدمات المفاجئة الناتجة عن تقلبات العرض والطلب إلى اضطرابات شديدة في الأسعار، مثل الارتفاع الحاد في ثمن القمح الذي أعقب اجتياح النورمانديين لـ صقلية، أو انهيار ثمن الكتان في البحر المتوسط إلى ما دون النصف بسبب فائض العرض، وقصور الطلب في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٤].

ولم تكن مثل هذه الاضطرابات في الأسعار والثروات شيئًا متى قورنت بالتغيرات التي حاقت بالبحر المتوسط الناجمة عن آثار الحملة الصليبية. فقد كتب المؤرخ المغربي ابن خلدون قائلًا: إن الأساطيل الإسلامية في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين كانت تسيطر على البحار سيطرة كاملة؛ حتى إن النصارى لم يسعهم أن يطلقوا لوحًا على صفحة مياهه[٥]. وهكذا كان المسلمون على وشك فقدان السيطرة على البحر لصالح مجموعة جديدة من الخصوم؛ فقد كانت دويلات المدن في إيطاليا أحدث الإضافات إلى الشبكات التجارية الكبرى في الشرق.

* * *

الحق أن دويلات أمالفي (Amalfi)، وجنوة (Genoa)، وبيزا (Pisa)، والبندقية (Venice) شرعت في استعراض عضلاتها قبل العَقد الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وفيما تعلق بالبندقية خاصةً، أدت التجارة في العبيد، والسلع الأخرى كافةً إلى تكوين روابط قوية مع المدن على الساحل الدلماسي مثل: زارا (Zara)، وتروجير (Trogir)، وسبليت (Split)، ودوبروفنيك (Dubrovnik)، التي كانت بمثابة نقاط انطلاق على طول البحر الأدرياتيكي وما وراءه. ومثلت هذه المحطات التجارية أسواقًا محليةً في حد ذاتها، كما عملت بوصفها محطات يمكن الركون إليها في

---

(1) Jacoby, 'Byzantine Trade with Egypt', 44–5.

(٢) حرفيا في الأصل الخشب البرازيلي (Brazil-wood)، ولما لم تكن ثم برازيل، بل ولا أمريكا الجنوبية برمتها في هذا العصر، آثرت ترجمتها إلى «الاستوائي». والأخشاب الاستوائية ضرب من الأخشاب الثقيلة الصلبة المجلوبة من الهند والغابات المدارية في إفريقيا والصين. (المترجم)

(3) S. Goitein, *A Mediterranean Society*, 1, p. 45.

(4) A. Greif, 'Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidence on the Maghribi Traders', *Journal of Economic History* 49.4 (1989), 861.

(٥) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الترجمة الإنجليزية:
tr. V. Monteil, *Discours sur l'histoire universelle (al-Muqaddima)*, (Paris, 1978), p. 522.

أثناء الرحلات الطويلة. وتميط حقيقة وجود مستعمرات تجارية دائمة للدويلات الإيطالية في القسطنطينية -وكذلك في مدن أخرى في الدولة البيزنطية- اللثام عن اهتمام تلك الدويلات المتزايد بالتجارة مع شرقي البحر المتوسط[1]. وأدى هذا الاهتمام إلى النمو الاقتصادي في إيطاليا، وتلك الثروات العظيمة التي جمعتها بيزا في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ حيث فرض الأسقف والمواطنون قيودًا على ارتفاع الأبراج التي بناها النبلاء الذين كانوا يحرصون على التباهي بثرواتهم[2].

وسرعان ما أدركت دويلات المدن الإيطالية أن الاستيلاء على القدس من شأنه أن يفتح سوقًا تجارية واعدة؛ إذ كانت أساطيل جنوة، وبيزا، والبندقية تمخر عباب الماء، في طريقها إلى سوريا وفلسطين حتى قبل وصول الصليبيين إلى المدينة المقدسة. وعلى أية حال، كانت المبادرة بالإبحار إما نتيجة مباشرة لنداءات من البابوية للمشاركة في المشروع الصليبي، أو مدفوعة ذاتيًا بدافع الذود عن النصارى، ووقايتهم من الفظائع المروعة التي ارتكبت ضدهم، والتي رواها شهود عيان ومبعوثون من الدولة البيزنطية[3]. ولما كانت الدوافع الروحية عاملًا مهمًا، اتضح أيضًا أن هناك مكافآت مادية كبيرة في المتناول أيضًا. فقد ألفى الصليبيون أنفسهم في وضع قلق غداة استيلائهم على القدس، وكانوا في أمس الحاجة إلى المؤن والمدد، وبلغ بهم اليأس من إقامة روابط مع أوروبا مبلغه. وعملت أساطيل دويلات المدن على تقوية موقف هذه الدويلات في المفاوضات مع حكام الأرض المقدسة الجدد. كما تعززت قدراتهم أكثر فأكثر بسبب حاجة الصليبيين لتأمين السواحل والموانئ مثل: حيفا، ويافا، وعكا، وطرابلس حيث كانت القوة البحرية ضرورية لإحكام الحصار.

وأُبرمت الشروط التي منحت فوائد محتملة ورائعة مقابل مد يد العون؛ فقد وُعِد البنادقة الذين وصلوا حديثًا بكنيسة، وساحة، وسوق في كل مدينة يستولى عليها الصليبيون، إضافة إلى ثلث الغنائم التي يسلبها الصليبيون أعداءهم، وكذلك الإعفاء من جميع أنواع الضرائب، مكافأة لهم على المشاركة في حصار عكا عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م على سبيل المثال. لقد كان ذلك نموذجًا مثاليًا لما أسماه أحد الباحثين المزيج البندقي الكلاسيكي من «الورع والجشع» معًا[4].

ولما حاصر الصليبيون قيصرية عام ٤٩٤هـ/ ١١٠١م كان الجنويون في وضع مثالي لتأمين قدر كبير من الغنائم لأنفسهم مع وضع شروط تجارية مواتية. وقد تعزز موقفهم بعد نحو ثلاث سنوات عندما منح

---

(1) Frankopan, *First Crusade*, pp. 29–30.

(2) E. Occhipinti, *Italia dei communi. Secoli XI–XIII* (2000), pp. 20–1.

(3) J. Riley-Smith, *The First Crusaders, 1095–1131* (Cambridge, 1997), p. 17.

(4) The Monk of the Lido, *Monachi Anonymi Littorensis Historia de Translatio Sanctorum Magni Nicolai*, in *Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Occidentaux* 5, pp. 272–5; J. Prawer, *The Crusaders' Kingdom: European Colonialism in the Middle Ages* (London, 2001), p. 489.

بلدوين الأول (Baldwin I) -وكان ملك القدس- جائزة للجنويين اشتملت على مجموعة شاملة من الإعفاءات الضريبية، إضافة إلى الحقوق القانونية والتجارية الأخرى، مثل عدم الخضوع للولاية القضائية الملَكية في القضايا التي قد تصل العقوبة فيها إلى الإعدام. كما حصلوا على ثلث مدينة قيصرية، وثلث مدينة أرسوف، وثلث مدينة عكا، مع نسبة لا بأس بها من خراج عكا. كما التزم الملك بدفع جزية سنوية لجنوة، بل منحها الثلث من الفتوحات مستقبلًا، شريطة تقديم جنوة دعمًا عسكريًا مناسبًا في المقابل[1]. وكان إبرام مثل هذه الاتفاقات أمارات دالة على ضعف شوكة الصليبيين في الشرق. بيد أنها مثَّلت لدويلات المدن أساس الثروات التي حولتها من مراكز إقليمية إلى قوى دولية[2].

لا نستغربن إذن من أن تثير هذه المكافآت المذهلة منافسة شديدة بين بيزا، وجنوة، والبندقية. أما أمالفي، فقد تباطأت في إخراج أساطيلها إلى الشرق، ومن ثم لم تكن قادرة على منافسة أندادها، فاستُبعدت من اللعبة الكبرى التي بدأت للتو؛ بينما اشتدت المنافسة بين الآخرين على حق الوصول، والامتيازات، وشروط التجارة المربحة. وقاتل أهل بيزا البنادقة في أوائل عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م؛ حيث أغرق البنادقة ثمانية وعشرين سفينة من أسطول قوي كان مكونًا من خمسين سفينة بيزية قبالة رودس. ثم ما لبث البنادقة أن أطلقوا سراح الأسرى والسفن التي وقعت في أيديهم في استعراض للشهامة؛ ذاك أنهم -وفقًا لمصدر متأخر- لم يخيطوا صليب الرب على ستراتهم فحسب -كما أمر البابا الصليبيين بفعل ذلك- بل وسموا به أرواحهم أيضًا[3].

وكانت خلفية اندلاع هذا الصراع، منح البندقية امتيازات تجارية واسعة النطاق في الإمبراطورية البيزنطية عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩٢م، وذلك جزءًا من استراتيجية كبرى للإمبراطور ألكسيوس لتحفيز اقتصاد بلاده. واشتملت تلك الامتيازات على منح البنادقة أرصفة بحرية في ميناء القسطنطينية، وإعفائهم من الضرائب سواءً على الواردات أو الصادرات[4]. ومن ثم كان

---

(1) *Codice diplomatico della repubblica di Genova*, 3 vols (Rome, 1859–1940), 1, p. 20.

(2) B. Kedar, 'Genoa's Golden Inscription in the Church of the Holy Sepulchre: A Case for the Defence', in G. Airaldi and B. Kedar (eds), *I comuni italiani nel regno crociato di Gerusalemme* (Genoa, 1986), pp. 317–35.

وانظر أيضًا:

M.-L. Favreau-Lilie, *Die Italiener im Heiligen Land vom ersten Kreuzzug bis zum Tode Heinrichs von Champagne (1098–1197)* (Amsterdam, 1989), p. 328.

حيث يرى فافرو ليلي (Favreau-Lilie) أن هذه الوثيقة ربما تعرضت للعبث بها في تاريخ متأخر.

(3) Dandolo, *Chronica per extensum descripta, Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols (Bologna, 1938–58), 12, p. 221.

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

Monk of the Lido, *Monachi Anonymi*, pp. 258–9.

(4) M. Pozza and G. Ravegnani, *I Trattati con Bisanzio 992–1198* (Venice, 1993), pp. 38–45.

لمعرفة تاريخ الامتيازات، والتي تعود إلى عام ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م، انظر: =

الدافع الأساسي للبنادقة بعد سبع سنوات، هو إبعاد بيزا عن هذا السوق، وإبقائها خارج المنافسة، سعيًا منهم لحماية الشروط الممتازة التي تفاوضوا عليها مع الإمبراطور. ومن ثم أرغم البنادقة البيزيين على الموافقة على ألا تطأ أقدامهم أرض بيزنطة مجددًا قط «من أجل التجارة، وعلى ألا يقاتلوا النصارى بحال من الأحوال، ما لم يكن ذلك القتال بسبب [منعهم من] التكريس في القبر المقدس»، وكان ذلك جزءًا من التسوية مع البندقية. إن هذا -على الأقل- هو ما وصف به البنادقة ما حدث[1].

وكان التعهد بالتزام مثل هذه الشروط أمرًا عسيرًا؛ فالحق أنه بحلول أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، منح الإمبراطور البيزنطي بيزا امتيازاتها الخاصة التي لم تكن تختلف عن تلك التي منحت سابقًا لمدينة البندقية، إن لم تكن بالقدر نفسه من الجود والكرم. فعلى الرغم من أنهم -أعني البيزيين- حصلوا بدورهم على رصيف، ومرسى بحريين في العاصمة الإمبراطورية، فإن الدولة فرضت على تجار بيزا رسومًا جمركية مخفضة، وليس إعفاءً كاملًا منها[2]. وكانت هذه محاولة من الإمبراطورية لتخفيف احتكار البنادقة -الذين مُنحوا امتيازات مفرطة بإزاء منافسيهم- للتجارة[3].

وكان الصراع بين دويلات المدن الإيطالية من أجل الهيمنة التجارية في شرق البحر المتوسط محمومًا، ولا رحمة فيه. ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن تنتصر البندقية على منافسيها انتصارًا مؤزرًا. ويرجع ذلك إلى الموقع الجغرافي للمدينة المطلة على البحر الأدرياتيكي إلى حد كبير، الأمر الذي كان يعني أن وقت الإبحار إلى البندقية كان أقصر من الرحلة إلى بيزا، أو جنوة؛ كما ساعد على ذلك أيضًا أن المرافئ على هذا الطريق كانت أفضل، وهو الأمر الذي جعل رحلاتها أكثر أمانًا أيضًا، على الأقل لم يكن التجار البنادقة مضطرين إلى التفاوض على عبور بيلوبونيز (Peloponnese) الغادرة. وكان اقتصاد البندقية الأقوى والأكثر تطورًا أمرًا مهمًا أيضًا، وكذلك حقيقة أن المدينة لم يكن لديها منافس محلي ليكبح جماح نموها، على النقيض من بيزا وجنوة، الذين أدى تنافسهما الشديد إلى ضياع

= P. Frankopan, 'Byzantine Trade Privileges to Venice in the Eleventh Century: The Chrysobull of 1092', *Journal of Medieval History* 30 (2004), 135–60.

(1) Monk of the Lido, *Monachi Anonymi*, pp. 258–9; Dandolo, *Chronica*, p. 221.

وانظر أيضًا:

D. Queller and I. Katele, 'Venice and the Conquest of the Latin Kingdom of Jerusalem', *Studi Veneziani* 21 (1986), 21.

(2) F. Miklosich and J. Müller, *Acta et Diplomata graeca medii aevi sacra et profana*, 6 vols (Venice, 1860–90), 3, pp. 9–13.

(3) R.-J. Lilie, *Byzantium and the Crusader States, 1096–1204*, tr. J. Morris and J. Ridings (Oxford, 1993), pp. 87–94; 'Noch einmal zu den Thema "Byzanz und die Kreuzfahrerstaaten"', *Poikila Byzantina* 4 (1984), 121-74. Treaty of Devol, *Alexiad*, XII.24, pp. 385–96.

امتيازاتهما في بلاد الشام في لحظات حاسمة، حيث تنافستا على السيطرة على سواحلهما، وفي المقام الأول على سواحل كورسيكا (Corsica)[1].

ولعبت كل هذه العوامل لصالح البندقية عندما تلقى جيش كبير من الفُرسان الغربيين ضربة قاصمة فيما أصبح يُعرف بمعركة ميدان الدم (Field of Blood) في عام ٥١٢هـ/ ١١١٩م؛ حيث وُجِّه المسلمون ضربة قاصمة لطموح أنطاكية في أن تصبح دولة صليبية مستقلة[2]. وفي غمار انهماك بيزا وجنوة في تسوية خلافاتهما الخاصة، أُرسلت نداءات يائسة من أنطاكية إلى الدوق في البندقية، استجداءً للمساعدة باسم يسوع المسيح. وتشكلت قوة جبارة؛ لأنه -على حد قول أحد الكتَّاب المعاصرين الأسخياء- سعى البنادقة «بعون الله لتوسيع القدس وضم المنطقة المجاورة، وكل ذلك لصالح النصرانية ومجدها»[3]. إلا أن مناشدات المساعدة من الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) جاءت مصحوبة بوعود بامتيازات جديدة، وإضافية في المقابل على نحو ملحوظ[4].

واستغل البنادقة هذا العرض لتلقين البيزنطيين درسًا لا ينسونه؛ فقد خلص الإمبراطور الجديد، يوحنا الثاني (John II) -الذي خلف والده ألكسيوس في عام ٥١١هـ/ ١١١٨م- إلى أن الاقتصاد المحلي قد تعافى، ولم يعد ثَم مبرر لتجديد الامتيازات التي مُنحت للبنادقة قبل أكثر من عقدين. وثارت ثائرة البنادقة، وشق أسطول البندقية طريقه نحو أنطاكية شرقًا، وفرض حصارًا على جزيرة كورفو (Corfu)، وهدد بمزيد من التصعيد إذا لم يجدد الإمبراطور امتيازات البندقية. ثم ما لبثت المواجهة أن نشبت، فاضطر الإمبراطور للتراجع عن قراراته، وأعاد التأكيد على الامتيازات التي منحها والده للبنادقة للمرة الأولى[5].

وواكب هذا الظفر المكاسب التي تحققت عندما وصلت سفن الدوق أخيرًا إلى الأرض المقدسة. وقدم البنادقة -بعد أن قيموا الوضع بدهاء- قرضًا للقادة الغربيين في القدس لتمكينهم من تمويل قواتهم لشن هجوم على الموانئ التي كانت تحت سيطرة المسلمين، وفي المقابل أخذت البندقية

---

(1) S. Epstein, *Genoa and the Genoese: 958–1528* (Chapel Hill, NC, 1996), pp. 40–1; D. Abulafia, 'Southern Italy, Sicily and Sardinia in the Medieval Mediterranean Economy', in idem, *Commerce and Conquest in the Mediterranean* (Aldershot, 1993), 1, pp. 24–7.

(2) T. Asbridge, 'The Significance and Causes of the Battle of the Field of Blood', *Journal of Medieval History* 23.4 (1997), 301–16.

(3) Fulcher of Chartres, *Gesta Francorum*, p. 238.

(4) G. Tafel and G. Thomas, *Urkunden zur älteren handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols (Vienna, 1857), 1, p. 78; Queller and Katele, 'Venice and the Conquest', 29–30.

(5) Tafel and Thomas, *Urkunden*, 1, pp. 95–8; Lilie, *Byzantium and the Crusader States*, pp. 96–100; T. Devaney, '"Like an Ember Buried in Ashes": The Byzantine–Venetian Conflict of 1119–1126', in T. Madden, J. Naus and V. Ryan (eds), *Crusades – Medieval Worlds in Conflict* (Farnham, 2010), pp. 127–47.

الكثير من الصليبيين. وعَد الصليبيون البندقية بكنيسة، وشارع، وميدان بحجم جيد في كل مدينة ملكية، وبارونية في مملكة القدس. كما كانت البندقية تستحق جزية سنوية، تضمنها عائدات ضريبية كبيرة ستجبى في المستقبل من مدينة صور، وكانت مركزًا تجاريًا رئيسًا في المنطقة. فلما سقطت تلك المدينة في أعقاب حصار عام ٥١٧هـ/ ١١٢٤م، تغير وضع البندقية من خلال منحها امتيازات واسعة النطاق انطبقت على جميع أنحاء مملكة القدس. وعلى هذا النحو حولت المدينة الإيطالية مجرد موطئ قدم لها، إلى مواقع حصينة؛ حتى إن بعض أمراء الصليبيين أدركوا أن تلك الامتيازات باتت تهدد بالمساس بسلطة التاج، وحاولوا التخفيف من غلواء تلك الشروط[1].

كان هذا العصر في الظاهر عصر الإيمان، والحماسة الدينية المتقدة، وهي حقبة تميزت بالتضحية بالنفس باسم النصرانية. ولكن كان ينبغي على الدين أن يزاحم السياسة الواقعية، والمخاوف المالية كتفًا بكتف، وكانت الهيراركية الكنسية تدرك ذلك. ولما حاول الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني تجديد مطالبته بأنطاكية، أصدر البابا مرسومًا لجميع المؤمنين، يعلنهم فيه أن أي شخص يمد يد العون للبيزنطيين ملعون لعنة الأبد[2]. وكان هذا المرسوم يحرص على سعادة حلفاء روما، بيد أنه لم يكن له علاقة لا باللاهوت، ولا بالعقيدة في الأخير.

بيد أن أفضل مثال على المزج بين الروح والمادة جاء بعد استعادة المسلمين للرُّها عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م، وهو انعكاس رئيس آخر للصليبيين. فقد دُعي في جميع أنحاء أوروبا للمشاركة في حملة كان من شأنها أن تصبح الحملة الصليبية الثانية. وقاد الدعوة برنارد الكليرفوي (Bernard of Clairvaux)، وكان شخصية كارزمية وحيوية، بيد أنه كان واقعيًا بما يكفي كي يدرك أن مغفرة الخطايا والخلاص من خلال الاستشهاد قد لا يقنع جميع الناس بالسفر إلى الشرق. فكتب في رسالة جرى تداولها على نطاق واسع: «إلى التجار منكم، فليسارع الرجال إلى السعي لإبرام صفقة. دعوني أوضح لكم مزايا هذه الفرصة العظيمة؛ فلا تفوتكم»[3].

وكانت دويلات المدن الإيطالية -بحلول منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- تستغل المواقع التي تحسد عليها، والتي شيدتها ببراعة في الشرق على نحو أخذ يدر الأرباح عليها.

---

(1) Tafel and Thomas, *Urkunden*, 1, pp. 84–9.

وانظر أيضًا:

J. Prawer, 'The Italians in the Latin Kingdom' in idem, *Crusader Institutions* (Oxford, 1980), p. 224; M. Barber, *The Crusader States* (London, 2012), pp. 139–42; J. Riley-Smith, 'The Venetian Crusade of 1122–1124', in Airaldi and Kedar, *I Comuni Italiani*, pp. 339–50.

(2) G. Bresc-Bautier, *Le Cartulaire du chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem* (Paris, 1984), pp. 51–2.

(3) Bernard of Clairvaux, *The Letters of St Bernard of Clairvaux*, ed. and tr. B. James and B. Kienzle (Stroud, 1998), p. 391.

وعلى هذا النحو امتدت أذرع البندقية -آنذاك- على طول الطريق عبر شرق البحر المتوسط، ليس إلى بلاد الشام فحسب، ولكن إلى مصر أيضًا قبل فترة طويلة، مع امتيازاتها في القسطنطينية، وكذلك في المدن الرئيسة على سواحل الإمبراطورية البيزنطية وفلسطين. ونظر بعض الناس إلى البندقية بحقد وغيرة، مثل كافارو (Caffaro) -وكان أشهر مؤرخي جنوة في القرون الوسطى- فكتب عن جنوة في العقد السادس من القرن الثاني عشر الميلادي متحسّرًا، وواصفًا إياها بأنها «غافلة، تسير على غير هدى، كسفينة تبحر بلا ملاح»(١).

بيد أن هذا الوصف ما كان إلا ضربًا من ضروب المبالغة، حيث عبَّر رأيه عن رفض المؤلف لسياسة الأسر القوية التي هيمنت على جنوة إلى حدٍّ ما. والحق أن جنوة كانت تنعم بالازدهار أيضًا في تلك الحقبة، فإضافة إلى سعيها إلى التأكيد على امتيازاتها في الدول الصليبية على نحو منتظم، أقامت المدينة روابط في غرب البحر المتوسط. ففي عام ٥٥٥هـ/ ١١٦١م جرى الاتفاق على هدنة مع الخليفة الموحدي في المغرب، الأمر الذي وفر للمدينة فرصة الوصول إلى الأسواق، والحماية من الاعتداء ثمة. وبحلول العقد التاسع من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، شكلت التجارة مع المغرب أكثر من ثلث النشاط التجاري في جنوة، كما تأسست بنية تحتية واسعة من المخازن، والنُّزل على طول الساحل لدعم التجار، وتمكين سريان الأعمال التجارية على نحو سلس(٢).

وحفزت جنوة وبيزا والبندقية نمو سلسلة من المدن الأخرى حولها، أسوة بما فعلت كييف في روسيا. فقد توسعت مدن مثل نابولي (Naples)، وبيروجيا (Perugia)، وبادوا (Padua)، وڤيرونا (Verona) سريعًا، ولما أخذت المدينة تتوسع من خلال إنشاء الضواحي الجديدة بوتيرة متسارعة، أُعيد بناء أسوار المدينة مرارًا بعيدًا عن مركزها. وعلى الرغم من صعوبة تقييم أعداد السكان في ظل غياب بيانات تجريبية واضحة، فإنه لا شك في أن القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي شهد طفرة كبيرة في التحضر في إيطاليا مع ازدهار الأسواق، وتشكيل الطبقات الوسطى، وارتفاع الدخل(٣).

* * *

(1) *Annali Genovesi de Caffaro e dei suoi Continutatori, 1099–1240*, 5 vols (Genoa, 1890–1929) 1, p. 48.

(2) D. Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean* (London, 2011), p. 298.

وانظر أيضًا للمؤلف نفسه:

'Christian Merchants in the Almohad Cities', *Journal of Medieval Iberian Studies* 2 (2010), 251–7; O. Constable, *Housing the Stranger in the Mediterranean World: Lodging, Trade and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages* (Cambridge, 2003), p. 278.

(3) P. Jones, *The Italian City State: From Commune to Signoria* (Oxford, 1997).

وانظر أيضًا:

M. Ginatempo and L. Sandri, *L'Italia delle città: il popolamento urbano tra Medioevo e Rinascimento (secoli XIII–XVI)* (Florence, 1990).

من قبيل المفارقات أن أساس هذا النمو في عصر الحروب الصليبية كان كامنًا في الاستقرار والعلاقات الجيدة التي ربطت بين العالم الإسلامي ونظيره النصراني، سواء في الأراضي المقدسة نفسها، أو في غيرها من الأماكن. وعلى الرغم من وقوع اشتباكات منتظمة في العقود التي تلت الاستيلاء على القدس في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، إلا أن التصعيد المأساوي للتوتر لم يقع إلا في أواخر العقد الثامن من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري. فقد تعلم الصليبيون -إجمالًا- كيفية التعامل مع غالبية السكان المسلمين الذين وقعوا تحت سلطانهم، وكذلك مع أولئك الذين كانوا يقيمون خارج سلطانهم. واستطاع ملك القدس كبح جماح أمرائه على نحو منتظم بالفعل، وحال بينهم وبين شن غارات متهورة على القوافل العابرة، أو المدن المجاورة، وهو الأمر الذي قد يثير حفيظة الولاة المحليين، أو يتطلب رد فعل كبير من بغداد، أو من القاهرة.

ووجد بعض الوافدين الجدد إلى الأرض المقدسة صعوبة في فهم ذلك، وكانوا مصدرًا دائمًا للقلاقل جراء سلوكهم العدواني، كما اعترف بذلك الكتَّاب المحليون. وربما راودت الرِّيب الوافدين الصليبيين الجدد لما رأوا أن التجارة مع «الكفار» نشاط يومي معتاد. وكان الوافد يستغرق وقتًا حتى يدرك أن الأشياء -من الوجهة العملية- ليست بالأبيض والأسود كما كانت تبدو له عندما كان في أوروبا. وبمرور الوقت، خفَّت حدة التعصب، وكتب أحد المؤلفين العرب الذين رُوِّعوا من العادات الفظة وغير المألوفة للوافدين الأوربيين الجدد مقارنة بهؤلاء الذين أمضوا في الشرق فترة من الوقت بقوله: «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلَّدوا وعاشروا المسلمين». وكذلك كانت مواقفهم تجاه أي شخص لا يدين بالنصرانية[1].

أما على الصعيد الإسلامي، فكان ثم تشابه مع طريقة التفكير هذه أيضًا. فقد حثت إحدى الفتاوى الصادرة في العقد الخامس من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري المسلمين على ألا يسافروا إلى الغرب أو يتاجروا مع النصارى. فقد ورد في تلك الفتوى قول الفقيه: «إن سافرنا إلى بلادهم، سيرتفع سعر البضاعة، فيجمعون منا مبالغ طائلة من المال، ويستخدمونها لقتال إخواننا المسلمين، وشن الغارة على أراضيهم»[2]. وبصفة عامة، كانت العلاقات هادئة ومدروسة على نحو ملحوظ، وذلك على الرغم من كل الخطب النارية التي أُلقيت على كلا الجانبين. والحق أن فضولًا كبيرًا انتاب الناس في غربي أوروبا فيما تعلق بالإسلام. بل لم يستغرق بعض النصارى وقتًا طويلًا لتكوين آراء إيجابية حول الأتراك المسلمين، حتى في عصر الحملة الصليبية الأولى؛ فكتب صاحب

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، الترجمة الإنجليزية:

tr. P. Cobb, *The Book of Contemplation: Islam and the Crusades* (London, 2008), p. 153.

(2) V. Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman: analyse du Mi'yar d'al-Wansharisi* (Madrid, 1995), p. 128; D. Valérian, 'Ifrīqiyan Muslim Merchants in the Mediterranean at the End of the Middle Ages', *Mediterranean Historical Review* 14.2 (2008), 50.

أحد أكثر التواريخ شعبية للحملة على القدس متأسفًا: «آه لو أظهر الأتراك تمسكًا بالإيمان بالمسيح والنصرانية بحزم»، ولعله هنا يشير إلى الخلفية الدينية السابقة للسلاجقة قبل اعتناقهم الإسلام؛ ثم استطرد قائلًا: «هيهات أن تجد جنودًا أقوى، أو أشجع، أو أمهر منهم»[1].

ولم يمض وقت طويل قبل أن يبحث العلماء في الغرب عن الإنجازات العلمية والفكرية للعالم الإسلامي بحثًا نشطًا، ثم يستوعبونها، على نحو ما فعل أديلارد الباثي (Adelard of Bath)[2]. وكان أديلارد قد طفق يبحث في مكتبات أنطاكية، ودمشق عن ضالته، وعاد إلى أوروبا حاملًا نسخًا من الجداول الخوارزمية التي شكلت الأساس لدراسة الرياضيات في العالم النصراني. لقد كان السفر إلى هذه المنطقة بمثابة تحليق في آفاق جديدة. ولما عاد أديلارد إلى موطنه «ألفى الأمراء برابرة، والأساقفة خطاة، والقضاة مرتشين، والرعاة غير مأمونين، والوكلاء متملقين، والمعاهدين يخلفون وعودهم، والأصدقاء حسودين، وكل شخص تقريبًا يحدوه الطموح»[3]. لقد تشكلت هذه الآراء من خلال حسد الشرق على تطوره مقارنة بالقيود الثقافية المفروضة على الغرب النصراني. واتفق آخرون مع رأي أديلارد، ومنهم دانيال المورلي (Daniel of Morley)، الذي سافر إلى باريس قادمًا من انجلترا للدراسة -في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- فوجد علماءها -أو بالأحرى هؤلاء الذين كانوا يُعدُّون كذلك- يتملقون الناس رياءً؛ فجلسوا ببساطة «مثل التماثيل، متظاهرين بالحكمة من خلال التزام الصمت». فلما أدرك دانيال أن مثل هؤلاء لا يؤنس منهم علمٌ، سافر إلى طليطلة «على عجل، حتى يتمكن من حضور مجالس أكثر فلاسفة العالم حكمة»[4].

تلقى الغرب الأفكار من الشرق بشغف، وإن كان ذلك على نحو متقطع؛ فقد أمر بطرس الموقر (Peter the Venerable)، رئيس دير كلوني (Cluny) -وكان هذا الدير مركزًا على صعيدي اللاهوت والفكر في فرنسا في القرون الوسطى- بترجمة القرآن حتى يتمكن هو وغيره من علماء النصارى من فهمه على نحو أفضل. ومن المسلَّم به أن تلك الترجمة استُخدمت لإقامة البرهان على صحة الآراء المسبقة حول الإسلام بوصفه دينًا زائغًا، ومخزيًا، وخطيرًا[5]. ولم يلجأ الفرنجة إلى ديار الإسلام فحسب للاستلهام، بل تُرجمت أيضًا النصوص التي كُتبت في القسطنطينية إلى اللاتينية، مثل الشروح

---

(1) *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*, ed. and tr. R. Hill (London, 1962), 3, p. 21.

(٢) انظر:

C. Burnett (ed.), *Adelard of Bath: An English Scientist and Arabist of the Early Twelfth Century* (London, 1987); L. Cochrane, *Adelard of Bath: The First English Scientist* (London, 1994).

(3) Adelard of Bath, *Adelard of Bath, Conversations with his Nephew: On the Same and the Different, Questions on Natural Science and on Birds*, ed. and tr. C. Burnett (Cambridge, 1998), p. 83.

(4) A. Pym, *Negotiating the Frontier: Translators and Intercultures in Hispanic History* (Manchester, 2000), p. 41.

(5) T. Burman, *Reading the Qurān in Latin Christendom, 1140–1560* (Philadelphia, 2007).

علـى الأخـلاق النيكوماشـية (Nicomachaean) لأرسـطو بتكليف من آنا كومنيـن (Anna Komnene) -وهـي ابنـة ألكسـيوس الأول- وهـي الترجمة التـي وجدت طريقها فـي الأخير إلى يد تومـا الأكويني (Thomas Aquinas)، ومن ثم إلى التيار الرئيس للفلسفة النصرانية في الغرب[١].

وعلى المنوال نفسه، لم تكن التجارة مع المسلمين في القلب من الازدهار الاقتصادي والاجتماعي لأوروبا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فحسب، فقد كانت القسطنطينية والإمبراطورية البيزنطيـة محركًا رئيسًـا في تجارة البحر المتوسـط النصراني، وناهز حجم التجـارة معها نصف التجارة الدولية في البندقية، إذا حكّمنا الوثائق التي وصلتنا من هذه الحقبة[٢]. وعلى الرغم من أنه جرى تصدير الزجاج، والمشغولات المعدنية، والزيت، والنبيذ، والملح من بيزنطة إلى الأسواق في إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، فإن المنتجات التي جُلبت من أماكن أخرى كانت الأكثر قيمة، والأكثر رواجًا وربحًا.

وكان الطلب على الحرير، والقطن، والكتان، والأقمشـة المنتجة في شـرق البحر المتوسـط أو في وسـط آسـيا أو فـي الصين هائـلًا، كما توضـح قوائم الجـرد، والمبيعـات، وخزائن الكنائـس في غربي أوروبا[٣]. واستفادت المدن في بلاد الشام من الأسواق الناشئة؛ حيث رسخت أنطاكية قدميها بوصفها مركزًا تجاريًا، وكان يمكن شـحن السـلع منها وتصديرها غربًا، بل كانت أيضًا مركزًا صناعيًا منتجًا في حد ذاتها. وجرى تسويق المنسوجات من المدينة مثل «قماش أنطاكية» بنجاح كبير، واشتد الطلب عليه فـي أوروبـا؛ حتـى إن الملـك هنري الثالـث ملك إنجلتـرا (حكمـه: ١٢١٦-١٢٧٢م) شـيد «القاعات الأنطاكية» في قصوره الرئيسـة: برج لنـدن (Tower of London)، وكلارندون (Clarendon)، وقصري وينشستر (Winchester Palaces)، ووستمنستر (Westminster)[٤].

وبـدأت التوابـل أيضًا في التدفق على أوروبا من الشـرق بأحجام متزايـدة. وصلت التوابل إلى هذه المحـاور الرئيسـة الثلاثـة: القسـطنطينية، والقدس، والإسـكندرية. ثم شُـحِنت بعد ذلـك إلى دويلات المـدن الإيطاليـة، ومنهـا إلـى الأسـواق فـي ألمانيـا، وفرنسـا، وفلانـدرز، وبريطانيا؛ حيـث جنت هذه الدويلات مكاسـب عظيمة من خلال بيع السـلع الغريبة في أوروبا. وكانت الرغبة في شـراء الكماليات باهظـة الثمـن مـن الشـرق عمليـة مماثلـة لطلب بـدو السـهوب الحرير من البـلاط الصينـي، من بعض الجوانب. وكان الأثرياء -في عالم القرون الوسطى، كما هم اليوم- بحاجة إلى تمييز أنفسهم من خلال

---

(1) P. Frankopan, 'The Literary, Cultural and Political Context for the Twelfth-Century Commentary on the *Nicomachean Ethics*', in C. Barber (ed.), *Medieval Greek Commentaries on the Nicomachean Ethics* (Leiden, 2009), pp. 45-62.

(2) Abulafia, *Great Sea*, p. 298.

(3) A. Shalem, *Islam Christianised: Islamic Portable Objects in the Medieval Church Treasuries of the Latin West* (Frankfurt-am-Main, 1998).

(4) Vorderstrasse, 'Trade and Textiles from Medieval Antioch', 168-71; M. Meuwese, 'Antioch and the Crusaders in Western Art', in *East and West in the Medieval Mediterranean* (Leuven, 2006), pp. 337-55.

التباهي بثرواتهم. وعلى الرغم من أن التجارة في البضائع والسلع باهظة الثمن لم تستهدف إلا نسبة صغيرة من السكان، إلا أنها كانت من الأهمية بمكان؛ ذاك أنها أتاحت التمايز الاجتماعي، ومن ثم كشفت عن حجم الحراك الاجتماعي، وكذلك عن التطلعات المتزايدة لآحاد الناس.

وكانت القدس رمزًا دينيًا -بوصفها بؤرة النصرانية- إلا أنها اضطلعت بدور في التجارة بوصفها مركزًا تجاريًا في حد ذاتها. ومع ذلك فقد كانت عكا تفضُلها من حيث الأهمية بوصفها مركزًا تجاريًا. وتلقي قائمة الضرائب -التي كان ينبغي تحصيلها في المملكة في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- نظرة ثاقبة على ما كان يمكن شراؤه هناك آنذاك، فضلًا عن أنها تميط اللثام عن الاهتمام الكبير من قِبل ديوان متطور حريص على عدم خسارة الإيرادات القيمة. لقد فُرضت الرسوم على بيع الفلفل، والقرفة، والشبّ، والأصباغ، وجوز الطيب، والكتان، والقرنفل، وخشب الصبار، والسكر، والأسماك المملحة، والبخور، والهيل، والنشادر، والعاج وغير ذلك[١]. ولم تكن الأراضي المقدسة منشأ الغالبية العظمى من هذه السلع، بل جُلبت إلى هناك عبر طرق التجارة التي كان المسلمون يسيطرون عليها، بما في ذلك موانئ مصر، التي صدرت مجموعة رائعة من التوابل، والمنسوجات، والمنتجات الفاخرة، وفقًا لرسالة عربية في الخراج وُضِعت في هذه الحقبة[٢].

من قبيل المفارقات إذن، أن الحملات الصليبية لم تعمل على تحفيز الاقتصادات والمجتمعات في غربي أوروبا فحسب؛ بل أثرت كذلك في الوسطاء المسلمين الذين اكتشفوا أن بوسعهم جني ربح جزيل من الأسواق الجديدة. وكان رامشت السيرافي في الخليج العربي واحدًا من أذكى هؤلاء التجار؛ حيث جمع ثروة طائلة في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وتمثلت عبقريته في تلبية الطلب المتزايد من خلال العمل بوصفه وسيطًا لبيع البضائع المستوردة من الصين والهند؛ حيث اضطلع أحد وكلائه بشحن البضائع التي كانت قيمتها تقدر بأكثر من نصف مليون دينار في عام واحد فحسب. لقد كانت ثروة الرجل أسطورية، وكذلك كان كرمه أيضًا؛ فقد أبى إلا أن يتحمل كلفة صنبور ماء من الذهب، ليحل محل ذلك المصنوع من الفضة في الكعبة بمكة، ودفع من ماله ثمن شراء كسوة جديدة للكعبة من الديباج الصيني «الذي لا يقدر بثمن» وفقًا لإحدى الروايات العائدة إلى هذه الفترة، بعد أن تخلق الكساء الأصلي. وأدت أعماله الصالحة إلى رفعة شأنه، فدُفن في مكة، حيث يقول النص المدون على شاهد قبره: «هنا يرقد صاحب السفينة أبو القاسم رامشت؛ رحمه الله، ورحم من دعا له بالرحمة»[٣].

---

(1) R. Falkner, 'Taxes of the Kingdom of Jerusalem', in *Statistical Documents of the Middle Ages: Translations and Reprints from the Original Sources of European History* 3:2 (Philadelphia, 1907), 19–23.

(2) C. Cahen, *Makhzumiyyat: études sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale* (Leiden, 1977); Abulafia, 'Africa, Asia and the Trade of Medieval Europe', pp. 402–73.

(3) S. Stern, 'Ramisht of Siraf: A Merchant Millionaire of the Twelfth Century', *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland* 1.2 (1967), 10–14.

وأدى تعرض الثروات للخطر حتمًا إلى اشتداد نيران الخصومات، ومن ثم قاد إلى فصل جديد في اللعبة الكبرى في القرون الوسطى؛ ألا وهي السعي طلبًا للسيادة في شرق البحر المتوسط بأي ثمن. فقد اشتدت المنافسة بين دويلات المدن الإيطالية بحلول عام ٥٥٤هـ/ ١١٦٠م؛ حتى إن القتال نشب بين البنادقة، والجنويين، والبيزيين في شوارع القسطنطينية. وعلى الرغم من محاولات الإمبراطور البيزنطي التوسط بينهم، فإن اندلاع العنف بين هؤلاء الخصوم أضحى ظاهرة منتظمة. ويُفترض أن يكون هذا الصراع نتيجة لزيادة المنافسة التجارية، ونتيجة لانخفاض الأسعار. لقد كان ينبغي حماية المراكز التجارية، وبالقوة إذا لزم الأمر.

وأثارت المصالح الخاصة لدويلات المدن عداء سكان العاصمة، بسبب الأضرار التي حاقت بممتلكات الناس في المدينة؛ وكذلك لأن ضعف شوكة الغرب الأوروبي بدا واضحًا -على نحو متزايد- في بقاع أخرى. ففي عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م أمر الإمبراطور البيزنطي -في استجابة لسخط رعيته المتزايد- بسجن آلاف البنادقة، وتجاهل مناشدات البندقية بالإنصاف، ناهيك عن الاعتذار عن إجراءاته أحادية الجانب وغير المُعلنة. ولمَّا عجز الدوق ڤيتالي ميكائيل (Vitale Michiel)عن الوصول إلى حلٍّ لتلك الأزمة -بعد أن أبحر قاصدًا القسطنطينية بنفسه- اشتعلت نيران الثورة في البندقية؛ فتجمعت الحشود على أمل سماع أخبار طيبة، ثم ما لبثت خيبة الأمل أن تحولت إلى غضب عارم، أفسح المجال للعنف. وهرع الدوق قاصدًا دير القديس زكريا (San Zaccaria) مستجيرًا به؛ وقبل أن يتمكن من الوصول إلى هناك، لحق به حشد من الغوغاء، وأعدموه دون محاكمة[1].

لم يعد البيزنطيون حلفاء ومُحسنين لمدينة البندقية، بل أضحوا منافسين ومزاحمين لهم. وفي عام ٥٧٧هـ/ ١١٨٢م، هاجم سكان القسطنطينية مواطني دويلات المدن الإيطالية الذين كانوا يعيشون في العاصمة الإمبراطورية. وقتلوا عددًا كبيرًا منهم، بمن فيهم ممثل الكنيسة اللاتينية؛ فبعد أن قتلوه حزُّوا رأسه، وربطوها بكلب أخذ يجرها في شوارع المدينة[2]. لقد كانت هذه الكائنة مجرد بداية لتصاعد العداوات بين النصارى في شطري أوروبا. وفي عام ٥٦٣هـ/ ١١٨٥م استباحت قوة غربية من جنوب إيطاليا ثيسالونيكي (Thessaloniki)، وكانت إحدى أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية. لقد أنشب الغرب رمحه شرقي البحر المتوسط مع الحملة الصليبية الأولى. ثم سرعان ما استفاقت فريسته ونزعته عنها.

* * *

جاءت في طي المحن منح لبعض الناس؛ ذلكم أن نجم قائد كبير يقال له: صلاح الدين الأيوبي قد سطع في مصر. وسرعان ما أدرك صلاح الدين -الذي كان يمتع بصلات جيدة، وذهن وقاد، وكان له بعض السحر في نفوس أتباعه- أن صراع الصليبيين مع القسطنطينية قد يكون لصالحه. فتحرك -دون

(1) T. Madden, 'Venice and Constantinople in 1171 and 1172: Enrico Dandolo's Attitudes towards Byzantium', *Mediterranean Historical Review* 8.2 (1993), 166–85.

(2) D. Nicol, *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations* (Cambridge, 1988), p. 107.

إبطاء- لتحسين علاقته بالبيزنطيين، ودعا البطريرك اليوناني بالقدس لزيارة دمشق، وأكرم وفادته كي يثبت له أنه -وليس النصارى الفرنجة- الحليف الطبيعي للإمبراطورية[١].

وكان الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني (Isaac II) -في نهاية العقد التاسع من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري- يكتب إلى صلاح الدين قائلًا: «إلى [أخي] سلطان مصر، صلاح الدين» ثم يمده بمعلومات سرية، ولم ينس أن يحذره من الشائعات حول نوايا الإمبراطورية التي أطلقها أعداؤه، والتي لا أساس لها من الصحة، ثم طلب من صلاح الدين التفكير في أمر إرسال مدد له كي يتسنَّى له قتال الصليبيين[٢]. وكانت المشاعر المعادية للغرب تختمر في القسطنطينية منذ عقود. وذكر أحد الكتَّاب في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أن الفرنجة خونة، وجشعون، ولا يتورع أحدهم عن بيع زوجته وأبنائه مقابل المال. وعلى الرغم من أن عددًا كبيرًا من الحجاج المدعين يتظاهرون بالتدين -وفق ما سطرته يد ابنة أحد الأباطرة- إلا أن الجشع كان دافعهم الحقيقي. لقد كانوا يخططون للاستيلاء على المدينة الإمبراطورية، أو الإضرار بسمعة الإمبراطورية، أو إلحاق الأذى بإخوانهم النصارى[٣]. لقد كانت تلك الرواية تتوسع وتترسخ في الوعي البيزنطي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولا سيما بعد عام ٦٠٠م/ ١٢٠٤م.

ووجد الرأي القاضي بأن الفُرسان الصليبيين يميلون للعنف، وأنهم غير مسؤولين، كما لو كانوا يرغبون في الموت، صدى له في الأرض المقدسة نفسها. فقد اتخذت شخصيات بارزة قرارات حمقاء مرارًا في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. كما قاتل بعضهم بعضًا في معارك عبثية. وعلى الرغم من علامات التحذير الواضحة في الأفق، فإنهم لم يستعدوا لمواجهة موجة المد التي كانت تقترب منهم. وما زالوا في ذلك، حتى أثاروا ارتباك زائر أندلسي مسلم في هذه الحقبة. فكتب ابن جبير قائلًا: أنه من المدهش أن نرى «نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى» فيما يتعلق بالسياسة والقتال. ولكن متى تعلق الأمر بالتجارة، فإن «اختلاف القوافل على بلاد الإفرنج غير منقطع، وتجار النصارى أيضًا لا يُمنَع أحدٌ منهم، ولا يُعترض»[٤].

وكان يسع القوتين ضمان أمن للتجار أينما حلوا أو ارتحلوا، وذلك بغض النظر عن عقائد أولئك التجار، وبغض النظر أيضا عما إذا كانت الحالة السائدة السلم أو الحرب. واستطرد ابن جبير قائلًا: إن

---

(1) P. Magdalino, 'Isaac II, Saladin and Venice', in J. Shepard (ed.), *The Expansion of Orthodox Europe: Byzantium, the Balkans and Russia* (Aldershot, 2007), pp. 93–106.

(٢) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، (لندن ١٨٩٧)، ١٢١-١٢٢.

G. Anderson, 'Islamic Spaces and Diplomacy in Constantinople (Tenth to Thirteenth Centuries c.e.)', *Medieval Encounters* 15 (2009), 104–5.

(3) Anna Komnene, *Alexiad*, X.5, p. 277.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، الترجمة الإنجليزية:

tr. R. Broadhurst, *The Travels of Ibn Jubayr* (London, 1952), p. 315.

هـذه الحـال كانت نتيجة اتفاقات؛ حيث ضمنت المعاهدات الضريبية المتبادلة التعاون، وكذلك فعلت العقوبات الشديدة. فالتجار الإفرنج الذين لم يحترموا الاتفاقيات، وعبروا الحدود المتفق عليها، «ولو بباع أو شـبر»، قطع إخوانهم النصارى -الذين أظهروا الحرص على عدم إزعاج المسـلمين، أو إفسـاد العلاقات التجارية القائمة منذ فترة طويلة- حناجرهم. ووقف ابن جبير مشوَّش الفكر، مذهولًا، وعلق قائلًا: «وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها»[١].

ولما انقلب البلاط في القدس على نفسه، أضحى الاقتتال الأهلي بين الفصائل المتنافسة متأصلًا، الأمر الذي خلق الظروف المثالية لصعود بعض الشخصيات الطموحة، ومن ثم تسببت في أضرار بالغة بالعلاقات بين النصارى والمسلمين. ومن بين هؤلاء كان رينالد دي شاتيون (Reynald of Chatillon) (أرناط)، الذي أدى تهوره إلى تدمير مملكة القدس تقريبًا.

أدرك أرنـاط -وكان مـن قدامى المحاربين في الأرض المقدسـة- أن الضغط يزداد على الصليبيين بمـرور الوقـت، مـع اسـتمرار صـلاح الدين في تعزيز سـلطانه بمصر، ولا سـيما بعد أن بـدأ الأخير في إخضاع أجزاء كبيرة من الشام لتصبح تحت سيطرته، ومن ثم غدا قادرًا على حصار المملكة النصرانية. وبـاءت محـاولات أرناط للتخفيف من حدة التهديد بالفشـل الذريع؛ فقد أثار قـراره المتهور بمهاجمة ميناء العقبة على البحر الأحمر ردود أفعال شبه جنونية بين المؤرخين العرب، الذين استصرخوا قائلين: إن المدينة ومكة باتتا تحت طائلة تهديد الفرنجة، وإن ذلك إحدى علامات قيام الساعة[٢].

ولم تكن مثل هذه التحركات عدائية فحسـب، بل زادت من مكانة صلاح الدين الأيوبي وشـعبيته؛ إذ تمكـن مـن توجيه ضربة سـاحقة للدولة الصليبية. وكتب أحد الكتاب المسـلمين المعاصرين واصفًا أرناط بأنه أشـد الفرنجة في الشـرق غدرًا، وأكثرهم شـرًا، وخيانة للعهد، وحنثًا باليمين، ونقضًا للعهود والمواثيق. «وكان السلطان قد نذَر دمه»[٣].

وسـرعان مـا واتت الفرصة صلاح الدين؛ ففـي ربيع الثاني من عـام ٥٨٣هـ/ يوليو (تموز) من عام ١١٨٧م، حاصر السـلطان فرسـان مملكة القدس الصليبية في قرون حطين، ودحرهم في معركة مدمرة خلفت المقاتلين الفرنجة بين قتيل وأسير. وقتل أعضاء الطوائف العسكرية الذين وقعوا في الأسر، ولا

---

(١) المصدر نفسه، وانظر أيضًا:

C. Chism, 'Memory, Wonder and Desire in the Travels of Ibn Jubayr and Ibn Battuta', in N. Paul and S. Yeager (eds), *Remembering the Crusades: Myth, Image and Identity* (Cambridge, 2012), pp. 35–6.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الترجمة الإنجليزية:

Ibn al-Athīr, *Chronicle*, pp. 289–90; Barber, *Crusader States*, p. 284.

(3) Barber, *Crusader States*, pp. 296–7;

العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، الترجمة الإنجليزية:

tr. H. Massé, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Saladin* (Paris, 1972), pp. 27–8.

سيما فرسان الإسبتارية (Hospitallers)، وفرسان الهيكل (Templars)، الذين لم تكن لهم رغبة في السلام مع غير النصارى، بإجراءات سريعة. وبادر صلاح الدين، وعالج رأس أرناط بضربة من سيفه فأبانها عن جسده. وسواء كان أرناط هو الذي أورد الصليبيين المهالك أم لا، فإنه مثّل كبش فداء مناسب للفرنجة المهزومين، والمسلمين المنتصرين على حد سواء؛ ومع ذلك فإن دور أرناط في هزيمة حطين إنما هو موضوع مفتوح للنقاش. ومهما كانت الحقيقة في هذا الصدد، فالمحصلة أنه لم يكد يمضي شهران فحسب على معركة حطين حتى استسلمت القدس للمسلمين، وفتحت أبوابها أمام صلاح الدين -صفوًا عفوًا- بعد الاتفاق على شروط ضمنت تجنيب ساكنة المدينة مصيرًا مروعًا[1].

وكان سقوط المدينة بمثابة ضربة مذلة للعالم النصراني، ونكسة كبيرة لعلاقات أوروبا مع الشرق. واستقبلت البابوية الأخبار شر استقبال. وقيل: إن أوربان الثالث (Urban III) خرّ ميتًا عند سماعه نبأ الهزيمة في حطين. وقاد خليفته، جريجوريوس الثامن (Gregory VIII) عملية البحث عن الذات. وأعلن للمؤمنين أن المدينة المقدسة قد سقطت، ليس بسبب «خطايا سكانها فحسب، بل [بسبب] خطايانا وخطايا النصارى بأسرهم أيضًا». وحذر من أن قوة المسلمين تتصاعد، وستظل تتصاعد ما لم يكبح الصليبيون جماحهم. وناشد الملوك، والأمراء، والبارونات وولاة المدن الذين سادت علاقاتهم المنافسة والشحناء أن ينحوا خلافاتهم جانبًا، وأن يتوحدوا على قلب رجل واحد. وكان هذا اعترافًا صريحًا، وقاطعًا بأن المصالح الذاتية، والمنافسات المحلية، والخلافات كانت أمرًا سائدًا آنئذٍ، بعيدًا عن الخطب الرنانة حول الفروسية المدفوعة بالإيمان والورع. وأردف البابا قائلًا: ما سقطت القدس إلا لإخفاق النصارى في الدفاع عما يؤمنون به. لقد غلبتهم الخطيئة والشر[2].

وكان لهذه الرسالة الاستفزازية الصارمة تأثير فوري، فلم يمض وقت طويل قبل أن يشرع أقوى ثلاثة رجال في الغرب في شن حملة انتقامية. فقد تعهد ريتشارد الأول (Richard I) ملك إنجلترا، وفيليب الثاني (Philip II) ملك فرنسا، والإمبراطور الروماني الألماني الكبير فريدريك بربروسا (Frederick Barbarossa) باستعادة المدينة المقدسة. وبدا تصور أن الفرصة ليست سانحة لاسترداد القدس فحسب، بل لإعادة تجذير الفرنجة في مواقعهم في الشرق الأوسط أيضًا من قبيل المعقول. ومع ذلك فقد باءت جهود عامي ٥٨٤-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩٢م بالفشل. فقد غرق فريدريك أثناء عبوره نهرًا في آسيا الصغرى، على بعد أميال من مسرح القتال. ودارت نقاشات حادة، وجدل شديد بين القادة حول تحديد الأهداف الإستراتيجية للحملة، وساد الخلاف في كل شيء باستثناء توقف الجيوش. وقد تجسد ذلك في محاولة ريتشارد «قلب الأسد» تحويل الحملة بعيدًا عن القدس نفسها، والتركيز بدلًا من ذلك على غزو مصر، وهي جائزة أكثر ثراءً، وأغنى عصارة. وحققت الحملة مكاسب

---

(1) Barber, *Crusader States*, pp. 305–13; T. Asbridge, *The Crusades: The War for the Holy Land* (London, 2010), pp. 342–64.

(2) J. Riley-Smith, *The Crusades: A History* (London, 1987), p. 137.

قليلة على المدى الطويل، كما فشلت في حصار القدس. واللافت للنظر أن القادة حولوا انتباههم إلى عكا، وكانت مركزًا تجاريًا رئيسًا في بلاد الشام، بيد أنها لم يكن لها قيمة، من منظور كتابي أو ديني. ثم ما لبث الجميع أن عادوا أدراجهم من حيث أتوا[1].

ولم يكد يمضي عقد من الزمان؛ حتى حاول الصليبيون مجددًا استعادة الأرض المقدسة. وكان من المقرر أن تكون البندقية حجر الزاوية في الهجوم هذه المرة، حيث كان عليها أن تنقل الرجال شرقًا على متون سفنها. وأبدت البندقية ترددًا في تقديم يد العون في بادئ الأمر، ثم اقتنع الدوق بدعم الحملة بعد أن تلقى وعودًا بأن تكلفة بناء الأسطول المطلوب لنقل العدد الهائل من القوات اللازمة للحملة سيجري تمويلها من قبل المشاركين فيها. وأصر البنادقة أيضًا على تحديد اتجاه الحملة القادمة، وألزموا قادة الحملة بأن يتوجه الأسطول إلى مصر بدلًا من الموانئ المحيطة بالقدس. وظل هذا القرار -وفقًا لما ذكره أحد المشاركين عن كثب في التخطيط- «سرًا دفينًا؛ وأُعلن للعوام أننا ذاهبون إلى ما وراء البحار»[2].

وكانت الحملة المقترحة أشبه شيء بمبادرة اقترحت في الجنة؛ فقد ضمنت الخلاص الروحي للمشاركين فيها، مع الوعد بالمكافآت السنيَّة لأولئك النفر؛ إذ كانت ثروة مصر مادة الأساطير. وكتب أحد المؤلفين المعاصرين أن أهل مصر «عاشوا حياة البذخ»، وأنهم أُثروا ثراءً مذهلًا نتيجة «الضرائب المفروضة من المدن الواقعة على الساحل، إضافةً إلى موانيها الداخلية». وأشار متحسّرًا إلى أن هذه المدن كان يجبى منها «قدرًا هائلًا من الخراج سنويًا»[3].

ووقف البنادقة مليًا على بيت القصيد في المسألة برمتها؛ ذاك أن الشرايين التقليدية المؤدية بهم إلى الشرق كانت عرضة للاضطراب والشكوك. ولما أصابت الاضطرابات التي أعقبت صعود صلاح الدين -والتي تزامنت مع فترة من عدم الاستقرار في بيزنطة- التجارة، كانت البندقية في حاجة ماسة للاستعاضة عما فقدته بالإسكندرية، وكذلك الموانئ الواقعة عند مصب نهر النيل، وهي البقاع التي كانت في السابق أقل أهمية بالنسبة لها؛ حيث ناهز حجم تجارة البندقية مع مصر أقل من ١٠٪ قبل عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م[4]. وكانت البندقية قد خسرت سابقًا أمام بيزا وجنوة، فكان لكلتيهما مزايا حاسمة على منافستهما الإيطالية في حجم التجارة، والصلات التي أقامتها كل منهما مع التجارة القادمة عبر

---

(1) J. Phillips, *The Crusades 1095–1197* (London, 2002), pp. 146–50; J. Phillips, *Holy Warriors: A Modern History of the Crusades* (London, 2009), pp. 136–65.

(2) Geoffrey of Villehardouin, 'The Conquest of Constantinople', in *Chronicles of the Crusades*, tr. M. Shaw (London, 1963), p. 35.

(3) William of Tyre, *Chronicon*, ed. R. Huygens, 2 vols (Turnhout, 1986), 2, p. 408; J. Phillips, *The Fourth Crusade and the Sack of Constantinople* (London, 2004), pp. 67–8.

(4) D. Queller and T. Madden, 'Some Further Arguments in Defence of the Venetians on the Fourth Crusade', *Byzantion* 62 (1992), 438.

البحر الأحمر، بدلًا من تلك التي جاءت من البر إلى القسطنطينية والقدس[١]. وقطعت الجوائز المتاحة شوطًا طويلًا في حسابات المخاطر التي تحملتها البندقية عندما وافقت على بناء أسطول ضخم، وكانت تلك الموافقة تعني تعليق جميع مشروعات المدينة الأخرى لما يناهز حولين كاملين.

ومع ذلك سرعان ما تبين أن أعداد أولئك الذين حرصوا على المشاركة كانت أقل بكثير مما كان مقدرًا، عندئذ ألفى البنادقة أنفسهم في وضع خطير بعد أن دفعوا من جيوبهم ثمن الإعداد لتلك الحملة. وفرضت الحوادث نفسها على الصليبيين آنذاك؛ فارتجلوا في السياسة كلما حلوا أو ارتحلوا. وفي عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م وصل الأسطول إلى زارا -على الساحل الدلماسي- وهي مدينة كانت في القلب من صراع طويل الأمد بين البندقية والمجر. وعندما تبين لأهلها -الذين أظهروا ارتباكًا في فهم ما كان يجري حولهم- أن الصليبيين يستعدون لمهاجمة المدينة، بادروا برسم الصلبان على الجدران، يحسبون أن هناك سوء فهم؛ إذ لم يصدقوا أن قوة نصرانية كانت لتهاجم مدينة نصرانية دون استفزاز مسبق، وتعصي الأوامر الصريحة للبابا إنوسنت الثالث (Innocent III). ولم تسلم المدينة؛ لقد كانت البندقية تطالب الفُرسان بما لا يطيقون[٢].

وبينما كان الصليبيون يفكرون في كيفية تبرير مثل هذه الأعمال، ويتجادلون حول ما يجب فعله بعد ذلك، سنحت فرصة ذهبية عندما عرض أحد المطالبين بالعرش في بيزنطة أن يكافئ الجيش بسخاء إذا ساعدوه على الاستيلاء على العرش في القسطنطينية. ووجدت القوات -التي كان يُفترض أن تنطلق في الأصل إلى مصر، بزعم أنها كانت متجهة إلى القدس- نفسها بجوار أسوار العاصمة البيزنطية، وأخذت تزن خياراتها. وتحول النقاش بين الصليبيين إلى كيفية الاستيلاء على المدينة، وقبل كل شيء كيفية تقسيمها، هي وما تبقى من الإمبراطورية فيما بينهم، مع استمرار المفاوضات مع الفصائل داخل المدينة[٣].

* * *

كانت البندقية قد تعلمت كيف تحمي مصالحها في البحر الأدرياتيكي والبحر المتوسط بغيرة؛ وقد عززت موقفها من خلال السيطرة المباشرة على زارا. وسنحت لها فرصة للاستيلاء على أكبر جائزة على الإطلاق، فإذا انتهزتها ضمنت وصولًا آمنًا إلى الشرق. وفي نهاية مارس (آذار) من عام ١٢٠٤م بدأ الرجال في التحرك إلى مواقعهم لمحاصرة «روما الجديدة». ثم سرعان ما بدأ الهجوم الشامل في الأسبوع الثاني من شهر أبريل (نيسان). واستُخدمت السلالم، والكباش، والمجانيق التي كان من

---

(1) T. Madden, 'Venice, the Papacy and the Crusades before 1204', in S. Ridyard (ed.), *The Medieval Crusade* (Woodbridge, 2004), pp. 85–95.

(2) D. Queller and T. Madden, *The Fourth Crusade: The Conquest of Constantinople* (Philadelphia, 1997), pp. 55ff.

(3) Tafel and Thomas, *Urkunden*, 1, pp. 444–52.

المفترض أن تساعد في انتزاع السيطرة على المدن من المسلمين ضد ما كان يعد أكبر مدينة نصرانية في العالم آنذاك. كما استُخدمت السفن -التي صُممت وشُيدت بغرض حصار الموانئ في مصر والشام- بغرض قطع الطريق على السفن إلى القرن الذهبي الشهير، على مرأى ومسمع من كاتدرائية آيا صوفيا العظيمة. وطمأن الأساقفة الفرنجة مقاتليهم عشية المعركة، قائلين لهم: إن هذه الحرب «في سبيل الخير، وأنه ينبغي مهاجمة [البيزنطيين]». كما أشاروا إلى الخلافات الجذرية في العقيدة، كلما كانت هناك قضايا مادية أخرى على المحك، وقال الكهنة: إن دماء أهل القسطنطينية وأموالهم حلال؛ ذاك أنهم قالوا: «إن ناموس روما لا يعد شيئًا، وأنهم يدعون المؤمنين به بالكلاب». كما قيل للصليبيين: إن البيزنطيين أسوأ من اليهود؛ «إنهم أعداء الله»[1].

ولما اخترق الفرنجة الأسوار، استباحوا المدينة. فبعد أن أججت الكلمات السامة -التي صُبت في آذانهم صبًّا- نيران التعصب الديني، نهبوا كنائس المدينة وتفننوا في كيفية تدنيسها. فقد اقتحموا خزائن آيا صوفيا، وسرقوا الأواني المرصعة بالجواهر التي كانت تحتوي على رفات القديسين، وأخذوا يتمازحون بالرمح الذي اخترق جانب يسوع على الصليب. واستولوا على الأواني الفضية، والمعادن النفيسة المستخدمة للاحتفال بالقربان المقدس (Eucharist). واقتيدت الخيول والحمير إلى الكنيسة كي تحمل الغنائم التي استولى عليها الفرنجة، وأخذ بعضها ينزلق على الأرضيات الرخامية المصقولة التي تلوَّثت «بالدم والروث». وبلغ الأمر ذروته عندما جاؤوا بعاهرة ماجنة وأجلسوها على مقعد البطريرك، فأخذت تغني الأغاني الفاحشة. لم يكن الصليبيون سوى طلائع ضد المسيح، أو على الأقل هكذا بدوا في عيني أحد شهود العيان البيزنطيين[2].

هناك أكثر من مصدر نستدل من خلاله على أن المبالغة لم تشب هذه الروايات. فقد ذهب رئيس دير غربي مباشرة إلى كنيسة البانتوكراتور (Pantokrator) (المسيح القدير)، التي أنشأتها الأسرة الإمبراطورية في القرن الثاني عشر الميلادي. وأمر الكاهن هناك بقوله: «أرني أقوى الذخائر التي بحوزتك، وإلا قتلتك على الفور». فدفع له صندوقًا مليئًا بذخائر الكنيسة، حيث «انتزعه بكلتا يديه بلهفة». وعندما عاد سأله رفاقه، أين كان، وما إذا كان قد سرق شيئًا. فلم يزد عن أن أومأ برأسه، وابتسم ابتسامة غامضة، ثم أردف: «لقد أبلينا حسنًا يا رفاق»[3].

لا عجب إذن أنه عندما تمكن أحد السكان البيزنطيين من الفرار من المدينة نجاة بنفسه، طرح نفسه أرضًا، وأخذ ينتحب، ويوبخ الأسوار؛ لأنها «وحدها التي لم تبدِ تأثرًا بما حدث للمدينة، ولم تذرف الدموع، ولم تتداع إلى الأرض منهارة؛ وظلت صامدة، منتصبة، كأنما تسخر منه. ثم تساءل: كيف لم

---

(1) Robert of Clari, *La Conquête de Constantinople*, ed. P. Lauer (Paris, 1924), 72-3, pp. 71-2.

(2) Niketas Khoniates, *Khronike diegesis*, ed. J. van Dieten, *Nicetae Choniatae Historia* (New York, 1975), pp. 568-77.

(3) P. Riant, *Exuviae sacrae constantinopolitanae*, 2 vols (Geneva, 1876), 1, pp. 104-5.

تقِ هذه الأسوار المدينة؟ بينما تمزقت روح المدينة نفسها على أيدي القوات الهائجة في عام ١٢٠٤م[١].

وجدت ثروات القسطنطينية المادية طريقها إلى الكنائس، والكاتدرائيات، والأديرة والمجموعات الخاصة في جميع أنحاء غربي أوروبا. ونُقلت تماثيل الخيول -التي انتصبت بفخر في ميدان سباق الخيل- على متون السفن إلى البندقية حيث جرى نصبها فوق مدخل كاتدرائية القديس مرقس. كما نُقل عدد لا يحصى من الآثار والذخائر الثمينة بالقسطنطينية إلى البندقية؛ حيث ظلت هناك إلى يومنا هذا، وهي مثار إعجاب السائحين بوصفها أمثلة على الحرف اليدوية النصرانية الرائعة، لا بوصفها غنائم حرب[٢].

ولما توفي إنريكو داندولو (Enrico Dandolo)، الدوق العجوز الضرير الذي جاء من البندقية ليشهد الهجوم على القسطنطينية -في العام التالي- تقرر دفنه في آيا صوفيا. لقد كان أول شخص في التاريخ يُدفن في الكاتدرائية العظيمة[٣]. وكان ذلك بمثابة رمز لصعود غربي أوروبا. لقد كان الرجال -منذ قرون- يتطلعون إلى الشرق لتكوين ثرواتهم، وتحقيق طموحاتهم، سواء كانت روحية أو مادية. وأظهر نهب أكبر مدينة في العالم النصراني، وأهمها طرًا -فضلًا عن الاستيلاء عليها- أن الأوروبيين لن يتوقفوا عند حد في سبيل نيل ما يريدون، وما يحتاجون إليه؛ للاقتراب من مركز ثروة العالم وقوته.

وعلى الرغم من أن الفرنجة كانوا يشبهون البشر، إلا أنهم تصرفوا كالحيوانات، كما كتب أحد رجال الدين البيزنطيين البارزين بأسى، ثم أردف قائلًا: إن البيزنطيين عوملوا بقسوة شديدة حيث اغتُصبت العذارى، وضُرب الضحايا الأبرياء. لقد كان نهب المدينة عملًا وحشيًا؛ حتى إن أحد العلماء

---

(1) Khoniates, *Khronike*, p. 591.

عن إعادة تقييم مهمة للأضرار التي لحقت بالمدينة، انظر:

T. Madden, 'The Fires of the Fourth Crusade in Constantinople, 1203–1204: A Damage Assessment', *Byzantinische Zeitschrift* 84/85 (1992), 72–93.

(٢) انظر:

M. Angold, *The Fourth Crusade* (2003), pp. 219–67;

وانظر أيضًا:

D. Perry, 'The *Translatio Symonensis* and the Seven Thieves: Venetian Fourth Crusade *Furta Sacra* Narrative and the Looting of Constantinople', in T. Madden (ed.), *The Fourth Crusade: Event, Aftermath and Perceptions* (Aldershot, 2008), pp. 89–112.

(3) R. Gallo, 'La tomba di Enrico Dandolo in Santa Sofia a Constantinople', *Rivista Mensile della Città di Venezia* 6 (1927), 270–83; T. Madden, *Enrico Dandolo and the Rise of Venice* (Baltimore, 2003), pp. 193–4.

المعاصرين كتب عن «جيل مفقود» في السنوات التي أعقبت الحملة الصليبية الرابعة، حيث أُجبر الجهاز الإمبراطوري البيزنطي على إعادة لم شتاته في نيقية الواقعة في آسيا الصغرى(١).

في غضون ذلك، شرع الفرنجة في تقسيم الإمبراطورية فيما بينهم. وصدرت وثيقة جديدة بعنوان (Partitio terrarum imperii Romaniae)، بعد معاودة سجلات الضرائب في القسطنطينية، لتقسيم أراضي الإمبراطورية الرومانية، لتحدد مَن سيأخذ ماذا. ولم تجرِ هذه العملية خبط عشواء، أو كيفما اتفق. لقد كانت غنيمة باردة، وتقطيع أوصال محسوب بدقة(٢). منذ البدء، أظهر رجال مثل بوهيموند أن الحروب الصليبية -التي حملت على عاتقها الدفاع عن العالم النصراني، والقيام بواجب الرب، وتقديم الخلاص للكثيرين الذين حملوا الصليب- يمكن اختطافها سعيًا لتحقيق أهداف أخرى. وكان نهب القسطنطينية تتويجًا واضحًا لرغبة أوروبا في الاتصال بالشرق والاندماج فيه.

ولما تفككت الإمبراطورية البيزنطية، اندفع الأوروبيون بقيادة دويلات المدن الإيطالية: بيزا، وجنوة، والبندقية؛ للاستيلاء على المناطق والبلدات والجزر ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية على حساب بعضهم بعضًا. واشتبكت الأساطيل على نحو منتظم قبالة جزيرتي كريت، وكورفو (Corfu) حيث تنافس كل منها للسيطرة على أفضل القواعد، والحصول على أفضل فرص الوصول إلى الأسواق(٣). كما دار هناك صراع على الأراضي والامتيازات على البر أيضًا، وكان ذلك الصراع أشرس ما يكون في سهول تراقيا الخصبة، وكانت تلك السهول سلة خبز القسطنطينية(٤).

وسرعان ما جدد الصليبيون اهتمامهم بمصر؛ حيث أصبحت في عام ٦١٤هـ/ ١٢١٨م مقصد حملة صليبية أخرى كان هدفها الاستيلاء على دلتا النيل ثم الوصول إلى القدس. وانضم فرنسيس

---

(1) Michael Khoniates, *Michaelis Choniatae Epistulae*, ed. F. Kolovou (Berlin, 2001), Letters 145, 165, 100; T. Shawcross, 'The Lost Generation (c. 1204–c. 1222): Political Allegiance and Local Interests under the Impact of the Fourth Crusade', in J. Herrin and G. Saint-Guillain (eds), *Identities and Allegiances in the Eastern Mediterranean after 1204* (Farnham, 2011), pp. 9–45.

(2) Tafel and Thomas, *Urkunden*, 1, pp. 464–88; N. Oikonomides, 'La Decomposition de l'Empire byzantin à la veille de 1204 et les origines de l'Empire de Nicée: à propos de la "Partitio Romaniae"', in *XV Congrès international d'études byzantines* (Athens, 1976), 1, pp. 3–22.

(3) C. Otten-Froux, 'Identities and Allegiances: The Perspective of Genoa and Pisa', in Herrin and Saint-Guillan, *Identities and Allegiances*, pp. 265ff.;

وانظر أيضًا:

G. Jehei, 'The Struggle for Hegemony in the Eastern Mediterranean: An Episode in the Relations between Venice and Genoa According to the Chronicles of Ogerio Pane', *Mediterranean Historical Review* 11.2 (1996), 196–207.

(4) F. Van Tricht, *The Latin Renovatio of Byzantium: The Empire of Constantinople (1204–1228)* (Leiden, 2011), esp. pp. 157ff.

الأسيزي (Francis of Assisi) إلى الجيوش التي أبحرت جنوبًا على أمل إقناع السلطان الكامل بترك الإسلام واعتناق النصرانية، وهو أمر لم يتمكن حتى فرانسيس -وكان ذو شخصية آسرة- من تحقيقه، على الرغم من أن هذا الأمر أوكل إليه شخصيًا[1]. وحاول الصليبيون -بعد الاستيلاء على دمياط عام ٦١٥هـ/ ١٢١٩م- الزحف على القاهرة. ثم لقيت الحملة هزيمة كارثية على يد الملك الكامل الذي أبى إلا البقاء على دينه، الأمر الذي أدى في النهاية إلى توقف الحملة توقفًا مخزيًا.

ولما بحث القادة أمر الاتفاق على شروط الصلح، وتجادلوا فيما بينهم حول أفضل ما يمكنهم فعله في مواجهة تلك الهزيمة الفادحة، جاءتهم الأنباء تترى عما بدا في أعينهم معجزة حقًا. لقد وردت الأنباء عن زحف جيش كبير من جوف آسيا مددًا للفرسان الفرنجة في قتالهم مع المصريين. وأنهم سحقوا كل من وقف في وجههم في أثناء تقدمهم، وأنهم يغذون السير لنجدة الصليبيين.

سرعان ما اتضحت هوية ذلك المدد القادم على الفور، إنهم رجال الكاهن يوحنا (Prester John)، وهو ملك على مملكة شاسعة، وغنية على نحو تعجز الكلمات عن وصف غناها وثرائها، وقوام سكانها من الأمازون، والبراهمان، وقبائل بني إسرائيل المفقودة، ومجموعة من المخلوقات الأسطورية، وشبه الأسطورية. وكان الكاهن يوحنا يحكم ظاهريًا مملكة نصرانية، بل هي أقرب ما يكون إلى الجنة على الأرض. ولم تدع الرسائل التي بدأت في الظهور في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مجالًا للشك في روعة مملكته، أو مجد ملكه، فقد جاء فيها: «أنا الكاهن يوحنا، أنا سيد السَّادات، ليس ثَم ملك من ملوك العالم -بأسره- يَفضُلني في الثروة، والفضيلة، والقوة... في بلادنا يتدفق الحليب والعسل فلا يعوقهما عائق؛ حيث لا يضرُّ السُّم أحدًا؛ وحيث لا يُسمع للضفادع نقيقٌ؛ وحيث ليس ثَم عقارب، ولا حيَّات تزحف على العُشب». لقد كانت مملكته غنية بالزمرد، والماس، والجمشت وغيرها من الأحجار الكريمة، وكذلك بالفلفل، والإكسير الذي يشفي من جميع الأمراض[2]. وكانت الشائعات عن وصوله كافية للتأثير على القرارات التي كان الصليبيون على وشك اتخاذها في مصر. لقد كان الصليبيون ببساطة بحاجة ماسة إلى الحفاظ على رباطة جأشهم وحيويتهم[3].

لقد ثبت -فيما بعد- أن هذا كان درسًا مبكرًا للتجربة الأوروبية في آسيا. فلما كان الصليبيون لم

---

(١) انظر:

McMichael, 'Francis and the Encounter with the Sultan [1219]', in *The Cambridge Companion to Francis of Assisi*, ed. M. Robson (Cambridge, 2012), pp. 127–42; J. Tolan, *Saint Francis and the Sultan: The Curious History of a Christian–Muslim Encounter* (Oxford, 2009).

(2) Dulumeau, *History of Paradise*, pp. 71–96.

(3) M. Gosman, 'La Légende du Prêtre Jean et la propagande auprès des croisés devant Damiette (1228–1221)', in D. Buschinger (ed.), *La Croisade: réalités et fictions. Actes du colloque d'Amiens 18–22 mars 1987* (Göppinger, 1989), pp. 133–42; J. Valtrovà, 'Beyond the Horizons of Legends: Traditional Imagery and Direct Experience in Medieval Accounts of Asia', *Numen* 57 (2010), 166–7.

يعتادوا التمييز بين ما يمكن تصديقه، وبين حديث الخرافة، فقد علقوا أهمية كبيرة على تلك الشائعات التي أصابت وترًا حساسًا مع الأخبار التي انتشرت لعقود بعد هزيمة السلطان أحمد سنجر في آسيا الوسطى في العقد الخامس من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري. وقد أدت هذه الواقعة إلى ظهور أفكار معقدة ومتفائلة مستندة إلى حديث خرافة دار حول ما يكمن وراء حدود الدولة السلجوقية. ومع انتشار الأخبار في القوقاز لأول مرة عن الجيوش التي كانت تتقدم بسرعة الريح، سرعان ما أصبح القيل والقال حقيقة واقعة؛ فقد قيل: إن المجوس كانوا يتجهون غربًا حاملين الصلبان، والخيام المحمولة التي يمكن نصبها على هيئة الكنائس. وبدا -لوهلة- أن تحرير العالم النصراني أضحى وشيكًا[1]. وصاغ أحد كبار الأساقفة في دمياط ذلك بعبارات لا لبس فيها، مبشرًا بأن: «داود، ملك جزر الهند، قادم في طريقه، يغذ السير لنجدة النصارى، وقد جلب معه أكثر الشعوب وحشية وضراوة، وسيلتهمون المسلمين الذين يدنسون المقدسات التهام الوحوش لفرائسها»[2].

وسرعان ما اتضح خطأ هذه الأخبار؛ فلم يكن ذلك الهدير -الذي كان يسع الجميع سماعه آتيًا من الشرق- لجحافل الكاهن يوحنا، ولا لابنه «الملك داود»، كما لم يكن لجيش نصراني يغذ السير لمساعدة إخوانهم النصارى. لقد كان ذلك الهدير شيئًا مختلفًا تمامًا، ما كان متجهًا نحو الصليبيين خاصة -ونحو أوروبا عامة- لم يكن طريقًا إلى الجنة، بل كان طريقًا بدا وكأنه يؤدي مباشرة إلى قلب الجحيم. وكان المغول يركضون على امتداده ركضًا[3].

(1) C. Beckingham, 'The Achievements of Prester John', in C. Beckingham and B. Hamilton (eds), *Prester John, the Mongols and the Ten Lost Tribes* (Aldershot, 1996), pp. 1–22; P. Jackson, *The Mongols and the West* (London, 2005), pp. 20–1.

(2) F. Zarncke, 'Der Priester Johannes II', *Abhandlungen der Königlich Sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften, Phil.-hist. Kl.* 8 (1876), 9.

(3) Jackson, *Mongols and the West*, pp. 48–9.

-٩-

الطريق الى الجحيم

جـاءت الزلزلـة -التي شـعرت بها مصر- من الجانب الآخر من العالـم. لم تكن قبيلة المغول -في أواخـر القـرن الخامس الهجري/ الحادي عشـر الميلادي- تعدو كونها واحدة مـن القبائل الكثيرة التي عاشـت علـى التخوم الشـمالية لحـدود الصين مع عالم السـهوب، ووصفهم أحد الكتَّـاب المعاصرين بأنهـم: «يعيشـون كالحيوانـات، لا يدينـون بديـن، ولا يسـتهدون بشـريعة، ويرتحلون من مـكان لآخر ببسـاطة، ويهيمـون على وجوههـم كالحيوانات البرية السـائمة»[1]. وقال غيره: «كانوا يعدون السـرقة، والعنف، والفجور، والفسـق، من أفعال الرجولة والبطولة». وبالمثل كان يُنظَر إلى مظهرهم باشـمئزاز؛ فقـد كان شـأنهم في الملبس شـأن الهون في القرن الرابع الميلادي، فقد كانـوا يرتدون «جلود الكلاب والفئران»[2]. لقد كانت هذه الأوصاف أوصافًا مألوفة لسـلوك البدو وأخلاقهم، كما كان المراقبون من خارج هذا العالـم يرونها.

وعلى الرغـم من أن المغول بدوا قومًا فوضويين، وسفَّاكين للدماء، وشـيمتهم الغدر، فإن ظهورهم لـم يكن نتاجًـا لفوضويتهم، وافتقارهم إلى النظام، بل كان ظهورهـم نتاجًـا للتخطيط الصارم، والتنظيم المبسط، ووضعهـم لمجموعة واضحة من الأهداف الإستراتيجية. لقد مثلت هذه العناصر كلها المفتاح لتأسيس أكبر إمبراطورية برية عرفها التاريخ. وكان الملهم في هذا التحول الذي طرأ على المغول زعيم يدعـى تيموجيـن (Temüjin)، أو الحـداد، إلا أنـه اشـتهر بلقبـه «سـلطان العالم»، أو «الملـك الجبار»: شينجيز (Činggis)، أو جنگيز خان[3].

---

(1) Het um. *Patmich T'at arats'*, *La flor des estoires de la terre d'Orient*, in *Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Arméniens* 1, p. x.

(٢) عطا ملك الجويني، تاريخ فاتح العالم، الترجمة الإنجليزية:

tr. J. Boyle, *Genghis Khan: The History of the World- Conqueror*, 2 vols (Cambridge, MA, 1958), 1, 1, pp. 21–2.

(٣) عن معنى جنگيز (Činggis) بوصفه لقبًا، انظر:

I. de Rachewiltz, 'The Title Činggis Qan/Qayan Reexamined', in W. Hessig and K. Sangster (eds), *Gedanke und Wirkung* (Wiesbaden, 1989), pp. 282–8; T. Allsen, 'The Rise of the Mongolian Empire and Mongolian Rule in North China', in *The Cambridge History of China*, 15 vols (Cambridge, 1978–), 6, pp. 321ff.

انحدر جنگيز خان من عائلة نبيلة في اتحاد القبائل، وجرى التنبؤ بمصيره في اللحظة التي وُلد فيها، فقد نزل من بطن أمه «ممسكًا في يده اليمنى بقعةً متجلطة من الدماء، بحجم عظمة المفصل»؛ وفسِّر هذا على أنه أمارة دالة على مجد يحرزه في المستقبل[1]. وعلى الرغم من السمعة المخيفة التي اكتسبها جنگيز خان في القرون الوسطى -والتي لم تزل قائمة إلى يوم الناس هذا- فإن الرجل وطَّد سلطانه ببطء، وأبرم الصفقات مع أقرانه من زعماء القبائل، واختار حلفاءه بذكاء، تمامًا كما انتقى أعداءه جيدًا، بل اختار اللحظة المناسبة التي واجههم فيها في المقام الأول. لقد رتب جنگيز خان أتباعه الأكثر تفانيًا من حوله بوصفهم حراسًا له، وكذلك بوصفهم بطانة حديدية مكونة من المحاربين (Nökrüs) الذين كان يسعه الاعتماد عليهم، كما كانوا موضع ثقته. وكان هذا النظام مستندًا إلى الجدارة والاستحقاق؛ حيث كانت المقدرة والولاء أكثر أهمية من الحسب والنَّسب، أو أواصر القربى مع الزعيم نفسه. وقدم القائد -لقاء هذا الدعم المطلق من رجاله- السلع، والغنائم، والهيبة، والمكانة. وتمثلت عبقرية جنگيز خان في قدرته على منح هذه المزايا بلا حدود، وبما يكفي لضمان ولاء رجاله له. لقد كان هذا دينه وديدنه[2].

استطاع جنگيز خان تنفيذ هذا العطاء غير الممنون من خلال برنامج من الغزو والاجتياح المستمر تقريبًا. فقد أذعنت له القبيلة تلو الأخرى، طوعًا منها، أو كرهًا عنها. وما زال يفعل هذا حتى وطَّد سلطانه بوصفه زعيمًا لا يُنازع على السهوب المنغولية بحلول عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م. ومن ثم انصب تركيزه على الحلقة التالية من الأمم المجاورة، مثل: القرغيز (Kyrgyz)، والأويرات (Oirat)، والأويغور (Uighurs) -وكانت مساكنهم تقع غرب الصين في آسيا الوسطى؛ فخضعوا له، وبايعوه على الولاء. وكان لخضوع الأويغور له في عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م أهمية خاصة، كما يتضح من الهدية التي قدمها برقوق (Barchuq) -وكان حاكمًا على الأويغور- وكانت هديته للخان عروسًا جنگيزية، ثم أعلن أنه بات يعد نفسه «الابن الخامس» لجنگيز خان[3]. ولم تكمن أهمية الأويغور في موقع الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها في حوض نهر التاريم فحسب، بل كانت تكمن في لغتهم وأبجديتهم أيضًا، أو ما أطلق عليه أحد المؤرخين المعاصرين «الطبقة المتعلمة» التي اشتدت الحاجة إليها في منغوليا. وكانت المكانة الثقافية الرفيعة للأويغور أحد أسباب تجنيد كتَّابهم والبيروقراطيين منهم للعمل في خدمة المغول، بمن فيهم «تتار تونغا Tatar Tonga»، الذي أضحى مؤدِّبًا لأبناء جنگيز خان[4].

---

(1) *The Secret History of the Mongols*, tr. I. de Rachewiltz, 2 vols (Leiden, 2004), 1, p. 13.

(2) Allsen, 'Rise of the Mongolian Empire', pp. 321ff.; G. Németh, 'Wanderungen des mongolischen Wortes *Nökür* "Genosse"', *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae* 3 (1952), 1–23.

(3) T. Allsen, 'The Yüan Dynasty and the Uighurs of Turfan in the 13th Century', in M. Rossabi (ed.), *China among Equals: The Middle Kingdom and its Neighbors, 10th–14th Centuries* (Berkeley, 1983), pp. 246–8.

(4) P. Golden, '"I Will Give the People unto Thee": The Činggisid Conquests and their Aftermath in the Turkic World', *Journal of the Royal Asiatic Society* 10.1 (2000), 27.

وعلى هذا النحو وضع جنكيز خان نصب عينيه أهدافًا أكثر طموحًا. فقد شق المغول -في سلسلة من الغارات بدأت منذ عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، طريقهم إلى الصين التي كانت تحت حكم أسرة جين (Jin)، ونهبوا العاصمة تشونجدو (Zhongdu)، وأجبروا حكامها على إخلاء عاصمتهم، ونقلها جنوبًا أكثر من مرة، وغنموا منهم غنائم هائلة. وكان توسع المغول أكثر إثارة للإعجاب في بقاع أخرى، فقد كان توقيت هجومهم عليها مثاليًا. فقد وهنت الخلافة في العالم الإسلامي خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي؛ حيث ظهرت مجموعة من الدويلات المستقلة، ذات المساحات، والقدرات، والاستقرار المتفاوتة، وكلها مستقل عن بغداد. ووضع سلطان خوارزم نصب عين واحدة القضاء على منافسيه المحليين، أما عينه الأخرى فقد كانت على الصين، حيث رام التوسع شرقًا على حسابها. وكانت الوحدة التي نشأت عن توسيع الخوارزميين لحدود دولتهم تعني أن المغول ما أن يهزموا سلطان خوارزم -كما فعلوا ذلك على النحو الأمثل، عندما طاردوه حتى لاذ بجزيرة نائية في بحر قزوين؛ حيث قضى نحبه هناك بعيد ذلك- فإن الباب إلى آسيا الوسطى سيكون مفتوحًا أمامهم على مصراعيه ببساطة. لقد كان الطريق مفتوحًا أمام المغول، وقد نظفه الخوارزميون، بل وعبَّدوه لهم من قبل[1].

وترسم المصادر صورًا حية لوحشية لا مزيد عليها، رافقت الهجوم الذي بدأ على خوارزم في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٩م. وكتب أحد المؤرخين قائلًا: إن الغزاة «أقبلوا، ونهبوا، وأحرقوا، وقتلوا، وسلبوا، ثم رحلوا»[2]. وكتب غيره قائلاً: «فيا ليت أُمّي لم تلِدني، ويا ليْتنِي مِتُّ قبل حدوثِها، وكنت نسيًا منسِيًّا. ثم استطرد قائلًا: «وأمَّا [المسيح] الدَّجَّال فإنه يُبقي على مَن اتَّبعه، ويُهلِك مَن خالفه، وهؤلاء [يعني المغول] لم يُبقوا على أحدٍ، بل قتلُوا النِّساء والرِّجال والأطفال، وشقُّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجِنَّة»[3].

غرس المغول هذه المخاوف في نفوس أعدائهم بعناية. والحق أن جنكيز خان استخدم العنف على نحو انتقائي ومتعمد. وكانت استباحة إحدى المدن إجراءً محسوبًا، لتشجيع غيرها على الجنوح للسلم واتخاذ خيارهم سريعًا. واستُخدم القتل بطرق مروعة ومسرحيَّة لإقناع الحكام الآخرين بأن الخيار الأمثل هو التفاوض لا المقاومة. وكانت نيسابور واحدة من المواقع التي عانت دمارًا شاملًا. فقد ذُبح كل حي -من النساء، والأطفال، والمسنين. بل لم تسلم الماشية، والحيوانات المستأنسة من سيوف المغول؛ حيث صدرت الأوامر تقضي بقتل القطط والكلاب. وعلى هذا النحو تكدست الجثث

---

(1) Z. Bunyatov, *Gosudarstvo Khorezmshakhov-Anushteginidov* (Moscow, 1986), pp. 128–32; Golden, 'Činggisid Conquests', 29.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، الترجمة الإنجليزية:

Juvaynī, *History of the World Conqueror*, 16, 1, p. 107.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، في:

Ibn al-Athīr, in B. Spuler, *History of the Mongols* (London, 1972), p. 30.

على هيئة سلسلة من الأهرامات الضخمة، في تحذيرٍ مروع من عواقب مواجهة المغول. وكان ذلك كافيًا لردع المدن الأخرى، وإقناعها بإلقاء السلاح، والتفاوض. لقد انحصر الخيار بين اثنتين: فإما الحياة، وإما الموت[1].

وسَرعان ما انتشرت الأخبار عن الوحشية التي واجهها أولئك الذين تباطئوا في تقييم خياراتهم. وأضحت روايات من شاكلة رواية الأمير الذي أمر أمير حرب مغولي -كان قد وصل حديثًا- بصب الذهب المنصهر في عينيه وأذنيه معروفة على نطاق واسع. كما كانت حقيقة أن جريمة القتل هذه كانت مصحوبة بالإعلان عن أن هذا العقاب كان جزاءً وفاقًا للرجل «جزاء عن فعله الفظيع، وخطبه الشنيع، وسعيه المذموم عند الجميع»[2][3]. لقد كان ذلك بمثابة تحذير لأولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم مقاومة المغول أو الوقوف في وجوههم. وعلى هذا النحو كافأ المغول من سالمهم فخضع لهم؛ وعاقبوا من قاومهم عقابًا وحشيًا.

كان استخدام جنگيز خان للقوة متقدمًا من الوجهة التقنية، كما كان ذكيًا من الوجهة الإستراتيجية في الآن نفسه. فقد كان فرض حصار طويل على المدن المحصنة جيدًا أمرًا صعبًا، بل ومكلفًا بسبب متطلبات الجيش الكبير من الفُرسان، والذي قد تؤدي حاجته إلى المراعي إلى استنفاد الأعلاف بالمنطقة المحيطة بالأسوار سريعًا؛ لهذا السبب، كان الفنيون العسكريون الذين يمكنهم التعجيل بالنصر سريعًا موضع تقدير كبير عند المغول. فقد علمنا أن المغول استخدموا في حصار نيسابور في عام ٦١٧هـ/ ١٢٢١م ثلاثة آلاف قوس نشَّاب عملاق، وثلاثة آلاف منجنيق، وسبعمئة آلة لصب النيران والمواد الحارقة. وفي تاريخ متأخر، أضحى المغول أكثر اهتمامًا بالتقنيات التي ابتكرها الفرنجة، ونسخ تصميمات المجانيق والمقاليع، وآلات الحصار التي شيدها الصليبيون في الأرض المقدسة، واستخدامها ضد أهداف في شرق آسيا في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. لقد أتاح التحكم في طرق الحرير لأربابه الوصول إلى المعلومات والأفكار التي كان يسعهم نسخها ونشرها على بعد آلاف الأميال[4].

على أية حال، فإن أحد التفسيرات للنجاحات المذهلة التي حققها المغول في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في الصين وآسيا الوسطى وما وراءها، هو أن سكان تلك البقاع التي

---

(1) D. Morgan, *The Mongols* (Oxford, 1986), p. 74.

(٢) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، الترجمة الإنجليزية:
tr. O. Houdas, *Histoire du sultan Djelāl ed-Dīn Mankobirti prince du Khārezm*, (Paris, 1891), 16, p. 63.

(٣) كان ذلك الأمير المعاقب هو «ينال خان»، وأمر بقتله على هذا النحو بعد أن صادر أموال بعض التجار المغول الذين دخلوا بلاده يرومون التجارة بزعم أنهم «أصحاب أخبار» أي جواسيس للمغول، ثم استأذن السلطان في قتلهم، ومصادرة أموالهم. (المترجم)

(4) K. Raphael, 'Mongol Siege Warfare on the Banks of the Euphrates and the Question of Gunpowder (1260–1312)', *Journal of the Royal Asiatic Society*, 19.3 (2009), 355–70.

استولى عليها المغول لم ينظروا إلى المغول دائمًا على أنهم طغاة؛ وهذا -لعمري- من قبيل المفارقات، وذاك نظرًا للسمعة التي اكتسبها المغول. استند ذلك التفسير إلى سبب وجيه؛ ففي حالة خوارزم -على سبيل المثال- أُمِر أهل المدينة بدفع الضرائب لمدة عام مقدمًا لتمويل ترميم أسوار سمرقند، ودفع أجور أفواج الرماة الذين كان يجري تجهيزهم لصد هجوم مغولي وشيك. ونظرت الأسر التي تحملت مثل هذا الضغط المالي إلى حكامهم شذرًا. وفي المقابل، استثمر المغول بسخاء في البنية التحتية لبعض المدن التي استولوا عليها. فقد زار راهب صيني سمرقند بُعيد سقوطها في أيدي المغول، واندهش من كثافة أعداد الحرفيين الصينيين، وعدد الأشخاص الذين جُلبوا من البقاع المحيطة -وما وراءها- للعمل في الحقول والبساتين التي كانت أرضًا بورًا في الماضي[١].

لقد تكرر ذلك النمط مرارًا؛ فقد تدفقت الأموال على المدن التي أعيد بناؤها وتنشيطها، مع إيلاء اهتمام خاص لتشجيع الفنون، والحرف، والإنتاج. إن الصور الشاملة للمغول بوصفهم قومًا برابرة عاثوا في الأرض خرابًا، إنما هي صورة خاطئة، وهي تجسيد للروايات المضللة التي تناقلتها التواريخ المتأخرة؛ حيث ركزت على الخراب والدمار في المقام الأول. بيد أن هذه النظرة المتحيزة للماضي تكاد تلقننا درسًا واضحًا عن بُعد نظر القادة الذين كان لهم آراء معينة، وأبدوا الحرص على وصولها للأجيال التالية من خلال رعاية المؤرخين الذين كتبوا عن عصورهم ودولهم بروح ملؤها التعاطف. وهذا هو الأمر الذي أخفق المغول في الوفاء به إخفاقًا ذريعًا[٢].

بإزاء ذلك، لا يسعنا أيضًا أن نخطئ في الحكم على الكيفية التي استخدم المغول القوة الغاشمة بها، فما أن تتناهى إلى مسامع قوم أنباء اقتراب المغول من ديارهم، وأن هجومهم عليهم بات وشيكًا، حتى تتجمد الدماء في عروقهم. وبينا توغَّل المغول غربًا -مطاردين أولئك الذين قاوموهم، أو فروا من وجوههم على أمل النجاة بأنفسهم- زرع المغول الرعب في القلوب قبل العقول. ففي عام ٦١٧هـ/ ١٢٢١م تقدمت جحافل المغول -تحت قيادة اثنين من أبناء جنكيز خان- بسرعة البرق مجتاحةً أراضي أفغانستان وبلاد فارس، ودمروا كل قائم ألفَوه ماثلًا أمامهم، فلم يُبقوا حجرًا على حجر. واستولى المغول في طريقهم على نيسابور، وهرات، وبلخ، وسوُّوا مرو بالأرض، وأعملوا السيف في سكانها، فأفنوهم عن آخرهم، وفقًا لأحد المؤرخين الفُرس، ولم يبقوا إلا على حيوات نحو ٤٠٠ حرفي وجهوا بهم إلى الشرق للعمل في خدمة بلاط المغول. واصطبغ أديم الأرض بدماء القتلى،

(1) A. Waley (tr.), *The Travels of an Alchemist: The Journey of the Taoist, Ch'ang-ch'un, from China to the Hindukush at the Summons of Chingiz Khan, Recorded by his Disciple, Li Chih-ch'ang* (London, 1931), pp. 92–3.

(٢) انظر: دراسة ألسن (Allsen) الرائدة:

Allsen, *Commodity and Exchange*, and G. Lane, *Early Mongol Rule in Thirteenth-Century Iran: A Persian Renaissance* (London, 2003).

ويبدو أن ثلة من الناجين أحصت جثث القتلى، وقدرت أعدادهم بأكثر من ١,٣ مليون قتيل(١). وأغرت تلك الأخبار المثيرة للرعب عن أعداد القتلى المماثلة في أماكن أخرى الكتاب المعاصرين بالحديث عن الإبادة الجماعية، والقتل الجماعي، وذبح نحو ٩٠٪ من السكان(٢).

وفي حين يصعب علينا توخي الدقة بشأن أعداد القتلى الذين سقطوا صرعى في هجمات المغول، فيجدر بنا أن نذكر أن عددًا كبيرًا من المدن -وإن لم تكن كلها- التي دمرتها موجات من المهاجمين تعافت سريعًا. الأمر الذي قد يؤشر إلى أن المؤرخين الفُرس المتأخرين -الذين نعتمد عليهم في هذا الصدد- قد بالغوا في التأكيد على الآثار المدمرة لهجمات المغول. ومع ذلك، حتى لو افترضنا أن هؤلاء النفر من المؤرخين بالغوا في وصف الويلات التي حاقت بهم على أيدي المغول، فلا شك أن الرياح التي حملت العنف من الشرق كانت رياحًا عاتية بالفعل.

كان المغول قساةً غلاظ القلوب أيضًا. فما إن فرغوا من استباحة المدن الرئيسة في آسيا الوسطى حتى نهبوا القوقاز، قبل أن يظهروا جنوبي روسيا. لقد اندفعوا يطاردون خصومهم من قبائل القبجاق (Qıpchaqs) أو الكومان (Cumans)، لتلقينهم درسًا جراء جرأتهم عليهم، وإبائهم الخضوع لهم. وربما مات جنگيز خان عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، بيد أن ورثته أثبتوا سعة حيلتهم، ونجحوا في ملء الفراغ الذي نجم عن موته نجاحًا يكاد يكون باهرًا.

وخلف أوقطاي (Ögodei) -الذي أصبح الخان الأعظم، أو القائد الأعلى- والده جنگيز خان بُعيد وفاته. وبعد النجاحات الاستثنائية التي حققتها جيوشه في آسيا الوسطى، شن المغول -في أواخر العقد الرابع من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري- واحدة من أكثر الهجمات المذهلة في تاريخ الحروب؛ بل إن حملتهم فاقت حملة الإسكندر الأكبر من حيث السرعة والمدى. فقد توغلت قوات المغول في السهوب حتى دخلت أرض روسيا، وظهرت «بأعداد لا حصر لها، كالجراد»، وفقًا لأحد الرهبان في نوڤجورود (Novgorod). واستطرد ذلك الراهب قائلًا: «لا نعرف من أين جاؤوا، أو أين اختفوا! الله وحده يعلم ذلك؛ ذاك أنه أرسلهم لمعاقبتنا على خطايانا»(٣).

لما عاد المغول إلى الظهور مجددًا طالبوا ساكنة تلك البقاع بدفع الجزية، في تصرف

---

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، الترجمة الإنجليزية:

Juvaynī, *History of the World Conqueror*, 27. 1, pp. 161–4.

(2) J. Smith, 'Demographic Considerations in Mongol Siege Warfare', *Archivum Ottomanicum* 13 (1994), 329–34; idem, 'Mongol Manpower and Persian Population', *Journal of Economic and Social History of the Orient* 18.3 (1975), 271–99; D. Morgan, 'The Mongol Armies in Persia', *Der Islam* 56.1 (2009), 81–96.

(3) *Novgorodskaya Pervaya Letopis' starshego i mladshego isvodov*, ed. A. Nasonov (Leningrad, 1950), p. 61.

نموذجي متوقع. وهددوا بإفناء أولئك الذين يأبون دفعها، واستئصال شأفتهم. وعلى هذا النحو تعرضت المدن للهجوم واحدة تلو الأخرى، وبدأ المغول بـ ريزان (Ryazan)، ثم عطفوا على تڤير (Tver)، ثم يمموا أنظارهم صوب كييف (Kiev) في الأخير؛ حيث نهبوها، فلم يُبقوا فيها ما يُطمع به. وفي مدينة ڤلاديمير (Vladimir)، لجأ آل بيت الأمير -فضلًا عن أسقف المدينة وأعيانها، إلى كنيسة «أم الرب المقدسة» (Holy Mother of God) مستجيرين بها. فأشعل المغول النيران في الكنيسة، وأحرقوا من بها أحياءً[١]. ودمروا الكنائس، وكتب أحد خلفاء الأسقف، قائلًا: إن «الأواني المقدسة قد دُنِّست، ووطأت الأقدام الذخائر المقدسة، وأضحت أجساد رجال الدين أغمادًا للسيوف[٢]. لقد بدا الأمر كما لو كانت الوحوش البرية قد أُطلِقت لتنهش لحوم الحكام، وتشرب دماء النبلاء. لم يأت الكاهن يوحنا من الشرق ومعه الخلاص؛ بل جاء المغول، وكادت الساعة تقوم على أيديهم.

* * *

انعكس الرعب -الذي أثاره المغول- في الاسم الذي عُرفوا به، أعني التتار، في إشارة إلى الكلمة اليونانية «ترتروس» (Tartarus)، التي تعني الدرك الأسفل من النار في الأساطير الكلاسيكية[٣]. وانتشرت أخبار تقدمهم في الناس حتى بلغت اسكتلندا، فوفقًا لأحد المصادر، لم تُبَع أسماك الرنجة في الموانئ على الساحل الشرقي لبريطانيا؛ حيث لم يجرؤ التجار -الذين كانوا يأتون عادة من بحر البلطيق لشرائها- على مغادرة بلادهم[٤]. وطرق المغول باب قلب أوروبا عام ١٢٤١م، فقسموا قواتهم إلى جناحين، هاجم الأول بولندا، بينما اتجه الآخر صوب سهول المجر. وانتشر الذعر في جميع أنحاء القارة، ولا سيما بعد تدمير جيش كبير بقيادة ميسكو السمين (Mieszko the Fat) ودوق سيليزيا (Duke of Silesia). واستعرض المغول رأس الأخير معلقًا على سنّ رمح، إلى جانب تسعة أكياس امتلأت بـ « آذان القتلى». ثم تحرك المغول غربًا. ولمَّا هرب الملك بيلا الرابع (Béla IV) ملك المجر إلى

(1) Ibid.. pp. 74–7.

(2) E. Petrukhov, *Serapion Vladimirskii, russkii propovedenik XIII veka* (St Petersburg, 1888), Appendix, p. 8.

(٣) على الرغم من أن الكُتَّاب في القرون الوسطى قد ربطوا بين التتار وبين ترتروس (Tartarus)، فإن كلمة «التتار» كانت تستخدم في السهوب علمًا على رجال القبائل الرحل، ومن المحتمل أنها مشتقة من كلمة (ta-ta) التنجوسية التي تعني السَّحب أو الجر، انظر:

S. Akiner, *Religious Language of a Belarusian Tatar Kitab* (Wiesbaden, 2009), pp. 13–14.

قلت: التنجوسية، أسرة تضم عدة لغات منتشرة في شرق سيبيريا، وشمال شرق الصين، وتتحدث بها قبائل تدعى القبائل التونجوسية. (المترجم)

(4) Jackson, *Mongols and the West*, pp. 59-60; D. Sinor, 'The Mongols in the West', *Journal of Asian History* 33.1 (1999), 1–44.

دالماسيا (Dalmatia)، ولجأ إلى تروجير (Trogir)، حان الوقت للكهنة ليقودوا الجموع، ويقيموا القداس، ويصلوا طلبًا لنصرة الله، وحمايته من الشر. وأصدر البابا جريجوري التاسع (Gregory IX)، مرسومًا يمنح فيه أولئك الذين يتطوعون للدفاع عن المجر المزايا نفسها التي تُمنح للصليبيين الذين يشاركون في الحملات الصليبية، بيد أن الناس قابلوا عرض البابا بالإعراض والفتور. وكان الإمبراطور الألماني ودوق البندقية أكثر الناس وعيًا بما ستكون عليه العواقب إذا حاولوا تقديم المدد، وانتهى بهم الأمر إلى الهزيمة. وعلى هذا النحو فإن المغول لو اختاروا -آنذاك- الاستمرار في التوغل غربًا «فمن غير المرجح أنهم كانوا سيواجهون أي مقاومة منسَّقة» على حد قول أحد العلماء المحدَثين[1]. لقد حانت ساعة الحساب لأهل أوروبا.

وزعم بعض المؤرخين المعاصرين -بأسلوب لم يخلُ من مرارة تكاد تكون مثيرة للإعجاب- أن تقدم المغول قد توقف بسبب المقاومة الجسورة، أو أنهم لقوا هزائم في معارك متخيلة، وارتدت هذه المزاعم مسوح الحقائق بمرور الوقت. والحق أن المغول لم يضعوا غربي أوروبا نصب أعينهم ببساطة، على الأقل في هذا التوقيت. لقد كانت أولويتهم هي عقاب «بيلا Béla» لقبوله إجارة قبيلة كومان (Cumans)، وربما لتجاهله مطالب المغول المتكررة له بتسليمهم. وهكذا كان ينبغي على المغول معاقبة أولئك الآبقين بأي ثمن[2].

وقال قائد المغول في إحدى الرسائل التي بعث بها إلى الملك بيلا: «أنا أعلم أنك ملك ثري، وقوي. كما أعلم أن لديك عددًا كبيرًا من الجنود تحت إمرتك، وأنك وحدك تحكم مملكة عظيمة». ثم أردف في كلمات قد تكون مألوفة لأي مبتزٍّ محترف، حيث وضَّح هذا القائد غرضه صراحةً؛ فاستطرد قائلًا: «يصعب عليك أن تعلن خضوعك لي بمحض إرادتك، ومع ذلك، فإن الخضوع سيكون أفضل بكثير لمستقبلك إن كنت فاعلًا»[3]. لقد كانت إهانة منافس قوي في عالم السهوب، أمرًا سيئًا، تمامًا مثل مواجهته وجهًا لوجه. وكان بيلا بحاجة إلى أن يُلقَّن درسًا؛ لذا قصده المغول بعينه، وطاردوا فلول قواته عبر دالماسيا، على الرغم من أنهم قد أتيحت لهم فرص أخرى، وبدت لهم ثغرات في أماكن أخرى. ودمر المغول كل شيء في أثناء

---

(1) C. Rodenburg (ed.), *MGH Epistulae saeculi XIII e regestis pontificum Romanorum selectae*, 3 vols (Berlin, 1883-94), 1, p. 723; Jackson, *Mongols and the West*, pp. 65-9.

(2) P. Jackson, 'The Crusade against the Mongols (1241)', *Journal of Ecclesiastical History* 42 (1991), 1-18.

(3) H. Dörrie, 'Drei Texte zur Gesichte der Ungarn und Mongolen. Die Missionreisen des fr. Julianus O.P. ins Ural-Gebiet (1234/5) und nach Rußland (1237) und der Bericht des Erzbischofs Peter über die Tataren', *Nachrichten der Akademie der Wissenschaften in Göttingen, phil-hist. Klasse* (1956) 6, 179;

وانظر أيضًا:

Jackson, *Mongols and the West*, p. 61.

مطاردتهم له، ونهبوا إحدى البلدات فلم يبقوا ولم يذروا، حتى إن مؤرخًا محليًا علّق قائلًا: أنهم لم يتركوا حيًا «يتبول على الحائط»[1][2].

في تلك المرحلة، أُنقِذ بيلا -وأوروبا- بضربة حظ كبيرة: فقد مات الخان العظيم أوقطاي فجأة؛ بحيث بدا الأمر للمتدينين الورعين، وكأن صلواتهم قد استُجيبت. أما عند أعيان المغول، فقد كان من الضروري التواجد والمشاركة في اختيار الرجل الذي ينبغي أن يتولى زمام القيادة بعد الخان. ولم يكن هناك من يصلح لذلك مثل ابنه البكر. ومع ذلك، توقف اختيار الخان الجديد على قدرته على الدفاع عن أحقيته على نحو أفضل من أقرانه، وكان صوته أعلى في الاجتماع الذي ينبغي أن يضم كبار المتنفذين في عالم المغول. وكان من الممكن أن يؤدي قرار أحدهم بدعم مرشح بعينه إلى صنع أسماء قادة، أو إلى تدميرهم. فإذا ارتقى أحد المستفيدين إلى القمة، فقد تكون حصته في الغنائم أعلى من غيره. ومن ثم لم يكن هذا التوقيت هو التوقيت الأمثل لمطاردة الملوك المشاغبين عبر وهاد البلقان وأصقاعها. لقد حان وقت العودة إلى الوطن، ومراقبة الوضع هناك، والنتائج التي سيُسفر عنها الاجتماع عن كثب. على هذا النحو رفع المغول أقدامهم عن حلق أوروبا النصرانية.

وعلى الرغم من أن اسم جنگيز خان هو مرادف للفتوحات العظيمة في آسيا، والغارات على أراضٍ نائية، فإن وفاة الزعيم المغولي عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م وقعت بعد تنفيذ المرحلة الأولى من بناء الإمبراطورية في الصين وآسيا الوسطى، وقبل الهجمات المأساوية على روسيا والشرق الأوسط، والغزو الذي أجبر أوروبا على أن تجثو على ركبتيها. لقد كان ابنه أوقطاي هو الذي أشرف على التوسع الذي زاد من نطاق سيادة المغول إلى حد كبير، كما كان العقل المدبر للحملات التي امتدت إلى شبه الجزيرة الكورية، والتبت، وباكستان، وشمال الهند، بل وغربي أوروبا كذلك. وعلى هذا النحو ينبغي أن يُعزى الفضل إلى أوقطاي في الإنجاز الذي حققه المغول، وبالمثل ينبغي أن يعزى توقف المغول المؤقت عن الغزو والتوسع إلى وفاته. لقد منح موته في عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م الجميع فرصة عظيمة كي يستردوا أنفاسهم.

ولما توقف العالم ليرى من سيخلف الخان، تدفق المبعوثون من أوروبا والقوقاز عبر آسيا للوقوف على هوية أولئك اللصوص، ومن أين جاؤوا، وما هي عاداتهم، وربما التوصل إلى اتفاق معهم. وحملت مجموعتان من السفراء الرسائل معهم، وكلها تناشد المغول الله ألا يهاجموا النصارى، وأن يفكروا في أمر اعتناق الدين الحق[3]. وأرسل البابا إنوسنت الرابع (Innocent IV) بين عامي

---

(1) Thomas the Archdeacon, *Historia Salonitanorum atque Spalatinorum pontificum*, ed. and trans. D. Krabić, M. Sokol and J. Sweeney (Budapest, 2006), p. 302; Jackson, *Mongols and the West*, p. 65.

(٢) الكناية على ما يبدو تشير إلى الكلاب. (المترجم)

(٣) وصلتنا رسالتان من هذه الرسائل، انظر:

C. Rodenberg (ed.), *Epistolae saeculi XII e regestis pontificum romanorum*, 3 vols (Berlin, 1883–94), 2, pp. 72; 3, p. 75.

٦٤٠-٦٥٠هـ/ ١٢٤٣-١٢٥٣م أربع سفارات منفصلة، كما أرسل الملك لويس التاسع (Louis IX) -وكان ملكًا على فرنسا- بعثة بقيادة وليم روبروك (William of Rubruck)، وكان راهبًا من فلاندرز[١].

وكانت الأخبار التي قدموها عن رحلاتهم تصويرية وغريبة، تشبه تلك التي دوَّنها الرحالة المسلمون عن السهوب في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. وأصيب الرحالة الأوروبيون بالذهول، والذعر بالقدر نفسه. وكتب وليم روبروك قائلًا: على الرغم من بأسهم الشديد، فإن أسياد آسيا الجدد لم يعيشوا في المدن، باستثناء العاصمة قره قورم، حيث التقى روبروك بالخان العظيم في خيمة ضخمة كانت «مغطاة بكاملها بالقماش الموشى بالذهب»[٢]. وكانت سلوكيات المغول وعاداتهم غريبة، غير مألوفة؛ فلم يكونوا يأكلون الخضروات، ودأبوا على شرب حليب الفرس المخمر، وكانوا يتقيؤون دون أن يعبؤوا بمن يتجاذبون معه أطراف الحديث، بل وفي الأماكن العامة، «وعلى مرمى حصاة، أو حبة باقلاء من المكان الذي يقف فيه المرء»[٣].

وأصبحت رواية مبعوث آخر، هو جون بلانو كاربيني (John of Plano Carpini)، معروفة على نطاق واسع في جميع أنحاء أوروبا في هذه الحقبة؛ ورسمت صورة مماثلة للقذارة، والانحطاط، والجهالة، في عالم كانت تؤكل فيه لحوم الكلاب، والذئاب، والثعالب، والقمل. كما تحدث عن شائعات سمعها عن مخلوقات تعيش على تخوم أرض المغول، حيث كان لبعض الناس حوافر، ولغيرهم رؤوس كلاب[٤]. ونقل جون معلومات مشؤومة عن المشاهد التي رافقت تنصيب الخان العظيم التالي، جويوك (Güyüg). ووشَت قائمة الشخصيات البارزة من المناطق، والقبائل، والعوالم التي اعترفت بسيادة المغول بالنطاق المذهل الذي بلغته الإمبراطورية؛ فقد حضر المراسم قادة من روسيا، وجورجيا، وأرمينية، والسهوب، والصين، وكوريا. وكان هناك ما لا يقل عن عشرة سلاطين، فضلًا عن آلاف المبعوثين الذين أرسلهم الخليفة[٥].

وتلقى جون رسالة من الخان العظيم ليحملها معه عند عوده إلى روما. جاء فيها: إن المغول احتلوا جميع أراضي العالم. وطالب الخان البابا قائلًا: «ينبغي عليك أن تأتي بنفسك مع جميع الأمراء قِبلك وتخدمنا». واستطرد الخان العظيم محذرًا: فإن لم تفعل «جعلتك عدوًّا لي». وفي غضون ذلك، أجاب الخان جوابًا قاطعًا على توسلات البابا له بأن يعتنق النصرانية، فكتب الخان غاضبًا: مَن أعطاك علم مَن يغفر الله له، ومَن يرحمه؟! ثم استطرد قائلًا: إن جميع الأراضي من مشرق الشمس إلى مغربها تخضع

---

(1) Valtrovà, 'Beyond the Horizons of Legends', 154–85.

(2) William of Rubruck, *The Mission of Friar William of Rubruck*, tr. P. Jackson, ed. D. Morgan (London, 1990), 28, p. 177.

(3) Ibid., 2, pp. 72, 76; 13, p. 108; Jackson, *Mongols and the West*, p. 140.

(4) John of Plano Carpini, *Sinica Franciscana: Itinera et relationes fratrum minorum saeculi XVII et XIV*, ed. A. van den Wyngaert, 5 vols (Florence, 1929), 1, pp. 60, 73–5.

(5) John of Plano Carpini, *Ystoria Mongolarum*, ed. A. van den Wyngaert (Florence, 1929), pp. 89–90.

لي، وقد جرى ذلك دون عونٍ من إلهك. تم ختم الرسالة بختم «فلتتوحَّد قوة الخان العظيم مع قوة تنگري السرمدي». وقد علِمتَ أن تنگري هو الإله الأعلى في معتقدات بدو السهوب التقليدية. وعلى أية حال فلم تكن تلك الرسالة مبشرة بالخير قط[1].

ولم يكن من المطمئن أيضًا أن يجري وضع خطط لشن هجمات جديدة على وسط أوروبا، مع التفكير في شن هجوم كبير على شمال القارة في الوقت نفسه[2]. لقد كانت خطط المغول ترمي للسيطرة على العالم: وكان غزو أوروبا هو الخطوة المنطقية التالية في خطة ورثة جنگيز خان لإخضاع المزيد من الأراضي تحت سيطرتهم ببساطة[3].

لقد أدى الخوف من المغول إلى تأثير الدومينو على الصعيد الديني في أوروبا. حيث دخلت الكنيسة الأرمينية في مناقشات مع بطريركية الروم الأرثوذكس من أجل الدخول في تحالف بغرض الحماية في حالة وقوع هجوم في المستقبل. كما فتح الأرمن باب التفاوض مع روما، مشيرين إلى استعدادهم للإعلان عن اتفاقهم مع تفسير البابوية لانبثاق الروح القدس، وهو الموضوع الذي طالما تسبب في كثير من الاحتكاكات في الماضي[4]. وكذا فعل البيزنطيون الشيء نفسه، فأرسلوا بعثة إلى روما تقترح إنهاء الانقسام الذي قسم الكنيسة النصرانية إلى قسمين منذ القرن الحادي عشر الميلادي، والذي تعمق جراء الحروب الصليبية، التي سببت جرحًا لم يندمل[5]. وبينا فشل الكهنة والأمراء في أوروبا في إعادة توحيد الباباوات والبطاركة، نجح المغول في ذلك؛ إذ أدت الهجمات من الشرق، والتهديد الحقيقي بتكرارها، إلى جر الكنيسة إلى شفا الانهيار التام.

ولما بدا الانسجام الديني أمرًا مؤكدًا، تغيرت المواقف. فبعد وفاة الخان العظيم جويوك (Güyüg) -فجأة في عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م- دار صراع على الخلافة داخل القيادة المغولية، واستغرق الأمر بعض الوقت لحله. ولما انقضت الفتنة التي وقعت بين ظهراني المغول، تلقى حكام أرمينية وبيزنطة تأكيدات تقضي بأنهم -أعني المغول- لن يشنوا هجومًا وشيكًا على تلك البلاد. فأما بيزنطة فقد كان

(1) 'Letter of the Great Khan Güyüg to Pope Innocent IV (1246)', in I. de Rachewiltz, *Papal Envoys to the Great Khans* (Stanford, 1971), p. 214 (with differences).

(2) C. Dawson, *Mongol Mission: Narratives and Letters of the Franciscan Missionaries in Mongolia and China in the Thirteenth and Fourteenth Centuries* (London, 1955), pp. 44–5.

(3) P. Jackson, 'World-Conquest and Local Accommodation: Threat and Blandishment in Mongol Diplomacy', in J. Woods, J. Pfeiffer, S. Quinn and E. Tucker (eds), *History and Historiography of Post-Mongol Central Asia and the Middle East: Studies in Honor of John E. Woods* (Wiesbaden, 2006), pp. 3–22.

(4) R. Thomson, 'The Eastern Mediterranean in the Thirteenth Century: Identities and Allegiances. The Peripheries: Armenia', in Herrin and Saint-Gobain, *Identities and Allegiances*, pp. 202–4.

(5) J.-L. van Dieten. 'Das Lateinische Kaiserreich von Konstantinopel und die Verhandlungen über kirchliche Wiedervereinigung', in V. van Aalst and K. Ciggaar (eds), *The Latin Empire: Some Contributions* (Hernen, 1990). pp. 93-125.

هذا بسبب رشوة كبيرة قُدّمت للمبعوث المغولي الذي أرسل إلى البيزنطيين -وفقًا لـ وليم روبروك- ومن ثم بذل مساعيه لمنع اعتداء بني جلدته على أراضي الإمبراطورية[1]. وكان صحيحًا -بكل تأكيد- أن البيزنطيين كانوا يشعرون بالعجز عن تشتيت انتباه المغول، وبذلوا كل ما في وسعهم لتجنب هجومهم عليهم. فعلى سبيل المثال، شهد العقد السادس من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري إرسال وفد آخر من قره قورم إلى بيزنطة، واختير طريقهم الوعر عن قصد بواسطة أدلاء بيزنطيين، ليجتازوا وهادًا وعرة في آسيا الصغرى، ثم أُجبروا على مشاهدة استعراض للجيش الإمبراطوري عندما وصلوا للقاء الإمبراطور. لقد كانت هذه محاولات يائسة ترمي لإقناع المغول بأن الإمبراطورية لا تستحق عناء الهجوم عليها، فإذا أصر المغول وعزموا على المسير للغزو، فإن جيش الإمبراطورية بانتظارهم[٢].

والحق أن المغول قرروا ألا يهاجموا الإمبراطورية لأسباب مختلفة؛ فلم تكن الأناضول -بل ولا حتى أوروبا- ما أثار اهتمامهم؛ وذاك لوجود أهداف أفضل، وفرائس أسمن في أماكن أخرى. لقد بعث المغول بالحملة تلو الحملة إلى ما تبقى من الصين، حتى استسلمت تمامًا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، واتخذت سلالة المغول الحاكمة اللقب الإمبراطوري «يوان Yüan»، وأسست مدينة جديدة في موقع مدينة تشونجدو القديمة (Zhongdu). وباتت هذه المدينة -آنذاك- عاصمة المغول، التي صمّمت لتتويج إنجازات السيطرة على المنطقة الواقعة بين المحيط الهادئ والبحر المتوسط برمتها. واحتفظت تلك المدينة الجديدة بأهميتها منذ ذلك الحين: إنها بكّين (Beijing).

كما حظيت المدن الكبرى الأخرى باهتمام كبير. فقد ركز الخان الجديد، مونكو (Möngke) على توجيه جيوش المغول إلى لآلئ العالم الإسلامي؛ فسقطت المدينة تلو الأخرى مع اندفاع جحافل المغول المهاجمة غربًا. وفي عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقفت جحافل المغول تحت أسوار بغداد، وبعد حصار قصير، دمروها تدميرًا. وكتب أحد الكتاب بُعيد ذلك: لقد اجتاحوا المدينة «مثل الصقور الجائعة التي انقضت على سرب من الحمائم، أو مثل قطيع من الذئاب انقضت على الماشية». وجر جنود المغول سكان المدينة في الشوارع والأزقة، مثل الدُّمى، «كل منهم أصبح دُمية». وأُسِر الخليفة المستعصم، ولُف بدنه بالقماش، ووطأته سنابك الخيول دهسًا حتى الموت[٣]. لقد كانت لحظة رمزية للغاية، أظهرت من يمتلك القوة الحقيقية في هذا العالم.

---

(1) Wiliam of Rubruck, *Mission of Friar William*, 33, p. 227.

(2) George Pachymeres, *Chronicon*, ed. and tr. A. Faillier, *Relations historiques*, 2 vols (Paris, 1984), 2, pp. 108–9; J. Langdon, 'Byzantium's Initial Encounter with the Chinggisids: An Introduction to the Byzantino-Mongolica', *Viator* 29 (1998), 130–3.

(٣) عبد الله بن فضل الله وصاف، تجزية الأمصار وتزجية الأعصار:
in Spuler, *History of the Mongols*, pp. 120–1.

واستولى المغول على الغنائم، والثروات الهائلة لأنفسهم خلال هذه الفتوحات. ووفقًا لرواية رواها حلفاء المغول في القوقاز، «غرق الظافرون في بحار من الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، واللؤلؤ، والمنسوجات، والملابس الفاخرة، والصحون، والمزهريات المطعمة بالذهب والفضة؛ ذاك أنهم لم يقبلوا من المعادن إلا هذين المعدنين فقط، إضافةً إلى الأحجار الكريمة، واللؤلؤ، والمنسوجات والثياب». وكان الاستيلاء على الأقمشة مهمًا بصفة خاصة، تمامًا كما كانت الحال مع قبيلة شيونجنو (Xiongnu) في ذروة مجدهم، فقد لعب الحرير والنسيج الفاخر دورًا مهمًا في ترسيم النخب داخل النظام القبلي، وحظي بتقدير كبير نتيجة لذلك. وغالبًا ما كان المغول يطالبون بالجزية على هيئة قطع من القماش المذهب، أو الشاش الأرجواني، أو الملابس الثمينة، أو الحرير على وجه التحديد؛ وأحيانًا، جرى النص على أن تكون الجزية على هيئة ماشية تزين بالدمقس والنسيج المذهب، والمجوهرات الثمينة. وطُلبت «أقمشة من الحرير، والذهب، والقطن» بكميات وصفات بعينها، حتى إن باحثًا بارزًا في هذا الحقل شبَّهها بقائمة تسوق مفصلة، «لقد كانت سلعًا مطلوبة، وكان المغول يعرفون قيمتها عن كثب»[1].

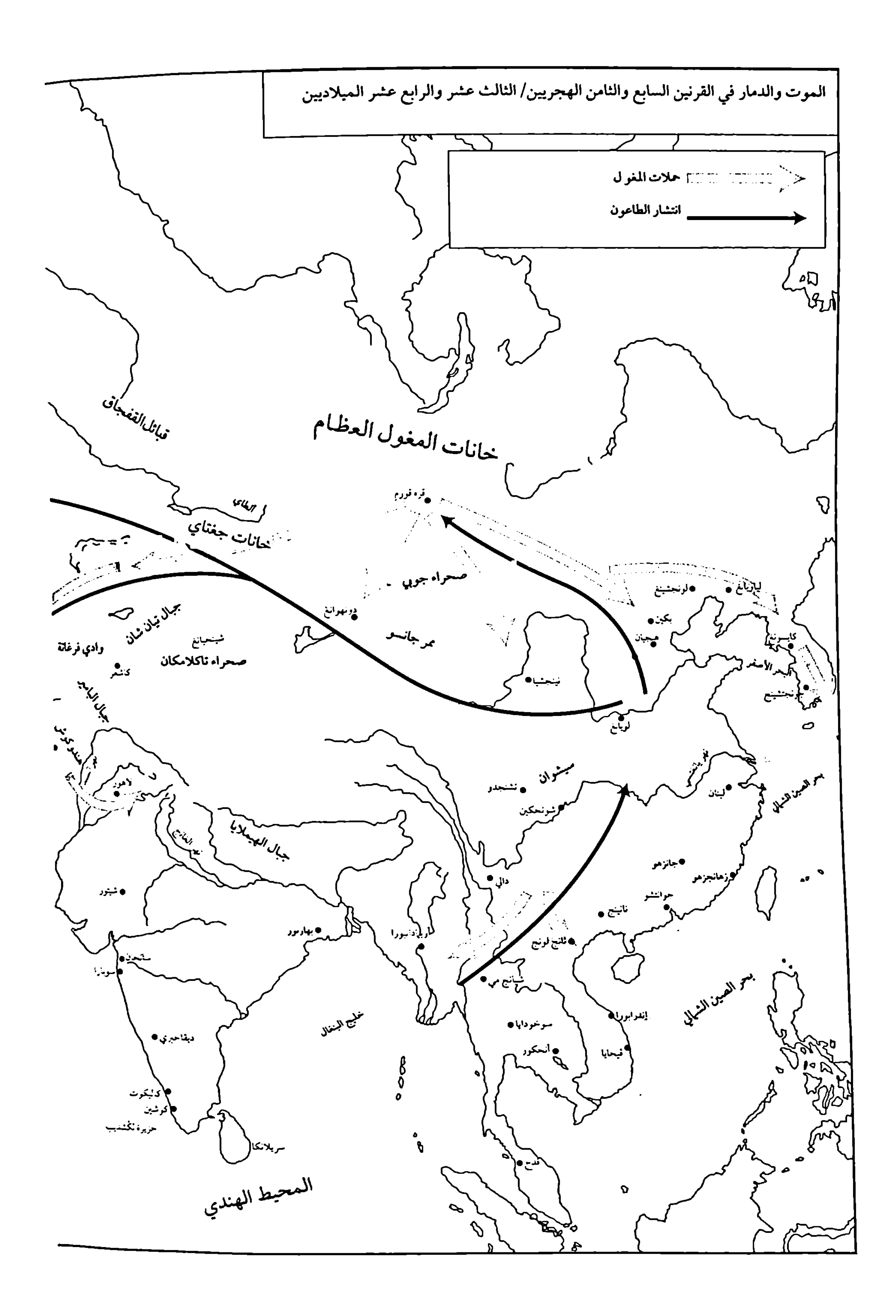
لم يكن هناك متسع من الوقت لاستيعاب الناس صدمة استباحة المغول لبغداد؛ فسرعان ما ظهر المغول مجددًا في أوروبا. ففي عام ١٢٥٩م تقدم المغول صوب بولندا مجددًا، واحتلوا كراكوف (Kraków)، قبل أن يرسلوا وفدًا إلى باريس يطالب فرنسا بالاستسلام[2]. كما تحرك جيش مغولي آخر -في الوقت نفسه- من بغداد واتجه غربًا صوب سوريا وفلسطين. وتسبب هذا في حالة من حالات الذعر الأعمى بين الفرنجة اللاتين الذين كانوا يعيشون في الشرق. وكان وضع هؤلاء الفرنجة قد تعزز في الأرض المقدسة من خلال دفقة جديدة من الطاقة للحملات الصليبية في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وعلى الرغم من أن الحملات واسعة النطاق التي قام بها الإمبراطور الروماني المقدس فريدريك الثاني (Frederick II)، ثم لويس التاسع ملك فرنسا، أدت إلى استعادة النصارى للقدس إلى حين، إلا أن أكثر الصليبيين لم يساورهم أدنى شك حول مدى خطورة سيطرة غيرهم على مدن مثل أنطاكية، وعكا، وسائر المدن الأخرى التي ظلت بأيديهم.

وبدا -لوهلة- أن التهديد يأتي من مصر، ومن نظام جديد شديد العدوانية استولى على السلطة هناك، حتى ظهر المغول. ومن باب المفارقات أن السادة المصريين الجدد كانوا رجالًا من أصول مماثلة للمغول أنفسهم، لقد كانوا بدوًا من السهوب! فكما استولى المماليك الذين جُنِّدوا من القبائل التركية في السهوب على الخلافة العباسية في بغداد، حدث الأمر نفسه في سلطنة القاهرة عام ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م. وعُرف السادة الجدد باسم المماليك؛ ذاك أنهم كانوا عبيدًا جُلبوا من مناطق تمركز

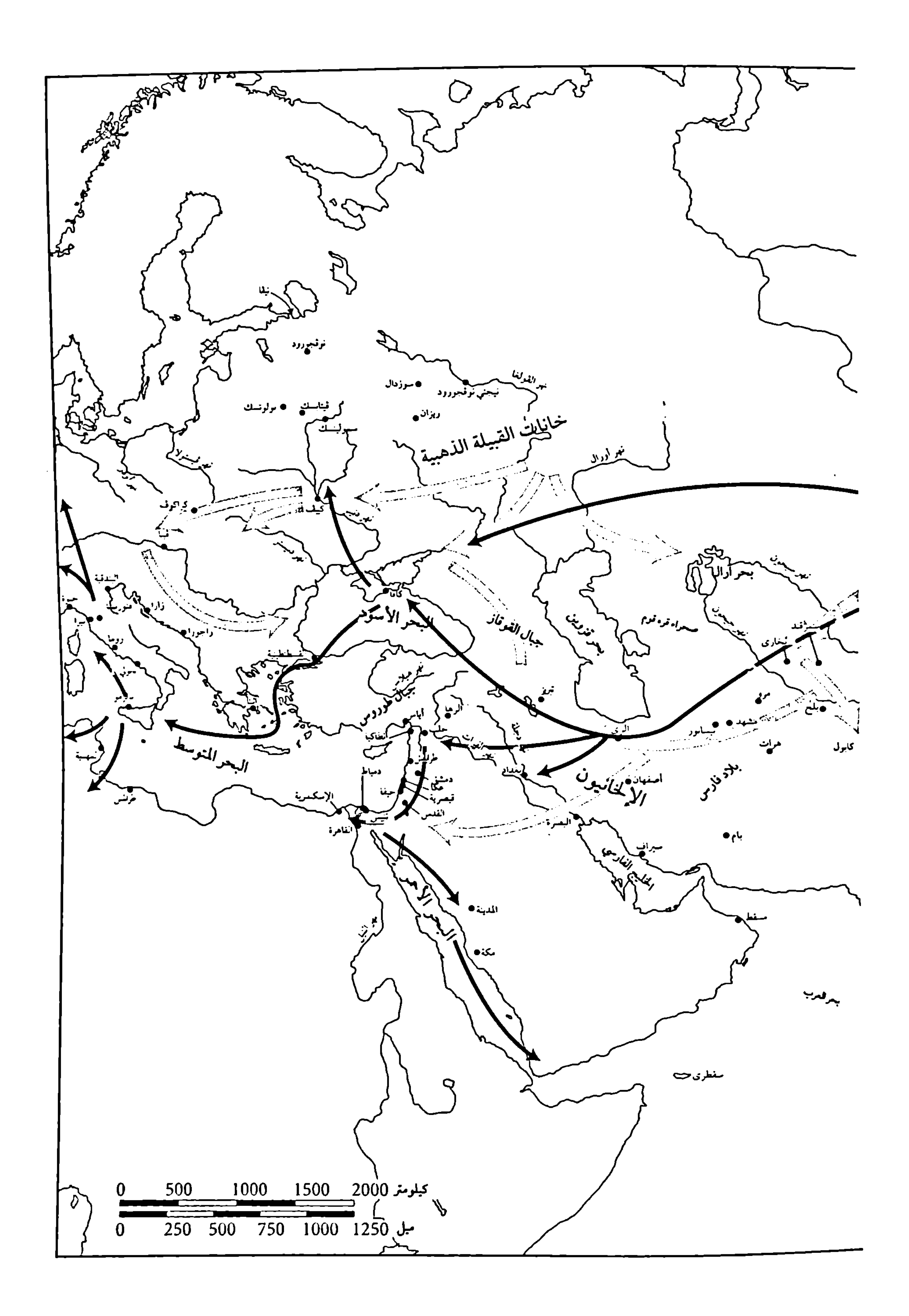
---

(1) Allsen, *Commodity and Exchange*, pp. 28-9.

(2) J. Richard, 'Une Ambassade mongole à Paris en 1262', *Journal des Savants* 4 (1979), 295-303; Jackson, *Mongols and the West*, p. 123.



الموت والدمار في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين
حملات المغول
انتشار الطاعون
خانات المغول العظام
قبائل القفجاق
خانات جغتاي
صحراء جوبي
صحراء تاكلاماكان
جبال تيان شان
وادي فرغانة
جبال الهيملايا
خليج البنغال
المحيط الهندي
بحر الصين الشمالي
سريلانكا



خانات القبيلة الذهبية
نوفجورود
سوزدال
نيجني نوفجورود
سمولنسك
ريزان
كييف
كراكوف
البحر الأسود
كافا
جبال القوقاز
بحر قزوين
بحر آرال
صحراء قره قوم
بخارى
مرو
بلخ
مشهد
نيسابور
هراة
كابول
الري
تبريز
الرها
حلب
بغداد
اصفهان
الإلخانيون
بلاد فارس
البصرة
بام
سيراف
الخليج الفارسي
جبال طوروس
القسطنطينية
البحر المتوسط
أنطاكيا
طرابلس
دمشق
عكا
حيفا
قيصرية
القدس
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
المدينة
مكة
البحر الأحمر
مسقط
بحر العرب
سقطرى
روما
زارا
راجوزا
تونس
0 500 1000 1500 2000 كيلومتر
0 250 500 750 1000 1250 ميل

القبائل شمال البحر الأسود، وبيعوا عبر موانئ شبه جزيرة القرم والقوقاز للخدمة في جيش مصر. وشمل عدد منهم رجال القبائل المنغولية الذين إما وقعوا في شراك تجار الرقيق، أو بوصفهم «وافدية» وهي كلمة تعني «الجدد» حرفيًا، وقد فروا من وجه القبائل المهيمنة في النزاعات الداخلية التي كانت أمرًا مألوفًا في السهوب، وسعوا للحصول على الملاذ والخدمة في القاهرة[1].

يُنظر إلى القرون الوسطى في أوروبا -تقليديًا- على أنها زمن الحروب الصليبية، والفروسية، والقوة المتزايدة للبابوية، بيد أن هذا الجانب ليس أكثر من عرض جانبي للصراعات الكبرى التي كانت تجري في الشرق. لقد قاد النظام القبلي المغول إلى حد أقرب إلى الهيمنة العالمية، بعد أن غزوا قارة آسيا برمتها تقريبًا. وارتعدت فرائص أوروبا، وشمال إفريقيا خوفًا. وكان من اللافت للنظر أن القيادة المغولية لم تركز على أوروبا، بل وضعت شمال إفريقيا نُصب أعينها؛ إذ لم تكن أوروبا أفضل جائزة معروضة ببساطة. وكل ما وقف في طريق سيطرة المغول على نهر النيل، والإنتاج الزراعي الغني لمصر، وموقعها الحاسم بوصفها همزة وصل على طرق التجارة في جميع الاتجاهات كان جيشًا يقوده رجال جاؤوا من تلك السهوب نفسها. ولم يكن هذا مجرد صراع على السيادة إذًا، بل كان انتصارًا لنظام سياسي، وثقافي، واجتماعي قائم. لقد دارت معركة السيطرة على عالم القرون الوسطى بين البدو الرحل من آسيا الوسطى، وشرقي آسيا.

* * *

كان رد فعل النصارى في الأرض المقدسة على تقدم المغول ذعرًا أعمى. فقد استسلمت أنطاكية -إحدى جواهر التاج في ممالك الصليبيين على الفور- بينما توصل أمراء عكا إلى تسوية مع المغول، بعد أن عدوا المغول أهون الشرين[2]. وتوالت مناشدات الصليبيين اليائسة تترى على ملوك إنجلترا وفرنسا تستجديهم المدد. ولم ينقذ الفرنجة إلا تدخل عدوهم اللدود -مماليك مصر- الذين تحركوا شمالًا لمواجهة الجيش الذي كان يمزق فلسطين شر ممزق[3].

وبعد أن أطاح المغول بكل ما وقف أمامهم خلال ستة عقود، بات عليهم -آنذاك- أن يتجرعوا الكأس نفسه الذي طالما جرَّعوه خصومهم، فقد عانى المغول من أول انتكاسة خطيرة لهم؛ حيث هُزموا في عين جالوت في شمال فلسطين في رمضان من عام ٦٥٨هـ/ سبتمبر من عام ١٢٦٠م. وعلى الرغم من اغتيال القائد المنتصر، السلطان قطز، في نزاع داخلي على السلطة، فإن المماليك زحفوا

(1) N. Nobutaka, 'The Rank and Status of Military Refugees in the Mamluk Army: A Reconsideration of the *Wāfidīyah*', *Mamluk Studies Review* 10.1 (2006), 55–81; R. Amitai-Preiss, 'The Remaking of the Military Elite of Mamluk Egypt by al-Nāsir Muhammad b. Qalāwūn', *Studia Islamica* 72 (1990), 148–50.

(٢) الإيماءة هنا إلى المماليك. (المترجم)

(3) P. Jackson, 'The Crisis in the Holy Land in 1260', *English Historical Review* 95 (1980), 481–513.

قدمًا ممتنين للمغول؛ ذاك أن المماليك وجدوا أن جُل ما كان عليهم فعله قد أنجزه المغول بالفعل، فقد أعاد المغول -في أثناء كسرهم مقاومة الأهالي- تشكيل المدن والمناطق، ودمجها في كيان واحد. ومثلما استفاد جنگيز خان من توطيد [الخوارزميين] أكناف آسيا الوسطى قبل أن يجتاحها بجيوشه في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أهدى المغول -عن غير عمد- الشام ومدنه المهمة مثل: حلب ودمشق إلى خصومهم المماليك على طبق من الفضة. لقد كان يسع المماليك التقدم دون مقاومة تقريبًا[1].

ونظر النصارى في الأرض المقدسة وأوروبا لتلك التطورات بذعر، فلم يكونوا على يقين مما سيحدث بعد ذلك، كما لم يكونوا محيطين علمًا بما يخبئه لهم القدر في أعقاب ظهور المماليك على خصومهم. بيد أن الأمر لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى أعاد الأوروبيون تشكيل مواقفهم تجاه المغول بالكلية؛ فقد أدركت أوروبا النصرانية -بغتة- أن المغول ربما كانوا منقذيهم، على الرغم من أنهم كانوا خطاةً مذنبين في مبدإ أمرهم. وبهذا تناست أوروبا تلك الصدمات التي روَّعتها جرَّاء فِعال جحافل فرسان المغول المرعبين الذين كانوا يركضون ممتطين ظهور جيادهم على امتداد الضفة الشمالية للبحر الأسود، حتى سهول المجر.

وأرسلت أوروبا والأرض المقدسة السفارة تلو الأخرى في محاولات ترمي إلى تشكيل تحالف مع المغول ضد المماليك في العقود التي تلت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وانطلقت سفارات بعث بها هولاگو (Hülegü)، أمير الحرب المغولي المهيمن في آسيا، وابنه آقبا (Aqaba) مرارًا إلى أوروبا أيضًا، وقد أملى عليهما اهتمامهما باستغلال أسطول الفرنجة في قتال مصر -والبقاع التي أخضعها المماليك لسلطانهم حديثًا في فلسطين والشام- الاستعداد للتفاوض في المقام الأول. ومع ذلك فقد كانت الأمور من التعقيد بمكان؛ ذاك أنه كانت هناك مؤشرات أولية دالةٌ على قرب وقوع الفتن والاحتراب الأهلي بين المغول أنفسهم.

أضحت مملكة المغول -بحلول أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري- شاسعة للغاية؛ فقد كانت تمتد من المحيط الهادئ إلى البحر الأسود، ومن السهوب إلى شمال الهند والخليج العربي، حيث بدأت السلالات المحلية في الظهور، ومعها الفتن أيضًا. وانقسمت الإمبراطورية إلى أربعة أفرع رئيسة، كانت كل منها تكن العداء لبعضها بعضًا. وتمركز الفرع الأول في الصين؛ أما الفرع الثاني فتمركز في آسيا الوسطى، وسيطر عليه ورثة شغاتاي (Chaghatay)، وهو رجل وصفه مؤلف فارسي بأنه كان «جزارًا طاغيةً»، ملعونًا، «قاسيًا سفاكًا للدماء»، لقد كان الشر بذاته[2]. وفي الغرب،

(1) R. Amitai-Preiss, *Mongols and Mamluks: The Mamluk–Ilkhanid War, 1260–1281* (Cambridge, 1995).

(٢) الجوزجاني، طبقات ناصري، الترجمة الإنجليزية:

tr. H. Raverty, *A general history of the Muhammadan dynasties of Asia, including Hindūstān, from 810 A.D. to 1260 A.D., and the irruption of the infidel Mughals into Islam* (Calcutta, 1881), 23.3–4, pp. 1104, 1144–5.

أضحى المغول الذين سيطروا على سهوب روسيا وخارجها في وسط أوروبا يُعرفون باسم القبيلة الذهبية. بينما في إيران الكبرى عُرف الحكام باسم الإلخانيين – في إشارة إلى لقب «إلخان» (Il-Khan) الذي يقضي بتبعيتهم لـ الفرع الرئيس للقيادة المغولية.

واستغل المماليك السياسات القبلية لعدوهم بمهارة آنذاك، فتصالحوا مع بركه (Berke)، زعيم القبيلة الذهبية، الذي تحولت منافسته للإلخانيين إلى صراع مفتوح بالفعل. وأدى ذلك -بدوره- إلى التقارب بين أوروبا النصرانية والإلخانيين. وجاءت أقرب هذه الخطط لتؤتي ثمارها في أواخر العقد التاسع من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، عندما أرسل الزعيم الإلخاني سفارة بقيادة الربان صوما (Sauma) -وكان أسقف أويغوريا غربي الصين- لزيارة القادة المتنفذين في غربي أوروبا لوضع اللمسات الأخيرة على شروط التحالف العسكري. وكان اختيار الربان «صوما» اختيارًا موفقًا، فقد كان رجلًا مهذبًا، وذكيًا، وفوق ذاك كان نصرانيًا. وعلى الرغم من سمعة المغول بوصفهم قومًا متوحشين، فإنهم كانوا ماهرين في قراءتهم للأجانب.

لم يكن هناك مَن هو أكثر حماسًا لسماع خطط العمل المشترك من إدوارد الأول (Edward I)، ملك إنجلترا. وكان إدوارد صليبيًا متحمسًا كل الحماسة، وزار الأرض المقدسة عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، وقد راعه ما رآه هناك. وخلص إلى أنه كفى بالفرنجة سوءًا أنهم كانوا يقضون وقتًا أطول في الجدل مع بعضهم بعضًا قياسًا بالوقت الذي كانوا يقضونه في قتال المسلمين. بيد أن ما روعه حقًا هم البنادقة: فلم يقتصروا على التجارة مع الكفار، بل كانوا يزودونهم بالمؤن اللازمة لصنع آلات الحصار التي كانت تُستخدم فيما بعد ضد المدن والحصون النصرانية[١].

وسُر الملك باستقبال الأسقف القادم من الشرق، وأوضح له أن أولويته هي استعادة القدس. وأردف العاهل الإنجليزي قائلًا للأسقف: «لا يهمنا شأن آخر إلا هذا الشأن»، ثم طلب منه أن يناول القربان المقدس له ولحاشيته. لقد أكرم الملك وفادة الأسقفَ، وعامله باحترام، وأغدق عليه الهدايا والمال بعد أن أقام وليمة احتفاءً بالكوائن العظيمة التي ستقع في قابل الأيام[٢]. ووُضِعت خطة للتعاون، بهدف تأمين الأرض المقدسة للنصرانية مرة واحدة وإلى الأبد. وسرعان ما تحولت هذه الخطط إلى توقعات بالانتصار الوشيك للنصرانية؛ حتى إن المواكب خرجت في روما لتحتفل بالهزيمة الوشيكة للإسلام. وتحول المغول -في العقل الجمعي الأوروبي- من كونهم منقذين إلى شياطين، ثم عادوا منقذين مجددًا، وكل هذا في غضون بضعة عقود فحسب. وتراجعت الأفكار القائلة: إن قيام الساعة بات وشيكًا، وأفسحت المجال للاعتقاد بأن فجرًا جديدًا يوشك على أن يبزغ.

---

(1) L. Lockhart, 'The Relations between Edward I and Edward II of England and the Mongol Il-Khans of Persia', *Iran* 6 (1968), 23.

وعن الحملة، انظر:

C. Tyerman, *England and the Crusades, 1095–1588* (London, 1988), pp. 124–32.

(2) W. Budge, *The Monks of Kublai Khan, Emperor of China* (London, 1928), pp. 186–7.

بيد أن الجبل لما تمخض، ولد فأرًا؛ فكما أن الحملات الصليبية قدمت أقل مما كان يُنتظر منها، فإن كل الحديث المنمق عن تحالف يمتد لآلاف الأميال، ويشتمل على مصير الأديان العالمية لم يسفر عن نتيجة ذات مغزى. ثم سرعان ما اتضح لـ إدوارد الأول أن هناك مشكلات أقرب إلى مملكته، وهي أكثر أهمية. فقد اضطر الملك الإنجليزي على أن يغذ السير إلى اسكتلندا لإخماد ثورة وليم والاس (William Wallace) بدلًا من تشكيل تحالف كبير مع المغول ضد مصر الإسلامية. وعلى هذا النحو انتهى الوجود النصراني في الأرض المقدسة في الأخير في ظل انشغال الملوك الأوروبيين بمشكلات داخلية من تلك الشاكلة. ومن ثم تلاشى آخر موطئ قدم للصليبيين بعد قرنين من استيلاء فرسان الحملة الصليبية الأولى على القدس. فقد استسلمت صيدا، وصور، وبيروت، وعكا للمماليك عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. لقد بات من الواضح أن النوايا الحسنة والحماس لم يكونا كافيين لدعم سيطرة الصليبيين على البقاع التي تكمن في قلب الإيمان النصراني، ناهيك عن حفظها، أو التمسك بها.

بدا من أول وهلة أن هذا فجر كاذب. ففي شتاء عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م حقق المغول أخيرًا ما سعوا إلى تحقيقه لأكثر من جيل: هزيمة جيش المماليك هزيمة ساحقة. وكان انتصار المغول مؤزرًا، حتى إن الشائعات سرت في جميع أنحاء أوروبا بأن النصارى في الشرق -الذين قاتلوا إلى جانب حلفائهم المغول- قد استعادوا القدس. ثم سرت شائعات أخرى مفادها أن الحاكم الإلخاني قد اعتنق النصرانية، وأضحى -على هذا النحو- بمثابة حامٍ جديد للأراضي المقدسة. ثم حملت بعض الشائعات أنباءً أفضل، بل أكثر إثارة للحماسة؛ فلم يكتف الأوروبيون بالقول: إن الإلخانيين طردوا المماليك من سوريا وفلسطين، بل أشاعوا أيضًا أن المغول اقتحموا دفاعاتهم، واستولوا على مصر أيضًا[1]. لقد بدت تلك الأخبار رائعة، حتى إنها بالكاد كانت تُصدَّق. لقد حقق المغول بالفعل انتصارًا كبيرًا في ساحة الوغى، بيد أن الروايات المتحمسة لم تكن تعد كونها سوء فهم، ومجرد شائعات، بل قُل: مجرد أمانٍ. لقد فقد النصارى الأرض المقدسة، وإلى الأبد[2].

ولعبت الحروب الصليبية دورًا حيويًا في تشكيل الغرب في القرون الوسطى. لقد طرأ التغيير على سلطة البابوية، فلم يعد البابا مجرد رجل دين رسمي، بل كان بمثابة شخصية لها قدرات عسكرية، وسياسية خاصة؛ وجرى تأطير صفات النخبة وسلوكياتهم من خلال أفكار حول: الخدمة، والتفاني، والفروسية الورعة. وترسخ مفهوم النصرانية بوصفه القاسم المشترك لقارة أوروبا. بيد أنه أصبح واضحًا -من خلال التجربة التاريخية- أن الاستيلاء على القدس والاحتفاظ بها إنما هو أمرٌ رائع من الناحية النظرية، إلا أنه من الناحية العملية كان صعبًا، ومكلفًا، وخطيرًا في الأخير. وهكذا توارت الأرض المقدسة بهدوء عن الأنظار بعد أن ظلت في مركز الوعي الأوروبي لمدة قرنين من الزمان. لقد

(1) S. Schein, 'Gesta Dei per Mongolos 1300: The Genesis of a Non-Event', *English Historical Review* 94.272 (1979), 805–19.

(2) R. Amitai, 'Whither the Ilkhanid Army? Ghazan's First Campaign into Syria (1299–1300)', in di Cosmo, *Warfare in Inner Asian History*, pp. 221–64.

قالها الشاعر وليم بلاك (William Blake) في أوائل القرن التاسع عشر، عندما أنشَد: ما أروع القدس لو كانت في موقع أسهل وأكثر ملاءمة لنا! مثل «أرض إنجلترا الخضراء الماتعة»[1].

لقد فشلت الحروب الصليبية في الأخير: وأخفقت محاولات استعمار أهم البقاع في العالم النصراني. ومع ذلك لا يسعنا أن نعمم هذا الوصف بالفشل والإخفاق على دويلات المدن الإيطالية، فقد نجحت من حيث أخفق الفُرسان النصارى. فبينا أُجبر الفُرسان المخلصون على العودة من حيث أتوا، أعادت الدويلات البحرية ترسيخ أقدامها، وتعميقها في آسيا ببساطة. ولم تكن هناك قوة استطاعت أن تُجبرهم على التخلي عن مكتسباتهم. بل على النقيض من ذلك، لم تكن القضية بالنسبة لهم -بعد خسارة الأرض المقدسة- متعلقة بتقليص نفوذهم. بل كانت كيفية تمديد ذلك النفوذ.



(1) William Blake, 'Jerusalem'. Legends about Joseph of Arimathea visiting the British Isles had circulated in England since the Middle Ages, W. Lyons, *Joseph of Arimathea: A Study in Reception History* (Oxford, 2014), pp. 72–104.

-١٠-

طريق الموت والدمار

اتخـذت جنـوة والبندقيـة -كلاهمـا- خطـواتٍ هدفت إلى إنشـاء طرق جديـدة للتجارة، وأسـواق جديدة لبيع السـلع وشـرائها، وطرائق جديدة للتأكد من أنهما لم تخسـرا قط، من قبل أن تسـقط المدن والموانـئ فـي بلاد الشـام في أيدي المسـلمين. ولما ازداد خنق التجارة عبر الأرض المقدسـة، بسـبب تصاعد التوترات العسـكرية في القرن السـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي؛ أنشـأت كلتا المدينتين مسـتعمرات جديدة لهما على السـاحل الشـمالي للبحر الأسود في شـبه جزيرة القرم، على مصب بحر آزوف، وفـي قيليقيـة الأرمينيـة، حيـث أصبحـت بلدة أيـاس (Ayas) بوابـة جديدة للسـلع والكماليات المجلوبة من الشرق.

وكان هناك كثير من المال بانتظار من يجنيه؛ فقد أتاحت الفروق بين أسـعار الغلال على السـاحلين الشـمالي والجنوبي للبحر الأسـود فرصة مثالية لدويلات المدن للاسـتفادة من سفنها الضخمة في نقل الغلال على متونها. وكانت تلك السفن قادرة على نقل السلع الغذائية بكميات كبيرة[١]، كما أثبتت هذه السـفن فائدتهـا فـي نقل البضائـع الأخرى، مثل البشـر؛ ذاك أن جنوة والبندقية اسـتأنفتا تجـارة الرقيق، وشـراء الأسـرى لبيعهم لمصر المملوكية على نطاق واسـع. كما واصلتا معًا تحدي محاولات البابوية الرامية لحظر الاتجار بالرجال والنساء والأطفال، وبيعهم للمسلمين[٢].

ولما كانت تنحية الخصومات القديمة جانبًا أمرًا من الصعوبة بمكان، أظهرت جنوة بالفعل المدى الذي كانت مستعدة للذهاب إليه لسحق خصومها، فقد دمرت أسطولًا بيزيًّا كاملًا تقريبًا عام ١٢٨٢م، ثم رفض الجنويون فداء أولئك الذين سقطوا في أسرهم. ولم تتعاف بيزا من تلك الضربة التي وجهتها لها منافسـتها قط. وكان من بين أولئك الأسـرى شخص يدعى روستيشيلُّو (Rustichello)، وكان قضى أكثر من عقد من الزمان سـجينًا، قبل أن ينضم إليه في السـجن نزيل آخر، كان أهل جنوة قد أسـروه بعد أن دحـروا البنادقـة في معركة بحرية جرت في البحر الأدرياتيكي. وسـرعان ما جمعت أواصر الصداقة

(1) S. Karpov, 'The Grain Trade in the Southern Black Sea Region: The Thirteenth to the Fifteenth Century, *Mediterranean Historical Review* 8.1 (1993), 55–73.

(2) A. Ehrenkreutz, 'Strategic Implications of the Slave Trade between Genoa and Mamluk Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century', in A. Udovitch (ed.), *The Islamic Middle East, 700–1900* (Princeton, 1981), pp. 335–43.

بيـن الأسـيرين، وأخذ روستيشـيلُّو في تدوين ذكريات رفيقه السـجين، عن حياتـه، وكذلك عن رحلاته الرائعة. وعلى هذا النحو فنحن ممتنون لوحشـية أهل جنوة في القرون الوسـطى، وتركيزهم المستمر على النضال في سبيل السلطة، فلولا هذه الوحشية لما دُوِّنت رحلات ماركو بولو (Marco Polo) قط.

احتدمت المعارك الطاحنة في سبيل السيادة التجارية في أي مكان تماس فيه تجار البندقية وجنوة؛ فقد اندلعت اشـتباكات عنيفة في القسـطنطينية، كما نشـبت المواجهات بينهما في بحر إيجه، وقبرص، ودارت بينهما معارك دامية في البحر الأدرياتيكي. ولـم تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى قضاءً مبرمًـا، حتـى توسـط البابا بونيفاس الثامـن (Boniface VIII) لعقد هدنة بينهما عام ١٢٩٩م. وتكشـف الطاقة والجهد، فضلًا عن الكلفة الكبيرة التي بذلته كلتاهما في هذا الصراع، عن مدى اعتمادهما على إقامة الاتصالات مع آسيا في المقام الأول.

لقد كان الأمر مسـتحقًّا لذلك الصراع. فبحلول عام ١٣٠١م أُمِر بتوسـعة قاعة المجلس الكبير في البندقية بعد أن اتُّفِق بالإجماع على أنها لـم تعد صالحةً لاستيعاب جميع أعضائها من أصحاب النفوذ، الذيـن زاد عددهـم مـع زيـادة ثروة المدينـة[١]. أما على صعيد جُنـوة، فقد كُتبت قصيدة فـي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، تغنَّت بجمال المدينة التي غصَّت بالقصور (*Palazzi*) التي تزينت بعدد كبير من الأبراج. وكان مصدر ثروات المدينة هو وفرة المعروض من البضائع المجلوبة من الشرق، ومنها على سـبيل المثـال: فـراء القاقم، وفراء السـنجاب، فضلًا عن أنـواع الفراء الأخرى المجلوبة من السـهوب، وكذلـك الفلفل، والزنجبيل، والمسـك، والتوابل، والوشـي، والمخمل، والقمـاش المذهب، واللؤلؤ، والمجوهرات، والأحجار الكريمة. واستطرد ذلك الشاعر قائلًا: إن غنى جنوة كان بسبب الشبكة التي أنشـأتها، حيث خدمتها قوادسـها وسـفنها. ثم أردف ذلك الشـاعر المجهول قائلًا: إن الله بارك المدينة حقًّا، وأراد لها الازدهار[٢].

وكان أحـد الأسـباب المهمـة التـي كمنـت خلف تلـك الطفرة التي حدثـت في البندقيـة وجنوة هو المهـارة والبصيـرة التـي أظهرتاهـا في الاسـتجابة لرغبات عملائهما، وهـم أولئك التجـار الذين أقبلوا عليهمـا قادمين من مدن وبقاع أخرى في أوروبا؛ لشـراء البضائـع التي جلبها تجار المدينتين. فلما تبين لهـم -أعنـي تجـار البندقيـة وجنـوة- أن مصر والأراضي المقدسـة عرضـة للتقلب الشـديد والمخاطر الاقتصادية، سرعان ما زادت أهمية البحر الأسود عندهم، بوصفه منطقة تجارية ذات أهمية قصوى.

بيـد أن التطـور المالي من جهة، وإعراض المغول عن فـرض ضرائب على التجارة من جهة أخرى كانـا وراء صعـود دويـلات المـدن الإيطاليـة. وتشـير مجموعـة متنوعـة مـن المصـادر إلى أن الرسـوم

---

(1) G. Lorenzi, *Monumenti per servire alla storia del Palazzo Ducale di Venezia. Parte I: dal 1253 al 1600* (Venice, 1868), p. 7.

(2) 'Anonimo genovese', in G. Contini (ed.), *Poeti del Duecento*, 2 vols (Milan, 1960), 1, pp. 751–9.

المفروضة على الصادرات المارة بموانئ البحر الأسود تراوحت بين ٣ إلى ٥٪ من القيمة الإجمالية للبضائع؛ وهذا يعني أن أسعار هذه السلع تنافسية للغاية متى قورنت بالرسوم والجبايات المستخرجة على المنتجات التي كانت تمر عبر الإسكندرية، حيث تتحدث المصادر عن جمارك تراوحت بين ١٠٪، إلى ٢٠٪، بل بلغت أحيانًا ٣٠٪ من إجمالي ثمن تلك السلع والبضائع[١]. وكما يعلم جميع التجار، فإن الهوامش مهمة في كل شيء؛ لذا، كان هناك حافز قوي لكلتا المدينتين للشحن عبر موانئ البحر الأسود، الأمر الذي أدى إلى جعل هذا الطريق إلى الشرق، أكثر أهمية من غيره.

وكان التسعير الحساس، والسياسة المتعمدة لتخفيض الضرائب من السمات البيروقراطية للإمبراطورية المغولية، والتي ضاعت تفاصيلها بسهولة في خضم تصوير العنف، وأعمال التدمير الوحشية. والحق أن نجاح المغول لم يكمن في الوحشية العشوائية، بل كان يكمن في رغبتهم في تسوية الخلافات والتعاون، وذلك بفضل الجهد الدؤوب للحفاظ على النظام، الذي عمل -بدوره- على تجديد السيطرة المركزية. وعلى الرغم من أن المؤرخين الفُرس المتأخرين أكدوا صراحةً على أن المغول قد انصرفوا عن شؤون إدارة إمبراطوريتهم، مفضلين ترك مثل هذه المهام الدنيوية لغيرهم؛ فإن البحوث الحديثة تكشف عن مدى انخراط المغول ومشاركتهم في تفاصيل الحياة اليومية[٢]. وعلى هذا النحو، لم يكن إنجاز جنگيز خان وخلفائه -كما صوره الخيال الشعبي- هو الذي مكَّن واحدة من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ من الازدهار لقرون تالية، بل كانت تلك الضوابط الدقيقة التي وضعوها. إذن، لم يكن من قَبيل المصادفة أن تستعير اللغة الروسية مجموعة واسعة من المفردات المتعلقة بالإدارة المغولية مباشرةً، ولا سيما تلك المتعلقة بالتجارة والاتصالات: فكلمات: الربح (باريش *barysh*)، والمال (دينجي *dengi*) والخزانة (كازنا *kazna*) أُدخلت إلى اللغة الروسية من باب الاتصال بالسادة الجدد القادمين من الشرق. وكذلك فعل النظام البريدي في روسيا، الذي اعتمد طريقة المغول في توصيل الرسائل بسرعة وكفاءة من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها من خلال شبكة من المحطات والمراحل[٣].

---

(1) V. Ciocîltan, *The Mongols and the Black Sea Trade in the Thirteenth and Fourteenth Centuries* (Leiden, 2012), pp. 16, 21; S. Labib, 'Egyptian Commercial Policy in the Middle Ages', in M. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East* (London, 1970), p. 74.

(٢) انظر:

D. Morgan, 'Mongol or Persian: The Government of Īl-khānid Iran', *Harvard Middle Eastern and Islamic Review* 3 (1996), 62–76,

وفي المقام الأول، انظر:

Lane, *Early Mongol Rule in Thirteenth-Century Iran.*

(3) G. Alef, 'The Origin and Development of the Muscovite Postal System', *Jahrbücher für Geschichte Osteuropas* 15 (1967), 1–15.

والحق أن عبقرية المغول تمثلت في أنهم أقاموا منصّةً للنجاح على المدى الطويل منذ البدء. فعندما وسع جنگيز خان وخلفاؤه انتشارهم، كان يتوجب عليهم دمج شعوب جديدة في نظام متماسك. فقسّم المغول القبائل عمدًا، ولعبت الولاءات دورها فيما تعلق بالارتباط بالوحدات العسكرية، وفي المقام الأول الولاء لقيادة المغول نفسها. وقضى المغول على السمات القبلية المميزة، مثل عادات الشعوب المختلفة في قص شعورهم، ففرضوا أسلوبًا موحدًا عليهم جميعًا. كما شتّت المغول شمل أولئك الذين خضعوا لهم طوعًا، أو احتلوا أراضيهم كرهًا، في شتى أرجاء الإمبراطورية المغولية، بهدف إضعاف روابط اللغة، والقرابة، والهوية، تسهيلًا لعملية الاستيعاب، بوصفها مسألة لها الأولوية القصوى بطبيعة الحال. فضلًا عن ذلك أطلق المغول على تلك القبائل أسماءً جديدة لتحل محل التسميات العرقية القديمة، من باب التأكيد على النهج الجديد المتبع في إدارة الإمبراطورية. وتعززت كل تلك الإجراءات من خلال نظام مركزي للمكافآت، حيث جرى تقاسم الغنائم والجزية. وهكذا كان القرب من السلالة الحاكمة يمثل كل شيء. وشجع هذا -بدوره- على إثبات الجدارة على نطاق واسع، وإن لم تخلُ الطريقة التي اتُّبِعت في ذلك من قسوة؛ حيث حصد القادة الناجحون المكافآت السَّنية، في حين قُضِي على الذين أخفقوا في الوفاء بما أُوكل إليهم[١].

وبينا قضى المغول على الهويات القبلية بصرامة، كانت صدورهم أكثر اتساعًا فيما تعلق بمسألة الدين بما لا يُقاس، وعلى نحو متسق. فلم يكن المغول متعصبين قط، بل كانوا متسامحين فيما تعلق بمسألة الدين. فمنذ عهد جنگيز خان، سُمح لأفراد من حاشية الخان باعتناق ما شاءوا من أديان، وملل، ومعتقدات. ووفقًا لما ذكره كاتب فارسي متأخر، فإن جنگيز نفسه «كان ينظر إلى المسلمين بعين الاحترام، كما كان يحترم النصارى و«الوثنيين» [يعني البوذيين] أيضًا. أما ذُريته، فقد تُرِك كل واحد منهم لقناعاته، وضميره في تقرير أي دين يعتنقه. فاختار بعضهم اعتناق الإسلام، بينما اختار بعضهم الآخر اعتناق النصرانية، و«تشبث غيرهم بملة آبائهم وأجدادهم القديمة، ولم يظهروا ميلًا إلى دين، ولا إلى ملة قائمة»[٢].

لم يخلُ هذا القول من حقٍّ؛ فسرعان ما وُجِد المبشرون الذين تقاطروا إلى الشرق بحثًا عن أناس على استعداد لتغيير دينهم[٣]. وصادف وليم روبروك القساوسة في جميع أنحاء آسيا في أثناء رحلته إلى

---

(1) Morgan, *The Mongols*, pp. 88–90; Golden, 'Činggisid Conquests', 38–40; T. Allsen, *Mongol Imperialism: The Policies of the Grand Qan Möngke in China, Russia and the Islamic Lands, 1251–1259* (Berkeley, 1987), pp. 189–216.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ٣، ق١، ٢٦.

(٣) كانت هذه العملية قد بدأت بالفعل بحلول منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كما تظهر روايات المبشرين والمبعوثين، انظر:

G. Guzman, 'European Clerical Envoys to the Mongols: Reports of Western Merchants in Eastern Europe and Central Asia, 1231–1255', *Journal of Medieval History* 22.1 (1996), 57–67.

البـلاط المغولـي، إلا أنه شـعر بالذهول عندما وجدهم يوافقون على مباركـة الخيول البيضاء كل ربيع، حيث كانت القطعان تُجمع على مقربة من قره قورم؛ وفوق ذاك، جرت هذه الطقوس بطريقة هي أقرب للطقـوس الوثنيـة منهـا للعقيـدة النصرانيـة(١). ومـن قبيـل الواضح أنـه كان يَنظـر إلى بعـض التنازلات الصغيـرة، فـي بعـض التفصيلات الصغيرة، على أنها مفيدة في المخطـط الأكبر للفوز بمزيد من الأتباع الذين يقبلون النصرانية دينًا لهم. فمع تزايد الاتصالات بين أوروبا وآسـيا الوسـطى، بدأت الأبرشـيات في الظهور مجدّدا في الشرق، حتى وصلت إلى أعمق أعماق السهوب، بينما أُنشِئت الأديرة في شمال بـلاد فـارس، مثل تبريز، التي أضحـت موطنًا لمجتمع مزدهر من الرهبان الفرنسيسـكان(٢). وهم الذين سـوَّدوا صفحـات مجلـدات لهجـت بحمد المغـول على الحمايـة التي نالوهـا في ظلهـم، والثناء على نهجهم المتسامح في مسألة الدين.

والحـق أن الأمـور تجـاوزت هـذا الحد إلى ما هـو أبعد بكثير. ففـي نهاية القرن السـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي، أرسـل البابا يوحنا مونتيكورڤينو (John of Montecorvino) رسـالةً إلى الخان العظيم يدعوه فيها إلى «قبول الإيمان بربنا يسوع المسيح على المذهب الكاثوليكي». وعلى الرغم من أن جون أخفق في الوفاء بما أُوكل إليه، إلا أنه نجح في إدخال عدد كبير من الناس في النصرانية، ودفع أمـوالًا لافتداء الأطفال الأسـرى الذين درَّسـهم بعد ذلـك باللغتين اللاتينية واليونانيـة، ثم علمهم كتابة المزامير بخط اليد. وبمرور الوقت، كانت أصواتهم تتناهى إلى أُذن الخان العظيم نفسه، فكان يسمعهم وهـم ينشـدون الترانيـم فـي أثنـاء الخدمة، وأظهـر الخـان افتتانًا بتلـك الترانيـم الجميلة، وسـر القربان المقـدس. وتجسـد نجـاح يوحنا عندما أرسـل البابا كليمنـت الخامس (Clement V) سـفارة في أوائل القـرن السـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي، لم ترسّـمه أُسـقُفًا فحسـب، بل عينته فـي منصب أكبر ليعكس إنجازاته؛ وليحفز عملية إنشاء التسلسل الهرمي للكنيسة عبر إمبراطورية المغول؛ فقد أمر البابا بترسـيم يوحنـا رئيسًـا لأسـاقفة بكّيـن. وعلـى هـذا النحو لم يكن فشـل الحـروب الصليبية يعني فشـل النصرانية في آسيا بالضرورة(٣).

---

(1) William of Rubruck, *Mission of Friar William*, 35, pp. 241–2.

(2) J. Ryan, 'Preaching Christianity along the Silk Route: Missionary Outposts in the Tartar "Middle Kingdom" in the Fourteenth Century', *Journal of Early Modern History* 2.4 (1998), 350–73.

عن بلاد فارس، انظر:

R. Lopez, 'Nuove luci sugli italiani in Estremo Oriente prima di Colombo', *Studi Colombiani* 3 (1952), 337–98.

(3) Dawson, *Mission to Asia*, pp. 224–6; de Rachewiltz, *Papal Envoys*, pp. 160–78;

وانظر أيضًا:

J. Richard, *La Papauté et les missions d'Orient au moyen age (XIIIe–XVe siècles)* (Rome, 1977), pp. 144ff.

لام يوحنـا النسـاطرة علـى أنهم لـم يعتنقوا الكاثوليكيـة مذهبًا لهم، وعقب قائلًا: إنهم اتهموه بأنه جاسـوس وسـاحر. وجرت المنافسات بين النصارى في الصين، تمامًا كما كانت في بلاد فارس، فضلًا عن أماكن أخرى.

وكان هذا التسامح الديني -في جزء منه- سياسةً ذكيَّةً؛ إذ يبدو أن الإلخانيين -خاصةً- برعوا في إخبار رجال الدين -على اختلافهم- بما يريدون سماعه. فقد أخبر هولاكو -على سبيل المثال- كاهنًا أرمينيًّا أنه تعمَّد عندما كان طفلًا. وكانت الكنيسة في الغرب حريصة الحرص كله على تصديق هذا الأمر؛ حتى إن اللوحات التي رُسِمت لـ هولاكو في أوروبا، صورته على هيئة قديس نصرانيّ. وفي المقابل أُخبر غير النصارى بقصة مختلفة؛ فعلى سبيل المثال، جرى التأكيد للبوذيين على أن هولاكو يتبع التعاليم المؤدية إلى التنوير. وكان هناك عدد كبير من الأمثلة على شخصيات رفيعة المستوى في العالم المغولي أصبحت على النصرانية، ثم أمست على الإسلام، كما حدث العكس أيضًا. لقد كان المغول يبدلون دينهم على الوجه الذي يرونه ملائمًا. وعلى هذا النحو لم يعتنق المغول دينًا ما بحماسة، وكانوا أساتذةً في أن يكونوا كل شيء، ولكل الناس[1].

وكان كسب القلوب والعقول أمرًا حاسمًا للتوسع السَّلِس للإمبراطورية. ويعود هذا مباشرة إلى النهج الذي انتهجه الإسكندر الأكبر عندما هزم الفُرس، والذي أقرَّه عليه الكتَّاب من شاكلة تاكيتوس (Tacitus)، الذي انتقد قصر نظر سياسة الاستباحة، والنهب، والتدمير العشوائي انتقادًا عنيفًا. وهكذا عرف المغول -بالسَّليقة- كيف يصبحون بناة إمبراطوريات عظماء؛ لقد كان على التسامح والإدارة الحذرة أن تتبع القوة العسكرية أينما سارت.

واتخذ المغول قراراتهم بحكمة متى تعلق الأمر بالتعامل مع الحلفاء المحتملين المهمين، وأتت تلك السياسة أُكلها جيدًا. ففي روسيا، قوبل الإعفاء الشامل للكنيسة من جميع الضرائب، ومن الخدمة العسكرية بابتهاج، وهذا مثال واحد فحسب يوضح كيف أن التعامل بحساسية يمكن أن ينتج عنه حسن النية، حتى في أعقاب اجتياح وغزو وحشيين[2]. وبالمثل، كان تفويض المسؤوليات وسيلة فعالة للغاية للحد من العداوات والتوترات. ومجددًا، فإننا نجد حالة روسيا مفيدة في هذا الصدد؛ حيث حصل أحد عمال المغول على الضرائب والخراج على حصة سخية من العائدات. ولم يُعرف إيڤان الأول (Ivan I) -الأمير الأكبر لموسكو- باسم «إيڤان كاليتا Ivan Kalita» -بمعنى إيڤان الصُّرَر- عبثًا؛ لقد كان مسؤولًا عن جباية الرسوم والضرائب لملء خزائن المغول، ومن الواضح أنه أثرى نفسه جيدًا في غضون هذه العملية. وأدى تركيز الثروة والسلطة في أيدي شخصيات موثوق بها مثل إيڤان إلى ظهور

(1) P. Jackson, 'Hülegü Khan and the Christians: The Making of a Myth', in J. Phillips and P. Edbury (eds), *The Experience of Crusading*, 2 vols (Cambridge, 2003), 2, pp. 196–213; S. Grupper, 'The Buddhist Sanctuary-Vihara of Labnasagut and the Il-qan Hülegü: An Overview of Il-Qanid Buddhism and Related Matters', *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 13 (2004), 5–77; Foltz, *Religions of the Silk Road*, p. 122.

(2) S. Hackel, 'Under Pressure from the Pagans? – The Mongols and the Russian Church', in J. Breck and J. Meyendorff (eds), *The Legacy of St Vladimir: Byzantium, Russia, America* (Crestwood, NY, 1990), pp. 47–56; C. Halperin, 'Know Thy Enemy: Medieval Russian Familiarity with the Mongols of the Golden Horde', *Jahrbücher für Geschichte Osteuropas* 30 (1982), 161–75.

أسـرة بـارزة يمكـن التعويل عليها، وازدهرت على حسـاب الأسـر المنافسـة. وكانت آثار هـذه العملية عميقـة، وطويلـة الأمد؛ فقـد ذهب بعض الباحثين إلـى أن نظام الحكم المغولي هو الـذي مهد الطريق لتحول روسـيا إلى نظام أوتوقراطي بالكلية، وذلك من خلال تمكين حفنة صغيرة من الأفراد للسـيطرة على عامة السكان، وكذلك على أقرانهم من النبلاء[١].

ارتكـز نمـوذج المغـول للنجـاح علـى ثلاثـة أركان، هـي: الهيمنـة العسـكرية، والذكاء السياسـي، والتسـامح الدينـي. ولطالما ظل ذلـك النموذج بعيدًا عن الصورة الذهنية العامة المرسـومة لهم. وعلى الرغـم مـن كفـاءة المغول، فقد حالفهم الحظ في توقيت ظهورهم. ففـي الصين، صادف المغول عالمًا شـهد نموًا سكانيًا، وتوسـعًا اقتصاديًا، وتطورات تقنية أعقبها ارتفاع حاد في الإنتاجية الزراعية[٢]. وفي آسـيا الوسـطى، وجدوا دويلات متفرقة، مزقتها الخصومات شـر ممزق، وأضحت جاهزة للتوحيد في كيان سياسي واحد. وفي الشرق الأوسط وأوروبا، بات المغول متصلين بمجتمعات كانت قد تحولت إلـى الاقتصـاد النقدي بالفعل، وقد انقسـمت إلى طبقات علـى نحو متزايـد، وكان بمُكنتِها دفع الجزية نقـدًا، وكان سـكانها يتمتعـون بقـوة شـرائية عاليـة، إضافةً إلـى نهم -يـكاد يكون لا يشـبع- للمنتجات الفاخرة. وعلى هذا النحو لم يكن جنگيز خان وخلفاؤه يتعثرون في عالم غني بالثروات عبر قارتي آسيا وأوروبا فحسب؛ بل إنهم وجدوا أنفسهم يخطون بثبات إلى عصر ذهبي[٣].

* * *

مثلمـا كان للفتوحـات الإسـلامية فـي القـرن الأول الهجري/ السـابع الميـلادي تأثير عميـق على الاقتصـاد العالمـي؛ حيث تدفقت الضرائـب، والجزية، والعملات النقدية من جميـع أنحاء العالم نحو المركز، فكذا أعادت نجاحات المغول -في القرن السـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي- تشـكيل النظـم النقديـة فـي أوراسـيا. ففـي الهنـد، أُدخلـت طقـوس، وأنشـطة ترفيهية جديـدة جاءت مـن عالم السهوب، ومنها تلك المواكـب الرسمية؛ حيث كان سرج الحاكم المزخرف يُحمل أمام موكبه بفخر[٤].

---

(1) D. Ostrowski, *Muscovy and the Mongols: Cross-Cultural Influences on the Steppe Frontier, 1304–1589* (Cambridge, 1998); M. Bilz-Leonardt, 'Deconstructing the Myth of the Tartar Yoke', *Central Asian Survey* 27.1 (2008), 35–6.

(2) R. Hartwell, 'Demographic, Political and Social Transformations of China, 750–1550', *Harvard Journal of Asiatic Studies* 42.2 (1982), 366–9; R. von Glahn, Revisiting the Song Monetary Revolution: A Review Essay', *International Journal of Asian Studies* 1.1 (2004), 159.

(٣) انظر على سبيل المثال:

G. Wade, 'An Early Age of Commerce in Southeast Asia, 900–1300 ce', *Journal of Southeast Asia Studies* 40.2 (2009), 221–65.

(4) S. Kumar, 'The Ignored Elites: Turks, Mongols and a Persian Secretarial Class in the Early Delhi Sultanate', *Modern Asian Studies* 43.1 (2009), 72–6.

وفي الوقت نفسه، تغيرت عادات الطهي المحلية في الصين، فظهرت نكهات، ومكونات، وأنماط طهي كان الحكام الجدد القادمين من السهوب يفضلونها. وتسرد متون مثل (Yinshan zhengyao)، وهو متن في الطبيخ «الأشياء المناسبة والأساسية لطعام الإمبراطور وشرابه»، وتضمنت عددًا كبيرًا من الأطباق التي تأثرت بالمطبخ والذوق البدويين في إعداد الطعام؛ حيث شدد هذا المتن على ضرورة سلق الطعام بوصفه وسيلة مفضلة للطبخ[١]. وأضحى استخدام كل أجزاء الذبيحة -وهي سمة ثانية لأولئك الذين كانوا يربون الماشية ليقتاتوا على لحومها- جزءًا من تلك الصيحة السائدة آنئذ. وكان قوبلاي خان (Kublai Khan) لا يطْعَم إلا ما كان يطْعَمه أسلافه، وقيل: إن الحليب المخمر، ولحوم الخيل، وسنام الجمل، وحساء لحم الضأن السخين الممزوج بالحبوب كانت أطعمة شهية تُقدَّم في بلاطه[٢]. وتبدو هذه الأطعمة مستساغةً مقارنة برئة الماعز، أو الفطيرة التي تصنع من دهون إلية الكبش أو رأسه، حيث ظهرت طرق إعداد هذه الأطعمة في متن من متون الطبيخ في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٣].

وشعرت أوروبا أيضًا بالتأثير الثقافي للفتوحات المغولية. فقد استوردت صيحات جديدة مذهلة متأثرة بظهور الإمبراطورية الجديدة. وأضحت الأساليب المغولية عصرية، ولا سيما بعد أن تلاشت موجات الذعر الأولى من المغول. ففي إنجلترا، استُخدمت قرابة ٢٥٠ عصابة من قماش التتار الأزرق الداكن لصنع شعار أقدم طائفة للفروسية في البلاد وأعظمها، وهي طائفة فرسان الرباط (Knights of the Garter). وشهد حفل الافتتاح -في البطولة المسماة «شيبسيد (Cheapside) في عام ١٣٣١م- سُيِّر موكب لرجال كانوا يرتدون ملابس التتار الفاخرة، كما كانوا يرتدون أقنعة كي يظهروا في صورة المقاتلين المغول. بل إننا نجد تلك التأثيرات القادمة من الشرق في الهنين (*Hennin*)، وهو غطاء رأس مخروطي الشكل، كانت السيدات تفضل ارتداءه على رؤوسهن، وكان أكثر صيحات اللباس تميزًا في عصر النهضة في جميع أرجاء أوروبا. ويبدو هذا النوع من أغطية الرأس واضحًا للغاية في اللوحات المصورة العائدة للقرن الرابع عشر الميلادي وما تلاه، وقد استوحي مباشرة من القبعات المميزة التي كانت النساء يرتدينها في البلاط المغولي في هذه الحقبة[٤].

بيد أن الفتوحات المغولية كان لها تأثيرات أخرى أكثر أهمية؛ ذاك أنها عملت على تغيير اقتصادات

---

(1) P. Buell, E. Anderson and C. Perry, *A Soup for the Qan: Chinese Dietary Medicine of the Mongol Era as Seen in Hu Szu-hui's Yin-shan Cheng-yao* (London, 2000).

(2) P. Buell, 'Steppe Foodways and History', *Asian Medicine, Tradition and Modernity* 2.2 (2006), 179–80, 190.

(3) P. Buell, 'Mongolian Empire and Turkization: The Evidence of Food and Foodways', in R. Amitai Preiss (ed.), *The Mongol Empire and its Legacy* (Leiden, 1999), pp. 200–23.

(4) Allsen, *Commodity and Exchange*, pp. 1–2, 18; J. Paviot, 'England and the Mongols (c. 1260–1330)', *Journal of the Royal Asiatic Society* 10.3 (2000), 317–18.

أوروبا. فقد سافر التجار والمبشرون على أثر خطى عدد كبير من المبعوثين الذين أُرسلوا من أوروبا إلى بلاط الخانات. وعلى هذا النحو دخلت آسيا برمتها -وليس عالم المغول فحسب- في مجال رؤية أوروبا بغتةً. وانتظر أولئك التواقون -إلى معرفة المزيد عن هذا العالم الغريب- الحكاياتِ التي قصها الرحالة الأوروبيون عن الشرق بشغف.

شُغف عدد كبير من الناس بالقصص عن الشرق حبًا. فوفقًا لماركو بولو كانت هناك جزيرة خارج الصين، وكانت أسقف قصر حاكمها من الذهب، وجدرانه من الذهب بسمك عدة بوصات. كما أماط ماركو بولو اللثام عن الكيفية التي كان الناس يخلصون بها الجواهر والأحجار الكريمة في الهند؛ حيث كانت لحوم الحيوانات تُلقى في وديان شديدة الانحدار تمتلئ بالماس، إلا أنها تغص بالأفاعي السامة، فتنجذب الصقور إلى اللحوم وتلتقمها، فتحضر معها الأحجار الكريمة التي كانت تشاركهم الإعجاب بها، فيجمعها الناس بسهولة. كما أشار رحالة آخر من هذه الحقبة إلى أن الفلفل كان يجلب من مستنقعات تغصُّ بالتماسيح، وكان ينبغي إشعال النيران لإخافتها. لقد كانت ثروة الشرق -في روايات الرحالة المعاصرين- مادة الأساطير، وكانت طرف نقيض لأوروبا الفقيرة[1].

لم يكن ينبغي لهذا الاستنتاج أن يكون مفاجئًا لأهل أوروبا، بل إنه لم يكن جديدًا عليهم. لقد كانت موضوعات مثل هذه مألوفة في النصوص الكلاسيكية التي أقبل الأوربيون على قراءتها مجددًا مع تطور المجتمع والاقتصاد في أوروبا القارية، وكل ما هنالك أن الفضول الفكري قد عاود سيرته الأولى فحسب. وعلى هذا النحو أصابت الأخبار التي جلبها ماركو بولو وغيره وترًا حساسًا عندما قورنت بروايات هيرودوت (Herodotus)، وتاكيتوس (Tacitus)، وبليني (Pliny)، بل وأنشودة سليمان (Song of Solomon) عن الخفافيش التي كانت تنشب مخالبها في أجساد رواد المستنقعات حيث كانت تنمو القرفة الصينية، وعن الأفاعي السامة الطائرة التي كانت تحمي الأشجار العطرية في شبه الجزيرة العربية، أو طيور الرخ التي كانت تبني أعشاشها من القرفة واللبان وسائر التوابل الأخرى[2].

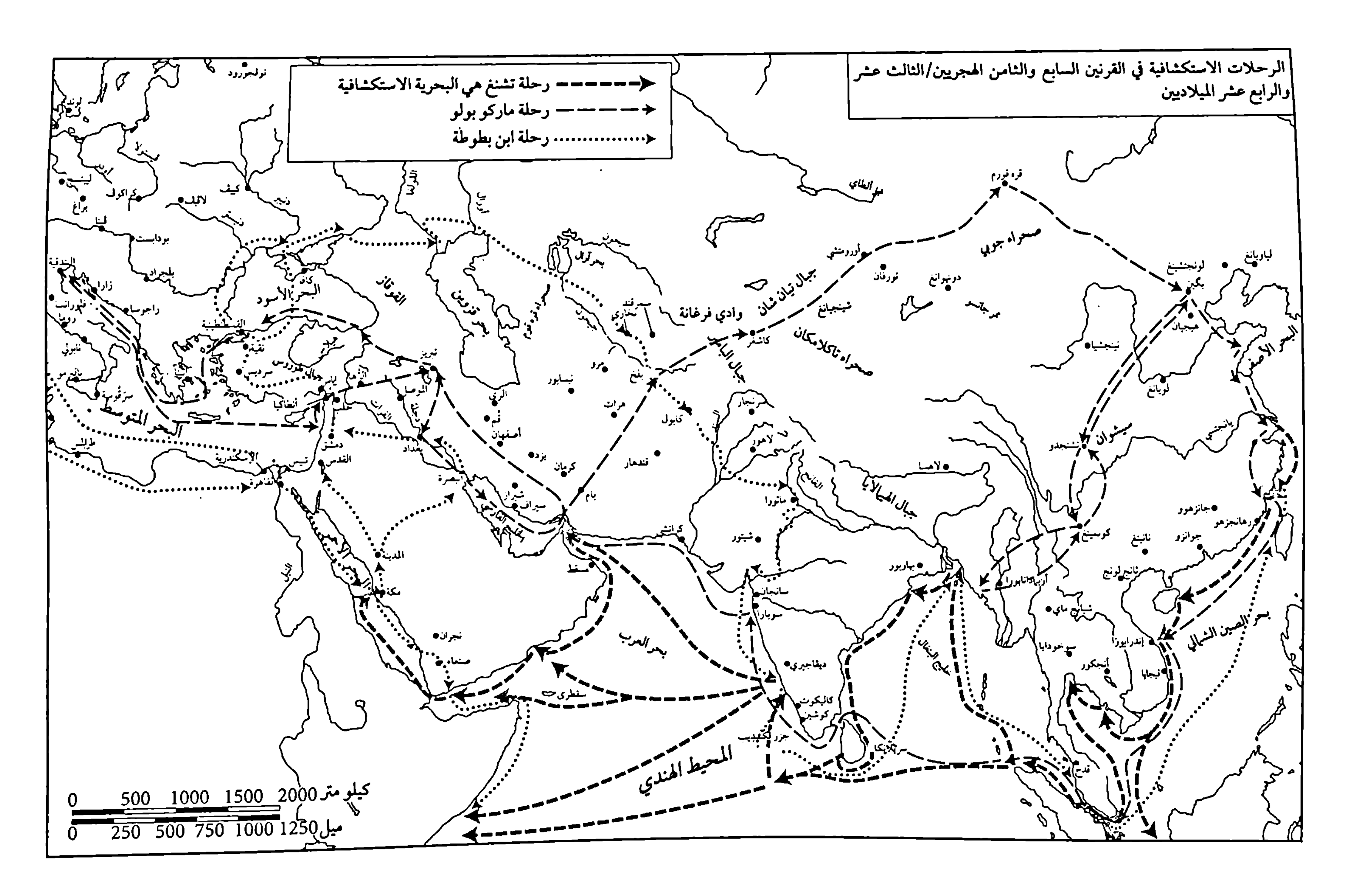
وارتبط سحر الشرق، وقصص الأخطار التي كان ينطوي عليها جمع السلع النادرة، وذات القيمة العالية، ارتباطًا وثيقًا بتوقع الأسعار الباهظة لتلك السلع متى جُلِبت إلى أوروبا بطبيعة الحال. وكان من الطبيعي أن تكون أسعار السلع والمنتجات والتوابل التي كان جمعها أو حصادها ينطوي على خطر ما باهظة للغاية[3]. وبدأت المتون والرسائل المتعلقة بالسفر والتجارة في آسيا في الظهور نحو عام

---

(1) P. Freedman, 'Spices and Late-Medieval European Ideas of Scarcity and Value', *Speculum* 80.4 (2005), 1209-27.

(2) S. Halikowski-Smith, 'The Mystification of Spices in the Western Tradition', *European Review of History: Revue Européenne d'Histoire* 8.2 (2001), 119-25.

(3) A. Appadurai, 'Introduction: Commodities and the Politics of Value', in A. Appadurai (ed.), *The Social Life of Things: Commodities in Cultural Perspective* (Cambridge, 1986), pp. 3 -63.


الرحلات الاستكشافية في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين
رحلة تشنغ هي البحرية الاستكشافية
رحلة ماركو بولو
رحلة ابن بطوطة
كيلو متر 0 500 1000 1500 2000
ميل 0 250 500 750 1000 1250
قره قورم
صحراء جوبي
صحراء تاكلامكان
جبال تيان شان
وادي فرغانة
جبال البامير
جبال الهيمالايا
كاشغر
بكين
لونجشينغ
هيجيان
لوينانغ
سيشوان
تشنجدو
كومينغ
لاهسا
نانينغ
جوانزو
جانزهو
البحر الأصفر
بحر الصين الشمالي
إندرابيورا
أنجكور
قدح
بحر العرب
المحيط الهندي
سقطرى
كاليكوت
كوشين
جزر كيكيب
ديفاجيري
سوبارا
سانجان
كانبي
شيتور
ماتورا
لاهور
نجار
كابول
قندهار
هرات
بلخ
مرو
بخارى
سمرقند
نيسابور
الري
قم
أصفهان
يزد
كرمان
هرمز
شيراز
سيراف
البصرة
بغداد
الموصل
تبريز
بحر قزوين
القوقاز
البحر الأسود
القسطنطينية
كافا
دمشق
القدس
القاهرة
الإسكندرية
المدينة
مكة
نجران
صنعاء
مسقط
البحر المتوسط
بحر آرال
بودابست
بلجراد
كيف
نولغورود
براغ
لينسج
كراكوف
زارا
راجوسا
روما
نابولي
طرابلس
النيل
أورال
بحر الطاي

١٣٠٠م سعيًا للحصول على معلومات أقيم. وفي القلب من تلك المعلومات، الكيفية التي يجد التاجر الأوروبي ضالته من السلع والبضائع بسعر مناسب. وكتب فرانشيسكو بيجولوتي (Francesco Pegolotti) -وهو صاحب أشهر متن من هذه الحقبة- قائلًا: «ينبغي عليك -قبل كل شيء- أن تُطلق لحيتك، وألا تحلقها قط». واحرص على أن تتخذ مرشدًا طيلة الرحلة، ثم محض قارئه النصيحة قائلًا: ستُعوِّض مدخراتك مهما دفعت من مبالغ إضافية لقاء الحصول على سلعة جيدة. بيد أن أهم المعلومات التي قدمها كانت تلك المتعلقة بتقييم الضرائب المستحقة في كل موقع على حدة، والفروق في الأوزان، والمقاييس، والعملات المعدنية من مكان إلى آخر، وأشكال التوابل المختلفة، وقيمتها. وكان الهدف من هذه المتون الهادية في عالم القرون الوسطى -كما هو الحال في العصر الحديث- تجنب خيبة الأمل، وتقليص فرص استغلال التجار الجشعين للتجار الأوربيين[١].

لم يكن بيجولوتي نفسه من البندقية أو جنوة -وقد علِمتَ أنهما كانتا القوتان الكبيرتان في أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين- بل كان الرجل من فلورنسا، وهذا -في حد ذاته- أمر ذو مغزى. لقد كانت هناك قوى جديدة ناشئة تتوق للحصول على قطعة من الكعكة الشرقية، مثل: لكّة (Lucca)، وسينا (Siena)، حيث نشط التجار منهما في تبريز، وأياس، وغيرها من المراكز التجارية الأخرى في الشرق، وكانوا يشترون التوابل، والحرير، والأقمشة من الصين، والهند، وفارس فضلًا عن غيرها. ولم يجر التعبير عن الشعور بفتح آفاق جديدة في أي مكان على نحو أفضل من الخريطة التي عُلِّقت في قاعة المجلس الكبير في القصر العام (Palazzo Pubblico) في سينا: فقد صُممت بحيث يمكن تدويرها يدويًا، وأظهرت تلك الخريطة بلدة توسكان (Tuscan) وكأنها سُرَّة العالم، وحددت المسافات، وشبكات النقل، وشبكة سينا الخاصة من الوكلاء والوسطاء، والاتصالات الممتدة إلى أعماق آسيا. إن مدن وسط إيطاليا -التي لم يكن أحد يعرف أين تقع- بدأت تتطلع إلى الشرق بحثًا عن الإلهام، والأرباح، والتفكير في إقامة روابطها الخاصة مع طرق الحرير[٢].

وكان الاستقرار الذي وفره المغول في جميع أنحاء آسيا أمرًا أساسيًا للتوسع الأوروبي. فعلى الرغم من التوترات القائمة، والمنافسة السائدة بين مختلف أفرع القيادات القبلية، فإن سيادة القانون

---

(1) Francesco Pegolotti, *Libro di divisamenti di paesi (e di misure di mercatantie)*, tr. H. Yule, *Cathay and the Way Thither*, 4 vols (London, 1913–16), 3, pp. 151–5.

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

J. Aurell, 'Reading Renaissance Merchants' Handbooks: Confronting Professional Ethics and Social Identity', in J. Ehmer and C. Lis (eds), *The Idea of Work in Europe from Antiquity to Modern Times* (Farnham, 2009), pp. 75–7.

(2) R. Prazniak, 'Siena on the Silk Roads: Ambrozio Lorenzetti and the Mongol Global Century, 1250–1350', *Journal of World History* 21.2 (2010), 179–81; M. Kupfer, 'The Lost Wheel Map of Ambrogio Lorenzetti', *Art Bulletin* 78.2 (1996), 286–310.

كانت مصونة تمامًا متى تعلق الأمر بالتجارة والمسائل التجارية. وكان نظام الطرق في الصين -على سبيل المثال- مثار حسد الزوار الذين أبدوا دهشتهم من الإجراءات الإدارية المعمول بها لتوفير الأمن للتجار والمسافرين. وكتب الرحالة ابن بطوطة (من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) قائلًا: «وبلاد الصين آمَن البلاد وأحسنها حالًا للمسافر». وكان النظام المعمول به فيها يقتضي تسجيل كل غريب يدخلها يوميًّا على الأرجح. وهذا يعني -على حد قوله- أن «الإنسان يسافر منفردًا مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها»[١].

وردد بيجولوتي صدى قول ابن بطوطة، عندما أشار إلى أن الطريق من البحر الأسود حتى الصين «آمن تمامًا، ليلًا ونهارًا». ويعود هذا جزئيًا إلى معتقدات البدو التقليدية في الكرم الذي ينبغي إظهاره للغرباء، بيد أنه جاء أيضًا نتيجة لمنظور أوسع أفقًا، يقضي بضرورة بذل الوسع لتشجيع التجارة. وبهذا المعنى، وجدت الضرائب التنافسية المفروضة على السلع والبضائع التي كانت تمر عبر البحر الأسود أصداء واضحة على الجانب الآخر من آسيا، حيث نمت التجارة البحرية التي كانت تمر عبر الموانئ على ساحل المحيط الهادئ الصيني أيضًا بفضل الجهود المتعمدة لزيادة الإيرادات المتولدة من الجمارك[٢].

وكان تصدير الأقمشة والمنسوجات أحد المجالات المربحة والرائجة؛ حيث حدثت طفرة كبيرة في إنتاجها في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وشُيِّدت مصانع النسيج في نيسابور، وهرات، وبغداد شيئًا فشيئًا، بينما توسعت مدينة تبريز وحدها في الحجم بمقدار أربعة أضعاف على مدار قرنٍ ونيفٍ من الزمان؛ وذاك لاستيعاب التجار، وكذلك الحرفيين والصناع الذين لقوا معاملة حسنة -على نحو واضح- في أعقاب الفتوحات المغولية. وعلى الرغم من اشتداد الطلب على الملابس والمنسوجات الفاخرة في الأسواق في الشرق، فإن كميات متزايدة منها صُدِّرت إلى أوروبا منذ أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وما يليه[٣].

واتسعت الآفاق في كل مكان؛ ففي الصين، كانت موانئ مثل جوانزو (Guangzhou) بمثابة النوافذ على عالم جنوب آسيا. وكانت هذه المراكز التجارية الرئيسة معروفة جيدًا للتجار الفُرس، وكذلك للجغرافيين العرب، وللرحالة المسلمين الذين رووا القصص عن الحياة في الشوارع الصاخبة في البلدات المطلة على الساحل، وكذلك في الداخل، كما تحدثوا عن سكان متنوعين وعالميين. لقد كان هذا هو مستوى التفاعل والتبادل حيث أقرضت اللغتان الفارسية

---

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، الترجمة الإنجليزية:
tr. H. Gibb, *The Travels of Ibn Battuta*, 4 vols (Cambridge, 1994), 4, 22, pp. 893–4.

(2) E. Endicott-West, 'The Yuan Government and Society', *Cambridge History of China*, 6, pp. 599–60.

(3) Allsen, *Commodity and Exchange*, pp. 31–9.

والعربية عددًا كبيرًا من الكلمات والتعبيرات إلى اللغة الصينية، ولم تزل تلك المفردات والعبارات شائعة حتى يومنا هذا في الصين الحديثة[1].

وعلى الصعيد الآخر، كانت معرفة الصين بالعالم الخارجي سطحية للغاية، ومحدودة على نحو واضح، كما يُظهر المتن الذي وضعه موظف إمبراطوري كان مسؤولًا عن التجارة الخارجية في جوانزو جنوبي الصين -وهو موقع كان يمتاز بوجود ميناء طبيعي متميز في دلتا نهر بيرل (Pearl)- في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. تقوم تلك الرواية -التي وُضِعت مستهدفة التجار، والبحارة، والرحالة- بمحاولة جريئة لشرح الممارسات التجارية سواءً في العالم الناطق بالعربية، أو خارجه، مع سرد أنواع السلع والبضائع التي يمكن شراؤها، ووصف ما قد يُتوقَّع أن يصادفه التجار الصينيون ثمة. بيد أن تلك الرواية غصَّت بمعلومات غير دقيقة، فضلًا عن المعتقدات شبه الصوفية، مثَلها في ذلك مثَل عدد كبير من روايات الرحالة من هذه الحقبة. فلم تكن مكة -على سبيل المثال- مقرًّا لبيت بوذا، ولا مكانًا يقصده البوذيون مرة واحدة في السنة لأداء فريضة الحج. كما لم تكن هناك أرض تحبل فيها النساء من خلال «الرقاد عاريات بإزاء قوة رياح الجنوب الكاملة». كما لم يبلغ قطر ثمرة البطيخ في الأندلس ستة أقدام، ولم تكن تُطعِم أكثر من عشرين رجلًا. كما أن الأغنام في أوروبا لم تنمُ حتى تبلغ قامة الرجل، ولم تكن بطونها تُشقُّ كل ربيع، فيُستخرج منها عشرات الأرطال من الدهن، قبل أن تُخاط مجددًا، دون أن يترك ذلك أثرًا[2].

وعلى أية حال، لمَّا توحد جزء كبير من آسيا تحت حكم المغول، حدثت طفرة في الروابط التجارية البحرية، ولا سيما في الأماكن ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية -مثل الخليج العربي- التي كانت تخضع لرقابة واسعة من قبل السلطات الجديدة؛ حيث أبدت حرصها على تشجيع التبادل التجاري بعيد المدى، وزيادة الإيرادات المتولدة عن هذا النشاط[3]. ونتيجة لذلك، أضحى المناخ الثقافي في جوانزو في القرن الثالث عشر الميلادي أغزر علمًا، وأقل إقليمية.

---

(1) C. Salmon, 'Les Persans à l'extrémité orientale de la route maritime (IIe a.e.–XVIIe siècle)', *Archipel* 68 (2004), 23–58;

وانظر أيضًا:

L. Yingsheng, 'A Lingua Franca along the Silk Road: Persian Language in China between the 14th and the 16th Centuries', in R. Kauz (ed.), *Aspects of the Maritime Silk Road from the Persian Gulf to the East China Sea* (Wiesbaden, 2010), pp. 87–95.

(2) F. Hirth and W. Rockhill, *Chau Ju-Kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Entitled Chu-fan-chi* (St Petersburg, 1911), pp. 124–5, 151, 142–3.

(٣) انظر:

R. Kauz, 'The Maritime Trade of Kish during the Mongol Period', in L. Komaroff (ed.), *Beyond the Legacy of Genghis Khan* (Leiden, 2006), pp. 51–67.

وأصبحت المدينة -بحلول العقد الثامن من القرن الثالث عشر الميلادي- بمثابة البؤرة للواردات والصادرات البحرية للصين. وقال ماركو بولو في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي: إن مقابل كل سفينة كانت تبحر إلى الإسكندرية محملة بموؤن من الفلفل التي كانت تصل إلى أوروبا في الأخير، كانت تدخل أكثر من مئة سفينة إلى الميناء الصيني. وهو تعليق وجد صدى رائعًا فيما ذكره ابن بطوطة، الذي دُوِّنت رحلاته قريبًا من ذلك العهد، فعند وصوله إلى المدينة شهد نحو مئة سفينة تبحر في خليج جوانزو، إضافة إلى عدد لا يحصى من الزوارق الصغيرة[1]. لقد كانت التجارة في البحر المتوسط كبيرة؛ إلا أنها كانت هائلة في المحيط الهادئ.

ولا يتعين علينا الاعتماد على مصادر مكتوبة، أو غامضة، أو غير موثوقة فحسب لتحديد مدى أهمية المدينة بوصفها مركزًا تجاريًا[2]. إذ يكشف حطام سفينة عثر عليها في خليج جوانزو -ويعود إلى هذه الحقبة- عن أن السلع والبضائع كانت تُستورَد من جميع أنحاء جنوب آسيا، وعلى الأرجح من الخليج العربي وشرق إفريقيا أيضًا. وكان الفلفل، واللبان، والعنبر، والزجاج، والقطن جزءًا فحسب من شحنة ثمينة غرقت قبالة سواحل الصين في عام ١٢٧١م، أو بُعيد ذلك التاريخ[3]. وعبر التجار بحر الصين الجنوبي بأعداد أكبر من ذي قبل، فقد أُنشِئت مراكز تجارية في سومطرة، وشبه جزيرة الملايو، وفي المقام الأول على ساحل مالابار (Malabar) في جنوب الهند، وكانت موطنًا كبيرًا لإمداد العالم بالفلفل -وهو سلعة اشتد طلب أهل الصين عليها- وكذلك كان الأمر في أوروبا، فضلًا عن أماكن أخرى في آسيا منذ فترة طويلة[4]. وكان عددٌ كبيرٌ من السفن يبحر إلى مدن مثل كاليكوت (Calicut) بحلول منتصف القرن الرابع عشر الميلادي؛ حتى إن بعض الكتَّاب علقوا على أن جميع عمليات النقل البحري، والسفر في هذا الجزء من شبه القارة الهندية كانت تجري باستخدام القوارب الصينية. وجرى الوقوف على مثال لتصميم نموذجي لهذا النوع من القوارب ذات القاعدة المسطحة بأَخَرة، فقد عُثر على حطامٌ منه يقبع قبالة ساحل كيرالا (Kerala)[5].

---

(1) Marco Polo, *Le Devisament dou monde*, tr. A. Moule and P. Pelliot, *The Description of the World*, 2 vols (London, 1938);

ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Batūta, 22, *Travels*, 4, p. 894.

(٢) عن ماركوبولو انظر:

J. Critchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 1992), and now see H. Vogel, *Marco Polo was in China: New Evidence from Currencies, Salts and Revenues* (Leiden, 2013).

(3) C. Wake, 'The Great Ocean-Going Ships of Southern China in the Age of Chinese Maritime Voyaging to India, Twelfth to Fifteenth Centuries', *International Journal of Maritime History* 9.2 (1997), 51–81.

(4) E. Schafer, 'Tang', in K. Chang (ed.), *Food in Chinese Culture: Anthropological and Historical Perspective* (New Haven, 1977), pp. 85–140.

(5) V. Tomalin, V. Sevakumar, M. Nair and P. Gopi, 'The Thaikkal-Kadakkarapally Boat: AnArchaeologica =

وكانت مادة التشحيم في هذه التجارة طويلة المدى هي الفضة، والتي اتخذت شكل عملة موحدة عبر أوراسيا. وكان أحد أسباب ذلك الرواج هو الابتكار في عمليات الائتمان المالي في الصين والذي جرى العمل به قبل عهد جنگيز خان، مشتملة على إدخال الصكوك، واستخدام النقود الورقية(١). وتبنى المغول هذا النظام وعملوا على تحسينه، وكان الأثر الناجم عن ذلك تحرير كميات هائلة من الفضة في النظـام النقدي مع انتشـار أشـكال جديـدة من الائتمان. وارتفـع توافر المعدن الثمين بغتـة، الأمر الذي تسبب في تصحيح كبير في قيمته مقابل الذهب. وتراجعت قيمة الفضة في بعض أنحاء أوروبا، وفقدت أكثـر مـن نصف قيمتها بين عامي ١٢٥٠ - ١٣٣٨م(٢). وسـمحت الزيادة فـي المعروض من الفضة في لنـدن وحدهـا، لدار السـكة الملكيـة بإنتاج أكثر من أربعـة أضعاف إنتاجها بين عامـي ١٢٧٨-١٢٧٩م وحـده. وارتفـع إنتـاج العملات الفضية على نحو حاد في جميع أرجاء آسـيا أيضًـا. وضُربت العملات علـى نطـاق واسـع في السـهوب بالمثل، حيث بـدأ خانات القبيلة الذهبية في سـكّ العمـلات بكميات كبيرة(٣). كما جرى تحفيز مناطق جديدة، فقد تحولت اليابان -التي كانت تعتمد على المقايضة أو على الدفع بسـلع مثل الأرز بوصفه آلية للتبادل إلى حد كبير- إلى الاقتصاد النقدي، وانخرطت في التجارة طويلـة المـدى على نحو متزايد(٤). ومع ذلك، فإن التأثير الأكثر أهمية الذي أحدثته الفتوحات المغولية على تحول أوروبا لـم يأت من التجارة، كما لم يأت من الحرب، ولا من الثقافة، ولا من العملة كذلك. لم يكن المحاربون الأشداء، والسلع والمعادن النفيسة، والأفكار والأزياء هي التي تدفقت عبر الشرايين التي كانت تربط العالم. بل كان شـيئًا آخر جرى مجرى الدم في تلك الشـرايين، فكان له تأثير جذري؛ إنه الوباء. لقد انتشر الطاعون في آسيا، وأوروبا، وإفريقيا مهددًا بإبادة الملايين. لم يدمر المغول العالم، بل كاد الموت الأسود أن يُفنيه، وعن بكرة أبيه.

= Example of Medieval Ship Building in the Western Indian Ocean', *International Journal of Nautical Archaeology* 33.2 (2004), 253–63.

(1) R. von Glahn, *Fountain of Fortune: Money and Monetary Policy in China 1000–1700* (Berkeley, 1996), p. 48.

(2) A. Watson, 'Back to Gold – and Silver', *Economic History Review* 20.1 (1967), 26–7; I. Blanchard, *Mining, Metallurgy and Minting in the Middle Age: Continuing Afro-European Supremacy, 1250–1450* (Stuttgart, 2001), 3, pp. 945–8.

(3) T. Sargent and F. Velde, *The Big Problem of Small Change* (Princeton, 2002), p. 166; J. Deyell, 'The China Connection: Problems of Silver Supply in Medieval Bengal', in J. Richards (ed.), *Precious Metals in the Later Medieval and Early Modern World* (Durham, NC, 1983); M. Allen, 'The Volume of the English Currency, 1158–1470', *Economic History Review* 54.4 (2001), 606–7.

(٤) يتضح هذا بوضوح من أحوال اليابان في القرن الرابع عشر الميلادي:

A. Kuroda, 'The Eurasian Silver Century, 1276–1359: Commensurability and Multiplicity', *Journal of Global History* 4 (2009), 245–69.

شكلت سهوب أوراسيا -مع سلسلة من البؤر المرتبطة التي امتدت من البحر الأسود حتى منشوريا (Manchuria)- أحد أكبر حواضن الطاعون في العالم، إضافة إلى كونها موطنًا للماشية والبدو منذ آلاف السنين. وناسبت الظروف البيئية القاحلة، وشبه القاحلة انتشار بكتيريا اليرسينيا الطاعونية *Yersinia pestis* التي انتقلت من عائل إلى آخر من خلال البراغيث على نحو أساسي من خلال التغذي على الدم. وانتشر الطاعون على نحو أكثر فاعلية، وأكثر سرعة من خلال إصابة القوارض -مثل الفئران- بالعدوى، على الرغم من أن الإبل كان يمكن أن تصاب بالعدوى أيضًا، كما يسعها أن تلعب دورًا مهمًا في انتقاله، على نحو ما أوضحت البحوث التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا ببرنامج الحرب البيولوجية للاتحاد السوفيتي خلال حقبة الحرب الباردة[1]. وعلى الرغم من أن الطاعون يمكن أن ينتشر عن طريق مسّ أنسجة العائل، أو التعامل معه، أو من خلال استنشاق رذاذ المصابين، إلا أن انتقال العدوى إلى البشر كان يحدث على نحو شائع من خلال البراغيث التي تقيء العُصيات المسببة للمرض في مجرى الدم قبل امتصاصه، أو عن طريق تلويث الجروح الجلدية ببرازها الملوث بالعُصيات. ثم تنتقل العصيات إلى العقد الليمفاوية، ولا سيما في الإبط أو الفخذ. وسرعان ما تتكاثر تلك العصيات لتسبب التورمات أو الدمامل التي وصفها بوكاتشيو (Boccaccio) -الذي عاش خلال الطاعون- بأنها تنمو حتى «تكاد» تصل إلى حجم التفاحة، أو إلى حجم البيضة[2]. وتصاب الأعضاء الأخرى بدورها؛ ويتسبب النزف الداخلي -ناهيك عن الأكياس السوداء المميزة من أثر القيح والدم- في جعل المرض مرعبًا بصريًا، فضلًا عن أنه مرض قاتل.

وأوضحت البحوث الحديثة التي أجريت على اليرسينيا الطاعونية والطاعون الدور الحاسم الذي تلعبه العوامل البيئية في دورة التكاثر؛ حيث يسع التغييرات -التي قد تبدو تافهةً للوهلة الأولى- أن تحول المرض من وباء محليّ قابل للاحتواء إلى مرض شديد العدوى، وقابل للانتشار على نطاق واسع. فعلى سبيل المثال، يمكن للفوارق الصغيرة في درجات الحرارة، ومعدلات هطول الأمطار، أن تغير إلى حد كبير من دورات التكاثر للبراغيث، وهو الطفيلي الحاسم في دورة تطور البكتيريا نفسها، وكذلك سلوك العائل من القوارض[3]. وافترضت دراسة حديثة أن زيادة بمقدار درجة واحدة فحسب

---

(1) V. Fedorov, 'Plague in Camels and its Prevention in the USSR', *Bulletin of the World Health Organisation* 23 (1960), 275–81.

عن التجارب السابقة، انظر:

A. Tseiss, 'Infektsionnye zabolevaniia u verbliudov, neizvestnogo do sik por poriskhozdeniia', *Vestnik mikrobiologii, epidemiologii i parazitologii* 7.1 (1928), 98–105.

(2) Boccaccio, *Decamerone*, tr. G. McWilliam, *Decameron* (London, 2003), p. 51.

(3) T. Ben-Ari, S. Neerinckx, K. Gage, K. Kreppel, A. Laudisoit et al., 'Plague and Climate: Scales Matter, *PLoS Pathog* 7.9 (2011), 1–6.

=

في درجة الحرارة قد تؤدي إلى زيادة بنسبة ٥٠٪ في انتشار الطاعون في اليربوع الكبير، وهو من القوارض الرئيسة العائلة في بيئة السهوب(١).

وعلى الرغم من أننا لم نقف بعد على المكان الذي اندلع منه وباء منتصف القرن الرابع عشر الميلادي لأول مرة، فإن الطاعون انتشر بسرعة في العقد الخامس من القرن الرابع عشر الميلادي مع انتقال الوباء من السهوب عبر أوروبا، وإيران، والشرق الأوسط، ومصر، وشبه الجزيرة العربية(٢). وقد انتشر المرض عام ١٣٤٦م عندما تحدث كاتب إيطالي معاصر عن أن هناك «مرض غامض يتسبب في الموت المفاجئ» أصاب القبيلة الذهبية القاطنة بجوار البحر الأسود. وأفاد أحد الكتّاب بأن جيشًا مغوليًا كان يحاصر مركز تجاريًا لجنوة في كافًا (Caffa) بعد نزاع حول شروط التجارة، وقد فني الجيش المحاصِر بسبب الوباء الذي أودى بحياة «الآلاف المؤلفة كل يوم». بيد أنهم قبل أن ينسحبوا، «أُمِروا بوضع الجثث في منجنيق، ثم رموا المدينة بها على أمل أن تقتل الرائحة الكريهة التي لا تطاق كل حيٍّ بداخلها». وبدلًا من أن تعم الرائحة الكريهة المدينة، انتشر المرض شديد العدوى. ويبدو لنا أن المغول استخدموا الحرب البيولوجية لهزيمة عدوهم دون أن يعلموا(٣).

وغدت الطرق التجارية -التي ربطت أوروبا ببقية العالم- طرقًا سريعةً مميتةً لنقل الموت الأسود. ووصل الوباء إلى القسطنطينية في عام ١٣٤٧م، ثم انتقل منها إلى جنوة، ومنها إلى البندقية، وحوض البحر المتوسط، فقد حمله التجار الفارين من ديارهم. وبحلول الوقت الذي أدرك فيه سكان ميسينا

= وانظر أيضًا:

B. Krasnov, I. Khokhlova, L. Fielden and N. Burdelova, 'Effect of Air Temperature and Humidity on the Survival of Pre-Imaginal Stages of Two Flea Species (Siphonaptera: Pulicidae)', *Journal of Medical Entomology* 38 (2001), 629–37; K. Gage, T. Burkot, R. Eisen and E. Hayes, 'Climate and Vector-Borne Diseases', *Americal Journal of Preventive Medicine* 35 (2008), 436–50.

(1) N. Stenseth, N. Samia, H. Viljugrein, K. Kausrud, M. Begon et al., 'Plague Dynamics are Driven by Climate Variation', *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 103 (2006), 13110–15.

(٢) اقترح بعض العلماء أن تحديد أصل الوباء قد تدل عليه شواهد القبور في مقبرة شرقي قرغيزستان، يعود تاريخها إلى العقد الرابع من القرن الثالث عشر الميلادي، انظر:

S. Berry and N. Gulade, 'La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347–1353', *Canadian Bulletin of Medical History* 25.2 (2008), 466.

غير أن ذلك الرأي مبني على سوء فهم. انظر:

J. Norris, 'East or West? The Geographic Origin of the Black Death', *Bulletin of the History of Medicine* 51 (1977), 1–24.

(3) Gabriele de' Mussis, *Historia de Morbo*, in *The Black Death*, tr. R. Horrox (Manchester, 2001), pp. 14–17; M. Wheelis, 'Biological Warfare at the 1346 Siege of Caffa', *Emerging Infectious Diseases* 8.9 (2002), 971–5.

(Messina) -في صقلية- أن خطبًا ما ألمَّ بأهل جنوة الذين دخلوا مدينتهم، والبثور تغطي بشراتهم، ويتقيؤون على نحو مستمر، ويسعلون الدم قبل أن يخروا أمواتًا، كان الأوان قد فات بالفعل على اتخاذ أي إجراء. فعلى الرغم من طرد سفن جنوة من الميناء، فقد عم المرض المدينة، وأخذ يفتك بالسكان[١].

وسرعان ما واصل الوباء التوغل شمالًا، حتى وصل إلى مدن شمال فرنسا، وباڤاريا بحلول منتصف عام ١٣٤٨م. وكانت السفن التي دخلت الموانئ في بريطانيا -آنئذٍ- قد جلبت بالفعل «أول وباء... يحمله التجار والبحارة»[٢]. وسقط عدد كبير من المرضى صرعى في البلدات والقرى في إنجلترا حيث منح البابا «عفوًا عامًّا» عن الخطايا التي يعترف بها مقترفوها. ووفقًا لأحد التقديرات المعاصرة، نجا نحو عُشر السكان أو ما دون هذا التقدير؛ وأفادت مصادر أخرى بأن أعدادًا كبيرة لقيت مصارعها، حتى إنه لم يعد هناك ما يكفي من الناس لدفن الموتى[٣].

وتسببت السفن التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط في الموت والدمار، بدلًا من أن تجلب البضائع والسلع الثمينة. ولم تنتشر العدوى من خلال الاتصال بضحايا الطاعون أو الفئران -التي كانت ضيفًا دائمًا على متون السفن في البحار؛ حتى البضائع التي جرى تخزينها في عنابر الشحن تحولت إلى شحنات قاتلة، حيث عاثت البراغيث فسادًا في الفراء وسائر المواد الغذائية المتوجهة إلى البر الرئيس لأوروبا، وكذلك للموانئ في مصر، والشام، وقبرص؛ حيث كان أول الضحايا من الأطفال الرضع والصبيان. وسرعان ما انتشر المرض على طول طريق القوافل المؤدي إلى مكة، الأمر الذي أسفر عن مقتل العشرات من الحجيج والعلماء، وأثار بحثًا جادًّا عن ماهية الروح؛ إذ يفترض أن النبي [ﷺ] قال: إن الطاعون الذي اجتاح بلاد العراق في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، لن يدخل المدن المقدسة في الإسلام قط[٤].

وكتب ابن الوردي عن حال الطاعون في دمشق، فوصفه قائلًا: «فتربَّع وتميَّد، وفتك كل يوم بألف أو أزيد»[٥]. وغصت الطرق بين القاهرة وفلسطين بجثث الضحايا، في حين مزقت الكلاب الجثث التي تراكمت على جدران المساجد في بلبيس. ونجم عن الوباء انخفاض عدد دافعي الضرائب في منطقة أسيوط بصعيد مصر من ٦٠٠٠ قبل الموت الأسود إلى ١١٦ فحسب، أي قُدّر الانخفاض بنحو ٩٨٪[٦].

---

(1) M. de Piazza, *Chronica*, in Horrox, *Black Death*, pp. 35–41.

(2) *Anonimalle Chronicle*, in Horrox, *Black Death*, p. 62.

(3) John of Reading, *Chronica*, in Horrox, *Black Death*, p. 74.

(٤) ابن الوردي، رسالة النبا عن الوبا، نقلاً عن:
B. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, 1977), pp. 57–63.

(5) M. Dods, 'Ibn al-Wardi's "Risalah al-naba" an al-waba', in D. Kouymjian (ed.), *Near Eastern Numismatics, Iconography, Epigraphy and History* (Beirut, 1974), p. 454.

(6) B. Dols, *Black Death in the Middle East*, pp. 160–1.

وعلى الرغم من أن هذا الانكماش السكاني قد يعكس فرار الأشخاص من ديارهم أيضًا، إلا أنه لا ينتابنا أدنى شك في أن عدد القتلى كان هائلًا. وكتب بوكاتشيو -وهو العالم الإيطالي والإنساني الأديب- في مقدمته لـ ديكاميرون *Decameron*: «كل حكمة الإنسان وإبداعه» عجزت عن منع انتشار المرض. وأشار إلى أنه في غضون ثلاثة أشهر، قضى أكثر من ١٠ آلاف شخص نحبهم في فلورنسا وحدها[١]. وخلت البندقية أو كادت من سكانها، واتفقت الروايات على موت عدد لا يقل عن ثلاثة أرباع مواطنيها في أثناء تفشي الوباء[٢].

وبدا هذا -بالنسبة لعدد كبير من الناس- وكأنه إشارة إلى قيام الساعة. ففي إيرلندا، اختتم أحد الرهبان الفرنسيسكان روايته عن الأضرار التي سببها الطاعون، وترك مساحة فارغة، وأردف قائلًا «كي أواصل عملي، في حال ظل بعض الناس على قيد الحياة مستقبلًا»[٣]. وتملك الناس شعورٌ بقرب قيام الساعة. وأفاد مؤرخون في فرنسا أن السماء «أمطرت الضفادع، والحيات، والسحالي، والعقارب وعددًا كبيرًا من الضواري السامة الأخرى». لقد كانت هناك أمارات واضحة بدت من السماء دالةٌ على غضب الله، ومنها: حجارة بَرَد هائلة ضربت الأرض فقتلت الناس بالعشرات، والصواعق التي أضرمت النيران في البلدات والقرى، حتى تسببت في «دخان نتن»[٤].

ولاذ بعض الناس، مثل إدوارد الثالث (Edward III) -وكان ملكًا على إنجلترا- بالصوم والصلاة، وأمر أساقفته أن يتأسوا به. وقدمت الرسائل العربية التي وضعت نحو عام ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م إرشادات للمسلمين لفعل الأمر نفسه، ونصحت بترديد دعاء بعينه من شأنه أن يساعد على وقايتهم من الأذى أحد عشر مرة. وكذلك فإن ترديد الآيات المتعلقة بحياة النبي [ﷺ] من شأنه أن يوفر الحماية من ظهور الدمامل. وفي روما، نُظمت مواكب حافلة؛ حيث سار التائبون والخائفون حفاة الأقدام يرتدون المسوح، وأخذوا يجلدون أنفسهم إظهارًا للندم على خطاياهم[٥].

وكانت هذه السلوكيات من بين أقل الجهود إبداعًا لتسكين الغضب الإلهي؛ فقد حث أحد الكهنة في السويد الناس على تجنب الجماع و«كل شهوة جسدية مع النساء»، وقيل في هذا الصدد أيضًا: لا تستحم، وتجنب ريح الجنوب حتى يحين وقت الغداء على الأقل. وإذا كانت هذه النصائح تأمل في تحسن الأحوال، فإن نظيراتها في إنجلترا كانت أكثر مباشرة إلى حد ما؛ فقد حث أحد الكهنة الإنجليز رعيته قائلًا: ينبغي على النساء الاحتشام، لصالحهن ولصالح الناس جميعًا. لقد كانت الملابس

---

(1) Boccaccio, *Decameron*, p. 50.

(2) de Mussis, *Historia de Morbo*, p. 20; 'Continuation Novimontensis', in *Monumenta Germaniae Historica, Scriptores*, 9, p. 675.

(3) John Clynn, *Annalium Hibernae Chronicon*, in Horrox, *Black Death*, p. 82.

(4) Louis Heylgen, *Breve Chronicon Clerici Anonymi*, in Horrox, *Black Death*, pp. 41–2.

(5) Horrox, *Black Death*, pp. 44, 117–18; Dols, *Black Death in the Middle East*, p. 126.

الأجنبية والعارية التي كن يرتدينها في أثناء ممارستهن الرياضة مجلبة للعقاب الإلهي ببساطة. لقد بدت المشكلة -في عيني هذا الراهب- عندما ارتدت النساء «قلانس صغيرة لا فائدة لها، وقد رُبطت بأربطة وأزرار محكمة عند الحلق حتى أنها غطت الكتفين بالكاد فحسب». ولم يكن هذا كل شيء، فقد أردف ذلك الراهب قائلًا: «كما ارتدى الرجال البالتوك *Paltoks*، وهو نوع من أنواع الملابس القصيرة للغاية... أظهرت مؤخراتهم أو عوراتهم». وبصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن «هذه الملابس المشوهة والضيقة لم تكن تسمح لهم بالركوع لله، أو لغيره من القديسين»(١).

وفي ألمانيا انتشرت الشائعات بأن المرض ليس من فعل الطبيعة، بل كان نتيجة تسميم اليهود للآبار والأنهار، وانتشرت تلك الشائعات في الناس انتشار النار في الهشيم. ونُفِّذت مذابح دموية، حيث أفادت إحدى الروايات بالكيفية التي قُبِض بها على «جميع اليهود بين كولونيا (Cologne) والنمسا» وجَرى حرقهم أحياء. وكان تفشي معاداة السامية أمرًا بالغ السوء، حتى إن البابا اضطر للتدخل، وأصدر مرسومًا يحظر فيه أي عمل عنيف ضد السكان اليهود في أي بلد نصراني، ويطالب الناس بالكف عنهم، ورفع أيديهم عن ممتلكاتهم وأصولهم(٢). ولا يعنينا هنا ما إذا كان هذا المرسوم قد وضع حدًّا لتلك المذابح أم لا. بيد أن هذه المذابح لم تكن السابقة الأولى؛ حيث يؤدي الخوف من الكارثة والمصاعب إلى إثارة التعصب الديني المفرط، الذي كان يؤدي بدوره إلى مذابح واسعة النطاق للأقلية اليهودية في ألمانيا؛ فقد عانى اليهود في حوض نهر الراين معاناة رهيبة في عصر الحملة الصليبية الأولى، ولم تكن النتائج تختلف كثيرًا. ويبدو أنه من قَبِيل الخطير أن يكون للمرء معتقدات مختلفة في أوقات الأزمات.

لقد فقدت أوروبا ما لا يقل عن ثلث سكانها بسبب الطاعون، بل ربما أكثر من ذلك بكثير، وتحفظت التقديرات في إحصائها لأعداد الموتى، فتوقفت عند ٢٥ مليون ضحية من إجمالي ٧٥ مليون نسمة، يفترض أنه كان عدد سكان أوروبا آنئذ(٣). وأظهرت البحوث التي تعلقت بجوائح الطاعون الأحدث عهدًا أن مستويات الوفيات في القرى الصغيرة والمناطق الريفية كانت أعلى بكثير من المدن في الجوائح الكبرى. ويبدو أن المحدد الرئيس لانتشار الطاعون لم يكن كثافة السكان -كما كان يُعتقد عادة- بل كان كثافة مستعمرات الفئران. فالمرض لا ينتشر سريعًا في بيئة حضرية مكتظة، حيث ثَم عدد أكبر من الأسر مقابل كل مستعمرة قوارض مصابة، أما الريف فعلى النقيض من ذلك. والحق أن الفرار من المدن والبلدات إلى الريف لم يزد من فرص المرء في النجاة من شراك الموت(٤).

---

(1) Bengt Knutsson, *A Little Book for the Pestilence*, in Horrox, *Black Death*, p. 176; John of Reading, *Chronica*, pp. 133–4.

(2) S. Simonsohn (ed.), *The Apostolic See and the Jews: Documents, 492–1404* (Toronto, 1988), 1, no. 373.

(٣) انظر بصفةٍ عامةٍ هنا:

O. Benedictow, *The Black Death, 1346–1353: The Complete History* (Woodbridge, 2004), pp. 380ff.

(4) O. Benedictow, 'Morbidity in Historical Plague Epidemics', *Population Studies* 41 (1987), 401–31; idem, *What Disease was Plague? On the Controversy over the Microbiological Identity of Plague Epidemics of the Past* (Leiden, 2010), esp. 289ff.

لقد جلب الموت الأسود الجحيم على الأرض، فمن حقل إلى مزرعة، ومن مدينة إلى قرية؛ تناثرت الجثث الموبوءة المتعفنة، تنضح بالصديد، على خلفية من الخوف، والقلق، والذهول من نطاق هذه المعاناة.

وكانت الآثار المترتبة على الوباء ساحقة ماحقة. فكتب الشاعر الإيطالي بترارك (Petrarch): «لقد دفنَّا آمالنا العريضة في المستقبل إلى جانب أصدقائنا». وطغت الأفكار السوداوية المتشائمة على الخطط والطموحات لمزيد من عمليات استكشاف الشرق، والثروات التي يمكن تحقيقها من خلال الاتصال به. واستطرد بترارك قائلًا: إن العزاء الوحيد هو يقيننا «بأننا سنتبع أولئك الذين قضَوا نحبهم. متى؟ لا علم لي، بيد أنني على يقين من أنني لن أُعمَّر طويلًا». ثم أردف قائلًا: إن كل ثروات المحيط الهندي، أو بحر قزوين، أو البحر الأسود لا يسعها أن تُعوِّض عما اجتثه الوباء بمنجله[1].

* * *

على الرغم مما ذكرناه آنفًا، وعلى الرغم أيضًا من الرعب الذي تسبب فيه الطاعون، فإنه سرعان ما تبين أنه عامل محفز للتغيير الاجتماعي، والاقتصادي الذي جاء عميقًا؛ حتى إنه -أعني الطاعون- أبى أن يكون مجرد ذكرى لوفاة أوروبا، بل إنه أبى إلا أن يصنعها على عينِه. لقد قدمت التغييرات التي نتجت عن الوباء ركيزة مهمة في قصة صعود الغرب وانتصاره، وجرى ذلك على عدة مراحل؛ فكانت المرحلة الأولى هي إعادة تشكيل الهياكل الاجتماعية من الأعلى إلى الأسفل. فقد كان للتناقص المزمن للسكان في أعقاب الموت الأسود تأثير في زيادة الأجور زيادة حادة بسبب ندرة الأيدي العاملة. لقد قضى كثيرون نحبهم قبل أن يبدأ الطاعون في التلاشي أخيرًا في أوائل العقد السادس من القرن الثالث عشر الميلادي؛ حتى إن أحد المصادر أشار إلى وجود «نقص في الخدم، والحرفيين، والعمال، والفلاحين». وأتاح هذا الوضع موقفًا تفاوضيًّا قويًّا لأولئك الذين كانوا في الماضي يُعدون في الطرف الأدنى من الطيف الاجتماعي والاقتصادي. فبعضهم ببساطة «استكبروا عند التوظيف، ولم يكن من قبيل الممكن إقناعهم بخدمة الشخصيات البارزة إلا بثلاثة أضعاف الأجر المعتاد»[2]. ولم يحمل هذا الكلام أدنى مبالغة؛ إذ تُظهر البيانات التجريبية أن الأجور في الحضر ارتفعت ارتفاعًا حادًّا في العقود التي تلت الموت الأسود[3].

وتزامن تمكين الفلاحين، والعمال، والنساء مع الوهن الذي بدا على الطبقات المالكة، حيث أُجبر الملاك على قبول إيجارات أقل لممتلكاتهم، فقنعوا بالحصول على بعض الإيرادات الضئيلة، وكان ذلك أولى لهم من الخروج صفر اليدين. وكان للإيجارات المنخفضة، والالتزامات الأقل، وآماد

---

(1) Petrarch, *Epistolae*, in Horrox, *Black Death*, p. 248.

(2) *Historia Roffensis*, in Horrox, *Black Death*, p. 70.

(3) S. Pamuk, 'Urban Real Wages around the Eastern Mediterranean in Comparative Perspective, 1100–2000', *Research in Economic History* 12 (2005), 213–32.

الإيجارات الطويلة تأثير في ميل القوة، والفوائد، إلى جانب الفلاحين والمستأجرين في المناطق الحضرية. وقد تكلل هذا الميل بالانخفاض في أسعار الفائدة، حيث شهدت أسعارها انخفاضًا ملحوظًا في جميع أرجاء أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[١].

وجاءت نتائج هذا الميل رائعة. فمع توزيع الثروة بالتساوي في المجتمع، ارتفع الطلب على السلع الكمالية -سواء كانت مستوردة أو محلية- نتيجة زيادة أعداد المستهلكين الذين أصبحوا قادرين على شراء سلع كانت تعد في الماضي باهظة الثمن[٢]. وتأثرت أنماط الإنفاق بالتغيرات الديموجرافية الأخرى التي أحدثها الطاعون، ولا سيما التحول لصالح العاملين من الصبية، الذين كانوا في وضع أفضل للاستفادة من الفرص الجديدة التي أتيحت أمامهم. فقد باتوا مُعرضين عن الادخار بسبب قرب عهدهم بالنجاة من الموت المحقق. وحصل الجيل الجديد -والجيل الذي تلاه أيضًا- على أجور أفضل مقارنة بالأجور التي كان آباؤهم يحصلون عليها، فضلًا عن آفاق أفضل للمستقبل؛ فأنفقوا أموالهم على شراء الأشياء التي أبدوا ولعًا بها، ولا سيما أحدث صيحات الملابس[٣]. وقد حفز هذا بدوره الاستثمار في صناعة النسيج الأوروبية، وسرعان ما تطورت صناعة النسيج في أوروبا، ونشطت في إنتاج أقمشة بأحجام استجابة للطلب المتزايد في السوق؛ حتى إن تأثير هذا الإنتاج الكثيف طال التجارة في الإسكندرية، حيث انخفضت واردات أوروبا انخفاضًا حادًّا. وعلى هذا النحو بدأت أوروبا في التصدير في الاتجاه المعاكس أيضًا، الأمر الذي أدى إلى إغراق السوق في الشرق الأوسط، وتسبب في انكماش مؤلم هناك، في تناقض تام مع الاقتصاد النشط في الغرب[٤].

وأدى ارتفاع الثروة إلى نظام غذائي أفضل، وإلى صحة عامة أفضل، كما أظهرت البحوث الحديثة التي أجريت على بقايا الهياكل العظمية في المقابر في لندن. والحق أن الإحصاءات المستندة إلى هذه النتائج تشير إلى أن أحد تأثيرات الطاعون كان تحسنًا كبيرًا في متوسط العمر المتوقع. وكان سكان

---

(1) S. Pamuk, 'The Black Death and the Origins of the "Great Divergence" across Europe, 1300–1600' *European Review of Economic History* 11 (2007), 308–9; S. Epstein, *Freedom and Growth: The Rise of States and Markets in Europe, 1300–1750* (London, 2000), pp. 19–26.

وانظر أيضًا:

M. Bailey, 'Demographic Decline in Late Medieval England: Some Thoughts on Recent Research', *Economic History Review* 49 (1996), 1–19.

(2) H. Miskimin, *The Economy of Early Renaissance Europe, 1300–1460* (Cambridge, 1975); D. Herlihy, *The Black Death and the Transformation of the West* (Cambridge, 1997).

(3) D. Herlihy, 'The Generation in Medieval History', *Viator* 5 (1974), 347–64.

(٤) عن الانكماش الاقتصادي في مصر والشام، انظر:

A. Sabra, *Poverty and Charity in Medieval Islam: Mamluk Egypt 1250–1517* (Cambridge, 2000).

لندن بعد الطاعون أكثر صحة بكثير مما كانوا عليه قبل وقوع الموت الأسود، الأمر الذي أدى إلى حدوث طفرة في ارتفاع متوسط العمر المتوقع[١].

ولم تحدث التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالتساوي في جميع أنحاء أوروبا. بل حدث التغيير بوتيرة أكثر سرعة في الشمال والشمال الغربي من القارة، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن تلك البقاع كانت في وضع اقتصادي أكثر بدائية قياسًا بالجنوب الذي كان أكثر تطورًا. وهذا يعني أن مصالح المالك والمستأجر كانت أكثر تماسكًا، ومن ثم كان من المرجح أن ينتهي الأمر بينهما إلى التعاون والتوصل إلى الحلول التي تحقق مصالح كلا الطرفين[٢]. ومع ذلك، فإن من الأهمية بمكان أيضًا أن نشير إلى أن المدن في الشمال لم تحمل الأمتعة الأيديولوجية والسياسية نفسها التي حملها عدد كبير من المدن المطلة على البحر المتوسط. فقد نتج عن قرون من التجارة الإقليمية وطويلة الأجل مؤسسات مثل النقابات التي سيطرت على المنافسة في الجنوب، بحيث صُممت تلك النقابات لتوريث المناصب دُولةً بين مجموعات بعينها من الناس. أما في الشمال، فكان الأمر على النقيض من ذلك، لقد ازدهر الشمال تحديدًا لأن المنافسة فيه لم تكن مقيدة؛ الأمر الذي تسبب في حدوث توسع حضري ونمو اقتصادي بمعدلات فاقت نظيرتها في الجنوب على نحو ملحوظ[٣].

وظهرت ملامح سلوكية مختلفة عبر أجزاء مختلفة من أوروبا. فإما أن النساء في إيطاليا -على سبيل المثال- لم يُغرَين باقتحام سوق العمل، أو كن أقل قدرة على اقتحام أسواق العمل، فظللن على عاداتهن في الزواج في العمر نفسه، وإنجاب عدد كبير من الأطفال -كما جرت بذلك عاداتهن- قبل اندلاع الطاعون. ويتناقض هذا تناقضًا حادًّا مع الوضع الذي ساد في بلدان الشمال؛ حيث أتاح الانكماش الديموجرافي الفرصة للنساء ليصبحن عاملات بأجور. وكان أحد آثار ذلك هو رفع متوسط السن الذي تميل فيه المرأة إلى الزواج، والذي كان له -بدوره- آثار طويلة المدى على حجم الأسرة. ونصحت آنا بيجنز (Anna Bijns) في قصيدة كتبتها في الأراضي المنخفضة قريناتها من النساء قائلة: «لا تتسرعي في الزواج مبكرًا»؛ ذاك أن «المرأة التي تكسب أجرة مسكنها، وتستطيع دفع ثمن ملابسها،

---

(1) S. DeWitte. 'Mortality Risk and Survival in the Aftermath of the Medieval Black Death', *Plos One* 9.5 (2014), 1-8.

عن تحسن نوعية الطعام، انظر:

T. Stone, 'The Consumption of Field Crops in Late Medieval England', in C. Woolgar, D. Serjeantson and T. Waldron (eds). *Food in Medieval England: Diet and Nutrition* (Oxford, 2006), pp. 11–26.

(2) Epstein, *Freedom and Growth*, pp. 49–68; van Bavel, 'People and Land: Rural Population Developments and Property Structures in the Low Countries, *c.* 1300–c. 1600', *Continuity and Change* 17 (2002), 9–37.

(3) Pamuk, 'Urban Real Wages', 310–11.

لا ينبغي لها أن تندفع، لتُعاني استبداد رجل... ومع أنني لا أنكر فضيلة الإحصان في حد ذاتها، فإن التحرر من نير الرجال هو الخيار الأفضل. كم هي سعيدة تلك المرأة التي لا بعل لها!»[١].

وأرست تلك التحولات التي أحدثها الموت الأسود الأسس التي أثبتت أنها حاسمة في قصة صعود شمال غرب أوروبا على المدى الطويل. وعلى الرغم من أن التأثيرات الناجمة عن الاختلاف بين أجزاء من أوروبا استغرقت وقتًا للتطور، فإن المرونة في النظام، والانفتاح على المنافسة، وربما الأهم من ذلك كله، الشعور بالوعي في الشمال بأن الجغرافيا لم تكن متعاطفة معهم، وأن روح العمل القوية كانت شرط جني الأرباح، كل ذلك وضع الأساس لتحول للاقتصادات الأوروبية في أوائل العصر الحديث. وكما تكاد تجمع البحوث الحديثة، فإن جذور الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر تكمن في الثورة الدؤوبة لعالم ما بعد الطاعون؛ فمع ارتفاع الإنتاج، ارتفع سقف التطلعات، وزادت مستويات الثروة إلى جانب زيادة مجالات إنفاقها[٢].

لمَّا دُفِنت الجثث أخيرًا، وتلاشى الموت الأسود ليصبح ذكرى مروعة -يجري إحياؤها -من آن إلى آخر من خلال الجوائح الثانوية الدورية- خضع جنوب أوروبا للتغيير أيضًا. وحاول أهل جنوة في العقد الثامن من القرن الرابع عشر الميلادي، الاستفادة من التأثير الرهيب الذي أحدثه الطاعون على البندقية؛ حيث كانت المعاناة هناك شديدةً خاصةً، وحاولوا انتزاع السيطرة على البحر الأدرياتيكي. وجاءت هذه المقامرة بنتائج عكسية رهيبة: فقد ألفَت جنوة نفسها، عاجزة عن توجيه ضربة حاسمة لخصمها، وألفت نفسها مرهقة، وواهنة. وجرى استهداف الأطراف التي أضافتها الدويلة المدينة على مدى أجيال لربط نفسها بالشرق الأوسط والبحر الأسود وشمال إفريقيا على نحو انتقائي، واحدة تلو الأخرى. وكانت خسائر جنوة غنائم للبندقية.

وبعد أن تحررت البندقية من عدوتها اللدودة، نهضت مجددًا، حيث عادت الحياة إلى طبيعتها، وأخذت تمارس احتكارًا لتجارة التوابل أشبه شيء بالرذيلة. واستوردت الفلفل، والزنجبيل، وجوز الطيب، والقرنفل بكميات متزايدة، ولا سيما عن طريق الإسكندرية. وكانت سفن البنادقة تجلب أكثر من ٤٠٠ طن من الفلفل سنويًا من مصر في المتوسط، إضافة إلى شحن كميات كبيرة من بلاد الشام.

---

(1) Anna Bijns, 'Unyoked is Best! Happy the Woman without a Man', in K. Wilson, *Women Writers of the Renaissance and Reformation* (Athens, 1987), p. 382.

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

T. de Moor and J. Luiten van Zanden, 'Girl Power: The European Marriage Pattern and Labour Markets in the North Sea Region in the Late Medieval and Early Modern Period', *Economic History Review* (2009), 1–33.

(2) J. de Vries, 'The Industrial Revolution and the Industrious Revolution', *Journal of Economic History* 54.2 (1994), 249–70; J. Luiten van Zanden, 'The "Revolt of the Early Modernists" and the "First Modern Economy": An Assessment', *Economic History Review* 55 (2002), 619–41.

وبحلول أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، كان ما يقرب من ٥ ملايين رطل من التوابل تمر عبر البندقية كل عام ليجري بيعها بأرباح كبيرة في بقاع أخرى سواها في أوروبا؛ حيث استُخدمت في صناعة الأغذية، والأدوية، ومستحضرات التجميل[١].

ويبدو أيضًا أن البندقية كانت البوابة الرئيسة للأصباغ، التي كانت تستخدم في رسم اللوحات. وغالبًا ما كان يشار إلى تلك الأصباغ باسم (Oltremare de venecia) أي «سلع البندقية المستوردة»، وتضمنت الزنجفر (verdigris) (وهي كلمة تعني حرفيًا، الأخضر من اليونان)، والقرمزي، والحلبة، وقصدير الرصاص الأصفر، والأسود العظمي، وبديل الذهب المعروف باسم (Purpurinus)، أو فسيفساء الذهب. وكان اللون الأكثر شهرة وتميزًا هو اللون الأزرق الغني الذي جاء من اللازورد، المستخرج من آسيا الوسطى. ويعود الفضل في العصر الذهبي للفن الأوروبي - لـ فرا أنجيليكو (Fra Angelico)، وبييرو ديلا فرانشيسكا (Piero della Francesca) في القرن الخامس عشر الميلادي، ثم لفنانين أُخر، مثل: مايكل أنجلو (Michelangelo)، وليوناردو دافنشي (Leonardo da Vinci)، ورافاييل (Raphael)، وتيتيان (Titian)، وإلى قدراتهم على استخدام الألوان المستمدة من الأصباغ التي شكلت جزءًا من عوائد الاتصالات الممتدة مع آسيا من جهة، وارتفاع مستويات الثروة المتاحة لدفع ثمن هذه السلع من جهة أخرى[٢].

وكانت البعثات التجارية إلى الشرق مربحة للغاية؛ حتى إن الجمهورية باعتها بالمزاد العلني مقدمًا، الأمر الذي ضمن لها الدفع المسبق، مع تحميل مخاطر السوق، والنقل، والمخاطر السياسية على كاهل مقدم العطاء الفائز بالمزاد. وكما ذكر أحد سكان البندقية مباهيًا، انطلقت القوادس من المدينة في جميع الاتجاهات، إلى ساحل إفريقيا، وبيروت، والإسكندرية، والأراضي اليونانية، وجنوب فرنسا، وفلاندرز. وتدفقت هذه الثروة على المدينة ذات القصور (*Palazzi*) التي ارتفعت قيمتها، ولا سيما في أفضل المواقع بالقرب من كاتدرائية ريالتو (Rialto)، وكاتدرائية سان مارك (St Mark). ومع ندرة الأرض وارتفاع ثمنها، استحدثت تقنيات جديدة في تشييد المباني، مثل استبدال سلالم الفناء المزدوجة المذهلة، والباذخة، بسلالم أصغر تطلبت استخدام مساحة أقل. ومع ذلك، فقد قال أحد سكان البندقية الفخورين: حتى منازل التجار العادية كانت مفروشة ببذخ، ذات أسقف مذهبة، وسلالم من الرخام، وشرفات، ونوافذ صُنعت من أجود أنواع الزجاج المجلوب من مورانو (Murano) القريبة.

---

(1) E. Ashtor, 'The Volume of Mediaeval Spice Trade', *Journal of European Economic History* 9 (1980), 753–7; idem, 'Profits from Trade with the Levant in the Fifteenth Century', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 38 (1975), 256–87; Freedman, 'Spices and Late Medieval European Ideas', 1212–15.

(٢) عن واردات البندقية من الأصباغ، انظر:

L. Matthew, '"Vendecolori a Venezia": The Reconstruction of a Profession', *Burlington Magazine* 114.1196 (2002), 680-6.

لقد كانت البندقية نقطة التوزيع للتجارة الأوروبية والإفريقية والآسيوية بامتياز. وامتلكت الزخرف لإظهار النعمة[1].

ولم تكن البندقية نسيج وحدها في الازدهار؛ فكذلك كانت المدن المنتشرة على طول الساحل الدلماسي والتي كانت بمثابة محطات في الرحلات المغادرة والداخلية. فقد شهدت راجوزا (Ragusa)، ودوبروڤنيك (Dubrovnik) الحديثة، مستويات استثنائية من الازدهار في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. وتضاعفت الثروة المتاحة للإنفاق أربع مرات بين عامي ١٣٠٠-١٤٥٠م، حتى إنه وُضِع سقف للمهور لكبح جماحها بعد أن ارتفعت ارتفاعًا جنونيًّا؛ وغرقت المدينة في السيولة النقدية حتى اتخذت خطوات جزئية لإلغاء الرّق. فلما ساد الرخاء، بدا للبنادقة أنه من الخطأ اعتقال إخوانهم من البشر، وحرمانهم من أجورهم[2]. وانهمكت راجوزا -مثلها في ذلك مثل البندقية- في بناء شبكة تجارية لنفسها، وطورت اتصالات مكثفة مع إسبانيا، وإيطاليا، وبلغاريا، بل والهند أيضًا؛ حيث أُنشِئت مستعمرة في جوا (Goa)، ارتكزت حول كنيسة القديس بليز (St Blaise)، وكان شفيع راجوزا[3].

* * *

شهدت مناطق كثيرة في آسيا طفرة مماثلة سواءً من حيث النمو أو الطموح؛ فقد ازدهرت الأعمال التجارية في جنوب الهند لما تداخلت مع التجارة مع الصين، والتجارة مع الخليج العربي وما وراءه. ونشأت النقابات ضمانًا للأمن، وكذلك ضمانًا للجودة، ولإنشاء نظام للاحتكار من شأنه إعاقة نمو المنافسة محليًّا أيضًا. وركزت هذه النقابات المال والنفوذ في أيدي مجموعة كانت تختار نفسها بنفسها، حيث استطاعت الحفاظ على وضعها المهيمن على ساحل المالابار (Malabar)، وفي سريلانكا[4]. وفي ظل هذا النظام، جرى إضفاء الطابع الرسمي على العلاقات التجارية لضمان إجراء المعاملات بكفاءة وعدالة. ووفقًا لرواية دونها الرحالة الصيني «ما هوان» (Ma Huan) في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، كان الوسيط التجاري (السمسار) هو الذي يحدد الأسعار بين البائع

---

(1) Marin Sanudo, 'Laus Urbis Venetae', in A. Aricò (ed.), *La città di Venetia (De origine, situ et magistratibus Urbis Venetae) 1493–1530* (Milan, 1980), pp. 21–3;

عن التغيرات التي طرأت على التصميم الداخلي في هذه الحقبة، انظر:

R. Good, 'Double Staircases and the Vertical Distribution of Housing in Venice 1450–1600', *Architectural Research Quarterly* 39.1 (2009), 73–86.

(2) B. Krekic, 'L'Abolition de l'esclavage à Dubrovnik (Raguse) au XVe siècle: mythe ou réalité?', *Byzantinische Forschungen* 12 (1987), 309–17.

(3) S. Mosher Stuard, 'Dowry Increase and Increment in Wealth in Medieval Ragusa (Dubrovnik)', *Journal of Economic History* 41.4 (1981), 795–811.

(4) M. Abraham, *Two Medieval Merchant Guilds of South India* (New Delhi, 1988).

والمشتري. واحتُسبت جميع الضرائب والرسوم، وكان يتعين دفعها مقدمًا قبل الإفراج عن البضائع وشحنها، وأدى هذا إلى ازدهار التجارة على المدى الطويل. واستطرد ما هوان قائلًا إن: «الناس هناك صادقون كل الصدق، وأهل للثقة»[1].

بيد أن هذه كانت النظرية على أية حال؛ فالحق أن المدن الواقعة على الساحل الجنوبي للهند لم تعمل في فراغ، بل نافس بعضها بعضًا منافسةً شرسةً. فظهرت كوشين (Cochin) بوصفها منافسًا لكاليكوت (Calicut) في القرن الخامس عشر الميلادي بعد أن نجح النظام الضريبي التنافسي الذي استحدثته في جذب التجار إليها بقوة. وأصبحت كوشين جزءًا من دائرة فاضلة، كما بدت في أعين الصينيين. وقاد الأدميرال الكبير «تشنغ هي» (Zheng He) -وكان خصيًّا مسلمًا- سلسلة من الحملات الكبرى لإظهار القوة البحرية للصين، وتأكيد نفوذها والوصول إلى طرق التجارة البعيدة في عمق المحيط الهندي، والخليج العربي، والبحر الأحمر، وأولى الأدميرال عناية خاصة لتوطيد علاقات بلاده مع حاكم كوشين[2].

وكانت هذه المهمات جزءًا من مجموعة طموحة من التدابير التي اتخذتها أسرة مينغ (Ming) التي حلت محل حكام مغول يوان في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. كما أُنفقت الأموال الطائلة على بكين، لإنشاء بنية تحتية لإمداد المدينة والدفاع عنها. وخُصّصت موارد كبيرة لمحاولة تأمين حدود السهوب في الشمال، والتنافس مع كوريا التي عادت للظهور في منشوريا، بينما أُرسي الوجود العسكري في الجنوب، ونتيجة لذلك بدأت بعثات الجزية المنتظمة تصل من كمبوديا وسيام، جالبة معها المنتجات المحلية، والمواد الفاخرة بكميات كبيرة مقابل الوعد بالسلام. وأرسلت مملكة سيام في ١٣٨٧م -على سبيل المثال- ١٥ ألف رطل من الفلفل وخشب الصندل، ثم بعد ذلك بعامين أرسلت عشرة أضعاف تلك الكمية من الفلفل، وخشب الصندل، والبخور[3].

بيد أن توسيع الآفاق على هذا النحو كان مُكلفًا. فقد اشتملت أول حملة لـ تشنغ هي على نحو ٦٠ سفينة كبيرة، وعدة مئات من السفن الصغيرة، وما يقرب من ثلاثين ألف بحار، الأمر الذي مثل نفقات كبيرة للغاية من حيث الأجور، والمعدات، والهدايا الكثيرة التي حملها الأدميرال لاستخدامها بوصفها أدوات دبلوماسية. ولم يجر الدفع مقابل هذه المبادرات وغيرها من خلال الارتفاع الحاد في إنتاج

---

(1) Ma Huan, *Ying-yai sheng-lan*, tr. J. Mills, *The Overall Survey of the Ocean's Shores* (Cambridge, 1970), p. 140.

(2) T. Sen, 'The Formation of Chinese Maritime Networks to Southern Asia, 1200–1450', *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, 49.4 (2006), 427, 439–40; H. Ray, *Trade and Trade Routes between India and China, c. 140 BC–AD 1500* (Kolkata, 2003), pp. 177–205.

(3) H. Tsai, *The Eunuchs in the Ming Dynasty* (New York, 1996), p. 148; T. Ju-kang, 'Cheng Ho's Voyages and the Distribution of Pepper in China', *Journal of the Royal Asiatic Society* 2 (1981), 186–97.

النقود الورقية فحسب، بل من خلال زيادة حصص النقود المعدنية أيضًا، الأمر الذي أدى إلى مضاعفة الإيـرادات مـن هـذا القطـاع ثلاث مرات خـلال عقد ونيف مـن الزمن بعـد عـام ١٣٩٠م(١). ونتج عن التحسينات في الاقتصاد الزراعي وتحصيل الضرائب ارتفاع حاد في عائدات الحكومة المركزية أيضًا، وحفز ما وصفه أحد المعلقين المعاصرين بأنه «إنشاء اقتصاد موجه»(٢).

وسـاعدت التطورات في آسـيا الوسطى على ارتفاع ثروات الصين، حيث ارتقى أحد أمراء الحرب -وكان مـن أصـول غامضـة- ليصبح الشـخصية الأكثر شـهرة في أواخـر القرون الوسـطى؛ لقد احتفى الأدبـاء الإنجليـز بإنجـازات تيمـور -أو تيمور لنـك (Tamurlaine)- في المسـرحيات التـي كُتبت في إنجلترا، وشكل عدوانه الوحشي جزءًا من الوعي الهندي الحديث. وأنشأ تيمور إمبراطورية عظيمة عبر أراضي المغول الممتدة من آسـيا الصغرى إلى جبال الهيمالايا في العقد السـابع من القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري وما تلاه، وشـرع في برنامج طموح لإنشـاء المسـاجد، والقصور الملكية في مختلف أرجاء مملكته، في مدن مثل: سـمرقند، وهرات، ومشـهد. وأمر بجمع النجارين والرسـامين، والنساجين، والخياطين، وقاطعي الأحجار الكريمة، أو باختصار: «الحرفيين من أي مهنة كانت» -وفقًا لأحد الكتّاب المعاصرين- عندما دخل تلك المدن واستباحها. كما أمر أيضًا بترحيل هؤلاء الحرفيين للعمل على تزيين مدن المشـرق. ورسـم تقرير لمبعوث ملك إسـبانيا إلى البلاط التيموري، صورة حية لحجم البناء، ومستوى الزخرفة في هذه المباني الجديدة. ففي قصر آق سـراي، بالقرب من سـمرقند، كانـت البوابـة «مزينة بلوحات رائعـة للغاية من البلاط الذهبـي والأزرق»، بينما كانت غرفة الاسـتقبال الرئيسـة «مبلطـة بالبلاط الذهبي والأزرق، والسـقف بأكمله من الذهب»؛ حتـى إن أفضل الحرفيين في باريس لم يكن يسـعهم محاكاة مثل هذه الصنعة الرائعة(٣). ولـم يكن هذا شـيئًا مقارنة بسـمرقند نفسـها، وببلاط تيمور، الذي زُيّن بأشـجار ذهبية «ذات جذوع سميكة، الواحدة منها مثل ساق الرجل». ومن بين الأوراق الذهبيـة، كانـت هناك «ثمار» تبين عنـد فحصها عن كثب أنها من الياقوت، والزمرد، والفيروز، والياقوت، إلى جانب لآلئ كبيرة كاملة الاستدارة(٤).

كان تيمور ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، فأسرف في إنفاق الأموال التي انتزعها من الشعوب التي قهرها. وجلب نوعًا من الحرير الصيني كان «الأفضل في العالم كله»، إضافة إلى المسـك، والياقوت، والماس، والراوند، والتوابل الأخرى كافةً. وجلبت قوافل مكونة من ٨٠٠ بعير البضائع إلى سـمرقند.

---

(1) W. Atwell, 'Time, Money and the Weather: Ming China and the "Great Depression" of the Mid Fifteenth Century', *Journal of Asia Studies* 61.1 (2002), 86.

(2) T. Brook, *The Troubled Empire: China in the Yuan and Ming Dynasties* (Cambridge, MA, 2010), pp. 107–9.

(3) Ruy González de Clavijo, *Embajada a Tamorlán*, tr. G. Le Strange, *Embassy to Tamerlane 1403–1406* (London, 1928), 11, pp. 208–9.

(4) Ibid., 14, p. 270.

وعلى هذا النحو كان حظ أهل الصين حسنًا مع تيمور، على النقيض من بعض التعساء، مثل أهل دلهي، الذين أعدم تيمور مئة ألف منهم عندما سقطت المدينة في يده[1].

ومع ذلك، يبدو أن الدور كان على وشك أن يحل على أهل الصين في المعاناة على يد تيمور. فوفقًا لإحدى الروايات، أنفق تيمور وقتًا في التفكير في حياته الماضية، وخلص إلى أنه بحاجة إلى التكفير عن «خطاياه، مثل النهب، والسبي، والذبح». ثم ما لبث أن قرر أن أفضل طريق للتكفير عن تلك الخطايا هو «الجهاد ضد الكفار؛ فالحسنات يُذهبن السيئات»، ومن ثم فإن جهاده قد يشفع له عند الله، ويكفر عنه تلك الخطايا والجرائم التي ارتكبها. ثم علق تيمور علاقته ببلاط مينغ (Ming)، وكان في طريقه للهجوم على الصين عندما توفي فجأة عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م[2].

وسرعان ما اندلعت الفتن والثورات في الولايات الفارسية؛ حيث تصارع ورثة تيمور للسيطرة على إمبراطوريته. وزادت الأزمة المالية العالمية التي أثرت على أوروبا وآسيا -في القرن الخامس عشر الميلادي- الطين بلة. ونتجت الأزمة عن سلسلة من العوامل التي تردد صداها بعد ستة قرون من الإفراط في إشباع الأسواق، وانخفاض قيمة العملة، واختلال توازن المدفوعات. ولم يعد الطلب يرقى لمستوى العرض، حتى في ظل نمو الطلب على الحرير والمنتجات الفاخرة الأخرى. ولم يكن سبب تلك الأزمة أن الشهية باتت متشبعة، أو أن الأذواق تغيرت، بل كان السبب هو آلية التبادل: فلم يبق في جيب أوروبا -خاصةً- الكثير لتقدمه مقابل الأقمشة، والخزف، والتوابل التي كانت تحظى بتقدير أهلها الكبير. وكانت هناك عواقب قابلة للتنبؤ بها في ظل إنتاج الصين كميات أكثر مما تستطيع تسويقه في الخارج، عندما عجزت أوروبا عن الاستمرار في شراء البضائع منها. وكثيرًا ما توصف هذه الأزمة بأنها «مجاعة السبائك Bullion famine»[3]. أما اليوم، فبوسعنا أن نسميها «الضائقة الائتمانية» (Credit crunch).

---

(1) Ibid., pp. 291-2.

عن انتشار مذهب التيموريين في الفن والعمارة، انظر:

T. Lentz and G. Lowry, *Timur and the Princely Vision: Persian Art and Culture in the Fifteenth Century* (Los Angeles, 1989), pp. 159-232.

(٢) خواندمير، حبيب السير، المجلد الثالث، الترجمة الإنجليزية:

ed. and tr. W. Thackston, *The Reign of the Mongol and the Turk*, 2 vols (Cambridge, MA, 1994), 1, p. 294; D. Roxburgh, 'The "Journal" of Ghiyath al-Din Naqqash, Timurid Envoy to Khan Balïgh, and Chinese Art and Architecture', in L. Saurma-Jeltsch and A. Eisenbeiss (eds), *The Power of Things and the Flow of Cultural Transformations: Art and Culture between Europe and Asia* (Berlin, 2010), p. 90.

(3) R. Lopez, H. Miskimin and A. Udovitch, 'England to Egypt, 1350-1500: Long-Term Trends and Long-Distance Trade', in M. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day* (London, 1970), pp. 93-128. J. Day, 'The Great Bullion Famine', *Past & Present* 79 (1978), 3-54. J. Munro, 'Bullion Flows and Monetary Contraction in Late-Medieval England and the Low Countries', in J. Richards (ed.), *Precious Metals in the Later Medieval and Early Modern Worlds* (Durham, NC, 1983), pp. 97-158.

ولـم يكـن المسـؤولون الحكوميون في الصين يتلقـون رواتب جيدة، الأمر الـذي أدى إلى حدوث فضائـح فسـاد على نحـو منتظم، وأوجه قصور على نطاق واسـع. وكانت الأمور تزداد سـوءًا؛ إذ جرى تقييم الضرائب على نحو صحيح وعادل، فلم تتمكن عوائد تلك الضرائب من مواكبة البذخ الحكومي في الإنفاق، حيث كانت الحكومة حريصة على الإنفاق على المخططات الضخمة، واضعة في اعتبارها أن الإيـرادات سـترتفع فحسـب، بيد أن الإيرادات لـم تفعل. وبحلول العقد الثالـث من القرن الخامس عشـر الميـلادي، كانت بعض أغنى أجزاء الصين تناضـل من أجل الوفاء بالتزاماتها[١]. وكان لا بد لهذه الفقاعـة[٢] أن تنفجـر يومًا، وفي الربع الأول من القرن الخامس عشـر الميـلادي، انفجرت تلك الفقاعة بالفعـل. وتسـابق أباطرة مينـغ لخفض التكاليف، ووجـدوا أن الوقت قد حان لإدخال تحسـينات على بكين، وعلقوا الحملات البحرية باهظة الكلفة، والمشروعات المكلفة مثل مخطط القناة الكبرى الذي استخدم عشرات الآلاف، إن لم يكن مئات الآلاف من العمال في أوج عمليات حفرها. وأنشؤوا شبكة مياه لربط العاصمة بـ هانجتشـو (Hangzhou)[٣]. أما في أوروبا –حيث البيانات أكثر وفرة- فقد بُذلت جهود مدروسة للتعامل مع الانكماش الاقتصادي من خلال خفض قيمة العملة، وذلك على الرغم من أن العلاقة بين نقص المعادن الثمينة، والادخار، والسياسة المالية علاقة معقدة[٤].

بيد أنه بات من الواضح أن الإمدادات المالية العالمية نقصت من كوريا إلى اليابان، ومن ڤيتنام إلى جـاوة، ومـن الهند إلـى الدولة العثمانية، ومن شـمال إفريقيا إلـى أوروبا القارية. وبادر التجار في شـبه جزيـرة الملايـو وسـكُّوا عملـة خـام جديـدة مـن القصدير، حيـث كان هنـاك ما يكفـي منه في السـوق المحليـة[٥]. بيـد أن المعـادن الثمينـة هي التي وفرت عملة مشـتركة ربطـت جانبًا مـن العالم المعروف بالآخر ببسـاطة، وإن لم يكن دائمًا من خلال وحدة قياسـية، أو وزن موحد، أو السُّـمك نفسه؛ لقد انهار هذا النظام المالي وأخفق في أداء هذا الدور، ولم يعد هناك ما يكفي من المال للتداول[٦].

* * *

(1) R. Huang, *Taxation and Governmental Finance in Sixteenth-Century Ming China* (Cambridge, 1974), pp. 48–51.

(٢) الفقاعـة الاقتصاديـة (bubble Economy) تسـمية مجازيـة لحالـة انكماش حاد يسـبقها توسُّـع سـريع في السـوق، وتتسبب فيه المضاربة على سـلعة بعينها؛ حيث يرتفع سـعرها إلى مستويات غير مسبوقة، ثم ما تلبث أن ينخفض سعرها على نحو حاد مع استمرار أعمال المضاربة، على نحو يشبه انفجار الفقاعة. (المترجم)

(3) T. Brook, *The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China* (Berkeley, 1998).

(4) N. Sussman, 'Debasements, Royal Revenues and Inflation in France during the Hundred Years War, 1415–1422', *Journal of Economic History* 53.1 (1993), 44–70; idem, 'The Late Medieval Bullion Famine Reconsidered', *Journal of Economic History* 58.1 (1998), 126–54.

(٥) سك المماليك –آنذاك- العملة من النحاس، وعُرفت بـ «الفلوس». (المترجم)

(6) R. Wicks, 'Monetary Developments in Java between the Ninth and Sixteenth Centuries: A Numismatic Perspective', *Indonesia* 42 (1986), 59–65; J. Whitmore, 'Vietnam and the Monetary Flow of Eastern Asia, Thirteenth to Eighteenth Centuries', in Richards, *Precious Metal*, pp. 363–93; J. Deyell, 'The =

قد تكون هذه الصعوبات قد تفاقمت بسبب حقبة شهدت تغيرًا مناخيًا؛ إذ تروي المجاعات وفترات الجفاف الاستثنائية -فضلًا عن حالات الفيضانات المدمرة في الصين- رواية قوية عن تأثير العوامل البيئية على النمو الاقتصادي. وتشير الدلائل المستمدة من طفرات الكبريتات في عينات الجليد من نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي إلى أن القرن الخامس عشر الميلادي شهد حقبة من النشاط البركاني على نطاق واسع. وأدى هذا إلى برودة عالمية، مع آثار غير مباشرة عمت جميع أنحاء عالم السهوب، حيث أدت المنافسة الشديدة على إمدادات الغذاء والمياه إلى فترة من الاضطراب، ولا سيما في العقد الخامس من القرن الخامس عشر الميلادي. وإجمالًا، كانت قصة هذه الفترة قصة ركود، وأوقات عصيبة، وصراع عنيف من أجل البقاء[1].

وجرى الشعور بالآثار والتشعبات من البحر المتوسط إلى المحيط الهادئ، الأمر الذي أدى إلى إحساس متزايد بالانزعاج بشأن ما كان يحدث في العالم. وعلى الرغم من أن صعود إمبراطورية تيمور لم يثر مخاوف واسعة النطاق في أوروبا، إلا أن صعود العثمانيين جعل عددًا كبيرًا يشعرون بالقلق على نحو متزايد بكل تأكيد. فقد حشد العثمانيون صفوفهم عبر مضيق البوسفور في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وألحقوا الهزائم النكراء بالبيزنطيين، والبلغار، والصرب، ورسخوا أقدامهم في تراقيا والبلقان. وترنحت القسطنطينية في مهب الريح، فكانت بمثابة جزيرة نصرانية قد أحاط بها بحر لُجي من المسلمين. ولم تجد مناشدات البيزنطيين العاطفية التي استجدت الدعم العسكري من البلاطات الملكية في أوروبا نفعًا، ومن ثم فقد أحدق الخطر الداهم بالمدينة، وتُركت وحدها دون مغيث. وأخيرًا سقطت العاصمة الإمبراطورية في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، وكان الاستيلاء على واحدة من أعظم مدن العالم النصراني انتصارًا مؤزرًا للإسلام الذي أخذ ينتعش مجددًا. وفي روما، انتشرت الروايات عن رجال أخذوا يبكون، ويضربون صدورهم بأيديهم لما وردتهم أنباء سقوط القسطنطينية، وعن الصلوات التي صلاها البابا لأولئك المحاصرين في المدينة. بيد أن أوروبا لم تفعل شيئًا على الإطلاق لمَّا كان الخطب جللًا؛ أما وقد سقطت المدينة بالفعل، فقد سبق السيف العزل.

لقد كان مصير القسطنطينية باعثًا على القلق الشديد في روسيا، حيث لم ينظر الروس إليه على أنه نذير بعودة المسلمين إلى الظهور مجددًا، بقدر ما كان يمثل نهاية وشيكة للعالم. لقد كانت هناك نبوءات أرثوذكسية قديمة، تفيد بأن المسيح سيأتي على رأس الألفية الثامنة، ثم يجلس للدينونة، ومن ثم بدا لهم أن هذه النبوءات كانت على وشك أن تتحقق. وعلى هذا النحو فقد أُرخي العنان لقوى الشر، فوجهت ضربة مدمرة للعالم النصراني. واقتنع كبار رجال الدين تمام الاقتناع بقرب قيام الساعة؛ حتى إن كاهنًا أُرسل إلى غربي أوروبا ليجمع مزيدًا من المعلومات حول اليوم الذي سيشهد قيام الساعة بالضبط. ورأى بعض الناس أن حساب التواريخ التي تصادف عيد الفصح، فضلًا عن أيام

= China Connection: Problems of Silver Supply in Medieval Bengal', in Richards, *Precious Metal*, pp. 207–27.

(1) Atwell, 'Time, Money and the Weather', 92–6.

الأعياد الأخرى في المستقبل، لم يعد مجديًا؛ ذاك أن نهاية الزمان نفسه قد أوشكت. واستنادًا إلى التقويم البيزنطي المعمول به في روسيا، بدا توقيت قيام الساعة واضحًا تمامًا؛ فتاريخ بدء الخليقة يوافق عام ٥٥٠٨ قبل الميلاد، ومن ثم فإن نهاية العالم ينبغي أن تكون في الأول من سبتمبر (أيلول) من عام ١٤٩٢م[١].

على الجانب الآخر من أوروبا، وُجد هناك غيرهم ممن اقتنعوا بأن هرمجدون (Armageddon) سرعان ما ستقع. ففي إسبانيا، تركز الاهتمام على المسلمين واليهود، في وقت بلغ فيه التعصب الديني والثقافي ذروته. وألفى المسلمون أنفسهم مطرودين من الأندلس بقوة السلاح، أما اليهود فقد صدر أمر لا مهادنة فيه، خيرهم بين ثلاث: إما الدخول في النصرانية، أو ترك إسبانيا، أو القتل. وفي محاولة يائسة منهم لتصفية أملاكهم وأصولهم، باعوا ما تيسر لهم بيعه منها بالبخس، حيث اشترى مستثمرون إسبان كروم العنب مقابل قطع من القماش. وهكذا بيعت العقارات، والمنازل الفاخرة بأبخس الأثمان[٢]. وما زاد الطين بلة هو أنه في غضون عقد من الزمان ارتفعت قيمة هذه الصفقات.

واختار عدد كبير من اليهود التوجه إلى القسطنطينية. ورحب بهم حكام المدينة المسلمون الجدد. وقال بايزيد الثاني في معرض ترحيبه بوصول اليهود إلى المدينة في عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م: «إنكم تدعون فرديناند (Ferdinand) بالملك الحكيم»، على الرغم من أنه «يُفقِر بلاده ليُثري بلادي»[٣]. ولم يكن هذا مجرد سجال من شأنه أن يجعل الكثيرين في يومنا هذا في حيرة من أمرهم، بقدر ما كان استحضارًا لعصر صدر الإسلام، حيث لم يُعامَل اليهود باحترام فحسب، بل كانوا موضع ترحيب أيضًا. ومُنح المستوطنون الجدد الحماية، والحقوق القانونية. بل إنهم -في كثير من الحالات- حصلوا على الدعم لبدء حياة جديدة في بلد غريب. وكان التسامح سمة أساسية لمجتمع بدا واثقًا من نفسه، وواثقًا من هويته؛ وهو ما لم يكن من الممكن قوله في جنب العالم النصراني؛ حيث أضحى التعصب الأعمى، والأصولية الدينية سمات محددة للمجتمعات هناك.

ويعد كريستوفر كولون (Christopher Colon) أحد أبرز الأمثلة على رجل استبد به القلق على مستقبل دينه. فعلى الرغم من أن حساباته الخاصة أنبأته بأنه لا يزال هناك ١٥٥ سنة قبل المجيء الثاني للمسيح، إلا أن كولون كان يشعر في أعماقه بالغضب؛ ذاك أن المؤمنين يقولون ما لا يفعلون في

---

(1) A. Vasil'ev, 'Medieval Ideas of the End of the World: West and East', *Byzantion* 16 (1942–3), 497–9; D. Strémooukhoff, 'Moscow the Third Rome: Sources of the Doctrine', *Speculum* (1953), 89; 'Drevnie russkie paskhalii na os'muiu tysiachu let ot sotvereniia mira', *Pravoslavnyi Sobesednik* 3 (1860), 333–4.

(2) A. Bernáldez, *Memorias de los reyes católicos*, ed. M. Gómez-Moreno and J. Carriazo (Madrid, 1962), p. 254.

(3) I. Aboab, *Nomologia, o Discursos legales compuestos* (Amsterdam, 1629), p. 195; D. Altabé, *Spanish and Portuguese Jewry before and after 1492* (Brooklyn, 1983), p. 45.

معرض الدفاع عن الدين. كما كان يشعر بالذعر من أن أوروبا لم تعد تبدِ قلقًا على مصير القدس خاصةً. ومن ثم انهمك في رسم خطط -بحماسة اقتربت من حد الهوس- لتجهيز حملة جديدة لتحرير المدينة المقدسة، كما طور في الوقت نفسه طرقًا جديدة لجلب المعادن الثمينة، والتوابل، والأحجار الكريمة التي كانت متوفرة بكثرة في آسيا، كما كانت رخيصة الثمن ثمة(1). وخلص إلى أنه إذا كان يسع بني جلدته الوصول إليها على نحو أفضل، فيسعهم أيضًا تمويل حملة كبيرة لتحرير القدس بسهولة تامة(2). وكانت المشكلة أن وجوده في شبه الجزيرة الإيبيرية وضعه في الطرف الخطأ من البحر المتوسط، وجعل فكرته الكبرى مجرد حلم بعيد المنال(3).

ومع ذلك، فربما كان هناك بصيص أمل؛ فقد علَت أصوات بعض المنجمين، ورسامي الخرائط مثل باولو توسكانيلي (Paolo Toscanelli) في فلورنسا، ومن لف لفه قائلين: إنه يمكن الوصول إلى آسيا من خلال الإبحار غربًا من سواحل أوروبا على المحيط الأطلسي. وبعد أن عانى كريستوفر كولون معاناة هائلة لإقناع غيره بالمشاركة في مشروع يجمع بين المجازفة والتهور، بدأ مخططه في التجسد أخيرًا. وكُتِبت رسائل الترحيب للخان العظيم، وحرص على ترك مساحة فارغة يملأها ما أن يتأكد من اسم الخان على نحو دقيق؛ وكان ينبغي أن يدعو الخان ليكون حليفًا في حملة استعادة القدس. وعُيِّن مترجمون فوريون بحيث يمكن لأفراد البعثة التحدث مع الزعيم المغولي وبطانته. كما جرى التعاقد مع متخصصين يعرفون اللغتين: العبرية، والكلدانية -المرتبطتان بالآرامية التي تحدث بها المسيح والحواريون- وكذلك العربية، وهي اللغة التي كان يُعتقد أنها مفيدة للغاية في التعامل مع الخان وبلاطه. وكما أشار أحد الباحثين، فإن تزايد المشاعر المعادية للمسلمين في أوروبا كان يعني أنه مثلما كانت اللغة العربية موضع استياء وحظر بموجب القانون في العالم القديم، فقد عُدَّت أيضًا أفضل وسيلة للتواصل عندما اتصلت أوروبا الغربية بالشرق الأقصى بأَخَرة(4).

وهكذا، أبحرت ثلاث سفن من بالوس دي فرونتيرا (Palos de Frontera) الواقعة جنوبي إسبانيا في ٣ أغسطس ١٤٩٢م؛ أي قبل أقل من شهر من قيام الساعة كما توقع رجال الدين في روسيا. ولمَّا كان يرفع أشرعته وينطلق إلى المجهول، لم يدرك كولون -المعروف لنا باسم كريستوفر كولومبوس

(1) Freedman, 'Spices and Late Medieval European Ideas', 1220–7.

(2) V. Flint, *The Imaginative Landscape of Christopher Columbus* (Princeton, 1992), pp. 47–64.

(3) C. Delaney, 'Columbus's Ultimate Goal: Jerusalem', *Comparative Studies in Society and History* 48 (2006), 260–2.

(4) Ibid., 264–5; M. Menocal, *The Arabic Role in Medieval Literary History: A Forgotten Heritage* (Philadelphia, 1987), p. 12.

وعن نص مقدمة الرسائل، انظر:

S. Morison, *Journals and Other Documents on the Life and Voyages of Christopher Columbus* (New York, 1963), p. 30.

(Christopher Columbus)- أنه كان على وشـك القيام بأمر رائع؛ لقد كان يوشـك على تحويل مركز الثقل في أوروبا من الشرق إلى الغرب.

ولمـا انطلـق أسـطول صغير آخـر تحت قيادة ڤاسـكو دا جامـا (Vasco da Gama) من لشـبونة بعد خمس سنوات في رحلة استكشافية طويلة أخرى -دار فيها حول الطرف الجنوبي لإفريقيا للوصول إلى المحيـط الهنـدي- عبَّد الطريق لتحول أوروبا تحولًا جذريًا. فجأة؛ لم تعد تلك القارة المحطة الأخيرة لسلسلة من طرق الحرير. بل كانت على وشك أن تصبح مركزًا للعالم.

-١١-

طريق الذهب

شدَّما تغير العالم في أواخر القرن الخامس عشر! فلم تقم الساعة، ولم ينته الزمان، ليس فيما يتعلق بأوروبا على الأقل كما كان يخشى كولومبوس ومن لفَّ لفَّه. لقد انطلقت سلسلة من الرحلات الاستكشافية بعيدة المدى من موانى إسبانيا والبرتغال فربطت الأمريكتين بإفريقيا، وأوروبا، وآسيا للمرة الأولى. وفي غضون هذه العملية أُنشِئت طرق تجارية جديدة بالكلية، وأحيانًا جرى توسيع شبكات الطرق القائمة بالفعل، وأحيانًا أخرى استُبدلت الطرق الجديدة بالطرق القديمة. وعلى هذا النحو أخذت الأفكار، والسلع، والأفراد في الحركة إلى نطاق أبعد، وبأعداد أكبر، وفي وقت أسرع من أي وقت مضى في تاريخ البشرية.

ودفع الفجر الجديد أوروبا إلى تبوء مركز الصدارة؛ حيث غمرها ذلك الفجر بضوء ذهبي، وباركها بسلسلة من العصور الذهبية. ومع ذلك، فقد تسبب ظهور أوروبا في حدوث معاناة رهيبة للسَّاكنة في المواقع المكتشفة حديثًا؛ ذاك أنه كان هناك ثمن لا بد أن يُدفَع للكاتدرائيات الرائعة، ونماذج الفن الرفيع، ومستويات المعيشة التي ازدهرت منذ القرن السادس عشر وما تلاه. وقد دفع السكان الذين كانوا يعيشون وراء المحيطات هذا الثمن، وعن آخر فلس. وفي الأخير لم يعد الأوروبيون قادرون على استكشاف العالم فحسب، بل أضحوا قادرين على السيطرة عليه كذلك.

استطاع الأوربيون تحقيق ذلك الإنجاز بفضل التقدم المطرد في التقنية العسكرية، والبحرية التي وفرت لهم ميزة لم يكن يسع السكان -الذين اتصلوا بهم- منافستهم فيها. وجرى بناء عصر الإمبراطورية، وصعود الغرب على أساس القدرة على استخدام القوة، وممارسة العنف على نطاق واسع. وعلى هذا النحو لم يكن التنوير، وعصر العقل، والتقدم نحو الديمقراطية، والحرية المدنية، وحقوق الإنسان، نتيجة لسلسلة وهمية تعود إلى أثينا في العصور القديمة، أو إلى حالة طبيعية في أوروبا؛ بل كان ثمرةً للنجاح السياسي، والعسكري، والاقتصادي الذي تحقق في تلك القارات البعيدة.

لم يخطر هذا التطور على بال أحد عندما أبحر كولومبوس عام ١٤٩٢م قاصدًا المجهول. فإذا اطلعنا على سجلاته -في أيامنا هذه في القرن الحادي والعشرين- فستفوح منها روائح الإثارة، والخوف، والتفاؤل، والقلق. وعلى الرغم من أنه كان متيقنًا من أنه كان يبحث عن الخان العظيم -ومن ثم عن الدور الذي يمكن أن يضطلع به ذلك الخان في عملية تحرير القدس- فإنه كان يعلم أن هناك

احتمال كبير أن تنتهي رحلته بالكارثة والموت. كتب كولمبوس قائلًا: إنه كان متجهًا إلى الشرق، «ليس من خلال الطريق الذي اعتاد الناس اجتيازه، بل من خلال الرحلة غربًا، حيث لا نعرف على وجه اليقين إن كان هناك أحد قد اجتاز بهذا الطريق من قبل أم لا»(١).

ومع ذلك، فقد كانت هناك سابقة لهذه الرحلة الاستكشافية الطموحة. لقد كان كولومبوس وطاقمه جزءًا من حقبة استكشاف طويلة وناجحة، شهدت انفتاح القوى النصرانية في شبه الجزيرة الإيبيرية على أجزاء جديدة من العالم في إفريقيا، وشرق المحيط الأطلسي. وكان الدافع -جزئيًا- وراء تلك الرحلات الاستكشافية هو الوصول إلى أسواق الذهب في غرب إفريقيا. لقد كانت الثروة المعدنية لهذه المنطقة مادة الأساطير. وكان الكتَّاب المسلمون الأوائل قد أطلقوا على تلك البقاع اسم «أرض الذهب»، هكذا ببساطة؛ حتى إنه شاع في أوساط بعض الناس أن «الذهب ينمو في الرمال نمو الجَزَر، ويُقطف عند شروق الشمس». وذهب غيرهم إلى أن المياه ثمة لها خصائص سحرية تجعل سبائك الذهب تنمو في الظلام(٢). وكان إنتاج الذهب مذهلاً، وآثاره الاقتصادية ضخمة. وأظهرت عمليات التحليل الكيميائي أن العملات المعدنية المشهورة في مصر الإسلامية سُكَّت من الذهب المجلوب من غرب إفريقيا، حيث حُمِل هذا الذهب عبر طرق التجارة الصحراوية(٣).

وتحكَّم في جُل عمليات هذا التبادل التجاري تجار وانجارا (Wangara) منذ أواخر العصور القديمة وما تلاها(٤). وهؤلاء التجار بدو من أصل مالِيٍّ، ولعبوا الدور نفسه الذي لعبه تجار الصُّغد في آسيا؛ حيث عبروا الفيافي والقفار، واجتازوا الوهاد والهضاب، وأنشؤوا محطات على طول الطرق الخطرة عبر الصحراء؛ لتعينهم على التجارة لمسافات طويلة. وأدت هذه الحركة التجارية إلى ظهور شبكة من الواحات، والمحطات التجارية، ولما آن الأوان تطورت لتصبح مدنًا مزدهرة مثل جين

(1) O. Dunn and J. Kelley (ed. and tr.), *The Diario of Christopher Columbus' First Voyage to America, 1492–1493* (Norman, OK, 1989), p. 19.

(٢) ابن الفقيه، نقلاً عن:

N. Levtzion and J. Hopkins (eds), *Corpus of Early Arabic Sources for West African History* (Cambridge, 1981), p. 28.

(3) R. Messier, *The Almoravids and the Meanings of Jihad* (Santa Barbara, 2010), pp. 21–34.

وانظر أيضًا المؤلف نفسه:

'The Almoravids: West African Gold and the Gold Currency of the Mediterranean Basin', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 17 (1974), 31–47.

(4) V. Monteil, 'Routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest: al-Bakri (cordue 1068)', *Bulletin de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire* 30.1 (1968), 74; I. Wilks, 'Wangara, Akan and Portuguese in the Fifteenth and Sixteenth Centuries. 1. The Matter of Bitu', *Journal of African History* 23.3 (1982), 333–4.

(Djenne)، وجاو (Gao)، وتمبكتو (Timbuktu) التي أصبحت مقرًّا للقصور الملكية، والمساجد الرائعة، وشُيدت أسوار رائعة من الآجُر حول المدينة لحمايتها[1].

وبحلول أوائل القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، لم تعد تمبكتو مركزًا تجاريًا مهمًا فحسب، بل أضحت مركزًا للعلماء، والموسيقيين، والفنانين، والطلاب الذين تجمعوا حول مساجد سانكور (Sankore)، ودجينجوريبر (Djinguereber)، وسيدي يحيى. وكانت كلها منارات فكرية، وموطن لمخطوطات يكاد العدُّ لا يُحصيها، جُمعت من جميع أرجاء إفريقيا[2].

لا نستغربن إذن أن يبلغ صيت تلك البقاع آلاف الأميال بُعدًا؛ فقد علت الشهقات في القاهرة عندما اجتاز منسى موسى -أو الملك موسى، وكان ملك ملوك إمبراطورية مالي، وكان رجلًا «ديّنًا وعادلًا» لم ير مثله من قبل- بالمدينة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، في طريقه إلى مكة للحج، برفقة حاشية عظيمة، حاملًا معه كميات ضخمة من الذهب لتقديمها على سبيل الهدايا. وقد أنفق الكثير في الأسواق خلال زيارته للمدينة، حتى إننا نفترض أن يكون منخفضًا صغيرًا قد علا منطقة حوض البحر المتوسط، والشرق الأوسط؛ حيث يبدو أن سعر سبائك الذهب قد انخفض متأثرًا بضغط التدفق الهائل لرأس المال الجديد[3].

واهتم الكتَّاب والرحالة من البلدان البعيدة بتدوين أنساب ملوك مالي بعناية، وسجلوا احتفالات البلاط في تمبكتو. فعلى سبيل المثال قطع الرحالة المغربي العظيم ابن بطوطة الفيافي والقفار ليرى المدينة، وحاكمها المهيب منسى موسى بنفسه. وكان الحاكم يخرج من القصر مرتديًا قلنسوة مُذهَّبة، وسترة مصنوعة من أجود أنواع النسيج الأحمر، ويسير خلفه العازفون الذين يعزفون على الآلات

---

(1) N. Levtzion, 'Islam in West Africa', in W. Kasinec and M. Polushin (eds), *Expanding Empires: Cultural Interaction and Exchange in World Societies from Ancient to Early Modern Times* (Wilmington, 2002), pp. 103–14; T. Lewicki, 'The Role of the Sahara and Saharians in the Relationship between North and South', in M. El Fasi (ed.), *Africa from the Seventh to Eleventh Centuries* (London, 1988), pp. 276–313.

(2) S. Mody Cissoko, 'L'Intelligentsia de Tombouctou aux 15e et 16e siècles', *Présence Africaine* 72 (1969), 48–72.

فهرَس محمد الونجري هذه المخطوطات في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكانت تشكل جزءًا من المجموعة الرائعة التي تعود ملكيتها إلى ذريته حتى يوم الناس هذا. وقد ثبت أن التقارير الأولية التي أشارت إلى أن قبائل الطوارق قد أتلفوا هذه الوثائق في عام ٢٠١٢، إنما هي تقارير موضوعة كاذبة.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الترجمة الإنجليزية:

tr. Levtzion and Hopkins, *Corpus of Early Arabic Sources*, pp. 270–1.

لحظ الكتَّاب المعاصرون انخفاض قيمة الذهب على نطاق واسع. وعن تناول متحفظ لهذا الرأي، انظر:

W. Schultz, 'Mansa Musa's Gold in Mamluk Cairo: A Reappraisal of a World Civilizations Anecdote', in J. Pfeiffer and S. Quinn (eds), *History and Historiography of Post-Mongol Central Asia and the Middle East: Studies in Honor of John E. Woods* (Wiesbaden, 2006), pp. 451–7.

الموسيقية المصنوعة من الأوتار الذهبية والفضية. ثم يجلس في جناح قد زُيِّن ببذخ -يعلوه طائر ذهبي بحجم الصقر- ثم يستمع للأخبار التي وردته من جميع أرجاء إمبراطوريته. ولم ينجح ابن بطوطة في إخفاء خيبة أمله من بُخل منسى موسى، ولا سيما بخله بالعطاء عليه، في ظل وجود ثروة عظيمة كانت تحت تصرفه، فكتب قائلًا: «وهو ملك بخيل لا يُرجَى منه كبير عطاء»[١].

وأثارت روايات الثروات الأسطورية اهتمام أوروبا النصرانية، حيث كانت تلك الروايات رديفًا لتجارة الذهب في مصر، وعلى طول ساحل شمال إفريقيا، في مدن مثل: تونس، وسبتة، وبجاية، التي كانت موطنًا لمستعمرات التجار من بيزا، وأمالفي (Amalfi)، وجنوة في المقام الأول، كانت قد أُقيمت هنا وهناك قبل قرون، وكانت هذه المستوطنات هي القناة الرئيسة للذهب الإفريقي في البحر المتوسط[٢]. وعلى الرغم من هذه الاتصالات التجارية، فإن أوروبا لم تعرف -كما لم تفهم أيضًا- الكيفية التي كان الذهب يصل بها إلى المدن الساحلية. كما لم تعرف شيئًا عن الشبكات المعقدة من الطرق التي جلبت العاج، والبلور الصخري، والجلود، وأصداف السلاحف من مناطق بعيدة مثل ليمبوبو (Limpopo) التي كانت تقع على الساحل الشرقي لإفريقيا، وكذلك جوف إفريقيا، والبحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي. لم تكن الصحراء -من منظور أوروبا- إلا سحابة من الغموض تلف بقية القارة؛ كما لم تكن ثم طريقة لمعرفة ما يجري خلف الشريط الساحلي الضيق والخصيب لشمال إفريقيا[٣].

بيد أن أوروبا باتت على يقين من أن الأرض الواقعة وراء الصحراء كانت موطنًا لثروات هائلة. وخير شاهد على هذا اليقين هو الأطلس الكاتالوني الشهير، وهو خريطة رُسِمت بتكليف من بيدرو الرابع الأراغوني (Pedro IV) في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وصوَّرت تلك الخريطة حاكمًا زنجيًا -نفترض عادةً أنه منسى موسى- يرتدي ملابس غريبة، ويحمل كتلة صلبة ضخمة من الذهب،

---

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، الترجمة الإنجليزية:

Travels, 25, 4, p. 957.

(2) B. Kreutz, 'Ghost Ships and Phantom Cargoes: Reconstructing Early Amalfitan Trade', *Journal of Medieval History* 20 (1994), 347–57; A. Fromherz, 'North Africa and the Twelfth-Century Renaissance: Christian Europe and the Almohad Islamic Empire', *Islam and Christian Muslim Relations* 20.1 (2009), 43–59; D. Abulafia, 'The Role of Trade in Muslim–Christian Contact during the Middle Ages', in D. Agius and R. Hitchcock (eds), *The Arab Influence in Medieval Europe* (Reading, 1994), pp. 1 24.

(٣) انظر دراسة م. هورتون (M. Horton) الرائدة:

M. Horton, *Shanga: The Archaeology of a Muslim Trading Community on the Coast of East Africa* (London, 1996).

وانظر أيضًا:

S. Guérin, 'Forgotten Routes? Italy, Ifriqiya and theTrans-Saharan Ivory Trade', *Al-Masāq* 25.1 (2013), 70–91.

وبجانبه ملحوظة توضح حجم ثروته جاء فيها: «الذهب في بلاده وفير، وقيل: إنه أغنى ملوك هذه البلاد طرًا، وأسخاهم يدًا»[١].

إلا أن السعي للوصول إلى الذهب والكنوز في غرب إفريقيا ظل عقيمًا لحقبة طويلة؛ ولم تكن ثَم فائدة تُرجى من اجتياز الخط الساحلي القاحل (هو الآن جنوب المغرب وموريتانيا) واستكشافه. لقد بدا أنه ليس ثم فائدة تُرجى من الإبحار جنوبًا، واجتياز مئات الأميال من الصحراء القفر القاحلة إلى المجهول. بيد أنه ما أن أهل القرن الخامس عشر الميلادي حتى أخذ العالم ينفتح رويدًا رويدًا.

❊ ❊ ❊

أدت الرحلات الاستكشافية التي أبحرت قاصدة شرقي المحيط الأطلسي، وأسفل الساحل الإفريقي إلى اكتشاف سلسلة من مجموعات الجزر، اشتملت على: جزر الكناري (Canary)، وماديرا (Madeira)، وجزر الأزور (Azores). وقد أضحت تلك الجزر بمثابة واحات مُربحة في حد ذاتها، وذلك بفضل مناخها، وتربتها الغنية التي جعلتها مناسبة تمامًا لزراعة محاصيل مثل قصب السكر، والذي سرعان ما صُدِّر إلى بريستول (Bristol) وفلاندرز (Flanders)، بل وإلى البحر الأسود أيضًا. هذا إضافة إلى أنها منحت الأوروبيين إمكانية الانطلاق منها، ومن ثم اكتشافات مزيد من البقاع. وبحلول الوقت الذي أبحر فيه كولومبوس، كانت ماديرا وحدها تنتج أكثر من ٣ ملايين رطل من السكر سنويًا، وإن كان لذلك ثمن باهظ وصفه أحد العلماء بـ«الإبادة البيئية» الحديثة المبكرة، حيث أزال المستوطنون الغابات، وتكاثرت أنواع من الحيوانات غير الأصيلة ثمة، مثل: الأرانب والجرذان التي تكاثرت بأعداد ضخمة، حتى عُدَّت ضربًا من ضروب العقاب الإلهي[٢].

وعلى الرغم من تطلع حكام قشتالة الطموحين -الذين أخذوا يعززون سلطتهم ببطء في معظم شبه الجزيرة الإيبيرية- إلى التوسع في هذا العالم الجديد، فإن البرتغاليين هم الذين انتزعوا لأنفسهم زمام المبادرة[٣]. وعملت البرتغال -منذ القرن الثالث عشر الميلادي- بهمة على بناء روابط تجارية تربط شمال أوروبا وجنوبها بأسواق إفريقيا. وكانت سفن النقل الكبيرة -في مستهل عهد الملك دينيس (Dinis) (حكم ١٢٧٩-١٣٢٥م)، تُبحر بانتظام إلى «فلاندرز، وإنجلترا، ونورماندي، وبريطانيا،

---

(1) D. Dwyer, *Fact and Legend in the Catalan Atlas of 1375* (Chicago, 1997); J. Messing, 'Observations and Beliefs: The World of the Catalan Atlas', in J. Levenson (ed.), *Circa 1492: Art in the Age of Exploration* (New Haven, 1991), p. 27.

(2) S. Halikowski Smith, 'The Mid-Atlantic Islands: A Theatre of Early Modern Ecocide', *International Review of Social History* 65 (2010), 51–77; J. Lúcio de Azevedo, *Epocas de Portugal Económico* (Lisbon, 1973), pp. 222–3.

(3) F. Barata, 'Portugal and the Mediterranean Trade: A Prelude to the Discovery of the "New World"', *Al-Masāq* 17.2 (2005), 205–19.

ولاروشيل La Rochelle» كما كانت تبحر كذلك إلى «إشبيلية وغيرها» من بقاع البحر المتوسط التي غصَّت بالسلع المجلوبة من مختلف بقاع المغرب الإسلامي، فضلًا عن أماكن أخرى[١].

ولما ارتفع سقف طموحات البرتغال آنذاك، زادت قوتها أيضًا. فأولًا، أزاح البرتغاليون جنوة من تجارة الذهب. ثم ما لبثوا أن استولوا على سبتة -وكانت مدينة إسلامية تقع على ساحل المغرب- في عام ١٤١٥م بعد سنوات من التخطيط. ولم يكن هذا الاستيلاء يشكل إعلانًا عن النوايا؛ ذاك أن المدينة لم تكن لها قيمة استراتيجية، أو اقتصادية كبيرة. وسرعان ما تبين أن ذلك الاحتلال قد جاء بنتائج عكسية؛ ذاك أنه كان مكلفًا، كما تسبب في أضرار حاقت بالعلاقات التجارية على المدى الطويل، وأثار استياء الأهالي بسبب المعاملة الخشنة، ومنها الاحتفال بالقداس في مسجد المدينة الكبير، الذي جرى تحويله إلى كنيسة نصرانية[٢].

وكان هذا الموقف الحربي جزءًا من سياسة عدائية كبرى لشبه الجزيرة الإيبيرية استهدفت الإسلام. فعندما كتب هنري الملاح (Henry the Navigator) -وكان ابنًا لملك البرتغال- إلى البابا عام ١٤٥٤م مُلتمسًا احتكار بلاده للملاحة في المحيط الأطلسي، قال: إن دافعه هو الوصول إلى «الهنود الذين قيل: إنهم يعبدون اسم المسيح، حتى نتمكن ... من إقناعهم بمد يد العون للنصارى في جهادهم ضد السَّراسنة»[٣].

ولم ترو هذه الطموحات الشاملة القصة كاملة؛ ذاك أن طلبات إضفاء الشرعية على التوسع البرتغالي جاءت متعلقة بتثبيط همم المنافسين الأوروبيين الآخرين، أكثر مما كانت متعلقة بقيادة هجوم ضد العالم الإسلامي. والحق أن الفرصة العظيمة لم توات البرتغال من خلال إثارة النزاع مع التجار المسلمين، وتعطيل الأسواق التقليدية، بل من خلال إيجادها أسواقًا جديدة. وكانت مجموعات الجزر في شرق المحيط الأطلسي ذات أهمية حاسمة في هذا الصدد، الأمر الذي سهل عمليات الاستكشاف، ووفر الموانئ والمحطات التي كانت بمثابة قواعد لإمداد السفن بالمؤن والمياه العذبة، ومن ثم تمكينها من الإبحار بعيدًا عن الوطن، مع قدر أكبر من الأمن.

---

(1) Letter of King Dinis of Portugal, 1293, J. Marques, *Descobrimentos Portugueses – Documentos para a sua História*, 3 vols (Lisbon, 1944–71), 1, no. 29;

عن طرق البحر المتوسط انظر:

C.-E. Dufourcq, 'Les Communications entre les royaumes chrétiens et les pays de l'Occident musulman dans les derniers siècles du Moyen Age', *Les Communications dans la Péninsule Ibérique au Moyen Age. Actes du Colloque* (Paris, 1981), pp. 30–1.

(2) Gomes Eanes de Zurara, *Crónica da Tomada de Ceuta* (Lisbon, 1992), pp. 271–6; A. da Sousa, 'Portugal', in P. Fouracre et al. (eds), *The New Cambridge Medieval History*, 7 vols (Cambridge, 1995–2005), 7, pp. 636–7.

(3) A. Dinis (ed.), *Monumenta Henricina*, 15 vols (Lisbon, 1960–74), 12, pp. 73–4, tr. P. Russell, *Prince Henry the Navigator: A Life* (New Haven, 2000), p. 121.

ورسخت البرتغال أقدامها في مستعمراتها منذ منتصف القرن الخامس عشر، بوصفها جزءًا من جهد متعمد لتوسيع مجساتها الاستكشافية، وفرض السيطرة على الممرات البحرية الأكثر أهمية. فأنشأت موطئ قدم لها في أرجيوم (Arguim)، قبالة الساحل الغربي لموريتانيا الحديثة، ثم ساو خورخي دا مينا (Sao Jorge da Mina)، على ساحل المحيط الأطلسي لغانا الحديثة، التي شُيدت بوصفها حصونًا تحتوي على مرافق واسعة للتخزين[١]. وقد صُمّمت لتمكين العمال من إحصاء الواردات بدقة، وهو أمر كان من الأهمية بمكان للتاج البرتغالي الذي كان يصر على أن التجارة مع إفريقيا تعد احتكارًا ملكيًّا منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي[٢]. وجرى إنشاء إطار إداري منذ البداية، وعمل هذا الإطار على تحديد الكيفية التي يجري بها تشغيل كل نقطة من النقاط المستحدثة في الشبكة البحرية البرتغالية الموسعة رسميًّا. ولما اكتشف البرتغاليون جزر الرأس الأخضر في العقد السادس من القرن الخامس عشر، كان لديهم نموذج مجرب ومختبر، ويسعهم تطبيقه على الفور[٣].

ولم يقف القشتاليون مكتوفي الأيدي بإزاء تحركات البرتغال؛ فحاولوا تخفيف قبضة البرتغاليين على النقاط التي تأسَّست حديثًا على طول السلسلة الممتدة جنوبًا، باستخدام القوة على نحو مباشر ضد السفن التي كانت ترفع راية البرتغال. ثم هدأت التوترات بعد معاهدة ألكاشوڤاس (Alcaçovas) في عام ١٤٧٩م، التي منحت قشتالة السيطرة على جزر الكناري، بينما تنازلت لجارتها عن مجموعات الجزر الأخرى، ومن ثم عادت السيطرة على التجارة مع غرب إفريقيا للبرتغاليين مجددًا[٤].

ومع ذلك، لم تكن السياسة العليا، كما لم تكن المنح البابوية، أو المنافسة الملكية على الممتلكات الإقليمية هي التي فتحت بوابات إفريقيا، وغيرت من حظوظ غربي أوروبا. لقد جاء الاختراق الحقيقي عندما أدرك ربابنة السفن المُستكشِفة وجود فرص أسهل وأفضل في متناول أيديهم، إضافة إلى تجارة النفط، والجلود، والسعي لشراء الذهب. لقد كان أفضل الربح وأجزله يُجنى من الاتجار بالبشر، كما خبرت أوروبا مرارًا من قبل في تاريخها.

* * *

(1) P. Hair, *The Founding of the Castelo de São Jorge da Mina: An Analysis of the Sources* (Madison, 1994).

(2) J. Dias, 'As primeiras penetrações portuguesas em África', in L. de Albequerque (ed.), *Portugal no Mundo*, 6 vols (Lisbon, 1989). 1, pp. 281–9.

(3) M.-T. Seabra, *Perspectives da colonização portuguesa na costa occidental Africana: análise organizacional de S. Jorge da Mina* (Lisbon, 2000), pp. 80–93; Z. Cohen, 'Administração das ilhas de Cabo Verde e seu Distrito no Segundo Século de Colonização (1560–1640)', in M. Santos (ed.), *Historia Geral de Cabo Verde*. 2 vols (1991), 2, pp. 189–224.

(4) L. McAlister, *Spain and Portugal in the New World, 1492–1700* (Minneapolis, MN, 1984), pp. 60–3; J. O'Callaghan, 'Castile, Portugal, and the Canary Islands: Claims and Counterclaims', *Viator* 24 (1993), 287-310.

ازدهرت تجارة الرقيق الأفارقة في القرن الخامس عشر؛ إذ سرعان ما تبين أنها تجارة مربحة للغاية منذ البدء. فقد اشتد الطلب على الأيدي العاملة للعمل في المزارع، والبساتين في البرتغال. ولما عاد العبيد للظهور بأعداد كبيرة، قورن ولي العهد -الذي رعى الحملات الأولى- بشخص الإسكندر الأكبر نفسه؛ ذاك أنه أسس عصرًا جديدًا للإمبراطورية. ولم يمض وقت طويل حتى وُصِفت منازل الأثرياء بأنها «تغص بالعبيد، ذكورًا وإناثًا»، الأمر الذي أتاح لسادة أولئك العبيد استخدام رؤوس أموالهم في أماكن أخرى، وزيادة ثرائهم[١].

قلة من الناس هم الذين أظهروا اشمئزازًا من استعباد البشر الذين جرى سبيهم في غرب إفريقيا بوازع من الأخلاق؛ حتى لو أشارت بعض المصادر إلى هؤلاء المستضعفين بروح من التعاطف؛ فقد سجَّل مؤرخ برتغالي تأوهات مجموعة من الأفارقة -الذين وقعوا في الأسر في إحدى الغارات على الساحل الغربي، وأعيدوا إلى لاجوس (Lagos) في عام ١٤٤٤م، كما سجل نحيبهم ودموعهم. فقد عرف الأسرى أنه بات من الضروري «فصل الآباء عن أبنائهم، والأزواج عن زوجاتهم، والإخوة عن إخوتهم»، فاشتد عليهم الحزن، حتى أصاب بعضٌ منه أولئك الذين وقفوا على مقربة يراقبون ما يحدث، فعقب ذلك المؤرخ قائلًا: «أي قلب، ولو قُد من الصخر، لابد أن ينفطر إشفاقًا لرؤية هؤلاء الناس؟»[٢].

لقد كانت ردود أفعال من هذه الشاكلة نادرة، حيث لم يكن البائعون والمشترون يلقون بالًا لمشاعر سلعتهم. وكذلك لم يكن التاج -الذي لم ينظر إلى العبيد على أنهم أيدٍ عاملة إضافية فحسب، بل كان يرى في الاتجار فيهم مصدرًا للدخل من خلال الكوينتو (*Quinto*)، وهي ضريبة الخُمس على الأرباح المتولدة من التجارة مع إفريقيا. ومن ثم، فكلما زادت أعداد العبيد الذين جرى سبيهم، ثم بيعوا، كلما كان ذلك أفضل للتاج[٣]. بل إن المؤرخ الذي ادعى أنه تأثر بما رآه على رصيف الميناء في لاجوس لم ترتجف له خلجة عندما شارك -بُعيد ذلك بعامين- في غارة لسَبي العبيد، حيث سبَى -ورفاقه- امرأة

---

(1) Gomes Eanes de Zuara, *Crónica de Guiné*, tr. C. Beazley, *The chronicle of the discovery and conquest of Guinea*, 2 vols (London, 1896–9), 18, 1, p. 61.

عن البرتغال في هذه الحقبة، انظر:

M.-J. Tavares, *Estudos de História Monetária Portuguesa (1383–1438)* (Lisbon, 1974); F. Barata, *Navegação, comércio e relações politicas: os portgueses no Mediterrâneo occidental (1385–1466)* (Lisbon, 1998).

(2) Gomes Eanes de Zurara, *Chronicle*, 25, 1, pp. 81–2.,

وعن بعض التعليقات حول هذا المصدر المعقد، انظر:

L. Barreto, 'Gomes Eanes de Zurara e o problema da Crónica da Guiné', *Studia* 47 (1989), 311–69.

(3) A. Saunders, *A Social History of Black Slaves and Freemen in Portugal, 1441–1555* (Cambridge, 1982); T. Coates, *Convicts and Orphans: Forces and State-Sponsored Colonizers in the Portuguese Empire, 1550–1755* (Stanford, 2001).

وابنهـا البالـغ مـن العمر عاميـن، وكانا يجمعان المحار على الشـاطئ، صُحبة فتاة تبلـغ من العمر أربعة عشـر عامًـا، وقاومـت تلك الفتاة الخاطفيـن بكل ما أُوتيت من قـوة؛ حتى إن الأمر تطلـب جهود ثلاثة رجال ليحملوها عنوة، ويلقونها في القارب. وكان عزاء ذلك المؤرخ «الواقعي»، أن تلك المرأة كانت «تتمتـع بحضـور غيني طـاغ» على حد وصفه[1]. وكان الرجال، والنسـاء، والأطفال يُأسَـرون على نحو روتيني في غارات كانت أشـبه شـيء بتلك التي كان الهدف منها صيد الحيوانات. وتوسل بعض الناس إلى ولي العهد للحصول على ترخيص لتجهيز عدة سفن والانطلاق في قافلة لسبي العبيد. ولـم يرحب ولي العهد بذلك فحسـب، بل «أمر في الحال ... بصنع رايات طائفة يسـوع المسيح»، راية لكل سفينة. وهكذا تحالف الاتجار بالبشر، مع التاج، والله[2].

ولـم تُثِر كل هذه الأموال الجديدة إعجاب الجميع في أرض الوطن؛ فقد أصيب رحالة بولندي -في أواخـر القـرن الخامـس عشـر- بالذهول من افتقار سـكان البـلاد مـن البرتغاليين إلى المـال، والأناقة، والتطور. فكتب قائلًا: إن رجال البرتغال «أجلاف، فقراء، لا أخلاق لهم، كما أنهم جهلة مهما تظاهروا بالحكمـة». أما بالنسـبة للنسـاء، فـإن «قليلات منهـن جميلات؛ وجميعهـن تقريبًا أشـبه بالرجال، على الرغـم مـن أن عيونهن سـوداء جميلة عمومًا». واسـتطرد قائلًا: إن لديهن أيضًا أعجـازًا رائعة، «ممتلئة، حتى إنني أعترف صراحةً أمام العالم كله، بأنني لم أرَ أجمل من هذه الأعجاز في مكانٍ آخر قط». ومع ذلـك، فـإن الأمانـة تقتضينا أن نشـير أيضًا إلى أنـه وصفهن -أعني النسـاء البرتغاليـات- بأنهن بذيئات اللسان، وجشعات، ومُتقلبات، ولئيمات، وفاسقات[3].

وعلى الرغـم من أن تجارة الرقيق كان لها تأثير كبير على الاقتصاد المحلي في البرتغال، فإن الدور الذي لعبته في استكشـاف السـاحل الإفريقي الطويل في القرن الخامس عشر الميلادي كان أكثر أهمية؛ فقد استمرت السفن البرتغالية في الإبحار جنوبًا بحثًا عن فرائس لها، ولحظ البرتغاليون أنه كلما توغلوا جنوبًا وجدوا المستوطنات البشرية أقل تحصينًا. وكان الربابنة يأمرون بذبح شيوخ القرى الفضوليون، وزعماء القبائل الذين خرجوا في مسـيرات لاسـتقبال الوافدين من أوروبا على الفور. وكانت دروعهم ورماحهم تهدى للملك، أو لولي العهد على سبيل التذكارات[4].

واندفـع المستكشـفون -مدفوعـون بدافع البحث عن حصاد أغنى وأسـهل، فواصلـوا التوغل على طول السـاحل الإفريقي في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي. وإضافة إلى حملات سبي العبيد، أُرسـلت السـفن التـي حملت على متونها مبعوثين من قبل الملك جـوا الثاني (Joao II) -وكان

(1) Gomes Eanes de Zurara, *Chronicle*, 87, 2, p. 259.

(2) Ibid., 18, 1, p. 62.

(3) H. Hart, *Sea Road to the Indies: An Account of the Voyages and Exploits of the Portuguese Navigators, Together with the Life and Times of Dom Vasco da Gama, Capitão Mór, Viceroy of India and Count of Vidigueira* (New York. 1950), pp. 44–5.

(4) Gomes Eanes de Zurara, *Chronicle*, 87, 2, p. 259.

ملك البرتغال- الذي أبدى حرصًا على بناء علاقات وثيقة مع الحكام المحليين الأقوياء من أجل حماية مصالح بلاده من منافسة الإسبان. ولم يعدُ كريستوفر كولومبوس أن يكون أحد هؤلاء الممثلين، وسرعان ما استغل خبراته لحساب متطلبات الرحلات الطويلة الأخرى من المؤن، وعمليات الخدمة، والصيانة. كما حاول استخدام هذه المعلومات الجديدة حول طول الساحل الإفريقي لتقدير مساحة الأرض؛ فمن يدري؟ فربما قام هو نفسه برحلة طموحة في قابل الأيام[١].

وعاش مستكشفون آخرون آنذاك؛ ففي العقد التاسع من القرن الخامس عشر، اكتشف ديوجو كاو (Diogo Cao) مصب نهر الكونغو، الأمر الذي مهد الطريق للتبادل الرسمي للسفارات مع ملك المنطقة القوي، الذي وافق على التعميد، واعتنق النصرانية. وقد أسعد ذلك الخبر البرتغاليين أيما سعادة، فاستخدموا تلك الحادثة لتلميع أوراق اعتمادهم لدى البابوية في روما، ولا سيما عندما تقدم ملك الكونغو لحرب أعدائه حاملًا شعارًا للبابوية، وعليه علامة الصليب[٢]. ووصل المستكشف بارتولوميو دياس (Bartolomeu Dias) في عام ١٤٨٨م إلى طرف القارة الجنوبي؛ حيث أطلق عليه اسم «رأس العواصف» (Cape of Storms)، قبل أن يعود أدراجه إلى وطنه، بعد رحلة محفوفة بالمخاطر.

حرست البرتغال توسعها بغيرة، حتى إنه عندما مثل كولومبوس بين يدي الملك جُوا الثاني -في أواخر عام ١٤٨٤م تقريبًا- مُلتمسًا تمويل رحلة استكشافية لنقله غربًا عبر المحيط الأطلسي، لم يلق التماسه آذانًا صاغية من الملك. ومع ذلك فقد أثار ذلك العرض فضول الملك البرتغالي حتى إنه «أرسل سفينة كبيرة -سرًا- في محاولة للقيام بما عرض [كولومبوس] القيام به»، ومع ذلك فإن حقيقة أن البرتغال لم تحرص على مواصلة الاستكشاف بعد اكتشافات دياس، تشير إلى أن أولوية البرتغال تمثلت في تعزيز تواجدها في تلك البقاع من العالم الجديد التي أضحت على اتصال بها مؤخرًا، وليس التوسُّع إلى نطاق أبعد[٣].

❋ ❋ ❋

سرعان ما تغير كل شيء عندما وجد كولومبوس الرعاية التي كان يبحث عنها من فرديناند (Ferdinand) وإيزابيلا (Isabella)، حاكمي قشتالة وأراغون، فأبحر عام ١٤٩٢م. وقد حقَنت أنباء اكتشافاته عبر المحيط الأطلسي الإثارة في شرايين أوروبا حقنًا؛ ذاك أنه أعلن -واثقًا- في رسالة بعث بها إلى فرديناند وإيزابيلا -في طريق عودته إلى إسبانيا- أن الأراضي والجزر الجديدة التي اكتشفها إنما هي أجزاء «مما جرى اكتشافه من الهند فيما وراء نهر الغانج». وكانت هذه الأراضي الجديدة

(1) J. Cortés López, 'El tiempo africano de Cristóbal Colón', *Studia Historica* 8 (1990), 313–26.

(2) A. Brásio, *Monumenta Missionaria Africana*, 15 vols (Lisbon, 1952), 1, pp. 84–5.

(3) Ferdinand Columbus, *The Life of the Admiral Christopher Columbus by his Son Ferdinand*, tr. B. Keen (New Brunswick, NJ, 1992), p. 35; C. Delaney, *Columbus and the Quest for Jerusalem* (London, 2012), pp. 48–9.

«خصبة كل الخصوبة... تفوق غيرها من الأراضي الأخرى»؛ حيث تنمو البهارات هناك بكميات لا تعد ولا تُحصى؛ كما أن هناك «مناجم كبيرة من الذهب والمعادن الأخرى» تنتظر من يستغلها، إضافة إلى تجارة واسعة ينبغي القيام بها «مع البر الرئيس... للخان العظيم». وهناك أيضًا: القطن، والمستكة، وخشب الصبار، والراوند، والبهار، وهناك العبيد فضلًا عن «آلاف الأشياء القيمة الأخرى»، وكلها متوفر بكميات تفوق الحصر[1].

بيد أن الحقيقة أن كولومبوس كان مشوشًا ومتحيرًا مما صادفه هناك. فعوضًا عن العلماء الذين كان يتوقع أن يقابلهم، صادف الأهالي الذين ساروا عراة، وبدوا -في نظره- بدائيين على الفطرة. وذكر كولمبوس عنهم أنهم «كانوا جسيمين، أصحاء البنية، ملاح الوجوه»، إلا أنهم كانوا أيضًا سذَّجًا؛ حيث بالغوا في إظهار السعادة عندما أهداهم الربان بعض القبعات الحمراء، والخرز، بل إنهم شغفوا بشقف الزجاج والفخار. ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن السلاح، وسحبوا السيوف من نصالها جهلًا، «فجرحوا أنفسهم»[2].

بدا وصف كولومبوس وكأنه بشرى سارة من بعض الزوايا؛ فقد لحظ الربان أن أولئك الذين التقى بهم «ودعاء للغاية، ولا يعرفون ما الشر»؛ إنهم «يدركون أن هناك إلهًا في السماء، وهم على قناعة بأننا نأتي من السماء؛ ويرددون أي صلاة نطلب منهم أن يقولوها على الفور، ويرشمون علامة الصليب». إنها مجرد مسألة وقت قبل أن يعتنق «عدد كبير من [هؤلاء] الناس ديننا المقدس»[3].

والحق أن الرسالة التي سردت اكتشافاته الاستثنائية سرت بين الناس سريان النار في الهشيم، حتى إن نسخًا منها كان يجري تداولها في بازل (Basel)، وباريس، وأنتويرب (Antwerp)، وروما قبل أن تطأ أقدام كولومبوس وبحارته أرض الوطن. لقد كانت تحفة فنية قوامها الكوميديا السوداء، ويحق عليها ما وصفها به بعض المؤرخين من أنها «نسيج من المبالغات، والمفاهيم الخاطئة، والكذب الصُراح»[4]. فليس ثم مناجم للذهب، أما النباتات التي أشار إليها على أنها القرفة، والراوند، والصبار، فلم يكن لها وجود إلا في رأسه. ولم يكن هناك شعار للخان العظيم ظهر من على البعد. أما ادعاؤه بأن هناك الكثير من الكنوز التي يمكن امتلاكها، ومن ثم ستكون هناك أموال كافية -في غضون سبع سنوات- لدفع

---

(1) C. Jane (ed. and tr.), *Select Documents Illustrating the Four Voyages of Columbus*, 2 vols (London, 1930–1), 1, pp. 2–19.

(2) O. Dunn and J. Kelley (eds and trs), *The Diario of Christopher Columbus's First Voyage to America, 1492–3* (Norman, OK, 1989), p. 67.

(3) Ibid., pp. 143–5.

(4) W. Phillips and C. Rahn Phillips, *Worlds of Christopher Columbus* (Cambridge, 1992), p. 185.

عن انتشار تلك الرسالة في جميع أنحاء أوروبا، انظر:

R. Hirsch, 'Printed Reports on the Early Discoveries and their Reception', in M. Allen and R. Benson (eds), *First Images of America: The Impact of the New World on the Old* (New York, 1974), pp. 90–1.

أجور خمسة آلاف فارس، وخمسين ألف راجل، يسيرون لفتح القدس، فلا يمكن وصفه بأنه أقل من كذب صُراح[١].

وما زال هذا دين كولومبوس وديدنه، عندما قاد رحلات أخرى عبر المحيط الأطلسي؛ حيث أكد لرعاته -فرديناند وإيزابيلا- مجددًا أنه عثر على مناجم للذهب، بيد أنه تذرَّع بالمرض، ومشكلات الإمداد والتموين، في معرض تبريره لفشله في تقديم أدلة قاطعة على صحة مزاعمه. وعوضًا عن الكنوز أرسل الببغاوات، وآكلي لحوم البشر، والخصيان، في محاولة للتشويش على الحقيقة. ولما كان متأكدًا من أنه كان قريبًا من اليابان في رحلته الاستكشافية الأولى، فقد أبلغ -بكل ثقة- بأنه اقترب من مناجم أوفير (Ophir)، التي استورد منها الذهب الذي استخدم في إقامة هيكل سليمان، بعد أن عثر على بضع شذرات كبيرة على نحو مثير للإعجاب في جزيرة هيسبانيولا (Hispaniola). ثم ادعى لاحقًا أنه اكتشف أبواب الجنة نفسها عندما وصل إلى فم أورينكو (mouth of the Orinoco)[٢].

وغضب بعض رجال كولومبوس من الطريقة الخرقاء التي أدار بها الربان بعثاته، وكرهوا حزمه في تقنين المؤن، كما كرهوا سهولة انفلات أعصابه متى اختلف معه أحد، فعادوا إلى أوروبا بمعلومات صبت الماء البارد على تقارير الأدميرال الساخنة، التي لم يعد أحد يثق بها. لقد كان عبور المحيط الأطلسي بمثابة مهزلة، على حد وصف المستكشف الإسباني بيدرو مارجريت (Pedro Margarit)، والراهب المبشِّر برناردو بيل (Bernardo Buyl)، لحكام إسبانيا؛ فلم يكن ثم ذهب، ولم يجدوا شيئًا يعيدونه معهم سوى بعض الهنود العراة، والطيور الفاخرة، وعدد قليل من الحلي لا يكفي لتغطية تكاليف تلك الرحلات الاستكشافية[٣]. وربما كان هذا الفشل المطلق في العثور على الكنوز أحد الأسباب التي أدت إلى تحول الانتباه من الثروة المادية إلى الشهوانية (*Erotic*) في هذه البقاع الجديدة؛ حيث ركزت الروايات حول الأراضي المكتشفة حديثًا التي دوِّنت في أواخر القرن الخامس عشر، وأوائل القرن السادس عشر على الممارسات الجنسية الاستثنائية على نحو متزايد، وعلى الجماع في الأماكن العامة، وعلى اللواط[٤].

بيد أن الحظ سرعان ما أفتر عن ثغره بعد ذلك. ففي عام ١٤٩٨م صادف كولومبوس -أثناء استكشافه شبه جزيرة باريا (Paria) -فيما يعرف الآن بشمال فنزويلا (Venezuela)- الأهالي وهم يرتدون عقودًا من اللؤلؤ حول أعناقهم، وبُعيد ذلك اكتشف مجموعة من الجزر الغنية بالمحار على

---

(1) M. Zamora, 'Christopher Columbus' "Letter to the Sovereigns": Announcing the Discovery', in S. Greenblatt (ed.), *New World Encounters* (Berkeley, 1993), p. 7.

(2) Delaney, *Columbus and the Quest for Jerusalem*, p. 144.

(3) Bartolomé de las Casas, *Historia de las Indias*, 1.92, tr. P. Sullivan, *Indian Freedom: The Cause of Bartolomé de las Casas, 1484–1566* (Kansas City, 1995), pp. 33–4.

(4) E. Vilches, 'Columbus' Gift: Representations of Grace and Wealth and the Enterprise of the Indies', *Modern Language Notes* 119.2 (2004), 213–14.

نحو مذهل. وهرع المستكشفون لملء سفنهم بالجوائز. وتسجل الروايات المعاصرة كيف أن أكياسًا مكدسة باللآلئ، «كان بعضها كبيرًا في حجم البندق، وواضح للغاية، وغاية في الجمال»، شُحِنت إلى إسبانيا، الأمر الذي أدى إلى توليد ثروات للربابنة، وطواقم البحارة الذين جلبوها إلى الديار[1]. وزاد شعور الأوربيين بالإثارة من خلال القصص التي راجت بين الناس عن كميات اللآلئ التي تنتظر جمعها، بأحجامها الهائلة، وفي المقام الأول من خلال تقارير الأسعار التي بيعت بها من قبل الأهالي -والتي سرعان ما تضخمت مع انتشار الشائعات في جميع أنحاء أوروبا. أحد هذه التقارير، يبدو أنه كُتب بيد أميريجو ڤيسبوتشي (Amerigo Vespucci)، ولا يخلو أمر هذا التقرير من أنه إما بولغ فيه مبالغة شديدة، وهذا مرجوح، أو أنه موضوع بالكلية، وهذا هو الأرجح. وعلى أية حال فقد قص هذا التقرير كيف تمكن المستكشف الإيطالي من الحصول على «مائة وتسعة عشر لؤلؤة (تزن نحو ستين رطلًا)، مقابل عدد من الأجراس، والمرايا، والخرز الزجاجي، والأوراق النحاسية لا غير؛ بل إن أحد [السكان الأصليين] قايض كل اللآلئ التي كانت بحوزته بجرس واحد فحسب»![2].

وكانت بعض اللآلئ كبيرة للغاية حتى إنها اشتهرت في حد ذاتها - مثل «La Peregrina» («لؤلؤة الحاج»)، التي لا تزال تُعد واحدة من أكبر أفراد اللآلئ التي عُثر عليها بالمطلق، وتلك التي تحمل اسمًا مشابهًا «لا بيليجرينا La Pelegrina»، وتشتهر بجودتها التي لا مثيل لها. واحتل كلاهما مكانة مرموقة في الخزائن الملكية والإمبراطورية في جميع أنحاء أوروبا لعدة قرون، وقد صورهما ڤيلاثكيث (Velazquez) في مجموعته من صور الملوك، وأصبحا أهم قطعتين في المجموعات الحديثة الأسطورية، مثل مجموعة إليزابيث تايلور (Elizabeth Taylor).

تبع الإثراء باللؤلؤ اكتشاف الذهب والفضة، حيث توصل المستكشفون الإسبان لأمريكا الوسطى والجنوبية إلى المجتمعات المتطورة والمعقدة مثل الآزتك (Aztecs)، وبُعيد ذلك، الإنكا (Inca). لقد كان من المحتم أن يتحول الاستكشاف إلى غزو. ولحظ كولومبوس في رحلته الأولى أن الأوروبيين يتمتعون بميزة تقنية كبيرة على الأشخاص الذين اتصل بهم، يعني «الهنود»، كما أطلق عليهم خطأً، «فليس لديهم أسلحة، وكلهم عراة، وليس لديهم مهارة في استخدام السلاح، وهم جبناء رعاديد حتى إن ثلاثة منا فحسب يغلبون ألفًا منهم!»[3]. وأظهر هؤلاء الهنود الذهول في إحدى المآدب، حيث أراهم كولومبوس مدى دقة القوس التركي، ثم أظهر قوة مدفع صغير من طراز لومبارد (Lombard)، وسبنجارد (spingard)، وهي بندقية ثقيلة كانت رصاصاتها قادرة على اختراق الدروع. وقد يكون الوافدون الجدد قد أعجبوا بالسمات الشاعرية والساذجة للأشخاص الذين واجهوهم، إلا أنهم افتخروا

(1) C. Sauer, *The Early Spanish Main* (Berkeley, 1966), p. 109.

(2) L. Formisano (ed.), *Letters from a New World: Amerigo Vespucci's Discovery of America* (New York, 1992), p. 84; M. Perri, '"Ruined and Lost": Spanish Destruction of the Pearl Coast in the Early Sixteenth Century', *Environment and History* 15 (2009), 132–4.

(3) Dunn and Kelley, *The Diario of Christopher Columbus's First Voyage*, p. 235.

أمامهم بوسائل القتل خاصتهم، والتي تطورت عبر قرون من القتال شبه الدائم ضد كل من المسلمين، والممالك النصرانية المجاورة في أوروبا[1].

وكأن كولومبوس قد محض قومه النصيحة عندما ذكر لهم مدى سلبية أولئك الذين واجههم في أول عبور له وسذاجتهم؛ ذاك أنه كتب إليهم قائلًا: «إنهم لائقون لأداء العمل الذي قد يُطلب منهم، ويزرعون ويفعلون كل شيء آخر قد يكون ضروريًا، ويبنون المدن ويتعلمون عاداتنا»[2]. لقد بدا -لأول وهلة- وكأن كولمبوس قد أومأ إلى جدوى استرقاق الأهلين. وسرعان ما أصبح العنف معيار بني جلدته في التعامل معهم. ففي جزيرة كوبا (Cuba) عام ١٥١٣، ذبح الإسبان القرويين الذين أقبلوا عليهم ليقدموا لهم هدايا من الطعام، والسمك، والخبز، «وطاردوهم حتى أفنوهم عند حظائرهم، دون أدنى استفزاز كان منهم»، على حد تعبير أحد المراقبين الذين أبدوا استياءه مما جرى لهؤلاء المساكين. وكانت هذه مجرد حادثة، بعبارة أخرى: غيض من فيض الفظائع التي ارتكبها الأوروبيون. وتحدث الراهب الإسباني بارتولومي دي لاس كاساس (Bartolome de las Casas) عن تجاربه في الأيام الأولى للاستيطان الأوروبي، في تقرير مرعب ووضعه لإعلام أولئك الذين يعيشون في الوطن بما كان يحدث في العالم الجديد قائلًا: «لقد رأيت... قسوة لم أرها من قبل، وأهوالًا لم تخطر على قلب بشر»[3]. بيد أن ما رآه لم يكن يعدو كونه مجرد بداية، كما قال في روايته المؤثرة عن معاملة «الهنود» في كتابه المسمى تاريخ الهنود (*Historia de las Indias*).

* * *

أُبيد السكان الأصليون في منطقة البحر الكاريبي والأمريكتين. ففي غضون بضعة عقود فحسب من رحلة كولومبوس الأولى، انخفض عدد سكان تاينو (Taino) الأصليين من نصف مليون نسمة، إلى ما يربو قليلًا عن ٢٠٠ ألف نسمة. وكان هذا جزئيًا بسبب المعاملة الوحشية على أيدي أولئك الذين بدؤوا يصنفون أنفسهم على أنهم «غزاة Conquistadors» أو فاتحون - مثل هرنان كورتيس (Hernán Cortés)، الذي أدت حملته لاستكشاف أمريكا الوسطى، وتأمينها إلى إراقة الدماء أنهارًا، وانتهت بمصرع حاكم الآزتك، موكتيزوما (Moctezuma)، بل انهيار إمبراطورية الآزتك برمتها. ولم يتورع كورتيس عن فعل شيء لإثراء نفسه. وقال للأسرة المالكة في شعب الآزتك: «أنا ورفاقي نعاني مرضًا في القلب، لا يمكن علاجه إلا بالذهب»[4]. كن مطمئنًا، «لا تُراع. فنحن نحبك كثيرًا. جئناك اليوم والسلام في قلوبنا»، هكذا قيل إنه وعد موكتيزوما[5].

---

(1) Ibid., pp. 285-7.

(2) Ibid., pp. 235-7.

(3) Bartolomé de las Casas, *Historia*, 3.29, p. 146.

(4) Francisco López de Gómara, *Cortés: The Life of the Conqueror by his Secretary*, tr. L. Byrd Simpson (Berkeley, 1964), 27, p. 58.

(5) Bernardino de Sahagún, *Florentine Codex: General History of the Things of New Spain. Book 12*, tr. A. =

واستغل كورتيس الموقف لصالحه، على الرغم من القصص التي تفيد بأن نجاحاته نشأت من اعتقاد الآزتك أنه كان مظهرًا من مظاهر الإله قويتزالكوتال (Quetzalcoatl) الذي اختُرِع بأخرة[1]. وشرع الإسبان في تفكيك دولة شديدة التطور من خلال التحالف مع زيكوتينكاتل (Xicotencatl)، وكان زعيم قبائل التلاكس (Tlaxcalan)، الذي كان حريصًا على الاستفادة من زوال دولة الآزتك[2]. وعومل السكان المحليون بازدراء على نحو أصبح معيارًا في مواقع أخرى في الأمريكتين. وكتب أحد الكتاب في منتصف القرن السادس عشر الميلادي واصفًا السكان الأصليين بأنهم: «جبناء رعاديد؛ حتى إن مشهد رجالنا وحدهم يصيبهم بالهلع... الأمر الذي يجعلهم يفرون مثل النساء لمجرد وجود عدد قليل من الإسبان». واستطرد قائلًا: في الرأي، والحكمة، والفضيلة، «هم أقرب إلى الأطفال منهم إلى الرجال». ثم أردف قائلًا: الحق إنهم كانوا أشبه بالقردة منهم بالرجال، أي بالكاد يمكن عدهم بشرًا[3].

واستولى كورتيس ورجاله -من خلال استعمال الوحشية المفرطة التي تقارن بغزوات المغول الكبرى في آسيا- على كنوز الآزتك، ونهبوهم «مثل الوحوش الصغيرة ... وقد تملك الجشع من روح كل رجل تمامًا»، وفقًا لما جاء في تقرير جُمع في القرن السادس عشر من أفواه شهود العيان. ونهب الإسبان أشياء رائعة، بما في ذلك «عقود من الأحجار الكريمة الثقيلة، والخلاخيل دقيقة الصنع، والأساور، وحلقات الكاحل بأجراس ذهبية صغيرة، وإكليل من الفيروز يمثل شعار الحاكم، وكان له وحده». وجُرِّد الذهب من الدروع والمواد التي طُعِّم بها، وصهر في قضبان؛ ونهب الزمرد واليشم. باختصار «لم يُبق الإسبان ولم يذروا»[4].

ولم يكن هذا وحده كافيًا. فقد ذُبح نبلاء وكهنوت تينوختيتلان (Tenochtitlán)، عاصمة الآزتك،

= Anderson and C. Dibble (Santa Fe, NM, 1975), p. 45; R. Wright (tr.), *Stolen Continents: Five Hundred Years of Conquest and Resistance in the Americas* (New York, 1992), p. 29.

(1) S. Gillespie, *The Aztec Kings: The Construction of Rulership in Mexican History* (Tucson, AZ, 1989), pp. 173–207; C. Townsend, 'Burying the White Gods: New Perspectives on the Conquest of Mexico', *American Historical Review* 108.3 (2003), 659–87.

(٢) تُصور لوحة -محفوظة الآن في معرض هنتنجتون الفني (Huntington Art Gallery) في أوستن (Austin) بولاية تكساس(Texas) الأمريكية- كورتيس وهو يحيي زيكوتينكاتل (Xicotencatl)، زعيم قبائل التلاكس (Tlaxcalan)، الذي وجد فرصة سانحة للاستفادة من الوافدين الجدد لتعزيز موقفه في أمريكا الوسطى.

(3) J. Ginés de Sepúlveda, *Demócrates Segundo o de la Justas causas de la Guerra contra los indios*, ed. A. Losada (Madrid, 1951), pp. 35, 33.

والحظ أن لوسادة (Losada) محا تلك المقارنة مع القرود من المخطوطة التي اعتمد عليها:

Losada, A. Pagden, *Natural Fall of Man: The American Indian and the Origins of Comparative Ethnology* (Cambridge, 1982), p. 231, n. 45.

(4) Sahagún, *Florentine Codex*, 12, p. 49; Wright (tr.), *Stolen Continents*, pp. 37–8.

خلال احتفال ديني، في واحدة من أعظم الفظائع في أوائل العصر الحديث. فقد تحركت القوة الإسبانية الصغيرة الهائجة، وقطعت أيادي الطبالين قبل أن تهاجم الحشود المجتمعة بالرماح والسيوف. «وجرى الدم... جريان الماء اللزج؛ وزكمت رائحته الهواء»، بينما كان الأوروبيون يتنقلون من باب إلى باب بحثًا عن ضحايا جدد[١].

ولم يكن استخدام القوة والتحالفات الميمونة وحدها هي التي دمرت السكان الأصليين. فكذلك فعلت الأمراض التي حملها الأوروبيون معهم من أوروبا[٢]. فقد انخفض سكان تينوختيتلان بأعداد كبيرة بسبب جوائح الجدري التي ظهرت لأول مرة نحو عام ١٥٢٠م، حيث لم يكن لأجسامهم عهد بها، ومن ثم لم تكن مقاومة لها[٣]. وسرعان ما أعقبت المجاعة الوباء. وانهار الإنتاج الزراعي مع ارتفاع معدلات الوفيات بين النساء خاصةً؛ حيث كن مسؤولات عن العناية بالحقول إلى حد كبير. وتفاقم الانهيار؛ ذاك أنه كان هناك عدد أقل لزراعة المحاصيل وحصادها، مع فرار الناس مبتعدين عن المناطق التي تفشى فيها المرض؛ لذا لم يمض وقت طويل قبل أن تنهار سلسلة التوريد تمامًا. وكانت الوفيات الناجمة عن المرض والجوع كارثية[٤].

وسرعان ما تفشت الجائحة مجددًا، ربما بسبب الإنفلونزا، ولكن الأرجح عندنا أنه الجدري مجددًا. وهذه المرة تسبب الوباء في إبادة نسبة كبيرة من سكان كاكشيكيل المايا (Cakchiquel Mayan) في جواتيمالا (Guatemala) في العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي، وزكمت الرائحة الكريهة للجثث المتعفنة الأنوف، وأقبلت الكلاب والنسور على التهامها. ثم بعد سُنيَّات، وقعت جائحة أخرى؛ بيد أنها كانت الحصبة هذه المرة. ولم يحظ السكان الأصليين في العالم الجديد بفرصة للنجاة قط[٥].

* * *

(1) Sahagún, *Florentine Codex*, 12, pp. 55–6.

(2) I. Rouse, *The Tainos: Rise and Decline of the People who Greeted Columbus* (New Haven, 1992); N. D. Cook, *Born to Die: Disease and New World Conquest, 1492–1650* (Cambridge, 1998).

(3) R. McCaa, 'Spanish and Nahuatl Views on Smallpox and Demographic Catastrophe in Mexico', *Journal of Interdisciplinary History* 25 (1995), 397–431.

وانظر بصفة عامة:

A. Crosby, *The Columbian Exchange: Biological and Cultural Consequences of 1492* (Westport, CT, 2003).

(4) Bernardino de Sahagún, *Historia general de las cosas de Nueva España* (Mexico City, 1992), p. 491; López de Gómara, *Life of the Conqueror*, 141–2, pp. 285–7.

(5) Cook, *Born to Die*, pp. 15–59.

وانظر أيضًا:

Crosby, *Columbian Exchange*, pp. 56, 58; C. Merbs, 'A New World of Infectious Disease', *Yearbook of Physical Anthropology* 35.3 (1993), 4.

باتت الممرات البحرية المؤدية إلى أوروبا تغص بالسفن المحملة -حتى حوافها- من الأمريكتين. وكانت هذه شبكة جديدة باتت تنافس تلك الشبكات الموجودة في جميع أرجاء آسيا، من حيث المسافة والمقياس، بل سَرعان ما تجاوزتها من حيث القيمة؛ فلا يمكن تصور كميات الفضة، والذهب، والأحجار الكريمة، والكنوز التي جرى شحنها على صفحة مياه المحيط الأطلسي. وسادت المبالغة الروايات التي تناولت ثروات العالم الجديد إلى حد كبير. وشاعت إحداها بين الناس في أوائل القرن السادس عشر، وتناولت نبأ العثور على شذرات كبيرة من الذهب بعد أن جرفتها مياه الأنهار من سفوح التلال إلى حيث كان السكان المحليون يجمعونها بعد ذلك في شباك[1].

وعلى النقيض من الحكايات الخادعة التي رُوِيَت في تقارير كولومبوس الأولى، باتت المعادن الثمينة تتدفق الآن إلى الوطن. وذُهل ألبريشت ديرير (Albrecht Durer) من جودة صناعة كنوز الآزتك التي رآها معروضة في عام ١٥٢٠م، فعلق قائلًا: «لم أر شيئًا في حياتي أسعد قلبي بقدر ما أسعدته رؤية هذه الأشياء»، وكتب عن ذخائر اشتملت على: «شمس من الذهب الخالص» وقمر من الفضة بعرض ستة أقدام. لقد أذهلته «التحف الفنية المدهشة»، وأخذ يتعجب من «براعة الرجال الذين صنعوها ودقتهم في تلك الأراضي البعيدة»[2]. ووقف الصبية من أمثال بيدرو سيزا دي ليون (Pedro Cieza de Leon) -الذي أصبح فاتحًا لـ بيرو لاحقًا- على رصيف الميناء في إشبيلية، يحدقون مندهشين، في السفن، حيث كان يجري تفريغ سفينة تلو الأخرى، ثم تحمل على عربات تنقلها إلى المخازن[3].

وتسابق الرجال الطموحون عبر المحيط الأطلسي للاستفادة من الفرص التي أتاحها العالم الجديد، وقد تسلحوا بعقود وتنازلات من التاج الإسباني. وصنع أولو العزم مثل دييجو دي أورداس (Diego de Ordás) -وكان رفيقًا لـ كورتيس في المكسيك، وقاد بأخرة رحلات استكشافية لاستكشاف أمريكا الوسطى وما يعرف الآن بـ ڤنزويلا- ثروات هائلة لأنفسهم، واستغلوا الأهالي مقابل الجزية. وأدى هذا بدوره إلى زيادة المال في الخزائن الملكية في إسبانيا، حيث نال التاج نصيبه[4].

ولم يمض وقت طويل قبل أن يجري صياغة مناهج لجمع المعلومات عن العالم الجديد في الوطن، الأمر الذي أدى إلى وضع خرائط موثوقة، واكتشافات جديدة، وتدريب الملاحين، وبطبيعة

---

(1) Fernández de Enciso, *Suma de geografia*,

نقلًا عن:

E. Vilches, *New World Gold: Cultural Anxiety and Monetary Disorder in Early Modern Spain* (Chicago, 2010), p. 24.

(2) V. von Hagen, *The Aztec: Man and Tribe* (New York, 1961), p. 155.

(3) P. Cieza de León, *Crónica del Perú*, tr. A. Cook and N. Cook, *The Discovery and Conquest of Peru* (Durham, NC, 1998), p. 361.

(٤) عن دييجو دي أورداس (Diego de Ordás) انظر:

C. García, *Vida del Comendador Diego de Ordaz, Descubridor del Orinoco* (Mexico City, 1952).

الحال، جرى إحصاء الواردات إلى الوطن، وفرض الضرائب عليها على نحو صحيح[١]. وبدا الأمر كما لو أنه قد جرى تشغيل محرك دقيق للغاية، أخذ يضخ الثروات من أمريكا الوسطى والجنوبية مباشرة إلى أوروبا.

إضافة إلى ذلك، أثمر عدد من الصدف التي اجتمعت معًا -مثل: التوقيت، والمصاهرات، وحالات الإجهاض، وفسخ الخطبة- وريثًا واحدًا لممالك نابولي وصقلية وسردينيا، فضلًا عن الأراضي الممتدة عبر بورغوندي (Burgundy) والأراضي المنخفضة- وإسبانيا. وفي ظل تدفق الأموال غير المحدودة على ما يبدو عبر المحيط الأطلسي، لم يكن الملك الإسباني تشارلز الخامس (Charles V) سيد إمبراطورية جديدة في الأمريكتين فحسب، بل كان الشخصية المهيمنة على السياسة الأوروبية. ومن ثم أعاد ضبط بوصلة الطموحات وفقًا لذلك؛ ففي ١٥١٩م أراد تشارلز تدعيم مركزه، مستخدمًا عضلاته المالية الاستثنائية لضمان انتخابه إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا[٢].

كان حظ تشارلز السعيد مدمرًا للقادة الأوروبيين الآخرين، الذين ألفَوا أنفسهم أضعف تسليحًا، وأقل قدرة على المناورة، في مواجهة ملك أبدى تصميمًا على توسيع سلطته أكثر من أي وقت مضى. وكانت ثروته ونفوذه في تناقض حاد مع شخصيات مثل هنري الثامن (Henry VIII) ملك إنجلترا، الذي كان دخله محرجًا مقارنة بكنيسة بلده- ناهيك عن كنيسة نظيره الإسباني. وكان هنري رجلًا شديد الخصومة، على حد تعبير مبعوث البندقية إلى لندن، وكانت «سمانة ساقه رفيعة للغاية»، وشعره قصيرًا ومستقيمًا «على الطريقة الفرنسية» وله وجه مستدير «كالقمر، فلو أنه خُلق امرأة، لكانت امرأة بارعة الجمال»، ولم يكن بمقدوره أن يختار لحظة أسوأ من تلك التي اختارها، في محاولة لتغيير ترتيباته المحلية[٣].

في الوقت الذي أصبح فيه تشارلز الخامس سيد الدُّمى في معظم أنحاء أوروبا والبابوية، أصر هنري على فسخ زواجه حتى يتمكن من الزواج من آن بولين (Anne Boleyn)، وهي امرأة لم تكن «أكثر النساء جمالًا في العالم» بيد أنها كانت تنعم بعينين «سوداوين جميلتين»، على حد تعبير أحد المعاصرين. وكان تصرف هنري متهورًا إلى أقصى حد، نظرًا لأن الزوجة التي كان يروم طلاقها لم تكن سوى عمة تشارلز الخامس، كاثرين الآراغونية (Catherine of Aragon)[٤]. ولم يكن ملك إنجلترا

---

(1) A. Barrera, 'Empire and Knowledge: Reporting from the New World', *Colonial Latin American Review* 15.1 (2006), 40–1.

(2) H. Rabe, *Deutsche Geschichte 1500–1600. Das Jahrhundert der Glaubensspaltung* (Munich, 1991), pp. 149–53.

(3) Letter of Pietro Pasqualigo, in J. Brewer (ed.), *Letters and Papers, Foreign and Domestic, of the Reign of Henry VIII*, 23 vols (London, 1867), 1.1, pp. 116–17.

=

(٤) عن آن بولين (Anne Boleyn)، انظر:

-في خضم الاضطرابات التي أعقبت رفض البابا الموافقة على الفسخ- يعادي البابوية فحسب؛ بل كان يخوض معركة ضد أغنى رجل في العالم، ناهيك عن أنه كان سيد القارات.

ولم تبد الأهمية المتزايدة لإسبانيا في أوروبا، وتوسعها السريع في أمريكا الوسطى والجنوبية أقل من كونها معجزة. وأدى التحول الملحوظ في الثروة، والسلطة، والفرص إلى تحول إسبانيا من منطقة راكدة إقليمية تقع في الطرف الخطأ من البحر المتوسط، إلى قوة عالمية. ورأى أحد المؤرخين الإسبان، أن هذا يرقى إلى وصفه بأنه «أعظم حدث منذ الخلق، بعد التجسد، وموت المسيح بطبيعة الحال»[١]. وعلى صعيد آخر، كان من الواضح أن الله هو الذي كشف «ولايات بيرو، التي عُثر فيها على كنز عظيم من الذهب والفضة»؛ بحيث يصعب على الأجيال القادمة تصديق الكميات التي عُثر عليها ثمة، على حد قول بيدرو ميكسيا (Pedro Mexia)[٢].

وسرعان ما تبع اكتشاف الأمريكتين استيراد العبيد، الذين ابتيعوا من أسواق البرتغال. وكما خبر البرتغاليون من تجاربهم في مجموعات الجزر الأطلسية وغرب إفريقيا، فإن الاستيطان الأوروبي كان مكلفًا، ولم يكن دائمًا مجزيًا اقتصاديًا، وكانت النية في الاستيطان أسهل من الفعل؛ فكان إقناع العائلات بترك أحبائهم وراءهم أمرًا صعبًا للغاية، وزادت معدلات الوفيات المرتفعة، ومعاناة الظروف المحلية الأمر صعوبة. وتمثل أحد الحلول في إرسال الأيتام والمحكومين قسرًا إلى أماكن مثل ساو تومي (Sao Tome)، مع نظام من المزايا والحوافز، مثل توفير «عبد أو جارية للخدمة الشخصية»؛ وذاك لإنشاء قاعدة سكانية يمكن أن يُبنى عليها نظام إداري مستدام[٣].

وكان التاج الإسباني بالفعل -في غضون ثلاثة عقود من عبور كولومبوس- ينظم رسميًا تصدير العبيد من إفريقيا إلى العالم الجديد ونقلهم، ويرخص السبي للتجار البرتغاليين الذين قست قلوبهم، وتبلدت عقولهم بعد أجيال من الاتجار بالبشر[٤]. وكان الطلب على العبيد نهمًا في منطقة أدى فيها العنف والمرض إلى انخفاض متوسط العمر المتوقع. كما كانت زيادة تركيز الثروة في جزء من العالم

= *Calendar of State Papers and Manuscripts, Relating to English Affairs, Existing in the Archives and Collections of Venice, and in Other Libraries of Northern Italy*, ed. R. Brown et al., 38 vols (London, 1970), 4. p. 824.

(1) Francisco López de Gómara, *Historia general de las Indias*, ed. J. Gurría Lacroix (Caracas, 1979), 1, p. 7.

(2) Pedro Mexia, *Historia del emperador Carlos V*, ed. J. de Mata Carrizo (Madrid, 1945), p. 543.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Vilches, *New World Gold*, p. 26.

(3) F. Ribeiro da Silva, *Dutch and Portuguese in Western Africa: Empires, Merchants and the Atlantic System, 1580–1674* (Leiden, 2011), pp. 116–17; Coates, *Convicts and Orphans*, pp. 42–62.

(4) E. Donnan (ed.), *Documents Illustrative of the History of the Slave Trade to America*, 4 vols (Washington, DC, 1930), 1, pp. 41–2.

تعني ارتفاعًا حادًا في الطلب على العبيد على الجانب الآخر. تمامًا كما كان الحال عندما ازدهر العالم الإسلامي في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. لقد سارت الثروة والعبودية يدًا بيد.

ولم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ الحكام الأفارقة في الاحتجاج. فوجه ملك الكونغو سلسلة من المناشدات إلى ملك البرتغال يشجب فيها العبودية، ويحتج على اختطاف الشبان والشابات -بمن فيهم أولئك الذين ينتمون إلى عائلات نبيلة- في وضح النهار لبيعهم للتجار الأوروبيين الذين وصفهم بالمكواة الساخنة[1]. ورد الملك البرتغالي عليه قائلاً له: ينبغي أن تكف عن الشكاية؛ إذ إن الكونغو أرض شاسعة يمكن أن تتحمل إبعاد بعض سكانها عنها؛ واستطرد قائلًا: على أية حال، فقد استفادت بلادك إلى حد كبير من التجارة، بما في ذلك تجارة العبيد[2]. وانزعج بعض الأوروبيين -على الأقل- من محنة العبيد، والتركيز المستمر على ما يبدو على انتزاع المكافآت من الأراضي المكتشفة حديثًا.

وعلى الرغم من أن حلم استعادة القدس قد توارى خلف الظلال، فإن مفهوم التبشير -بوصفه واجبًا نصرانيًا- سرعان ما حل محله[3]. فكتب أحد كبار طائفة اليسوعيين (Jesuit) بغضب في عام ١٥٩٩م قائلًا: المستوطنون الأوروبيون في أمريكا الجنوبية، «لا يفهمون أبدًا» أن الغرض من الاستعمار «ليس اكتناز الذهب، أو الفضة، أو الاستيلاء على الأرض، أو تشييد المطاحن، أو جلب الثروة [للوطن] ... بقدر ما كان الهدف منه تمجيد الإيمان الكاثوليكي، وإنقاذ الأرواح»[4]. لقد كان الهدف هو نشر كلمة الله، وليس كسب المال. ولم يكن ذلك إلا رجع صدى لاحتجاجات المبشرين النصارى الذين سافروا على طول طرق التجارة المزدهرة والمستوطنات على سهول جنوب روسيا وآسيا الوسطى قبل قرون، والذين اشتكوا أيضًا من أن التعلق بالتجارة يصرف الأنظار عن معالي الأمور.

وبدا أن هناك أسباب معقولة للشكوى من تجاهل فوائد المكافآت الروحية فيما تعلق بالعالم الجديد. فقد كان الذهب يتجه عائدًا إلى إسبانيا بالأحجام نفسها التي كان يُنقَل بها في منتصف القرن السادس عشر، وكان بعض الناس يصف العصر بأنه تجاوز عصر سليمان الأسطوري؛ فقد جرى شحن كثير من الكنوز، حتى قيل لـ تشارلز الخامس في عام ١٥٥١م: إن «هذا العصر جدير بأن يُطلق عليه *Era dorada*»، أي «العصر الذهبي»[5].

---

(1) B. Davidson, *The Africa Past: Chronicles from Antiquity to Modern Times* (Boston, 1964), pp. 194–7.

(2) Brásio, *Missionaria Africana*, 1, pp. 521–7.

(3) A. Pagden, *Spanish Imperialism and the Political Imagination: Studies in European and Spanish-American Social and Political Theory, 1513–1830* (New Haven, 1990).

(4) Letter of Manoel da Nóbrega,

نقلًا عن:

T. Botelho, 'Labour Ideologies and Labour Relations in Colonial Portuguese America, 1500–1700', *International Review of Social History* 56 (2011), 288.

(5) M. Cortés, *Breve compendio de la sphere y el arte de navegar*,

=

ولـم تكـن كل الثروات المسـتخرجة من الأمريكتين تعود إلى إسـبانيا. فما أن بدأت الأسـاطيل في إعادة الكنوز إلى الوطن، حتى انتشر المغامرون والقراصنة الذين تمركزوا في موانئ في فرنسا، وشمال إفريقيـا يحاولـون قطـع الطريـق على السـفن والاسـتيلاء علـى الغنائم لأنفسـهم. وكانوا -في مسـتهل أمرهم- يتربصون بالسفن انتظارًا لاقترابها من البر الرئيس، وبمرور الوقت أصبحوا يغامرون باعتراض السفن في عرض البحر الكاريبي لاقتناص الأهداف السمينة في مناطق أبعد عن قواعدها[1].

وجذبت حسابات الجوائز في الخارج الانتهازيين من كل حدب وصوب. وكتب أحد المعاصرين يائسًـا: «جذبت التقارير عن الثروات العظيمة والمجد» التي يمكن جنيها من سـاحل المحيط الأطلسي لشـمال إفريقيـا، الرجـال هناك «بنفـس الإثارة التي دفعت الإسـبان إلـى مناجم جزر الهند»[2]. وشـمل هـؤلاء المغيريـن المسـلمين، الذين لم يكتفوا بالاسـتيلاء على السـفن المحملة بالبضائع والسـلع، بل ركزوا أيضًا على تدمير الموانئ والبلدات الواقعة على سـاحل إسـبانيا، حيث سـبوا آلاف الأسـرى في غضون هذه العمليات، فجرى فداء بعضهم، أو بيعوا بوصفهم عبيدًا.

وارتدت تلك الغارات مسوح الدين، وبدت هذه طريقة مثالية للغاية لرؤية الأشياء. ولكن في حالة القرصنـة الأوروبيـة، كانـت هنـاك نقاط سياسـية يتعين طرحهـا؛ فقد أصبحـت الهجمات على السـفن الإيبيرية صناعة منظمة، مع إصدار التراخيص المعروفة باسم (Lettres de marque) من قبل المنافسين النصارى لملك إسبانيا. فما كان من الأخير إلا أن أصدر بدوره عقود قنص للقراصنة مغرية كل الإغراء، تُعرف باسـم «كونترا كورسـاريوس *Contra-corsarios*»، وتقضي بتسليم عتاة الجناة من القراصنة إلى العدالة. وأولئك الذين نجحوا في ذلك حصدوا مكافآت سـنية من التاج، كما نالوا شـهرة عريضة، مثل بيـدرو مينينديـز دي أفيليس (Pedro Menéndez de Avilés) الذي كان يدمر فريسـته على طريقة الطيار المقاتل في زمن الحرب برسم خط بالطباشير رمزًا لضحيته[3].

* * *

اكتُشـف عالـم جديـد في الخـارج، بيد أنه جرى أيضًا إنشـاء عالـم جديد في الداخـل؛ حيث جرى تشـجيع الأفـكار الجديـدة النابضـة بالحياة، وانغمـس الناس فـي الأذواق الجديدة، وتزاحـم المثقفون

= نقلًا عن:

Vilches, *New World Gold*, pp. 24–5.

(1) R. Pieper, *Die Vermittlung einer neuen Welt: Amerika im Nachrichtennetz des Habsburgischen Imperiums, 1493–1598* (Mainz, 2000), pp. 162–210.

(2) Diego de Haëdo, *Topografia e historia general de Arge*, tr. H. de Grammont, *Histoire des rois d'Alger* (Paris, 1998), 1. p. 18.

(3) E. Lyon, *The Enterprise of Florida: Pedro Menéndez de Avilés and the Spanish Conquest of 1565–1568* (Gainesville, FL, 1986), pp. 9–10.

والعلمـاء علـى أبواب الرعاة، وتنافسـوا علـى الرعاية والتمويـل. وأدى الارتفاع فـي الدخل -لأولئك الذين انخرطوا على نحو مباشـر في استكشـاف القارات والثروة التي جلبوها- إلى تمويل عملية انتقال ثقافـي غيـرت وجـه الحياة فـي أوروبا. وظهـرت مجموعة كبيرة مـن الرعاة الأثرياء فـي غضون عقود، وتميزوا بالحرص على إنفاق المال على أوجه الرفاهية. وكانت هناك رغبة متزايدة في حيازة كل ما هو نادر وغريب.

ووهبت الثروة الأوروبية تلك النقلة الجديدة المباهاة والثقة، كما عززت الإيمان؛ حتى إنه لم يكن يُتوقع أن تُحدث استعادة القدس نفسـها ذلك الأثر نفسـه. وبدا من الواضح تمامًا -في أعين عدد كبير مـن النـاس- أن الثـروة اللامحـدودة التـي جـرى الحصـول عليهـا مـن الأمريكتيـن كانت تأكيـدًا على بـركات الله، وقـد «وهبهـا الرب في عليائه، فهو الذي يُعز من يشـاء، ويُذل من يشـاء، وكيفما يشـاء»[1]. وعلـى هـذا النحو بدأ عصـر ذهبي على الحقيقة لا المجاز. ومن ثم انبلج فجر حقبة جديدة، تسـبب في انبلاجه سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك عام ١٤٥٣م، الأمر الذي أدى إلى نسيان البكاء والعويل، والضرب على الصدور، والدموع التي ذُرِفت في شوارع روما.

ظلـت هنـاك مهمة-آنـذاك- كان ينبغـي إنجازها، تمثلـت في إعادة اختـراع الماضـي. وأتاح زوال العاصمـة الإمبراطوريـة القديمـة فرصـة محققة أمـام الورثة الجـدد -بالتبنِّـي- للمطالبة بـإرث اليونان القديمة وروما، وهو الأمر الذي جرى القيام به بحماسة. والحق أنه لم يكن لفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وإسبانيا، والبرتغال، وإنجلترا علاقة تُذكر بأثينا وعالم اليونانيين القدماء، كما كانت تلك البقاع هامشية إلـى حـد كبير فـي تاريخ روما، منذ أيامها الأولى حتى زوالها. بيد أنـه جرى تجاهل هذه الحقيقة عندما شرع الفنانون، والكتَّاب، والمهندسون المعماريون في العمل، فاستعاروا موضوعات وأفكارًا ونصوصًا مـن العصـور القديمـة لتقديم قصـة انتقائية من الماضي؛ لـم تعد -بمرور الوقت- معقولة فحسـب، بل أضحت في حكم الحقيقة الدامغة. وعلى الرغم من أن العلماء أطلقوا على هذه الفترة اسم عصر البعث (النهضة) (Renaissance)، فإن هذا لم يكن بعثًا جديدًا قط، بل كان -بالأحرى- ميلادًا؛ ذاك أن أوروبا أضحت في قلب العالم، ولأول مرة في التاريخ.

(1) Jose de Acosta, *Historia natural y moral de las Indias*, in Vilches, *New World Gold*, p. 27.

-١٢-

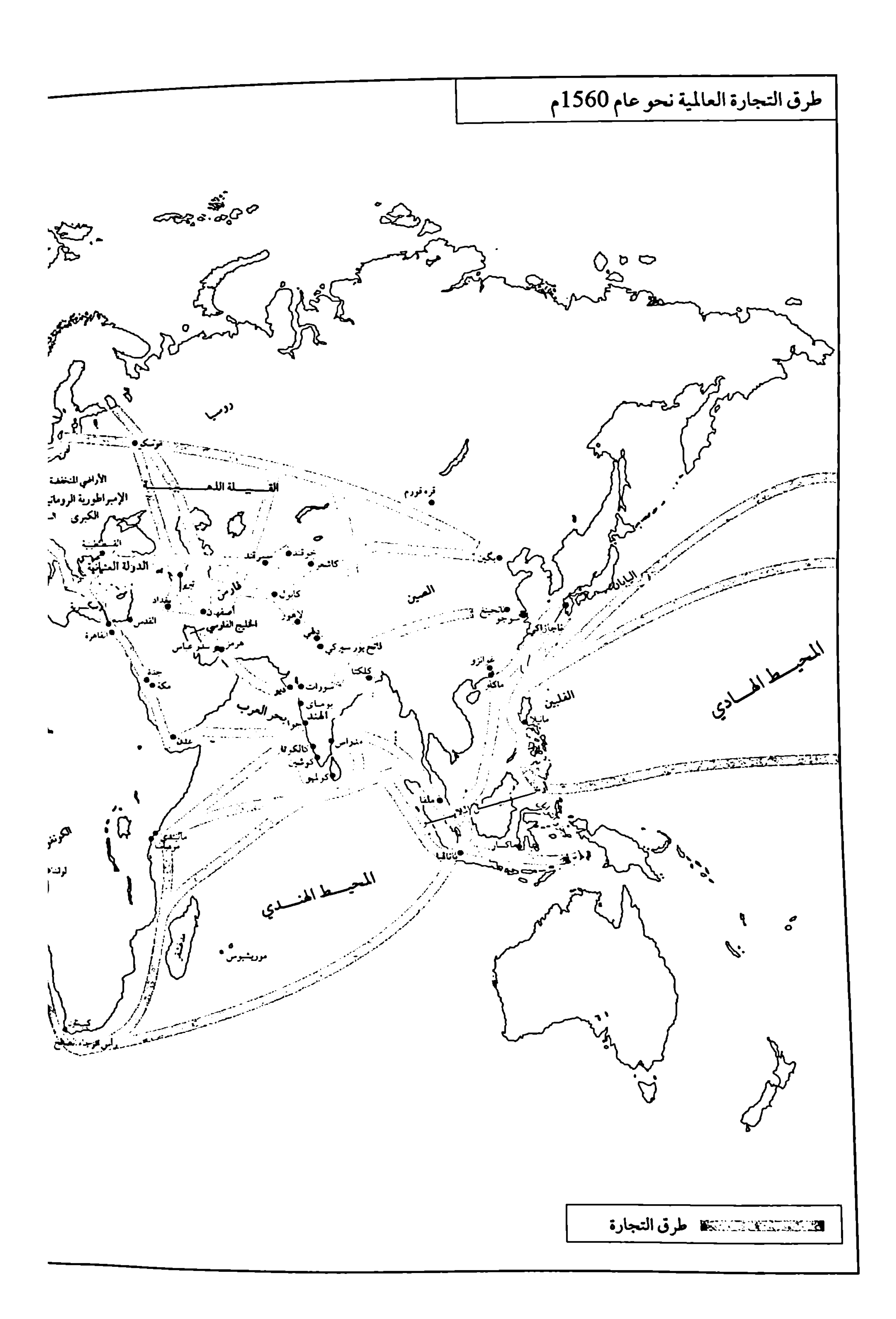
طريق الفضة

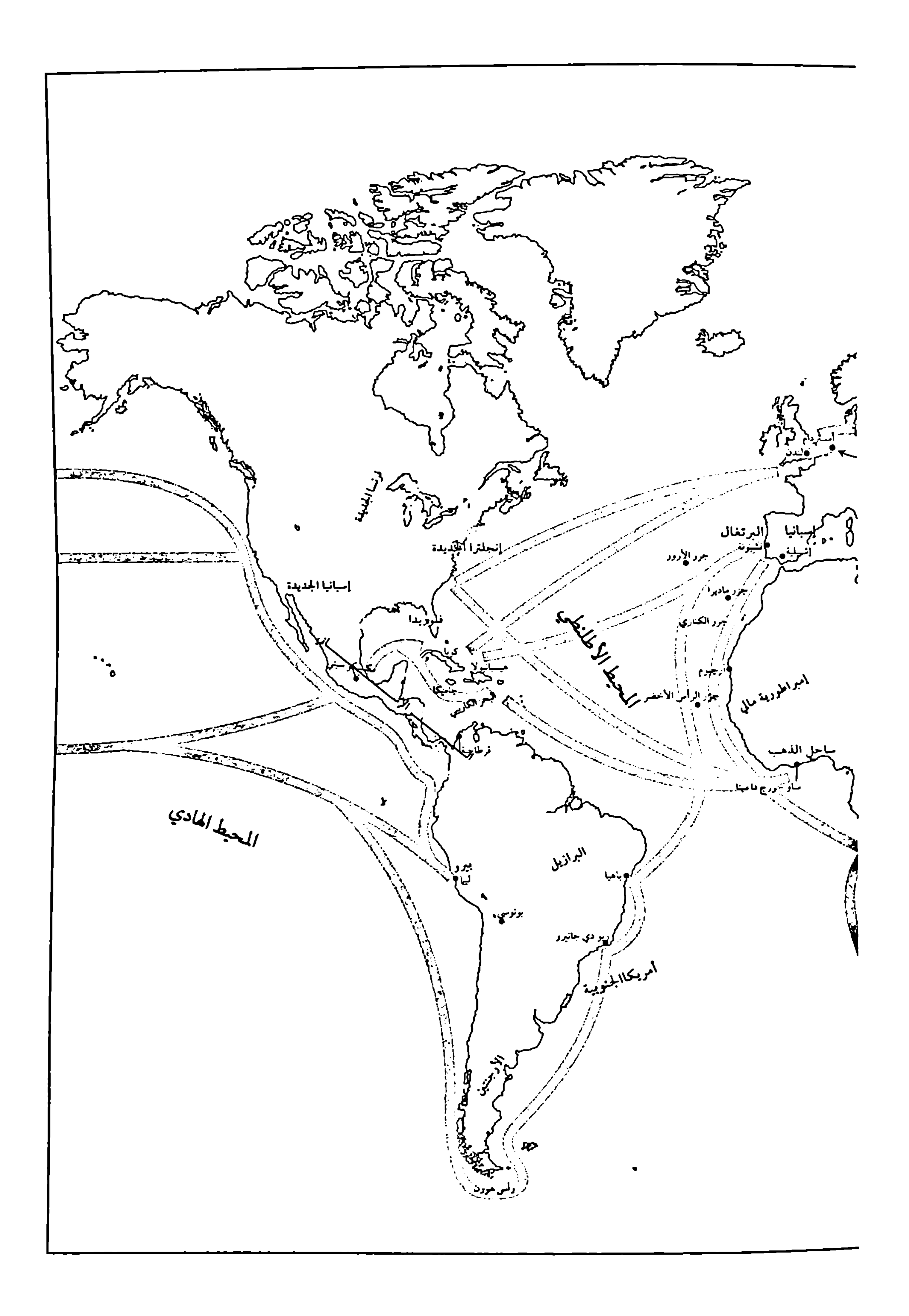
بـدأت التجـارة -بأنواعهـا- فـي الانتعـاش بعـد الصدمـات الاقتصاديـة التـي تلقتها قبيل اكتشـاف الأمريكتين في القرن الخامس عشر. ويرى بعض الباحثين أن هذا الانتعاش نتج عن تحسن القدرة على الوصـول إلى أسـواق الذهب في غربـي إفريقيا، بالتزامن مع زيادة إنتاج الذهب المسـتخرج من مناجم البلقـان وغيرهـا في أوروبـا. وربما كان ذلك بفضل التقدم التقني الذي سـاعد على فتح مصادر جديدة للمعادن الثمينة. فعلى سـبيل المثال، يبدو أن إنتاج الفضة ارتفع بمقدار خمسـة أضعاف في ساكسـونيا (Saxony)، وبوهيميا (Bohemia)، والمجر (Hungary)، وكذلك في السـويد في العقود التي تلت عام ١٤٦٠م[١]. بينما أشار باحثون آخرون إلى حقيقة أن عملية جباية الضرائب في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي أضحت أكثر كفاءة. لقد لقَّن الانكماش الاقتصادي الدول بعض الدروس، ولا سـيما الحاجـة إلـى التحكم في القاعدة الضريبيـة بمزيد من اليقظة؛ وهو الأمر الـذي أدى بدوره إلى ما يسـمى بـ «إحيـاء الملكيـة Revival of monarchy»؛حيث كانت المركزية أمرًا مـن الأهمية بمكان من المنظور المالي، كما كانت كذلك من المنظورين الاجتماعي والسياسي[٢].

وإذا حكَّمنـا روايـة رحالـة كوري، فقد يبدو لنا أن وتيرة التبادل التجـاري قد زادت في أواخر القرن الخامس عشر. لقد كانت السفن تتجمع «كالغيوم» -على حد وصف تشوي بو (Ch'oe P'u)- في ميناء سوتشو (Suzhou) -الواقع على بعد نحو سبعين ميلًا من شنغهاي (Shanghai)- كي تنقل شحناتها من «الحرير الرقيق، والشـاش، والذهب، والفضة، والجواهر، والمصنوعات اليدوية» إلى أسـواق جديدة. وكانت المدينة تغص بالتجار الأغنياء، وتفاخر بمسـتويات المعيشـة الفاخرة. ثم اسـتطرد ذلك الرحالة حاسـدًا: «يعيش الناس في رفاهية»، كما أشـار إلى أن «أرباع السـوق مبعثرة كالنجوم» في هذه المنطقة

(1) H. Miskimin, *The Economy of Later Renaissance Europe, 1460–1600* (Cambridge, 1977), p. 32; J. Munro, 'Precious Metals and the Origins of the Price Revolution Reconsidered: The Conjecture of Monetary and Real Forces in the European Inflation of the Early to Mid-16th Century', in C. Núñez (ed.), *Monetary History in Global Perspective, 1500–1808* (Seville, 1998), pp. 35–50; H. İnalcık, 'The Ottoman State: Economy and Society, 1300–1600', in H. İnalcık and D. Quataert (eds), *An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300–1914* (Cambridge, 1994), pp. 58–60.

(2) P. Spufford, *Money and its Use in Medieval Europe* (Cambridge, 1988), p. 377.


طرق التجارة العالمية نحو عام 1560م
روسيا
موسكو
القبيلة الذهبية
قره قورم
الإمبراطورية الرومانية
الكبرى
الدولة العثمانية
سمرقند
كاشغر
بكين
كابول
فارس
بغداد
أصفهان
الخليج الفارسي
هرمز
القاهرة
جدة
مكة
عدن
بحر العرب
الصين
اليابان
ناجازاكي
ماكاو
الفلبين
مانيلا
ملقا
كلكتا
مدراس
كالكوتا
كوشين
كولمبو
المحيط الهادي
المحيط الهندي
موريشيوس
طرق التجارة


المحيط الهادي
المحيط الأطلنطي
البرتغال
إسبانيا
لشبونة
إشبيلية
لندن
جزر الأزور
جزر ماديرا
جزر الكناري
جزر الرأس الأخضر
امبراطورية مالي
ساحل الذهب
إنجلترا الجديدة
إسبانيا الجديدة
فلوريدا
البرازيل
باهيا
ريو دي جانيرو
أمريكا الجنوبية
بيرو
ليما
بوتوسي
الأرجنتين
كاب هورن

الغنية والخصبة[1]. وعلى الرغم من أن هذا الوصف بدا مبشرًا، إلا أن مفتاح حل أزمة الانكماش الاقتصادي لم يكن يكمن في موانئ ساحل الصين على المحيط الهادئ، بل كان يكمن على بعد آلاف الأميال، أعني شبه الجزيرة الإيبيرية.

جاء ذلك الحل على مرحلتين، فأولًا: حفز الانتعاش الاقتصادي التدريجي الذي شهدته أوروبا -في أواخر القرن الخامس عشر- طلب المستهلكين على السلع الفاخرة. أما المرحلة الثانية: فقد شُيِّد مخزن هائل للموارد عندما شُحنت ثروات العالم الجديد إلى إسبانيا. ففي إشبيلية، جرى تخزين الذهب والفضة «كالقمح» في غرفة الجمارك، الأمر الذي دفع الحكومة إلى تشييد مبنى جديد يسعه أن يستقبل هذا الحجم المذهل من البضائع الواردة، بحيث يمكن فرض الضرائب عليها على نحو صحيح[2]. وعبر أحد الكتَّاب عن دهشته عندما جرى تفريغ حمولة واحدة في يوم واحد فحسب، فقد رأى بأم عينيه ٣٣٢ «عربة محملة بالفضة، والذهب، واللؤلؤ الثمين»؛ لتقديم بيان رسمي عن حمولتها. وبعد ستة أسابيع، رأى أيضًا ٦٨٦ شحنة أخرى من المعادن الثمينة جرى جلبها. فكتب قائلًا: وهناك كثير غيرها، ثم استطرد: إن مخازن وكالة «كاسا [دي كونتراتسيون Casa de Contratación][3] لم تتمكن من استيعابها جميعًا، وسرعان ما تجاوزت البضائع سعة الميناء، حتى إنها خُزِّنت في الفناء»[4].

وتزامنت المكاسب الهائلة التي أعقبت عبور كولومبوس للمحيط الأطلسي مع النجاح الباهر لبعثة بحرية أخرى لم تكن أقل طموحًا من بعثة كولومبوس. ففي الوقت الذي أخذت فيه الوساوس تساور إسبانيا بشأن محاولات كولومبوس الرامية لإيجاد طريق إلى آسيا، وتمويلها الذي عدته خطأً فادحًا ومكلفًا؛ كان يجري تجهيز أسطول آخر على أهبة الاستعداد للإبحار. ووُضِعت طواقم السفن تحت قيادة ڤاسكو دا جاما (Vasco da Gama)، واستقبل ملك البرتغال، مانويل الأول (Manuel I) تلك الطواقم قبل رحيلهم. وفي ثنايا حديثه إليهم، تجاهل الملك -متعمدًا- ذكر أنباء الاكتشافات الأخيرة عبر المحيط الأطلسي. ثم حدد هدف دا جاما قائلًا: ينبغي عليك إيجاد «طريق جديدة للهند والدول الواقعة بالقرب منها». ثم استطرد قائلًا: سينتشر «إيمان ربنا يسوع المسيح» في «ممالك وعوالم جديدة» يجري انتزاعها من براثن الكفار (يعني المسلمين). بيد أن الملك كان يرجو عَرض الحياة الدنيا مُعجَّلًا أيضًا، فأردف قائلًا: ألن يكون من الرائع الحصول على «ثروات الشرق التي احتفى بها الكتَّاب

---

(1) Ch'oe P'u, *Ch'oe P'u's Diary: A Record of Drifting Across the Sea*, tr. J. Meskill (Tucson, AZ, 1965), pp. 93–4.

(2) Vélez de Guevara, *El diablo conjuelo*,

نقلًا عن:

R. Pike, 'Seville in the Sixteenth Century', *Hispanic American Historical Review* 41.1 (1961), 6.

(٣) وكالة حكومية إسبانية كانت منوطة باستكشاف العالم الجديد وإقامة المستعمرات الإسبانية فيه. (المترجم)

(4) Francisco de Ariño, *Sucesos de Sevilla de 1592 a 1604*, in ibid., 12–13; Vilches, *New World Gold*, pp. 25–6.

القدامى»؟ ثم عقّب قائلًا: انظروا كيف أفادت البندقية، وجنوة، وفلورنسا، والمدن الإيطالية العظيمة الأخرى من التجارة مع الشرق. لقد كان البرتغاليون يدركون -متألمين- أنهم لم يكونوا في الجانب الخطأ من العالم فحسب؛ بل إن موقعهم نفسه كان في الطرف الخطأ من أوروبا أيضًا(1).

وسرعان ما تغير هذا الوضع بالكلية مع بعثة دا جاما الاستكشافية. ومع ذلك لم تبد الأمور واعدة عندما وصلت سفنه لأول مرة إلى جنوب إفريقيا. وخاب أمل الربان عندما التقى السكان، الذين كانوا يرتدون ثيابًا من الجلود، وأغمادًا على عوراتهم المغلّظة كانت بالكاد تسترها. كما سئم رجاله الطعام المكون من لحم الفُقمة، ولحم الغزال، ومضغ جذور الأعشاب. ثم سرعان ما اتضح لـ دا جاما وطاقمه أن الأهالي «لا علم لهم بالتوابل قط» وذلك بعد أن عرض عليهم عينات من القرفة، والقرنفل، واللؤلؤ، والذهب وغيرها من السلع(2).

بيد أن داجاما ما أن دار حول رأس الرجاء الصالح واتجه شمالًا، حتى أفتر حظه عن ثغره له. ففي ماليندي (Malindi)، لم يعلم دا جاما بأمر المجاز الشرقي فحسب، بل وجد ملاحًا متمرسًا، أبدى استعدادًا لمساعدته في التعامل مع الرياح الموسمية، والأخذ بقياده للوصول إلى الهند. وبعد رحلة استغرقت عشرة أشهر، رسا دا جاما قبالة ميناء كاليكوت (Calicut)(3). لقد نجح دا جاما من حيث فشل كولومبوس، لقد وجد -أخيرًا- طريقًا بحريًا إلى آسيا.

صادف دا جاما -في كاليكوت- عددًا من التجار الذين جاؤوا إلى المدينة من مكان قريب من الديار؛ فقد التقطت أذنه -من بين الأصوات الأولى التي سمعها ثمة- أصوات أناس يتحدثون بلسان مألوف له. «أخذك شيطان!» كذا صاح به أحد التجار التونسيين المسلمين -باللغتين الإسبانية والجنوية- ممازحًا؛ «ما الذي أتى بك إلى هنا؟!»، وبعد تبادل المجاملات، كان لما ذكره له أولئك النفر من التجار وقع الموسيقى على أذنيه: «يا له من حظ سعيد، يا له من فأل طيب! هناك الكثير من الياقوت هنا، والكثير من الزمرد! ينبغي أن تحمد الله كثيرًا؛ لأنه أتى بك إلى أرض بها ثروات من هذا القبيل!»(4).

ومع ذلك، بذل البرتغاليون جهدًا ليفهموا ما كانوا يرونه؛ ذاك أن الحيرة استبدت بهم، تمامًا كما كانت حال كولومبوس. فقد اعتقدوا أن المعابد المليئة بتماثيل الآلهة الهندوسية التي ترتدي التيجان هي كنائس مزينة بصور القديسين النصارى. كما فسروا المياه التي كانت تُرش في طقوس التطهير على

(1) G. de Correa, *Lendas de India*, 4 vols (Lisbon, 1858-64), I, p. 7; A. Baião and K. Cintra, *Ásia de João de Barros: dos feitos que os portugueses fizeram no descombrimento e conquista dos mares e terras do Oriente*, 4 vols (Lisbon, 1988-), I, pp. 1-2.

(2) A. Velho, *Roteiro da Primeira Viagem de Vasco da Gama*, ed. N. Águas (Lisbon, 1987), p. 22.

(3) S. Subrahmanyam, *The Career and Legend of Vasco da Gama* (Cambridge, 1997), pp. 79-163.

(4) Velho, *Roteiro de Vasco da Gama*, pp. 54-5.

أنها مياه مقدسة كان الكهنة النصارى يوزعونها[١]. لقد انتشرت في أوروبا -قبل فترة طويلة- روايات تحكي كيفية وصول القديس توما (St Thomas) -وكان واحدًا من حواريي المسيح- إلى الهند، ودخول أعداد كبيرة هناك في النصرانية على يده، الأمر الذي أدى -بدوره- إلى عدد من الأباطيل الأخرى التي خلص إليها دا جاما، ولا سيما رأيه الذي يقضي بأن هناك عددًا كبيرًا من الممالك النصرانية في الشرق مستعدة لقتال المسلمين. ثم تبين أن الكثير مما ذكره حول ما شاهده في الشرق كان إما ضلال محض، أو خطأ فاحش[٢].

على أية حال فقد فاوض داجاما زامورين -وكان حاكم كاليكوت- ثم أُرتج عليه -أعني دا جاما- لما عجز عن إثبات دعواه بأن ملك البرتغال يمتلك ثروة لا تُصدق، وتتجاوز كثيرًا ثروة «أي ملك من ملوك هذه البقاع» على حد وصف الأدميرال؛ فقيل له: لمَ لا يسعه تقديم دليل على وجود مثل هذه الثروات؟ عندئذ أخرج دا جاما مجموعة منتخبة من القبعات، وأحواض الغسيل، إلى جانب بعض خيوط المرجان، والسكر، والعسل. وكاد يُغشى على حاشية زامورين من الضحك، ثم قالوا له: إن أفقر تاجر من مكة لم يُهِن حاكمهم بمثل هذه الهدايا البائسة قط[٣].

تصاعد التوتر بين البرتغاليين وبين ملك كاليكوت، وألفى البرتغاليون تحركاتهم مقيدة؛ حيث جرى إبقاؤهم تحت المراقبة من مجموعة كبيرة من الحراس، وكانوا «كلهم مسلحون بالسيوف، والبُلَط ذات الحدين، والدروع، والأقواس، والسهام»، وبات دا جاما ورجاله يخشون وقوع المكروه، ثم أذن زامورين -بغتة- للبرتغاليين بإنزال بضائعهم والمتاجرة مع أهل البلاد. فأقبلوا على جمع التوابل، والبضائع بشغف لإقامة البرهان على ما وجدوه في رحلاتهم، ثم انطلقوا بها عائدين إلى الديار. وغيَّر ما أعادوه معهم إلى وطنهم العالم بمعنى الكلمة.

وأدت عودة دا جاما بعد عامين من السفر الملحمي إلى احتفال حماسي. ففي حفل أقيم في كاتدرائية لشبونة (Lisbon) -احتفالًا بنجاح بعثة دا جاما- شُبِّه دا جاما بالإسكندر الأكبر دون وجل، وهي مقارنة جرى تبنيها بشغف، واستُخدمت مرارًا من قبل الكتَّاب المعاصرين، ليس في البرتغال فحسب، بل في غيرها من أقطار أوروبا أيضًا- وصفًا للإنجاز المتمثل في الانفتاح على عالم جديد، وغير مألوف في الشرق[٤].

وكان وصول دا جاما إلى الهند انتصارًا دعائيًا كبيرًا للملك مانويل، الذي كتب على الفور إلى

---

(1) Ibid., p. 58.

(2) S. Subrahmanyam, 'The Birth-Pangs of Portuguese Asia: Revisiting the Fateful "Long Decade" 1498–1509', *Journal of Global History* 2 (2007), 262.

(3) Velho, *Roteiro de Vasco da Gama*, p. 60.

(٤) انظر:

Subramanyam, *Vasco da Gama*, pp. 162–3, pp. 194–5.

فرديناند وإيزابيلا (وكانا صهريه) مُتباهيًا بالإنجازات التي حققتها بلاده؛ فكتب -بفرحة عارمة- عن الطريقة التي جلب بها رجاله «القرفة، والقرنفل، والزنجبيل، وجوز الطيب، والفلفل»، إلى جانب التوابل والنباتات الأخرى، هذا فضلًا عن «عدد كبير من الأحجار الكريمة من جميع الأنواع، مثل الياقوت وغيره». وأضاف مُبتهجًا: «لا شك عندي أن سموكما ستُظهران السرور والرضا ما أن تتناهى إلى مسامعكما هذه الأنباء»[١]. لقد تحدث كولومبوس عن إمكانات واعدة؛ بيد أن داجاما حقق نتائج ملموسة.

وسرعان ما وجد حكام إسبانيا بعض العزاء. فبعد الحملة الأولى عبر المحيط الأطلسي، ضغط فرديناند وإيزابيلا على البابا لمنح إسبانيا السيادة على جميع الأراضي المكتشفة عبر المحيط الأطلسي، بالطريقة نفسها التي فعلتها البابوية مرارًا خلال القرن الخامس عشر الميلادي فيما يتعلق بالبعثات البرتغالية إلى إفريقيا. وصدرت أربعة مراسيم بابوية -على الأقل- في عام ١٤٩٣م تحدد كيفية التعامل مع الاكتشافات الجديدة. وبعد الكثير من الجدل والشحناء حول المكان الملائم لرسم خط طولي، جرى التوصل إلى اتفاق في عام ١٤٩٤م عندما وُقِّعت معاهدة تورديسيلاس (Tordesillas)، التي استحدثت حدًّا فاصلًا يبعد نحو ٣٧٠ فرسخًا خارج جزر الرأس الأخضر. ونصت المعاهدة على ضرورة رسم «خط مستقيم، من الشمال إلى الجنوب، ومن القطب إلى القطب، على بحر المحيط المذكور، من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي». ومن ثم بات كل شيء غرب هذا الخط ملكًا لإسبانيا، وكل شيء يقع شرقه ملكًا للبرتغال[٢].

وسرعان ما أصبحت الأهمية الكاملة للاتفاقية واضحة بعد ثلاثة عقود. فبحلول عام ١٥٢٠م كانت السفن البرتغالية قد استكشفت الشرق أكثر من أي وقت مضى، وتجاوزت الهند، حتى وصلت إلى ملقا، وجزر التوابل، وجوانزو. ولم يدرك الإسبان -في غضون ذلك- أنهم اكتشفوا قارتين؛ أعني الأمريكتين، ولكن -مع الرحلة الاستكشافية المذهلة عبر البحار تمكن البرتغاليون من عبور المحيط الهادئ والوصول إلى الفلبين وجزر التوابل، ومن ثم حققوا طوافًا غير مسبوق حول العالم. وكان هناك بعض المفارقة في حقيقة أن الرجل الذي قاد هذه البعثة كان برتغاليًا، وخدم إسبانيا التي كانت على استعداد لتمويل بعثة للوصول إلى جزر التوابل من الغرب، وتأمينها. لقد خدم الرجل جارة بلاده

---

(1) Letter of King Manuel,

نقلًا عن:

Subrahmanyam, *Vasco da Gama*, p. 165.

(2) B. Diffie and G. Winius, *Foundations of the Portuguese Empire, 1415–1580* (Oxford, 1977), pp. 172–4; M. Newitt, *Portugal in European and World History* (2009), pp. 62–5; Delaney, *Columbus and the Quest for Jerusalem*, pp. 124–5; J. Brotton, *Trading Territories: Mapping the Early Modern World* (London, 1997), pp. 71–2.

وخصمها، ولم يكن ولاؤه لبلاده قط[١]. عندما شرع فيرناو دي ماجيلهايس (Fernao de Magelhaes)، المعروف لدينا باسم فرديناند ماجلان (Ferdinand Magellan)، في هذه الحملة الملحمية بين عامي ١٥١٩-١٥٢٠م، اضطرت البرتغال وإسبانيا إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات مجددًا؛ للاتفاق على خط في المحيط الهادئ يحاكي الخط الذي رُسِم في المحيط الأطلسي. وعلى هذا النحو قسَّمت الجارتان الإيبيريتان الكرة الأرضية بينهما. لقد نالا البركة من البابوية، ومن ثم البركة من الله[٢].

* * *

بات متعينًا على بقية أقطار أوروبا -آنذاك- أن تتكيف مع ثروات إسبانيا والبرتغال المتنامية. واستقبلت البندقية أخبار عودة دا جاما إلى وطنه عام ١٤٩٩م بمزيج من مشاعر الصدمة، والكآبة، والهستيريا. وهتف صوت صارخ: إن اكتشاف طريق بحري إلى الهند عبر جنوب إفريقيا لا يعني شيئًا سوى نهاية المدينة[٣]. واستطرد جيرولامو بريولي (Girolamo Priuli): إنه بات من المحتم أن ترتدي لشبونة تاج البندقية بوصفها مركزًا تجاريًا لأوروبا. وأردف قائلًا: «لا يراودني أدنى شك في أن المجريين، والألمان، والفلمنكيين، والفرنسيين، وكل هؤلاء الذين اعتادوا القدوم إلى البندقية لشراء البهارات بأموالهم من جميع أنحاء الجبال، سوف يلجؤون الآن إلى لشبونة». لقد كانت الأسباب واضحة عند بريولي، فقد كان الجميع يعلمون -وفق ما ذكره في مذكراته- أن البضائع التي تصل البندقية برًّا تمر بنقاط تفتيش لا حصر لها، حيث يتعين دفع الضرائب والرسوم على السلع؛ أما وقد أضحى بمُكنة البرتغاليين نقل البضائع عن طريق البحر، فقد غدوا قادرين على بيع السلع بأسعار لا يسع البندقية أن تأمل حتى في منافستها. إن الأرقام لغة لا تكذب قط، ومن ثم فإن فشل البندقية بات قدرًا مقدورًا[٤]. وتوصل غيره إلى استنتاجات مماثلة؛ فقد أصر جويدو ديتي (Guido Detti) -وكان تاجرًا من فلورنسا، يقيم في البرتغال في أوائل القرن السادس عشر الميلادي- على أن سكان البندقية سيفقدون السيطرة على حركة التجارة؛ ذاك أنهم لن يستطيعوا منافسة أسعار البضائع المنقولة عن طريق البحر إلى لشبونة. ثم استطرد ساخرًا: ينبغي على أهل البندقية العودة إلى صيد السمك. إن المدينة ستغور مجددًا في قيعان البحيرات التي أقيمت عليها[٥].

---

(1) M. Guedes, 'Estreito de Magelhães', in L. Albuquerque and F. Domingues (eds), *Dictionário de história dos descobrimentos portugueses*, 2 vols (Lisbon, 1994), 2, pp. 640–4.

(2) M. Newitt, *A History of Portuguese Overseas Expansion, 1400–1668* (London, 2005), pp. 54–7; A. Teixeira da Mota (ed.), *A viagem de Fernão de Magalhães e a questão das Molucas* (Lisbon, 1975).

(3) R. Finlay, 'Crisis and Crusade in the Mediterranean: Venice, Portugal, and the Cape Route to India (1498–1509)', *Studi Veneziani* 28 (1994), 45–90.

(4) Girolamo Priuli, *I Diarii di Girolamo Priuli*, tr. D. Weinstein, *Ambassador from Venice* (Minneapolis, 1960), pp. 29–30.

(5) 'La lettre de Guido Detti', in P. Teyssier and P. Valentin, *Voyages de Vasco da Gama: Relations des expeditions de 1497–1499 et 1502–3* (Paris, 1995), pp. 183–8.

ومع ذلك لم تكن توقعات زوال البندقية في محلها، على الأقل على المدى القصير. لقد علَت أصوات أكثر رصانة تؤكد أن فتح طريق بحري إلى الشرق لم يكن عملًا يخلو بدوره من المخاطر؛ ذاك أن عددًا كبيرًا من السفن البرتغالية لم تعد إلى الوطن قط. وقال رجل الدولة البندقي ڤيتشنزو كويريني (Vicenzo Querini) لمجلس الشيوخ عام ١٥٠٦م: إن أقل من نصف السفن التي مرت بالطرف الجنوبي لإفريقيا -البالغ عددها ١١٤ سفينة- قد عادت سالمة. ثم أردف قائلًا: «لقد تأكد لنا فقدان ١٩ سفينة، كان جُلها محملًا بالتوابل. وهناك أربعون سفينة أخرى، لم نقف لها على خبر»[١].

ومع ذلك، سرعان ما أرسل البنادقة مبعوثين عنهم إلى مصر الإسلامية لمناقشة سبل التعاون ضد البرتغاليين، واقترحوا القيام بعمليات عسكرية مشتركة، ودراسة حفر ممر مائي عبر البحر الأحمر للسماح بمرور «أكبر عدد ممكن من السفن والقوادس كما يشتهي المرء»[٢] في استباق لمشروع حفر قناة السويس الذي نُفِّذ بعد قرون.

وعلى الرغم من أن البرتغاليين باتوا على قناعة بأن العمليات الموجهة ضدهم في البحر الأحمر وقبالة سواحل الهند في أوائل القرن السادس عشر كانت نتيجة لتحالف كبير نظمته البندقية ضدهم، فالحق أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى من يذكِّرهم بأهمية فرض السيطرة على ممرات الشحن التجاري خاصتهم. وكان ظهور أعداد متزايدة من السفن البرتغالية مصدر إزعاج، لأسباب كثيرة، على رأسها أن الوافدين الجدد كانوا من ألدّ الخِصام. فذات مرة، أسر ڤاسكو دا جاما بنفسه سفينة كانت تحمل على متنها مئات المسلمين العائدين إلى ديارهم بالهند بعد أن أدوا فريضة الحج في مكة. ورفض دا جاما العروض السخية اليائسة التي قدمها من كانوا على متنها لافتداء أنفسهم، وتجاهل مناشداتهم، وأمر بإشعال النار في السفينة، في عمل لا مزيد عليه في الشناعة؛ حتى إن أحد شهود العيان قال: «لن أنسى قط ما حييت ما حدث آنذاك»؛ لقد رفعت النساء حُليهن يتسولن بها الرحمة من اللهيب أو لُجة الماء، بينما حملت أخريات أطفالهن فوق رؤوسهن في محاولة يائسة لحمايتهم. ووقف دا جاما يشاهد ما يحدث بنظرة امتزج فيها الجنون بـ«بالقسوة، وانعدام الرحمة»، وأخذ يتفرس في الماء وهو يبتلع الركاب، وجميع أفراد الطاقم، حتى ابتلعهم الماء عن آخرهم أمام ناظريه[٣].

أمّا على الصعيد الاستراتيجي، فقد كانت الهجمات على الموانئ والمواقع الحساسة تطورًا أقلق مصر كثيرًا. لقد شن البرتغاليون الغارة على جدة -وهي ميناء مكة- في عام ١٥٠٥م، وبُعيد ذلك نهبوا

---

(1) 'Relazione delle Indie Orientali di Vicenzo Quirini nel 1506', in E. Albèri, *Le relazioni degli Ambasciatori Veneti al Senato durante il secolo decimosesto*, 15 vols (Florence, 1839–63), 15, pp. 3–19; Subrahmanyam, 'Birth-Pangs of Portuguese Asia', 265.

(2) P. Johnson Brummett, *Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery* (Albany, NY, 1994), pp. 33–6; Subrahmanyam, 'Birth-Pangs of Portuguese Asia', 274.

(3) G. Ramusio, 'Navigazione verso le Indie Orientali di Tomé Lopez', in M. Milanesi (ed.), *Navigazioni e viaggi* (Turin, 1978), pp. 683–73; Subrahmanyam, *Vasco da Gama*, p. 205.

مسقط، وقلحات، وكانتا من النقاط الحاكمة في الخليج العربي، وأحرق البرتغاليون مسجديهما[1]. وكانت حقيقة أن البرتغاليين بدؤوا في التفكير في إنشاء شبكة من القواعد في سلسلة متصلة تعود إلى لشبونة باعثًا على القلق أيضًا. ولم يرَ القائد والمستكشف فرانسيسكو دي ألميدا (Francisco de Almeida) في عام ١٥٠٥م شيئًا يفوق «وجود قلعة عند مصب البحر الأحمر، أو على مقربة منه أهميةً»؛ ذاك أن وجود مثل هذا المعقل يعني أن «أهل الهند برمتهم سيتخلصون من الوساوس التي تقضي بأنه يسعهم أن يتاجروا مع أحد آخر غيرنا»[2].

وفي مواجهة مثل هذا العنف، وهذه المواقف المتطرفة، أمر السلطان في القاهرة بخروج الأساطيل مع أوامر بتسيير دوريات في البحر الأحمر ومداخله، والاشتباك مع البرتغاليين عند اقتضاء الحاجة[3]. وخلص بعض القادة البرتغاليين إلى أن التغيير في التكتيكات بات ضروريًا. وصارح أحدهم ملك البرتغال بأن سفنهم تتعرض للخطر دون داع، وبأن المصلحة تقتضي التخلي عن الحصون التي شيدت في مواقع استفزازية مثل جزيرة سقطرى عند مصب البحر الأحمر، بل وتعزيز العلاقات الودية مع مصر الإسلامية[4].

وكان الاندفاع الأولي للاستكشاف البرتغالي مصحوبًا بعنف مغرور، ممزوج بتعصب وحشي. ومع ذلك لم يستغرق الأمر طويل وقت حتى هدأت الأمور، فأفسح الخطاب المتهور حول انتصار النصرانية وزوال الإسلام مجالًا لنهج أكثر تفاؤلًا وواقعية. فمع وفرة الفرص التجارية، سرعان ما هدأت وتيرة التطرف تجاه الإسلام، والهندوسية، والبوذية، أسوة بما حدث في عصر الإمارات الصليبية، حيث استُبدل الضجيج والصخب بالإقرار بأن الأقلية التي تكاد تذوب في الأغلبية، بحاجة إلى إقامة علاقات عمل ضمانًا لبقائها.

ولم يكن هذا ما خلص إليه البرتغاليون وحدهم؛ ذاك أن الحكام المتنافسين في الهند وفي أماكن

---

(1) D. Agius, 'Qalhat: A Port of Embarkation for India', in S. Leder, H. Kilpatrick, B. Martel-Thoumian and H. Schönig (eds), *Studies in Arabic and Islam* (Leuven, 2002), p. 278.

(2) C. Silva, *O Fundador do 'Estado Português da Índia', D. Francisco de Almeida, 1457(?)–1510* (Lisbon, 1996), p. 284.

(3) J. Aubin, 'Un Nouveau Classique: l'anonyme du British Museum', in J. Aubin (ed.), *Le Latin et l'astrolabe: recherches sur le Portugal de la Renaissance, son expansion en Asie et les relations internationales* (Lisbon, 1996), 2, p. 553; S. Subrahmanyam, 'Letters from a Sinking Sultan', in L. Thomasz (ed.), *Aquém e Além da Taprobana: Estudos Luso-Orientais à Memória de Jean Aubin e Denys Lombard* (Lisbon, 2002), pp. 239–69.

(4) Silva, *Fundador do 'Estado Português da Índia'*, pp. 387–8.

عن الأهداف والسياسات البرتغالية في المحيط الأطلسي، والخليج العربي، والمحيط الهندي وما وراءها، انظر:
F. Bethencourt and D. Curto, *Portuguese Oceanic Expansion, 1400–1800* (Cambridge, 2007).

مثل: ماكاو، وشبه جزيرة الملايو كانوا يتنافسون مع بعضهم بعضًا من خلال تقديم عروض تشتمل على شروط تجارية أفضل، وأكثر إغراءً للتجار الأوروبيين، جذبًا لنهر المال ليصبَّ في خزائنهم، لا في خزائن منافسيهم[1]. وعلى هذا النحو بات من مصلحة الجميع التقليل من أهمية الاختلاف في الدين إلى أقصى حد ممكن. ومع ذلك، لم يخلُ الأمر من وجود بعض الناس الذين كان لديهم مخططات فخمة، مثل أفونسو دي ألبوكيرك (Afonso de Albuquerque) الذي كان يرى أن الاستيلاء على ملقا يعني «تدمير القاهرة ومكة، ومن ثم لن تتمكن البندقية من الحصول على حبة واحدة من أي نوع من التوابل باستثناء ما يمكن لتجارها شراؤه من البرتغال»؛ لذا شرع في ذبح السكان المسلمين في المدينة، إلا أنه لم يجن شيئًا في الأخير سوى تعطيل التجارة، وخلق العداوة، فضلًا عن الشكوك والريب[2]. وعلى إثر ذلك تركت الأسرة الحاكمة ملقا، وأنشأت سلطنات جديدة في بيراك، وجوهور التي وفرت لهم ملاذًا في مواجهة الخصومة المستمرة من القوى الأوروبية[3]. ومع ذلك تحول اكتشاف الطريق إلى الشرق عمومًا إلى قصة من قصص التعاون، لا الغزو، وذلك على النقيض مما كان يحدث في الأمريكتين. وكانت النتيجة زيادة هائلة في التجارة من الشرق إلى الغرب.

* * *

كادت أوروبا أن تترنح تقريبًا تحت ثقل الثروات المستخرجة من الأمريكتين، فقد ارتفعت القدرة على دفع ثمن السلع الكمالية المستوردة من آسيا إلى حد كبير. وسرعان ما أضحت المحلات التجارية في لشبونة، وأنتويرب (Antwerp) وغيرها من الأسواق الأوروبية في أوروبا تعُج بالخزف الصيني، وحرير مينغ (Ming)[4]. بيد أن التوابل كانت أهم الواردات، سواء من حيث الكميات، أو اشتداد الطلب عليها. وكان الفلفل، وجوز الطيب، والقرنفل، واللبان، والزنجبيل، وخشب الصندل، والهيل، والكركم سلعًا ذات قيمة عالية في إعداد الطعام في أوروبا منذ العصور الرومانية، حيث كانت تقدر بوصفها مكونات تُغير مذاق الأطعمة إلى الأفضل، وكذلك لتأثيرها الطبي.

وكان يُعتقد أن القرفة -على سبيل المثال- مفيدة للقلب، والمعدة، وأوجاع الرأس. كما كان يُعتقد أنها علاج مفيد للصَّرع والشلل. وعُرف زيت جوز الطيب بوصفه علاجًا للإسهال والقيء، وكذلك في

(1) G. Scammell, *The First Imperial Age: European Overseas Expansion, c. 1400–1715* (London, 1989), p. 79.

(2) A. Hamdani, 'An Islamic Background to the Voyages of Discovery', in S. Khadra Jayyusi (ed.), *The Legacy of Muslim Spain* (Leiden, 1992), p. 288.

عن أهمية ملقا قبل الغزو البرتغالي، انظر:

K. Hall, 'Local and International Trade and Traders in the Straits of Melaka Region: 600–1500', *Journal of Economic and Social History of the Orient* 47.2 (2004), 213–60.

(3) S. Subrahmanyam, 'Commerce and Conflict: Two Views of Portuguese Melaka in the 1620s', *Journal of Southeast Asian Studies* 19.1 (1988), 62–79.

(4) Atwell, 'Time, Money and the Weather', 100.

مكافحة نزلات البرد. وكان زيت الهيل يهدئ الأمعاء ويساعد في تقليل انتفاخ البطن[1]. ونصَح فصل -في أحد المتون العربية التي دوِّنت في منطقة البحر المتوسط آنذاك- بعنوان «باب فيما يُكبِّر الذَّكَر الصغير ويُعْظِّمه»، بدعك الذَّكر بمزيج من العسل والزنجبيل، وسيكون التأثير قويًّا للغاية، أو على حد قوله: «فإن المرأة تتلذذ به لذَّةً عظيمةً»[2].

واشتدت المنافسة على إمداد الأسواق في أوروبا بين القوى التجارية القديمة وتلك التي برزت حديثًا. وعلى الرغم من التشاؤم الذي ساد في البندقية -في أعقاب وصول أنباء أول رحلة استكشافية لـ ڤاسكو دا جاما- فإن الطرق التجارية القائمة منذ القِدم لم تُستبدل بغيرها بين عشية وضحاها. بل الحق إنها ازدهرت بفضل الطلب المتزايد في أوروبا. ففي ذلك الوقت -كما هي الحال الآن- لم يكن المستهلكون ليسألوا عن كيفية وصول البضائع والسلع إلى السوق؛ الأمر الوحيد الذي كان يعنيهم هو أسعار تلك السلع.

وراقب التجار بعضهم بعضًا بغيرة، وسجَّلوا ما كان يجري شراؤه وكميته. وجنَّد البرتغاليون تجارًا مثل ماثيو بيكودو (Mathew Becudo) في بلاد الشام للتجسس على حجم القوافل والأرتال القادمة من مصر، ودمشق برًّا وبحرًا، وإبلاغهم عن كميات البضائع التي كانت تنقلها. وكانت الشائعات التي تسري في أوساط التجار عن القحط، وفقدان السفن مع حمولاتها، أو اندلاع الاضطرابات السياسية هنا أو هناك قد يؤثر على الأسعار على أساس يومي، الأمر الذي جعل من المضاربة عملًا صعبًا. وكان من الوارد أن تحدث تقلبات كبيرة في العرض اعتمادًا على وقت إبحار أسطول التوابل تحديدًا، الأمر الذي كان يجعل السوق تميل لصالح التجار في شرق البحر المتوسط بشدة، حيث كان بمقدورهم الوصول إلى معلومات أوثق، كما كانوا يعتمدون على طرق أقل خطورة للوصول إلى السوق مقارنة بالدوران حول إفريقيا[3].

وفي غضون ذلك، كان اختيار ما يستثمر المرء فيه أمواله عملًا مرهقًا للأعصاب. ففي عام ١٥٦٠م لم يكن هناك ما يشغل بال أليساندرو ماجنو (Alessandro Magno) -وكان تاجرًا شابًّا من البندقية- إلا مراقبة ارتفاع سعر الفلفل في الإسكندرية بنسبة ١٠٪ في غضون أيام، واستبد به القلق حتى إنه اضطر إلى إلغاء طلبياته، وتحويل استثماراته إلى القرنفل والزنجبيل. لقد كان ينبغي عليه تجنب الوقوع في

---

(1) P. de Vos, 'The Science of Spices: Empiricism and Economic Botany in the Early Spanish Empire', *Journal of World* History 17.4 (2006), 410.

(٢) عمر بن محمد [النفزاوي]، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، الترجمة الإنجليزية:
tr. R. Burton, *The Perfumed Garden of the Shaykh Nefzawi* (New York, 1964), p. 117.

(3) F. Lane, 'The Mediterranean Spice Trade: Further Evidence of its Revival in the Sixteenth Century', *American Historical Review* 45.3 (1940), 584–5; M. Pearson, *Spices in the Indian Ocean World* (Aldershot, 1998), p. 117.

فقاعة قد لا تكلفه هوامش ربحه فحسب، بل من شأنها أن تُفقده رأس ماله. وكان رزقه -بوصفه وسيطًا- يعتمد على قدرته على شراء السلع المناسبة بالأسعار التي يجدها عملاؤه مناسبة[١].

ومع وصول ملايين الأرطال من البهارات، ولا سيما الفلفل، إلى أوروبا كل عام، أصبح ما كان يعد شأنًا من شؤون النخبة في الماضي، جزءًا من التيار الثقافي والتجاري السائد، مدفوعًا بقوى العرض والطلب في السوق الشامل. وتفسر الأرباح الهائلة سبب قيام البرتغاليين ببناء طريق حرير خاص بهم، وإنشائهم لسلسلة من الموانئ والمرافئ التي ربطت لشبونة بسواحل أنجولا، وموزمبيق، وشرق إفريقيا وما وراءها في مجموعة من المحطات التجارية التي توزعت على مساحة مترامية الأطراف، إلى جانب وجود مستعمرات دائمة انتشرت من الهند، إلى مضيق ملقا وجزر التوابل. لقد حقق البرتغاليون نجاحًا كبيرًا؛ حتى إنه في غضون بضعة عقود من رحلة ڤاسكو دا جاما الاستكشافية إلى الهند، كان جُل إيرادات الدولة البرتغالية يأتي من تجارة التوابل[٢].

ومع ذلك، فقد واجه البرتغاليون تحديات كبرى؛ لأسباب أخصها أن غيرهم صمموا على أن يحصلوا على حصة من السوق. فقد ظهر العثمانيون بوصفهم قوة مهيمنة في شرق البحر المتوسط، وتهديدًا رئيسًا لأوروبا، ثم سيطروا على مصر في عام ١٥١٧م في أعقاب حقبة من الاضطرابات التي انتابت الشرقين الأدنى، والأوسط. وكتب البابا ليو العاشر (Leo X) قائلًا: «الآن بعد أن استولى أبشع الترك على مصر والإسكندرية، والإمبراطورية الرومانية الشرقية بأكملها، لن يقتصر طموحهم على الاستيلاء على صقلية وإيطاليا فحسب، بل سيتطلعون إلى الاستيلاء على العالم بأسره»[٣].

وزاد شعور أوروبا بالتهديد من خلال النجاحات العسكرية للعثمانيين في البلقان، والتحرك المشؤوم إلى عمق وسط أوروبا. وكتب الفيلسوف الكبير إيراسموس (Erasmus) في رسالة بعث بها إلى صديق له في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي قائلًا: إن الصدام الذي بات على وشك الحدوث سيقرر مصير العالم؛ «لأن العالم لم يعد يستطيع أن يتحمل وجود شمسين في السماء بعد الآن». وتوقع أن المستقبل سيكون إما للمسلمين أو للنصارى، ولا يسعه أن يكون لكليهما معًا[٤].

ومع ذلك فقد كان إيراسموس مخطئًا، وكذلك كان أقرانه في العالم العثماني، الذين لم يكونوا أقل صراحة في تنبؤاتهم بأنه «مثلما لا يوجد سوى إله واحد في السماء [فكذلك] ستكون هناك دولة واحدة

---

(1) Lane, 'Mediterranean Spice Trade', 582–3.

(2) S. Halikowski Smith, '"Profits Sprout Like Tropical Plants": A Fresh Look at What Went Wrong with the Eurasian Spice Trade, c. 1550–1800', *Journal of Global History* 3 (2008), 390–1.

(3) Letter of Alberto da Carpi, in K. Setton, *The Papacy and the Levant, 1204–1571*, 4 vols (Philadelphia, 1976–84), 3, p. 172, n. 3.

(4) P. Allen, *Opus Epistolarum Desiderii Erasmi Roterodami*, 12 vols (Oxford, 1906–58), 9, p. 254; J. Tracy, *Emperor Charles V, Impresario of War* (Cambridge, 2002), p. 27.

فحسب على الأرض»[1]. ولم يكن هناك قتال حتى الموت، على الرغم من أن جيش الترك الضخم الذي مزق المجر، وأوروبا الوسطى في عام ١٥٢٦م شر مُمزق، خلق موجات من الذعر بعد أن أباد جيشًا غربيًا جُمع على عجل في موهاكس (Mohacs) جنوبي المجر. بيد أن ما ظهر كان منافسة شديدة، وطويلة الأمد. وسرعان ما امتدت آثارها إلى المحيط الهندي، والبحر الأحمر، والخليج العربي.

* * *

أنفق العثمانيون ببذخ وثقة، بهدف تقوية مركزهم التجاري في جميع أرجاء آسيا. وأنشؤوا شبكة من الوكلاء التجاريين، بينما رمموا سلسلة من القلاع لحماية الممرات البحرية في البحر المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربي، وطوروها. وأدى تحديث الطرق الممتدة من الخليج عبر البصرة إلى بلاد الشام إلى جعل هذا الطريق موثوقًا، وآمنًا، وسريعًا؛ حتى إن البرتغاليين استخدموه في الأخير في اتصالاتهم بلشبونة[2].

كان هذا تطورًا مثيرًا للدهشة، وذاك نظرًا إلى أن العثمانيين استخدموا القوة ضد البرتغاليين على نحو منتظم. وشن العثمانيون هجومًا كبيرًا على الحصن البرتغالي في ديو (Diu) شمالي غرب الهند في عام ١٥٣٨م، وأغاروا على السفن البرتغالية مرارًا[3]. واستطاع ربان عثماني -يقال له: سفَر ريِّس (Sefer)- تحقيق سلسلة من النجاحات المذهلة في منتصف القرن السادس عشر الميلادي؛ حتى إن مكافأة ضخمة وضعت مقابل رأسه. وازداد العثمانيون «ثراءً مع الغنائم التي استولوا عليها من البرتغاليين»، حتى قال ربان أوروبي -في معرض إشارته إلى أن أسطول سفَر ريِّس أصبح أكبر من ذي قبل؛ فنظرًا إلى نجاحه بعدد صغير من السفن التي كانت تحت تصرفه، «فما مقدار المتاعب التي قد يسببها لنا، وكم يبلغ مقدار الثروات التي سيرسلها [إلى بلاده]، إذا امتلك ثلاثين سفينة يومًا ما؟!»[4].

وكان العثمانيون يثبتون أنهم منافسون كبار، فكتب مراقب برتغالي آخر في عام ١٥٦٠م قائلًا: إن ملايين الأرطال من البهارات تصل كل عام إلى الإسكندرية (أهم ميناء في شرق البحر المتوسط

---

(1) A. Clot, *Suleiman the Magnificent: The Man, his Life, his Epoch*, tr. M. Reisz (New York, 1992), p. 79.

وانظر أيضًا:

R. Finlay, 'Prophecy and Politics in Istanbul: Charles V, Sultan Suleyman and the Habsburg Embassy of 1533-1534', *Journal of Modern History* 3 (1998), 249-72.

(2) G. Casale, 'The Ottoman Administration of the Spice Trade in the Sixteenth Century Red Sea and Persian Gulf', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 49.2 (2006), 170-98.

(3) L. Riberio, 'O Primeiro Cerco de Diu', *Studia* 1 (1958), 201-95; G. Casale, *The Ottoman Age of Exploration* (Oxford, 2010), pp. 56-75.

(4) G. Casale, 'Ottoman *Guerre de Course* and the Indian Ocean Spice Trade: The Career of Sefer Reis', *Itinerario* 32.1 (2008), 66-7.

للبضائع القادمة من الشرق)؛ ثم أردف قائلًا: «لا عجب -إذن- أن أقل القليل يصل إلى لشبونة»[١].

وبدأت أرباح تجارة التوابل -بحلول هذا الوقت- في التباطؤ على نحو ملحوظ بالفعل، الأمر الذي دفع بعض البرتغاليين إلى ترك الإتجار في التوابل، والاستثمار في السلع والمنتجات الآسيوية الأخرى، ولا سيما القطن والحرير. وأصبح هذا التحول ملحوظًا قرب نهاية القرن السادس عشر الميلادي، حيث كان يجري شحن المنسوجات بأحجام متزايدة إلى أوروبا، وعلى نحو مستمر[٢]. واقترح بعض الكتّاب المعاصرين (واتفق معهم بعض العلماء المحدثين كذلك) أن هذا كان نتيجة لمستويات عالية من الفساد بين المسؤولين البرتغاليين المنخرطين في تجارة التوابل، إلى جانب الآثار الناجمة عن القرارات السيئة التي اتخذها التاج البرتغالي، سواء ما تعلق منها بفرض الضرائب الباهظة على الواردات، أو إنشاء شبكة توزيع غير فعالة في أوروبا. لقد نجحت المنافسة العثمانية في وضع البرتغاليين -وهوامش أرباحهم- تحت ضغط شديد[٣].

واشتد الصراع -في خضم هذه المنافسة التي جرت في المحيط الهندي وغيره- على تأمين أقصى قدر من الإيرادات الضريبية للسلع المتجهة إلى العملاء الأثرياء في أوروبا. وحصد العثمانيين مكاسب كبيرة، وتضخمت الخزائن المركزية في القسطنطينية بسبب تزايد وتيرة حركة مرور السفن عبر الموانئ في البحر الأحمر، والخليج العربي، والبحر المتوسط. ومع ذلك فقد لعب الطلب المتزايد محليًا دوره في زيادة الإيرادات الحكومية[٤]. ونمت التحويلات السنوية نموًا ملحوظًا خلال القرن السادس عشر الميلادي، الأمر الذي أدى إلى إحداث تغيير اجتماعي واقتصادي، لم يقتصر على المدن فحسب، بل طال الريف أيضًا[٥].

إذن، لم تكن أوروبا وحدها هي التي شهدت عصرًا ذهبيًا. لقد نُفِّذت برامج بناء ضخمة في جميع

---

(1) *Corpo diplomatico portuguez*, ed. J. da Silva Mendes Leal and J. de Freitas Moniz, 14 vols (Lisbon, 1862–1910), 9, pp. 110–11.

(2) Halikowski Smith, 'Eurasian Spice Trade', 411; J. Boyajian, *Portuguese Trade in Asia under the Habsburgs, 1580–1640* (Baltimore, 1993), pp. 43–4, and Table 3.

(3) Casale, 'Ottoman Administration of the Spice Trade', 170–98;

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

N. Stensgaard, *The Asian Trade Revolution of the Seventeenth Century: The East India Companies and the Decline of Caravan Trade* (Chicago, 1974).

(4) S. Subrahmanyam, 'The Trading World of the Western Indian Ocean, 1546–1565: A Political Interpretation', in A. de Matos and L. Thomasz (eds), *A Carreira da India e as Rotas dos Estreitos* (Braga, 1998), pp. 207–29.

(5) S. Pamuk, 'In the Absence of Domestic Currency: Debased European Coinage in the Seventeenth- Century Ottoman Empire', *Journal of Economic History* 57.2 (1997), 352–3.

أنحاء العالم العثماني، من البلقان إلى شمال إفريقيا، ممولة من عائدات الضرائب المتزايدة باستمرار. وصُمم عدد كبير من أكثر المشاريع إثارة من قبل سِنان، وكان كبير المهندسين المعماريين في عهد السلطان سليمان القانوني (حُكمه ١٥٢٠-١٥٦٦م)، والذي يجسد لقبه وحده روح ذلك العصر وثراءه. وعلى أية حال فقد شيد سِنان أكثر من ثمانين جامعًا كبيرًا، وستين مدرسة، واثنين وثلاثين قصرًا، وسبع عشرة تكيَّة، وثلاثة بيمارستانات (مستشفيات)، إضافة إلى عدد كبير من الجسور، والقنوات، والحمامات، والأسواق في عهد سليمان وابنه سليم الثاني. وجسَّد جامع السليمية، الذي شُيِّد في أدرنة (شمالي غرب تركيا الحديثة) بين عامي ١٥٦٤-١٥٧٥م، أحد أبرز سمات الجرأة المعمارية، والتألق الهندسي، بحيث أضحى تحفة «تستحق إعجاب الناس»، وفقًا لإحدى الروايات المعاصرة. بيد أنه كان أيضًا بمثابة بيان للطموح على صعيد الدين؛ ذاك أنه قد قيل: إن المسلمين لا يسعهم بناء قبة كبيرة تحاكي قبة آيا صوفيا (Hagia Sophia) في القسطنطينية «في ديار الإسلام». بيد أن جامع أدرنة أقام البرهان على أن أصحاب هذا الزعم واهمون[1].

أما بلاد فارس، فقد كان هناك ارتفاع مماثل في الإنفاق على أعمال البناء الفخمة، والفنون البصرية التي نافست الازدهار الثقافي في أوروبا. وظهرت إمبراطورية جديدة في ظل الصفويين، من أطلال المملكة التيمورية التي تفككت بعد وفاة تيمور في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ووصلت إلى ذروة مجدها في عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٨-١٦٢٩م)، الذي أشرف على إعادة بناء طموحة لأصفهان (وسط إيران الحديثة الآن) على نحو مذهل، حيث هُدمت الأسواق القديمة، والأزقة المعتمة واستُبدلت بغيرها. وشُيدت المحلات التجارية والحمامات والمساجد وفقًا لخطة رئيسة معدة بعناية للنهوض بالمدينة. وتضمنت أعمال الري الرئيسة إمداد أصفهان الجديدة بكميات كبيرة من المياه- وكانت أمرًا ضروريًا لـ «باغي نقشي جهان»، أو «حديقة زينة الدنيا»، وهي تحفة في تصميم البساتين التي تقع في قلب المدينة. كما شُيِّد «جامع الشاه» الرائع، ليكون جوهرة على قدم المساواة مع أفضل ما شُيِّد في العالم الإسلامي، أسوة بجامع أدرنة. وقال أحد الكتَّاب المعاصرين: إن الشاه جعل من أصفهان «جنة تغص بالمباني الساحرة، والمتنزهات التي يسمو أريج الزهور فيها بالروح، فضلًا عن الجداول والحدائق»[2].

وازدهرت الكتب، والخط، والفنون البصرية -ولا سيما المنمنمات- في ثقافة بدت واثقة من

(1) H. Crane, E. Akin and G. Necipoğlu, *Sinan's Autobiographies: Five Sixteenth-Century Texts* (Leiden, 2006), p. 130.

(2) R. McChesney, 'Four Sources on Shah Abbas's Building of Isfahan', *Muqarnas* 5 (1988), 103–34; Iskandar Munshī, '*Tārīk-e ālamārā-ye Abbāsī*, tr. R. Savory, *History of Shah Abbas the Great*, 3 vols (Boulder, CO, 1978), p. 1038; S. Blake, 'Shah Abbās and the Transfer of the Safavid Capital from Qazvin to Isfahan', in A. Newman (ed.), *Society and Culture in the Early Modern Middle East: Studies on Iran in the Safavid Period* (Leiden, 2003), pp. 145–64.

نفسها، وفضولية على الصعيد الفكري، وعالمية على نحو متزايد. وأوضحت الرسائل -التي كُتبت في ذلك العهد- كيفية إتقان رسم الصور بفنٍّ وبهاء، في تفاصيل متناغمة، لا تُعوزها البراعة أو الأناقة، مثل رسالة قانون الصور على سبيل المثال. وأحاط مؤلف هذه الرسالة قارئه علمًا بأن إتقان مهارة الرسم إنما هو أمر جيد للغاية، ومع ذلك فقد حذَّره قائلًا: «اعلم أن المَلَكة هي مرقاة الوصول إلى الإتقان في هذا الفن»[١].

وساعد هذا الازدهار على فتح آفاق جديدة؛ فقد تمكن الرهبان الكرمليون في أصفهان من إخراج ترجمة فارسية لكتاب المزامير للشاه، والتي قبلها الشاه ممتنًّا. وأرسل البابا بولس الخامس (Paul V) مجموعة من الرسوم التوضيحية في القرون الوسطى من الكتاب المقدس، والتي استمتع بها الشاه كثيرًا حتى إنه أمر بوضع تعليقات فارسية تشرح ما تصوره المشاهد. كما تمكن يهود فارس من طباعة نسخ من التوراة بالفارسية، بالحرف العبري. ويعد هذا أمارة على التسامح الديني، كما كان أمارة على الثقة بالنفس -على الصعيد الثقافي- في بلاد فارس في هذا العصر المزدهر[٢].

وحققت الإمبراطوريتان العثمانية والفارسية إيرادات عالية، بسبب الارتفاع الحاد في الجمارك، ورسوم المرور على البضائع القادمة من الشرق، ومن السلع والمنتجات المحلية التي اشتد الطلب عليها في أوساط الأثرياء الجدد في أوروبا، من البيوتات الملكية إلى العائلات التجارية، ومن تلك السلع المفضلة عند البلاط إلى تلك المفضلة لدى المزارعين الميسورين بطبيعة الحال. وعلى الرغم من أن الشرق الأدنى أفاد جيدًا من سلسلة الذهب والفضة والكنوز الأخرى التي تدفقت عبر المحيط الأطلسي من الأمريكتين، فإن المستفيدين الرئيسيين كانوا في بلاد المنشأ لمعظم الصادرات؛ أعني الهند، والصين، وآسيا الوسطى.

على هذا النحو أضحت أوروبا بمثابة غرفة مقاصة للسبائك التي جاءت من مصادر غنية غنى فاحش، مثل المنجم في بوتوسي (Potosí)، في أعالي جبال الإنديز فيما يعرف الآن بـ «بوليفيا»، والذي تبين أنه كان أكبر ضربة حظ فضية في التاريخ، حيث مثَّل أكثر من نصف الإنتاج العالمي لأكثر من قرن من الزمان[٣]. وطوِّرت تقنيات جديدة لاستخراج المعدن باستخدام عملية ملغمة الزئبق (Mercury-amalgam)، الأمر الذي جعل عملية التعدين أرخص، وأسرع، وأعلى ربحًا[٤]. ومكَّن ذلك الاكتشاف

---

(1) M. Dickson, 'The Canons of Painting by Ṣādiqī Bek', in M. Dickson and S. Cary Welch (eds), *The Houghton Shahnameh*, 2 vols (Cambridge, MA, 1989), 1, p. 262.

(2) A. Taylor, *Book Arts of Isfahan: Diversity and Identity in Seventeenth-Century Persia* (Malibu, 1995).

(3) H. Cross, 'South American Bullion Production and Export, 1550–1750', in Richards, *Precious Metals*, pp. 402–4.

(4) A. Jara, 'Economia minera e historia eonomica hispano-americana', in *Tres ensayos sobre economia minera hispano-americana* (Santiago, 1966).

من تسريع وتيرة إعادة توزيع الموارد من أمريكا الجنوبية، إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنها إلى آسيا، على نحو استثنائي.

صُهِر المعدن الثمين وحوِّل إلى عملات شُحنت شرقًا بكميات مذهلة. فقد جرى تصدير مئات الأطنان من الفضة إلى آسيا كل عام لدفع ثمن السلع والتوابل الشرقية -التي اشتد الطلب عليها- منذ منتصف القرن السادس عشر[١]. وتُظهر قائمة التسوق التي وُضعت في فلورنسا في العقد التاسع من القرن السادس عشر مدى اتساع شهية الناس إلى السلع والبضائع الشرقية. فقد بذل الدوق الأكبر فرانسيسكو دي ميدتشي (Grand Duke Francesco de Medici) المال لـ فيليبو ساسّيتي (Filippo Sassetti) -وهو تاجر فلورنسي، كان يوشك على الانطلاق إلى الهند- ومعه تعليمات بشراء مجموعة من السلع الغريبة. ومن ثم تلقى الدوق -حسب الأصول- أغطية الرأس، والمنسوجات، والتوابل، والبذور، ونماذج شمعية من النباتات -وكانت جمعها هواية شخصية للدوق الأكبر، وشقيقه الكاردينال فرديناندو (Cardinal Ferdinando)- إضافة إلى مجموعة من الأدوية والعقاقير، بما في ذلك ترياق مضاد للدغات الأفاعي السامة[٢]. لقد كان هذا الفضول المكتسَب نموذجيًا للرجال الأقوياء والمثقفين آنذاك.

* * *

تألقت أوروبا والشرق الأدنى بأضواء الاكتشافات في الأمريكتين، إضافة إلى فتح الطريق البحري على طول ساحل إفريقيا. بيد أن بقعة لم تتألق بقدر ما تألقت الهند. لقد تزامنت الحقبة التي أعقبت عبور كولومبوس للمحيط الأطلسي مع حقبة شهدت إعادة التشكل في أعقاب تفكك إمبراطورية تيمور بُعيد وفاته. وشهد عام ١٤٩٤م ظهور بابُر -وكان أحد أحفاد تيمور- حيث ورث أراضٍ في وادي فرغانة في آسيا الوسطى وشرع في توسيعها، وصرف جهوده على الاستيلاء على سمرقند، وصادف نجاحًا في ذلك إلى حين. وبعد أن طُرد أخيرًا من المدينة على أيدي خصومه الأزبك، اتجه جنوبًا، وبعد سنوات من النضال مع القليل من النجاح، أولى اهتمامه إلى مكان آخر. فأولًا، سيطر على كابول، ثم لم يلبث أن سيطر على دلهي (Delhi)، بعد أن طرد أسرة لودي (Lodi) المستبدة، التي كان أبناؤها يفتقرون إلى الشعبية جراء اضطهادهم المنتظم والوحشي للسكان الهندوس[٣].

---

(1) A. Attman, *American Bullion in European World Trade, 1600–1800* (Gothenburg, 1986), pp. 6, 81; HSh. Chuan, 'The Inflow of American Silver into China from the Late Ming to the Mid-Ch'ing Period', *Journal of the Institute of Chinese Studies of the Chinese University of Hong Kong* 2 (1969), 61–75.

(2) B. Karl, '"Galanterie di cose rare . . .': Filippo Sassetti's Indian Shopping List for the Medici Grand Duke Francesco and his Brother Cardinal Ferdinando', *Itinerario* 32.3 (2008), 23–41.

عن رواية معاصرة عن مجتمع الآزتك، انظر:
Diego Durán, *Book of the Gods and Rites and the Ancient Calendar*, tr. F. Horcasitas and D. Heyden (1971), pp. 273–4.

(3) J. Richards, *The Mughal Empire* (Cambridge, 1993), pp. 6–8.

وأظهـر بابُر الحماسـة فـي البناء والإعمار، وغمرته السـعادة عندما أنشـأ حديقة الوفـاء (باغي وفا) الرائعـة فـي كابول، بنوافيرها الرائعة، وأشـجار الرمان، ومروج البرسـيم، وبسـاتين البرتقال، والنباتات التي جلبها من مناطق بعيدة ونائية. ولمَّا اكتسب البرتقال اللون الأصفر، واستوى على سوقه، كتب بابر مفتخرًا: «يا له من مشـهد جميل، لقد زُرِعت الحديقة على نحو رائع حقًّا»[1]. ولما اسـتطاع بابُر ترسيخ أقدامـه فـي الهند، واصل تصميماته الرائعة للحديقة، على الرغم مـن تذمره من وعورة التضاريس. لقد أصابه الجزع؛ لأن إمدادات المياه كانت تمثل مشكلة في شمال شبه القارة الهندية، فكتَب جزعًا: «كل مـكان نظـرت إليـه، كان موحشًـا، ومُقفرًا بالكليـة»؛ حتى إن تلك الأماكـن لم تكن مسـتحقَّة لعناء بذل الجهد في محاولة إقامة شيء مميز. وفي الأخير استقر بابُر على موقع بالقرب من أجرا (Agra)، وعقب قائلًا: «على الرغم من أنني لم أعثر على مكان مناسـب حقًّا [بالقرب من المدينة]، فلم يكن ثم مناص من العمل في المسـاحة المتوفرة لدينا». وفي الأخير، أُقيمت حدائق رائعة، في «الهند الموحشـة، وغير المنسجمة»، بعد جهد جهيد، ونفقات هائلة[2].

وعلـى الرغـم من مخاوف بابُر الأوليـة، فإن توقيت تحركه إلى الجنوب لـم يكن ليكون أفضل مما كان عليه. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تحول المجال الجديد إلى إمبراطورية عظمى. وأدى فتح طـرق تجاريـة جديدة، والقدرة الشـرائية الحماسـية التي اتسـمت بهـا أوروبا إلى تدفـق مفاجئ للعملة الصعبة على الهند. وأنفق الأوربيون جزءًا كبيرًا من أموالهم على شراء الخيول. إن لدينا تقارير عن بيع تجـار آسـيا الوسـطى لآلاف الخيول سـنويًا لنظرائهـم الأوروبيين منذ القـرن الرابع عشـر الميلادي[3]. واشـتد الطلـب علـى الخيـول التي كانت تُربَّى في السـهوب، لأسـباب أخصهـا أنها كانـت أكبر حجمًا -وأفضل تغذية- من تلك التي كانت تربى في شـبه القارة نفسـها، التي كانت «بطبيعتها صغيرة ضامرة، حتى إن الرجل إذا استوى على ظهرها، تكاد قدماه أن تلامس الأرض»[4]. ومع تدفق الفضة الأوروبية

---

(١) بابر، بابُرنامه، ١٧٣-١٧٤. وانظر أيضًا:

D. F. Ruggles, *Islamic Gardens and Landscapes* (Philadelphia, PA, 2008), p. 70.

(2) *Bābur-Nāma*, p. 359.

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، الترجمة الإنجليزية:

Ibn Batūta, *Travels*, 8, 2, p. 478.

(4) J. Gommans, *Mughal Warfare: Indian Frontiers and High Roads to Empire, 1500–1700* (London, 2002), pp. 112–13.

وعن أحجام الخيول الهندية، انظر:

J. Tavernier, *Travels in India*, ed. V. Ball, 2 vols (London, 1889), 2, p. 263.

وعن خيول آسيا الوسطى، انظر:

J. Masson Smith, 'Mongol Society and Military in the Middle East: Antecedents and Adaptations', in Y. Lev (ed.), *War and Society in the Eastern Mediterranean, 7th 15th Centuries* (Leiden, 1997), pp. 247–64.

لشراء البضائع من الشرق، أُنفق الكثير على شراء أفضل الجياد، لأسباب تعلقت بالهيبة، وبالتمايز الاجتماعي، والمواسم والأعياد- لقد كان الأمر أشبه بإنفاق الأموال التي تدفقت مؤخرًا على الدول الغنية بالنفط على شراء أفضل السيارات: مثل فيراري (Ferraris) ولامبورجيني (Lamborghinis) والسيارات الفارهة الأخرى كافة.

وكانت هناك أرباح كبيرة يمكن جنيها من تجارة الخيول. لقد كانت الخيول أول ما لفت أنظار البرتغاليين ما أن وطأت أقدامهم سواحل الخليج العربي، والمحيط الهندي. فأرسلوا تقارير مثيرة إلى الوطن في أوائل القرن السادس عشر الميلادي حول الطلب على الخيول العربية، والفارسية الأصيلة، وحول الأسعار الباهظة التي كان الأمراء الهنود على استعداد لدفعها ثمنًا لها. وأصاب البرتغاليون ربحًا جزيلًا من شحن الخيول، حتى إن تجارة الخيول كانت حافزًا للتغيير التقني، فقد شيدت سفن مثل نو تافوريا (Nau Taforeia) التي وضع مصمموها نقل الخيول في اعتبارهم في عملية تصميمها[1].

ومع ذلك، جاءت معظم الخيول من آسيا الوسطى. وتدفقت الأموال إلى الهند أنهارًا، وتحدث أحد الكتّاب المعاصرين عن هوامش ربح خيالية، حيث بدأت الضغوط التضخمية الناجمة عن زيادة الطلب بما يفوق طاقة العَرض[2]. وكان ارتفاع الإيرادات دافعًا للاستثمار في بناء الجسور، وتحديث نُزل القوافل، وضمان أمن الطرق الرئيسة الممتدة شمالًا. وأسفر ذلك عن تمتع مدن آسيا الوسطى بدفعة أخرى من الرخاء والدعة[3].

وكان الاستثمار في البنية التحتية الداعمة لتجارة الخيول مربحة أيضًا. فقد استثمر مضارب حاد الذكاء في بناء الاستراحات على طول الطرق الرئيسة، وأنشأ أكثر من ١٥٠٠ منها في غضون خمسة عشر عامًا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي. ويسعنا الوقوف على التدفق المتزايد للأموال إلى هذه المنطقة في كتاب «جرو جرانث صاحب» (Guru Granth Saheb)، وهو النص المقدس الرئيس عند طائفة السّيخ؛ حيث تماس الدنيوي والتجاري مع الروحاني، فقد نصح المعلم السيخي أتباعه قائلًا: اشترِ السلع التي تدوم؛ واحتفظ دائمًا بحسابات دقيقة، فتلك وسيلة لبلوغ اليقين[4].

---

(1) L. Jardine and J. Brotton, *Global Interests: Renaissance Art between East and West* (London, 2005), pp. 146-8.

(2) J. Gommans, 'Warhorse and Post-Nomadic Empire in Asia, c. 1000–1800', *Journal of Global History* 2 (2007), 1–21.

(٣) انظر:
S. Dale, *Indian Merchants and Eurasian Trade, 1600–1750* (Cambridge, 1994), pp. 41–2.

(٤) نقلاً عن:
M. Alam, 'Trade, State Policy and Regional Change: Aspects of Mughal–Uzbek Commercial Relations, c. 1550–1750', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 37.3 (1994), 221;
وانظر أيضًا في هذا الصدد:
C. Singh, *Region and Empire: Punjab in the Seventeenth Century* (New Delhi, 1991), pp. 173–203.

وساد الازدهار في مدن البوابات التي كانت في مواقع جيدة لاحتواء أسواق الخيول الرئيسة، بما في ذلك كابول. وكانت مدينة دلهي أكثر تلك المدن ازدهارًا؛ حيث نمت سريعًا بفضل موقعها بالقرب من هندوكوش. ومع ازدياد الأهمية التجارية للمدينة، ازدادت أهمية حكامها أيضًا[1]. وسرعان ما تطورت صناعة النسيج المحلية المزدهرة، وأنتجت خامات كانت تحظى بتقدير كبير في جميع أرجاء آسيا وخارجها، وقد أولتها سلطات المغول عنايتها[2].

ولم يمض وقت طويل قبل أن يتمدد عالم عظيم ويرنو إلى الخارج، مستخدمًا عضلاته المالية لضم منطقة تلو الأخرى، وتوحيدها في كيان واحد. فعلى مدار القرن السادس عشر الميلادي، أشرف بابُر، ثم ابنه همايون، وحفيده أكبر الأول، على التوسع الإقليمي لإمبراطورية المغول، والتي امتدت بحلول عام ١٦٠٠ من ولاية كوجارات الواقعة على الساحل الغربي للهند إلى خليج البنغال، ومن لاهور في البنجاب إلى عمق وسط الهند. ولم يكن هذا غزوًا من أجل الفتح، بل كان الأمر يتعلق بالاستفادة من مجموعة فريدة من الظروف للسيطرة على المدن والمناطق التي وفرت تدفقات مالية غنية، وسرعان ما نمت معززة إمبراطورية ناشئة، كما عملت على تقويتها. وكما أشار أحد اليسوعيين البرتغاليين -في رسالة بعث بها إلى طائفته في الوطن- حيث قال: إن غزو كوجارات والبنغال -وكلاهما مرصع بالمدن الصاخبة، وقواعد الضرائب السمينة- جعل السلطان أكبر سيد «جوهرة الهند»[3]. وكل إضافة جديدة وفرت مزيدًا من القوة للمركز، الأمر الذي أعطى مزيدًا من الزخم للازدهار.

وجلب المغول معهم أفكارًا، وأذواقًا، وأساليب جديدة. ومنها تلك المنمنمات المصغرة التي كان المغول والتيموريون يفضلونها قبل فترة طويلة، ومن ثم تبناها الحكام الجدد بدورهم، فأرسلوا يطلبون فنانين محترفين من جميع أنحاء العالم لينشئوا مدرسة مزدهرة للفنون البصرية. وأصبحت مشاهدة المصارعة شائعة، وكذلك كانت سباقات الحمام؛ حيث كان كلاهما من أفضل وسائل التسلية والترفيه في آسيا الوسطى[4].

وكان الابتكار في الهندسة المعمارية وتصميم الحدائق أكثر وضوحًا، إذ تحسَّن تأثير الأبنية والمناظر الطبيعية وازدادت إتقانًا في سمرقند، وسرعان ما أضحت ظاهرة في جميع أنحاء الامبراطورية. ويمكن رؤية ما أسفرت عنه التطورات في مجال العمارة اليوم؛ حيث ينتصب ضريح همايون الرائع في دلهي،

---

(1) J. Gommans, *Mughal Warfare: Indian Frontiers and Highroads to Empire, 1500–1700* (London, 2002), p. 116.

(2) D. Washbrook, 'India in the Early Modern World Economy: Modes of Production, Reproduction and Exchange', *Journal of Global History* 2 (2007), 92–3.

(3) Letter of Duarte de Sande, in *Documenta Indica*, ed. J. Wicki and J. Gomes, 18 vols (Rome, 1948–88), 9, p. 676.

(4) R. Foltz, 'Cultural Contacts between Central Asia and Mughal India', in S. Levi (ed.), *India and Central Asia* (New Delhi, 2007), pp. 155–75.

ليس بوصفه تحفة فنية من تصميم التيموريين، شُيدت على يد مهندس معماري استُقدم من بخارى فحسب، بل بوصفه دليلًا على حقبة جديدة في تاريخ الهند(١). كما جرى إدخال أنماط جديدة للمناظر الطبيعية، الأمر الذي أدى إلى تغيير بيئة البناء، وعلاقة المبنى بمحيطه، حيث أظهرت تلك العلاقة تأثرًا كبيرًا بالممارسات والأفكار القادمة من آسيا الوسطى(٢). وغصت لاهور بالنُّصب الجديدة الضخمة، والمساحات المفتوحة(٣). وهكذا بنى المغول إمبراطوريتهم على صورتهم الخاصة(٤). وفعلوا ذلك باقتدار في ظل الموارد الهائلة التي كانت تحت تصرفهم. لقد أتت الرياح بما اشتهته سفنهم.

وتقدم مدينة فاتح بور سيكري المذهلة -التي شيدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي بوصفها عاصمة جديدة- صورة لا لبس فيها عن الموارد غير المحدودة، والتطلعات الإمبراطورية للبيت الحاكم المزدهر. فقد امتدت سلسلة من الأفنية والمباني المصممة تصميمًا رائعًا، والمبنية من أنماط وتصميمات من الحجر الرملي الأحمر المجلوب من بلاد فارس وآسيا الوسطى، وقد مُزجت مع تلك الموجودة في الهند لإنشاء بلاط رائع، حيث يمكن للحاكم استقبال زواره، فلا يبرحونه إلا وقد تيقنوا من قوة الحاكم وبأسه(٥).

وكان خير شاهد من النُّصب على تلك الثروة الهائلة التي نتجت عن تدفق الأموال من أوروبا هو الضريح الذي بناه شاه جهان -في مستهل القرن السابع عشر الميلادي- لزوجته ممتاز. فلما توفيت، وزع شاه جيهان كميات هائلة من الطعام والمال على الفقراء. وبعد أن اختار قطعة أرض مناسبة لإنشاء ضريح لها، أنفق ملايين الدولارات -بشروط اليوم- في إنشاء بناء تعلوه قبة، قبل أن ينفق ملايين أخرى على إضافة كسوة ذهبية وقباب مزينة بأعمال مطلية بالمينا بأعلى مستويات الجودة، وكميات هائلة من الذهب. وأضيفت أجنحة «أُحيطت بمظلات رائعة» على جانبي الضريح، ثم زُرعت الحدائق من حوله. ووقف على المؤسسة دخلًا من الأسواق المجاورة لضمان صيانتها مستقبلًا(٦).

---

(1) M. Subtelny, 'Mirak-i Sayyid Ghiyas and the Timurid Tradition of Landscape Architecture', *Studia Iranica* 24.1 (1995), 19-60.

(2) J. Westcoat, 'Gardens of Conquest and Transformation: Lessons from the Earliest Mughal Gardens in India', *Landscape Journal* 10.2 (1991), 105–14; F. Ruggles, 'Humayun's Tomb and Garden: Typologies and Visual Order', in A. Petruccioli (ed.), *Gardens in the Time of the Great Muslim Empires* (Leiden, 1997), pp. 173–86.
عن تأثير آسيا الوسطى، انظر في المقام الأول:
M. Subtelny, 'A Medieval Persian Agricultural Manual in Context: The Irshad al-Zira a in Late Timurid and Early Safavid Khorasan', *Studia Iranica* 22.2 (1993), 167–217.

(3) J. Westcoat, M. Brand and N. Mir, 'The Shedara Gardens of Lahore: Site Documentation and Spatial Analysis', *Pakistan Archaeology* 25 (1993), 333–66.

(٤) استعارة أدبية من التوراة: «فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ» سفر التكوين، ١ : ٢٧. وسيكرر المؤلف هذه الاستعارة لاحقًا في غير موضع. (المترجم)

(5) M. Brand and G. Lowry (eds), *Fatephur Sikri* (Bombay, 1987).

(6) *The Shah Jahan Nama of Inayat Khan*, ed. and tr. W. Begley and Z. Desai (Delhi, 1990), pp. 70–1.

يعـد تـاج محـل -عند كثير من الناس- أكثر معالم العالم رومانسـية، وهو دليل اسـتثنائي على حب الزوج لزوجته. إلا أنه يمثل شيئًا آخر أيضًا؛ أعني التجارة الدولية المعولمة التي جلبت هذه الثروة إلى يد الحاكم المغولي حتى غدا قادرًا على التفكير في هذه البادرة الاسـتثنائية تجاه زوجته المحبوبة. وقد نشـأت قدرتـه علـى إتمام البناء من التحـولات العميقة في محور العالم، حيث بُنـي مجد أوروبا والهند على أطلال الأمريكتين.

نجد في تعبير شاه جهان الفخم عن حزنه لوفاة زوجته تشابهًا رائعًا مع شعور جرى التعبير عنه على الجانـب الآخر من الكرة الأرضية قبل فترة ليسـت بالطويلة. فقد كانـت إمبراطورية المايا مزدهرة أيضًا قبـل وصـول الأوروبيين؛ حيـث تحدث أحد الكتَّاب واصفًا الوضع بُعيد وصـول الأوربيين، قائلًا: «لم يكن هناك مرض؛ ولـم يكن لدى السكان الأصليين عظام تؤلمهم، ولـم يكونوا يعرفون الحمى، كما لم يكونـوا يعرفـون مـرض الجدري، ولـم يكونوا يشـكون تلك الحرقة في الصدر. ولـم يعرفوا معنى كلمة اسـتهلاك؛ لقـد كان مسـار البشـرية -آنذاك- منظمًـا. بيد أن الأجانب مـا لبثوا أن غيروا كل شـيء، فلما وصلوا، قلبوا البلاد رأسًا على عقب. لقد جلبوا أشياء مخزية معهم عندما جاؤوا»[1]. على أية حال فقد وجد الذهب والفضة المسـلوبين من الأمريكتين طريقهما إلى آسـيا؛ وكانت عملية إعادة توزيع الثروة على هذا النحو هي التي مكّنت المغول من بناء تاج محل. وقد لا يخلو تصور الأمر من بعض السخرية؛ إذ شيد الهنود أحد مفاخرهـم، على أنقاض «الهنود» على الجانب الآخر من العالم.

وارتبطـت القـارات -المتصلة ببعضها بعضًـا- بتدفقات الفضة. لقد جذبـت تلك الفضة عددًا كبيرًا مـن النـاس بحثًـا عن حظوظهم في مواقع جديدة: فبحلول أواخر القرن السـادس عشـر الميلادي، ذكر رحالـة إنجليـزي زار مدينة هرمز -الواقعة على الخليج العربي- أن المدينة أضحت تعج «بالفرنسـيين، والفلمنكييـن، والألمـان، والمجرييـن، والإيطالييـن، واليونانييـن، والأرمـن، والنصـارى، والأتـراك، والمـور، واليهـود، والأمـم، والفُرس [و]الموسـكوية»[2]. لم تكن دعوة الشـرق لتُـرد. وكذلك لم تكن المكاسب التجارية وحدها هي التي جذبت الرجال بأعداد متزايدة من أوروبا، بل جذبتهم فرص العمل بأجور جيدة أيضًا. فقد كانت هناك حاجة ماسـة للمدفعيين، والمرشـدين، والملاحين، والربابنة، وبناة السفن، وقد مست الحاجة إليهم في بلاد فارس، والهند، وشبه جزيرة الملايو، فضلًا عن اليابان أيضًا. لقـد كانـت هنـاك فـرص لأولئـك الذيـن يسـعون لبـدء حياة جديـدة لأنفسـهم، مـن قبيـل: الفارين من الاضطهـاد، والمجرمين، والمنبوذيـن، الذين عد الحكام المحليين مهاراتهم وخبراتهم ذات قيمة لهم. أما أولئك الذين أبلوا حسـنًا في الشـرق، فالحق أنهم غدوا قادرين على ترسـيخ أقدامهم بوصفهم أمراء مستقلين. كذا جرت الحال في خليج البنغال، وبحر مولوكا، حيث وجَد هولندي محظوظ الفرصة للهو

---

(1) J. Hoil, *The Book of Chilam Balam of Chumayel*, tr. R. Roys (Washington, DC, 1967), pp. 19–20.

(2) Letter of John Newbery, in J. Courtney Locke (ed.), *The First Englishmen in India* (London, 1930), p. 42.

والمجون «مع عدد كبير من النساء»، حيث ظل يغني ويرقص «طيلة اليوم، وهو شبه عارٍ»، يترنح من أثر الخمر، بعد أن أسرف في الشراب حتى الثمالة[1].

❊ ❊ ❊

أدى تأسيس الإسبان لمدينة مانيلا -في عام ١٥٧١م- إلى إحداث تغييرٍ في إيقاع التجارة العالمية. ففي مستهل الأمر، نفذت السلطات الإسبانية برنامج استعمار، كان طابعه أقل تدميرًا للسكان المحليين على نحو ملحوظ، مقارنة بما كانت عليه الحال بعد عبورهم المحيط الأطلسي للمرة الأولى[2]. وأنشِئت المستوطنة في الأصل بوصفها قاعدة يمكن من خلالها استيراد التوابل. وسرعان ما نمت المدينة حتى أصبحت مدينة رئيسة، ونقطة اتصال مهمة بين آسيا والأمريكتين. وبدأ نقل السلع والبضائع -آنذاك- عبر المحيط الهادئ دون المرور عبر أوروبا أولًا، وكذلك فعلت الفضة لدفع ثمنها. وعلى هذا النحو أصبحت مانيلا مركزًا تجاريًا في حد ذاتها، حيث كان يسع التجار شراء مجموعة غنية من السلع، وحيث يسعهم شراء عدد كبير من أنواع الحرير المختلفة هناك، وكذلك المخمل، والساتان، والدمقس، وسائر أنواع المنسوجات الأخرى، وفقًا لمسؤول رفيع المستوى في المدينة نحو عام ١٦٠٠م. وكذلك كان الأمر بالنسبة «لعدد كبير من ملاءات الأسرَّة المزخرفة، والستائر، والبطاطين، والمفروشات»، فضلًا عن مفارش المائدة، والوسائد، والسجاجيد، والأحواض المعدنية، والغلايات النحاسية، والأواني المصنوعة من الحديد الزهر. كما كان القصدير، والرصاص، والملح، والبارود سلعًا تأتي من الصين إلى جانب «أنواع المربى المصنوعة من البرتقال، والخوخ، والكمثرى، وجوزة الطيب، والزنجبيل» والكستناء، والجوز، والخيول، وطيور الأوز التي تشبه البجع، فضلًا عن الطيور الناطقة، وعدد كبير من النوادر الأخرى. واستطرد ذلك المسؤول قائلًا: لو حاولت سرد كل شيء معروض للبيع، «ما كنت لأنتهي أبدًا، كما أنني لا أمتلك أوراقًا كافية لذلك»[3]. لقد كانت مانيلا، على حد تعبير أحد المعلقين المعاصرين، «أول مدينة عالمية في العالم»[4].

وكان لإنشاء مانيلا آثار مهمة على طرق التجارة الأخرى بطبيعة الحال. ولم يكن من قبيل المصادفة

---

(1) Samuel Purchas, *Hakluytus posthumus, or, Purchas His Pilgrimes*, 20 vols (Glasgow, 1905–7), 3, p. 93; G. Scammell, 'European Exiles, Renegades and Outlaws and the Maritime Economy of Asia, c.1500–1750', *Modern Asian Studies* 26.4 (1992), 641–61.

(2) L. Newsom, 'Disease and Immunity in the Pre-Spanish Philippines', *Social Science & Medicine* 48 (1999), 1833–50; idem, 'Conquest, Pestilence and Demographic Collapse in the Early Spanish Philippines', *Journal of Historical Geography* 32 (2006), 3–20.

(3) Antonio de Morga, in W. Schurz, *The Manila Galleon* (New York, 1959), pp. 69–75;

وانظر أيضًا:

Brook, *Confusions of Pleasure*, pp. 205–6.

(4) D. Irving, *Colonial Counterpoint: Music from Early Modern Manila* (Oxford, 2010), p. 19.

أن تعاني الدولة العثمانية انكماشًا اقتصاديًا مؤلمًا بُعيد إنشاء الطريق عبر مانيلا. وفي حين أن هذا الانكماش يعود جزئيًا إلى الضغوط المالية المحلية، والإفراط في الإنفاق على الحملات العسكرية المكلفة ضد آل هابسبورغ (Habsburgs)، وبلاد فارس. ومع ذلك فقد شكَّل ظهور مفترق طرق جديد للتبادل التجاري عبر القارات على بعد آلاف الأميال أيضًا عاملًا في انخفاض عائدات الدولة العثمانية[1]. وكانت كمية الفضة المتوجهة من الأمريكيتين عبر الفلبين ثم إلى بقية آسيا مذهلة حقًا. لقد مرت أموالًا هائلة بهذه الطريقة، أسوة بما حدث في أوروبا في أواخر القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، الأمر الذي تسبب في إثارة قلق بعض الأوساط في إسبانيا لمّا لحظت انخفاض التحويلات المالية من العالم الجديد إلى أوروبا[2].

وأحاط طريق فضي بالعالم إحاطة الحزام بالخصر. وكان المطاف ينتهي بالمعدن الثمين في مكان واحد خاصة؛ وكان هذا المكان هو الصين. حدث ذلك لسببين، أولًا: حجم الصين وتطورها بوصفها مُنتجًا رئيسًا للسلع الفاخرة، بما في ذلك القيشاني والخزف الذي اشتد الطلب النهم عليهما في أوروبا؛ حتى إن سوقًا ضخمة للمقلد منه ازدهرت سريعًا. وكتب ماتيو ريتشي (Matteo Ricci) في أثناء زيارته لمدينة نانجينغ (Nanjing) أن الصينيين «يولون اهتمامًا كبيرًا بصياغة الأشياء العتيقة ببراعة وإبداع عظيمين»، فيجنون أرباحًا هائلة من بيعها بفضل مهاراتهم[3]. ووضعت في الصين، متون بذلت النصيحة فيما تعلق بكيفية اكتشاف المنتجات المقلدة، فشرح ليو دونغ (Liu Dong) كيفية التوثق من المصنوعات البرونزية (Xuande bronzework) أو بورسلين يونجل (Yongle porcelain)[4].

وتمكنت الصين من تلبية حاجة سوق التصدير من حيث الحجم، من خلال زيادة الإنتاج. وأصبحت دهوا (Dehua) في ولاية فوجيان (Fujian) -على سبيل المثال- مركزًا متخصصًا لصنع الخزف الذي يناسب الأذواق الأوروبية. وبالمثل، بُذلت استثمارات قيمة في صناعة الحرير كي تستطيع تلبية شهوة

---

(١) عن الأزمة العثمانية، انظر:

Pamuk, 'In the Absence of Domestic Currency', 353–8.

(2) W. Barrett, 'World Bullion Flows, 1450–1800', in J. Tracy (ed.), *The Rise of Merchant Empires: Long-Distance Trade in the Early Modern Worlds, 1350–1750* (Cambridge, 1990), pp. 236–7; D. Flynn and A Giráldez, 'Born with a "Silver Spoon": The Origin of World Trade in 1571', *Journal of World History* 6.2 (1995), 201–21; J. TePaske, 'New World Silver, Castile, and the Philippines, 1590–1800', in Richards, *Precious Metals*, p. 439.

(3) P. D'Elia, *Documenti originali concernenti Matteo Ricci e la storia delle prime relazioni tra l'Europa e la Cina (1579–1615)*, 4 vols (Rome, 1942), 1, p. 91.

(4) Brook, *Confusions of Pleasure*, pp. 225–6.,

عن مواقف أهل الصين من الآثار والماضي، انظر:

C. Clunas, *Superfluous Things: Material Culture and Social Status in Early Modern China* (Cambridge, 1991), pp. 91–115.

الغرب. لقد كانت هذه استراتيجية تجارية ذكية، وساعدت على زيادة دخل سلطات مينغ (Ming) زيادة حادة، حيث أكد بعض العلماء أنها تضاعفت أربع مرات على الأقل بين عامي ١٦٠٠- ١٦٤٣م[1].

أما السبب الثاني الكامن خلف تدفق الكثير من الأموال الأوروبية إلى الصين خاصة، فهو اختلال العلاقة بين المعادن الثمينة. ففي الصين، كانت الفضة تتأرجح حول نسبة تقريبية إلى الذهب تبلغ ٦: ١، وكانت هذه النسبة أعلى بكثير مما كانت عليه في الهند، أو في بلاد فارس، أو في الدولة العثمانية. وكانت هذه القيمة ضعف قيمة الفضة في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي. وكان هذا يعني -عمليًا- أن الأموال الأوروبية كانت تشتري في أسواق الصين، ومن التجار الصينيين أكثر مما كانت لتشتريه في أي مكان آخر في العالم، وهو ما شكّل بدوره حافزًا قويًا للتجار الأوروبيين للشراء من الصينيين دون غيرهم. واغتنم الوافدون الجدد إلى الشرق الأقصى فرصة تداول العملات، والاستفادة من هذه الفروق نتيجة الاختلالات في أسعار صرفها، وهي الظاهرة التي يسميها المصرفيون المحدَثون المراجحة (*Arbitrage*)، ولا سيما أولئك الذين أدركوا أن القيمة غير المتكافئة للذهب في الصين واليابان تحقق لهم أجزل ربح بأيسر جهد. وسارع التجار لشراء العملات والمعادن النفيسة وبيعها. ونقل التجار الذين يعملون من ماكاو (Macau) شحنات البضائع المختارة بعناية إلى اليابان، وفقًا لشاهد عيان، إلا أنهم حرصوا على بيعها بالفضة[2]. ولم يستطع بعض التجار إخفاء حماستهم في ضوء هذه الفرصة السانحة، فأشار بيدرو بيزا (Pedro Baeza) إلى أن قيمة الفضة بالنسبة للذهب كانت عالية للغاية، حتى إنها جعلت الذهب رخيصًا على نحو مثير للدهشة؛ وكتب قائلًا «إن من يُحضر معدنًا ثمينًا، ويستبدله بآخر في الشرق، ثم يجلبه إلى الأراضي الإسبانية في الأمريكتين، أو إلى إسبانيا نفسها سيحقق ربح بنسبة تتراوح بين ٧٠ إلى ٧٥٪»[3].

وكانت تأثيرات تدفقات الفضة إلى الصين معقدة بحيث يصعب تقييمها تقييمًا كاملًا. ومع ذلك، فقد كان لتدفق المعادن الثمينة من الأمريكتين تأثير واضح على الثقافة الصينية، والفنون، والتعليم في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وحصل الرسامون مثل شين زو (Shen Zhou) وأقرانه -وهم الذين شكلوا الأساتذة الأربعة (أي كبار الفنانين المعاصرين في عهد أسرة مينغ)- على الرعاية،

---

(1) W. Atwell, 'International Bullion Flows and the Chinese Economy *circa* 1530–1650', *Past & Present* 95 (1982), 86.

(2) Richard Hakluyt, *The Principal Navigation, Voyages, Traffiques, & Discoveries of the English Nations*, 12 vols (Glasgow, 1903–5), 5, p. 498.

(3) C. Boxer, *The Christian Century in Japan, 1549–1650* (Berkeley, 1951), pp. 425–7.

وانظر -في المقام الأول- في هذا الصدد:

R. von Glahn, 'Myth and Reality of China's Seventeenth-Century Monetary Crisis', *Journal of Economic History* 56.2 (1996), 429–54; D. Flynn and A Giráldez, 'Arbitrage, China and World Trade in the Early Modern Period', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 6.2 (1995), 201–21.

وأُجزل لهم العطاء مكافأة على أعمالهم. ووجد فنانون مثل لو زهي (Lu Zhi) طلبًا على نتاج قرائحهم في الطلبيات الخاصة من الطبقة الوسطى المتنامية التي كانت مهتمة بتطوير وسائل التسلية والمتعة[1].

لقد كان هذا العصر عصرًا من التجريب والاكتشاف، فظهرت متون مثل: جين بنج مي (Jin Ping Mei)، وهي رواية شهوانية (*Erotic*) تُعرف غالبًا باسم اللوتس الذهبية (The Golden Lotus)، تحدت إحدى شخصياتها البارزة، المواقف السائدة ليس من الأشكال الأدبية فحسب، بل فيما تعلق بفنون الجنس أيضًا[2]. وساعدت الثروة الجديدة في بروز علماء مثل سونج ينجكسينج (Song Yingxing)، الذي أخرج موسوعة تغطي موضوعات، تراوحت من الغطس إلى استخدام قوى الهيدروليكا في الري، وحظي عمله بتقدير كبير، وعلى نطاق واسع[3]. ويشهد الاهتمام المتزايد بالكونفوشيوسية، والتقدير الذي كان يحظى به المتخصصون مثل وان يانجمينغ (Wang Yangming) على الرغبة في التفسيرات والحلول في حقبة كانت تشهد تغييرًا كبيرًا[4].

وتُظهر الخرائط مثل خريطة سيلدين (Selden) -التي أعيد اكتشافها مؤخرًا في مكتبة بودليان (Bodleian) في أكسفورد- ذلك الاهتمام الصيني المتزايد بالتجارة والسفر في هذه الحقبة، كما تقدم نظرة عامة شاملة عن جنوب شرق آسيا، مع اكتمال طرق الشحن. ومع ذلك، فكل هذه استثناءات من الصورة العامة، فقد ظلت الخرائط الصينية في هذه الحقبة تحتفظ عادة بمنظر منعزل للعالم، مع تمثيلات بصرية لسور الصين العظيم في الشمال، والبحر في الشرق، تأسيًا منها بخرائط أهل الصين القديمة. وكان هذا من أعراض رغبة الصين في الانكفاء على ذاتها في وقت كان العالم ينفتح فيه؛ بيد أنها عكست أيضًا التفوق الأوروبي البحري في شرق آسيا؛ حيث استهدفت السفن الهولندية، والإسبانية، والبرتغالية بعضها بعضًا، إلا أنها لم تُفلت سفن الجنك (Junks) الصينية بما كانت تحمله أيضًا[5]. ولم تبد الصين حرصًا على المشاركة في الدخول في تلك المعارك التي دارت بين الخصوم الألداء، ناهيك عن استعدادها تحمل عاقبة التورط في هذا الصراع. وعلى هذا النحو مالت الصين إلى

---

(1) C. Clunas, *Empire of Great Brightness: Visual and Material Cultures of Ming China, 1368–1644* (London, 2007); Brook, *Confusions of Pleasure*.

(2) *The Plum in the Golden Vase, or, Chin P'ing Mei*, tr. D. Roy, 5 vols (Princeton, 1993–2013).

وانظر -في هذا الصدد- أيضًا:

N. Ding, *Obscene Things: Sexual Politics in Jin Ping Mei* (Durham, NC, 2002).

(3) C. Cullen, 'The Science/Technology Interface in Seventeenth-Century China: Song Yingxing on *Qi* and the *Wu Xing*', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 53.2 (1990), 295–318.

(4) W. de Bary, 'Neo-Confucian Cultivation and the Seventeenth-Century Enlightenment', in de Bary (ed.), *The Unfolding of Neo-Confucianism* (New York, 1975), pp. 141–216.

(٥) ربما استولى الأوروبيون على خريطة سيلدين (Selden) من خلال أعمال القرصنة أيضًا، انظر:

R. Batchelor, 'The Selden Map Rediscovered: A Chinese Map of East Asian Shipping Routes, c. 1619', *Imago Mundi: The International Journal for the History of Cartography* 65.1 (2013), 37–63.

التقوقـع علـى الـذات على نحـو متزايد في ظل هـذه الظـروف، إلا أنها حرصت على جني الفوائد من التجار القادمين إليها في الوقت نفسه، لقد بدا هذا وكأنه أمر منطقي تمامًا.

أُنفق الكثير من الفضة التي تدفقت على الصين في سلسـلة من الإصلاحات الرئيسـة، خاصة تسيل الاقتصـاد، وتشـجيع أسـواق العمل الحـرة، ووضع برنامـج مدروس لتحفيـز التجـارة الخارجية. ومن المفارقـات، أن عشـق أهل الصين للفضـة، وتقديرهـم لهذا المعدن الثمين خاصـةً أضحى يمثل للصين نقطـة ضعف أشـبه شـيء بكعب أخيـل. فمع وصول هذه الكميـات الكبيرة من الفضـة إلى الصين، ولا سـيما عبر مانيلا، كان من المحتم أن تبدأ قيمة الفضة في الانخفاض، الأمر الذي تسـبب بمرور الوقت في تضخم الأسعار. والمحصّلة أن قيمة الفضة، وفي المقام الأول قيمتها بالنسبة للذهب، أُجبرت على التماشـي مع المناطق والقارات الأخرى كافة. وعلى النقيض من الهند؛ حيث أسـفر انفتاح العالم عن اكتشـاف عجائب جديدة في ذلك العالم نفسـه؛ فقد أدى في الصين إلى وقوع أزمة اقتصادية وسياسية خطيرة في القرن السـابع عشـر الميلادي[1]. وعلى هذا النحو لم تكن العولمة أقل إشـكالية قبل خمسة قرون مما هي عليه اليوم.

وكما أشـار آدم سـميث (Adam Smith) -بأخَرة- في كتابه الشـهير المسمى **ثروة الأمم** (wealth of nations)، فإن «اكتشـاف أمريكا، والمجاز إلى جزر الهند الشـرقية المسـمى رأس الرجاء الصالح، هما أعظم الأحداث التي سجلها تاريخ البشرية وأهمها»[2]. لقد تغير العالم حقًّا بفعل طرق الذهب والفضة التي انفتحت بعد أول رحلة استكشـافية لكولومبوس، وكذلك رحلة ڤاسـكو دا جاما الناجحة من وطنه إلى الهند. بيد أن ما سكت عنه آدم سميث عام ١٧٧٦م هو الكيفية التي دخلت بها إنجلترا في المعادلة؛ فإذا كان القرن الذي أعقب اكتشـافات العقد الأخير من القرن الخامس عشـر الميلادي هو قرن إسبانيا والبرتغال، مع تساقط بعض الثمار على إمبراطوريات الشرق، فإن القرنين التاليين هما قرنا بلدين وقعا شـمالي أوروبـا. فعلـى النقيـض من جميع التوقعـات، كان مركز الثقـل في العالم يوشـك على الحركة مجددًا، إلا أنه مال هذه المرة نحو بريطانيا، التي كانت توشك على أن تصبح «عُظمى».

---

(1) W. Atwell, 'Ming Observations of Ming Decline: Some Chinese Views on the "Seventeenth Century Crisis" in Comparative Perspective', *Journal of the Royal Asiatic Society* 2 (1988), 316–48.

(2) A. Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations*, 4.7, ed. R. Campbell and A. Skinner, 2 vols (Oxford, 1976), 2, p. 626.

-١٣-

الطريق إلى شمال أوروبا

شدَّما غيَّرت اكتشافات العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي العالم! فلم تعد أوروبا على هامش الشؤون العالمية، بل أصبحت محرك العالم. وأصبحت القرارات التي تُتخَذ في مدريد ولشبونة تدوي، ويتردد صداها على بُعد آلاف الأميال، أسوة بما كانت الحال عليه مع بغداد العباسية. لقد باتت كل الطرق الآن مؤدية إلى أوروبا، سواءً بدأ المسير من لويانغ (Luoyang) في الصين في عهد أسرة تانغ (Tang)، أو من العاصمة المغولية قره قورم، أو من سمرقند التيمورية.

وترك هذا التحول بعض الأقوام في حالة إحباط تام. وكان الإنجليز أكثر هؤلاء الأقوام شعورًا بالمرارة. فكفى بالأمر سوءًا أن تضاعفت الأموال في خزائن خصوم إنجلترا بين عشية وضحاها. وزاد الطين بلة قصة الجهاد والظفر التي كانت تقضي بأن الذهب والفضة التي هطلت على التاج الإسباني هطول الغيث كانت جزءًا من بركة الله. لقد كان هذا القول يؤلم الإنجليز خاصةً، ولا سيما بعد انفصال إنجلترا عن الكنيسة في روما. وكتب أحد الكهنة اليسوعيين (Jesuit) في القرن السادس عشر قائلًا: «ما أعظم القوة التي وضعتها يد العناية الإلهية في أيدي ملوك إسبانيا». إن ثروة إسبانيا «إنما هي رزق رزقها به الرب في الأعالي؛ يُعز من يشاء، ويذل من يشاء، وكيفما شاء»[1].

وكان المغزى من تلك القصة أن الحكام البروتستانت ينبغي أن يتوقعوا سوء المنقلب، عقابًا لهم على تخليهم عن الإيمان الحق. ومع اشتداد وتيرة الإصلاح (*Reformation*)، اندلع العنف والقمع في جميع أنحاء أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت. وسرت الشائعات عن عمل عسكري وشيك ضد إنجلترا، ولا سيما بعد الفجر الكاذب الذي أعقب وفاة ماري الأولى (Mary I)؛ حيث بدا أن البلاد ستعود سيرتها الأولى إلى حظيرة روما، فتقبل بالسلطة البابوية في عهدها. فلما تولت أختها -غير الشقيقة- إليزابيث الأولى (Elizabeth I)، العرش عام ١٥٥٨م، اضطرت إلى السير على حبل مشدود تحده المخاطر من الجانبين، فعلى جانب كانت هناك المطالب الدينية المتنافسة لمجموعات ضغط مرهوبة الجانب وقوية الشوكة، وعلى الجانب الآخر كانت ثورة أولئك الذين أظهروا السخط، أو المهمشين، أو ضحايا التعصب. ولم يكن ثَم حل سهل يرضي الجميع بسبب العزلة النسبية لإنجلترا على أطراف أوروبا. وعندما أصدر البابا بيوس الخامس (Pius V) مرسومًا بابويًا في عام ١٥٧٠ بعنوان

(1) José de Acosta, *Historia natural y moral de las Indias*, tr. E. Mangan, *Natural and Moral History of the Indies* (Durham, NC, 2002), p. 179.

(Regnans in Excelsis)، معلنًا فيه أن إليزابيث هي «ملكة إنجلترا الدَّعية، وخادمة الخطية»، ومهددًا بحرمان رعاياها الذين يطيعون قوانينها كنسيًّا. عندئذ انبرى الإنجليز يناقشون كيفية مواجهة غزو وشيك، وليس انتظار وقوعه، لقد رأوا الغزو بمثابة حقيقة واقعة لا محالة، ولو بعد حين[1].

وعلى هذا النحو استثمرت إنجلترا مبالغ ضخمة في تطوير البحرية الملكية؛ لإنشاء خط دفاع أول هائل وفعال. وشُيدت أحواض بناء السفن على أحدث طراز، مثل حوض ديبتفورد (Deptford)، وحوض وولويتش (Woolwich) على نهر التايمز؛ حيث صُمّمت السفن الحربية، وصينت بكفاءة وحرص على نحو مستمر، الأمر الذي ساعد بدوره على إحداث نقلة نوعية في بناء السفن التجارية. وبدأ بناء السفن التي يمكن أن تحمل المزيد من البضائع، وتسافر بسرعة أعلى، وتبقى في البحر لفترة أطول، وتحمل المزيد من أفراد الطاقم، ومزيدًا من المدافع، الأمر الذي جعلها أكثر قوة وتفوقًا[2].

واستند عميد بنَّائي السفن ماثيو بيكر (Matthew Baker) -وكان ابنًا لرئيس البنائين- إلى المبادئ الرياضية والهندسية المنصوص عليها في متن أساسي صدر بعنوان «شذرات من بناء السفن الإنجليزية القديمة Fragments of Ancient English Shipwrightry»؛ لإنشاء جيل جديد من السفن للملكة إليزابيث[3]. وسرعان ما اعتُمدت هذه التصميمات للاستخدام التجاري، الأمر الذي أدى إلى تضاعف عدد السفن الإنجليزية التي بلغ وزنها مئة طن -أو أكثر- ثلاث مرات تقريبًا في العقدين السادس والسابع من القرن السادس عشر. وسرعان ما أصبح الجيل الجديد من السفن مضرب الأمثال؛ بسبب سرعتها، وإدارتها الجيدة، والتهديد الهائل الذي كانت تمثله عند مواجهتها في البحر[4].

وأصبحت ثمار حشد القوات البحرية الإنجليزية واضحة عندما حاولت إسبانيا إرسال أسطول ضخم حمل قوات هولندية في صيف عام ١٥٨٨م لغزو إنجلترا غزوًا شاملًا. فتغلب عليهم الإنجليز وتفوقوا عليهم، وعاد رجال الأسطول الأسباني (الأرمادة) -الذين نجوا بأنفسهم- إلى ديارهم مجللين

---

(1) *Regnans in excelsis*, in R. Miola (ed.), *Early Modern Catholicism: An Anthology of Primary Sources* (Oxford, 2007), pp. 486–8;

وانظر:

P. Holmes, *Resistance and Compromise: The Political Thought of the Elizabethan Catholics* (Cambridge, 2009).

(2) D. Loades, *The Making of the Elizabethan Navy 1540–1590: From the Solent to the Armada* (London, 2009).

(3) C. Knighton, 'A Century on: Pepys and the Elizabethan Navy', *Transactions of the Royal Historical Society* 14 (2004), pp. 143–4; R. Barker, 'Fragments from the Pepysian Library', *Revista da Universidade de Coimbra* 32 (1986), 161–78.

(4) M. Oppenheim, *A History of the Administration of the Royal Navy, 1509–1660* (London, 1896), pp. 172–4; N. Williams, *The Maritime Trade of the East Anglian Ports, 1550–1590* (Oxford, 1988), pp. 220–1.

بالعار. وعلى الرغم من أن معظم السفن الإسبانية التي فُقدت؛ إما علقت في الشعاب المرجانية، أو غرقت بسبب عواصف شديدة، وليس على أيدي الإنجليز، فإنه لم يختلف اثنان في انجلترا على أن الاستثمار في القوة البحرية قد أتى ثماره، وعلى نحو جيد أيضًا[١].

بعد هذه الواقعة بأربع سنوات أسر الإنجليز مادري دي ديوس (*Madre de Deus*) -وكانت سفينة برتغالية كبيرة- قبالة جزر الأزور (Azores) لدى عودتها من جزر الهند الشرقية محملة بالفلفل، والقرنفل، وجوز الطيب، وخشب الأبنوس، والمنسوجات، والحرير، والمنسوجات، واللآلئ، والمعادن الثمينة. الأمر الذي عمل على تقوية الاعتقاد بقوة الأسطول الإنجليزي في أعالي البحار. وسُحِبت السفينة البرتغالية إلى ميناء دارتموث (Dartmouth) على الساحل الجنوبي للبلاد، ويُعتقد أن حمولة هذه السفينة وحدها، كانت تساوي نصف واردات إنجلترا السنوية الاعتيادية. وأثار الاستيلاء على تلك السفينة جدلًا حادًا حول الكيفية العادلة التي ينبغي بها تقاسم الغنيمة بين التاج وجنود الأسطول الذين أسروها. وزاد تلف العناصر عالية القيمة سريعًا الوضع سوءًا[٢].

على أية حال فقد أدت مثل هذه النجاحات إلى زيادة الثقة بالنفس، وشجعت أعمال القرصنة في المحيط الأطلسي -فضلًا عن أماكن أخرى- على نحو متزايد. وبدأت إنجلترا في مد يد الصداقة لأي شخص أبدى العداوة للحكام الكاثوليك في أوروبا. فعلى سبيل المثال، حرصت الملكة إليزابيث في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، على إطلاق سراح المسلمين المغاربة الذين كانوا يعملون بوصفهم «عبيد-جالي gally-slaves» على متون السفن الإسبانية التي وقعت في أسر الإنجليز، وحرصت على تزويدهم بالملابس والمال «وسائر الاحتياجات الأخرى»، قبل أن تأمر بإعادتهم إلى بلادهم آمنين[٣]. وفوق ذاك، حصل الإنجليز على دعم من مسلمي المغرب في هجوم شنُّوه على قادس (Cadiz) عام ١٥٩٦م- وهو الحادث الذي أشار إليه شكسبير في مستهل مسرحيته المسماة تاجر البندقية *Merchant of Venice*. لقد كان هذا نتاج توافق المصالح في هذه الحقبة؛ حيث تحدث أحد الكتّاب المعاصرين عن مشاركة الإنجليز للمور[٤] في «الجهاد» ضد إسبانيا الكاثوليكية[٥].

* * *

(1) C. Martin and G. Parker, *The Spanish Armada* (Manchester, 1988); G. Mattingly, *The Armada* (New York, 2005).

(2) E. Bovill, 'The *Madre de Dios*', *Mariner's Mirror* 54 (1968), 129–52; G. Scammell, 'England, Portugal and the Estado da India, c. 1500–1635', *Modern Asian Studies* 16.2 (1982), 180.

(3) *The Portable Hakluyt's Voyages*, ed. R. Blacker (New York, 1967), p. 516; J. Parker, *Books to Build an Empire* (Amsterdam. 1965), p. 131; N. Matar, *Turks, Moors, and Englishmen in the Age of Discovery* (New York, 1999).

(٤) أي المغاربة. (المترجم)

(5) N. Matar, *Britain and Barbary, 1589–1689* (Gainesville, FL, 2005), p. 21; *Merchant of Venice*, I.1.

لما حاولت إنجلترا قطع الطرق الإسبانية والبرتغالية الجديدة إلى الأمريكتين وآسيا، بذلت جهدًا كبيرًا لإقامة علاقات وثيقة مع الأتراك العثمانيين. وعلى هذا النحو راهن الإنجليز على حصان مختلف في الوقت الذي كانت فيه معظم أوروبا تنظر برعب إلى الأتراك، بينما كانت القوات العثمانية تقرع أبواب ڤينا. لقد كان غياب الإنجليز واضحًا عندما اجتمعت دول نصرانية أخرى لتشكيل «العصبة المقدسة Holy League»، وهو تحالف اجتمع لمهاجمة الأسطول العثماني في ليبانتو (Lepanto) في خليج كورنثا (Corinth) عام ١٥٧١م. وأثار انتصار العُصبة المقدسة مشاهد ابتهاج عمت جميع أرجاء أوروبا، حيث أُنشِد الشعر، وعُزفت الموسيقى، وسُخِّر الفن، وأُقيمت النُّصب، إحياءً لذكرى الانتصار. أما في إنجلترا، فقد قوبلت تلك الأنباء بالصمت المطبق[1].

ولم يتغير شيء في سياسة إنجلترا؛ حتى بعد تلك الواقعة، فقد أخذ الإنجليز يتملقون السلطان في القسطنطينية من خلال رسائل الصداقة الحارة، والهدايا التي بعث بها بلاط الملكة إليزابيث؛ ونتيجة لذلك، كانت «التحيات الصادقة والسلامات الوفيرة، المعطرة بأريج الزهور، والنابعة من الثقة المتبادلة الخالصة والعطاء» تعود إلى لندن[2]. ومن بين الهدايا التي أُرسلت من إنجلترا كان الأورغن الذي صممه توماس دلام (Thomas Dallam) وشُحِن إلى القسطنطينية في عام ١٥٩٩م، وشعر دلام بالذعر عندما «لم يند عن الأرغن صوت» عندما حاول العزف عليه بسبب الحرارة والرطوبة؛ كما تضررت أنابيب الجهاز أثناء النقل. عندئذ ألقى السفير الإنجليزي نظرة واحدة عليه «وقال: إنه لم يعد صالحًا». وأصلح دلام الأرغن بعد أن ناضل على مدار الساعة لإصلاح الضرر الذي أصابه. وعندما عزف عليه، أثار عزفه إعجاب السلطان محمد الثالث، حتى إنه -أعني السلطان- نثر عليه الذهب، وعرَض: «أن يهديني اثنتين من محظياته، أو أجمل العذارى الذين اختارهم بنفسي» وفق ما ذكره دلام[3].

وكانت مقاربات إليزابيث في التعامل مع السلطان مدعومة باحتمالات الفرص التي أتيحت لانجلترا بعد التقدم التركي في أوروبا. وكان البابا يحث الحكام النصارى -منذ فترة طويلة- على التحالف لمنع المزيد من الخسائر، مبالغًا في التحذير من أنه «إذا غزا الأتراك المجر، فإن ألمانيا

(1) C. Dionisotti, 'Lepanto nella cultura italiana del tempo', in G. Benzoni (ed.), *Il Mediterraneo nella seconda metà del '500 alla luce di Pepanto* (Florence, 1974), pp. 127–51; I. Fenlon, '"In destruction Turcharum": The Victory of Lepanto in Sixteenth-Century Music and Letters', in E. Degreda (ed.), *Andrea Gabrieli e il suo tempo: Atti del Convengo internazionale (Venezia 16–18 settembre 1985)* (Florence, 1987), pp. 293-317; I. Fenlon, 'Lepanto: The Arts of Celebration in Renaissance Venice', *Proceedings of the British Academy* 73 (1988), 201–36.

(2) S. Skilliter, 'Three Letters from the Ottoman "Sultana" Safiye to Queen Elizabeth I', in S. Stern (ed.), *Documents from Islamic Chanceries* (Cambridge, MA, 1965), pp. 119–57.

(3) G. Maclean, *The Rise of Oriental Travel: English Visitors to the Ottoman Empire, 1580–1720* (London, 2004), pp. 1–47; L. Jardine, 'Gloriana Rules the Waves: Or, the Advantage of Being Excommunicated (and a Woman)', *Transactions of the Royal Historical Society* 14 (2004), 209–22.

ستكون الضحية التالية، وإذا اجتاح الأتراك دالماسيا وإليريا، فلا محالة عندئذ من اجتياح إيطاليا»[1].
ومع انكباب إنجلترا على شأنها، بدأت في تطوير علاقات جيدة مع إستانبول، وقد بدت هذه سياسة خارجية معقولة، فضلاً عن إمكانية تطوير الروابط التجارية.

وما يلفت النظر في هذا الصدد، أن اتفاقية تجارية رسمية كانت قد أُبرمت بين إستانبول ولندن، ومُنِح التجار الإنجليز -بمقتضاها- امتيازات أكثر سخاء من تلك الممنوحة لأية أمة أخرى في أراضي الدولة العثمانية[2]. ولم تكن اللغة المشتركة المستخدمة في التواصل بين البروتستانت والمسلمين أقل إثارة للدهشة؛ فعلى سبيل المثال، لم يكن من قبيل الصدفة أن تكتب الملكة إليزابيث إلى السلطان العثماني واصفة نفسها بقولها: «بالله العظيم ... أنا أقوى المدافعين عن الإيمان النصراني ضد كل أنواع الوثنية، من جميع من يعيش بين النصارى، ويدعي الانتساب زورًا لاسم المسيح»[3]. وفي الوقت نفسه انتبه السلاطين العثمانيون إلى الفرصة التي يتيحها التحالف مع أولئك الذين انفصلوا عن الكنيسة الكاثوليكية، مؤكدين على أوجه التشابه في العقيدة أيضًا، ولا سيما متى تعلق الأمر بعبادة الأيقونات؛ فكتب السلطان مراد إلى «أعضاء الطائفة اللوثرية في فلاندرز وإسبانيا» قائلًا: من بين الخطايا الكثيرة التي ارتكبها «الخائن الذي يقال له: البابا»، أنه شجع على عبادة الأصنام. ويُحمَد لأتباع مارتن لوثر -أحد مهندسي الإصلاح- أنهم «نبذوا عبادة الأصنام والأيقونات والأجراس في الكنائس ظهريًا»[4]. ورغم كل الصعاب، فإن البروتستانتية في إنجلترا بدت وكأنها يمكن أن تُعين على فتح الأبواب، وليس إغلاقها[5].

وانتشرت الآراء الإيجابية عن العثمانيين والعالم الإسلامي في الثقافة السائدة في إنجلترا آنئذ. فقد قال أمير المغرب لـ بورشيا (Portia) -في رواية شكسبير المسماة **تاجر البندقية**- عندما ناضل للفوز بقلبها، وتقدم لها طالبًا الزواج منها، : «لا تنفري مني بسبب لون بشرتي». لقد أحاط الجمهور علمًا بأن الأمير كان رجلًا قاتل بشجاعة من أجل السلطان في مناسبات عديدة. لقد كانت مباراة رائعة بين الوريثة (التي كانت ترمز للملكة إليزابيث نفسها)، ورجل تمتع بالذكاء فأدرك الحقيقة التي مفادها: «ليس كل ما يلمع ذهبًا». كما كانت هناك شخصية عُطيل (Othello)، حيث يتناقض النبل المأساوي لبطل الرواية، «مور» (ومن ثم يُفترَض أنه مسلم) في خدمة البندقية، على نحو حاد مع المعايير المزدوجة، والنفاق، وخداع النصارى من حوله. وقيل للجمهور في فصل من فصول المسرحية: إن «المور أصحاب طبيعة

---

(1) A. Artner (ed.), *Hungary as 'Propugnaculum' of Western Christianity: Documents from the Vatican Secret Archives (ca.1214–1606)* (Budapest, 2004), p. 112.

(2) Jardine, 'Gloriana Rules the Waves', 210.

(3) S. Skilliter, *William Harborne and the Trade with Turkey 1578–1582: A Documentary Study of the First Anglo-Ottoman Relations* (Oxford, 1977), p. 69.

(4) Ibid., p. 37.

(5) L. Jardine, *Worldly Goods: A New History of the Renaissance* (London, 1996), pp. 373–6.

ثابتة، ومحبة، ونبيلة»، في إشارة إلى أن المسلمين يمكن عدهم أناسًا ثقات، وحازمين متى تعلق الأمر بالوعود، ومن ثم فإنهم حلفاء، يُوثق بهم ويُعوَّل عليهم[1]. والحق أن عصر إليزابيث شهد ظهور بلاد فارس أيضًا بوصفها نقطة مرجعية ثقافية مشتركة، وإيجابية في الأدب الإنجليزي[2].

وبإزاء التصوير الإيجابي للمسلمين وعوالمهم في إنجلترا، تشددت مواقف الإنجليز تجاه الإسبان؛ لذلك كان نشر رواية بارتولومي دي لاس كاساس (Bartolome de las Casas) عن غزو العالم الجديد بمثابة هبة من السماء، لا سيما في سياق الثورة التي قادها يوهانس جوتنبرج (Johannes Gutenberg) قبل قرن من الزمان، والتي أتاحت طباعة المتون بكميات لم يكن من الممكن تصورها في السابق[3]. وأتاح ذلك نشر روايات مثل دي لاس كاساس -وكان راهبًا دومينيكيًا- بسرعة، وبتكلفة زهيدة نسبيًا. فكانت الزيادة المفاجئة في سرعة تبادل المعلومات هي التي أحدثت الفارق، كما هي الحال مع التقدم التقني في أوائل القرن الحادي والعشرين.

وكانت رواية دي لاس كاساس من الأهمية بمكان؛ ذاك أن الكاهن أصيب بخيبة أمل كبيرة بسبب معاناة السكان الأصليين في الأمريكتين، والتي عاينها بنفسه. وتلقف الإنجليز النص ملهوفين؛ حيث وضَّح الفظائع بتفاصيل مروعة، وتُرجم النص بعنوان: تقرير موجز عن تدمير جزر الهند *A Short Account of the Destruction of the Indies* (Brevisima relación de la destrucción de las Indias). ووُزِّع على نطاق واسع في العقد التاسع من القرن السادس عشر، إما كاملًا أو مختصرًا يشتمل على المقاطع الأكثر أهمية من غيرها. ومن ثم قدم صورة -لا لبس فيها- للإسبان بوصفهم قتلة سفاحين، وكذلك عن إسبانيا بوصفها مملكة قاسية ومتعطشة للدماء. وكتب مترجم النص، وكان يدعى: جيمس أليجرودو (James Aligrodo) في مقدمته أن «اثني عشر، أو خمسة عشر، أو عشرين مليون مخلوق عاقل مسكين» قد ذُبحوا[4].

وسرعان ما انتشرت القصص عبر أوروبا البروتستانتية، مشيرةً إلى معاملة الإسبان المروعة لأولئك الذين اعتقدوا أنهم أدنى منهم مكانة. وكان المغزى واضحًا، مفاده: إن الإسبان قوم ظالمون بالفطرة، يتصرفون مع الآخرين بقسوة تُنذر بالسوء؛ فإذا أُتيحت لهم الفرصة، فسوف يضطهدون أولئك الأقرب إلى بلادهم بالطريقة نفسها[5]. وكانت المحصلة إثارة المخاوف في نفوس ساكنة الأراضي المنخفضة

---

(1) *Merchant of Venice*, II.7; *Othello*, I.3.

(2) J. Grogan, *The Persian Empire in English Renaissance Writing, 1549–1622* (London, 2014).

(3) A. Kapr, *Johannes Gutenberg: Persönlichkeit und Leistung* (Munich, 1987).

(4) E. Shaksan Bumas, 'The Cannibal Butcher Shop: Protestant Uses of Las Casas's "Brevísima Relación" in Europe and the American Colonies', *Early American Literature* 35.2 (2000), 107–36.

(5) A. Hadfield, 'Late Elizabethan Protestantism, Colonialism and the Fear of the Apocalypse', *Reformation* 3 (1998), 311–20.

(هولندا)، الذين كانوا يخوضون صراعًا شرسًا مع إسبانيا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. وسعى الإسبان لتوطيد سُلطانهم في المناطق التي وجدت فيها الدعوة إلى الإصلاح دعمًا قويًا. ووصف ريتشارد هاكلويت (Richard Hakluyt) -وكان مؤرخًا مشهورًا، ومدافعًا عن الاستيطان البريطاني في الأمريكتين- كيف «تحكم إسبانيا جزر الهند بكل كبرياء واستبداد»، وكيف تُلقي بالأبرياء في غياهب العبودية، وكيف «يبكون بنشيج واحد» حزين استجداءً للحرية[1]. لقد كان هذا هو النموذج الإسباني للإمبراطورية. أو بعبارة أخرى، نموذج من التعصب، والعنف، والاضطهاد. ولن تتصرف إنجلترا بهذه الطريقة المخزية إذا حلت محل إسبانيا[2].

لقد كانت تلك هي النظرية بطبيعة الحال؛ بيد أن لسان حال الواقع كان يقول: إن المواقف تجاه العبودية والعنف كانت أكثر غموضًا مما تشي به مثل هذه الوعود السامية؛ ففي العقد السابع من القرن السادس عشر، حاول البحارة الإنجليز مرارًا الاستحواذ على نصيب من تجارة الرقيق المربحة في غرب إفريقيا، حيث التمس السير جون هوكينز (John Hawkins) من الملكة إليزابيث نفسها المساعدة في تحقيق أرباح جيدة من بيع البشر عبر المحيط الأطلسي. وبعد أن خلص هوكينز وداعموه إلى أن «الزنوج يعدون سلعة جيدة للغاية في هيسبانيولا (Hispaniola) وأن هذا المتجر من الزنوج قد يكون متاحًا بسهولة على ساحل غينيا»، كان هوكينز وداعموه أكثر استعدادًا للمشاركة في تلك التجارة. وبعيدًا عن دعوى رفض التعامل مع «الطغاة» الإسبان في العالم الجديد، أبلى صفوة المجتمع الإنجليزي بلاءً حسنًا -كتفًا بكتف- مع الإسبان في تجارة الرقيق[3].

وفي الأخير، تأطر موقف إنجلترا من خلال وعيها الشديد بأنها كانت في موقف أضعف من أن تستغل الفرص المذهلة التي أوجدتها التغييرات العظيمة التي جرت في أوائل القرن السادس عشر الميلادي. فقد أدى الخلاف الديني، والتوقيت المؤسف إلى تحويل البلاد إلى العدو اللدود للقوة العالمية الصاعدة التي أصبحت عليها إسبانيا، الأمر الذي جعلها في وضع أضعف من الاستفادة من تدفق الثروات الآتية من الأمريكتين، أو من التجارة المتدفقة إلى البندقية عبر البحر الأحمر والطرق البرية من الشرق. وبدا انتقاد الإسبان جيدًا للغاية، إلا أنه لم يفعل شيئًا لإخفاء حقيقة أن الإنجليز كانوا قمّامين، يظهرون الامتنان للفتات الذي كان يُلقى إليهم. وأشار الكاتب ريتشارد هاكلويت إلى أن إنجلترا كانت «تعج في هذا اليوم بالشبان الشجعان»، وكانت تعاني من وضع اقتصادي بائس، جراء

(1) R. Hakluyt, 'A Discourse on Western Planting, 1584', in *The Original Writings and Correspondence of the Two Richard Hakluyts*, ed. E. Taylor, 2 vols (London, 1935), 2, pp. 211–326.

(2) M. van Gelderen, *The Political Thought of the Dutch Revolt, 1555–1590* (Cambridge, 2002).

(3) 'The First Voyage of the right worshipfull and valiant knight, Sir John Hawkins', in *The Hawkins Voyages*, ed. C. Markham (London, 1878), p. 5.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Kelsey, *Sir John Hawkins*, pp. 52–69.

«نقص العمالة» المزمن. ألن يكون من الرائع -كما تساءل- أن نوجه شبابنا للعمل لإنشاء قوة بحرية قادرة على صنع «هذا العالم ... أسيادًا لكل تلك البحار [في العالم]»؟[1]. لقد كان الحديث عن حكم الأمواج طموحًا؛ ولكن منذ متى كان الطموح عيبًا؟!

❋ ❋ ❋

لم يجلس الإنجليز مكتوفي الأيدي بينما كان جنوبي أوروبا ينعم بالازدهار؛ فقد أرسلت انجلترا حملات في كل حدب وصوب؛ لمحاولة فتح طرق التجارة، وبناء شبكات جديدة للتجارة، والنقل، والاتصالات. بيد أن قليلًا منها أسفر عن نتائج مشجعة. وعادت الحملات التي قادها مارتن فروبيشر (Martin Frobisher) لاستكشاف الممر الشمالي الغربي في العقد الثامن من القرن السادس عشر إلى الديار دون أن تجد الطريق المأمول إلى آسيا؛ وزاد من حرجهم أن الكميات الكبيرة التي اكتشفوها من الذهب -فيما يُعرف الآن بكندا- والتي رُوِّج لها على أنها اكتشافات تنافس تلك التي توصل إليها غيرهم في أماكن أخرى في الأمريكتين، سرعان ما تبين أنها لم تكن شيئًا من هذا القبيل؛ لقد كان المعدن اللامع هو حجر النار (Marcasite)، أو بيريت الحديد الأبيض. أي كما ينعته الأوربيون «ذهب الأحمق»[2].

ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فقد وقعت كوارث أخرى؛ حيث انتهت محاولة الوصول إلى الصين عبر بحر بارنتس (Barents) بمأساة. وألفى السير هيو ويلوبي (Hugh Willoughby) وطاقمه سفينتهم محاصرة بالجليد بالقرب من مورمانسك (Murmansk)، فلما حلَّ الشتاء تجمد الجميع حتى الموت، واكتشفت جثثهم في العام التالي. ووفقًا لسفير البندقية في لندن؛ فقد تجمدت جثثهم «في أوضاع مختلفة، كالتماثيل»، بعضها «جالس يكتب، ولا يزال ممسكًا بالقلم بأنامله، وآخر التقم ملعقة في فمه؛ وآخرون يفتحون خزانة»[3].

فضلًا عن ذلك، أُعيقت الجهود الأخرى لإنشاء روابط تجارية مع روسيا من أجل الوصول إلى البضائع الشرقية، أولًا بسبب حقيقة أن الإنجليز وصلوا في لحظة بالغة السوء، كان فيها إيفان الرابع (Ivan IV) في أسوأ أحواله. وثانيًا بسبب الموانع التي عطلت التجارة الروسية في آسيا في القرن السادس عشر الميلادي. فعلى الرغم من أن الروس كانوا بصدد إزالة تلك الموانع والتوسع إلى حد كبير، فإن الطرق المؤدية إلى بحر قزوين وما وراءه كانت لا تزال خطرة للغاية؛ بحيث لم يكن بمُكْنَة التجار اجتياز ذلك الطريق بأمان؛ حتى إن قوافل التجار التي كانت تخضع لحراسة مشددة كانت عُرضة لغارات قطاع الطرق[4].

---

(1) Hakluyt, 'A Discourse on Western Planting', 20, p. 315.

(٢) انظر:

J. McDermott, *Martin Frobisher: Elizabethan Privateer* (New Haven, 2001).

(3) *Calendar of State Papers and Manuscripts, Venice*, 6.i, p. 240.

(4) P. Bushev, *Istoriya posol'tv i diplomaticheskikh otnoshenii russkogo i iranskogo gosudarstv v 1586–1612 gg* (Moscow, 1976), pp. 37–62.

وأُرسِل التجار الإنجليز في بعثات قصدت بلاد فارس أيضًا، وفي عدة مناسبات في العقد السابع من القرن السادس عشر، في محاولات يائسة -إلى حد ما- لإقامة روابط تجارية هناك. وعادة ما كان المبعوثون يحملون وثائق من الملكة إليزابيث تعد بالصداقة والتحالف، ثم يطلبون امتيازات من الشاه «بنية صادقة، للتجارة في البضائع مع رعاياكم، ومع الغرباء الآخرين الذين يتاجرون في ممالككم»[1]. وبالغ التجار الإنجليز في الحرص على الحصول على تلك الامتيازات؛ حتى إن التجار امتثلوا لتعليمات صارمة تقضي بعدم الحديث في الدين، بعد أن أخطؤوا في ردودهم في مناظرة بشأن الفضائل النسبية للإسلام والنصرانية، جرت بينهم وبين مُضيفيهم المسلمين الورعين. فقد نُصِح التجار بأنه إذا سأل سائل -مستقبلًا- عن الدين في بلادنا، فالأفضل «تجاوز هذا الحديث من خلال التزام الصمت»[2]. لقد كان الموقف الديني في أوروبا، محسوبًا في كل شيء؛ حيث قاتل الكاثوليك والبروتستانت بعضهم بعضًا بضراوة. أما خارج أوروبا، فلا يُضير تصنُّع الهزيمة في الحجاج.

ولما أهلَّ القرن السابع عشر الميلادي، لم يكن الإنجليز قد حققوا نجاحات تقارَن بنجاح الإسبان والبرتغاليين، ومع ذلك فقد أُنشِئت كيانات تجارية جديدة تأسست بأموال المساهمين، بدءًا من شركة التجار المغامرين (Merchant Adventurers) لاستكشاف المناطق، والأقاليم، والجزر، والأماكن غير المعروفة، التي تأسست نحو عام ١٥٥١م. ثم ما لبث أن نمت حول تلك الشركة مجموعة من الشركات الجديدة والمستقلة، ذات الطموحات الجغرافية المختلفة، نمو الفِطر؛ فتأسست الشركة الإسبانية (Spanish Company)، وشركة إيستلاند (Eastland Company)، وشركة بلاد الشام (Levant Company)، وشركة روسيا (Russia Company)، وشركة تركيا (Turkey Company)، وشركة الهند الشرقية (East India Company) بموجب عهود ومواثيق مَلكية، منحت تلك الشركات احتكار التجارة داخل منطقة، أو دولة بعينها على أساس أن الأعمال التجارية في الخارج كانت محفوفة بالمخاطر، وتتطلب استثمارات كبيرة. وعلى هذا النحو، كان تحفيز التجار من خلال حماية النجاح مستقبلًا، طريقة مبتكرة لمحاولة بناء تجارة إنجلترا، ومن خلالها توسعت المجسات السياسية للبلاد.

وعلى الرغم من أسماء تلك الشركات المثيرة للإعجاب، والتأييد الملكي لها، والآمال الكبيرة التي انعقدت عليها، فإن النتائج جاءت هزيلة في البداية. فظلت إنجلترا تراوح مكانها على هامش الشؤون العالمية، في حين بدا أن موقف إسبانيا يزداد قوة وبأسًا. وجُمِعت المعادن الثمينة التي سبق أن جمعها

---

(1) R. Hakluyt, *The principal navigations, voyages, traffiques and discoveries of the English nations*, 12 vols (Glasgow, 1903-5), 3, pp. 15-16; R. Ferrier, 'The Terms and Conditions under which English Trade was Transacted with Safavid Persia', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 49.1 (1986), 50-1; K. Meshkat, 'The Journey of Master Anthony Jenkinson to Persia, 1562-1563', *Journal of Early Modern History* 13 (2009), 209-28.

(2) S. Cabot, 'Ordinances, instructions and aduertisements of and for the direction of the intended voyage for Cathaye', 22, in Hakluyt, *Principal navigations*, 2, p. 202.

الآزتك، والإنكا وغيرهم على مدى قرون وأُرسلت إلى إسبانيا على مدار عقود قليلة، جنبًا إلى جنب مع ثروات المناجم التي لم تُكتشف من قبل، أو تلك التي أُسيء استغلالها مثل منجم بوتوسي (Potosi)، الذي قيل: إنه كان يدر -وحده- مليون بيزو سنويًا للتاج الإسباني[١].

وعلى الرغم من اكتشافات إسبانيا الكبرى، فإنه لم يعد هناك الكثير من الكنوز التي يمكن سلبها من العالم الجديد. لقد كانت الموارد محدودة في الأخير، مثل المحار قبالة سواحل ڤنزويلا الذي انقرض بعد صيد عشرات بلايين المحار في غضون ثلاثة عقود فحسب منذ أوائل القرن السادس عشر[٢]. ومع ذلك، فقد تعامل الإسبان مع تلك المكاسب غير المتوقعة على أنها منجم لا يُفنى، واستخدموا الثروة المكتشفة حديثًا لتمويل سلسلة من المخططات الضخمة مثل بناء القصر الضخم في الاسكوريال (El Escorial)، فضلًا عن تمويل حملات عسكرية لا أول لها ولا آخر ضد الخصوم في كل مكان؛ حيث سرى شعور قوي داخل البلاط الإسباني بأنه بات من الضروري التصرف كشرطي القدير، لإمضاء إرادته على الأرض، وبالقوة إذا لزم الأمر. ثم ما لبثت إسبانيا أن أدركت أنه لا طاقة لها بمقاومة إغراء الحرب مع البروتستانت والمسلمين على حدٍّ سواء. لقد كان فصلًا جديدًا في الحرب المقدسة على وشك أن يبدأ.

* * *

كانت الحروب الصليبية -في الماضي- قد برهنت على أن شهوة الحرب المقدسة للرجال والمال قد تكون مكلفة، وعلى نحو مدمر للخزائن الملكية. ومع ذلك لم يُبدِ التاج الإسباني تحفظًا تجاه الاستدانة لتمويل مشاريعه، وما زاد موقف التاج سوءًا إقدامه على اتخاذ قرارات طموحة على المدى القصير، مع تجاهل العواقب التي لم تتضح إلا بأخَرة، ولا سيما عندما خرجت الأمور عن السيطرة. كما كان سوء الإدارة المالية، وانعدام الكفاءة جزءًا من الصورة العامة أيضًا؛ والمحصلة أن عجز إسبانيا عن السيطرة على الإنفاق العسكري أدى إلى عواقب كارثية في الأخير. فقد تخلفت إسبانيا -على نحو لا يكاد يُصدَّق- عن سداد ديونها في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وعجزت عن الوفاء بالتزاماتها المالية لأربع مرات على الأقل في أعقاب هذا التاريخ[٣]. لقد كان مَثَل إسبانيا مَثَل الفائز في اليانصيب الذي استبدل الديباج بالأسمال والخرق، إلا أنه لم يفعل شيئًا سوى أنه بدد قيمة الجائزة فحسب. لقد أنفقت إسبانيا المال على الكماليات، حتى لم يعد بوسعها تحمل كلفتها.

وكانت آثار تدفق الثروات ملموسة في أماكن أُخَر. فكانت هناك ثورة في الأسعار طالت جميع

---

(1) Vilches, *New World Gold*, p. 27.

(2) A. Romero, S. Chilbert and M. Eisenhart, 'Cubagua's Pearl-Oyster Beds: The First Depletion of a Natural Resource Caused by Europeans in the American Continent', *Journal of Political Ecology* 6 (1999), 57–78.

(3) M. Drelichman and H.-J. Voth, 'The Sustainable Debts of Philip II: A Reconstruction of Spain's Fiscal Position, 1560–1598', *Centre for Economic Policy Research*, Discussion Paper DP6611 (2007).

أرجاء أوروبا؛ حيث ساد التضخم بفضل تدفق الأموال من الأمريكتين، الأمر الذي أدى إلى زيادة أعداد المستهلكين الذين سعوا إلى حيازة كميات معينة من السلع بطبيعة الحال. وأدى التوسع الحضري -الذي كانت معدلاته آخذة في الارتفاع- إلى تفاقم تلك المشكلة، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار؛ فقد تضاعفت أسعار الغلال في إسبانيا، وحدها خمس مرات في القرن الذي تلا اكتشافات كولومبوس(١).

وفي الأخير، بلغ السيل الزبى في مقاطعات الأراضي المنخفضة وبلداتها، وهي البقاع التي كانت تشكل جزءًا من الأراضي الإسبانية، حيث اشتد سخط الناس هناك على الطريقة التي سعَت بها إسبانيا لحل مشكلاتها المالية من خلال فرض الضرائب الباهظة عليهم. ولم يكن شمال أوروبا إلا خلية من المراكز الحضرية المنتجة، حيث ظهرت أنتويرب، وبروج (Bruges)، وجينت (Ghent)، وأمستردام (Amsterdam) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بوصفها مراكز تجارية مهمة للبضائع القادمة من البحر المتوسط والدول الاسكندنافية، ودول البلطيق، وروسيا، بل والجزر البريطانية؛ إضافة إلى البضائع المُنتَجة محليًا والمصدرة إلى تلك البقاع أيضًا. كما عرفت الأراضي المنخفضة ازدهارًا بعد انفتاح التجارة على الهند والأمريكتين بطبيعة الحال(٢).

وأصبحت هذه المدن مراكز جاذبةً للتجار من جميع أنحاء العالم، الأمر الذي أدى بدوره إلى حياة اجتماعية واقتصادية باتت تنبض بالحياة، وهو ما أدى -بدوره- إلى تشكيل هويات مدنية قوية. وتطلبت الزيادة السكانية استخدام الأراضي المحيطة بكفاءة، الأمر الذي أدى إلى تحقيق تقدم سريع، ليس في إدارة المحاصيل في الأراضي المحيطة فحسب، بل في تقنيات ري تلك الأراضي أيضًا، من قَبيل: بناء السدود، والحواجز البحرية، سعيًا لاستغلال كل بوصة من الأرض المتاحة للزراعة على نحو مثمر. وعمل الحجم، ومعدلات الإنتاج المزدهرة لمدن الأراضي المنخفضة ومناطقها النائية على جعل تلك البقاع بمثابة أوان من العسل، فكانت مراكز مربحة، تدر عائدات ضريبية عالية، ومن ثم لم يكن الحكام الإسبان -الذين سيطروا على معظم أنحاء هذه المنطقة بضربة حظ، من خلال المصاهرات، وميراث الأسرة الحاكمة- ليضحوا بها بسهولة(٣).

---

(1) D. Fischer, *The Great Wave: Price Revolutions and the Rhythm of History* (Oxford, 1996).

وانظر أيضًا:

D. Flynn, 'Sixteenth-Century Inflation from a Production Point of View', in E. Marcus and N. Smukler (eds), *Inflation through the Ages: Economic, Social, Psychological, and Historical Aspects* (New York, 1983), pp. 157–69.

(2) O. Gelderblom, *Cities of Commerce: The Institutional Foundations of International Trade in the Low Countries, 1250–1650* (Princeton, 2013).

(3) J. Tracy, *A Financial Revolution in the Habsburg Netherlands: Renten and Renteniers in the County of Holland, 1515–1565* (Berkeley, 1985).

ولـم يمـض وقت طويل قبل أن يشـعر أهـل تلك المقاطعـات والمدن بالذعر من فـرض الضرائب الباهظة عليهم، هذا إلى جانب المواقف القاسية والوحشية المتعلقة بالدين. وسقطت أفكار مارتن لوثر (Martin Luther)، وجـون كالڤـن (John Calvin) وغيرهـم من الذين شـددوا على الفسـاد المؤسسي للحكام السياسيين البعيدين، والأهمية الروحية للفرد؛ سقوط البذور على أرض خصبة في تلك البقاع شـديدة التحضـر، وسـاعدت تلك البيئة البروتسـتانتيةَ على ترسـيخ جذورها عميقًـا. وأثبت الاضطهاد الاقتصـادي والدينـي أنه مزيـج قوي يثير روح الثورة والتمرد؛ حيث أدى ذلك في النهاية إلى قيام اتحاد أوترخت (Union of Utrecht) في عام ١٥٨١م، أي إعلان استقلال ما أصبح يسمى اتحاد المقاطعات السبع (Union of Seven Provinces)، أي الجمهوريـة الهولنديـة فعليًـا. ورد الإسبان علـى ذلـك باسـتعراض للقـوة، إلـى جانب فـرض حظر علـى التجارة على الأراضـي المنخفضة بـدأ في ١٨٥٨م. وهدف الإسبان من انتهاج تلك السياسة إلى خنق المقاطعات والمدن الثائرة، وإجبارها على الخضوع للتاج الإسـباني مجددًا. بيد أن النتائج جاءت عكسـية -كما هي الحال غالبًا عندما تُفرض العقوبات- ففي مواجهة البديل المرفوض قطعيًا -أي الخضوع للتاج الإسباني مجددًا- فضَّل الانفصاليون المبادرة بالهجـوم عـن الركـون إلـى الدفـاع. وكانت الطريقـة الوحيدة للبقـاء هي اسـتخدام كل ذرة مـن العلم، والمهـارة، والخبـرة التـي لديهـم، وتوظيفهـا لصالحهم. لقـد حان الوقـت لقلب الطاولـة على رؤوس الإسبان[1].

واجتمعت الظروف لتوفير سياق لمعجزة تحقَّقَت في الأراضي المنخفضة في أواخر القرن السادس عشـر. فقـد تسببت محاولـة إسـبانيا قمع المنطقـة في هجرة واسـعة النطـاق؛ حيث هاجر السـكان من المقاطعـات الجنوبيـة، واتجهـوا شـمالًا، الأمـر الـذي تسـبب فـي معانـاة مدن مثـل: جينـت، وبروج، وأنتويرب؛ حتى إن أحد العلماء وصف تلك الهجرات بـ «النزيف الكارثي للسكان». وكان هذا التوقيت بمثابـة ضربـة حظ، فقد ضمـن الحظر التجاري وجـود مخزونات ضخمة من الغلال وأسـماك الرنجة، الأمر الذي كان يعني توفر السـلع الغذائية وبأسـعار زهيدة. وعلى الرغم من ارتفاع أسـعار الإيجارات بوتيرة متسارعة، فإن تضخم السكان أدى أيضًا إلى ازدهار في بناء المنازل، واجتماع طوائف فعالة من التجار ذوي الخبرة مع غيرهـم من المهنيين الذين كانوا يحاولون الهروب من الضغط الذي كان الإسبان يمارسونه عليهم[2].

ولما رُفع الحصار أخيرًا في عام ١٥٩٠م، تحرك الهولنديون سـريعًا للقضاء على القوات الإسبانية التي أُرسـلت للحفاظ على النظام، مستغلين انشـغال ملك إسـبانيا فيليب الثاني (Philip II) في صراع عسـكري في مكان آخر في أوروبا. وما أن تحرر الهولنديون من الضغط العسـكري الإسباني عليهم،

---

(1) O. van Nimwegen, '*Deser landen crijchsvolck*'. *Het Staatse leger en de militarie revoluties 1588–1688* (Amsterdam, 2006).

(2) J. Israel, *The Dutch Republic: Its Rise, Greatness and Fall 1477–1806* (Oxford, 1995), pp. 308–12.

حتى غامروا بالدخول في التجارة الدولية، سعيًا إلى بناء علاقات تجارية مع الأمريكتين وإفريقيا وآسيا، لما ألفَوا الفرصةَ سانحةً.

وكان هناك منطق تجاري واضح لخطة إنشاء طرق التجارة الخاصة بالهولنديين؛ ذاك أن جلب البضائع إلى الجمهورية الهولندية مباشرة، كان من شأنه أن يُجنِّب التجار دَفعتين من الضرائب: فأولًا، كانت البضائع تصل دون أن تُفرض رسوم عليها في موانئ البرتغال أو إسبانيا؛ حيث تُفرض الضرائب عادةً على الشحنات قبل تصديرها شمالًا. وثانيًا، كانت حقيقة أن السلطات الهولندية باتت تحصل الإيرادات بنفسها -بدلًا من إعادتها مرة أخرى إلى السادة الإيبريين- تعني أن الأموال الناتجة عن التجارة المزدهرة في الأراضي المنخفضة لن تُنفَق على تمويل الطموحات الإمبريالية، أو الإنفاق الباذخ في أماكن أخرى. وكان من شأن هذا أن يجلب فوائد فورية، ويخلق دائرة اقتصادية حميدة؛ حيث يمكن إعادة استثمار الأرباح على نطاق أوسع، الأمر الذي أسفر عن توليد تدفقات نقدية أقوى، سواءً للتجار كل على حدة، أو للجمهورية الوليدة[1].

* * *

حقق البرنامج الطموح أرباحًا منذ بدء العمل به؛ فقد انطلقت رحلة استكشافية إلى الشرق في عام ١٥٩٧م، وعادت إلى الوطن في العام التالي ظافرة، حاملة شحنات حقق بيعها أرباحًا بلغت ٤٠٠٪. وبدأت القوافل البحرية الهولندية في الانتشار في كل حدب وصوب، بتمويل من المستثمرين الذين شجعتهم مثل هذه العوائد القوية على المغامرة برؤوس أموالهم[2]. ففي عام ١٦٠١ وحده، أبحرت أربع عشرة رحلة استكشافية منفصلة إلى آسيا، في حين ناهز عدد السفن التي كانت تمخر عباب المحيط الأطلسي مئة سفينة في العام؛ لشراء الملح من شبه جزيرة أرايا (Araya)، وكانت تجارة الملح أمرًا حيويًّا لتجارة أسماك الرنجة المحلية[3].

وجُنَّ جنون الإسبان، فجدَّدوا شن الحملات العسكرية على الأراضي المنخفضة، وفرضوا حصارًا آخر على هولندا. وبحسب الفيلسوف اللامع والمحامي هيو جروتيوس (Hugo Grotius)، فإن هذه الإجراءات -ببساطة- عززت الرأي القائل: إن على الهولنديين أن يقرروا مصائرهم بأيديهم. وبدلًا من التراجع في مواجهة التهديدات والضغوط، كان خيار الهولنديين الوحيد هو المضي قدمًا في الاستثمار في المشروعات التجارية، وبناء شبكة تجارية في أسرع

(1) W. Fritschy, 'The Efficiency of Taxation in Holland', in O. Gelderblom (ed.), *The Political Economy of the Dutch Republic* (2003), pp. 55–84.

(2) C. Koot, *Empire at the Periphery: British Colonists, Anglo-Dutch Trade, and the Development of the British Atlantic, 1621–1713* (New York, 2011), pp. 19–22; E. Sluitter, 'Dutch–Spanish Rivalry in the Caribbean Area', *Hispanic American Historical Review* 28.2 (1948), 173–8.

(3) Israel, *Dutch Republic*, pp. 320–1.

وقت ممكن للمساعدة في بناء القوة النارية، وتعزيز الاستقلال. لقد كان خيار الهولنديين إما ربح كل شيء، أو العودة بخُفي حُنين[1].

كان تشييد السفن الرائعة هو مفتاح النجاح الهولندي، وفي المقام الأول تلك الابتكارات في التصاميم الكلاسيكية التي مكنت أساطيل الرنجة -قبل فترة طويلة- من الإبحار بنجاح في لجة بحر الشمال، وفي الموانئ الضحلة بفضل ضآلة غاطساتها. ولما أهلّ العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادي، بنى الإنجليز سفنًا حربية أسرع وأقوى، بينما انصبت جهود الهولنديين على تطوير السفن التي تعمل على نحو أفضل، ويسعها أن تحمل المزيد من البضائع، وتتطلب عددًا أقل من رجال الطاقم للعمل عليها؛ ومن ثم تصبح اقتصادية في التشغيل. وأرست هذه السفن -التي أُطلق عليها «فلويتس» *Fluyts*- معيارًا جديدًا للشحن التجاري[2].

وأبلى الهولنديون حسنًا، واستعدوا خير استعدادٍ عندما أبحروا؛ ففي حين رحل أسلافهم الأوروبيون -الذين عبروا المحيط الأطلسي، وداروا حول رأس الرجاء الصالح- على غير هدى قاصدين المجهول، كان الهولنديون يعرفون ماذا يفعلون. لقد كانوا يعرفون ما الذي يبحثون عنه، وأين يجدونه. وألف كُتّابٌ مثل يان هيغين ڤان لينشوتن (Jan Huyghen van Linschoten) -وكان سكرتير رئيس أساقفة جوا، وأنفق حياته في البحث عن طرق التجارة، والموانئ، والأسواق، والظروف المحلية السائدة في جميع أنحاء آسيا- متونًا مثل (*Itinerario*)، التي وضعت مخططات شاملة، كانت بمثابة متون إرشادية تقريبًا لأولئك الذين انطلقوا قاصدين الشرق[3].

كما كانت بعض المصنفات الأخرى مفيدة أيضًا في إعداد التجار لرحلاتهم؛ فكان الهولنديون سادة العالم متى ذُكر فن رسم الخرائط. ولم يكن هناك غنى عن الخرائط والمخططات البحرية التي أعدها النحات لوكاس يانسون ڤاجنر (Lucas Janszoon Waghenaer) في العقد الأخير من القرن السادس عشر الميلادي في جميع أنحاء أوروبا بفضل تفاصيلها ودقتها. كذلك اهتم الهولنديون بجمع المعلومات الدقيقة، وإنتاج أطالس محدَّثة ومفصلة لجزر الهند الشرقية، ومنطقة البحر الكاريبي. وكانت تلك المعلومات بمثابة المعايير للمتون الملاحية الحديثة التي ظهرت في مستهل القرن السابع عشر الميلادي[4].

(1) M. Echevarría Bacigalupe, 'Un notable episodio en la guerra económica hispano-holandesa: El decreto Guana 1603', *Hispania: Revista española de historia* 162 (1986), 57–97; J. Israel, *Empires and Entrepots: The Dutch, the Spanish Monarchy and the Jews, 1585–1713* (London, 1990), p. 200.

(2) R. Unger, 'Dutch Ship Design in the Fifteenth and Sixteenth Centuries', *Viator* 4 (1973), 387–415.

(3) A. Saldanha, 'The Itineraries of Geography: Jan Huygen van Linschoten's Itinerario and Dutch Expeditions to the Indian Ocean, 1594–1602', *Annals of the Association of American Geographers* 101.1 (2011), 149–77.

(4) K. Zandvliet, *Mapping for Money: Maps, Plans and Topographic Paintings and their Role in Dutch Overseas Expansion during the 16th and 17th Centuries* (Amsterdam, 1998), pp. 37–49, 164–89.

ثـم كانـت هناك متون أُخر سـاعدت على شـرح مفـردات وقواعد اللغـات الغربية التـي كان التجار الهولنديـون يتوقعونهـا في رحلاتهـم. وكان فريدريك دي هوتمـان (Fredrik de Houtman) من أوائل هؤلاء اللغويين الجدد، حيث نُشِر معجمه وقواعده اللغوية الهولندية-الماليزية عام ١٦٠٣م بعد أن أمر سـلطان سـومطرة بإطلاق سـراحه من السجن في آتشـيه؛ حيث انهمك في دراسـة لغة آسريه بجدية[١]. ودرس التجار المتجهين إلى آسيا قوائم المفردات بشغف في القرن السادس عشر الميلادي؛ ووضعوا كلمات وعبارات مفيدة مترجمة من الهولندية إلى المالايالامية (Malayalam)، والماليزية، والبيسانية، والتاجالوجية (Tagalog)، والتاميلية، فضلًا عن لغات أخرى[٢].

وكان السر الكامن وراء النجاح الهولندي في القرن السابع عشر هو الروح القومية، والعمل الجاد؛ إذ كان الهولنديون يعتقدون أن طريقة العمل المثلى ليسـت في اتباع النموذج الإنجليزي، حيث لجأت الشركات المرخص لها إلى ممارسات خشنة لحصر المستفيدين في حفنة صغيرة من المقربين، وكلهم يعتنـي بمصالح بعضهـم، ويمارسـون الاحتـكار لحماية مقدراتهم. بـل رأى الهولنديون تجميع رؤوس الأموال، وتقاسـم المخاطر بين أكبر مجموعة ممكنة من المسـتثمرين. ومن ثم توصل الهولنديون إلى نتيجـة مفادهـا أنه على الرغـم من الطموحات والمنافسـات بين المقاطعـات، والمدن، والتجار بالفعل، فإن الطريقة الأكثر فعالية وقوة لبناء التجارة كانت من خلال جمع الموارد، ودمجها معًا[٣].

وعلى هذا النحو أنشأت حكومة المقاطعات المتحدة كيانًا واحدًا للتجارة مع آسيا في عام ١٦٠٢، على أسـاس مبدأ أن هذا الكيان سـيكون أقوى وأنجع من مفعول مكوناته كل على حدة. لقد كان إنشاء ذلـك الكيان خطوة جريئة ولا شـك، ولا سـيما أنـه تضمن في طياته تخفيف المنافسـة المحلية، وإقناع جميـع المعنييـن بـأن المصالح لن تتضارب قط، بل ستُخدَم على نحو أفضل بهذه الطريقة. كان إنشـاء (Verenigde Oost-Indische Compagnie VOC) أو شركة الهند الشرقية (East Indies)، ثم بُعيد ذلك الشـركة الشـقيقة للأمريكتيـن (West-Indische Compagnie- WIC) أو شـركة الهنـد الغربيـة (West Indies) مثالًا يحتذى لكيفية إنشاء شركة عالمية المستوى، ومتعدية الجنسيات[٤].

وأثبت النموذج الهولندي نجاحه المذهل. على الرغم من أن بعض التجار، مثل ويليم أوسيلينكس (Willem Usselincx) -وكان مؤسـس شـركة الهند الغربية- رأى أن أفضل ما يمكن عمله هو استعمار

(1) E. Beekman, *Paradijzen van Weeler. Koloniale Literatuur uit Nederlands-Indië, 1600–1950* (Amsterdam, 1988), p. 72.

(2) D. Lach, *Asia in the Making of Europe*, 3 vols (Chicago, 1977), 2, 492–545.

(3) O. Gelderblom, 'The Organization of Long-Distance Trade in England and the Dutch Republic, 1550–1650', in Gelderblom, *Political Economy of the Dutch Republic*, pp. 223–54.

(4) J.-W. Veluwenkamp, 'Merchant Colonies in the Dutch Trade System (1550–1750)', in K. Davids, J. Fritschy and P. Klein (eds), *Kapitaal, ondernemerschap en beleid. Studies over economie en politiek in Nederland, Europe en Azië van 1500 tot heden* (Amsterdam, 1996), pp. 141–64.

أجـزاء مـن الأمريكتين لم يجر اسـتعمارها بعد؛ فإن خطة عمل واضحـة وُضِعت موضع التنفيذ(١). ولم يكن الهدف محاولة التنافس مع التجار الأوروبيين الآخرين كما هي الحال في جوا، حيث عاش التجار البرتغاليون، والبنادقة، والألمان جنبًا إلى جنب؛ بل كان الهدف هو إخراجهم من المعادلة بالكلية(٢).

وأتـى ذلـك النهـج العدواني بأكُلـه على الفور. وتحـول الانتبـاه أولًا إلى جزر التوابـل، حيث طرد الهولنديون الطائفة البرتغالية المعزولة في عام ١٦٠٥م، وذلك بوصفه جزءًا من برنامج منظم للسيطرة على جزر الهند الشرقية. واستمر الهولنديون -على مدى العقود التالية- في تثبيت أقدامهم، وإنشاء مقر دائـم لهـم في باتاڤيا (Batavia) -وهو الاسـم الذي أُطلق على سـكان الأراضـي المنخفضة في العصر الروماني- فيما يعرف الآن بـ جاكرتا.

كما اسـتخدم الهولنديون القوة العسـكرية للاسـتيلاء على سلسـلة من النقاط التي اتصلت بالديار، وعملـوا علـى تأمينهـا. وعلى الرغم من أنهم شـعروا بالقنوط في مواقع قليلة -مثـل ماكاو، وجوا- فإن المكاسـب التي حققوها في القرن السـابع عشر كانت رائعة بالفعل. وسرعان ما تبين أن الأوروبيين في الخـارج لـم يكونـوا وحدهم المحاصرين من قبـل الهولنديين، بل كان الحـكام المحليين أيضًا كذلك؛ حيثمـا كانـت أراضيهـم حساسـة من الوجهـة الاسـتراتيجية، أو مهمة مـن الناحية الاقتصاديـة في أعيُن الهولنديين. فقد تحكمَ الهولنديون في ملقا، وكولومبو، وسـيلان، وكوشـين، قبل أن يسـتهدفوا سـلطنة ماكاسَّار (في إندونيسيا الحديثة) في عام ١٦٦٩م. وكانت ماكاسار بمثابة القطعة المفقودة من الأحجية الضرورية لإحكام احتكار تجارة التوابل مع آسيا. ومن ثم أعاد الهولنديون تسميتها بـ روتردام الجديدة (New Rotterdam)، وأعقـب اسـتيلاء الهولنديـين عليهـا بناء حصن كبير، كما كانـت الحال في أماكن أخرى. وكان هذا بمثابة بيان نوايا، يقضي بأن مثل هذه المكاسـب لن تُسـلِّم بسهولة(٣). وتصور خريطة محفوظة في محفوظات الدولة في لاهاي شبكة العنكبوت الحقيقية التي نُسجت عندما شيد الهولنديون مواقعهم في جزر الهند الشرقية(٤).

واتبع الهولنديون النمط نفسه في مكان آخر. فطردوا المنافسين من غرب إفريقيا؛ حيث نجحوا في السـيطرة علـى تجـارة الذهـب، ولمـا آن الأوان تورطوا حتى النخـاع في تجارة الرقيق فـي الأمريكتين. وأنشـؤوا حصونًا جديدة، مثل حصن نسـاو (Fort Nassau) في غانا الحديثة. وواصلوا طرد البرتغاليين

---

(١) نقلاً عن:

C. Boxer, *The Dutch in Brazil 1624–1654* (Oxford, 1957), pp. 2–3.

(٢) عن جُوا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي انظر:

A. Gray and H. Bell (eds), *The Voyage of François Pyrard of Laval to the East Indies, the Maldives, the Moluccas and Brazil*, 2 vols (London, 1888), 2, pp. 2–139.

(3) J. de Jong, *De waaier van het fortuin. De Nederlands in Asië de Indonesiche archipel, 1595–1950* (Zoetermeer, 1998), p. 48.

(4) K. Zandvliet, *The Dutch Encounter with Asia, 1600–1950* (Amsterdam, 2002), p. 152.

من قواعد أخرى، مثل المينا، على الساحل الغاني، والتي استولى عليها الهولنديون في منتصف القرن السابع عشر الميلادي. كما نجح الهولنديون نجاحًا كبيرًا في منطقة البحر الكاريبي والأمريكتين أيضًا، حتى إنه ما أن أهلَّ العقد الخامس من القرن السابع عشر الميلادي، حتى كان للهولنديين نصيب الأسد من عمليات الشحن عبر المحيط الأطلسي، بل إنهم سيطروا على تجارة السكر سيطرة مباشرة[١].

لقد تغيرت الأراضي المنخفضة تغيرًا جذريًا. وجنى أولئك الذين استثمروا في التجارة بعيدة المدى ثروات في وقت مبكر، في حين حقق أولئك الذين استفادوا من وجود الأثرياء الجدد نتائج طيبة أيضًا. وتأسست الجامعات في ليدن (Leiden)، وجرونن‌جن (Groningen)؛ حيث استطاع العلماء تطوير تخصصاتهم الأكاديمية ودفع آفاقها قدمًا بفضل تمويل الرعاة الأسخياء. وازدهر الفنانون، والمهندسون المعماريون، الذين ألفَوا طبقة برجوازية ثرية نشأت حديثًا باتت تهتم بالفن فجأةً. وارتفعت المباني السامقة -في ذلك العصر من الثراء الفاحش- في أمستردام التي خرجت من الماء، أسوةً بما فعلته البندقية قبل ذلك بقرون. واستُصلحت مناطق مثل جوردان (Jordaan) من مياه البحر، حيث ارتفعت المنازل على ضفاف قناة كيزيرسجراتشت (Keizersgracht) وعلى مقربة منها أُنشِئت نصب هندسية، وعجائب معمارية.

وبدا أثر طرق الحرير ملموسًا في الفنون؛ فقد ازدهرت صناعة الخزف في هارلم (Haarlem)، وأمستردام، وكذلك في دلفت (Delft) في المقام الأول، متأثرة إلى حد كبير بمظاهر العناصر المستوردة من الشرق وتصميمها. وسادت الموضوعات المرئية الصينية، في حين تطورت الأواني المميزة باللونين الأزرق والأبيض قبل قرون على أيدي الخزافين في الخليج العربي، وأصبحت شائعة في الصين والدولة العثمانية، وتبناها الهولنديون على نطاق واسع؛ حتى إنها أصبحت السمة المميزة للخزف الهولندي أيضًا. ولم يكن التقليد أخلص أشكال الإطراء فحسب؛ بل كان أيضًا جزءًا من الانضمام إلى نظام عالمي للثقافة المادية، باتت تربط بحر الشمال بالمحيطين الهندي والهادي[٢].

وازدهرت الفنون بصفة عامة في هولندا مع تزايد الطلب على السلع التي ساعدت على إظهار الهيبة والمكانة. فقد رأى بعض الباحثين أن القرن السابع عشر وحده قد شهد رسم ثلاث ملايين لوحة[٣]. وكان من المحتم أن يحفز هذا الإقبال على الرسم الأفكار الجديدة، بل ويرفع معايير الجودة الفنية

---

(١) انظر -في هذا الصدد- مجموعة المقالات في:

J. Postma (ed.), *Riches from Atlantic Commerce: Dutch Transatlantic Trade and Shipping, 1585–1817* (Leiden, 2003).

(2) J. van Dam, *Gedateerd Delfts aardwek* (Amsterdam, 1991); idem, *Dutch Delftware 1620–1850* (Amsterdam, 2004).

(3) A. van der Woude, 'The Volume and Value of Paintings in Holland at the Time of the Dutch Republic', in J. de Vries and D. Freedberg (eds), *Art in History, History in Art: Studies in Seventeenth-Century Dutch Culture* (Santa Monica, 1991), pp. 285–330.

أيضًـا، الأمر الذي هيًا ظروفًا للرسـامين مثل فرانس هالـس (Frans Hals)، ورامبرانت (Rembrandt)، وڤيرميـر (Vermeer) لرسـم لوحـات تـكاد تأخـذ بلـب المـرء. ونظـرًا للطريقـة الرائعـة التـي عمل بها الهولنديـون معًـا للاسـتمتاع بثمـار النجـاح، فقد سـجل بعض أجمـل اللوحـات روح الفريـق والعمل الجماعي، مثل لوحة **الحرس المدني في هارلم** (The Banquet of the Guard of St Adrian) لـ فرانس هالـس، وكذلك لوحة رامبرانت المشـهورة، المسـماة: **الكابتن فرانس بانينج كـوك والملازم ويليم ڤان رويتينبيرش يسـتعدان للخروج** The Company of Captain Frans Banning Cocq and Lieutenant Willem van Ruytenburch Preparing to March Out - والتي يشار إليها اختصارًا باسم (The Night Watch)، أو **دورية الليل** التي كُلِّفت بحراسة قاعة الولائم التابعة للحرس المدني في أمستردام.

وكان آحـاد النـاس رعاة متحمسـين للفن أيضًا، فعلى سـبيل المثال؛ اسـتأجر التاجـر أندريس بيكر (Andries Bicker) بارثولوميـوس ڤـان ديـر هيسـت (Bartholomeus van der Heist) لإحيـاء ذكـرى نجاحـه ووضعـه الاجتماعـي الجديـد. كمـا طلـب صانـع السـفن يـان ريجكسـن (Jan Rijcksen) من رامبرانـت أن يرسـم صـورة له ولزوجته وهمـا يعملان معًا على وضع تصميمـات بحرية. لقد حان دور الهولنديين -والفن الهولندي بالتبعية- لاختبار عصر ذهبي[1].

وأظهـر الهولنديـون حرصًـا على التباهـي بأدواتهم المنزلية، كمـا تصور لوحة ڤيرميـر (Vermeer) المسـماة: **فتـاة تقـرأ رسـالة فـي النافـذة المفتوحـة** *Young Woman Reading a Letter at an Open Window*، حيث يظهر طبق خزفي باللونين الأزرق والأبيض على نحو بارز في مقدمة اللوحة[2]. بل لم يسـتطع زائر إنجليزي -زار أمسـتردام في عام ١٦٤٠م- إخفاء إعجابه بما رآه فيها؛ فكتب بيتر موندي (Peter Mundy) قائـلًا: إن بيـوت العـوام المتواضعة فـي الأراضي المنخفضة تغـص بالأثاث والحلي «باهظة الثمن، والغريبة تمامًا، وهي تسر الناظرين، وتبهج أصحاب تلك المنازل، ومن ذلك: الخزائن، والدواليـب الأنيقـة المسـماة (Ritche Cupboards)... فضلًا عن الصور، والأوانـي الخزفية، وأقفاص الطيور باهظة الثمن، وما خفي أعظم. بل إن القصابين، والخبازين، والحدادين، والإسـكافيين امتلكوا لوحـات، وحلـي فاخـرة في منازلهـم»[3]. وكتب الكاتـب الإنجليزي جـون إيڤليـن (John Evelyn) في يومياته عن المعرض السنوي في روتردام -في الوقت نفسه تقريبًا- قائلًا: «لقد شعرت بالذهول». لقد

---

(١) انظر بصفة عامة:
S. Schama, *The Embarrassment of Riches* (New York, 1985); S. Slive, *Dutch Painting, 1600–1800* (New Haven, 1995).

(2) T. Brook, *Vermeer's Hat: The Seventeenth Century and the Dawn of the Global World* (London, 2008), pp. 5–83.

(3) *The Travels of Peter Mundy in Europe and Asia, 1608–1667*, ed. R. Temple, 5 vols (Cambridge, 1907–36), pp. 70–1; J. de Vries, *The Industrious Revolution: Consumer Behavior and the Household Economy, 1650 to the Present* (Cambridge, 2008), p. 54.

كان المعرض يغص باللوحات، ولا سيما تلك التي تصور «المناظر الطبيعية، والرسوم الهزلية، كما كانوا يطلقون عليها». حتى الفلاحين أصبحوا جامعين متعطشين للفنون[1]. وكانت هذه المواقف معيارًا لآراء عدد من الزوار الإنجليز الذين زاروا الأراضي المنخفضة في هذه الحقبة[2].

وكان العصر الذهبي الهولندي نتيجة لخطة نُفِّذت بدقة. وتمتعت بفضيلة حسن التوقيت؛ حيث جاءت في وقت غرقت فيه معظم أوروبا في حالة من الفوضى، وانخرطت في جولات لا نهاية لها من العداء العسكري المكلف وغير الحاسم، اجتاحت القارة خلال حرب الثلاثين عامًا، ١٦١٨-١٦٤٨م. وأتاحت هذه الفوضى فُرصًا؛ ذاك أن الاهتمام والموارد التي جرى تحويلها إلى ساحات أقرب إلى الديار أتاحت للهولنديين فرصة اختيار أهدافهم في قارات مختلفة، واحدًا تلو الآخر دون أن يخشوا مواجهة عقاب ما على جرأتهم. وهكذا مكن القتال الدموي في القرن السابع عشر الهولنديين من تأسيس موقع مهيمن لهم في الشرق على حساب خصومهم في أوروبا.

* * *

كان للحرب الأوروبية -مع ما تقدم ذكره- دورًا أكثر أهمية؛ ذاك أنها أدت إلى صعود الغرب. وتؤكد المناقشات حول أوروبا في هذه الحقبة على أن عصر التنوير وعصر العقل قد بلغا سن الرشد، حيث استُبدلت فيهما مفاهيم الحرية، والحقوق، والخروج من إسار التقليد بأفكار الاستبداد. بيد أن علاقة أوروبا الراسخة بالعنف والنزعة العسكرية هي التي سمحت لها بفرض نفسها بوصفها مركزًا للعالم بعد الرحلات الاستكشافية الكبرى في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي.

حتى قبل الاكتشافات شبه المتزامنة لكولومبوس، ثم ڤاسكو دا جاما على الترتيب، اشتدت الخصومة بين مختلف الممالك في أوروبا. واتسمت القارة -لقرون- بالعدوانية الشرسة، التي كثيرًا ما تجسَّدت بين الدول في صورة عداء ضارٍ مفتوح، وقتال دموي. وقد أدى هذا بدوره إلى إحداث تقدم في التقنية العسكرية. فطور القوم أسلحة جديدة، وأدخلوها في ميادين القتال، ثم أعادوا صقلها بعد أن اختبروها في ساحات المعارك. وتطورت التكتيكات عندما تعلم القادة من التجربة. وجرى إضفاء الطابع المؤسسي على مفهوم العنف أيضًا: فقد احتفى الفن والأدب الأوروبيين -قبل فترة طويلة- بحياة الفارس الشهم، وقدرته على ترشيد استخدام القوة بحكمة، ليس بوصف ذلك عملًا من أعمال الحب والإيمان فحسب، بل بوصفه تعبيرًا عن العدالة أيضًا. وأدمن الناس على قراءة القصص عن الحروب الصليبية، التي امتدحت النبل، والبسالة، بينما تسترت على الغدر، والخيانة، والحنث باليمين[3].

---

(1) J. Evelyn, *Diary of John Evelyn*, ed. E. de Beer, 6 vols (Oxford, 1955), 1, pp. 39–40.

(٢) انظر في هذا الصَّدد:

C. van Strien, *British Travellers in Holland during the Stuart Period: Edward Browne and John Locke as Tourists in the United Provinces* (Leiden, 1993).

(٣) الإيماءة هنا إلى بوهيموند على الأرجح. راجع الفصل الثامن. (المترجم)

وجرى تمجيد القتال، والعنف، وسفك الدماء ما دامت القضية عادلة. وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت الدين مهمًا للغاية؛ فلا يمكن أن يكون هناك مبرر للحرب أفضل من كونها دفاعًا عن القَدير. وارتبط الدين والتوسع معًا بأواصر وثيقة العرى منذ البدء؛ حتى إن أشرعة سفن كولومبوس وُسِمت بصلبان كبيرة. كما أكد الكتَّاب المعاصرون مرارًا على أن استيلاء الأوروبيين على الأرض هو إرادة الله، التي قضت بأن يرث الغرب الأرض وما عليها. ليس فيما تعلق بالأمريكتين، بل عندما بدأ الأوروبيون في الانتشار على سواحل إفريقيا، والهند، وأجزاء أخرى من آسيا، ثم استراليا فيما بعد أيضًا.

والحق أن الطابع المميز لأوروبا بوصفها أكثر عدوانية، وأقل استقرارًا وهدوءًا من أجزاء أخرى من العالم قد أتى ثماره آنذاك. وفي الأخير، كان هذا هو السبب في أن السفن العظيمة للإسبان والبرتغاليين أثبتت نجاحها في عبور المحيطات وربط القارات معًا؛ فما كانت السفن الهندية والعربية التقليدية التي مخرت عباب البحار لقرون -مع تغيير بسيط طرأ على تصميمها- لتقف ندًا للسفن الغربية التي يمكن أن تتفوق عليها، وتتلاعب بها كيفما شاءت. لقد عملت التحسينات المستمرة التي أُدخلت على السفن الأوروبية على جعلها أكثر قدرة على المناورة، وأغزر نيرانًا، وأشد فتكًا، وهو الأمر الذي أدى إلى اتساع الفجوة على نحو لا يُقاس بأي عصر مضى[1].

وينطبق القول نفسه على التقنية العسكرية؛ فقد بلغت مصداقية الأسلحة المستخدمة في الأمريكتين ودقتها حدًّا جعل أعدادًا صغيرة من الغزاة قادرة على فرض سيطرتها على جميع السكان الذين كانوا أكثر عددًا بما لا يقاس. لقد كانت شعوب تلك البقاع متقدمة ومتطورة للغاية، إلا عندما يتعلق الأمر بالسلاح. وكتب بيدرو دي سيزا دي ليون (Pedro de Cieza de Leon) أنه في مملكة الإنكا، صِين القانون والنظام بعناية، مع الحرص الشديد على «التأكد من تحقيق العدالة، وألا يغامر أحد باقتراف جناية أو سرقة»[2]. وجُمِعت البيانات سنويًا عبر إمبراطورية الإنكا للتأكد من احتساب الضرائب على نحو صحيح، ودفعها على نحو عادل، مع تسجيل المواليد والوفيات مركزيًا، وتحديث تلك المعلومات دوريًا. وكان على علية القوم أن يعملوا في الأرض بأنفسهم لعدد محدد من الأيام كل عام، «ليكونوا قدوة لغيرهم؛ إذ كان على الجميع أن يعرف أنه لا ينبغي أن يكون هناك شخص ثري ... وتتدنى نفسه إلى حد احتقار الفقراء، أو إهانتهم»[3].

وعلى هذا النحو لم يكن هؤلاء القوم هم البرابرة المتوحشون الذين وصفهم المنتصرون في أوروبا. فالحق أنهم بدوا مستنيرين مقارنة بالمجتمعات الطبقية للغاية التي ظهرت في معظم أنحاء

(1) G. Scammell, 'After da Gama: Europe and Asia since 1498', *Modern Asian Studies* 34.3 (2000), 516.

(2) Pedro de Cieza de Léon, *The Incas of Pedro de Cieza de Léon*, tr. H de Onis (1959), 52, p. 171.

(3) Ibid., 55, pp. 177–8.

القارة العجوز؛ حيث ترسخت الفجوة بين الأقوياء والضعفاء في إرث أرستقراطي عمل على الحفاظ على المكانة الاجتماعية للأقوياء وصيانتها. وعلى الرغم من أن الأوروبيين ربما اعتقدوا أنهم كانوا يكتشفون حضارات بدائية وأن هذا هو سبب هيمنتهم عليها، فإن الحقيقة هي أن التقدم المستمر في تقنيات التسلح، والحروب، والتكتيكات العسكرية هو الذي أرسى الأساس لنجاح الغرب.

وكان أحد أسباب إمكانية السيطرة على إفريقيا، وآسيا، والأمريكتين هو قرون من الممارسة الأوروبية في بناء الحصون المنيعة. وكان بناء القلعة هو العنصر الأساسي في المجتمع الأوروبي منذ القرون الوسطى، فظهرت آلاف من الحصون الرائعة في جميع أنحاء القارة. وكان الهدف من بنائها، هو مقاومة هجوم عنيف وكاسح بطبيعة الحال. وكان عددها الاستثنائي شهادة على الخوف من الاعتداء، وانتظام أعمال العنف والتهديدات. وهكذا كان الأوروبيون سادة العالم في فن بناء الحصون، وكذلك في اقتحامها. وكان الإصرار الأوروبي على بناء مواقع مهيبة يمكن تأمينها من الداخل، مصدر ارتباك للسكان المحليين؛ حيث أشار نوَّاب البنغالي -في القرن الثامن عشر الميلادي- إلى حقيقة أن التجار الآخرين لم يبنوا الحصون في الماضي، فلماذا إذن يُصر الأوروبيون على بنائها؟[1].

وتتمثل المفارقة الكبرى في أن أوروبا شهدت عصرًا ذهبيًا مجيدًا، حيث أنتجت فنًّا، وأدبًا مزدهرًا، وحققت قفزات رائعة في المسارات العلمية، إلا أن كل ذلك اصطُنع عن طريق العنف. ليس ذلك فحسب، بل أدى اكتشاف عوالم جديدة إلى جعل المجتمع الأوروبي أكثر اضطرابًا. فمع المزيد من الاقتتال عليها، والمزيد من الموارد المتاحة للإنفاق على القتال، ارتفع سقف المخاطر، الأمر الذي زاد من حدة التوترات مع احتدام المعارك في سبيل السيادة.

وكانت القرون التي أعقبت ظهور أوروبا بوصفها قوة عالمية مصحوبة بالتوحيد والدمج، والمطامع التي حد لها، ولا هوادة فيها؛ ففي عام ١٥٠٠م، كان هناك نحو ٥٠٠ وحدة سياسية في أوروبا. وفي عام ١٩٠٠م، كان هناك ٢٥ فحسب. لقد كان القوي يلتهم الضعيف حرفيًا[2]. وعلى هذا النحو استوطنت المنافسة والصراع العسكري أوروبا. وبهذا المعنى، فإن الفظائع اللاحقة في القرن العشرين تعود في جذورها إلى الماضي السحيق. ودفع الصراع للسيطرة على الجيران والخصوم إلى إجراء تحسينات في تقنيات الأسلحة، والميكنة، واللوجستيات، الأمر الذي سمح في الأخير بتوسيع ساحات الحرب إلى حد كبير، كما ضاعف أعداد القتلى من المئات إلى الملايين. وبمرور الوقت، بات يسع الأوروبيين ممارسة الاضطهاد على نطاق واسع. وعلى هذا النحو لم يكن من قبيل الصدفة أن تندلع

---

(1) S. Hill (ed.), *Bengal in 1756–7: A Selection of Public and Private Papers Dealing with the Affairs of the British in Bengal during the Reign of Siraj-uddaula*, 3 vols (London, 1905), 1, pp. 3–5.

(2) P. Perdue, 'Empire and Nation in Comparative Perspective: Frontier Administration in Eighteenth-Century China', *Journal of Early Modern History* 5.4 (2001), 282; C. Tilly (ed.), *The Formation of National States in Western Europe* (Princeton, 1975), p. 15.

الحرب العالمية في أوروبا، كما نُفِّذت أسوأ إبادة جماعية في التاريخ في أوروبا أيضًا[١]؛ وكانت هذه الحوادث أحدث فصول في قصة طويلة من الوحشية والعنف.

انصب التركيز -عادةً- على الاستثمار في الفن، وتأثير الثروة الجديدة على الثقافة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ومع ذلك فقد يكون من المفيد النظر إلى التطورات الموازية في صناعة الأسلحة في هذه الفترة. فمثلما أُنتِجت اللوحات بكميات هائلة للجمهور المتعطش للفنون، فكذلك كانت البنادق. وبحلول العقد الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، بيعت نحو ٦٠٠ ألف قطعة سلاح ناري من طراز فلينتلوكس (flintlocks) على يد رجل الأعمال ماكسيميليان تيتون (Maximilien Titon) في وسط فرنسا وحدها؛ واعتقد بعض المعاصرين أن تقدير عدد العمال الذين جرى توظيفهم في صناعة المسدسات في سانت إتيان (Saint-Etienne) مستحيل؛ لأنهم كانوا أكثر من أن يحصيهم العد. كما تضاعف معدل نجاح إطلاق النار الكامل للمسدسات بمقدار عشرة أضعاف بين عامي ١٦٠٠-١٧٥٠م. وعملت التطورات التقنية -بما في ذلك اختراع المدافع، وخراطيش الورق، والحِراب- على جعل البنادق أرخص، وأفضل، وأسرع، وأشد فتكًا[٢].

والشيء بالشيء يذكر؛ فعلى الرغم من أن أسماء العلماء مثل جاليليو جاليلي (Galileo Galilei) وإسحاق نيوتن (Isaac Newton) وليونهارد أويلر (Leonhard Euler) قد أصبحت مشهورة عند أجيال من تلاميذ المدارس، فإن ذلك يُسهِّل على المرء أن ينسى أن بعضًا من أهم أعمالهم كانت تتعلق بمسار المقذوفات، وفهم أسباب الانحراف لتمكين المدفعية من أن تكون أكثر دقة عند التصويب[٣]. وهكذا ساعد هؤلاء العلماء الأفذاذ على جعل الأسلحة أكثر قوة، وأكثر مصداقية من أي وقت مضى؛ لقد سارت التطورات العسكرية والتقنية كتفًا بكتف في عصر التنوير.

بيد أن ما تقدم لا يعني أن المجتمعات الأخرى -خارج أوروبا- لم تعرف العدوان؛ فكما تظهر الأمثلة العديدة عبر القارات الأخرى، فإن أي غزو يمكن أن يؤدي إلى الموت والمعاناة على نطاق واسع. بيد أن الحقب التي شهدت الفتوحات العظيمة عبر آسيا وشمال إفريقيا -كما في العقود الأولى الاستثنائية لانتشار الإسلام أو خلال حقبة الفتوحات المغولية- تلتها فترات طويلة من الاستقرار والازدهار والسلام. وهكذا كان انتظام اندلاع الحرب وإيقاعها مختلفًا في أوروبا عنها في أجزاء أخرى

---

(١) الإيماءة إلى المحرقة، أو الهولوكوست في الحرب العالمية الثانية على الأرجح. (المترجم).

(2) P. Hoffman, 'Prices, the Military Revolution, and Western Europe's Comparative Advantage in Violence', *Economic History Review*, 64.1 (2011), 49–51.

(٣) انظر على سبيل المثال:

A. Hall, *Isaac Newton: Adventurer in Thought* (Cambridge, 1992), pp. 152, 164–6, 212–16; L. Debnath, *The Legacy of Leonhard Euler: A Tricentennial Tribute* (London, 2010), pp. 353–8; P-L. Rose, 'Galileo's Theory of Ballistics', *The British Journal for the History of Science* 4.2 (1968), 156–9, and in general S. Drake, *Galileo at work: His Scientific Biography* (Chicago, 1978).

مـن العالـم، فمـا أن ينتهـي نزاعٌ ما حتـى يندلع آخر وهكـذا دواليك. لقد كانت الخصومة وحشـية، ولا هـوادة فيهـا. وبهـذا المعنى، فإن الأعمال الأساسـية مثل كتـاب الليفيانـان (*Leviathan*) لتوماس هوبز (Thomas Hobbes) كانـت نصوصًـا جوهريـة أوضحت صعود الغرب. وكان يسـع المؤلف الأوروبي -دون غيره- أن يسـتنتج أن الحالة الطبيعية للإنسـان هي أن يكون في حالة عنف دائمة؛ وهو على حقٍّ متى كان يخص الأوروبيين -دون غيرهم- بهذا القول[1].

وفـوق ذاك؛ فـإن التعطـش للمواجهة العسـكرية كان يكمـن وراء التطورات الأخـرى التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالحرب، مثل التمويل. فقد مسـت حاجة الحكومات في أوروبا لرؤوس الأموال لتمويل الجيـوش، الأمـر الـذي أدى إلـى إنشـاء أسـواق للديـون، حيث كان يسـع جمـع المال مقابـل عائدات الضرائب التي ستُجبى مستقبلًا. ويمكن أن يؤدي الرهان على النجاح إلى تحقيق أرباح كبيرة، وإطلاق العنان للألقاب، والمزايا الاجتماعية الأخرى للمسـتثمرين الأذكياء، الذين يسـعهم تقديم اسـتثماراتهم فـي الديـون الحكوميـة على أنها ضرب من ضروب الوطنية بطبيعة الحال. لقد كان الاسـتثمار في مالية الدولة وسـيلة للمضي قدمًا، فضلًا عن زيادة فرص الإثراء. وعلى هذا النحو أصبحت لندن وأمسـتردام مركزيـن عالمييـن للتمويـل، ولـم تتخصَّصا في الديون السـيادية فحسـب، بل تخصَّصتـا أيضًا في قوائم سوق الأوراق المالية، التي أخذت تميل إلى التعقيد على نحو متزايد[2].

* * *

كان أحد أسباب ظهور لندن وأمستردام هو تسارع النمو الاجتماعي والاقتصادي في شمال أوروبا. وتشـير البحوث الحديثة إلى أن عدد السـكان قد تضاعف تقريبًا في إنجلترا والأراضي المنخفضة بين عامي ١٥٠٠-١٨٠٠م. وكان معظم هذا النمو ملموسًا في المناطق المكتظة بالسكان؛ حيث ارتفع عدد المـدن الكبيـرة بمعدل ثلاثة أضعـاف[3]. وكانت زيادة السـكان حادة في الأراضـي المنخفضة خاصة؛ فيُعتقد أن ما يناهز على نصف سكان أمستردام -في منتصف القرن السابع عشر الميلادي- قد هاجروا إليهـا قادميـن من بقاع أُخَر[4]. وهكذا تمتعت الـدول التي بها مراكز حضرية أكبر بميزة أكبر على الدول التـي ضمـت عـددًا كبيرًا من سـكان الريف؛ فقد كان جمـع الضرائب من المدن أقل اسـتهلاكًا للوقت،

(1) T. Hobbes, *Leviathan*, ed. N. Malcolm (Oxford, 2012).

(2) A. Carlos and L. Neal, 'Amsterdam and London as Financial Centers in the Eighteenth Century', *Financial History Review* 18.1 (2011), 21–7.

(3) M. Bosker, E. Buringh and J. van Zanden, 'From Baghdad to London: The Dynamics of Urban Growth and the Arab World, 800–1800', *Centre for Economic Policy Research*, Paper 6833 (2009), 1–38; W. Fritschy, 'State Formation and Urbanization Trajectories: State Finance in the Ottoman Empire before 1800, as Seen from a Dutch Perspective', *Journal of Global History* 4 (2009), 421–2.

(4) E. Kuipers, *Migrantenstad: Immigratie en Sociale Verboudingen in 17e-Eeuws Amsterdam* (Hilversum, 2005).

وأسهل، وأكثر كفاءة، ولا سيما لأن وتيرة الدورة التجارية كانت أسرع بكثير في المدن مما كان عليه أمرها في الريف. كما أنتجت المناطق المكتظة بالسكان تدفقات دخل أكثر موثوقية، وأقل خطورة في عمليات القروض والائتمان. وكان يسع إنجلترا، والجمهورية الهولندية الاقتراض بمعدلات أفضل من منافسيهما التجاريين والسياسيين[1]. فإذا أراد المرء أن يكسب المال من خلال التمويل آنذاك؛ فلم يكن كافيًا أن يكون ذكيًا فحسب؛ بل كان عليه التواجد في المكان المناسب، كما هي الحال في أيامنا هذه أيضًا. وكان هذا يعني -كما بات الناس آنذاك يدركون ذلك شيئًا فشيئًا- أن يكون في لندن، أو في أمستردام.

وكان هذا بمثابة دق الناقوس إعلانًا لنبأ وفاة إيطاليا والبحر الأدرياتيكي. وهكذا لم يكن لدى دويلات المدن بتاريخها الراسخ في المنافسة أدنى فرصة لمنافسة مجموعات من المدن القادرة، والراغبة في تجميع مواردها معًا، خاصة بفضل ظهور الطرق الجديدة التي جلبت البضائع إلى السوق مباشرة إلى أغنى المستهلكين وأكثرهم ثراءً. وجُمعت المبالغ الكبيرة لتمويل التوسع؛ حتى إنه أصبح من المعتاد إنفاق أكثر من نصف عائدات الدولة لمجرد سداد الديون الوطنية[2]. لقد كان خوض المعارك المستمرة ضد الجيران، والسعي -الذي لا هوادة فيه- لكسب ميزة سياسية، وتجارية، وثقافية عليهم أمرًا مكلفًا. وعلى هذا النحو أصبحت أوروبا قارة تعمل بسرعتين؛ فهناك أوروبا القديمة في الشرق والجنوب التي هيمنت على مدى قرون، ثم أخذت تتدهور شيئًا فشيئًا، وانتهى بها الأمر إلى الركود آنذاك؛ كما كانت هناك أوروبا الجديدة في الشمال الغربي التي أخذت تزدهر[3].

ورأى بعض الناس أن يسبق غيره في البكاء على الأطلال. ففي مستهل عام ١٦٠٠م كتب السفير البريطاني في البندقية أنه «فيما يتعلق بالتجارة، فإن الانحطاط واضح للغاية؛ حتى إن الناس يجمعون على أن المدينة ستنهار تقريبًا في غضون عقدين من الزمان». لقد سيطرت البندقية في يوم من الأيام على التجارة مع الشرق، بيد أنها لم تعد قادرة على المنافسة. وكان لها -يومًا ما- عشرات من السفن الجبارة «بحمولة تفوق ألف طن لكل سفينة منها» تحمل البضائع إلى الديار، ثم تُبحِر لتعيد الكرة؛ أما

(1) W. Fritschy, A "Financial Revolution" Reconsidered: Public Finance in Holland during the Dutch Revolt, 1568–1648', *Economic History Review* 56.1 (2003), 57–89; L. Neal, *The Rise of Financial Capitalism: International Capitalism in the Age of Reason* (Cambridge, 1990).

(2) P. Malanima, *L'economia italiana: dalla crescita medievale alla crescita contemporanea* (Bologna, 2002); idem, 'The Long Decline of a Leading Economy: GDP in Central and Northern Italy, 1300– 1913', *European Review of Economic History* 15 (2010), 169–219.

(3) S. Broadberry and B. Gupta, 'The Early Modern Great Divergence: Wages, Prices and Economic Development in Europe and Asia, 1500–1800', *Economic History Review* 59.1 (2006), 2–31; J. van Zanden, 'Wages and the Standard of Living in Europe, 1500–1800', *European Review of Economic History* 3 (1999), 175-97.

اليوم «فلا تكاد ترى منها واحدة قط»[1]. ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ المدينة في إعادة بناء نفسها، حيث تحولت من مركز تجاري قوي إلى مركز للحياة الرغدة، وتجارة المتعة. فعلى الرغم من أن السلطات حاولت وضع حد لارتداء المجوهرات الأكبر والأفضل، وكذلك للحفلات التي ازدادت تفاخرًا وإثارة في سبل البحث عن المتعة، فإن إعادة ابتكار المدينة باتت مفهومة من نواحٍ عديدة، وعلى رأسها التساؤل عن الخيارات الأخرى المتاحة أمام البندقية[2].

وعلى هذا النحو أصبحت البندقية وفلورنسا وروما -في معرض التجارة الدولية والسياسات العليا- محطات توقف في مسار سياحي للأثرياء الجدد. وعلى الرغم من الإشارة إليها لأول مرة باسم «الجولة الكبرى» (Grand Tour) في عام ١٦٧٠م، إلا أن هذه الرحلات الاستكشافية بدأت قبل قرن من الزمان، عندما جرى تعريف الرحلة إلى إيطاليا -لأول مرة- على أنها تتيح الفرصة لشراء قطع أثرية عالية الجودة، إضافة إلى أعمال فنية أكثر رواجًا، فقفزت أسعارها صعودًا مع ارتفاع أعداد الزوار[3]. لقد كان ذلك بمثابة طقس من طقوس العبور، ليس للأفراد الذين شاركوا في هذه الفعاليات فحسب، بل للثقافة برمتها. لقد أخذ الشمال يلتهم ثمار جنوب أوروبا. ولما تحول مركز الثقل في القارة، تحولت أيضًا مقتنيات الثقافة القديمة والمعاصرة مواكبةً له؛ فقد جُمعت ثلاث من أفضل مجموعات المنحوتات القديمة في العالم -حيث تستقر في المتحف البريطاني، ومتحف فيتزويليام (Fitzwilliam Museum) في كامبريدج، ومتحف أشموليان في أكسفورد- على أيدي سائحين أثرياء فضوليين ثقافيًا[4].

وعلى هذا النحو أعادت إنجلترا والأراضي المنخفضة صوغ الأفكار حول الهندسة المعمارية، وتصميم المقابر الضخمة، وأعمال النحت. ولم يمض وقت طويل قبل أن يُستعار الشعر، والفن، والموسيقى، وتصميم الحدائق، والطب، والعلوم في العصور القديمة الكلاسيكية على نطاق واسع؛

---

(1) Sir Dudley Carleton, 'The English Ambassador's Notes, 1612', in D. Chambers and B. Pullan (eds), *Venice: A Documentary History, 1450–1630* (Oxford, 1992), pp. 3–4.

(2) G. Bistort (ed.), *Il magistrato alle pompe nella repubblica di Venezia* (Venice, 1912), pp. 403–5, 378–81.

(3) E. Chaney, *The Evolution of the Grand Tour: Anglo-Italian Cultural Relations since the Renaissance* (Portland, OR, 1998).

وعن أسعار الفن، انظر:

F. Etro and L. Pagani, 'The Market for Paintings in Italy during the Seventeenth Century', *Journal of Economic History* 72.2 (2012), 414–38.

(٤) انظر على سبيل المثال:

C. Vout, 'Treasure, Not Trash: The Disney Sculpture and its Place in the History of Collecting', *Journal of the History of Collections* 24.3 (2012), 309-26.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

V. Coltman, *Classical Sculpture and the Culture of Collecting in Britain since 1760* (Oxford, 2009).

حيث شرعت إنجلترا والأراضي المنخفضة في نمذجة مجد الحاضر ليُشيد على غرار مجد الماضي[1]. ولو علِم المواطنون الرومان أن صغار ملاك الأراضي، وصغار المسؤولين في ولايات جدباء ونائية في الإمبراطورية الرومانية، باتوا يكلفون النحاتين بصناعة التماثيل النصفية التي لم تصورهم على أنهم ورثة الرومان فحسب، بل على أنهم أباطرة أيضًا، لتملكهم الذهول[2]. بل إن البريطانيين -خاصةً- سرعان ما تفوقوا على الهولنديين سريعًا؛ ذلكم أن بريطانيا كانت توشك على أن تحكم العالم.

---

(1) C. Hanson, *The English Virtuoso: Art, Medicine and Antiquarianism in the Age of Empiricism* (Chicago, 2009).

(٢) انظر على سبيل المثال:

P. Ayres, *Classical Culture and the Ideas of Rome in Eighteenth-Century England* (Cambridge, 1997).

-١٤-

الطريق إلى الإمبراطورية

أدى انتقال السلطة إلى شمالي أوروبا إلى خروج بعض القوى من المنافسة. ففي العالم العثماني -على سبيل المثال- ظل عدد المدن التي يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة كما هو تقريبًا بين عامي ١٥٠٠-١٨٠٠م. ومن ثم لم تكن ثم حاجة إلى تكثيف الإنتاج الزراعي لخدمة الطلب المتزايد؛ الأمر الذي يعني أن الاقتصاد ظل بطيئًا وثابتًا. كما كانت عملية تحصيل الضرائب أيضًا عملية غير فعالة، ويعود ذلك -جزئيًا- إلى خراج الأرض الزراعية، الذي حفز الأفراد على تحقيق مكاسب سريعة على حساب دخل الدولة على المدى الطويل[١].

لقد أقام الموظفون البيروقراطيون العثمانيون البرهان على أنهم إداريون ماهرون للغاية، برعوا في مركزة الموارد، وإدارة توزيع السكان كي يضمنوا في النهاية أن المحاصيل والإمدادات الغذائية ستذهب إلى حيث ستشتد الحاجة إليها. ولما ضمت الإمبراطورية المزيد من الأراضي -بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين- ظل هذا النظام يعمل بكفاءة وسلاسة. ومع ذلك، أضحت هشاشة هذا النظام واضحة عندما تباطأت عملية التوسع، ليس بسبب كلفة استمرار القتال على جبهتين -أوروبا غربًا، وبلاد فارس الصفوية شرقًا- فحسب، بل كان ذلك أيضًا نتيجة للتغير المناخي، الذي اشتدت آثاره على العالم العثماني خاصةً[٢].

كما برهنت الهياكل الاجتماعية في العالم الإسلامي -التي تطورت على أسس مختلفة تمامًا عن تلك التي وُجدت في أوروبا الغربية- على أنها عامل مهم في هذا الصدد أيضًا؛ فقد وُزِّعت الثروة في المجتمعات الإسلامية عمومًا بالتساوي، مقارنة بالغرب النصراني، ويعود الفضل في ذلك إلى تعاليم القرآن المفصلة في المواريث خاصة، بما في ذلك تلك المبادئ المستنيرة والإيجابية المتعلقة بنصيب المرأة فيما تركه أبوها أو زوجها إذا حكَّمنا معاييرنا اليوم. ومن ثم فقد كان يسع المرأة المسلمة أن

(1) D. Panzac, 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the 18th Century', *International Journal of Middle East Studies* 24.2 (1992), 189–206; M. Genç, 'A Study of the Feasibility of Using Eighteenth-Century Ottoman Financial Records as an Indicator of Economic Activity', in H. İslamoğlu-İnan (ed.), *The Ottoman Empire and the World-Economy* (Cambridge, 1987), pp. 345–73.

(٢) انظر في هذا الصدد:

S. White, *The Climate of Rebellion in the Early Modern Ottoman Empire* (Cambridge, 2011).

تتوقع رعاية أفضل بكثير من نظيرتها الأوروبية؛ بيد أن هذا جاء على حساب السماح للثروة الكبيرة بالبقاء داخل الأسرة نفسها لفترة طويلة من الزمن[١]. وعنى هذا -بدوره- أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء لم تكن حادة كما كانت الحال في أوروبا، وذلك بسبب إعادة توزيع الثروات، وتفتيتها على نطاق أوسع. وأدت هذه القيم إلى إعاقة النمو الاقتصادي إلى حدٍّ ما. وكانت التعاليم والشروط المتعلقة بالإرث -بصفة عامة- تعني أن الأسر وجدت صعوبة في تراكم رأس المال على مدى أجيال متعاقبة؛ ذاك أن الميراث كان تقدميًا ومتكافئًا. أما في أوروبا، فقد ركزت البكورة (*Primogeniture*) الموارد في يد ابن واحد فحسب، ومن ثم مهدت الطريق أمام تكوين ثروات كبرى[٢].

ومع ذلك، لم يرُق هذا في أعين بعض الناس؛ ذاك أن أوروبا -أو بالأحرى شمال غربي أوروبا- لم تعُد أرضًا طيبة في أعينهم، وكان ذلك باعثًا على قلقهم واضطرابهم؛ فقد وعظ الكهنة الكالفينيون (Calvinist) الناس في الأراضي المنخفضة (هولندا) قائلين لهم: إن المال هو أصل الشرور، وحذروهم -بقناعة مرعبة- مغبة الانغماس في الترف[٣]. وقد يجد المرء مشاعر مماثلة سادت في إنجلترا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، حيث تحسَّر رجال مثل توماس مون (Thomas Mun) -وهو الكاتب الغاضب- على «إهدار... الوقت في الكسل والدَّعة»، محذرًا من أن الثروة المادية ستؤدي إلى فقر العلم، وإصابة الجسد والروح بـ«الجُذام العام»[٤].

ولم يجرِ تقاسم فوائد النمو بالتساوي بطبيعة الحال. وكان ارتفاع قيمة الإيجارات أمرًا جيدًا لأصحاب العقارات، بيد أنه كان أمرًا ضارًا بالمستأجرين في الوقت نفسه؛ وكان التعرض لأسواق أكبر يعني وجود ضغوط أكبر على الأسعار؛ حيث تعرض الإنتاج المحلي للصوف، والمنسوجات، وسائر السلع الأخرى لمزيد من المنافسة[٥]. وكان الانهيار في المعايير الأخلاقية الذي واكب الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية كافيًا لتشجيع بعض الناس على اتخاذ قرارات حاسمة. لقد خلص المحافظون إلى أن الوقت قد حان لإنشاء مراعٍ جديدة، والعثور على مكان يمكن فيه ممارسة أسلوب حياة بسيط، تكون الأولوية فيه للالتزام الدينِي، والصفاء الروحي؛ أو بعبارة أخرى: مكان يشهد بداية جديدة، وعودة الإنسان إلى القِيم الأصيلة.

---

(1) T. Kuran, 'The Islamic Commercial Crisis: Institutional Roots of Economic Underdevelopment in the Middle East', *Journal of Economic History* 63.2 (2003), 428–31.

(2) M. Kunt, *The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650* (New York, 1983), pp. 44–56.

(3) Schama, *Embarrassment of Riches*, pp. 330–5.

(4) Thomas Mun, *England's Treasure by Foreign Trade* (London, 1664),

نقلًا عن:

de Vries, *Industrious Revolution*, p. 44.

(5) C. Parker, *The Reformation of Community: Social Welfare and Calvinist Charity in Holland, 1572– 1620* (Cambridge, 1998).

أقبـل المحافظون -الذين اسـتقروا في انجلترا الجديـدة (New England)- على الهجرة احتجاجًا على التغيرات التي واكبت صعود أوروبا، واتخذوا موقفًا مناهضًا للثراء الذي أعقب ذلك الصعود. لقد كانـوا يتفاعلـون مع التدفق الغريب للأفكار والسـلع الجديدة التي جعلت العالـم يبدو في أعينهم مكانًا مختلفًا؛ حيث كان الخزف الصيني يظهر على طاولات الطعام المنزلية؛ وحيث أدى زواج ذوي البشرة المختلفـة مـن الأوروبييـن إلى طرح أسـئلة جديـدة حول الهوية والعـرق، وحيث أثـارت المواقف من الجسد ما أطلق عليه أحد العلماء -مؤخرًا «الثورة الجنسية الأولى First sexual revolution»[1].

وفيمـا يتعلـق بالفرار، اسـتقر رأي أولئـك المحافظين على عبـور المحيط الأطلسـي، ومع ذلك لم يحبذوا التوجه إلى منطقة البحر الكاريبي -حيث هاجر كثيرون من قبلهم؛ ليحولوا الأراضي هناك إلى مزارع لقصب السـكر باسـتخدام عمالة من العبيد- بل اسـتقر رأيهم على استصلاح الأراضي البكر في إنجلترا الجديدة؛حيث كان يسـع أولئك النفر من المهاجرين أن يعيشـوا حياة مثالية بسـيطة، أشبه بحياة الزهـاد. وكانت الصعوبة الوحيدة التي واجهتهم، هي السـكان الأصليـون، بطبيعة الحال. وكان أولئك السـكان «يسعدون بتعذيب المسـتوطنين الجدد بأكثر الطرق دموية؛ حيث قذفوا بعض الأحياء بقذائف مـن الأسـماك حتى المـوت، وقطعوا أعضـاء ومفاصل بعضهم عضـوًا عضوًا، ووضعوهـا على الفحم للشواء، وأكلوا لحومهم أمام نواظرهـم، بينما كانوا على قيد الحياة. بل مارسوا ضروبًا أخرى مروعة من التعذيـب قبـل القتـل»[2]. وبالرغم من هذا، فـإن الأمر كان مسـتحقًّا للمخاطـرة؛ ذاك أن العالم الجديد سـيظل أفضـل مـن العالم الـذي خلفوه وراءهم. قد يسـهل علينا اليوم أن ننسـى أن عيد الشـكر -الذي احتفـل بـه الآبـاء الحجـاج (Pilgrim Fathers) للمرة الأولى شـكرًا لله على وصولهـم بأمان إلى أرض الوفرة، يعد أيضًا إحياءً لذكرى حملة ضد العولمة. ولم يكن قدومهم ترحيبًا باكتشاف جنة جديدة على الأرض، بل كان رفضًا لجنة دُمِّرت في الديار بالفعل[3].

أمـا عـن أولئـك الذين اختلفوا معهم في الرأي والقناعة والعزم، فلـم يظهروا اكتراثًا لبناء حصن من الزهد، والمحافظة الدينية، والتَّمَترس خلفه؛ بل غلبهم الفضول، وأرادوا اكتشـاف الجديد، والاسـتفادة

---

(1) S. Pierson, 'The Movement of Chinese Ceramics: Appropriation in Global History', *Journal of World History* 23.1 (2012), 9–39; S. Iwanisziw, 'Intermarriage in Late-Eighteenth-Century British Literature: Currents in Assimilation and Exclusion', *Eighteenth-Century Life* 31.2 (2007), 56–82; F. Dabhoiwala, *The Origins of Sex: A History of the First Sexual Revolution* (London, 2012).

(2) W. Bradford, *History of Plymouth Plantation, 1606–1646*, ed. W. Davis (New York, 1909), pp. 46–7.

(٣) عن الهجرة إلى أمريكا الشمالية (أو كما يحلو لبعض الباحثين تسميتها سفر الخروج Exodus)، انظر:

A. Zakai, *Exile and Kingdom: History and Apocalypse in the Puritan Migration to America* (Cambridge, 1992);

عن الجدل المتعلق بعيد الشكر، انظر:

G. Hodgson, *A Great and Godly Adventure: The Pilgrims and the Myth of the First Thanksgiving* (New York, 2006).

مـن عوامـل الجذب، والمشـاركة في المباهـج التي كانت متاحة في العالم. ومن ثـم فقد وجدوا بديلًا، وكان ذلك البديل هو الاتجاه شرقًا إلى آسيا. لقد كان بناء منبر لتمكين إنجلترا من إجراء اتصالات مع آسـيا بطريقـة منظمـة وممنهجـة، عملية بطيئة، بل ومحبطة فـي كثير من الأحيان. وتمكنت شـركة الهند الشـرقية (EIC) -التـي مُنِحـت احتـكارًا ملكيًا للتجارة مع جميـع الأراضي الواقعة شـرق رأس الرجاء الصالـح فـي عام ١٦٠٠م- مـن طرد البرتغاليين من بندر عباس في الخليج العربي، وسـورات (Surat) شـمال غربي الهند من خلال اللجوء إلى القوة. وعلى هذا النحو أنشـأت انجلترا موطئ قدم بدا واعدًا فـي المسـتقبل. ومع ذلك، كانت المنافسـة ضد شـركة الهنـد الشـرقية الهولنديـة (VOC) القوية بمثابة تحـدٍّ[1]. وبـدأت أحجـام التجـارة العائدة إلى إنجلترا في النمـو؛ بيد أن تفوق الهولنديـين كان واضحًا؛ حتـى إنهـم -أعني الهولنديين- كانوا يشـحنون نحـو ثلاثة أضعاف البضائع والسـلع التي كان الإنجليز يشحنونها في منتصف القرن السابع عشر الميلادي[2].

وكانـت العلاقـة بين الإنجليـز والهولنديين علاقة معقدة؛ وذلك لسـبب واحد، فقد قدمت الأراضي المنخفضة العُملاء، والائتمان للسـلع الإنجليزية؛ لذا فبينما كان هناك تنافس تجاري بين شـركتي الهند الشـرقية الإنجليزيـة (EIC) والهنـد الشـرقية الهولنديـة (VOC)، لم يكن فـي نجاحهما معًـا تضاربًا في المصالح. وعلى صعيد آخر، أرسـى وجود الإسـبان -بوصفهم عدوًا مشتركًا لكليهما- الأسس لتعاون عسـكري وسياسـي وثيـق بين الدولتين البروتسـتانتيتيْن. وأولى بعـض الإنجليز البارزيـن اهتمامًا كبيرًا للنجاحات البحرية الهولندية الكبرى ضد إسبانيا في القنال الإنجليزي في عام ١٦٣٩م، وبُعيد ذلك في إتاماراكا (Itamaraca) قبالة سـواحل البرازيل. وعلى هذا النحو، اقترح أوليڤر سـانت جون (Oliver St John) المتكبِّـر، الـذي قـاد وفـدًا من الوفـود الكثيرة التي طرقـت أبواب لاهـاي (The Hague) لتوطيد العلاقات بين إنجلترا وهولندا، اقتراحًا جذريًا يقضي بدخول البلدين «في تحالف أكثر حميمية، واتحادًا أقوى»؛ بعبارة أخرى، أن يندمجا في كيان واحد[3].

ومـع ذلك ظل التنبؤ بسـلوك القوى الأوروبية أمرًا شـديد الصعوبة؛ حتـى إن إنجلترا قاتلت هولندا ولـم يكد ينصرم عام واحد على طرح اقتراح قيام اتحاد كونفدرالي بينهما. وكان سبب الحرب (*Casus belli*) هـو تمريـر البرلمـان الإنجليزي لقانون الملاحة في أعقاب عودة وفد سـانت جـون إلى الوطن؛ حيث سن البرلمان قانونًا يقضي بنقل جميع الشحنات المتجهة إلى إنجلترا إلى الموانئ الإنجليزية من خلال السـفن الإنجليزية دون غيرها. وعلى الرغم من وجود دافع تجاري وراء هذا التشـريع -بلا أدنى

(1) K. Chaudhari, *The Trading World of Asia and the English East India Company* (Cambridge, 2006).

(2) Gelderblom, 'The Organization of Long-Distance Trade', 232–4.

(3) S. Groenveld, 'The English Civil Wars as a Cause of the First Anglo-Dutch War, 1640–1652', *Historical Journal* 30.3 (1987), 541–66.

عن التنافس الأنجلو-هولندي في هذه الحقبة، انظر:

L. Jardine, *Going Dutch: How England Plundered Holland's Glory* (London, 2008).

شـك- وهو دفع الإيرادات حصرًا نحو اقتصاد دمره الاقتتال الأهلي، فإن وجود تكتل (Lobby) متنام، وصاخب، وشـرس في إنجلترا كان يصر على أن الهولنديين لا يظهرون الحماسـة إلا للأرباح فحسب، وأنهم ماديون للغاية، ويفتقرون إلى الإيمان، كان سببًا مهمًّا آخر كمن خلف سنّ هذا القانون[1].

وكان سـن ذلك القانون مؤشـرًا على تطلعات إنجلترا الكبيرة. وعلى هذا النحو ازدادت الانتقادات الإنجليزيـة الحادة الموجهة إلى الهولنديين؛ وحفل حديثهم عنهم بالعبارات البغيضة نفسـها التي دأبوا على الحديث بها عن الإسبان قبل قرن من الزمان. وسادت الشحناء، ولا سيما عندما اندلع قتال عنيف فـي البحـر بيـن كلتا الدولتين؛ حيث سـعى الهولنديون إلى إبقاء ممرات الشـحن مفتوحـة أمام موانئهم الخاصة عبر القنال وبحر الشـمال. وأثار هذا السـعي من جانب الهولنديين ما لا يمكن وصفه بأنه أقل من ثورة بحرية قامت في إنجلترا. لقد مُوِّلت البحرية الإنجليزية جيدًا حتى خلال عهد تيودور (Tudor). ومـع ذلـك فقد جرى إصلاحهـا إصلاحًا ممنهجًا آنئذٍ. وأُنفقت موارد كبيـرة -خلال النصف الثاني من القرن السـابع عشـر الميلادي- على برنامج بناء السفن على نطاق واسع. وما زال الإنفاق على البحرية يرتفـع ارتفاعًـا حـادًّا، حتـى ابتلع ما يقرب مـن خُمس الميزانيـة الوطنية بأكملها[2]. وأشـرف على تلك العمليـة صمويـل بيبـس (Samuel Pepys)، الـذي لا تعبـر مذكراته الشـخصية عن التحول العسـكري، والجيوسياسي الذي كان يحدث في أيامه؛ أو عن حجم التغيير الذي كانت تشهده أحواض بناء السفن -عاليها وسافلها- في البلاد[3].

* * *

طفَـق بيبـس يجمـع أحـدث المتـون التي وضعهـا المتخصصـون الهولنديـون، بما في ذلـك كتاب نيكـولاس ويتسـن (Nicolaes Witsen)، وكان المنظِّـر الرئيـس لبناء السـفن. وشـرع فـي تطبيق قواعد الصرامة والانضباط على كل شيء، بدءًا من إنشاء المدارس التي درَّست «فن الملاحة»، إلى التأسيـس لعقائد مدونة حددت أحدث التقنيات التي وضعها جيل جديد طموح من المصممين، وممول جيدًا[4].

---

(1) S. Pincus, *Protestantism and Patriotism: Ideologies and the Making of English Foreign Policy, 1650–1668* (Cambridge, 1996).

وانظر أيضًا:

C. Wilson, *Profit and Power: A Study of England and the Dutch Wars* (London, 1957).

(2) J. Davies, *Gentlemen and Tarpaulins: The Officers and Men of the Restoration Navy* (Oxford, 1991), p. 15.

(3) J. Glete, *Navies and Nations: Warships, Navies and State Building in Europe and America, 1500–1860*, 2 vols (Stockholm, 1993), pp. 192–5.

(٤) كان كتاب ويتسن المسمى:

Aeloude en Hedendaegsche Scheeps-bouw en Bestier,

والمنشور عام ١٦٧١م الكتاب الأكثر تأثيرًا في زمانه، وعن نسخة بيبس منه، انظر: =

واستندت تلك الثورة البحرية إلى ثلاث ملحوظات منفصلة، أولها: أن السفن المتخصصة والثقيلة كانت أكثر فعالية من الطرادات الخفيفة. كما أن النجاح يتوقف على القدرة على إطلاق نيران كبيرة ومركزة، وكذلك القدرة على مقاومة هذا النوع من النيران. ومن ثم جرى تعديل تصميم السفن وفقًا لذلك، مع التركيز على السفن الكبيرة القوية التي كانت أشبه بالقلاع العائمة.

وثانيها: أن التجربة خير معلم. ذاك أن المواجهات مع الأساطيل الهولندية -في العقدين السادس والسابع من القرن السابع عشر الميلادي- أسفرت عن خسائر فادحة، سواء من حيث عدد السفن المفقودة، أو تلك التي أسرها الهولنديون، أو من حيث مقتل كبار الضباط والربابنة في أثناء القتال. فقد شهد عام ١٦٦٦م مقتل ما يقرب من ١٠٪ من كبار قادة البحرية الإنجليزية في معركة واحدة فحسب. ونتيجة لمثل هذه المواجهات المؤلمة، جرى إعادة تقييم التكتيكات البحرية على نحو منهجي. ونُشِرت متون التدريب مثل **تعليمات القتال** *Fighting Instructions* للأدميرال بليك (Admiral Blake) -وكان واحدًا من أعظم القادة البحريين في ذلك العصر- وجرى استيعابها. وكان تبادل المعلومات، والتعلم من دروس الماضي أمرًا حاسمًا في جعل البحرية الإنجليزية الأفضل في العالم بين عامي ١٦٦٠-١٨١٥م، فقد انخفض أعداد القتلى بين قادة الإنجليز (البريطانيين) بنسبة مذهلة بلغت ٩٨٪[1].

وثالثها: وهي ملحوظة لا تقل أهمية عن سابقتيها، وهي الكيفية التي عملت بها البحرية بوصفها مؤسسة. فلكي يصبح البحار ملازمًا (Lieutenant)، أصبح لزامًا عليه قضاء ثلاث سنوات في البحر، واجتياز امتحان كان يشرف عليه ضباط أعلى رتبة. واستندت الترقيات اللاحقة إلى المقدرة -لا الواسطة- على نحو صارم، الأمر الذي كان يعني أن الأقدر لم يكن الأجدر بالترقية، والترفيع، والزحف نحو القمة فحسب، بل جرت العملية برمتها من خلال تأييد الأقران. وتعززت الشفافية المحفزة لهذا النظام للجدارة من خلال نظام يكافئ أولئك الذين خدموا لفترة أطول في أهم المناصب. لقد كان ذلك التنظيم مطابقًا إلى حد كبير للنظم التي وُضِعت في عصر صدر الإسلام، وهي النظم التي أثبتت فعاليتها خلال حقبة الفتوحات الإسلامية؛ ففي إنجلترا، جرت مشاركة الغنائم -آنذاك- وفقًا لنسب محددة سلفًا، مع مكافأة الضباط والبحارة بما يتناسب مع الأقدمية، ومدة الخدمة. وعمل هذا على جعل

= N. Smith et al., *Catalogue of the Pepys Library at Magdalene College, Cambridge*, vol. 1 (1978), p. 193.

ولعب كاتب اليوميات دورًا بارزًا في إنشاء مستشفى المسيح (Christ's Hospital)، التي لم تزل تعد أحد المدارس الرائدة في بريطانيا. انظر:

E. Pearce, *Annals of Christ's Hospital* (London, 1901), pp. 99–126;

وعن التصميمات الجديدة، انظر:

B. Lavery (ed.), *Deane's Doctrine of Naval Architecture, 1670* (London, 1981).

(1) D. Benjamin and A. Tifrea, 'Learning by Dying: Combat Performance in the Age of Sail', *Journal of Economic History* 67.4 (2007), 968–1000.

الترقيـة مَغنمًـا ومَربحًا، الأمر الـذي أدى مجددًا إلى الدفع بالأقدر إلى المقدمـة، وكانت العملية برمتها تجري تحت إشـراف مجلس الأدميرالة، الذي اسـتهدف القضاء على المحسوبية والتحيز. وكانت هذه العقـود بمثابـة عقـود عمل مثالية، أو بعبارة أخـرى، كانت مصممة لمكافـأة الأداء وتحفيزه؛ وفوق ذاك كانت عادلة[1].

ولـم يمـض وقـت طويل قبـل أن تؤتي تلـك الإصلاحـات أُكلها. فقـد أدى الاسـتثمار الضخم في البحريـة إلـى توسـيع مجـال نفـوذ إنجلترا إلـى حد كبيـر، الأمر الـذي أتاح لهـا الفرصة للاسـتفادة من الخصومـات الأوروبيـة، أو انـدلاع الحـروب، أو الثغرات التي قـد تنفتح في منطقة البحـر الكاريبي أو غيرها لإنشـاء موطئ قدم لها فيها[2]. وتزامنت تلك العملية مع العملية الطويلة والبطيئة التي حاول بها الإنجليـز بنـاء مركـز تجاري أقوى في آسـيا، حيـث كانت ثمار العمـل الجاد تنضج أخيـرًا. فإضافة إلى سـورات، أنشـأت شـركة الهنـد الشـرقية مركـزًا مهمًا فـي الجنوب الشـرقي من شـبه القـارة الهندية في مدراسباتنام Madrasapatnam (وهي مَدْراس الآن)، حيث جرى التفاوض في النصف الأول من القرن السـابع عشـر على امتيـازات للتجارة الحرة دون جمـارك مع الحاكم المحلي آنئـذ. وكانت الإعفاءات الضريبية السخية نعمة كبيرة -كما تدرك الشركات الحديثة الآن- الأمر الذي أتاح الفرصة للقضاء على المنافسـين في تجارة المسـافات الطويلة، بل وعلى منافسـة الأهالي أيضًا عندما يحين الوقت المناسب لذلك. وكما تدرك الشركات الحديثة أيضًا، كلما أصبحت المستوطنات أكبر وأكثر نجاحًا، كلما باتت الشـركة في وضع مثالي لإعادة التفاوض بشـأن شـروط أفضل وأفضل من ذي قبل. فعلى مدار سـبعين عامًـا، جـرى تحويل مدراس إلى مدينة مزدهرة. وتكرر هذا النمط في مواقع أخرى، وعلى الأخص في بومبـاي وكلكتـا -وكانـت الأخيرة جوهـرة البنغال- وارتفعت إيرادات شـركة الهند الشـرقية على نحو مطرد[3].

وكما كانت الحال مع شـركة الهند الشـرقية الهولندية (VOC) في هولندا، كانت الخطوط الفاصلة بين حكومة إنجلترا، وشـركة الهند الشـرقية البريطانية (EIC) غير واضحة. فكان لكلتا الشـركتين الحق في التصرف بوصفهما شـبه فرع من أفرع الدولة؛ فقد مُنحتا الحق في سـك العملات المعدنية، والحق

(1) E. Lazear and S. Rosen, 'Rank-Order Tournaments as Optimum Labor Contracts', *Journal of Political Economy* 89.5 (1981), 841–64;

وانظر أيضًا:

D. Benjamin and C. Thornberg, 'Comment: Rules, Monitoring and Incentives in the Age of Sail', *Explorations in Economic History* 44.2 (2003), 195–211.

(2) J. Robertson, 'The Caribbean Islands: British Trade, Settlement, and Colonization', in L. Breen (ed.), *Converging Worlds: Communities and Cultures in Colonial America* (Abingdon, 2012), pp. 176–217.

(3) P. Stern, 'Rethinking Institutional Transformation in the Making of Empire: The East India Company in Madras', *Journal of Colonialism and Colonial History* 9.2 (2008), 1–15.

في الدخول في تحالفات، ولم تُمنح حق الاحتفاظ بقوة مسلحة فحسب، بل فُوّضت في استخدامها أيضًا. وأدى الدخول في خدمة هذه المنظمات ذات الطابع التجاري للغاية -والتي استفادت من الحماية الحكومية، ونفوذ المستثمرين الكبار- إلى إتاحة مسارات وظيفية جذابة. فقد اختير الرجال من جميع أنحاء إنجلترا، بل الحق أنهم اختيروا من أجزاء أخرى من العالم أيضًا، بما في ذلك معقل التيار المحافظ في إنجلترا الجديدة (نيو إنجلاند). وكانت هناك مكافآت كبيرة بانتظار الطموحين والحاذقين الذين ارتقوا في المناصب داخل الشركة[1].

وثَم رجل نموذجي وُلِد في ولاية ماساتشوستس (Massachusetts) عام ١٦٤٩م، ثم انتقل مع أسرته إلى إنجلترا صبيًّا، قبل أن يلتحق بخدمة شركة الهند الشرقية بوصفه كاتبًا بسيطًا في بادئ أمره، وما زال يرتقي في المناصب حتى عُيِّن حاكمًا على مدراس نفسها. وقد أبلى بلاءً حسنًا هناك، بل الحق أن بلاءه كان ممتازًا وليس حسنًا فحسب؛ ذاك أنه عُزل من منصبه بعد خمس سنوات لاحقًا، ثم سرت الشائعات هنا وهناك حول الثروة الطائلة التي حققها لنفسه خلال فترة ولايته. وأشارت عودته إلى وطنه وفي معيته خمسة أطنان من التوابل، وكميات كبيرة من الماس، ومقتنيات ثمينة لا حصر لها، إلى أن وراء ذلك الدخان نيران قوية ولا شك. وقد عكس النص المنقوش على قبره في ريكسهام (Wrexham) -شمالي ويلز حيث دُفن ثمة- لسان الحال؛ حيث جاء فيه: «وُلِد في أمريكا، وترعرع في أوروبا، وطوَّف في إفريقيا، وتزوج في آسيا... أُوتي خيرًا كثيرًا، وابتُلي بشيء من المرض، ثم تُوفي؛ لذا نرجو أن يكون قد أوتي حظًّا من كل شيء، وأن الرحمة سبقت غيرها، وأن روحه وجدت طريقها إلى الجنة». لقد أنفق الرجل أمواله بسخاء في إنجلترا، ومع ذلك لم ينس مسقط رأسه قط؛ وفي أواخر أيامه، قدم تبرعًا سخيًّا إلى كلية كونيتيكت (Collegiate School of Connecticut)، التي اعترفت بجميله عليها عندما أعادت تسمية نفسها، فأطلقت على نفسها اسم المتبرع السخي الذي ربما قدم مزيدًا من التبرعات لها مستقبلًا. إن هذا الشخص هو إلياهو يل (Elihu Yale)[2].

لقد كان يِل الرجل المناسب، في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب. ففي العقد التاسع من القرن السابع عشر، رفع بلاط تشينغ (Qing) في الصين القيود عن التجارة الخارجية، الأمر الذي أدى إلى زيادة صادرات إنجلترا من الشاي، والخزف، والسكر الصيني. ومن ثم، لم تكن الموانئ مثل مدراس وبومباي مراكز تجارية مهمة في حد ذاتها فحسب، بل أضحت نقاط انطلاق في شبكة تجارية عالمية جديدة ونابضة بالحياة[3]. وشهدت أواخر القرن السابع عشر بداية حقبة جديدة من الاتصالات بين أوروبا والصين، ولم تكن هذه الاتصالات مقتصرة على التجارة فحسب؛ فقد تمكن عالم

---

(1) H. Bowen, *The Business of Empire: The East India Company and Imperial Britain, 1756–1833* (Cambridge, 2006).

(2) H. Bingham, 'Elihu Yale, Governor, Collector and Benefactor', *American Antiquarian Society. Proceedings* 47 (1937), 93–144; idem, *Elihu Yale: The American Nabob of Queen Square* (New York, 1939).

(3) J. Osterhammel, *China und die Weltgesellschaft* (1989), p. 112.

الرياضيات جوتفريد لايبنتس (Gottfried Leibniz) -الذي طور النظام الثنائي- من صقل أفكاره بفضل متون تناولت نظريات الحساب الصينية، أرسلها إليه صديق يسوعي، كان قد استقر في بكّين في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. وعلى هذا النحو كان يسع أولئك الذين كانوا في وضع يسمح لهم بالإفادة من تلك الروابط التجارية، أو الفكرية الجديدة أن يحققوا إنجازات طيبة لأنفسهم[1].

وفي الوقت الذي قدم فيه يِل تبرعه، كان يشعر بالحساسية تجاه الطريقة التي بات يُنظَر بها على نحو متزايد إلى الشرق بصفة عامة، وإلى الهند خاصة، على أنهما طريق مختصر لتحقيق الثروة الطائلة. فكتب إلى ابنه بالمعمودية إليهو نيكس (Elihu Nicks) قائلًا: «كُن صبورًا في مسيرك، ولا تُسرع الخطا نحو الثراء. لقد كلفتني ثروتي قرابة ٣٠ عامًا من الصبر»[2]. وبوصفه واحدًا من الرعيل الأول من الإنجليز الذين امتلأت جيوبهم إلى حد التخمة، بدا من الجيد -إلى حدٍّ ما- أن يقدم مثل هذه النصائح الصارمة للجيل القادم. وهكذا كانت احتمالات أن يصبح المرء ثريًا في آسيا على وشك أن تتحسن؛ ذاك أن شمس العصر الذهبي أخذت تسطع على إنجلترا.

سيطرت تلك الجزيرة الواقعة في شمال الأطلسي على الشؤون الدولية، لتكون قلب إمبراطورية سيطرت على ربع العالم، مع مجال نفوذ وتأثير أبعد من ذلك بكثير، وهو الأمر الذي من شأنه أن يذهل المؤرخين وبناة الإمبراطوريات في الماضي. لقد كانت بريطانيا بيئة طاردة؛ حتى إن أحد كبار المؤرخين في أواخر العصور القديمة، كتب قائلًا: إن الهواء سام للغاية في بعض أرجائها، وقد يكون قاتلًا إذا غيرت الريح اتجاهها[3]. وكان يسكن تلك الجزيرة البريطانيون، وتكهن أحد المؤلفين بُعيد ذلك، أن اسمهم اشتُق من الكلمة اللاتينية بروتوس (Brutus)، أي غير العقلاني، أو الغبي[4]. كما كانت جزيرة منعزلة، تفصلها قناة عن البر الرئيس لأوروبا. لقد كانت بعيدة، ومعزولة، ومحيطية. ثم سرعان ما تحولت نقاط الضعف هذه إلى نقاط قوة هائلة، فعززت صعود إحدى أعظم الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ.

وكانت هناك أسباب كثيرة كمنت خلف نجاح بريطانيا في الأخير؛ فعلى سبيل المثال لحظ العلماء أن مستويات التفاوت الاجتماعي والاقتصادي كانت أقل في بريطانيا مما كانت عليه في البلدان

(١) انظر على سبيل المثال:

F. Perkins, *Leibniz and China: A Commerce of Light* (Cambridge, 2004).

(٢) نقلاً عن:

S. Mentz, *The English Gentleman Merchant at Work: Madras and the City of London 1660–1740* (Copenhagen, 2005), p. 162.

(3) Procopius, *The Wars*, 8.20, 5, pp. 264–6.

(4) K. Matthews, 'Britannus/Britto: Roman Ethnographies, Native Identities, Labels and Folk Devils', in A. Leslie, *Theoretical Roman Archaeology and Architecture: The Third Conference Proceedings* (1999), p. 15.

الأخرى في أوروبا، وأن الطبقات الدُّنيا من سكانها كانوا يستهلكون مستويات أعلى من السعرات الحرارية من نظرائهم في القارة على نحو ملحوظ[1]. كما أن التغييرات التي طرأت على نمط حياة البريطانيين لعبت دورها في هذا الصدد؛ حيث ارتفعت معدلات العمل، وكفاءته، ارتفاعًا حادًّا بفضل المكافآت التي أتاحها اقتصاد آخذ في النمو. ويعود النجاح الكبير الذي حققته بريطانيا أيضًا إلى حقيقة أنها كانت موطنًا لعدد كبير من العلماء المبتكرين[2]. وكان لمستويات الخصوبة -التي يبدو أنها كانت أقل في بريطانيا مما كانت عليه في معظم البلدان الأوروبية الأخرى- ارتباط مهم بدخل الفرد؛ حيث انتقلت الموارد والأصول إلى أيدٍ أقل مقارنة بالبر الرئيس في القارة[3].

بيد أن الورقة الرابحة التي أثبتت أنها لا تقبل المنافسة كانت الجغرافيا؛ فقد كان لدى إنجلترا -أو بالأحرى بريطانيا بعد الاتحاد مع اسكتلندا عام ١٧٠٧م- حاجزًا طبيعيًّا يحميها من منافسيها؛ أعني البحر بطبيعة الحال. وكان هذا مفيدًا من حيث التعامل مع التهديدات العسكرية، بيد أنه كان أشبه بهبة السماء، متى تعلق الأمر بالإنفاق الحكومي. فمع الافتقار إلى الحدود البرية التي يلزم الدفاع عنها، كان الإنفاق العسكري لبريطانيا يسيرًا مقارنة بنفقات خصومها في القارة. وتشير التقديرات إلى أن عدد الرجال في القوات المسلحة الإنجليزية كان مكافئًا لحجم الرجال في القوات المسلحة الفرنسية تقريبًا في عام ١٥٥٠م، ومع ذلك فقد جنَّد الفرنسيون عام ١٧٠٠م ما يقرب من ثلاثة أضعاف عدد الجنود الإنجليز للخدمة في الجيش. وبطبيعة الحال تطلبت هذه القوات معدات وأجورًا، الأمر الذي كان يعني أن الإنفاق كان أكبر نسبيًّا في فرنسا مقارنة بإنجلترا؛ وكانت العائدات أيضًا أقل نسبيًّا في فرنسا؛ حيث سيق الجنود والبحارة -أي كل مصدر محتمل للدخل الخاضع للضريبة المباشرة، والضرائب غير المباشرة من خلال الاستهلاك- من الحقول والمصانع، والوظائف الأخرى كافةً لخدمة بلادهم[4].

---

(1) R. Fogel, 'Economic Growth, Population Theory, and Physiology: The Bearing of Long-Term Processes on the Making of Economic Policy', *American Economic Review* 84.3 (1994), 369–95; J. Mokyr, 'Why was the Industrial Revolution a European Phenomenon?', *Supreme Court Economic Review* 10 (2003), 27–63.

(2) J. de Vries, 'Between Purchasing Power and the World of Goods: Understanding the Household Economy in Early Modern Europe', in J. Brewer and R. Porter (eds), *Consumption and the World of Goods* (1993), pp. 85–132; idem, *The Industrious Revolution*; H.-J. Voth, 'Time and Work in Eighteenth-Century London', *Journal of Economic History* 58 (1998), 29–58.

(3) N. Voigtländer and H.-J. Voth, 'Why England? Demographic Factors, Structural Change and Physical Capital Accumulation during the Industrial Revolution', *Journal of Economic Growth* 11 (2006), 319–61; L. Stone, 'Social Mobility in England, 1500–1700', *Past & Present* 33 (1966), 16–55;

وانظر أيضًا:

P. Fichtner, *Protestantism and Primogeniture in Early Modern Germany* (London, 1989),

وعن تقييم للعلاقة بين الدين والبكورة (*primogeniture*) انظر:

(4) K. Karaman and S. Pamuk, 'Ottoman State Finances in European Perspective, 1500–1914', *Journal of Economic History* 70.3 (2010), 611–12.

كما بدا الأمر كما لو أن بريطانيا قد حُصّنت من المشكلة المعدية في أوروبا التي شهدت حروبًا لا تنتهي على ما يبدو؛ حيث قاتلت الدول في القارة بعضها بعضًا في كل مناسبة للتغيير تقريبًا طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وفي هذه الأثناء تعلم البريطانيون التدخل بحكمة، مستغلين الظروف إذا كانت في صالحهم، ونأوا بأنفسهم عن تلك الحروب عندما كانت المخاطر تلوح في الأفق. لقد بات واضحًا لهم أن ما كان يحدث في أوروبا يمكن أن يحدد مصير المرء على الجانب الآخر من العالم. وقد يكون للجدل الحاد حول من سيرث عرش النمسا عواقب مؤدية إلى القتال، وتبادل الأراضي في المستعمرات الأوروبية في جميع أنحاء العالم، فعلى سبيل المثال أدت مسألة شرعية خلافة ماريا تيريزا (Maria-Theresa) في العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادي إلى اندلاع قتال امتد من الأمريكتين إلى شبه القارة الهندية، وطال العهد به إلى ما يقرب من عقد من الزمان. فلما وضعت الحرب أوزارها أخيرًا في عام ١٧٤٨م تبادل الفرنسيون والبريطانيون رأس بريتون (Cap Breton) في كندا، ومدراس في الهند.

* * *

كان هذا مجرد مثال على الكيفية التي أثرت بها المنافسة بين القوى الأوروبية على الجانب الآخر من العالم. لقد سلم الهولنديون مدنًا في الهند إلى الفرنسيين في نهاية العقد الأخير من القرن السابع عشر نتيجة لمقتضيات تسوية حرب السنوات التسع (Nine Years' War) في أوروبا؛ كما تبادلت بريطانيا وفرنسا الجزر في منطقة البحر الكاريبي بوصفها جزءًا من التسويات السلمية بعد عقدين من الزمن، شهدا قتالًا كثيفًا في أوروبا؛ كما جرى تبادل مساحات شاسعة من أمريكا الشمالية بين البريطانيين والفرنسيين عندما جرت تسوية الخلافات على العرش الإسباني.

وكان يمكن للمصاهرات أيضًا أن تؤدي إلى اكتساب مناطق شاسعة، أو رؤوس جسور استراتيجية، أو مدن عظيمة، مثل بومباي، التي سُلِّمت إلى إنجلترا بوصفها جزءًا من مهر كاثرين البرجنزية (Catherine of Braganza) عندما تزوجت من الملك تشارلز الثاني في العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي. لقد كان ذلك عملًا كريمًا، كما تنبأ الحاكم البرتغالي للمدينة بدقة؛ حيث وضع ذلك التنازل حدًّا نهاية لنفوذ البرتغال في الهند[1]. وهكذا كان للممارسات في غرف النوم في عواصم أوروبا، والهمسات الخافتة في ممرات القصور فيما يتعلق بالعرائس المحتملات للأمراء والملوك، أو الأفكار النزقة التي دارت في رؤوس حكام تملك الغرور منهم، فسارعوا إلى إرضاء غرورهم، تداعيات وتشعبات امتدت إلى آلاف الأميال.

ولم تكن مثل هذه المؤامرات -عندما ننظر إليها من زاوية ما- مصدر قلق كبير لأولئك الذين

---

(1) G. Ames. 'The Role of Religion in the Transfer and Rise of Bombay', *Historical Journal* 46.2 (2003), 317–40.

عاشوا في الشرق، فلم يتوقفوا كثيرًا أمام ما إذا كان الهولنديون، أو البريطانيون، أو الفرنسيون، أو حتى غيرهم، هم أصحاب اليد العليا. فالحق أن الخصومات في أوروبا ربما أدت بالآسيويين إلى جني فوائد كبيرة على نحو متزايد. فطيلة القرن السابع عشر الميلادي، لم تتوقف الوفود المتنافسة عن طرق أبواب الإمبراطور المغولي، وأباطرة الصين، واليابان لكسب الود، أو طلب امتيازات تجارية جديدة، أو إعادة التأكيد على امتيازات تجارية قديمة. وأدى هذا إلى زيادة أهمية الوسطاء، من أمثال مقرَّب خان، مسؤول الميناء في ولاية گوجارات (Gujarat)، الذي مُنِح تسهيلات بإذن من الإمبراطور جهانگير (Jahāngīr) في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، واستفاد كلاهما كثيرًا نتيجة لذلك[1]. وفي حالة خان خاصةً، تكونت البضائع التي اشتراها في عام ١٦١٠م، من «الخيول العربية»، والعبيد من إفريقيا، وغير ذلك من السلع الكمالية، واستغرق الأمر أكثر من شهرين لتخليص الجمارك[2].

وعمل البريطانيون في آسيا -كما ذكر أحد المؤرخين- بموجب مبدإ: إن «كل شيء له ثمن، وكذلك كل شخص»[3]. ولم يؤدِّ هذا المبدأ إلى الإسراف في تقديم الهدايا فحسب؛ بل أدى أيضًا إلى إثارة احتجاجات أطلقها بعض الذين أدانوا جشع أولئك الذين تعاملوا معهم. فعلى سبيل المثال، كان للإمبراطور المغولي جهانگير نقطة ضعف خاصة فيما تعلق بالهدايا، ولا سيما «الأفيال العظيمة»، وربما طيور الدودو أيضًا، وقيل: إنه يتمتع بقلب نهم «لا يشبع قط؛ ذاك أنه لا يعرف أبدًا متى يبلغ حد الكفاية من شيء ما؛ لقد كان مثَله مثَل حقيبة لا قاع لها، فلا تمتلئ قط، وكلما زدتها، كلما قالت: هل من مزيد؟»[4].

وحمل المبعوثون الهولنديون معهم العربات الفارهة، والدروع، والجواهر، والأقمشة، بل والنظارات إلى بگين في العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي في محاولة لكسب التأييد بعد

(1) J. Flores, 'The Sea and the World of the Mutasaddi: A Profile of Port Officials from Mughal Gujarat (c.1600–1650)', *Journal of the Royal Asiatic Society* 3.21 (2011), 55–71.

(2) *Tūzuk-i-Jahāngīrī*, tr. W. Thackston, *The Jahangirnama: Memoirs of Jahangir, Emperor of India* (Oxford, 1999), p. 108.

(3) A. Loomba, 'Of Gifts, Ambassadors, and Copy-cats: Diplomacy, Exchange and Difference in Early Modern India', in B. Charry and G. Shahani (eds), *Emissaries in Early Modern Literature and Culture: Mediation, Transmission, Traffic, 1550–1700* (Aldershot, 2009), pp. 43–5 and passim.

(4) Rev. E. Terry, *A Voyage to East India* (London, 1655), p. 397,

نقلًا عن:

T. Foster, *The Embassy of Sir Thomas Roe to India* (London, 1926), pp. 225–6, n. 1.

رأى الرحالة بيتر موندي (Peter Mundy) زوجًا من طائر الدودو عندما زار سورات (Surat)، وربما كان هذا الزوج أيضًا هدايا من التجار المتلهفين على كسب ود جهانگير، انظر:

Travels of Peter Mundy, 2, p. 318.

خسارة امتيازاتهم في تايوان قبيل ذلك التاريخ[1]. وتُظهر رواية عن وفدٍ هولندي مبذر آخر، كان قد قصد لاهور في عام ١٧١١م، الجهد الهائل الذي بُذل في الإطراء، والفوز بعطف الشخصيات المتنفذة، كما أظهرت الصور المجيدة التي صورت استقبالهم في أودايبور (Udaipur) بينما كانت السفارة تشق طريقها شمالًا. لقد اصطحبوا معهم الأصباغ من اليابان، والأفيال من سيلان، والخيول من بلاد فارس بصفة هدايا، وكذلك التوابل من المستعمرات الهولندية، هذا إلى جانب البضائع الأوروبية، مثل: المدافع، والمقربات (التليسكوبات)، وأجهزة السدسيات (Sextants)، والمجاهر (Microscopes). والمحصلة أنهم لم يتركوا شيئًا للصدفة قط، على الرغم من أن الظروف المحيطة بهذه المناسبة تحديدًا تسببت في ترك طلب المبعوث بتجديد الامتيازات التجارية دون رد[2].

واستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى شقَّت الآثار الكاملة المترتبة على الأوضاع القلقة في أوروبا طريقها إلى الشرق. ومع ذلك فكلما زاد عدد التجار الذين وصلوا إلى الشرق للتجارة، وكلما زادت أحجام السفن التي أتوا بها، كان ذلك أفضل للتجار الأوروبيين؛ فقد كان هذا يعني المزيد من الهدايا، ومن ثم المزيد من المكافآت، وحجم تجارة أوسع نطاقًا. وكان من عادة أباطرة المغول مثل: أكبر، وشاه جهان، وأورنگزيب (حكمه من ١٦٥٨ إلى ١٧٠٧م) وزن أنفسهم في احتفالات إحياء ذكرى ميلادهم؛ حيث كان يجري تحميل الأحجار الكريمة، والمعادن الثمينة، وسائر الكنوز الأخرى مرارًا على الميزان حتى يتوازنا، وعلى هذا النحو لم يكن لدى أولئك الأباطرة كبير حافز للحفاظ على محيط خصر نحيف[3].

ثم كانت هناك الرّشا التي طالب بها الوسطاء «لمرافقة» المسافرين والتجار إلى وجهاتهم، الأمر الذي أدى إلى إحباط بعض الناس ممن شعروا بأن المبدأ، وكذلك المبلغ، باتا مزعجين. وشعر التجار الإنجليز الذين صودرت بضائعهم في راج محل (Rajmahal) عام ١٦٥٤م أنه ليس هناك خيار آخر أمامهم سوى رشوة الحاكم ومرؤوسيه، أسوة بما كان الهولنديون يفعلون دائمًا[4]. وكان من الممكن

---

(1) L. Blussé, *Tribuut aan China. Vier eeuwen Nederlands-Chinese betrekkingen* (Amsterdam, 1989), pp. 84–7.

(٢) عن قائمة الهدايا، انظر:

J. Vogel (ed.), *Journaal van Ketelaar's hofreis naar den Groot Mogol te Lahore* (The Hague, 1937), pp. 357–93; A. Topsfield, 'Ketelaar's Embassy and the Farengi Theme in the Art of Udaipur', *Oriental Art* 30.4 (1985), 350–67.

(٣) عن تفاصيل الوزن، راجع:

Shah Jahan Nama, p. 28; Jean de Thévenot, who travelled to India in the seventeenth century, provides a vivid account of the weighing ceremony, in S. Sen, *Indian Travels of Thevenot and Careri* (New Delhi, 1949), 26, pp. 66–7.

(4) P. Mundy, *Travels*, pp. 298–300.

أن تصـل شـكايات التجار حول الظلم، وعدم الإنصاف إلـى أباطرة المغول، الذين عاقبوا أولئك الذين اشتطوا في ملء جيوبهم أحيانًا. فعلى ما يبدو، حكم الإمبراطور على أحد القضاة بأن تنهشه أفعى كوبرا أمامه. وفي مناسبة أخرى، تعرض الحراس للجلد بعد أن اشتكى موسيقي من أنهم طلبوا منه نصيبًا من عطية كان الإمبراطور قد وهبها له وهو في طريقه للخروج من القصر[1].

على أية حال فقد استمرت الأموال التي تدفقت على الهند في تأجيج الازدهار الفني، والمعماري، والثقافي الذي صاحب عمليات تدفق رؤوس الأموال الهائلة على البلاد منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي. ولم تكن زيادة المبالغ المتسربة إلى آسيا الوسطى، تعود جزئيًا إلى الجزية التي دفعها الحكام مثل أورانگزيب لتأمين العلاقات السلمية مع القبائل في الشمال فحسب، بل كانت أيضًا نتيجة شراء الخيول على نطاق واسع من المربين الذين رعوا قطعانهم في السهوب. وكان هناك ما يصل إلى ١٠٠ ألف جواد، بيعت في أسواق شمال الهند كل عام، وبارتفاع حاد إذا كان يسعنا تصديق ما ورد في بعض المصادر[2]. كما بيعت أعداد أكبر من الماشية للتجار من الهند، وكذلك للتجار من بلاد فارس، والصين، وروسيا على نحو متزايد، الأمر الذي أدى إلى تدفق المزيد من الثروة إلى البلاد. وهكذا ازدهرت مدن مثل خوقند (في أوزبكستان الحديثة)، حيث تتحدث الروايات عن جودة الراوند، والشاي، والخزف، والحرير، التي كان يسع التجار شراؤها من هناك بأسعار زهيدة، وبكميات كبيرة[3].

وعلى الرغم من صعود التجارة الأوروبية، فإن الشبكات التي كانت تعبر العمود الفقري لآسيا كانت حيوية إلى أقصى حد. وتُظهر سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية (VOC) أن شحنات المنسوجات التي كانت تُرسل كل عام من بلاد الهند إلى بلاد فارس -محملة على ظهور الجمال عبر الطرق التقليدية القديمة التي كانت تعبر آسيا الوسطى- كانت تقدر بعشرات الآلاف. وتوفر المصادر الإنجليزية، والفرنسية، والهندية، والروسية أيضًا معلومات حول استمرار التجارة البرية، كما تعطينا فكرة عن حجمها في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين؛ فقد تحدث الرحالة في آسيا

(1) N. Manucci, *A Pepys of Mogul India, 1653–1708: Being an Abridged Edition of the 'Storia do Mogor' of Niccolao Manucci* (New Delhi, 1991), pp. 197, 189.

(2) J. Gommans, 'Mughal India and Central Asia in the Eighteenth Century: An Introduction to a Wider Perspective', *Itinerario* 15.1 (1991), 51–70.

عن الجزية المدفوعة، انظر:

J. Spain, *The Pathan Borderland* (The Hague, 1963), pp. 32–4;

وانظر أيضًا:

C. Noelle, *State and Tribe in Nineteenth-Century Afghanistan: The Reign of Amir Dost Muhamad Khan (1826–1863)* (London, 1997), p. 164.

(3) S. Levi, 'The Ferghana Valley at the Crossroads of World History: The Rise of Khoqand 1709–1822', *Journal of Global History* 2 (2007), 213–32.

الوسطى -مرارًا- عن كميات كبيرة من البضائع والسلع التي كانت تُباع في الأسواق، وعن أعداد هائلة من الخيول التي رُبيت، وجُلِبت إلى أماكن مثل كابول، التي كانت «مركزًا تجاريًا ممتازًا»؛ حيث اجتمعت القوافل من جميع أنحاء آسيا للاتجار في مجموعة واسعة من المنسوجات، والنباتات العطرية، والسكر المكرر، وغير ذلك من الكماليات، بيعًا وشراءً(١). وتزايدت أهمية الأقليات في هذه التجارة القارية؛ حيث ساعدت في تسريع وتيرة التبادل التجاري، وذلك بفضل العادات المشتركة، والروابط الأسرية، والقدرة على إنشاء شبكات ائتمان عبر المسافات طويلة. وكان الصُغد قد اضطلعوا بهذا الدور في الماضي، أما وقتئذ فقد ورثه عنهم اليهود، والأرمن في المقام الأول(٢).

أما التيارات القوية التي كانت تتحرك تحت السطح فلم تكن مرئية للناظر قط. لقد أخذت المواقف الأوروبية تجاه آسيا في التطرف شيئًا فشيئًا؛ إذ تغيرت رؤية الأوروبيين للشرق على أنه أرض العجائب المليئة بالنباتات، والكنوز الغريبة إلى مكان عدُّوا سكانه المحليين ضعفاء لا طاقة لهم بهم، ولا جدوى منهم، لا يختلفون كثيرًا عن السكان الأصليين في العالم الجديد. وكانت مواقف روبرت أورم (Robert Orme) -وكان أول مؤرخ رسمي لشركة الهند الشرقية- نموذجية في القرن الثامن عشر الميلادي. وكتب أورم مقالًا بعنوان «حول خنوثة سكان الهند On the effeminacy of the inhabitants of Indostan»، وكشف مقاله عن الكيفية التي تطرف بها الفكر الأوروبي المعاصر فيما تعلق بالنظرة إلى آسيا. وهكذا نما شعور متفائل لدى الأوروبيين بالأحقية على حساب الأهالي(٣). وعلى هذا النحو تغيرت المواقف تجاه آسيا من الإثارة الناتجة عن الأرباح الجزيلة، إلى أفكار الاستغلال الغاشم.

وسُجِّل هذا الموقف على نحو مثالي في مصطلح «نابوب *Nabob*»، وهو المصطلح الذي كان يطلق على مسؤولي شركة الهند الشرقية الذين عملوا جيدًا لحساب أنفسهم في آسيا. لقد تصرفوا مثل الأوغاد، وأسماك القرش في القروض، حيث أقرضوا الأموال محليًا بمعدلات فائدة باهظة، مستغلين موارد الشركة لخدمة مصالحهم الخاصة، وجنوا الأرباح الفاحشة من المعاملات لأنفسهم. كان هذا الشرق البري *Wild East* بمثابة المقدمة لمشاهد مماثلة مورست في غربي أمريكا الشمالية بعد قرن من

---

(1) S. Levi, 'India, Russia and the Eighteenth-Century Transformation of the Central Asian Caravan Trade', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 42.4 (1999), 519–48.

(٢) انظر:

I. McCabe, *Shah's Silk for Europe's Silver: The Eurasian Trade of the Julfa Armenians in Safavid Iran and India, 1530–1750* (Atlanta, 1999).

وانظر أيضًا:

B. Bhattacharya, 'Armenian European Relationship in India, 1500–1800: No Armenian Foundation for European Empire?', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 48.2 (2005), 277–322.

(3) S. Delgoda, '"Nabob, Historian and Orientalist": Robert Orme: The Life and Career of an East India Company Servant (1728–1801)', *Journal of the Royal Asiatic Society* 2.3 (1992), 363–4.

الزمان تلا. وسجل وليم هيكي (William Hickey) -في مذكراته- أمر أبيه له: اذهب إلى الهند، «واقطع رؤوس نصف دزينة من الأقران الأثرياء [أي انهب أموالهم]... وعُد إلينا نابوب (Nabob)». لقد كانت خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية *EIC* في الهند بمثابة تذكرة ذهاب إلى الثروة فحسب[١].

بيد أن الطريق إلى الثروة لم يكن خاليًا من المشقة أو المخاطر؛ ذاك أن الظروف في شبه القارة الهندية لم تكن سهلة؛ حيث كان يمكن للمرض أن يضع حدًّا سريعًا لطموحات مثل هذه. وبقدر ما تسمح لنا الأدلة بالتحقق، فإن أعداد الذين عادوا إلى أوطانهم، أو اعتبروا غير لائقين للخدمة كانت ترتفع باطراد، وذلك على الرغم من انخفاض مستويات الوفيات بفضل التحسينات التي أُدخِلت على نظام الصرف الصحي، والنظافة العامة، وكذلك الطب والرعاية الصحية[٢]. وكان يمكن أن تكون التجارب في الشرق مؤلمة، كما خبِر البحار التاجر توماس باوري (Thomas Bowrey) ورفاقه عندما دفعوا ستة بنسات مقابل نصف لتر من «البانغا Bangha»، وهي جرعة من القنَّب (الحشيش)، في الهند في أواخر القرن السابع عشر الميلادي؛ فعلى حد وصفه: «جلس أحدهم على الأرض، وأخذ يبكي بكاءً مرًّا طيلة الظهيرة»؛ بينما وضع آخر «رأسه في جرة كبيرة مذعورًا من الخوف، واستمر على هذا الوضع لمدة أربع ساعات أو أكثر»؛ واستلقى أربعة أو خمسة على السجاد يتملق بعضهم بعضًا بعبارات المديح بأصوات عالية»، بينما «تشاجر أحدهم مع أحد الأعمدة الخشبية في الشرفة، وما زال يضربه بقبضة يده حتى بان جلده الرقيق عن مفاصل أصابعه»[٣]. لقد استغرق الأمر وقتًا من الأوروبيين للتأقلم مع أجزاء أخرى من العالم.

وعلى صعيد آخر، كانت المكافآت مذهلة، حتى أنها أصبحت موضوعًا مطروقًا من جانب كتَّاب المسرح، والصحفيين، والسياسيين للسخرية من محدثي النعمة والأثرياء الجدد. وعلت صيحات الاستهجان حول الطفرة التي حدثت في توظيف المُعلمين لتعليم محدثي النعمة السلوكيات المهذبة، مثل: المبارزة، والرقص. وكذلك التوتر عند اختيار الخياط المناسب، ومعرفة الموضوعات اللائقة للحديث عنها في أثناء تناول العشاء[٤].

وانتشر النفاق والتملق في كل مكان. وقال وليم بيت الأكبر (William Pitt the Elder) لأقرانه في البرلمان في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، كفى بالأمر شناعةً أن «مستوردي الذهب الأجنبي

---

(١) نقلاً عن:

T. Nechtman, 'A Jewel in the Crown? Indian Wealth in Domestic Britain in the Late Eighteenth Century', *Eighteenth-Century Studies* 41.1 (2007), 73.

(2) A. Bewell, *Romanticism and Colonial Disease* (Baltimore, 1999), p. 13.

(3) T. Bowrey, *Geographical Account of Countries around the Bay of Bengal 1669 to 1679*, ed. R Temple (London 1905), pp. 80–1.

(4) C. Smylitopoulos, 'Rewritten and Reused: Imagining the Nabob through "Upstart Iconography"', *Eighteenth-Century Life* 32.2 (2008), 39–59.

شقوا طريقهم إلى البرلمان بسبب سيل من الفساد؛ حيث لم يعد يسع الثروة الخاصة التي تؤول إلى المرء بالوراثة أن تقاوم ذلك السيل»[1]. ومع ذلك فلسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن جده كات قد جلب أحد أعظم الأحجار الكريمة في العالم، أعني ماسة بيت (Pitt diamond)، إبان وجوده في الهند، واستخدم الثروة التي جمعها خلال فترة حكمه لمدراس لشراء عقار ريفي، والمقاعد النيابية المصاحبة لها؛ فلابد أن نفسه حدَّثته بهذا في أثناء حديثه عن محدثي النعمة[2]. بيد أن غيره كانوا أكثر صراحة أيضًا؛ فقال إدموند بيرك (Edmund Burke) غاضبًا -في أثناء تحقيق جرى في مجلس العموم بُعيد ذلك بوقت قصير-: لقد بات الأمر مروعًا، إن «النابوبية Nabobs» يدمرون المجتمع؛ إذ ينفقون أموالهم بلا حساب لنيل العضوية في البرلمان، أو للزواج من بنات النبلاء[3]. ولكن منذ متى كان للغضب من مثل هذه الأمور تأثير يُذكر؟ ففي الأخير، مَن ذا الذي لا يريد شابًا طموحًا وغنيًا صهرًا له، ومن ذا الذي يرفض الزواج من زوجة غنية؛ لأن أباها محدَث نعمة؟!

على أية حال فقد كان مفتاح إطلاق هذه الثروات العظيمة يكمن في انتقال شركة الهند الشرقية من شركة تجارية تنقل البضائع من قارة إلى أخرى إلى قوة احتلال بكل ما تحمله الكلمة من معان. وجرى التحول إلى تجارة المخدرات والابتزاز على نحو سلس؛ فكان الأفيون ينمو بكميات متزايدة في مزارع الهند، ومن ثم تمول الشركة -بحصيلة بيعه- مشترياتها من الحرير والبورسلين، والشاي في المقام الأول من الصين. وارتفعت واردات الشركة من الشاي خاصةً؛ فتشير الأرقام الرسمية إلى ارتفاع من ١٤٢ ألف رطل من الشاي ابتيعت في عام ١٧١١م، إلى ١٥ مليون رطل بعد ثمانين عامًا لاحقًا، وهي أرقام أخفت في طياتها مزيدًا من الشحنات التي كانت تُهرَّب تجنبًا لدفع الضرائب عليها. كيفما كان الأمر فقد كان الناس يدمنون في الغرب على السلع الآسيوية الفاخرة التي انتشرت في متاجرهم على نحو فعال، ويقابل ذلك إدمان الصينيين على الأفيون في الوقت نفسه، فكان ذلك أشبه بصورة معكوسة في مرآة[4].

لم يكن كسب المال بطرق أخرى مشبوهة أقل ربحًا من التجارة. فعلى الرغم من توفير الشركة الحماية للحكام المحليين في الهند في القرن الثامن عشر على نطاق واسع، ومنتظم، فإن اللحظة الحاسمة جاءت في عام ١٧٥٧م عندما أُرسِلت حملة بقيادة روبرت كليف (Robert Clive) إلى كلكتا للتدخل في أعقاب هجوم على المدينة شنه نوَّاب البنغالي. وسرعان ما عرض بعض المتنافسين على العرش على كليف مبالغ طائلة لتقديم الدعم لهم. وفي غفلة من الزمن ألفى الرجل نفسه مسيطرًا على «الديواني»؛ أي جباية الضرائب في المنطقة- وعلى هذا النحو استطاع إثراء نفسه من خلال جباية

---

(1) P. Lawson, *The East India Company: A History* (London 1993), p. 120.

(2) Nechtman, 'Indian Wealth in Domestic Britain', 76.

(3) E. Burke, *The Writings and Speeches of Edmund Burke*, ed. W. Todd, 9 vols (Oxford, 2000), 5, p. 403.

(4) D. Forrest, *Tea for the British: The Social and Economic History of a Famous Trade* (London, 1973), Tea Consumption in Britain, Appendix II, Table 1, p. 284.

الضرائب من إحدى أكثر بقاع آسيا ازدحامًا بالسكان، والنشاط الاقتصادي، وموطن صناعة النسيج التي كانت مسؤولة عن أكثر من نصف واردات بريطانيا من الشرق. وهكذا أصبح كليف -بين عشية وضحاها- واحدًا من أغنى الرجال في العالم تقريبًا[١].

وكشفت لجنة الاختيار (Select Committee) التابعة لمجلس العموم والتي أنشأت عام ١٧٧٣ للنظر في تداعيات غزو البنغال عن المبالغ الهائلة المنهوبة من بيت المال البنغالي؛ حيث جرى توزيع أكثر من مليوني جنيه إسترليني -ما يعادل عشرات المليارات وفقًا لشروط اليوم- بصفة «هدايا»، وكلها تقريبًا وجدت طريقها إلى جيوب موظفي شركة الهند الشرقية البريطانية (EIC) محليًا[٢]. وتفاقم الغضب بسبب المشاهد المخزية والصادمة في البنغال نفسها. وبحلول عام ١٧٧٠م، ارتفعت أسعار الغلال أضعافًا، الأمر الذي أدى إلى نتائج كارثية مع بدء المجاعة. وقُدِّرت أعداد الموتى بسبب الجوع بالملايين؛ حتى إن الحاكم العام أعلن أن ثلث السكان قضوا نحبهم في تلك المجاعة. وفي تلك الأثناء لم يكن الأوروبيون يفكرون إلا في إثراء أنفسهم فحسب، بينما أخذ الأهالي يتضورون جوعًا حتى الموت[٣].

لقد كان يسع الشركة تجنب حدوث المجاعة بالكلية؛ ومع ذلك جرت التضحية بمعاناة الكثيرين لتَحقيق مكاسب شخصية. وفي مواجهة صيحات الاستهجان، أجاب كليف ببساطة -مثَله في ذلك مثَل رئيس تنفيذي لبنك متعثر- أن أولوياته هي حماية مصالح المساهمين، وليس مصالح الأهالي. وعلى هذا النحو لم يكن يستحق النقد بالتأكيد، بسبب قيامه بعمله الذي كان عليه أن يؤديه[٤]. بيد أن الأمور أخذت تزداد سوءًا. لقد دمر فقدان القوى العاملة في البنغال الإنتاج المحلي. ومع انهيار الإيرادات، ارتفعت التكاليف فجأة على نحو حاد، الأمر الذي تسبب في حدوث حالة من الذعر العام، لقد باضت الإوزة الذهبية بيضتها الأخيرة. وأدى ذلك إلى انهيار أسهم شركة الهند الشرقية البريطانية (EIC) حتى أمست الشركة على شفا الإفلاس[٥]. وسرعان ما اتضح أن ممارسات الشركة وثقافتها قد جعلت النظام المالي العابر للقارات يجثو على ركبتيه، بغض النظر عن كون مديريها إداريين بارعين، أو مبدعين في تكوين الثروات لأنفسهم.

* * *

(١) عن البنغال، انظر:

R. Datta, *Society, Economy and the Market: Commercialization in Rural Bengal, c. 1760–1800* (New Delhi, 2000); R. Harvey, *Clive: The Life and Death of a British Emperor* (London, 1998).

(2) P. Marshall, *East India Fortunes: The British in Bengal in the Eighteenth Century* (Oxford, 1976), p. 179.

(3) J. McLane, *Land and Local Kingship in Eighteenth-Century Bengal* (Cambridge, 1993), pp. 194–207.

(٤) انظر:

N. Dirks, *Scandal of Empire: India and the Creation of Imperial Britain* (Cambridge, MA, 2006), pp. 15–17.

(5) P. Lawson, *The East India Company: A History* (New York, 1993).

خلصت الحكومة البريطانية -بعد مشاورات يائسة- جرت في لندن إلى أن شركة الهند الشرقية البريطانية (EIC) أكبر من أن تفشل، ووافقت على التدخل لإنقاذها. ومع ذلك كان لابد من جمع المال لتمويل هذا الإنقاذ. عندئذ تحولت أنظار البريطانيين إلى المستعمرات في أمريكا الشمالية؛ حيث كانت الضرائب أقل بكثير مما كانت عليه في بريطانيا نفسها. وعلى هذا النحو أقرت حكومة لورد نورث (Lord North) القانون الذي عُرف بقانون الشاي *Tea Act* في عام ١٧٧٣م، وكانت تعتقد أنها وجدت حلًّا أنيقًا لدفع تكاليف إنقاذ شركة الهند الشرقية (EIC)، وفي الوقت نفسه جعلت جزءًا واحدًا -على الأقل- من النظام الضريبي للمستعمرات الأمريكية أقرب إلى النظام المعمول به في بريطانيا نفسها. بيد إن تلك الإجراءات أثارت غضب المستوطنين عبر المحيط الأطلسي.

وهكذا وُزِّعت المنشورات المحتجة على نطاق واسع في ولاية بنسلفانيا (Pennsylvania) التي وصفت شركة الهند الشرقية بأنها مؤسسة «ضليعة في الاستبداد، والنهب، والاضطهاد، وسفك الدماء». لقد كانت رمزًا لكل ما هو فاسد في بريطانيا نفسها؛ حيث خضعت نخبة المجتمع لطائفة من أصحاب المصالح الجشعين، الذين لا هم لهم إلا خدمة مصالحهم الذاتية، والذين لا يكترثون إلا لإثراء أنفسهم على حساب عامة الناس[1]. وأُعيدت السفن التي تحمل الشاي من حيث أتت؛ حيث أبت جبهة متكتلة قوامها من المستعمرين الخضوع أمام مطالب حكومة لم تسمح لهم بتمثيل أنفسهم في العملية السياسية. وعندما وصلت ثلاث سفن إلى ميناء بوسطن (Boston)، جرت مواجهة متوترة بين الأهالي والسلطات البريطانية. وفي ليلة ١٦ ديسمبر (كانون الأول) استقلت مجموعة صغيرة من الرجال يرتدون زي «الهنود» القوارب، وألقوا بالشاي في مياه الميناء؛ لقد كانوا يفضلون أن يذهب الشاي جفاء إلى قاع البحر، على أن يُجبروا على دفع الضرائب للندن[2].

ومن منظور أمريكي، كان لسلسلة الحوادث التي أدت إلى إعلان استقلال الولايات المتحدة (Declaration of Independence) سياق أمريكي محلي تمامًا. ولكن من منظور أوسع، يمكن إرجاع تلك الأسباب إلى مجسات القوة البريطانية التي امتدت أكثر من أي وقت مضى بحثًا عن فرص جديدة، وإلى فعالية طريق الحرير الذي تسبب في اختلال التوازن من خلال ضخ المال والسلع بوتيرة متسارعة للغاية. في تلك الأثناء حاولت لندن الموازنة بين المطالب المتنافسة على طرفي العالم، كما حاولت استخدام الإيرادات المتولدة من الضرائب في مكان ما لتمويل الإنفاق في مكان آخر، الأمر الذي أدى إلى مشاعر من خيبة الأمل، والسخط، والثورة. وكان السعي وراء الربح سعيًا لا هوادة فيه، الأمر الذي

---

(1) J. Fichter. *So Great a Proffit: How the East Indies Trade Transformed Anglo-American Capitalism* (Cambridge, MA, 2010), pp. 7-30.

(٢) شكا أهل بوسطن -لعدة أشهر في أعقاب تلك الحادثة من «تغيير طعم أسماكهم» في رسائل بعثوا بها، الأمر الذي أثار مخاوف من أن الشاي «ربما يكون قد لوث المياه في الميناء؛ حتى إن الأسماك أصيبت باضطراب، لا يختلف عن الشكايات العصبية لجسم الإنسان»، انظر:

Virginia Gazette, 5 May 1774.

أدى بدوره إلى زيادة الشعور بالثقة بالنفس والغطرسة. وكانت شركة الهند الشرقية -كما أخبر كليف المحققين عشية انهيارها- قوة إمبريالية في كل شيء ما عدا الاسم. وكانت تحكم البلدان «الغنية، والمكتظة بالسكان، والمثمرة»، وكانت «تسيطر على ... ٢٠ مليونًا من الرعية»[١]. وكما اعترف أولئك الذين عاشوا في المستعمرات الأمريكية، لم يكن هناك فرق كبير بين أن تكون خاضعًا في منطقة أو أخرى تسيطر عليها بريطانيا. فإذا كان البنغاليون يتضورون جوعًا حتى الموت، فلماذا يحيا أولئك المستعمرون الذين يقيمون في المستعمرات، والذين لم تبد حقوقهم أفضل أو أعظم على بريطانيا؟ لقد حان الوقت للاستقلال.

وأثارت حرب الاستقلال الأمريكية الكثير من الأسئلة المتعلقة بالبحث عن الذات في بريطانيا؛ وحول كيفية تعاملها مع المناطق التي أقامت فيها مراكز تجارية، لم تكن مربحة من الناحية التجارية فحسب، بل كان لها نفوذ سياسي حقيقي أيضًا. وهكذا كان غزو البنغال بمثابة لحظة فارقة فيما يتعلق بتغيير وضع بريطانيا من كونها دولة تدعم مستعمرات مهاجريها، إلى قوة إمبريالية تحكم شعوبًا أخرى. وكان ذلك أشبه بمنعطف تعليميّ لإدراك ما يعنيه ذلك التغيير، وكيفية موازنة رغبات مركز الإمبراطورية مع احتياجات أطرافها. وهكذا ألفَت بريطانيا نفسها تدير شعوبًا لديها قوانين وأعراف خاصة بها، وعليها أن تحدد ما تقترضه من تلك المجتمعات الجديدة، وما تُقرضه لها، وكيف تبني منظومة قابلة للتطبيق ومستدامة. ها قد وُلِدت إمبراطورية.

وشكل نشأة الإمبراطورية البريطانية نهاية فصل، وبداية آخر؛ فقد أدى انتقالُ معظم الهند إلى أيدي البريطانيين إلى حرمان طرق التجارة البرية من الأكسجين، حيث جرى تحويل القوة الشرائية، والإنفاق والأصول، والاهتمام على نحو حاسم إلى أوروبا. كما لعب التراجع في أهمية سلاح الفُرسان بسبب المزيد من التحسينات في التقنية والتكتيكات العسكرية، لا سيما فيما يتعلق بالقوة النارية والمدفعية الثقيلة، دورًا في خفض تجارة [الخيول] التي كانت تمر على طول الطرق التي عبرت آسيا على نحو متقاطع لآلاف السنين. لقد بدأت آسيا الوسطى -مثلها في ذلك مثل جنوب أوروبا من قبلها- في الاضمحلال.

وكانت خسارة ثلاثة عشر مستعمرة في أمريكا الشمالية بمثابة نكسة مذلة لبريطانيا، وأكدت تلك النكسة على أهمية الحفاظ على أمن الممتلكات البريطانية. وبهذا المعنى، كان تعيين اللورد كورنواليس (Lord Cornwallis) حاكمًا عامًا للهند أمرًا لافتًا للنظر؛ فقد كان كورنواليس هو الذي تسبب في الكارثة التي حاقت ببريطانيا عبر المحيط الأطلسي، وهو الذي استسلم في يوركتاون (Yorktown) لجورج واشنطن (George Washington). وربما كان المغزى من ذلك التعيين هو أن الدروس المؤلمة قد استُوعبت، وأولئك الذين لُقّنوها هم أفضل من يسعهم التأكد من أن ما حدث من قبل لن يحدث مجددًا في مكان آخر. وربما تكون بريطانيا قد خسرت الولايات المتحدة، إلا أنها لن تخسر الهند، مهما كان الثمن.

---

(١) نقلاً عن:

Dirks, *Scandal*, p. 17.

-١٥-

الطريق إلى الأزمة

تسبَّبت الكارثة التي حاقت ببريطانيا في أمريكا في صدمة كبيرة لها؛ لقد كانت نكسة أشارت إلى أن الإمبراطورية ربما أمسَت واهنة. وكان البريطانيون قد تمكنوا من مناطق سيطروا عليها سيطرة مباشرة، وكذلك من مناطق أخرى سيطروا عليها على نحو غير مباشر، من خلال شركة الهند الشرقية. وجلب ذلك الرخاء، والنفوذ، والقوة لبريطانيا. لقد دافعت بريطانيا عن نقاط انطلاقها -أعني تلك الواحات التي ارتبطت ببعضها بعضًا في الطريق وصولًا إلى لندن- بشراسة، كما كانت شديدة اليقظة بإزاء أية محاولات لإزاحة قبضتها على قنوات الاتصال التي أقامتها، من بحر جاوة إلى البحر الكاريبي، ومن كندا إلى المحيط الهندي، فضلًا عن محاولات إضعافها.

وعلى الرغم من أنه يُنظَر عادةً إلى القرن التاسع عشر على أنه ذروة مجد الإمبراطورية، والحقبة التي استمرت فيها بريطانيا في تعزيز مواقعها في مستعمراتها؛ فإن ثم دلائل تشير إلى أن قبضة إنجلترا على مستعمراتها أخذت ترتخي، الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ إجراءات يائسة كانت بمثابة أضعف الإيمان. وغالبًا ما كان لهذه الإجراءات عواقب استراتيجية، وعسكرية، ودبلوماسية كارثية؛ حيث أدت محاولاتها الاحتفاظ بالأراضي المبعثرة في جميع أنحاء العالم والتمسك بها إلى ممارسة لعبة حافة الهاوية الخطيرة مع خصوم محليين وعالميين، في ظل مخاطر عالية أخذت تزداد شيئًا فشيئًا. وبحلول عام ١٩١٤، ارتفعت هذه المخاطر حتى إن مصير الإمبراطورية نفسها بات معلقًا بنتيجة الحرب في أوروبا. ولم تكن سلسلة من الحوادث المؤسفة، وسوء الفهم المزمن في أروقة السلطة في لندن، وبرلين، وڤينا، وباريس، وسان بطرسبرج، هي التي جعلت الإمبراطوريات ترتنح، بل كانت التوترات حول السيطرة على آسيا التي احتدمت منذ عقود. ولم يكمن شبح ألمانيا وراء الحرب العالمية الأولى؛ بل كان شبح روسيا- والظل الذي ألقته على الشرق في المقام الأول؛ إذ لعبت محاولات بريطانيا اليائسة لمنع هذا الظل من التنامي دورًا مهمًّا في اندلاع الحرب.

وأخذ التهديد الذي شكلته روسيا على بريطانيا ينمو نمو السرطان في القرن الذي سبق اغتيال فرانز فرديناند (Franz Ferdinand)؛ حيث حولت روسيا نفسها من مملكة متهالكة قديمة تقوم على الاقتصاد الزراعي إلى إمبراطورية طموحة، أخذت تشهد إصلاحات جذرية. ودق هذا النمو أجراس الإنذار في لندن على نحو منتظم، ومتزايد؛ حتى أضحى من الواضح أن النمو الروسي والتوسع لم يكن ليجعل مصالح روسيا تنافس مصالح بريطانيا فحسب، بل كان يهدد بخنق مصالح بريطانيا تحت وطأة ضغط مصالح روسيا.

وظهرت أولى أمارات القلاقل وحالة عدم الاستقرار في مستهل القرن التاسع عشر؛ فلعقود عديدة، ظلت روسيا تخرج عن حدودها لتضم مناطق جديدة، ومجموعات سكانية جديدة كانت تعيش على السهوب في آسيا الوسطى، وكانت تلك السهوب تتكون من فسيفساء من القبائل التي كانت تعيش جنوب تلك السهوب وشرقها، مثل: القرغيز، والكازاخستان، والأويرات. وفي بادئ الأمر، فعلت روسيا ذلك بنعومة وتعقل. وعلى الرغم من أن [كارل] ماركس (Marx) وجه انتقادًا شديدًا للعملية الإمبريالية الرامية لخلق «روس جدد»، فإن الروس واصلوا التوسع بحرص، وحساسية كبيرة[1]. ولم تكافئ روسيا القادة المحليين بسخاء -في كثير من الحالات- فحسب، بل أقرتهم على أوضاعهم التي كانوا عليها قبل الضم، وسمحت لهم سان بطرسبرج بالبقاء في السلطة، كما أقرتهم على أراضيهم، واعترفت بهذه الأوضاع رسميًا. كما عملت الامتيازات، مثل: الإعفاءات الضريبية الشاملة، ومنح الأراضي، والإعفاءات من الخدمة العسكرية، على تسهيل أعمال السيادة الروسية المتسامحة[2].

وأدى التوسع الإقليمي إلى زيادة وتيرة النمو الاقتصادي الذي أخذ يتسارع في القرن التاسع عشر الميلادي؛ وذلك لسبب واحد، فقد جرى تخفيض النفقات الباهظة التي كانت تُنفَق في الماضي على الدفاع ضد الغارات والهجمات القادمة من السهوب، الأمر الذي أدى إلى تحرير تلك الأموال فاستُثمرت في أماكن أخرى، وبطرق أخرى[3]. كما جنت سان بطرسبرج المكافآت السَّنية بسبب وصولها إلى الأرض الخصبة الرائعة في حزام السهوب الممتدة من قمة البحر الأسود إلى الشرق.

وكان الروس مضطرين -في الماضي- إلى زراعة أراضٍ أقل خصوبة، الأمر الذي أدى إلى أن انخفاض إنتاج روسيا من الغلال والحبوب؛ حتى إنه كان من بين أدنى المعدلات في أوروبا قاطبة، ومن ثم ظل الروس عُرضة لخطر المجاعات. ولحظ أحد الرحالة البريطانيين في أوائل القرن الثامن عشر أن عشيرة كالميك (Kalmyk) -وهي عشيرة انحدرت من قبائل الأويرات، واستوطنت نهر الفولغا السفلي والأطراف الشمالية لبحر قزوين- كان يسعها حشد ١٠٠ ألف رجل مدججين بالسلاح، وكلهم

(1) K. Marx, *Secret Diplomatic History of the Eighteenth Century*, ed. L. Hutchinson (London, 1969).

(2) A. Kappeler, 'Czarist Policy toward the Muslims of the Russian Empire', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner (eds), *Muslim Communities Reemerge: Historical Perspectives on Nationality, Politics, and Opposition in the Former Soviet Union and Yugoslavia* (Durham, NC, 1994), pp. 141–56;

وانظر أيضًا:

D. Brower and E. Lazzerini, *Russia's Orient: Imperial Borderlands and Peoples, 1700–1917* (Bloomington, IN, 1997).

(٣) إن أفضل الدراسات الاستقصائية العامة عن التوسع الروسي هي على النحو التالي:

M. Khodarkovsky, *Russia's Steppe Frontier: The Making of a Colonial Empire, 1500–1800* (Bloomington, IN, 2002); J. Kusber, '"Entdecker" und "Entdeckte": Zum Selbstverständnis von Zar und Elite im frühneuzeitlichen Moskauer Reich zwischen Europa und Asien', *Zeitschrift für Historische Forschung* 34 (2005), 97–115.

قـادر علـى العمل. ولكن فـي ظل الخوف من التعرض للهجوم، لم تتطور الزراعة عندهم تطورًا كاملًا. واسـتطرد ذلـك الرحالـة البريطانـي قائلًا: «إن بضـع مئات من الأفدنـة» من الأراضـي الخصبة في هذه المنطقـة، «سـتكون ذات قيمـة كبيـرة فـي إنجلتـرا، ومـع ذلـك «فهـي هنـا أراض بـور، ومهملـة، وغير مزروعة»[1]. وعانت التجارة، كما عانت المدن التي ظلت متواضعة في الحجم وعدد السـكان. وعلى هذا النحو كان جزءًا صغيرًا للغاية من السكان الروس حضريًا قبل حلول القرن التاسع عشر[2].

ولما أخذ هذا الوضع يتغير، بدأت طموحات روسـيا وآفاقها في التوسـع؛ ففي أوائل القرن التاسـع عشـر، هاجمـت القـوات الإمبراطوريـة الدولـة العثمانيـة، وحصلـت على مكاسـب مهمـة. ومن ذلك السيطرة على بيسارابيا (Bessarabia)، والمنطقة التي يحدها نهري دنيستر (Dniester)، وبروت (Prut)، إضافة إلى مناطق كبيرة تطل على بحر قزوين. وسرعان ما شنت تلك القوات هجومًا آخر على جنوب القوقاز تسبب في سلسلة من الهزائم المذلة لبلاد فارس.

وعلى هذا النحو أخذ ميزان القوى في القوقاز يميل إلى روسـيا ميلًا حاسـمًا. لقد كان قوام القوقاز مناطق، وولايات، وخانات كان بعضها مستقلًا، وبعضها الآخر عميلًا لإيران لعدة قرون. ومثَّلت إعادة رسـم هذه الخريطة تحولًا كبيرًا طرأ على المنطقة، وأمارة -لا لبس فيها- على طموح روسـيا المتزايد على طول حدودها الجنوبية. ولم يستغرق البريطانيون وقتًا طويلًا لإدراك خطورة ذلك، ولا سيما بعد أن وردت الأنباء تترى عن نية فرنسـا إرسـال حملة عسكرية إلى بلاد فارس لزعزعة هيمنة بريطانيا على الشـرق وتقويضها. لقد أسـفرت الثورة في فرنسـا عام ١٧٨٩م عن نتائج مماثلة لنتائج الموت الأسـود (الطاعون)، مع معاناة واسعة النطاق، أفسحت المجال لعصر جديد من التوسع والظهور.

* * *

لـم يكـن نابليون -في أواخر القرن الثامن عشـر- يخطط لغزو مصر فحسـب، بل كان يخطط لطرد البريطانيين من الهند. وقيل: إنه كتب إلى تيبو (Tipu) سـلطان مايسـور (Mysore) القوي رسـالة يخبره فيهـا عـن القـوات الفرنسـية الكبيـرة التـي لا تُقهـر، وكيـف أنهـا «سـتحررك قريبًـا مـن أغـلال إنجلترا الحديدية»[3]. لقد كان إغراء الهند يلوح في مخيلة المفكرين الاستراتيجيين الفرنسـيين في ذلك الوقت

(1) J. Bell, *Travels from St Petersburg in Russia to Various Parts of Asia* (Glasgow, 1764), p. 29; M. Khodarkovsky, *Where Two Worlds Met: The Russian State and the Kalmyk Nomads 1600–1771* (London, 1992).

(2) A. Kahan, 'Natural Calamities and their Effect upon the Food Supply in Russia', *Jahrbücher für Geschichte Osteuropas* 16 (1968), 353–77; J. Hittle, *The Service City: State and Townsmen in Russia, 1600–1800* (Cambridge, MA, 1979), pp. 3–16; P. Brown, 'How Muscovy Governed: Seventeenth-Century Russian Central Administration', *Russian History* 36 (2009), 467–8.

(3) L. de Bourrienne, *Memoirs of Napoleon Bonaparte*, ed. R. Phipps, 4 vols (New York, 1892), 1, p. 179.

بـكل تأكيـد[1]. واسـتمر الأمر جاريًا على هذا المنوال، كما يتضح من رسـالة بعث بهـا نابليون في معية الجنرال كومت دي جاردان (Comte de Gardane) -وكان أحد قواده الثقات- إلى بلاد فارس في عام ١٨٠٧م. ولـم يُفـوّض نابليـون دي جـاردان بالدخول في تحالف مع الشـاه فحسـب، بل أناط به رسـم خرائط مفصَّلة تمهيدًا لحملة فرنسية كبرى على شبه القارة الهندية أيضًا[2].

واسـتجاب البريطانيون على الفور للتحدي الذي شـكلته فرنسا؛ فأرسـلوا مسؤولًا كبيرًا، هو السير جور أوسيلي (Sir Gore Ouseley)، للتصدي للمبادرات الفرنسية المقدمة للشاه. ورأس السير أوسيلي وفـدًا، كان مـن شـأنه أن «يثيـر إعجـاب أهل البلاد بصفـة عامة، ويجعلهـم يفضلون اسـتمرار التحالف معنا»[3]. والحق أن البريطانيين بذلوا جهدًا كبيرًا -آنذاك- لإثارة إعجاب الشاه وحاشيته. ومع ذلك لم يستطع جُلُّهم إخفاء ازدرائهم للعادات المحلية، على الرغم من أنهم عبَّروا عن ذلك فيما بينهم، وخلف الأبـواب المغلقـة بطبيعـة الحال. وزاد ذلك الشـعور لديهـم عندما لحظوا إلحاح الفُرس على سـؤالهم الهدايا القيمة. وشـعر أوسـيلي بالانزعاج عندما علم أن الخاتم الذي قدمه هدية للحاكم الفارسـي، إلى جانب رسـالة من الملك جورج الثالث (George III)، لم يحظ في عين الشـاه، بل اسـتخف به بوصفه مجـرد هديـة متواضعة للغاية. وكتب أوسـيلي سـاخطًا: «إن لؤم هؤلاء الناس وشـرههم للمال، مثيران للاشمئزاز حقًا»[4]. وكان ذلك موقف شاركه فيه ضابط بريطاني آخر كان يزور طهران في الوقت نفسه تقريبًا؛ فكتب قائلًا: إن الفُرس مهووسـون بمراسـم تقديم الهدايا والهبات؛ حتى إنه يمكن كتابة رسـالة طويلة حول «قواعد الجلوس والوقوف»[5].

وجـرت الأمـور علـى نحـو مختلف إلى حد ما فـي الأماكن العامـة. فقد تأكد أوسـيلي -الذي كان يتحدث الفارسية بطلاقة- عند وصوله من أنه استُقبل بعيدًا عن العاصمة، وعلى مسـافة أبعد من المكان الذي استُقبل فيه السفير الفرنسي، مدركًا أن هذا الشرف الذي أُسبِـغ عليه، سيكون له انعكاساته، سواء علـى شـخصه، أو علـى مهمته. كما حـرص على ترتيب لقاء مع الشـاه في وقت أبكر مـن الوقت الذي تحـدَّد لخصمـه الفرنسـي. وأشـار ممتنًا إلى أن كرسـيه وُضِع بحيث يكـون أقرب إلى عرش الشـاه من المعتاد[6]. وامتدت جهود إظهار النوايا الحسنة إلى إرسال مسـتشارين عسكريين بريطانيين، فكان منهم

(1) J. Cole, *Napoleon's Egypt: Invading the Middle East* (New York, 2007), pp. 213–15

(2) C. de Gardane, *Mission du Général Gardane en Perse* (Paris, 1865).

عن فرنسا وبلاد فارس في هذه الفترة بصفة عامة، ومحاولة استخدامها جسرًا للوصول إلى الهند، انظر:

I. Amini, *Napoléon et la Perse: les relations franco-persanes sous le Premier Empire dans le context des rivalités entre la France et la Russie* (Paris, 1995).

(3) Ouseley to Wellesley, 30 April 1810, FO 60/4.

(4) Ouseley to Wellesley, 30 November 1811, FO 60/6.

(٥) في هذا الصدد، انظر:

A. Barrett, 'A Memoir of Lieutenant-Colonel Joseph d'Arcy, R.A., 1780–1848', *Iran* 43 (2005), 241–7.

(6) Ibid., 248–53.

ضابطان من المدفعية الملكية، وضابطا صفٍّ، وعشرة رجال مدفعية، أُوكِل إليهم الإشراف على تدريب الجنود الفُرس، كما بذلوا المشورة بشأن الدفاع عن الحدود، بل إنهم شنوا هجمات مفاجئة على الموقع الروسي في سلطان آباد؛ وكان استسلام الحامية الروسية في أوائل عام ١٨١٢م بمثابة انقلاب دعائي.

وسرعان ما تغيرت الأحوال عندما هاجم نابليون روسيا في يونيو من العام نفسه. فمع اشتداد الضغط الفرنسي على موسكو، لمس البريطانيون فوائد النأي بأنفسهم عن بلاد فارس، والوقوف إلى جانب الروس الذين وصفوهم بـ«أصدقائنا الحميمين» على حد وصف أوسيلي في تقرير بعث به إلى وزير الخارجية. وأشار أوسيلي في هذا التقرير أيضًا إلى تداعيات الأوسع لهجوم الفرنسيين على روسيا، وخلص إلى أن هذا الميل إلى الروس كان الخيار الأفضل لبريطانيا؛ ذاك أن هناك «سمة شاذة للغاية في الشخصية الفارسية تجعلها غير مدركة لقيمة الخدمات التي تقدَّم لها، كما تجعلها بطرة أيضًا». وعلى هذا النحو كان يسع البريطانيين التضحية بسهولة بصداقات بذلوا في سبيل تكوينها جهودًا حثيثة، وبلا أدنى شعور بالندم؛ ذاك أن الفُرس كانوا «أكثر الناس أنانية في العالم»[1].

وأدى منح بريطانيا الأولوية لعلاقاتها بروسيا إلى شعور بخيبة الأمل في بلاد فارس؛ حيث ألفى الفُرس الحلفاء الذين كانوا أهلًا للثقة في الماضي قد قلبوا لهم ظهر المجن، وبلا مقدمات واضحة. وتحول هذا الشعور إلى اتهامات مريرة بعد هجوم القوات الروسية المفاجئ على القوقاز، بعد أن استأسدوا في أعقاب صدهم لجحافل نابليون في عام ١٨١٢م. وفي ضوء حقيقة أن أوسيلي -الذي بذل في الماضي جهودًا حثيثة لكسب ود الشاه- قد صاغ بنفسه معاهدة جولستان (Gulistan) المذلة في ١٨١٣م في أعقاب الحرب الروسية الفارسية، التي منحت معظم الجناح الغربي لبحر قزوين -بما في ذلك داغستان، ومينجريليا، وأبخازيا، ودربند، وباكو لروسيا- لم يجد الفُرس وصفًا مناسبًا لموقف البريطانيين أقل من الخيانة، أو الطعنة في الظهر.

وعلى هذا النحو أثارت شروط المعاهدة لصالح روسيا امتعاض الفُرس بشدة، ففسروها على أنها علامة على الخسَّة، وتغليب المصلحة الذاتية. وكتب السفير الفارسي في لندن للورد كاسلريغ (Lord Castlereagh) -وكان وزير الخارجية آنذاك- قائلًا: «أشعر بخيبة أمل شديدة فيما يتعلق بسلوك بريطانيا. لقد اعتمدت على صداقة إنجلترا العظمى»، وعلى «الوعود المؤكدة» التي بذلتها فيما يتعلق بدعمها لبلاد فارس. واستطرد ذلك السفير قائلًا: «إنني أشعر بخيبة الأمل، بكل ما تعنيه هذه العبارة من معان»، ومن الطريقة التي سارت بها الأمور، محذرًا من أنه «إذا ظلت الأمور على ما هي عليه الآن، فلن يكون ذلك في صالح شرف إنجلترا على الإطلاق»[2]. وعلى هذا النحو غدت روسيا حليفًا مفيدًا، جراء هجوم نابليون. بيد أن التضحية بعلاقتها ببلاد فارس كان الثمن الذي ينبغي على إنجلترا دفعه.

---

(1) Ouseley to Castlereagh, 16 January 1813, FO 60/8.

(2) Abul Hassan to Castlereagh, 6 June 1816, FO 60/11.

لـم تقتصـر أهمية روسـيا -التـي أخذت تتزايد على الصعيـد الدولي- على أوروبا، أو على الشـرق الأدنى فحسـب؛ ذاك أن براثنها كان يسـعها أن تصل إلى أبعد من ذلك. فعلى النقيض من الطريقة التي ننظر بها إلى العالم الآن، لم تكن الحدود الشـرقية لروسـيا -في النصف الأول من القرن التاسع عشر- في آسـيا على الإطـلاق، بل كانت في مـكان آخر تمامًا، لقد كانـت تلك الحدود في أمريكا الشـمالية؛ حيـث أنشـأت روسـيا مسـتعمرات لأول مـرة عبـر بحـر بيرنـج (Bering) فيما يُعـرف الآن بـ ألاسـكا. وتأسسـت مجتمعـات -بُعيد ذلك- على السـاحل الغربي لكندا وما وراءهـا، وفي أقصى الجنوب مثل فورت روس (Fort Ross) في مقاطعة سـونوما (Sonoma)، بولاية كاليفورنيا، في أوائل القرن التاسـع عشـر. ولم يكن قوام المسـتوطِنة في تلك البقاع تجارًا عابري سـبيل، بل كانوا مسـتوطنين مسـتقرين، استثمروا أموالهم في بناء الموانئ، ومرافق التخزين، بل والمدارس أيضًا. وجرى تعليم الأولاد الصغار المحليين من «أصول كريولية Creole» على ساحل المحيط الهادئ في أمريكا الشمالية باللغة الروسية، ووفقًا لمقتضيات المناهج الروسـية. بل أُرسـل بعضهم للدراسـة في سـان بطرسـبرج، وأحيانًا سـجل الطـلاب مـن تلك البقاع في أكاديمية الطب المرموقة ثمة[1]. ومن عجيب الاتفاق أن وصول المبعوثين الذين بعث بهم القيصر إلى خليج سان فرانسيسكو لمناقشة أمر الإمدادات مع الحاكم الإسباني، تزامن تقريبًا مع القرار الذي توصل إليه السـير جور أوسـيلي، والذي يقضي بأن الروس غدوا حلفاءً لبريطانيا بعد غزو نابليون عام ١٨١٢م[2].

وكمنت المشـكلة في زيادة وتيرة توسـيع روسـيا لحدودها، فكلما زادت سـرعة هذه الوتيرة، كلما زادت ثقـة الـروس بأنفسـهم، وكلمـا زادت هـذه الثقة بـدأت مواقفهم تجـاه السـاكنة وراء حدودها في التطرف؛ فقد بات الروس ينظرون إلى شعوب جنوب ووسط آسيا على أنهم برابرة، بحاجة إلى التنوير، بـل إنهـم عاملوهم بالفعل وفقًا لذلك. وكان لهذه النظرة عواقب وخيمة، وعلى الأخص في الشيشـان، حيث تعرض الأهالي لعنف مروع في العقد الثالث من القرن التاسـع عشـر على يد ألكسـي إرمولوف (Aleksei Ermolov)، وكان جنـرالًا مسـتبدًا ودمويًـا. ولـم يمهـد ذلـك الطريق لظهور زعيـم كاريزمي -أعني الإمام شامل[3]- لقيادة حركة مقاومة فاعلة ضد الروس، بل إن تلك الحوادث سمَّمت العلاقات بين هذه المنطقة وروسيا لأجيال وأجيال[4].

---

(1) A. Postnikov, 'The First Russian Voyage around the World and its Influence on the Exploration and Development of Russian America', *Terrae Incognitae* 37 (2005), 60–1.

(2) S. Fedorovna, *Russkaya Amerika v 'zapiskakh' K. T. Khlebnikova* (Moscow, 1985).

(٣) يعني الإمام شامل الداغستاني (١٧٩٧-١٨٧١). (المترجم)

(4) M. Gammer, 'Russian Strategy in the Conquest of Chechnya and Dagestan, 1825–59', in M. Broxup (ed.), *The North Caucasus Barrier: The Russian Advance towards the Muslim World* (New York, 1992), pp. 47–61;

وعن شامل، انظر:

S. Kaziev, *Imam Shamil* (Moscow, 2001).

وتجلت تلك الصور الذهنية للقوقاز وعالم السهوب -بوصفها أماكن للعنف والخروج على القانون- في قصائد مثل سجين القوقاز *The Prisoner of the Caucasus* وهي من تأليف ألكسندر بوشكين (Alexander Pushkin)، ولولابي (*Lullaby*) لـ ميخائيل ليرمونتوف (Mikhail Lermontov)، والتي صورت الشيشاني على أنه متعطش للدماء، يزحف على طول ضفة النهر، مُسلحًا بخنجر، ويروم قتل طفل[1]. وكانت روسيا محاطة من الغرب بأوروبا «المستنيرة والأكثر تطورًا». وقال أحد السياسيين البارزين المتطرفين للمنصتين إليه في كييف، في الشرق: تواجه روسيا جهلًا عميقًا؛ لذلك فإن من واجبنا «مشاركة رؤيتنا مع جيراننا أشباه البرابرة»[2].

ولم يكن هذا الرأي محل إجماع من الروس؛ فقد انخرط المثقفون الروس -لعقود تالية- في الجدل حول الوجهة التي ينبغي أن تولي الإمبراطورية وجهها شطرها، فهل تتطلع إلى صالونات الغرب وآدابه؛ أم إلى الشرق، ولا سيما سيبيريا وآسيا الوسطى. وكانت هناك مجموعة متعددة من الإجابات؛ فقد كان الفيلسوف بيوتر تشادايف (Pyotr Chaadaev)، يرى أن الروس لا ينتمون إلى عرق من الأعراق العظمى للبشرية، «فلسنا من الغرب، ولا من الشرق»[3]. ورأى غيره، أن الأرض العذراء في الشرق قد أتاحت فرصًا لروسيا لتكون لها الهند خاصتها[4]. وعلى هذا النحو توقفت القوى العظمى في أوروبا عن عد روسيا نموذجًا يُحتذى مثاله، بل نظروا إليها على أنها خصم ينبغي العمل على ردعه وكبح جماحه.

وتحول الملحن ميخائيل جلينكا (Mikhail Glinka) إلى تاريخ الروس المبكر والخزر واستلهم منهما أوبرا **رُسلان ولودميلا** *Ruslan and Ludmila*. بينما تطلع ألكسندر بورودين (Alexander Borodin) إلى الشرق، وكتب القصيدة السيمفونية المسماة: **في سهوب آسيا الوسطى** *In the Steppes of Central Asia*، وهي السيمفونية التي استحضرت القوافل والتجارة الطويلة عبر السهوب. واستوحيت **الرقصات البولوفتسية** *Polovtsian Dances*، من إيقاعات أسلوب الحياة البدوية[5][6].

---

(١) عن ترجمات القصائد، انظر:

M. Pushkin, *Eugene Onegin and Four Tales from Russia's Southern Frontier*, tr. R. Clark (London, 2005), pp. 131–40; L. Kelly, *Lermontov: Tragedy in the Caucasus* (London, 2003), pp. 207–8.

(2) M. Orlov, *Kapituliatsiia Parizha. Politicheskie sochinenniia. Pis'ma* (Moscow, 1963), p. 47.

(3) P. Chaadev, *Lettres philosophiques*, 3 vols (Paris, 1970), pp. 48–57.

(4) S. Becker, 'Russia between East and West: The Intelligentsia, Russian National Identity and the Asian Borderlands', *Central Asian Survey* 10.4 (1991), 51–2.

(5) T. Levin, *The Hundred Thousand Fools of God: Musical Travels in Central Asia* (Bloomington, IN, 1996), pp. 13-15; Borodin's symphonic poem is usually rendered in English as 'In the Steppes of Central Asia'.

(٦) كان يجدر بالمؤلف هنا ذكر سيمفونية شهرزاد من تأليف ريمسكي كورساكوف (Rimski Korsakov) فهي أكثر خلودًا وشهرة -سواء في الغرب أو في الشرق- من الأعمال التي ذكرها. (المترجم)

وكان الاهتمام بـ«الاستشراق»، واضحًا سواءً من حيث الموضوع، أو التناغم، أو الآلات، سمة ثابتة في الموسيقى الكلاسيكية الروسية في القرن التاسع عشر[1].

ودافع دوستويفسكي (Dostoevskii) عن رأيه -الذي يقضي بأن على روسيا ألا تتعامل مع الشرق فحسب، بل يجب أن تتبناه- دفاعًا مستميتًا. وجادل في مقالة مشهورة له بعنوان «ماذا تعني آسيا لنا؟»، نشره في أواخر القرن التاسع عشر بأن على روسيا أن تحرر نفسها من قيود الإمبريالية الأوروبية. واستطرد قائلًا: في أوروبا، نحن طُفيليون وعبيد. وفي آسيا، «نذهب ونغدو كسادة»[2].

وُلدت مثل هذه الآراء من استمرار النجاح في الخارج؛ فقد تحققت المزيد من المكاسب في القوقاز في العقد الثالث من القرن التاسع عشر بعد أن دحر الروس هجومًا فارسيًّا فاشلًا. فقد أمر الشاه فتح علي -الذي لم يكن جرحه من شروط معاهدة جولستان قد اندمل بعد- جيشه بالتحرك والهجوم على المواقع الروسية -بتحريض من الأهالي الذين بلغ منهم السخط مبلغه جراء ممارسات الجنرال إرمولوف -الذي شنق النساء والأطفال في الساحات العامة- في عام ١٨٢٦م[3]. وكانت الاستجابة مدمرة، فقد شنَّت قوات القيصر -في أعقاب إزاحة إرمولوف من مواقعه- هجومًا مضادًّا وتحركت جنوبًا عبر الممرات الجبلية في القوقاز، وطردت جيوش الفُرس، وأجبرت بلاد فارس على تسوية في عام ١٨٢٨م جاءت أسوأ بكثير من تلك التي فُرضت قبل خمسة عشر عامًا. وبناءً على ذلك، تنازل الفُرس عن المزيد من الأراضي لروسيا، إلى جانب جزية مالية باهظة. وكان هذا الإذلال دافع الشاه الضعيف إلى مطالبة القيصر رسميًّا بدعم خلافة وريثه، الأمير عباس ميرزا -بعد وفاته- خوفًا من أنه إن لم يفعل، فلن يغدو ولده قادرًا على الجلوس على العرش، ناهيك عن التمسك به.

ولم يمض وقت طويل قبل أن تندلع أعمال الشغب العنيفة في طهران. واستهدفت الحشود الغاضبة السفارة الروسية. واقتحم المتظاهرون المبنى في فبراير (شباط) ١٨٢٩م وقتلوا السفير والكاتب المسرحي ألكسندر جريبويدوف (Alexander Griboyedov) -البالغ من العمر وقتئذ ٣٦ عامًا، ومؤلف الكتاب الساخر الخالد المسمى **الويل من ويت** ***Woe from Wit***، والذي اتخذ موقفًا صارمًا لا هوادة فيه من الفُرس- وسحلت الغوغاء جثته عبر شوارع المدينة، وكان ما يزال مرتديًا زيه الرسمي[4]. وتحرك الشاه على الفور كي يمنع غزوًا روسيًّا دمويًّا وشاملًا، فأرسل حفيدًا أثيرًا لديه ليقدم اعتذارًا

---

(1) J. MacKenzie, *Orientalism: History, Theory and the Arts* (Manchester, 1995), pp. 154–6.

(2) F. Dostoevskii, *What is Asia to Us?*, ed. and tr. M. Hauner (London, 1992), p. 1.

(3) Broxup, *North Caucasus Barrier*, p. 47; J. Baddeley, *The Russian Conquest of the Caucasus* (London, 1908), pp. 152–63.

(4) L. Kelly, *Diplomacy and Murder in Teheran: Alexandre Griboyedov and Imperial Russia's Mission to the Shah of Persia* (London, 2002).

عن آراء جريبويدوف (Griboyedov)، انظر:

S. Shostakovich, *Diplomatischeskaia deiatel'nost'* (Moscow, 1960).

للقيصر عن لسانه، إلى جانب الشعراء لمدح القيصر؛ حيث وصفوه بأنه «سليمان عصرنا»، والأهم من ذلك أنه أرسل أحد أعظم الأحجار الكريمة في العالم هدية للقيصر. لقد كانت ماسة الشاه، التي كانت تزن نحو تسعين قيراطًا، وكانت معلقة فوق عرش أباطرة الهند، محاطة بالياقوت والزمرد. وقد أرسلت إلى بلاط سان بطرسبرج بوصفها عرضًا للسلام الشامل. ونجحت الحيلة؛ إذ بات ينبغي الآن نسيان القضية برمتها، كما ردَّد القيصر نيكولاس الأول (Nicholas I)[(١)].

وتصاعدت التوترات في لندن؛ فأرسلت بريطانيا بعثة إلى بلاد فارس -في مستهل القرن التاسع عشر- لمواجهة التهديد، وجنون العظمة عند نابليون. بيد أن بريطانيا سرعان ما وجدت نفسها -آنذاك- في مواجهة تحدٍ من خصم مختلف وغير متوقع؛ لم تكن فرنسا مصدر هذا التهديد هذه المرة، بل كانت روسيا. وما زاد الطين بلة أن نفوذ روسيا كان يتمدد كل يوم، وفي كل اتجاه. ورأى بعض الإنجليز أن روسيا قادمة. وأشار السير هارفورد جونز (Harford Jones) -الذي عمل سفيرا في طهران- إلى أن السياسة البريطانية تعني أن «بلاد فارس جرى تسليمها، مقيدة اليدين والقدمين، إلى البلاط في سان بطرسبرج». وكان بعض الناس أكثر صراحة. ففيما يتعلق بالسياسة في آسيا، كتب اللورد إلينبوروغ (Lord Ellenborough) -وكان شخصية بارزة في مجلس وزراء دوق ويلينجتون (Duke of Wellington) في العقد الثالث من القرن التاسع عشر- قائلًا: إن دور بريطانيا كان بسيطًا غاية البساطة، يتلخص في «الحد من قوة روسيا»[(٢)].

* * *

كانت الحوادث التي وقعت في بلاد فارس، وعملت على إطلاق يد القيصر في البلاد، وجعلته حاميًا للشاه ونظامه، باعثةً على قلق بريطانيا حقًا. وعندما اندلعت انتفاضات خطيرة ضد الحكم الروسي في السهوب الكازاخستانية بين عامي ١٨٣٦-١٨٣٧م، أدت إلى انقطاع التجارة مع آسيا الوسطى والهند، فشجعت روسيا شاه محمد -الذي تولى الحكم في بلاد فارس مؤخرًا- على التحرك صوب هرات الواقعة غربي أفغانستان على أمل فتح طريق تجاري جديدة بديل عبر الشرق. كما قدمت روسيا الدعم العسكري واللوجستي للقوات الفارسية لمساعدتها على تحقيق أهدافها[(٣)]. وأصاب ذلك البريطانيين بالقشعريرة والهلع.

وأبدى اللورد بالمرستون (Lord Palmerston) -وكان وزير الخارجية- انزعاجه من هذا التحول

---

(1) 'Peridskoe posol'stvo v Rossii 1828 goda', *Russkii Arkhiv* 1 (1889), 209–60.

(٢) نقلاً عن:

W. Dalrymple, *Return of a King: The Battle for Afghanistan* (London, 2013), pp. 50–1.

(3) J. Norris, *The First Afghan War 1838–42* (Cambridge, 1967); M. Yapp, *Strategies of British India: Britain, Iran and Afghanistan 1798–1850* (Oxford, 1980), pp. 96–152; C. Allworth, *Central Asia: A Century of Russian Rule* (New York, 1967), pp. 12–24.

في مسار الحوادث. وكتب في ربيع عام ١٨٣٨م قائلًا: «روسيا وبلاد فارس يلعبان الحيل [كذا] في أفغانستان»، ومع ذلك فقد ظل متفائلًا بشأن حلحلة الأمور وشيكًا، وعلى نحو مُرضٍ لبريطانيا[1]. ثم لم يلبث الهمُّ أن ركبه مجددًا في غضون أسابيع قليلة؛ ذاك أن جوهرة تاج الإمبراطورية البريطانية بدت على هذا القدر من الضعف والوهن فجأة. وكتب إلى أحد المقربين قائلًا: إن تصرفات روسيا جعلتها «قريبة للغاية من بوابتنا في الهند». وبعد شهر، أخذ يحذر غيره من أن الحاجز الفاصل بين أوروبا والهند قد أُزيل، «الأمر الذي مهد الطريق للغزاة حتى بوابتنا»[2]. لقد بدا الوضع قاتمًا حقًّا.

وكان إرسال قوة -جُمعت على عجل- لاحتلال جزيرة خَرْج في الخليج كافيًا لصرف انتباه الشاه، ورفع حصاره عن هرات. بيد أن الخطوات التي اتُّخذت بعد ذلك كانت كارثية؛ فقد تدخلت بريطانيا في الفوضى الضاربة أطنابها في أفغانستان، حرصًا منها على تنصيب زعيم يسعها التعويل عليه، ومن شأنه أن يساعد على تعزيز موقعها في آسيا الوسطى، والحفاظ على أمنها ثمة. وبعد أن تناهت إلى أسماع البريطانيين أنباءً أفادت بأن دوست محمد -حاكم البلاد- استقبل مبعوثين روس اقترحوا عليه التعاون معه، اتخذ البريطانيون قرارًا بدعم خصمه شاه شجاع بقصد تنصيبه ملكًا على البلاد. وفي المقابل، وافق شجاع على توطين القوات البريطانية في كابول، والاعتراف بضم مهراجا البنجاب -القوي والمؤثر وحليف بريطانيا- لـ بيشاور الذي وقع بأَخَرة.

وفي مستهل الأمر، سارت الأمور سير عقارب الساعة، حيث سيطرت القوات البريطانية على كويتا، وقندهار، وغزنة، وكابول -وكانت النقاط الرئيسة التي تتحكم في الوصول إلى المحاور الشرقية، والغربية، والشمالية، والجنوبية- بأقل قدر من الجلبة والصخب. بيد أن التدخل الأجنبي سَرعان ما أوجد بؤرة توحد حولها ذلك الطيف الواسع من المصالح المتباينة والمنقسمة -عادةً- داخل أفغانستان، ليس للمرة الأولى، كما أنها لن تكون الأخيرة كما برهن التاريخ فيما بعد. وعلى هذا النحو نُحّيت الخلافات القبلية، والعرقية، واللغوية جانبًا؛ حيث تضاعف الدعم المحلي لـ دوست محمد على حساب شاه شجاع -الذي لم يكن يكترث إلا لمصالحه الذاتية فحسب، كما لم يكن يحظى بشعبية بين بني جلدته، ولا سيما بعد أن أصدر مراسيم بدت في أعين الأهالي وكأنها ترفع من قدر البريطانيين، وتحط من شأنهم. ومن ثم رفض أئمة المساجد في جميع أنحاء البلاد الخطبة باسم شجاع[3]، ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح كابول نفسها مكانًا خطرًا -على نحو متزايد- لأي بريطاني، أو لشخص يُشتَبه في تعاطفه مع بريطانيا.

---

(1) Palmerston to Lamb, 22 May 1838, Beauvale Papers, MS 60466; D. Brown, *Palmerston: A Biography* (London, 2010), p. 216.

(2) Palmerston to Lamb, 22 May 1838,

نقلًا عن:

D. Brown, *Palmerston: A Biography* (London, 2010), p. 216.

(3) Palmerston to Lamb, 23 June 1838, in ibid., pp. 216–7.

وفي نوفمبر من عام ١٨٤١م، تعرض ألكسندر بيرنز (Alexander Burnes) -وهو اسكتلندي، كانت رحلاته وأسفاره الكثيفة في هذه المنطقة معروفة على نطاق واسع للجمهور في بريطانيا، بفضل نشراته الشهيرة، وترويجه لنفسه على نحو مستمر- لكمين قاتل، واغتيل في العاصمة الأفغانية[1]. بُعيد ذلك، اتخذ البريطانيون قرارًا بالانسحاب إلى الهند. وفي يناير (كانون الثاني) من عام ١٨٤٢م، تعرض الطابور البريطاني -بقيادة الجنرال إلفينستون (Elphinstone)- للهجوم وهو يغذ السير منسحبًا قاصدًا جلال آباد عبر الممرات الجبلية، فأُبيد في ثلوج الشتاء، في واحدة من أكثر الهزائم إذلالًا وسوءًا في تاريخ الجيش البريطاني؛ حتى إن الأسطورة تقول: إن رجلًا واحدًا فحسب من هذا الجيش وصل إلى جلال آباد على قيد الحياة؛ إنه الدكتور وليم بريدون (Dr William Brydon)، الذي أنقذت نسخته من مجلة بلاكوود *Blackwood* حياته؛ حيث لفها ووضعها داخل قبعته، وقاية لرأسه من البرد القارس؛ فوقَت رأسه من ضربة سيف كان -لا ريب- قاتله[2].

ولم تكن محاولات بريطانيا لتثبيط التقدم الروسي في أماكن أخرى أكثر نجاحًا. فقد أتت محاولات بناء جسور الثقة مع أمير بخارى، وإيجاد موطئ قدم في شمال أفغانستان بنتائج عكسية على نحو مذهل. وأعطت الصورة الساذجة والغريبة التي رسمها ألكسندر بيرنز (Alexander Burnes) -فضلًا عن غيره- انطباعًا مغلوطًا يقضي بأن البريطانيين سيكونون موضع ترحيب، وسيلقاهم الناس هناك بأذرع مفتوحة. بيد أنه لم يكن لهذا التصور أساس من الصحة؛ فلم تكن لخانات آسيا الوسطى -المستقلة تمامًا- في خيوة، وبخارى، وخوقند مصلحة تُذكَر في التورط فيما أشار إليه الوسيط البريطاني المحتمل بسذاجة باسم «اللعبة الكبرى The great game»[3]. ثم وصل إلى المنطقة ضابطان بريطانيان، هما: العقيد تشارلز ستودارت (Charles Stoddart)، وآرثر كونولي (Arthur Conolly)، في أوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر لتقديم حلول للمشكلات المتعلقة بالعلاقات الأنجلو-روسية في آسيا الوسطى. وانتهى أمرهما بقطع رأسيهما أمام حشد كبير من النظارة المتحمسين[4].

---

(1) S. David, *Victoria's Wars: The Rise of Empire* (London, 2006), pp. 15–47; A. Burnes, *Travels into Bokhara. Being an account of a Journey from India to Cabool, Tartary and Persia*, 3 vols (London 1834).,

وعن مقتل بيرنز، انظر:

Dalrymple. *Return of a King*, pp. 30–5.

(2) W. Yapp, 'Disturbances in Eastern Afghanistan, 1839–42', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 25.1 (1962), 499–523; idem, 'Disturbances in Western Afghanistan, 1839–42', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26.2 (1963), 288–313; Dalrymple, *Return of a King*, pp. 378–88.

(3) A. Conoly to Rawlinson 1839; see S. Brysac and K. Mayer, *Tournament of Shadows: The Great Game and the Race for Empire in Asia* (London, 2006).

(4) 'Proceedings of the Twentieth Anniversary Meeting of the Society', *Journal of the Royal Asiatic Society* 7 (1843), x–xi.

عن ستودارت (Stoddart) وكونولي (Conolly) فضلًا عن آخرين غيرهم، انظر:

P. Hopkirk, *The Great Game: On Secret Service in High Asia* (London, 2001).

أما الشخصية الثالثة التي وصلت إلى بخارى، فكان رجلًا غريب الأطوار يقال له: جوزيف وولف (Joseph Wolff)؛ وكان ابنًا لحاخام ألماني، إلا أنه اعتنق النصرانية، ثم ما لبث أن طُرد من الكلية اللاهوتية في روما، قبل أن يدرس عِلم اللاهوت في جامعة كامبريدج تحت إشراف نخبة من الأساتذة المعادين للسامية. وأصابت آراؤه من الاستفزاز حدًّا تعرض معه للقذف بالبيض الفاسد من قِبل الطلاب في شوارع كامبريدج[1]. وقصد الرجل الشرق في البداية بحثًا عن قبائل بني إسرائيل المفقودة، وانتهى به المطاف في الأخير إلى بخارى بحثًا عن المبعوثَيْن المفقودَيْن، الذين لم يقف لهما أحد [في أوروبا] على خبر. وربما خمَّن أمير بخارى أن ذلك الرجل -غريب الأطوار- كان في طريقه إليه بعد أن تلقى منه خطابًا يُعرفه فيه بنفسه قائلًا: «أنا جوزيف وولف، أنا درويش معروف عند النصارى. اعلم أنني على وشك دخول بخارى» للتحقيق في التقارير التي تفيد بإعدام كونولي، وستودارت، ويقيني أنها مجرد شائعات؛ ذاك «أنني محيط علمًا بكرم أهل بخارى، ولم أُصدّق حرفًا واحدًا من تلك الأقوال». لقد كان الرجل محظوظًا بالفعل لأنه لم يشارك كونولي وستودارت مصيرهما. فبعد أن سُجن وأُخبر بأنه ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه؛ أُطلق سراحه في الأخير وسُمِح له بالرحيل؛ فنجا بذلك من موت محقق[2].

ومن قَبيل المفارقات، أن روسيا لم تكن تأبه لـ بخارى بصفة خاصة، وآسيا الوسطى بصفة عامة، من المنظور الاستراتيجي. فقد كشفت الكتابات الإثنوغرافية الأساسية التي نُشرت في تلك الحقبة، مثل: كتابات ألكسي ليفشين (Alexei Levshin) عن الكازاخ على سبيل المثال -والتي أصبحت شائعة في سان بطرسبرج- عن فضول متزايد حول هؤلاء الأشخاص الأميين، ولكن المرء قد يجد عندهم «أساسيات الموسيقى والشعر» على الرغم من جهلهم الواضح، وفظاظتهم[3]. كما أشارت كتابات بيرنز إلى أن أهداف روسيا في تلك المنطقة متواضعة بالتأكيد. وكانت أولويات روسيا تشجيع التجارة، ووقف بيع الروس بوصفهم عبيدًا ثمة. ولم تكن المشكلة أن كتابات بيرنز حملت هذه الرسالة فحسب؛ بل كان ما أصاب مواطنيه في بريطانيا بالقشعريرة هو تقريره الباعث على القلق، والذي قضى بأن «البلاط في سان بطرسبرج لطالما كان يعتز بالتصميمات القادمة من هذا الربع من آسيا»[4].

وتوافق هذا القلق البريطاني المتزايد مع قلق ساد في أوساط أخرى؛ فقد واصل القنصل العام في بغداد، هنري رولينسون (Henry Rawlinson)، ضغوطه بلا كلل، محذرًا كل من أنصت إليه من أنه إن

---

(1) H. Hopkins, *Charles Simeon of Cambridge* (London, 1977), p. 79.

(2) J. Wolff, *Narrative of a Mission to Bokhara: In the Years 1843–1845*, 2 vols (London, 1845);

وعن ولف نفسه، انظر:

H. Hopkins, *Sublime Vagabond: The Life of Joseph Wolff – Missionary Extraordinary* (Worthing, 1984), pp. 286–322.

(3) A. Levshin, *Opisanie Kirgiz-Kazach'ikh, ili Kirgiz-kaisatskikh, ord i stepei* (Almaty, 1996) 13, p. 297.

(4) Burnes, *Travels into Bokhara*, 11, 2, p. 381.

لم تكبح بريطانيا جماح روسيا، فإن الإمبراطورية البريطانية ستتعرض لتهديد خطير في الهند. وهكذا لم يكن أمام بريطانيا إلا خياران لا ثالث لهما: فإما توسيع حدود إمبراطوريتها إلى بلاد الرافدين لبناء حاجز مناسب يحمي مستعمراتها من جهة الغرب؛ أو إرسال قوة كبيرة من الهند لمهاجمة الروس في القوقاز[1]. وأخذ رولينسون على عاتقه دعم حركات التمرد المحلية المناهضة لروسيا أينما وجدها؛ فقد بعث بالأسلحة والأموال إلى الإمام شامل [الداغستاني] الذي كانت قاعدته في الشيشان شوكة ثابتة في جنب روسيا في منتصف القرن التاسع عشر[2]. وساعد الدعم الذي قدمه في إرساء دعائم تقليد طويل من الإرهاب[3] الشيشاني ضد روسيا.

وانتهزت بريطانيا الفرصة لتقليص حجم روسيا ما أن أتيحت لها؛ فقد تصاعدت سلسلة من الخلافات المتعلقة بمعاملة النصارى في الدولة العثمانية سريعًا وعلى نحو متعمد؛ وعلى إثر ذلك أُرسِلت قوة بريطانية كبيرة إلى البحر الأسود في عام ١٨٥٤، حيث انضم إليها الفرنسيون الذين انتابهم القلق بشأن حماية مصالحهم التجارية الواسعة في القسطنطينية، وحلب، ودمشق. وكان هدف الحرب بسيطًا: لقد كان ينبغي أن تُلقن روسيا درسًا لا تنساه[4].

وبينما استعرت الأعمال العدائية، قال اللورد بالمرستون (Lord Palmerston): «إن الهدف الرئيسي والحقيقي للحرب هو كبح جماح الطموح العدواني لروسيا». وسرعان ما امتدت الحرب الغامضة التي دارت رحاها في شبه جزيرة القرم، وبحر آزوف (Azov) حتى طالت أماكن أخرى مثل: القوقاز، ونهر الدانوب، على سبيل المثال. ووجدت بريطانيا في طي هذه الحرب منحة، كانت أكثر أهمية بكثير مما بدت في ظاهرها. والحق أن وزير الخارجية البريطاني -الذي كان يتمتع بشخصية كاريزمية ويحظى باحترام كبير- قدم خطة رسمية إلى أقرانه في الحكومة لتقطيع أوصال روسيا. وكانت خطته ترمي إلى وضع روسيا تحت السيطرة من جهة، وحماية المصالح البريطانية في الهند ضمنًا. وقضت خطته بسيطرة العثمانيين على شبه جزيرة القرم، ومنطقة القوقاز برمتها[5]. وعلى الرغم من أن هذا المخطط الفاخر لم يوضع موضع التنفيذ قط، فإنه كان مؤشرًا قويًا على أن الشغل الشاغل للمسؤولين البريطانيين -آنئذ- هو مسألة توسع روسيا.

* * *

---

(1) R. Shukla, *Britain, India and the Turkish Empire, 1853–1882* (New Delhi, 1973), p. 27.

(2) O. Figes, *Crimea: The Last Crusade* (London, 2010), p. 52.

(٣) كذا في الأصل (terrorism) وكان أولى بالمؤلف أن يستخدم تعبيرًا محايدًا مثل «مقاومة». (المترجم)

(٤) عن فرنسا انظر:

M. Racagni, 'The French Economic Interests in the Ottoman Empire', *International Journal of Middle East Studies* 11.3 (1980), 339–76.

(5) W. Baumgart, *The Peace of Paris 1856: Studies in War, Diplomacy and Peacemaking*, tr. A. Pottinger Saab (Oxford, 1981), pp. 113–16, 191–4.

أصيب بعض الناس بالفزع من الغزو الأنجلو-فرنسي. وشن كارل ماركس هجومًا شرسًا على الحرب وسيرها، ووجد مادة خصبة كان يسعه من خلالها تطوير أفكار حول التأثير المدمر للإمبريالية، وهي فكرة كان قد طرحها لأول مرة في البيان الشيوعي *The Communist Manifesto* قبل بضع سنوات. ووثّق ماركس الزيادة في الإنفاق العسكري والبحري تفصيليًّا، ثم علّق على الحرب في مقالات يومية أخذ ينشرها في صحيفة نيويورك تريبيون *New York Tribune*؛ حيث هاجم بشدة نفاق أولئك الذين جروا الغرب إلى الحرب. ولم يستطع احتواء سعادته عندما أُجبر اللورد أبردين (Lord Aberdeen) على التنحي بوصفه رئيسًا للوزراء في مواجهة خيبة أمل واسعة النطاق بسبب الخسائر الفادحة التي تكبدها في روسيا. وثارت الاحتجاجات على خلفية ارتفاع الأسعار في لندن، وبدا واضحًا لماركس أن السياسات الإمبريالية البريطانية كانت تمليها نخبة قليلة العدد، وأنها تأتي دومًا على حساب الجماهير. وعلى هذا النحو، لم تولد الشيوعية من رحم حرب القرم، بيد أن تلك الحرب شحذتها بكل تأكيد[١].

وعلى هذا المنوال نفسه كانت حركة التوحيد في إيطاليا. فبعد أن تلطخت أنف روسيا بدماء الجنود الفرنسيين والبريطانيين، وعلى رأسهم أولئك الذين سقطوا في فضيحة «الهجوم على اللواء الخفيف (charge of the Light Brigade)»[٢]- نوقشت شروط التسوية أخيرًا في باريس. وكان الكونت كافور (Count Cavour) -وكان رئيس وزراء سردينيا- أحد الذين جلسوا إلى طاولة المفاوضات، وكان يدين بمكانه لقرار ڤيتوريو إيمانويل (Vittorio Emanuele) -ملك الجزيرة- بإرسال قوة مساعدة إلى البحر الأسود دعمًا لفرنسا. واستغل كافور وجوده في دائرة الضوء بذكاء حاد في لحظة فارقة، فدعا إلى أن تصبح إيطاليا دولة موحدة ومستقلة. وكانت صرخة مستجدية، واستمع إليها الحلفاء بتعاطف، والتف حولها المؤيدون في الديار[٣]. وبعد خمس سنوات، أصبح ملك سردينيا ملكًا على إيطاليا، وهي دولة

(1) K. Marx, *The Eastern Question: A Reprint of Letters Written 1853–1856 Dealing with the Events of the Crimean War* (London, 1969); idem, *Dispatches for the New York Tribune: Selected Journalism of Karl Marx*, ed. F. Wheen and J. Ledbetter (London, 2007).

(٢) الهجوم على اللواء الخفيف (Charge of the Light Brigade)، عنوان ساخر لهزيمة منكرة لقيها سلاح الفُرسان البريطاني بقيادة اللورد كارديجان ضد القوات الروسية خلال معركة بالاكلافا في ٢٥ أكتوبر ١٨٥٤ في حرب القرم. واستمد اسمها من قصيدة اللورد تينسون (Tennyson). وكان اللورد كارديجان قد قرر إرسال لواء الفُرسان الخفيف للحيلولة دون استيلاء الروس على السلاح من المواقع التركية التي اجتاحوها، وهي المهمة التي وجد اللورد سلاح الفُرسان الخفيف مؤهلًا لها. إلا أن هذا الاختيار لم يكن موفقًا، فقد وقع اللواء الخفيف فريسة لهجوم مدفعي ضار، حيث كانت بطاريات المدفعية الروسية محصنة جيدًا، وفي أوضاع ممتازة لضرب جموع الفُرسان المتقدمين. وانتهى الهجوم بسقوط عدد كبير من الفُرسان البريطانيين دون تنفيذ المهمة التي كُلف بها. (المترجم)

(3) G. Ameil, I. Nathan and G.-H. Soutou, *Le Congrès de Paris (1856): un événement fondateur* (Brussels, 2009).

جديدة اصطُنعت من مدن ومناطق متباينة. وكان نُصب ألتار ديلا بارتيا (Altare della Patria) الضخم الذي ينتصب في وسط روما؛ حيث شُيِّد بعد ثلاثة عقود، من أجل جعل روما تشعر بالإيطالية، ولجعل إيطاليا تشعر بالرومانية -على حد تعبير بريمو ليڤي (Primo Levi)- تتويجًا للتطورات التي نبعت من خلال القتال على أرض الشرق، وتأثيرها الذي امتد لآلاف الأميال[١].

أما روسيا، فقد كانت الشروط المفروضة في محادثات السلام في باريس في ١٨٥٦ كارثية. وتعاونت بريطانيا وفرنسا للف حبل المشنقة حول رقبة خصمهما: فبعد أن جُرِّدت روسيا من المكاسب التي تحققت في القوقاز بشق الأنفس، عانت من العار المتمثل في حرمانها من الوصول العسكري إلى البحر الأسود، والذي أُعلن بحرًا محايدًا ومغلقًا أمام جميع السفن الحربية. وبالمثل، تقرر أن يكون الساحل منزوع السلاح، وخاليًا من التحصينات، ومخازن السلاح[٢].

وكان الهدف من ذلك هو إذلال روسيا وخنق طموحاتها. وكان لهذه التسوية أثر عكسي، لقد كانت هذه لحظة ڤرساي (Versailles)؛ حيث تأتي التسوية بنتائج عكسية، وعواقب وخيمة. وبصرف النظر عن حقيقة أن التسوية كانت عقابية، ومُقيِّدة للغاية؛ حتى إن الروس حاولوا على الفور نزع أغلالها عنهم، فقد أدت أيضًا إلى فترة من التغيير والإصلاح. فقد كشفت حرب القرم عن أن جيش القيصر لا يباري جيوش الحلفاء، التي كانت أكثر خبرة، وأفضل تدريبًا. وجرت عمليات إصلاح شاملة للجذور والفروع في الجيش بعد رفع بعض التقارير للقيصر، الكسندر الثاني (Alexander II)، التي أوضحت أوجه القصور في الجيش الروسي بتفاصيل صريحة لم تخل من قسوة[٣].

كما اتُّخذت خطوات جذرية أخرى؛ فقد جرى تخفيض سن التجنيد الإجباري من خمسة وعشرين عامًا إلى خمسة عشر عامًا، الأمر الذي أدى إلى خفض متوسط عمر رجال الجيش بضربة واحدة، في حين صدرت طلبيات بالجملة من المعدات الحديثة لإحلالها محل المعدات القديمة المتهالكة، التي لم تكن ثم فائدة تُرجى منها[٤]. بيد أن التغيير الأكثر لفتًا للنظر هو الإصلاح الاجتماعي بعيد المدى. فعلى الرغم من أن الأزمة المصرفية الحادة التي اندلعت في أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر لعبت دورًا في هذه الخطوة أيضًا، فإن الهزيمة في شبه جزيرة القرم، والعار المتولد من الشروط التي ترتبت عليها هي التي دفعت القيصر إلى إلغاء القنانة (*Serfdom*)، وهو نظام جرى بموجبه ربط جزء كبير من السكان بالأرض، فكانوا يعملون بالسخرة لدى ملاك الأراضي الأثرياء. وعلى هذا النحو

---

(1) P. Levi, 'Il monumento dell'unità Italiana', *La Lettura*, 4 April 1904; T. Kirk, 'The Political Topography of Modern Rome, 1870–1936: Via XX Septembre to Via dell'Impero', in D. Caldwell and L. Caldwell (eds), *Rome: Continuing Encounters between Past and Present* (Farnham, 2011), pp. 101–28.

(2) Figes, *Crimea*, pp. 411–24; Baumgart, *Peace of Paris*, pp. 113–16.

(3) D. Moon, *The Abolition of Serfdom in Russia, 1762–1907* (London, 2001), p. 54.

(4) E. Brooks, 'Reform in the Russian Army, 1856–1861', *Slavic Review* 43.1 (1984), 63–82.

جرى القضاء على القِنانة، وفي غضون خمس سنوات فحسب انتهت قرون من العبودية في روسيا[1].

وجاءت تلك الخطوة في وقتها، وفقًا لبعض المعاصرين[2]. لقد كان هذا الأمر مبشرًا بالاندفاع نحو التحديث، والليبرالية الاقتصادية التي دفعت النمو إلى معدل هائل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فقد ارتفع إنتاج الحديد خمسة أضعاف بين عامي ١٨٧٠-١٨٩٠، في حين ساعد التوسع المثير للإعجاب لشبكة السكك الحديدية -كما ذكر أحد العلماء المعاصرين- على «تحرير روسيا من القيود التي فرضتها عليها جغرافيتها»؛ بعبارة أخرى: ربطت أوصال الدولة الشاسعة، ووصلت بعضها ببعضها الآخر[3]. وبغض النظر عن نجاعة سياسة احتواء روسيا؛ فقد ساعد البريطانيون على خروج الجني من القمقم.

وكان يسع الشعور بالتطلعات الروسية منذ لحظة جفاف الحبر على المعاهدة الموقعة في باريس. فقد شعر أحد مندوبي القيصر في محادثات السلام -وهو ملحق عسكري يُدعى نيكولاي إجناتيف (Nikolai Ignat'ev)- بالغضب الشديد بسبب سوء معاملة روسيا، والقيود المفروضة على سيطرة بلاده على سواحلها على البحر الأسود خاصةً؛ حتى إنه رتب مع الأمير جورتشاكوف (Gorchakov)، زميل الدراسة السابق، والمقرب من ألكسندر بوشكين (Alexander Pushkin)، مهمة قيادة سفارة إلى آسيا الوسطى. وكان هدفهما واضحًا: «التحقيق في [إمكانات هذه المنطقة]، وكذلك فإن تعزيز العلاقات الودية، سيزيد نفوذ روسيا، بينما يقلل من نفوذ بريطانيا العظمى»[4].

---

(١) عن القنانة (serfdom) في روسيا، انظر:

T. Dennison, *The Institutional Framework of Russian Serfdom* (Cambridge, 2011).

عن الأزمة المصرفية، انظر:

S. Hoch, 'Bankovskii krizis, kresl'ianskaya reforma i vykupnaya operatsiya v Rossii, 1857–1861', in L. Zakharova, B. Eklof and J. Bushnell (eds), *Velikie reformy v Rossii, 1856–1874* (Moscow, 1991), pp. 95–105.

(٢) وكان نيكولاي ميليوتين (Nikolai Miliutin)، مساعد وزير الداخلية، قد حذر -في عام ١٨٥٦م- من أن إلغاء نظام القنانة (*serfdom*) ليس مجرد أولوية، بل ضرورة ملحة، قائلًا: ستكون هناك اضطرابات، وربما تندلع الثورة في الريف إذا لم يتخذ إجراء ما، انظر:

Gosudarstvennyi arkhiv Rossiiskoi Federatsii, 722, op. 1, d. 230,

نقلًا عن:

L. Zakharova, 'The Reign of Alexander II: A Watershed?', in *The Cambridge History of Russia*, ed. D. Lieven (Cambridge, 2006), p. 595.

(3) V. Fedorov, *Istoriya Rossii XIX–nachala XX v.* (Moscow, 1998), p. 295; P. Gatrell, 'The Meaning of the Great Reforms in Russian Economic History', in B. Eklof, J. Bushnell and L. Zakharovna (eds), *Russia's Great Reforms, 1855–1881* (Bloomington, IN, 1994), p. 99.

(4) N. Ignat'ev, *Missiya v' Khivu i Bukharu v' 1858 godu* (St Petersburg, 1897), p. 2.

وضغط إجناتيف ضغوطًا مكثفة لإرسال سفارات إلى بلاد فارس وأفغانستان، ورتب المبعوثين لزيارة خانات خيوة، وبخارى. وقال صراحة: إن الهدف هو إيجاد طريق إلى الهند عبر أي من النهرين الكبيرين اللذين يتدفقان باتجاه بحر آرال- سيحون (Syr Darya) وجيحون (Amu Darya). وقال: حبذا لو تمكنت روسيا من بناء تحالف مع الشعوب المجاورة للهند، والعمل على تأجيج عداوتها لبريطانيا أيضًا: وكان هذا هو السبيل لوضع روسيا في المقدمة، ليس في آسيا فحسب[1].

وأتت البعثات التي قادها إجناتيف وغيره ثمارها. ففي الخمسة عشر عامًا التي أعقبت حرب القرم، سيطرت روسيا على مئات الآلاف من الأميال دون حاجة إلى إطلاق طلقة واحدة. وعملت الحملات الاستكشافية المخطط لها بعناية، إلى جانب الضغط الدبلوماسي المطبق بذكاء على الصين على امتداد الحدود الروسية «امتدادًا واسعًا» في الشرق الأقصى «في فترة قصيرة تبلغ عقدًا من الزمان»، كما أشار أحد المراقبين المخضرمين في تقرير رفعه لوزارة الخارجية في لندن في عام ١٨٦١ [2].

بُعيد ذلك، سقط المزيد من السهوب الجنوبية في حجر روسيا، إلى جانب مدن الواحات الممتدة في قلب آسيا. وبحلول أواخر القرن السادس عشر الميلادي، أصبحت طشقند، وسمرقند، وبخارى، إضافة إلى أغلب وادي فرغانة المزدهر، «محميات»، أو مناطق تابعة لسان بطرسبرغ، تمهيدًا لضمها بالكلية، ودمجها داخل الإمبراطورية. وكانت روسيا تبني شبكة تجارة واتصالات ضخمة خاصة بها، والتي باتت -آنذاك- تربط ڤلاديڤوستوك (Vladivostok) شرقًا بالحدود مع بروسيا غربًا، وموانئ البحر الأبيض شمالًا بالقوقاز وآسيا الوسطى جنوبًا.

ولم تكن قصة توسع روسيا وردية تمامًا؛ فعلى الرغم من شروعها في برنامج التحديث -الذي اشتدت الحاجة إليه بعد كارثة حرب القرم- فإن أعصاب روسيا كانت تتوتر مع سرعة نموها. وكان توفير الأموال لتمويل تحديث الإمبراطورية مشكلة مزمنة، وهي مشكلة أدت إلى اتخاذ القيصر قرارًا محرجًا يقضي بالتخلي عن ألاسكا (Alaska) لأسباب جيوسياسية ومالية[3]. ومع ذلك، تحولت الأفكار في لندن -في ظل تزايد المخاوف بشأن ما يعنيه التغيير في روسيا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية- إلى ابتكار طرق لوقف المد الروسي. فإذا تعذر ذلك، فينبغي على بريطانيا إلهاء روسيا، وتشتيت انتباهها، بلفت نظرها إلى بقعة أخرى.

(1) Ibid.

(2) Alcock to Russell, 2 August 1861, FO Confidential Print 1009 (3), FO 881/1009.

(3) A. Grinev, 'Russian Politarism as the Main Reason for the Selling of Alaska', in K. Matsuzato (ed.), *Imperiology: From Empirical Knowledge to Discussing the Russian Empire* (Sapporo, 2007), pp. 245-58.

-١٦-

الطريق إلى الحرب

كانت ثقة روسيا -بل قل تفاؤلها- في تصاعد مستمر، وبوتيرة متسارعة في أواخر القرن التاسع عشر. ولم يمض وقت طويل قبل أن تولي روسيا عنايتها لإلغاء بنود معاهدة باريس المتعلقة بالبحر الأسود؛ فأخذت تطالب -في هدوء- الحكومات في جميع أنحاء أوروبا -الواحدة تلو الأخرى- بمراجعة المعاهدة بصفة عامة، ومحو البنود التي أُكرِهت عليها خاصةً. ولم تلق مطالبات روسيا كبير معارضة في معظم الحالات. بيد أنه كان هناك استثناء واحد من ذلك، لقد كان ذلك الاستثناء هو لندن بطبيعة الحال. واتفق أن سُرِّبت نسخة من التعميم المقدم إلى مجلس الوزراءِ البريطاني -وكان يحمل اقتراحًا يقضي بحذف تلك البنود- إلى الصحافة في سان بطرسبرج في شتاء عام ١٨٧٠، إلى جانب أخبار تفيد بأن مجلس الوزراء في لندن رفض ذلك المقترح رفضًا باتًّا. وسارت جهود الأمير جورتشاكوف (Gorchakov) لفرض سياسة الأمر الواقع على نحو جيد في روسيا؛ بينما قوبلت بصيحات غضب واستهجان في الصحافة البريطانية[1].

وكان الخط الذي انتهجته جريدة سبكتور *Spectator* نموذجًا للاستنكار الصادم؛ فقد ذكرت الصحيفة أن محاولة روسيا إعادة التفاوض، إنما هي محاولة شيطانية. وأردفت قائلة: إنه «ليس ثم تحد أكثر جرأة، ولا أكثر صراحة للقانون الأوروبي، وللأعراف الدولية، وللسياسة البريطانية أكثر من المذكرة الروسية التي لم تر النور قط»[2]. وأقنع اقتراح إسقاطِ تلك البنود بعض الناس بأن الحرب باتت وشيكة، وأن بريطانيا لم يعد لها خيار سوى اللجوء إلى القوة لإجبار روسيا على الالتزام بالقيود المفروضة عليها. وجاءت ردود الأفعال مستهجنة ذلك الطرح. وكتب جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) رسالة بعث بها إلى صحيفة التايمز *The Times*؛ جاء فيها: ربما كانت تحركات روسيا استفزازية، بيد أنه لا ينبغي أن تؤدي إلى اندلاع صراع مسلح. ووافقته الملكة ڤيكتوريا (Queen Victoria) الرأي، فأرسلت برقية إلى وزير خارجيتها، اللورد جرانڤيل (Lord Granville): جاء فيها «أيمكنك أن تُلمِح للصحف الكبرى بأن تمتنع عن إثارة روح الحرب في هذا الصدد؟»[3].

---

(1) W. Mosse, 'The End of the Crimean System: England, Russia and the Neutrality of the Black Sea, 1870–1', *Historical Journal* 4.2 (1961), 164–72.

(2) *Spectator*, 14 November 1870.

(3) W. Mosse, 'Public Opinion and Foreign Policy: The British Public and the War-Scare of November 1870', *Historical Journal* 6.1 (1963), 38–58.

ولم تكن بواعث القلق العالية بسبب المخاوف بشأن البحر الأسود، بقدر ما كانت بسبب القلق العام من استعراض روسيا لعضلاتها التي أخذت تقوى شيئًا فشيئًا. ولما انصرف شبح الحرب، لم يكن أمام البريطانيين -في مواجهة ضعف الأوراق التي في جعبتهم- من خيار سوى التنازل؛ الأمر الذي أدى إلى تراشق لفظي بين رئيس الوزراء، وليم جلادستون (William Gladstone)، والنائب الكاريزمي بنيامين دزرائيلي (Benjamin Disraeli) في مجلس العموم. بيد أن روسيا حصلت -في الأخير- على ما تريد، أي حرية فعل ما يحلو لها على طول الساحل، ووضع سفنها الحربية في موانئ شبه جزيرة القرم -فضلًا عن غيرها- على الساحل الشمالي للبحر الأسود. وقوبلت هذه الأنباء بالنشوة في سان بطرسبرج، وفقًا لشاهد عيان بريطاني. وقدمه الروس على أنه «انتصار Triumph» لروسيا؛ حتى إن القيصر ألكسندر الثاني (Alexander II) -الذي «قيل إنه شعر بسعادة غامرة على المستوى الشخصي- أمر بغناء أنشودة تي ديوم (Te Deum) في كنيسة القصر الشتوي، قبل الصلاة في كاتدرائية القديسين بطرس وبولس إلى حين، مع علامات دالة على المشاعر الوطنية الجياشة»[1].

وعلى هذا النحو أضحت بريطانيا عاجزة عن ترجمة قوتها الاقتصادية إلى نجاح دبلوماسي وسياسي، وسرعان ما تبنت مقاربات جديدة للموقف. وكان من بين الموضوعات التي طُرحت للنقاش لقب الملك البريطاني. ونظرًا لحجم البلاد، والأقاليم، والشعوب، والبقاع التي كانت خاضعة للسيادة البريطانية، وتوزيع الملكيات، فقد اقتُرِح ترفيع لقب الملك، ليصبح الإمبراطور. وأثار هذا التغيير التجميلي نقاشًا حادًّا في مجلسي البرلمان؛ حيث أُصيب المحافظون بالهلع من فكرة تغيير الرتب، والألقاب، والأسماء الراسخة منذ عدة قرون. وقال اللورد جرانفيل لمجلس اللوردات: إن الملوك يتمتعون بسلطة عليا على الحكام من مرؤوسيهم. وليس هناك سبب، أو مبرر لترفيع لقب الملك. ثم أردف قائلًا: «سادتي اللوردات، متى تعلق الأمر بكرامة صاحبة الجلالة نفسها، فليس هناك اسم يروق الخيال، ويداعبه بقوة مثل ڤيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا». إن هذه الطريقة هي الطريقة المثلى التي يجب أن يُذكَر بها الملك[2].

بيد أن المشكلة كانت في روسيا والقيصر؛ فبصرف النظر عن روما الإمبراطورية (وكلمة القيصر (Tsar) هي اختصار بسيط لـ «سيزار أي قيصر Caesar»)، فإن اللقب الرسمي للقيصر بكل مجده عند استخدامه في المراسلات الرسمية، وفي المناسبات الرسمية يشير إلى قائمة مفصلة وطويلة للأراضي التي بسط سلطانه عليها. وأكد دزرائيلي -الذي تولى رئاسة الوزراء آنئذ- أمام البرلمان في منتصف العقد الثامن من القرن التاسع عشر الميلادي، أن لقبًا أعلى من لقب ملكة من شأنه أن يساعد على بث الثقة في نفوس أهل الهند، الذين ساورهم القلق بالفعل بشأن التقدم الروسي في آسيا الوسطى. ووافقت

(1) Rumbold to Granville, 19 March 1871, FO 65/820, no. 28, p. 226; Mosse, 'End to the Crimean System', 187.

(2) Lord Granville, House of Lords, 8 February 1876, Hansard, 227, 19.

الملكة ڤيكتوريا -من حيث المبدأ- على هذا التغيير، وكتبت إلى دزرائيلي قائلة: إن «الهجوم على روسيا من الهند هي الطريقة الصحيحة لوضع الأمور في نصابها»، وإن ترفيع اللقب الملكي قد يساعد على ضمان ولاء رعاياها في الهند[1].

ولم يُبد بعض النواب اقتناعًا بالحاجة إلى منافسة روسيا بهذه الطريقة. وقال أحد البرلمانيين: يقيني أننا نحن البريطانيين -«الذين حكمنا الهند لقرن من الزمان»- قد بلغت بنا الحال هذا الحد من فقدان الثقة من أنفسنا؛ حتى صِرنا بحاجة إلى تغيير لقب الملكة «لا لشيء إلا أن توضع ملكتنا على قدم المساواة مع قيصر روسيا؟» فحسب[2]. ومع ذلك، شدد آخرون على التغيير الجذري للوضع في الشرق، معلنين بتحدٍ أن «سيطرة البريطانيين على هندوستان تهدف إلى الاستمرار»، ومن ثم «لا ينبغي التنازل عن شبر من تلك المنطقة». ولما أضحت حدود روسيا على مسيرة أيام قليلة من حدود سيادة صاحبة الجلالة في الهند، فإن ذلك أضحى باعثًا على القلق[3]. وبعد مناقشة محتدمة في البرلمان، جرى تمرير مشروع القانون في عام ١٨٧٦م معلنًا أن ڤيكتوريا لم تعد ملكة فحسب (حيث تُوّجت بهذا اللقب منذ ما يقرب من أربعة عقود)؛ بل هي إمبراطورة أيضًا. وقد وقع ذلك موقعه من نفس ڤيكتوريا؛ فأرسلت -عشية عيد الميلاد- بطاقة إلى دزرائيلي وقعتها باسم «ڤيكتوريا الملكة والإمبراطورة» (Victoria, Regina et Imperatrix)[4].

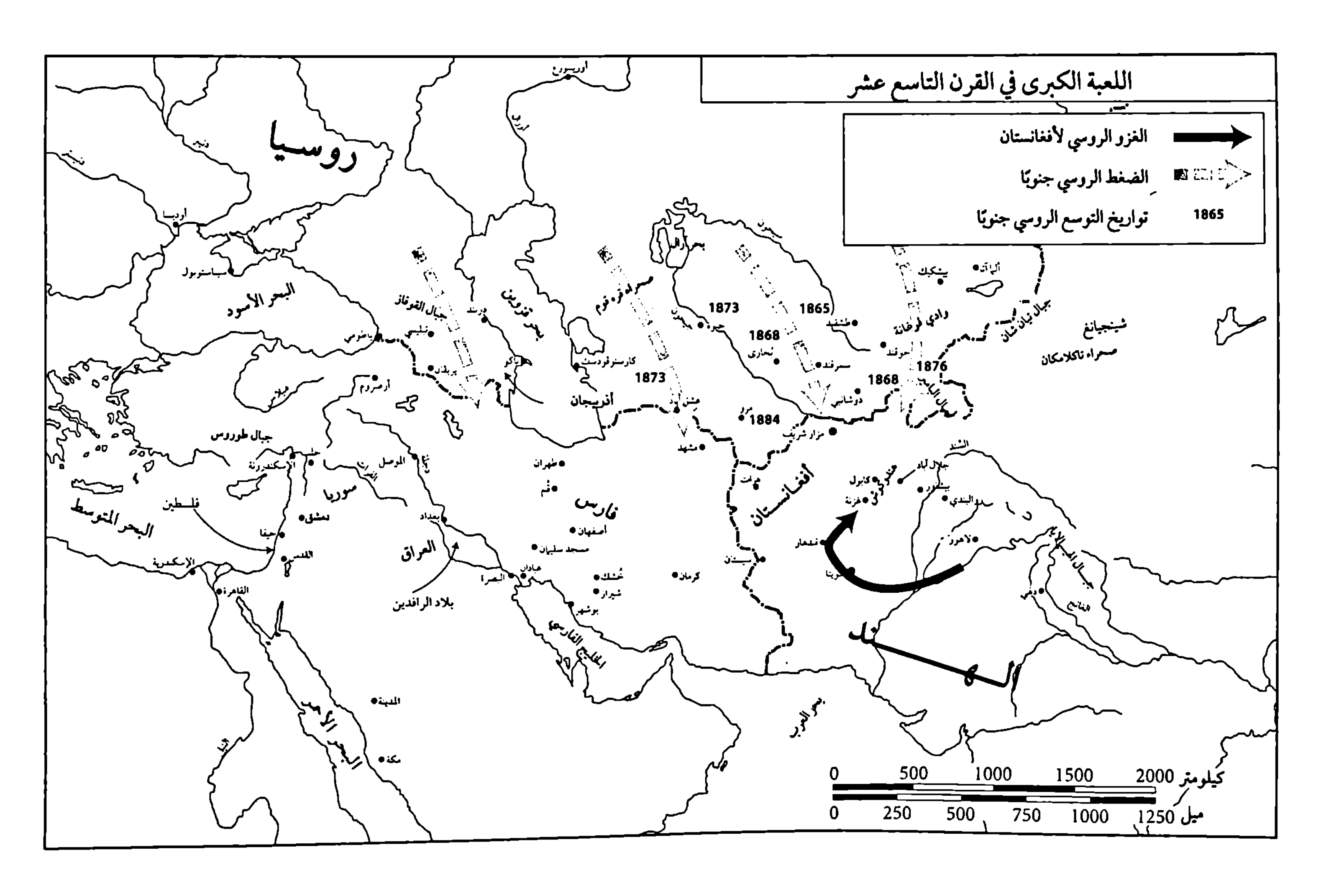
وبدت خطوات من هذا القبيل سطحية، مصحوبة بمزيد من الإجراءات العملية في بيئة متوترة على نحو متزايد؛ حيث كان البريطانيون يشعرون بالقلق -على نحو مستمر- بشأن خسارة الأرض أمام خصومهم. وانهمكت بريطانيا وروسيا في العمل على إنشاء شبكات التجسس، وكسب ولاء الأهالي، وترفيع مقامات أصحاب النفوذ، وبالغتا في ذلك إلى حد الهوس. وكان الكولونيل ماكلين (Maclean) -من سلاح الفُرسان بالبنجاب، والخدمة السياسية الهندية- أحد أولئك الذين كُلِّفوا بمراقبة مجريات الحوادث التي تقع على التخوم بين بلاد فارس، والهند، وأفغانستان في العقد التاسع من القرن التاسع عشر. ورتَّب ماكلين مجموعات من التجار والوكلاء لتبادل البرقيات محليًّا، وحثهم على نقل المعلومات حول كل ما يجري في المنطقة. كما استضاف ماكلين العلماء المسلمين، وقدم لهم هدايا من الشيلان، والسجاد، والسيجار، بل والخواتم الماسية من أجل إشعار الأهالي بفوائد التعاون مع بريطانيا. وبرر ماكلين هذه الرّشا بوصفها طريقة لدعم الأصدقاء من أصحاب النفوذ. والحق أن

(1) Queen Victoria to Disraeli, Hughenden Papers, 23 July 1877; L. Knight, 'The Royal Titles Act and India', *Historical Journal* 11.3 (1968), 493.

(2) Robert Lowe, House of Commons, 23 March 1876, Hansard, 228, 515–16.

(3) Sir William Fraser, House of Commons, 16 March 1876, Hansard, 228, 111; Benjamin Disraeli, House of Commons, 23 March, Hansard, 227, 500.

(4) Knight, 'Royal Titles Act', 494.



اللعبة الكبرى في القرن التاسع عشر
الغزو الروسي لأفغانستان
الضغط الروسي جنوبًا
تواريخ التوسع الروسي جنوبًا
1865
روسيا
البحر الأسود
بحر قزوين
جبال القوقاز
أذربيجان
فارس
طهران
أصفهان
كرمان
شيراز
مشهد
أفغانستان
كابول
قندهار
العراق
بغداد
البصرة
بلاد الرافدين
سوريا
دمشق
فلسطين
البحر المتوسط
القاهرة
الإسكندرية
البحر الأحمر
المدينة
مكة
الخليج الفارسي
الهند
بحر العرب
سمرقند
بخارى
وادي فرغانة
شينجيانغ
صحراء تاكلاماكان
جبال طوروس
1873
1868
1876
1884
كيلومتر 0 500 1000 1500 2000
ميل 0 250 500 750 1000 1250

البريطانيين عملوا على تقوية السلطة الدينية في منطقة متصدعة، كانت محورًا للمنافسة الشديدة من الخارج[1].

ومن منظور بريطانيا، كان هناك قلق حقيقي بشأن نوايا روسيا وقدراتها، والتهديد الذي بات توسعها يشكله في آسيا الوسطى على دفاعاتها في الهند. وتحول الحديث في لندن إلى حتمية المواجهة العسكرية مع روسيا، حيث نصح دزرائيلي الملكة بالاستعداد لإصدار إذن بإرسال القوات البريطانية «إلى الخليج العربي، و[أن] إمبراطورة الهند ينبغي أن تأمر جيوشها بتطهير آسيا الوسطى من الموسكوية، ودفعهم إلى حدود بحر قزوين»[2]. وتوترت السلطات البريطانية في الهند كل التوتر؛ حتى إن نائب الملك، اللورد ليتون (Lord Lytton)، لم يأمر بغزو أفغانستان مرة واحدة بين عامي ١٨٧٨-١٨٨٠ فحسب، بل أمر بذلك مرتين، حيث نصب حاكمًا صوريًا على العرش في كابول. عندئذ أخذت بريطانيا تتملق بلاد فارس، وتحاول إقناعها بالتوقيع على اتفاقية هرات التي تلتزم بموجبها بحماية آسيا الوسطى من التقدم الروسي. ولم تكن هذه المهمة سهلة قط؛ حيث كان لبلاد فارس مصالحها الخاصة في هذه المنطقة، كما أنها كانت تلعق جروحًا لم تكن قد اندملت بعد في أعقاب التدخل البريطاني الأخير الذي أضر بمصالحها، مُعليًا مصالح أفغانستان على حسابها[3]. وفي غضون ذلك، اتُّخِذت خطوات لبناء اتصالات خارج قندهار، بغرض تكوين أنظمة إنذار مبكر أكثر كفاءة، ويسعها استشعار أي مبادرة روسية، عسكرية كانت، أو غير ذلك[4].

وبذل كبار الضباط جهودًا عظيمة في تقييم كيفية التعامل مع غزو روسي محتمل للهند البريطانية (Raj). وأُعدت سلسلة من التقارير التي نظرت في المسألة من منظور استراتيجي واسع منذ أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر. فقد اعتُرِف بأن الخلافات والتوترات مع روسيا على صعيد القضايا الأخرى قد يكون لها تأثير في الشرق في المستقبل المنظور. ونظرت إحدى المذكرات في «الإجراءات التي ينبغي اتخاذها في الهند في حال قررت إنجلترا التحالف مع العثمانيين في حربهم على روسيا» في أعقاب الاجتياح الروسي لمنطقة البلقان في عام ١٨٧٧. وتساءلت مذكرة أخرى، قُدِّمت في عام ١٨٨٣، «هل يسع روسيا غزو الهند؟» كما تساءلت أخرى كُتبت في أعقابها، «ما هي نقاط الضعف في روسيا؟ وكيف أثرت الحوادث الأخيرة على سياستنا الحدودية في الهند؟» وتتضح دلائل جدية هذه

(1) L. Morris, 'British Secret Service Activity in Khorasan, 1887–1908', *Historical Journal* 27.3 (1984), 662–70.

(2) Disraeli to Salisbury, 1 April 1877, W. Monypenny and G. Buckle (eds), *The Life of Benjamin Disraeli, Earl of Beaconsfield* (London, 1910–20), 6, p. 379.

(3) B. Hopkins, 'The Bounds of Identity: The Goldsmid Mission and Delineation of the Perso-Afghan Border in the Nineteenth Century', *Journal of Global History* 2.2 (2007), 233–54.

(4) R. Johnson, '"Russians at the Gates of India"? Planning the Defence of India, 1885–1900', *Journal of Military History* 67.3 (2003), 705.

التساؤلات من خلال تعيين صاحبها، قائدًا أعلى للقوات الهندية في عام ١٨٨٥. ذاك هو الجنرال المتشدد السير فريدريك روبرتس (General Sir Frederick Roberts) (الذي نال لقب لورد لاحقًا)[١].

ولم يكن الجميع ينظرون هذه النظرة القاتمة للوضع في آسيا، حتى بعد أن استولى البريطانيون على مجموعة من خطط الغزو المفصلة التي أعدها الجنرال ألكسي كوروباتكين (Alexei Kuropatkin) في عام ١٨٨٦[٢]. فقد شعر هنري براكينبوري (Henry Brackenbury)، وكان مديرًا للاستخبارات العسكرية- أن التهديد الروسي مبالغ فيه، سواءً من حيث تقدير بريطانيا استعداد روسيا للهجوم من جهة، أو من حيث استعداد جيش القيصر للاضطلاع بمهمة كهذه من جهة أخرى[٣]. وكان جورج كرزون (George Curzon) -وهو عضو برلماني شاب واعد، وزميل حائز على جائزة (All Souls) آنئذ، وفي غضون عقد من الزمن أضحى نائبًا لملك الهند- متعصّبًا لهذا الرأي، ولم يرَ أن هناك خطة رئيسة، أو استراتيجية كبرى تتبعها روسيا للعناية بمصالحها في الشرق. وكتب -في عام ١٨٨٩- قائلًا: «سواءً كانت [سياسة روسيا] متسقة، أو كانت تتصرف كيفما اتفق، أو تتبع سياسة شاملة، فأنا أظن أن الروس يتبعون سياسة «من اليد إلى الفم»، إنها سياسة انتظار ما تسفر عنه الحوادث، والاستفادة من أخطاء الغير، بل إن الروس يرتكبون مثل الأخطاء هذه نفسها إلى حدٍّ ما»[٤].

* * *

من المؤكد أن التفكير الطموح، والتمني قد امتزجا في المواقف الروسية تجاه المشهد العام في آسيا الوسطى، وفيما يتعلق بالهند خاصةً. وكان هناك قادة متهورون في الجيش تحدثوا عن مخططات ضخمة ترمي لحلول روسيا محل بريطانيا بوصفها القوة المهيمنة في شبه القارة الهندية، بينما اتخذت روسيا خطوات وشَت بأن اهتمامها بالهند بعيد كل البعد عن السلبية. فعلى سبيل المثال، أرسلت روسيا بعضًا من ضباطها في دورات لدراسة اللغة الهندية، استعدادًا لتدخل وشيك في الهند. بل شجع بعض أهل الهند الروس على التقدم أيضًا، مثلما فعل المهراجا دوليب سينغ (Duleep Singh) البنجابي على سبيل المثال، عندما كتب إلى القيصر ألكسندر الثالث (Alexander III) يعده «بتحرر نحو ٢٥٠ ألف من رعاياي من نير الحكم البريطاني القاسي»، وادعى أنه يتحدث نيابة عن «معظم الأمراء الأقوياء في الهند»، وبدا حديثه وكأنه دعوة مفتوحة لروسيا لتوسيع حدودها جنوبًا[٥].

بيد أن الأمور -من الناحية العملية- لم تكن لتسير بهذه البساطة قط؛ وذاك لسبب واحد، لقد كانت

---

(1) Ibid., 714–18.

(2) General Kuropatkin's Scheme for a Russian Advance Upon India, June 1886, CID 7D, CAB 6/1.

(3) Johnson, '"Russians at the Gates of India"', 734–9.

(4) G. Curzon, *Russia in Central Asia in 1889 and the Anglo-Russian Question* (London, 1889), pp. 314–15.

(5) A. Morrison, 'Russian Rule in Turkestan and the Example of British India, c. 1860–1917', *Slavonic and East European Review* 84.4 (2006), 674–6.

روسيا تناضل بالفعل لحل القضية الشائكة المتعلقة بكيفية دمج المناطق الجديدة الشاسعة التي دخلت مؤخرًا في مدارها الإمبراطوري. وناضل المسؤولون الروس الذين أُرسلوا إلى تُرْكِستان لضبط سجلات الأراضي المعقدة والمتناقضة غالبًا، وقوبلت محاولاتهم لتنظيم الضرائب، والقوانين المحلية بمعارضة محلية كان اندلاعها حتميًّا[1]. ثم كانت هناك الحقائق القائمة التي ولَّدها الرأي العام، والتي أدت إلى ظهور ما أسماه مجلس الوزراء في سان بطرسبرج «المزاج المتعصب على حدودنا الشرقية» الناتج عن انتشار الإسلام في كل جانب من جوانب الحياة اليومية لـ «الروس الجدد» الذين باتوا جزءًا من إمبراطورية القيصر آنئذ[2]. وبلغ قلق الروس من التمرد والعصيان في هذه البقاع -المضمومة حديثًا- مبلغه؛ حتى إن الحكومة تنازلت عن الخدمة العسكرية الإلزامية في هذه المناطق، وأبقت على المطالبات المالية منخفضة على نحو متعمد. ومن ثم لم يتمتع الفلاحون الروس أنفسهم -كما لَحَظَ أحد المفكرين البارزين- بمثل هذه المعاملة الكريمة[3].

ونشأت المضاعفات أيضًا من الآراء حول الأهالي. فقد لفت النقاد الروس الانتباه إلى المواقف البريطانية المتحيزة للغاية؛ حيث لحظوا أن الجنود البريطانيين عاملوا التجار في أسواق طشقند «على أنهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى البشر». وذات أمسية، رفضت زوجة قبطان بريطاني -على ما يبدو- السماح لمهراجا كشمير بتناول العشاء معها، بدعوى أنه «هندوسي قذر dirty Hindu» على حد تعبيرها. وعلى الرغم من انتقادات الروس لمثل هذه المواقف، فإن مواقفهم لم تكن أكثر استنارة من المواقف البريطانية؛ فربما بثَّ ضباط القيصر لبعضهم بعضًا الشكايات من تلك الطريقة التي تعامل بها البريطانيون مع الأهالي، بيد أنه لم يكن ثم دليل -يُعرف فيُذكر- يُثبت أنهم رأوا الأشياء على نحو مختلف حقًّا؛ بل كتب زائر روسي من القرن التاسع عشر للهند قائلًا: «كل الهندوس بلا استثناء، كرَّسوا كل مهاراتهم وأرواحهم لأبشع أنواع الربا. والويل كل الويل، للمواطن الشقي الذي تُغريه وعودهم الكاذبة!»[4].

ومع ذلك، فقد كان هناك اندفاع -وقوده الإثارة- بشأن العوالم الجديدة التي أخذت روسيا تتصل بها مؤخرًا، كما أوضح وزير الداخلية، بيوتر ڤالويف (Pyotr Valuev)، في يومياته عام ١٨٦٥ عندما كتب قائلًا: «استولى الجنرال تشيرنيايف (Cherniaev) على طشقند. لا أحد يعرف لماذا أو لأي غرض... [لكن] هناك شيء مثير في كل ما نقوم به على الحدود البعيدة لإمبراطوريتنا» واستطرد قائلًا:

(1) B. Penati, 'Notes on the Birth of Russian Turkestan's Fiscal System: A View from the Fergana *Oblast*', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 53 (2010), 739–69.

(2) D. Brower, 'Russian Roads to Mecca: Religious Tolerance and Muslim Pilgrimage in the Russian Empire', *Slavic Review* 55.3 (1996), 569–70.

(3) M. Terent'ev, *Rossiya i Angliya v Srednei Azii* (St Petersburg, 1875), p. 361.

(4) Morrison, 'Russian Rule in Turkestan', 666–707.

إن توسيع حدود البلاد كان عملًا رائعًا. ووصلت روسيا أولًا إلى نهر آمور، ثم نهر أوسوري. والآن إلى طشقند[1].

ومع ذلك، استمر نفوذ روسيا وتوسعها في الشرق يسيران بوتيرة متسارعة على الرغم من المشكلات الناجمة عن ذلك التوسع؛ ومن ثم طورت روسيا طرق الحرير خاصتها. وأدى إنشاء السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، والاتصال بالسكك الحديدية الشرقية الصينية، إلى ازدهار فوري في التجارة، حيث تضاعف حجمها ثلاث مرات تقريبًا بين عامي ١٨٩٥-١٩١٤[2]. ودعم ذلك كيانات جديدة مثل البنك الروسي-الصيني (Russo-Chinese Bank)، الذي أُنشئ لتمويل التوسع الاقتصادي في الشرق الأقصى[3]. كما قال رئيس الوزراء الروسي، بيوتر ستوليبين (Pyotr Stolypin)، أمام مجلس الدوما (Duma) -وهو البرلمان الروسي- في عام ١٩٠٨: لطالما كان شرق روسيا منطقة تغص بالآفاق والموارد، «إن أراضينا الحدودية البعيدة، إنما هي بيئة طاردة، بيد أنها غنية بالذهب، والخشب، والفراء، والمساحات الشاسعة الصالحة للزراعة». واستطرد قائلًا: على الرغم من قلة عدد السكان الآن، إلا أن هذه المساحات لن تظل غير مستغلة لفترة طويلة. لقد كانت روسيا بحاجة إلى اغتنام الفرص المتاحة لها آنذاك[4].

بيد أن هذا كله لم يكن مطمئنًا من منظور بريطانيا، بالنظر إلى مدى غيرتها على مركزها في الشرق الأقصى. وكان فتح الأسواق في الصين على وجه الخصوص أمرًا صعبًا. فعلى سبيل المثال، تعامل بلاط تشيان لونغ (Qianlong) مع أول سفارة بريطانية في عام ١٧٩٣، بتعالٍ، بعد مطالبة تلك السفارة بالحق في إنشاء طائفة تجارية في البلاد. وكانت صلات الصين قد توسعت حتى طالت «كل بلد تحت السماء»، وعلى هذا النحو، لم يكن الطلب البريطاني مفاجئًا للسلطات الصينية؛ فقد قال الإمبراطور الصيني للملك جورج الثالث (George III) في رسالة جوابية بعَث بها إليه: «كما يرى سفيرك -بأم عينيه- لدينا كل شيء». واستطرد الإمبراطور قائلًا: «ولا قيمة عندنا لأشياء غريبة أو مبتكرة، ولم نر فائدة تُذكر للمصنوعات التي تنتجها بلادك»[5].

والحق أن هذا الرد كان أشبه بجعجعة دون طحن؛ ذاك أن الاتفاق أُبرم في النهاية عندما آن الأوان.

---

(1) *Dnevnik P. A. Valueva, ministra vnutrennikh del*, ed. P. Zaionchkovskii, 2 vols (Moscow, 1961), 2, pp. 60–1.

(2) M. Sladkovskii, *History of Economic Relations between Russia and China: From Modernization to Maoism* (New Brunswick, 2008), pp. 119–29; C. Paine, *Imperial Rivals: China, Russia and their Disputed Frontier, 1858–1924* (New York, 1996), p. 178.

(3) B. Anan'ich and S. Beliaev, 'St Petersburg: Banking Center of the Russian Empire', in W. Brumfield, B. Anan'ich and Y. Petrov (eds), *Commerce in Russian Urban Culture, 1861–1914* (Washington, DC, 2001), pp. 15–17.

(4) P. Stolypin, *Rechy v Gosudarstvennoy Dume (1906–11)* (Petrograd, 1916), p. 132.

(5) E. Backhouse and J. Blood, *Annals and Memoirs of the Court of Peking* (Boston, 1913), pp. 322–31.

بيد أن هذا الرد العدواني استند -إلى حد ما- إلى الوعي التام بأن بريطانيا أنشبت مخالبها هنا وهناك، ومن ثم فقد كان هذا الهجوم أفضل شكل من أشكال الدفاع[1]. ولم تكن الهواجس الصينية الأولية محض أوهام -كما سرعان ما أكدت الحوادث ذلك- ذاك أنه ما أن مُنح البريطانيون الامتيازات التجارية، لم يترددوا في استخدام القوة للحفاظ على نفوذهم، والعمل على توسيع نطاقه. وكانت تجارة الأفيون تجارة محوريةً في التوسع التجاري، على الرغم من الاحتجاجات الشرسة من قِبل الصينيين، الذين تجاهلت السلطات البريطانية غضبهم من الآثار المدمرة للإدمان على المخدرات ببساطة[2]. وتوسعت تجارة الأفيون إلى حدٍّ كبير في أعقاب معاهدة نانكينج (Nanking) في عام ١٨٤٢، وهي المعاهدة التي فتحت الطريق أمام البريطانيين للوصول إلى الموانئ التي كانت التجارة فيها مقيدة سابقًا، وتنازلت بموجبها أيضًا عن هونج كونج للبريطانيين؛ وجرى منح المزيد من الامتيازات للبريطانيين بعد زحف القوات البريطانية والفرنسية على بكين في عام ١٨٦٠، وما أعقبه من نهب القصر الصيفي القديم، وإحراقه[3].

ورأى بعض الناس في هذه اللحظة، لحظة حاسمة ميزت فصلًا آخر في قصة صعود الغرب. ونُشر تقرير في الصحافة البريطانية بعنوان «هكذا كان قدر إنجلترا؛ تحطيم النسيج الحكومي الذي لطالما حير العالم الأوروبي، وإماطة اللثام عن خوائه وشروره أمام أنظار الخاضعين له». وكان ثَم كاتب آخر على القدر نفسه من الفظاظة؛ ذاك أنه كتب قائلًا: جرى تفكيك «البربرية الغامضة والفريدة» للإمبراطورية الصينية من خلال «قوة الحضارة الغربية الفعالة والمتطفلة»[4].

ولما سعت بريطانيا لمواجهة الظهور المستمر لروسيا في الشرق الأقصى، اتخذت قرارًا في عام ١٨٨٥ باحتلال جزر كوموندو (Komondo) قبالة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الكورية «بوصفها قاعدة لحصار القوات الروسية في المحيط الهادئ، وأيضًا «بوصفها محطة متقدمة لدعم العمليات ضد ڤلاديڤوستوك (Vladivostock)» كما قيل أمام مجلس الوزراء البريطاني آنئذ[5]. وكانت هذه خطوة

(1) M. Mosca, *From Frontier Policy to Foreign Policy: The Question of India and the Transformation of Geopolitics in Qing China* (Stanford, CA, 2013).

(2) R. Newman, 'Opium Smoking in Late Imperial China: A Reconsideration', *Modern Asian Studies* 29.4 (1995), 765–94.

(3) J. Polachek, *The Inner Opium War* (Cambridge, MA, 1991).

(4) C. Pagani, 'Objects and the Press: Images of China in Nineteenth-Century Britain', in J. Codell (ed.), *Imperial Co-Histories: National Identities and the British and Colonial Press* (Madison, NJ, 2003), p. 160.

(٥) مذكرة من اللورد نورثبروك (Northbrook) لمجلس الوزراء، بتاريخ ٢٠ مايو ١٨٨٥:

Memorandum by Lord Northbrook for the Cabinet, 20 May 1885, FO 881/5207, no. 29, p. 11.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

I. Nish, 'Politics, Trade and Communications in East Asia: Thoughts on Anglo-Russian Relations, 1861–1907', *Modern Asian Studies* 21.4 (1987), 667–78.

تهدف إلى حماية موقع بريطانيا الاستراتيجي -وتجارتها مع الصين في المقام الأول- بضربة استباقية إذا لزم الأمر. وفي عام ١٨٩٤ -قبل أن يتيح إنشاء السكك الحديدية إمكانيات جديدة- دفعت بريطانيا أكثر من ٨٠٪ من جميع عائدات الجمارك المحصَّلة في الصين، سواء من خلال الحكومة البريطانية مباشرة، أو الشركات البريطانية- التي حملت سفنها أكثر من أربعة أخماس التجارة الصينية إجمالًا. لقد كان من الواضح أن صعود روسيا، وصعود الطرق البرية الجديدة التي ستحمل المنتجات إلى أوروبا، سيكونان على حساب بريطانيا.

* * *

في هذا السياق من المنافسة المستمرة والتوتر الذي نجم عنها، أضحى معروفًا أن روسيا بدأت في اتخاذ خطوات لجذب بلاد فارس إلى مدارها في أواخر العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وأثار هذا احتمال تكوين تحالف قد يشكل تهديدًا للطريق الشمالي الغربي المفضي للهند. واعتُرِف مسبقًا في لندن -وإن كان ذلك بعد لأي- بأن الضغط الروسي على شبه القارة الهندية من خلال أفغانستان عبر هندوكوش سيكون محدودًا على الأرجح. لقد كان يسهُل على الاستراتيجيين -المسلحين بالأقلام الرصاص والخرائط- رسم طريق من آسيا الوسطى عبر هذه المنطقة التي تنطوي على تحديات جغرافية جمة. بيد أنه اعتُرِف في النهاية بأن التضاريس الجغرافية تحول دون عمل عسكري كبير، بسبب الممرات الجبلية المعروفة بأنها خطرة للغاية، وأن اختراقها أمر عسير للغاية، وإن لم يجرِ استبعاد احتمال شن روسيا من خلالها هجومًا مفاجئًا على نطاق محدود. بيد أن الطريق إلى الهند من خلال بلاد فارس كان مسألة أخرى. ونشطت روسيا على نحو متزايد على حدودها الجنوبية، حيث احتلت مرو في عام ١٨٨٤ في خطوة فاجأت المسؤولين والعملاء البريطانيين -الذين علموا بهذا النبأ لأول مرة من خلال الصحف- وشرع الروس في تملق القيادة في طهران. ومع وصول حدود روسيا إلى أقل من ٢٠٠ ميل من هرات، بات الطريق إلى قندهار، ومن ثم الهند مفتوحًا أمام روسيا على مصراعيه. وكان الأمر الأكثر إثارة للقلق هو أن ذلك التوسع أُتبع بمشروعات البنية التحتية لربط مناطق جديدة بمناطق في قلب روسيا؛ ففي عام ١٨٨٠، بدأ تشييد خط السكك الحديدية العابر لبحر قزوين، وسرعان ما وصل الخط إلى سمرقند وطشقند. وبحلول عام ١٨٩٩، ربط خط سكة حديدية مرو بكشك، على مقربة من هرات[1]. ولم تكن خطوط السكك الحديدية مجرد خطوات رمزية؛ بل كانت شرايين تتيح توصيل المؤن والسلاح والجنود إلى البوابة الخلفية للإمبراطورية البريطانية. وأكد المارشال اللورد روبرتس (Lord Roberts) لضباط القيادة الشرقية بُعيد ذلك، أنه من المؤسف أن روسيا ما زالت تمد خطوط السكك الحديدية حتى الآن. ومع ذلك، فقد أُنشئ خط «لا يسعنا السماح لروسيا بعبوره». وذكر أنه إذا حدث ذلك، فسيكون ذلك سببًا للحرب «*Casus belli*»[2].

---

(1) D. Drube, *Russo-Indian Relations, 1466–1917* (New York, 1970), pp. 215–16.

(2) Lord Roberts, 'The North-West Frontier of India. An Address Delivered to the Officers of the Eastern Command on 17th November, 1905', *Royal United Services Institution Journal* 49.334 (1905) 1355.

ومثلت خطوط السكك الحديدية أيضًا تهديدًا اقتصاديًا؛ ففي عام ١٩٠٠، أرسلت السفارة البريطانية في سان بطرسبرج إلى لندن ملخصًا لمنشور كتبه ضابط روسي يدعو إلى تمديد خط السكك الحديدية إلى بلاد فارس وأفغانستان. واعترف ذلك الضابط بأنه من المحتمل أن ينظر البريطانيون شذرًا إلى نظام النقل الجديد، بيد أن هذا لم يكن مفاجئًا؛ ذاك أن خطوط السكك الحديدية التي امتدت عبر آسيا من شأنها أن «تضع التجارة الكاملة للهند وشرق آسيا مع روسيا، وأوروبا في أيدي [روسيا] في الأخير»[1]. وكان هذا ضربًا من ضروب المبالغة، كما أشار أحد الدبلوماسيين الكبار في معرض رده على هذا التقرير؛ حيث كتب تشارلز هاردينج (Charles Hardinge) قائلًا: «إن الاعتبارات الاستراتيجية التي طرحها الكاتب ليست ذات قيمة كبيرة»؛ لأنه سيكون من الجنون لروسيا أن تتحرك في هذه المنطقة بالنظر إلى سيطرة بريطانيا على الخليج العربي[2].

ومع ذلك، فقد أضاف هذا اللغط حول التوسع التجاري لروسيا في آسيا الوسطى سببًا آخر لقلق بريطانيا، في الوقت الذي كانت المخاوف البريطانية تتضاعف بالفعل. وكما هي الحال دائمًا، شوهدت الأشباح والمؤامرات في كل زاوية، وسجلها دبلوماسيون بريطانيون مخلصون شعروا بالقلق. وطُرِحت أسئلة محرجة حول سبب تأخر اكتشاف وجود دكتور باشوسكي (Dr Paschooski) في بوشهر على نحو أسرع مما كان، إضافة إلى أخبار لاحقة عما إذا كانت مزاعمه بأنه كان يعالج ضحايا الطاعون صحيحة حقًا، أم لا. كما نُظر إلى زيارة نبيل روسي، يُعرف باسم «الأمير دابيجا Prince Dabija»، بريبة شديدة، وجرى تسجيل حقيقة أنه بدا «متحفظًا للغاية بشأن الإفصاح عن تحركاته ونواياه» وتمريرها إلى لندن على النحو الواجب[3]. وانتقلت روسيا إلى صدارة جدول أعمال اجتماعات مجلس الوزراء في لندن، ولفتت انتباه رئيس الوزراء نفسه، وأصبحت إحدى أهم أولويات وزارة الخارجية.

وعلى المدى القصير، كانت بلاد فارس الساحة التي اشتدت فيها المنافسة بين بريطانيا وروسيا. لقد واصل حكام بلاد فارس النمو بفضل القروض الميسرة السخية التي قدمها أولئك الذين سعوا إلى بناء علاقات جيدة مع أمة تنعم بموقع استراتيجي تُحسَد عليه بوصفها نقطة ارتكاز بين الشرق والغرب. وكانت بريطانيا تلبي بعناية تلك النزوات الشاذة، وشهوات حكام بلاد فارس للمال في أواخر القرن

---

(١) تجد ملخص منشور ريتيتش (Rittich) في:

'Railways in Persia', Part I, p. 2, Sir Charles Scott to the Marquess of Salisbury, St Petersburg, 2 May 1900, FO 65/1599.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

P. Kennedy and J. Siegel, *Endgame: Britain, Russia and the Final Struggle for Central Asia* (London, 2002), p. 4.

(2) 'Memorandum by Mr. Charles Hardinge', p. 9, to the Marquess of Salisbury, St Petersburg, 2 May 1900, FO 65/1599.

(3) Foreign Secretary, Simla, to Political Resident, Persian Gulf, July 1899, FO 60/615.

التاسع عشر حتى عام ١٨٩٨، عندئذ فجَّر الشاه مظفر الدين -ذي الشارب الضخم- قنبلة، عندما رفض قرضًا جديدًا مقترحًا بقيمة مليوني جنيه إسترليني. وبادرت بريطانيا إلى إرسال مسؤول رفيع المستوى على الفور لمعرفة ما الذي يكمن وراء هذا الرفض، ولكن جرى توقيف هذا المسؤول. وتابع اللورد سالزبوري (Salisbury)، رئيس الوزراء البريطاني، الوضع بنفسه، وأصدر تعليمات إلى وزارة الخزانة بتيسير الشروط، وزيادة التسهيلات المقترحة. وبدأت الشائعات تسري حول ما يحدث وراء الأكمة، ثم أُميط اللثام عن الموقف أخيرًا؛ لقد عرضت روسيا إقراض بلاد فارس مبلغ أكبر بكثير مما كانت بريطانيا مستعدة لإقراضه، وبشروط أفضل بكثير من الشروط البريطانية[1]. وكانت هذه مناورة ذكية من قِبل سان بطرسبرج.

وارتفعت عائدات الضرائب في روسيا على نحو حاد بينما بدأ الاستثمار الأجنبي في التدفق من الخارج. وبدأت الطبقة الوسطى تظهر ببطء، ولكن بثبات. فظهر أناس من قَبيل رجال مسرحية بستان الكرز *Cherry Orchard* لـ تشيكوف (Chekhov) من أمثال: لوباخين (Lopakhin)، الذي كان من الجيل الثاني من أقنان الأرض في الماضي، وأفاد من التغيير الاجتماعي، وظهور الأسواق المحلية الجديدة، وفرص التصدير السانحة لتحقيق الثروات لأنفسهم. ويستهوي المؤرخين الاقتصاديين تسليط الضوء على النمو من خلال ملاحظة الزيادات الحادة في معدلات التحضر، وفي إنتاج الحديد الزهر، وفي امتداد خطوط السكك الحديدية الجديدة التي كان يجرى إنشاؤها. ومع ذلك فإن المرء بحاجة إلى النظر إلى الأدب، والفن، والرقص، والموسيقى في هذه الحقبة أيضًا. وقد تكفي الإشارة -في هذا الصدد- إلى شهرة تولستوي (Tolstoy)، وكاندينسكي (Kandinskii)، ودياجيليف (Diaghilev)، وتشايكوفسكي (Tchaikovskii) وغيرهم، للتعرف على ما كان يجري في روسيا آنئذ على الصعيدين السياسي والثقافي. باختصار لقد كانت روسيا تزدهر.

أخذت روسيا تزدهر شيئًا فشيئًا، وكان من المحتم أن تقدّم مبادرات إلى بلاد فارس تغازل بها نهم الأخيرة إلى المال، والذي نشأ جزئيًا عن أوجه قصور هيكلية في الإدارة الفارسية، وجزئيًا أيضًا من الأذواق المكلفة للطبقة الحاكمة. وبعد أن أبلغ السير مورتيمر دوراند (Mortimer Durand) السفير البريطاني في طهران، بمعلومات جمعها من مصادر نمساوية في إستانبول في أوائل عام ١٩٠٠، كشفت عن أن حكومة القيصر أبدت استعدادها لإقراض بلاد فارس المال والمزايدة على بريطانيا في هذا الصدد. ولما تسرَّب هذا الخبر اندلعت حمم الجحيم في لندن[2]، وشُكلت اللجان للنظر في مد خط السكة الحديد من كويتا إلى سيستان، وبناء شبكة من خطوط التلغراف «لإنقاذ

(1) R. Greaves, 'British Policy in Persia, 1892–1903 II', Bulletin of the School of Oriental and AfricanStudies 28.2 (1965), 284–8.

(2) Durand to Salisbury, 27 January 1900, FO 60/630.

جنوب بلاد فارس الوقوع في قبضة [روسيا]»، على حد تعبير اللورد كرزون (Lord Curzon)[1].

ووُضِعت مقترحات جذرية لمواجهة التقدم الروسي الملحوظ، بما في ذلك تنفيذ أعمال الري الرئيسة في منطقة سيستان بوصفها طريقة لاستصلاح الأراضي من جهة، وبناء العلاقات محليًا من جهة أخرى؛ حتى إن حديثًا دار ثمة عن سعي البريطانيين لاستئجار أراض في مقاطعة هلمند، بحيث تتمكن من خلالها من حماية الطرق المؤدية إلى الهند على نحو فعال[2]. كما قال اللورد كرزون في عام ١٩٠١: «نريد دولًا عازلة بيننا وبين روسيا. لقد زالت تلك الدول من الوجود» واحدة تلو الأخرى، فقد زالت الصين، وتركستان، وأفغانستان من المشهد. وها قد حان دور بلاد فارس. واستطرد قائلًا: إن الحاجز بيننا وبين الروس «قد تقلص إلى حد نحافة الرقاقة»[3].

وكان اللورد سالزبوري (Salisbury) يشعر باليأس، وحث وزير خارجيته، اللورد لانسداون (Lansdowne)، على إيجاد طريقة لإقراض بلاد فارس المال. وكتب رئيس الوزراء في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠١: «يبدو الوضع... ميؤوسًا منه». وترددت وزارة الخزانة في تحسين عرضها، بعد أن أبدت انزعاجها من السرعة التي سعى بها الشاه وحاشيته إلى زيادة مبلغ القرض المحتمل زيادة كبيرة. وأخذت خيارات بريطانيا في النفاد، وكتب رئيس الوزراء: «إذا لم يجر تدبير الأموال، ستنشئ روسيا محمية [في بلاد فارس] عمليًا، ولن نتمكن من إنقاذ موانئ الخليج من السقوط فيها إلا من خلال اللجوء إلى القوة»[4].

وكانت بريطانيا قد أظهرت تخوفًا من حدوث ذلك في العام السابق عندما وردتها أنباء تفيد بأن روسيا تستعد للسيطرة على ميناء بندر عباس، وهو موقع حيوي استراتيجي يسيطر على مضيق هرمز، وهو أضيق نقطة في الخليج العربي. وكما قال عضو مرتاع في مجلس اللوردات: «إن وجود ترسانة بحرية في الخليج العربي في أيدي قوة عظمى لن يكون تهديدًا لتجارتنا مع الهند والصين فحسب، بل

---

(1) Minute by the Viceroy on Seiśtan, 4 September 1899, FO 60/615, p. 7.

عن شبكات الاتصالات الجديدة المقترحة، انظر:

'Report on preliminary survey of the Route of a telegraph line from Quetta to the Persian frontier', 1899, FO 60/615.

(2) R. Greaves. 'Sisłan in British Indian Frontier Policy', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 49.1 (1986). 90–1.

(3) Lord Curzon to Lord Lansdowne, 15 June 1901,

أوراق لانسداون (Lansdowne)، نقلًا عن:

Greaves, British Policy in Persia', 295.

(4) Lord Salisbury to Lord Lansdowne, 18 October 1901,

أوراق لانسداون (Lansdowne)، نقلًا عن:

Greaves. 'British Policy in Persia', 298.

خطرًا على تجارة استراليا أيضًا»[1]. وأمر اللورد لانسداون السفن الحربية البريطانية باتخاذ تدابير مضادة في حالة رصد أي تحرك من قبل الروس، وأصر على أنه: «يجب أن نعد إنشاء أية قوة أخرى لقاعدة بحرية، أو ميناء محصن، في الخليج العربي تهديدًا خطيرًا للغاية للمصالح البريطانية». وقال: إن عواقب تصرف من هذا القبيل ستكون وخيمة. ولم يكن يعني بقوله: «وخيمة» شيئًا آخر سوى الحرب[2].

وحامت الأشباح الروسية في كل مكان. وأنعم مسؤولو وزارة الخارجية -القلقون- النظر في سلسلة من التقارير حول أنشطة الضباط، والمهندسين، والمساحين الروس في بلاد فارس، وكانت تلك التقارير تتدفق عائدة إلى لندن[3]. ونوقشت أهمية إنشاء شركة تجارية جديدة -بدعم من روسيا- وتعمل بين أوديسا على البحر الأسود وبوشهر على الساحل الجنوبي لبلاد فارس بجدية في البرلمان. بينما أبدى أعضاء البرلمان أنفسهم انزعاجهم من التقارير الواثقة التي رصدت وجود شخصيات غامضة زعمت أنها تستكشف «طيورًا، وفراشات وحيوانات أخرى» وكانوا في الواقع عملاء روس يوزعون البنادق والسلاح على رجال القبائل في مناطق حدودية متنازع عليها، ويثيرون روح السخط هناك[4]. ولفت هذا الموقف انتباه الملك إدوارد السابع (Edward VII)، الذي كتب إلى وزير الخارجية في عام ١٩٠١ معربًا عن قلقه من أن «التدخل الروسي يبدو أنه يتمدد يوميًا في بلاد فارس على حساب إنجلترا»، وحثه على إخبار الشاه بأن إخفاقه في كبح جماح الروس، أمر لن تتسامح معه بريطانيا قط[5]. ولم يُؤبه كثيرًا لتقرير رفعه الوزير البريطاني في طهران، السير سيسيل سبرينج- رايس (Sir Cecil Spring-Rice)، ذكر فيه أن الشاه أقسم له بأغلظ الأيمان أنه «لا ينوي اتخاذ إجراء في بلاده، من شأنه أن يسهل على الروس غزو الهند»[6].

* * *

ظل قلق الإمبراطورية البريطانية يتصاعد في الوقت الذي شعرت فيه بالإجهاد. فقد دفعت المواجهة مع البوير (Boers) في جنوب إفريقيا، وانتفاضة يهتوان (Yihetuan) (المعروفة باسم ثورة الملاكمين)

---

(1) Lord Ellenborough, House of Lords, 5 May 1903, Hansard, 121, 1341.

(2) Lord Lansdowne, House of Lords, 5 May 1903, Hansard, 121, 1348.

(3) Greaves, 'Sistan in British Indian Frontier Policy', 90–102.

(4) British Interests in Persia, 22 January 1902, Hansard, 101, 574–628; Earl of Ronaldshay, House of Commons, 17 February 1908, Hansard, 184, 500–1.

(5) King Edward VII to Lansdowne, 20 October 1901,

نقلًا عن:

S. Lee, *King Edward VII*, 2 vols (New York, 1935–7), 2, pp. 154–5.

(6) S. Gwynn, *The Letters and Friendships of Sir Cecil Spring-Rice*, 2 vols (Boston, 1929), 2, p. 85; M. Habibi, 'France and the Anglo-Russian Accords: The Discreet Missing Link', *Iran* 41 (2003), 292.

في الصين مخاوف بريطانيا بأنها معرضة لخطر استنفاد الطاقة في الخارج، الأمر الذي أدى إلى تفاقم المخاوف من التوسع الروسي. وذكر تقرير سوداوي قُدّم إلى مجلس الوزراء في لندن في نهاية عام ١٩٠١ أن الروس سيكونون قادرين على حشد ٢٠٠ ألف رجل في آسيا الوسطى، وأكثر من نصف هذا العدد سيتمركز -على نحو مريب- قرب الحدود الهندية، ما أن يجري تمديد خط السكة الحديد من أورينبورج إلى طشقند[١]. وجاء ذلك في أعقاب تقرير من باتومي (Batumi) في جورجيا عن أن الروس كانوا على وشك نقل ٢٠ ألف رجل إلى آسيا الوسطى، وكان ذلك إنذارًا كاذبًا، كما اتضح بأخَرة[٢]. وكانت المشكلة من منظور بريطانيا أن خياراتها بدت محدودة، فقد كانت تكلفة تعزيز الدفاعات عن الحدود مهلكة، حُسِبت بعد بضع سنوات فبلغت كلفتها نحو ٢٠ مليون جنيه إسترليني، بالإضافة إلى كلفة سنوية متجددة[٣].

ووجد أولئك الذين اعتقدوا أنها مسألة وقت قبل أن تكسر روسيا أغلالها بعض العزاء بإزاء المشاهد العنيفة التي اندلعت في شوارع سان بطرسبرج عام ١٩٠٥، والهزيمة الكارثية لبحرية القيصر في الحرب الروسية اليابانية. ولم يكن بوسع بريطانيا أن تتحمل مقاومة ما أُشير إليه صراحة على أنه «التقدم المروع لروسيا». وكانت هناك حاجة إلى حلول أخرى لمنع تدهور الوضع. واقترحت إحدى الأوراق البحثية التي أعدتها الاستخبارات العسكرية أن الوقت قد حان للاتفاق على شروط مع ألمانيا للتضييق على العقول الروسية[٤].

وتحول الحديث في لندن إلى احتمال التدخل العسكري البريطاني في بلاد الرافدين، وذلك بوصفه جزءًا من الانشغال المحموم بتعزيز الوجود البريطاني في جميع أنحاء الشرق الأوسط. واستعرضت لجنة الدفاع الإمبراطوري إمكانية احتلال البصرة، بينما دار نقاش حماسي حول تقطيع أوصال تركيا الآسيوية للوصول إلى حقول الفرات الغنية. ثم صيغت مقترحات أخرى في عام ١٩٠٦ تقضي بإنشاء خط سكة حديدية يمتد من الخليج العربي إلى الموصل، من شأنه أن يتيح وصول القوات البريطانية إلى النقاط الضعيفة لروسيا في القوقاز، إضافة إلى بعض المزايا الأخرى[٥]. ورُفِضت هذه المقترحات

(1) Report of a Committee Appointed to Consider the Military Defence of India, 24 December 1901, CAB 6/1; K. Neilson, *Britain and the Last Tsar: British Policy and Russia, 1894-1917* (Oxford, 1995), p. 124.

(2) Stevens to Lansdowne, 12 March 1901, FO 248/733.

(3) Morley to Minto, 12 March 1908,

نقلًا عن:

S. Wolpert, *Morley and India, 1906-1910* (Berkeley, 1967), p. 80.

(4) W. Robertson to DGMI, secret, 10 November 1902, Robertson Papers, I/2/4, in Neilson, *Britain and the Last Tsar*, p. 124.

(5) S. Cohen, 'Mesopotamia in British Strategy, 1903-1914', *International Journal of Middle East Studies* 9.2 (1978), 171-4.

-الواحد تلو الآخر- على أساس صعوبة التطبيق العملي أو الكُلفة. كما حذر السير إدوارد جراي (Sir Edward Grey) -وزير الخارجية الجديد- من أن تكلفة الغزو، وتأمين الحدود الجديدة والدفاع عنها، ستصل إلى الملايين[1].

كان لدى جراي فكرة أخرى؛ لقد كان موقع بريطانيا في الشرق محدودًا ومكشوفًا على نحو خطير. وكان المطلب الحيوي هو إعادة توجيه تركيز روسيا بعيدًا عن هذه المنطقة تمامًا. وفي بيان جريء صرح به جراي لصحيفة التايمز (The Times) قبل شهر واحد فقط من تعيينه [وزيرًا للخارجية] -في أواخر عام ١٩٠٥- أوضح فيه أنه سيكون هناك الكثير الذي يمكن تحقيقه إذا أمكن الوصول إلى تفاهم حول «ممتلكاتنا الآسيوية». وقال: إن الحكومة البريطانية «لا ترى تثبيط سياسة روسيا في أوروبا، أو عرقلة تقدمها ثمة»؛ لذا، كانت بريطانيا «ترغب في أن توسّع روسيا نفوذها وتأثيرها» في أوروبا بصفة عاجلة؛ أو بعبارة أخرى: أن تصرف ناظريها عن آسيا![2].

* * *

لما بلغ الأمر ذروته، لم تعد فرنسا تخفي انزعاجها من النمو الاقتصادي المزدهر لألمانيا، جارتها وخصمها اللدود. وكانت ذكريات الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠-١٨٧١، التي أدت إلى حصار باريس، واستعراض موكب النصر البروسي في وسط المدينة بعد اتفاق الهدنة، ما تزال حية ماثلة في أذهان الفرنسيين. وكانت سرعة ذلك الغزو بمثابة صدمة كبيرة لفرنسا، الأمر الذي أثار مخاوف من أن ضربة صاعقة أخرى قد تفاجئها مجددًا؛ ولا سيما وأن أحد آثار الهجوم كان توحيد ألمانيا في إمبراطورية، أُعلِن عن قيامها في قصر ڤرساي نفسه.

وزاد الطين بلة انزعاج الفرنسيين الشديد من التقدم المتزايد للصناعة الألمانية في العقدين التاليين لعام ١٨٧٠؛ حيث تضاعف إنتاج الفحم والمعادن ثلاث مرات[3]. وأدى الانتعاش الاقتصادي الألماني إلى مزيد من الاستثمارات في آلة عسكرية مثيرة للإعجاب بالفعل على الأرض، وفي البحر سواءً بسواء. وبذل الدبلوماسيون الفرنسيون جهودًا حثيثة -خلف الكواليس- في أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر لإبرام اتفاقية عسكرية ثم تحالف كامل مع روسيا، كان الهدف الأساسي منه الدفاع عن النفس؛ ووافق كلا البلدين على الهجوم على ألمانيا في حال حشدت الأخيرة، أو حشد الحلفاء جيوشهم، وقدم كلاهما بالفعل تعهدات رسمية للعمل ضد بريطانيا في حالة تحرك لندن ضد أي منهما[4].

---

(1) Neilson, *Britain and the Last Tsar*, pp. 134–5.

(2) *The Times*, 21 October 1905.

(3) H.-U. Wehler, *Deutsche Gesellschaftsgeschichte*, 5 vols (Munich, 2008), 3, pp. 610–12.

(4) C. Clark, *The Sleepwalkers: How Europe Went to War in 1914* (London, 2012), p. 130.

لذا كان لحديث بريطانيا عن رغبتها في إعادة لفت انتباه روسيا إلى حدودها الغربية وقع الموسيقى على آذان الفرنسيين. وحدثت المرحلة الأولى من إعادة ترتيب الأوضاع بين لندن وباريس في عام ١٩٠٤، عندما جرى التوقيع على اتفاق الوفاق الودي (Entente Cordiale) بعد مناقشات مفصلة للمصالح المشتركة في جميع أنحاء العالم. ولم يكن من المستغرب أن يكون دور روسيا محوريًّا في هذه المفاوضات. وفي عام ١٩٠٧، جاءت اللحظة التي اكتملت فيها دائرة التحالفات، وجرى التوصل إلى اتفاق رسمي مع روسيا عبر قلب العالم، مع وجود خط ثابت لترسيم مناطق النفوذ في بلاد فارس، إلى جانب شروط لتقييد التدخل الروسي في أفغانستان إلى الحدود الدنيا[١]. كما رأى إدوارد جراي أن الطريقة المثلى لتحرير الهند من «التخوف والتوتر»، هي صياغة تفاهم أكثر إيجابية مع روسيا، وهذا من شأنه ضمان أن «روسيا لن تسيطر على أجزاء من بلاد فارس تشكل خطورة علينا»[٢]. كما اعترف جراي في عام ١٩١٢، بأن الهواجس كانت تساوره -منذ فترة طويلة- بشأن السياسة التقليدية المتمثلة في محاولة دفع روسيا، واحتوائها في الوقت نفسه، مُعقبًا بقوله: «لطالما اعتقدت أن هذه سياسة خاطئة منذ سنوات»[٣]. بعبارة أخرى كان السعي إلى التحالف وسيلة أكثر أناقة، وإيجابية للمضي قدمًا.

ومع ذلك، أدرك كبار الدبلوماسيين أن التقارب مع روسيا سيكون له ثمن، وهذا الثمن هو ألمانيا ببساطة. وصرح السير تشارلز هاردينج (Sir Charles Hardinge) -وكان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية في لندن- في عام ١٩٠٨ قائلًا: «أولى لنا أن نكون متفاهمين مع روسيا في آسيا والشرق الأدنى، من أن نكون على علاقة جيدة مع ألمانيا»[٤]. لقد كانت تلك رسالة كان هو نفسه يتألم لتكرارها، حتى بعد أن عُيِّن نائبًا للملك في الهند بعد ذلك بعامين؛ حيث كتب قائلًا: «نحن عاجزون عمليًّا» في حال تعاظم النفوذ الروسي في بلاد فارس؛ لذا فإنه من المفيد بذل الوسع لتحقيق التوازن في الوضع في أوروبا. وعقب قائلًا: «من غير المواتي أن تكون فرنسا غير ودية، وروسيا غير ودية، قياسًا بألمانيا غير الودية»[٥]. وكانت علاقات بريطانيا مع روسيا «تتعرض لتوتر شديد» نتيجة التوترات في بلاد فارس، كما اتفق مع ذلك السير آرثر نيكولسون (Sir Arthur Nicolson)، سفير بريطانيا في سان بطرسبرج، الذي قال: «أعتقد أن الضرورة الملحة تقتضينا أن نحافظ على تفاهمنا الكامل مع روسيا بأي ثمن»[٦].

---

(1) F. Tomaszewski, *A Great Russia: Russia and the Triple Entente, 1905–1914* (Westport, CT, 2002); M. Soroka, *Britain, Russia and the Road to the First World War: The Fateful Embassy of Count Aleksandr Benckendorff (1903–16)* (Farnham, 2011).

(2) Minute of Grey, FO 371/371/26042.

(3) G. Trevelyan, *Grey of Fallodon* (London, 1937), p. 193.

(4) Hardinge to de Salis, 29 December 1908, Hardinge MSS, vol. 30.

(5) K. Wilson, 'Imperial Interests in the British Decision for War, 1914: The Defence of India in Central Asia', *Review of International Studies* 10 (1984), 190–2.

(6) Nicolson to Hardinge, 18 April 1912, Hardinge MSS, vol. 92.

وأصبح إبقاء روسيا سعيدة بأي ثمن هو دافع السياسة البريطانية بعد التوقيع اتفاقية التحالف. وفي عام ١٩٠٧، أخبر السير إدوارد جراي (Sir Edward Grey) السفير الروسي في لندن أن بريطانيا قد تنظر في أن تكون أكثر مرونة بشأن قضية البوسفور، إذا وافق الروس على إقامة «علاقات جيدة ودائمة»[1]. وكان هذا الحديث كافيًا للحث على خلط الورق الأوروبي مجددًا، حيث شرعت سان بطرسبرج في جولة من التجارة الدبلوماسية، نجحت خلالها في الحصول على دعم النمسا بشأن قضية مضيق البوسفور مقابل قبول روسيا ضم النمسا للبوسنة، وهي الصفقة التي كانت لها عواقب وخيمة[2].

وفي عام ١٩١٠، كتب السير إدوارد جراي مجددًا عن الحاجة إلى التضحية بالعلاقات مع برلين إذا لزم الأمر قائلًا: «لا يمكننا الدخول في تفاهم سياسي مع ألمانيا، يفصلنا عن روسيا وفرنسا»[3]. لقد شعرت سان بطرسبرج بتصميم بريطانيا على هذا النهج، كما أدركت ما وراء السعي المحموم من قِبل البريطانيين لإرضائها، والفرص التي يتيحها ذلك لها. وقال وزير الخارجية الروسي سيرجي سازونوف (Sergei Sazonov) في أواخر عام ١٩١٠: «يبدو لي أن مجلس الوزراء في لندن ينظر إلى الاتفاقية الأنجلو-روسية لعام ١٩٠٧ على أنها مهمة للمصالح الآسيوية لإنجلترا». واستطرد قائلًا: إذا كانت الحال هكذا، فيبدو أنه يسعنا دفع بريطانيا لتقديم تنازلات قيمة «من أجل الحفاظ على اتفاقية حيوية، لها مثل هذه الأهمية بالنسبة لها»[4]. وكانت ملحوظته تلك ملحوظة ذكية بالفعل.

ولمّا بدأت القوات الروسية في شن غزوات جديدة في منغوليا، والتبت، وتركستان الصينية في عام ١٩١٠، لم يتمكن المراقبون البريطانيون من إخفاء انزعاجهم[5]. وأكد امتداد نفوذ روسيا مدى ضعف موقف بريطانيا تأكيدًا قاطعًا. ولم يكن من قبيل الممكن جعل الأمور تبدو أسوأ مما كانت عليه، كما أوضح تقييم جراي المتشائم في ربيع عام ١٩١٤. إنها القصة نفسها في أفغانستان، والتبت، ومنغوليا، وبلاد فارس؛ ثم عقب جراي قائلًا: «على طول الطريق، نريد شيئًا وليس لدينا ما نعطيه مقابله». وأشار إلى أنه في بلاد فارس، ليس لدينا «شيء يمكننا التنازل عنه» لروسيا، وليس لنا نفوذ في أفغانستان أيضًا. والأسوأ من ذلك أن «الروس مستعدون لاحتلال بلاد فارس، بينما نحن لسنا كذلك»[6]. لقد نفد رصيد بريطانيا، على الأقل في آسيا. وحان وقت نهاية اللعبة. وظل السؤال: أين، ومتى، سيكون ذلك؟

---

(1) Grey to Nicholson, 19 March 1907; Memorandum, Sir Edward Grey, 15 March 1907, FO 418/38.

(2) Clark, *Sleepwalkers*, pp. 85, 188; H. Afflerbach, *Der Dreibund. Europäische Grossmacht- und Allianzpolitik vor dem Ersten Weltkrieg* (Vienna, 2002), pp. 628–32.

(3) Grey to Nicolson, 18 April 1910, in G. Gooch and H. Temperley (eds), *British Documents on the Origins of the War, 1898–1914*, 11 vols (London, 1926–38), 6, p. 461.

(٤) نقلاً عن:

de Siebert, *Entente Diplomacy and the World* (New York, 1921), p. 99.

(5) I. Klein, 'The Anglo-Russian Convention and the Problem of Central Asia, 1907–1914', *Journal of British Studies* 11.1 (1971), esp. 140–3.

(6) Grey to Buchanan, 18 March 1914, Grey MSS, FO 800/74, pp. 272–3.

ومـع إدراك بريطانيـا حقيقـة الصعوبـات التـي كانـت تواجههـا، لـم يغـب عـن أذهان المسـؤولين البريطانييـن حقيقـة أنهم قد يضطرون أيضًا إلى مواجهة سـيناريو الكابوس الأكبر، وهو احتمال تشـكل تحالـف بيـن روسـيا وألمانيـا، وهـو السـيناريو الذي قد يجعـل موقف بريطانيـا الهش أكثر سـوءًا. وقد طاردت هذه المخاوف صناع السياسة البريطانيين إلى حين. والحق أن التعاون، وخلق وضع قائم يعود بالنفع المتبادل في آسيا كان أحد العناصر المهمة في التحالف الأنجلو-روسي عام ١٩٠٧. وأكد السير آرثر نيكولسـون (Sir Arthur Nicolson) لـ جراي أنه بات من الضروري «ردع روسـيا عن التقارب مع برلين» حفاظًا على التوازن الدقيق[1].

* * *

تفاقم الشعور بالذعر بسبب النمو المستمر للقدرات الألمانية، ومن ثم نمو طموحات ألمانيا. وكان اقتصـاد برليـن المزدهـر، وزيادة إنفاقها العسـكري باعثًا على قلـق دائم. ولم يكن لـدى بعض من كبار الشـخصيات في وزارة الخارجية البريطانية أدنى شـك في أن هدف ألمانيا هو «الوصول إلى الغلبة في قارة أوروبا»، وأن هذا من شأنه أن يؤدي إلى مواجهة عسكرية حتمية. وواجهت جميع الإمبراطوريات تحديات من الخصوم في الأخير، وقال نيكولسون -مذكرًا السير إدوارد جراي: «أنا -شخصيًا- مقتنع بأنه سيتعين علينا -عاجلًا أم آجلًا- تكرار الصراع نفسه مع ألمانيا»؛ لذا كان من الضروري إبقاء فرنسا وروسيا سعيدتين[2].

وكانت قدرة ألمانيا على زعزعة استقرار التوازن الدقيق في أوروبا، ومن ثم خارجها، تعني أنه كان هنـاك عاصفـة مثاليـة تختمـر علـى مهـل. وأصبحت المخـاوف من «ظهور روسـيا إلى جانـب تحالف المحـور [أي ألمانيـا والمجـر النمسـاوية وإيطاليـا]» أكثر حـدة. وكان يُنظَـر إلى زعزعـة العلاقات بين بريطانيـا، وروسـيا، وفرنسـا و«تدمير... الوفـاق الثلاثي» على أنه الهدف الأسـمى لبرليـن[3]. واعترف جـراي -خـلال جولـة تالية من القلـق والمخاوف- بأن احتمال ميل روسـيا إلى نقـض الاتفاق الثلاثي قائمٌ، قائلًا: «ذلك أخشى ما نخشاه»[4].

---

(1) Nicolson to Grey, 24 March 1909, FO 800/337, p. 312; K. Wilson, *The Policy of the Entente: Essays on the Determinants of British Foreign Policy* (Cambridge, 1985), p. 38.

(2) Nicolson to Grey, 24 March 1909, FO 800/337, p. 312.

(٣) نقلاً عن:

N. Ferguson, *The Pity of War* (London, 1998), p. 73.

(٤) نقلاً عن:

K. Wilson, *Empire and Continent: Studies in British Foreign Policy from the 1880s to the First World War* (London, 1987), pp. 144–5; G. Schmidt, 'Contradictory Postures and Conflicting Objectives: The July Crisis', in G. Schöllgen, *Escape into War? The Foreign Policy of Imperial Germany* (Oxford, 1990), p. 139.

لـم تكـن هـذه المخاوف مجـرد هواجس قـط. فعلى سـبيل المثال أدرك السـفير الألمانـي في بلاد فـارس، أنـه في حين أن «المكاسـب قليلة» في هذا البلد، إلا أنه يمكن انتـزاع تنازلات مفيدة في أماكن أخرى من سان بطرسبرج متى شعرت روسيا بأن مصالحها في بلاد فارس معرضة للخطر[1]. وكان هذا هو بيت القصيد في اجتماع ضم القيصر الألماني، والقيصر الروسي نيكولاس الثاني (Nicholas II) في بوتسدام (Potsdam) في شتاء عام ١٩١٠، تبعته مناقشات رفيعة المستوى بين وزيري خارجية البلدين. وبـدا أن تلـك المحادثـات تؤكـد ببسـاطة على المخـاوف مـن أن «التكتـلات الأوروبيـة European groupings» -كما سماها السير آرثر نيكولسون- قد يعاد ترتيبها على حساب بريطانيا[2].

وكانت الشـكوك حول ألمانيا وأفعالها -سـواء كانت حقيقية أو متخيلة- قد ساورت الدبلوماسيين البريطانيين قبل وقت طويل من تشكيل تحالف عام ١٩٠٧. فقبل ثلاث سنوات، تلقى السير فرانسيس بيرتي (Sir Francis Bertie) رسالة من أحد الموظفين المساعدين في وزارة الخارجية قُبيل تعيينه -أي بيرتي- سـفيرًا في باريس، يحيطه فيها علمًا بمدى أهمية أن يرأس البعثة في فرنسـا «شخص يكون يقظًا بإزاء الخطط الألمانية في المقام الأول». فردَّ عليه بيرتي قائلًا: إنه من قَبيل حسن الفطن أن نتنفس سوء الظـن فـي ألمانيـا؛ «إنها لم تفعل شـيئًا مـن أجلنا قط، بل أدمتنـا؛ إنها زائفة، وجشـعة، وعدونا الحقيقي تجاريًا وسياسيًا»[3].

ومـن المفارقـات بالطبع أن الشـعور بالخطر الألماني نفسـه كان مدعومًـا بالضعف الذي كانت تشـعر بـه هذه الدولـة الأوروبية الوسـطى؛ حيث واجهت احتمال الوقوع وسـط تحالـف فرانكو-روسـي تحـدث عـن التعاون العسـكري، والهجوم المشـترك في حالة الاسـتفزاز. ولـم يمض وقت طويـل قبـل أن يدفـع جنـون العظمـة المتفاقـم القيـادة العليـا الألمانيـة إلـى التفكيـر فـي خياراتهـا الخاصة بإزاء خشـيتها من الوقوع في شـرك فكي الكماشة. ففي أعقاب التحالف الفرنسي الروسي عـام ١٩٠٤، توصـل رئيس الأركان العامة للجيش الألماني، الكونت ألفريد ڤون شـليڤن (Alfred von Schlieffen)، إلى خطة اعتمدت- إلى حد كبير- على تجارب ألمانيا في حرب عام ١٨٧٠م عندمـا مـزق الجيـش الألمانـي الجيـش الفرنسـي شـر ممـزق. وطـرح سـيناريو يمكـن فيـه لجيش القيصـر أن يحيّـد فرنسـا أولًا قبـل أن ينعطـف شـرقًا للتعامـل مـع روسـيا. وكانت الخطـة طموحة عسـكريًا ولوجسـتيًا؛ فقد تطلبت مليونًا من عمال السـكك الحديدية، و٣٠ ألف قاطرة، و٦٥ ألف

(١) نقلاً عن:

R. MacDaniel, *The Shuster Mission and the Persian Constitutional Revolution* (Minneapolis, 1974), p. 108.

(2) T. Otte, *The Foreign Office Mind: The Making of British Foreign Policy, 1965–1914* (Cambridge, 2011), p. 352.

(3) Bertie to Mallet, 11 June 1904 replying to Mallet to Bertie, 2 June 1904, FO 800/176.

عربـة ركاب، و٧٠٠ ألـف عربة بضائع، وكان كل ذلك من شـأنه نقـل ٣ ملايين جندي، إضافة إلى ٨٦ ألف جواد، وجبالًا من الذخيرة، على مدار سبعة عشـر يومًا[١].

وانعكس هذا المخطط على خطة مشـابهة أعدها الجيش الروسـي في الوقت نفسـه؛ حيث وضعت قيـادة الجيـش بحلول صيف ١٩١٠ الخطة ١٩ (Plan 19)، وهي مجموعة من الخطوات المفصلة التي ينبغي اتخاذها في حالة وقوع هجوم ألماني. انطوت خطة الروس على التحصن في سلسلة من الملاجئ الدفاعيـة علـى طـول خط يمتد من الشـمال إلـى الجنوب من كوفنـو (Kovno)، إلى بريسـت (Brest)، والاسـتعداد لشـن هجـوم مضـاد. ثم أجـرت قيادة الجيش الروسـي تعديليـن على هذه الخطـة في عام ١٩١٢، عُرِفا باسـم الخطة ١٩أ، والخطة ١٩ج (19A and G)، وتضمن التعديل الأخير هجومًا مضادًا سريعًا في حالة بدء ألمانيا للأعمال العدائية، وكان هدف التعديل فظًا: «نقل الحرب إلى أرض [العدو]؛ أي داخل ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية»[٢].

وكانت القيادة الألمانية العليا -وكذلك القيصر الألماني- على وعي تام بالضغوط المتصاعدة من الخـارج، والشـعور بالانحشـار فـي الزاوية. وأربك غضـب الجمهور من اقتراح يقضي ببناء خط سـكة حديد يمتد من برلين إلى بغداد القيصر، فعقَّب قائلًا: لن يكون بناء الخط على بعد آلاف الأميال مشكلة إلا إذا نشـبت الحـرب بيـن ألمانيا وإنجلترا. ثم اسـتطرد قائـلًا: في حال حدث ذلك، فهل سـيكون من الواقعي الاعتقاد بأننا نريد أن يتمركز جنودنا بعيدًا عن الوطن إلى هذا الحد؟![٣].

وردت ألمانيا على نشـر القوات الفرنسـية في المغرب عام ١٩١١ -بما يخالف اتفاقية سـابقة بين برلين وباريس- بأن أرسلت الطراد الألماني، بانثر (*Panther*)، في محاولة لدفع الفرنسيين إلى التسـوية.

---

(١) إن خطـة شـليفن مثيـرة للجدل -سـواء مـن حيث سـياقها، أو تاريخ وضعها الدقيـق، أو من حيث اسـتخدامها في التحضير للحرب العالمية الأولى. انظر:

G. Gross, 'There was a Schlieffen Plan: New Sources on the History of German Military Planning', *War in History* 15 (2008), 389–431; T. Zuber, *Inventing the Schlieffen Plan* (Oxford, 2002); and idem, *The Real German War Plan* (Stroud, 2011).

(2) J. Sanborn, *Imperial Apocalypse: The Great War and the Destruction of the Russian Empire* (Oxford, 2014), p. 25.

عن الخطة ١٩ (Plan 19)، والمتغيرات التي طرأت عليها، انظر أيضًا:

I. Rostunov, *Russki front pervoi mirovoi voiny* (Moscow, 1976), pp. 91–2.

(3) Kaiser Wilhelm to Morley, 3 November 1907,

نقلًا عن:

Cohen, 'British Strategy in Mesopotamia', 176.

عن مشاركة القيصر في بناء خطوط السـكك الحديدية، انظر:

J. Röhl, *Wilhelm II: Into the Abyss of War and Exile, 1900–1941*, tr. S. de Bellaigue and R. Bridge (Cambridge, 2014), pp. 90–5.

وأدى التصرف على هذا النحو إلى نتائج عكسية. فلم تُلقَّن ألمانيا درسًا عامًّا محرجًا مفاده أن نفوذها السياسي محدود للغاية فَحسب، بل زاد الطين بلة عندما شهدت سوق برلين انخفاضًا حادًّا في أسهمها في أعقاب أزمة المغرب في سبتمبر ١٩١١؛ حيث فقدت الأسهم أكثر من ٣٠٪ من قيمتها. الأمر الذي تسبب في خسارة بنك ريتش (Reichsbank) لأكثر من خمس احتياطاته في شهر واحد فحسب. ولو لم يكن الفرنسيون هم من وقف خلف هذه الكارثة المالية -كما كان عدد كبير من الألمان يعتقدون- فمن المؤكد أنهم استغلوا تردي الوضع جيدًا؛ فسحبوا الأموال قصيرة الأجل، ولعب تصرفهم على هذا النحو دورًا في خلق أزمة سيولة في السوق الألمانية بلا أدنى شك[١].

وبُذلت جهود ألمانية حثيثة لفتح قنوات جديدة، وبناء روابط وتحالفات جديدة. وفي خضم هذه العملية جرى إيلاء الكثير من الاهتمام للشرقين الأدنى والأوسط، في ظل توسع البنوك الألمانية إلى حد كبير في مصر والسودان، والدولة العثمانية، في حين أن برنامج إنشاء الوظائف باللغتين العربية والفارسية والدراسات ذات الصلة لم يكن سخيًّا فحسب، بل كان القيصر يشرف عليه بنفسه. وداعبت الروابط المتزايدة بين العالم الإسلامي والعالم الناطق بالألمانية خيال الشباب، والأكاديميين، والجنود، والدبلوماسيين، والسياسيين. وكتب أحد الشباب [الألمان] في السنوات الأولى من القرن العشرين حزينًا عندما نظر إلى المباني الجميلة في ڤينا، وعلى طريق رينجستراسه (Ringstraße) -وهو طريق دائري محيط بالمدينة- فلم يشعر إلا بأنه واقع تحت «تأثير السحر». ومع ذلك، لم يشعر أدولف هتلر بأنه عاد إلى عصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أو إلى العصور القديمة الكلاسيكية -وهما خياران بارزان لماضٍ رومانسي مجيد- بل شعر وكأنه في مشهد من ألف ليلة وليلة[٢].

في تلك الآونة كانت عقلية الحصار الخطيرة تترسخ في ألمانيا، إلى جانب شعور حاد انتاب الألمان بأن أعداءهم أقوياء، وأن برلين باتت تحت رحمتهم. وأضحى هيلموت ڤون مولتك (Helmuth von Moltke) -الذي عُيِّن خليفة لـ شليڤن في رئاسة الأركان العامة- إضافة إلى نفر من كبار الضباط مقتنعين بأن الحرب باتت حتمية، وأنه كلما بكرت ألمانيا بإشعال فتيل الصراع كلما كان ذلك أفضل لها؛ كما كان يرى أن تأجيل المواجهة لن يكون في صالح ألمانيا قط. وقال مولتك -في ربيع عام ١٩١٤-: إن من الأفضل بدء الحرب والاشتباك مع العدو، «بينما لا تزال فرصتنا في الانتصار قائمة»[٣].

---

(1) R. Zilch, *Die Reichsbank und die finanzielle Kriegsvorbereitung 1907 bis 1914* (Berlin, 1987), pp. 83–8.

(2) A. Hitler, *Mein Kampf* (London, repr. 2007), p. 22.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

B. Rubin and W. Schwanitz, *Nazis, Islamists, and the Making of the Modern Middle East* (New Haven, 2014), pp. 22–5.

(3) D. Hoffmann, *Der Sprung ins Dunkle oder wie der I. Weltkrieg entfesselt wurde* (Leipzig, 2010), pp. 325–30;

وانظر أيضًا:

A. Mombauer, *Helmuth von Moltke and the Origins of the First World War* (Cambridge, 2001), pp. 172–4.

وكتـب روبـرت موزيـل (Robert Musil) في برلين في سـبتمبر ١٩١٤ قائلًا: لمـاذا يكنون كل هذه الكراهية لنا؟ لماذا يحسدوننا، «إن هذا ليس ذنبنا!»[١]. لقد كان محقًا في ملاحظة التوتر المتصاعد في أوروبـا، والـذي كان يترسـخ فـي الثقافة الشـعبية. وتمتعت الكتب عن الجواسـيس الألمـان، والخطط الألمانية للسيطرة على أوروبا بشعبية كبيرة. فعلى سبيل المثال بيع أكثر من مليون نسخة من كتاب وليم لوقكـس (William LeQueux) المسـمى: الغـزو عـام ١٩١٠ *The Invasion of 1910*، كما تُرجم إلى سـبع وعشـرين لغة؛ ثم كتب سـاكي (Saki) عندما عاد وليم؛ قصة لندن تحت حكم هوهنزولرن *When William Came: A Story of London under the Hohenzollern*، وهـو آخـر أكثر الكتب مبيعًا عشـية الحرب، وفيه يعود البطل من آسيا ليجد بريطانيا مهزومة، وقد احتلها الألمان[٢].

وكادت النبـوءة أن تتحقـق تقريبًـا؛ لذلـك كان يجـب علـى الألمـان أن يبحثـوا عـن طريقـة لتقليل المخاطر، أو أقلمة أنفسهم ليكونوا قادرين على مواجهتها. وعلى سبيل المثال، كان الألمان واعون كل الوعـي بأنـه ينبغـي عليهم التماس الضمانات من روسـيا والاتفـاق معها، وكانت هـذه الحقيقة وحدها تزعـج بريطانيـا أيما إزعاج[٣]. وبالمثل، فإن التوصيات المتعلقة بالجيـش الألماني التي قدمها الجنرال كولمـار ڤـون ديـر جولتـز (Colmar von der Goltz) -الـذي أمضـى أكثر من عقد فـي إصلاح الجيش العثماني (حيث كان يُعرف باسـم «جولتز باشـا»)- كانت كلها متعلقة بالقدرة على المناورة في خضم أزمة عسـكرية. وقال جولتز لزملائه: إن الدعم التركي قد يكون مفيدًا ضد روسـيا، إلا أنه سيكون «أكثر أهمية» ضد بريطانيا في الشرق الأدنى[٤].

* * *

كانـت المشـكلة التـي حالت بين روسـيا وألمانيا هو اهتمـام ألمانيا للعالم العثماني، والذي شـكّل ضغطًا كبيرًا على أعصاب روسيا. وكان المسـؤولون في سان بطرسبرج حساسين للغاية بشأن المضيق، كمـا أصيبـوا بالتوتـر بشـأن احتمال دخول لاعـب جديد يتدخل فيما كانـوا يعدونه أرضًـا لهم. وتحول الحديث إلى احتلال إسـتانبول في مناسـبات عديدة في مطلع القرن. وبحلول نهاية عام ١٩١٢، بدأت روسـيا في تطوير الخطط لتمكين قواتها من السـيطرة على المدينة، على أسـاس مؤقت نظريًا، وخلال

---

(1) R. Musil, 'Europäertum, Krieg, Deutschtum', *Die neue Rundschau* 25 (1914), 1303.

(2) W. Le Queux, *The Invasion of 1910* (London, 1906); Andrew, *Defence of the Realm*, p. 8; Ferguson, Pity of War, pp. 1-11.

(3) 'Britain scared by Russo-German deal', New York Times, 15 January 1911.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

D. Lee, Europe's Crucial Years: The Diplomatic Background of World War 1, 1902-1914 (Hanover, NH, 1974), pp. 217-20.

(4) A. Mombauer, Helmuth von Moltke and the Origins of the First World War (Cambridge, 2001), p. 120.

حـرب البلقـان فحسـب[1]. ومع ذلك، نظر الروس شـذرًا إلى اللامبالاة الواضحة مـن حلفائهم -أعني البريطانييـن والفرنسـيين- تجـاه زيادة النفـوذ الألماني في الجيش العثماني، الذي اشـتمل على انتداب ضبـاط ألمـان لقيادة الأسـطول العثماني. كما سـاور القلق الروس خاصةً لما علموا بشـأن قرب تسـلم الأتـراك لبارجتيـن إنجليزيتين، وكان من شـأن هاتين البارجتين الحديثتين منح العثمانيين ميزة حاسـمة وكارثيـة علـى القوات البحرية الروسـية -كما انتحب وزير البحرية عنـد القيصر في عام ١٩١٤- حيث تؤدي إلى «تفوق ساحق يقترب من ستة أضعاف» على أسطول البحر الأسود الروسي[2].

ولـم يكن التهديد الذي يمثله هذا الأمر عسـكريًا فحسـب، بل كان اقتصاديًا كذلك؛ إذ كان أكثر من ثلـث الصـادرات الروسـية يمر عبر مضيق الدردنيل قبل الحـرب العالمية الأولى، بما في ذلك ما يقرب مـن ٩٠٪ مـن الغـلال التـي كان يجـرى شـحنها فـي موانـئ مثـل أوديسـا (Odessa) وسيفاسـتوبول (Sevastopol) في شبه جزيرة القرم. وعلى هذا النحو، كانت استجداء موسكو لندن لمنع تسليم السفن الحربيـة، أو تعليقـه، أو إلغائـه حافزًا غيـر مفيد في لعبة الخداع، والخداع المـزدوج بين القوى العظمى عشـية اندلاع الحرب[3]. وأبرق السـفير الروسـي في إسـتانبول إلى سـان بطرسـبرج، قائلاً: إن «موقعنا بالكامل في الشرق الأدنى» في خطر؛ لقد بات «الحق الذي لا يسعنا تعويضه، والذي اكتسبناه عبر قرون من التضحيات التي لا تُحصى، والدماء الروسية التي سُفكت في سبيله» في خطر محدق[4].

وفـي هـذا السـياق، أدى الهجـوم الإيطالـي على ليبيـا في عـام ١٩١١، وحروب البلقـان بين عامي ١٩١٢-١٩١٣ إلـى سلسـلة من ردود الأفعال، حيث سـقطت الولايات المتطرفـة للدولة العثمانية في أيادي خصوم انتهازيين، محليين ودوليين في لحظات ضعفها. ومع بلوغ النظام العثماني شفير الانهيار، ازدادت حـدة الطموحات والمنافسـات فـي أوروبا إلى حدٍّ كبير. وبدأ الألمـان -من جانبهم- يفكرون جديًا في التوسـع في الشـرق وإنشـاء محمية لخلق «مشـرق ألماني German Orient»[5]. وفي حين أن

---

(1) R. Bobroff, Roads to Glory: Late Imperial Russia and the Turkish Straits (London, 2006), pp. 52–5.

(2) Grigorevich to Sazonov, 19 January 1914, in Die Internationalen Beziehungen im Zeitalter des Imperialismus, 8 vols (Berlin, 1931–43), Series 3, 1, pp. 45–7,

نقلًا عن:

Clark, Sleepwalkers, p. 485.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

M. Aksakal, The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War (Cambridge, 2008), pp. 42–56.

(3) S. McMeekin, The Russian Origins of the First World War (Cambridge, MA, 2011), pp. 29, 36–8.

(4) Girs to Sazonov, 13 November 1913,

نقلًا عن:

McMeekin, Russian Origins, pp. 30–1.

(5) W. Kampen, Studien zur deutschen Türkeipolitik in der Zeit Wilhelms II (Kiel, 1968), 39–57; M. Fuhrmann, =

هذا بدا وكأنه توسع، فقد كان هناك منطق دفاعي مهم في هذا الفكر، جاء متناغمًا مع المشاعر العدوانية المتزايدة التي تغلغلت في نفوس رجال القيادة العليا الألمانية[١]. وكانت ألمانيا -مثلها في ذلك مثل بريطانيا- تتوقع حدوث السيناريو الأسوأ؛ أي تمكن الروس من السيطرة على الجزء السمين من الدولة العثمانية، التي كان يُعتقد على نطاق واسع أنها باتت جيفة. بينما كان ذلك يعني بالنسبة للروس تحقيق أحلام طال انتظارها، وتأمين المستقبل على المدى الطويل، وكان هذا أمرًا حيويًا بالنسبة لروسيا.

ومع ذلك، فإن افتراض أن بريطانيا كانت تمثل تهديدًا لألمانيا -والعكس صحيح- إنما هو اعتقاد يحمل في طياته شيئًا من التضليل. فعلى الرغم من أن المؤرخين المحدَثين تحدثوا بإصرار عن رغبة بريطانيا في احتواء ألمانيا، إلا أن المنافسة عبر أوروبا كانت معقدة، ومتعددة الأوجه. وكان الأمر أكثر تعقيدًا بكثير من القصة المبسطة عن تنافس كبير بين دولتين، لعب دوره، وانفجر عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى. فبحلول عام ١٩١٨، أصبحت الأسباب الحقيقية للصراع غامضة، حيث انصب التركيز على نحو مشوه على السباق البحري الذي شهد ارتفاعًا في الإنفاق على بناء السفن؛ وعلى المواقف العدوانية لشخصيات وقفت وراء الكواليس، وطالبت بالدخول في الحرب. وعلى شهوة الدم العمياء للقيصر وجنرالاته في أثناء سعيهم لإثارة الحرب في أوروبا القارية.

لقد كانت القصة الحقيقية مختلفة تمامًا. فعلى الرغم من أن الأيام التي أعقبت اغتيال فرانز فرديناند (Franz Ferdinand) شهدت سلسلة من سوء الفهم، والجدل، والإنذارات، والملابسات التي بات من قَبيل المستحيل إعادة تكوينها؛ فإن بذور الحرب غُرست من خلال التغيرات والتطورات التي وقعت على بعد عدة آلاف من الأميال. فقد كان ضغط طموح روسيا المتزايد -والتقدم الذي كانت تحرزه في بلاد فارس وآسيا الوسطى والشرق الأقصى- على مستعمرات بريطانيا في الخارج، أمرًا أدى إلى تصلب التحالفات في أوروبا. وكل ما عولت عليه بريطانيا في سبيل منع التآكل للمنصة التي كانت تُحسَد عليها على مدى القرون الماضية كان سلسلة من الضمانات المتبادلة، التي وُضعت لإبقاء روسيا -سيدة الانتظار- مقيدة في المقام الأول.

وبينا أخذت سحب العاصفة في التجمع، ساد الهدوء في الأشهر الأولى من عام ١٩١٤. فكتب آرثر نيكولسون (Arthur Nicolson) في مايو قائلًا: «لم أر مثل هذه المياه الهادئة» منذ عمِلت في وزارة الخارجية[٢]. لقد كانت سنة واعدة بالفعل، وكان متوقعًا أن تكون سنة يُمن وبركة؛ فقد احتفل موظفو شركة فورد موتور (Ford Motor Co) في الولايات المتحدة بمضاعفة أجورهم في يناير (كانون الثاني)

= Der Traum vom deutschen Orient: Zwei deutsche Kolonien im Osmanischen Reich, 1851–1918 (Frankfurt-am-Main, 2006).

(١) انظر:

J. Röhl, *The Kaiser and his Court: Wilhelm II and the Government of Germany*, tr. T. Cole (Cambridge, 1996), pp. 162–89.

(2) Nicolson to Goschen, 5 May 1914, FO 800/374.

نتيجة ارتفاع المبيعات، وتجربة محاولات مبتكرة للتشجيع على زيادة الإنتاج. وكان الأطباء يتأملون في عواقب أول عملية لنقل دم غير مباشر ناجحة، أجريت في بروكسل بعد عمل رائد، استند إلى استخدام سترات الصوديوم (sodium citrate) بوصفها مضادًا للتخثر. وفي سان بطرسبرج، كان ما أثار قلق معظم الناس في أوائل الصيف هو حرائق الغابات التي جعل دخانها الأسود الكثيف هواء الصيف لا يكاد يُطاق. وفي ألمانيا، كان سكان فورث (Fürth) شمالي باڤاريا (Bavaria) يشعرون بالنشوة بعد أن فاز فريق البلدة بمباراة مثيرة جرت ضد فريق ف.ف. ب ليبتسج (VfB Leipzig) الكبير، وتغلب على الصعاب بتسجيله هدف الفوز في الوقت الإضافي ليصبحوا أبطال كرة القدم على المستوى الوطني للمرة الأولى في تاريخهم؛ الأمر الذي جعل مدربهم الإنجليزي وليم تاونلي (William Townley) يبدو بطلًا في أعينهم. حتى الطبيعة نفسها كانت لطيفة، وفقًا للشاعرة الإنجليزية أليس مينيل (Alice Meynell): فكانت بداية صيف عام ١٩١٤ بداية شاعرية، مع حصاد وفير نتطلع إليه؛ وكان القمر بعد القمر «حُلوًا سماويًّا»؛ حيث «انساب حصاد الحرير منحدرًا إلى أسفل»[١].

وفي بريطانيا، لم يشعر أحد هناك بالموت الوشيك، ولا بالمواجهة الوشيكة مع ألمانيا؛ بل على النقيض تمامًا؛ فكان الأكاديميون في جامعة أكسفورد يستعدون للاحتفال بالثقافة والفكر الألمانيين. وعُلّقت صورة كبيرة للقيصر ڤيلهلم الثاني (Wilhelm II) في مدارس الفحص (Examination Schools) التي قُدّمت هدية من ألمانيا بعد أن مُنح القيصر الألماني درجة الدكتوراه الفخرية في القانون المدني في عام ١٩٠٧[٢]. واجتمع أعيان المدينة قرب نهاية يونيو ١٩١٤ -أي قبل شهر من اندلاع الأعمال العدائية- لمشاهدة موكب من الشخصيات الألمانية المتميزة وهم يحصلون على درجات فخرية. ومن بين أولئك الذين جرى تكريمهم أثناء سيرهم إلى مسرح شيلدونيان (Sheldonian) بعباءاتهم الملونة كان دوق ساكس-كوبرج جوتا (Duke of Saxe-Coburg- Gotha)، والملحن ريتشارد شتراوس (Richard Strauss)، ولودڤيج ميتيز (Ludwig Mitteis) -وكان خبيرًا إلى حد ما في القانون الروماني- بينما مُنحت الدكتوراه الفخرية لدوق ڤيرتمبرغ (Duke of Wurttemberg)، والأمير

---

(١) عن نقل الدم، انظر:

A. Hustin, 'Principe d'une nouvelle méthode de transfusion muqueuse', *Journal Médical de Bruxelles* 2 (1914), 436;

وعن حرائق الغابات، انظر:

Z. Frenkel, 'Zapiski o zhiznennom puti', *Voprosy istorii* 1 (2007), 79;

عن كرة القدم الألمانية، انظر:

C. Bausenwein, *Was ist Was: Fußballbuch* (Nuremberg, 2008), p. 60; A. Meynell, 'Summer in England, 1914', in *The Poems of Alice Meynell: Complete Edition* (Oxford, 1940), p. 100.

(2) H. Pogge von Strandmann, 'Germany and the Coming of War', in R. Evans and H. Pogge von Strandmann (eds), *The Coming of the First World War* (Oxford, 2001), pp. 87–8.

ليتشنوفسكي (Lichnowsky)، السفير الألماني في لندن[1].

ومـا أن مـرت ثلاثـة أيـام على هـذه الفعاليات، حتى أطلـق جافريلـو برنسـيب (Gavrilo Princip) -وكان شـابًا مثاليًـا، لمـا يبلغ العشـرين من العمر بعد- رصاصتين من مسدسه على سيارة كانت تعبر شـوارع سـراييفو (Sarajevo). ولـم تُصِـب أولاهمـا هدفها، بل استقرت في بطن الأرشـيدوقة صوفي (Archduchess Sophie)، التـي كانـت تجلـس فـي المقعد الخلفي للسيارة إلى جـوار زوجها بجروح قاتلة. أما الرصاصة الثانية فقد أصابت هدفها؛ لقد قتلت فرانز فرديناند (Franz Ferdinand)، ولي عهد إمبراطورية النمسـا والمجر. وعلى هذا النحو تغير العالم[2].

* * *

غالبًـا مـا يركز المؤرخون المعاصـرون على «أزمة يوليو July crisis» في الأسـابيع التي تلت اغتيال ولي عهد النمسـا، وعلى الفرص الضائعة للسـلام، كما يركزون على الطريق التي طالما خشي الكثيرون الانـزلاق فيهـا، وتوقعـوا انـدلاع الأعمـال العدائيـة. وأكـدت الدراسـات العلميـة الحديثـة أن الأجواء المشـحونة التـي واكبت انـزلاق العالم نحو الحرب، لم تكن أجواءً من الجرأة الحماسـية قط، بل كانت أجـواءً مـن القلق وسـوء الفهم؛ لقد كان سـيناريو كابوسـيًا. وكما وصف أحد المؤرخيـن البارزين ذلك الوضع بعبارة ملائمة: «كان أبطال عام ١٩١٤ يمشون نيامًا، مستيقظين ولكن لا يرون، تُطاردهم الأحلام، إلا أنهـم غفلوا عن حقيقة الرعب»، لقد كانوا على وشـك إطلاق العنـان[3]. وبحلول الوقت الذي أدرك فيه السير إدوارد جراي أن «المصابيح تنطفئ في جميع أنحاء أوروبا»، كان الأوان قد فات بالفعل[4].

كان الخـوف مـن روسـيا هو الذي أدى إلى اندلاع الحرب، في الأيـام التي أعقبت اغتيال ولي عهد النمسا. فأما ألمانيا، فكان خوفها الكبير من جارتها في الشرق هو الأمر الحاسم في هذا الصدد. لطالما ردد الجنـرالات -علـى مسـامع القيصـر- مـرارًا أن التهديد الذي تشـكله روسـيا سـوف يـزداد قوة مع استمرار اقتصادها في التقدم[5]. وتردد صدى ذلك النداء في سان بطرسبرج، حيث كوّن كبار المسؤولين

---

(1) T. Ashton and B. Harrison (eds), *The History of the University of Oxford*, 8 vols (Oxford, 1994), 8, pp. 3–4.

(٢) عـن التفاصيل المتعلقـة بتدريب القتلة، ومحاولات اغتيال فرانز فرديناند، ومقتلـه، انظر وثائق المحكمة المتعلقة بمحاكمة برينسيب (Princip) والمتواطئين معه، في:

The Austro-Hungarian Red Book, Section II, Appendices I-13, nos. 20–34 (1914–15).

(3) Clark, *Sleepwalkers*, p. 562.

(4) E. Grey, *Twenty-Five Years, 1892–1916* (New York, 1925), p. 20.

(5) I. Hull, 'Kaiser Wilhelm II and the "Liebenberg Circle"', in J. Röhl and N. Sombart (eds), *Kaiser Wilhelm II: New Interpretations* (Cambridge, 1982), pp. 193–220; H. Herwig, 'Germany', in R. Hamilton and H. Herwig, *The Origins of the First World War* (Cambridge, 2003), pp. 150–87.

رأيًا مفاده أن الحرب باتت حتمية، وأنه من الأفضل أن تبدأ المواجهة العسكرية عاجلًا وليس آجلًا[1].
وكان الفرنسيون أيضًا يشعرون بالخوف، بعد أن خلصوا قبل وقت طويل إلى أن أفضل ما يمكنهم عمله هو الحث على الاعتدال على نحو مستمر ومتسق في سان بطرسبرج، وكذلك في لندن. وأنهم سيدعمون روسيا مهما حدث[2].

وأما بريطانيا، فقد كان خوفها من العواقب المترتبة على بحث روسيا عن حظوظها في مكان آخر هو الوقود الدافع لسياساتها. ودار الحديث في مستهل عام ١٩١٤ في أروقة وزارة الخارجية حول إعادة تنسيق الجهود مع ألمانيا من أجل السيطرة على روسيا[3]. ومع تحول المواجهة إلى أزمة، حاول الدبلوماسيون والجنرالات والسياسيون فهم ما سيحدث بعد ذلك. ولما أوشك شهر يوليو (تموز) على الانتهاء، كان الدبلوماسي جورج كليرك (George Clerk) يكتب من إستانبول معبرًا عن قلقه، ومبلغًا برأيه الذي قضى بأن بريطانيا بحاجة إلى فعل كل ما هو ضروري لاستيعاب روسيا، وإلا فسوف نواجه عواقب «حيث سيكون وجودنا -بوصفنا إمبراطورية- على المحك» على حد قوله[4].

وعلى الرغم من أن بعض الناس حاول صب الماء البارد على مثل هذه المزاعم المثيرة للقلق، فإن السفير البريطاني في سان بطرسبرج، حذر من أن روسيا باتت قوية للغاية «بحيث يجب علينا الاحتفاظ بصداقتها بأي ثمن تقريبًا». وأرسل برقية تحمل هذا المعنى على نحو لا لبس فيه[5]. وقال في برقيته: إن موقف بريطانيا «محفوف بالمخاطر». ولما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ فينبغي أن يكون الاختيار بين دعم روسيا أو «التخلي عن صداقتها». وبذل النصيحة قائلًا: «إذا خذلناها الآن، فإن ذلك التعاون الودي معها في آسيا، ذي الأهمية الحيوية بالنسبة لنا» سيذهب أدراج الرياح[6].

وعلى هذا النحو لم يكن ثَم حل وسط، كما أوضح وزير الخارجية الروسي قرب نهاية يوليو (تموز)، ففي حين تعهد قبل أقل من أسبوعين بأن روسيا «ليس لها أهداف عدوانية، ولا تحلم بأي حال من الأحوال بأية عمليات استيلاء بالقوة»؛ سرعان ما غير جلده، وتحدث عن عواقب فشل الحلفاء في الاصطفاف معًا في لحظة الحساب. وحذَّر من أنه إذا ظلت بريطانيا محايدة في تلك اللحظة، «فسيكون

---

(١) محادثة مع سازونوف (Sazonov)، نقلاً عن:

V. Kokovtsov, *Out of my Past: The Memoirs of Count Kokovtsov, Russian Minister of Finance, 1904–1914*, ed. H. Fisher (Oxford, 1935), p. 348.

(2) Bureau du Levant to Lecomte, 2 July 1908, *Archives des Ministères des Affaires Etrangères: correspondance politique et commerciale (nouvelle série) 1897–1918. Perse*, vol. 3, folio 191.

(3) Clark, *Sleepwalkers*, pp. 325–6.

(4) Clerk, 'Anglo-Persian Relations in Persia', 21 July 1914, FO 371/2076/33484.

(5) Buchanan to Nicolson, 16 April 1914, in Gooch and Temperley, *British Documents*, 10.2, pp. 784–5.

(6) Buchanan to Grey, 25 July 1914, in Gooch and Temperley, *British Documents*, 11, p. 94.

ذلـك بمثابـة الانتحـار»[1]. وكان هذا تهديدًا من طرف خفي للمصالـح البريطانية في بلاد فارس، إن لم يكن في آسيا برمتها.

ومـع تصاعـد «أزمة يوليـو (تموز)»، تحـدث المسـؤولون البريطانيـون علنًا عن مؤتمرات السـلام والوساطة والدفاع عن سيادة بلجيكا، بيد أن السيف كان قد سبق العزل. وكان مصير بريطانيا -ومصير إمبراطوريتهـا- مرتبطًـا بالقـرارات التي تُتخذ في روسـيا. لقد كانت كلتا الدولتيـن خصمتين، بيد أنهما تنكرتا على هيئة حليفتين. ولـم يكن أي منهما يسعى إلى عزل الآخر أو استعدائه. وكان من الواضح أن بندول السـلطة قد انحرف بعيدًا عن لندن، ومال نحو سـان بطرسـبرج. ولم يكن أحد يعرف هذا أفضل من المستشار الألماني، ثيوبالد ڤون بيثمان هولڤيغ (Theobald von Bethmann- Hollweg)، السياسي المحترف والمطلع، والذي كان يقضي ليال -يجافيه فيها النوم- في الصلاة طلبًا للحماية الإلهية. وبينا كان جالسًـا «في الشـرفة تحت سـماء مرصعة بالنجوم» بعد عشرة أيام من حادثة اغتيال سراييڤو، وبينما كانـت تـروس الحـرب تتعشَّـق متخـذة أماكنهـا ببـطء، التفـت إلـى سـكرتيره وقال لـه: «إن المسـتقبل لروسيا»[2].

لم يكن ما ينطوي عليه هذا المسـتقبل واضحًا في عام ١٩١٤؛ ذاك أنه قد بولغ كثيرًا في تقدير قوة روسـيا؛ حيـث كانت في المراحـل الأولى من التحـول الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسـي لم تزل. وكان الرعب الذي حل بالبلاد عام ١٩٠٥ قد أشـعل فيها ثورة واسـعة النطاق؛ حيث تجاهلت مؤسسـة محافظة بشدة مطالب الإصلاح إلى حد كبير. ثم كان هناك اعتماد كبير على رأس المال الأجنبي؛ حيث بلغت نسـبة التمويل الخارجي نصف إجمالي الاسـتثمارات الجديدة بين عامي ١٨٩٠-١٩١٤ تقريبًا، وهي الأموال التي جاءت على أساس افتراض شيوع السلام، واستقرار الظروف السياسية[3].

واسـتغرق التحـول علـى نطاق واسـع وقتًا، ونـادرًا ما كان يمـر دون آلام مخاض حـادة. ولو ظلت روسـيا هادئـة، ولـو اختـارت طريقًا أقـل تحديًا في معـرض وقوفها إلـى جانب حليفهـا الصربي، لكان مصيرها -ومعها مصير أوروبا وآسيا، إن لم يكن أمريكا الشمالية أيضًا- مختلفًا تمامًا. ولكن ما حدث

(1) 'Memorandum communicated to Sir G. Buchanan by M. Sazonof', 11 July 1914, in FO 371/2076; M. Paléologue, *La Russie des tsars pendant la grande guerre*, 3 vols (Paris, 1921), I, p. 23.

(2) K. Jarausch, 'The Illusion of Limited War: Bethmann Hollweg's Calculated Risk, July 1914', *Central European History* 2 (1969), 58; idem, *The Enigmatic Chancellor: Bethmann Hollweg and the Hubris of Imperial Germany* (London, 1973), p. 96.

(3) J. McKay, *Pioneers for Profit: Foreign Entrepreneurship and Russian Industrialization, 1885-1913* (Chicago, 1970), pp. 28-9.

وانظر في هذا الصدد أيضًا:

D. Lieven, *Russia and the Origins of the First World War* (London, 1983); O. Figes, *A People's Tragedy: The Russian Revolution, 1891-1924* (London, 1996), esp. pp. 35-83.

قـد حـدث، وأهـلَّ عام ١٩١٤ بالمواجهة التي توقعتها الملكة ڤيكتوريا قبل عقود؛ حيث كان كل شـيء يتلخص في «مسـألة السـيادة الروسـية أو البريطانية على العالم» على حد قولها[1]. وعلى هذا النحو لم يكن يسع بريطانيا أن تخذل روسيا قط.

وهكـذا، كان الوضـع أشـبه بلعبـة شـطرنج شـيطانية، حيـث كانت جميع الحـركات الممكنة سـيئة العاقبة. ومن ثم ذهب العالم إلى الحرب. ولما أفسحت النشوة الأولي والشوڤينية (Jingoism) الطريق للشـعور بالمأسـاة والرعب على نطاق لا يمكن تصوره، تطورت قصة أعادت تشـكيل الماضي، وردت المواجهات إلى سـياق صراع دار بين ألمانيا والحلفاء، وهو نقاش تمحور حول المسـؤولية النسـبية لـ ألمانيا في اندلاع الحرب، كما تمحور أيضًا حول رواية استبسال الحلفاء.

* * *

كانت القصة التي تأصلت في الوعي العام هي قصة العدوان الألماني، والحرب العادلة التي خاضها الحلفـاء. لقـد مسـت الحاجـة إلى إجابات عن أسـئلة مـن قَبيل: لماذا نحَّـى جيل من الشـباب الأذكياء مسـتقبلهم جانبًـا. كمـا كانت هناك حاجة لشـرح تضحية شـخصيات رائعة مثل باتريك شـو سـتيوارت (Patrick Shaw Stewart)، وهـو عالِـم أذهلـت إنجازاتـه الفائقـة فـي المدرسـة، والجامعـة، والعمـل معاصريه، وكذلك مراسـلاته مع الليدي ديانا مانرز (Lady Diana Manners)؛ حيث كتب لها رسـائل غنيـة بالاقتباسـات المثيرة باللغتين اللاتينية واليونانية[2]. كما كانـت هناك حاجة إلى تبرير مقتل العمال الذيـن انضمـوا إلى جانـب رفاقهم الجنود للقتـال في كتائب الرفـاق (Pals Battalions) التي تشـكلت خصيصًا في ساعات افتتاح هجوم السوم الكارثي في عام ١٩١٦[3]. أو لماذا سجلت النصب التذكارية للحرب -التي انتشرت في جميع أنحاء البلاد- أسماء الرجال الذين ضحوا بحياتهم من أجل بلادهم، إلا أنها لم تسجل ذلك الصمت الذي خيم على القرى والبلدات بسبب غيابهم.

لذا لم يكن من المستغرب ظهور رواية قوية تمجد الجنود، وتحتفي بشـجاعتهم، وتقدر التضحيات التي قدموها. وكتب ونسـتون تشرشـل (Winston Churchill) بعد الحرب قائلًا: إن الجيش البريطاني كان أفضل قوة جُمِعت على الإطلاق. ولم يكن كل رجل فيه «يستلهم إيمانه من حب الوطن فحسب، بـل مـن خلال الاعتقاد بأن حرية الإنسـان تعرضـت لتحدٍّ من قِبل الطغيان العسـكري والإمبراطوري». وكانـت المعركـة نبيلة وعادلة؛ «فإذا طلب قادتهم نفسَـين أو عشـرة أنفس لقتـل ألماني واحد، لم ينبس المقاتلون ببنت شفة اعتراضًا... واستطرد تشرشل قائلًا: «لم تمنعهم المذبحة، مهما كان حجم الدمار

(1) D. Fromkin, 'The Great Game in Asia', *Foreign Affairs* (1980), 951; G. D. Clayton, *Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli* (London, 1971), p. 139.

(2) E. Vandiver, *Stand in the Trench, Achilles: Classical Receptions in British Poetry of the Great War* (Oxford, 2010), pp. 263–9.

(3) H. Strachan, *The Outbreak of the First World War* (Oxford, 2004), pp. 181ff.

المتولد عنها من العودة إلى الثكنات لأداء الواجب». وكان القتلى «شهداء على قدم المساواة مع الجنود، [و]حققوا الغرض الأسمى للواجب الذي كانوا مُشبعين به»[1].

بيد أن عددًا كبيرًا من الناس في ذلك الوقت لم يروا الأمر على هذا النحو. فبعض الناس، مثل إدوين كامبيون فوغان (Edwin Campion Vaughan)، الملازم الشاب الذي جُنِّد وهو يفيض بالحيوية والأمل، لم يستطع فهم حجم المعاناة أو الغرض منها. وبعد أن رأى بعينيه رفاقه وقد أفناهم الموت عن آخرهم، خمَّن أنه قد يُطلب منه كتابة تقرير عن الضحايا، فسجَّل كامبيون فوجان العبارة التالية: «جلست على الأرض، واحتسَيت كؤوسًا من الويسكي، كأسًا بعد الآخر، وأنا أحدق في مستقبل أسود فارغ»[2]. ورسمت مجموعة الأشعار المذهلة التي دُونت خلال الحرب بالمثل صورة مختلفة تمامًا عن كيفية النظر إلى الصراع في ذلك الوقت. وكذلك عدد المحاكمات العسكرية التي جرت خلال الحرب، والتي لم تكن تشي بإجماع الجنود على الحرب والقتال؛ فقد نظرت المحاكم العسكرية في أكثر من ثلاثمئة ألف جريمة، ناهيك عن عدد هائل من المسائل البسيطة المتعلقة بخرق الانضباط؛ حيث جرى التعامل معها في سياقات أخرى[3].

وكان من اللافت للنظر أيضًا أن مركز الصراع أصبح راسخًا في خنادق فلاندرز (Flanders) وبين أهوال السوم. لقد اندلعت الحرب بعيدًا عن الشبكات التي ربطت إمبراطوريات أوروبا بالأراضي في جميع أنحاء العالم. وبعيدًا عن نقاط الضغط التي نشأت في بلاد فارس وآسيا الوسطى، وعند بوابات الهند والشرق الأقصى التي كانت محور اهتمام كبير لواضعي السياسات والسياسيين البريطانيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ومع ذلك فإن المواجهة الوشيكة كانت تختمر منذ عقود. ونظرت بريطانيا إلى الأمر -في الوقت الذي كانت فيه روسيا تكشر عن أنيابها إظهارًا لدعمها لصربيا- بالطريقة التي تنبأ بها جراي. وكان جراي قد أشار قبل بضع سنوات فحسب إلى أن «شعور قويًا بالقومية السلافية قد نشأ في روسيا»، في إشارة إلى الدعوة المتزايدة في البلقان لروسيا؛ كي تلعب دورًا أكبر في المنطقة بوصفها حامية للهوية السلافية. «وسترفع إراقة الدماء بين النمسا وصرفيا (Servia) [كذا] بالتأكيد هذه النزعة إلى مستوى خطير»[4]. ها هنا كمن الموقد الذي كان يسعه أن يشعل النار في العالم.

(1) W. Churchill, *The World Crisis, 1911–1918, with New Introduction by Martin Gilbert* (New York, 2005), pp. 667-8:

عن الآراء حول أسرة تشرشل، انظر:

Hardinge to O'Beirne, 9 July 1908, Hardinge MSS 30.

(2) E. Campion Vaughan, *Some Desperate Glory* (Edinburgh, 1982), p. 232.

(3) HM Stationery Office, *Statistics of the Military Efforts of the British Empire during the Great War, 1914–1920* (London, 1922), p. 643.

(4) Grey to Goschen, 5 November 1908, FO 800/61, p. 2.

لذا؛ عندما بدأت روسيا -في ظل هذه الظروف- في الاستعداد للإدلاء ببيان لبقية العالم، كان على بريطانيـا أن تقـف خلف حليفتها وخصمها في الوقت نفسـه، حتى لـو وجد عدد كبير من الناس في هذا أمـرًا مربـكًا. وعندما اندلعت الحرب، كان روبرت بروك (Rupert Brooke) -الذي سـرعان ما اشـتهر بوصفه شاعر الحرب- بالكاد يستطيع احتواء غضبه. كتب قائلًا: «كل شيء يسير في الاتجاه الخاطئ؛ وددت لو أن ألمانيا مزقت روسيا إلى أشلاء، ثم مزقت فرنسا ألمانيا... روسيا تعني نهاية أوروبا، ونهاية أي حشمة»[1]. وعلى هذا النحو لم يكن لدى بروك شك في هوية العدو الحقيقي لبريطانيا.

على النقيـض من ذلك، كان بدء الأعمال العدائية يعني بدوره تأجيـج العداوات تجاه ألمانيا، ليس في عام ١٩١٤ فحسب، بل في الطريقة التي اندلعت بها الحرب أيضًا، وكذلك عندما اتُّفِق على تسوية السلام بعد أربع سنوات مروعة. وكتب أحد شعراء الحرب قائلًا:

«كليات أكسـفورد البائسـة ترنو إلى أسـفل/ إلى الصبية المنهمكين في اللعب، «ولكن عندما دوى النفير-الحـرب الحـرب! / نحَّوا ألعابهم جانبًا». وتركوا «المـروج الحليقة» في الجامعة وانطلقوا إلى أفق «أحمق دموي»: «لقد أهدوا شـبابهم الغض المرح/ في سـبيل الوطن والله»»[2]. وسرعان ما أضحى الاحتفـال بالعلاقـات البريطانيـة مـع ألمانيا والدرجات الفخرية الممنوحة للمشـاهير مـن أبنائها ذكرى مريرة، كان من الأفضل نسيانها.

لم يكن من المستغرب إذن أن يُلقي الحلفاء باللائمة على ألمانيا فيما تعلق باندلاع الحرب مباشرة، سواء من حيث المبدأ، أو التبعيات. وجرى تضمين معاهدة فرساي (Treaty of Versailles) بندًا قاطعًا يلقـي باللائمـة علـى ألمانيـا، ويحمّلها مسـؤولية اندلاع الحـرب، جاء فيـه: «تؤكد حكومـات الحلفاء والحكومـات المرتبطـة بهـا -وتقبـل ألمانيا- مسـؤولية ألمانيا وحلفائها عن التسـبب في كل الخسـائر والأضـرار التـي تعرضت لها حكومات الحلفاء والحكومات المرتبطة بها ورعاياها نتيجة للحرب التي فرضهـا عليهـم عـدوان ألمانيـا وحلفائهـا»[3]. وكان الهـدف مـن ذلـك هـو إرسـاء أسـس الإنصـاف، والتعويضات الواجب دفعها. بيد أن كل هذا استدعى رد الفعل، الأمر الذي وفر أرضًا خصبة صال فيها وجـال ديماجوجـي ماهر[4] كان بوسـعه توحيد المشـاعر الوطنية حول جوهر ألمانيـا القوية التي تُبعث وتنهض من تحت الرماد مجددًا.

وهكذا انتصر المنتصرون بالاسـم والأمل فحسـب. فعلى مدار أربع سـنوات، تحولت بريطانيا من كونهـا أكبـر دائـن في العالم إلـى كونها أكبر مدين له. وعانى الاقتصاد الفرنسـي من خـراب بعد تمويل

---

(1) Rupert Brooke to Jacques Raverat, 1 August 1914, in G. Keynes (ed.), *The Letters of Rupert Brooke* (London, 1968), p. 603.

(2) W. Letts, 'The Spires of Oxford', in *The Spires of Oxford and Other Poems* (New York, 1917), pp. 3–4.

(3) *The Treaty of Peace between the Allied and Associated Powers and Germany* (London, 1919).

(٤) الإيماءة هنا إلى أودلف هتلر، كما لا يخفى على فطنة القارئ. (المترجم)

مجهود حربي ضغط على القوى العاملة والموارد المالية والطبيعية للبلاد ضغطًا هائلًا. وعلى حد تعبير أحد العلماء، فإن روسيا في غضون ذلك «دخلت الحرب لحماية الإمبراطورية [إلا أن] إمبراطوريتها مُزِّقت شر ممزق»[1].

وفتح انهيار القوى الأوروبية العالم أمام غيرها. لقد حمل الحلفاء على عاتقهم التزامات ضخمة، مثل: تكليف مؤسسات مثل: ج. ب. مورجان وشركاه (JP Morgan & Co) لضمان إمدادات ثابتة من السلع والمواد الغذائية لسد النقص في الإنتاج الزراعي ودفع ثمن الأسلحة والذخائر[2]. وأدى الائتمان إلى إعادة توزيع الثروة على نحو جذري يحاكي ذلك الذي أعقب اكتشاف الأمريكتين قبل أربعة قرون. وتدفقت الأموال المستحقة من أوروبا إلى الولايات المتحدة على هيئة طوفان من السبائك وأذونات الخزانة. لقد أفلست الحرب العالم القديم، وأثرت العالم الجديد. وكانت محاولة تعويض الخسائر من خزائن ألمانيا (التي حُدِّدت عند مستوى مرتفع ومذهل بما يعادل مئات المليارات من الدولارات بشروط اليوم) محاولة يائسة وغير مجدية لمنع ما لم يكن هناك مفر منه. لقد شهدت الحرب العظمى نهب خزائن المشاركين فيها. وبينا كانوا يحاولون تدمير بعضهم بعضًا، دمروا أنفسهم في غضون هذه العملية[3].

عندما غادرت الرصاصتان ماسورة مسدس برنسيب من طراز براوننج (Browning)، كانت أوروبا قارة إمبراطوريات؛ فقد سيطرت إيطاليا، وفرنسا، والمجر النمساوية، وألمانيا، وروسيا، وتركيا العثمانية، وبريطانيا، والبرتغال، وهولندا، بل حتى بلجيكا الصغيرة -التي تشكلت في عام ١٨٣١ فحسب- على مناطق شاسعة في جميع أنحاء العالم. وما أن بدأت الحرب، حتى بدأت عملية إعادتها إلى سلطات محلية. وفي غضون سنوات، رحل الأباطرة الذين أبحروا على اليخوت الخاصة ببعضهم، وعيَّن بعضهم بعضًا لطوائف الفروسية الكبرى؛ واختفت بعض المستعمرات والمناطق الخاضعة للسيطرة في الخارج. وبدأ بعضها الآخر بالمضي قدمًا نحو المطالبة بالاستقلال بعزم لا يلين.

ربما سقط نحو ١٠ ملايين شخص في غضون أربع سنوات من القتال، ومات نصفهم مجددًا بسبب المرض والمجاعة. وأُنفقت دول الحلفاء والمحور أكثر من ٢٠٠ مليار دولار في قتال بعضهم بعضًا. ودُمرت الاقتصادات الأوروبية بسبب النفقات الهائلة غير المسبوقة، التي تفاقمت بسبب انخفاض الإنتاج. وعانت البلدان المنخرطة في القتال من العجز في ميزانياتها، ومن الاقتراض بوتيرة متسارعة،

---

(1) Sanborn, *Imperial Apocalypse*, p. 233.

(2) H. Strachan, *Financing the First World War* (Oxford, 2004), p. 188.

(3) Ibid.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

K. Burk, *Britain, America and the Sinews of War, 1914–1918* (Boston, 1985); M. Horn, *Britain, France and the Financing of the First World War* (Montreal, 2002), pp. 57–75.

حتى بلغت ديونها مبالغ لا تستطيع تحملها[1]. لم تنته الإمبراطوريات العظيمة -التي هيمنت على العالم لأربعة قرون- بين عشية وضحاها، بل مثلت نهاية الحرب بداية النهاية. وما بدأ للتو لم يكن سوى الغسق المؤذن بحلول الظلام. وعلى هذا النحو بدأ حجاب من الظلال يلف أوروبا الغربية مجددًا بعد أن بددت شمس عصر ذهبي ضبابه قبل بضعة قرون. لقد كانت تجربة الحرب مدمرة؛ وعملت على جعل السيطرة على طرق الحرير وثرواتها أكثر أهمية من ذي قبل.

---

(١) انظر في المقام الأول:

Strachan, *Financing the First World War*;

وانظر أيضًا:

Ferguson, *Pity of War*, esp. pp. 318ff., and B. Eichengreen, *Golden Fetters: The Gold Standard and the Great Depression, 1919–1939* (Oxford, 1992).

-١٧-

طريق الذهب الأسود

لم يخطر على بال زملاء وليم نوكس دارسي (William Knox D'Arcy) -في مدرسة ويستمينستر (Westminster) المرموقة بلندن- أن زميلهم سيلعب دورًا بارزًا في إعادة تشكيل العالم قط؛ ولا سيما عندما لم يعُد إلى المدرسة عندما بدأ العام الدراسي في سبتمبر (أيلول) عام ١٨٦٦م؛ ذاك أن والد وليم أساء التصرف في ديفون (Devon)، الأمر الذي أدى به إلى إشهار إفلاسه، فقرر ترك انجلترا مع أسرته، ليبدأ حياة جديدة في بلدة روكهامبتون (Rockhampton) الهادئة في كوينزلاند (Queensland) باستراليا.

وهناك واصل ابنه المراهق دراسته بهدوء، وما زال يجتهد حتى تخرج في كلية الحقوق ليعمل بالمحاماة، ولما آن الأوان افتتح مكتبه الخاص. عاش دارسي حياة رغدة، وسرعان ما أصبح من أعلام المجتمع المحلي في البلدة؛ حيث كان عضوًا بنادي الفروسية (Rockhampton Jockey Club) ثمة، كما كان مولعًا بالتصوير، وكان يمارسه كلما كان وقته يسمح له بذلك.

وكان وليم على موعد مع الحظ في عام ١٨٨٢م؛ إذ كان هناك ثلاثة أشقاء يقال لهم: الإخوة مورجان (Morgan)، وكانوا يتطلعون لاستغلال ما كانوا يعتقدون أنه اكتشاف كبير للذهب في جبل آيرونستون (Ironstone)، الواقع على بعد نحو عشرين ميلًا من روكهامبتون. وفي غمار بحثهم عن مستثمر يساعدهم في بدء عملية التعدين، لجؤوا إلى مدير البنك المحلي في البلدة، الذي وجههم بدوره إلى وليم نوكس دارسي. وأنشأ نوكس دارسي وكالة بالشراكة، مع مدير البنك، وصديق مشترك آخر، واستثمر أمواله في مخطط الأخوة مورجان آملًا تحقيق عائد جيد على رأسماله.

وكما هي الحال في جميع عمليات التعدين في بداياتها، مسَّت الحاجة إلى برود الأعصاب؛ حيث استلزمت عمليات التعدين إنفاق مبالغ نقدية كبيرة تنذر بالخطر في أثناء البحث عن الجائزة الكبرى. وسرعان ما فقد الأخوة مورجان أعصابهم، متأثرين بمعدلات إنفاق أموالهم؛ فما كان منهم إلا أن باعوا حصتهم للشركاء الثلاثة، إلا أنهم فعلوا ذلك في اللحظة الخاطئة؛ حيث تبيَّن أن رواسب الذهب فيما أعيد تسميته بـ جبل مورجان (Mount Morgan) كانت من بين الأغنى في التاريخ. وعلى هذا النحو ارتفعت قيمة الأسهم التي بيعت في الشركة بمقدار ٢٠٠٠ ضعف، بينما بلغ العائد على الاستثمار خلال فترة عشر سنوات ٢٠٠٠٠٠٪. وتحول نوكس دارسي -الذي كان يسيطر على الحصة الغالبة في

الأسـهم، وأكثـر مـن ثلث الشـركة، من محامٍ في بلـدة محلية صغيرة في اسـتراليا، إلـى واحد من أغنى الرجال في العالم[1].

ولـم يمض وقت طويل قبل أن يحزم دارسي أمتعته ويغادر استراليا، ويعود إلى إنجلترا ظافرًا؛ حيث اشـترى منـزلًا ريفيًـا رائعًا في ميـدان جروسـفينور (٤٢ Grosvenor Square)، ومنزلًا كبيرًا مناسـبًا في سـتانمور هول (Stanmore Hall)، خارج لندن مباشـرة؛ حيث أعاد تصميم المنزل، وزينه بأرقى أنواع المفروشـات التي يمكن أن يشـتريها المال. ثم ما لبث أن تعاقد مع شـركة موريس وشركاه (Morris & Co.) -وهي الشركة التي أنشأها وليم موريس (William Morris) لأعمال التصميمات و«الديكورات» الداخليـة. كمـا كلَّـف شـركة إدوارد بـورن جونـز (Edward Burne-Jones) بإعـداد مجموعـة مـن المفروشـات، اسـتغرق نسـجها نحـو أربع سـنوات، فكانـت غاية في الجـودة. واحتفل دارسـي -ومن حوله- بالسـعي وراء الكأس المقدسـة (Holy Grail) احتفالًا مناسـبًا تمامًا. وكانت «الكأس المقدسة» رمزًا مناسبًا لاكتشاف كنز لا يُفنى[2].

عرَف نوكـس دارسي كيف يعيش حياة البذخ والترف؛ حيث استأجر عقارًا رائعًا للرماية في نورفولك (Norfolk)، كمـا اشـترى كوخًـا يقـع عند نقطة النهاية في سـباقات إبسـوم (Epsom). وثـم لوحتان في «المعـرض الوطنـي لفـن التصويـر» (National Portrait Gallery) التقطتـا ملامح شـخصيته على نحو مثالي؛ فقد جعله الرسام في اللوحة الأولى يجلس متكئًا إلى مقعد وثير، وتعلو قسماته علامات الرضا، وعلى وجهه ابتسامة مرحة، تشهد على استمتاعه بالطعام اللذيذ، والنبيذ الممتاز. في حين جعله الرسام الثانـي يميـل إلى الأمام، كما لو كان يقص القصص عن مغامراته التجارية مع صديق له، وأمامه زجاجة من «الشمبانيا»، وفي يده سيجارة[3].

وجعل النجاح والثرة الاستثنائية من دارسي مَعلمًا لهؤلاء الذين مسَّت حاجتهم إلى مستثمرين، من أمثـال الأخـوة مورجـان. وكان أنطـوان كِتابجـي (Antoine Kitabgi) -وهـو مسـؤول مُتنفـذ بـالإدارة الفارسـية، قـد تعـرف إلى نوكس دارسـي فـي أواخر عام ١٩٠٠ بعد أن قدمه له السـير هنـري دروموند ولـف (Sir Henry Drummond-Wolff)، السـفير البريطاني السـابق في طهران- واحدًا ممن يبحثون عن هذا النوع من المستثمرين. وعلى الرغم من أن كتابجي كان كاثوليكيًا من أصول جورجية، فقد أبلى حسنًا في بلاد فارس، حيث ترقَّى ليصبح مديرًا عامًا للجمارك، فضلًا عن ذلك كان له عدد من الأصابع فـي عـدد كبير مـن الفطائر في بلاده. كما شـارك في عدة محـاولات لجذب الاسـتثمارات من الخارج

---

(1) D. Carment, 'D'Arcy, William Knox', in B. Nairn and G. Serle (eds), *Australian Dictionary of Biography* (Melbourne, 1981), 8, pp. 207–8.

(2) J. Banham and J. Harris (eds), *William Morris and the Middle Ages* (Manchester, 1984), pp. 187–92; L. Parry, 'The Tapestries of Sir Edward Burne-Jones', *Apollo* 102 (1972), 324–8.

(3) National Portrait Gallery, NPG 6251 (14), (15).

لتحفيـز الاقتصاد، والتفاوض -أو بالأحرى محاولة التفاوض- بشـأن تنازلات للأجانب، وتسـهيلات في القطاع المصرفي، وكذلك في مجال إنتاج التبغ وتوزيعه[١].

ولم يكن دافع هذه الجهود التي بذلها كتابجي هو الإيثار، كما لم تكن نابعة من حب الوطن كذلك؛ فقد أدرك رجال مثل كتابجي أن بوسعهم استغلال صلاتهم لتحقيق مكاسب مربحة متى جرى الاتفاق علـى الصفقـات، وحـان وقت إبرامها. وتلخص عملهـم في فتح الأبواب الموصـدة مقابل العمولات. وكان ذلـك مصـدر قلـق عميـق فـي لنـدن، وباريـس، وسـان بطرسـبرج، وبرليـن كذلـك؛ حيـث ألفى الدبلوماسـيون، والسياسـيون، ورجال الأعمال الغربيين الطريقة الفارسية في إدارة الأعمال غامضة، إن لم تكن فاسدة بالكلية. ولـم تحرز الجهود المبذولة لتحديث البلاد كبير تقدم، في حين أن التقليد القديم المتمثـل فـي الاعتمـاد علـى الأجانب لإدارة القوات المسـلحة، أو تولـي أدوارًا إدارية رئيسـة أدى إلى شعور المواطنين بالإحباط[٢]. وفي كل مرة حاولت فيها بلاد فارس التقدم خطوة إلى الأمام، بدا وكأنها تتراجع إلى الخلف مجددًا.

وكان كل شـيء فـي البلاد ينتقد النخبة الحاكمة انتقـادًا مُرًّا، إلا أنهم كانوا مبرمجين منذ فترة طويلة علـى التصرف على هذا النحو. وكان الشـاه ومن حوله مثـل الأطفال اللجوجين، الذين أدركوا أنهم إذا صمـدوا لفتـرة كافية، فسـوف تكافئهم القوى العظمى؛ حيث كان الذعـر ينتابها من أن تفقد مواقعها في هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية إذا لم يلبوا رغباته. فعلى سبيل المثال، لما لم يكن مظفر الدين شاه عضوًا في طائفة فرسان الرباط (Order of the Garter) في أثناء زيارته لإنجلترا في عام ١٩٠٢ فقد رفـض قبـول تكريـم بريطاني أقل مـن العضوية في تلـك الطائفة، ثم غـادر البلاد موضحًـا أنه «لم يكن سـعيدًا غاية السـعادة»؛ فدفع هذا كبار الدبلوماسـيين إلى الحديث إلى الملك إدوارد السـابع (Edward VII) في محاولة لإقناعه بأن يُسـبغ هذا الشـرف على الشـاه. وأبدى الملك بعض التردد في إهداء الشاه عضويـة الطائفـة بعـد أن عاد إلـى وطنه. ولم يخلُ الأمر من وقوع حوادث مؤسـفة فـي هذا «الموضوع الرهيـب Terrible subject» عندمـا اكتُشِـف أن الشـاه لـم يكـن يمتلك سـروالًا لركـوب الخيل، وكان وجوده أمرًا بروتوكوليًا ضروريًا في حفل التنصيب. الأمر الذي تسبب في حدوث ارتباك، حتى اكتشف دبلوماسي حاذق سابقة في الماضي، حيث حصل عضو سابق على شرف ارتداء السـروال. وأبدى وزير الخارجية اللورد لانسـداون (Lord Lansdowne) امتعاضه عُقيب ذلك مباشـرة، عندما قال: «يا له من كابوس في تاريخ فرسان الرباط!»[٣].

---

(١) عن خلفية هذه المسألة، انظر:

R. Ferrier and J. Bamburg, *The History of the British Petroleum Company*, 3 vols (London, 1982–2000), 1, pp. 29ff.

(2) S. Cronin, 'Importing Modernity: European Military Missions to Qajar Iran', *Comparative Studies in Society and History* 50.1 (2008), 197–226.

(3) Lansdowne to Hardinge, 18 November 1902, in A. Hardinge, *A Diplomatist in the East* (London, 1928), pp. 286–96. =

والحق أن الرشوة -التي سارت كتفًا بكتف مع إنجاز أي شيء يجري إنجازه في بلاد فارس- بدت عـادة فظَّـة. وعلى هذا النحو سـار الفُرس جيئة وذهابًا عبر أروقة السـلطة، والمراكـز المالية الكبرى في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في مجالات عديدة. ولم يكن القرن التاسع عشر يختلف كثيرًا عن قرن الصغد -وكانوا تجار العصور القديمة الذين قطعوا الفيافي والقفار بغرض التجارة- أو أولئك التجار من الأرمن واليهود الذين اضطلعوا بالدور نفسـه في أوائل العصر الحديث. وكمـن الاختـلاف في أن الصغد كان متعينًا عليهـم حمل البضائع معهم لبيعها، أما أخلافهم من الفُرس فكانوا يبيعون خدماتهم واتصالاتهم فحسـب. وجرى تسـليع هذه الخدمات والاتصالات وتسـعيرها، ولا سـيما في ظل وجود مكافآت رائعة بانتظار من يحصدها. ولو لم يكن هناك زبائن مسـت حاجتهم إلـى هـذا النـوع من السـلع، لجرت الأمور -حتمًـا- على نحو مختلـف في البلاد. لقـد كان موقع بلاد فـارس -بين الشـرق والغـرب- يربط الخليج العربـي والهند بطـرف الجزيرة العربية والقـرن الإفريقي وصولًا إلى قناة السويس. وكان ذلك يعني أنه كان يتعين على الغرب التودد إلى الفُرس وتملقهم -ولو كان ذلك على مضض- وبغض النظر عن الكلفة.

* * *

لمـا اقتـرب كتابجـي من دروموننـد وولـف (Drummond-Wolff) واتصل بـ نوكس دارسـي، الذي وُصـف بأنـه «رأسـمالي مـن الطـراز الأول»، لم يكن يركز علـى تجارة التبغ، أو الاسـتثمار فـي القطاع المصرفـي فـي بلاد فـارس، بل كان تركيـزه منصبًّا على ثروة البـلاد المعدنية. وكان نوكس دارسـي هو الشخص المثالي للتحدث معه في هذا الصدد. لقد أصاب الذهب ذات مرة في استراليا؛ وعرَض عليه كتابجي الفرصة ليُصيب الذهب مجددًا؛ إلا أن الصيد الثمين هذه المرة كان الذهـب الأسود[1].

لم يكن وجود رواسـب نفطية كبيرة في بلاد فارس سـرًّا يخفى. فقد كتب المؤلفون البيزنطيون في العصـور القديمـة المتأخرة -على نحـو منتظم- عن القـوة التدميرية لنيران الميديـين (Median Fire)، وهي مادة مصنوعة من النفط المأخوذ من التسـربات السـطحية في شـمال بلاد فارس -على الأرجح- ويمكن مقارنتها بـ «النار الإغريقية» القابلة للاشتعال التي صنعها البيزنطيون من التدفقات الخارجة في منطقة البحر الأسود[2].

= وانظر أيضًا في هذا الصدد:

R. Greaves, 'British Policy in Persia, 1892–1903 II', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 28.2 (1965), 302–3.

(1) Wolff to Kitabgi, 25 November 1900, D'Arcy Concession; Kitabgi Dossier and Correspondence regarding Kitabgi's claims, BP 69454.

(٢) انظر بصفة عامة:

Th. Korres, Hygron pyr: ena hoplo tes Vizantines nautikes taktikes (Thessaloniki, 1989); J. Haldon, 'A Possible Solution to the Problem of Greek Fire', Byzantinische Zeitschrift 70 (1977), 91–9; J. Partington, A History of Greek Fire and Gunpowder (Cambridge, 1960), pp. 1–41.

وأشـارت المسـوحات الجيولوجية الممنهجة التي أُجرِيت في الخمسينيات من القرن الماضي إلى احتمال وجود موارد كبيرة تحت السطح، وأدت إلى سلسلة من الامتيازات التي مُنِحت للمستثمرين -الذيـن أغرتهـم احتمـالات تحقيـق الثـروات فـي وقـت بـدا فيـه العالـم وكأنـه ينثر كنـوزه للمنقبيـن المحظوظين- إلى انتشـار أعمال التنقيب من ولاية كاليفورنيا (بلاد الذهب) إلى حوض ويتواترسـراند (Witwatersrand) فـي جنـوب إفريقيا[1]. وكان البـارون بول جوليوس دي رويتر (Baron Paul Julius de Reuter) -وهو مؤسس وكالة الأنباء التي لم تزل تحمل اسمه- واحدًا ممن انتقلوا إلى بلاد فارس. وفي عام ١٨٧٢، حصل دي رويتر على «امتياز حصري وقاطع» لاستخراج كل ما يقدر على استخراجه مـن «مناجـم الفحـم، والحديـد، والنحـاس، والرصـاص، والنفط» في جميـع أنحاء البـلاد، إضافة إلى صلاحيات تقضي بحقه في بناء الطرق، والأشغال العامة، وسائر مشروعات البنية التحتية الأخرى[2].

بيد أن رويتر عاد بخُفي حُنين لسـبب أو لآخر؛ فمن جهة كانت هنالك معارضة محلية شرسـة لمنح التراخيص من هذا النوع؛ حيث اسـتنكرت شـخصيات شـعبوية مثل السيد جمال الدين الأفغاني حقيقة أن «مقاليـد الحكومـة [كانـت] تُسـلم لعـدو الإسـلام». واسـتطرد ذلك الناقـد صارخًا: «سـتصبح بلاد الإسـلام قريبًـا تحـت سـيطرة الأجانـب، الذيـن سـيتحكمون فيهـا كمـا يحلـو لهـم، ويفعلـون فيها ما يشـاءون»[3]. كما كانت هناك أيضًا ضغوط دولية في معرض المنافسـة، الأمر أدى إلى إعلان امتياز دي رويتر الأصلي لاغيًا، وباطلًا ولما يمر عام على إبرامه[4].

وعلى الرغم من أن دي رويتر وافق على الحصول على امتياز ثانٍ في عام ١٨٨٩م يمنحه حقوقًا في جميـع المـوارد المعدنيـة لبـلاد فارس بخـلاف المعـادن الثمينة، مقابل «هدايا» كبيرة من المال للشـاه وبطانتـه المقربيـن، بالإضافـة إلـى إتاوات متفـق عليها على الأربـاح المتوقعة في المسـتقبل- فإن هذه الجهـود ذهبـت أدراج الرياح عندما فشـلت أعمال التنقيـب عن النفط في العثور عليـه بكميات مجدية تجاريًـا خـلال الإطـار الزمني المحدد بعشـر سـنوات. ولم تكن حقيقـة ما وصفه أحد رجـال الأعمال البريطانييـن البارزيـن بأنـه «الحالـة المتخلفة للبلاد، والافتقار إلى وسـائل الاتصـالات والمواصلات» لتجعل الأمور أكثر سهولة. كما فاقم «العداء المباشر والمعارضة، والغضب، من جانب كبار المسؤولين في الحكومة الفارسية» الوضع سوءًا[5]. فضلاً عن ذلك لم يكن ثَم تعاطف في لندن نفسها؛ فقد أشارت

(1) W. Loftus, 'On the Geology of Portions of the Turco-Persian Frontier and of the Districts Adjoining', Quarterly Journal of the Geological Society 11 (1855), 247–344.

(2) M. Elm, Oil, Power, and Principle: Iran's Oil Nationalization and its Aftermath (Syracuse, 1992), p. 2.

(3) Letter of Sayyid Jamāl al-Dīn al-Afghānī to Mujtahid, in E. Browne, The Persian Revolution of 1905- 1909 (London, 1966), pp. 18–19.

(4) P. Kazemzadeh, Russia and Britain in Persia, 1864–1914: A Study in Imperialism (New Haven, 1968), pp. 122, 127.

(5) Griffin to Rosebery, 6 December 1893, FO 60/576.

إحـدى المذكـرات الداخليـة إلـى وجـود مخاطر تحيط بممارسـة التجـارة في هـذا الجزء مـن العالم. وأضافت: إن كل مَن توقع أن تسـير الأمور في بلاد فارس على النحو الذي تسـير به في أوروبا إنما هو أحمق. ثم أردفت ببرود: إنه «خطأهم»؛ إذ لم يتوقعوا الأسوأ[1].

ومع ذلك أبدى نوكس دارسـي افتتانًا بالعرض الذي قدمه له كتابجي؛ فانكب دارسـي على دراسـة النتائـج التـي توصل إليها علماء الجيولوجيا الفرنسـيون الذين أجروا مسـحًا للبلاد علـى مدار عقد من الزمـان. كما حصل على دراسـات من الدكتـور بوفيرتون ريـدوود (Dr Boverton Redwood) -وكان واحدًا من الخبراء البريطانيين المعدودين في مجال النفط، ومصنِّف عدة كتب عن إنتاج النفط، وتخزينه على نحو آمن، ونقله، وتوزيعه، واسـتخدامه، ومنتجاته[2]. ولـم تكن هناك حاجة للاطلاع على كل هذا البحـوث، ففـي الوقـت نفسـه، كان كتابجي يؤكد لـ دروموند ولـف، «إننا بصدد التنقيـب عن مصدر للثروات [التي] لا تُعد ولا تُحصى»[3].

وكان فيما قرأه نوكس دارسـي وسـمعه الكفاية؛ كي يحزم أمره ويبرم صفقة مع أولئك الذين مسـت حاجته إلى مساعداتهم للفوز بتصديق الشاه على منحه الامتياز، وعلى الأخص إدوارد كوتي (Edouard Cotte)، الـذي عمـل وكيـلًا لـ دي رويتر، ومن ثـم كان وجهه مألوفًـا في الدوائر الفارسـية، إضافة إلى كتابجـي نفسـه. بينمـا حصـل درومونـد ولف أيضًـا على وعـد بمكافأة في المسـتقبل في حـال نجاح المشروع. وفي أعقاب ذلك، اتصل نوكس دارسي بوزارة الخارجية للحصول على مباركتها للمشروع، وأرسـل ممثلـه ألفريـد ماريـوت (Alfred Marriott) إلـى طهران لبـدء المفاوضات ثمة، حاملًا رسـالة تعريف رسمية بنفسه.

وعلى الرغم من أن الرسالة نفسها لم تكن ذات قيمة جوهرية -في عالم يمكن فيه قراءة الإشارات الخاطئة بسـهولة- فـإن طلب تقديم المسـاعدة لحاملها مهما كان مـا يحتاج إليـه، كان موقَّعًا من وزير الخارجية نفسه، وكان ذلك بمثابة وسيلة قوية؛ حيث اشتمت حكومة الشاه رائحة الحكومة البريطانية، وخمنت وقوفها خلف مبادرة نوكس دارسي[4]. ونظر ماريوت إلى البلاط الفارسي مندهشًا، وكتب في

(1) Currie Minute, 28 October 1893, FO 60/576.

(2) J. de Morgan, 'Notes sur les gîtes de Naphte de Kend-e-Chirin (Gouvernement de Ser-i-Paul)', Annales des Mines (1892), 1–16; idem, Mission scientifique en Perse, 5 vols (Paris, 1894–1905); B. Redwood, *Petroleum: Its Production and Use* (New York, 1887); J. Thomson and B. Redwood, *Handbook on Petroleum for Inspectors under the Petroleum Acts* (London, 1901).

(3) Kitabgi to Drummond-Wolff, 25 December 1900, Kitabgi Dossier and Correspondence regarding Kitabgi's claims, BP 69454.

(4) Gosselin to Hardinge, 12 March 1901, FO 248/733;

ذكر ماريوت نص رسالة المقدِّمة في مذكراته:

17 April 1901, BP 70298.

مذكراتـه قائـلًا: إن العـرش «مرصع بالكامل بالمـاس والياقوت الأزرق والزمـرد، وهناك طيور مرصعة بالجواهر (وليس طواويس) تقف على الجانبين»؛ كما وصف الشاه بأنه «رامٍ ماهر للغاية»[1].

والحق أن العمل الحقيقي قد أُنجِز من خلال كتابجي، الذي تمكن -وفقًا لأحد التقارير- من كسب «دعم جميع الوزراء، ورجال الحاشية المهمين المحيطين بالشاه، بطريقة شاملة للغاية؛ حتى إنه لم ينس الخـادم الشـخصي الـذي يجلب الغليـون وقهوة الصبـاح لجلالته»، فدهـن كفوفهـم (Greasing their palms)، كناية عن الرشـوة. وهكذا سـارت الأمور على ما يرام، وقيل لـ نوكس دارسـي: «إن الحكومة الفارسية ستمنحه» امتياز النفط على الأرجح[2].

وكانت عملية استصدار اتفاق كتابي عملية شاقة. وبرزت عقبات غير متوقعة من العدم، الأمر الذي دفـع البرقيـات إلـى العـودة إلى لندن طالبـةً الرأي مـن نوكس دارسـي، والإذن بتذليل المزيـد من تلك العقبات. وحث ماريوت دارسي قائلًا: «آمل أن توافق على هذا؛ ذاك أن الرفض يعني خسارة العلاقة». وكان الـرد يأتيـه: «لا تتـردد. وإن كان يسـعك قـول أي شـيء عـن لسـاني يُفضـي إلـى تسـهيل الأمور، فافعل»[3]. وكان نوكس دارسـي يعني أنه يتمتع بالأهلية في التصرف بأمواله، وكان على اسـتعداد لفعل كل ما يتطلبه الأمر للحصول على ما يريد. ومن المسـتحيل معرفة متى جرى تقديم مطالب جديدة، أو كُنه الوعود التي قدمت بشأن المستفيدين الحقيقيين؛ كما أخذت الشائعات تسري بأن أنوف الروس قد اشـتمت ريـح المفاوضـات، التـي يُفتـرَض أنهـا كانـت تجري فـي الخفـاء، فوُضِعت مسـارات مضللة لإبعادهم عن الرائحة[4].

بُعيـد ذلـك، وردت الأنبـاء -في أثناء وجود ماريوت في حفل عشـاء في طهران- دون سـابق إنذار تقريبًـا، تقضـي بـأن الشـاه قد وقع الاتفاقيـة. وعلى هـذا النحو مُنِح نوكس دارسـي -الـذي وُصِف في الاتفاقات بأنه رجل «ذا وسـائل مسـتقلة، مقيم في ٤٢ ميدان جروسڤينور (Grosvenor Square) لندن، حقوقًا شـاملة، وحصـل على «امتياز خاص وحصري للبحث عن النفط، والغاز الطبيعي، والأسـفلت، والشـمع المعدني (Ozokerite)، واسـتخلاصه، واسـتغلاله، وتطويره، وجعله مناسـبًا للتجارة، وحمله وبيعه في جميع أنحاء المملكة الفارسـية لمدة ٦٠ عامًا» لقاء ٢٠ ألف جنيه إسـترليني، مع نفس المبلغ من الأسـهم التي يتعين دفعها عند تشـكيل الشـركة، بالإضافة إلى إتاوة سـنوية قدرها ١٦٪ على صافي الأربـاح. فضـلًا عـن ذلك، حصل دارسـي على حقـوق مد خطوط الأنابيب، وإنشـاء مرافـق التخزين، والمصافي، والمحطات، وخدمات الضخ على نحو حصري[5].

(1) Marriott Diary, pp. 16, 25, BP 70298.

(2) Hardinge to Lansdowne, 12 May 1901, FO 60/640; Marriott Diary, BP 70298.

(3) Marriott to Knox D'Arcy, 21 May, BP 70298; Knox D'Arcy to Marriott, 23 May, BP 70298.

(4) Ferrier and Bamberg, *History of the British Petroleum Company*, pp. 33-41.

(5) Ibid., Appendix 1, pp. 640-3.

وتـلا ذلـك صـدور مرسـوم ملكي أعلن عـن أن نوكس دارسـي و«جميـع ورثته، ومن يتنـازل لهم، وأصدقائه»، قد مُنحوا «صلاحيات كاملة، وحرية كاملة غير منقوصة؛ لاستكشاف أعماق التربة الفارسية واختراقها، وحفرها بإرادتهم لمدة ٦٠ عامًا». وناشـد المرسـوم «جميع المسـؤولين فـي هذه المملكة المباركة» أن يسـاعدوا الرجل الذي يتمتع بـ «حظوة في بلاطنا المجيد»[١]. ها قد تسـلم دارسـي مفاتيح المملكة، وبات السؤال: هل يتمكن من العثور على القفل؟

لـم يُبـدِ المراقبـون -مـن أصحاب الخبـرة- في طهـران اقتناعًا بهذه التطورات. وأشـار السـير آرثر هاردينـج (Sir Arthur Hardinge) -وكان ممثـل بريطانيا في بلاد فارس- إلى أنه على فرض اكتشـاف «النفط، كما يعتقد عملاؤهم»، فإن هناك تحديات كبيرة تلوح في المسـتقبل. واسـتطرد قائلًا: «الأجدر بنـا أن نتذكـر أن «حطام عـدد كبير من المخططات المأمولة، للتجديد التجاري، والسياسـي قد دُفن في تُربة بلاد فارس -سواء كانت تحتوي على النفط أم لا- في السنوات الأخيرة؛ حتى إنه سيكون من قبيل التسرع التنبؤ بمستقبل هذا المشروع الأخير»[٢].

وربما كان الشـاه يراهن أيضًا على أن هذه القصة سـتنتهي إلى العدم، وأنه يمكنه ببسـاطة الاستمتاع بالأمـوال المدفوعـة مقدمًا كما كان ذلك دأبه فـي الماضي. وكان من المؤكد أن الوضـع الاقتصادي في بلاد فارس في ذلك الوقت كان سيئًا؛ حيث كانت الحكومة تواجه عجزًا كبيرًا في الميزانية، الأمر الذي أدى إلى وضع مالي محفوف بالمخاطر، وباعث على القلق؛ ولهذا؛ كان الأمر يسـتحق فعل كل شـيء للحصول على الأموال من جيوب نوكس دارسي العميقة. وساد القلق الشديد في أروقة وزارة الخارجية البريطانيـة، التـي لم تأبـه للامتياز الممنوح حديثًـا مقارنة بالعروض التي كانت طهـران تقدمها لكل من لندن، وسان بطرسبرج -وكانت العروض الأخيرة باعثًا على قلق البريطانيين، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

وأظهر الروس الامتعاض عندما بلغتهم أنباء امتياز نوكس دارسي، بيد أنهم تمكنوا تقريبًا من إخراج الجائزة عن مسارها عندما تلقى الشاه برقية من القيصر شخصيًا يحثه فيها على ألا يمضي قدمًا في إبرام الاتفاق[٣]. وكان نوكس دارسي يشعر بقلق شديد من فقدان الروس لصوابهم جراء الاتفاق، ومن دسهم لأنوفهم لإفسـاد الأمور؛ وتنفس الصعداء حيث صدر مرسـوم للشاه يقضي باستبعاد الولايات الشمالية -علـى وجـه التحديد- من حقـوق الامتياز «بحيث يتجنب إثارة اسـتياء» الجارة الشـمالية القوية. ومن منظـور لنـدن، كان مبعث القلق أن روسـيا سـوف تبالغ في تعويض خسـارتها؛ حيث كانـت خيارًا أكثر ملاءمة للشاه ورجاله آنذاك قياسًا بما مضى[٤]. كما حذر ممثل بريطانيا في طهران -اللورد لانسداون-

(1) N. Fatemi, *Oil Diplomacy: Powder Keg in Iran* (New York, 1954), p. 357.

(2) Hardinge to Lansdowne, 30 May 1900, FO 60/731.

(3) Marriott Diary, 23 May 1901, BP 70298.

(4) Knox D'Arcy to Lansdowne, 27 June 1901, FO 60/731; Greaves, 'British Policy in Persia', 296–8.

فإن منح الامتياز قد يكون «محفوفًا بالنتائج السياسية والاقتصادية» إذا عُثر على النفط بكمية لها قيمة[1]. وعلى هذا النحو لم تكن حقيقة الضغوط المتزايدة في معرض التنافس على النفوذ والموارد في منطقة الخليج بالسر الذي يخفى.

* * *

سرعان ما تأزمت الأمور على المدى القصير، وبدا مشروع نوكس دارسي وكأنه ولد ميتًا إلى حد كبير؛ حيث مضى العمل بطيئًا بسبب المناخ القاسي، وكثرة الأعياد الدينية، والأعطاب الميكانيكية المنتظمة، وتعطل الحفارات والمثاقب. كما كان هناك عداء مفتوح للمشروع أيضًا، تجسد على هيئة شكايات من تدني الأجور، والممارسات التعسفية في العمل، والعدد القليل من الأهالي الذين جرى توظيفهم، بينما لم تكن هناك نهاية للمشكلات مع القبائل المحلية التي كانت ترغب في الحصول على ترضية من جانب أصحاب المشروع[2]. وشعر نوكس دارسي بالتوتر بشأن عدم إحراز تقدم في المشروع، مقارنة بمقدار الأموال التي أنفقها. وأرسل برقية لفريق الحفر الخاص به بعد أقل من عام من الموافقة على الامتياز قائلًا: «تأخير خطير. أُصلي من أجل الإسراع»[3]. وبعد أسبوع، أرسل رسالة أخرى سأل فيها كبير مهندسيه يائسًا: «أيسعك الوصول إلى الآبار؟». وتكشف السجلات عن كميات كبيرة من الأنابيب والصمامات والمجارف والفولاذ والمطارق التي كانت تُشحن من بريطانيا إلى جانب البنادق والمسدسات والذخيرة. كما تُظهر قسائم الرواتب والأجور بين عامي ١٩٠١-١٩٠٢ أيضًا مقادير الأموال التي كانت تُنفق على نحو مستمر. ولا بد أن نوكس دارسي قد شعر -آنذاك- بأن مثَله مثَل الذي يدفن أمواله في الرمال[4].

إن كان دارسي قد شعر بالقلق، فكذلك كان شأن المصرفيون في بنك لويدز (Lloyds)؛ حيث انتابهم القلق على نحو متزايد بسبب السحب على المكشوف، دون وجود رصيد يغطي تلك القروض التي اقترضها رجل كانوا يفترضون أن تحت تصرفه أموالًا لا يحصيها العد[5]. وما زاد الطين بلة هو أنه لم يكن ثم نتيجة بإزاء العمل الجاد والتكاليف الباهظة. وعلى هذا النحو مسَّت حاجة نوكس دارسي إلى إقناع مزيد من المستثمرين بشراء أسهم في الشركة، لعل ذلك يخفف الضغط عن مصروفاته النقدية على الصعيد الشخصي، ويوفر رأس المال للمضي قدمًا في المشروع. وفي غضون ذلك كانت فرقه العاملة تخرج علامات واعدة دالة على وجود النفط. وهكذا كل ما كان الرجل بحاجة إليه هو ضربة حظ كبيرة.

---

(1) Hardinge to Lansdowne, 30 May 1900, FO 60/731.

(2) Ferrier and Bamberg, *British Petroleum*, pp. 54–9.

(3) D'Arcy to Reynolds, 15 April 1902, BP H12/24, p. 185.

(4) Letter Book, Persian Concession 1901 to 1902, BP 69403.

(5) Bell to Jenkin, 13 July, Cash Receipt Book, BP 69531.

وعلى هذا النحو بحث نوكس دارسي -في غمرة شعوره المتنامي باليأس- عن مستثمرين محتملين، أو حتى عن مشترين يشترون امتيازه. وعلى هذا النحو سافر دارسي إلى مدينة كان (Cannes) ليلتقي البارون ألفونس دي روتشيلد (Baron Alphonse de Rothschild)، الذي كان لأسرته بالفعل مصالح واسعة في مجال النفط في باكو. وأطلق هذا البحث المحموم عن مستثمرين جدد أجراس الإنذار في لندن، ولا سيما في أروقة البحرية البريطانية؛ حيث كان السير جون فيشر (Sir John Fisher)، اللورد الأول للأدميرالية[1]، بمثابة نبيٍّ تنبأ بأن مستقبل الحرب البحرية، والسيادة على البحار يكمن في التحول من الفحم، إلى النفط. فقد كتب إلى صديق له في عام ١٩٠١ قائلًا: «إن الوقود المستخرج من النفط سيُحدث ثورة في الإستراتيجية البحرية. وإن ذلك واقع لا محالة، «ألا هُبّي من سُباتك يا إنجلترا!»[2]. وعلى الرغم من إخفاق أعمال التنقيب عن النفط في تقديم دليل دامغ على وجود النفط، فإن جميع الدلائل والقرائن كانت تشير إلى أن بلاد فارس تمتلك إمكانات يمكن أن تكون مصدرًا رئيسًا للنفط. فإذا كان من الممكن تأمين تلك الكميات للاستخدام الحصري للبحرية الملكية، فهذا أفضل بكثير. ومن الضروري ألا تُمنَح الفرصة لأيدٍ أجنبية للسيطرة على هذه الموارد قط.

وعلى هذا النحو تدخلت الأدميرالية للتوسط في اتفاق بين نوكس دارسي، وشركة نفط اسكتلندية، كانت قد صادفت نجاحًا كبيرًا في بورما. وبعد تقديم عقد إلى الشركة الأخيرة في عام ١٩٠٥ لتزويد البحرية بـ ٥٠٠٠٠ طن من النفط سنويًّا، جرى إقناع مديري شركة نفط بورما (Burmah Oil Company) بالحصول على حصة كبيرة فيما أعيدت تسميته بوكالة الامتيازات (Concessions Syndicate). ولم يفعل الجميع ذلك من منطلق واجبهم الوطني؛ بل لأنها كانت استراتيجية تنويع معقولة. وكذلك لأن سجلهم الحافل مكنهم أيضًا من زيادة رأس المال المُستثمَر في المشروع. وأخيرًا تنفس نوكس دارسي الصعداء، حيث كتب قائلًا: إن الشروط التي جرى التوصل إليها «كانت أفضل مما كان يمكن أن أحصل عليه من خلال الاتفاق مع أية شركة أخرى». بيد أنه لم يكن ثم ضمان للنجاح، كما أشار الممثل الدبلوماسي البريطاني المتشكك دائمًا في طهران بجفاف في تقاريره التي كان يرسلها إلى الديار. لقد كان العثور على النفط مشكلة في حد ذاتها؛ بيد أن التعامل مع محاولات الابتزاز المستمرة كان مشكلة أخرى[3].

---

(١) هذا خطأ واضح؛ فقد كان السير جون فيشر اللورد الثاني للبحرية الملكية البريطانية (Second Naval Lord) آنذاك، بينما كان وينستون تشرشل اللورد الأول للبحرية البريطانية. (المترجم)

(2) A. Marder (ed.), *Fear God and Dread Nought: The Correspondence of Admiral the First Sea Lord Lord Fisher of Kilverstone*, 3 vols (Cambridge, MA, 1952), I, p. 185.

في هذا الصدد، وعن تحول بريطانيا إلى النفط قبيل الحرب العالمية الأولى، انظر:

Yergin, *The Prize*, pp. 134ff.

(٣) تجد ملف الكتب والمراسلات المتعلقة بمزاعم كتابجي في:

BP 69454; Hardinge to Grey, 23 December 1905, FO 416/26; T. Corley, *A History of the Burmah Oil Company, 1886–1924* (London, 1983), pp. 95–111.

لم تؤتِ الشراكة الجديدة أُكلها على مدى السنوات الثلاث التالية. فالآبار التي حُفِرت لم تُسفر عن شيء البتة، وعلى هذا النحو استمرت النفقات في التهام أموال المساهمين. وبحلول ربيع عام ١٩٠٨، كان مديرو شركة نفط بورما يتحدثون عن الانسحاب من عمليات التنقيب في بلاد فارس بالكلية صراحةً. وفي ١٤ مايو ١٩٠٨، أرسلوا كلمة إلى جورج رينولدز (George Reynolds) -وكان القائد الميداني للعمليات، والرجل الذي وصفه أحد أولئك الذين عملوا معه بأنه رجل صلب ذو همة، كأنه قُدَّ من «خشب البلوط البريطاني الصلب»- بالاستعداد لوقف عمليات التنقيب. وصدرت له التعليمات بحفر بئرين في منطقة مسجد سليمان بعمق ١٦٠٠ قدم. فإذا لم يظهر النفط، فعليه «إيقاف العمليات، وإغلاق المعمل، وإعادة أكبر قدر ممكن منه»، وشحنه إلى بورما حيث سيكون أكثر فائدة ثمة[١].

وبينما كانت الرسالة تشق طريقها عبر مكاتب البريد في أوروبا، ثم بلاد الشام، وصولًا إلى بلاد فارس، كان رينولدز يواصل عمله، غير مدرك لنية الشركة إنهاء العمل في المواقع كافة. وواصل فريقه الحفر، الأمر الذي أدى إلى شق حفرة في الطبقة الصخرية بقوة، وتسببت تلك القوة في عملية الحفر في فك المثقاب؛ حيث فُقِد في الحفرة لعدة أيام، ثم استُعيد أخيرًا، وأُعيد توصيله. وفي ٢٨ مايو (آيار) في الساعة الرابعة صباحًا، اصطدم الحفار بالبئر الأم، وأصاب الزيت، فانطلق الذهب الأسود عاليًا في الهواء. وكان اكتشافًا ضخمًا[٢].

وأرسل أرنولد ويلسون -وكان ملازمًا في الجيش البريطاني ومسؤولًا عن أمن الموقع- برقية مشفرة إلى الوطن تنطوي على آخر الأخبار، قال فيها ببساطة: «انظر: مزمور ١٠٤، الآية ١٥ الجملة الثانية»[٣]. لقد طلبت الآية من الرب الصالح أن يُخرِج زيتًا من الأرض، ليجعل الوجوه تُشرق ابتهاجًا. ثم كتب إلى والده قائلًا: إن هذا الاكتشاف يعد بريطانيا بمكافآت رائعة؛ واستطرد قائلًا: كما نأمل أن يكون الأمر كذلك للمهندسين «الذين تعبوا وثابروا طويلًا، دون مديريهم من أصحاب القبعات العالية... في هذا المناخ العدائي»[٤].

واعتقد المستثمرون الذين تزاحموا في شركة النفط الأنجلو-فارسية، وهي الشركة التي كانت تتحكم في حقوق الامتياز، بعد طرح الأسهم في عام ١٩٠٩، أن أول بئر في مسجد سليمان لم يعدُ كونه قمة جبل الجليد فحسب، وستكون هناك مكافآت عالية في مستقبل هذا الامتياز. وبطبيعة الحال، كان بناء البنية التحتية اللازمة للسماح بتصدير النفط، وكذلك حفر آبار جديدة، وإيجاد حقول جديدة، بحاجة إلى الوقت والمال. كما لم يكن من السهل إدارة الأمور بسلاسة على الأرض، حيث دأب

(1) Ferrier and Bamberg, *British Petroleum*, pp. 86-8.

(2) Ibid.

(3) A. Wilson, *South West Persia: Letters and Diary of a Young Political Officer, 1907-1914* (London, 1941), p. 42.

(4) Ibid.

أرنولـد ويلسـون علـى الشـكاية مـن أنـه كان يتعين عليه إنفـاق بعض الوقت في سـد الهـوة الثقافية بين البريطانيين «الذين لا يستطيعون قول ما يقصدونه، والفُرس الذين لا يقصدون دائمًا ما يقولونه». ثم ذكر أن البريطانييـن نظـروا إلى العقد على أنه اتفاقية من شـأنها أن تقدَّم إلـى المحكمة عند الاختلاف؛ بينما رأى الفُرس فيها مجرد تعبير عن النوايا، ليس إلا[1].

ومع ذلك، سـرعان ما جرى إنشـاء خط أنابيب لربط الحقل الأول بجزيرة عبادان في شـط العرب، والتـي اختيـرت موقعًا للمصفاة، ومركزًا للتصدير. ومن ثم نُقل نفط بلاد فارس إلى الخليج، حيث كان يمكن بعد ذلك تحميله على متون السفن وشحنه إلى أوروبا لبيعه في وقت كانت فيه احتياجات الطاقة فـي القـارة آخـذة في الارتفاع على نحو حاد. وكان خط الأنابيب نفسـه رمزيًـا للغاية؛ ذاك أنه كان يمثل أول خيط فيما سـيصبح شـبكة من خطوط الأنابيب التي تعبر آسـيا، والتي أعطت شـكلًا جديدًا، وحياة جديدة لطرق الحرير القديمة.

بيـد أن المشـكلات كانـت تختمر على مهل؛ ذاك أن اكتشـاف النفط جعل قطعة الـورق التي وقعها الشاه عام ١٩٠١ من بين أهم وثائق القرن العشرين. فبينما وضعت تلك الاتفاقية الأساس لنمو أعمال قُـدِّرت بمليـارات الـدولارات، مهـدت شـركة النفـط الأنجلو-فارسـية (شـركة البتـرول البريطانيةBP لاحقًـا)، الطريـق للاضطرابـات السياسـية أيضًـا. لقـد أدت بنـود الاتفاقية -التـي منحت المسـتثمرين الأجانب السيطرة على جواهر التاج الفارسي- إلى كراهية عميقة ومتنامية للعالم الخارجي، الأمر الذي أدى بدوره إلى نمو الروح القومية، وفي الأخير، إلى ريبة أكثر عمقًا، ورفض للغرب تجسد في الأصولية الإسـلامية الحديثـة علـى نحـو أمثـل. كمـا كانـت الرغبة في السـيطرة علـى النفط سـببًا لعـدد كبير من المشكلات في المستقبل.

ويُعد امتياز نوكس دارسـي -علـى المسـتوى الإنسـاني- قصة مذهلة عن الفطنة التجارية، والتغلب علـى الصعـاب؛ بيـد أن أهميته العالمية تتسـاوى مع اكتشـاف كولومبوس للعالم الجديـد على الجانب الآخـر مـن المحيط الأطلسـي عـام ١٤٩٢. فقد صـادر الغزاة الكنـوز والثروات الهائلة وشـحنوها إلى أوروبا، وعلى هذا المنوال تكرر الأمر نفسه مجددًا. وكان أحد الأسباب الكامنة وراء ذلك هو الاهتمام الوثيـق الذي أولاه الأدميرال فيشـر والبحرية الملكية، الذين أخـذوا يراقبون الوضع في بلاد فارس عن كثـب. وعندمـا واجهـت الأنجلو-فارسـية مشـكلات في التدفـق النقدي في عام ١٩١٢، أسـرع فيشـر بالتدخل، حيث كان يشـعر بالقلق من أن الاسـتثمارات قد تتسـرب إلى منتجين مثل شـركة شل Shell) (Royal Dutch، التي أنشأت شبكة إنتاج وتوزيع كبيرة من قاعدة أولية في جزر الهند الشرقية الهولندية. وذهـب فيشـر لمقابلـة اللـورد الأول للأدميرالية -وكان نجمًا سياسـيًّا صاعـدًا- ليقنعـه بأهمية تحويل محركات البوارج البحرية من العمل بمحركات حرق الفحم إلى النفط. ويخبره أن النفط هو المستقبل، ويمكن تخزينه بكميات كبيرة، وبتكلفة زهيدة. ومع ذلك، فقد كان الأهم من ذلك كله أنه مكَّن السفن

(1) Ibid., p. 103; Corley, *Burmah Oil Company*, pp. 128–45.

مـن التحـرك بسـرعة أعلـى. وأردف قائلًا: إن الحـرب البحرية «منطقيـة خالصـة، وأول ضرورياتها هو السـرعة *SPEED*، حتـى تكـون قادرًا على القتال فـي الزمان، والمكان، والكيفية التي تريد». ومن شـأن ذلك أن يتيح للسفن البريطانية التغلب على سفن العدو، ويمنحها ميزة حاسمة في المعركة[1]. وعندما أنصت ونستون تشرشل إلى فيشر، أدرك مغزى حديثه على الفور.

وكان التحول إلى استخدام النفط يعني أن قوة البحرية الملكية وكفاءتها سترتفع إلى «مستوى أعلى بالتأكيد؛ ومن ثم ستبلي السفن حسنًا، وتكون الأطقم أفضل، والاقتصادات أعلى، وتتوفر أشكال أكثر كثافة من القوة الحربية». ولـم يكن ذلك يعني -كما أشار تشرشل- شيئًا أقل من أن السيطرة على البحار كانـت علـى المحـك[2]. فكر تشرشـل بعمق في الكيفيـة التي تحظى بهـا البحرية الملكية بهـذه الميزة، وتصـر عليهـا فـي الوقت، الذي كان يتزايد فيه الضغط في الشـؤون الدولية، ويبدو خلالها أن المواجهة محتملة على نحو أو آخر، سواء في أوروبا أو خارجها. وفي صيف عام ١٩١٣، قدم تشرشل ورقة إلى مجلس الـوزراء بعنوان «إمـدادات الوقود النفطي لبحريـة جلالة الملـك» (Oil Fuel Supply for His Majesty's Navy). واقترح فيها أن الحل يكمن في شراء الوقود من مجموعة من المنتجين، أو التفكير فـي شـراء «حصـة غالبة من مصادر التوريـد الموثوقة». ولـم تؤد المناقشـة التي أعقبـت ذلك إلى نتيجة محـددة، بخـلاف الاتفـاق على أن «الأدميرالية ينبغـي أن تؤمن إمداداتها من النفط... من أوسـع منطقة ممكنة، ومن أكثر مصادر الإمداد تعددًا»[3].

وبعـد أقـل من شـهر، تغيرت الأمور؛ فقد بـات رئيس الوزراء -آنذاك- يؤمن إلـى جانب وزرائه، بـ «الضـرورة الحيويـة Vital necessity» للنفط في المسـتقبل؛ لذلك، أحاط رئيس الوزراء الملك جورج الخامس (George V) -في تقريره المنتظم عن التطورات الجديدة بالذكر- علمًا بأن الحكومة ستشتري حصة غالبة في الأنجلو-فارسية، من أجل تأمين «مصادر إمداد موثوقة» للنفط[4].

وكان تشرشـل صريحًـا في معرض طرحـه لقضيته. فلم يكن تأمين إمدادات النفـط متعلقًا بالبحرية فحسـب؛ بـل كان الأمـر متعلقًا بحماية مسـتقبل بريطانيا. علـى الرغم من أنه كان يـرى أن الفحم يدعم نجـاح الإمبراطوريـة، إلا أنـه كان يعتمد كثيرًا على النفط. وقال أمـام البرلمان في تموز (يوليو) من عام ١٩١٣: «إذا لم نتمكن من الحصول على النفط، فلا يمكننا الحصول على الذُّرة، ولا يمكننا الحصول على القطن، ولا يمكننا الحصول على ألف سـلعة وسـلعة ضرورية للحفاظ على الطاقات الاقتصادية لبريطانيـا العظمـى». وينبغـي بناء الاحتياطات فـي حالة الحرب؛ ولكن لا يمكن الوثوق أيضًا بالسـوق المفتوحة؛ لأنها أضحت «مهزلة مفتوحة» بسبب المضاربين[5].

---

(1) Fisher, *Fear God and Dread Nought*, 2, p. 404.

(2) Churchill, *World Crisis*, pp. 75–6.

(3) 'Oil Fuel Supply for His Majesty's Navy', 19 June 1913, CAB 41/34.

(4) Asquith to King George V, 12 July 1913, CAB 41/34.

(5) Churchill, House of Commons, 17 July 1913, Hansard, 55, 1470.

لذا بدا أن الأنجلو-فارسية قدمت حلًّا لعدد كبير من المشكلات. وكان امتيازها «سليمًا تمامًا»، وفي ظل وجود أموال كافية وراءه، يمكن على الأرجح «تطويره إلى حد كبير»، وفقًا للأدميرال السير إدموند سليد (Admiral Sir Edmond Slade)، المدير السابق للاستخبارات البحرية، ورئيس فريق العمل المسؤول عن تقييم أعمال الشركة. إن السيطرة على الشركة، مع توفير إمدادات النفط المضمونة، ستكون بمثابة هبة السماء للبحرية. وهكذا خلص سليد إلى أن الحل يكمن في الحصول على حصة غالبة «بتكلفة معقولة للغاية»[1].

وسارت المفاوضات مع الأنجلو-فارسية بسرعة، حتى إنه بحلول صيف عام ١٩١٤ تمكنت الحكومة البريطانية من شراء حصة بنسبة ٥١٪ من إجمالي النفط المستخرج، إلى جانب السيطرة التشغيلية على الأعمال. وأمّنت بلاغة تشرشل في مجلس العموم تصويتًا بأغلبية كبيرة لصالح مشروعه. وهكذا كان يسع صانعي السياسة، والمخططين، والعسكريين البريطانيين الشعور بالارتياح عندما تيقنوا من أنه بات بوسعهم الوصول إلى موارد النفط التي يمكن أن تكون حيوية في أي صراع عسكري في المستقبل. وبعد أحد عشر يومًا من تصويت مجلس العموم البريطاني، قُتِل فرانز فرديناند بالرصاص في سراييفو.

وفي فورة النشاط التي أحاطت بالتصعيد للحرب، كان من السهل التغاضي عن أهمية الخطوات التي اتخذتها بريطانيا لحماية احتياجاتها من الطاقة. ونبع هذا -جزئيًا- من إدراك عدد قليل من الناس ماهية الصفقات التي أُبرمت خلف الكواليس. فقد وافقت الحكومة البريطانية أيضًا على شروط سرية لتزويد الأدميرالية بالنفط لمدة عشرين عامًا، إضافة إلى شراء الحصة الغالبة في الأنجلو-فارسية.

وكان هذا يعني أن سفن البحرية الملكية التي أبحرت في صيف عام ١٩١٤ تحركت مستفيدة من إمكانية الاعتماد على إعادة التزود بالوقود في حالة استمرار المواجهة مع ألمانيا. ومنح التحول إلى النفط السفن البريطانية ميزة على سفن منافسيها من حيث السرعة والمناورة؛ بيد أن الميزة الأكثر أهمية تمثلت في أنها استطاعت البقاء في البحر لوقت أطول. ولم يكن من قبيل المصادفة أن ألقى اللورد كرزون (Lord Curzon) خطبة في لندن في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ -بعد أقل من أسبوعين من الاتفاق على الهدنة- أخبر فيه زملائه على مأدبة العشاء أن «قضية الحلفاء بلغت حافة النصر عند ركوبها قمة موجة النفط». ووافق سناتور فرنسي بارز على ذلك مبتهجًا؛ حيث عقَّب قائلًا: إن ألمانيا أولت الكثير من الاهتمام للحديد والفحم، ولم تكن تولي النفط اهتمامًا كافيًا. وقال: إن الزيت هو دم الأرض، بل هو دم الانتصار[2].

(1) Slade to Churchill, 8 November 1913, 'Anglo-Persian Oil Company. Proposed Agreement, December 1913', ADM 116/3486.

(٢) نقلاً عن:

D. Yergin, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (3rd edn, New York, 2009), p. 167.

وكان هناك بعض الحقيقة في هذا الحديث. ففي حين انصب اهتمام المؤرخين العسكريين على حقول القتل -ولا أقول القتال- في فلاندرز، فإن ما حدث في وسط آسيا كان ذا أهمية عظيمة في نتيجة الحرب العظمى، بل وأكثر أهمية في الحقبة التي تلت الحرب. فمع إطلاق الطلقات الأولى في بلجيكا وشمال فرنسا، كان العثمانيون يفكرون في الدور الذي يجب أن يلعبوه في المواجهة المتصاعدة في أوروبا. وبينا كان السلطان مصرًّا على وجوب أن تبقى الدولة على الحياد، ارتفعت أصوات أخرى هاتفةً بأن الروابط التقليدية الوثيقة مع ألمانيا تقضي بالتحالف معها، وهذا أفضل ما يمكن فعله. ومع انشغال القوى العظمى في أوروبا بإصدار الإنذارات، وإعلان الحرب على بعضها بعضًا، اتصل وزير الحرب العثماني المزاجي، أنور باشا، بقائد الحامية في بغداد لتحذيره مما قد ينتظره. وكتب له قائلًا: «إن الحرب مع إنجلترا احتمال قائم الآن». واستطرد قائلًا: فإذا اندلع القتال، فينبغي أن يهب القادة العرب لدعم المجهود العسكري العثماني في الجهاد المقدس. وينبغي إثارة السكان المسلمين في بلاد فارس للثورة ضد «الحكم الروسي-الإنجليزي»[1].

وفي هذا السياق، لم يكن من المفاجئ أن ترسل بريطانيا -في غضون أسابيع من بدء الحرب- فرقة من بومباي لتأمين عبادان، وخطوط الأنابيب وحقول النفط. ولما تم لها ذلك، احتلت مدينة البصرة ذات الأهمية الاستراتيجية في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٤، وعندها أخبر السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox) سكان المدينة خلال مراسم حفل رفع العلم البريطاني أن «الأتراك ذهبوا إلى غير رجعة. وها قد رُفع العلم البريطاني على تلك البقعة، وبموجب ذلك ستتمتعون بفوائد الحرية والعدالة، سواء فيما يتعلق بشؤونكم الدينية أو الدنيوية»[2]. ولم تكن عادات الأهالي ومعتقداتهم ذات أهمية تُذكَر عند بريطانيا. ما كان على المحك هو حماية الموارد الطبيعية للمنطقة.

وقدم البريطانيون -إدراكًا منهم أن سيطرتهم على منطقة الخليج باتت ضعيفة- مبادرات لشخصيات بارزة في العالم العربي، بما في ذلك الشريف حسين -وكان شريف مكة- الذي عُرضت عليه صفقة مغرية، تقضي بأنه إذا قدم حسين «والعرب عمومًا» الدعم لبريطانيا في قتالها ضد الأتراك، فإن بريطانيا «ستضمن استقلال الشريف، وحقوقه وامتيازاته ضد كل عدوان أجنبي خارجي، ولا سيما من جهة العثمانيين. ولم يكن هذا كل شيء، فقد قدمت بريطانيا حافزًا آخر بدا أكثر تشويقًا؛ فربما حان الوقت الذي «يتولى فيه عربي قُح الخلافة في مكة أو المدينة». لقد عُرض على حُسين -الوصي على مدينة مكة، والمنحدر من قبيلة قريش، ومن نسل هاشم، جد النبي محمد [ﷺ] نفسه- إمبراطورية مقابل دعمه[3].

---

(١) نقلاً عن:

M. Aksakal, '"Holy War Made in Germany?" Ottoman Origins of the Jihad', *War in History* 18.2 (2011), 196.

(2) F. Moberly, *History of the Great War Based on Official Documents: The Campaign in Mesopotamia 1914–1918*, 4 vols (London, 1923), 1, pp. 130–1.

(3) Kitchener to HH The Sherif Abdalla, Enclosure in Cheetham to Grey, 13 December 1914, FO 371/1973/87396.

=

ولم يكن البريطانيون يقصدون هذا حقًا، فضلًا عن أن يتمكنوا من فعله. ومع ذلك، فمنذ بداية عام ١٩١٥، أخذت الأمور تنعطف نحو المسار الأسوأ، وكان البريطانيون على دأبهم، يمنون حسين الأماني طيلة الوقت، ونتج هذا جزئيًا من عجزهم عن تحقيق انتصار سريع في أوروبا. بيد أنه نشأ أيضًا من حقيقة أن العثمانيين بدؤوا أخيرًا في شن هجوم مضاد على المواقع البريطانية في الخليج العربي، بل -وعلى نحو مقلق أيضًا- ضد مواقعهم في مصر، مهددين قناة السويس، وهي الشريان الذي كان يمكّن السفن القادمة من الشرق من الوصول إلى أوروبا بأسابيع أسرع مما لو اضطروا إلى الإبحار حول إفريقيا. وقرر البريطانيون -في ظل هذه الظروف- إنزال القوات في شرق البحر المتوسط وفتح جبهة جديدة -لتحويل الموارد وتشتيت انتباه العثمانيين- وبدا أن عقد الصفقات مع أي شخص قد يخفف الضغط عن قوات الحلفاء أمر ملح؛ وكان يسهل على البريطانيين المبالغة في الوعود بالمكافآت التي قد تُدفَع في المستقبل فحسب.

وأُجريت حسابات مماثلة في لندن حول صعود القوة الروسية. وعلى الرغم من أن أهوال الحرب سرعان ما تجلت، فقد كان هناك بعض الشخصيات المؤثرة في بريطانيا التي كانت تخشى أن تنتهي الحرب في وقت أقرب من اللازم. وكان رئيس الوزراء الأسبق آرثر بلفور (Arthur Balfour) يبدي قلقه من أن الهزيمة السريعة لألمانيا ستجعل روسيا أكثر خطورة من خلال تأجيج طموحاتها إلى حد تهديد الهند. وكان هناك قلق نبع من منبع آخر؛ ذاك أن شائعات تناهت إلى أُذن بلفور، مفادها أن جماعة ضغط متنفذة في سان بطرسبرج كانت تحاول التصالح مع ألمانيا. وكان هذا -كما دار في خلده- بمثابة كارثة محققة على بريطانيا، لا تختلف كثيرًا عن خسارة الحرب[1].

وكانت المخاوف بشأن روسيا تعني أن ضمان ولائها كان ذا أهمية قصوى. وكان احتمال السيطرة على القسطنطينية والدردنيل هو الطُعم المثالي للاحتفاظ بالروابط التي وحدت صفوف الحلفاء، إضافة إلى لفت انتباه حكومة القيصر إلى موضوع شديد الحساسية. وعلى الرغم من قوة روسيا، فقد كان مقتلها -أو فلنقُل كعب أخيل في جسدها- هو افتقارها إلى الموانئ المطلة على المياه الدافئة بخلاف البحر الأسود، والذي كان متصلًا بالبحر المتوسط أولًا عن طريق البوسفور، وثانيًا عن طريق الدردنيل، وهما الامتدادان الضيقان للمياه التي تفصل أوروبا عن آسيا عند طرفي بحر مرمرة. وكانت هذه القنوات بمثابة شريان الحياة؛ حيث ربطت حقول الغلال في جنوب روسيا بأسواق التصدير في الخارج. وكان إغلاق الدردنيل -وترك القمح يتعفن في المخازن- قد أدى إلى إلحاق أضرار مدمرة

= وانظر أيضًا في هذا الصدد:

E. Karsh and I. Karsh, 'Myth in the Desert, or Not the Great Arab Revolt', *Middle Eastern Studies* 33.2 (1997), 267–312.

(1) J. Tomes, *Balfour and Foreign Policy: The International Thought of a Conservative Statesman* (Cambridge, 1997), p. 218.

بالاقتصاد الروسي خلال حروب البلقان في الفترة بين عامي ١٩١٢-١٩١٣. كما أدى إلى الحديث عن إعلان الحرب على العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على تلك المضايق[١].

لذا؛ شعر الروس بالسعادة عندما أثار البريطانيون مسألة مستقبل إستانبول والدردنيل في نهاية عام ١٩١٤. وأعلن سفير بريطانيا لمسؤولي القيصر أن هذه هي «أسنى جائزة في الحرب برمتها». وكان من المقرر تسليمها لروسيا ما أن تضع الحرب أوزارها، وذلك على الرغم من أن القسطنطينية يجب أن تظل ميناءً مجانيًّا «للبضائع العابرة من الأراضي غير الروسية وإليها»، إلى جانب امتياز «حرية السفن التجارية التي تمر عبر المضايق»[٢].

وعلى الرغم من غياب مؤشرات تُذكر تدل على قرب حدوث انفراجة على الجبهة الغربية؛ حيث عانى كلا الجانبين من خسائر استثنائية فادحة، وحيث أُريقت الدماء أنهارًا لسنوات، فإن الحلفاء ظلوا يتفاوضون -غير عابئين- حول تقسيم أراضي خصومهم ومصالحهم. وقد يسخر المرء من هذه الاجتماعات، في ضوء الاتهامات التي وجهها الحلفاء إلى ألمانيا وحلفائها بالإمبريالية بعد الهدنة. فبعد أشهر قليلة من بدء الحرب، كان الحلفاء يفكرون بالفعل في الاستمتاع بأشلاء أعدائهم المهزومين.

وبهذا المعنى، كان هناك ما هو أكثر من مجرد تعليق جزرة القسطنطينية والدردنيل أمام أعين الروس، ذاك أنه في مستهل عام ١٩١٥ شُكلت لجنة برئاسة السير موريس دي بنسن (Sir Maurice de Bunsen) لتقديم تقرير عن المقترحات المتعلقة بمستقبل الدولة العثمانية بعد ضمان النصر. وكان جزء من الحيلة تقسيم الأراضي بطريقة تناسب أولئك الذين كانوا حلفاء في هذا الوقت، إلا أنهم كانوا خصومًا في الماضي، وربما يكونون كذلك في المستقبل أيضًا. وكتب السير إدوارد جراي قائلًا: إنه لا ينبغي فعل شيء يثير شكوك طرف ما في أن بريطانيا لديها خطط بشأن سوريا. واستطرد: «سيعني ذلك القطيعة مع فرنسا، إذا قدمنا أي مطالبات متعلقة بسوريا ولبنان»، وهي المنطقة التي شهدت استثمارات كبيرة من قبل الشركات الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٣].

وعلى هذا النحو تقرر إنزال قوة برية كبيرة مؤلفة من قوات بريطانية، وأسترالية، ونيوزيلندية، في شبه جزيرة جاليبولي عند مصب مضيق الدردنيل الذي يفضي إلى إستانبول -وليس كما كان مخططًا

---

(1) Soroka, *Britain, Russia and the Road to the First World War*, pp. 201–36; Aksakal, *Ottoman Road to War*.

(2) 'Russian War Aims', Memo from British Embassy in Petrograd to the Russian government, 12 March 1917, in F. Golder, *Documents of Russian History 1914–1917* (New York, 1927), pp. 60–2.

(3) Grey to McMahon, 8 March 1915, FO 800/48.

عن الاستثمارات الفرنسية قبل الحرب، انظر:

M. Raccagni, 'The French Economic Interests in the Ottoman Empire', *International Journal of Middle East Studies* 11.3 (198), 339–76; V. Geyikdagi, 'French Direct Investments in the Ottoman Empire Before World War I', *Enterprise & Society* 12.3 (2011), 525–61.

فـي الأصـل، فـي الإسـكندرونة (وتقع الآن جنوبي شـرق تركيـا)- وذلك سـبيلًا لإظهـار التضامن مع روسـيا، وتجنب المواجهة مع فرنسـا حول مجال نفوذها في سـوريا[1]. بيد أنه سـرعان ما تبين أن هذا الموقع لم يكن مناسبًا خاصة لشن هجوم كبير، بل كان بمثابة الفخ الذي سقط فيه عدد كبير من أولئك الذيـن حاولـوا شـق طريقهم إلـى الأرض، صعـودًا لتدمير المواقـع التركية المحصنة جيـدًا. وعلى هذا النحو تعود أصول تلك الحملة الكارثية إلى النضال من أجل فرض السـيطرة على شـبكات الاتصالات والتجارة التي تربط أوروبا بالشرق الأدنى وآسيا[2].

وتحدَّد مستقبل القسطنطينية والدردنيل؛ وبات ينبغي حل مشكلة الشرق الأوسط. وفي سلسـلة من الاجتماعـات التـي انعقـدت في النصـف الثاني من عام ١٩١٥ ومسـتهل عام ١٩١٦، كان السـير مارك سـايكس (Sir Mark Sykes)، النائـب البرلمانـي شـديد الاعتـداد بنفسـه، الـذي تمكن مـن أُذن اللورد كيتشنر (Lord Kitchener)، وزير الدولة لشؤون الحرب، وفرانسوا جورج بيكو (Francois Georges-Picot)، وهو دبلوماسـي فرنسـي، يقسـمان المنطقة. واتفق الرجلان على خط يمتد من عكا (في أقصى شمال ما يُعرف الآن بإسرائيل) باتجاه الشمال الشرقي حتى حدود بلاد فارس. وبموجبه ينال الفرنسيون سوريا ولبنان، بينما يكون نصيب البريطانيين بلاد الرافدين، وفلسطين، والسويس.

وكان تقسيم الغنائم بهذه الطريقة أمرًا خطيرًا، لأسباب أخصها أن الرسائل المتضاربة حول مستقبل المنطقة كانت تنتشـر وتشـيع في أماكن أخرى. فقد كان هناك حُسـين، الذي كان يُمنَّى باستقلال العرب وإعـادة الخلافـة؛ كما كانت هناك «شـعوب شـبه الجزيرة العربيـة، وأرمينية، وبلاد الرافدين، وسـوريا، وفلسطين»، وكان رئيس الوزراء البريطاني يصرح علنًا بأنه «يعترف بحقوقهم في تقرير مصائرهم»، وبدا ذلـك وكأنـه وعـد بالسـيادة والاسـتقلال[3]. كما كانت هنـاك الولايات المتحـدة، التي تلقـت تأكيدات متكررة من البريطانيين والفرنسيين بأنهم لا يقاتلون «من أجل المصالح الأنانية، ولكن من أجل حماية اسـتقلال الشـعوب، والحـق، والإنسـانية فـي المقـام الأول». واجتهـدت بريطانيـا وفرنسـا فـي الزعم للولايات المتحدة بأن لهما أهدافًا نبيلة في القلب، وأنهما تسعيان جاهدتين لتحرير «السكان الخاضعين لاسـتبداد الأتـراك الدموي»، وفقًـا لصحيفة التايمـز اللندنيـة *The Times of London*[4]. وكتب إدوارد هـاوس (Edward House)، مستشـار السياسـة الخارجية للرئيـس ويلسـون (Wilson)، عندما علم بنبأ الاتفـاق السـري مـن وزير الخارجية البريطاني، قائلًا: «كان كل شـيء سـيئًا». الفرنسـيون والبريطانيون «يجعلون من [الشرق الأوسط] بيئة خصبة لحرب في المستقبل»[5]. ولـم يكن مخطئًا في رأيه هذا قط.

---

(1) E. Kedourie, *In the Anglo-Arab Labyrinth: The McMahon–Husayn Correspondence and its Interpretations, 1914–1939* (Abingdon, 2000), pp. 53–5.

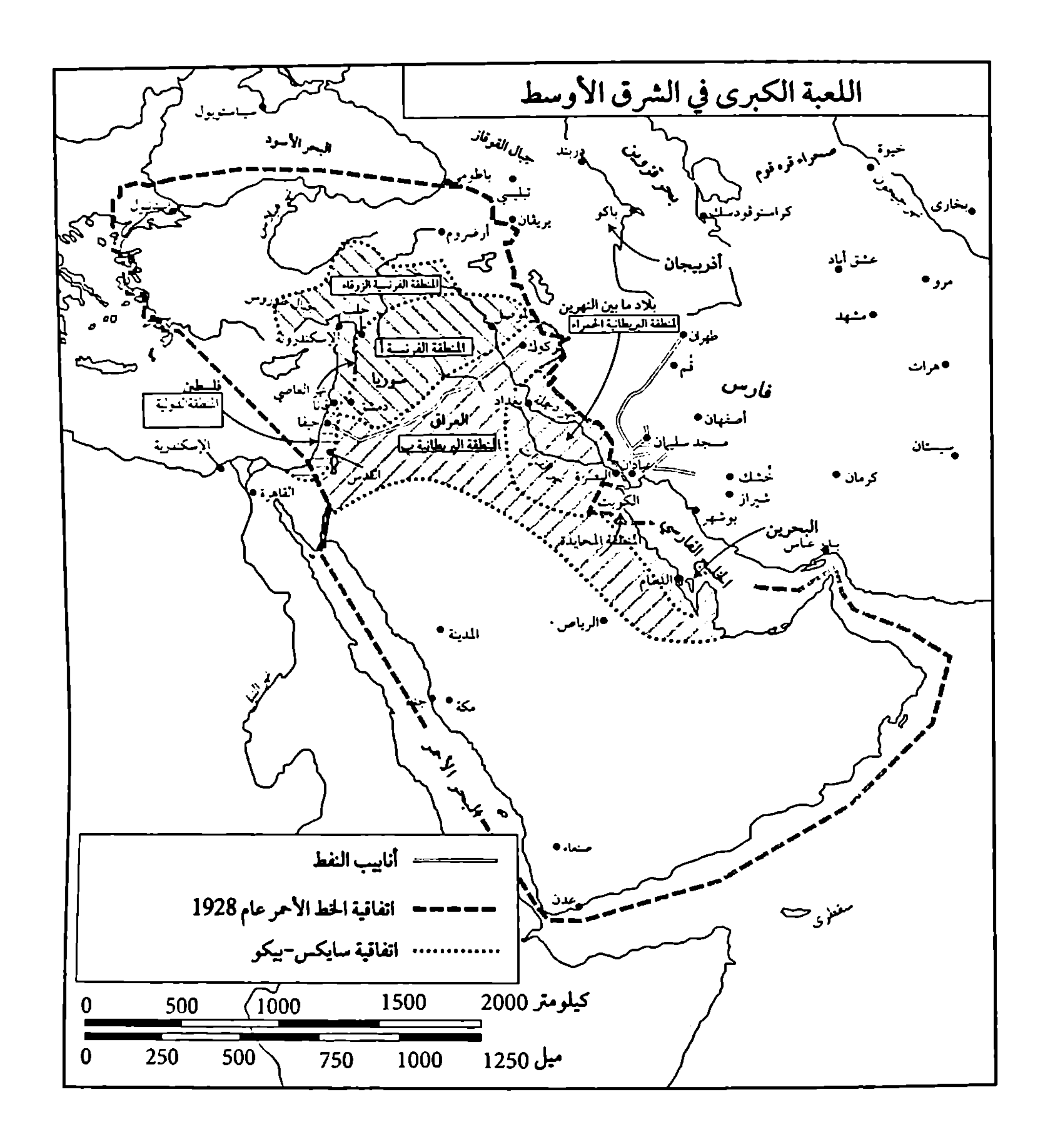
(٢) عن هذه الحملة انظر:

P. Hart, *Gallipoli* (London, 2011).

(3) *The Times*, 7 January 1918.

(4) *The Times*, 12 January 1917.

(5) C. Seymour (ed.), *The Intimate Papers of Colonel House*, 4 vols (Cambridge, MA, 1928), 3, p. 48.



كان أصل المشكلة هو أن بريطانيا أدركت ما هو على المحك بفضل الموارد الطبيعية التي عُثر عليها في بلاد فارس، والتي بدا وكأن بلاد الرافدين تمتلكها أيضًا. والحق، أن الموافقة على امتياز نفط العراق (وإن لم يُصدَّق عليه رسميًا) جرت في يوم اغتيال فرانز فرديناند في عام ١٩١٤. وقد مُنح الامتياز إلى تحالف بقيادة شركة البترول التركية، حيث كانت الأنجلو-فارسية هي المساهم الأكبر فيها، مع حصص ضئيلة لشركة شل (Shell Royal Dutch)، والمصرف الألماني (Deutsche Bank) وقطعة فضية لـ كالوست جولبنكيان (Calouste Gulbenkian)، صانع الصفقات الاستثنائي الذي صاغ الاتفاقية مع هذه

الأطراف جميعًا[1]. وأيًّا كان ما وُعِد به، أو جرى التعهد به تجاه شعوب ودول الشرق الأوسط، فالحقيقة أن المسؤولين والسياسيين ورجال الأعمال كانوا يحلمون بشكل المنطقة ومستقبلها خلف الكواليس. ولم يكن لديهم سوى أمر واحد وضعوه نصب أعينهم، هو تأمين السيطرة على النفط، ولا سيما خطوط الأنابيب التي كانت تضخ النفط إلى الموانئ، ليجري تحميله على متون الناقلات.

وأدرك الألمان حقيقة ما كان يحدث على الأرض. ففي ورقة موجزة وجدت طريقها إلى أيدي البريطانيين، قيل: إن بريطانيا لديها هدفان استراتيجيان رئيسيان؛ أولهما: الاحتفاظ بالسيطرة على قناة السويس، بسبب قيمتها الإستراتيجية والتجارية الفريدة. وأما الثاني هو التمسك بحقول النفط في بلاد فارس والشرق الأوسط[2]. وكان هذا التقييم ذكيًّا بالفعل. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية البريطانية المترامية الأطراف امتدت عبر القارات لتغطي ما يقرب من ربع الكرة الأرضية -على اختلاف المناخات، والأنظمة البيئية، والموارد التي اشتملت عليها- فإنه كان هناك نقص واضح لسلعة واحدة بعينها؛ وكانت تلك السلعة هي النفط.

ومع افتقار الأراضي التي كانت بريطانيا تسيطر عليها لآبار كبيرة للنفط، يمكنها التعويل عليها، فقد أتاحت الحرب الفرصة لبريطانيا لتصحيح ذلك الوضع. وكتب السير موريس هانكي (Sir Maurice Hankey)، سكرتير الكتب في وزارة الحرب، أن «الإمداد الكبير الوحيد المحتمل هو الإمداد الفارسي، والإمداد من بلاد الرافدين». وبناءً على ذلك، يصبح فرض «السيطرة على إمدادات النفط هذه هدفًا حربيًّا من الدرجة الأولى»[3]. ولم يكن هناك شيء يمكن تحقيقه في هذه المنطقة من منظور عسكري -كما شدد هانكي عندما كتب إلى رئيس الوزراء، ديفيد لويد جورج (David Lloyd George)، في اليوم نفسه- بل يجب على بريطانيا أن تتصرف بحسم متى تعلقت المسألة «بتأمين آبار النفط القيمة» في بلاد الرافدين[4].

قليلون هم من كانوا بحاجة إلى بذل جهد لإقناعهم بذلك؛ فقد كان وزير الخارجية البريطاني -قُبيل انتهاء الحرب- يتحدث بعبارات حاسمة حول المستقبل، وكيف كان يبدو له. وكانت هناك أسئلة -بلا شك- متعلقة بتفكيك إمبراطوريات منافسيهم. وقال أمام شخصيات متنفذة: «لا يهمني بموجب أي نظام نحتفظ بالنفط، سواء كان ذلك عن طريق الإيجار الدائم، أو أيًّا كانت الطريقة التي قد نلجأ إليها في هذا الصدد. بيد أنني واضح تمامًا في أنه من المهم بالنسبة إلينا أن يكون ذلك النفط متاحًا لنا»[5].

---

(1) Yergin, *The Prize*, pp. 169–72.

(2) 'Petroleum Situation in the British Empire and the Mesopotamia and Persian Oilfields', 1918, CAB 21/119.

(3) Hankey to Balfour, 1 August 1918, FO 800/204.

(4) Hankey to Prime Minister, 1 August 1918, CAB 23/119; V. Rothwell, 'Mesopotamia in British War Aims, 1914–1918', *The Historical* Journal 13.2 (1970), 289–90.

(5) War Cabinet minutes, 13 August 1918, CAB 23/42.

وكانت هناك أسـباب وجيهة خلف هذا التصميم، وكذلك المخاوف التي اسـتند إليها؛ ففي مستهل عـام ١٩١٥، كانـت الأدميراليـة تسـتهلك ٨٠ ألف طن من النفط شـهريًا. بُعيد ذلـك بعامين، تضاعفت الكمية لتصل إلى ١٩٠ ألف طن نتيجة زيادة عدد السـفن العاملة وانتشـار المحركات التي تعمل بحرق الزيت. وتصاعدت احتياجات الجيش بوتيرة شـديدة التسـارع؛ حيث تضخم أسطول الـ ١٠٠ عربة في عام ١٩١٤ ليشـتمل على عشـرات الآلاف من العربات. وبحلول عام ١٩١٦، كانت هذه السـلالة من العربـات قد اسـتنفدت احتياطات النفط البريطانية بالكامل؛ فقد انخفـض مخزون النفط من ٣٦ مليون جالـون فـي الأول من يناير (كانون الثاني) إلى ١٩ مليون جالون بعد سـتة أشـهر فحسـب، ثم واصلت الانخفـاض مجـددًا إلـى ٥ , ١٢ مليون بعد أربعة أسـابيع فحسـب من ذلـك التاريـخ[١]. وعندما نظرت اللجنـة الحكوميـة في الطلبيات المحتملة للسـنة القادمة، وجدت أن التقديرات تشـير إلى أنه لن يكون هناك سوى نصف الكمية متاحًا لتلبية الطلب المحتمل[٢].

وعلى الرغم من أن تقنين النفط بأثر فوري أدى إلى تحقيق الاسـتقرار في مسـتويات المخزون، إلا أن المخاوف المسـتمرة بشـأن مشـكلات الإمداد أدت إلى إصدار اللورد الأول للبحرية أوامره لسـفن البحريـة الملكيـة بقضـاء أكبر وقـت ممكن في المرافئ فـي ربيع عام ١٩١٧، والإبحار بسـرعة أقصاها عشـرين عقدة عند الخروج إلى عرض البحر. وجرى التأكيد على هشاشـة الوضع المتعلق بالوقود من خلال التوقعات التي جرى إعدادها في يونيو (تموز) ١٩١٧، والتي قضت بأنه لن يكون لدى الأدميرالية أكثر من ستة أسابيع من الإمدادات الاحتياطية بحلول نهاية العام[٣].

وتفاقم هذا الوضع بسـبب تطوير ألمانيا لحرب الغواصات الفعالة. وكانت بريطانيا تسـتورد النفط بكميات كبيرة من الولايات المتحدة، وبأسعار آخذة في الارتفاع على نحو متزايد، لكن عددًا كبيرًا من الناقلات لم تتمكن من عبور الأطلسي؛ ذاك أن الألمان نجحوا في إغراق «الكثير من سفن النفط»، كما كتـب والتر بيج (Walter Page) -وكان سـفير الولايـات المتحدة في لندن، في عام ١٩١٧- قائلًا: «إن هذا البلد قد يكون في وضع محفوف بالمخاطر في القريب العاجل»[٤]. وكانت ثورة التقنية التي مكنت المحركات من العمل بسـرعة أعلى، وبفعالية أكبر قد سـارت رديفًا للميكنة السـريعة للحرب بعد عام ١٩١٤، وكلاهما كان مدفوعًا بالحرب البرية الشرسـة في أوروبا. ولكن ارتفاع الاسـتهلاك بدوره كان يعني أن مسألة الوصول إلى النفط، والتي كانت بالفعل مصدر قلق خطير قبل اندلاع الأعمال العدائية، أصبحت عاملًا رئيسًا -إن لم يكن العامل الحاسم- في السياسة الدولية البريطانية.

---

(1) G. Jones, 'The British Government and the Oil Companies 1912–24: The Search for an Oil Policy', *Historical Journal* 20.3 (1977), 655.

(2) Petrol Control Committee, Second Report, 19 December 1916, Board of Trade, POWE 33/1.

(3) 'Reserves of Oil Fuel in U.K. and general position 1916 to 1918', minute by M. Seymour, 1 June 1917, MT 25/20; Jones, 'British Government and the Oil Companies', 657.

(4) B. Hendrick, *The Life and Letters of Walter H. Page*, 2 vols (London, 1930), 2, p. 288.

وكان لـدى بعـض صانعي السياسـة البريطانيين آمال كبيرة فيما ينتظر البلاد في المسـتقبل. فقد كان بيرسـي كوكـس (Percy Cox) -وكان أحـد الإداريـين المتمرسـين، فضلًا عن أنه خدم في شـرق بلاد فارس، وكان يعرف البلاد جيدًا- يرى أن بريطانيا لديها فرصة لإحكام قبضتها على الخليج العربي في عـام ١٩١٧، بل وإبعاد الروس، والفرنسـيين، واليابانيين، والألمـان، والأتراك على نحو دائم[1]. وعلى الرغم من أن انهيار روسيا وقيام الثورة في عام ١٩١٧، وتسوية السلام مع ألمانيا بُعيد استيلاء البلاشفة (Bolshevik) علـى السـلطة كان مقلقًـا فيمـا يتعلق بمسـار الحرب في أوروبا، فإنهـا جلبت بصيصًا من الأمل في أماكن أخرى. فقد عقب اللورد بلفور -رئيس الوزراء في صيف عام ١٩١٨- قائلًا: إن روسيا في ظل الحكم الاسـتبدادي، «كانت خطرا على جيرانها؛ وعلى رأسـهم نحن بالأخص»[2]. لقد كانت ثورتهـا الداخليـة بمثابة البشـرى السـارة لوضع بريطانيا في الشـرق. وعلى هذا النحـو أُتيحت لبريطانيا فرصـة حقيقيـة لتعزيـز السـيطرة علـى المنطقـة الممتدة من السـويس إلى الهنـد برمتها، ومـن ثم تأمين كليهما.

(1) 'Eastern Report, No 5', 28 February 1917, CAB 24/143.

(2) Balfour to Lloyd George, 16 July 1918, Lloyd George Papers F/3/3/18.

-١٨-

طريق المساومة

استقر عزم البريطانيين على تنصيب رجل قوي حاكمًا على بلاد فارس؛ بحيث يسعهم التعويل عليه فيما يخدم مصالحهم على نحو جيد. وسرعان ما لفت واحد من كبار الشخصيات في البلاط أنظارهم؛ ذاك هو الأمير فرمان فارما الذي لم تكن استثماراته الواسعة في بورصة لندن بالسر الذي يخفى، ومن ثم ارتبطت ثروته الكبيرة ارتباطًا وثيقًا بالنجاح المستمر للإمبراطورية البريطانية. عندئذ ضغط البريطانيون على الشاه لتعيينه رئيسًا للوزراء؛ حيث التقى الممثل البريطاني في طهران مع الشاه عشية عيد الميلاد في عام ١٩١٥ ليوضح له كيف ستنظر لندن بعين الرضا إلى تعيين فرمان فارما رئيسًا للوزراء. وقيل يومئذ للشاه: «إن تغيير رئيس الوزراء أمر لا مفر منه في المستقبل القريب»، لا سيما بالنظر إلى جميع «العناصر المعادية» التي تضمها في الحكومة في طهران. واقتنع الشاه بسهولة: «ووافق تمامًا، وحث على أن يجري ذلك في الحال؛ بل وعد بأن يبذل وسعه لإقناع فرمان فارما بقبول المنصب على الفور»[1]. وأخيرًا عُيّن فرمان فارما رئيسًا للوزراء، وجرت مراسم تنصيبه بعد بضعة أيام.

وفي بلاد الرافدين، أدى افتقار البلاد إلى رئيس صوري محلي للتعاون معه إلى جعل الأمور أكثر صعوبة. وأخذ البريطانيون زمام المبادرة، فأرسلوا قواتهم من البصرة لاحتلال بغداد في ربيع عام ١٩١٧. ولم تُدرَس عواقب تلك الخطوة كثيرًا، كما كتب لورد هاردينج (Hardinge) (السير تشارلز Sir Charles سابقًا) من لندن إلى جيرترود بيل (Gertrude Bell)، العالمة المرموقة، والرحالة المزاجية التي عرفت هذه المنطقة، مثلها في ذلك مثل الجميع. وكان يرى أنه «إذا اخترنا ثلاثة من أكثر الرجال بدانة من بغداد، أو ثلاثة من أطول الرجال لحية؛ حيث نقدّمهم على أنهم شعار للحكم العربي، فالأمر سيان». ومع ذلك فقد كان البريطانيون بحاجة إلى زعيم يسعهم إقناعه بفوائد التعاون مع قوات الاحتلال على نحو فعال؛ وقد ينطوي الأمر على رشوة مثل هؤلاء الزعماء بسخاء بطبيعة الحال[2].

وكانت هناك مشكلات أخرى أخطر، بل وأكثر أهمية من موضوع التكوين السياسي لهذه المنطقة في المستقبل، ومن ثم كان ينبغي العمل على حلها على الفور؛ ذاك أن الأصوات ارتفعت في بريطانيا تنادي بمراجعة اتفاقية سايكس-بيكو، بعد أن جف الحبر الذي وُقّعت به. ولم يكن السبب في تلك

---

(1) Marling to Foreign Office, 24 December 1915, FO 371/2438/198432.

(2) Hardinge to Gertrude Bell, 27 March 1917, Hardinge MSS 30.

الدعوة شكوك بشأن الإمبريالية العلنية التي تميزت بها هذه الصفقة السرية، بل كان السبب تقرير أعده الأدميرال سليد (Admiral Slade) -وكان المدير الأسبق لقسم الاستخبارات في الأدميرالية- حيث أُنيطت به مهمة تقييم حقول النفط الفارسية عام ١٩١٣، وعُيِّن بُعيد ذلك مديرًا لشركة النفط الأنجلو-فارسية. على أية حال؛ فقد شدد سليد على أنه «لا يسعنا أن نسمح بحدوث أمر ما من شأنه أن يعكر صفونا، ويحول بيننا وبين احتكارنا لحقول النفط الفارسية، بأية ذريعة، وتحت أي ظرف». وينطبق هذا القول أيضًا على أجزاء أخرى من المنطقة. وأضاف أن هناك مؤشرات دالة على وجود كميات كبيرة من النفط في «بلاد الرافدين، والكويت، والبحرين، والجزيرة العربية». واستطرد سليد قائلًا: وأوصي -وأشدد على ذلك- بإعادة رسم الحدود؛ ضمانًا لوقوع أكبر قدر ممكن من هذه الأراضي ضمن المنطقة التي تسيطر عليها بريطانيا. ثم عقب قائلًا: «من الأهمية بمكان تأمين السيطرة على جميع حقوق النفط في هذه المناطق؛ حتى لا تتمكن قوة أخرى من استغلالها لمصلحتها [الخاصة]»[1].

وراقبت وزارة الخارجية البريطانية -بعين القلق- وهي تجمع المقالات في الصحف الأوروبية التي أخذت تُردد «مطلب ألمانيا -الذي لا تنازل عنه- بحرية الملاحة في الخليج العربي» وعدته مؤشرًا على أنه كلما أسرعت بريطانيا في تأمين مواقعها في تلك البقاع، كلما كان ذلك أفضل[2].

وبحلول أواخر عام ١٩١٨ -وبعد أسابيع قليلة من انتهاء الحرب- تمكنت بريطانيا من الحصول على ما تريد: فقد أقنع رئيس الوزراء، ديفيد لويد جورج، رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو (Clemenceau) بتعديل الاتفاقية، والتنازل لبريطانيا عن الموصل والمنطقة المحيطة بها. وجرى ذلك جزئيًا من خلال اللعب على حبل الخوف من أن تقف بريطانيا حجر عثرة في طريق فرنسا؛ حيث كانت فرنسا تخطط لإعلان الحماية على سوريا، وكذلك من خلال التلميح -من طرف خفي- إلى أن الدعم البريطاني لقضية الألزاس واللورين (Alsace- Lorraine) -في مفاوضات التسوية التي كانت على وشك الانطلاق- لن يكون مجانيًا، بل إنه ليس مؤكدًا بحال من الأحوال. عندئذ سأل كليمنصو لويد جورج -في لندن- سؤالًا صريحًا: «ماذا تريد؟». فأجابه رئيس الوزراء البريطاني على الفور: «أريد الموصل». فأجابه: كليمنصو: هي لك. فهل لك حاجة أخرى؟ «فأجابه: نعم، أريد القدس أيضًا». فكرر الرجل الجواب نفسه: «هي لك». وكان كليمنصو «صادق الوعد كرجل يُحتضَر على فراش الموت، ولم يتراجع عن كلمته التي أعطاها في هذا الصدد قط»، وفق ما وعته حافظة أحد كبار موظفي الخدمة المدنية، الذي كان متمكنًا من أذن لويد جورج[3].



(1) Slade, 'The Political Position in the Persian Gulf at the End of the War', 4 November 1916, CAB 16/36.

(2) Europäische Staats und Wirtschafts Zeitung, 18 Aug 1916, CAB 16/36.

(3) Hankey Papers, 20 December 1918; 4 December 1918 entry, 1/6, Churchill Archives Centre, Cambridge; E. P. Fitzgerald, 'France's Middle Eastern Ambitions, the Sykes–Picot Negotiations, and the Oil Fields of Mosul, 1915–1918', *Journal of Modern History* 66.4 (1994), 694–725; D. Styan, *France and Iraq: Oil, Arms and French Policy-Making in the Middle East* (London, 2006), pp. 9–21.

وحدد البريطانيون أيضًا فلسطين هدفًا لهم، نظرًا لموقعها بوصفها منطقة عازلة ضد أي تهديد لقناة السويس، التي كانت بمثابة شريان حيوي للإمبراطورية؛ حيث فرضت لندن سيطرتها عليها في عام ١٨٨٨. وكما تحركت القوات البريطانية صوب بغداد، فكذلك تقدمت نحو فلسطين من الجنوب، بل ومن الشرق في مفاجأة للعثمانيين؛ حيث انشقت الصحراء عن ت. إ. لورانس (T. E. Lawrence) ليستولي على العقبة بغتة في صيف عام ١٩١٧. وبعد بضعة أشهر، سقطت القدس في أيدي البريطانيين أيضًا، على الرغم من الهجمات المضادة الشرسة من الجيشين العثمانيين السابع والثامن، بقيادة الجنرال إريك ڤون فالكنهاين (Erich von Falkenhayn)، الذي كان يشغل منصب رئيس الأركان العامة للجيش الألماني في وقت سابق من الحرب. وأخيرًا دخل الجنرال البريطاني إدموند اللنبي (Edmund Allenby) المدينة سيرًا على الأقدام -علامة على الاحترام- بعد أن استولى عليها، الأمر الذي وصفه رئيس الوزراء البريطاني بـ «هدية عيد الميلاد للشعب البريطاني»[1].

وكانت فلسطين مهمة لبريطانيا لسبب آخر؛ فقد كانت المخاوف تتزايد بشأن المستويات المتزايدة للهجرة اليهودية إلى بريطانيا؛ حيث ارتفعت أعداد اليهود القادمين من روسيا وحدها بمقدار خمسة أضعاف بين عامي ١٨٨٠-١٩٢٠. ودارت -في مطلع القرن العشرين- مناقشات حول إتاحة الأراضي في شرق إفريقيا لتشجيع المهاجرين اليهود على الاستقرار هناك. ولكن عندما اندلعت الحرب، تحولت الأنظار إلى فلسطين. وفي عام ١٩١٧، سُرِّبت رسالة -بعث بها وزير الخارجية آرثر بلفور (Arthur Balfour)، إلى اللورد روتشيلد (Lord Rothschild)- إلى صحيفة التايمز، تحدثت عن أن «حكومة جلالته [تنظر] بعين العطف لإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين»[2]. وعُرفت تلك الرسالة بـ «وعد بلفور»، وكانت فكرة تخصيص الأراضي لليهود للاستيطان هي ما وصفه بلفور لاحقًا لمجلس اللوردات بأنه «حل جزئي للمشكلة اليهودية الكبرى، والدائمة»[3].

وعلى الرغم من أن الدفاع عن وطن يأوي إليه يهود أوروبا جذب الأنظار على نحو يمكننا تفهمه، إلا أن عيني بريطانيا كانتا مثبتتين على فلسطين لموقعها من حقول النفط، وبوصفها منتهى لخط أنابيب يربط حقول النفط بالبحر المتوسط. فقد لحظ المخططون البريطانيون -بأخَرة- أن هذا الخط من شأنه أن يوفر رحلة قدرها ألف ميل، وسيمنح بريطانيا «سيطرة فعلية على إنتاج -ما قد يثبت أنه- أحد أغنى حقول النفط في العالم»[4]؛ لذا بات من المحتم أن يكون لبريطانيا حضور قوي في فلسطين، وأن تسيطر على حيفا، بمينائها الجيد والعميق، الأمر الذي جعلها مكانًا مثاليًا لتحميل النفط على متون

---

(1) A. Roberts, *A History of the English-Speaking Peoples since 1900* (London, 2006), p. 132.

(2) *The Times*, 7 November 1917.

وعن صمويل (Samuel) انظر:

S. Huneidi. *A Broken Trust: Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians* (London, 2001).

(3) Lord Balfour, House of Lords, 21 June 1922, Hansard, 50, 1016–17.

(4) 'Report by the Sub-Committee', Imperial Defence, 13 June 1928, CAB 24/202.

الناقلات البريطانية، على أن يمتد خط الأنابيب إلى هذا الميناء، وليس إلى الشمال؛ حيث سوريا التي تسيطر عليها فرنسا.

وعلى هذا النحو باتت حيفا بمثابة نقطة مثالية لنقل النفط من بلاد الرافدين من خلال الأنابيب في الفكر الاستراتيجي البريطاني -آنذاك- وشرعت الحكومة البريطانية في تنفيذ ذلك المخطط بالفعل. وبحلول عام ١٩٤٠، أخذ يتدفق أكثر من ٤ ملايين طن من النفط عبر خط الأنابيب الذي جرى تشييده بعد الحرب، وهو ما كان يكفي لتزويد أسطول البحر المتوسط بأكمله. لقد كان هذا الخط بمثابة «الشريان السباتي (Carotid artery) للإمبراطورية البريطانية» كما أطلقت عليه مجلة التايم *Time*[1]. وهكذا تلقت أكبر إمبراطورية في العالم عمليات نقل ضخمة للدم الأسود من النفط، الذي كان يُضَخُّ إليها مباشرة من قلب العالم.

* * *

ما أن أهلَّ عام ١٩١٨؛ حتى أخذت الأفكار التي كانت تدور قبل فترة طويلة حول شكل عالم ما بعد الحرب -والكيفية التي سيجري بها تقسيم الغنائم بين المنتصرين- في التجسد. وكانت المشكلة وجود فرق بين الصفقات التي أُبرمت بين السياسيين المحنكين، والدبلوماسيين المخضرمين، والمخططين المسلحين بالخرائط وأقلام الرصاص في العواصم الأوروبية، وبين الواقع الفعلي على الأرض. وكان كل شيء قد خُطِّط بعناية فائقة لتقسيم المناطق؛ حيث كان من المقرر توسيع مصالح بريطانيا وفرنسا وحمايتها، بيد أن الأمور بدت أكثر تعقيدًا عندما دخلت حيز التنفيذ عمليًّا.

فعلى سبيل المثال، صدر أمر للجنرال البريطاني ليونيل دونسترڤيل (Lionel Dunsterville) -في صيف عام ١٩١٨- بالتقدم من شمال غرب بلاد فارس إلى بحر قزوين، بينما أُرسل ضباط كبار آخرين لمراقبة القوقاز، بهدف الحيلولة دون استيلاء الأتراك على حقول النفط الأذربيجانية، أو الاستيلاء على المنطقة الواقعة جنوب بحر قزوين، أو السيطرة على خط السكك الحديدية العابر لبحر قزوين الذي يؤدي إلى الحدود الأفغانية. لقد كانت هذه مهمات كلاسيكية شاقة، بل كانت شبه مستحيلة، وانتهت إحداها بكارثة محققة؛ فقد حاصرت القوات التركية المتقدمة باكو، وظل دانسترڤيل داخلها لمدة ستة أسابيع قبل أن يُسمَح له بالانسحاب. ثم تبع ذلك مشاهد مروعة لسفك الدماء، حيث قام الأهالي بتصفية حساباتهم مع المحتلين في أعقاب استسلام المدينة[2].

---

(1) *Time*, 21 April 1941; J. Barr, *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that shaped the Middle East* (London, 2011), p. 163.

(2) A. Arslanian, 'Dunsterville's Adventures: A Reappraisal', *International Journal of Middle East Studies* 12.2 (1980), 199–216; A. Simonian, 'An Episode from the History of the Armenian–Azerbaijani Confrontation (January–February 1919)', *Iran & the Caucasus* 9.1 (2005), 145–58.

وساد الشعور بالذعر في أوساط المسؤولين في مكتب الهند بلندن، فسعوا سعيًا محمومًا إلى الحصول على إذن لهم بإرسال عملائهم إلى آسيا الوسطى للوقوف على ماهية ما يجري هناك -في أعقاب انتعاش تركيا، والاضطراب الذي ضرب أطنابه في روسيا- عن كثب؛ حيث اندلعت أعمال الشغب والمظاهرات في منطقة سمرقند، كما لعب وادي فرغانة، وطشقند دورًا في الثورة التي اندلعت عبر الإمبراطورية بأكملها[1]. وكتب وزير الخارجية إلى نائب الملك، اللورد تشيلمسفورد (Lord Chelmsford)، في مستهل عام ١٩١٨، قائلًا: «لقد رُفعت جميع أشكال السيطرة الفعالة على السكان الأصليين في تركستان، بسبب انهيار الحكومة المركزية في روسيا من جهة، والانهيار التام للانضباط في الجيش الروسي من جهة أخرى»[2].

وردًا على التحذيرات من تزايد المشاعر المعادية لبريطانيا بين السكان المسلمين في المنطقة، أُرسِل المبعوثون لمراقبة الوضع هناك عن كثب، والإشراف على انتشار الدعاية الإنجليزية. كما أُرسِل الضباط إلى كاشغر، ومشهد لتقييم الحالة المزاجية للأهالي ثمة. في حين دارت مناقشات صاخبة حول إرسال قوات مسلحة إلى أفغانستان، وطشقند، أو الموافقة على مخططات أكثر ضخامة مثل تشجيع أمير أفغانستان على التوسع غربًا واحتلال وادي مُرغَب الواقع قرب مرو[3]. كما ظهرت أفكار جديدة، وهويات جديدة، وتطلعات جديدة في جميع أنحاء أوكرانيا، والقوقاز، وآسيا الوسطى في أعقاب اندلاع الثورة الروسية؛ حيث زادت مطالب التعبير عن الذات، إن لم يكن التعبير عن حق تقرير المصير، بصوت جهوري بات أعلى نبرةً.

ونشأت المضاعفات عندما وجد أولئك الذين استولوا على السلطة في روسيا أحلامهم في الثورة الدولية محبطةً في أوروبا، ومن ثم يمموا وجوههم صوب آسيا؛ فقد تبنى تروتسكي (Trotsky) -الذي كان يتمايل بحماسة كما جرت عادته- متحمسًا فكرة تنمية المشروع الثوري في الشرق. وكتب -في مذكرة وُزّعت على أقرانه في عام ١٩١٩- قائلًا: «قد يكون الطريق إلى الهند -في ظل الظروف الحالية- أسهل كثيرًا، بل وأسرع من الطريق المؤدي إلى قيام السوفيت في المجر. إن الطريق إلى باريس، ولندن يمر عبر مدن أفغانستان، والبنجاب، والبنغال»[4].

---

(1) Sanborn, *Imperial Apocalypse*, pp. 175–83.

(2) Secretary of State to Viceroy, 5 January 1918,

نقلًا عن:

L. Morris, 'British Secret Missions in Turkestan, 1918–19', *Journal of Contemporary History* 12.2 (1977), 363–79.

(٣) انظر:

Morris, 'British Secret Missions', 363–79.

(4) L. Trotsky, Central Committee, Russian Communist Party, 5 August 1919, in J. Meijer (ed.), *The Trotsky Papers*, 2 vols (The Hague, 1964), 1, pp. 622, 624.

واستُدعِي المندوبون من «الجماهير الشعبية المستعبدة في بلاد فارس، وأرمينية، وتركيا»، وكذلك مـن بـلاد الرافدين، وسـوريا، والجزيرة العربية، ومـا وراءها، إلى مؤتمر عُقد في باكـو في عام ١٩٢٠؛ حيث انبرى أحد الديماجوجيين البلاشفة البارزين قائلًا لمن أصاخ له السمع: «نواجه الآن مهمة إشعال حـرب مقدسـة حقيقيـة» ضد الغـرب. وأردف قائـلًا: إن الوقـت قد حـان «لتربية جماهير الشـرق على الكراهيـة، والرغبـة في قتال الأثريـاء». وكان يعني بقوله: «قتال الأثرياء» «الـروس، واليهود، والألمان، والفرنسيين... وتنظيم جهاد شعبي حقيقي، وضد الإمبريالية البريطانية في المقام الأول»[١]. لقد حانت ساعة المواجهة بين الشرق والغرب.

ووصلت الرسالة إلى المرسَل إليه بالفعل. وبصرف النظر عن المندوبين المبتهجين؛ فقد كان هناك مَـن بـادر بالحركة من أوسـاط المثقفين، من أمثال محمـد بركات الله الذي كتب عن «البلشـفية والأمم الإسلامية»، حاثًّا على نشر الاشتراكية في جميع أنحاء آسيا الإسلامية. وأُنشِئت الصحف، والجامعات، والمدارس العسكرية في جميع أنحاء آسيا الوسطى تلبيةً لاحتياجات الأهالي، وزيادة التطرف[٢].

وأظهـر السـوڤييت درجة مدهشـة مـن المرونة، وكانوا مسـتعدين لتقديم تنازلات لأي شـخص قد يسـاعدهم فـي قضيتهـم. فعلى سـبيل المثال، سـاورت القيـادة البلشـفية بعض الهواجس حـول تقديم مبادرات لحاكم أفغانسـتان، الملك أمان الله، بعد أن سـعى إلى الاسـتقلال عن النفوذ البريطاني، وشـن هجومًا على البريطانيين في الهند غربي خيبر. وعلى الرغم من أنه مُني بالهزيمة، إلا أن النظام البلشفي أظهـر سـعادة بالغـة بالعثور على حليف يُعوَّل عليه في الشـرق، وأرسـل عرضًا بالمسـاعدة، إلى جانب ضمانات تقضي بأن تحرير الشرق من الإمبريالية يعد جزءًا أساسيًّا من البرنامج الثوري. ولـم تكن تلك الضمانات -على الأرجح- مطمئنة تمامًا لملك حاكم.

وأثارت الجرأة الروسـية -وروحها الانتهازية- مناشـدات حادة في بريطانيا، حيث نشـرت صحيفة التايمز تقريرًا بعنوان «خطر البلاشـفة على الهند: أفغانسـتان مُنطلقٌ له Bolshevist menace to India: Afghan stepping stone». وجـرى تحريـك القـوات البريطانيـة شـمالًا إلى أفغانسـتان، وفيهم عريف شاب يقال له: تشارلز كاڤانا (Charles Kavanagh) الذي ترسم مذكراته -التي اكتُشفت مؤخرًا- صورة حيـة لمـا رآه، ويجد فيهـا الجنود الغربيين -في يومنا هذا- أصداءً كثيرة لتجاربهم في أفغانسـتان. كتب كاڤانا قائلًا: إن نصب الكمائن، وهجمات المتمردين كانت تشكل خطرا يوميًّا علينا. ولـم يكن الرجال الأفغان يخجلون من التنكر في أزياء النساء، فكانوا يرتدون عباءات تخفي وجوههم، وكذلك بنادقهم.

---

(1) *Congress of the East, Baku, September 1920*, tr. B. Pearce (London, 1944), pp. 25–37.

(2) L. Murawiec, *The Mind of Jihad* (Cambridge, 2008), pp. 210–23.

للمزيد من التفصيلات، انظر بصفة عامة:

Ansari, 'Pan-Islam and the Making of Early Indian Socialism', *Modern Asian Studies* 20 (1986), 509–37.

كما ذكر قاعدة ذهبية: لا تمدّن يدك لمصافحة شخص غريب لا تعرفه، «سيقبض على يمناك بيسراه، ثم يطعنك بيمناه»[1].

* * *

قُدّمت رؤى مختلفة للمستقبل في أعقاب الحرب العظمى. فقد كان هناك دافع لتقرير المصير، دافع عنه البلاشفة -في مستهل أمرهم على الأقل- صاغه لينين (Lenin) على النحو التالي: «نظم حياتك كما يحلو لك، ودون أية عوائق. إن ذلك حق أصيل من حقوقك. واعلم أن حقوقك -مثلها في ذلك مثل حقوق جميع شعوب روسيا- محمية بالقوة الكاملة للثورة ومؤسساتها»[2]. وامتدت هذه الرؤية إلى الآراء التقدمية حول المساواة بين الجنسين؛ حيث مُنِحت المرأة حق التصويت في جمهوريات قيرغيزستان، وتركمانستان، وأوكرانيا، وأذربيجان السوڤيتية، قبل أن يُمنَحن حق التصويت في المملكة المتحدة. ووُضعت ملصقات في طشقند عام ١٩٢٠، كُتبت بالأوزبكية، تُظهر امرأة واضحة المعالم تتقدم أربع نساء محجبات رُسمن على هيئة أشباح، مصحوبة بعبارة تحث على تحرير المرأة المسلمة: «أيتها النساء، شاركن في الانتخابات السوڤيتية»[3].

وتناقضت هذه التقدمية المبكرة -بعد الثورة- مع المواقف الإمبريالية للقوى الغربية وعزمها على الاحتفاظ بالسيطرة على الأصول والموارد -التي كانت تعدها حيوية لمصالحها الوطنية- تناقضًا حادًّا. ولم يكن أي من تلك القوى الإمبريالية نشطًا أو عدوانيًّا مثل البريطانيين؛ حيث أظهروا تصميمًا على التمسك بالسيطرة على إمدادات النفط في المقام الأول. وبقدر ما كان لدى بريطانيا قوات في الميدان، كان لها السبق، الأمر الذي سمح بتشكيل الحدود الطبيعية على نحو يناسب احتياجاتها. ففي حالة بلاد الرافدين، جرى ذلك عن طريق إقامة دولة جديدة، أطلقت عليها بريطانيا اسم العراق[4]، وكانت عبارة عن وعاء ساخن مكون من ثلاث ولايات عثمانية سابقة كانت مختلفة اختلافًا عميقًا في التاريخ، والمذهب الديني، والجغرافيا؛ فكانت البصرة تميل جنوبًا نحو الهند والخليج، بينما ارتبطت بغداد ارتباطًا وثيقًا ببلاد فارس، في حين ارتبطت الموصل بتركيا وسوريا ارتباطًا طبيعيًّا[5]. ولم ترضِ تلك التوليفة أحدًا قط؛ باستثناء لندن.

---

(1) Corp. Charles Kavanagh, Unpublished diary, Cheshire Regiment Museum.

(2) *Pobeda oktyabr'skoi revoliutsii v Uzbekistane: sbornik dokumentov*, 2 vols (Tashkent, 1963–72), 1, p. 571.

(٣) تظهر نسخة من ذلك المنشور في:

D. King, *Red Star over Russia: A Visual History of the Soviet Union from 1917 to the Death of Stalin* (London, 2009), p. 180.

(٤) من هذا الموضع إلى نهاية الكتاب استبدل المؤلف العراق بـ بلاد الرافدين (Mesopotamia)، إلا لضرورة أملاها السياق، كاسترجاع حدث في الماضي على سبيل المثال. (المترجم)

(5) M. MacMillan, *Peacemakers: Six Months that Changed the World* (London, 2001), p. 408.

وكانت البلاد عبارة عن بناء متهالك في أحسن الأحوال. وساعد البريطانيون في تنصيب الحليف السابق فيصل -وريث شريف مكة- ملكًا عليها، مكافأة له على تعاونه معها أثناء الحرب أولًا، وتعاطفًا معه بسبب طرده من سوريا؛ حيث كان يتربع على عرشها ثانيًا، ولافتقارها -أعني بريطانيا- لأي مرشح بارز آخر ثالثًا. وكان البريطانيون يعتقدون أن حقيقة أن فيصل كان مسلمًا سنيًا في الوقت الذي كان فيه أغلب الأهالي من الشيعة أمر يمكن تلطيفه بإدخال الزخارف الجديدة للدولة القومية، مثل الاحتفال بتغيير الحرس، والعلم جديد (الذي صممته جيرترود بيل Gertrude Bell)، ومعاهدة اعترفت بـ «السيادة الوطنية» للعراق، إلا أنها ألزمت الملك وحكومته بأن يتَّبعا ما تُشير به بريطانيا «في جميع الأمور المهمة»، بما في ذلك العلاقات الخارجية والدفاع. وأعطت الملاحق اللاحقة لبريطانيا الحق في إجراء التعيينات في السلطة القضائية، وفرض المستشارين الماليين لإدارة اقتصاد البلاد[1]. وكان هذا الحكم الإمبراطوري المنقوص أرخص كلفة من وجهة النظر المالية من الاحتلال الاستعماري المباشر والكامل في وقت كانت بريطانيا نفسها تواجه فيه أزمة نجمت عن تراكم ديون وطنية ضخمة خلال الحرب، كما كانت أرخص من الوجهة السياسية أيضًا. فقد قُتل أكثر من ٢٠٠٠ جندي بريطاني في أعمال شغب واضطرابات مدنية اندلعت في بلاد الرافدين في عام ١٩٢٠[2].

وبُذلت جهود حثيثة لفرض إرادة بريطانيا على نحو مماثل على بلاد فارس. ففي عام ١٩١٩، جرى التوقيع على اتفاقية تنص على تعيين مستشارين بريطانيين لإدارة المالية في البلاد، فضلًا عن القوات المسلحة، وكذلك الإشراف على مشروعات البنية التحتية. بيد أن هذه الإجراءات لم تطبق على نحو جيد في بلاد فارس فضلًا عن غيرها. فمع امتلاك بريطانيا الحصة الغالبة في أسهم شركة النفط الأنجلو-فارسية، كان الروس والفرنسيون يشعرون بالقلق بالفعل من أن قبضة بريطانيا على بلاد فارس باتت قوية للغاية. وأدت الرشاوى -أو فلنقل: «العمولات»- التي دُفعت ثمنًا للتوقيع على الاتفاقية في هذه الأثناء إلى انطلاق صيحات الاحتجاج في بلاد فارس، ولا سيما ضد الشاه نفسه. فكتب أحد الشعراء المرموقين في ذلك العصر، مشيرًا إلى ماضي البلاد السحيق والمجيد قائلًا:

«قبَّح الله عار الأبد

قبَّح الله مَن خان أرض ساسان

---

(1) Treaty with HM King Faisal, 20 October 1922, Command Paper 1757; Protocol of 30 April 1923 and Agreements Subsidiary to the Treaty with King Faisal, Command Paper 2120.

وعن الاحتفالات الجديدة، انظر:

E. Podeh, 'From Indifference to Obsession: The Role of National State Celebrations in Iraq, 1921–2003', *British Journal of Middle Eastern Studies* 37.2 (2010), 185–6.

(2) B. Busch, *Britain, India and the Arabs, 1914–1921* (Berkeley, 1971), pp. 408–10.

هلّا أخبر أحدكم الأكاسرة الغيارى المدججين بالسلاح

أن العدو ضم مملكتكم إلى أرض إنجلترا»[١].

وانتهى المطاف بمثل هؤلاء النقاد إلى الزج بهم في غيابات السجون بطبيعة الحال[٢]. كما كان رد فعل مفوض الاتحاد السوفيتي الوليد غاضبًا، حيث قال: إن بريطانيا «تحاول أن تستعبد الشعب الفارسي استعبادًا كاملًا». وأعلن في بيان له أنه من قَبيل المخجل أن حكام البلاد «باعوكم للصوص الإنجليز»[٣]. وكان رد فعل باريس مختلفًا إلى حد ما؛ فقد أخذ الفرنسيون يضغطون على أن يشغل مستشاروهم مناصب في طهران لتعزيز مصالحهم الوطنية، بعد أن أخذتهم بريطانيا على حين غرة في معركة النفط، وبعد أن سلموا الموصل صفوًا عفوًا ودون مقابل. ولم يكترث اللورد كرزون (Lord Curzon) لهذا المطمح الفرنسي، بيد أنه لم يستطع كظم غيظه عندما سُئل عما إذا كان سيوافق على تعيين مستشارين فرنسيين. فرد على بول كامبون (Paul Cambon)، -وكان السفير الفرنسي في لندن- قائلًا: إن بلاد فارس «لم تنجُ من الإفلاس بالكلية إلا بمساعدة بريطانيا العظمى». والأجدر بفرنسا أن تهتم بشؤونها الخاصة[٤].

وجاء رد الفعل في فرنسا غاضبًا ومريرًا؛ فقد قدمت الحكومة الفرنسية تمويلًا لنشر دعاية مضادة لبريطانيا في الصحافة في بلاد فارس، بينما استهدفت المقالات اللاذعة في الداخل الاتفاق الأنجلو-فارسي، وكذلك الشاه، هذا القزم الذي يبلغ طوله نصف سنتيمتر، كما وصفته صحيفة لو فيجارو *Le Figaro* في مقال انتشر في طهران بين الناس انتشار النار في الهشيم. واستطرد كاتب المقال واصفًا الشاه بأنه: «باع بلده لقاء ستة سنت واحد»[٥]. لقد كان الفرنسيون في الجانب المنتصر في الحرب، إلا أن حليفتهم -أعني بريطانيا- هزمتهم شر هزيمة.

والحق أن البريطانيين لم يبدوا انزعاجًا من طلب الشاه للمال، فقد كان ذلك دينه وديدنه سواءً قبل الحرب أو بعدها. بل أبدو انزعاجًا من الأمير فرمان فارما نفسه، الذي خيَّب ظنهم فيه بوصفه رئيسًا للوزراء، ولم يبل حسنًا كما كانوا يأملون. وتحدثت التقارير -التي طارت إلى لندن- عن أن الرجل «لا

(1) H. Katouzian, 'The Campaign against the Anglo-Iranian Agreement of 1919', *British Journal of Middle Eastern Studies* 25.1 (1998), p. 10.

(2) H. Katouzian, 'Nationalist Trends in Iran, 1921–6', *International Journal of Middle Eastern Studies* 10.4 (1979), 539.

(٣) نقلاً عن:

H. Katouzian, *Iranian History and Politics: The Dialectic of State and Society* (London, 2003), p. 167.

(4) Curzon to Cambon, 11 March 1919, FO 371/3859.

(٥) انظر:

Katouzian, 'The Campaign against the Anglo-Iranian Agreement', p. 17.

يعمل بأمانة»، كما تحدثت كذلك عن «جشعه»؛ وكان هذا «يجعل استمراره في المنصب مستحيلًا»[١]. وهكذا مست حاجة البريطانيين إلى شخص يكون أهلًا لثقتهم.

ورد في المأثور قولهم: متى آن الأوان، أقبل الرجل. لقد كان رضا خان ذلك الرجل، فكان «رجلًا قوي البنية، حسن المظهر، ضخم الجثة، وأطول بكثير من متوسط الطول المعتاد في بلاد فارس»، كذا أفاد السير بيرسي لورين (Sir Percy Loraine)، ممثل بريطانيا في طهران، مزكيًا الرجل في عام ١٩٢٢. لقد كان من مناقب رضا خان الدخول مباشرة إلى صلب الموضوع، ومضى التقرير قائلًا: «فهو لا يضيع الوقت في تبادل المجاملات المصاغة صياغة دقيقة، وغير المجدية بالمرة، وهي عادة عزيزة على قلوب الفُرس». وعلى الرغم من أنه اتضح من خلال التقرير أن رضا خان «جاهل، وشبه أُمي»، إلا أنَّ لورين أبدى تأثره به بقوله: «عندما تحدثت معه، تولَّد لدي انطباع بأن دماغه عاطل عن العمل، بيد أنه ليس فارغًا». وكان لهذه الكلمات وقع الموسيقى على آذان وزارة الخارجية البريطانية. وأشار أحد المسؤولين في لندن في التقرير إلى أن «تقدير السير ب. لورين لرضا خان مشجع بالتأكيد. وهو -أي رضا خان- [لا] يخلو من رذائل مواطنيه، ومع ذلك فيبدو أن قلبه في المكان المناسب». كما لعبت أصوله العرقية دورًا إيجابيًا، «كونه نصف قوقازي [من خلال نسبه لأمه] يصب في مصلحته»، كما جاء في تقرير آخر. وإجمالًا، كان رضا خان من ذلك النوع من الرجال الذين كان البريطانيون يعتقدون أنهم يستطيعون التعامل معه تمامًا[٢].

لقد بدا أنه «رجل قوي، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلًا، ويحمل في قلبه الخير لبلاده»، وفقًا للسير إدموند أيرونسايد (Sir Edmund Ironside)، وهو قائد قوة بريطانية أُرسلت لتأمين شمال بلاد فارس وسط هواجس متزايدة ساورت بريطانيا بشأن المخططات الروسية حول بحر قزوين. وكان مقدار الدعم الذي قدمه البريطانيون لرضا خان، والدور الذي لعبوه في أن يصبح مركز قوة بإزاء الشاه، وفي الأخير، تمكينه من انتزاع الشاهنشاهية لنفسه، وتنصيب نفسه شاهًا على البلاد في عام ١٩٢٥ موضع نقاش ساخن بين الباحثين. ومع ذلك، فقد أثبت عدد كبير من الحوادث اللاحقة دور بريطانيا بوصفها صانعة للملوك في ذلك الوقت[٣]؛ فقد أشار الممثل الأمريكي في طهران، جون كالدويل (John Caldwell)، إلى أن رضا كان مقربًا للغاية من البريطانيين، حتى إنه كان يعده «جاسوسًا من الناحية العملية»[٤].

---

(1) Marling to Foreign Office, 28 February 1916, FO 371/2732.

وانظر أيضًا:

D. Wright, 'Prince Abdul-Husayn Mirza Framan-Farma: Notes from British Sources', *Iran* 38 (2000), 107–14

(2) Loraine to Curzon, 31 January 1922, FO 371/7804.

(3) M. Zirinsky, 'Imperial Power and Dictatorship: Britain and the Rise of Reza Shah, 1921–1926', *International Journal of Middle East Studies* 24.4 (1992), 639–63.

(4) Caldwell to Secretary of State, 5 April 1921, in M. Gholi Majd, *From Qajar to Pahlavi: Iran, 1919–1930* (Lanham, MA, 2008), pp. 96–7.

لـم يكـن من قبيـل المفاجئ أن يولي الأمريكيـون -بدورهم- اهتمامًا كبيرًا بهـذا الجزء من العالم. وتحـدث تقريـر وزعه قسـم التخطيط فـي القوات البحريـة الأمريكية في أوروبا عـام ١٩١٨ عن حاجة الولايـات المتحـدة لإعداد نفسـها لخـوض منافسـة تجارية مـع بريطانيا. وافتُتح ذلك التقريـر بعبارة: «نشـأت أربـع قـوى عظمـى في العالـم لتنافـس بريطانيا العظمـى على السـيادة التجارية». وقد شـيَّعت بريطانيـا إسـبانيا، وهولندا، وفرنسـا، وألمانيا واحـدة تلو الأخرى إلى مثواها الأخيـر. وعلى هذا النحو كانت الولايات المتحدة «القوة التجارية الخامسة، وأعظم قوة تاريخية حتى الآن... والسابقة التاريخية تحذرنا، وتدعونا إلى أن نراقب عن كثب» ما تنوي بريطانيا فعله[1]. لقد كانت أهمية حقول النفط تعني أنه بات متوجبًا على الولايات المتحدة الاهتمام بهذا الجزء من العالم.

كانـت الولايـات المتحـدة تنظر بعين القلق لإمـدادات النفط خاصتها. ومثلما كانت بريطانيا تشـعر بالقلـق مـن نقـص الموارد قبـل الحرب، كان هنـاك قلق متزايد في أمريكا بشـأن النقـص المحتمل بعد الحرب مباشرة. وكان ارتفاع معدلات الاستهلاك باعثًا على القلق، وكذلك التقديرات حول احتياطات النفط المؤكدة. ووفقًا لمدير هيئة المسـح الجيولوجي الأمريكية فإن هذه الاحتياطات كانت سـتنفد في غضون تسـع سـنوات وثلاثة أشـهر. واعترف الرئيس ويلسـون (Wilson) بأن الافتقار إلى «الإمدادات الضرورية في الداخل والخارج» بات يمثل معضلة كبيرة[2].

لهـذا السـبب، شـجعت وزارة الخارجيـة سـتاندرد أويـل (Standard Oil)، أحـد أكبـر المنتجيـن الأمريكييـن، علـى النظر فيما أشـارت إليه على أنه «إمكانيـة الدخول في اتفاقية مع الحكومة الفارسـية لتطويـر مـوارد النفـط فـي شـمالي بلاد فـارس»، فـي المنطقة التـي لا يغطيها امتيـاز الشـركة الأنجلو-فارسية[3]. ولقيت المساعي الأمريكية استجابة فورية في طهران؛ فقد تدخلت بريطانيا وروسيا في بلاد فـارس لفتـرة كافيـة، حسـبما ذكرت تقارير نُشِـرت في الصحـف المحلية، الأمر الذي عرَّض اسـتقلال البـلاد للخطـر علـى نحو مسـتمر. وكانت الولايـات المتحـدة، الإمبراطوريـة الجديدة الناشـئة، بمثابة الفـارس الأبيـض المثالي. وصرحت إحدى المقالات في إحدى الصحف الفارسـية عن أملها «إذا أقام الأمريكيون -بثرواتهم المزدهرة- علاقات اقتصادية مع بلادنا، فنحن على يقين من أن مواردنا لن تظل عقيمـة، ولـن نعانـي من الفقر مجددًا»[4]. وهكذا جرى تقاسـم التوقعات العظيمة على نطاق واسـع في

---

(1) 'Planning Committee, Office of Naval Operations to Benson', 7 October 1918, in M. Simpson (ed.), *Anglo-American Naval Relations, 1917–19* (Aldershot, 1991), pp. 542–3.

(٢) نقلاً عن:

Yergin, *The Prize*, p. 178.

(٣) نقلاً عن:

M. Rubin, 'Stumbling through the "Open Door": The US in Persia and the Standard-Sinclair Oil Dispute, 1920–1925', *Iranian* Studies 28.3/4 (1995), 206.

(4) Ibid., 210.

جميع أنحاء البلاد؛ وتدفقت البرقيات تترى على العاصمة ترحب بآفاق الاستثمار الأمريكي. ولحظت البعثة الأمريكية -المذهولة- في طهران أن بعض التوقيعات كانت لـ«الملالي [رجال الدين]، والأعيان، وبعض المسؤولين الحكوميين، فضلًا عن التجار»[١].

وجاء رد فعل البريطانيين غاضبًا، فأخبروا وزارة الخارجية بعبارات واضحة لا لبس فيها، بأن الاهتمام الأمريكي بنفط بلاد فارس ليس تصرفًا تشجبه بريطانيا فحسب، بل إنه غير قانوني أيضًا؛ ذاك أن المنطقة المعنية لم يجر التنازل عنها للأنجلو-فارسية، وأعلن البريطانيون أنها تخضع لاتفاقية منفصلة جرى التوصل إليها سابقًا بين بلاد فارس وروسيا، ولم يجرِ إنهاء العمل بها بالشكل القانوني الصحيح. وعلى هذا النحو، لا يمكن بيع حقوق التنقيب لا للأمريكيين، ولا لغيرهم. ولم تكن هذه الكلمات تعدو كونها محاولة للمراوغة، وثبت في النهاية أنها غير مجدية؛ حيث لم يكترث الفُرس لها، ومضوا قدمًا في الاتفاق مع الأمريكيين، وهكذا مُنح ستاندرد أويل امتيازًا لمدة خمسين عامًا[٢].

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثبت فيها التدخل الأمريكي أنه فجر كاذب؛ فقد كان الفُرس يأملون أن تقدم مشاركة الولايات المتحدة واستثماراتها بديلًا حقيقيًّا للنفوذ البريطاني في المنطقة. ومع ذلك، فإن الإجراءات العملية على الأرض كانت تملي على أي مستثمر أن يبرم صفقة مع الأنجلو-فارسية تتيح له استغلال البنية التحتية لخطوط الأنابيب.

وفوق ذاك، ما أن بدأت المناقشات، حتى أفسح الأمل المجال لمزيد من خيبة الأمل لدى الفُرس؛ حيث أشار الممثل الفارسي في واشنطن إلى أن الأمريكيين «بريطانيون أكثر من البريطانيين أنفسهم»، وهو قول لم يقصد به صاحبه المجاملة بطبيعة الحال[٣]. كما أفادت افتتاحية غاضبة في إحدى الصحف المحلية في طهران، بأن الولايات المتحدة وبريطانيا ما هما إلا وجهان لعملة واحدة؛ فكلاهما «يعبد الذهب، ويتنكب المستضعفين»، ولا يكترث إلا لتعزيز مصالحه الخاصة، وكلاهما «يحاول تقسيم الجوهرة الثمينة» أي موارد النفط الوطنية، وانتزاعها من «أيدي السياسيين الطفوليين في بلاد فارس»[٤].

وكان لتلك القصة أصداء مألوفة لاكتشاف الأمريكتين قبل أربعة قرون. فعلى الرغم من أنه لم يجر القضاء على أهل البلاد بالطريقة نفسها التي حاول بها الإسبان فعل ذلك، فإن العملية كانت هي نفسها فعليًا، فقد كانت مصادرة الكنوز من قِبل دول الغرب تعني أن الثروات ستتدفق من قارة إلى أخرى، مع ترك الفتات لساكنة تلك الأراضي. وكانت هناك أوجه تشابه أخرى مع ما حدث بعد إبحار كولومبوس عبر المحيط الأطلسي. فمثلما قسَّمت إسبانيا والبرتغال العالم بينهما من خلال معاهدتي torديسيلاس

---

(1) Ibid.

(2) Ibid., 209.

(٣) الحظ أن المؤلف بريطاني، وهو هنا يداعب بني جلدته من البريطانيين بهذا الاستدراك. (المترجم)

(4) Ibid., 213.

(Tordesillas) في عام ١٤٩٤م وسرقُسطة (Zaragoza) بعد ثلاثة عقود، فكذلك قسمت القوى الغربية الآن موارد العالم الواقعة بين البحر المتوسط وآسيا الوسطى.

وشكلت الأراضي التي طُوِّقت على الخرائط بالقلم الرصاص أساس اتفاقية بين البريطانيين والفرنسيين عُرفت باسم «اتفاقية الخط الأحمر Red Line Agreement»، وهي الاتفاقية التي قسمت الأصول النفطية للمنطقة بين الأنجلو-فارسية من جهة وشركة البترول التركية (التي كانت الأنجلو-فارسية -ومن ثم الحكومة البريطانية- مساهمًا رئيسًا فيها) من جهة أخرى، مع اتفاق رسمي يقضي بأن يكف كل منهما يده عن الأراضي الواقعة في مجال نفوذ الطرف الآخر. وكان هذا مهمًا لفرنسا خاصة؛ حيث كانت تتطلع إلى الحصول على الاستيلاء على بلاد الشام بسبب التاريخ الطويل للعلاقات التجارية، والاستثمارات التجارية الفرنسية الكبرى فيها؛ حيث كانت تلك الاستثمارات تعود إلى عقود طويلة مضت. وتأسَّت بريطانيا وفرنسا بما فعلته القوى الإيبيرية من قبل، فقد تقاسمتا السيطرة على الأصول القيمة تقسيم الغنائم التي زعم كل منهما أنها حق له. لقد بدا الأمر وكأنه عصر جديد للإمبراطورية على وشك أن يبدأ.

* * *

كانت الإشكالية تكمن في أن هذا العصر الجديد للإمبراطورية سرعان ما حوصر بإدراك مؤلم يقضي بأن العالم يتغير، بل إنه آخذ في التغير بوتيرة متسارعة في الواقع. وكان لكل شيء خطط جيدة مفصلة تهدف إلى تأكيد سيطرة بريطانيا على شبكات النفط، وخطوط الأنابيب، بيد أن هذا كان له ثمن لا بد من دفعه. فمع ارتفاع الديون الوطنية لبريطانيا دارت مناقشات مؤلمة وصعبة حول كلفة الحفاظ على القوات بالأعداد اللازمة لإدارة الإمبراطورية على نحو فعال. وكتب اللورد كرزون قائلًا: «لم يعد بوسعنا تحمل تلك الكلفة الباهظة». لقد كان هذا الاستنتاج الذي حمله ونستون تشرشل -الذي غدا وزير المستعمرات آنذاك- على محمل الجد، والذي أدرك أن «كل ما يحدث في الشرق الأوسط، أمر ثانوي في جنب تخفيض النفقات»[1].

وكان اختلال التوازن بين الطموح والقدرة طريقًا ممهدًا لكارثة محققة، وزاد عناد كبار الدبلوماسيين الأمر سوءًا. فعلى سبيل المثال، وصف الوزير البريطاني في طهران الفُرس بازدراء بأنهم أناس «ذوي رائحة كريهة» وبأنهم «برابرة بغيضون». وفي هذه الأثناء، هدم ممثل لندن في بغداد المنازل من أجل «توسيع حدائق السفارة البريطانية». وهو العمل الذي أشار إليه أحد المراقبين -ساخرًا- بقوله: «لقد أدى بلا شك إلى تحسين ما كان بالفعل مسكنًا جميلًا»، إلا أن التصرف على هذا النحو «لم يرق في أعين أهل العراق»[2]. وكان هناك شعور كبير بالاستحقاق في كل هذا، بمعنى أن حاضر هذه البلدان

(1) M. Gilbert, *Winston S. Churchill*, 8 vols (London, 1966-88), 4, p. 638.

(٢) انظر:

M. Zirinsky, 'Imperial Power and Dictatorship: Britain and the Rise of Reza Shah, 1921-1926', =

ومستقبلها إنما هما رهينتان في أيدي البريطانيين. وكان حكمها هدية من صانعي السياسة في لندن، الذين لم يكترثوا لمصالح أهل البلاد، بل ركزوا على الأولويات الاستراتيجية والاقتصادية لبريطانيا فحسب؛ ففي العقد الثالث من القرن المنصرم وحده، كان البريطانيون إما مسؤولين مسؤولية مباشرة عن تنصيب الحكام في العراق، وبلاد فارس، وأفغانستان أو عزلهم، أو لعبوا دورًا داعمًا في هذا الصدد. بينما شاركوا أيضًا في مسألة صوغ اللقب الذي لُقِّب به ملك مصر بعد الاستقلال في عام ١٩٢٢[١].

وقد ولَّد هذا التدخل الخشن مشكلات مزمنة، أضحت سامة بمرور الوقت. فكانت جيرترود بيل (Gertrude Bell) محقة في توقعها، في أوائل عام ١٩١٩، أن «الوحل الرهيب» كان يُصنع في الشرق الأدنى على مهل، وأن السيناريو كان أشبه بـ «كابوس تتوقع فيه كل الأشياء الفظيعة التي ستحدث، ولا تستطيع أن تمد يدك لمنعها»[٢]. لقد كانت بريطانيا تلعب لعبة خطيرة في اختيار من تدعم، ومتى تتدخل، وأين.

ولما انتشرت الوعود الكاذبة، زاد إحباط الشعوب في جميع أنحاء المنطقة من بلاد الشام إلى أقصى الشرق. وأفسحت الالتزامات بدعم مصالح الأهلين، ومساعدتهم، وحمايتهم، الطريق لتعزيز المصالح التجارية والاستراتيجية لبريطانيا وحمايتها؛ ولو كان في ذلك تقسيم الأراضي وفق حدود جديدة ومصطنعة، أو التخلي عن طوائف مثل النصارى الآشوريين في العراق الذين ألفوا جناحهم مهيضًا في أعقاب تقسيم الشرق الأوسط في نهاية الحرب العالمية الأولى[٣].

وجاءت النتائج الأوسع في العراق كارثية. فقد ترسخ النظام الإقطاعي الجديد عندما جرى تسليم الأعيان المحليين مساحات شاسعة من أراضي الدولة العثمانية السابقة في مقابل دعمهم للانتداب البريطاني. الأمر الذي خنق الحراك الاجتماعي، وأدى إلى اتساع الفجوة الطبقية وعدم المساواة. كما أثار الاستياء؛ حيث فقدت المجتمعات الريفية حقوقها في الأرض، ووسائل عيشها. ففي محافظة الكوت -الواقعة شرقي العراق- استحوذت أسرتان -فحسب- على أكثر من نصف مليون فدان،

= *International Journal of Middle East Studies* 24.4 (1992), 650; H. Mejcher, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910–1928* (London, 1976), p. 49.

(١) عن مصر، انظر:

A. Maghraoui, *Liberalism without Democracy: Nationhood and Citizenship in Egypt, 1922–1936* (Durham, NC, 2006), pp. 54–5.

(٢) نقلاً عن:

M. Fitzherbert, *The Man Who was Greenmantle: A Biography of Aubrey Herbert* (London, 1985), p. 219.

(3) S. Pedersen, 'Getting Out of Iraq – in 1932: The League of Nations and the Road to Normative Statehood', *American Historical Review* 115.4 (2010), 993–1000.

تقاسـمتاه بينهمـا على مدار ثلاثة عقود[1]. وكان السـيناريو مشـابهًا إلى حد كبير فـي بلاد فارس؛ حيث تركـزت الثـروة الناتجة عن عائدات النفط في يد الشـاه ومن حوله. وبهذا المعنـى، فإن المعرفة الدقيقة بأن الحكومة البريطانية كانت المساهم الأكبر في الأنجلو-فارسية -التي كانت بحلول العقد الثالث من القرن العشرين مسؤولة عما يقرب من نصف إيرادات البلاد- هي التي أدت إلى تزايد المشاعر المعادية لبريطانيا، وتصاعد موجة القومية.

وكانـت هـذه أيضًـا أمـارة على العصر؛ حيـث كانت ردود الفعل ضد الاسـتعمار تكتسـب زخمًا لا يمكن إيقافه تقريبًا عبر الإمبراطورية. ففي الهند، أقرت جلسـة لاهور للمؤتمر الوطني الهندي «إعلان الاسـتقلال» المسـمى «بومـا سـواراج Purna Swaraj» عـام ١٩٢٩. وجـاء فـي البيـان: «إن الحكومـة البريطانية في الهند لـم تحرم الشـعب الهندي من حريته فحسـب، بل أثرت نفسـها من خلال اسـتغلال الجماهيـر». لقـد دُمِّـرت الهند، ويجب على الفـور قطع العلاقات مـع بريطانيا وتحقيق... الاسـتقلال التام». لقد حان وقت العصيان المدني[2].

وكان من المحتم أن ينتشر هذا المزيج من خيبة الأمل، والاشمئزاز، والحرمان في أماكن أُخَر. بيد أن الإحبـاط المتزايـد فـي الشـرق الأوسـط كان ينبع أيضًـا جزئيًا مـن إدراك الأهليـن أن الفوائد -التي وعـدت بهـا اكتشـافات النفـط- بعيدة المنـال حقًّا. وكانت شـركات النفـط الغربية التي سـيطرت على الامتيازات جادة وخلاقة للغاية متى تعلق الأمر بدفع الإتاوات؛ فقد جرى إنشـاء شـبكة من الشـركات الفرعية بهدف اسـتخدام القروض بين الشـركات لخلق خسائر مصطنعة يمكن استخدامها لتقليل أرباح التـداول الظاهـرة للشـركات العاملـة، أو حتـى القضاء عليهـا بالكلية -تمامًـا كما هو الحـال في العالم الحديث- ومن ثم التلاعب بقيم الإتاوات المستحقة بموجب اتفاقية الامتياز تخفيضًا. ونُشِرت تقارير غاضبـة فـي الصحف تحدثت عن «السـماح للأجانب» بتجفيـف البلاد من مواردهـا النفطية، وتقليص عوائد بلاد فارس عن عمد من خلال منح إعفاءات غير قانونية، وغير ضرورية من الرسوم الجمركية». وعلى الأقل، لـم تكن الأمور في بلاد فارس بالسـوء نفسـه الذي كانت عليه في العراق المجاور، الذي كان مستعمرة في كل شيء، خلا الاسم[3].

وشـن مديرو الشـركة الإنجلو-فارسـية هجومًا اسـتباقيًا في محاولة لتفادي موجة الغضب المحلي المتصاعدة. فقد وعدوا بمجموعة من المزايا الجديدة، بدءًا من الفرص التعليمية للمسـاعدة في تطوير السـكك الحديدية، إلى التفكير في جعل دفعات الإتاوات أكثر سـخاء. واشـتكى أعيان الفُرس من أن

(1) Y. Ismael, *The Rise and Fall of the Communist Party of Iraq* (Cambridge, 2008), p. 12.

(٢) عن إعلان بوما سوارجا Purna Swaraj declaration، انظر:

M. Gandhi, *The Collected Works of Mahatma Gandhi*, 90 vols (New Delhi, 1958 -84), 48, p. 261.

(٣) نقلاً عن:

Ferrier and Bamberg, *British Petroleum*, pp. 593–4.

الحكومة الفارسية ليس لها نصيب يُذكر في الأعمال التجارية، وكان ذلك خطأ واضحًا. وسجل أحد المراقبين أن «الفُرس» شعروا أن هناك صناعة قد تطورت على أراضيهم، وليس لهم نصيب حقيقي فيها؛ وأصروا على أن الأمر لم يكن يتعلق بالمال، لأنه ليس ثم «مكافأة مالية ستبدد هذا الشعور» بنقل الملكية[1]. وحث رئيس مجلس الإدارة الأنجلو-فارسية، السير جون كادمان (Sir John Cadman)، على الهدوء، مشيرًا لنديده على طاولة المفاوضات بأنه ليس من مصلحة أحد أن تخلق الصحافة «الانطباع الخاطئ والمؤلم» بأن العمل لم يكن عادلًا ولا منصفًا[2]. فرد عليه نديده قائلًا: إن من مصلحة الجميع أن تكون هناك شراكة. بيد أن لسان الحال قائلٌ: إن ما يحدث لا يعدو كونه استغلالًا صريحًا[3].

ولم تُسفر النقاشات حول ما إذا كان يجب إعادة التفاوض بشأن امتياز نوكس دارسي والكيفية التي ينبغي أن تُتبع في ذلك الصدد عن شيء يُذكر. وفي الأخير، قطع الفُرس المفاوضات. وكان اكتشاف النفط في المكسيك وفنزويلا -حيث تولى العمل في الأخيرة جورج رينولدز (George Reynolds)، الذي اكتشف البئر المهمة للغاية في مسجد سليمان- قد أدى إلى تصحيح كبير في أسعار النفط انخفاضًا، قبل عام ١٩٢٩ الذي شهد إعادة التفاوض بين الفُرس والأنجلو-فارسية؛ كما أدى انهيار بورصة وول ستريت (Wall Street)، إلى انخفاض كبير في الطلب على النفط. وأخيرًا انتزع الفُرس زمام المبادرة بأيديهم، ففي نوفمبر ١٩٣٢ -وبعد الانخفاض الحاد في مدفوعات الإتاوات، واستمرار الخداع المالي حيث حُجبت الأرقام التفصيلية عمدًا عن طهران- ألغى الشاه امتياز نوكس دارسي بأثر فوري.

واشتكى دبلوماسيون بريطانيون من أن هذا يعد عارًا. ومحض أحد كبار المسؤولين أقرانه النصيحة بقوله: «إذا لم نحمل الأمر على محمل الجد، فسوف نواجه مشكلات أسوأ بكثير مع الفُرس لاحقًا»[4]. وقال غيره: إن هذا الإعلان يعد جريمة «شنعاء»[5]. ورأى البريطانيون أن العقد الذي جرى الاتفاق عليه قبل ثلاثة عقود يجب أن يظل قائمًا بغض النظر عن أي شيء. ولا يجادل أحد في أن افتتاح أعمال استخراج النفط عمل يتطلب المغامرة باستثمارات مالية كبيرة في المقام الأول، وأن هذا النوع من الأعمال يتطلب قدرًا كبيرًا من الاستثمار في إنشاء بنية تحتية تمكن من استغلال الموارد. ومع ذلك، فإن الثروات التي نجمت عن ذلك كانت ضخمة. وجرى ببساطة تجاهل النداءات الصاخبة لمشاركة

(1) 'A Record of the Discussions Held at Lausanne on 23rd, 24th and 25th August, 1928', BP 71074.

(2) Cadman to Teymourtache, 3 January 1929, BP 71074.

(3) Young report of Lausanne discussions, BP H16/20;

وانظر أيضًا:

Ferrier and Bamberg, *British Petroleum*, pp. 601–17.

(4) Vansittart minute, 29 November 1932, FO 371/16078.

(5) Hoare to Foreign Office, 29 November 1932, FO 371/16078.

هـذه الثروات بالتسـاوي. وعلى غـرار الفضائح المصرفية الكبرى في أوائل القرن الحادي والعشـرين، كانت الأنجلو-فارسية وأصحاب المصالح الذين يقفون وراءها أكبر من الفشل.

ومع ذلك، كانت عملية تسـوية الموقف -في هذه الحالة- وتصحيح الأمور سـريعة إلى حد كبير؛ ذاك أن بـلاد فـارس امتلكـت أداة تفاوضيـة فعالـة، إذ كانـت قادرة علـى التضييق على الإنتـاج، ومنعه، وعرقلته لفرض إعادة التفاوض على الشركة. وفي ربيع عام ١٩٣٣، جرى التوصل إلى صفقة جديدة؛ فقد التقى الوفد الفارسـي بمسـؤولين عن قطاع النفط في فندق البوريفاج (Beau Rivage) في جنيـف، وأوضحـوا لهـم أنهـم علـى دراية بشـروط الاتفاق الأخير حـول النفط في العـراق، مطالبيـن بالمعاملة بالمثل على الأقل. ورفض السـير جون كادمان (John Cadman) اقتراحًا أوليًا يقضي بتنازل الأنجلو- فارسية عن ٥ , ٢٪ من الأسـهم، ودخل سنوي مضمون، وحصة من الأرباح، وتمثيل في مجلس الإدارة، متذرعًا بأن ذلك مناف للعقل، ومستحيل[1].

وعلى الرغم من أن المناقشـات التي تلت ذلك جرت في جو ودي تمامًا، إلا أنه سـرعان ما أصبح واضحًـا أن الجهـود المبذولـة لتجنـب إعادة التفـاوض على حقوق النفـط في البلاد مآلها إلى الفشـل. وبحلـول أبريـل ١٩٣٣، جرى إبرام صفقة جديدة، يتم بمقتضاها إيلاء المزيد من الاهتمام لـ «فرسَنة» قطـاع أعمـال النفط. أي توظيف أهل البلاد، وتدريب المزيد منهم للمشـاركة فـي الأعمال على جميع المسـتويات، مـن الإدارة إلـى الوظائف القيادية. كما جرى تقليص المنطقة التي يغطيها الامتياز بشـكل كبيـر إلـى ربع حجمها الأصلي، وإن حصلت الأنجلو-فارسـية على القطعة الأشـهى فـي الكعكة. كما اتُّفِق على رسـوم ملكية ثابتة لإزالة التشـوش الناتج عن تقلبات أسعار العملات والنفط؛ وجرى ضمان حد أدنى للسـداد السـنوي، بغض النظر عن مسـتويات الإنتاج، أو أسـعار السـوق، أو الأرباح التي قد تتحقق؛ كما تشـارك الحكومة الفارسـية أيضًا في الفوائد الأوسـع للأنجلو-فارسية؛ حيث تحصل على حصة من الأرباح التي تحققها الشركة في مناطق امتيازاتها الأخرى. ولم ينبس كادمان ببنت شفة عندما أخبره المفاوضون الفُرس بأنه ينبغي أن ينظر إلى الاتفاقية الجديدة على أنها «انتصار شخصي [لنفسه] ولفريقه». وتكشف ملحوظاته عن رد فعله، فقد كتب قائلًا: «لقد شعرت أنه جرى نَتف ريشنا جيدًا»[2].

رأى الفُرس -فضلًا عن غيرهم ممن كانوا يشاهدون فصول تلك القصة- الأمر من الزاوية الأخلاقية على نحو مختلف. لقد كان الدرس المستفاد هو أنه على الرغم من كل هذه الضجة، فإن موقف الغرب التفاوضـي كان ضعيفًا. ويسـع أولئك الذيـن يمتلكون الموارد في الأخير أن يشـلوا أيدي أولئك الذين يمتلكون الامتياز، ويجبرونهم على الجلوس إلى طاولة المفاوضات. كما يسع الغرب أن يشكو بمرارة كما يحلو له، بيد أنه اتضح في النهاية أن الحيازة إنما هي تسعة أعشار القانون حقًا.

---

(1) Lord Cadman's Private Diary, BP 96659/002.

(2) Cadman, Notes, Geneva and Teheran, BP 96659.

لقد أصبح هذا الموضوع أحد الموضوعات الرئيسة في النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت الروابط الجديدة آخذة في النمو؛ حيث امتدت في كل حدب وصوب عبر العمود الفقري لآسيا. وبحلول العقد الرابع من القرن العشرين لم يكن قد جرى نسج شبكة من المدن والواحات، بل شبكة من خطوط الأنابيب التي ربطت آبار النفط في الخليج العربي بالبحر المتوسط. وجرى ضخ الموارد والثروة على طول هذه الخطوط إلى موانئ مثل حيفا، وعبادان. وظلت عبادان موقعًا لأكبر مصفاة نفط في العالم لأكثر من نصف قرن.

وكانت السيطرة على هذه الشبكة هي كل شيء، كما اعترف البريطانيون قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومن منظور المتفائل، كانت الأمور تبدو وردية. فعلى الرغم من إعادة التفاوض بشأن الامتيازات في عام ١٩٣٣، فإن الوشائج القوية لم تزل تربط هذا الجزء من العالم بالغرب، ولم يزل هناك الكثير الذي يمكن تحقيقه من خلال التعاون مع أولئك الذين كانت مواردهم ذات أهمية كبيرة؛ وكانت بريطانيا، بكل تأكيد، في وضع أفضل من أية أمة أخرى.

بيد أن الحقيقة الخالصة تقضي بأن الجزْر قد بدأ بالفعل. وأخذت قوة الغرب ونفوذه في التدهور. وبدا من المؤكد أنهما سيواصلان الاضمحلال. وكان هناك ثمن يجب دفعه مقابل التدخل المستمر في الشؤون المحلية؛ كما كان هناك ثمن يجب دفعه لإعادة تصميم حدائق السفارة؛ وكذلك كان هناك ثمن يجب دفعه مقابل اللعب بمضرب غير مستقيم. لقد كان هذا الثمن تحفظًا، وشكوكًا، وانعدامًا للثقة.

وجرى تسجيل هذين المنظورين المتناقضين تمامًا على نحو مثالي في مأدبة عشاء أُقيمت في بغداد عام ١٩٢٠، في الوقت الذي أخذ فيه شكل الشرقين: الأدنى والأوسط الجديدين يتضح. وكان من حضور تلك المأدبة جيرترود بيل -المرأة الحركية، والذكية، والشرسة؛ وكانت قد جُنِّدت في مرحلة مبكرة من الحرب العالمية الأولى للعمل لدى الاستخبارات البريطانية، كما كانت مراقبًا ماهرًا للسياسة العربية- وقالت يومها لـ جعفر العسكري -الذي كان على وشك أن يُعيَّن رئيسًا للوزراء في ذلك البلد الجديد المسمى العراق-: قرَّ عينًا، «إن الاستقلال التام هو ما نرغب [تعني نفسها وقومها البريطانيين] في منحه لكم في الأخير». فرد عليها العسكري قائلًا: «سيدتي، الاستقلال التام لا يُمنَح قط، بل يُنتَزع دائمًا»[1]. وكان التحدي الذي واجهته دول مثل: العراق وبلاد فارس هو تحرير نفسها من التدخل الخارجي، والقدرة على تقرير مصيرها، ومستقبلها. وكان التحدي بالنسبة لبريطانيا هو كيفية منع تلك الدول من التمكن من تحقيق ذلك. لقد كان ثم صراع على وشك الاندلاع. ومع ذلك، فقد كانت نذر كارثة أخرى تلوح في الأفق، مدفوعة بالرغبة على السيطرة على الموارد مجددًا. بيد أن المورد هذه المرة لم يكن النفط، بل كان القمح سببًا لتلك الكارثة التي كانت توشك على أن تقع.

(1) G. Bell, *Gertrude Bell: Complete Letters* (London, 2014), p. 224.

-١٩-

طريق القمح

لطالما افتخرت مجلة «بيوت وحدائق» *Homes & Gardens* البريطانية بكونها في طليعة المصنفات المعنية بالتصميمات (الديكورات). وكانت المجلة قد أعلنت في برنامجها الترويجي الأخير أن «المزج بين السمات المميزة الجميلة في المنازل، والحدائق الحقيقية الرائعة، ونصائح الخبراء، والمعلومات العملية، هو «المصدر النهائي للإلهام في فن (الديكور)». وأشاد العدد الذي صدر في نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٣٨ بوكر جبلي يقع في جبال الألب كان أنيقًا كل الأناقة. وكتب مراسل المجلة قائلًا: «إن مخطط الألوان في جميع أنحاء هذا النُّزل مشرق، ومنعش بلون اليشم الأخضر الفاتح»، وقد أضفى عليه شغف المالك -الذي كان أيضًا «مصممًا للديكور والمفروشات في الوكر، وكذلك مهندسًا معماريًّا»- بالزهور المقطوفة الحيوية. كما علق لوحاته المائية في غرف نوم الضيوف، إلى جانب بعض النقوش القديمة. وأحب المالك «وهو حكَّاء لطيف» أن يحيط نفسه بمجموعة من «الأجانب المرموقين، ولا سيما الرسامين، والموسيقيين، والمطربين منهم»، وغالبًا ما كان يأتي بـ«المواهب المحلية» لعزف مقطوعات موزارت (Mozart)، أو برامز (Brahms) للترفيه عن ضيفه بعد العشاء. والحق أن كاتب المقال بدا متأثرًا بـ أدولف هتلر (Adolf Hitler) غاية التأثر[1].

بعد تسعة أشهر من نشر هذا المقال، وتحديدًا في ٢١ أغسطس (آب) ١٩٣٩، وصلت مكالمة منتظرة بفارغ الصبر إلى تحويلة الهاتف بالوكر -الذي ذكرت مجلة *Homes & Gardens* أنه كان موضوعًا بجوار مكتبه ذي الطراز الحديث، والذي كان يتيح لـ «الفوهرر» الاتصال بـ «أصدقائه أو وزرائه». وفي أثناء العشاء، ناول أحدهم ورقة لـ هتلر. ووفقًا لما أدلى به شاهد عيان كان حاضرًا آنذاك، «فقد نظر فيها هتلر، ثم حدق في الفضاء لبرهة، ثم انفرجت أساريره، وخبط على الطاولة بعنف؛ حتى إن نظارته اهتزت». ثم التفت إلى ضيفه، وهتف بحماس: «لقد نلت منهم! نلت منهم!»[2]. ثم جلس ليأكل بشهية، ولا شك أن «مجموعة رائعة من الأطباق النباتية، اللذيذة والغنية، التي ترضي العين، قبل الفم» قد اصطفت أمامه، وهي الأطباق التي أُعجب بها مراسل مجلة بيوت وحدائق *Homes & Garden* قبل نحو عام، وكان قد أعدها الطباخ الشخصي لهتلر، آرثر كانينبرغ (Arthur Kannenberg)- الذي كان غالبًا ما يخرج من المطبخ في المساء ليعزف على آلة الأكورديون خاصته[3].

(1) 'Hitler's Mountain Home', *Homes & Gardens*, November 1938, 193–5.

(2) A. Speer, *Inside the Third Reich*, tr. R. and C. Winston (New York, 1970), p. 161.

(3) Ibid.

=

وبعد العشاء، جمع هتلر ضيفه، وأخبرهم أن البرقية التي وصلته احتوت على رد كان ينتظره من موسكو على أحر من الجمر. لقد وافق ستالين -سيد الاتحاد السوڤيتي بلا منازع- على توقيع معاهدة سلام مع ألمانيا. وجاء في البرقية «آمل أن يشكل [هذا] منعطفًا يقود العلاقات بين دولتينا نحو الأفضل»[1]. وبعد ليلتين من إعلان الخبر، وقف هتلر والوفد المرافق له في الشرفة، يتطلعون إلى الوادي الممتد بالأسفل. هنا أشار النازي البارز ألبرت شبير (Albert Speer) إلى أنه «لم يكن من الممكن أن يكون الفصل الأخير من سقوط الآلهة (Götterdammerung) أكثر حيوية من هذا المشهد»[2].

ومن قَبيل المفارقة أن يكون الدافع إلى إبرام هذا الاتفاق الاستثنائي هو السياسة الخارجية البريطانية والفرنسية. وكان كلا البلدين يحاولان -يائسين- التماس طريق لاحتواء المستشار الألماني، بعد أن أصابهما القلق من لعبة البوكر السياسية عالية المخاطر في العقد الرابع من القرن العشرين، ولكن دون أن يحققا نجاحًا يُذكر. والحق أن موسوليني أكد لوزير خارجيته الكونت سيانو (Count Ciano) أن السياسيين والدبلوماسيين البريطانيين لم يقدُّوا من المعدن نفسه الذي قُدَّ منه «فرانسيس دراكيس» (Francis Drakes) و«غيره من المغامرين المذهلين الذين أنشؤوا الإمبراطورية»؛ بل هم «الأبناء المرهقون لسلسلة طويلة من الرجال الأثرياء، ولسوف يُضيعون إمبراطوريتهم»[3].

وبعد أن احتلت ألمانيا تشيكوسلوڤاكيا، اتخذت بريطانيا موقفًا أكثر صرامة. فبعد ظهر يوم ٣١ مارس (آذار) من عام ١٩٣٩، صعَّد رئيس الوزراء نيڤيل تشمبرلين (Neville Chamberlain) الموقف في مجلس العموم. وقال رسميًا: «في حال وقوع أي عمل من شأنه تهديد استقلال بولندا بوضوح، فإن حكومة جلالته ستشعر بأنها ملزمة بتقديم كل أنواع الدعم للحكومة البولندية للحفاظ على سلطانها في التو. وقد أكدنا للحكومة البولندية هذا المعنى. ويسعني أن أضيف أن الحكومة الفرنسية أذنت لي بأن أوضح أنها تقف معنا في المربع نفسه في هذا الصدد، مثَلها في ذلك مثَل حكومة جلالة الملك[4].

وبدلًا من أن يضمن تدخل انجلترا أمن بولندا، حسم مصيرها. وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء أخبر مجلس العموم أن وزير الخارجية قد التقى بسفير الاتحاد السوڤيتي، إيڤان مايسكي (Ivan

---

= وعن عزف كانينبرغ (Kannenberg) على الأكورديون، انظر:

C. Schroder, *Er War mein Chef. Aus den Nachlaß der Sekretärin von Adolf Hitler* (Munich, 1985), pp. 54, 58.

(1) R. Hargreaves, *Blitzkrieg Unleashed: The German Invasion of Poland* (London, 2008), p. 66; H. Hegner, *Die Reichskanzlei 1933–1945: Anfang und Ende des Dritten Reiches* (Frankfurt-am-Main, 1959), pp. 334–7.

(2) Speer, *Inside the Third Reich*, p. 162.

(3) M. Muggeridge, *Ciano's Diary, 1939–1943* (London, 1947), pp. 9–10.

(4) House of Commons Debate, 31 March 1939, Hansard, 345, 2415.

Maiskii)، في الصباح نفسه، في محاولة لنزع فتيل الأزمة، إلا أن التأكيدات التي قدمها لـ بولندا أطلقت سلسلة من الحوادث التي أدت مباشرة إلى حقول القمح في أوكرانيا، وجنوب روسيا. ها قد بدأ الصراع الذي قاد ملايين الناس إلى حتوفهم[1].

كان هدف بريطانيا هو وضع ألمانيا في طريق مسدود، باستخدام التهديد بالحرب لردع أي تحرك ضد جارتها في الشرق. والحق أن هتلر حصل على جائزة -كما أدرك هو نفسه سريعًا- وإن كانت تتطلب جسارة ورباطة جأش في اللعب؛ فقد أُتيحت فرصة لعقد صفقة مع الاتحاد السوفيتي الشيوعي. وعلى الرغم من أن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (USSR) كان عدوًّا لدودًا لألمانيا النازية في كثير من النواحي، فقد برزت أرضية مشتركة بينهما من العدم بغتة؛ حيث أتاح تدخل بريطانيا -فضلًا عن غيرها- تلك الأرضية من المصلحة المشتركة. كما أدرك ستالين أيضًا كيف سقطت الأوراق؛ فقد أتيحت له -بدوره- فرصة بالمثل، وإن كانت كذلك تتطلب قدرًا كبيرًا من الجسارة للاستفادة منها، وكانت تلك الجسارة تتمثل في التوصل إلى اتفاق مع هتلر.

* * *

بدت فكرة التحالف بين الدولتين -أعني ألمانيا والاتحاد السوفيتي- خارج نطاق المعقول أو الواقع. فمنذ أن صوت الناخبون لصالح هتلر في انتخابات عام ١٩٣٣، تدهورت العلاقات بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي تدهورًا حادًّا؛ حيث صورت الحملات الإعلامية اللاذعة في كلا البلدين البلد الآخر على أنه شيطاني، وقاسٍ، وخطير. وانهارت التجارة تقريبًا بين البلدين؛ ففي عام ١٩٢٣ كان ما يقرب من نصف واردات الاتحاد السوفيتي يأتي من ألمانيا، وواصل هذا المعدل الانخفاض حتى وصل بعد ست سنوات إلى أقل من ٥٪[2]. بيد أن الضمانات التي منحتها إنجلترا وحلفاءها لبولندا، ولدت الرغبة لدى البلدين في تدمير الدولة التي كانت محصورة بينهما في الأخير[3].

وشهد ربيع عام ١٩٣٩ فورة من النشاط الدبلوماسي بين البلدين؛ فقد التقى القائم السوفيتي بالأعمال في برلين مع خبير ألماني مرموق في شؤون أوروبا الشرقية، وكان هدف اللقاء وضع أسس لتحسين العلاقات بين البلدين، وبحث سبل التعاون المحتمل بينهما، بما في ذلك استئناف التجارة. وتسارعت وتيرة هذه المحادثات، ودفعتها موسكو إلى الأمام من خلال المناقشات التي جرت بين

---

(1) Ibid., 2416;

وانظر أيضًا:

G. Roberts, *The Unholy Alliance: Stalin's Pact with Hitler* (London, 1989); R. Moorhouse, *The Devil's Alliance: Hitler's Pact with Stalin* (London, 2014).

(2) L. Besymenski, *Stalin und Hitler. Pokerspiel der Diktatoren* (London, 1967), pp. 186–92.

(3) J. Herf, *The Jewish Enemy: Nazi Propaganda during World War II and the Holocaust* (Cambridge, MA, 2006).

السفير الألماني وڤياتشيسلاف مولوتوف (Vyacheslav Molotov)، المفوض الجديد للشؤون الخارجية، الذي أُقيل سلفه، مكسيم ليتفينوف (Maxim Litvinov) بسبب أصوله اليهودية؛ التي عُدَّت عقبة عند التعامل مع النظام الألماني المعادي للسامية. وكتب ونستون تشرشل (Winston Churchill)، معلّقًا: كان ليتفينوف «اليهودي المرموق، هدفًا للعداء الألماني الصريح، فطُرح جانبًا كما لو كان أداة مكسورة... وخرج من المسرح العالمي ليكتنف مصيره الغموض، وبيع بثمن بخس، وتُرك لعسَف الشرطة»[1][2].

ولما أهل فصل الصيف، كانت المحادثات قد بلغت من التطور حدًّا، حتى إن يواكيم ڤون ريبنتروب (Joachim von Ribbentrop)، وزير الخارجية الألماني، أرسل رسائل إلى موسكو توضح أنه بعيدًا عن الاختلافات الجوهرية بين الاشتراكية القومية، والشيوعية، «فليس ثم سبب موجب للعداء بين بلدينا». واقترح أنه في حال وُجدت الرغبة في مناقشة القضايا العالقة، فإن المزيد من التقارب سيكون ممكنًا. وكانت بولندا في القلب من تلك القضايا، فهل يمكن إبرام صفقة تُقسَّم بولندا بموجبها بينهما؟[3].

طرَح ستالين شخصيًّا هذا السؤال. وكانت بولندا قد أصبحت دولة بغيضة للاتحاد السوڤيتي منذ الثورة؛ وذلك لسبب واحد، هو أن اتفاقيات السلام في ڤرساي كانت قد منحت البولنديين مساحة كبيرة من الأراضي التي كانت جزءًا من روسيا قبل عام ١٩١٤. وعلى صعيد آخر، اتخذت بولندا إجراءات عسكرية هددت نجاح عملية استيلاء البلاشفة على السلطة في السنوات التي تلت عام ١٩١٧. وكان الخوف من الجواسيس البولنديين شعورًا شائعًا ومنتظمًا في عمليات التطهير السوڤيتية في العقد الرابع من القرن العشرين التي شهدت اعتقال الملايين، وإعدام مئات الآلاف. ووقع ستالين بنفسه -قبل عامين من التفاوض مع ألمانيا- أوامر تطالب بـ «تصفية شبكة جواسيس المنظمة العسكرية البولندية»، الأمر الذي أدى إلى اعتقال عشرات الآلاف غيرهم، قُتل أكثر من أربعة أخماسهم رميًا بالرصاص[4]. وكان رده على سؤال الألمان التعاون -على الأقل فيما تعلق بـ بولندا- إيجابيًّا ومشجعًا.

واستجاب الألمان على الفور؛ فبعد يومين من وصول رد ستالين، هبطت طائرتان من طراز فوك ولف كوندور (Focke-Wulf Condor) في موسكو؛ حاملة وفدًا ألمانيًّا استقبله حرس الشرف السوڤيتي حاملًا مجموعتين من الرايات التي رفرفت في مهب الريح، وحمل نصفها صورة المطرقة والمنجل،

---

(1) W. Churchill, *The Second World War*, 6 vols (London, 1948–53), 1, p. 328.

(٢) كانت إقالة ليتفينوف خشنة، فقد حاصرت قوات الشرطة (NKVD) مكاتب مفوضية الشؤون الخارجية. وفُصِل الهاتف في منزل ليتفينوف، وفي صباح اليوم التالي، وصل مولوتوف صحبة عدد من مساعديه إلى المفوضية لإبلاغ ليتفينوف بخبر إقالته. وفي الوقت نفسه قبض على عدد من مساعديه وضربوا، في محاولة لانتزاع معلومات منهم قد تدين رئيسهم. (المترجم)

(3) Besymenski, *Stalin und Hitler*, pp. 142, 206–9.

(4) T. Snyder, *Bloodlands: Europe between Hitler and Stalin* (London, 2010), pp. 81, 93.

أداتا البروليتاريا الحضرية والفلاحين -وكانا رمزًا للشيوعية لا تخطئه العين- بينما كان نصف الرايات الأخرى للرايخ الثالث (Third Reich)، التي صممها هتلر بنفسه- كما أوضح في كتاب كفاحي *Mein Kampf* «باللون الأحمر، بحيث يسعنا رؤية الفكرة الاجتماعية للحركة [الاشتراكية الوطنية]، ويرمز اللون الأبيض للفكرة القومية، بينما يرمز الصليب المعقوف (*Swastika*) لمهمة النضال من أجل انتصار الإنسان الآري»[1]. وهكذا كانت الرايات التي مثلت الشيوعية والفاشية ترفرف جنبًا إلى جنب في أثناء نزول الألمان من الطائرات في واحد من أكثر المشاهد الاستثنائية، وغير المتوقعة في القرن العشرين. وكان الوفد الألماني برئاسة ريبنتروب (Ribbentrop)، وزير الخارجية الألماني، الذي وصفه مدرس سابق بأنه «كان أكثر طلابه غباءً في الصف، كما كان شديد الغرور، ومندفعًا كل الاندفاع» بيد أنه أضحى آنئذ أهلًا للثقة للتوسط في عقد اتفاق مع ألد الخصام[2].

وبعد أن أُقِل الضيف إلى الكرملين للقاء ستالين ومولوتوف، أعرب ريبنتروب عن أمله في علاقات جيدة بقوله: «لا تسأل ألمانيا روسيا شيئًا سوى السلام والتجارة». وأجابه ستالين صراحةً ودون مواربة بقوله: «لسنوات طويلة، كنا نسكب دِلاءً من الخِراء على رؤوس بعضنا بعضًا، وبذل صبيان الدعاية في دولتينا وسعهم في هذا الصدد. فهل بات علينا أن نحمل شعوبنا -دون مقدمات- على الاعتقاد بأن كل شيء قد نُسِي، وأننا تصافينا؟ لا تجري الأمور بهذه السرعة!»[3].

بيد أن الحق أن الأمور جرت بهذه السرعة فعلًا، فسرعان ما نسي الجميع كل شيء. وفي غضون ساعات قليلة، وُضِعت الخطوط العريضة للصفقة، في نص متفق عليه ليُنشَر على الملأ، تضمن ملحقًا سريًا حدد مجالات نفوذ كل منهما في دول البلطيق وبولندا. وفوض كل جانب الجانب الآخر التحرك في مجاله، وفعل ما يحلو له حتى الخط المحدد دون قيد أو شرط. ودعا ستالين -الذي بدت أمارات الرضا واضحة على محياه- الوفد الألماني إلى تناول الڤودكا في الساعات الأولى من الصباح للاحتفال بالنخب. وقال مستخدمًا الكلمة الألمانية (الفوهرر): «أعرف مدى حب الشعب الألماني للفوهرر؛ وأود أن أشرب في صحته». وأعقب ذلك كؤوس أُخَر، وأنخاب أُخَر. عندئذ لم يستطع مولوتوف إخفاء سعادته، فقال ثمِلًا: «لقد بدأ رفيقنا العظيم ستالين هذا الانقلاب في العلاقات السياسية»، ثم استطرد قائلًا: «وها أنا ذا أشرب في صحته»[4].

---

(١) نقلاً عن:

E. Jäckel and A. Kahn, *Hitler: Sämtliche Aufzeichnungen, 1905–1924* (Stuttgart, 1980), p. 186.

(2) J. Weitz, *Hitler's Diplomat: The Life and Times of Joachim von Ribbentrop* (New York, 1992), p. 6.

(3) S. Sebag Montefiore, *Stalin: The Court of the Red Tsar* (London, 2004), p. 317.

(4) Hegner, *Die Reichskanzlei*, pp. 337–8, 342–3;

وعن الاتفاقية وملحقها السري، انظر:

Documents on German Foreign Policy, 1918–1945, Series D, 13 vols (London, 1949–64), 7, pp. 245–7.

في اليوم التالي، كان ستالين ما يزال يشعر بالنشوة في منزله الريفي خارج موسكو؛ حيث كان يمارس رياضة صيد البط بمعية كبار أعضاء المكتب السياسي. وقال لهم: إنها بالطبع لعبة خداع، إنها «لعبة لمعرفة مَن يستطيع أن يخدع مَن. وأنا أعرف ما الذي سيفعله هتلر تحديدًا. إنه يعتقد أنه خدعني، ولكن الحق أنني مَن خدعه»[1]. وبطبيعة الحال، كان هتلر يفكر في الأمر نفسه بهذه الكيفية تحديدًا. وعندما وصلته برقية منتصف الليل تقريبًا -في وكره بجبال الألب- تحيطه علمًا بنبأ توقيع الاتفاقية النهائية مع السوفيت، كان رد فعله مشابهًا لرد فعل ستالين، لقد كان رد فعل مقامر أيقن أن حظه تبسم له، فغمغم قائلًا: «لقد فزنا» كما أعلن ظافرًا[2].

توصل الزعيم السوفيتي إلى اتفاق مع ألمانيا يكسب به الوقت. بيد أن الظنون ما انفكت تساور ستالين بشأن هتلر، ولم يكن لديه أدنى شك حول التهديد الذي يمثله على المدى الطويل. والحق أن مقاطع من كتاب كفاحي قُرئت في المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي في عام ١٩٣٤، لتوضيح التهديدات التي تشكلها ألمانيا ومستشارها. وكان ستالين نفسه قد قرأ عمل هتلر المشين، واستوقفته تلك الفقرات التي توضح حاجة ألمانيا للتوسع شرقًا[3]. ومع ذلك، فقد كان الاتحاد السوفيتي بحاجة إلى فترة من النقاهة للتعافي بعد فترة من الاضطرابات المزمنة؛ ذاك أن المجاعة الكارثية -الناتجة عن السياسة الدموية قصيرة النظر- أدت إلى وفاة الملايين من الجوع والمرض في أوائل العقد الرابع من القرن العشرين. وكانت المعاناة رهيبة، وانتشرت على نطاق هائل؛ حتى إن صبيًّا لما يبلغ من العمر ثماني سنوات -آنذاك- تذكَّر أنه كان ينظر إلى فتاة في فصله الدراسي في خاركيف (Khar'kov)، كانت قد وضعت رأسها على طاولتها، وأغمضت عينيها في أثناء الدرس، فظن أنها غطت في النوم سريعًا؛ بيد أنه سرعان ما تبين له أنها ماتت من الجوع. وكان يعلم أنهم سيدفنونها، «تمامًا كما دفنوا الناس بالأمس، وأول أمس، وكما يفعلون كل يوم»[4].

التهم المجتمع السوفيتي نفسه في السنوات التي تلت ذلك. ولم تشفع الأقدمية داخل الحزب الشيوعي لأصحابها؛ حيث بطش ستالين بمنافسيه وأقرب زملائه السابقين بطش جبار. وفي سلسلة مذهلة من المحاكمات الصورية، التي عُقدت في موسكو، اتُّهم رجال -أصبحوا أسماء مألوفة، ليس فقط داخل الاتحاد السوفيتي، بل على المستوى الدولي كذلك- بأنهم أعداء للثورة، وحوكموا، وحُكم

---

(1) Sebag Montefiore, *Stalin*, p. 318.

(2) N. Khrushchev, *Khrushchev Remembers*, tr. S. Talbott (Boston, MA, 1970), p. 128.

(3) Besymenski, *Stalin und Hitler*, pp. 21–2; D. Volkogonov, *Stalin: Triumph and Tragedy* (New York, 1991), p. 352.

(4) L. Kovalenko and V. Maniak, *33'i: Golod: Narodna kniga-memorial* (Kiev, 1991), p. 46, in Snyder, *Bloodlands*, p. 49;

وانظر أيضًا:

Op. cit, pp. 39–58.

عليهـم بالإعدام. وكان رجال مثل جريجـوري زينوڤييف (Grigorii Zinoviev)، وليڤ كامينيڤ (Lev Kamenev)، ونيكـولاي بوخاريـن (Nikolai Bukharin)، وكارل راديـك (Karl Radek)، أبطـال ثورة ١٩١٧، مـن بيـن عـدد كبير ممـن أُمر بإعدامهـم، وقد شـدَّ المدعي العـام أندريه ڤيشينسـكي (Andrei Vyshinskii) النكيـر عليهـم، فوصفهـم -بلغة سـامة- بـأن مثَلهم مثَل الـكلاب الفاشـية، والإرهابيين، والمنحطيـن، والحشـرات. وكُـرِّم ڤيشينسـكي بعد ذلك بسـبب هجومه الضاري على خصوم سـتالين، عندما أعيد تسـمية معهد الحكومة والقانون التابع لأكاديمية العلوم السـوڤيتية، فبات يحمل اسـمه، في مهزلة حاقت بالتاريخ الفكري والثقافي[١].

على أية حال فقد أولى ستالين -بعد ذلك- عنايته للجيش. ولم يجرِ القضاء على القيادة العليا بقدر ما جرى تدميرها وإبادتها من خلال منطق منحرف وقاس؛ حيث بدا من المنطقي -في نظر القيادة- أنه إذا أُديـن صغـار الضبـاط بالثـورة والعصيـان، فـإن رؤسـاؤهم يعـدون مذنبيـن أيضًـا، إمـا بالتواطؤ، أو بالإهمـال؛ لـذا فإن اعترافًا واحدًا، من رجل محطم تعرض للضرب، كان يؤدي إلى إطلاق سلسـلة من الاعتقالات. وكان الهدف من ذلك -كما شهد أحد ضباط الشرطة السرية بأخَرة- إثبات وجود «مؤامرة عسكرية داخل الجيش الأحمر، تورط فيها أكبر عدد ممكن من المشاركين»[٢].

واعتقل رجال ستالين ٩١ ضابطًا من أصل ١٠١ من أعضاء القيادة العسكرية العليا؛ أُعدموا جميعًا بالرصـاص باسـتثناء تسـعة منهـم. وشـمل هـؤلاء ثلاثة مارشـالات من مارشـالات الاتحاد السـوڤيتي الخمسة، وضابطين برتبة أدميرال، إضافة إلى كبار ضباط القوات الجوية، وكل رئيس لمنطقة عسكرية، وكل قائـد فرقـة تقريبًـا. وأخيـرًا خر الجيش الأحمر علـى ركبتيه جاثيًا[٣]. وفي ظل هـذه الظروف، كان سـتالين بحاجة إلى وقت لالتقاط أنفاسـه، وإعادة البناء. وكان النهج الألماني التصالحي -آنئذ- بمثابة الهبة من السماء.

وعلى الصعيد الآخر، كان هتلر يلعب للحصول على مستوى أعلى من الرهانات. لقد كان يائسًا في الوصول إلى الموارد التي مسَّـت حاجة ألمانيا إليها إذا أرادت بناء القوة والسـلطة على المدى الطويل. وكانت المشـكلة أن موقع ألمانيا الجغرافي كان سـيئًا فيما تعلق بالوصول إلى مياه المحيط الأطلسـي، والتجارة مع الأمريكتين وإفريقيا وآسـيا؛ لذلك وضع هتلر الشـرق نصب عينيه. ودارت في رأسـه فكرة

(١) عن ڤيشينسكي (Vyshinskii) والمحاكمات الصورية، انظر:

A. Vaksberg, *Stalin's Prosecutor: The Life of Andrei Vyshinsky* (New York, 1990), and N. Werth et al. (eds), *The Little Black Book of Communism: Crimes, Terror, Repression* (Cambridge, MA, 1999).

(2) M. Jansen and N. Petrov, *Stalin's Loyal Executioner: People's Commissar Nikolai Ezhov, 1895–1940* (Stanford, 2002), p. 69.

(3) V. Rogovin, *Partiya Rasstrelianykh* (Moscow, 1997), pp. 207–19;

وانظر أيضًا:

Besymenski, *Stalin und Hitler*, p. 96; Volkogonov, *Stalin*, p. 368.

أن التصالح مع الاتحاد السوڤيتي من شأنه أن يمنحه القدرة على الوصول إلى طريق الحرير الخاص به، وهذا بالضبط ما كان يكمن خلف قراره بالمضي قدمًا في تلك المصالحة.

* * *

استدعى هتلر جنرالاته -بعد توقيع الاتفاقية- إلى وكره في جبال الألب؛ ليحيطهم علمًا بما اتُّفِق عليه وما يخطط له. واتكأ على البيانو الكبير، ثم تحدث بإسهاب عن نفسه، وذكر أن الشعب الألماني محظوظ لوجوده على رأس القيادة بوصفه رجلًا يثقون به. واستطرد قائلًا: حان الوقت لاغتنام الفرصة. وقال لكبار ضباطه: «ليس لدينا ما نخسره»، يمكن لألمانيا أن تعيش لبضع سنوات فحسب في ظل وضعها الاقتصادي الحالي؛ ثم أردف قائلًا للجنرالات: «ليس لدينا خيار آخر»[١].

لم يكن التحالف مع الاتحاد السوڤيتي يتيح استعادة ألمانيا الأراضي التي اقتطعت منها بموجب معاهدة ڤرساي (Treaty of Versailles)[٢] فحسب؛ بل كان يضمن مستقبل ألمانيا أيضًا. وكان كل شيء يتوقف على نجاح ألمانيا، وكان من الضروري تذكُّر ذلك دائمًا. وقال هتلر لجنرالاته: «اطردوا الرحمة من قلوبكم»، و«تصرفوا بوحشية». يجب أن يحصل ثمانون مليون نسمة على حقوقهم، وينبغي تأمين وجودهم»[٣]. لقد كان يتحدث عن غزو بولندا، بيد أنه كان يتحدث أيضًا عن الفجر الجديد الذي سينتج عن التقارب مع الاتحاد السوڤيتي. وهكذا لم ير هتلر في اتفاقه مع ستالين أكثر من كونه مجرد إتاحة للفرصة لزيادة المخاطر في لعبته السياسية بدفع الأوضاع إلى حافة الهاوية؛ حيث كان الاتفاق مع ستالين يتيح إمكانية الحصول على الموارد. وعلى الرغم من أنه تحدث كثيرًا عن المجال الحيوي *Lebensraum*، أو «مساحة العيش» للشعب الألماني منذ أن ظهر على الساحة لأول مرة، فإن ما كان على المحك -كما أخبر جنرالاته- كان جوائز ملموسة: الغِلال، والماشية، والفحم، والرصاص، والزنك. أخيرًا، يمكن لألمانيا أن تتحرر من أغلالها[٤].

وقال هتلر: إن الحرب ستستغرق ستة أسابيع، ولم يكن كل من أصغى إليه مقتنعين بقوله. وغمغم الجنرال ڤون ريتشيناو (von Reichenau) «بل أكثر من ست سنوات»[٥]. ولم يكن الجنرال ليمان

---

(1) 'Speech by the Führer to the Commanders in Chief', 22 August 1939, in *Documents on German Foreign Policy*, Series D, 7, pp. 200–4; I. Kershaw, *Hitler, 1936–45: Nemesis* (London, 2001), pp. 207–8.

(٢) الإشارة هنا إلى الممر البولندي (Polish Corridor). (المترجم)

(3) 'Second speech by the Führer', 22 August 1939, in *Documents on German Foreign Policy, 1918–1945*, Series D, p. 205.

(4) 'Speech by the Führer to the Commanders in Chief', p. 204.

(5) K.-J. Müller, *Das Heer und Hitler: Armee und nationalsozialistisches Regime 1933–1940* (Stuttgart, 1969), p. 411, n. 153;

والحظ أن مولر لم يوثق ادعاءه.

معجبًا بما قاله هتلر. وقال: إن الخطاب كان مغرورًا، وصاخبًا، و«مثيرًا للاشمئزاز». لقد فقد هتلر كل إحساس بالمسؤولية. ومع ذلك -كما لحظت السلطة الحديثة الرائدة في ألمانيا النازية- لم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضًا[١].

كان هتلر على قناعة بأنه وجد طريقة ما لحماية مستقبل ألمانيا. وكانت إحدى نقاط الضعف الواضحة قصور المحاصيل المزروعة محليًا عن تلبية احتياجات السوق الداخلية. وكما تشير البحوث الحديثة، كان هذا القطاع قد عانى خلال العقد الرابع من القرن الماضي عندما بدأت عملية تعبئة آلة الحرب الألمانية، فاستهلكت الموارد والوقت والمال. والحق أن التشريعات الجديدة أدت إلى تقليل الاستثمارات في الزراعة في هذه الحقبة[٢]، وظلت ألمانيا تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الواردات، ذاك أن الإنتاج المحلي لم يكن يرقى إلى حد الاكتفاء الذاتي[٣]. وتحدث هتلر إلى دبلوماسي كبير في دانزيج (Danzig) في أغسطس (آب) ١٩٣٩، وطرح موضوع الضغط المستحيل الذي فُرض على ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ذلك الموضوع أحد موضوعاته المتكررة على المدى الطويل. ومع ذلك، ادعى هتلر عندئذ أنه وجد حلًا: نحن بحاجة إلى أوكرانيا، «حتى لا يتمكن أحد من تجويعنا مرة أخرى كما فعلوا في الحرب الأخيرة»[٤].

وجرى تسليم أوكرانيا لهتلر -أو بالأحرى ثمار تربتها الخصبة الغنية- بتوقيع معاهدة عدم الاعتداء في عام ١٩٣٩. وشهدت الأشهر التي أعقبت زيارة ريبنتروب إلى العاصمة الروسية تردد المسؤولين النازيين والسوفييت جيئة وذهابًا بين موسكو وبرلين. وكان الألمان واثقين من إمكانية تطوير ذلك الاتفاق إلى اتفاق شامل، خاصة فيما يتعلق بـ «جميع المشكلات الإقليمية من البحر الأسود إلى بحر البلطيق»، كما قال ريبنتروب لمولوتوف في أغسطس (آب) ١٩٣٩[٥]. وتركزت المناقشات الأكثر تفصيلًا على شروط التجارة، وقبل كل شيء على حجم القمح السوفيتي المستورد وأسعاره، وكذلك

(1) W. Baumgart, 'Zur Ansprache Hitlers vor den Führern der Wehrmacht am 22. August 1939. Eine quellenkritische Untersuchung', *Viertejahreshefte für Zeitgeschichte* 16 (1968), 146; Kershaw, *Nemesis*, p. 209.

(2) G. Corni, *Hitler and the Peasants: Agrarian Policy of the Third Reich, 1930–39* (New York, 1990), pp. 66–115.

(٣) انظر على سبيل المثال:

R.-D. Müller, 'Die Konsequenzen der "Volksgemeinschaft": Ernährung, Ausbeutung und Vernichtung', in W. Michalka (ed.), *Der Zweite Weltkrieg. Analysen-Grundzüge-Forschungsbilanz* (Weyarn, 1989), pp. 240-9.

(4) A. Kay, *Exploitation, Resettlement, Mass Murder: Political and Economic Planning for German Occupation Policy in the Soviet Union, 1940–1941* (Oxford, 2006), p. 40.

(5) A. Bondarenko (ed.), *God krizisa: 1938–1939: dokumenty i materialy v dvukh tomakh*, 2 vols (Moscow, 1990), 2, pp. 157–8.

أسـعار النفط، والمواد الأخرى اللازمة لدعم الغزو الألماني لبولندا وما تلاه. لقد كان سـتالين ينفخ في الجمر لتأجيج نيران حرب هتلر(١).

ومنـح التحالـف هتلر الثقة، والوعد بإمداده بالموارد التي تمكنه من مهاجمة بولندا، وشـعر بالأمن لمـا تيقـن من تأمين ظهره في الشـرق بعد اتفاقه مع سـتالين الذي قال عند توقيـع الاتفاقية: «يمكنني أن أضمن بناءً على كلمتي الفخرية أن الاتحاد السوڤيتي لن يخون شريكه»(٢). ومع ذلك فإن الموافقة على تفكيك بولندا جعلت ألمانيا أكثر ضعفًا، ولا سـيما من خلال توسـع حدود الاتحاد السوڤيتي غربًا على نحو مأساوي، كما أدرك ذلك أحد كبار الضباط الأذكياء؛ حيث أشار فرانز هالدر (Franz Halder) إلى أنه سيكون من الأفضل الإبقاء على علاقة جيدة مع روسيا، والتركيز على قتال البريطانيين على جبهات الشرق الأوسط، والبحر المتوسط(٣).

* * *

في مسـتهل سـبتمبر (أيلول) من عام ١٩٣٩، تدفقت القوات الألمانية عبر الحدود، وشقَّت طريقها مخترقة الدفاعات البولندية، ولم يكن قد مر أسبوع على الاتفاقية التاريخية. وكان هدف الألمان -إلى جانب الاسـتيلاء على الأراضي مع توقف الزحف عند وارسـو- استئصال شأفة النخبة البولندية. وكان هتلر يـرى «أن الأمة التي تُبـاد النخبة فيها، هي الأمة التي يمكن دفع أبنائهـا إلى مصاف العبيد». وعلى هـذا النحو، اسـتهدف الألمان الضبـاط، والقيادات، والشـخصيات العامة، وتولـى مطاردتهم والبحث عنهم أولئك الذين كانوا يعرفون ما يبحثون عنه؛ فقد أُمر خمسة عشر ضابطًا -من أصل خمسة وعشرين ضابطًـا مـن قادة الفرق- بالبحث عن «صفوة المجتمع» والقضاء عليهم، وكان معظمهم حاصلون على درجة الدكتوراه في القانون أو الفلسفة(٤).

وأصاب نبأ توافق ألمانيا والاتحاد السـوڤيتي، والهجوم على بولندا، بريطانيا وفرنسـا بالقشـعريرة. فعلى الرغم من إعلان الحرب، لم تقدم كلتا الدولتين دعمًا عسـكريًا أو لوجسـتيًا له معنى للبولنديين. ونفذت القوات الجوية الملكية بعض عمليات القصف المحدودة، لكن الحمولات الأكثر شيوعًا التي حملتهـا الطائـرات التـي حلقـت فوق الأراضـي الألمانية لـم تكن قنابـل، أو عبوات حارقـة، بل كانت منشـورات كانـت أهدافهـا مفعمة بالأمـل، إن لم تكن سـاذجة تمامًا. «هناك سـبب وجيـه للاعتقاد بأن السـلطات الألمانية تخشـى تأثيـر دعايتنا»، هكذا ورد في محضر البنـد الأول في جدول أعمال اجتماع

(1) E. Ericson, *Feeding the German Eagle: Soviet Economic Aid to Nazi Germany, 1933–1941* (Westport, CT, 1999), pp. 41ff.

(2) A. Bullock, *Hitler: A Study in Tyranny* (London, 1964), p. 719.

(3) S. Fritz, *Ostkrieg: Hitler's War of Extermination in the East* (2011), p. 39.

(4) C. Browning, *The Origins of the Final Solution: The Evolution of Nazi Jewish Policy, September 1939–March 1942* (Lincoln, NE, 2004), p. 16; Snyder, *Bloodlands*, p. 126.

مجلس الوزراء في أوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٣٩. إن حقيقة أن طائراتنا تستطيع التحليق فوق أراضي شمال غربي ألمانيا، دون أن تخشى ردًّا «لا بد أن يكون له تأثير محبط على معنويات الشعب الألماني». واتُّفق في هذا الاجتماع على أن إسقاط المزيد من المنشورات في المستقبل قد يكون فعالًا للغاية[1].

في غضون ذلك، تدفقت التقييمات المذعورة عائدة إلى لندن من الهند وآسيا الوسطى؛ ذاك أن الاتفاقية التي وقعها مولوتوف وريبنتروب لم توفر قناة من الإمدادات بالسلع الأساسية لألمانيا فحسب، بل مهدت الطريق للحرب في أوروبا. لقد حذر الوزير في كابول، السير كير فريزر تيتلر (Kerr Fraser-Tytler)، من أن هناك الكثير من اللغط يدور حول ما إذا كانت بريطانيا ستقدم دعمًا عسكريًّا في حال قرر الاتحاد السوفيتي غزو أفغانستان[2]. وانتاب مكتب الهند مخاوف من هذا القبيل، حيث أصدر وزير الخارجية وثيقة مثيرة للقلق لمجلس الحرب في لندن رسمت صورة وضع شبه ميؤوس منه للدفاعات الهندية، ولا سيما مواردها المضادة للطائرات، والتي يبدو أنها لم تكن تعدو أكثر من بطارية واحدة، كانت تتكون من ثماني مدافع من عيار ٣ بوصات[3].

وعلى الرغم من أن لندن بدت متشككة بشأن الخطر في آسيا الوسطى على المدى القصير على الأقل، فقد كان هناك اعتراف بأن تحالف ألمانيا مع الاتحاد السوفيتي قد يشكل تهديدًا للمصالح البريطانية في الشرق. وبحلول ربيع عام ١٩٤٠، جرى النظر بجدية فيما بدا أنه مواجهة حتمية. كما أوضح تقرير رُفع إلى مجلس الحرب من قِبل رؤساء الأركان بعنوان «الآثار العسكرية للأعمال العدائية مع روسيا في عام ١٩٤٠ The Military Implications of Hostilities with Russia in 1940»، أنه «من غير المرجح أن تتخذ الحكومة السوفيتية إجراءات ضد الهند وأفغانستان»، وهو تطور من شأنه أن يخلق «أقصى قدر من التركيز لقوة الحلفاء»[4]. كما عرض تقرير آخر بوضوح مخيف، أن هناك عدد كبير من الطرق التي يمكن أن يكون فيها التعاون الألماني مع موسكو ضارًا للغاية بمصالح الحلفاء؛ فهناك احتمال قائم بأن تتعرض المصالح النفطية البريطانية في إيران والعراق للخطر، وقد تضيع، والأسوأ من ذلك، قد يستحوذ عليها العدو[5].

---

(1) War Cabinet, 8 September 1939, CAB 65/1; A. Prazmowska, *Britain, Poland and the Eastern Front, 1939* (Cambridge, 1987), p. 182.

(2) British Legation Kabul to Foreign Office London, Katodon 106, 24 September 1939,

نقلًا عن:

M. Hauner, 'The Soviet Threat to Afghanistan and India, 1938–1940', *Modern Asian Studies* 15.2 (1981), 297.

(3) Hauner, 'Soviet Threat to Afghanistan and India', 298.

(4) Report by the Chiefs of Staff Committee, 'The Military Implications of Hostilities with Russia in 1940', 8 March 1940, CAB 66/6.

(5) 'Appreciation of the Situation Created by the Russo-German Agreement', 6 October 1939, CAB 84/8;

وانظر في هذا الصدد أيضًا: =

وكان هناك جوهر لهذه المخاوف. لقد كان الألمان نشطين للغاية في جميع أنحاء الشرق الأوسط وآسيا الوسطى في العقد الرابع من القرن العشرين، حيث أنشأت لوفتهانزا (Lufthansa) شبكة واسعة من الرحلات الجوية التجارية في جميع أنحاء المنطقة، وحققت شركات مثل سيمنز (Siemens) ومنظمة تودت (Todt Organisation) نجاحات ملحوظة في قطاع الصناعة في العراق، وإيران، وأفغانستان. وصمم المهندسون الألمان طرقًا وجسورًا لا حصر لها، بناها -أو أشرف على بنائها- تقنيون ألمان. وجرى تركيب البنية التحتية للاتصالات من قبل شركات مثل تيليفونكن (Telefunken)، التي اشتد الطلب على خبرتها[١]. وأدت هذه العلاقات إلى النظر إلى ألمانيا نظرة إيجابية في جميع أنحاء المنطقة، وهو الأمر الذي تعزز من خلال التصورات عن هتلر في العالم الإسلامي بوصفه زعيمًا حازمًا، يدافع عما يؤمن به. وقد تعززت هذه الرسالة من خلال وكر من العملاء الذين سيطرت عليهم أبويهر (Abwehr) -وهي الاستخبارات العسكرية الألمانية- وكانوا يعملون بهمة على بناء جسور الاتصالات، وحشد الدعم عبر المنطقة بين شرق البحر المتوسط وجبال الهيمالايا[٢].

والحق أنه كانت هناك مناقشات نشطة داخل القيادة العليا الألمانية حول كيفية تشجيع السوفييت على التدخل في آسيا الوسطى والهند بحلول يناير ١٩٤٠. ووزعت الخطط من قبل الجنرال جودل (Jodl)، أحد كبار ضباط الفيرماخت (Wehrmacht)، فيما يتعلق بالاندفاع الألماني السوفيتي المشترك في الشرق الأوسط. وكان هذا يتطلب جهدًا ضئيلًا نسبيًّا، لكنه في الوقت نفسه سيخلق بؤرة اضطراب تهدد إنجلترا»[٣]. كما وضعت خطة جريئة منفصلة تهدف لإعادة العرش الأفغاني للملك أمان الله، الذي كان يقيم في برلين بعد الإطاحة به[٤]. ثم كانت هناك جهود لإثارة الفتن في المناطق الحساسة استراتيجيًا. فكان هناك فقير إبي -وهو نسخة العقد الرابع من القرن العشرين من أسامة بن لادن- وكان فقير واعظًا زاهدًا ومتصوفًا، إلا أنه سفاك للدماء، ومحافظ دينيًّا، إلا أنه ثوري اجتماعيًّا. ورشحته الاستخبارات الألمانية بوصفه شريكًا مثاليًّا لزعزعة استقرار الحدود الشمالية الغربية، وتشتيت انتباه البريطانيين، واستنزاف مواردهم. وكانت إحدى المشكلات القائمة هي العثور عليه؛ لقد كان العثور عليه من الصعوبة بمكان؛ حيث مرغ أنوف البريطانيين في الوحل مرات تكاد لا تحصى. وانتهت إحدى مهام العثور عليه

= M. Hauner, *India in Axis Strategy: Germany, Japan and Indian Nationalists in the Second World War* (Stuttgart, 1981), esp. 213–37.

(1) Hauner, *India in Axis Strategy*, 70–92.

(2) M. Hauner, 'Anspruch und Wirklichkeit: Deutschland also Dritte Macht in Afghanistan, 1915–39', in K. Kettenacker et al. (eds), *Festschrift für Paul Kluge* (Munich, 1981), pp. 222–44; idem, 'Afghanistan before the Great Powers, 1938–45', *International Journal of Middle East Studies* 14.4 (1982), 481–2.

(3) Policy and the War Effort in the East', 6 January 1940, *Documents on German Foreign Policy, 1918–1945*, Series D, 8, pp. 632–3.

(4) 'Memorandum of the Aussenpolitisches Amt', 18 December 1939, *Documents on German Foreign Policy: 1918–1945*, Series D, 8, p. 533; Hauner, *India in Axis Strategy*, pp. 159–72.

بكارثة عندما قُتل عميل ألماني وجُرح آخر في كمين نصبه الجيش الأفغاني؛ حيث كانت «أبويهر» تعتقد أنهما لن يُلحظا إذا انتحلا شخصيتي خبيرَيْن في مرض الجذام. وعندما جرى الاتصال بـ فقير أخيرًا، طلب -مقابل مساعدة الألمان ضد البريطانيين على الحدود- طلبات لا تكاد تُعقل[١].

لم يكن بناء الجسور الألمانية في أماكن أخرى عبر المنطقة أقل نشاطًا. وأعجب كثيرون في إيران والعراق بحركية هتلر وخطابه. وكان هناك تداخل طبيعي -على سبيل المثال- بين معاداة السامية عميقة الجذور في النظام النازي، ومعاداة بعض العلماء المسلمين البارزين لها. وكان مفتي القدس محمد الحسيني قد رحب بصعود الرجل الذي أشار إليه فيما بعد باسم «الحاج محمد هتلر». وكانت آراء الزعيم الألماني المعادية للسامية كالغلال في طاحونة رجل كانت الدعوة إلى قتل اليهود، الذين وصفهم بـ «الحثالة والجراثيم» مصدر سعادة له[٢].

وذهب الإعجاب بألمانيا في جميع أنحاء المنطقة إلى أبعد من ذلك بكثير. وأشار بعض الباحثين إلى أوجه التشابه بين الأيديولوجية التي فرضها هتلر على ألمانيا في العقد الرابع من القرن العشرين وبرنامج مشابه جرى تبنيه في بلاد فارس لـ «تطهير» اللغة والعادات الفارسية، والجهد الواعي للعودة إلى عصر ذهبي شبه أسطوري، كما فعل النازيون. ويُفترض أن قرار تغيير اسم بلاد فارس رسميًا إلى إيران كان نتيجة جهود الدبلوماسيين الفُرس في برلين؛ لإثارة إعجاب الشاه بأهمية فكرة «الآرية Aryanism»، والتراث، والتاريخ المصطنع المشترك الذي يمكن أن تشير إليه الهوية الإيرانية الجديدة بسهولة[٣][٤].

وبالمثل، فإن تأسيس حزب البعث في العراق يدين بالكثير للدعاية النازية، ومفهوم البعث[٥]. ثم كان هناك اتصال مؤكد بين هتلر ومبعوث للعاهل السعودي. وقال هتلر لذلك المبعوث عام ١٩٣٩: «إننا ننظر إلى العرب بتعاطف كبير لثلاثة أسباب. أولًا: نحن لا نسعى لتحقيق تطلعات إقليمية في الأراضي العربية. ثانيًا: لدينا الأعداء أنفسهم. وثالثًا: كلانا يحارب اليهود، ولن يغمض لي جفن حتى أطهر ألمانيا منهم»[٦].

---

(1) M. Hauner, 'One Man against the Empire: The Faqir of Ipi and the British in Central Asia on the Eve of and during the Second World War', *Journal of Contemporary History* 16.1 (1981), 183–212.

(2) Rubin and Schwanitz, *Nazis, Islamists*, p. 4 n. 13.

(3) S. Hauser, 'German Research on the Ancient Near East and its Relation to Political and Economic Interests from Kaiserreich to World War II', in W. Schwanitz (ed.), *Germany and the Middle East, 1871–1945* (Princeton, 2004), pp. 168–9; M. Ghods, *Iran in the Twentieth Century: A Political History* (Boulder, CO, 2009), pp. 106–8.

(٤) من ها هنا إلى نهاية الكتاب سيشير المؤلف إلى بلاد فارس (Persia) باسمها الحديث «إيران» حيث تغير اسمها رسميًا في عهد رضا خان بلهوي عام ١٩٣٦. (المترجم)

(5) Rubin and Schwanitz, *Nazis, Islamists*, p. 128.

(6) Cited in ibid., p. 5.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يجري تطوير خطة تلو الأخرى في لندن وباريس لمحاولة احتواء الألمان والسوفييت. وطلب رئيس الأركان العامة الفرنسية، كلود جاميلين (Claude Gamelin)، وضع خطط لبناء حصن في البلقان، يمكن أن يضغط على ألمانيا من الخلف إذا لزم الأمر(١). وجرى حمل الفكرة على محمل الجد، وأيدها رئيس الوزراء الفرنسي الخنزيري(٢) إدوارد دالادير (Edouard Daladier)، قبل أن تفقد شعبيتها. ثم استُبدلت بخطة جريئة تقضي بشن هجوم على دول اسكندنافيا بهدف قطع الإمدادات من خام الحديد السويدي عن ألمانيا، وتحمس ونستون تشرشل -اللورد الأول للأدميرالية آنذاك- لهذه الخطة؛ حيث كتب قائلًا: «لا شيء سيكون أكثر فتكًا... من توقف ألمانيا لمدة ثلاثة، أو ستة أشهر عن استيراد سلعة كهذه». وينبغي على بريطانيا «انتهاك الحياد النرويجي» وتلغيم المياه الساحلية للنرويج. إن اتخاذ هذه الخطوات من شأنه أن يهدد «قدرة ألمانيا على صنع الحرب و... حياة البلاد»(٣).

وكان تعطيل سلسلة التوريد الألمانية محور جميع مناقشات الحلفاء. وفي الأخير، تحول الانتباه إلى باكو (Baku) في ربيع عام ١٩٤٠. وأيد قائد القوات الجوية الفرنسية، الجنرال ڤويليمين (Vuillemin)، خطة تتمكن من خلالها قوات الحلفاء من استخدام قواعدها في الشرق الأوسط لضرب المنشآت، ولا سيما في أذربيجان السوڤيتية. وزُعم أن الأسراب الجوية العاملة في القواعد البريطانية في العراق، وكذلك القواعد الفرنسية في سوريا يمكن أن تؤدي إلى خفض إنتاج النفط في القوقاز بمقدار النصف على مدار شهرين إلى ثلاثة أشهر. وبحسب المسودة الأولى للخطة، سيكون لذلك «تداعيات حاسمة على روسيا وألمانيا». أما الإصدارات اللاحقة من تلك الخطة فكانت توقعاتها أكثر تفاؤلًا، فقد اشتملت على عدد أقل من أسراب الطائرات المغيرة التي ستحقق مكاسب مماثلة، ولكن في إطار سقف زمني أسرع(٤).

واتفق الاستراتيجيون البريطانيون على أن نتائج قصف القوقاز ستكون مأساوية؛ حيث سيسود الاضطراب الفوري في «الاقتصادات الصناعية والزراعية لروسيا التي ستصاب بالشلل على نحو متزايد وتخرج من الخدمة. وسوف يقضي ذلك على كل الآمال التي كانت تحدو ألمانيا لتوظيف الإنتاج الروسي بعقلانية لمصلحتها، وسيكون لهذا التطور -من هذا المنظور- تأثير حاسم على نتيجة

(1) T. Imlay, 'A Reassessment of Anglo-French Strategy during the Phony War, 1939–1940', *English Historical Review* 119.481 (2004), 337–8.

(٢) استغربت هذا الوصف، وأرسلت إلى المؤلف ألتمس مزيدًا من الإيضاح بصدد هذا الوصف؛ فأفادني بأن هذا الوصف لزم هذا الوزير بسبب الشبه بينه وبين الخنزير سواء من حيث البنية أو الشكل. (المترجم)

(3) First Lord's Personal Minute, 17 November 1939, ADM 205/2. See here Imlay, 'Reassessment of Anglo-French Strategy', 338, 354–9.

(4) Imlay, 'Reassessment of Anglo-French Strategy', 364.

الحرب». وأضحى المخططون الفرنسيون والبريطانيون على قناعة بأن تدمير منشآت النفط الروسية هي الطريقة المثلى لنزع فتيل التهديد الذي باتت تمثله ألمانيا[1].

وقد أُبطلت مثل هذه الخطط للعمل المشترك عندما شن هتلر هجومًا خاطفًا على فرنسا. بدا الهجوم الألماني -في أعين عدد كبير من الناس- وكأنه عمل تكتيكي عبقري، حيث التف الألمان على نهايات الدفاعات الفرنسية على حين غرة من خلال سلسلة من العمليات المبهرة، التي جرى التخطيط لها بدقة مسبقًا، ونفذها جيش متمرس بالقتال ولديه خبرة واسعة في احتلال الأراضي الأجنبية. بيد أن الحق -كما أظهرت البحوث الأخيرة- أن نجاح الجيش الألماني في فرنسا يرجع إلى حد كبير إلى عامل الصدفة؛ ذاك أن هتلر فقد أعصابه غير مرة، وأصدر تعليماته لقواته بالتوقف والاحتفاظ بمواقعها، ثم فوجئ بأن الأوامر لم تصل إلى قادة الفرق إلا بعد أن تجاوزوا الأماكن التي كان يجب أن يتوقفوا فيها بأميال؛ فقد أُعفي هاينز جودريان (Heinz Guderian) -وكان قائد دبابة من بروسيا- من منصبه بسبب عصيانه الأوامر بعد أن استمر في التوغل، على الرغم من أن الأمر الذي يلزمه الثبات في موقعه لم يصله قط. في تلك الأثناء، كان هتلر يشعر بالذعر؛ حيث كان يخشى أن تكون قواته قد علقت في كمين لا وجود له إلا في رأسه، حتى إنه كان قاب قوسين أو أدنى من الانهيار العصبي[2]. وكان التقدم السريع بمثابة جائزة مستحقة لمقامر تغلب على الصعاب.

انتهى عصر الإمبراطورية لأوروبا الغربية مع الحرب العالمية الأولى. وبدلًا من الموت البطيء، كانت ألمانيا على وشك توجيه ضربة قاضية لتلك الإمبراطوريات. وبينما كانت القوات الجوية الملكية تستعد للانطلاق في السماء من أجل معركة بريطانيا، دوت أصوات الانفجارات العالية معلنة نهاية حقبة. وكان الوزير الألماني في كابول يتنبأ بأن هتلر سيدخل لندن بنهاية الصيف. واستعدادًا للانهيار التام للإمبراطورية البريطانية، قُدِّمت مقترحات ملموسة لشخصيات بارزة في الحكومة الأفغانية، تقضي بأنه إذا تخلت أفغانستان عن الحياد الذي أعلنته في بداية الحرب، فإن ألمانيا تعدها بالتنازل عن جزء كبير من شمال غرب الهند وكذلك ميناء كراتشي عندما يسقط في حجرها. وكان ذلك العرض مغريًا حقًا؛ حتى إن المبعوث البريطاني في كابول أدرك أن السفينة البريطانية «بدت وكأنها تغرق»، وأن الرهان على أنها «ستظل طافية» يحتاج إلى جسارة وإيمان. وكان اتخاذ خطوات مثل خفض تكاليف الشحن لمحاصيل القطن الأفغانية للتأكد من أن الاقتصاد المحلي لن ينهار بمثابة أضعف الإيمان، وأدنى إيماءة رمزية دالة على مدى محدودية خيارات بريطانيا. ومع ذلك فقد تماسك الأفغان في هذه اللحظة الحاسمة، أو فلنقل: أظهروا التردد، ولم يراهنوا على ألمانيا على الفور[3].

---

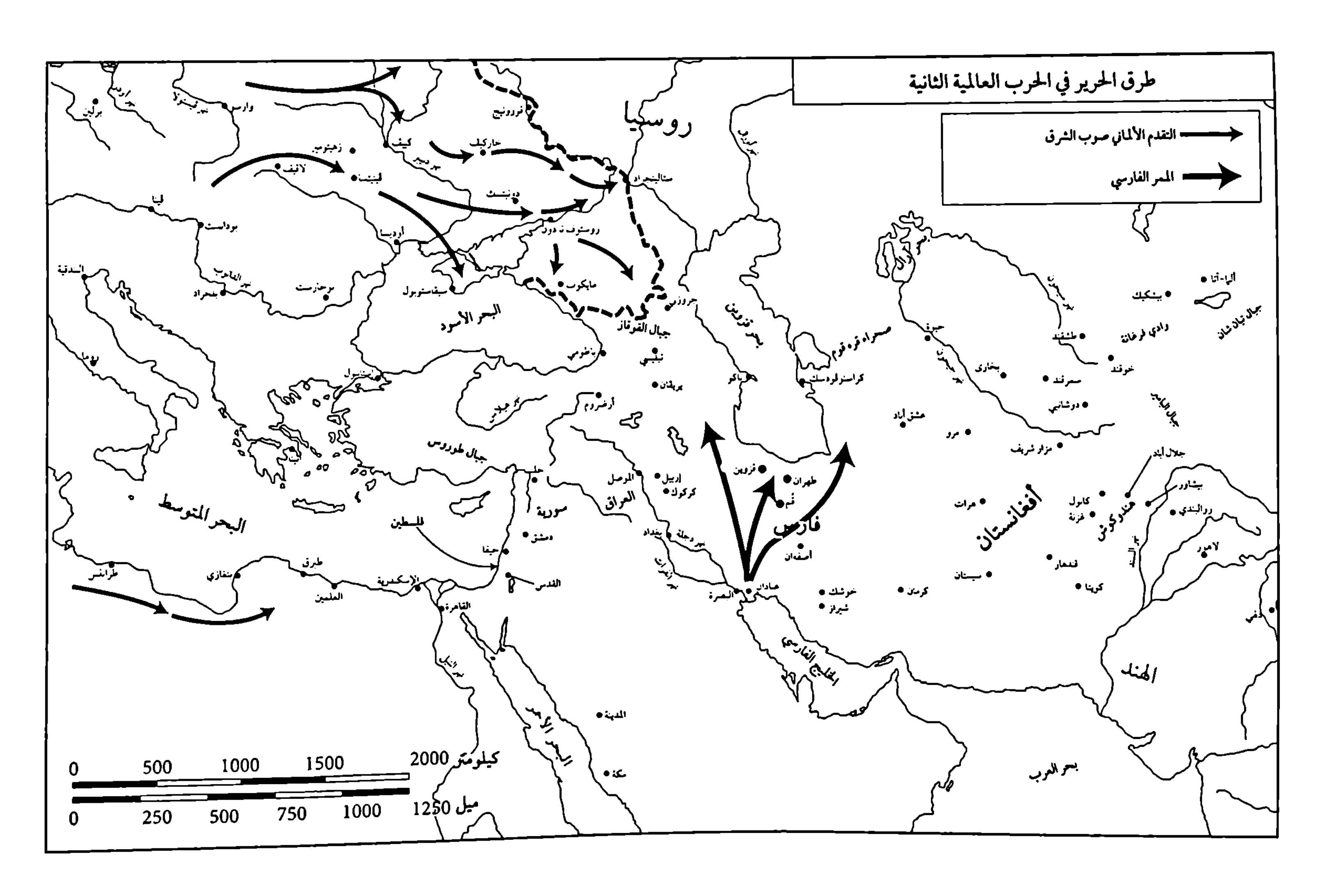
(1) CAB 104/259, 'Russia: Vulnerability of Oil Supplies', JIC (39) 29 revise, 21 November 1939; Imlay, 'Reassessment of Anglo-French Strategy', 363–8.

(٢) عن جودريان (Guderian) وفقدان هتلر المتكرر لأعصابه، انظر:

K. H. Frieser, *Blitzkrieg-Legende. Der Westfeldzug 1940* (Munich, 1990), pp. 240–3, 316–22.

(٣) انظر:

M. Hauner, 'Afghanistan between the Great Powers, 1938–1945', *International Journal of Middle East Studies* 14.4 (1982), 487; =



طرق الحرير في الحرب العالمية الثانية
التقدم الألماني صوب الشرق
الممر الفارسي
روسيا
البحر الأسود
بحر قزوين
جبال القوقاز
جبال طوروس
البحر المتوسط
سورية
العراق
فارس
أفغانستان
الهند
الخليج الفارسي
البحر الأحمر
بحر العرب
ستالينجراد
كييف
خاركيف
فورونيج
سيفاستوبول
مايكوب
باكو
تبليسي
أرضروم
الموصل
كركوك
اربيل
بغداد
البصرة
عبادان
طهران
قزوين
قم
أصفهان
شيراز
كرمان
هرات
قندهار
كابول
غزنة
بيشاور
جلال أباد
مرو
بخارى
سمرقند
طشقند
دمشق
حيفا
القدس
فلسطين
القاهرة
الإسكندرية
العلمين
طبرق
بنغازي
طرابلس
المدينة
مكة
برلين
وارسو
كيلومتر
ميل
0 500 1000 1500 2000
0 250 500 750 1000 1250

وبحلـول صيف عـام ١٩٤٠، كانت بريطانيا وإمبراطوريتها ما تزال متمسـكة بأهـداب الحياة. لقد جعلت جرة قلم -في الساعات الأولى من الصيف في موسكو، عندما أُبرمت اتفاقية بين ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي الشيوعي- العالم يبدو مختلفًا للغاية، وبوتيرة متسارعة. وكان المستقبل يكمن في سلسـلة جديدة من الاتصالات التي من شـأنها أن تربط برلين بالاتحاد السـوفيتي وبعمق آسـيا، وشـبه القارة الهندية، والتي سـتعيد توجيه التجارة والموارد بعيدًا عن أوروبا الغربية، وسـتدفع بها إلى مركز القارة.

ومع ذلك، فقد اعتمدت عملية إعادة توجيه هذه الموارد على الدعم المستمر والمتسق من الاتحاد السوفيتي. وعلى الرغم من تدفق السلع والمواد على ألمانيا في الأشهر التي أعقبت غزو بولندا، إلا أن الأمر لم يسِـر على نحو سـلس دائمًا. فقد شـاب المفاوضات قدر من التوتر، لا سـيما متى تعلق الأمر بالقمح والنفط- وهما موردان اشتد طلب ألمانيا عليهما. وأشرف ستالين بنفسه على هذه المفاوضات، وكان يقرر ما إذا كان ينبغي السـماح للألمان باسـتلام الشـحنة المطلوبة المكونة من ٨٠٠ ألف طن من النفـط، أو كميـة أقـل بكثيـر، وبأية شـروط. وكانت مناقشـة الشـحنات -كل على حدة- أمـرًا محفوفًا بالمخاطر، ويستغرق وقتًا طويلًا، ومصدر قلق شبه دائم للمخططين الألمان[1].

ولـم يكن من المستغرب أن تدرك وزارة الخارجية الألمانية مدى هشـاشة الوضع، فأصدرت تقارير تؤكد على مخاطر الاعتماد المفرط على موسـكو؛ ذاك أنه إذا حدث خطأ ما لأي سـبب من الأسـباب، من قَبيل تغيير القيادة، أو العناد، أو الخلاف التجاري البسـيط، فسـوف ينكشـف ظهر ألمانيا. وكان هذا أكبر تهديد لسلسلة النجاحات العسكرية المذهلة لهتلر في أوروبا[2].

* * *

كان هـذا الشـعور بالانزعاج والارتياب هـو الحافز الذي أدى إلى اتخاذ ألمانيا قرارًا كلفها أرواح ملايين الجنود من أبنائها، وملايين الروس، وملايين اليهود؛ إنه قرار غزو الاتحاد السـوفيتي. فعندما أعلن هتلر عن مشـروعه الأخير في نهاية تموز (يوليو) ١٩٤٠، زخرفه بمعركة أيديولوجية على نحو نموذجي. لقد حان الوقت لاغتنام الفرصة، كما قال للجنرال جودل (Jodl)، للقضاء على البلشفية[3].

= عن التخفيض المقترح في تكاليف الشحن، انظر:

Ministry of Economic Warfare, 9 January 1940, FO 371/24766.

(1) Ericson, *Feeding the German Eagle*, pp. 109–18.

(2) Fritz, *Ostkrieg*, pp. 38–41.

(3) J. Förster, 'Hitler's Decision in Favour of War against the Soviet Union', in H. Boog, J. Förster et al. (eds), *Germany and the Second World War*, vol. 4: *The Attack on the Soviet Union* (Oxford, 1996), p. 22;

وانظر أيضًا:

Kershaw, *Nemesis*, p. 307.

والحق، أن البلشفية لم تكن بيت القصيد، ما كان على المحك هو المواد الخام، والطعام في المقام الأول.

لم يكن الجيش الألماني وحده -هو الذي عكف على العمل على لوجستيات الغزو في النصف الثاني من عام ١٩٤٠ ومستهل عام ١٩٤١- بل كان المخططون الاقتصاديون أيضًا، وعلى رأسهم هربرت باك (Herbert Backe)، وكان خبيرًا في الزراعة، انضم إلى الحزب النازي في أوائل العقد الثالث من القرن العشرين، وما زال يرتقي في الرتب، حتى أصبح محسوبًا على ريتشارد داره (Richard Darre`)، وزير الغذاء والزراعة. وأدى تفاني باك في سبيل القضية النازية، إلى جانب خبرته في الزراعة، إلى زيادة تأثيره في إصلاحات العقد الرابع من القرن العشرين التي نظمت الأسعار، ووضعت قيودًا على أسواق الاستيراد والتصدير[1].

كان باك مهووسًا بفكرة أن حل جميع مشكلات ألمانيا قد يكون في روسيا. فمع توسع الإمبراطورية الروسية، تحولت السهوب ببطء من موطن للرعاة الرحل إلى سلة خبز مثالية، حقول ممتدة من الغلال عبر سهول منبسطة على مد البصر. وكانت التربة ثمة خصبة على نحو استثنائي، ولا سيما في المناطق التي اكتست فيها التربة باللون الداكن بسبب غناها بالمعادن. وأرسلت الأكاديمية الروسية للعلوم عددًا من البعثات لاستكشاف حزام الأراضي الممتد من البحر الأسود إلى جوف آسيا الوسطى، وأبلغت تلك البعثات بحماس أنها وجدت الظروف مناسبة -على نحو مثالي- للزراعة الكثيفة عالية الإنتاجية[2].

ونمت الزراعة في جنوب روسيا وأوكرانيا بسرعة فائقة قبيل ثورة ١٩١٧، مدعومة بالطلب المحلي المتزايد، كما حفزتها زيادة الصادرات، والبحث العلمي في أفضل أنواع سلالات القمح، وكيفية تعظيم المحاصيل من الأراضي التي رعى فيها البدو الماشية لآلاف السنين[3]. ولم يكن أحد يعرف إمكانات السهوب، التي توسعت في الإنتاج بسرعة كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أفضل من هربرت باك. لقد كانت الغلال الروسية مجال خبرته، وموضوع أطروحته للدكتوراه[4]. وقاد باك -الذي كان رجلًا نحيلًا، ضعيف البنية، متأنقًا، يرتدي نظارة- فرقًا أخرجت عددًا من المسودات

---

(1) Corni, *Hitler and the Peasants*, pp. 126–7, 158–9, 257–60.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

H. Backe, *Die Nahrungsfreiheit Europas: Großliberalismus in der Wirtschaft* (Berlin, 1938).

(2) V. Gnucheva, 'Materialy dlya istorii ekspeditsii nauk v XVIII i XX vekakh', *Trudy Arkhiva Akademii Nauk SSSR* 4 (Moscow, 1940), esp. 97–108.

(3) M. Stroganova (ed.), *Zapovedniki evropeiskoi chasti RSFSR* (Moscow, 1989); C. Kremenetski, 'Human Impact on the Holocene Vegetation of the South Russian Plain', in J. Chapman and P. Dolukhanov (eds), *Landscapes in Flux: Central and Eastern Europe in Antiquity* (Oxford, 1997), pp. 275–87.

(4) H. Backe, *Die russische Getreidewirtschaft als Grundlage der Land- und Volkswirtschaft Rußlands* (Berlin, 1941).

تناولت أهداف الغزو وغاياته. كما أكد باك لهتلر، أن أوكرانيا هي المفتاح؛ فالسيطرة على السهول الزراعية الغنية التي تمتد عبر شمال البحر الأسود وعلى بحر قزوين في الماضي «ستحررنا من جميع الضغوط الاقتصادية»[1]. وستغدو ألمانيا قوة «لا تُقهر» إذا كان بوسعها أن تقتطع أجزاء من الاتحاد السوفيتي الذي كان يمتلك «ثروات هائلة»[2]. لقد ولى زمن الاعتماد على حسن نية الاتحاد السوفيتي، وعلى قيادته غريبة الأطوار؛ وسيجري تحييد آثار الحصار البريطاني على البحر المتوسط وبحر الشمال إلى حد كبير. وكانت هذه فرصة لتزويد ألمانيا بجميع الموارد التي تحتاجها.

وكانت هذه هي الطريقة التي تحدث بها هتلر حول ما كان على المحك بعد أن بدأ الهجوم في النهاية في صيف عام ١٩٤١. فعندما تحركت القوات الألمانية شرقًا بسرعة مذهلة في الأيام الأولى من الغزو، كان الفوهرر يبذل جهدًا للسيطرة على حماسه. وكان يؤكد للمحيطين به -في غمرة شعوره بالسعادة- أن ألمانيا لن تبرح هذه الأرض التي احتلتها حديثًا؛ وستصبح هذه «هِنْدَنا»، أو «جنة عدن خاصتنا»[3].

ولم يكن لدى جوزيف جوبلز (Joseph Goebbels) -وكان وزير الدعاية في حكومة الرايخ- أدنى شك في أن الهجوم برمته كان متعلقًا بالموارد، ولا سيما القمح والغلال. فأعلن -بأسلوبه الجامد والقاسي- في مقال كتبه عام ١٩٤٢، أن الحرب قد بدأت من أجل «الغلال والخبز، من أجل مائدة فطور، وغداء، وعشاء جيدة التجهيز». كان هذا وحده هدف الحرب الألماني، واستطرد قائلًا: إن الاستيلاء على «الحقول الشاسعة في الشرق [التي] تتموج بلون القمح الذهبي كافٍ -بل أكثر من كاف- لإطعام شعبنا، وجميع شعوب أوروبا»[4].

وكانت هناك حقيقة ملحة وراء تعليقات مثل هذه؛ حيث وجدت ألمانيا نفسها تعاني نقصًا متزايدًا من المواد الغذائية والإمدادات، مع إخفاق شحنات الغلال السوفيتية في الحد من مشكلات التموين

---

(1) Bundesarchiv-Militärarchiv, RW 19/164, fo. 126,

نقلًا عن:

Kay. *Exploitation*, pp. 211, 50.

(٢) نقلاً عن:

Hillgruber. *Hitlers Strategie: Politik und Kriegführung 1940–1941* (Frankfurt-am-Main, 1965), p. 365.

(3) 'Geheime Absichtserklärungen zur künftigen Ostpolitik: Auszug aus einem Aktenvermerk von Reichsleiter M. Bormann vom 16.7.1941', in G. Ueberschär and W. Wette (eds), *Unternehmen Barbarossa: Der deutsche Überfall auf die Sowjetunion, 1941: Berichte, Anaylsen, Dokumente* (Paderborn, 1984), pp. 330–1.

(4) G. Corni and H. Gies, *Brot- Butter- Kanonen. Die Ernährungswirtschaft in Deutschland unter der Diktatur Hitlers* (Berlin, 1997), p. 451; R.-D. Müller, 'Das "Unternehmen Barbarossa" als wirtschaftlicher Raubkrieg', in Ueberschär and Wette, *Unternehmen Barbarossa*, p. 174.

المزمنة. وفي فبراير (شباط) ١٩٤١، على سبيل المثال، كانت الإذاعة الألمانية تبث خبرًا مفاده أن هناك نقصًا في المواد الغذائية في جميع أنحاء أوروبا نتيجة للحصار التجاري الذي يفرضه البريطانيون. وكانت الإذاعة الألمانية قد وصفت هذا الحصار سابقًا بأنه ليس أقل من «اضطراب عقلي»، أو «خرف بريتانيكا»، كما أشار المذيعون إليه[1]. وبحلول صيف عام ١٩٤١، كان جوبلز يسجل -في مذكراته- أن أرفف المتاجر في برلين باتت فارغة؛ وأنه يندر أن يجد المرء خضروات معروضة للبيع ثمة. وتسبب هذا النقص في تذبذب الأسعار، كما أدى إلى ازدهار السوق السوداء، الأمر الذي زاد من مخاوف السكان المدنيين المنزعجين الذين بدؤوا في التساؤل عن فوائد التوسع الألماني، وهو التطور الذي أصاب رئيس دعاية هتلر بالتوتر الشديد[2]. وعلى حد تعبير أحد المسؤولين المحليين الذي لحظ في دائرته أن «الرجال والنساء المرهقين والمستنفدين، باتوا لا يرون سببًا لاستمرار الحرب في آسيا وإفريقيا». سرعان ما تحولت الأيام السعيدة إلى ذكرى بعيدة[3].

قدَّم باك -ومرؤوسيه من المحللين- الحل. كان باك نفسه يعاني من صعوبة ملاحقة الوضع الغذائي المتدهور داخل ألمانيا في تقريره السنوي عن الإمداد والتموين في نهاية عام ١٩٤٠. بل وجاهر بالفعل -في اجتماع عقده وزراء الدولة في يناير ١٩٤١ مع هيرمان جورنج (Hermann Goring) -بوصف الأخير منسقًا لـ خطة السنوات الأربع- إلى حد التحذير من أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يجري تقنين اللحوم، وهي خطوة رُفضت مرارًا خوفًا من فقدان الدعم ليس للحرب فحسب، بل للنازيين أنفسهم[4].

وكان اقتراح باك جذريًّا: لما كان الاتحاد السوڤيتي يضم أراض واسعة ومتنوعة من حيث الجغرافيا والمناخ، فبوسعنا تقسيمه بخط واضح صريح. فإلى الجنوب، تغطي أوكرانيا وجنوب روسيا والقوقاز الحقول والموارد التي شكلت منطقة «الفائض». وإلى الشمال، أي وسط وشمال روسيا وبيلاروسيا ودول البلطيق، كانت هناك منطقة «العجز». ورأى باك، أن أولئك الموجودون على أحد جانبي الخط ينتجون الطعام لأولئك الذين يسكنون على الجانب الآخر، فيستهلكونه على الفور. وكان حل مشكلات ألمانيا يكمن في التركيز على التعامل مع الجانب الأول، وترك الثاني لمصيره. ومن ثم ينبغي الاستيلاء على منطقة «الفائض»، وتصدير إنتاجها إلى ألمانيا. أما منطقة «العجز» فكان من المقرر فصلها. وأما مسألة ما إذا كان سكان الجانب الآخر سيموتون جوعًا، أو كيف سيعيشون، فلم تكن مسألة ذات بال. لقد كانت خسارة الجانب المستهلك مكسبًا لألمانيا.

---

(1) German radio broadcast, 27 February 1941, Propaganda Research Section Papers, 6 December 1940, Abrams Papers, 3f 65; 3f 8/41.

(2) *Die Tagebücher von Joseph Goebbels*, ed. E. Fröhlich, 15 vols (Munich, 1996), 28 June 1941, *Teil I*, 9, p. 409; 14 July, *Teil II*, 1, pp. 63–4.

(3) Kershaw, *Nemesis*, pp. 423–4.

(٤) مراسلات باك الخاصة، نقلاً عن:

G. Gerhard, 'Food and Genocide: Nazi Agrarian Politics in the Occupied Territories of the Soviet Union', *Contemporary European History* 18.1 (2009), 56.

جرى توضيح حقيقة ما يعنيه هذا في اجتماع عُقد في برلين قبل أسابيع فحسب من إطلاق عملية بربروسا (Barbarossa)، وهو الاسم الرمزي الذي اختير لعملية غزو الاتحاد السوفيتي. ففي الثاني من مايو (آيار) ناقش المخططون الألمان الأولويات والنتائج المتوقعة للهجوم؛ وكان ينبغي على الجيوش الألمانية حصاد الأرض التي تحتلها لإقاتة نفسها بنفسها مع استمرارها في التوغل؛ وكان من المتوقع أن تبدأ الأرض الموعودة بالإنتاج منذ البداية. وكان من المقرر تزويد الفيرماخت (القوات المسلحة الألمانية) باحتياجاتها من الغذاء من روسيا منذ اللحظة التي يعبر فيها الجنود الألمان خط الحدود.

كما تطرق الاجتماع إلى مناقشة تأثير الغزو على أولئك الذين يعيشون في منطقة «العجز»؛ حيث كان من المقرر فصلهم عن منطقة «الفائض» بضربة واحدة. وفي واحدة من أكثر الوثائق التي تقشعر لها الأبدان في تاريخ البشرية، ذكر محضر الاجتماع ببساطة: «سيتضور (س) مليون شخص جوعًا بلا أدنى شك، إذا ما جرى انتزاع القدر الضروري لنا من الأرض»[1]. وكانت هذه الوفيات هي الثمن الذي يجب دفعه مقابل قدرة ألمانيا على إطعام نفسها. وكان موت هذه الملايين عرضًا جانبيًا، وضحايا ضروريين لنجاح ألمانيا، وبقائها على قيد الحياة.

ثم تطرق الاجتماع إلى النظر في المشكلات اللوجستية الأخرى لضمان سير الأمور بسلاسة. وكان من المقرر تأمين الشرايين الرئيسة التي تربط السهول الزراعية بالبنية التحتية للنقل، لتمكين إعادة شحن المواد إلى ألمانيا. وكذلك امتدت المناقشات إلى الزي الذي يجب أن يرتديه القادة الزراعيون الذين سيشرفون على حصاد المحاصيل، وجمعها، وغرس البذور في المستقبل القريب، فكان من المقرر أن يضعوا خطوطًا فضية رمادية على أكمام ملابسهم المدنية. وإجمالًا كان الاجتماع حالة اختلط فيها الدنيويون بالقتلة، على حد وصف أحد العلماء البارزين[2].

وبُذلت جهود حثيثة لتحديد عدد الضحايا المحتملين -في الأسابيع الثلاثة التي تلت ذلك الاجتماع- للاستعاضة بعدد تقريبي عن قيمة «س مليون» المقدرة من الضحايا الذين توقع المجتمعون موتهم في منطقة «العجز». وفي ٢٣ مايو (آيار) صدر تقرير من عشرين صفحة، كان في الأساس شكلًا محدَّثًا من الاستنتاجات التي جرى التوصل إليها بالفعل في الاجتماع السابق. ووفقًا لهذا التقرير، كان من المقرر فصل منطقة «الفائض» في الاتحاد السوفيتي، وحصاد الغلال وسائر المنتجات الزراعية الأخرى وتحويلها إلى ألمانيا. وكما نوقش في الاجتماع السابق في برلين، سيعاني أهل البلاد من العواقب. وقد جرى توضيح هذه الأمور آنذاك، مع وضع تقدير مفتوح لأعداد الضحايا المحتملة. «إن عشرات الملايين من الناس في هذه المنطقة لا جدوى منهم، وسيموتون، أو ينبغي أن يُهجَّروا إلى

(1) 'Aktennotiz über Ergebnis der heutigen Besprechung mit den Staatssekretären über Barbarossa', in A. Kay, 'Germany's Staatssekretäre, Mass Starvation and the Meeting of 2 May 1941', *Journal of Contemporary History* 41.4 (2006), 685-6.

(2) Kay, 'Mass Starvation and the Meeting of 2 May 1941', 687.

سيبيريا. إن محاولات إنقاذ السكان هناك من الموت بسبب الجوع لا يمكن أن تكون إلا على حساب إمداد أوروبا. وهم يحولون دون أن تصمد ألمانيا حتى نهاية الحرب»[1]. وعلى هذا النحو لم يكن الهجوم متعلق بالنصر في الحرب فحسب. بل كان مسألة حياة أو موت حرفيًا.

وعلى الرغم من أنه لم تصلنا قائمة بأولئك الذين حضروا اجتماع ٢ مايو (آيار)، إلا أن بصمات باك واضحة على جدول الأعمال والخلاصات. لقد كان يحظى بتقدير كبير من هتلر، وكذلك من قادته. وسجلت زوجة باك في مذكراتها، طلب الزعيم الألماني نصيحته قبل كل شيء خلال جلسات الإحاطة للتخطيط للغزو. ثم كانت هناك المقدمة المنقحة لأطروحته التي نُشرت أخيرًا في صيف عام ١٩٤١. وجاء فيها: لقد أخفقت روسيا في استخدام مواردها كما ينبغي، وإذا استولت عليها ألمانيا، فمن المؤكد أنها ستستغلها بكفاءة أكبر[2].

أما الملحوظة الأكثر دلالة في هذا الصدد، فكانت ملحوظة قصيرة كتبها باك في الأول من يونيو عام ١٩٤١، أي قبل ثلاثة أسابيع من الغزو فحسب؛ حيث كتب قائلًا: إن الروس ليسوا بحاجة إلى التعاطف معهم بصدد ما هم على وشك تجربته. واستطرد: «لقد عانى الروس بالفعل من الفقر، والجوع، والأزمات الاقتصادية لعدة قرون ... لا تحاول اتخاذ مستوى المعيشة الألماني [معيارًا لك] وتغيير طريقة حياة الروس». ثم أردف قائلًا: إن المعدة الروسية «قابلة للمط». ومن ثم فإن الشفقة على أولئك الذين سيتضورون جوعًا لن تكون في محلها[3]. لقد أثار وضوح تفكير باك إعجاب غيره -كما لحظ جوبلز- في مذكراته التي كتبها في أثناء تسارع وتيرة الاستعدادات للهجوم على الاتحاد السوفيتي. فكتب قائلًا: إن باك يسيطر على رجاله بطريقة بارعة، فتحت قيادته، يجري إنجاز كل شيء يمكن إنجازه[4].

---

(1) 'Wirtschaftspolitische Richtlinien für Wirtschaftsorganisation Ost, Gruppe Landwirtschaft', 23 May 1941, in *Der Prozess gegen die Hauptkriegsverbrecher vor dem Internationalen Militärgerichtshof, Nürnberg 14 November 1945– 1 October 1946*, 42 vols (Nuremberg, 1947–9), 36, pp. 135–7.

وصدر تقرير مماثل بعد ثلاثة أسابيع في ١٦ يونيو (حزيران)، انظر:

Kay, *Exploitation*, pp. 164–7.

(2) Backe, *Die russische Getreidewirtschaft*,

نقلًا عن:

Gerhard, 'Food and Genocide', 57–8;

وانظر أيضًا:

Kay, 'Mass Starvation', 685–700.

(3) H. Backe, '12 Gebote für das Verhalten der Deutschen im Osten und die Behandlung der Russen', in R. Rürup (ed.), *Der Krieg gegen die Sowjetunion 1941–1945: Eine Dokumentation* (Berlin, 1991), p. 46; Gerhard, 'Food and Genocide', 59.

(4) *Die Tagebücher von Joseph Goebbels*, 1 May 1941, *Teil I*, 9, pp. 283–4.

ولم تغب أهمية (ما ينتظرنا) عن أذهان المشاركين في التخطيط. فقد تنبأ جوبلز -في مذكراته- أنه ستكون هناك مجاعة ونقص في الغذاء في شتاء عام ١٩٤١؛ حتى إن المجاعات الأخرى كافةً لن تُعد شيئًا عند مقارنتها بالمجاعة المتوقعة. واستطرد قائلًا: إن هذه لن تكون مشكلتنا، فثم أدلة واضحة على أن الروس هم الذين سيعانون المجاعة، وليس الألمان[١]. وإذا افترضنا أن الألمان كانوا يولون عناية للإنصات إلى البث الإذاعي السوفيتي، بقدر عنايتهم بالإنصات للبث الإذاعي البريطاني، فإن جوبلز كان سيبتهج حتمًا بالأخبار التي بُثّت قبل نحو ثلاثة أيام من بدء الغزو حيث ورد في التقرير الإذاعي: «في وسط روسيا، تبدو الحقول وكأنها سجادة خضراء؛ وفي الجنوب الشرقي استوى القمح على سوقه». لقد بدأ الحصاد للتو، ويبدو أنه محصول وفير[٢].

ومع وصول الاستعدادات للهجوم إلى مراحله النهائية، صدرت تعليمات صارمة لضباط الجيش وجنوده، فضلًا عن كبار الضباط، وقد حُفرت في أذهانهم حفرًا. ووفقًا لـ فرانز هالدر (Franz Halder) -وهو الجندي البافاري الذي ترقى بسرعة البرق في صفوف الفيرماخت- فإن هتلر كان صريحًا وقاطعًا كما هي عادته دائمًا؛ حيث قال لجنرالاته في مارس (آذار) ١٩٤١: إن هذه معركة نخوضها حتى النهاية. وينبغي استخدام القوة في روسيا «بأشد أشكالها وحشية». وإن من المفترض أن تكون هذه الحرب «حرب إبادة. ويجب أن يعرف قادة القوات القضايا المطروحة». وفيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي قال هتلر: «إن القسوة اليوم، تعني الرحمة في المستقبل»[٣].

وصيغ كل هذا في مايو (آيار) ١٩٤١، ففي ذلك الوقت أُعدت إرشادات حملت عنوان: إرشادات لسلوك القوات في روسيا»، وعُمّمت على أولئك المشاركين في الغزو. وأُدرجت فيها التهديدات المتوقعة من «المحرضين» و «الحزبيين» و «المخربين» واليهود، موضحة للجنود الألمان أنهم لا ينبغي لهم أن يثقوا بأحد، أو أن يرحموا أحدًا[٤]. كما صدرت الأوامر تصف كيفية السيطرة على الأراضي المحتلة؛ فكان من المقرر تفعيل العقوبة الجماعية في حالة التمرد، أو المقاومة. كما كان من المقرر محاكمة من يُشتبه بتورطهم في العمل ضد المصالح الألمانية على الفور، وإطلاق النار عليهم فورًا متى ثبتت إدانتهم، بغض النظر عما إذا كانوا عسكريين أو مدنيين[٥].

---

(1) Ibid., 9 July 1941, *Teil II*, 1, pp. 33–4.

(2) Russian radio broadcast, 19 June 1941, Propaganda Research Section Papers, Abrams Papers, 3f 24/41.

(3) F. Halder, *The Halder War Diary*, ed. C. Burdick and H.-A. Jacobsen (London, 1988), 30 March 1941, pp. 345–6.

(4) 19 May 1941, *Verbrechen der Wehrmacht: Dimensionen des Vernichtungskrieges 1941–1945. Ausstellungskatalog* (Hamburg 2002), pp. 53–5.

(5) 'Ausübund der Kriegsgerichtsbarkeit im Gebiet "Barbarossa" und besondere Maßnahmen Truppe', 14 May 1941, in H. Bucheim, M. Broszat, J.-A. Jacobsen and H. Krasunick, *Anatomie des SS-Staates*, 2 vols (Olten, 1965), 2, pp. 215–18.

أخيرًا، صدرت سلسلة من التوجيهات، من بينها ما يسمى بـ «أمر المفوض Commissar Order»؛ حيث حذر ذلك الأمر مما يُتوقَّع أن تواجهه القوات، على هيئة رسومات مصورة؛ فمن من المرجح أن يتصرف العدو بطريقة تتعارض مع مبادئ القانون الدولي والإنسانية؛ حيث يقاتل المفوضون (Commissars) -وهو اختصار للنخبة السياسية السوفيتية- بطرق لا يمكن وصفها إلا بأنها «بربرية وآسيوية». ومن ثم لا ينبغي لكم أن ترحموهم[1].

(1) 'Richtlinien für die Behandlung politischer Kommissare', 6 June 1941, in Bucheim et al., *Anatomie des SS-Staates*, pp. 225–7.

-٢٠-

الطريق إلى الإبادة الجماعية

كان التوجيه الذي أُرسِل إلى الضباط والجنود الألمان -قُبيل الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي- متسقًا وقاسيًا، يقضي بأن كل شيء بات معتمدًا على الاستيلاء على حقول القمح في الجنوب. وقيل للجنود: ينبغي أن تتصوروا أن كل لقمة يأكلها المواطنون السوفيت قد انتُزعت من أفواه الأطفال الألمان[١]. وأخبر كبار القادة ضباطهم وجنودهم بأن مستقبل ألمانيا يتوقف على نجاحهم. كما أخبر الكولونيل-الجنرال إريك هوبنر (Erich Hoepner) فرقته من البانزر -في أمر عملياتي- قبل بدء عملية بربروسا مباشرة: «لابد من سحق روسيا واجتثاثها» بقوة غير مسبوقة. وينبغي أن يُنفَّذ كل عمل عسكري -سواءً من حيث التصور أو التنفيذ- بإرادة من حديد، وبلا رحمة، وأن يهدف للقضاء على العدو، واجتثاثه من على ظهر الأرض»[٢]. وجرت خلطة مكونة من ازدراء السلاف، وكراهية البلشفية، ومعاداة السامية في عروق الضباط الألمان مجرى الدم. واختلطت هذه المكونات معًا، «فكانت أشبه بالخميرة الأيديولوجية التي أدت إلى تحويل الجنرالات -بسهولة- إلى «أدوات للقتل الجماعي» على حد تعبير أحد المؤرخين البارزين[٣].

وبينا كان هتلر يحث قواته على تنفيذ تلك التوجيهات المرعبة، أخذ يحلم بالمستقبل. لقد جال في خاطره أن شبه جزيرة القرم ستكون بمثابة «الريفيرا»[٤] للألمان؛ ويا حبذا لو ربط طريق سريع شبه الجزيرة في البحر الأسود بالديار حتى يتمكن كل ألماني من زيارتها بسيارته الخاصة (سيارة الشعب أو ڤولكس ڤاجن Volkswagen). ثم أخذ يُغرِب في أمنياته؛ فتمنى لو كان أصغر سنًّا؛ كي يتمكن من رؤية كيف يكون مآل الأمر؛ وكان يعتقد أن ذروة الإثارة -في العقود القادمة- ستفوته[٥]. وكان هيملر (Himmler) يفكر -بالمثل- من منظور وردي، حيث ستوجد «لآلئ المستوطنات» (Siedlungsperlen)،

---

(1) C. Streit, *Keine Kameraden. Die Wehrmacht und die sowjetischen Kriegsgefangenen 1941–1945* (Stuttgart, 1978), pp. 143, 153

(٢) نقلاً عن:

Kershaw, *Nemesis*, p. 359.

(3) Ibid., p. 360.

(٤) منطقة فرنسية معروفة بوصفها قبلة السائحين والزوار. (المترجم)

(5) Ibid., pp. 400, 435.

ويسكنها المستعمرون، وتحيط بها القرى التي ستكون موطنًا للمزارعين الألمان، الذين سيحصدون المحاصيل من الأرض السوداء الغنية(١).

وكان لدى هتلر -والمقربين منه- نموذجان لتوسيع قاعدة موارد ألمانيا. كان النموذج الأول هو الإمبراطورية البريطانية؛ ووفقًا له ستوطد ألمانيا دعائم وجودها في مناطق جديدة هائلة في الشرق، تمامًا كما فعلت بريطانيا في شبه القارة الهندية. وسيحكم عدد قليل من المستعمرين الألمان روسيا، تمامًا كما حكم عدد قليل من البريطانيين الهند البريطانية (الراج). وستنتصر الحضارة الأوروبية على الثقافة الأقل شأنًا ببساطة؛ لقد كانت القيادة النازية تستشهد بالبريطانيين في الهند -على نحو مستمر- بوصفهم نموذجًا للكيفية التي يسيطر بها قلة من الناس على شعوب بأسرها(٢).

كما كان هناك نموذج آخر دأب هتلر على الإشارة إليه على نحو منتظم أيضًا؛ حيث كان يرى فيه نموذجًا يُحتذى مثاله -في معرض بحثه عن مصدر إلهام له- وكان ذلك النموذج هو الولايات المتحدة. لقد كان على ألمانيا أن تتأسَّى بالمستوطنين الأوروبيين في العالم الجديد في فعلهم بالسكان الأمريكيين الأصليين، كما أخبر هتلر ألفريد روزنبرج (Alfred Rosenberg)، وزير الرايخ الذي كان قد عيَّنه -لتوِّه- لإدارة الأراضي الشرقية المحتلة. ووفقًا لذلك النموذج فإنه ينبغي طرد الأهالي، أو إبادتهم. وأعلن هتلر أن نهر الڤولغا سيكون «مسيسيبي» ألمانيا، أي بمثابة الحد الفاصل بين العالم المتحضر وما وراءه من فوضى. وقال: إن الشعوب التي استقرت في السهول الكبرى في أمريكا في القرن التاسع عشر، سوف تتزاحم -بكل تأكيد- لتستقر في الشرق. وتنبأ -واثقًا- بأن الألمان، والهولنديين، والاسكندنافيين، بل والأمريكيين أنفسهم سيجدون مستقبلهم ومكافآتهم على أرض الفرص الجديدة(٣). وكان النظام العالمي الجديد في طريقه للظهور بفضل حقول أوكرانيا، وجنوبي روسيا التي امتدت إلى أقصى الشرق. كما أعلن هتلر أن ما يجري على الأرض هو بمثابة النهاية للحلم الأمريكي، بقوله: «ستكون أوروبا -وليست أمريكا بعد الآن- أرض الاحتمالات اللامحدودة»(٤).

لم تبنِ حماسة هتلر على الآفاق التي كان حزام الأراضي بين البحر الأسود وبحر قزوين يعِد بها فحسب؛ ذاك أن الإشارات في كل مكان كانت تُشير إلى تحول جذري لصالح ألمانيا؛ فكان أحد فكي الكماشة الألمانية يتوغل باتجاه قلب العالم قادمًا من الشمال، بينما كان الفك الآخر يقترب قادمًا من الجنوب عبر شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وأدت سلسلة من الانتصارات الخاطفة في صحراء شمال

(1) W. Lower, *Nazi Empire Building and the Holocaust in Ukraine* (Chapel Hill, NC, 2007), pp. 171–7.

(2) A. Hitler, *Monologe im Führer-Hauptquartier 1941–1944*, ed. W. Jochmann (Hamburg, 1980), 17–18 September 1941, pp. 62–3; Kershaw, *Nemesis*, p. 401.

(٣) نقلاً عن:

Kershaw, *Nemesis*, p. 434.

(4) Hitler, *Monologe*, 13 October 1941, p. 78; Kershaw, *Nemesis*, p. 434.

إفريقيا في عام ١٩٤١ إلى اقتراب روميل (Rommel) وفيلق إفريقيا (Afrika Korps) من تخوم مصر، ومن ثم الاقتراب من السيطرة على قناة السويس الحساسة، في الوقت الذي انطلقت فيه عملية بربروسا. وفي غضون ذلك، أتاح انهيار فرنسا المجال أمام أسراب اللوفت واف (Luftwaffe) لاستغلال القواعد الجوية التي أنشأها الفرنسيون في سوريا والشام بعد أن احتلتهما في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ لتوسيع نفوذ ألمانيا أكثر فأكثر.

عندئذ تعلق مصير العالم بأرق الخيوط؛ وبدا أن التساؤل الرئيس كان يدور حول توقيت غزو الاتحاد السوڤيتي، وما إذا كان يمكن أن يفاجئ ستالين حقًّا. لقد كان ينبغي شن الهجوم بعد زراعة الغلال، وقُبيل حصادها، حتى تُقِيت القوات الألمانية نفسها من ذلك الحصاد في أثناء توغلها في روسيا. وكانت المفاوضات مع موسكو في عام ١٩٤٠ قد أدت بالفعل إلى شحن مليون طن من الغلال من الاتحاد السوڤيتي إلى ألمانيا، والكمية نفسها تقريبًا من النفط، إضافةً إلى كميات كبيرة من خامي الحديد والمنجنيز. وما أن تسلمت ألمانيا شحنة ضخمة أخرى في مايو ١٩٤١، حتى كانت عملية بربروسا على وشك الانطلاق[١].

* * *

اقترح المارشال تيموشينكو (Timoshenko) -وكان مفوض الدفاع- والجنرال جورجي زوكوف (Georgi Zhukov) على ستالين شن هجوم استباقي، تخوفًا من نوايا القوات الألمانية المحتشدة في الشرق في أوائل صيف عام ١٩٤١. ومن ثم تتقدم القوات السوڤيتية إلى وارسو، شمال بولندا وتحتل جزءًا من بروسيا. ووفقًا لروايتين متطابقتين، فقد رفض ستالين الخطة رفضًا باتًّا، وتساءل -على ما يبدو لنا- مُستنكرًا: «هل جُننت؟ أتريد استفزاز الألمان؟». ثم التفت إلى تيموشينكو، وقال: «انظروا... إن تيموشينكو يتمتع بصحة جيدة، ولديه رأس كبير. إلا أنها أجسام البغال وعقول العصافير». ثم تهدد قائد قواته قائلًا: «إذا استفززت الألمان على الحدود، أو حركت جنديًا واحدًا دون إذن مسبق منا، فضع نُصب عينيك أن رؤوسًا سيحين قطافها». ثم استدار، وخرج، وأغلق الباب خلفه[٢].

لم يكن موقف ستالين نابعًا من اعتقاده أن هتلر لن يهاجمه؛ كلا البتة، بل كان موقفه نابعًا من اعتقاده أن هتلر لن يجرؤ على الإقدام على ذلك في هذا التوقيت خاصةً. والحق أن السبب وراء إشراف ستالين شخصيًا على التجارة مع الإدارة النازية هو مراقبة الألمان عن كثب في أثناء إعادة بناء الجيش

---

(1) Ericson, *Feeding the German Eagle*, pp. 125ff.

(2) V. Anfilov, '. . . Razgovor zakonchilsia ugrozoi Stalina', *Voenno-istoricheskiy Zhurnal* 3 (1995), 41; L. Bezymenskii, 'O "plane" Zhukova ot 15 maia 1941 g.', *Novaya Noveishaya Istoriya* 3 (2000), 61.

وانظر في هذا الصدد:

E. Mawdsley, 'Crossing the Rubicon: Soviet Plans for Offensive War in 1940–1941', *International History Review* 25 (2003), 853.

السوفيتي وتحديثه سريعًا. لقد كان ستالين واثقًا كل الثقة من أنه لا يزال يحمل في جعبته جميع أوراق الضغط، حتى عندما وردت تقارير استخباراتية من عملاء له في برلين، وروما، بل وفي طوكيو أيضًا؛ فضلًا عن التحذيرات والإشارات التي صدرت من السفارات الأجنبية في موسكو، وكلها تفيد بأن هجوم الألمان بات وشيكًا، ظل ستالين يكذِّب كل هذه التحذيرات ببساطة(١). ويلخص رد فعل ستالين على تقرير ورد من جاسوس للاستخبارات السوفيتية -كان قد زُرِع داخل مقر القوات الجوية الألمانية- قبل خمسة أيام فحسب من بدء الغزو موقفه الصارم تمامًا؛ حيث علق كتابةً قائلًا: «أخبر مصدرك... أن يذهب ليُضاجع أمه». ثم أضاف: «إن هذا ليس مصدرًا، بل هو شخص ينشر معلومات مضللة»(٢).

لم يكن موقف رجال ستالين لا مباليًا، مثل موقف زعيمهم. لقد دفعت تحركات القوات الألمانية في أوائل يونيو بعض القادة إلى نصح زعيمهم بضرورة اتخاذ الجيش الأحمر مواقع دفاعية. وأجاب ستالين إجابة لا تكاد تُصدَّق، حين قال: «أبرمنا اتفاق عدم اعتداء مع ألمانيا. وألمانيا مشغولة بالحرب على الجبهة الغربية، وأنا واثق من أن هتلر لن يجرؤ على فتح جبهة ثانية بمهاجمة الاتحاد السوفيتي. إن هتلر ليس أحمقَ، ويدرك أن الاتحاد السوفيتي ليس بولندا، ولا فرنسا، كما أنه ليس إنجلترا أيضًا»(٣).

على أية حال، فبحلول يوم ٢١ يونيو (حزيران)، كان من الواضح أن شيئًا خطيرًا يجري التحضير له على قدم وساق؛ حتى إن سفير السويد في موسكو، ڤيلهلم أسارسون (Vilhelm Assarsson)، ظن أنه بين احتمالين لا ثالث لهما: إما أنه على وشك الحصول على مقعد في الصف الأول لمشاهدة مواجهة ملحمية بين «الرايخ الثالث والإمبراطورية السوفيتية» ومعها عواقب استثنائية متوقعة وواسعة النطاق. أو أن الألمان كانوا على وشك إصدار مجموعة من المطالب بخصوص «أوكرانيا، وآبار النفط في باكو». وجال في خاطره أنه إذا تحقق الاحتمال الثاني، فربما يكون مجرد شاهد على «أعظم حالة ابتزاز في تاريخ العالم»(٤).

بعد سويعات، أضحى واضحًا أن ما يحدث لم يكن لعبة من ألعاب الخداع؛ ففي الساعة ٣:٤٥ من صباح يوم ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٤١، أيقظ رنين الهاتف ستالين من نومه، وكان على الخط الجنرال زوكوف الذي أخبر زعيمه أن الألمان اخترقوا الحدود في جميع القطاعات، وأن الاتحاد السوفيتي يتعرض للهجوم. ولم يصدق ستالين أذنيه لأول وهلة، وخلص إلى أن ذلك ربما كان مناورة من هتلر، تهدف إلى فرض موقف على الأرض لإجبار الاتحاد السوفيتي على تسوية من نوع ما بالقوة، وربما

---

(1) D. Murphy, *What Stalin Knew: The Enigma of Barbarossa* (New Haven, 2005).

(2) R. Medvedev and Z. Medvedev, *The Unknown Stalin: His Life, Death and Legacy* (London, 2003), p. 226.

(3) G. Zhukov, *Vospominaniya i rasmyshleniya*, 3 vols (Moscow, 1995), 1, p. 258.

(4) Assarasson to Stockholm, 21 June 1941,

نقلًا عن:

G. Gorodetsky, *Grand Delusion: Stalin and the German Invasion of Russia* (New Haven, 1999), p. 306.

يكون هدفه شروطًا متعلقة بالتجارة. ثم اتضح له شيئًا فشيئًا أن ما اندلع إنما هو قتال ضارٍ حتى الموت. وظل ستالين مصدومًا عاجزًا؛ فترك الأمر لمولوتوف (Molotov) لإصدار بيانات عامة. وتحدث مولوتوف -عبر الأثير- بنبرة جادة قائلًا: «لقد حدث عمل من أعمال الغدر غير المسبوق في تاريخ الأمم المتحضرة». ولكن لا شك «سيُسحق العدو، ويكون النصر لنا». وما صمت عنه مولوتوف هو أن الاتحاد السوفيتي كان يرقص طيلة الوقت مع الشيطان، وقد حان وقت دفع الثمن(١).

كان التقدم الألماني قاسيًا ومدمرًا؛ وذلك على الرغم من أن القوة الغازية لم تكن مستعدة استعدادًا جيدًا، كما لم تكن مجهزة تجهيزًا جيدًا أيضًا، وذلك على النقيض مما يُفترَض غالبًا(٢). ومع ذلك فقد سقطت مينسك (Minsk) في غضون أيام، وطُوِّق أربعمئة ألف جندي سوفيتي وحوصِروا. وقطعت بريست-ليتوفسك (Brest-Litovsk)، وسرعان ما حُرِم المدافعون عنها من المدد، ولكن ليس من الأمل؛ ذلكم أن جنديًا شابًا خدش جدارًا في ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٤١، ونقش عليه «أموت، ولا أستسلم. وداعًا يا وطني»(٣).

إبانئذ؛ بدأ ستالين يدرك ما كان يحدث على الأرض؛ ففي الثالث من يوليو (تموز)، ألقى خطابًا عبر الأثير، تحدث فيه عن الغزو الألماني بوصفه مسألة «حياة أو موت لشعوب الاتحاد السوفيتي». وأخبر مستمعيه أن الغزاة أرادوا استعادة «القيصرية» و«حكم سادة الأراضي». وكان أقرب أقواله إلى الحقيقة هو زعمه بأن المهاجمين يعتزمون اتخاذ «عبيد» للأمراء والبارونات الألمان(٤). وهذا صحيح إلى حد ما، متى كان يعني بالأمراء والبارونات مسؤولي الحزب النازي ورجال الصناعة الألمان؛ حيث لن يمر وقت طويل قبل أن يشيع استغلال الجنود السوفيت الأسرى في العمل بالسخرة، وكذلك كان الأمر بالنسبة للسكان المحليين؛ فقد استغل الألمان أكثر من ١٣ مليون شخص لإنشاء الطرق، أو لزراعة الحقول، أو العمل في المصانع سواء لصالح النظام النازي مباشرة، أو لصالح الشركات الألمانية الخاصة، التي لا يزال عدد كبير منها يعمل حتى اليوم. ها قد عادت العبودية إلى أوروبا(٥).

بدا أن الألمان لا يمكن إيقافهم تقريبًا خلال صيف عام ١٩٤١. وبحلول سبتمبر (أيلول) سقطت كييف بعد حصار انتهى بأسر أكثر من نصف مليون جندي سوفيتي. وبعد أسابيع قليلة، وصلت الفِرق

---

(1) *Dokumenty vneshnei politiki SSSR*, 24 vols (Moscow, 1957–), 23.2, pp. 764–5.

(2) A. Tooze, *The Wages of Destruction: The Making and Breaking of the Nazi Economy* (New York, 2006), pp. 452–60; R. di Nardo, *Mechanized Juggernaut or Military Anachronism? Horses and the German Army of World War II* (Westport, CT, 1991), pp. 35–54.

(٣) نقلاً عن:

Beevor, *Stalingrad* (London, 1998), p. 26.

(4) J. Stalin, *O Velikoi Otechestvennoi voine Sovestkogo Soiuza* (Moscow, 1944), p. 11.

(5) A. von Plato, A. Leh and C. Thonfeld (eds), *Hitler's Slaves: Life Stories of Forced Labourers in Nazi-Occupied Europe* (Oxford, 2010).

القتالية الثلاثة التي كانت بمثابة حراب غاصت في قلب روسيا إلى كالينين (Kalinin) وتولا (Tula) وبورودينو (Borodino)؛ حيث عثَرت قدما نابليون في أثناء غزوه لروسيا عام ١٨١٢. ولم يزل الألمان يواصلون اختراق الدفاعات السوڤيتية حتى باتت موسكو في مهب الريح بحلول أكتوبر (تشرين الأول). وكان القلق من سقوط المدينة باعثًا على وضع خطط لإخلاء القيادة إلى كويبيشيف (Kuibyshev)، وهي سامارا القديمة (Samara)، وتقع على بعد نحو ٦٠٠ ميل شرق موسكو على منحنى نهر الڤولغا في أثناء تدفقه نحو بحر قزوين. وأُزيلت مومياء لينين من الميدان الأحمر ووضعت في المخزن. وجرى الإعداد لمغادرة ستالين المدينة، قبل أن يغير الزعيم الروسي رأيه في اللحظة الأخيرة ويقرر البقاء في المدينة. ووفقًا لبعض التقارير، كان محرك قطاره يعمل، وكان حراسه الشخصيون على الرصيف على أهبة الاستعداد للانطلاق[١].

وبحلول نوفمبر (تشرين الثاني)، سقطت روستوف-أون-دون (Rostov-on-Don)، وهي المحطة الأخيرة قبل القوقاز. وفي نهاية الشهر، كانت فرقتي البانزر الثالثة والرابعة قد اقتربتا من موسكو، حتى أضحتا على بعد عشرين ميلًا منها فحسب. وفي الأول من ديسمبر (كانون الأول) كانت وحدة استطلاع قوامها راكبي الدراجات النارية على بعد خمسة أميال فحسب من العاصمة[٢]. وكان هتلر -آنذاك- يشعر بالنشوة؛ فقد كانت خطة قطع رأس الاتحاد السوڤيتي من خلال سحق لينينجراد (Leningrad)، وموسكو (Moscow) في الشمال أساسية لتأمين منطقة «الفائض» في الجنوب على المدى الطويل، وبدا أن الخطة تسير في طريقها المرسوم لها بدقة. وتحدث هتلر بحماسة عن المستقبل -في ظل تراجع الخطوط الروسية بعد شهرين من بدء الهجوم- قائلًا: «ستكون أوكرانيا، ثم حوض الڤولغا ذات يوم صوامع الغلال في أوروبا. ثم قال في أغسطس (آب) ١٩٤١: «سنحصد أكثر بكثير مما تخرجه التربة حاليًا». واستطرد قائلًا: «وإذا رفضت السويد يومًا ما تزويدنا بالحديد، فلا بأس بذلك، سنحصل عليه من روسيا»[٣].

في تلك الأثناء تحركت فرق البناء شرقًا خلف الجيش صحبة الفرق الفنية. وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٤١، انطلقت قافلة من (القيادة الخاصة الروسية) (Sonder kommando R) التي أُنشِأت حديثًا من برلين إلى أوكرانيا، بهدف إنشاء بنية تحتية قابلة للتطبيق في الأراضي المحتلة حديثًا. تتكون من مطابخ ميدانية، ومكاتب متنقلة، ومحلات صيانة، وأجهزة إرسال للشرطة في أكثر من مئة مركبة. وأنيط بها تمكين ما أطلق عليه أحد المؤرخين «حملة الاستعمار الأكثر تطرفًا في تاريخ الاستعمار الأوروبي، وبناء الإمبراطورية»[٤].

---

(1) E. Radzinsky, *Stalin* (London, 1996), p. 482; N. Ponomariov,

نقلًا عن:

I. Kershaw, *Fateful Choices: Ten Decisions that Changed the World, 1940–1941* (London, 2007), p. 290.

(2) Fritz, *Ostkrieg*, p. 191.

(3) H. Trevor-Roper, *Hitler's Table Talk, 1941–1944: His Private Conversations* (London, 1953), p. 28.

(4) W. Lower, "'On Him Rests the Weight of the Administration": Nazi Civilian Rulers and the Holocaust in =

عندما وصلت تلك القوات إلى أوديسا -الواقعة على البحر الأسود- شرع الضباط المسؤولون -وكانوا مجموعة متنوعة من الفشلة، والمتهربين من التجنيد، وغير الأسوياء- في شغل أرقى المساكن وتحويلها لمقارهم الرئيسة، وانشغلوا بإنشاء أنواع المؤسسات التي تحملت بيانًا لا لبس فيه للخطط طويلة المدى: المكتبات، ومجموعات التسجيلات، وقاعات المحاضرات، ودور السينما لعرض الأفلام الألمانية الظافرة[1][2].

وبدا أن الغزو كان نجاحًا مستمرًّا؛ فقد احتل الألمان المنطقة المعينة لهم -للاستيلاء على مواردها وإرسالها إلى ألمانيا- في أقل من ستة أشهر تقريبًا. نعم لم تسقط لينينجراد وموسكو بعد، ولكن بدا أن الأمر مسألة وقت قبل أن تستسلما وتسقطا في أيدي الألمان. كما بدت الأمارات واعدة في أماكن أخرى أيضًا. فعلى الرغم من إخماد الانتفاضة في العراق على يد قوة بريطانية جرى تجميعها على عجل؛ حيث استولت على الحافلات من شوارع حيفا واتجهت بها شرقًا لقمع الثورة، فإن المؤشرات كانت تفضي للاعتقاد بأن أصدقاء ألمانيا الجدد -في الأراضي الغنية بالنفط جنوب بحر قزوين- سيكونون على ما يرام قريبًا[3].

* * *

لما غزا هتلر الاتحاد السوفيتي، بارك رسميًّا مفهوم استقلال العرب. وكتب إلى مفتي القدس يعبر له عن تضامنه، مشيدًا بالعرب بوصفهم أصحاب حضارة عريقة، وأعداؤهم هم أنفسهم أعداء ألمانيا مثل: البريطانيين واليهود[4]. لقد بلغت الروابط الودية النامية بين ألمانيا والعالم الإسلامي حدًّا؛ حتى إن أحد الأكاديميين الألمان صاغ مدحًا متملقًا لبعض الدول الإسلامية، أشاد فيه بالمملكة العربية السعودية ضمنًا، واصفًا إياها بأنها «الرايخ الثالث على الطراز الوهابي»[5].

وعلى الصعيد الآخر، نظرت بريطانيا إلى الطريقة التي كانت الأمور تسير بها نظرة ملؤها اليأس. وأشار الجنرال ويفيل (Wavell)، القائد العام للقوات المسلحة في الهند، إلى أن بريطانيا تجنبت -سريعًا- كارثة كانت ستقع في العراق، وبات من قَبيل الضروري اتخاذ خطوات لحماية إيران؛ إذ إنها

= Zhytomyr', in R. Brandon and W. Lower (eds), *The Shoah in Ukraine: History, Testimony, Memorialization* (Bloomington, IN, 2008), p. 225.

(1) E. Steinhart, 'Policing the Boundaries of "Germandom" in the East: SS Ethnic German Policy and Odessa's "Volksdeutsche", 1941–1944', *Central European History* 43.1 (2010), 85–116.

(٢) من هذه الوثائق والمادة المسموعة والمصورة استقى الحلفاء أغلب أدلة الإدانة في محاكمات نورمبرج الشهيرة. (المترجم)

(3) W. Hubatsch, *Hitlers Weisungen für die Kriegführung 1939–1945. Dokumente des Oberkommandos der Wehrmacht* (Munich, 1965), pp. 139–40.

(4) Rubin and Schwanitz, *Nazis, Islamists*, pp. 124, 127.

(5) Ibid., p. 85; H. Lindemann, *Der Islam im Aufbruch, in Abwehr und Angriff* (Leipzig, 1941).

الهدف التالي إذا استطاع الألمان توسيع قاعدة نفوذهم. وكتب إلى رئيس الوزراء ونستون تشرشل في صيف عام ١٩٤١ قائلًا: «ينبغي طرد الألمان من إيران الآن، وينبغي الدفاع عن الهند. فإذا أهملنا ذلك، فستتكرر الحوادث التي جرى التصدي لها في العراق، ولو بعد حين»(١).

وكان ويفيل محقًّا في قلقه بشأن إيران؛ حيث توالت الدعاية الألمانية تترى بلا هوادة منذ بداية الحرب. وأفاد أحد المراسلين الأمريكيين، في صيف عام ١٩٤١، بأن أكشاك بيع الكتب في طهران كانت مغطاة بنسخ من مجلة سيجنال (Signal) -وكانت إحدى أبواق جوبلز (Goebbels)- بينما عرضت دور السينما الإيرانية أفلامًا مثل (النصر في الغرب) (Sieg im Westen) وهي أفلام احتفت بالانتصارات الألمانية في فرنسا، وأوروبا الغربية بأسلوب ملحمي(٢).

كما استقبل الإيرانيون أنباء هجوم هتلر على الاتحاد السوفيتي بالترحاب؛ فوفقًا لبعض التقارير، كانت الحشود تتجمع في ميدان «سباه» في قلب طهران للتعبير عن ابتهاجها بأخبار سقوط مدينة سوفيتية تلو الأخرى في أيدي الفيرماخت(٣). وكانت المشكلة أن «الإيرانيين عمومًا كانوا يُسَرُّون بالهجوم الألماني على عدوهم القديم روسيا»، وفقما أبلغ السفير البريطاني السير ريدر بولارد (Sir Reader Bullard)، لندن في الأيام التي أعقبت الغزو(٤).

وانتشر التعاطف مع ألمانيا على نطاق واسع في الجيش وفي البازار (السوق)، على حد تعبير العالمة الفارسية المرموقة آن لامبتون (Ann Lambton)، بعد أن سُئلت عن رأيها بشأن تطور الوضع. وسادت المشاعر الجارفة خاصة بين «المسؤولين الشباب [الذين] مالوا إلى تأييد ألمانيا، وكانوا يأملون في أن تحقق ألمانيا النصر»(٥). وكان الملحق العسكري البريطاني يرى الرأي نفسه إلى حد كبير؛ حيث قارن الانطباع المحلي الإيجابي تجاه ألمانيا مع الآراء السلبية حول بريطانيا، ثم أردف قائلًا: «لا نكاد نجد -حتى الآن- سوى عدد قليل [من الناس] الذين يحتمل أن يدعموا القضية البريطانية إذا وصل الألمان إلى إيران، في حين يُتوقع أن يجد الألمان دعمًا نشطًا على نطاق واسع»(٦). وكان السفير الألماني في طهران، إروين إيتل (Erwin Ettel)، يشاركه الرأي نفسه. وقد أبرق هذا السفير إلى برلين قائلًا: إن هجومًا بريطانيًا سيواجه «مقاومة عسكرية حازمة»، وسيؤدي إلى طلب الشاه المساعدة من ألمانيا رسميًّا(٧).

---

(1) Churchill, *Second World War*, 3, p. 424.

(2) A. Michie, 'War in Iran: British Join Soviet Allies', *Life*, 26 January 1942, 46.

(3) R. Sanghvi, *Aryamehr: The Shah of Iran: A Political Biography* (London, 1968), p. 59; H. Arfa, *Under Five Shahs* (London, 1964), p. 242.

(4) Bullard to Foreign Office, 25 June 1941, in R. Bullard, *Letters from Teheran: A British Ambassador in World War II Persia*, ed. E. Hodgkin (London, 1991), p. 60.

(5) Lambton to Bullard, 4 October 1941, FO 416/99.

(6) Intelligence Summary for 19–30 November, 2 December 1941, FO 416/99.

(7) 'Minister in Iran to the Foreign Ministry', 9 July 1941, *Documents on German Foreign Policy, 1918–1945*, Series D, 13, pp. 103–4.

وتفاقـم قلـق البريطانييـن مـن أن إيـران قد تراهن علـى هتلر؛ ذاك أنهـا كانت تقف على أنبـاء انهيار مقاومـة الـروس كلمـا توغـل الألمـان شـرقًا. ودعا هـذا التقـدم الألمانـي بريطانيـا إلى تعييـن الجنرال أوشـينليك (Auchinleck) -وكان حتـى وقـت قريـب يشـغل منصب القائـد العام للهند- آنـذاك لقيادة الجيش في الشـرق الأوسـط؛ حيث أُحيط علمًا بأن قوات هتلر سـتكون على مشـارف القوقاز بحلول منتصف أغسطس ١٩٤١[١]. ومن منظور بريطانيا، كان هذا التطور بمثابة كارثة محققة. لقد كان الألمان في حاجة ماسة للنفط، فإذا سيطروا على إمدادات النفط في باكو والقوقاز، فسيكون ذلك بمثابة الطامة الكبرى. وأشـار ليوبولد إمري (Leopold Amery) -وكان وزير الدولة لشـؤون الهند- إلى أن الأدهى والأمَر مـن ذلـك هـو أن الألمان سـيكونون «على مرمى حجـر» من حقـول النفط في إيـران والعراق، وسيتسببون بلا شك في «كل أنواع الأذى»[٢]. لقد بدا الأمر كما لو أن ألمانيا قد استطاعت أن تجد حلاً لكعب أخيل المتمثل في الافتقار إلى الحصول على النفط من مصادر موثوقة لتزويد سـفنها وطائراتها ودباباتهـا وسـائر مركباتها الأخرى بالوقود، فإذا فعلت فربما تعرضـت قدرة بريطانيا على الحفاظ على مجهودهـا الحربـي للخطر. وعلى هذا النحو خلص الجنرال أوشـينليك إلى أنه بات من الحيوي وضع خطة، أسـماها عملية «رباطة الجأش» (Operation Countenance)، وتقضي بتدمير الحزام الممتد من فلسطين إلى البصرة، ومن ثم حقول النفط الإيرانية[٣].

وازدادت أهمية إيران بسـبب موقعها الاسـتراتيجي. فعلى الرغم من أن سـتالين كان قد عقد صفقة مع هتلر في عام ١٩٣٩، فإن الغزو الألماني للاتحاد السـوڤيتي -بُعيد ذلك بعامين- قد حول السـوڤيت إلـى حليـف غير متوقع للبريطانيين وحلفائهم؛ لذا فقد أعلنت واشـنطن أن «حكومة الولايات المتحدة قررت تقديم سـائر أوجه المسـاعدة الاقتصادية الممكنة عمليًا بغرض تعزيز قدرة الاتحاد السـوڤيتي في كفاحـه ضـد العدوان المسـلح»[٤]. واقترن هـذا الإعلان بتأكيـدات خاصة قدمها السـفير الأمريكي في موسـكو لـ سـتالين شـخصيًا، وتقضي بأن الولايـات المتحدة عازمة «كل العزم» علـى دحر هتلر، وأنها مستعدة لفعل كل ما يلزم لتحقيق هذا الهدف[٥].

بيـد أن المشـكلة كانـت تكمـن في كيفية إيصـال السـلاح والعتاد إلى الاتحـاد السـوڤيتي. لقد كان

---

(1) P. Dharm and B. Prasad (eds), *Official History of the Indian Armed Forces in the Second World War, 1939–1945: The Campaign in Western Asia* (Calcutta, 1957), pp. 126–8.

(٢) نقلاً عن:

J. Connell, *Wavell: Supreme Commander* (London, 1969), pp. 23–4.

(3) R. Stewart, *Sunrise at Abadan: The British and Soviet Invasions of Iran, 1941* (New York, 1988), p. 59, n. 26.

(4) 'Economic Assistance to the Soviet Union', *Department of State Bulletin* 5 (1942), 109.

(5) R. Sherwood, *The White House Papers of Harry L. Hopkins*, 2 vols (Washington, DC, 1948), 1, pp. 306–9.

الشحن إلى الموانئ في الدائرة القطبية الشمالية صعبًا من الناحية اللوجستية، وفي ذروة الشتاء يكون خطيرًا. وفي الوقت نفسه، لم يكن الافتقار إلى موانئ مناسبة، بخلاف ڤلاديڤوستوك (Vladivostok) في الشرق أقل إشكالية، لأسباب أهمها هيمنة اليابان على هذا الجزء من المحيط الهادئ. وكان الحل واضحًا وضوح الشمس في رائعة النهار؛ إنه السيطرة على إيران، فمن شأن احتلال إيران حرمان العملاء الألمان وأهل البلاد المتعاطفين مع ألمانيا من الحصول على موطئ قدم في لحظة حاسمة. ومن شأنه كذلك تمكين الحلفاء من حماية الموارد الطبيعية التي لا يسعهم تحمل خسارتها قط. كما أنه سيتيح فرصة أفضل لتنسيق الجهود لعرقلة زحف الفيرماخت المستمر، ووقف توغلها شرقًا.

وبينما بدا احتلال إيران مناسبًا لوضع نهاية لحرب الحلفاء، فقد بدا واعدًا أيضًا بمكافآت على المدى الطويل للبريطانيين والسوڤيت على الترتيب؛ إذ إن احتلال إيران سيمنح كل دولة ما كانت تطمح إليه منذ فترة طويلة؛ من حيث النفوذ السياسي، والموارد الاقتصادية، والقيمة الاستراتيجية. لقد أتيحت فرص مثيرة عندما قلب هتلر ظهر المجن لحليفه السابق في موسكو.

وعلى هذا النحو احتلت القوات البريطانية طهران في أغسطس (آب) ١٩٤١، وسرعان ما انضم إليهم الجنود السوڤيت. وهكذا جرت تنحية الخلافات جانبًا في سبيل تعزيز المصالح المشتركة في منطقة ذات أهمية استراتيجية واقتصادية كبرى. ولما اجتمعت القوات البريطانية والسوڤيتية في قزوين -شمالي البلاد- احتفلوا معًا احتفالات صاخبة؛ حيث تبادل الجنود القصص والسجائر. وسرعان ما وجد المراسلون الأجانب الذين التقوا بالجنود السوڤيت أنفسهم يُدعَون إلى شرب الڤودكا، ويشربون نخب التحالف في صحة ستالين، ثم تشرشل، ثم مولوتوف، ثم روزڤلت. ثم يعيدون الكرة مجددًا، وبالترتيب نفسه. وكتب أحد شهود العيان -وكان صحفيًا أمريكيًا- قائلًا: «في نهاية النخب الثلاثين من الڤودكا الرائقة، هوى نصف المراسلين تحت الطاولة، بينما واصل الروس الشرب»[1].

ولما أظهر الشاه التردد بشأن إصدار إنذار نهائي يقضي بطرد المواطنين الألمان بأثر فوري من البلاد، بدأ البريطانيون في بث تقارير عبر الراديو على خدمة راديو بي بي سي BBC الفارسية الجديدة تتهم الشاه زورًا بإزالة جواهر التاج من العاصمة، وباستغلال المواطنين للعمل بالسخرة لخدمة مصالحه التجارية، واستخدام إمدادات المياه في طهران لري حدائقه الخاصة. وانتشرت تلك الانتقادات بالفعل على نطاق واسع وفقًا لما ذكره ريدر بولارد (Reader Bullard) في مذكراته[2].

وظل الشاه يراوغ البريطانيين في تنفيذ مطالبهم بطرد الألمان؛ حيث اشتكى للرئيس روزڤلت من «أعمال عدوانية»، ثم شجَب تهديد «العدالة الدولية، وحق الشعوب في الحرية». وأجاب الرئيس الأمريكي بأن ما ذكره الشاه حق، ولكن ينبغي أن يأخذ الشاه بعين الاعتبار أنه «من المؤكد أن الغزو

---

(1) Michie, 'War in Iran', 40–4.

(2) Bullard, *Letters*, p. 80.

الألماني لن يتوقف عند حد، وسيمتد إلى ما وراء أوروبا إلى آسيا وإفريقيا، وحتى الأمريكتين». وبعبارة أخرى، فإن إيران تُردي نفسها موارد الهلكة إذا فكرت في إقامة علاقات طيبة مع هتلر[1]. ولما أيس البريطانيون من الشاه، انتزعوا زمام الأمور بأيديهم، وأجبروا رضا خان على التنازل عن العرش -الذي بات يُعد عبئًا آنئذ- واستبدلوه بابنه، محمد رضا، وكان صبيًّا مستهترًا الاستهتار كله، ومولعًا بروايات الجريمة الفرنسية، وبالسيارات السريعة، بل وبصحبة الغانيات أيضًا[2].

وشعر عدد كبير من الإيرانيين، بأن هذا التدخل الخارجي السافر بات لا يطاق. وفي نوفمبر ١٩٤١، تظاهر العوام هاتفين «عاش هتلر!»، و«يسقط الروس والبريطانيون!»، إظهارًا لاشمئزازهم من الطريقة التي كان يجري بها تقرير مصير البلاد من قبل جنود كانوا يُنظرون إليهم على أنهم قوة احتلال[3]. ولم تكن لإيران في هذه الحرب ناقة ولا جمل، كما لم تكن للخلافات والصراعات العسكرية في الحرب العالمية الثانية علاقة بساكنة مدن مثل: طهران، أو أصفهان، الذين أخذوا ينظرون بعين الذهول لما رأوا بلادهم عالقة في الصراع بين القوى الأوروبية. بيد أنه لم تكن لآرائهم قيمة تُذكَر.

ومع إحكام الحلفاء السيطرة على الوضع في إيران، اتُّخذت خطوات ضد المنشآت الفرنسية في سوريا عقب سقوط فرنسا في أيدي الألمان، بسبب هواجس راودت البريطانيين بشأن إمكانية استخدامها ضد بريطانيا وحلفائها في الشرق الأوسط. وأُرسل سرب الإعصار (Hurricane squadron) من سلاح الجو الملكي البريطاني، ونُشِر على عجل في مطار الحبانية -وكان أحد المطارات التي احتفظ بها البريطانيون في العراق بعد الحرب العالمية الأولى- لقصف قواعد حكومة ڤيشي (Vichy) الفرنسية. وكان من بين أولئك الذين حلقوا في تلك الغارات في النصف الثاني من عام ١٩٤١ طيار مقاتل شاب ذكر -بأخَرة- أنه حلَّق على ارتفاع منخفض على نحو مكَّنه من حضور حفل «كوكتيل» صباح يوم الأحد؛ حيث كان الطيارون الفرنسيون يحتفلون بصحبة «مجموعة من الفتيات اللواتي كن يرتدين ثيابًا زاهية الألوان»، وكان الحفل قائمًا على أشده. وبينا هاجم المقاتلون البريطانيون الحفل، تطايرت النظارات، والزجاجات، والأحذية ذات الكعب العالي في كل مكان، وحاول المحتفلون البحث عن ملاذ يحتموا به. وأردف طيار سرب الإعصار -ويقال له: رولد دال (Roald Dahl) - أن الأمر بدا «مضحكًا ورائعًا»[4].

* * *

---

(1) Reza Shah Pahlavi to Roosevelt, 25 August 1941; Roosevelt to Reza Shah Pahlavi, 2 September 1941.

نقلًا عن:

M. Majd, *August 1941: The Anglo-Russian Occupation of Iran and Change of Shahs* (Lanham, MD, 2012), pp. 232–3; Stewart, *Abadan*, p. 85.

(2) J. Buchan, *Days of God: The Revolution in Iran and its Consequences* (London, 2012), p. 27.

(3) Military attaché, 'Intelligence summary 27', 19 November 1941, FO 371 27188.

(4) R. Dahl, *Going Solo* (London, 1986), p. 193.

لم تحمل الأخبار الواردة إلى برلين -آنذاك- سوى البشارات على نحو مستمر. فقد بات الاتحاد السوفيتي في حال يُرثى لها، وبدت الاختراقات وشيكة في إيران، والعراق، وسوريا. وتوافرت الأسباب التي تُفضي للاعتقاد بأن ألمانيا كانت على وشك القيام بسلسلة من الفتوحات قد تقارَن بتلك التي قامت بها جيوش الإسلام الكبرى في القرن السابع الميلادي، أو فتوحات المغول لجنگيز خان وذريته. وهكذا بدت بشائر النجاح تلوح في الأفق.

بيد أن الواقع كان مختلفًا إلى حدٍّ ما؛ حيث كانت المأساة تسير رديفًا للتقدم الألماني، سواء على جبهة الاتحاد السوفيتي، أو على غيره من الجبهات التي كانت القوات الألمانية تقاتل فيها؛ فقد عانت تلك القوات معضلة واحدة؛ تلك هي أن الخسائر التي كانت تُلحَق بالقوات في ساحة المعركة -خلال توغلها شرقًا- تجاوزت الاحتياطات التي كانت تُرسَل لتعويضها إلى حد كبير. فعلى الرغم من أن الانتصارات المذهلة التي أدت إلى أسر أعداد هائلة من جنود العدو، إلا أن ذلك تحقق غالبًا بكلفة باهظة. ووفقًا لتقديرات الجنرال هالدر نفسه، فقَدت الفيرماخت أكثر من ١٠٪ من رجالها في الشهرين الأولين من القتال منذ بدء الغزو. بعبارة أخرى فقَد الجيش الألماني أكثر من ٤٠٠ ألف جندي. وبحلول منتصف سبتمبر (أيلول) ارتفع العدد إلى أكثر من نصف مليون، بين قتيل وجريح[١].

كما سبب الاندفاع السريع للأمام ضغطًا لا يكاد يطاق تقريبًا على خطوط الإمداد. وكان نقص المياه النظيفة مشكلة منذ البدء تقريبًا، الأمر الذي أدى إلى تفشي وبائي الكوليرا والدوسنتاريا في صفوف الجنود الألمان. وسرعان ما أدرك الحاذقين منهم -حتى قبل نهاية شهر أغسطس (آب)- أن الصورة ليست وردية كما تبدو؛ فقد كان نقص المواد الأساسية مثل: شفرات الحلاقة، ومعاجين الأسنان، وفرشاة الأسنان، وورق الكتابة، والإبر، والخيوط ملحوظًا منذ الأيام الأولى للقتال[٢]. وغمرت أمطار لا أول لها ولا آخر الرجال ومعداتهم -على حد سواء- في أواخر الصيف. وكتب أحد الجنود إلى رفيق سلاح له في الديار: «لم تتح لنا فرصة قط لتجفيف البطاطين، والأحذية، والملابس على نحو صحيح قط»[٣]. وتناهت أخبار تلك الظروف إلى مسامع جوبلز، الذي أشار في مذكراته إلى أن الأعصاب الفولاذية باتت ضرورية للتغلب على الصعوبات. وأردف قائلًا: إن المصاعب الحالية «ستبدو ذكريات جميلة» متى آن الأوان[٤].

(1) F. Halder, *Kriegstagebuch: tägliche Aufzeichnungen des Chefs des Generalstabes des Heeres, 1939–1942*, ed. H.-A. Jacobson and A. Philippi, 3 vols (Stuttgart, 1964), 3, 10 September 1941, p. 220; 17 September 1941, p. 236.

(2) D. Stahel, *Kiev 1941: Hitler's Battle for Supremacy in the East* (Cambridge, 2012), pp. 133–4.

(3) H. Pichler, *Truppenarzt und Zeitzeuge. Mit der 4. SS-Polizei-Division an vorderster Front* (Dresden, 2006), p. 98.

(4) *Die Tagebücher von Joseph Goebbels*, 27 August 1941, *Teil II*, 1, p. 316.

وبالمثل، كانت الآفاق في الشرق الأدنى، وآسيا الوسطى تستعصي على الخداع. فعلى الرغم من التفاؤل الذي انتاب الألمان في وقت ما من العام، لم يكن بيد ألمانيا شيئًا تقدمه بإزاء الحماس الشعبي الذي يُفترض أنه وُعِد بربط شمال إفريقيا، بسوريا، والعراق، وأفغانستان. وبدا أن احتمال تأسيس وجود ذي مغزى في تلك البقاع -ناهيك عن السيطرة عليها- لا يعدو كونه سرابًا وأوهامًا، أكثر من كونه شيئًا ملموسًا.

وعلى الرغم من المكاسب الإقليمية الاستثنائية، فإن القيادة العليا الألمانية شرعت في محاولة رفع الروح المعنوية في الوقت الذي كانت فيه موسكو تترنح في مهب الريح. ففي مستهل أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٤١، صرَّح المارشال ڤون ريتشيناو (von Reichenau) -وكان قائد فيلق من الجيش الجنوبي الذي تقدم إلى منطقة «الفائض»- رسميًا بأن كل رجل من رجاله كان «يحمل لواء المثل الأعلى للقومية، وينتقم لكل الأعمال الوحشية التي تُرتكب ضد الشعب الألماني»، ولم يعد ذلك التصريح كونه محاولة ترمي لإعادة بعض الجرأة إلى جنوده[١]. وكان هذا جيدًا وحسنًا، ولكن أي تأثير يُرجَى لكلمات قوية كهذه في نفوس رجال كانوا يضعون الصحف في أحذيتهم وقاية لأقدامهم من البرد؟! أو في نفوس غيرهم الذين تجمدوا حتى الموت إذا أصيبوا بجروح، أو التصقت أعقاب بنادقهم الجليدية بجلود أكتافهم؟![٢]. لقد ساد الشتاء القارس؛ بحيث كان ينبغي على الجنود الألمان تقطيع الخبز بالبُلْط. وعلق هتلر لوزير الخارجية الدانماركي بازدراء: «إن لم يكن الشعب الألماني جلدًا وقويًا، ومستعدًا للتضحية بدمائه... فأولى له أن يموت»[٣]. وكانت المنشطات الكيميائية مثل البيرڤيتين (Pervitin) -وهو نوع من أنواع الميتامفيتامين (metamphetamine) [المنبهات القوية]- تُوزَّع بكميات كبيرة على القوات التي كانت تخدم على الجبهة الشرقية شديدة البرودة، وكانت أكثر نفعًا للجنود من الخطب الحماسية[٤].

كما اتسم الغزو بمشكلات خطيرة في الإمداد. فكان من المقدر أن تحتاج الكتائب المقاتلة التي تقترب من موسكو إلى سبع وعشرين شحنة من الوقود تصلها بالقطار كل يوم؛ وفي نوفمبر (تشرين الثاني) تلقت ثلاث شحنات فحسب خلال الشهر بأكمله[٥]. وركز الاقتصاديون الأمريكيون الذين

---

(١) نقلاً عن:

Beevor, *Stalingrad*, pp. 56–7.

(2) Fritz, *Ostkrieg*, pp. 158–9.

(3) A. Hillgruber, *Staatsmänner und Diplomaten bei Hitler. Vertrauliche Aufzeichungen 1939–1941* (Munich, 1969), p. 329.

(4) W. Kemper, 'Pervitin– Die Endsieg-Droge', in W. Pieper (ed.), *Nazis on Speed: Drogen im Dritten Reich* (Lohrbach, 2003), pp. 122–33.

(5) R.-D. Müller, 'The Failure of the Economic "Blitzkrieg Strategy"', in H. Boog et al. (eds), *The Attack on the Soviet Union*, vol. 4 of W. Deist et al. (eds), *Germany and the Second World War*, 9 vols (Oxford, 1998), pp. 1127–32; Fritz, *Ostkrieg*, p. 150.

كانوا يراقبون الحرب -عن كثب- على هذه المسألة تحديدًا في تقريرين حمل أولهما عنوان: «الموقف العسكري والاقتصادي الألماني The German Military and Economic Position» أما الثاني فحمل عنوان «مشكلة الإمداد الألمانية على الجبهة الشرقية The German Supply Problem on the Eastern Front». ووفقًا لحسابات الأمريكيين استلزم التقدم لمسافة ١٢٥ ميلًا ٣٥ سيارة شحن إضافية، أو خصم ١٠,٠٠٠ طن من الخطوط الخلفية لصالح خط المواجهة في عمليات التموين اليومية. وهكذا كانت سرعة التقدم تمثل مشكلة كبرى[1].

وكانت صيانة الخطوط الأمامية المزودة من الخلف عملية بالغة السوء. بيد أنه كانت هناك قضية أكثر إلحاحًا؛ فقد كان المبدأ التوجيهي وراء الغزو هو بتر الأراضي الغنية في أوكرانيا وجنوب روسيا، أو ما أُطلق عليه «منطقة الفائض». وعندما جرى تسليم شحنات الغلال من الاتحاد السوفيتي قبل بدء الغزو، كانت آثار الحرب على الإمدادات الغذائية والوجبات الغذائية أكثر وضوحًا في ألمانيا مما كانت عليه في بريطانيا العظمى على سبيل المثال. وبدأ الاستهلاك اليومي من السعرات الحرارية في الانخفاض أكثر فأكثر، وشهد انخفاضًا بالفعل بحلول نهاية عام ١٩٤٠ بدلًا من أن يتعزز من خلال المكاسب التي تحققت في الشرق[2]. والحق أن كميات الغلال التي شُحنت إلى ألمانيا بعد بدء عملية بربروسا كانت أقل بكثير مقارنة بما كانت تستورده ألمانيا من الاتحاد السوفيتي بين عامي ١٩٣٩-١٩٤١[3].

وحاولت الإذاعة الألمانية رفع الروح المعنوية للشعب، وتقديم الضمانات لهم بأن ما حدث في الحرب العالمية الأولى لن يتكرر مجددًا. وذكر تقرير إخباري بُث في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤١ أن ألمانيا تمتلك احتياطات وفيرة من الغلال؛ وجاء في التقرير «الآن في زمن الحرب، علينا الاستغناء عن هذا النوع من الرفاهية». واستطرد قارئ النشرة قائلًا: ولكن هناك أخبار جيدة؛ فليس ثم خوف من نقص التموين والمشكلات التي عانيناها في الحرب العالمية الأولى؛ فعلى النقيض من السنوات الأربع بين عامي ١٩١٤- ١٩١٨، «يمكن للشعب الألماني أن يعتمد على سلطات مراقبة الأغذية الألمانية»[4].

وكان هذا مجرد حديث قتال؛ ذاك أنه بات من الواضح أن مفهوم السيطرة على موارد لا حد لها في

(1) M. Guglielmo, 'The Contribution of Economists to Military Intelligence during World War II', *Journal of Economic History* 66.1 (2008), esp. 116–20.

(2) R. Overy, *War and the Economy in the Third Reich* (Oxford, 1994), pp. 264, 278; J. Barber and M. Harrison, *The Soviet Home Front, 1941–1945: A Social and Economic History of the USSR in World War II* (New York, 1991), pp. 78–9.

(3) A. Milward, *War, Economy and Society, 1939–45* (Berkeley, 1977), pp. 262–73; Tooze, *Wages of Destruction*, pp. 513–51.

(4) German radio broadcast, 5 November 1941, Propaganda Research Section Papers, Abrams Papers, 3f 44/41.

الشرق كان مجرد وهم. والجيش الذي صدرت له الأوامر بإطعام نفسه من الأرض التي يستولي عليها، لم يتمكن من وضع هذا الأمر موضع التنفيذ. ولما لم يجد ما يسد به رمقه، لجأ إلى نهب الناس ومصادرة الماشية. وبعيدًا عن تعزيز الوضع الزراعي في الوطن، تحولت الأراضي الموعودة التي علق عليها هتلر وبطانته آمالهم إلى حرب استنزاف. لقد سلبت سياسات الأرض المحروقة التي انتهجها السوفيت الأرض كثيرًا من ثرواتها. وفي غضون ذلك عانت الفيرماخت من التشوش، وتحديد الأولويات العسكرية المتناقضة. وكان هناك توتر مستمر حول ما إذا كان الأجدر بالقيادة تحويل الرجال، والدبابات، والموارد، والوقود إلى المركز، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب، وقد أنذر ذلك التشوش بهزيمة منكرة. ورسمت التقديرات الأمريكية التي أُجريت في ربيع عام ١٩٤٢ صورة قاتمة فيما تعلق بالحصاد المحتمل للغلال في الأراضي المحتلة جنوبي الاتحاد السوفيتي في أوكرانيا وجنوبي روسيا. وتنبأ التقرير بأن الألمان ربما يجنون ثلثي الكمية التي كانت تُجنى قبل الغزو، هذا على أحسن الأحوال[١].

وعلى هذا النحو، فإن الغزو -بغض النظر عن جميع المكاسب الإقليمية التي تحققت في الشرق- لم يخفق في الوفاء بما كان يؤمل منه فحسب، بل بما كان مطلوبًا وأساسيًا. فبعد يومين فحسب من غزو الاتحاد السوفيتي، قدم باك توقعاته بشأن الكمية المطلوبة من القمح، وذلك بوصفه جزءًا من خطة اقتصادية مدتها أربع سنوات. وكانت ألمانيا تواجه عجزًا قدره ٥ , ٢ مليون طن سنويًا. وكان الفيرماخت بحاجة إلى حل هذه المشكلة، وتأمين ملايين الأطنان من البذور الزيتية، وملايين من رؤوس الماشية والخنازير اللازمة لإطعام الشعب الألماني[٢]. وكان هذا أحد الأسباب التي دفعت هتلر إلى إصدار توجيه لجنرالاته يقضي بـ«تسوية موسكو ولينينجراد بالأرض». لقد أراد «الحيلولة بين الناس وبين البقاء ثمة؛ «حيث سنكون مضطرين إلى إطعامهم في الشتاء»[٣].

* * *

بعد أن توقع الألمان موت الملايين بسبب نقص الغذاء والمجاعة، شرعوا -آنذاك- في تحديد هوية أولئك المساكين. واحتل الأسرى الروس المرتبة الأولى بينهم. وكتب جورينج (Göring) -باستخفاف- قائلًا: لا يوجد ما يحملنا على إطعامهم، كما أننا لسنا ملزمين بأية التزامات دولية نحوهم[٤]. وفي ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٤١، أصدر أمرًا بمنع أسرى الحرب «غير العاملين» -أي

(1) 'Gains of Germany (and her Allies) through the Occupation of Soviet Territory', in Coordinator of Information, *Research and Analysis Branch, East European Section Report*, 17 (March 1942), pp. 10-11.

(2) 'Reich Marshal of the Greater German Reich', 11th meeting of the General Council, 24 June 1941, نقلًا عن:

Müller, 'Failure of the Economic "Blitzkrieg Strategy"', p. 1142.

(3) Halder, *Kriegstagebuch*, 8 July 1941, 3, p. 53.

(4) C. Streit, 'The German Army and the Politics of Genocide', in G. Hirschfeld (ed.), *The Policies of Genocide:*

أولئك الذين بلغ منهم الضعف والوهن مبلغه، أو أصيبوا بجروح بالغة بحيث لا يمكنهم العمل بالسخرة- الطعام. وبعد شهر، جرى تخفيض حصص الإعاشة للأسرى «العاملين»، ثم جرى تخفيضها مجددًا[١]. وكان تأثير تلك الإجراءات مدمرًا: فبحلول فبراير (شباط) ١٩٤٢، قضى نحو ٢ مليون (من إجمالي ٣,٣ مليون) أسير سوفيتي نحبه، ومات معظمهم جوعًا[٢].

ولتسريع وتيرة الموت، ابتُكرت تقنيات جديدة للتخلص من الأفواه التي كانت بحاجة إلى الطعام. فجرى تجميع أسرى الحرب بالمئات؛ بحيث كان يسع الألمان اختبار آثار المبيدات الحشرية التي جرى استخدامها لتبخير ثكنات الجيش البولندي عليهم. كما أُجريت عليهم تجارب للوقوف على تأثير التسمم بأول أكسيد الكربون باستخدام شاحنات بها أنابيب متصلة بعوادم تلك الشاحنات نفسها. وأجريت هذه الاختبارات -التي بدأت في خريف عام ١٩٤١- في موقعين سرعان ما اكتسبا شهرة لاستخدام التقنيات نفسها على نطاق واسع، وهما معسكرا أوشفيتز (Auschwitz)، وساكسنهاوزن (Sachsenhausen)[٣].

وكانت عمليات القتل الجماعي التي بدأت بعد مرور بضعة أسابيع فحسب من بدء الغزو بمثابة رد فعل شنيع على فشل الهجوم الألماني، وأوجه القصور الفادحة التي شابت التخطيط، سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاستراتيجي. ولم تنتج صوامع الغلال الكبرى في أوكرانيا وجنوب روسيا ما كان يُرجى منها. وكان هناك ثمن فوري ينبغي دفعه، لا يقضي بترحيل الأهالي أو بتهجيرهم، كما ذكر هتلر في حديثه؛ ففي ظل وجود عدد كبير للغاية من الناس، وفي ظل الافتقار إلى كميات كافية من الطعام، كان هناك هدفان واضحان جرى شيطنتهما في جميع مناحي الحياة في ألمانيا، سواء في وسائل الإعلام، أو في الوعي الشعبي؛ الروس واليهود.

كان تصوير السلاف على أنهم أدنى منزلة من الناحية العرقية، وأناس غريبو الأطوار، ويتسمون بالقسوة والعنف، قد تطور على نحو مستمر قبل الحرب. وعلى الرغم من أن النقد اللاذع قد جرى تخفيفه بعد توقيع اتفاقية مولوتوف-ريبنتروب (Molotov–Ribbentrop agreement) في عام ١٩٣٩، فإنه استؤنف مجددًا بعد الغزو. وقد لعب هذا التصور دورًا مباشرًا وقويًا في الإبادة الجماعية للروس التي بدأت في أواخر صيف عام ١٩٤١[٤].

Jews and Soviet Prisoners of War in Nazi Germany (London, 1986), pp. 8–9.

(1) J. Hürter, *Hitlers Heerführer. Die deutschen Oberbefehlshaber im Krieg gegen die Sowjetunion 1941/1942* (Munich, 2006), p. 370.

(2) Streit, *Keine Kameraden*, p. 128;

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Snyder, *Bloodlands*, pp. 179–84.

(3) R. Overmans, 'Die Kriegsgefangenenpolitik des Deutschen Reiches 1939 bis 1945', in J. Echternkamp (ed.), *Das Deutsche Reich und der Zweite Weltkrieg*, 10 vols (Munich, 1979–2008), 9.2, p. 814; Browning, *Origins of the Final Solution*, p. 357; Snyder, *Bloodlands*, pp. 185–6.

(4) K. Berkhoff, 'The "Russian" Prisoners of War in Nazi-Ruled Ukraine as Victims of Genocidal Massacre',

أما معاداة السامية فكان مفهومًا أكثر ترسخًا في ألمانيا قبل الحرب. ووفقًا للقيصر المخلوع[١]، فإن جمهورية ڤايمار (Weimar Republic) «خطط لها اليهود، وصنعها اليهود، وصينت بأموال اليهود». كما كتب في عام ١٩٢٥ واصفًا اليهود بأن مثَلهم مثَل البعوض، فهم «مصدر إزعاج ينبغي على البشرية التخلص منه بطريقة أو بأخرى... وأعتقد أن أفضل شيء يصلح لهذا الغرض هو الغاز!»[٢]. ولم تكن مثل هذه المواقف استثنائية؛ فكانت حوادث مثل ليلة الكريستال (*Kristallnacht*)، التي شهدت أعمال عنف منسقة ضد اليهود في ليلة التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٨، تتويجًا للخطاب السّام الذي نبذ -على نحو روتيني- الساكنة من اليهود بوصفهم «طُفيليين، يتغذون على أجساد الأمم الأخرى، وإنتاجهم، وأعمالهم»[٣].

ودفعت المخاوف المتزايدة بشأن عواقب مثل هذا الخطاب، بعض الناس بالفعل إلى التفكير في تكوين تحالفات جديدة. ففي منتصف العقد الرابع من القرن العشرين، حاول ديڤيد بن جوريون (David Ben-Gurion) -أول رئيس وزراء لإسرائيل فيما بعد- التوصل إلى اتفاق مع زعماء العرب في فلسطين للتمكين لأعداد أكبر من اليهود للهجرة إلى فلسطين. ولم تسفر جهوده في هذا الصدد عن شيء، حيث أُرسِلت سفارة تقودها شخصية عربية معتدلة إلى برلين للاتفاق على الشروط حول كيفية دعم النظام النازي للخطط العربية لتقويض المصالح البريطانية في الشرق الأوسط بدلًا من ذلك[٤].

وجرى الاتفاق على خطة لإعادة توطين جميع اليهود في بولندا قبل نهاية الشهر الأول من الحرب، أي سبتمبر (أيلول) ١٩٣٩. وبادئ ذي بدء، يبدو أن الخطة كانت تهدف -في مراحلها الأولى على الأقل- إلى جمع اليهود تمهيدًا لترحيلهم من الأراضي الألمانية من خلال حملة من التهجير القسري. والحق أنه جرى تطوير خطط مفصلة في أواخر العقد الرابع من القرن الماضي لترحيل اليهود الألمان إلى مدغشقر، وكانت خططًا رعناء، استندت -على ما يبدو- إلى القناعة الشعبية المضللة المتولدة من آراء كثير من الجغرافيين وعلماء الأنثروبولوجيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتقضي بأن أصول سكان مدغشقر -وهي الجزيرة الواقعة جنوبي غرب المحيط الهندي- يهودية[٥].

Holocaust and Genocide Studies 15.1 (2001), 1–32.

(١) الإشارة إلى ڤيلهلم الثاني (Wilhelm II) الثاني، قيصر ألمانيا المخلوع عام ١٩١٨. (المترجم)

(2) Röhl, *The Kaiser and his Court*, p. 210.

عن مواقف القيصر من اليهود، انظر:

L. Cecil, 'Wilhelm II und die Juden', in W. Mosse (ed.), *Juden im Wilhelminischen Deutschland, 1890–1914* (Tübingen, 1976), pp. 313–48.

(3) Hitler's speech to the Reichstag, 30 January 1939, in *Verhandlungen des Reichstags, Stenographische Berichte 4. Wahlperiode 1939–1942* (Bad Feilnbach, 1986), p. 16.

(4) Rubin and Schwanitz, *Nazis, Islamists*, p. 94.

(5) H. Jansen, *Der Madagaskar-Plan: Die beabsichtigte Deportation der europäischen Juden nach Madagaskar* (Munich, 1997), esp. pp. 309–11.

ودارت مناقشات في ألمانيا النازية حول ترحيل اليهود إلى أماكن أخرى أيضًا. والحق أن هتلر كان مؤيدًا لفكرة إنشاء دولة يهودية في فلسطين طيلة عقدين من الزمن، وذلك على النقيض مما قد ينصرف إليه ذهن المرء. ففي ربيع عام ١٩٣٨، تحدث مؤيدًا سياسة تهجير اليهود الألمان إلى الشرق الأوسط، وتشكيل دولة جديدة لتكون موطنًا لهم[١]. والحق أيضًا أن أواخر العقد الرابع من القرن العشرين شهدت وصول بعثة ألمانية رفيعة المستوى، وعلى رأسها أدولف إيخمان (Adolf Eichmann)، للقاء بعض العملاء الصهاينة في فلسطين لمناقشة سُبل التوصل إلى تسوية من شأنها أن تحل ما كان يُطلق عليه غالبًا «المسألة اليهودية the Jewish question» مرة واحدة، وإلى الأبد. والمفارقة الكبرى، أن إيخمان -الذي أُعدم لاحقًا في إسرائيل بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية- ألفَى نفسه يناقش كيفية تعزيز هجرة اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، وهو الأمر الذي بدا في مصلحة القيادة النازية المعادية للسامية، وقيادات الجالية اليهودية في القدس وما حولها[٢].

وعلى الرغم من أن المناقشات لم تسفر عن اتفاق مبرم، استمر اليهود في عد الألمان شركاء مفيدين، حتى بعد أن بدأت الحرب. ففي خريف عام ١٩٤٠، بعث أبراهام شتيرن (Avraham Stern) -وهو مؤسس حركة تدعى ليحي (Lehi) -وهي الحركة التي أصبحت معروفة للسلطات في فلسطين باسم عصابة شتيرن (Stern Gang)، وهي أيضًا الحركة التي انضم إليها رئيس الوزراء (لاحقًا) إسحاق شامير (Yitzhak Shamir) إضافة إلى نفر غيره من الآباء المؤسسين لإسرائيل الحديثة أيضًا- رسالة إلى دبلوماسي ألماني كبير في بيروت تحمل اقتراحًا جذريًا، تتوافق بمقتضاه «المصالح المشتركة» بين ألمانيا و«التطلعات القومية الحقيقية للشعب اليهودي»، التي زعم شتيرن -فضلًا عن غيره- أنهم يمثلونها. فإذا اعترف الألمان بـ «تطلعات حركة الحرية الإسرائيلية»، فإن شتيرن يعرض «المشاركة بهمة في الحرب متحالفًا مع الجانب الألماني». وإذا كان يسع ألمانيا تحرير اليهود من خلال إنشاء دولة لهم، فإن هتلر سيستفيد بالتأكيد؛ فبصرف النظر عن «تعزيز موقع النفوذ الألماني في الشرق الأوسط مستقبلًا»، فإن ذلك من شأنه أيضًا أن يعمل على «تعزيز الأساس الأخلاقي للرايخ الثالث في عيون البشرية جمعاء، وعلى نحو استثنائي»[٣].

= عن النظريات المتعلقة بـ المدغشقرية (الملغاشية) (Malagasy)، انظر:

E. Jennings, 'Writing Madagascar Back into the Madagascar Plan', *Holocaust and Genocide Studies* 21.2 (2007), 191.

(1) F. Nicosia, 'Für den Status-Quo: Deutschland und die Palästinafrage in der Zwischenkriegszeit', in L. Schatkowski Schilcher and C. Scharf (eds), *Der Nahe Osten in der Zwischenkriegszeit 1919–1939. Die Interdependenz von Politik, Wirtschaft und Ideologie* (Stuttgart, 1989), p. 105.

(2) D. Cesarani, *Eichmann: His Life and Crimes* (London, 2004), pp. 53–6.

(٣) نقلاً عن:

D. Yisraeli, *The Palestinian Problem in German Politics, 1889–1945* (Ramat-Gan, 1974), p. 315.

وكان هـذا العـرض فظًّـا؛ فالحـق أن شـتيرن كان براجماتيًا، ومـع ذلك فإن الآمال التـي علقها على التحالـف مع ألمانيا لم يشـاركه فيها جميع الرفاق داخـل منظمته؛ حتى إنه علق بُعيد ذلك -في معرض توضيحـه لموقفـه- قائـلًا: «كل ما نريده من الألمـان»، ترحيل المجندين اليهود إلى فلسـطين. ومن ثم نسـتطيع شـن الحرب هنا ضد البريطانيين لتحرير الوطن. وعلى هذا النحو سـيحصل اليهود على دولة، وسيتخلص الألمان من قاعدة بريطانية مهمة في الشرق الأوسط، وسيحلون أيضًا المسـألة اليهودية في أوروبا ...». لقد بدا الأمر منطقيًا، ومروعًا في الآن نفسـه؛ لقد كان القادة اليهود يرون التعاون بهمّة مع أكبر معادٍ للسامية في كل العصور، والتفاوض مع مرتكبي المحرقة (*Holocaust*) قبل ما يقرب من اثني عشر شهرًا من بدء عمليات الإبادة الجماعية[1].

ومـن منظـور هتلـر؛ لم يكن المكان الـذي يُرحَّل إليه اليهـود من الأهمية بمكان، وكأن لسـان حاله قائل: إلى حيث ألقت، وكانت هذه هي قوة معاداته للسـامية. وكانت فلسـطين مجرد موقع من بين عدد كبير من المواقع التي جرى بحثها والنظر فيها، ومع ذلك فقد نوقشـت صلاحية بقاع في جوف روسـيا أيضًا بجدية. وقال هتلر للقائد العسـكري الكرواتي سـلافكو كفاتيرنيك (Slavko Kvaternik) في عام ١٩٤١ «لا يهمني إلى أين يذهب اليهود». فسيبيريا، أو مدغشقر سيَّان عندي[2].

وفي مواجهة المشاكل المزمنة في روسيا، أصبح هذا الموقف غير الرسمي أكثر صرامة شيئًا فشيئًا، وتحـول إلى موقف شـبه رسـمي، وأشـد قسـوة؛ حيث بدا للمخططيـن النازيين أن حقيقـة أن اليهود قد تجمعوا في المعسكرات باتت تعني أن قتلهم جماعيًا أمر يمكن تحقيقه دون كبير عناء[3]. وفي مواجهة اسـتنزاف المـوارد -التي كانت شـحيحة بالفعل- تطلع نظام معاد للسـامية إلى القتل على نطاق واسـع، وعلى نحو ممنهج. وكان اليهود قد جُمعوا بالفعل في معسكرات في بولندا، وكانوا هدفًا جاهزًا وسهلًا في وقت كانت فيه القيادة النازية تدرك أن هناك ملايين الأفواه الجائعة التي لا يمكن إطعامها.

وكتـب أدولـف إيخمان قبيل منتصـف يوليو (تمـوز) ١٩٤١، قائلًا: «هناك خطر ماثل هذا الشـتاء، حيث لم يعد من الممكن إطعام جميع اليهود. وينبغي التفكير بجدية فيما إذا كان الحل الأكثر إنسـانية هو القضاء على هؤلاء اليهود -غير القادرين على العمل- من خلال ضرب أو آخر من ضروب الإعداد للعمل السريع»[4]. وهكذا عُزِل المسنون، والعجزة، والنساء، والأطفال وأولئك الذين جرى تحديدهم على أنهـم «غيـر قادريـن علـى العمل» بوصفهـم مسـتهلكين؛ لقد كانت تلـك هي الخطـوة الأولى في

---

(1) J. Heller, *The Stern Gang: Ideology, Politics and Terror, 1940–1949* (London, 1995), pp. 85–7.

(2) T. Jersak, 'Blitzkrieg Revisited: A New Look at Nazi War and Extermination Planning', *Historical Journal* 43.2 (2000), 582.

(٣) انظر في المقام الأول:

G. Aly, '"Judenumsiedlung": Überlegungen zur politischen Vorgeschichte des Holocaust', in U. Herbert (ed.), *Nationalsozialistische Vernichtungspolitik 1939–1945: neue Forschungen und Kontroversen* (Frankfurt-am-Main, 1998), pp. 67–97.

(4) Streit, 'The German Army and the Politics of Genocide', p. 9; Fritz, *Ostkrieg*, p. 171.

التعويض عن قيمة «س مليون» الذين تنبّأ المخططون الألمان بموتهم قُبيل غزو الاتحاد السوڤيتي- بأرقام حقيقية.

وهكذا بدأت سلسلة من الحوادث التي لم تخبرها البشرية من قبل، سواء من حيث النطاق، أو الرعب. فقد سيق البشر كالماشية، ووضعوا في حظائر بحيث كان من الممكن تقسيمهم إلى أولئك الذين سيعملون بوصفهم عمالًا بالسخرة، وأولئك الذين اعتُبرت حياتهم ثمنًا ينبغي دفعه ليبقى غيرهم على قيد الحياة. وأصبح جنوب روسيا وأوكرانيا والسهوب الغربية سببًا للإبادة الجماعية؛ لقد كان إخفاق الأرض في إنتاج القمح بالكميات المتوقعة سببًا مباشرًا للمحرقة (*Holocaust*).

وفي باريس، دأبت الشرطة الفرنسية على إجراء عملية إحصاء سرية للأجانب من اليهود، وغيرهم منذ أواخر العقد الرابع من القرن العشرين. وهكذا أضحت عملية الترحيل مسألة بسيطة من خلال فهارس البطاقات التي سُلّمت إلى المحتلين الألمان. ومن ثم أُرسل الحراس لاحتجاز عائلات بأكملها لنقلها إلى معسكرات في الشرق، ولا سيما في بولندا[١]. وعمل تسجيل اليهود في دول محتلة أخرى -مثل هولندا، بوصف ذلك جزءًا من البرنامج الواسع لمعاداة السامية النازية- على جعل عملية ترحيل هؤلاء الذين جرى تحديدهم على أنهم فائض عن الحاجة، أمر سهل للغاية[٢]. وبعد أن هاجم الألمان الاتحاد السوڤيتي منطلقين من أفكار من قبيل: مناطق الفائض في الغلال، انحرفت تلك الأفكار ودارت حول فائض السكان، وكيفية التعامل معهم.

وفي ظل الإحباط الذي شعرت به النخبة النازية بشأن نتائج الغزو، خلصت إلى أن هناك حلًّا واحدًا لمشكلات ألمانيا؛ ففي انعكاس بشع للاجتماع الذي عُقد في برلين في ٢ مايو (آيار) ١٩٤١، عُقد اجتماع آخر بعد أقل من ثمانية أشهر في ڤانسي (Wannsee)، وهي إحدى ضواحي برلين الراقية؛ حيث دار السؤال مجددًا حول موت ملايين تفوق الحصر. وكان الاسم الذي أُطلق على الاستنتاجات التي جرى التوصل إليها صباح يوم ٢٠ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ شديد البرودة، بل يبعث القشعريرة في صُلب المرء. لقد بدت الإبادة الجماعية لليهود -في نظر صانعيها- مجرد استجابة لمشكلة طرأت؛ لقد أُطلق على المحرقة (*Holocaust*) اسم «الحل النهائي Final Solution»[٣].

---

(1) J.-M. Belière and L. Chabrun, *Les Policiers français sous l'Occupation, d'après les archives inédites de l'épuration* (Paris, 2001), pp. 220–4; P. Griffioen and R. Zeller, 'Anti-Jewish Policy and Organization of the Deportations in France and the Netherlands, 1940–1944: A Comparative Study', *Holocaust and Genocide Studies* 20.3 (2005), 441.

(2) L. de Jong, *Het Koninkrijk der Nederlanden in de Tweede Wereldoorlog*, 14 vols (The Hague, 1969–91), 4, pp. 99–110.

(٣) عن مؤتمر ڤانسي (Wannsee conference)، انظر:

C. Gerlach, 'The Wannsee Conference, the Fate of German Jews, and Hitler's Decision in Principle to Exterminate All European Jews', *Journal of Modern History* 70 (1998), 759–812; Browning, *Origins of the Final Solution*, pp. 374ff.

لـم يمـض وقت طويل، حتـى كانت الدبابـات، والطائرات، والأسـلحة، والذخائر فـي طريقها إلى موسـكو من لندن، وواشـنطن؛ حيث حمي وطيس المعركة ضد ألمانيا. وكانت هذه الشبكات والطرق التجارية وقنوات الاتصال تعمل منذ العصور القديمة من خلال ما أُطلق عليه «الممر الفارسـي»، وهو ممـر يمتـد داخليًا من موانئ الخليج في عبادان، والبصرة، وبوشـهر وغيرهـا، ويمر بمناطق مثل طهران عبر آراك، وقُم في جوف إيران، وينتهي في القوقاز وصولًا إلى الاتحاد السـوفيتي. وجرى شـق الطرق أيضًا عبر الشرق الأقصى الروسي من خلال آسيا الوسطى[١].

كما جرى تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين روسيا وبريطانيا العظمى مجددًا، وعلى الرغم من التحديات التي كانت تنطوي عليها؛ فقد واجهت قوافل القطب الشمالي -التي حملت المؤن والذخائر إلى مورمانسـك (Murmansk) وشمال روسـيا- ظروفًا خطيرة للغاية في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر. وكان استخدام هذا الطريق في نطاق عمل غواصات (U)، والبوارج الثقيلة المدرعة مثل: تيربيتز (Tirpitz)، وبسـمارك (Bismarck)، والتـي كان سـاحل بحـر الشـمال فـي النرويج مسـرحًا لعملياتها، ومنطقة لسـيادتها، يتطلب مرونة هائلة، ناهيك عن الجسـارة بطبيعة الحال. وأحيانًا، عاد أقل من نصف عـدد السـفن التـي انطلقت إلى وجهتها. ومع ذلك لـم يحصل عدد كبير من الجنـود الذين اجتازوا هذا الطريق على ميداليات أو أنواط لخدمتهم، أو لجسارتهم لعقود بعد نهاية الحرب[٢].

وسرعان ما تحول المد ببطء، ولكن بثبات حيث طُرِدت القوات الألمانية من قلب العالم. للحظة، بدا الأمر كما لو أن مقامرة هتلر ستؤتي أكلها؛ لقد كان بالفعل سيدًا لأوروبا في كل شيء سوى الاسم، وبدا أن جهوده لفتح آسـيا الوسـطى من جهتي الشـمال والجنوب قد نجحت عندما وصلت قواته إلى ضفاف نهر الفولغا. بيد أن المكاسب سرعان ما تحولت إلى خسائر؛ حيث دفع الروس الجيش الألماني بوحشية، وبلا هوادة باتجاه برلين.

وغـرق هتلـر فـي لُجـة من اليأس عندمـا أدرك مـا كان يحدث له. وكشـف تقرير بريطاني سـري أن الزعيـم الألمانـي بـدت عليه أمارات دالة علـى خيانة جنون العظمة والقدرية لـه، وذلك على الرغم من النجاحـات الواضحـة في الشـرق. هذا إلى جانب قرائن متزايدة على إصابته بما يسـمى عقدة المسـيح (Messiah complex)[٣]، وذلك بعد تحليل خطاب ألقاه في ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٤٢[٤]. لقد كان هتلر

---

(1) R. Coakley, 'The Persian Corridor as a Route for Aid to the USSR', in M. Blumenson, K. Greenfield et al., *Command Decisions* (Washington, DC, 1960), pp. 225–53;

وانظر أيضًا:

T. Motter, *The Persian Corridor and Aid to Russia* (Washington, DC, 1952).

(٢) عن القوافل، انظر:

R. Woodman, *Arctic Convoys, 1941–1945* (London, 2004).

(٣) حالة ذهنية يعتقد المصاب بها أن قدره أن يكون منقذًا ومخلّصًا لغيره. (المترجم)

(4) J. MacCurdy, 'Analysis of Hitler's Speech on 26th April 1942', 10 June 1942, Abrams Archive, Churchill College, Cambridge.

-من منظور التحليل النفسـي- مجازفًا مذهلًا، كما كان رجلًا مناسـبًا لصورة المقامر رغمًا عنه[1]، وقد تخلى عنه حظه أخيرًا.

وبدأ المد في التحول إلى جذر خلال صيف عام ١٩٤٢. فقد أُوقف زحف روميل في العلمين، بعد أن دفع أموالًا لتمويل خطط محمد الحسيني، الذي طلب من سكان القاهرة إعداد قوائم بمنازل السكان اليهود، وأماكن عملهم حتى يتمكنوا من القبض عليهم وإبادتهم في شـاحنات الغاز التي طورها ضابط ألماني متعصب كان مقيمًا ثمة[2].

واستغرق دخول الولايات المتحدة إلى الحرب وقتًا لإحداث فرق واضح؛ فبعد أن أفاقت الولايات المتحـدة مـن صدمـة الهجـوم اليابانـي على مينـاء بيـرل هاربـور (Pearl Harbor)، اسـتعد الأمريكيون للحـرب علـى جبهتيـن. ثم تمكنوا -بعـد أن انتصروا فـي معركـة ميـدواي (Midway) الملحمية- من الانتقـال مـن طـور الدفاع إلى طور الهجوم فـي المحيط الهادئ، بحلول منتصـف عام ١٩٤٢. وجرت عمليات نشـر القوات البرية في أوائل العام التالي في شـمال إفريقيا، وصقلية وجنوب إيطاليا، وبأخَرةٍ في أماكن أخرى في أوروبا، وكانت بداية واعدة بتحويل مسار الحرب[3].

ثـم كان هنـاك الوضع فـي سـتالينجراد (Stalingrad). فقد وافق هتلر -في ربيـع عام ١٩٤٢- على اقتـراح حمل الاسـم الرمزي «العملية الزرقـاء» (Operation Blue) وهي خطـة تضمنت توغل القوات الألمانية في جنوب روسيا لتأمين السيطرة على حقول النفط في القوقاز التي أصبحت مركزية في خطط حـرب الرايخ الثالـث. وكان الهجوم طموحًا ومحفوفًا بالمخاطر، وكان النصر في الحرب يعتمد عليه، كمـا أدرك كبـار الجنـرالات وهتلـر نفسـه، إذ أعلـن الزعيـم الألماني: «إذا لـم أصل إلى نفـط مايكوب (Maikop) وجروزني (Grozny)، فينبغي عليَّ أن أنهي الحرب»[4].

---

(1) E. Schwaab, *Hitler's Mind: A Plunge into Madness* (New York, 1992).

(2) Rubin and Schwanitz, *Nazis, Islamists*, pp. 139–41.

وبصفة عامة، انظر:

M. Carver, *El Alamein* (London, 1962).

(٣) عن الولايات المتحدة في المحيط الهادئ، انظر:

H. Willmott, *The Second World War in the Far East* (London, 2012);

وانظر أيضًا:

A. Kernan, *The Unknown Battle of Midway: The Destruction of the American Torpedo Squadrons* (New Haven, 2005).

(٤) نقلاً عن:

Fritz, *Ostkrieg*, p. 235;

وعن السياق، انظر:

Op cit, pp. 231–9.

ومثلت ستالينجراد مشكلة كبرى؛ ومع أنه لم يكن من الضروري الاستيلاء على المدينة، على الرغم من المكانة التي ارتبطت باسمها، وعلى الرغم أيضًا من كونها مركزًا صناعيًا مهمًا، فإن أهميتها كانت تكمن في موقعها الاستراتيجي على منعطف في نهر الڤولغا. وكان تحييد ستالينجراد أمرًا حيويًّا لحماية المكاسب التي تصور الألمان أن بوسعهم تحقيقها في القوقاز. وبحلول خريف عام ١٩٤٢، كان من الواضح أن الأمور تسير على ما يرام. بيد أن الهجوم الألماني بدأ متأخرًا، وسرعان ما واجه المشكلات؛ فقد أُهدرت القوى العاملة والذخائر، والوقود الثمين على نحو متزايد، وهي موارد لم تستطع برلين توفيرها بسهولة- بكميات ضخمة في ستالينجراد، وكان هذا نذير سوء. أما الأسوأ من ذلك فهو حقيقة أن الانتباه تحول بعيدًا عن الهدف الاستراتيجي الأساسي للحملة، لقد بات النفط هدفًا للغزو. وسرعان ما أدرك بعض المقربين من هتلر -مثل ألبرت شبير- معنى التأخير؛ لقد بات متعينًا على ألمانيا أن تكسب الحرب «بنهاية أكتوبر (تشرين الأول)، قبل أن يبدأ الشتاء الروسي، وإلا فقدنا كل شيء مرة واحدة، وإلى الأبد»[١].

وبينما كان لا يزال هناك الكثير مما كان ينبغي فعله فيما يتعلق بالتخطيط لكيفية اجتثاث القوات الألمانية من الشرق والغرب، وكيفية تنسيق خطة الكماشة التي ينبغي أن تغلق في برلين، بحلول نهاية عام ١٩٤٢، كانت أفكار الحلفاء الجدد -أعني بريطانيا، والولايات المتحدة، والاتحاد السوڤيتي- تستشرف المستقبل. عندما التقى زعماء الدول الثلاث في طهران عام ١٩٤٣، ثم في يالطا (Yalta) في ربيع عام ١٩٤٥، وأخيرًا في بوتسدام (Potsdam) بعد بضعة أشهر. وكان من الواضح أن الجهد، والنفقات، والصدمة الناجمة عن مواجهة كبرى أخرى قد استنفدت قوى أوروبا الغربية تمامًا.

وبدا من الواضح -بالفعل- أنه ينبغي القضاء على الإمبراطوريات القديمة؛ وكان الأمر ببساطة يتعلق بأفضل طريقة لإدارة هذه العملية. وكان السؤال المطروح هو كيفية اتخاذ أقل القرارات سوءًا -بإزاء الإرهاق الأخلاقي السائد آنئذ- وحتى هذا لم يجر تنفيذه بنجاح؛ ففي أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٤٤، عاد تشرشل إلى وطنه بعد زيارة إلى موسكو، وبدا «منتعشًا مكرَّمًا»، كما ذكر لـ ستالين، بفضل «الضيافة الروسية المعهودة، التي تفوقت على نفسها». وسُجِّلت أحداث دقيقة شهدتها زيارته، مثل أداء كونشرتو البيانو الثالث لرحمانينوف (Rachmaninov)، والفرصة التي سنحت لـ تشرشل لبعض «التسوق الخفيف»، إلى جانب مجموعة من الاستنتاجات التي جرى التوصل إليها خلال الاجتماعات. إلا إنها لم تسجل النقاشات حول مصير أوروبا ما بعد الحرب قط؛ حيث حُذِفت تلك المعلومات من التقارير الرسمية[٢].

وتنازلت بريطانيا عن وحدة أراضي بولندا -التي أقسم مجلس العموم على حمايتها في عام

---

(1) Ibid., pp. 261-70; Speer, *Inside the Third Reich*, p. 215.

(٢) عن زيارة تشرشل إلى موسكو في أكتوبر ١٩٤٤، انظر:

CAB 120/158.

١٩٣٩ - وتغيرت حدودها تغيرًا جذريًا، عندما قرر ونستون تشرشل أن المجلس الذي جمعه بـ ستالين يعد لحظة مناسبة للعمل، فأمسك بقلم رصاص أزرق لتمييز الخريطة التي منحت ثلث أراضي ألمانيا للاتحاد السوفيتي؛ كما اقترح تقسيمات عبر عشرات الأقطار الأخرى في وسط أوروبا وشرقها على نحو يرضي الطرفين- مثل نسبة ٩٠:١٠ في رومانيا لصالح الاتحاد السوفيتي، والعكس في حالة اليونان؛ وطبق تقسيم آخر في بلغاريا، والمجر ويوغوسلافيا، بنسبة ٥٠:٥٠. وأدرك تشرشل أن «الطريقة المرتجلة» التي جرى بها تقرير مصير «ملايين الأشخاص» يمكن وصفها بأنها «مشؤومة إلى حد ما». لقد تضمن ثمن إبقاء ستالين وديعًا التضحية بحرية نصف قارة أوروبا. وقال تشرشل لرئيس الاتحاد السوفيتي: «يجدر بنا أن نحرق هذه الورقة». فرد عليه ستالين قائلًا: «كلا، بل احتفظ بها»[1].

وأدرك تشرشل الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان؛ ففي خطابه الشهير الذي ألقاه في فولتون (Fulton) بولاية ميسوري (Missouri) عام ١٩٤٦، حذر من سقوط الستار الحديدي على جميع أنحاء أوروبا، بعد أن أشار إلى أن «جميع عواصم الدول القديمة في وسط أوروبا وشرقها، مثل: وارسو، وبرلين، وبراغ، وڤينا، وبودابست، وبلغراد، وبوخارست، وصوفيا، باتت تقع آنذاك في مجال نفوذ الاتحاد السوفيتي»[2]. وجميعها باستثناء ڤينا، ونصف برلين ستكون خلف ذلك الستار. لقد خاض الحلفاء الحرب العالمية الثانية لإيقاف الظل المظلم للاستبداد الذي فرض نفسه على جميع أرجاء أوروبا. بيد أنه لم يكن يسعهم فعل شيء لوقف هبوط الستار الحديدي.

وعلى هذا النحو انقسمت أوروبا إلى قسمين في نهاية الحرب العالمية الثانية. لقد قاتل النصف الغربي بشجاعة وبطولة. وعلى مدى عقود بعد ذلك، هنأ ذلك القسم نفسه على إنجازه في القضاء على شرور النازية، بيد أنه تهرب من الاعتراف بدوره في نشأتها. ولم تشغل بريطانيا نفسها بالتفكير في ذلك الجزء من القارة الذي استسلم على هيئة مجموعة جديدة من مستعمرات ما بعد الحرب. وأدت هزيمة ألمانيا إلى الشعور بإرهاق الحرب المزمن؛ فاستُنفِدت اقتصادات بريطانيا، وفرنسا، وانهيار هولندا، وبلجيكا، وإيطاليا، والدول الاسكندنافية. واقترن الخوف بالتفكك، ولم يكن ذلك الخوف نابعًا من سباق تسلح من المرجح أن يتضمن بحوثًا مكثفة في الأسلحة النووية، بل كان نابعًا من احتمال المواجهة المباشرة. فمع تمتع القوات السوفيتية في أوروبا بتفوق عددي بنسبة ٤ : ١ على قوات الحلفاء الآخرين، مدعومة بمزايا في نشر الدبابات، كانت هناك مخاوف حقيقية من احتمال اندلاع المزيد من

---

(1) M. Gilbert, *Churchill: A Life* (London, 1991), p. 796; R. Edmonds, 'Churchill and Stalin', in R. Blake and R. Louis (eds), *Churchill* (Oxford, 1996), p. 320.

وانظر أيضًا:

Churchill, *Second World War*, 6, pp. 227–8.

(2) W. Churchill, 'The Sinews of Peace', 5 March 1946, in J. Muller (ed.), *Churchill's 'Iron Curtain' Speech Fifty Years Later* (London, 1999), pp. 8–9.

الأعمال العدائية بعد استسلام ألمانيا. ونتيجة لذلك، أمر تشرشل بوضع خطط للطوارئ تستند إلى فرضية أن هزيمة هتلر كانت بمثابة نهاية فصل، وليس النهاية في حد ذاتها. لقد أخفى الاسم الذي أُطلق على هذه الخطط سبب إعدادها في المقام الأول، لقد أُطلق عليها اسم «عملية ما لا يُتصوَّر» (Operation Unthinkable)، بيد أنها كانت قابلة للتصور على نحو واضح في أذهان المخططين البريطانيين[١].

وكانت الحاجة إلى الاستعداد للطوارئ مستندة بقوة إلى حقيقة الوضع الهش سريع التحول مع انهيار ألمانيا. وعلى هذا النحو أخذت مواقف ستالين تتسم بالصرامة شيئًا فشيئًا، ولم يكن دافعه في تلك الصرامة التخوين الناجم عن تحالفه الكارثي مع هتلر في عام ١٩٣٩ فحسب، بل كانت نتاجًا أيضًا للثمن المذهل الذي دفعه الاتحاد السوفيتي -وفي المقام الأول في ستالينجراد، ولينينجراد- للخروج سالمًا من الهجوم الألماني[٢]. ومن منظور موسكو، أصبح بناء نظام من المناطق العازلة، والدول العميلة، بالإضافة إلى خلق حالة من الخوف وتعزيزها من خلال لجوء الاتحاد السوفيتي إلى اتخاذ إجراءات مباشرة متى شعر بأدنى تهديد، أمران من الأهمية بمكان. وفي ظل هذه الظروف، كان شل البلدان الواقعة إلى الغرب من خلال استهداف قواعدها الصناعية، وحتى إزالتها خطوة منطقية يجدر به اتخاذها، تمامًا مثلما كان توفير الدعم المالي واللوجستي للأحزاب الشيوعية الناشئة واجبًا كذلك. وكما برهن التاريخ مرارًا، فإن الهجوم غالبًا ما يكون خير وسيلة للدفاع[٣].

وكانت إحدى نتائج تلك السياسة أن اضطهاد هتلر عُدَّ أسوأ من اضطهاد ستالين. وكانت رواية الحرب على أنها انتصار على الطغيان رواية انتقائية تمامًا، حيث اختارت عدوًّا سياسيًّا واحدًا ركزت الهجوم عليه، بينما تسترت على أخطاء وإخفاقات الأصدقاء الجدد. وربما يختلف عدد كبير من الناس في أوروبا الوسطى والشرقية مع قصة انتصار الديمقراطية هذه، مشيرين إلى الثمن الذي دفعه أولئك الذين ألفَوا أنفسهم في الجانب الخطأ من ذلك الخط التعسفي، على مدى عقود تالية. ومع ذلك، فقد كان لأوروبا الغربية تاريخها الذي ينبغي حمايته، وكان هذا يعني التأكيد على النجاحات، والتزام الصمت بشأن الأخطاء والقرارات التي يمكن النظر إليها على أنها سياسة واقعية. وتجسد ذلك النهج في حصول الاتحاد الأوروبي على جائزة نوبل للسلام في عام ٢٠١٢؛ فلله در أوروبا التي تمكنت من تجنب الصراع لبضعة عقود! ومع ذلك، أليست هي نفسها التي تسببت في نشوب حروب شبه مستمرة، لم تقع في نطاق حدودها فحسب، بل تجاوزتها إلى جميع أنحاء العالم، ولقرون؟!

---

(1) D. Reynolds, *From World War to Cold War: Churchill, Roosevelt, and the International History of the 1940s* (Oxford, 2006), pp. 250–3.

(2) M. Hastings, *All Hell Let Loose: The World at War, 1939–1945* (London, 2011), pp. 165–82; Beevor, *Stalingrad*, passim.

(٣) انظر:

A. Applebaum, *Iron Curtain: The Crushing of Eastern Europe, 1944–56* (London, 2012).

في العصور القديمة المتأخرة، كان من الممكن أن يكون منح تلك الجائزة مُكافئًا لمنحها لروما بعد قرن من استباحتها على أيدي القوط. أو ربما للصليبيين بعد خسارتهم عكا بسبب تخفيف حدة الخطاب المعادي للمسلمين في العالم النصراني. وربما يعود صمت المدافع إلى حقيقة أنه لم يعد هناك شيء مستحق للقتال عليه، وعلى هذا النحو لم يعد يُسمَع سوى أصوات سلسلة من صانعي السلام المستبصرين، والمرموقين، والمفترضين في أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين. كما لم يعد يُرى سوى عجائب تأتي بها منظمة دولية -غير عملية- من الدول الأوروبية التي لم يدقق المحاسبون في حساباتها منذ سنوات.

على أية حال؛ فقد بدأ عالم جديد في الظهور في عام ١٩١٤ عندما أخذت الشمس في الأفول عن أفق أوروبا الغربية. وتسارعت وتيرة تلك العملية مع اندلاع الأعمال العدائية بين عامي ١٩٣٩-١٩٤٥، بل إنها استمرت بالرغم من نهاية الحرب. وكان السؤال الذي طرح نفسه آنذاك: من ذا الذي سيسيطر على شبكات التجارة الكبرى في أوراسيا؟ وكان هناك سبب وجيه يدفع للتفكير في هذا الأمر بعناية؛ فقد اتضح أن الأرض الخصبة، والرمال الذهبية في قلب العالم، ومياه بحر قزوين تخفي أكثر مما تُظهر.

-٢١-

طريق الحرب الباردة

قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، كانت معركة السيطرة على قلب آسيا تجري على قدم وساق؛ فقد تعهدت بريطانيا والاتحاد السوڤيتي رسميًا -في الاتفاقية المسماة عامة «المعاهدة الثلاثية Tripartite Treaty» والموقعة في يناير ١٩٤٢- بـ«حماية الشعب الإيراني من الحرمان، والصعوبات الناشئة عن الحرب الجارية»، وضمان حصوله على حد الكفاية من الغذاء والملبس. والحق أن شاغل الدولتين لم يكن أمن إيران كما أوضحت المعاهدة؛ بل كان شاغلهما الاستيلاء على بنيتها التحتية؛ لذا فقد جاء في المعاهدة أنه يحق لبريطانيا والاتحاد السوڤيتي استغلال الطرق، والأنهار، وخطوط الأنابيب، والمطارات، ومحطات التلغراف، في البلاد بالطريقة التي تحلو لهما[١]. كما نصت المعاهدة على أن وجود قوات الدولتين على أرض إيران لا يعد احتلالًا؛ بل حالة من حالات تقديم يد المساعدة لحليف. لقد كانت عبارة جميلة، بل -بالأحرى- بديعة.

وُضِعت المعاهدة -في الظاهر- للحيلولة دون التوسع الألماني في إيران، وتمكين وصول الإمدادات التي كان يجري جلبها عبر الخليج لصيانة المجهود الحربي للحلفاء. ومع ذلك، فقد اعتقد بعض الناس أن البريطانيين كانوا يفكرون في المستقبل أيضًا؛ فقد دأب الوزير الأمريكي في طهران، لويس ج. دريفوس (Louis G. Dreyfus) على إرسال برقيات منتظمة إلى واشنطن معلقًا على المطالب العدوانية المتزايدة للشاه، وعلى الاتهامات بوجود طابور خامس في إيران يعمل ضد المصالح البريطانية. وكتب في أغسطس (آب) ١٩٤١ قائلًا: «يقيني أن البريطانيين يستخدمون [الوضع الحالي] ذريعة لاحتلال إيران بصفة نهائية، وهم يبالغون عمدًا في قوة» الظروف الحالية[٢].

ومع ذلك لم تتحقق أهداف بريطانيا -المتمثلة في الحفاظ على موقعها في إيران وتعزيزه- بسبب الطريقة التي تعامل بها مسؤولوها وقواتها مع أهل البلاد. فقبل عقد كامل من الحرب، كتب أحد الصحفيين نقدًا لاذعًا لسلوك بريطانيا، محتجًا بأن البريطانيين يعاملون الإيرانيين معاملة سيئة «قد ترقى

---

(1) A. Millspaugh, *Americans in Persia* (Washington, DC, 1946), Appendix C; B. Kuniholm, *The Origins of the Cold War in the Near East: Great Power Conflict and Diplomacy in Iran, Turkey and Greece* (Princeton, 1980), pp. 138–43.

(2) The Minister in Iran (Dreyfus) to the Secretary of State, 21 August 1941, *Foreign Relations of the United States, Diplomatic Papers 1941*, 7 vols (Washington, DC, 1956–62), 3, p. 403.

إلى معاملة شركة الهند الشرقية للهنود قبل قرنين من الزمان»[1]. وتأججت العداوات عندما أصر الضباط البريطانيين على ضرورة أن يؤدي الضباط الإيرانيون التحية العسكرية لهم عند اجتيازهم بهم، في حين لم يكن الضباط البريطانيون مجبرين على الرد بالمثل. وانتشرت الشكايات على نطاق واسع من أن البريطانيين يتصرفون مثل «السادة (Sahibs)، والرجال البيض، ويعاملون [الإيرانيين] كما لو أنهم شعب مُستعمَر». وكان هذا تناقضًا حادًّا مع سلوك الضباط السوفيت الذين نأوا بأنفسهم عن الاحتكاك بالإيرانيين، ونادرًا ما خرجوا من ثكناتهم، ولم يطالبوا الضباط الإيرانيين بأداء التحية العسكرية لهم، على الأقل وفقًا لشهادة ضابط استخبارات ألماني، كان متمركزًا في المنطقة[2].

وكانت مواقف السير ريدر بولارد (Sir Reader Bullard)، السفير البريطاني نموذجية في هذا الظرف الدقيق. فلم يكن يرى أن ثمة علاقة بين نقص الغذاء والتضخم الاقتصادي -في المراحل الأخيرة من الحرب- بفشل قوات الاحتلال، أو بالصعوبات اللوجستية للحفاظ على الممر الفارسي لنقل السلاح والسلع الأخرى شمال الخليج. وكتب بولارد قائلًا: إن الخطأ يقع على عاتق الإيرانيين أنفسهم؛ إذ «يجد الفُرس في السرقة متعة مزدوجة، فهم يرفعون الأسعار إلى حد المجاعة، ثم يلقون باللائمة على البريطانيين دائمًا»[3]. كما أشار إلى «النظرة الدونية التي أنظر بها إلى الإيرانيين»، وأضاف في إحدى رسائله -التي بعث بها إلى لندن- هازئًا: إن «معظم الفُرس سوف يبعثون ذُبابًا في تجسُّدهم التالي»[4]. لقد لفتت تلك العبارات انتباه رئيس الوزراء ونستون تشرشل، حتى إنه علق عليها قائلاً: «مهما بدا ازدراء السير ريدر بولارد لجنس الفُرس -قاطبة- طبيعيًّا، فإنه يضر بكفاءته من جهة، وكذلك بمصالحنا من جهة أخرى»[5].

وما زاد الطين بلة هو أن مثل هذه الآراء -التي ترسخت بعمق- حول الاستحقاق والتفوق كانت بعيدة كل البعد عن الحقائق على الأرض؛ حيث بات من الواضح أن المركز المهيمن الذي شيده البريطانيون في البلاد كان في مهب الريح. واندلعت مشاهد قبيحة في طهران عام ١٩٤٤ عندما اكتشف

---

(1) Ali Dashti, writing in December 1928,

نقلًا عن:

Buchan, *Days of God*, p. 73.

(2) B. Schulze-Holthus, *Frührot in Persien* (Esslingen, 1952), p. 22.

أرسلت أبويهر (Abwehr) (الاستخبارات العسكرية الألمانية)، شولز-هولثوس (Schulze-Holthus) إلى إيران تحت غطاء عمله بوصفه نائب قنصل في مدينة تبريز. وظل يعمل تحت هذا الغطاء في طهران خلال الحرب، حيث قدم الدعم للفصائل المناهضة للحلفاء. انظر أيضًا في هذا الصدد:

S. Seydi, 'Intelligence and Counter-Intelligence Activities in Iran during the Second World War', *Middle Eastern Studies* 46.5 (2010), 733–52.

(3) Bullard, *Letters*, p. 154.

(4) Ibid., p. 216.

(5) Ibid., p. 187.

الروس أن المفاوضات تجري لمنح امتياز للتنقيب عن النفط شمالي إيران لتحالف أمريكي من منتجي النفط. وأشعل حزب توده (Tudeh party) -وكان قوامه مجموعة من المتطرفين اليساريين الذين حظيت رسالتهم الإصلاحية، وإعادة توزيع الثروة، والحداثة بدعم كبير من موسكو- النيران في البلاد. وحمل الاتحاد السوفيتي على عاتقه مسؤولية عرقلة هذه المفاوضات؛ حتى إن القوات الروسية نزلت -في ذروة هذه التوترات- إلى الشوارع، وسارت جنبًا إلى جنب مع آلاف المتظاهرين بدعوى حمايتهم. وبدا الأمر -في أعين الكثيرين- مزعجًا للغاية، لقد بدا كما لو أن السوفيت سيلجؤون إلى استخدام القوة للتمكين لأنفسهم، بل وإلغاء الاتفاقية. وهذا ما أكده السفير العدواني سيرجي كافتارادزه (Sergei Kavtaradze)، مساعد مفوض الخارجية، الذي أرسله ستالين إلى طهران محذرًا من عواقب إثارة غضب الاتحاد السوفيتي[١].

وفي خاتمة شديدة المأسوية، تُرك الأمر برمته لـ محمد مُصدّق، وكان سياسيًّا حاذقًا، وواضحًا، وبارعًا، يتمتع بملكة التقاط روح العصر. وكتب أحد المسؤولين البريطانيين أنه كان رجلًا «أشبه بحصان سيارة الأجرة، وهو أصم إلى حدٍّ ما؛ بحيث كان ينصت إلى محدثه بنظرة متوترة، ولكن دون أن تبدو على قسمات وجهه أمارة ما. ويتكلم مع محدثيه على مسافة تبلغ نحو ست بوصات، في نطاق يُشتم فيه رائحة خفيفة للأفيون. وتميل ملحوظاته إلى الاسترسال؛ بحيث يعطي محدثه انطباعًا بأنه لا يمكن مقارعته في الجدل»[٢]. وكان مُصدّق «فارسيًّا من المدرسة العتيقة، وهو مهذب، يسرف في الانحناء، والمصافحة بحرارة»، وفقًا لملف تعريف في صحيفة الأوبزرفر *Observer*، أُضيف إلى ملفات وزارة الخارجية[٣]. والحق أن البريطانيين -كما ثبت فيما بعد- استخفوا بالرجل إلى حد خطير.

بدأ مُصدّق في شرح رؤية، طرحها لأول مرة في البرلمان في أواخر عام ١٩٤٤، مفادها أن إيران لا ينبغي لها أن تسمح لأحد بأن يستغلها، ولا أن تُراع من القوى الخارجية. وقدم تنازل نوكس دارسي، والطريقة التي تصرفت بها الأنجلو-إيرانية (الأنجلو-فارسية سابقًا) دروسًا موضوعية فيما يمكن أن يحدث، إذا لم تكن القيادة قوية بما فيه الكفاية. وقال مرارًا: لطالما استُغلَّت إيران، واستُخدمت بيدقًا في أيادي الفُرقاء ذوي المصالح المتنافسة، ولم يحقق هذا الاستغلال فائدة تذكر لأهل البلاد. لقد كان خطأً فادحًا أن تُملى على إيران الخيارات بشأن من ينبغي عليها أن تتعامل معه تجاريًّا ببساطة؛ ومن ثم فقد دعا إلى التفاوض مع كل دولة على حدة، قائلًا: «فلنتفاوض مع كل دولة ترغب في شراء النفط، ولنشرع في العمل معًا على تحرير البلاد»[٤].

---

(1) C. de Bellaigue, *Patriot of Persia: Muhammad Mossadegh and a Very British Coup* (London, 2012), pp. 120–3.

(2) Shepherd to Furlonge, 6 May 1951, FO 248/1514.

(3) The Observer, 20 May 1951, FO 248/1514.

(٤) نقلاً عن:

de Bellaigue, *Patriot of Persia*, p. 123, n. 12.

وكان مصدّق يتحدث نيابة عن عدد كبير من الناس الذين طالما رددوا مثل هذا الكلام. فمن قَبيل المفارقة أن تجلب الثروات المدفونة تحت أرض إيران فوائد محدودة للبلاد. وكان من الصعب الدخول في جدل مع المنطق؛ فعلى سبيل المثال، تلقت الحكومة البريطانية[1] في عام ١٩٤٢ مبلغ ٦,١ مليون جنيه إسترليني من عائدات الضرائب على أنشطة الشركة الأنجلو-إيرانية؛ ٦٠٪ من هذا المبلغ كان إتاوة. في حين استفادت وزارة المالية في لندن من ضرائب ناهزت ١٦ مليون جنيه إسترليني من الشركة، حصلت طهران منها على ٦ ملايين جنيه إسترليني أو -بعبارة أخرى- ما يزيد قليلًا عن الثلث[2]. وليت الأمر اقتصر على المال وحده -كما أشار أحد المراقبين البريطانيين المطلعين- لقد كانت المشكلة أنه «لا توجد منافع مادية يسعها أن تعوض شعبًا عن شعوره بالمهانة، وفقدان الكرامة»[3].

وكانت هذه الرؤية البصيرة استثنائية، كما اعترف المؤلف نفسه. لقد درس لورانس إلويل-ساتون (Laurence Elwell-Sutton) اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية (School of Oriental and African Studies) قبل أن يلتحق بالعمل في الأنجلو-إيرانية في إيران قبل الحرب العالمية الثانية. وكان إلويل-ساتون لغويًا موهوبًا، مشغوفًا بالثقافة الفارسية. وقد شعر بالذهول من الطريقة الخرقاء التي تعامل بها موظفو الشركة مع الأهالي. وعلّق قائلًا: «قلة من الأوروبيين تحملوا عناء استكشاف» الفُرس، واستسهلوا «النظر إلى» السكان الأصليين ... بوصفهم برابرة أقذارًا، لديهم عادات غريبة، لا تهم أحدًا، ربما باستثناء علماء الأنثروبولوجيا وحدهم». وكان لابد لهذه «الكراهية العنصرية» أن تنتهي بكارثة. وخلص إلى أنه «إن لم ترعِ هذه الشركة، فأمرها إلى زوال لا محالة»[4].

ولم يكن من الصعب -في ظل هذه الظروف- أن ندرك الكيفية التي اكتسب بها الإصلاحيون -من أمثال مُصدّق- التأييد والدعم الشعبي. لقد بدأ عصر الإمبراطورية الأوروبية منذ فترة طويلة في الاضمحلال، كما كان واضحًا في العراق عندما ذُكّرت جيرترود بيل (Gertrude Bell) بأن الاستقلال ليس هبة تمنحها بريطانيا. وكان من المحتم أن تعلو أصوات الناس في إيران -فضلًا عن غيرها من البلدان الخاضعة للهيمنة والنفوذ الغربيين- مطالبة بحق تقرير المصير. وسرعان ما ظهر هذا النمط وتسارع مع استمرار الحرب. ولما تجسدت تلك المطالب، باتت بريطانيا إمبراطورية تضمحل -بكل ما تحمله الكلمة من معان- ذاك أن طُرق الحرير فيها قد انهارت.

* * *

تسببت موجات متتالية من الضغط العسكري في آسيا في سلسلة من «دونكيركات Dunkirks»[5]

---

(١) كذا في الأصل الإنجليزي، وأظن أن الصواب فيها: «تلقت الحكومة الإيرانية» (المترجم)

(2) Buchan, *Days of God*, p. 82.

(3) L. Elwell-Sutton, *Persian Oil: A Study in Power Politics* (London, 1955), p. 65.

(4) Ibid.

(٥) يريد القول سلسلة من الهزائم والنكسات التي ترقى في الحجم والنتائج إلى هزيمة دنكرك (Dunkerque) =

وقعت في الشرق؛ أعني انتكاسات مخزية كانت بمثابة أمارات واضحة على أفول شمس العصر الذهبي لبريطانيا. فقد فر مئات الآلاف من بورما عندما توغلت القوات اليابانية في جنوب شرق آسيا، سعيًا للاستفادة من الانشغالات البريطانية والفرنسية بمشكلات كانت أقرب إلى الديار؛ فتوسعت في المناطق التي طالما عدتها طوكيو ذات أهمية استراتيجية واقتصادية لها. وسرعان ما أدرك حلفاء ألمانيا في الشرق أن هناك فرصة سانحة لليابان لتعزيز أوراق اعتمادها الإمبريالية في منطقة واسعة الأرجاء. وعانى كثيرون جراء توغل القوات اليابانية، وتقدمها إلى الأمام؛ فقد قضى نحو ٨٠ ألف شخص نحبهم جوعًا أو مرضًا. وكانت المشاهد في شبه جزيرة الملايو مثيرة بالقدر نفسه؛ حيث انسحب آلاف الجنود إلى بينانغ (Penang) وسنغافورة، بصحبة أولئك المحظوظين الذين خرجوا قبل أن تسقط المدينة في أيدي اليابانيين؛ فنجوا بأنفسهم. وكتبت امرأة عزباء كانت قد أُجليت في الوقت المناسب -بعد أسابيع قليلة من إجلائها- قائلة: إن الفوضى التي اعترت الانسحاب البريطاني كانت «في يقيني شيئًا لن يُنسى، ولن يُغتفر» سواء عند أولئك الذين عاينوه، أو شاركوا فيه[1].

واستمر الانسحاب مع انتهاء الأعمال العدائية في أوروبا والمحيط الهادئ. وجاء قرار الانسحاب من الهند بصفة تامة ونهائية بعد ثلاثة عقود من التنازلات والوعود التي رفعت سقف توقعات المواطنين بشأن الحكم الذاتي، والتحرر، والاستقلال التام. فلما وضعت الحرب أوزارها، كانت السلطة البريطانية تتلاشى بسرعة، وأضحت مهددة بخروج الأمور عن نطاق سيطرتها بعد أشهر شهدت عددًا كبيرًا من الاضطرابات، والمظاهرات، والإضرابات المناهضة للإمبريالية؛ حيث أدت تلك المظاهر من العصيان المدني إلى شلل المدن في شمال شبه القارة الهندية. ورفضت لندن الخطط الأولية التي وُضعت لـ«انسحاب تدريجي» من الهند بوصفها مكلفةً للغاية، وطويلةً جدًّا. وكانت تلك الخطط قد وضعت حماية الأقلية المسلمة نُصب عينيها[2]. وبدلاً من ذلك، أعلنت لندن في مستهل عام ١٩٤٧ أن بريطانيا ستنسحب من الهند في غضون ستة عشر شهرًا، الأمر الذي أدى إلى شيوع حالة من الذعر جراء ذلك الإعلان. لقد كان ذلك القرار قرارًا كارثيًا؛ حيث صوت ونستون تشرشل -وكان خارج منصبه بعد الحرب- ضد مشروع القرار، وقال أمام مجلس العموم: «ألن يكون عارًا لا يُمحى على اسمنا وتاريخه إذا... سمَحنا لخُمس سكان العالم... بالوقوع في الفوضى والمجازر؟!»[3].

ولما لم تُحمَل تلك التحذيرات على محمل الجد، ساد الهرج والمرج في شبه القارة الهندية. فقد

= المذلة حيث أُجليت القوات البريطانية وفلول القوات الفرنسية بحريًا عبر ميناء دنكرك، تاركة خلفها عتادها وسلاحها غنيمة باردة للألمان، لتسقط فرنسا برمتها في يد النازي. (المترجم)

(1) C. Bayly and T. Harper, *Forgotten Armies: The Fall of British Asia, 1841–1945* (London, 2004), pp. 182, 120.

(2) I. Chawla, 'Wavell's Breakdown Plan, 1945–47: An Appraisal', *Journal of Punjabi Studies* 16.2 (2009), 219–34.

(3) W. Churchill, House of Commons debates, 6 March 1947, Hansard, 434, 676–7.

اندلعت أعمال العنف في مجتمعات عاشت مستقرة لحقبة طويلة؛ حيث شرعت الأُسر التي عاشت في المدن والقرى لقرون في واحدة من أكبر الهجرات الجماعية في تاريخ البشرية. وهكذا هاجر عدد لا يقل عن ١١ مليون نسمة من مواطنهم عبر الحدود الجديدة للبنجاب والبنغال[١]. وفي غضون ذلك، وضع البريطانيون خطط إخلاء مفصلة محاولين الحد من عدد مواطنيهم الذين يُحتمل أن يُحاصروا، أو يعلقوا في أثناء القتال الدائر في البلاد[٢]. لكن قلق بريطانيا لم يتسع ليشمل الأهالي قط.

وكانت هناك قصص مماثلة في بقاع أخرى؛ حيث كانت قدما بريطانيا تخرج من حفرة لتقع في هوة. فقد اتخذت بريطانيا خطوات فعالة كانت ترمي للحفاظ على التوازن الحساس للأوضاع في فلسطين، وذلك في سبيل السيطرة على معمل تكرير النفط بحيفا فضلًا عن مينائها، وكذلك ضمان أمن السويس، إلى جانب الحفاظ على العلاقات الودية مع الشخصيات البارزة في العالم العربي. ومن ثم حاولت كبح جماح هجرة اليهود من أوروبا. وبعد أن وضعت الاستخبارات البريطانية خططًا لتخريب السفن التي تنقل اللاجئين إلى فلسطين- واتهام منظمة إرهابية[٣] عربية تبدو قوية -إلا أنها مختلقة ولا وجود لها- بتنفيذ مثل هذه الأعمال التخريبية، اتخذ البريطانيون إجراءات أكثر جرأة[٤].

وبلغت تلك الإجراءات ذروتها في صيف عام ١٩٤٧، عندما تعرضت السفن التي كانت في طريقها إلى فلسطين حاملة المهاجرين اليهود من الموانئ الفرنسية للتحرش. ورفض البريطانيون دخول سفينة كانت تحمل على متنها أكثر من ٤٠٠٠ يهودي، فيهم النساء والحوامل والأطفال، فضلًا عن عدد كبير من المسنين. وبينا كانت السفينة تشق طريقها شرقًا، اتُّخذ القرار بالفعل برفض دخول الركاب عند وصولهم إلى فلسطين[٥]. وهكذا كانت معاملة أولئك الذين نجوا من معسكرات الاعتقال، أو فقدوا أسرهم في المحرقة (Holocaust) على هذا النحو بمثابة كارثة علاقات عامة. بيد أنه بات واضحًا أن بريطانيا لن تتوقف عند حدٍّ في محاولاتها الحفاظ على مصالحها في الخارج، وأنها لن تكترث لغيرها متى تعلق الأمر بالدفاع عن مصالحها.

بيد أن الحماقات ما لبثت أن ظهرت في التعامل مع عبد الله -وكان ملك شرق الأردن- الذي دأب

---

(١) انظر:

L. Chester, *Borders and Conflict in South Asia: The Radcliffe Boundary Commission and the Partition of the Punjab* (Manchester, 2009).

وانظر أيضًا:

A. von Tunzelmann, *Indian Summer: The Secret History of the End of an Empire* (London, 2007).

(2) I. Talbot, 'Safety First: The Security of Britons in India, 1946–1947', *Transactions of the RHS* 23 (2013), pp. 203–21.

(٣) كذا في الأصل (terrorist). (المترجم)

(4) K. Jeffrey, *MI6: The History of the Secret Intelligence Service, 1909–1949* (London, 2010), pp. 689–90.

(5) N. Rose, *'A Senseless, Squalid War': Voices from Palestine 1890s–1948* (London, 2010), pp. 156–8.

على مطالبة لندن بالدعم العسكري -المنصوص عليه في اتفاقيات سرية- لنظامه بعد إعلان استقلال بلاده عام ١٩٤٦. واستغل عبد الله هذا الوعد، وشرع في تنفيذ خطة لتوسيع حدود بلاده لتشمل فلسطين برمتها ما أن ينسحب البريطانيون منها بطبيعة الحال. وهكذا سعى للحصول على الضوء الأخضر من لندن، إن كان ذلك ممكنًا[١]. وقيل: إن وزير الخارجية إرنست بيڤين (Ernest Bevin) قال لرئيس وزراء الملك عبد الله: «يبدو الأمر بديهيًّا، ولكن لا تغزُ المناطق المخصصة لليهود»[٢]. وأيًّا كان التوجيه الذي صدر عن البريطانيين، فإن الفوضى التي ضربت أطنابها في جزء آخر من العالم -حيث كانت بريطانيا تنسحب- أمست بمثابة الدليل الدامغ على الآثار الخبيثة للقوة الأوروبية الإمبريالية. وعلى هذا النحو قد لا تكون الحرب العربية الإسرائيلية التي اندلعت عام ١٩٤٨ نتاجًا لسياسة الإيماءات، والإيحاءات، والغمزات، بل اندلعت جراء فراغ نجم عن تغيير نوبة الحراسة[٣].

وجرت الأمور على نحو أفضل قليلًا في العراق؛ حيث اندلعت الاضطرابات بعد أن صدق رئيس الوزراء، صالح جبر على اتفاقية مع بريطانيا أُبرِمت عام ١٩٤٨، وقضت بتمديد استخدام بريطانيا للقواعد الجوية في البلاد لمدة خمسة وعشرين عامًا مجددًا. وأدى تسريب أنباء الاتفاق إلى حدوث إضرابات وأعمال شغب، استقال جبر على إثرها بعد أن طارد حشد غاضب موكبه ما أن غادر مكتبه[٤]. وعملت مجموعة من القضايا على إيغار صدور العراقيين تجاه بريطانيا، بما في ذلك احتلال بغداد خلال الحرب العالمية الثانية، ونكوص البريطانيين الواضح عن دعم العرب في فلسطين، ولا سيما عندما تصدوا لمحاولات لندن الرامية للاحتفاظ بموطئ قدم عسكري دائم في العراق. وفاقم التضخم المتفشي، ونقص الغذاء -الذي أعقب موسم حصاد سيء- الأوضاع سوءًا، ومن ثم أدرك أحد المراقبين المخضرمين أن «الوضع الداخلي في العراق أصبح خطرًا»[٥]؛ لذا اتخذت بريطانيا خطوات لمساعدة «رئيس الوزراء العراقي... على مقاومة التحريض الشعبي بمنحه تنازلات». وشملت تلك التنازلات عرضًا يقضي بالمشاركة في استغلال القاعدة الجوية في الحبانية. وأكد صناع السياسة في لندن: على أنه ينبغي أن يبدي العراقيون سعادة بهذا «المثال النموذجي من التعاون»؛ إذ إن بريطانيا «لا يسعها تقديم [مثل هذا العرض] لدولة أخرى»؛ لذا ينبغي أيضًا أن يُظهِر العراقيون الامتنان والسعادة متى شعروا بأنهم «أكثر أهمية مقارنة بالدول الأخرى في الشرق الأوسط كافةً»[٦].

---

(1) A. Halamish, *The Exodus Affair: Holocaust Survivors and the Struggle for Palestine* (Syracuse, NY, 1998).

(٢) نقلاً عن:

J. Glubb, *A Soldier with the Arabs* (London, 1957), pp. 63-6.

(3) E. Karsh, *Rethinking the Middle East* (London, 2003), pp. 172-89.

(4) F. Hadid, *Iraq's Democratic Moment* (London, 2012), pp. 126-36.

(5) Beeley to Burrows, 1 November 1947, FO 371/61596/E10118.

(6) Outward Saving Telegram, 29 July 1947; Busk to Burrows, 3 November 1947, FO 371/61596.

وما زاد الطين بلة حقيقة أن العراق -وينسحب ذلك الحكم على أقطار أخرى أيضًا- لم يأخذ شيئًا مقابل النفط الذي ضُخ من أراضيه. ففي عام ١٩٥٠، كان حوالي ٩٠٪ من أهل البلاد أُميين. والأسوأ من ذلك، أن بريطانيا حكمت البلاد بقبضة من حديد. فعلى سبيل المثال لما أراد العراقيون اقتراض الأموال لبناء شبكة السكك الحديدية وتوسيعها، طالبت بريطانيا باحتياطات العراق من النفط ضمانًا. وأثار هذا المطلب مخاوف العراقيين من أن تستولي بريطانيا على حقول النفط في حال تخلف العراق عن السداد، أُسوة بما حدث مع [قناة] السويس في القرن التاسع عشر عندما استولى البريطانيون على القناة ذات الأهمية الحيوية، وعلى مواردها المالية[١]. وسرعان ما ألفت بريطانيا نفسها في موقف الخاسر؛ فقد أنفقت رأسمالها السياسي عن آخر فلس، ولم يعد يثق بها أحد. وتجلى هذا الشك في تصفية وكالات مثل وحدة مكافحة الجراد في الشرق الأوسط (MEALU) -التي حققت نجاحًا كبيرًا بعد إنشائها خلال الحرب- الأمر الذي أدى إلى الاستغناء عن الخبرة الفنية التي كانت مفيدة في التعامل مع أسراب الجراد المدمرة، وفي حماية المحاصيل الغذائية[٢]. لقد كانت دول الشرق الأوسط تستعرض عضلاتها وتنقلب على الغرب.

في تلك الآونة، كان الاتحاد السوفيتي ينتعش مجددًا. وظهرت رواية جديدة في الاتحاد السوفيتي -بعد هزيمة ألمانيا- بهدوء؛ حيث جرى تناسي دور ستالين في وقوع الحرب بوصفه حليفًا لـ هتلر، واستُبدِلت قصة انتصار تحقق، ومصير تقرر بتلك الرواية[٣]. لقد أخفقت ثورة ١٩١٧ في تحقيق التحول العالمي الذي توقعه ماركس وتلامذته؛ وبعد ثلاثة عقود بدا أن الوقت قد حان لتكتسح الشيوعية العالم وتسيطر على آسيا، أسوة بما فعل الإسلام في القرن السابع الميلادي. وشرعت الشيوعية في الانتشار بالفعل عبر الصين، حيث جلبت الوعود بالمساواة والعدالة، وفي المقام الأول الإصلاح الزراعي الدعم للحزب الشيوعي، ومكنته من دفع القوات الحكومية إلى الانسحاب، وفي الأخير الخروج من البر الرئيس للبلاد تمامًا.

وبدأت تظهر أنماط مماثلة في أماكن أخرى، حيث بدأت الأحزاب اليسارية في جذب دعم متزايد في أوروبا والولايات المتحدة. وجرى إقناع الكثيرين بالمثل الأعلى الذي يعِد بالانسجام والتناغم، وذلك في تناقض حاد مع أهوال الحرب التي بلغت ذروتها بإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما (Hiroshima)، وناجازاكي (Nagasaki). وطالت تلك القناعة بعض الذين عملوا في البرنامج النووي[٤]؛ حيث أصيبوا بخيبة أمل نجَمت عن حقيقة أن صراعين عظيمين بين الدول

(1) K. Kwarteng, *Ghosts of Empire: Britain's Legacies in the Modern World* (London, 2011), p. 50.

(2) B. Uvarov and A. Waterston, 'MEALU General Report of Anti-Locust Campaign, 1942–1947', 19 September 1947, FO 371/61564.

(3) N. Tumarkin, 'The Great Patriotic War as Myth and Memory', *European Review* 11.4 (2003), 595–7.

(٤) الإيماءة هنا لـ كلاوس فوكس (Klaus Fuchs) العالم البريطاني الذي جندته الاستخبارات السوفيتية؛ حيث سرب أسرارًا خطيرة عن مشروع مانهاتن إلى السوفيت. (المترجم)

الأوروبية قد أسفرا عن نتائج مدمرة في جميع أنحاء العالم فيما يزيد قليلًا عن ثلاثة عقود.

وأجج ستالين هذه النيران بذكاء في خطاب ألقاه في ربيع عام ١٩٤٦، وانتشر في جميع أنحاء العالم انتشار النار في الهشيم؛ حيث أعلن أن الحرب العالمية الثانية كانت حتمية «بسبب ظهور العوامل الاقتصادية والسياسية العالمية المضمَّنة في مفهوم الرأسمالية الاحتكارية الحديثة»(١). وكان ذلك الخطاب بمثابة بيان نوايا؛ فقد هيمنت الرأسمالية على العالم لحقبة طويلة، وتسببت في وقوع المعاناة، والقتل الجماعي، وأهوال حروب القرن العشرين. وكانت الشيوعية رد فعل منطقي على نظام سياسي ثَبت أنه معيب وخطير. لقد كان نظامًا جديدًا يعمل على إبراز أوجه التشابه لا الاختلاف، ويحل المساواة محل التسلسل الهرمي. بعبارة أخرى: لم تكن الشيوعية مجرد رؤية جذابة، بل كانت بديلًا قابلًا للتطبيق بالفعل.

وكان تشرشل قد راهن على مستقبل البلدان الواقعة غرب حدود الاتحاد السوفيتي قبل فترة وجيزة. وقال لعضو في فريقه بعد المفاوضات التي جرت في يالطا (Yalta) حول الشكل الذي سيبدو عليه عالم ما بعد الحرب: «كان نيفيل تشامبرلين المسكين يعتقد أنه يستطيع الوثوق بهتلر. لقد كان مخطئًا. إلا أنني لا أظن نفسي مخطئًا بشأن ستالين»(٢). لقد كان تشامبرلين مخطئًا بالفعل؛ بيد أن تشرشل كان مخطئًا أيضًا، كما سرعان ما أدرك هو نفسه ذلك؛ حيث قال في خطاب له ألقاه يوم ٥ مارس ١٩٤٦ في فولتون (Fulton) بولاية ميسوري (Missouri) الأمريكية: لا أحد يعرف «ما تعتزم روسيا السوفيتية... فعله في المستقبل القريب». ومع ذلك، فإن حقيقة أن فلسفتها تقوم على التوسع والتبشير -على حد وصفه- تعني أنها باتت تمثل تهديدًا للغرب. «لقد أُسدلت ستارة حديدية عبر القارة من شتيتين (Stettin) في بحر البلطيق إلى ترييستي (Trieste) على البحر الأدرياتيكي»(٣).

وعلى هذا النحو بات مصير مركز العالم معلقًا على كفتي ميزان. وكانت إيران بمثابة نقطة الارتكاز. وكان الاستراتيجيون الأمريكيون على قناعة بأن السوفيت لا يريدون شيئًا أقل من الهيمنة الكاملة على إيران، ليس بسبب نفطها فحسب، بل بسبب قواعدها البحرية، وموقعها في وسط شبكة من الطرق الجوية الدولية أيضًا. ولم تمنح الحكومة الإيرانية امتياز النفط شمالي البلاد للولايات المتحدة إلا بعد

---

(1) J. Stalin. 'Rech na predvybornom sobranii izbiratelei Stalinskogo izbiratel'nogo okruga goroda Moskvy', in J. Stalin. *Sochineniya*, ed. R. McNeal, 3 vols (Stanford, CA, 1967), 3, p. 2.

(2) B. Pimlott (ed.), *The Second World War Diary of Hugh Dalton, 1940–45* (London, 1986), 23 February 1945, marginal insertion, p. 836, n. 1.

(٣) يبدو أن تشرشل أضاف هذه الكلمات في القطار في طريقه إلى فولتون (Fulton)، انظر:

J. Ramsden. 'Mr Churchill Goes to Fulton', in Muller, *Churchill's 'Iron Curtain' Speech: Fifty Years Later*, p. 42.

وبصفة عامة، انظر:

P. Wright. *Iron Curtain: From Stage to Cold War* (Oxford, 2007).

أن أكد السفير الأمريكي أن الولايات المتحدة ستقدم الدعم العسكري -إذا استلزم الأمر- في حال دخلت القوات السوڤيتية للبلاد، وذلك بعد أن أبدت موسكو معارضة شديدة للاتفاقية[1].

وتصاعدت التوترات في صيف عام ١٩٤٦، وعمت الإضرابات جميع أرجاء إيران. وانتشرت الشائعات والشائعات المضادة التي دارت هنا وهناك على ألسنة الناس في شوارع طهران، وبدا أن المستقبل القريب للبلاد على المحك. وعلى الرغم من رغبة بريطانيا القوية في الاحتفاظ بأصولها ثمة، فقد بات من الواضح -بشكل مؤلم- أنها لا تستطيع فعل الكثير للتأثير على مجرى الحوادث. ورسمت التقارير الاستخباراتية صورة قاتمة لإجراء عسكري وشيك تعتزم موسكو اتخاذه ضد إيران والعراق، وتناقلت أنباءً عن خطط غزو مفصلة تضمنت معلومات حول النقطة المحورية التي يحتمل أن يدلف منها «سلاح الفُرسان السوڤيتي القوي، والقوات الميكانيكية» في حال وقع الهجوم. وبحسب ما ورد في تلك التقارير، فقد كانت هيئة الأركان السوڤيتية العامة متفائلة بشأن قدرتها على احتلال الموصل، وكانت على استعداد لتشكيل «حكومة إيرانية شعبية» ما أن تجري الإطاحة بالشاه. كما كانت تستعد -بعد ذلك- لاتخاذ إجراءات انتقامية -وفقًا للبريطانيين- ضد النظام السابق الذي ستُوصف شخصياته البارزة بـ«الخونة والمتواطئين». وكان المظليون السوڤيت على أهبة الاستعداد للإسقاط بالقرب من طهران لشن هجوم عليها، قدَّروا أنه سينتهي سريعًا[2].

وفي واشنطن، استحوذ شعور بالخطر الحقيقي المحدق إن لم تحرك أمريكا ساكنًا. وكان الأمريكيون يراقبون إيران عن كثب منذ ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٩٤٢، عندما وصل أول ٢٠ ألف جندي أمريكي إلى خورمشهر في الخليج للعمل على تحسين نظام النقل الإيراني. وشُيِّد معسكر أمريكي كبير في طهران نفسها للإشراف على الإمداد والتموين، ثم أصبح لاحقًا المقر الرئيس للقيادة الأمريكية في الخليج العربي برمته[3]. وكان البريطانيون والسوڤيت يضعون مصالحهم الخاصة نُصب أعينهم في إيران، وعلى هذا النحو كانوا يقوضون المجهود الحربي لإيران على نحو مستمر، ومن ثم يقوضون دعائم دولة إيران في الوقت نفسه؛ حتى إن الجنرال باتريك هيرلي (Patrick Hurley) أبلغ الرئيس روزڤلت (Roosevelt) بأن إيران مشدودة من كل اتجاه على نحو خطير[4].

وعانى الأمريكيون -الذين جرى نشرهم في إيران لدعم خطوط الإمداد أثناء الحرب ومراقبتها- في البداية من صدمة ثقافية. ووجد الميجور-جنرال كلارنس ريدلي (Clarence Ridley) الجيش

(1) B. Rubin, *The Great Powers in the Middle East, 1941–1947: The Road to the Cold War* (London, 1980), pp. 73ff.

(2) 'Soviet Military and Political Intentions, Spring 1949', Report No. 7453, 9 December 1948.

(3) K. Blake, *The US–Soviet Confrontation in Iran 1945–62: A Case in the Annals of the Cold War* (Lanham, MD, 2009), pp. 17–18.

(4) 'General Patrick J. Hurley, Personal Representative of President Roosevelt, to the President', 13 May 1943, *FRUS, Diplomatic Papers 1943: The Near East and Africa*, 4, pp. 363–70.

الإيراني سيء التدريب، وقليل الموارد، ولا فائدة تُرجى منه. فإذا أرادت البلاد الصمود أمام جيرانها المعادين، فستكون هناك حاجة إلى استثمارات ضخمة لتدريب جيل جديد من الضباط، وشراء معدات جيدة لهم. وكان لهذه الكلمات وقع الموسيقى على آذان الشاه الجديد؛ حيث كان يائسًا من أن يترك بصمته على إيران من خلال برنامج للتحديث. بيد أن المشكلة -كما أخبره مستشار الميزانية (الأمريكي) صراحة- هي أنه ليس في الوسع بناء جيش على غرار تلك الجيوش الغربية، فإذا حولت البلاد الأموال إلى الإنفاق العسكري، «لن يبق الكثير للزراعة، أو التعليم، أو الصحة العامة. هذا إن بقي شيء أصلًا»[1].

لقد بدا أن إيران غير مؤهلة، وضعيفة، وتضرب الفوضى أطنابها فيها، وفرصتها ضئيلة للتخلص من نفوذ الاتحاد السوفيتي في وقت كانت فيه مواقف ستالين وسلوكه باعثين على قلق عميق في الولايات المتحدة. واستنتج بعض الذين سمعوا خطاب ستالين أن ما قاله بمثابة «إعلان الحرب العالمية الثالثة»[2]. وتوصل جورج كينان (George Kennan) -وكان القائم بالأعمال في سفارة الولايات المتحدة في موسكو -الذي شهد عمليات التطهير لـ ستالين عن كثب- إلى نتيجة مماثلة، فقد حذر في أوائل عام ١٩٤٦ من صراع عالمي كبير في المستقبل. وكتب قائلًا: «تكمن خلف نظرة الكرملين العصبية للشؤون العالمية، الشعور الروسي التقليدي والفطري بالخوف، وانعدام الأمان». وخلص إلى أن الاتحاد السوفيتي يعد «قوة سياسية وضعت نصب عينيها بتعصب» خوض منافسة مع الولايات المتحدة، وهدفها العمل على «تعطيل الانسجام الداخلي للدولة، وتدمير أسلوب حياتنا التقليدي، [و] نقض السلطة الدولية لدولتنا»[3].

* * *

عملت الأهمية السياسية والاستراتيجية لإيران على دفع ما تعلق بها إلى صدارة السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وبذلت الولايات المتحدة جهودًا ممنهجة للمساعدة على دعم البلاد. ففي عام ١٩٤٩، بدأت إذاعة صوت أمريكا البث باللغة الفارسية للسكان المحليين، وكان أول برنامج بُثَّ فيها حديث للرئيس ترومان ذكَّر الإيرانيين فيه بـ«رابطة الصداقة التاريخية» بين إيران والولايات المتحدة، ووعد بتقديم يد العون للمساعدة في خلق «عالم مزدهر، و ... سِلمي» وخال من الاضطهاد[4]. ولما اندلعت الحرب في شبه الجزيرة الكورية -بعد نحو عام- قدمت الولايات المتحدة المزيد من المساعدات المباشرة للبلاد. وفي حين أن الاقتصاد المتدهور «كان على شفا الهاوية»، إذا لم يُدعم،

---

(1) Millspaugh, *Americans in Persia*, p. 77.

(2) A. Offner, *Another Such Victory: President Truman and the Cold War, 1945–53* (Stanford, 2002), p. 128.

(3) 'The Chargé in the Soviet Union (Kennan) to the Secretary of State', 22 February 1946, *FRUS 1946: Eastern Europe, the Soviet Union*, 6, pp. 696–709.

(4) D. Kisatsky, 'Voice of America and Iran, 1949–1953: US Liberal Developmentalism, Propaganda and the Cold War', *Intelligence and National Security* 14.3 (1999), 160.

وبقوة، وعلى الفور، فإن البلاد ستواجه خطر «التفكك الكامل، وامتصاصها في التو واللحظة، أو على مراحل في الكتلة السوڤيتية» على حد تعبير وزارة الخارجية الأمريكية[1]. بيد أن ترومان نفسه لم يكن بحاجة إلى من يقنعه بذلك؛ حيث قال: «إذا وقفنا متفرجين لا نحرك ساكنًا، فإنهم [يعني السوڤيت] سيدخلون إيران، ومن ثم سيسيطرون على الشرق الأوسط برمته»[2].

وأصبح البث الإذاعي موجهًا على نحو متزايد؛ حيث جرى إعلام الإيرانيين بأن «الدول الحرة ينبغي أن تقف معًا»، وأن «أمن الولايات المتحدة مرتبط بأمن غيرها من الدول»، وأن «قوة العالم الحر» آخذة في النمو. وكذلك تضمنت تلك الحملة الإعلامية التقارير التي أكدت على التهديد الذي يمثله الاتحاد السوڤيتي للسّلم العالمي، والتي ذكرت أن «هدف القادة الشيوعيين هو القمع العالمي لحرية الإنسان»، وذهبت هذه التقارير إلى حد الادعاء بأن «المعلمين السوڤيت» يسكنون في سيارات شحن معطلة، وُصِفت بأنها غير صالحة لنقل الماشية»، وبأنها تفتقر إلى التدفئة، والمرافق الصحية الأساسية، والمياه النظيفة[3].

وبدأت المساعدات المالية الأمريكية في التدفق على البلاد؛ حيث ارتفعت إلى ما يقرب من خمسة أضعاف على مدار ثلاث سنوات، فقد ارتفعت من ١١,٨ مليون دولار في عام ١٩٥٠، إلى ٥٢,٥ مليون دولار في عام ١٩٥٣. ولم يكن الهدف من تلك المساعدات تشجيع التنمية الاقتصادية في إيران، ترسيخًا لثقافتها السياسية، وإرساءً لأسس الإصلاح، بل كانت تهدف أيضًا إلى تقديم المساعدة العسكرية والتقنية للدفاع عن النفس أيضًا. وكانت هذه هي المراحل الأولى في بناء دولة عميلة لأمريكا في الشرق الأوسط[4].

وكان دافع الولايات المتحدة في ذلك يعتمد -جزئيًا- على إدراكها لحقيقة أن بريطانيا لم تعد قادرة على دعم الأنظمة بالطريقة التي كانت تفعلها في الماضي، وجزئيًا على الاعتراف الصريح بأن التوسع السوڤيتي يتطلب استجابةً من نوع ما. ومع ذلك، لم يكن هذا هو السبب الوحيد لاهتمام الولايات المتحدة الشديد بإيران. فعلى سبيل المثال، لم يزعج ونستون تشرشل ولا الرئيس روزڤلت نفسيهما بلقاء الشاه خلال المؤتمر الكبير الذي عقده قادة الحلفاء في طهران في عام ١٩٤٣. لقد اعتقد كلاهما

(1) 'The Present Crisis in Iran, undated paper presented in the Department of State', *FRUS, 1950: The Near East, South Asia, and Africa*, 5, pp. 513, 516.

(2) M. Byrne, 'The Road to Intervention: Factors Influencing US Policy toward Iran, 1945–53', in M. Gasiorowski and M. Byrne (eds), *Mohammad Mosaddeq and the 1953 Coup in Iran* (Syracuse, NY, 2004), p. 201.

(3) Kisatsky, 'Voice of America and Iran', 167, 174.

(4) M. Gasiorowski, *US Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, NY, 1991), pp. 10–19.

ببساطة أن لقاءً كهذا سيكون مضيعة للوقت[١]. وبالمثل، رفضت الولايات المتحدة -في العام التالي- تقديم يد العون للمملكة العربية السعودية بوصفها دولة ذات أهمية محدودة، ويسع الرئيس روزفلت أن يتجاهل طلباتها بالمساعدة الاقتصادية بسهولة؛ لكونها «نائية إلى حدٍّ ما بالنسبة إلينا»؛ وأضاف روزفلت أنه سيكون من الأفضل أن يتوجه السعوديون بهواجسهم وطلباتهم إلى بريطانيا، لا إلى الولايات المتحدة[٢]. بيد أنه بحلول الوقت الذي وضعت فيه الحرب أوزارها، كانت الأمور قد اختلفت جذريًّا، حيث كانت المملكة العربية السعودية وحدها تعد «أكثر أهمية للدبلوماسية الأمريكية من أي دولة صغيرة أخرى تقريبًا»[٣]. وكان السبب في ذلك هو النفط؛ حيث زار رجل نفط شجاع يُدعى إيفريت لي ديجولير (Everette Lee DeGolyer) -وكان قد استثمر أمواله في صناعة البترول الأمريكية بعد أن درس الجغرافيا في أوكلاهوما (Oklahoma)- الشرق الأوسط خلال الحرب، لتقييم حقول النفط القائمة في المنطقة، وتقديم المشورة بشأن الإمكانات على المدى الطويل، وأهمية موارد المنطقة في حد ذاتها. وكذلك تقديم المشورة فيما يتعلق بموارد خليج المكسيك، وفنزويلا، بل والولايات المتحدة نفسها. وجاء تقريره مذهلًا، على الرغم من أنه غص بالتقديرات المتحفظة والمحاذير. ومع ذلك فقد جاء فيه: «يتحول مركز ثقل إنتاج النفط العالمي من منطقة الخليج [يعني خليج المكسيك] والبحر الكاريبي إلى الشرق الأوسط، وتحديدًا إلى منطقة الخليج العربي. وسيستمر -على الأرجح- في التحول حتى يترسخ في تلك المنطقة»[٤]. وكان أحد أولئك الذين سافروا معه أكثر صراحة في معرض إبلاغه وزارة الخارجية بنتائج جولته؛ حيث قال: «النفط في هذه المنطقة هو أعظم جائزة منفردة في التاريخ برمته»[٥].

ولم يفت ذلك على البريطانيين، الذين تفاعلوا بغيرة مع احتمال أن تولي الولايات المتحدة اهتمامًا أكبر للمنطقة برمتها. وأخبر تشرشل أحد رجال الصناعة البارزين أنه ينبغي مطالبة الأمريكيين بالبقاء خارج الشرق الأوسط، وبعيدًا عن المركز القوي الذي شيدته بريطانيا لنفسها ثمة. وأردف قائلًا: «النفط هو أعظم أصول ما بعد الحرب المتبقية لنا. وينبغي علينا أن نرفض تقسيم آخر أصولنا مع الأمريكيين»[٦].

---

(1) Buchan, *Days of God*, pp. 30–1.

(٢) نقلاً عن:

Yergin, *The Prize*, p. 376.

(3) A. Miller, *Search for Security: Saudi Arabian Oil and American Foreign Policy, 1939–1949* (Chapel Hill, NC, 1980), p. 131.

(4) E. DeGolyer, 'Preliminary Report of the Technical Oil Mission to the Middle East', *Bulletin of the American Association of Petroleum Geologists* 28 (1944), 919–23.

(5) 'Summary of Report on Near Eastern Oil', 3 February 1943, in Yergin, *The Prize*, p. 375.

(6) Beaverbrook to Churchill, 8 February 1944,

نقلًا عن:

K. Young, *Churchill and Beaverbrook: A Study in Friendship and Politics* (London, 1966), p. 261.

وأوضح اللورد هاليفاكس (Lord Halifax) -وكان سفيرًا لبريطانيا في واشنطن- ذلك بحزم؛ حيث استاء من الطريقة التي حاول بها المسؤولون في وزارة الخارجية تجاوزه. وأبدى صناع السياسة البريطانيون قلقًا أيضًا بشأن ما كان يجري، خوفًا من أن تكون «نية الولايات المتحدة تجريدنا من أصولنا النفطية في الشرق الأوسط»[1]. وشاركهم رئيس الوزراء نفسه هذه المخاوف، فأرسل برقية إلى الرئيس روزفلت جاء فيها: «كنت أراقب متوجسًا» الكيفية التي جرت بها المفاوضات؛ ربما تكون على يقين من أنني أرغب في الوصول إلى حلول منصفة وعادلة بين دولتينا فحسب»[2].

وكان هذا يعني التوصل إلى اتفاق حول كيفية تقسيم هذا الجزء المهم من العالم بين بريطانيا والولايات المتحدة. وأدى اجتماع بين هاليفاكس والرئيس روزفلت إلى حل المشكلة. ومن ثم فقد أصبح «النفط في إيران [لبريطانيا] ... ولكل منا نصيب في نفط العراق، والكويت... أما البحرين، والسعودية فهما لأمريكا»[3]. لقد كان الأمر أشبه بالاتفاقيات التي توصلت إليها إسبانيا والبرتغال في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين، أو المناقشات التي جرت بين قادة الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة؛ حيث قسمت العالم إلى قسمين.

وبدأ الأمريكيون والبريطانيون التعامل مع هذا التقسيم بطرق مختلفة للغاية. وكانت القضية الرئيسة -من منظور الولايات المتحدة- هي أن سعر برميل النفط قد تضاعف بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٨، بينما ارتفع عدد السيارات في الولايات المتحدة وحدها بمعدل فاق النصف، وتضاعفت قيمة مبيعات مصانع السيارات سبع مرات[4]. واستجابة لذلك، اتبعت الولايات المتحدة -في البداية- مقاربة للوضع كانت مبررة إلى حد الاستنارة. لقد كان من المحتم أن تسعى البلدان التي وجدت نفسها تنعم بموارد طبيعية، ويتقرب إليها جميع الأطراف إلى تعظيم مكاسبها. وعلى هذا النحو، فإن إعادة التفاوض على شروط امتيازات النفط إنما هي أمر منطقي، على أن يجري تنفيذ ذلك بلباقة، وليس تحت الإكراه أو الضغط.

وكانت هناك بالفعل جلبة، وتهديدات بالتأميم، الأمر الذي كان يعكس توجه النظام العالمي الجديد. وكان السبب الأوحد وراء تلك الدعوات هو الصفقات الجديدة التي أُبرمت مع البلدان الغنية بالنفط؛ حيث كانت تلك الصفقات سخية وخطيرة على نحو متزايد، كما كانت تنافسية أيضًا، مثلما حدث مع ج. بول جيتي (J. Paul Getty) في أثناء سعيه للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في

(1) Foreign Office memo, February 1944, FO 371/42688.

(2) Churchill to Roosevelt, 20 February 1944, FO 371/42688.

(3) Halifax to Foreign Office, 20 February 1944, FO 371/42688; Z. Brzezinski, *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power* (New York, 2012), p. 14.

(4) *Historical Statistics of the United States: Colonial Times to 1970* (Washington, DC, 1970); Yergin, *The Prize*, p. 391.

المنطقة المحايدة بين المملكة العربية السعودية والكويت، حيث دفع في النفط المستخرج من هناك ما يقرب من ضعف الإتاوات لكل برميل مقارنة بما كان يجري دفعه في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط، الأمر الذي خلق تنافسًا وعداءً في دول كانت قد وقعت اتفاقيات في مراحل أبكر. ولم تجعل مثل تلك الاتفاقات هذه البقاع بؤرًا للمعارضة حول الطريقة التي جرت بها مصادرة الموارد فحسب، بل دفعت بها إلى المطالبة بالتأميم؛ كما جعلتها عرضة للخطاب الشيوعي، والمبادرات التي كانت تقدمها موسكو.

وتبع ذلك تحول ملحوظ في الإيرادات؛ حيث خففت الولايات المتحدة من مطالبها التجارية وأعادت التفاوض بشأن مجموعة من الصفقات. فعلى سبيل المثال جمعت وزارة الخزانة الأمريكية في عام ١٩٤٩، ضرائب بقيمة ٤٣ مليون دولار من شركة أرامكو (Aramco)، وهي مجموعة من شركات النفط الغربية، في حين تلقت المملكة العربية السعودية ٣٩ مليون دولار من العائدات. وبعد ذلك بعامين دفعت الشركة -بعد تغيير نظام الإعفاءات الضريبية الذي مكّن الشركات من تعويض نفقاتها- نحو ٦ ملايين دولار في الولايات المتحدة مقابل مليون دولار للسعوديين[1]. كما وُجد هناك ما يسمى بـ تأثير الدومينو حيث عملت الامتيازات الأخرى في السعودية -وكذلك في الكويت والعراق وغيرها- على إعادة تعيين الشروط لصالح الحكام المحليين والحكومات المحلية في بقاع أخرى.

وتحدث بعض المؤرخين عن هذه اللحظة التي شهدت إعادة توجيه تدفقات العملة بوصفها لحظة بالغة الأهمية، لا تقل أهمية عن اللحظة التي سلمت فيها لندن السلطة للهند وباكستان[2]. بيد أن تأثيرها كان أشبه باكتشاف الأمريكتين وإعادة توزيع الثروة العالمية التي أعقبت ذلك. لقد بدأت الشركات الغربية -التي كانت تسيطر على الامتيازات، وكان توزيعها للنفط يتركز إلى حد كبير على أوروبا والولايات المتحدة- في تحويل الأموال إلى الشرق الأوسط، ومن ثم عملت على تحول مركز الثقل في العالم. وعلى هذا النحو استهلت شبكة خطوط الأنابيب العنكبوتية -التي عبرت المنطقة، وربطت الشرق بالغرب- فصلًا جديدًا في تاريخ هذه المنطقة. هذه المرة، لم تكن التوابل، ولا الحرير، ولا العبيد، ولا الفضة هي التي تجتاز الكرة الأرضية، بل كان النفط.

* * *

كان لدى البريطانيين -الذين أخفقوا في قراءة اللافتات بوضوح على النقيض من نظرائهم الأمريكيين- خطط أخرى. ففي إيران كانت الأنجلو-إيرانية هدفًا للنقد. ولم يكن من الصعب الوقوف على السبب، لقد كان الاختلال الهائل في المبالغ المدفوعة للمُستكشف البريطاني مقارنة بالعائدات

(1) Yergin. *The Prize*, p. 429.

(2) W. Louis. *The British Empire in the Middle East, 1945-51: Arab Nationalism, the United States and Postwar Imperialism* (Oxford, 1984), p. 647.

التي دُفعت لإيران[1]. وعلى الرغم من أن دولاً أخرى في المنطقة كان بمقدورها أن تشكو أيضًا من قلة الفوائد التي جنتها مقابل ذهبها الأسود، إلا أن حجم التفاوت في إيران جعل الوضع يبدو سيئًا خاصة؛ فقد كانت الكهرباء التي كانت تستهلكها مدينة عبادان في عام ١٩٥٠، تعادل الكهرباء التي يستهلكها شارع واحد فحسب في لندن. ومع ذلك كانت المدينة مقرًّا للمصفاة الأكبر في العالم آنذاك. وكانت المدارس ثمة تستوعب عُشر الأطفال في سن المدرسة في فصولها الدراسية، وذلك لقلتها، وندرتها في عبادان[2].

ووقعت بريطانيا على أعتاب معضلة لم يكن هناك مفر منها، كما هو الحال في أي مكان آخر: إعادة التفاوض على شروط امتياز النفط سيكون مستحيلًا، كما أشار وزير الخارجية الأمريكي المخضرم والمطلع دين أتشسون (Dean Acheson)؛ حيث كان هناك سبب وجيه لذلك؛ إذ إن الحكومة البريطانية كانت تسيطر على الحصة الغالبة في الأنجلو-إيرانية، وعلى هذا النحو كان يُنظر إليها على أنها امتداد مباشر لبريطانيا وسياستها الخارجية. وكانت هناك خطوط متماهية بين مصالح الشركة -مثلها في ذلك مثل شركة الهند الشرقية- ومصالح الحكومة البريطانية نفسها. وكما هي الحال مع شركة الهند الشرقية، كانت الأنجلو-إيرانية قوية للغاية، حتى إنها كانت تعد «دولة داخل الدولة» أيضًا، وكانت قوتها «في الأخير من قوة بريطانيا»[3]. فإذا رضخت الأنجلو-إيرانية، وأعطت إيران صفقة أفضل -كما خلص إلى ذلك أتشيسون- فسيؤدي ذلك إلى «تدمير آخر بقايا الثقة في القوة البريطانية، وفي الجنيه الإسترليني معًا». وتوقع أنه في غضون أشهر، لن يكون لبريطانيا أصول خارجية على الإطلاق[4].

وأدى اعتماد لندن الكبير على عائدات الشركة إلى جعل الوضع محفوف بالمخاطر، كما اعترف أتشيسون نفسه؛ فقد أبرق إلى واشنطن قائلًا: «إن بريطانيا على وشك الإفلاس، فبدون مصالحها الخارجية المهمة، والعناصر الخفية في ميزان مدفوعاتها... لا يمكنها البقاء». وكان هذا هو سبب استخدام البريطانيين كل الحيل في التجارة الدبلوماسية؛ حيث أصدروا تقارير حادة كانت تؤكد باستمرار على قرب وقوع الغزو السوفيتي لإيران. في حين لم يقف أتشيسون -على سبيل المثال- على

---

(1) Yergin, *The Prize*, p. 433.

(2) de Bellaigue, *Patriot of Persia*, p. 118.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

M. Crinson, 'Abadan: Planning and Architecture under the Anglo-Iranian Oil Company', *Planning Perspectives* 12.3 (1997), 341–59.

(3) S. Marsh, 'Anglo-American Crude Diplomacy: Multinational Oil and the Iranian Oil Crisis, 1951–1953', *Contemporary British History Journal* 21.1 (2007), 28; J. Bill and W. Louis, *Musaddiq, Iranian Nationalism, and Oil* (Austin, TX, 1988), pp. 329–30.

(4) 'The Secretary of State to the Department of State', 10 November 1951, *FRUS, 1952–1954: Iran, 1951–1954*, 10, p. 279.

شـيء من ذلك. «لـم يكن الهدف الأساسـي للسياسـة البريطانية منع إيران من أن تصبح دولة شـيوعية»، مهمـا زعمـت بريطانيـا ذلك؛ «مـا كان على المحك عند بريطانيـا هو الحفاظ على مـا يعتقدون أنه آخر معقل متبقي للملاءة المالية البريطانية»[1].

ومـن ثم فقد ازدادت الأمور سـوءًا عندما عُرِضت شـروط جديدة على العـراق في عام ١٩٥٠، بيد أنهـا حُجبـت -عـن عمد- عن إيران في الوقت نفسـه. ولم تعمل حقيقة أن شـركة النفط العراقية كانت مملوكـة جزئيًا للشـركة أنجلو-إيرانية إلا على حشـو الجرح بمزيد من الملح، فثارت ثائرة الإيرانيين. وعلى هذا النحو ثار السياسيون القوميون معلنين عن جور احتكار الأنجلو-إيرانية المفترض، وتبادلوا الانتقادات بتعليقات كانت تهدف إلى إثارة الغضب على المستوى الشعبي. وقال أحد أعضاء المجلس: إن كل الفساد في إيران إنما هو نتيجة مباشرة لوجود الأنجلو-إيرانية[2]. وإذا لم يُتخَذ إجراء ما، فسرعان «ما ستُنزع أحجبة النساء من على رؤوسهن»، كما زعم أحد الديماجوجيين[3].

وقال غيره: إن خُيِّرت إيران بين تدمير صناعة النفط برمتها بواسـطة قنبلة ذرية، والسـماح للأنجلو-إيرانية باستغلال الشعب والبلد، فستنحاز للخيار الأول[4]. وكرر مُصدّق ذلك -وإن كان على نحو أقل صراحة- عندما قال: إنه إذا أصبح رئيسًا للوزراء، فلن يسعى «للتصالح مع البريطانيين قط». ثم استطرد قائلًا: «وسأختم على آبار النفط بالطين»[5].

علـى هـذا النحو تصاعد الخطاب المناهض لبريطانيا، وترسـخ في وعي جيل كامل. وأضحى ذلك الخطـاب البـؤرة المركزيـة للوعـي السـائد. وبحسـب ذلـك الخطاب فـإن بريطانيـا كانت وراء جميع المشكلات في إيران، ولا يمكن الوثوق بها، أو التعويل عليها. ولم تكن تكترث إلا لمصالحها الخاصة فحسـب، وكانـت إمبرياليـة بالمعنـى الأسـوأ للكلمـة. وارتبطـت محـاولات اجتثـاث الهويـة الإيرانية بالمشاعر المعادية للغرب. كما كانت هناك آثار عميقة طويلة الأجل.

وأمسـك مُصدّق بتلابيب الفرصة بكلتا يديه، عندما قال قيلته المشـهورة: كفى يعني كفى. لقد حان الوقـت لضمـان ازدهار الأمة الإيرانية و«تأمين السـلام العالمي». وطُرِح الاقتـراح الراديكالي في نهاية عـام ١٩٥٠، الـذي يقضـي بأنه لا ينبغي تقاسـم العائدات مع الأنجلو-إيرانية أو مـع غيرها، بل «إعلان

---

(1) Ibid.

(2) R. Ramazani, *Iran's Foreign Policy, 1941–1973: A Study of Foreign Policy in Modernizing Nations* (Charlottesville, 1975), p. 190.

(3) In de Bellaigue, *Patriot of Persia*, p. 150.

(4) Yergin, *The Prize*, p. 437.

(٥) نقلاً عن:

J. Bill, *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American–Iranian Relations* (New Haven, 1988), p. 84.

صناعـة النفـط في إيران مؤممة فـي جميع أرجاء البلاد، دون اسـتثناء»[1]. وقدم آية الله كاشـاني -وكان رجـل ديـن شـعبوي، كان قد عاد إلى وطنه مؤخـرًا من المنفى، وكان منتقدًا معروفًـا وصريحًا للغرب- دعمـه الصـادق لهـذه الدعـوة إلى العمل، وحـث أتباعه على اسـتخدام كل طريقة ممكنـة لتمكين ذلك التغييـر. وخـلال أيام اغتيل رئيس الوزراء علي رَزْمارا. وبُعيد ذلـك اغتيل وزير التربية والتعليم كذلك. لقد كانت الفوضى تغازل إيران من على البعد.

وتحققت أسـوأ مخاوف بريطانيا عندما اختار المجلس مُصدّق نفسـه رئيسًـا للوزراء خلفًا لـ رَزْمارا فـي ربيـع عـام ١٩٥١. فأصدر في التو واللحظـة قانونًا يؤمـم الأنجلو-إيرانية بأثر فـوري. وكانت هذه كارثـة محققـة، كما أدركـت الصحافة في لندن، ومجلس الوزراء البريطاني على حدٍّ سـواء. وقال وزير الدفـاع البريطانـي: لقـد بـات من المهـم «أن نظهر أن ذراعنا [لا يمكـن] ليُّه إلى ما لا نهاية». واسـتطرد قائـلًا: «إذا سُـمح لإيـران بالإفـلات مـن العقـاب، فقـد تكـون الخطـوة التاليـة هـي محاولة تأميـم قناة السـويس»[2]. ووضعت خطط لإسـقاط المظليين في إيران لتأمين المصفاة في عبادان إذا اسـتلزم الأمر ذلـك. لقـد كانت هـذه آلام احتضـار إمبراطوريـة عظيمـة، كانت تعانـي الاضـمحلال، وتتخبط بشـدة، فتضرب في كل اتجاه، محاولة التمسك بأمجادها السابقة.

وقلب مُصدّق ظهر المجن لبريطانيا، ومنح جنودها مهلة أسبوع واحد لحزم أمتعتهم والخروج من إيران في سبتمبر ١٩٥١. وفوق ذاك، أعلن آية الله كاشاني يومًا وطنيًا لـ «الكراهية للحكومة البريطانية». وأصبحت بريطانيا مثالًا لكل ما هو خطأ في إيران، ورمزًا وحَّد طيفًا واسـعًا من المعتقدات السياسـية. وقـال مصـدِّق لأحـد المبعوثيـن الأمريكييـن رفيعـي المسـتوى: «أنـت لا تعـرف مدى مكرهـم [يعني البريطانيين]، ولا تعرف كم هم أشـرار، ولا تعرف كيف ينجسـون أي شـيء يمسـونه»[3]. لقد منح هذا النوع من البلاغة مصدّق شعبية كبيرة في وطنه؛ كما عمل على جعله مشهورًا خارجها أيضًا، فقد ظهرت صورة الرجل على غلاف مجلة التايم في عام ١٩٥٢، بوصفه رجل العام[4].

ولـم تُجدِ محاولة بريطانيا القاسـية لفرض الأمر الواقع نفعًا. ودخلـت الحكومة البريطانية في أزمة في مواجهة فقدان السيطرة، ليس على الأنجلو-إيرانية فحسب، بل على الدخل الذي تجنيه منها أيضًا؛

(1) *Correspondence between His Majesty's Government in the United Kingdom and the Persian Government and Related Documents Concerning the Oil Industry in Persia, February 1951 to September 1951* (London, 1951), p. 25.

(2) Shinwell, Chiefs of Staff Committee, Confidential Annex, 23 May 1951, DEFE 4/43;

عن الصحافة البريطانية آنذاك، انظر:

de Bellaigue, *Patriot of Persia*, pp. 158–9.

(3) S. Arjomand, *The Turban for the Crown: The Islamic Revolution in Iran* (Oxford, 1988), pp. 92–3.

(4) *Time*, 7 January 1952.

حيث نظمت حظرًا على النفط الإيراني. وكان الهدف من ذلك الإجراء إيذاء مصدّق وإجباره على رفع الرايـة البيضاء. وعلق السـير وليم فريـزر (Sir William Fraser) -وكان السـفير البريطاني في طهران- قائـلًا: إن تعطيـش إيـران للمـال سـيحدث التأثير المطلوب سـريعًا، و«عندمـا يحتـاج [الإيرانيون] إلى المال، فإنهم سيأتون إلينا زاحفين على بطونهم». وكان من قبيل المستبعد أن تساعد مثل هذه التعليقات -التي ظهرت في الصحافة البريطانية- قضية بريطانيا في محكمة الرأي العام[1]. بل إنها عملت ببساطة على شحذ الهمم في إيران؛ حتى إن البريطانيين لم يعودوا واثقين من أن استراتيجية التلويح بالعقوبات ستؤتي ثمـارًا بحلول نهاية عـام ١٩٥٢؛ لذا فقد فضلـوا اتباع خطة وكالة الاسـتخبارات المركزية التي كانت قد وُضعت بأخَرةٍ لدعم خطة «العمل السياسي المشترك لعزل رئيس الوزراء [الإيراني] مُصدّق»، أو بعبـارة أخـرى: لتنظيـم انقـلاب ضـده. لقد بـدا أن تغيير النظـام في هذا الجـزء من العالـم هو الحل الجذري للمشكلة. بيد أن حل المشكلات على هذا النحو كان بمثابة السابقة على كل حال.

* * *

اسـتجاب المسـؤولون في الولايـات المتحدة للمبـادرات البريطانية. لقد أُطلـق العنان للعملاء في الشـرق الأوسـط للعمـل في الميـدان، واستكشـاف حلـول إبداعية للمشـكلات التي قـد تصادفهم مع الحـكام المحلييـن الذيـن لـم يحظوا فـي أعين الولايـات المتحـدة، أو أبدوا حماسًـا لمغازلـة الاتحاد السـوفيتي. وشـاركت مجموعة من العملاء المتحمسين -تعود أصولهم إلى الساحل الشرقي المتميز- فـي انقـلاب أُطيـح فيـه بالقيادة في سـوريا عـام ١٩٤٩[2]، وفي الإطاحة بـ فاروق، ملك مصر الفاسـد والمثير للريبة، في عملية عُرفت -بشـكل غير رسـمي- باسـم عملية اللعين السـمين «Project FF» أو (Project Fat Fucker) بعد ثلاث سنوات لاحقًا[3].

وكانـت حماسـة رجال مثـل مايلـز كوبلانـد (Miles Copeland) واثنين من أحفـاد الرئيس ثيودور روزفلت، وهما - أرشي (Archie)، وكيرميت (Kermit) (المعروف اختصارًا باسم كيم Kim) تستدعي عمل العملاء البريطانيين في آسـيا الوسـطى قبل قرن من الزمان؛ حيث شـعروا بأنهم يستطيعون تشكيل العالم. بل وجد نظراؤهـم المحدَثين أن نقل الأسرار إلى الاتحاد السـوفيتي سيكون له آثار إيجابية أيضًا. فعلـى سـبيل المثـال، انطلق الشـباب الأمريكيون -بعد سـقوط الحكومة في سـوريا- إلـى جولة زاروا خلالها «القلاع الصليبية، والأماكن البعيدة عن الزحام»، حيث أعجبوا بفن العمارة، وأجواء حلب على الطريق[4]. واتُّخِذت القرارات دون التفكير في عواقبها، وسأل كوبلاند أرشي روزفلت المتفنن الصارم

(1) Elm, *Oil, Power, and Principle*, p. 122.

(٢) هو الانقلاب السلمي الذي أطاح فيه حسني الزعيم بـ شكري القوتلي. (المترجم)

(3) M. Holland, *America and Egypt: From Roosevelt to Eisenhower* (Westport, CT, 1996), pp. 24–5.

(4) H. Wilford, *America's Great Game: The CIA's Secret Arabists and the Shaping of the Modern Middle East* (New York, 2013), p. 73.

«ما هو الفرق بين تقاريري المصطنعة، والسماح لرجالك بوضعها موضع التنفيذ؟ إن لتقاريري مغزى على الأقل»[١]. وفاحت رائحة الطريقة التي لعب بها هؤلاء الرجال في الميدان بقوة وسرعة في الولايات المتحدة؛ حيث حذرهم أحد كبار ضباط الاستخبارات قائلًا: «لن نبدي تسامحًا مع القيادة الحرة غير المسؤولة مستقبلًا»[٢]. ومع ذلك، فعندما تعلق الأمر بالمسألة الإيرانية، فقد طُلبت آراء هؤلاء العملاء بإلحاح.

بدأ تنفيذ الخطة بعد اجتماع روتيني عُقد في واشنطن في نهاية عام ١٩٥٢، عندئذ أثار المسؤولون البريطانيون قلقهم بشأن التأثير الاقتصادي للتأميم بعد أن عزفوا على وتر حساس داعب الهواجس الأمريكية بشأن المسار المستقبلي المحتمل لإيران. وكان وكر وكالة الاستخبارات المركزية في طهران قد أبدى قلقه بشأن مصدّق، ونُصِحت واشنطن على نحو منفصل بأن «الخيار الأفضل لها هو حكومة تخلف» مُصدّق في إيران. وسرعان ما خلص المخططون إلى وجوب اشتراك الشاه في المؤامرة لتوفير الوحدة والطمأنينة، ولإسباغ عباءة الشرعية على إقالة رئيس الوزراء لجعلها «تبدو قانونية، أو شبه قانونية (legal or quasi-legal)»[٣].

ولم يكن إقناع الشاه يحتاج إلى كبير جهد. لقد كان رجلًا متوترًا وعابثًا، بيد أنه أصيب بالذعر عندما أُحيط علمًا بالخطة، التي حملت الاسم الرمزي «عملية أياكس Operation Ajax». وأثار تورط البريطانيين فيها قلقه خاصةً، وفقًا لأحد المهندسين الأمريكيين للخطة، الذي أشار إلى أن الشاه كان يعاني «خوفًا مرضيًّا من» اليد الخفية» للبريطانيين، ويخشى أن تكون العملية فخًا منصوبًا له هو نفسه. لقد كان بحاجة إلى التملق، وإظهار قدر من الحزم في الوقت نفسه، إلى جانب تحذيره. وجرى تمرير الكلمات الشّفرية في برامج هيئة الإذاعة البريطانية من لندن لطمأنته بأن العملية أُقِرت على أعلى مستوى؛ كما ساعد الخطاب الإذاعي الذي وعد فيه الرئيس أيزنهاور صراحةً بدعم الولايات المتحدة لإيران في إقناعه بالمضي قدمًا مع المتآمرين؛ وفي غضون ذلك، قيل له: إنه إذا لم يدعم الخطة، فستصبح إيران شيوعية، أو «كوريا ثانية»، على حد قول كيم روزفلت له[٤].

ومن أجل ضمان «إثارة الرأي العام ... إلى حد الثورة» بوصفه مقدمة لازمة لإزاحة مصدّق، أُرسلت الأموال من واشنطن لتألُّف الأطراف الفاعلة، وتأليبهم على رئيس الوزراء. كما جند روزفلت

(1) Ibid., p. 96.

(2) Ibid.

(3) D. Wilber, *Clandestine Services History: Overthrow of Premier Mossadeq of Iran: November 1952–August 1953* (1969), p. 7, National Security Archive.

(4) Ibid., pp. 22, 34, 33.

أعضاء بارزين في المجلس، ويكاد يكون مؤكدًا أن ذلك جرى من خلال رشوتهم (وكان الهدف -كما كتب بتعبير ملطّف- هو «إقناعهم» بسحب دعمهم لمصدّق)[1].

وأُنفِقت الأموال بسخاء في مكان آخر. فوفقًا لشاهد عيان، تدفقت العملة الأمريكية على طهران؛ حتى إن قيمة الدولار انخفضت بإزاء الريال الإيراني بنسبة ٤٠٪ تقريبًا خلال صيف عام ١٩٥٣. وأُنفِقت بعض هذه الأموال لدفع الحشود في مسيرة في شوارع العاصمة، نظمها ناشطان محليان فاعلان في وكالة الاستخبارات المركزية. وكان هناك متلقون بارزون آخرون أيضًا- ولا سيما الملالي مثل آية الله كاشاني، الذين وُجِدت مصالحهم متوافقة مع أهداف المتآمرين[2]، فقد خلص علماء المسلمين إلى أن تعاليم الشيوعية ومعاداتها للدين تجعل تلك العقيدة ملعونة في تعاليم الإسلام. وعلى هذا النحو، كان هناك تماس واضح بين وكالة الاستخبارات المركزية ورجال الدين، فأبرموا الصفقات معهم، بعد أن حذروهم بحزم من مخاطر الشيوعيين الإيرانيين[3].

وما أن التقى المخططون البريطانيون والأمريكيون في بيروت في يونيو (حزيران) ١٩٥٣، حتى وُضِعت خطة عُرضت على رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، في بداية يوليو (تموز) فأقرها. ثم عُرضت على الرئيس آيزنهاور (Eisenhower) بعد ذلك ببضعة أيام، فأقرها بدوره. وجرى تنقيح الأفكار بعد ذلك من قبل عملاء الاستخبارات للحصول على أفضل طريقة للتعامل مع ما وصفوه بـظاهرة «الفُرس المضجرين وغير المنطقيين غالبًا». لقد كان تغيير النظام مطلبًا للغرب، وينبغي أن يجري ذلك التغيير بسلاسة، ودون وقوع حوادث مؤسفة[4].

وعلى الرغم من هذا، فإن الأمور خرجت عن السيطرة، وعلى نحو مذهل. فقد أُزيلت الأقنعة، وانهارت التوقيتات، وضربت الفوضى أطنابها في البلاد. وعلى إثر ذلك غادر الشاه البلاد مذعورًا؛ حتى إنه لم يجد وقتًا لارتداء جوربيه. وعندما توقف في بغداد في طريقه إلى روما، التقى بالسفير الأمريكي في العراق، الذي اغتنم الفرصة ليقترح عليه رأيًا: «لقد اقترحت على جلالته في إيران أن لا يشير قط إلى احتمال ضلوع بلد أجنبي في الحوادث الأخيرة». ولم يكن لهذا الاقتراح علاقة بهيبة الشاه قط، بل كان متعلقًا بإبقاء الخيارات مفتوحة أمام واشنطن، وفي المقام الأول، الحفاظ على سمعة

(١) انظر:

S. Koch, *'Zendebad, Shah!': The Central Intelligence Agency and the Fall of Iranian Prime Minister Mohammed Mossadeq, August 1953* (1998), National Security Archive.

(2) M. Gasiorowki, 'The Causes of Iran's 1953 Coup: A Critique of Darioush Bayandor's Iran and the CIA', *Iranian Studies* 45.5 (2012), 671-2; W. Louis, 'Britain and the Overthrow of the Mosaddeq Government', in Gasiorowski and Byrne, *Mohammad Mosaddeq*, pp. 141-2.

(3) Wilber, *Overthrow of Premier Mossadeq*, p. 35.

(4) Ibid., p. 19.

الولايات المتحدة نظيفة. وعلى الرغم من أن الشاه -«الذي كان يعاني الإجهاد [من] ليالٍ قضاها، ولم يهجع فيها ولو قليلًا، [و] قد طار لبه بسبب تحول مسار الحوادث»- لم يكن في حال تسمح له بأن يفكر على نحو سليم، فإن ذلك السفير اللطيف أبرق إلى واشنطن بأنه «وافق على الاقتراح»[١].

وبينما كان الشاه يشق طريقه إلى منفاه في إيطاليا، بثت محطات الإذاعة الإيرانية تقارير إذاعية تُشهِّر به، بينما وصفته الصحافة بأنه الداعر، والنهَّاب، واللص[٢]. وبدت آثار الصدمة على زوجته الشابة ثريا -التي همس كثيرون بأنها كانت تصغره بـ ١٩ عامًا عندما تزوجت منه- حيث تذكرت -بأَخَرة- أنها كانت تمشي في شارع ڤيا ڤينيتو (Via Veneto) مرتدية فستانًا منقَّطًا باللونين الأحمر والأبيض، وتناقش السياسات الحاقدة على طهران، وتستمع إلى زوجها وهو يفكر -آسفًا- في شراء قطعة أرض صغيرة لبدء حياة جديدة، ربما في الولايات المتحدة[٣].

وتبعت رحلة الشاه أخطاء، ومغامرات جديرة بمسرحية هزلية. وتوالت الشائعات تترى في الشوارع بأن مُصدِّق يسعى للمطالبة بالعرش لنفسه، وسرعان ما انقلب المد إلى جزر. ففي غضون أيام -وعلى الرغم من كل الصعاب- كان الشاه يشق طريقه عائدًا إلى وطنه، وحرص على التوقف في بغداد لفترة وجيزة؛ ليرتدي زي القائد العام للقوات الجوية. ثم يعود فيُستقبَل استقبالًا رائعًا ومجيدًا، لم يقدم نفسه فيه على أنه جبان رعديد هرب خوفًا وفرقًا، بل قدم نفسه بوصفه بطلًا عاد للسيطرة على الأوضاع. واعتُقِل مُصدِّق وحوكم، وحُكم عليه بالحبس الانفرادي. وتبع ذلك نفي طال حتى وفاته عام ١٩٦٧[٤].

* * *

لقد دفع مُصدِّق ثمنًا باهظًا لصوغه رؤية للشرق الأوسط، لا يجر التخفيفَ فيه من نفوذ الغرب فحسب، بل إزالته بكلِّيته. وقد تطورت مخاوفه بشأن الأنجلو-إيرانية إلى نظرة سلبية ومدمرة بشأن الغرب ككل. وجعلت منه تلك السياسة رجلًا مثيرًا للقلاقل من الدرجة الأولى في إيران، وكان ذلك كافيًا لصناع السياسة البريطانيين والأمريكيين لوضع الخطط لإزاحته من المسرح تمامًا. وجاءت

---

(1) Berry to State Department, 17 August 1953, National Security Archive.

(٢) عن الإذاعة الإيرانية، انظر:

M. Roberts, 'Analysis of Radio Propaganda in the 1953 Iran Coup', *Iranian Studies* 45.6 (2012), 759-77;

وعن الصحافة، انظر:

de Bellaigue, *Patriot of Persia*, p. 232.

(٣) عن رحلة الشاه إلى روما، انظر:

Soraya Esfandiary Bakhtiary, *Le Palais des solitudes* (Paris, 1992), pp. 165-6.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Buchan, *Days of God*, p. 70.

(4) de Bellaigue, *Patriot of Persia*, pp. 253-70.

احتجاجاته الصاخبة في وقت كان غيره ينتقد السيطرة الغربية على الشبكات التي تربط الشرق بالغرب بشدة. ففي مصر، شهد العداء المتزايد أعمال شغب مناهضة لبريطانيا، ومطالب متزايدة بإجلاء القوات البريطانية المتمركزة في السويس. ورفع زائر من وزارة الخارجية الأمريكية للقاهرة تقريرًا إلى هيئة الأركان المشتركة، احتوى على عبارات قاطعة لا لبس فيها بشأن الأوضاع في البلاد. فكتب قائلًا: إن «البريطانيين مكروهون، والكراهية ضدهم عامة وكثيفة. وهي القاسم المشترك بين الأهلين ثمة». لقد كانت هناك حاجة إلى حل عاجل[1].

لقد كان الزمان يستدير. وبهذا المعنى، كان مُصدّق هو الأكثر وضوحًا من بين أولئك الذين وضعوا رؤية لعصر جديد، عصر ينطوي على نزع قبضة الغرب من على عنق وسط آسيا. وعلى الرغم من أن الملابسات الدقيقة لعزله أُخفيت لعقود من قبل وكالات الاستخبارات المركزية، التي فطنت إلى «العواقب المدمرة» التي قد تترتب على رفع السرية عن تلك المادة، فإن الناس -اللهم إلا قليلًا منهم- لم يراودهم أدنى شك في أن تنحية مصدّق كانت عملًا مدبرًا من قبل قوى غربية لتحقيق غاياتها الخاصة[2]. وعلى هذا النحو، كان مُصدّق الأب الروحي لعدد كبير من الورثة في جميع أنحاء هذه المنطقة. وعلى الرغم من أن أساليب طائفة متنوعة من القادة من أمثال: آية الله الخميني، وصدام حسين، وأسامة بن لادن، وطالبان قد تباينت في الأهداف والطموحات على نطاق واسع، فإنهم اتحدوا جميعًا في مبدأ أساسي؛ مفاده أن الغرب خبيث ذو وجهين، وأن تحرير الأهالي يعني التحرر من النفوذ الخارجي بالضرورة. واتُّبِعت طرق مختلفة في محاولة تحقيق ذلك الهدف؛ بيد أن أولئك الذين افتعلوا المشكلات ووضعوا العراقيل للغرب كانوا عرضة لمواجهة العواقب، كما أظهرت حالة مُصدّق بوضوح.

وعلى الصعيد النفسي، كان الانقلاب لحظة مفصلية. فقد استخلص الشاه كل الاستنتاجات الخاطئة التي كان بوسعه استخلاصها، وأقنع نفسه أن شعب إيران معجب به. والحق، أنه كان هناك تناقض في أحسن الأحوال بالنسبة للشاه، الذي جلس والده -وكان ضابطًا بسلاح الفُرسان- على عرش البلاد قبل ثلاثة عقود فحسب. وأظهرت رحلته إلى روما افتقار البلاد -على نحو مثير للقلق- إلى ركن ركين. وكان ينبغي أن تستند قناعته بأنه الرجل الذي ينهض بتحديث البلاد، إلى قدرته على قراءة الرياح السياسية السائدة، والمحافظة على استقلاله عن التدخل الغربي، ولا سيما التدخل الأمريكي. وكانت هذه مهمة أكبر من أن توضع على عاتق رجل عابث، زائغ العينين، ولوعًا بأرقى المقتنيات، الأمر الذي أتاح فرصًا لمنتقديه من جهة، ولم يترك له سوى القليل من الوقت للحكم الرشيد من جهة أخرى.

---

(1) 'Substance of Discussions of State- Joint Chiefs of Staff Meeting', 12 December 1951, *FRUS, 1951: The Near East and Africa*, 5, p. 435.

(2) 'British-American Planning Talks, Summary Record', 10–11 October 1978, FCO 8/3216.

وفوق ذاك، كان الانقلاب المدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية عام ١٩٥٣ بمثابة منعطف في دور أمريكا في الشرق الأوسط. لقد كانت هذه «فرصة ثانية» لإنقاذ إيران، كما وصفها جون فوستر دالاس (John Foster Dulles) -وزير الخارجية الجديد- فهي الفرصة التي تيقنت فيها أمريكا من أن إيران لن تخرج عن مدارها في فلك الغرب[1]. ونظرًا إلى أن «إيران الديمقراطية المستقلة [لا تبدو] ممكنة في ظل هذه الظروف»، كما ذكر سفير الولايات المتحدة في طهران للشاه، فقد كان هناك خياران لا ثالث لهما: «إيران المستقلة غير الديمقراطية»، أو «إيران المستقلة غير الديمقراطية، القابعة خلف الستار الحديدي إلى الأبد»[2]. وكان ذلك نقيضًا مباشرًا للرسالة الصاخبة والعامة التي كان الغرب يدافع عنها في صراعه مع الشيوعية حول الحرية والديمقراطية.

لقد كان عزل مصدّق لحظة تصرفت فيها الولايات المتحدة نيابة عن بريطانيا؛ وكانت تلك هي اللحظة التي اتصلت فيها الولايات المتحدة اتصالًا جادًّا بالمنطقة التي عبرتها طرق الحرير لعدة قرون، وبدأت في محاولة السيطرة عليها. ولكن بدا أن هناك مخاطر تلوح في المستقبل؛ فقد عمل تشدق الولايات المتحدة بالديمقراطية من جهة، واستعدادها لمعاقبة النظم، ووضع الخطط لإسقاطها من جهة أخرى على جعل حلفاءها يشعرون بالريبة في أمرها. قد يكون اللعب على الحبلين خطيرًا، لأسباب أخصها أن الثقة ستنهار، وتنهار معها المصداقية حتمًا متى جد الجد. وعلى أية حال فقد عوَّل كثيرون -في ظل استمرار أفول نجم بريطانيا- على الدروس التي قد تكون أمريكا قد خرجت بها مما حدث في عام ١٩٥٣.

(1) 'Memorandum of Discussion at the 160th Meeting of the National Security Council, 27 August 1953', *FRUS, 1952–1954: Iran, 1951–1954*, 10, p. 773.

(2) 'The Ambassador in Iran (Henderson) to Department of State', 18 September 1953, *FRUS, 1952–1954: Iran, 1951–1954*, 10, p. 799.

-٢٢-

طريق الحرير الأمريكي

لما تولت الولايات المتحدة زمام القيادة في الشرق الأوسط، كانت تخطو إلى عالم جديد. عالمٌ كان يشهد توترات واضحة بين هدفي تعزيز المصالح الوطنية من جهة، ودعم الأنظمة والحكام البغيضين من جهة أخرى. على أية حال فقد شرعت وزارة الخارجية -في غضون أسابيع من الإطاحة بمصدّق- في إقامة تحالف من شركات النفط الأمريكية للسيطرة على آبار النفط، والبنية التحتية للأنجلو-إيرانية. بيد أن قلة من تلك الشركات أظهرت حماسةً لدخول ذلك المعترك، وفضلت النأي بأنفسها تمامًا عن المشهد الضبابي في طهران؛ وهو المناخ الذي كان من المرجح أن يسود في أعقاب عودة الشاه إلى عرشه؛ حيث لم تكن نية الشاه إعدام رئيس وزرائه السابق، أمرًا من شأنه أن يعمل عمل على تهدئة الأوضاع، كما لم يكن يُعد أمارة واعدة قط.

كما كانت زيادة إنتاج النفط في بقاع أخرى، أو وجود فرص جديدة واعدة بأن تكون أساسًا لثروات كبرى -تفوق تلك التي حققها نوكس دارسي بكثير- سببًا في عزوف تلك الشركات أيضًا عن الدخول في مجال صناعة النفط الإيرانية؛ فقد سيطرت تلك الشركات -قبل أسابيع من سقوط مُصدّق- بقيادة ج. بول جيتي J. Paul Getty -الذي ضرب ضربة كبرى، وُصِفت بأنها «مكان ما بين الجبابرة وصناع التاريخ»- على آبار النفط في المنطقة المحايدة بين المملكة العربية السعودية والكويت. وبالمقارنة، فإن التورط في السياسات السامة في طهران لم يجذب تلك الشركات على نحو يمكن تفهمه.

بيد أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن تنظر إلى الأمر على أنه أولوية، بل كانت تراه على أنه ضرورة حيوية؛ ذاك أن إيران كانت قد توقفت عن تصدير النفط خلال أزمة أوائل الخمسينيات، فإذا لم يُستأنف الإنتاج في أسرع وقت ممكن، فسوف ينهار اقتصاد البلاد، وهو الأمر الذي من شأنه فتح الباب على مصراعيه أمام الفصائل التخريبية التي قد تدفع بالبلاد نحو الاتحاد السوفيتي على الأرجح. كما أن نضوب إمدادات النفط، وارتفاع أسعاره سيكون لهما تأثير سلبي على أوروبا التي كانت تحاول إعادة بناء نفسها في حقبة ما بعد الحرب؛ لذا بدأت وزارة الخارجية في الضغط على المنتجين الأمريكيين الرئيسيين بغرض تشكيل تحالف (Consortium) للسيطرة على مصالح الأنجلو-إيرانية، مُلمحة إلى احتمال كارثي، وهو أن امتيازات الشركات الأمريكية في الكويت، والعراق، والسعودية ستكون عُرضة للخطر إذا لم يُتخذ إجراء ما.

وعلى هـذا النحو اضطلعت حكومة الولايـات المتحدة بدور مدير الحلبة آنـذاك؛ ذاك أنها تملقت الشـركات الأمريكيـة للتعاون. وعلـى حد تعبير أحد كبار المسـؤولين التنفيذيين في قطـاع النفط، «من المنظور التجاري البحت، ليس لشركتنا مصلحة خاصة» في الدخول في مجال صناعة النفط الإيرانية؛ بيد أننا ندرك جيدًا مصالح الأمن القومي الكبيرة التي ينطوي عليها الأمر؛ لذا فنحن على استعداد لبذل كل الجهـود المعقولـة للمسـاعدة في هذا الصدد. وقـال غيره: «ما كنا لنتورط في إيـران قط، لو لم تقم الحكومة بضربنا على رؤوسنا»[1].

وكانـت الجهـود المبذولـة للتدخل في شـأن الأنجلو-إيرانيـة، والمحافظة على اسـتقرار إيران من التعقيـد بمـكان؛ ذاك أن حقيقة أن شـركات النفط نفسـها التي طُلِـب منها العمل بوصفها أداة للسياسـة الخارجيـة الأمريكيـة كانت تُقاضَى -في الوقت نفسـه- جراء خرقها قوانيـن مكافحة الاحتكار من قِبل وزارة العدل. وسرعان ما تبين أن رسالة التبشير بالديمقراطية إنما هي رسالة مرنة، وكذلك كانت الحال في مسـألة احترام القوانين الأمريكية؛ فقد قُدِّمت تعهدات رسـمية من قبل المدعي العام بناءً على طلب مـن مجلـس الأمـن القومـي (National Security Council) بأنـه يمكن اعتبـار «إنفـاذ قوانين مكافحة الاحتكار في الولايات المتحدة ضد [شركات النفط التي تشكل التحالف] أمرًا ثانويًّا في جنب مصالح الأمن القومي»؛ لذا، تلقت شركات النفط -في ربيع ١٩٥٤- ضمانات رسمية بالحصانة من الملاحقة القضائية. لقد كانت السيطرة على إيران أمرًا مهمًّا للغاية؛ حتى إن حكومة الولايات المتحدة كانت على استعداد لتنحية نصوص قوانينها جانبًا في سبيلها[2].

وكان تشجيع شركات النفط الأمريكية على الدخول في صناعة النفط الإيرانية مجرد جزء من خطة أوسـع لدعم إيران، وإبقائها بعيدًا عن قبضة الاتحاد السـوفيتي. وعلى هذا النحو بُذلت جهود حثيثة في مشـاريع التنمية الاجتماعية، لا سـيما في الريف الإيراني. وكان نحو ثلاثة أرباع السـكان من الفلاحين محدودي الدخل، ولا يملكون أرضًا. لقد كانوا عالقين في عالم يعارض فيه ملاك الأراضي سياسـات الإصـلاح الزراعي؛ حيث كانت الخيارات محدودة، فمعـدلات الائتمان النموذجية التي عُرِضت على صغار المزارعين تراوحت بين ٣٠ إلى ٧٥٪ وهي مستويات وُضعت لضمان خنق الحراك الاجتماعي[3].

واستُثمرت الأموال لمعالجة بعض هذه القضايا. ووُضِعت مخططات لتمويل المشروعات الصغيرة للفلاحيـن وأصحـاب الحيـازات الزراعية الصغيرة من قِبل مؤسسـة فـورد (Ford Foundation)، وهي

(1) *The International Petroleum Cartel, the Iranian Consortium, and US National Security*, United States Congress, Senate (Washington, DC, 1974), pp. 57–8; Yergin, *The Prize*, p. 453.

(2) Bill, *The Eagle and the Lion*, p. 88; 'Memorandum of the discussion at the 180th meeting of the National Security Council', 14 January 1954, *FRUS, 1952–1954: Iran, 1951–1954*, 10, p. 898.

(3) M. Gasiorowski, *US Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, NY, 1991), pp. 150–1.

أكبر منظمة خيرية في أمريكا. وعمل إنشاء التعاونيات، ودعمها للفلاحين على تمكين عملية الانتقال من التجارة البائسة لمحاصيلهم من القطن في الأسواق المحلية إلى بيعها بأسعار أفضل بكثير للوسطاء في أوروبا. وضغطت الولايات المتحدة على الشاه ووزرائه للتعامل -على نحو سليم- مع مفهوم التنمية الريفية. بيد أن ذلك لم يحدث كبير أثر، بل سرعان ما أدى إلى يأس أولئك الذين حاولوا إقناع كبار السياسيين بأن الإخفاق في معالجة مشكلات الأمية، وانعدام المساواة في الريف سيكون له عواقب على المدى الطويل[1].

كما ارتفعت المساعدات المباشرة المقدمة من الحكومة الأمريكية ارتفاعًا حادًا، حيث ارتفعت من متوسط سنوي قدره ٢٧ مليون دولار -في السنوات التي سبقت عزل مُصدّق- إلى خمسة أضعاف هذا الرقم في السنوات التي تلت الإطاحة بمصدّق[2]. كما قدمت الولايات المتحدة منحًا وقروضًا للمساعدة في تمويل سد ضخم أُقيم على نهر الكرج -على بعد نحو أربعين ميلًا شمال شرقي طهران- أيضًا. وكان ذلك السد يهدف إلى زيادة إمدادات الكهرباء والمياه إلى العاصمة إلى حد كبير من جهة؛ وليكون رمزًا للتحديث والتقدم في إيران من جهة أخرى[3].

ومثلت هذه الجهود جزءًا من نهج منظم لتعزيز أجزاء أخرى من المنطقة. فعلى الرغم من أن ثروة إيران النفطية جعلتها ذات أهمية خاصة بالنسبة للغرب، إلا أن الدول المجاورة كانت تزداد أهمية أيضًا بسبب موقعها على الجناح الجنوبي للاتحاد السوفيتي في وقت ارتفعت فيه حرارة الحرب الباردة.

وأسفرت سياسات الولايات المتحدة عن بناء حزام من الدول الموالية للغرب، امتد من البحر المتوسط وجبال الهيمالايا، وتلقت حكومات دول ذلك الحزام دعمًا اقتصاديًا، وسياسيًا، وعسكريًا كبيرًا منها. وخدمت هذه المجموعة من البلدان -التي أطلق عليها وزير الخارجية المتشدد جون فوستر دالاس (John Foster Dulles) اسم الطبقة الشمالية (Northern Tier)- ثلاثة أهداف، أولها: العمل بوصفها حصنًا ضد توسع المصالح السوفيتية. وثانيها: الحفاظ على الخليج العربي الغني بالموارد آمنًا، والاستمرار في ضخ النفط إلى الغرب؛ فمن شأن ضخ النفط تحفيز انتعاش أوروبا، فضلًا عن أنه يوفر -في الوقت نفسه- عائدات عُدَّت مهمة للاستقرار المحلي. وثالثها: توفير سلسلة من مراكز التنصت، والقواعد العسكرية في حال تصاعدت التوترات مع الكتلة السوفيتية، وتحولت إلى صراع مفتوح. فعلى سبيل المثال، أشار تقرير أُعِد لهيئة الأركان المشتركة في جنوب آسيا في عام ١٩٤٩، إلى أن باكستان «قد تكون مطلبًا ملحًا بوصفها قاعدة للعمليات الجوية ضد الاتحاد السوفيتي، وكذلك

---

(1) V. Nemchenok, '"That So Fair a Thing Should Be So Frail": The Ford Foundation and the Failure of Rural Development in Iran, 1953–1964', *Middle East Journal* 63.2 (2009), 261–73.

(2) Ibid., 281; Gasiorowski, *US Foreign Policy*, pp. 53, 94.

(3) C. Schayegh, 'Iran's Karaj Dam Affair: Emerging Mass Consumerism, the Politics of Promise, and the Cold War in the Third World', *Comparative Studies in Society and History* 54.3 (2012), 612–43.

بوصفها نقطة انطلاق للقوات المدافعة عن مناطق النفط في الشرق الأوسط، أو تلك التي تروم استعادتها». وأشار التقرير أيضًا إلى أنها بمثابة قاعدة أمامية بارزة، يمكن اتخاذها منطلقًا لتنفيذ عمليات سرية ضد الاتحاد السوفيتي(١)؛ لذا كان من الضروري تقديم يد العون لباكستان، وكذلك إلى دول أخرى في «الطبقة الشمالية»، فقد كان هناك احتمال قائم أن تنتهج المنطقة برمتها نهجًا محايدًا في تعاملها مع الغرب، «أو... قد تقع في فلك الاتحاد السوفيتي على أسوأ الفروض»(٢).

وشكلت هذه المخاوف السياسة الأمريكية والغربية تجاه معظم أرجاء آسيا في العقد الذي تلا الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٥٥، رُبطت مجموعة الدول الممتدة من تركيا غربًا مرورًا بالعراق وإيران، ووصولًا إلى باكستان شرقًا باتفاقية واحدة، حلت محل مجموعة من التحالفات مع بعضها بعضًا، أو مع بريطانيا. وعلى هذا النحو وقّعت تلك الدول على ما عُرِف بُعيد ذلك باسم «حلف بغداد». وعلى الرغم من أن الهدف المعلن للمعاهدة كان «الحفاظ على السلام والأمن في الشرق الأوسط» والذي جرى بموجبه تبادل الضمانات، إلا أن الحقيقة هي أنها وُضِعت لتمكين الغرب من التأثير على منطقة ذات أهمية استراتيجية، واقتصادية حيوية(٣).

* * *

على الرغم من أن الولايات المتحدة اهتمت بالحكومات المحلية اهتمامًا كبيرًا، ضمانًا لتصرفها على نحو إيجابي من منظورها، فإن الأخطاء التي ارتكبتها واشنطن أتاحت ثغرات دلف منها السوفيت. فعلى سبيل المثال، نظرت القيادة الأفغانية شذرًا لرفض الولايات المتحدة طلب وزارة الخارجية الأفغانية مد يد العون وتصدير السلاح في أواخر عام ١٩٥٤. وقيل للأمير نعيم -وكان شقيق رئيس الوزراء-: إن أفغانستان ينبغي أن تركز على الأمور الأقرب إليها، مثل حل النزاعات الحدودية مع باكستان، بدلًا من طلب السلاح. وجاء هذا الرد الأخرق -الذي كان يهدف إلى إظهار الدعم للنظام في كراتشي؛ حيث وصفه أحد الملحقين العسكريين مؤخرًا بأنه «ذو أهمية استراتيجية عالمية»- بنتائج عكسية على الفور(٤).

---

(1) 'Memorandum from the Joint Chiefs of Staff', 24 March 1949, *FRUS, 1949: The Near East, South Asia, and Africa*, 6, pp. 30–1.

(2) 'Report by the SANACC [State-Army-Navy-Air Force Co-ordinating Committee] Subcommittee for the Near and Middle East', *FRUS, 1949: The Near East, South Asia, and Africa*, 6, p. 12.

(٣) انظر بصفة عامة في هذا الصدد:

B. Yesilbursa, *Baghdad Pact: Anglo-American Defence Policies in the Middle East, 1950–59* (Abingdon, 2005).

(4) R. McMahon, *The Cold War on the Periphery: The United States, India and Pakistan* (New York, 1994), pp. 16–17.

فمـا أن وصلـت تلـك الأخبار إلى كابـول، حتى تدخل السـوڤيت على الفور؛ حيـث أخبروا كابول بأنهـم علـى أتـم اسـتعداد لتوفير المعدات العسـكرية، والمال الـلازم للتطوير، وهو العـرض الذي قُبل سـريعًا. وأعقـب المنحة الأوليـة البالغة ١٠٠ مليون دولار، منح أخرى مكَّنت البلاد من بناء الجسـور، وتحديث الاتصالات السـلكية واللاسـلكية، وتوسـيع نظام الطرق، بما في ذلك الطريق السـريع الرابط بين قندهار وهرات. وشُيِّد نفق سالانج (Salang Tunnel) -الذي يبلغ طوله ١,٧ ميل على طول طريق رئيس يؤدي إلى الشمال للتواصل مع آسيا الوسطى السوڤيتية- بالأموال والخبرة التي بذلتهما موسكو لأفغانسـتان. وكان هـذا الطريـق رمـزًا للصداقـة السـوڤيتية الأفغانيـة، وشـريان الإمداد الرئيسـي خلال الثمانينيات بعد غزو الاتحاد السـوڤيتي لأفغانسـتان. ومن المفارقات أنه كان يُعد أيضًا جزءًا حيويًّا من طريـق الإمداد الذي سـارت عليه قوافـل الولايات المتحدة وحلفائها، ودلفت منـه إلى البلاد في أوائل القرن الحادي والعشـرين. لقد صار الطريق السـريع -الذي شُيِّد لتقوية أفغانستان ضد الغرب- محوريًا في جهود الغرب الرامية لبناء أفغانستان على صورته الخاصة[١].

إن التفوق في المناورة إنما هو نتاج التجربة الواقعية ولا شك؛ ومع ذلك فقد تكررت الظاهرة عينها مجـددًا بعـد بضعة أشـهر، وجاءت هذه المرة بنتائج أكثر مأسـاوية. ففي نهاية عـام ١٩٥٥، اتصل الثائر جمال عبد الناصر -الذي لعب دورًا محوريًّا في انقلاب أطاح بملك مصر فاروق، قبل ثلاث سنوات، بدعـم مـن وكالـة الاسـتخبارات المركزية- بموسـكو للحصـول على السـلاح. واسـتجابت الولايات المتحدة، التي فوجئت بهذا التطور، فعرضت المسـاعدة في تمويل مشـروع بناء سـد ضخم في أسـوان -وهو مشـروع يحاكي سـد الكرج في إيران- بالشـراكة مع بريطانيا والبنك الدولي. ودارت مناقشـات رفيعـة المسـتوى بين لندن وواشـنطن تطرقـت إلى كيفية تهدئـة ثائرة عبد الناصر، الأمـر الذي أدى إلى وعده بالحصول على السـلاح، وكذلك الضغط على إسـرائيل لعقد معاهدة مع مصر، أملًا في تحسـين العلاقات المتوترة بين البلدين على نحو متزايد[٢].

وأثـار ميثـاق حلـف بغداد غضـب عبد الناصر، الذي عـده عائقًا أمـام الوحدة العربيـة، وأداة غربية للحفـاظ علـى نفوذهـا فـي قلب آسـيا. ولو قـدم الغرب المـال والدعم على الفـور، لربما هـدأت ثائرة عبد الناصر، على الأقل على المدى القصير. بيد أن ما حدث قد حدث، لقد سُحِبت وعود التمويل بعد مخاوف أبداها أعضاء في الكونجرس الأمريكي تقضي بأن بناء السد سوف يؤدي إلى زيادة إنتاج مصر مـن القطـن، ومـن ثـم انخفـاض أسـعاره علـى نحـو مـن شـأنه أن يلحـق الضـرر بمصالـح المزارعين الأمريكيين[٣]. وكان سحب عرض تمويل السد بمثابة قشة قصمت ظهر البعير.

---

(1) P. Tomsen. *The Wars of Afghanistan: Messianic Terrorism, Tribal Conflicts and the Failures of the Great Powers* (New York, 2011), pp. 181–2.

(2) R. McNamara. *Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East, 1952–1967* (London, 2003), pp. 44–5.

(3) A. Moncrieff. *Suez: Ten Years After* (New York, 1966), pp. 40–1; D. Kunz, *The Economic Diplomacy of the Suez Crisis* (Chapel Hill, NC, 1991), p. 68.

وعلى هذا النحو صعَّد عبد الناصر -وهو الخبير في سياسة حافة الهاوية، والذي وصفه رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن (Anthony Eden) بأنه مصمم على «أن يصبح نابليون العرب Napoleon of the Arabs»- الموقف آنذاك[1]. ورد ردًّا واضحًا على تعليق وزير الخارجية البريطاني الغريب في ربيع عام ١٩٥٦ بأن قناة السويس تعد «جزءًا لا يتجزأ من مجمع النفط في الشرق الأوسط» وقطاعًا حيويًّا لمصالح بريطانيا، وقوبل هذا التصريح برد حاسم، يقضي بأنه إذا كان الأمر كذلك، فينبغي أن تُشرَك مصر في أرباح القناة، تمامًا كما تُشرَك الدول المنتجة للنفط في عائدات النفط[2]. لقد أدرك عبد الناصر جيدًا أن الغرب لن يدخر وسعًا للاحتفاظ بأصوله، لكنه حسب أن تأميم القناة سيوفر نفوذًا لن يفيد مصر إلا على المدى الطويل.

ولما شرع المخططون الأمريكيون في حساب التأثير المحتمل لإغلاق القناة على أسعار النفط، سقطت شخصيات بارزة في بريطانيا في ضباب من العذاب والكآبة. فكتب هارولد ماكميلان (Harold Macmillan)، -وزير الخزانة المرموق، وصاحب العلاقات الجيدة- قائلًا: «الحقيقة أننا عالقون في معضلة رهيبة؛ فمن جهة، إذا اتخذنا إجراءات قوية ضد مصر، وترتب على تلك الإجراءات إغلاق القناة، وقطع خطوط الأنابيب إلى بلاد الشام، وقيام ثورات في الخليج العربي، وتوقف إنتاج النفط، فنكون -بذلك- كمَن أطلق النار على قدميه[3]. ومن جهة أخرى، إذا لم نحرك ساكنًا، سيخرج ناصر منتصرًا، وستكون هناك عواقب وخيمة في أماكن أخرى؛ حيث ستتأسى به كل دول الشرق الأوسط، وتؤمم صناعاتها النفطية».

كان عبد الناصر يتقدم من حيث توقف مُصدّق. وبدأ الدبلوماسيون والسياسيون وعملاء الاستخبارات الغربيون يفكرون في تطبيق حل مماثل لمشكلة زعيم تتعارض سياساته مع المصالح الغربية. ولم يمض وقت طويل قبل أن يبحث البريطانيون عن «طرق إسقاط النظام، ووسائل تحقيق تلك الغاية»[4]. ولم يكن رئيس الوزراء، أنطوني إيدن، يرغب في تنحية عبد الناصر عن المشهد فحسب؛ بل أراد قتله أيضًا، أو وفق تعبير أحد كبار الدبلوماسيين في لندن: «ربما بات مُتعينًا علينا التخلص من ناصر»[5]. ولما لم تسفر الجولات الدبلوماسية المكوكية عن تحقيق نتائج ملموسة، خلصت بريطانيا وفرنسا إلى أن الحاجة باتت ماسة إلى التكشير عن الأنياب لإقناع الزعماء في جميع أنحاء الشرق الأوسط بأن الغرب لن يقف مكتوف الأيدي، وأنه سيتخذ إجراءً مباشرًا ضد أي شخص يجرؤ على تهديد المصالح الغربية.

---

(1) Eden to Eisenhower, 6 Sept 1956, FO 800/740.

(2) M. Heikal, *Nasser: The Cairo Documents* (London, 1972), p. 88.

(3) H. Macmillan, Diary, 25 August 1956, in A. Horne, *Macmillan: The Official Biography* (London, 2008), p. 447.

(٤) نقلاً عن:

McNamara, *Britain, Nasser and the Balance of Power*, p. 46.

(5) McNamara, *Britain, Nasser and the Balance of Power*, pp. 45, 47.

وبـدأ العمل العسـكري ضد مصر في نهايـة أكتوبر (تشـرين الأول) ١٩٥٦، حيث تحركت القوات البريطانيـة، والفرنسـية، لتأمين منطقة القناة، بينما شـن حلفاؤهم الإسـرائيليون ضربة طالت عمق شبه جزيـرة سـيناء للمسـاعدة في تأمين السـويس، ومضاعفة الضغـط على عبد الناصر. وسـرعان ما تحول الغزو إلى هزيمة فادحة؛ فقد أغلق المصريون قناة السـويس بعد أن أغرقوا السـفن، والقوارب، وسـفن الصيانـة فـي القنـوات الملاحية أو على مقربة منها، بينما سـقط جسـر السـكك الحديديـة المتحرك في الفـردان -شـمالي الإسـماعيلية- فـي المياه. وسـرعان ما تجاوز تأثير إغلاق القناة المصاعب التسـعة والأربعين المقدرة؛ ونتج عن ذلك ما وصفه تقرير صدر آنذاك بـ«تفكك خطير لحركة السلع الاعتيادية». وانخفضت شحنات البترول المُصدَّرة إلى أوروبا الغربية انخفاضًا حادًّا.

وخلصـت وكالـة الاسـتخبارات المركزية الأمريكية إلى أن ثم عواقب أخرى لا يُسـتبعد أن تقع؛ إذ من المحتم أن ترتفع أسـعار «عدد كبير من السـلع الأساسية في التجارة العالمية»، وكذلك من المرجح أن تكون هناك «بطالة كبيرة في بلدان العالم الحر» التي كانت اقتصاداتها تعتمد على الشحنات القادمة عبر السـويس. وسـيكون التأثير ملموسًـا في الاتحاد السـوفيتي أيضًا؛ حيث باتت سـفنه التي تتاجر مع الشرق الأقصى تواجه تحولًا في المسار بطول ٧٠٠٠ ميل، وهي المسافة اللازمة للدوران حول إفريقيا للوصول إلى موانيها الأصلية في البحر الأسود، وذلك بسبب إغلاق قناة السويس. وراقب الأمريكيون عن كثب الكيفية التي حولت بها موسـكو البضائع الأساسـية إلى طرق السكك الحديدية العابرة لآسيا، والتي سرعان ما زادت أهميتها إبانئذ[1].

وعلـى الرغـم من إدراك إدارة أيزنهاور للتوترات المتصاعدة بسـبب مصر، إلا أنها فوجئت باندلاع العمل العسـكري، دون استشـارتها بشأن خطط الغزو. واستشاط الرئيس الأمريكي غضبًا، ووبخ رئيس الـوزراء البريطانـي شـخصيًّا توبيخًـا لاذعًـا. وكان اسـتخدام القوة في منطقـة القناة بمثابة كارثة دعائية للحراس الذين أطلقوا على أنفسـهم «العالم الحر»؛ فقد جاءت تلك الحوادث في الوقت الذي وطأت فيـه الدبابات السـوفيتية شـوارع بودابسـت لإخمـاد انتفاضة شـعبية اندلعت في المجر. ومع ذلك فقد فرضـت الحوادث التي جرت في السـويس قضية مختلفة؛ فقد كانـت بمثابة اللحظة التي اضطرت فيها الولايات المتحدة للاختيار بين القوى الغربية التي ورثت عباءتها في القرن العشرين، وبين عالم الشرق الأوسط الغني بالنفط. ولما أنعمت النظر في كلا الخيارين، اختارت الأخير.

وكان مـن الضـروري -كما قـال الرئيس أيزنهاور- أن «[لا يشـعر] العرب بالألم منـا جميعًا». فإذا حدث ذلك، فقد تنهار إمدادات النفط القادمة من الشـرق الأوسـط بالكلية، بسـبب إغلاق القناة؛ ولأن الإنتـاج قـد يتوقـف، أو قد يُفرَض حظر ما هنا أو هناك في بلدان تقع في منطقة تتعاطف مع مصر تلقائيًّا

(1) 'Effects of the Closing of the Suez Canal on Sino-Soviet Bloc Trade and Transportation', Office of Research and Reports, Central Intelligence Agency, 21 February 1957, Freedom of Information Act Electronic Reading Room, Central Intelligence Agency.

إذا تعرضت للتنمُّر الوقح. وكما اعترف دبلوماسي بريطاني كبير، فإن أي خفض للإمدادات ستكون له عواقب مدمرة بقوله: «إذا حُرمت [بريطانيا] من نفط الشرق الأوسط لمدة عام أو عامين، فسوف تذوب احتياطاتنا من الذهب. وإذا ذهبت تلك الاحتياطات فإن منطقة الإسترليني ستتفكك؛ فإذا تفككت منطقة الإسترليني، فلن يكون لدينا احتياطات مجددًا... وأشك في أننا -عندئذ- سنكون قادرين على تلبية الحد الأدنى من الإنفاق الضروري للدفاع. والدولة التي لا تستطيع توفير نفقات للدفاع عن نفسها تزول وتندثر»[1]. وهكذا ربط هذا السيناريو السوداوي الأمر الواقع بالهلاك. ومع ذلك -كما اعترف أيزنهاور نفسه سرًّا- كان من الصعب «تجاهل أزمة الوقود، والمحنة المالية التي حاقت بدول أوروبا الغربية». فكتب إلى اللورد إسماي (Lord Ismay)، الأمين العام الأول لحلف الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي)، قائلًا: إن من الضروري عدم «استعداء العالم العربي»[2].

كان هذا يعني -عمليًا- حشر بريطانيا وفرنسا في الزاوية. وعلى الرغم من وضع خطة في واشنطن لشحن النفط من الولايات المتحدة إلى أوروبا الغربية، فإن تلك الخطة لم توضع موضع التنفيذ عمدًا، من أجل إجبار القوتين الأوروبيتين على تسوية الأمور في مصر. واضطرت لندن -مع انهيار الثقة في الاقتصاد البريطاني وتراجع قيمة الجنيه الإسترليني- إلى اللجوء إلى صندوق النقد الدولي (International Monetary Fund) للحصول على المساعدة المالية. وعلى هذا النحو انتقلت بريطانيا من السيطرة على العالم إلى محاولة التشبث بقبعتها، والاستجداء للحصول على المساعدة المالية في غضون أربعة عقود فحسب. أما ثالثة الأثافي فتجسدت في رفض صندوق النقد الدولي الطلب المقدم إليه من بريطانيا رفضًا قاطعًا. وبلغ شعور البريطانيين بالمهانة مبلغه عندما عادت القوات التي أُرسِلت إلى مصر للقتال في سبيل واحدة من أثمن جواهر أوروبا الغربية بخُفي حُنين، فانسحبت دون أن تنجز مهمتها. وكان استدعاؤها إلى الديار -في وهج وسائل الإعلام العالمية- علامة واضحة على الكيفية التي تغير بها العالم؛ فقد أُجبرت بريطانيا على الجلاء عن الهند، وها هي حقول النفط الإيرانية تُنتزَع من قبضتها انتزاعًا. والآن حان دور قناة السويس. وجاءت استقالة رئيس الوزراء أنتوني إيدن في مستهل عام ١٩٥٧ لتكون مجرد فقرة أخرى في الفصل الأخير من رواية موت إمبراطورية[3].

وعلى صعيد آخر، كانت الولايات المتحدة مدركة تمامًا لمسؤولياتها الجديدة -بوصفها قوة عظمى- متى تعلق الأمر بالبلدان الواقعة عبر العمود الفقري لآسيا. فكان عليها أن تسلك سلوكًا حذرًا، كما أظهرت تداعيات أزمة السويس بوضوح. فقد تراجعت الهيبة البريطانية، وكذلك نفوذ بريطانيا على

(1) Kirkpatrick to Makins, 10 September 1956, FO 800/740.

(2) *Papers of Dwight David Eisenhower: The Presidency: The Middle Way* (Baltimore, 1970), 17, p. 2415.

(٣) انظر في هذا الصدد:

W. Louis and R. Owen, *Suez 1956: The Crisis and its Consequences* (Oxford, 1989); P. Hahn, *The United States, Great Britain, and Egypt, 1945–1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War* (Chapel Hill, NC, 1991).

نحو مذهل، الأمر الذي زاد من احتمالية انهيار الجناح الجنوبي -الذي كان بمثابة الحصن ضد الاتحاد السوفيتي- فقد «ينهار تمامًا من خلال التغلغل الشيوعي، ونجاح السوفيت في الشرق الأوسط»، على حد قول الرئيس أيزنهاور في أواخر عام ١٩٥٦[1].

كما أدى الفشل الذريع للتحرك العسكري المجهض إلى إثارة المشاعر المعادية للغرب في جميع أنحاء الشرق الأوسط ككل، حيث استمد الديماجوجيون القوميون الشجاعة من نجاح عبد الناصر في الحفاظ على رباطة جأشه، والتغلب على الضغوط العسكرية الأوروبية. ومع زيادة مكانة الزعيم المصري في جميع أنحاء المنطقة إلى حد كبير، بدأت أفكار القومية العربية في الظهور، ومعها شعور متزايد بأن توحيد جميع العرب في كيان واحد من شأنه أن يخلق صوتًا واحدًا، وهذا من شأنه إقامة التوازن مع الغرب من جهة، والكتلة السوفيتية من جهة أخرى.

وكان المراقبون الخبراء يتوقعون مثل هذا الاحتمال حتى قبل أن يبرع عبد الناصر في تنفيذ سياسة حافة الهاوية السياسية؛ فقد استنتج سفير الولايات المتحدة في طهران، لوي هندرسون (Loy Henderson) -الذي خبِر المنطقة على نحو أفضل من أي أميركي آخر- أن الأصوات القومية ستصبح أكثر صخبًا وقوة بمرور الوقت. وكتب -في عام ١٩٥٣- قائلًا: «ستجتمع دول الشرق الأوسط... في قابل الأيام، وتقرر سياسات موحدة، ويبدو أنه لا مفر من ذلك تقريبًا»[2]. لقد كان عبد الناصر هو الزعيم الرمزي الذي كانت هذه الحركة تنتظره.

* * *

أدى هذا التخوف إلى تغيير كبير في موقف الولايات المتحدة، جرى التعبير عنه فيما أصبح يُعرف باسم «مبدأ أيزنهاور» (Eisenhower doctrine). فقد أدرك الرئيس الأمريكي أن الاتحاد السوفيتي كان ينظر إلى الشرق الأوسط بعين انتهازية. وأخبر الرئيس الكونجرس بأنه بات من الضروري أن «تملأ الولايات المتحدة» الفراغ الحالي «في الشرق الأوسط قبل أن يملأه الاتحاد السوفيتي». واستطرد قائلًا: إن هذا ليس مهمًا لمصالح الولايات المتحدة فحسب؛ بل إنه أمر حيوي «للسلام العالم»[3]. ولذلك طُلِب من الكونجرس الموافقة على ميزانية طموحة لتمويل المساعدات الاقتصادية والعسكرية في جميع أنحاء المنطقة، وكذلك السلطة للدفاع عن أي دولة تُهدَّد بالعدوان المسلح. وفي حين أن أحد الأغراض الرئيسة لهذا المبدأ كان استباق الاتحاد السوفيتي، فقد كان يهدف أيضًا إلى أن يكون

(1) Eisenhower to Dulles, 12 December 1956, in P. Hahn, 'Securing the Middle East: The Eisenhower Doctrine of 1957', *Presidential Studies Quarterly* 36.1 (2006), 39.

(٢) نقلاً عن:

Yergin, *The Prize*, p. 459.

(3) Hahn, 'Securing the Middle East', 40.

بديـلًا لرؤيـة عبد الناصـر، أي هدفًا جذابًا للبلدان التي قد تـرى فوائد في تلقي مبالغ كبيرة من المال من واشنطن[1].

ولـم تقنـع هـذه المحاولة لإعادة ترتيـب الوضـع الجميع. فلم يُبدِ الإسـرائيليون تأثـرًا بالمحاولات الأمريكية لتحسين العلاقات مع العرب، وانتابهم الشك في أنهم سيجنون فوائد من زيادة نفوذ الولايات المتحـدة، والـدور الذي تلعبه في الشـرق الأوسـط[2]. وكانـت هـذه الهواجس مفهومة عنـد النظر بعين الاعتبار إلى الشـعور بالغضب الذي انتاب الدول العربية بشـأن إسـرائيل، ولا سيما في المملكة العربية السـعودية والعراق في أعقاب التدخل الفاشـل في السـويس. وزادت مشـاركة القوات الإسـرائيلية إلى جانـب الجنـود البريطانييـن والفرنسـيين فـي حرب السـويس الطين بلة. بيـد أن الأهم مـن ذلك هو أن إسرائيل كانت تتحول سريعًا إلى رمز طوطمي للتدخل الخارجي للغرب في شؤون المنطقة، ومستفيد رئيس من ذلك التدخل؛ لذا، فقد تصاعد اللغط حول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، الذي يتعارض -بدوره- مع مساعدتها للعرب.

وعلى هذا النحو غدت إسـرائيل -آنئذ- بؤرة توحّد حولها القوميون العرب. وكما خبِر الصليبيون فـي الأرض المقدسـة -قبل مئات السـنين- فقـد كان وجود دولة قوامها الدخلاء -كما يُفترَض- سـببًا مباشرًا لتوحيد المصالح العربية. وكما خبِر الصليبيون أيضًا، فقد اضطلع الإسرائيليون بالدور الغامض -الذي لا يُحسدون عليه- بوصفهم هدفًا وحَّد عددًا كبيرًا من الفرقاء، فتحالفوا ضدها على قلب رجل واحد.

وظهـر الخطـاب المعـادي لإسـرائيل بقوة، حيـث تبنى السياسـيون في سـوريا سياسـة عبد الناصر والرؤية التي كان يعبّر عنها بشـأن عالم عربي موحد. وأدت الوحدة الرسـمية مع مصر في مسـتهل عام ١٩٥٨، إلـى إنشـاء دولـة جديـدة، هي الجمهوريـة العربيـة المتحدة، تمهيـدًا للاندماج في المسـتقبل. وراقبت واشنطن الوضع وهو يتدهور بعين القلق. وكان السـفير هندرسون قد حذر من أن ظهور صوت واحد قد يجلب صعوبات أو «آثار كارثية»، كما أسماها. وأخذت الولايات المتحدة تصارع التداعيات، وعجت أروقة وزارة الخارجية بالمناقشات، وكان كثيرًا منها شديد التشاؤم. وأشارت ورقة صادرة عن مكتب شؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا وإفريقيا بقلق إلى أن قومية عبد الناصر الراديكالية باتت تهدد بابتـلاع المنطقة، مشـيرة إلـى أن «الأصول» الأمريكية في جميع أنحاء الشـرق الأوسـط قد قُلِّصت، أو

(١) انظر في المقام الأول:

S. Yaqub, *Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and the Middle East* (Chapel Hill, NC, 2004).

(2) R. Popp, 'Accommodating to a Working Relationship: Arab Nationalism and US Cold War Policies in the Middle East', *Cold War History* 10.3 (2010), 410.

حُيِّدت نتيجة لنجاح الزعيم المصري في أزمة السويس، وخطوته التي خطاها إلى الأمام مع سوريا[1]. ومن شأن تقدم عبد الناصر أن يمهد الطريق أمام الشيوعية، كما خلص جون فوستر دالاس، وزير الخارجية والشقيق الأكبر لـ ألين دالاس (Allen Dulles)، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية. لقد حان الوقت لاتخاذ إجراءات حاسمة، ووضع «أجولة من الرمال حول المواقع التي يتوجب علينا حمايتها»[2].

وازدادت الأوضاع سوءًا عندما بدأت سلسلة من ردود الأفعال تظهر شرقًا في مختلف أرجاء آسيا نتيجة لازدياد شعبية عبد الناصر على نحو لا لبس فيه. وكان العراق أول المبادرين؛ فقد أثار توحيد مصر وسوريا كثيرًا من النقاشات بين النخبة المثقفة في بغداد، الذين بدت لهم القومية العربية جذابة، بوصفها طريقًا ثالثة بين واشنطن وموسكو. وسرعان ما تدهورت الأحوال في العاصمة بغداد في صيف عام ١٩٥٨، نتيجة التصاعد الخطير في التعاطف مع عبد الناصر، وزادت المشاعر المعادية للغرب مصحوبة بخطاب عدواني تجاه إسرائيل. وفي ١٤ يوليو (تموز)، نفذت مجموعة من كبار ضباط الجيش العراقي بقيادة عبد الكريم قاسم -وهو رجل لقبه معاصروه الذين حضروا دورة عسكرية معه في بريطانيا قبل عقدين من الزمان بـ«الرفاعي»[3]- انقلابًا على السلطة القائمة[4].

وقبض المتآمرون -في أثناء زحفهم على القصر وقت الإفطار- على أعضاء بارزين من العائلة المالكة، وعلى رأسهم الملك فيصل الثاني، واحتجزوهم في فناء القصر قبل أن يعدموهم. وسُحلت جثة ولي العهد الأمير عبد الإله، وهو رجل حكيم وجاد إلى حد ما، «في الشارع مثل ... كلب»، وجرى التمثيل بها، ثم حرقها من قبل حشد غاضب. وفي اليوم التالي، قُبض على رئيس الوزراء العراقي، نوري السعيد -وهو السياسي المخضرم الذي شهد تحول الشرق الأوسط- وكان يحاول الفرار متخفيًا في زي امرأة، وقتلوه بالرصاص. ومثلوا بجثته التي عُرضت على أهل بغداد الذين أظهروا الابتهاج[5].

وبدت هذه الحوادث وكأنها تنذر بتوسع شبه مؤكد لمصالح الاتحاد السوفيتي. وأخبر الرئيس الروسي نيكيتا خروتشوف (Nikita Khrushchev) الرئيس جون كينيدي (John F. Kennedy) -في القمة التي انعقدت بينهما عام ١٩٦١- أن إيران ستسقط قريبًا مثل فاكهة ناضجة في حِجر السوفيت،

---

(1) 'The Communist Threat to Iraq', 17 February 1959, *FRUS, 1958–1960: Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*, 12, pp. 381–8.

(2) S. Blackwell, *British Military Intervention and the Struggle for Jordan: King Hussein, Nasser and the Middle East Crisis* (London, 2013), p. 176; 'Memorandum of Conference with President Eisenhower', 23 July 1958, *FRUS, 1958–1960: Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*, 12, p. 84.

(٣) حرفيًا في الأصل الإنجليزي 'the snake charmer' التي تعني «مروض الأفاعي». (المترجم)

(4) 'Iraq: The Dissembler', *Time*, 13 April 1959.

(5) 'Middle East: Revolt in Baghdad', *Time*, 21 July 1958; J. Romero, *The Iraqi Revolution of 1958: A Revolutionary Quest for Unity and Security* (Lanham, MD, 2011).

وهـو احتمـال لـم يكن مستبعدًا نظرًا إلى أن رئيس الاسـتخبارات الإيرانية نفسـه كان يتآمر على الشـاه. وبعد أن فشلت لجنة أمن الدولة في موسكو (المعروفة باسم KGB) في اغتيال الشاه، انصب اهتمامها على إعـداد مواقع الإنزال المناسـبة، ومخازن الذخيرة في جميع أنحاء إيران، تحسبًا -على الأرجح- لقرار يقضي بتركيز الجهود على تصعيد الوضع، لإثارة انتفاضة شعبية، وإسقاط الملكية[1].

وبـدت الأمـور أفضـل قليلًا في العـراق، حيث كتب أحد كبـار صانعي السياسـة الأمريكية أن البلد «يـكاد يكـون مـن المؤكـد أنه ينحدر إلـى ما يرقى لأن يوصَف باسـتيلاء الشـيوعيين علـى مقدراته»[2]. وكانت إحدى تداعيات تلك الحوادث وقوف الغرب مع عبد الناصر في المربع نفسه؛ حيث بدأ الغرب يُنظر إليه على أنه «أهون الشـرين». وبذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها لبناء الجسـور مع الزعيم المصري المزاجي، الذي أدرك هو نفسه أن القومية العربية يمكن أن تتعرض للخطر من خلال ما وصفه بـ«الاختراق الشيوعي المتزايد للشرق الأوسط»[3]. وجرى التأكيد على القضية المشتركة بين واشنطن والقاهـرة بقـرار القيـادة الجديدة في العراق رسـم مسـار خاص بهـا والابتعاد عن القوميـة العربية وعن عبد الناصـر معًـا. وأدى هذا ببسـاطة إلى إثارة المزيد من المخاوف المتعلقة بشـبح الاتحاد السـوفيتي الذي يحوم في أرجاء المنطقة[4].

ووُضعـت الخطـط للتعامل مع بغـداد، فقد عُيِّنت لجنة فـي الولايات المتحدة للنظر في «الوسـائل العلنية أو السـرية» لتجنب «اسـتيلاء الشـيوعيين على العراق». وتُصعِّب القيود المفروضة على المواد المصدرية معرفة المدى الذي تورطت به وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية -إن كانت قد تورطت بالفعل- في محاولة تدبير انقلاب للإطاحة بـ قاسم، رئيس الوزراء القومي الذي أطاح بالنظام الملكي فـي العـراق؛ وهو الانقلاب الـذي وقع في أواخر عام ١٩٥٩. واسـتغل أحـد المتورطين في الانقلاب -وكان قد جُرِح في ساقه أثناء الهرج والمرج مشاركته -بأخَرة- ليخلق صورة شبه أسطورية تظهر مدى عزمه وجسارته. وكان يقال لهذا الرجل: صدام حسين[5].

ولم نقف بعد على ما إذا كان المتآمرون قد حظوا بدعم الولايات المتحدة في هذه المناسبة أم لا، على الرغم من أن السجلات تظهر أن مجمع الاستخبارات الأمريكية كان على دراية بالانقلاب الفاشل

---

(1) C. Andrew and V. Mitrokhin, *The KGB and the World: The Mitrokhin Archive II* (London, 2005), pp. 273–4; W. Shawcross, *The Shah's Last Ride* (London, 1989), p. 85.

(2) OIR Report, 16 January 1959,

نقلًا عن:

Popp, 'Arab Nationalism and US Cold War Policies', p. 403.

(3) Yaqub, *Containing Arab Nationalism*, p. 256.

(4) W. Louis and R. Owen, *A Revolutionary Year: The Middle East in 1958* (London, 2002).

(5) F. Matar, *Saddam Hussein: The Man, the Cause and his Future* (London, 1981), pp. 32–44.

قبل حدوثه[1]. بيد أن حقيقة أنه جرى وضع خطط مفصلة لإزاحة الشخصيات الفاعلة من مناصبها في السلطة، مثل ذلك العقيد العراقي -الذي حُجب اسمه في التقارير- والذي كان من المقرر إرسال منديل إليه مطبوع عليه حرف ملوث بسم قاتل، تظهر أيضًا أن خطوات فعالة قد اتخذت لوقاية بغداد من الانزلاق والدوران في فلك موسكو[2]. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن المراقبين الأمريكيين لم يُفاجَؤوا عندما أُطيح بقاسم أخيرًا في عام ١٩٦٣. ثم ذكروا -بأخَرة- أن هذا الانقلاب كان «متوقعًا -بتفصيلاته الدقيقة- لعملاء وكالة الاستخبارات المركزية»[3].

وكان هذا الانخراط العميق في الوضع في العراق مدفوعًا بالرغبة في إبقاء الاتحاد السوفيتي خارج البلدان الواقعة جنوبه على نحو أساسي. وكان بناء الروابط عبر الحزام الذي امتد عبر طرق الحرير مسألة هيبة سياسية في جزء منه؛ حيث لم يكن يسع الولايات المتحدة تحمُّل النظرة إليها على أنها الطرف الخاسر أمام خصم كان يقدم رؤية مناقضة كل المناقضة لرؤيتها للعالم. بيد أنه كانت هناك أسباب أخرى خلف هذا الاهتمام المستمر.

لقد قررت موسكو في عام ١٩٥٥، تحديد موقع اختبار رئيس للصواريخ بعيدة المدى في تيورتام (Tyuratam) -فيما يُعرف الآن بكازاخستان- بعد أن خلصت إلى أن السهوب توفر بيئة مثالية لإنشاء سلسلة من هوائيات التوجيه التي من شأنها أن تتيح مراقبة عمليات الإطلاق. إلى جانب كونها بقعة معزولة على نحو كافٍ؛ بحيث لا تشكل تهديدًا يُذكر للمراكز الحضرية القائمة. وأصبح ذلك الموقع -الذي سمي فيما بعد بايكونور كوسمودروم (Baikonur Kosmodrome)- الموقع الرئيس لتطوير الصواريخ الباليستية واختبارها[4]. حتى قبل أن يُنشئ السوفيت ذلك المركز، أطلق السوفييت الصاروخ المسمى (R5)، الذي يبلغ مداه أكثر من ٦٠٠ ميل وكان قادرًا على حمل رأس حربي نووي. وفي عام ١٩٥٧، دخل خليفته المسمى (R7)، المعروف باسمه الرمزي للناتو (SS6 "Sapwood") حيز الإنتاج

---

(1) 'Memorandum of Discussion at the 420th Meeting of the National Security Council', 1 October 1959, *FRUS, 1958–1960: Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*, 12, p. 489, n. 6.

(٢) كُشِف النقاب عن هذا الحادث خلال التحقيقات التي جرت عام ١٩٧٥ في استخدام الاغتيال بوصفه أداة سياسية من قِبل وكالات الاستخبارات الأمريكية. ويبدو أن ذلك العقيد -الذي لم يكشف عن اسمه- أعدم رميًا بالرصاص في بغداد قبل وضع خطة المنديل موضع التنفيذ. انظر:

Alleged Assassination Plots Involving Foreign Leaders, Interim Report of the Select Committee to Study Governmental Operations with Respect to Intelligence Activities (Washington, DC, 1975), p. 181, n. 1.

(3) H. Rositzke, *The CIA's Secret Operations: Espionage, Counterespionage and Covert Action* (Boulder, CO, 1977), pp. 109–10.

(4) A. Siddiqi, *Challenge to Apollo: The Soviet Union and the Space Race, 1945–1974* (Washington, DC, 2000); B. Chertok, *Rakety i lyudi: Fili Podlipki Tyuratam* (Moscow, 1996).

بمـدى وصـل إلـى ٥٠٠٠ ميـل، الأمر الذي زاد مـن التهديد الذي بات الاتحاد السـوڤيتي يشـكله على الغرب[١].

وفـي العـام التالي أدى إطلاق سـبوتنيك (Sputnik) -وهو أول قمر صناعـي في العالم، إلى جانب دخول أسطول من القاذفات الاستراتيجية بعيدة المدى من نوع توبوليڤ تي يو ٩٥ (Tupolev Tu-95) "Bear" ومياسيشتيڤ (Myasishchev 3M Bison) في الخدمة في الجيش السوڤيتي- إلى زيادة تركيز المخططين العسكريين الأمريكيين على التجارب السوڤيتية. فقد كان من الضروري أن تكون الولايات المتحدة قادرة على مراقبة تجارب الصواريخ، مع إبقاء عينيها مفتوحتان على التطورات التي تطرأ على القـدرات البالسـتية إضافة إلـى عمليات الإطلاق العدائية المحتملة[٢]. وغالبًا ما تدفعنا الحرب الباردة إلى التفكير في جدار برلين، وأوروبا الشرقية على أنها الساحة الرئيسة للمواجهة بين القوتين العظميين. بيد أن المسرح الرئيس كان رقعة من الأراضي الممتدة في بطن الاتحاد السوڤيتي، حيث لعبت القوتان العظميان لعبة الشطرنج الحقيقية في الحرب الباردة.

لطالما اعترفت الولايات المتحدة بالقيمة الاستراتيجية للبلدان الواقعة على طول الجناح الجنوبي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوڤيتية. أما إبانئذ فقد أصبحت ضرورة حيوية بالنسبة لها. وأصبحت القواعـد الجويـة، ومحطـات التنصت، وشـبكات الاتصالات في باكسـتان جـزءًا مهمًا من اسـتراتيجية الدفاع الأمريكية. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه قدرة الصواريخ السوڤيتية إلى مرحلة عبور القارات، كانـت محطـة بيشـاور الجوية في شـمال البلاد تقـدم خدمات حيويـة لجمع المعلومات الاسـتخبارية. وكانت بمثابة نقطة انطلاق لعمليات طائرات التجسس من طراز (U-2) التي اضطلعت بمهام الاستطلاع فوق بايكونور (Baikonur) وكذلك فوق منشـآت عسـكرية رئيسـة أخرى، بما في ذلك مصنع معالجة البلوتونيوم في تشيليابينسـك (Chelyabinsk). ومن هناك أقلع جاري باورز (Gary Powers) في مهمة مشؤومة انتهت بإسقاط السوڤيت لطائرته في مجالهم الجوي بالقرب من سفيردلوڤسك (Sverdlovsk) في عام ١٩٦٠ في واحدة من أكثر الحوادث التي شهدتها الحرب الباردة إثارةً[٣].

ولـم تكـن ثـم مفارقـة -آنـذاك- فـي أن الأهـداف السياسـية والعسـكرية الأمريكية -التـي كانت أساسـية للدفـاع عن العالم الحر وطريقة الحياة الديمقراطية- قد أدت إلـى نتائج مختلفة بالكلية. لقد شـيدت الولايات المتحدة مركزها في هذا الجزء من العالم على أكتاف سلسـلة من الرجال الأقوياء،

---

(1) A. Siddiqi, *Sputnik and the Soviet Space Challenge* (Gainesville, FL, 2003), pp. 135–8.

(2) G. Laird, *North American Air Defense: Past, Present and Future* (Maxwell, AL, 1975); S. Zaloga, 'Most Secret Weapon: The Origins of Soviet Strategic Cruise Missiles, 1945–1960', *Journal of Slavic Military Studies* 6.2 (1993), 262–73.

(3) D. Kux, *The United States and Pakistan, 1947–2000: Disenchanted Allies* (Washington, DC, 2001), p. 112; N. Polmar, *Spyplane: The U-2 History Declassified* (Osceola, WI, 2001), pp. 131–48.

ذوي الغرائز السلطوية غير الديمقراطية، والذين اتبعوا أساليب بغيضة للبقاء في السلطة. ففي حالة باكستان -على سبيل المثال- أبدت الولايات المتحدة سعادة بالتعامل مع الجنرال أيوب خان بعد أن قاد انقلابًا في عام ١٩٥٨ وصفه بمهارة بأنه «ثورة بعيدًا عن الشيوعية» في محاولة لكسب التأييد الأمريكي. وفرض خان الأحكام العرفية دون أن يشد مؤيدوه الغربيون النكير عليه. وبرر أفعاله بأنها «قاسية في جنب أولئك الذين دمروا نسيج باكستان الأخلاقي فحسب»[١]. وعلى الرغم من التشدق بكلمات من قبيل استعادة «حكومة دستورية قابلة للتطبيق»، فإن أكثر الغربيين لم يراودهم أدنى شك في أن الديكتاتورية العسكرية ستستمر لفترة طويلة، ولا سيما بعد أن صرح خان نفسه بأن الأمر قد يستغرق «بضعة عقود» قبل أن تُرفع المعايير الوصائية، عندما يُتوثَّق من تصويت السكان لزعمائهم[٢]. وكانت الولايات المتحدة سعيدة غاية السعادة بتقديم أسلحة بكميات كبيرة لهذا الحليف المريب، ومنها: صواريخ سايدويندر (Sidewinder) والمقاتلات النفاثة، والقاذفات التكتيكية من طراز (B-57)، ولم تعد هذه الأسلحة كونها جزءًا من كميات كبيرة من السلاح، بيع لباكستان بموافقة الرئيس أيزنهاور[٣].

وقد أدى ذلك إلى زيادة تعزيز مكانة القوات المسلحة وسلطتها في باكستان، حيث أُنفق ما يزيد عن ٦٥٪ من الميزانية الوطنية على الجيش. وبدا ذلك الثمن الضروري الذي يجب دفعه للإبقاء على الأصدقاء في السلطة في هذا الجزء الحساس من العالم. وكان إرساء أسس الإصلاح الاجتماعي أمرًا محفوفًا بالمخاطر، ويستغرق وقتًا طويلاً مقارنة بالمكاسب الفورية التي يمكن جنيُها من خلال الاعتماد على الزعماء الأقوياء، والنخب المحيطة بهم. بيد أن النتيجة كانت خنق الديمقراطية، وإرساء أسس مشكلات عميقة الجذور من شأنها أن تتفاقم بمرور الوقت.

وتودد الأمريكيون إلى القيادة في أفغانستان بالقدر نفسه من الجدية. فدعت الولايات المتحدة داود خان -وكان يشغل منصب رئيس الوزراء- لزيارة استغرقت أسبوعين في أواخر الخمسينيات من القرن المنصرم. ورغب الأمريكيون في ترك انطباع كبير عنده بأهميته لهم؛ حتى إنه عندما هبط على المدرج استقبله كل من نائب الرئيس نيكسون (Nixon)، ووزير الخارجية جون فوستر دالاس، قبل أن يستقبله الرئيس أيزنهاور نفسه بحرارة. واجتهد الرئيس في تحذير رئيس الوزراء الأفغاني من مغبة تهديد الشيوعية للدول الإسلامية في آسيا. وبدأت الولايات المتحدة بالفعل سلسلة من المشاريع التنموية الطموحة في أفغانستان، مثل مشروع الري الكبير في وادي هلمند، إضافة إلى جهود جريئة لتحسين

---

(1) Karachi to Washington DC, 31 October 1958, *FRUS, 1958-60: South and Southeast Asia*, 15, p. 682.

(2) Memcon Eisenhower and Ayub, 8 December 1959, *FRUS, 1958-60: South and Southeast Asia*, 15, pp. 781-95.

(3) R. Barrett, *The Greater Middle East and the Cold War: US Foreign Policy under Eisenhower and Kennedy* (London, 2007), pp. 167-8.

نظام التعليم. وقدمت الولايات المتحدة مزيدًا من التعهدات من أجل موازنة الاستثمارات، والقروض، ومشاريع البنية التحتية السوڤيتية الكبيرة التي كان العمل يجري فيها على قدم وساق بالفعل[1].

* * *

تمثلت المشكلة في أن الزعماء في البلدان المعنية سرعان ما أدركوا أن بإمكانهم استغلال القوتين العظميين والتلاعب بهما، والحصول على فوائد كبيرة من كليهما بطبيعة الحال. والحق أنه طُلِب من الرئيس أيزنهاور -عندما زار كابول في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين- على نحو مباشر، ودون مواربة أن يرفع حجم المساعدات التي تقدمها بلاده لمستوى تلك التي كانت موسكو تقدمها لأفغانستان[2]. وكان للرفض عواقب، وكذلك كان للإذعان عواقب أخرى.

في تلك الأثناء، أظهر المخططون الأمريكيون اضطرابًا كبيرًا بشأن ما كان يُنظر إليه على أنه ردة واضحة في إيران في نهاية الخمسينيات، عندما أظهر الشاه [محمد] رضا بهلوي استعداده لتحسين علاقات بلاده مع موسكو بعد حملة تشهير إذاعية ممولة من الاتحاد السوڤيتي، صورت الحاكم الإيراني على أنه دمية في يد الغرب، وحثّت العمال على الانتفاضة، وإسقاط نظامه الاستبدادي[3]. وكان ذلك كافيًا لجعل الشاه يفكر في التخلي عما أسماه علاقات إيران «العدائية بالكلية» مع الاتحاد السوڤيتي، وفتح المزيد من قنوات الاتصال والتعاون التصالحية[4].

وقرعت هذه السياسة أجراس الإنذار في واشنطن، حيث أجمع الخبراء الاستراتيجيون رأيهم حول أهمية إيران المحورية على الجناح الجنوبي للاتحاد السوڤيتي. وذكر أحد التقارير التي وُضِعت في مستهل الستينيات من القرن المنصرم: «إن الموقع الاستراتيجي لإيران بين الاتحاد السوڤيتي والخليج العربي، واحتياطاتها النفطية الكبيرة يحمل الولايات المتحدة على الحفاظ على صداقة إيران، واستقلالها، وسلامة أراضيها بأي ثمن»[5]. وعلى هذا النحو جرى تخصيص قدر كبير من الطاقة والموارد لدعم اقتصاد إيران، وجيشها وتعزيز سيطرة الشاه على البلاد.

وكان من المهم للغاية إبقاء الشاه سعيدًا بأي ثمن؛ حتى إن سياسة غض الطرف عن سياساته سرعان ما تسببت في زيادة التعصب والفساد على نطاق واسع، إضافة إلى الركود الاقتصادي الذي لم

(1) Department of State Bulletin, 21 July 1958.

(2) Kux, *United States and Pakistan*, pp. 110–11.

(3) V. Nemchenok, 'In Search of Stability amid Chaos: US Policy toward Iran, 1961–63', *Cold War History* 10.3 (2010), 345.

(4) Central Intelligence Bulletin, 7 February 1961; A. Rubinstein, *Soviet Foreign Policy toward Turkey, Iran and Afghanistan: The Dynamics of Influence* (New York, 1982), pp. 67–8.

(5) National Security Council Report, Statement of US Policy to Iran, 6 July 1960, *FRUS, 1958–1960: Near East Region; Iraq; Iran; Arabian Peninsula*, 12, pp. 680–8.

يكن ثم مفر منه. وهكذا لم يفعل الأمريكيون شيئًا يُذكر -فضلًا عن أن ينبسوا ببنت شفة- بإزاء اضطهاد الأقليات الدينية، مثل البهائيين، الذين تعرضوا لمعاملة وحشية في الخمسينيات[1]. وفي غضون ذلك، لم تؤد الزيادة الحادة في عائدات النفط الإيرانية -التي تضاعفت أكثر من سبعة أضعاف بين عامي ١٩٥٤-١٩٦٠- إلى تغيير الأوضاع المتردية في البلاد، وفرض أقارب الشاه والطائفة التي يشار إليها -على نحو غير رسمي- في إيران باسم «الألف أسرة» قبضة حديدية على الواردات، فاحتكروا الثروات لأنفسهم. وعملت القروض الميسرة التي قدمتها واشنطن ببساطة على سد جيوب القلة على حساب الكثرة الكاثرة من الفقراء، الذين وجدوا صعوبات في مواكبة ارتفاع تكاليف المعيشة، ولا سيما بعد أن أنشب القحط أنيابه في البلاد والعباد بين عامي ١٩٥٩-١٩٦٠[2].

وكانت ثالثة الأثافي فشل بعض المشروعات الأمريكية -التي صُممت بهدف تحفيز الاقتصاد الزراعي- فشلًا ذريعًا. فكانت محاولات استبدال البذور التقليدية بأخرى هجينة حديثة بمثابة الكارثة، حيث ثبت أن السلالات الجديدة غير مناسبة للتضاريس، وتفتقر إلى المقاومة للأمراض والآفات السائدة. وكانت هناك نتائج كارثية أخرى نتجت عن خطة وُضعت لمساعدة أصحاب مزارع الدواجن الإيرانيين والأمريكيين على حد سواء، من خلال إدخال سلالة من الكتاكيت الأمريكية إلى إيران. وفشل هذا المشروع أيضًا، في ظل الافتقار إلى الأعلاف المناسبة، وكذلك إلى التطعيمات، وكان لهذا الافتقار عواقب متوقعة تمامًا. وأدى الإخفاق المحرج في فهم كيفية عمل منسوب المياه الجوفية في إيران إلى ظهور آبار استنزفت الخزانات الجوفية، وأقفرت عددًا كبيرًا من المزارع في جميع أنحاء البلاد[3].

ولم تكن مثل هذه المخططات -ذات النتائج العكسية- أمثلة إيجابية على التعاون الوثيق مع الغرب -ولا سيما الولايات المتحدة- وعلى الفوائد التي قد تُجنى منه. كما أنها وفرت أرضًا خصبة للنقاد صالوا فيها وجالوا. وكان أبرع هؤلاء النقاد عالم شيعي، هو روح الله الموسوي الخميني، الذي أسر عقول أهل البلاد الذين بلغ بهم السخط مبلغه بسبب تدني الأجور، والركود الاقتصادي، والغياب الواضح للعدالة الاجتماعية. وقال آية الله في إحدى خطبه النارية في أوائل الستينيات: «جلالة السيد الشاه، دعني أمحضك النصيحة، ألم يأن الأوان -أيها البائس الشقي- لكي تفكر وتتأمل قليلًا، وتنظر إلى أين يؤدي بك كل هذا؟ السيد الشاه، هل تريدني أن أقول: إنك مرتد عن الإسلام، فتُطرد من إيران

(1) M. Momen, 'The Babi and the Baha'i Community of Iran: A Case of "Suspended Genocide"?', *Journal of Genocide Research* 7.2 (2005), 221–42.

(2) E. Abrahamian, *Iran between Two Revolutions* (Princeton, 1982), pp. 421–2.

(3) J. Freivalds, 'Farm Corporations in Iran: An Alternative to Traditional Agriculture', *Middle East Journal* 26.2 (1972), 185–93; J. Carey and A. Carey, 'Iranian Agriculture and its Development: 1952–1973', *International Journal of Middle East Studies* 7.3 (1976), 359–82.

شـر طـردة؟»[1]. وكان قولـه ذاك كافيًـا لإلقاء القبض عليه، فاندلعت أعمال الشـغب في وسـط طهران، وخرجت الحشود متظاهرة تهتف: «إما الخميني، وإما الموت». وانضـم إلى تلك التظاهرات ضد النظام الموظفـون الحكوميـون العاملون في وزارات الدولة، وفقما جاء في بعض التقارير الاسـتخباراتية التي أعدتها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية[2].

ورد الشاه باستعداء منتقديه، بدلًا من الاستجابة لتحذيراتهم. ولما زار مدينة قُم المقدسة أعلن بكل صفاقـة أن رجـال الدين في إيران «رجال جاهلون، أكل عليهم الدهر وشـرب، ولـم تتحرك عقولهم منذ قـرون»[3]. وبـدلاً من تقديـم التنازلات، أو المضي قدمًـا في تنفيذ إصلاحات مخلصـة، تركزت جهود الشـاه على تشـديد الضوابط القائمة. وأُجبر الخميني على الرحيل إلى حيث منفاه، واسـتقر في النجف في العراق المجاور لأكثر من عقد من الزمان، حيث لـم يرحب النظام ثمة بإداناته الشديدة للشاه ونظامه فحسب، بل كان يشجعه عليها على نحو إيجابي[4].

كما جرى إنفاق موارد كبيرة على بناء السـافاك (Savak)، وهي قوة الشـرطة السـرية الإيرانية، التي سـرعان ما اكتسـبت سمعة مخيفة. واسـتُخدم الاعتقال، والتعذيب، والإعدام على نطاق واسع للتعامل مع منتقدي الشاه والمقربين منه؛ وفي حالات قليلة نادرة، وُضِع المعارضـون المحظوظون الذين أبقت شخصياتهم البارزة على حيواتهم -مثل الخميني- قيد الإقامة الجبرية، أو نُفوا من البلاد لإبعادهم عن المشـهد[5]. وكان اسـتخدام مثل هذه التكتيكات في الاتحاد السوفيتي موضوعًا لانتقادات صريحة من قبل الولايات المتحدة، وجرى التنديد بها على أنها نقيض للديمقراطية، وأداة للاستبداد. أما في إيران، فقد غضت الولايات المتحدة الطرف ببساطة.

واستمرت الأموال في التدفق من واشنطن إلى إيران حفاظًا على دعم الشاه وتوطيدًا لسلطته؛ حيث شُـيدت طريق سـريعة بطول ١٥٠٠ ميل تربط الخليج العربي ببحر قزوين، الأمر الذي سـاعد على بناء ميناء رئيس في المياه العميقة في بندر عباس، وكذلك توسـيع شـبكة الكهرباء في البلاد وتحديثها، بل وتوفيـر رأس المال لإقامة مشـاريع كبرى، مثل إنشـاء شـركة طيـران وطنية. وفي غضون هـذه العملية، تجاهـل معظم صانعي السياسـة الغربييـن الحقائق على الأرض، واختاروا رؤية مـا يريدون رؤيته فقط؛

---

(1) H. Ruhani, *Nehzat-e Imam-e Khomeini*, 2 vols (Teheran, 1979), 1, p. 25.

(2) CIA Bulletin, 5 May 1961,

نقلًا عن:

Nemchenok, 'In Search of Stability', 348.

(3) *Gahnamye panjah sal Shahanshahiye Pahlavi* (Paris, 1964), 24 January 1963.

(٤) انظر:

D. Brumberg, *Reinventing Khomeini: The Struggle for Reform in Iran* (Chicago, 2001).

(5) D. Zahedi, *The Iranian Revolution: Then and Now* (Boulder, CO, 2000), p. 156.

فمن منظور عدد كبير من المراقبين الأمريكيين، بدت إيران وكأنها قصة انتصار مؤزر. وجاء في تقرير أُعد للرئيس جونسون (Johnson) عام ١٩٦٨ أن اقتصاد «أحد أقوى أصدقاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط يمضي قُدمًا». وارتفع الناتج القومي الإجمالي لإيران بسرعة البرق؛ حتى إنه أصبح «أحد قصص النجاح البارزة» في الآونة الأخيرة. وجرى التوصل إلى النتيجة نفسها مع عبارات أكثر تأكيدًا بعد أربع سنوات. وأشارت السفارة الأمريكية في طهران إلى أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، اضطرت الولايات المتحدة إلى المقامرة في إيران وتشكيل الدولة على صورتها الخاصة. «لقد أتت هذه المقامرة أُكلها جيدًا، ربما أكثر من أي دولة نامية أخرى استفادت من استثمارات أمريكية مماثلة». وتوقع التقرير بثقة أن إيران تسير على الطريق الصحيح، لتصبح «الدولة الأكثر ازدهارًا في آسيا بعد اليابان»، ومضى التقرير واصفًا وقوف إيران على قدم المساواة مع عدد كبير من الدول في أوروبا[١].

أما أولئك الذين كانوا أكثر تشككًا فكانوا ينتمون إلى أقلية مميزة. وكان الأكاديمي الشاب وليم بولك (William Polk) -الذي استدعته إدارة كينيدي لاستشارته بشأن الشؤون الخارجية- واحدًا من هؤلاء. وحذر من أنه سيكون هناك عنف، بل ثورة إذا لم يقم الشاه بإصلاح العملية السياسية. ومتى اندلعت تلك الاضطرابات، ستغدو المسألة مسألة وقت فحسب قبل أن ترفض قوات الأمن إطلاق النار على المتظاهرين. كما حذَّر من أن معارضة الشاه آخذة في التوحد تحت لواء «المؤسسة الإسلامية القوية في إيران»[٢].

وكان بولك محقًّا تمامًا. لكن في ذلك الوقت، بدا أن الاستمرار في دعم حليف ضد الشيوعية أهم من الضغط عليه لتخفيف قبضته على السلطة. وطور الشاه خططًا ضخمة -على نحو متزايد- زادت الأمور سوءًا. فقد استُثمرت مبالغ ضخمة في الجيش، حيث ارتفع الإنفاق العسكري الإيراني من ٢٩٣ مليون دولار في عام ١٩٦٣ إلى ٧,٣ مليار دولار بعد خمسة عشر عامًا. ونتيجة لذلك، أصبح سلاح الجو والجيش في البلاد من بين أكبر الجيوش في العالم[٣]. ومولت إيران هذا التصعيد الاستثنائي بفضل المساعدة العسكرية والقروض الميسرة من الولايات المتحدة التي استفادت من ذلك بدورها؛ ذاك أن الكثير من المعدات ابتيعت من خلال مقاولي الدفاع الأمريكيين. ومع ذلك، فقد استفادت إيران

---

(1) 'United States Support for Nation-Building' (1968); US Embassy Teheran to State Department, 4 May 1972,

وكلاهما ينقلان عن:

R. Popp, 'An Application of Modernization Theory during the Cold War? The Case of Pahlavi Iran', *International History Review* 30.1 (2008), 86–7.

(2) Polk to Mayer, 23 April 1965,

نقلًا عن:

Popp, 'Pahlavi Iran', 94.

(3) Zahedi, *Iranian Revolution*, p. 155.

أيضًا من الارتفاع المستمر في عائدات النفط، ومن الآلية التي وضعها كبار المنتجين في العالم للعمل بوصفها اتحادًا احتكاريًّا للمنتجين (Cartel)، ومن ثم عظمت عائداتها.

وأُنشِئت منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك OPEC) في عام ١٩٦٠ لتنسيق الإفراج عن شحنات النفط في السوق المفتوحة. وكان الهدف هو السماح للأعضاء المؤسسين -أي العراق، وإيران، والمملكة العربية السعودية، والكويت، وفنزويلا- بتوحيد مصالحهم، وزيادة عائداتهم من خلال التحكم في العرض، ومن ثم التحكم في الأسعار[1]. وكانت الخطوة المنطقية التالية للبلدان الغنية بالموارد التي كانت تتطلع إلى انتزاع السلطة من الشركات الغربية، بينما تتلقى الدعم السياسي والمالي من الحكومات الغربية.

وشكَّلت أوبك جهدًا متعمدًا للحد من نفوذ الغرب على نحو فعال؛ حيث كانت مصالحها في توفير الوقود الرخيص والوفير لأسواقها المحلية تختلف بوضوح عن مصالح البلدان الغنية برواسب النفط والغاز، والتي كانت حريصة على أن تكون العائدات المتولدة منها عالية قدر الإمكان. ومن قبيل المرجح -كما يبدو- أن تكون أوبك صنيعة روحية لمجموعة لا تخطر على البال من الشخصيات القيادية التي توحدت على هدف واحد مثل: مصدِّق، وعبد الناصر الشعبوي الديماجوجي، وقاسم المتطرف، والشخصيات المعادية للغرب في إيران التي مثلها آية الله الخميني عمومًا. كل أولئك القادة عُرفوا بقيامهم بمحاولات منسقة لإبعاد دولهم عن السيطرة والنفوذ الخارجيين. ومع ذلك لم تكن أوبك حركة سياسية؛ بل تحالفًا قام بين مجموعة من البلدان لتمكينها من التحدث والعمل بصوت واحد، وكانت تلك الخطوة أساسية في عملية نقل السلطة السياسية بعيدًا عن أوروبا والولايات المتحدة إلى الحكومات المحلية.

وجاءت الوفرة الهائلة للنفط في إيران، والعراق، والكويت، والسعودية مقترنة بالطلب العالمي المتزايد على النفط، وكان ذلك يعني أن منتصف القرن العشرين تميز بإعادة توازن أساسية للقوة. بدأ حجم ذلك يتضح في عام ١٩٦٧ عندما شن عبد الناصر هجومًا مفاجئًا على إسرائيل[2]. وأوقفت

---

(1) A. Danielsen, *The Evolution of OPEC* (New York, 1982); F. Parra, *Oil Politics: A Modern History of Petroleum* (London, 2004), pp. 89ff.

(٢) على الرغم من أن جميع الأطراف تبادلت -في ثنايا الحرب الدعائية التي أعقبت الحرب الفعلية- الاتهامات فيما تعلق بالطرف البادئ بإطلاق النار في الحرب، فإن مصر، وسوريا، والأردن لم تبادر بإطلاق النار على الحشود الإسرائيلية. وينهض غياب خطط هجومية منسقة بين الدول الثلاث شاهدًا على ذلك، وهو ما ينفي مبادرة جيش عربي بالهجوم. أما التعقيدات المتعلقة بالمناوشات على الحدود، واتخاذها ذريعة لاستخدام الفعل «شَنَّ» (launch) الذي يُنبِئ بالضرورة عن عملية هجومية مخططة سلفًا، ووُضِعت موضع التنفيذ فهي محاولة محكوم عليها بالفشل مسبقًا، ولا تنطلي على مؤرخ حصيف. ومع ذلك فقد يسع القارئ تمحل العذر للمؤلف بحمل عبارته على المجاز متى كان يعني أن قرار مصر إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية «إعلان حرب»، من باب افتراض حسن النية. دون ذلك فعبارة المؤلف تنطوي على افتراء واضح، وتسليم بالمزاعم الإسرائيلية. (المترجم)

المملكـة العربيـة السـعودية، والعـراق، والكويـت، بدعم مـن الجزائر وليبيـا -وهما دولتان في شـمال إفريقيا غنيتان بالنفط- الشحنات إلى بريطانيا والولايات المتحدة بسبب صداقتهما المتصورة لإسرائيل. وأمر إغلاق مصافي التكرير وإغلاق خطوط الأنابيب، ولاح في الأفق سيناريو كابوس كبير، مع احتمال حدوث عجز كبير في أسواق الطاقة، وارتفاع حاد في الأسعار، وتهديد للاقتصاد العالمي.

بيد أن التأثير كان ضئيلًا، ليس لأن هجوم عبد الناصر فشل في ساحة المعركة، بل في المقام الأول لأنه فشـل سـريعًا: لقد انتهت «حرب الأيام الستة» ما أن بدأت، واصطدم ناصر -ومعه أحلام القومية العربيـة- بـأرض الواقـع. وأثبت الجيش الإسـرائيلي، بدعم من التقنية والسياسة الغربيَّتين، أنه خصم هائل. ولم يكن الغرب ولا دولته العميلة -كما يُفترَض- في الشرق الأوسط على استعَداد لتلقي ضربة حاسمة حتى ذلك التاريخ[١].

لقد ناضلت القوى العظمى في أوروبا، وقاتل بعضها بعضًا للسيطرة على المنطقة، والأسواق التي ربطت البحر المتوسـط بالهند والصين على مدى قرنين من الزمان. وشـهد القرن العشـرون انسـحاب أوروبا الغربية من المنطقة؛ حيث سلمت الصولجان إلى الولايات المتحدة ومضَت. ومن زاوية ما، بدا من المناسـب تمامًا أن تُناط بأمة -تشـكلت من خلال المنافسة بين بريطانيا، وفرنسـا، وإسبانيا- مهمة الاحتفاظ بالسيطرة على قلب العالم. بيد أنه ثبت أن تلك السيطرة تحدٍّ صعب، ولا سيما بعد أن لاحت في الأفق لعبة كبيرة جديدة كانت على وشك أن تبدأ.

---

(١) انظر في المقام الأول:

M. Oren, *Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East* (Oxford, 2002).

-٢٣-

طريق التنافس بين القوى العظمى

كانت حرب عام ١٩٦٧ بمثابة طلقة تحذير، وحالة من حالات الشد العضلي، كما كانت نذيرةً بحوادث مقبلة؛ فقد أصبح الاحتفاظ بالقوة والنفوذ في قلب العالم أمرًا يزداد صعوبة بمرور الوقت بالنسبة للغرب. أما بالنسبة لبريطانيا خاصةً، فقد أضحى الأمر مستحيلًا؛ ذاك أن رئيس الوزراء، هارولد ويلسون (Harold Wilson)، أعلن -في عام ١٩٦٨- أن بريطانيا ستنسحب من جميع اتفاقياتها الدفاعية، والتزاماتها شرق السويس، بما في ذلك الخليج العربي[1]. لقد عهدت بريطانيا للولايات المتحدة -التي كانت هي نفسها بقيةً للعصر العظيم للإمبراطورية الأوروبية، ووريثًا لتلك الإمبراطوريات- أمر صيانة نفوذها في الشرق الأوسط.

وكانت الخلفية المعقدة للضغط الشديد الذي مارسته جميع الأطراف تعني أن تحقيق تلك السيطرة لم يعد أمرًا سهلًا. ففي العراق عام ١٩٦١ -على سبيل المثال- جرى تأميم مساحات كبيرة كانت جزءًا من الامتياز الممنوح قبل ثلاثة عقود لاتحاد من المنتجين الغربيين الذي شكَّل شركة نفط العراق (Iraq Petroleum Company)، بذريعة أنها لم تُستغل. وازدادت حدة المواقف في بغداد بعد الإطاحة برئيس الوزراء [عبد الكريم] قاسم، ثم إعدامه أمام كاميرات التلفاز «ليراه العالم بأسره». وأعلن النظام المتطرف الجديد أنه سيقود «النضال الأوسع لتحرير الأمة العربية من هيمنة الإمبريالية الغربية واستغلال محتكري النفط». ثم رفع النظام الجديد رسوم العبور على خط أنابيب بانياس بين عشية وضحاها[2].

وكان السوفيت يراقبون ما يحدث بسعادة؛ حيث تابعت موسكو عن كثب التغيرات الجارية في الشرق الأوسط، والمد المتصاعد للمشاعر المعادية للغرب. وأشار تقرير أعدته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى أن الاتحاد السوفيتي -منذ الحرب العربية/ الإسرائيلية عام ١٩٦٧- «يتبع مسارًا ثابتًا... ساعيًا، لتوسيع نفوذه السياسي والعسكري -في منطقة محل اهتمام روسي تقليدي-

---

(1) P. Pham, *Ending 'East of Suez': The British Decision to Withdraw from Malaysia and Singapore, 1964–1968* (Oxford, 2010).

(2) G. Stocking, *Middle East Oil: A Study in Political and Economic Controversy* (Nashville, TN, 1970), p. 282; H. Astarjian, *The Struggle for Kirkuk: The Rise of Hussein, Oil and the Death of Tolerance in Iraq* (London, 2007), p. 158.

كلما سنحت الفرص»[1]. وعلى هذا النحو تطلع الاتحاد السوڤيتي إلى استغلال الثغرات بحماس، وشرع في بناء شبكة علاقاته الخاصة التي امتدت من البحر المتوسط إلى هندوكوش، ومن بحر قزوين إلى الخليج العربي.

وكان هذا جزئيًا نتاجًا لسياسة حافة الهاوية السياسية بين القوتين العُظميين. وجرى تضخيم النجاحات الصغيرة إلى انتصارات دعائية كبرى، وتجسد ذلك من خلال الدعم المالي والفني السوڤيتي لحقل نفط الرميلة في العراق؛ حيث أبدت صحيفة إزڤستيا *Izvestiya* سعادة غامرة في أثناء تغطيتها لذلك الخبر، معلنة عن معيار جديد في التعاون الإيجابي بين الاتحاد السوڤيتي و«الدول العربية والاشتراكية»، ومشيرة بوضوح إلى مدى حرص الاتحاد السوڤيتي على تطوير «صناعة نفط وطنية للعرب». وبإزاء ذلك، استطردت الصحيفة قائلة: «إن الخطط الغربية للسيطرة على نفط العرب تتداعى»[2].

وكانت الستينيات حقبة شهدت تصعيدًا واضحًا لآفاق القوى العظمى، ليس على صعيد وسط آسيا فحسب، بل في غيرها أيضًا. ففي أوائل الستينيات من القرن الماضي، كاد دعم الاتحاد السوڤيتي لكوبا الثورية -الذي تضمن برنامجًا مخططًا يقضي بوضع رؤوس حربية نووية في الجزيرة- أن يؤدي إلى اندلاع الحرب. وبعد مواجهة متوترة في البحر، انسحبت السفن السوڤيتية بدلًا من أن تخترق المحيط الذي كان حكرًا على سفن البحرية الأمريكية. ثم اندلعت المواجهة مجددًا في الشرق الأقصى في شبه الجزيرة الكورية في نهاية الحرب العالمية الثانية مجددًا، هذه المرة في ڤيتنام، مع تطاير بعض شررها إلى كمبوديا (Cambodia)، ولاوس (Laos)؛ حيث انخرطت الولايات المتحدة في حرب قبيحة، ومكلفة، نظر إليها كثير من الأمريكيين على أنها معركة بين قوى العالم الحر وقوى الشيوعية الشمولية. ولم يقنع الالتزام التام لأعداد كبيرة من القوات البرية غيرهم، وأضحت خيبة الأمل المتزايدة الناجمة عن حرب ڤيتنام بؤرة لحركة الثقافة المضادة الناشئة.

ومع تدهور الوضع في جنوب شرق آسيا، كانت هناك فورة من النشاط؛ حيث سعت موسكو للاستفادة من خيبة الأمل المتزايدة تجاه الولايات المتحدة، والتي كانت تيارًا قويًا؛ حتى إن آية الله الخميني جهر بالقول -في عام ١٩٦٤-: «فليعرف الرئيس الأمريكي كيف يبدو في نظر الشعب الإيراني، إنهم لا يبغضون أحدًا من الناس بغضهم له»[3]. ووصف رئيس دولة العراق المجاورة رجال النفط البريطانيين والأمريكيين بـ «مصاصي الدماء». وما انفكت الصحف الرئيسة في بغداد تصف الغرب بأنه إمبريالي، أو صهيوني، أو صهيوني إمبريالي[4].

---

(1) 'Moscow and the Persian Gulf', Intelligence Memorandum, 12 May 1972, *FRUS, 1969–1976: Documents on Iran and Iraq, 1969–72*, E-4, 307.

(2) *Izvestiya*, 12 July 1969.

(3) Buchan, *Days of God*, p. 129.

(4) Kwarteng, *Ghosts of Empire*, pp. 72–3.

وعلى الرغم من الاستعداء الواضح في مثل هذه التصريحات، والأرض الخصبة التي وقعت عليها بذورها، فإن المواقف تجاه الغرب لم تكن كلها سلبية. فالحق أن المسألة لم تكن أن الولايات المتحدة -في المقام الأول- وبريطانيا -بدرجة أقل- تتعرضان للسبِّ بسبب تدخلهما المفترض في شؤون البلدان الممتدة من البحر المتوسط إلى أقصى الشرق، أو لاستعدادهما لتعبئة جيوب النخبة الفاسدة بالأموال. بل كان ذلك الخطاب يخفي مقتضيات واقع جديد؛ حيث عادت منطقة كانت تعد هامشية -على مدار عدة قرون- إلى الظهور نتيجة للموارد الطبيعية الكامنة في أراضيها، والطلب الكبير من جانب عملاء أبدوا استعدادًا لدفع ثمنها، في ظل اشتداد الطلب على تلك الموارد. وأدى ذلك إلى تأجيج المطامح، ولا سيما من جهة فصل تلك المطامح عن النفوذ والمصالح الخارجية للقوى الكبرى. ومن ثم كان من قبيل المفارقات أن تظهر ساحة معركة جديدة؛ حيث تداعت القوى العظمى مجددًا على موقع كان جزءًا من لعبة كبرى جديدة، سعيًا لاستغلال نقاط ضعف بعضها بعضًا. وكان من دواعي سرور العراق، وسوريا، وأفغانستان الحصول على قروض ميسرة لشراء الأسلحة السوڤيتية، وإرسال موسكو لمستشارين وفنيين مؤهلين تأهيلًا عاليًا لبناء منشآت قد تكون مفيدة لطموحاتهم الاستراتيجية الأوسع. وشمل ذلك ميناء المياه العميقة في أم القصر على الخليج العربي، وكذلك ستة مطارات عسكرية في العراق، سرعان ما أدركت الاستخبارات الأمريكية سريعًا أنه يمكن استخدامها «لدعم الوجود البحري السوڤيتي في المحيط الهندي»[1].

وكان هذا جزءًا من محاولة موسكو الرامية لبناء سلسلة من الاتصالات والتحالفات الخاصة لمنافسة الأمريكيين. ومن ثم لا نستغرب أن تكون السياسات السوڤيتية مماثلة لتلك التي اتبعتها واشنطن منذ الحرب العالمية الثانية، حيث أنشأت الولايات المتحدة عددًا من المواقع التي أتاحت لها مراقبة أمن الخليج العربي، والمحيط الهندي، فضلًا عن مواقع أخرى تعلقت إما بمراقبة الأنشطة السوڤيتية، أو بإنشاء قواعد أمامية لأغراض الهجوم. فما كان من الاتحاد السوڤيتي آنذاك إلا أن كرر هذا النمط نفسه، وبالكيفية نفسها. وأُعيد نشر السفن الحربية السوڤيتية في المحيط الهندي في نهاية الستينيات لدعم الأنظمة الثورية الجديدة التي استولت على السلطة في السودان، واليمن، والصومال بعد سنوات من الزراعة الحذرة من قبل موسكو. ومنح هذا السوڤيت سلسلة يُحسدون عليها من مواطئ الأقدام في عدن، ومقديشيو، وبربرة[2]؛ لذا فقد أصبح الاتحاد السوڤيتي قادرًا على خنق قناة السويس، وهو الأمر الذي كان صانعو السياسة الأمريكية يخشونه منذ سنوات[3].

---

(1) Department of State to Embassy in France, Davies-Lopinot talk on Iraq and Persian Gulf, 20 April 1972, *FRUS, 1969-1976: Documents on Iran and Iraq, 1969-72*, E-4, 306.

(2) G. Payton, 'The Somali Coup of 1969: The Case for Soviet Complicity', *Journal of Modern African Studies* 18.3 (1980), 493-508.

(3) Popp, 'Arab Nationalism and US Cold War Policies', 408.

وأخذت وكالة الاستخبارات المركزية تراقب تلك التطورات بعناية، بينما كان السوڤيت يقدمون -على نحو ممنهج- المساعدات في صيد الأسماك، والزراعة، والصناعات الأخرى كافةً عبر منطقة المحيط الهندي، وكذلك شرق إفريقيا والخليج. واشتملت تلك المساعدات على تدريب الصيادين، وتطوير مرافق الموانئ، وبيع سفن الصيد أو تأجيرها بأسعار تنافسية للغاية. وقوبلت هذا المبادرات -حسنة النية- بالسماح للسفن السوڤيتية بأن تأوي مجانًا إلى الموانئ في العراق، وموريشيوس، والصومال، وكذلك في عدن، وصنعاء[١]. كما بذل السوڤيت جهودًا كبيرة لتنمية العراق والهند. فأما الهند، فقد قدم الاتحاد السوڤيتي السلاح لها؛ حتى إن الأسلحة السوڤيتية شكلت أكثر من ثلاثة أرباع مشتريات نيودلهي العسكرية التي استوردتها من الخارج في الستينيات، وواصلت كميات السلاح السوڤيتي الارتفاع على مدار العقد التالي[٢]. وتضمنت تلك المبيعات بعضًا من أكثر أسلحة موسكو تطورًا، بما في ذلك صواريخ أتول (Atoll)، وصواريخ ستايكس (Styx)، ومقاتلات ميج ٢٧ (MiG-27)، وميج ٢٩ (MiG-29)، إضافة إلى المدمرات الحديثة. ليس هذا فحسب، بل منح الاتحاد السوڤيتي الهند وضعًا تفضيليًا أيضًا عندما رخَّص السوڤيت لها بإنتاج طائرات عسكرية، في حين رفضوا منح الصين هذا الامتياز نفسه[٣].

وهكذا اعتادت الشعوب في هذا الجزء من العالم على الالتفات يسارًا ويمينًا، وأثبتت تلك السياسة أنها مجدية. ففي أفغانستان، صيغت كلمة لممارسة طلب الدعم من كلتا القوتين العظميين، وتعني حرفيًا «بلا انحياز *bi-tarafi*»، وأصبحت سياسة ثنائية القطب (عدم الانحياز) مبدأ من مبادئ السياسة الخارجية التي سعت إلى موازنة الإسهامات التي قدمها الاتحاد السوڤيتي مع تلك التي تقدمها الولايات المتحدة. وذكر أحد المراقبين المخضرمين في تقرير تقليدي نُشِر في عام ١٩٧٣، أن ضباط الجيش الأفغاني المبتعثين للدراسة في برامج تدريب رسمية في الاتحاد السوڤيتي والولايات المتحدة، وُضعت بهدف بناء العلاقات وتطويرها مع قادة المستقبل، دأبوا على المقارنة بين القوتين فيما بينهم لدى عودتهم إلى الديار. ومن ثم برزت من ثنايا تلك المقارنات حقيقة واحدة أمام نواظر أولئك الضباط الموهوبين: «لم تكن

---

(1) 'Soviet aid and trade activities in the Indian Ocean Area', CIA report, S-6064 (1974); V. Goshev, *SSSR i strany Persidskogo zaliva* (Moscow, 1988).

(2) US Arms Control and Disarmament Agency, *World Military Expenditure and Arms Transfers, 1968–1977* (Washington, DC, 1979), p. 156; R. Menon, *Soviet Power and the Third World* (New Haven, 1986), p. 173;
وعن العراق، انظر:
A. Fedchenko, *Irak v bor'be za nezavisimost'* (Moscow, 1970).

(3) S. Mehrotra, 'The Political Economy of Indo-Soviet Relations', in R. Cassen (ed.), *Soviet Interests in the Third World* (London, 1985), p. 224; L. Racioppi, *Soviet Policy towards South Asia since 1970* (Cambridge, 1994), pp. 63–5.

الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفيتي الجنة التي رسمتها دعاية كل منهما». وبدلًا من إعداد كوادر متحيزة ثقافيًا لقوة من القوتين، كانت الاستجابة الساحقة لأولئك الذين أُرسلوا للدراسة في الخارج هي العودة إلى الديار مقتنعين بأن أفغانستان ينبغي أن تظل مستقلة[1].

وكانت هناك دوافع مماثلة للسياسة في إيران؛ حيث دأب الشاه على ترديد مقولة مفادها: إنه أنقذ بلاده، على مسامع كل من يُنصت إليه. وقال لأحد محاوريه: «كانت رؤيتي بمثابة معجزات أنقذت البلاد. لقد أنقذ نظامي البلاد؛ لأن الله كان معي». وعندما سُئل: لماذا لا يجرؤ أحد على ذكر اسمه في شوارع طهران؟ لم ينصرف ذهن الشاه إلى أن هذا قد يكون بسبب الجهاز المرعب للدولة البوليسية الذي عمل على إبقائه في السلطة. بل قال: «حسنًا، عليَّ أن أفترض أنهم لا يتحدثون عن الشاه من باب المبالغة في الاحترام»[2].

إذا كانت هذه حالة واضحة من حالات خداع الذات، فكذلك كان الموقف من الشيوعيين. لقد قال الشاه لمحاوره متحديًا: «الشيوعية ضد القانون. ويترتب على ذلك أن الشيوعي لا يُعد معتقلًا سياسيًا قط، بل مجرمًا عاديًا؛ إنهم أناس ينبغي القضاء عليهم». وفي اللحظة التالية تقريبًا، افتخر الشاه بأن إيران تتمتع «بعلاقات دبلوماسية وتجارية جيدة مع الاتحاد السوفيتي»[3]. وعلى هذا النحو حمل قول الشاه كل شيء عن التوازن الدقيق عبر العمود الفقري لآسيا الذي كان ينبغي السعي إليه خلال الحرب الباردة. لقد تعلم الشاه -من خلال التجربة- أن استعداء جاره القوي في الشمال قد يكون له تداعيات خطيرة؛ لذا كان من مصلحته أن يحصل على دعم الولايات المتحدة والغرب، بينما يعمل في الوقت نفسه على تحسين علاقاته مع موسكو. ونتيجة لذلك، أبدى الشاه سعادة غامرة عندما أبرم سلسلة من الاتفاقيات لشراء قاذفات القنابل الصاروخية، والمدافع المضادة للطائرات، والمدفعية الثقيلة من الاتحاد السوفيتي. فضلًا عن اتفاقيات أخرى أتاحت الإفادة من الفنيين السوفيت في توسيع مصنع الصلب الرئيس في أصفهان.

وفي حين أن هذه السياسة بدت سياسة واقعية، بل ومتفهمة تمامًا، إلا أنها أظهرت صعوبات الموقف الذي أُلْفت بلدان هذه المنطقة نفسها فيه. لقد كان الدخول في تحالف مع إحدى القوتين العظميين يؤدي إلى استجابة من القوة الأخرى على الفور؛ وكذلك أي محاولة للبقاء على مسافة كان يمكن أن يكون لها عواقب وخيمة، ويمكن بسهولة أن تخلق فرصًا لشخصيات من المعارضة. ففي عام ١٩٦٨، منح انقلاب آخر في العراق فرصة للاتحاد السوفيتي لتقوية العلاقات التي عمل بجد على تطويرها على مدار العقد الماضي. وقد أثمرت هذه الجهود عن معاهدة صداقة وتعاون مدتها خمسة

(1) L. Dupree, *Afghanistan* (Princeton, 1973), pp. 525–6.

(2) 'The Shah of Iran: An Interview with Mohammad Reza Pahlavi', *New Atlantic*, 1 December 1973.

(3) Ibid.

عشر عامًا، وجرى التوقيع عليها في عام ١٩٧٢. وهي المعاهدة التي نظرت إليها لندن -بوضوح- على أنها «تحالف رسمي مع الاتحاد السوڤيتي»(١).

وزاد قلق واشنطن من اتساع المدى الذي بلغته مخالب الاتحاد السوڤيتي -مقارنة بالماضي القريب- من خلال استغلال السوڤيت للحوادث التي كانت تقع هنا وهناك في آسيا. ففي عام ١٩٧١، وقعت موسكو معاهدة سلام وصداقة وتعاون مدتها خمسة وعشرون عامًا مع الهند، ووافقت على تقديم الدعم الاقتصادي، والتقني، والعسكري لـ نيودلهي. وفي أفغانستان، بدت الأمور أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء؛ حيث دفع انقلاب جرى هناك بـ محمد داود إلى السلطة في عام ١٩٧٣ إلى جانب كادر من اليساريين. وهكذا أمر النظام الجديد بنفي عدد من القادة الإسلاميين البارزين من قبل النظام الجديد، أو فروا من وجهه. ووجدوا ملاذًا لهم في باكستان، لا سيما في المنطقة المسماة منطقة القبائل حول كويتا (Quetta)؛ حيث تلقوا الدعم من حكومة ذي الفقار علي بوتو؛ التي وجدت فيهم أداة طيبة قد تُعين على زعزعة استقرار الحكومة الجديدة في أفغانستان، كما وجد في استضافتهم وسيلة مجانية لتلميع أوراق اعتماده على الصعيد الديني في الداخل.

* * *

كان الشعور بالاضطراب، والنظام العالمي الجديد الناشئ من خلاله واضحًا؛ حيث سعت شعوب الحزام بين البحر المتوسط وجبال الهيمالايا لتقرير مصائرها بأيديها. واعتاد صدام حسين على القول -بأَخَرة-: إن اللحظة الحقيقية لاستقلال العراق، هي اللحظة التي أمم فيها صناعته النفطية، وقرر مصيره في عام ١٩٧٢. لقد ولت تلك الأيام التي كان الغربيون يظهرون، ويسيطرون على أهل البلاد. واستطرد قائلًا: إن زمن «الهيمنة الأجنبية واستغلال الدخلاء قد ولَّى، وإلى غير رجعة»(٢)(٣).

وكان النفط هو الوقود الذي دفع هذه الشعوب للإفلات من التأثير المتسلط للقوى الخارجية، الأمر الذي أدى إلى سلسلة من ردود الأفعال التي كان لها تداعيات عميقة طويلة المدى. لقد كان النفط المحفز لجولة جديدة من التغيير، تمثلت في انقلاب قاده ضابط شاب طموح في الجيش الليبي، وصفه مدربه الذي أشرف على تدريبه في المملكة المتحدة، في أثناء تأهيله في الجيش البريطاني بأنه «مرح، ومجتهد، وذو وجدان»(٤). وكان معمر القذافي واسع الحيلة بالتأكيد. ففي مستهل عام ١٩٧٠، وبعد

---

(1) Boardman to Douglas-Home, August 1973, FCO 55/1116.

وانظر أيضًا:

O. Freedman, 'Soviet Policy towards Ba'athist Iraq, 1968–1979', in R. Donaldson (ed.), *The Soviet Union in the Third World* (Boulder, CO, 1981), pp. 161–91.

(2) Saddam Hussein, *On Oil Nationalisation* (Baghdad, 1973), pp. 8, 10.

(٣) ترجمت القول المنسوب إلى صدام حسين من الإنجليزية؛ لأنني لم أقف على أصله العربي. فلينتبه (المترجم)

(4) R. Bruce St John, *Libya: From Colony to Revolution* (Oxford, 2012), pp. 138–9.

فترة وجيزة من استيلائه على السلطة، طالب بزيادة كبيرة في عائدات النفط الليبي، الذي بلغت نسبته آنذاك ٣٠٪ من إجمالي النفط المعروض في أوروبا. وقال لمواطنيه: «أيها الإخوة، حاشا للثورة أن تُفقِر الشعب الليبي، بينما يمتلك ثروة نفطية هائلة. إن هناك مواطنين يعيشون في أكواخ وخيام، بينما يعيش الأجنبي في قصور». ثم استطرد القذافي قائلًا: إن هناك دولًا أخرى وضعت أبناءها على القمر، بينما يُستغَل الليبيون إلى الحد الذي لا يجدون فيه كهرباء ولا ماء[١][٢].

وأنَّت شركات النفط بغضب من إصرار النظام الجديد على دفع سعر عادل للنفط. إلا أنهم سرعان ما رضخوا بعد أن وُضِّح لهم أن التأميم ليس خيارًا مطروحًا في هذه المرحلة، بيد أنه قد يكون كذلك. ولم تغب حقيقة أن الزعيم الليبي قد يفرض إعادة التفاوض على الآخرين؛ ففي غضون أسابيع، كانت أوبك تضغط لزيادة الإسهامات المقدمة لأعضائها من قبل شركات النفط الغربية، مهددة بخفض الإنتاج لفرض الاتفاق من خلال سياسة الأمر الواقع. وكانت تلك اللحظة هي اللحظة التي بدأ فيها «الانهيار الجليدي»، على حد وصف أحد المسؤولين التنفيذيين في شركة شِل (Shell)[٣].

وجاءت النتائج مذهلة. فقد تضاعف سعر النفط أربع مرات على مدى ثلاث سنوات، الأمر الذي شكل ضغطًا هائلًا على اقتصادات أوروبا والولايات المتحدة؛ حيث ارتفعت مستويات الطلب والاستهلاك على نحو مطَّرد. وعلى النقيض من ذلك، غمرت البلدان المنتجة للنفط تدفقات نقدية غير مسبوقة. وعلى هذا النحو شهدت البلدان الواقعة في وسط آسيا والخليج العربي تصاعدًا ثابتًا في عائداتها تقريبًا منذ أصاب امتياز نوكس دارسي النفط؛ حيث جرى فرض إعادة التفاوض ببطء، ولكن بثبات، في الاتفاقات التي أُبرمت في العقود التالية، وظلت الشروط تتحسن على نحو مطرد. ولكن ما حدث في السبعينيات كان تحولًا جذريًا. فبين عامي ١٩٧٢-١٩٧٣ وحده، ارتفعت عائدات إيران من النفط ثمانية أضعاف. وفي غضون عقد من الزمن، ارتفعت الإيرادات الحكومية بمقدار ثلاثين ضعفًا[٤]. وفي العراق المجاور، لم يكن الارتفاع أقل إثارة، حيث ارتفع خمسين مرة بين عامي ١٩٧٢-١٩٨٠، أي من ٥٧٥ مليون دولار إلى ٢٦ مليار دولار[٥].

---

(1) Gaddafi, 'Address at Ṭubruq', 7 November 1969, in 'The Libyan Revolution in the Words of its Leaders', *Middle East Journal* 24.2 (1970), 209.

(٢) ترجمت القول المنسوب إلى معمر القذافي من الإنجليزية؛ لأنني لم أقف على أصله العربي. فليتنبه (المترجم)

(3) Ibid., 209–10; M. Ansell and M. al-Arif, *The Libyan Revolution: A Sourcebook of Legal and Historical Documents* (Stoughton, WI, 1972), p. 280; *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, 93rd Congressional Hearings (Washington, DC, 1975), 8, pp. 771–3,

نقلًا عن:

Yergin, *The Prize*, p. 562.

(4) F. Halliday, *Iran, Dictatorship and Development* (Harmondsworth, 1979), p. 139; Yergin, *The Prize*, p. 607.

(5) P. Marr, *Modern History of Iraq* (London, 2004), p. 162.

وعلى صعيد الغرب، جأر الجميع بالشكوى من «مدى اعتماد الدول الصناعية الغربية على النفط بوصفه مصدرًا للطاقة»، كما فعل أحد كبار المسؤولين الأمريكيين في تقرير أعده لوزارة الخارجية في عام ١٩٧٣[1]. ولكن كان نقل القوة والمال- للبلدان الواقعة على امتداد العمود الفقري لآسيا حتميًا؛ وبالمثل كانت تقوية عضلات العالم الإسلامي التي أعقبت ذلك -مع تضخم طموحاته- حتميَّةً أيضًا.

وجاء التعبير الأكثر مأساوية عن هذه التطورات متمثلًا في الجهود المتجددة الرامية لإزالة الرمز الطوطمي للنفوذ الخارجي من الشرق الأوسط بالكلية؛ أعني إسرائيل. ففي أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، شنت القوات السورية والمصرية عملية بدر -التي سُمِّيت باسم المعركة التي فتحت الطريق على مصراعيه لفتح مكة في زمن النبي [ﷺ] تيمنًا[2]- ولم يفاجئ الهجوم الدفاعات الإسرائيلية فحسب، بل فاجأ القوى العظمى أيضًا. فقبل سويعات من بدء الهجوم، ذكر تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية واثقًا: «أننا نرى أن احتمال قيام الجيشين ببدء عملية عسكرية ضد إسرائيل احتمال ضئيل»، على الرغم من إحاطة صاحب التقرير علمًا بأن القوات المصرية والسورية كانت تحتشد بالقرب من الحدود. وخلص التقرير إلى أن هذا الحشد إما جزء من تدريب روتيني، أو «خوف [من] هجوم استباقي [قد تلجأ إليه] إسرائيل»[3]. وعلى الرغم من أن بعض الناس رأى أن جهاز الاستخبارات السوڤيتية (KGB) كانت أكثر إحاطة وعلمًا بالخطط العربية، فإن طرد المراقبين السوڤيت برمتهم من مصر قبل عام أظهر مدى قوة الرغبة في تصفية الحسابات محليًا، وليس بوصفها جزءًا من صراع أوسع نطاقًا للحرب الباردة[4]. والحق أن الاتحاد السوڤيتي كان يحاول تهدئة التوترات في الشرق الأوسط ما وسعه ذلك، ويسعى إلى تحقيق «الاسترخاء العسكري» في المنطقة[5].

---

(1) Embassy in Tripoli to Washington, 5 December 1970,

نقلًا عن:

Yergin, *The Prize*, p. 569.

(2) G. Hughes, 'Britain, the Transatlantic Alliance, and the Arab–Israeli War of 1973', *Journal of Cold War Studies* 10.2 (2008), 3–40.

(3) 'The Agranat Report: The First Partial Report', *Jerusalem Journal of International Relations* 4.1 (1979), 80.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

U. Bar-Joseph, *The Watchman Fell Asleep: The Surprise of Yom Kippur and its Sources* (Albany, NY, 2005), esp. pp. 174–83.

(4) A. Rabinovich, *The Yom Kippur War: The Epic Encounter that Transformed the Middle East* (New York, 2004), p. 25; Andrew and Mitrokhin, *The Mitrokhin Archive II*, p. 160.

(5) G. Golan, 'The Soviet Union and the Yom Kippur War', in P. Kumaraswamy, *Revisiting the Yom Kippur War* (London, 2000), pp. 127–52; idem, 'The Cold War and the Soviet Attitude towards the Arab–Israeli Conflict', in N. Ashton (ed.), *The Cold War in the Middle East: Regional Conflict and the Superpowers, 1967–73* (London, 2007), p. 63.

وزلـزل تأثيـر الصراع العالم زلزالًا. ففي الولايات المتحدة، جرى رفع مستوى التأهب العسكري إلى مستوى ديفكون ٣ (DEFCON 3)، الأمر الذي يشير إلى وجود مخاطر إطلاق أسلحة نووية، ولم يسبق أن ارتفعت حالة الطوارئ إلى هذا المستوى منذ نشوب أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢. وفي الاتحـاد السـوڤيتي، انصب التركيز على سُبل احتـواء الموقف. وجرى الضغط على الرئيس المصري السـادات -مـن وراء الكواليـس- للاتفـاق علـى وقـف إطلاق النـار، في حين ضغط وزيـر الخارجية السـوڤيتي، أندريـه جروميكـو (Andrei Gromyko) -وهـو أحـد المخضرميـن السياسـيين البارزيـن- شـخصيًّا علـى الرئيس نيكسـون ووزير خارجيته المعيـن حديثًا، هنري كيسـنجر (Henry Kissinger)، للعمل معًا للحيلولة دون «نشوب حريق حقيقي» قد يؤدي إلى انتشار الحرب بسـهولة[1].

لا تكمـن الأهميـة الحقيقيـة لحـرب يـوم كيبـور (Yom Kippur) -التـي سـميت بهذا الاسـم؛ لأن الهجوم بدأ على إسـرائيل في اليوم المقدس عند اليهود- في محاولات واشـنطن وموسكو للعمل معًا، بل ولا حتى في النتائج المذهلة التي شـهدت إحدى الانتكاسـات العسكرية العظيمة في التاريخ؛ حيث انتقلت إسـرائيل في غضـون سـاعات من دولة تواجه تهديدًا وجوديًّا، إلى كسـر القوات الغازية والتقدم نحـو دمشـق والقاهـرة. بـل كان اللافت للنظر هـو الطريقة التي تصـرف بها العالم العربي معًا، بوصفه خلافـة فـي كل شـيء ما خـلا الاسـم. وكان قادة تلك العصبة هم السـعوديون -سـادة مكـة- الذين لم يتحدثوا علانية عن اسـتخدام النفط بوصفه سـلاحًا فحسب، بل إنهم بادروا إلى استخدام ذلك السلاح بالفعـل. وجـرى خفض الإنتاج الذي أدى إلى ارتفاع الأسـعار، إلى جانب ضبابية المشـهد السياسـي؛ حيث تضاعفت كلفة برميل البترول ثلاث مرات بين عشية وضحاها تقريبًا.

واشـتكى وزيـر الخارجية هنري كيسـنجر مـن «الابتزاز السياسـي» الذي بات يهدد اسـتقرار العالم المتقـدم فـي ظـل وجود الطوابير التـي تجمعت حول محطـات البنزين في الولايـات المتحدة. وكانت الصدمة كافية لإثارة الحديث عن تطوير استراتيجيات جديدة من شأنها العمل على تقليل الاعتماد على نفـط الشـرق الأوسـط، أو حتى الاسـتغناء عنـه بالكلية. ففـي ٧ نوفمبر (تشـرين الثاني) ١٩٧٣، ألقى الرئيـس نيكسـون خطابًا على مسـتوى البلاد على شاشـة التلفاز -في وقت الـذروة- يعلن مواطنيه عن سلسـلة من الإجراءات لمعالجة الحقيقة المؤلمة التي مفادها أنه «في السـنوات الأخيرة، بدأت طلباتنا من الطاقة تتجاوز الإمدادات المتاحة». ونتيجة لذلك، رأى الرئيس رسـميًّا، اسـتبدال الفحم وهو «أكثر مواردنـا وفـرة» بالنفط فـي محطات الطاقة. وكان من المقرر تقييد حصص وقـود الطائرات بأثر فوري؛ ومنـع جميـع المركبات المملوكة للحكومة الفيدرالية من السـير بسـرعة تزيد عن ٥٠ ميلًا في السـاعة، «باسـتثناء حـالات الطوارئ». واسـتطرد نيكسـون قائلًا: «وسـعيًا للتأكد من وجود مـا يكفي من الزيت للشـتاء بأكملـه، سـيكون متعينًـا علينـا جميعًـا أن نعيش ونعمـل في درجات حـرارة منخفضة. ونناشـد الجميع خفض منظم الحرارة في المنازل بمقدار ٦ درجات على الأقل؛ حتى نتمكن من تحقيق متوسط

(1) H. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 463.

نهـاري وطنـي يبلـغ ٦٨ درجة». وعقَّـب الرئيس على تلك الإجراءات قائـلًا: إن كان لنا عزاء في ذلك، «فقد أخبرني طبيبي ... أنني سأتمتع بصحة أفضل حقًا» إن عشت في درجات حرارة مثل هذه[١].

ثم أضاف: «الآن، قد يتساءل بعضكم» عما إذا كنا نعيد عقارب الساعة إلى الوراء، إلى عصر آخر. إن تقنيـن الغاز، ونقص النفط، وخفض حدود السـرعة، تبـدو جميعها وكأنها طريقة حياة تركناها خلفنا مـع جليـن ميلر (Glenn Miller) وحرب الأربعينيات. حسـنًا، الحق أن جزءًا من مشـكلتنا الحالية ينبع أيضًا من الحرب في الشرق الأوسط». ثم أعلن نيكسون أنه بالإضافة إلى تلك الإجراءات، فإن الموقف بـات يقتضـي تحقيق «هدف وطني»، أي خطـة طموحة لتمكين الولايات المتحدة من تلبية «احتياجاتها مـن الطاقـة دون أن تعتمـد علـى مصـدر خارجي لها، أيًـا كان ذلك المصـدر». وعلى هـذا النحو بورك «مشـروع الاسـتقلال Project Independence»، وكان اقتراحًا مستوحى من «روح أبولو The spirit of Apollo» (إشارة إلى برنامج الفضاء الأمريكي)، ومشروع مانهاتن الذي منح الغرب الأسلحة النووية، والقـدرة علـى تدميـر العالم. لقد كانت الولايـات المتحدة قوة عظمى، بيد أنهـا كانت تدرك أيضًا نقاط ضعفها كل الإدراك. وحان الوقت لإيجاد البدائل، ومن ثم تقليل الاعتماد على نفط الشـرق الأوسـط، وأهميته[٢].

وأنتـج ذلـك التغيير في السياسـة بعض الآثار الجانبيـة غير المتوقعة. فقـد أدى التخفيض العام لحدود السـرعة علـى الطـرق السـريعة إلى ٥٥ ميل في السـاعة، ولـم تـؤد تلك الخطوة إلـى تقليل الاسـتهلاك بمعـدل ناهـز مئـة وخمسـين ألـف برميل نفـط يوميًا، بل إنهـا أدت أيضًـا إلـى انخفاض كبيـر فـي عدد حوادث المـرور على الصعيـد الوطني. ففي ديسـمبر (كانون الأول) ١٩٧٣ وحده، لمسـت الإحصائيـات الصادرة عن الإدارة الوطنية لسـلامة المـرور على الطرق السـريعة انخفاضًا ملحوظًـا فـي مسـتويات الوفيـات بنسـبة فاقـت ١٥٪، وذلـك نتيجـة مباشـرة لحـدود السـرعة المنخفضـة[٣]. كما أبرزت الدراسـات التي أجريت في يوتا (Utah)، وإلينوي (Illinois)، وكنتاكي (Kentucky)، وكاليفورنيـا (California)، وأماكـن أخـرى ذلـك الجانـب الإيجابـي بوضوح. أي تأثيـر خفض حدود السـرعة على إنقاذ الأرواح[٤].

ودفعـت أهمية ترشـيد اسـتخدام الطاقة المهندسـين المعمارييـن الأمريكيين إلى البـدء في تصميم

---

(1) 'Address to the Nation about Policies to Deal with the Energy Shortages', 7 November 1973, *Public Papers of the Presidents of the United States [PPPUS]: Richard M. Nixon, 1973* (Washington, DC, 1975), pp. 916–17.

(2) Ibid; Yergin, *The Prize*, pp. 599–601.

(3) D. Tihansky, 'Impact of the Energy Crisis on Traffic Accidents', *Transport Research* 8 (1974), 481–3.

(4) S. Godwin and D. Kulash, 'The 55 mph Speed Limit on US Roads: Issues Involved', *Transport Reviews: A Transnational Transdisciplinary Journal* 8.3 (1988), 219–35.

المباني التي تركز على الطاقة المتجددة تركيزًا أكبر[1]؛ لذا فقد مثلت لحظة فاصلة أيضًا في تطوير السيارة التي تعمل بالطاقة الكهربائية، الأمر الذي شجع على إجراء بحوث مكثفة حول استقرار سلسلة من أنظمة الطاقة المتنافسة وكفاءتها، بما في ذلك البطاريات التي تعمل بمحلول متأين مائي (Electrolyte)، وبطاريات الحالة الصلبة (Solid-State)، وبطاريات الملح المذاب (Molten-salt) التي أرست الأسس للسيارات الهجينة التي وصلت إلى السوق الشامل بعد عدة عقود[2]. وأضحت الطاقة قضية سياسية بارزة، في برنامج حاكم ولاية جورجيا، والذي كان على وشك أن يكون المرشح الرئاسي جيمي كارتر (Jimmy Carter)؛ حيث دعا صراحة لـ «سياسة وطنية شاملة بعيدة المدى للطاقة»[3]. ووافق الكونجرس على الاستثمار بكثافة في الطاقة الشمسية، في حين ظهرت مواقف متعاطفة على نحو متزايد تجاه الطاقة النووية؛ حيث بات يُنظَر إليها على أنها طاقة موثوقة من الناحية التقنية، وحلًا واضحًا لمشكلات الطاقة[4].

وبرر ارتفاع الأسعار -آنذاك- التنقيب عن النفط في المناطق التي كان إنتاجه فيها سابقًا غير مجد تجاريًا أو باهظ الكلفة، مثل: بحر الشمال، وخليج المكسيك. وأدت المنصات البحرية إلى تطورات تقنية سريعة في الحفر في مواقع المياه العميقة، والاستثمار في البنية التحتية، وخطوط الأنابيب، والحفارات، والقوى العاملة.

لكن أيًا من تلك الحلول لم يكن له أثر فوري بطبيعة الحال. لقد تطلبت جميعًا البحث والاستثمار في المقام الأول. وكان رفض تركيب أجهزة تكييف الهواء في المباني الفيدرالية، والسماح بـ«الاسترخاء المناسب في معايير ملابس الموظفين [الحكوميين]»، وزيادة استخدام السيارات بنظام المشاركة -كما أمر الرئيس نيكسون في مذكرة صدرت في يونيو (حزيران) ١٩٧٣- أمرًا جيدًا للغاية، ولكن بدا من غير المرجح أن تحل إجراءات كهذه المشكلة[5]. وفي غضون ذلك، حقق منتجو النفط في الشرق الأوسط أقصى استفادة ممكنة من الفرصة. وفي ظل حالة من الشك بشأن الإمدادات التي أثارت مخاوف

---

(١) انظر على سبيل المثال:

R. Knowles, *Energy and Form: Approach to Urban Growth* (Cambridge, MA, 1974); P. Steadman, *Energy, Environment and Building* (Cambridge, 1975).

(2) D. Rand, 'Battery Systems for Electric Vehicles – a State-of-the-Art Review', *Journal of Power Sources* 4 (1979), 101–43.

(3) Speech to Seminar on Energy, 21 August 1973,

نقلًا عن:

E. S. Godbold, *Jimmy and Rosalynn Carter: The Georgian Years, 1924–1974* (Oxford, 2010), p. 239.

(4) J. G. Moore, 'The Role of Congress', in R. Larson and R. West, *Implementation of Solar Thermal Technology* (Cambridge, MA, 1996), pp. 69–118.

(5) President Nixon, 'Memorandum Directing Reductions in Energy Consumption by the Federal Government', 29 June 1973, *PPPUS: Nixon, 1973*, p. 630.

السـوق، واسـتخدام الدول الإسـلامية فـي منظمة أوبك للنفط بوصفه «سـلاحًا في معركـة» -على حد وصف ملك المملكة العربية السعودية[1]- خرجت الأسعار عن السيطرة تقريبًا. فقد ارتفع سعر البرميل المعلن في النصف الثاني من عام ١٩٧٣، من ٢,٩٠ دولار للبرميل إلى ١١,٦٥ دولارًا[2].

حتى عندما انتهت حرب يوم كيبور بعد ثلاثة أسـابيع من القتال بالأسـلحة التقليدية، لم تعد الأمور إلـى نصابهـا قـط. والحـق أن وتيرة إعادة توزيع رأس المال من الغرب إلى الشـرق تسـارعت ببسـاطة؛ فارتفعت الإيرادات الجماعية للبلدان المنتجة للنفط من ٢٣ مليار دولار في عام ١٩٧٢ إلى ١٤٠ مليار دولار بعد خمس سـنوات فحسـب[3]. وازدهرت المدن بالأموال التي مولت بناء الطرق، والمدارس، والمستشـفيات. ففي بغداد، أُنشـئ مطار جديد ضخم بهندسـة معمارية لا تعوزها الفخامة، كما أُنشـئ ملعـب صممـه لو كوربوزيه (Le Corbusier). وكان التغيير كبيرًا؛ حتى إن إحدى المجلات المعمارية اليابانيـة شـبَّهت تحـول العاصمة العراقية بباريس في أواخر القرن التاسـع عشـر تحت إشـراف البارون هوسـمان (Baron Haussmann)[4]. وبطبيعـة الحـال، منـح هذا التحول هؤلاء الذين كانوا في السـلطة رأسـمال سياسـي ثمين؛ فكان يسع الأنظمة في جميع أرجاء الخليج العربي أن تدلي بتصريحات فخمة تربط ذلك الثراء الجديد بسلطتها ربطًا مباشرًا.

لذا لم يكن من قبيل المصادفة أنه مع تحول الأموال المتدفقة إلى قلب العالم إلى سـيل، أصبحت الطبقات الحاكمة ديماجوجية في نظرتها على نحو متزايد. لقد كانت الأموال التي كانت تحت تصرفهم كبيرة للغاية. وعلى الرغم من إمكانية اسـتخدام تلك الأموال لتوفير الخبز والرفاهية بالطريقة التقليدية للسـيطرة الاسـتبدادية، فقد كان هناك الكثير الذي قد يخسـره هؤلاء الحكام إذا منحوا غيرهم نصيبًا من السلطة. وعلى هذا النحو تباطأ تطور الديمقراطية التعددية على نحو ملحوظ، بل جرى إحكام السيطرة من قبل مجموعات صغيرة من الأفراد- سـواء جمعتهم رابطة الدم، والانتماء إلى الأسـرة الحاكمة كما في شبه الجزيرة العربية وإيران. أو جمعهم تبني قضايا سياسية مشتركة كما في العراق وسوريا. وأصبح حكم الأسـرة الحاكمة هو القاعدة في وقت كان العالم الصناعي يكسـر فيه بنشـاط الحواجز لتحسـين الحراك الاجتماعي، ويعلن بصوت جهور مزايا الديمقراطية الليبرالية.

وجـاءت إعـادة توزيـع رأس المـال إلـى البلدان الغنيـة بالنفط -التـي كان معظمها يقع فـي الخليج العربـي أو حولـه- علـى حسـاب ركـود مزمن في اقتصـادات العالم المتقـدم التي انهـارت تحت وطأة الركود في الوقت الذي أُتخمت فيه خزائن دول أوبك. وكان الشـرق الأوسـط يفيض بالمال، تمامًا كما

(١) الإشارة إلى الملك فيصل بن عبد العزيز (١٩٦٤-١٩٧٥) رحمه الله. (المترجم)

(2) Yergin, *The Prize*, pp. 579, 607.

(3) Ibid., p. 616.

(4) K. Makiya, *The Monument: Art, Vulgarity, and Responsibility in Iraq* (Berkeley, 1991), pp. 20–32; R. Baudouï, 'To Build a Stadium: Le Corbusier's Project for Baghdad, 1955–1973', *DC Papers. revista de crítica y teoría de la arquitectura* 1 (2008), 271–80.

كانـت بريطانيـا فـي أوجها في القرن الثامن عشـر عندما أنفق النابوبيـة (Nabobs) الأثرياء الذين جمعوا ثرواتهـم مـن الشـرق النقـود إنفاق من لا يخشـى الفقر. وعلـى هذا النحـو كان العقد الثامـن من القرن الماضـي عقـدًا مـن البذخ، شـهد تقديـم الخطوط الجويـة الإيرانية طلبات لشـراء طائـرات الكونكورد (Concord)، وارتفاع واردات السـلع الفاخرة مثل أجهزة الاسـتريو، والتلفاز مع زيادة عدد المشاهدين من عدد ناهز ٢ مليون مشـاهد في عام ١٩٧٠، إلى ١٥ مليونًا بعد أربع سـنوات فحسـب[1]. وهكذا لم يكن الإنفاق ببذخ يعرف حدودًا.

وكما كانت الحال عندما كانت أوروبا القروسطية متعطشة للأقمشة الفاخرة، والتوابل، والكماليات القادمـة مـن الشـرق، دار التسـاؤل عما إذا كانت هناك طـرق أخرى لدفع كلفة هـذه الضروريات باهظة الثمن. لقد سـيق العبيد إلى الدول الإسـلامية -قبل عشـرة قرون- للمساعدة في تمويل المشتريات من هـذا العالـم. وبالمثـل بـدا أيضًـا أن هنـاك جانـب مظلـم للقدرة على شـراء الذهـب الأسـود؛ أعني بيع الأسلحة، والتقنيات النووية.

* * *

مارست الحكومات الوطنية ضغوطًا شديدة لبيع الأسلحة من خلال الشركات المملوكة للدولة، أو مـن خـلال دعم الشـركات التي تكونت مـن كبار رجال الأعمال ودافعي الضرائب. واسـتحوذ الشـرق الأوسـط برمتـه علـى أكثر مـن نصـف واردات الأسـلحة العالمية في منتصـف السـبعينيات. ففي إيران وحدها، تضاعف الإنفاق الدفاعي بمعدل عشـرة أضعاف تقريبًا في سـت سنوات فحسب بلغت غايتها عـام ١٩٧٨، حيـث تلقت الشـركات الأمريكيـة طلبات بقيمة ٢٠ مليـار دولار تقريبًا في الفترة نفسـها؛ وقُـدر إجمالي الإنفاق العسـكري في هذه الفترة بأكثر مـن ٥٤ مليار دولار، وارتفعت في النهاية إلى ما يقرب من ١٦٪ من الناتج القومي الإجمالي[2].

ولم يكن الشاه بحاجة إلى بذل كبير جهد في معرض إقناعه بشراء السلاح. لقد كان رجلًا مهووسًا بالطائرات، والصواريخ، والمدفعية؛ حتى إنه لجأ ذات مرة إلى السفير البريطاني في إيران ليسأله: «كم حصانًا يبلغ عزم العجلة المسـنَّنة في دبابة شـيفتين (Chieftain)؟». وباغت ذلك السـؤال الدبلوماسي، الـذي وجـد صعوبـةً في الإجابة عنـه[3]. وأبدى جميع الوافدين من الشـرق حرصًا على ترك قطعة من

---

(1) P. Stearns, *Consumerism in World History: The Global Transformation of Desire* (London, 2001), p. 119.

(2) Sreedhar and J. Cavanagh, 'US Interests in Iran: Myths and Realities', *ISDA Journal* 11.4 (1979), 37–40; US Arms Control and Disarmament Agency, *World Military Expenditures and Arms Transfers 1972–82* (Washington, DC, 1984), p. 30; T. Moran, 'Iranian Defense Expenditures and the Social Crisis', *International Security* 3.3 (1978), 180.

(٣) نقلاً عن:

Buchan, *Days of God*, p. 162.

الكعكة للاتحاد السوفيتي، وفرنسا، وألمانيا الشرقية، وبريطانيا. وكان لدى الشاه موارد غير محدودة -على ما يبدو- ودار السؤال عن أي أنظمة صواريخ أرض-جو سنشتريها؟ وما هي الأسلحة المضادة للدبابات التي سنبتاعها؟ وأي الطائرات المقاتلة يمكننا الحصول عليها؟ وأي وسيط موثوق به لإنجاز الصفقات في عالم بدا من الصعب على الدخيل عليه العمل فيه بنجاح.

وفي العراق، بلغ الإنفاق على المعدات العسكرية ما يقرب من ٤٠٪ من الميزانية الوطنية، وارتفع بأكثر من ستة أضعاف بين عامي ١٩٧٥-١٩٨٠. وقلة هم الذين شعروا بالقلق بشأن عواقب ما تطور سريعًا حتى بدا سباق تسلح إقليمي بين إيران والعراق، أو ما إذا كانت الموارد المتزايدة التي تُنفق على الأسلحة من شأنها أن ترفع من مكانة الجيش في كلا البلدين على نحو ينذر بالخطر. وعلى النقيض من ذلك، طالما وُجِد الطلب -والقدرة على الدفع- لم يجر وضع أية عقبات في طريق حصول دول الشرق الأوسط والخليج العربي على كميات كبيرة من الأسلحة. وكلما طلبت إيران مزيدًا من دبابات شيفتين، وطائرات ميراج من إسرائيل، ومقاتلات ميج ٢١؛ وكلما طلبت سوريا طائرات ميج ٢٣؛ وكلما طلبت العراق دبابات تي ٧٢ (T-72) السوفيتية، وكلما طلبت المملكة العربية السعودية طائرات إف ٥ (F-5) الأمريكية؛ كلما كان ذلك أفضل لاقتصادات بريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة[1].

وجرى اتباع النهج نفسه في قضية الطاقة النووية. لقد أضحت فكرة قيام دول مثل إيران بتطوير شكل من أشكال القدرات النووية موضع إدانة وإنكار دوليين في أوائل القرن الحادي والعشرين؛ حيث أصبحت مسألة الطاقة النووية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بانتشار أسلحة الدمار الشامل. وكانت الإمكانات النووية العراقية -وعجز المفتشين من الوكالة الدولية للطاقة الذرية على فحص المنشآت، والمختبرات، وأجهزة الطرد المركزي التي كان يُعتقَد أن لها وجود، أو يُعلَن عنها، أو يُعرَّف بوجودها في البلاد- جزءًا أساسيًا من تبرير غزو العراق الذي أطاح بصدام حسين في عام ٢٠٠٣.

وكانت هناك علامات استفهام مماثلة حول تصميم إيران الواضح على تطوير قدراتها النووية، وقدرتها على معالجة المواد المشعة التي أثارت -وما زالت تُثير- دوافع مماثلة؛ حتى إن وزير الخارجية جون كيري (John Kerry) قال -في شتاء ٢٠١٣: «لا يمكننا السماح للسياسة والأساطير بالظهور في الواقع، [الرئيس أوباما] أبدى استعدادًا -كما أوضح- لاستخدام القوة فيما يتعلق بالأسلحة الإيرانية، وقد أمر بنشر القوات والأسلحة اللازمة لتحقيق هذا الغرض إذا كان لا بد من تحقيقه»[2]. لقد كان يُنظَر إلى فكرة الرغبة في تطوير الطاقة النووية على أنها خطر على الأمن الإقليمي والعالمي. وقال نائب

(1) A. Alnasrawi, *The Economy of Iraq: Oil, Wars, Destruction of Development and Prospects, 1950–2010* (Westport, CT, 1994), p. 94; C. Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge, 2000), p. 206.

(2) 'Secretary Kerry's Interview on Iran with NBC's David Gregory', 10 November 2013, US State Department, Embassy of the United States London, website.



الرئيس ديك تشيني (Dick Cheney) عام ٢٠٠٥: إن الإيرانيين «يمتلكون بالفعل كميات هائلة من النفط والغاز، ولا أحد يستطيع معرفة سبب حاجتهم [للطاقة] النووية لتوليد الطاقة». ووافق هنري كيسنجر على أن «الطاقة النووية تعد بمثابة إسراف في استخدام الموارد بالنسبة إلى منتج رئيس للنفط مثل إيران»[1].

بيد أنه قبل عقود، كان الرجلان نفسيهما -أعني تشيني وكيسنجر- ينظران إلى الأمور على نحو مختلف تمامًا، وكذلك فعلت إدارات البيت الأبيض المتعاقبة في فترة ما بعد الحرب. فالحق أنه جرى تشجيع الحصول على الموارد النووية بشكل نشط من قِبل الولايات المتحدة في برنامج يبدو اسمه وأهدافه اليوم مثيرًا للضحك؛ لقد كان هذا المشروع يُسمى «الذرة من أجل السلام» (Atoms for Peace). وُضعت هذه الخطة -التي تصورتها إدارة أيزنهاور- لإتاحة مشاركة الولايات المتحدة في «تجمع ذري دولي An international atomic pool»، وفي الأخير اشتملت على منح الحكومات الصديقة نحو ٤٠,٠٠٠ كيلوجرام من اليورانيوم ٢٣٥ للأبحاث غير العسكرية[2].

وكانت مشاركة التقنية، والمكونات، والمواد النووية جزءًا أساسيًا من السياسة الخارجية للولايات المتحدة على مدى ثلاثة عقود. كما كانت حافزًا مباشرًا للتعاون والدعم ضد الكتلة السوفيتية. ومع تحول الاتحاد السوفيتي إلى قوة لا يستهان بها في آسيا والخليج العربي، شعرت الولايات المتحدة بالحاجة الشديدة إلى تعزيز دعمها للشاه، الذي بدا أنه القائد الوحيد الذي يمكنها الوثوق به، والتعويل عليه في المنطقة. ومع ذلك فقد وُجِد آخرون لم يفكروا بالطريقة نفسها. فقد حذر أحد المسؤولين السعوديين البارزين السفير الأمريكي في الرياض من أن الشاه «مصاب بجنون العظمة، [و]غير مستقر بالمرة». واستطرد قائلًا: إذا لم تدرك واشنطن ذلك، «فلا بد أن ثم خطأ في أجهزة المراقبة [الأمريكية]»[3].

وعلى الرغم من وجود بعض المتشككين الذين حذروا من منح الحاكم الإيراني «كل ما يريده»، فإن امتداد القوة السوفيتية في المنطقة أقنع غيرهم -لا سيما كيسنجر- بضرورة تعزيز الدعم المقدَّم للشاه. وعندما زار الأخير واشنطن في منتصف السبعينيات، لفتت المذكرة التي أعدها كيسنجر للرئيس الانتباه إلى أهمية الدعم الأمريكي الملموس للشاه، مشيرةً إليه على أنه «رجل يتمتع بقدرات استثنائية، واطلاع عميق»، ومع ذلك فإن هذا الثناء تستر على المستويات المزمنة للفساد، والافتقار إلى الكفاءة التي وصلت إليها إيران آنئذ[4].

---

(1) 'Past Arguments Don't Square with Current Iran Policy', *Washington Post*, 27 March 2005.

(2) S. Parry-Giles, *The Rhetorical Presidency, Propaganda, and the Cold War, 1945–55* (Westport, CT, 2002), pp. 164ff.

(٣) نقلاً عن:

Shawcross, *Shah's Last Ride*, p. 179.

(4) Secretary of State Henry A. Kissinger to President Gerald R. Ford, Memorandum, 13 May 1975, in M. Hunt (ed.), *Crises in US Foreign Policy: An International History Reader* (New York, 1996), p. 398.

وكانت الولايات المتحدة حريصة كل الحرص على تقديم الدعم لخطط زعزعة استقرار العراق المجاور، حتى إنها ساعدت على دفع الأكراد للثورة. وكان لذلك نتيجة مأساوية، فبعد أن سلكت الثورة مسارًا خاطئًا، اتخذت السلطات العراقية إجراءات انتقامية شديدة ضد الأقلية الكردية في شمال البلاد. وبعد أن شجعت الولايات المتحدة الأكراد على الثورة، سرعان ما تراجعت، واكتفت بمشاهدة إيران تقدم المبادرات، وسرعان ما توصلت إلى تسوية مع العراق بشأن قضايا الحدود الإقليمية طويلة الأمد، وجرى التضحية بالأكراد في غضون هذه العملية[١]. «حتى في سياق العمل السري، كان مشروعنا مشروعًا مضحكًا»، هكذا خلصت «لجنة بيك» (Pike Committee) التي أُنيطت بها مهمة التحقيق في أنشطة الدبلوماسية الأمريكية السرية في السبعينيات[٢]. وربما لم نعد نستغرب الآن من إخلاف كيسنجر لوعده بمناقشة هذا الحدث في الجزء الثاني من مذكراته، بعد أن ذكر أن المقام لا يتسع لمعالجته في الجزء الأول[٣].

ومن نواحٍ أخرى، كان الشاه أيضًا يخطط للمستقبل. لقد أدرك أن ثروة النفط في أوائل السبعينيات لن تدوم إلى الأبد، وأن احتياطات النفط ستنضب في الأخير؛ الأمر الذي سيجعل احتياجات إيران من الطاقة غير مؤكدة. وعلى الرغم من اقتصاد الولايات المتحدة في استعمال النفط،فإن الطلب على النفط استمر في الارتفاع، تاركًا إيران -وغيرها من البلدان الغنية بالنفط- تملأ خزائنها بما يكفي من المال لوضع الخطط على المدى الطويل. وخلص تقرير أعده الشاه إلى أن الطاقة النووية كانت «أكثر مصادر القوة الاقتصادية» التي من شأنها تأمين احتياجات إيران من الطاقة. واستنادًا إلى الافتراضين التوأمين اللذين يقضيان بأن أسعار النفط سترتفع فحسب، وأن تكاليف بناء محطات الطاقة النووية وصيانتها ستقل مع الوقت، بدا أن تطوير الصناعة النووية خطوة واضحة ينبغي اتخاذها، ولا سيما وأن هذا المشروع الطموح سيُظهر المدى الذي بلغته إيران الحديثة[٤]. وتولى الشاه الإشراف على هذا الملف بنفسه، وأصدر تعليماته للدكتور أكبر اعتماد من هيئة الطاقة الذرية الإيرانية الجديدة بإبلاغه بالتطورات مباشرة[٥].

وعلى هذا النحو بادر الإيرانيون بالاتصال بالأمريكيين. وفي عام ١٩٧٤، جرى التوصل إلى اتفاق

(1) J. Abdulghani, *Iran and Iraq: The Years of Crisis* (London, 1984), pp. 152–5.

(2) R. Cottam, *Iran and the United States: A Cold War Case Study* (Pittsburgh, 1988), pp. 149–51.

(3) H. Kissinger, *The White House Years* (Boston, 1979), p. 1265; idem, *Years of Upheaval*; L. Meho, *The Kurdish Question in US Foreign Policy: A Documentary Sourcebook* (Westport, CT, 2004), p. 14.

(4) *Power Study of Iran, 1974–75*, Report to the Imperial Government of Iran (1975), pp. 3–24,

نقلًا عن:

B. Mossavar-Rahmani, 'Iran', in J. Katz and O. Marwah (eds), *Nuclear Power in Developing Countries: An Analysis of Decision Making* (Lexington, MA, 1982), p. 205.

(5) D. Poneman, *Nuclear Power in the Developing World* (London, 1982), p. 86.

مبدئي، وافقت الولايات المتحدة بموجبه على بيع مفاعلين، بالإضافة إلى اليورانيوم المخصب، لإيران. وجرى توسيع نطاق الترتيبات على نحو مفصل في عام ١٩٧٥، عندما اتُّفق على صفقة تجارية بقيمة ١٥ مليار دولار بين البلدين، تضمنت بندًا يقضي بحق إيران في شراء ثمانية مفاعلات من الولايات المتحدة بسعر ثابت قدره ٦,٤ مليار دولار[١]. وفي العام التالي، وافق الرئيس [جيرالد] فورد (Ford) على صفقة أتاحت لإيران شراء نظام أمريكي يتضمن منشأة لإعادة المعالجة، يمكنها استخراج البلوتونيوم من وقود المفاعل النووي، ومن ثم تتمكن طهران بموجبه من تشغيل «دورة وقود نووي Nuclear fuel cycle». ولم يتردد رئيس أركان الرئيس فورد في التصديق على هذه الصفقة. وعلى هذا النحو لم يجد ديك تشيني -في السبعينيات- صعوبة في «معرفة دوافع إيران» للسعي خلف الطاقة النووية.

وكانت اتفاقات الشاه مع الولايات المتحدة جزءًا من خطة طموحة، وواسعة النطاق استقطبت التقنيات، والخبرة والمواد الخام من الدول الغربية الأخرى. وبدأ العمل في بناء مفاعلين للمياه المضغوطة بالقرب من بوشهر -الواقعة على الخليج- في عام ١٩٧٥ بعد توقيع عقود مع شركة كرافتويرك (Kraftwerk Union AG) الألمانية الغربية، وقضت تلك العقود بالتزام الشركة بتوفير حمولة أولية من الوقود، وإعادة التحميل عند اقتضاء الضرورة لمدة عشر سنوات. وجرى توقيع خطابات نوايا أخرى مع الشركة نفسها، وكذلك مع براون بوفيري (Brown Boveri)، وكذلك أيضًا مع شركة فرام آتون (Framatome) الفرنسية لبناء ثمانية مفاعلات أخرى، متضمنة شروطًا تقضي بتزويد إيران باليورانيوم المخصب. كما جرى التوصل إلى اتفاقيات قائمة بذاتها لإعادة معالجة اليورانيوم في فرنسا، وإعادته إلى طهران لتخصيبه، ثم إعادة استخدامه محليًا، أو إعادة بيعه لطرف ثالث تختاره إيران[٢].

وعلى الرغم من أن إيران وقعت على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية في عام ١٩٦٨، فقد كان هناك حديث منتظم في مجمعات الاستخبارات حول تطوير برنامج سري للأسلحة النووية، ولم يكن ذلك مفاجئًا بالنظر إلى أن الشاه كان يعلن -بين الفَينة والأخرى- أن إيران ستطور قدراتها في مجال السلاح «بلا شك، وفي وقت أقرب مما قد يقدره المرء»[٣]. وخلص تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية -وُضِع في عام ١٩٧٤ لتقييم الوضع بصفة عامة- إلى أن إيران لم تزل في مرحلة مبكرة من

---

(1) Ibid., p. 87; J. Yaphe and C. Lutes, *Reassessing the Implications of a Nuclear-Armed Iran* (Washington, DC, 2005), p. 49.

(2) B. Mossavar-Rahmani, 'Iran's Nuclear Power Programme Revisited', *Energy Policy* 8.3 (1980), 193–4, and idem, *Energy Policy in Iran: Domestic Choices and International Implications* (New York, 1981).

(3) S. Jones and J. Holmes, 'Regime Type, Nuclear Reversals, and Nuclear Strategy: The Ambiguous Case of Iran', in T. Yoshihara and J. Holmes (eds), *Strategy in the Second Nuclear Age: Power, Ambition and the Ultimate Weapon* (Washington, DC, 2012), p. 219.

التطور، ومن المحتمل أن يحقق الشاه هذا الهدف في منتصف الثمانينيات «إذا ظل على قيد الحياة»[١].

* * *

كان ثـم دول أخرى تتطلع أيضًا إلى الاستثمار في المنشآت النووية ذات الاستخدامات المدنية، بينما تعمل في الوقت نفسه على تطوير قدرات أسلحة نووية. ففي السبعينيات، أنفق العراق -بقيادة صدام حسين- ببذخ لتحقيق هدف وضعه نصب عينيه، وهو صُنع قنبلة نووية[٢]. وكان صدام طموحًا، حيث حدد «هدفًا يقضي بإنتاج ست قنابل سنويًا» وفقًا للدكتور خضر حمزة، الذي كان مسؤولًا عن البرنامج النووي العراقي في الثمانينيات. وكانت النمو بهذا الحجم يمنح العراق ترسانة أسلحة أكبر من تلك التي كانت للصين في غضون عقدين من الزمن فحسب. ولم يدخر صدام مالًا، وأرسل العلماء والمهندسين العراقيين إلى الخارج بأعداد كبيرة -إلى فرنسا في المقام الأول، ثم إلى إيطاليا- للتأهيل. وفعل كل ما هو ممكن في الداخل لاستخدام البرنامج المدني للحصول على التقنيات، والمهارات، والبنية التحتية اللازمة لإنشاء ترسانة نووية[٣].

وأظهر العراقيون تصميمًا على نهجهم؛ فبعد أن استحوذوا بالفعل على مفاعل أبحاث بقدرة ٢ ميجاواط من الاتحاد السوفيتي -حيث أصبح حرجًا[٤] في عام ١٩٦٧- انصب اهتمام العراقيين إلى الحصول على مفاعل غاز الجرافيت، ومنشأة لإعادة معالجة البلوتونيوم الذي سيجري إنتاجه نتيجة لذلك. وعندما رفضت فرنسا تلبية طلبات العراق في هذا الصدد، تحول صدام إلى كندا على أمل شراء مفاعل مماثل لذلك الذي مكّن الهند من اختبار جهاز نووي في عام ١٩٧٤. ودفع هذا الفرنسيين إلى استئناف المفاوضات مع العراق، الأمر الذي أدى إلى اتفاق لبناء مفاعل أوزيراك للأبحاث، فضلًا عن مفاعل أبحاث أصغر منه، وكان من المقرر أن يعمل كلاهما باليورانيوم المستخدم في صنع الأسلحة. وجرى شراء مواد أخرى ضرورية للاستخدام المزدوج من إيطاليا، بما في ذلك الخلايا الساخنة، إضافة إلى مرفق للفصل والمناولة قادر على استخلاص البلوتونيوم من اليورانيوم المشع، بطاقة إنتاجية قدرها ثمانية كيلوجرامات في السنة[٥].

---

(1) *Special Intelligence Estimate: Prospects for Further Proliferation of Nuclear Weapons* (1974), p. 38, National Security Archive.

(2) K. Hamza with J. Stein, 'Behind the Scenes with the Iraqi Nuclear Bomb', in M. Sifry and C. Cerf (eds), *The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions* (New York, 2003), p. 191.

(3) J. Snyder, 'The Road to Osirak: Baghdad's Quest for the Bomb', *Middle East Journal* 37 (1983), 565–94; A. Cordesman, *Weapons of Mass Destruction in the Middle East* (London, 1992), pp. 95–102; D. Albright and M. Hibbs, 'Iraq's Bomb: Blueprints and Artifacts', *Bulletin of the Atomic Scientists* (1992), 14–23.

(٤) (Critical) أي محصن ضد الهجمات بذاته؛ إذ يؤدي قصفه إلى كارثة نووية وبيئية، سرعان ما تمتد إلى خارج حدود البلاد. (المترجم)

(5) A. Cordesman, *Iraq and the War of Sanctions: Conventional Threats and Weapons of Mass Destruction* (Westport, CT, 1999), pp. 603–6.

وساد الاعتقاد بأن هذا كله لا يعدو أن يكون قمة جبل الجليد، وأن الطاقة ليست دافع العراق الوحيد. وراقب الإسرائيليون خاصةً تلك التطورات بقلق بالغ، وجمعوا معلومات استخبارية مفصلة حول عسكرة جيرانهم- مع التركيز على منشأة أوزيراك بالتويثة -على مقربة من بغداد- والمعروفة باسم مصنع أوزيراك. واستثمرت إسرائيل أيضًا بكثافة في برنامج أسلحتها النووية، وكذلك في نظام صاروخي معدل من التصميمات الفرنسية يمكنه حمل رؤوس حربية بمدى يزيد قليلًا عن ٢٠٠ ميل[١]. وبحلول وقت حرب يوم كيبور عام ١٩٧٣، كان يُعتقد أن لدى إسرائيل ترسانة مكونة من ثلاث عشرة قنبلة نووية[٢].

ودأب الغرب على غض الطرف عند الحاجة؛ ففي العراق -على سبيل المثال- خلص البريطانيون في أوائل السبعينيات إلى أنه «على الرغم من أن الحكومة القائمة قمعية، ومنفرة على نحو فريد، إلا أنه يبدو أنها تسيطر على الأوضاع جيدًا». لقد كان نظامًا مستقرًا، وعلى هذا النحو، كان يسع البريطانيين التعامل معه[٣]. وبالمثل، لم تجد باكستان رادعًا عندما شيدت مرافق عميقة تحت الأرض في سبعينيات القرن الماضي لتمكين الاختبار السري، وفي نهاية المطاف إجراء تفجير نووي ناجح. لقد حفرت خمسة أنفاق أفقية في عمق جبل في سلسلة جبال راس كوه في بلوشستان، صُمم كل منها لتحمل انفجار بلغ عشرين كيلو طنًا[٤]. كما أشار العلماء الباكستانيون آسفين: «كان الغرب على يقين من أن بلدًا متخلفًا مثل باكستان لا يمكنه أبدًا السيطرة على هذه التقنية»، ولكن في الوقت نفسه بذلت الدول الغربية «جهودًا محمومة ومتواصلة لبيع كل شيء لنا... لقد توسلوا إلينا حرفيًا لشراء معداتهم»[٥]. وكما هي الحال، لم يكن من الصعب أن نرى كيف أن الحديث الصارم عن الانتشار النووي من جانب دول مثل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا -وهي الدول التي رفضت الخضوع لعمليات التفتيش، والالتزام بالقواعد التي تفرضها الوكالة الدولية للطاقة الذرية- يثير استياء أولئك الذين أُجبروا على إخضاع مؤسساتهم للتفتيش والالتزام بقواعد الوكالة، واضطروا إلى إجراء بحوثهم سرًا. بيد أن النفاق الخالص في ضوء النهار الساطع، كان يكمن في الحماس الذي اندفع به العالم المتقدم لكسب العملة الصعبة، أو الوصول إلى النفط الرخيص.

---

(1) *Prospects for Further Proliferation*, pp. 20–6.

(2) K. Mahmoud, *A Nuclear Weapons-Free Zone in the Middle East: Problems and Prospects* (New York, 1988), p. 93.

(3) Wright to Parsons and Egerton, 21 November 1973, FO 55/1116.

(4) F. Khan, *Eating Grass: The Making of the Pakistani Bomb* (Stanford, 2012), p. 279.

(5) Dr A. Khan, 'Pakistan's Nuclear Programme: Capabilities and Potentials of the Kahuta Project', Speech to the Pakistan Institute of National Affairs, 10 September 1990,

نقلًا عن:

Khan, *Making of the Pakistani Bomb*, p. 158.

وكانت هناك محاولات فاترة للحد من انتشار المواد النووية. ففي عام ١٩٧٦، اقترح كيسنجر أن على باكستان إنهاء مشروع إعادة المعالجة الخاص بها، والاعتماد على منشأة للولايات المتحدة كان يجري بناؤها في إيران، وكانت -بدورها- جزءًا من مخطط لم يبتكره سوى عقل ديك تشيني، لكي تعمل المحطة في إيران بوصفها محورًا لاحتياجات الطاقة في جميع أنحاء المنطقة. وعندما رفض رئيس باكستان هذا العرض، هددت الولايات المتحدة بقطع حزمة المساعدات عن بلاده[١].

حتى كيسنجر نفسه، بدأ في إعادة النظر في الحكمة من تمكين الحكومات الأجنبية من الوصول إلى التقنيات، والتصميمات التي تقوم عليها الطاقة النووية. وقال في اجتماع لوزارة الخارجية انعقد عام ١٩٧٦ -دون أن يلقي بالًا للدور الرئيس الذي لعبه في التوسط في ذلك الأمر-: «لا أخفيكم، لقد سئمت من الصفقة الإيرانية [لبناء مفاعلات نووية]. لقد أيدت الأمر، ولكن من أي زاوية تنظر منها إلى هذا المشروع، لا تجده يعدو كونه عملية احتيال... نحن البلد الوحيد المتعصب، وقد أصبنا من انعدام الواقعية حدًّا بتنا نُقدم معه على أفعال تتعارض مع مصالحنا الوطنية»[٢].

ألمحَت مثل هذه الأقوال إلى شعور متزايد في واشنطن بأن الولايات المتحدة محاصرة، وخياراتها محدودة. وجرى توضيح ذلك بالفعل من قبل أعضاء مجلس الأمن القومي في أواخر السبعينيات، الذين ذكروا بأخَرة أن «الولايات المتحدة ليس لديها بديل استراتيجي واضح للعلاقة الوثيقة مع إيران»، بعد أن نسفت الجسور السياسية في أماكن أخرى[٣]. وعلى الرغم من انتقاد نظام الشاه -ولا سيما الأساليب الوحشية التي لجأت إليها الـ «سافاك»- في وسائل الإعلام الغربية، فإن الحكومة الأمريكية واصلت تقديم الدعم للحكومة الإيرانية نهارًا جهارًا، وبثبات. وسافر الرئيس كارتر إلى طهران عشية رأس السنة الجديدة عام ١٩٧٧؛ حيث كان ضيف شرف على مأدبة عشاء أُقيمت بمناسبة نهاية العام. وفي هذه المناسبة قال الرئيس كارتر: «إن إيران هي واحة استقرار في واحدة من أكثر بقاع العالم اضطرابًا». وهذا بسبب «القيادة العظيمة للشاه». ويعود الفضل في نجاح البلد إلى «جلالتك، وقيادتك، والاحترام، والإعجاب، والمحبة التي يكنها شعبك لك»[٤].

لم تكن هذه رؤية جرت من خلال نظارات وردية، بقدر ما كانت إنكارًا صريحًا للواقع؛ ذاك أن غيوم العواصف كانت آخذة في التجمع، وكان يسهل على الجميع رؤيتها. ففي إيران، أدى النمو

---

(1) Kux, *The United States and Pakistan*, pp. 221–4.

(2) Memcon, 12 May 1976,

نقلًا عن:

R. Alvandi, *Nixon, Kissinger, and the Shah: The United States and Iran in the Cold War* (Oxford, 2014), p. 163.

(3) G. Sick, *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran* (New York, 1987), p. 22.

(4) 'Toasts of the President and the Shah at a State Dinner', 31 December 1977, *PPPUS: Jimmy Carter, 1977*, pp. 2220–2.

الديموجرافي، والتحضر السريع، وإفراط نظام قمعي في الإنفاق إلى إنتاج مزيج سام. وزاد الفساد المستشري، و«عمولات» العائلة المالكة والمقربين من النظام الحاكم، التي ناهزت مئات الملايين من الدولارات، مقابل كل مفاعل نووي على حدة الأمر سوءًا[1]. وبحلول أواخر السبعينيات، كان الوضع في طهران سامًّا للغاية؛ حيث اندفعت الجماهير إلى الشوارع بأعداد متزايدة للاحتجاج على الافتقار إلى العدالة الاجتماعية، وعلى ارتفاع كلفة المعيشة على خلفية انخفاض أسعار النفط؛ حيث تجاوزت الإمدادات العالمية الطلب على النفط.

ولعبت المعارضة المتزايدة لـ آية الله الخميني -الذي كان آنذاك في منفاه في باريس بعد إبعاده من العراق، الذي جاء جزءًا من صفقة أبرمها العراقيون مع الشاه في عام ١٩٧٥- دورها آنذاك في تأجيج السخط. وكان للخميني - الذي ربما قُتل ولده الأكبر على أيدي رجال «السافاك» في عام ١٩٧٧- رؤية شخَّصت العلل في إيران على الفور، ووعدت بعلاجها. لقد كان محاورًا بارعًا، قادرًا على التقاط الحالة المزاجية لشعبه، تمامًا كما كان مُصدِّق قبل ثلاثة عقود. وأعلن الخميني أن الوقت قد حان لإزاحة الشاه، في خطوة جذبت الثوار اليساريين، والمتطرفين الإسلاميين، وجميع أولئك الذين كانوا خارج الحلقة الذهبية للمكافآت والعطايا تقريبًا. وعلى هذا النحو ينبغي أن يكون المستفيدون من القيادة الجيدة هم الشعب الإيراني والإسلام، وليس الشاه.

كذلك وعد الخميني بأن رجال الدين، والدعاة، والمتشددين لن يحكموا البلاد على نحو مباشر، بل سيقدمون الإرشاد فحسب؛ وذلك لتهدئة المخاوف من أن تصبح إيران دولة دينية. ووضع أربعة مبادئ ركزت على مستقبل البلاد وهي: العودة إلى الشريعة الإسلامية، والقضاء على الفساد، ووقف العمل بالقوانين الجائرة، وإنهاء التدخل الأجنبي في شؤون إيران. ولم يكن بيان الخميني جذابًا فحسب، بل كان بيانًا فعالًا أيضًا؛ إذ خاطب فئات متعددة، ووصف المشكلات والصعوبات، ليس على صعيد إيران فحسب، بل في العالم الإسلامي برمته. ولم تكن الحجة القائلة: إن القلة يتداولون الثروة على حساب الجمهور قوية فحسب، بل لم تكن تحتمل الجدال أصلًا؛ ففي السبعينيات، كان أكثر من ٤٠٪ من سكان البلاد يعانون نقصًا في التغذية، وفقًا لبيانات منظمة الصحة العالمية؛ وأعلن الخميني أن عدم المساواة مع زيادة ثراء الأغنياء هو القاعدة، ولم يتحسَّن وضع الفقراء اللهم إلا تحسنًا طفيفًا، هذا إذا سُلِّم بأن هناك تحسن طرأ على أوضاعهم أصلًا[2]. كما أعلن الخميني أن التظاهر حق مشروع

---

(1) Mossaver-Rahmani, 'Iran's Nuclear Power', 192.

(2) Pesaran, 'System of Dependent Capitalism in Pre- and Post-Revolutionary Iran', *International Journal of Middle East Studies* 14 (1982), 507; P. Clawson, 'Iran's Economy between Crisis and Collapse', *Middle East Research and Information Project Reports* 98 (1981), 11–15; K. Pollack, *Persian Puzzle: The Conflict between Iran and America* (New York, 2004), p. 113;

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

N. Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven, 2003), pp. 158–62.

للشعب الإيراني، مناشدًا الجنود قائلًا: «حتى لو أطلقوا النار عليكم وقتلوكم». فليمُت عشرات الآلاف منا كأخوة. عليكم أن تُظهروا «أن الدم أقوى من السيف»[١].

ومع ازدياد الموقف توترًا، ذهب الشاه- الذي علقت عليه الولايات المتحدة الكثير من الآمال- إلى مطار طهران، حيث ألقى بيانًا موجزًا قال فيه: «أشعر بالإرهاق، وأحتاج إلى قسط من الراحة» قبل أن يطير خارج البلاد إلى غير رجعة[٢]. أما ما يتعلق بقدرته على منع حدوث ما حدث بعد ذلك، فهي مسألة تكهنات. بيد أن المسألة الأكثر وضوحًا هو كيف كان رد فعل بعض القادة الأوروبيين[٣] على الوضع. فقد وصف الرئيس كارتر يوم فرار الشاه بأنه «أحد أسوأ أيام حياتي الدبلوماسية». وتورط المستشار شميدت (Schmidt) «في الإساءة شخصيًّا» خلال المناقشات التي جرت حول الشرق الأوسط، عندما زعم أن «التدخل الأمريكي في [هذه المنطقة]... تسبب في مشكلات في إمدادات النفط في جميع أنحاء العالم»[٤].

واتبعت الولايات المتحدة سياسة الإنكار الكامل، وحل رموز الأحرف الرونية (Runes)[٥] بعد فوات الأوان. ففي بداية عام ١٩٧٩، أرسلت واشنطن الجنرال روبرت هويسر (Robert Huyser)، القائد العام للقيادة الأمريكية الأوروبية، إلى طهران لإظهار الدعم الأمريكي للشاه، ولإقناع الجيش تحديدًا بأن الولايات المتحدة ماضية قدمًا في دعم النظام. ولم يستغرق هويسر طويل وقتٍ حتى أدرك أن الأوان قد فات، وأن حياته هو نفسه باتت في خطر داهم. لقد رأى ما يكفي ليدرك أن أيام الشاه قد ولَّت إلى غير رجعة، وأنه ليس ثم أحد يستطيع إيقاف الخميني[٦].

أمست السياسة الأمريكية بائسة، وفي حال يرثى لها. لقد بذلت الولايات المتحدة الوقت، والجهد، والموارد في إيران وكذلك في البلدان المجاورة منذ الحرب العالمية الثانية. وتملقت القادة وتورطت بدعمهم، في حين عزلت أولئك الذين رفضوا اللعب بقواعدها، أو استبدلتهم بغيرهم. وفشلت الأساليب المستخدمة للتحكم في الأجزاء المتشابكة من آسيا على نحو مذهل. وكانت الدول الغربية «تنظر من أسفل المقراب الصحيح ... فكنا نركز على الهدف الخاطئ»[٧] على حد قول السير أنتوني

---

(1) M. Heikal, *Iran: The Untold Story* (New York, 1982), pp. 145–6.

(2) Shawcross, *Shah's Last Ride*, p. 35.

(٣) ربما أراد المؤلف «الغربيين»، كما يرجح السياق. (المترجم)

(4) J. Carter, *Keeping Faith: Memoirs of a President* (Fayetteville, AR, 1995), p. 118.

(٥) الأحرف الرونية هي الأبجدية التي كانت تستخدم في كتابة اللغات الجرمانية، قبل أن يجري اعتماد الأبجدية اللاتينية. يريد القول: إن فهم الولايات المتحدة للحوادث ومجرياتها كان بطيئًا، ومن ثم استيعابها؛ فتتدخل بعد فوات الأوان، على المجاز. (المترجم)

(6) A. Moens, 'President Carter's Advisers and the Fall of the Shah', *Political Science Quarterly* 106.2 (1980), 211–37.

(7) D. Murray, *US Foreign Policy and Iran: American–Iranian Relations since the Islamic Revolution* (London, 2010), p. 20.

بارسونز (Sir Anthony Parsons)، السفير البريطاني في طهران في ذلك الوقت. أما الأسوأ من ذلك، فقد بات الخطاب المعادي لأمريكا متحدًا تقريبًا في جميع دول هذه المنطقة. وكانت سوريا والعراق تلوذان بالاتحاد السوفيتي. أما الهند فكانت أقرب إلى موسكو مما كانت عليه لواشنطن. بينما كانت باكستان على استعداد للحصول على دعم الولايات المتحدة متى وجدت ذلك مناسبًا لها فحسب. وكانت إيران جزءًا مهمًّا من اللغز، وبدت أيضًا مهددة بالإفلات من مدارها. لقد بدا الأمر وكأنه نهاية حقبة، كما أشار الخميني في خطاب ألقاه أواخر عام ١٩٧٩؛ حيث جاء فيه: «كل مشكلات الشرق تنبع من هؤلاء الأجانب القادمين من الغرب، ومن أمريكا حاليًا، كل مشكلاتنا تأتي من أمريكا»[١].

* * *

أثار سقوط الشاه ذعرًا في واشنطن، وأملًا في موسكو. ويبدو أن انهيار إيران كان نقطة تحول أتاحت فرصًا. وكان الوقوف على المدى الذي أساء به الغرب تقدير الموقف، ليس في إيران فحسب، بل في أماكن أخرى أيضًا - مثل أفغانستان باعثًا على الضحك؛ حيث ذكرت السفارة الأمريكية في كابول في عام ١٩٧٨ أن العلاقات أضحت ممتازة[٢]. والحق أن أفغانستان بدت في عيون أمريكا -المتفائلة- وكأنها قصة نجاح كبيرة، تمامًا كما كانت إيران ثانية؛ فقد تضاعف عدد المدارس عشرة أضعاف منذ عام ١٩٥٠، وتحول عدد كبير من الطلاب إلى التخصصات التقنية مثل: الطب، والقانون، والعلوم. كما ازدهر تعليم المرأة، حيث ارتفع عدد الفتيات اللائي اجتزن مرحلة التعليم الابتدائي ارتفاعًا حادًّا. وانتشرت شائعات مفادها أن الرئيس داود - الذي استولى على السلطة في عام ١٩٧٣- قد جُنِّد من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وأن الأجندات التقدمية التي اتبعها ما هي إلا أفكار الأمريكيين، وقد أملوا عليه وضعها موضع التنفيذ. وعلى الرغم من أن تلك الشائعات كانت عاريةً عن الصحة، فإن حقيقة أنها تطلبت تحقيقًا من قبل دبلوماسيين في واشنطن وموسكو معًا، تُظهر المدى الذي بلغته الضغوط على القوتين العظميين في المنافسة، ولعب أحدث نسخة من اللعبة الكبرى في آسيا[٣].

وأضحى الوقوف على الكيفية التي ستستقر بها الأمور بُعيد هذا الاضطراب أمرًا بالغ الأهمية آنذاك. ومن جميع الزوايا والأغراض، بدا الأمر كما لو أن الولايات المتحدة قد باتت في حال يُرثى لها؛ فقد خسرت رهانها على الشاه ومن ثم على إيران. وكان هناك غيرها عبر طرق الحرير القديمة التي كانت مفتوحة على العروض والمبادرات. فمع اندلاع الثورة في إيران، وتشبث العراق -على ما بدا- بيد الاتحاد السوفيتي، كان على الولايات المتحدة أن تفكر جيدًا في خطوتها التالية، التي ثبت أنها كارثية بأَخَرة.

---

(1) US Department of Commerce, *Foreign Broadcast Service*, 6 November 1979.

(2) 'Afghanistan in 1977: An External Assessment', US Embassy Kabul to State Department, 30 January 1978.

(3) Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 78-9; S. Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Intervention to September 10, 2001* (New York, 2004), p. 48.

-٢٤-

الطريق إلى الكارثة

أدى انـدلاع الثـورة فـي إيران إلى انهيار البيـت الورقي الأمريكي في جميع أنحاء المنطقة. وكانت المؤشـرات الدالة على عدم الاسـتقرار موجودة منذ أمد؛ فقد أدى فسـاد نظام الشاه، إلى جانب الركود الاقتصادي والشـلل السياسـي، ووحشية الشرطة، إلى تركيبة سـامة. ولعبت هذه العوامل لصالح النقاد الصريحين للنظام، الذين سقطت وعودهم بالإصلاح سقوط البذور على أرض خصبة.

أما أولئك الذين انتابهم القلق بشـأن كيفية سـير الأمور في إيران فقد شعروا بمزيد من التوتر بسبب القرائـن الدالـة علـى أن الاتحـاد السـوڤيتي أخذ يخطط بهمة للاسـتفادة مـن الوضع السـائد في البلاد. واستمر النشاط السوڤيتي حتى بعد أن فقدت الاستخبارات السوڤيتية (KGB) ذُخرها الرئيس في إيران، أعني الجنرال أحمد المغربي -الذي كانت موسكو تعده «أفضل عميل لروسيا»، وذلك بسبب علاقاته الوثيقة واتصالاته بالنخب على اختلاف مستوياتهم في إيران- فقد اعتقلته الساڤاك في سبتمبر ١٩٧٧؛ حيـث اشـتبهت فـي اجتماعاتـه المنتظمة مـع مسـؤولي الاسـتخبارات السـوڤيتية[1]. وأدى اعتقاله إلى تكثيف السوڤيت لنشاطهم.

وسرت التكهنات أيضًا بأن المبالغ الكبيرة والاستثنائية من الريال الإيراني التي تدفقت على أسواق العمـلات السويسـرية فـي أوائـل ١٩٧٨ كانـت نتيجـة لأوامر صـدرت من العمـلاء السـوڤيت بتمويل المؤيديـن للاتحـاد السـوڤيتي فـي إيران؛ كمـا أقنعت الجـودة العاليـة الملحوظة لصحيفـة نڤيد *Navid* -وهي الصحيفة الناطقة باسم حزب توده اليساري- بعض الناس بأنها لم تكن تُطبع بمساعدة السوڤيت فحسـب، بل كانت تُطبع في السـفارة السـوڤيتية في طهران. وكانت المعسـكرات الجديدة التي أُقيمت خـارج البـلاد لتدريـب المنشـقين الإيرانييـن (إلـى جانـب غيرهـم) علـى حـرب العصابـات، والعقيدة الماركسـية أمارة شـؤم؛ إذ كانت تشـير إلى أن موسـكو أخذت تسـتعد لملء الفراغ في حال سقط نظام الشاه[2]. وكان هذا كله جزءًا من مشاركة أوسع نطاقًا في منطقة بدا للناظر أنها تمر بمرحلة مخاض؛ لذا قدم السـوڤيت مزيدًا من الدعم أيضًا إلى الرئيس الأسـد في سـوريا، على الرغم من أن الاسـتخبارات السوڤيتية كانت تعده «شخصية شوڤينية برجوازية صغيرة، ومهووسة إلى حد الغرور»[3].

---

(1) Andrew and Mitrokhin, *Mitrokhin Archive II*, pp. 178–80.

(2) Sreedhar and Cavanagh, 'US Interests in Iran', 140.

(3) C. Andrew and O. Gordievsky, *KGB: The Inside Story of its Foreign Operations from Lenin to Gorbachev* (London, 1990), p. 459.

وكان بعض الذين أخذوا يراقبون الموقف عن كثب على قناعة بأن الهلاك بات قاب قوسين أو أدنى. فبحلول نهاية عام ١٩٧٨، أرسل وليم سوليڤان (William Sullivan) -وكان سفير الولايات المتحدة في طهران- برقية إلى واشنطن بعنوان: «تصور ما لا يسَع تصوره Thinking the Unthinkable»، حثَّ فيها حكومة بلاده على وضع خطط للطوارئ على الفور. وجرى تجاهل هذه البرقية؛ حيث أوصى سوليڤان بأن «نحاول هيكلة نهج مؤقت بين [القادة] العسكريين ورجال الدين» عندما تسنح أول فرصة. وكان يقصد بقيلته تلك أن تحاول الولايات المتحدة فتح قنوات اتصال مع الخميني، قبل أن يمسك بزمام السلطة، بدلًا من أن تتدخل لاحقًا[1]. ومع ذلك، أصر ذوو الأصوات العالية في البيت الأبيض على اعتقادهم بأن الولايات المتحدة يسعها السيطرة على الوضع، والحفاظ على دعم الشاه، ومن ثم دعم الاقتراح الذي تقدم به رئيس الوزراء شابور بختيار في أواخر يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩، ويقضي بإلقاء القبض على آية الله الخميني إذا طار إلى إيران[2].

وأصبح عقم هذا التفكير واضحًا للعيان في غضون أيام فحسب. ففي الأول من فبراير (شباط) ١٩٧٩، وصل آية الله الخميني إلى طهران -بعد أربعة عشر عامًا من نفيه- وتجمعت حشود ضخمة لاستقباله في المطار، وتبعته وهو يشق طريقه أولًا إلى مقبرة الشهداء، على بعد اثني عشر ميلًا جنوبي طهران، حيث كان بانتظاره نحو ٢٥٠ ألف من أنصاره؛ وحيث هتف متحديًا «سأضرب بقبضتي أفواه أعضاء هذه الحكومة. من الآن فصاعدًا أنا الذي سأسمي الحكومة». وقدرت بي بي سي (BBC) -في تقرير لها عن هذا الخطاب- أن ٥ ملايين شخص اصطفوا في الشوارع بينما كان الخميني يشق طريقه إلى العاصمة[3].

وتطورت الأمور سريعًا مع سيطرة أنصار الخميني على البلاد. ففي ١١ فبراير (شباط)، أغلقت السفارة الأمريكية أبوابها، وأرسل السفير سوليڤان برقية إلى بلاده قال فيها: «الجيش يستسلم. الخميني يربح. تدمير جميع المصنفات». وكان العمل جاريًا على تدمير المواد الحساسة بعد ثلاثة أيام عندما اقتحم مسلحون مجمع السفارة، ومع ذلك سرعان ما استعاد مساعدو الخميني النظام سريعًا[4]. وفي ١٦ فبراير (شباط)، التقى السفير سوليڤان مع مهدي بازرگان، رئيس الوزراء المعين حديثًا، وأبلغه بأن

---

(1) W. Sullivan, *Mission to Iran: The Last Ambassador* (New York, 1981), pp. 201–3, 233;

وانظر أيضًا:

Sick, *All Fall Down*, pp. 81–7; A. Moens, 'President Carter's Advisors', *Political Science Quarterly* 106.2 (1991), 244.

(2) Z. Brzezinski, *Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser, 1977–1981* (London, 1983), p. 38.

(3) 'Exiled Ayatollah Khomeini returns to Iran', BBC News, 1 February 1979.

(4) Sick, *All Fall Down*, pp. 154–6; D. Farber, *Taken Hostage: The Iran Hostage Crisis and America's First Encounter with Radical Islam* (Princeton, 2005), pp. 99–100, 111–13.

الولايات المتحدة لا مصلحة لها في التدخل في الشؤون الداخلية لإيران[1]. وبعد أقل من أسبوع على هذا اللقاء، اعترفت الولايات المتحدة رسميًا بالحكومة الجديدة التي سُمّيت في أعقاب استفتاء وطني جرى في ١ أبريل (نيسان) قضى بأن اسم البلاد تغير ليصبح «جمهورية إيران الإسلامية». وأقر استفتاء ثانٍ أُجري في نهاية العام دستورًا جديدًا للبلاد، نص على أنه من الآن فصاعدًا، ينبغي أن تكون جميع القوانين، والأنظمة المدنية، والجزائية، والمالية، والاقتصادية، والإدارية، والثقافية، والعسكرية، والسياسية، وغيرها من الأنظمة المعمول بها في البلاد مستندة إلى «الشريعة الإسلامية»[2].

لقد راهنت الولايات المتحدة بكل ما معها على إيران وعلى الشاه لعقود، ومن ثم بات متوجبًا عليها -جراء خسارتها لرهانها- أن تدفع الثمن باهظًا آنئذٍ. وأحدثت الثورة عددًا من الصدمات حول العالم، وتسببت في مضاعفة أسعار النفط ثلاث مرات تقريبًا. وكان التأثير على الاقتصادات المتعطشة للنفط في العالم المتقدم كارثيًا؛ حيث أمسى التضخم يهدد بالخروج عن السيطرة، وزادت المخاوف -مع انتشار الذعر- من امتداد الأزمة. وبحلول نهاية يونيو (حزيران) ظلت أعداد مقلقة من محطات البنزين في جميع أنحاء الولايات المتحدة مغلقة بسبب نقص الإمدادات. وانخفضت معدلات شعبية الرئيس كارتر إلى نحو ٢٨٪ وهي نسبة مساوية تقريبًا لنسبة انهيار شعبية نيكسون في أعقاب فضيحة وترجيت (Watergate scandal)[3]. ومع اقتراب فعاليات حملة إعادة انتخاب الرئيس، بدا أن تغيير النظام في طهران قد يكون عاملًا مهمًا في الانتخابات الرئاسية المقبلة.

لم يكن ارتفاع أسعار النفط وحده هو الذي كان يهدد بتعثر الاقتصادات الغربية؛ فكذلك فعل الإلغاء الجماعي لطلبات الشراء، والتأميم الفوري للصناعات. وأُجبرت شركة البترول البريطانية (BP) -وكانت وريثة امتياز نوكس دارسي الأصلي- على إعادة هيكلة كبرى، وبيع أسهمها بعد ضياع حقول النفط التي كانت تمثل ٤٠٪ من إنتاجها العالمي بضربة واحدة. ثم كانت هناك عقود بناء مصانع الصلب، وتحديث المطارات، وتطوير الموانئ، وهي عقود ألغيت بين عشية وضحاها. ناهيك عن عقود السلاح التي لم تلغ فحسب، بل ألقي بها في سلال المهملات؛ فقد ألغى الخميني في عام ١٩٧٩ مشتريات بقيمة ٩ مليارات دولار من الولايات المتحدة وحدها، الأمر الذي جعل الشركات المصنعة تضرب أخماسًا في أسداسٍ، وتطرح كميات كبيرة من أسهمها للبيع، وتحاول تسويق منتجاتها في أسواق أخرى كانت أقل حرصًا على العسكرة من نظام الشاه[4].

---

(1) C. Vance, *Hard Choices: Critical Years in America's Foreign Policy* (New York, 1983), p. 343; B. Glad, *An Outsider in the White House: Jimmy Carter, his Advisors, and the Making of American Foreign Policy* (Ithaca, NY, 1979), p. 173.

(2) *Constitution of the Islamic Republic of Iran* (Berkeley, 1980).

(3) 'Presidential Approval Ratings – Historical Statistics and Trends', www.gallup.com.

(4) A. Cordesman, *The Iran-Iraq War and Western Security, 1984–1987* (London, 1987), p. 26.

وكان اقتصاد إيران المتدهور يعني أن البرنامج النووي شهد تباطأ بالفعل حتى قبل أن تندلع الثورة، ثم ما لبث أن أُلغي تمامًا. وخسرت شركات مثل كريسوت-لوير (Creusot-Loire) ووستنجاهوس (Westinghouse Electric Corporation)، وكرافتويرك (Kraftwerk Union) -ومقراتها في فرنسا، والولايات المتحدة، وألمانيا الغربية على الترتيب- عقودًا قُدّرت قيمتها بما يناهز ٣٣٠ مليار دولار[١]. وكانت رباطة جأش بعض الناس في مواجهة هذه الشدائد مثيرة للإعجاب حقًّا. فقد كتب الدبلوماسي السير أنتوني بارسونز (Sir Anthony Parsons) -وهو السياسي المخضرم في شؤون الشرق الأوسط، والسفير البريطاني في طهران في وقت عودة الخميني- قائلًا: «يجب ألا ننسى مدى نجاحنا في الاستفادة من نظام الشاه قط؛ فقد جنت الأعمال والصناعة البريطانية أموالًا طائلة من إيران»[٢]. ولم يقل الرجل الكثير، بيد أن قوله حمل مغزى واضحًا، يقضي بأن الأوقات السعيدة قد ولّت إلى غير رجعة، وأنه بات من قَبيل الأفضل الاحتفال بإنجازات الماضي، بدلًا من التحسر على ما سيكون في علم الغيب.

أما الولايات المتحدة، فقد تجاوزت مخاطر التداعيات الاقتصادية والسياسية في الداخل. ووجدت بعض العزاء في أن الخميني ورفاقه من رجال الدين الإيرانيين لم يكونوا يكترثون لسياسة الإلحاد في الاتحاد السوفيتي، ولم يكونوا متعاطفين -كما لم يكونوا على استعداد للتقارب- مع الأحزاب اليسارية في إيران[٣]. وعلى الرغم من أن سقوط الشاه لم يؤد لكسب أرض بالنسبة للاتحاد السوفيتي، فإن الولايات المتحدة أُجبرت على اتخاذ موقف دفاعي؛ ذاك أن سلسلة من مواطئ القدم التي كانت آمنة في السابق باتت محفوفة بالمخاطر، أو فُقدت بالكلية.

وما أن تولى الخميني السلطة حتى أغلق على الفور منشآت الاستخبارات الأمريكية في إيران، وكانت تلك المنشآت بمثابة أنظمة إنذار مبكر ضد الهجمات النووية السوفيتية، وكذلك كانت مراكز تنصت لمراقبة تجارب إطلاق الصواريخ في آسيا الوسطى. وقد حرم هذا الولايات المتحدة من وسيلة حيوية لجمع المعلومات عن خصمها، في وقت اكتسبت فيه مثل تلك المعلومات أهمية إضافية في أعقاب المحادثات المكثفة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي للحد من عدد قاذفات الصواريخ

= وانظر أيضًا:

D. Kinsella, 'Conflict in Context: Arms Transfers and Third World Rivalries during the Cold War', *American Journal of Political Science* 38.3 (1994), 573.

(1) Sreedhar and Cavanagh, 'US Interests in Iran', 143.

(2) 'Comment by Sir A. D. Parsons, Her Majesty's Ambassador, Teheran, 1974–1979', in N. Browne, *Report on British Policy on Iran, 1974–1978* (London, 1980), Annexe B.

(3) R. Cottam, 'US and Soviet Responses to Islamic Political Militancy', in N. Keddie and M. Gasiorowski (eds), *Neither East nor West: Iran, the Soviet Union and the United States* (New Haven, 1990), 279; A. Rubinstein, 'The Soviet Union and Iran under Khomeini', *International Affairs* 57.4 (1981), 599.

الباليستية الاستراتيجية. ومن ثم، فإن إغلاق المحطات التي لعبت دورًا مهمًا في عملية التحقق بات يهدد بالمساس بسلسلة اتفاقات الأسلحة الاستراتيجية التي استغرق التفاوض بشأنها سنوات، فضلًا عن عرقلة المناقشات الجارية -آنذاك- والتي كانت شديدة الحساسية.

وقال الأدميرال ستانسفيلد تورنر (Stansfield Turner) -وكان مدير وكالة الاستخبارات المركزية، للجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ في أوائل عام ١٩٧٩-: إن الأمر سيستغرق خمس سنوات على الأقل حتى تستعيد البلاد القدرة على مراقبة تجارب الصواريخ السوفيتية وتطوراتها[1]. وظهرت «فجوة حقيقية» في جمع المعلومات الاستخبارية الأمريكية نتيجة لسير الحوادث في إيران، على حد وصف روبرت جيتس (Robert Gates)، مسؤول الاستخبارات الوطنية في وكالة الاستخبارات المركزية عن ملف الاتحاد السوفيتي (ثم مدير الوكالة لاحقًا، ثم وزير الدفاع فيما بعد)؛ لذا بُذلت جهود «حساسة على نحو استثنائي» لبناء تحالفات جديدة في مكان آخر من شأنها أن تملأ الفراغ. واشتملت هذه المناقشات رفيعة المستوى مع القيادة الصينية بناء مرافق بديلة غربي الصين، الأمر الذي أدى إلى زيارة سرية للأدميرال تورنر (Turner) وروبرت جيتس إلى بكين في شتاء ١٩٨٠-١٩٨١، وهي رحلة أُميط اللثام عنها بعد سنوات عديدة لاحقًا، وإن جرى الإفراج عن تفصيلات قليلة، إلا أنها ثمينة[2]. وجرى بناء المواقع في كيتاي (Qitai)، وكورلا (Korla) في إقليم شينجيانغ (Xinjiang) على أيدي رجال مكتب عمليات استخبارات الإشارة (Sigint)، مع المرافق الجديدة التي أنشأتها الإدارة الفنية لهيئة الأركان العامة لجيش التحرير الشعبي الصيني التي عملت بالتعاون مع المستشارين والفنيين الأمريكيين[3]. وهكذا كان التعاون الوثيق بين الجيش والاستخبارات الأمريكية ونظيريهما الصينيين نتيجة ثانوية لسقوط الشاه.

ربما لم تساعد الثورة الإيرانية الاتحاد السوفيتي سياسيًا، لكنها بالتأكيد فعلت على الصعيد العسكري. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها السفارة الأمريكية في طهران لتمزيق الوثائق الحساسة، إلا أن سرعة موجة التغيير التي غمرت البلاد وقوتها أدت إلى إحداث بعض الخسائر المدمرة؛ ذاك أن الشاه كان قد اشترى سربًا من الطائرات المقاتلة من طراز إف ١٤ تومكات (F-14 Tomcat)، إلى جانب أحدث نظام صاروخي من طراز فونيكس (Phoenix) جو-جو، وصواريخ هوك (Hawk) أرض-جو،

---

(1) Turner's testimony was leaked to the press, 'Turner Sees a Gap in Verifying Treaty: Says Iran Bases Can't Be Replaced until '84', *New York Times*, 17 April 1979.

(2) R. Gates, *From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War* (New York, 1996). pp. 122–3.

لم يقل جيتس الكثير، غير أنه ذكر أن المفاوضات كانت حسّاسة. وأن الأدميرال تيرنر أعفى شاربه خصيصًا لهذه الزيارة، وذلك من باب التمويه على الأرجح.

(3) J. Richelson, 'The Wizards of Langley: The CIA's Directorate of Science and Technology', in R. Jeffreys-Jones and C. Andrew (eds), *Eternal Vigilance? 50 Years of the CIA* (London, 1997), pp. 94–5.

فضـلًا عـن مجموعة من الأسـلحة المضادة للدبابات عالية التقنية. واسـتطاع السـوفيت الحصول على صـور بصريـة لهـا عـن قـرب، وكانت هـذه الصـور بمثابة كنـز لا يُقـدر بثمن، بـل حصلـوا -في بعض الحالات- على كتيبات إرشـادية تتعلق باسـتعمال هذه المعدات العسـكرية أيضًا. ولـم تكن هذه مجرد خسارة محرجة؛ بل كان لها تداعيات خطيرة محتملة على الأمن القومي للولايات المتحدة، بل وعلى أمن حلفاء أمريكا أيضًا[١].

* * *

انتاب الشعور بعالم مألوف أخذ ينهار سريعًا واشنطن؛ فلم تكن إيران وحدها التي بدت الأمور فيها مختلفـة تمامًـا بين ليلة وضحاها، بـل كانت الولايات المتحدة تراقب الوضع في أفغانسـتان عن كثب؛ حيث ازدادت أهمية أفغانستان الاستراتيجية في أعقاب ثورة الخميني. فعلى سبيل المثال، أجرى فريق وكالـة الاسـتخبارات المركزية الأمريكية دراسـة اسـتقصائية لتقييم البلاد بوصفهـا موقعًا بديلًا محتملًا لمواقـع الاسـتخبارات المفقـودة فـي إيـران في ربيـع عـام ١٩٧٩[٢]. وكانـت المشـكلة أن الوضع في أفغانسـتان أصبح قلقًا، ويبدو أنه كان وسـطًا قابلًا لأن تتخذ الحوادث فيه مسـارًا مشـابهًا لما حدث في إيران.

وبدأت الاضطرابات عندما أطاح محمد داود بالملك ظاهر شاه -وكان ابن أخيه، الذي عُرف بولعه بالشطرنج- ونصب نفسه ملكًا على البلاد بدلًا منه في عام ١٩٧٣. ثم بعد خمس سنوات، أُطيح بداود نفسـه. ولـم يكن سـقوطه مفاجأة كبيرة، نظرًا للوحشية المتزايدة لنظامه؛ حيث أُعدِم السجناء السياسيين -علـى نحـو روتينـي- دون محاكمة، وهـم مطروحون على وجوههم في أرض سـجن «بول شـرخي» خارج كابول، وهو سجن سيئ السمعة، وكان مكتظًا على نحو مزمن[٣].

وأثبـت المتطرفـون الشـيوعيون -الذين حلوا محل داود أنهم على القدر نفسـه من الوحشـية- وأن برنامجهم التقدمي الذي وضعوه لتحديث البلاد لا هوادة فيه. لقد حان الوقـت -وفق إعلانهـم- للقضاء علـى الأُمية، وكسـر البنية «الإقطاعية» للنظام القبلي، وإنهاء التمييـز العرقي، وصيانة حقوق المرأة، بما في ذلك حقها في المساواة في التعليم، والتوظيف، والرعاية الصحية[٤]. وأدت تلك الجهود إلى إجراء تغييـرات شـاملة، أثـارت ردود أفعال غاضبة، كانت أقوى ما يكون بين رجال الدين المسـلمين خاصةً؛ ذاك أن هذا المحاولات الإصلاحية عملت على توحيد صفوف المحافظين، وملاك الأراضي، وزعماء

---

(1) Rubinstein, 'The Soviet Union and Iran under Khomeini', 599, 601.

(2) Gates, *From the Shadows*, p. 132.

(3) R. Braithwaite, *Afgantsy: The Russians in Afghanistan, 1979–89* (London, 2011), pp. 37–44.

(4) 'Main Outlines of the Revolutionary Tasks'; Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 42–3; P. Dimitrakis, *The Secret War in Afghanistan: The Soviet Union, China and Anglo-American Intelligence in the Afghan War* (London, 2013), 1–20.

القبائل، والملالي -الذين عملوا على حماية مصالحهم الخاصة فحسب- على قلب رجل واحد، أُسوة بما حدث في أوائل القرن الحادي والعشرين.

وسرعان ما أصبحت المعارضة صاخبة وخطيرة؛ فاندلعت الانتفاضة الكبرى الأولى في مارس ١٩٧٩ في هرات -غربي البلاد- حيث أعلن الثائرون الاستقلال الوطني، والعودة إلى التقاليد، واستلهموا الحماسة لرفض النفوذ الخارجي من الحوادث التي جرت وراء الحدود في إيران. وانقض المشاغبون على أي هدف أجنبي وقعت أنظارهم عليه، بما في ذلك السكان السوڤيت في المدينة، الذين ذُبحوا ذبح النعاج على أيدي حشد هائج[١]. وسرعان ما طال الاضطراب مدنًا أخرى، حتى وصل إلى جلال آباد، حيث رفضت الوحدات العسكرية الأفغانية معارضة المقاومة، بل انقلبت وانضمت إليهم، وقتلت مستشاريها السوڤيت[٢].

واستجاب الاتحاد السوڤيتي لهذه الحوادث استجابة حذرة، حيث خلص المكتب السياسي -المتقادم- إلى أنه يجب تقديم الدعم للقيادة الأفغانية المزعجة والمثيرة للقلق -التي كان لبعض أفرادها علاقات شخصية طويلة الأمد مع الاتحاد السوڤيتي- لمساعدتها على مواجهة الاضطرابات التي امتدت إلى كابول أيضًا. واتُّخذت سلسلة من الإجراءات بهدف تعزيز النظام الأفغاني، بقيادة الرئيس نور محمد تراقي، الذي كان يحظى بتقدير موسكو، وكان بعض السوڤيت يعدونه «مكسيم جوركي (Maxim Gorky) أفغانستان» بسبب كتاباته حول «موضوعات الاشتراكية العلمية»، وتلك إشادة عظيمة في الواقع[٣]. وأُرسلت شحنات سخية من الغلال والأغذية عبر الحدود، في حين تنازلت الحكومة السوڤيتية عن الفائدة المستحقة على القروض التي تعثرت الحكومة الأفغانية في سدادها. بل عرض السوڤيت أيضًا دفع أكثر من ضعف ما دفعوه مقابل الغاز الأفغاني خلال العقد الماضي للمساعدة على إنعاش خزائن الحكومة[٤]. وعلى الرغم من رفض طلبات الأسلحة الكيماوية والغازات السامة، واصلت موسكو تقديم الدعم العسكري لأفغانستان، وأرسلت ١٤٠ قطعة مدفعية، و٤٨ ألف بندقية، وما يقرب من ١٠٠٠ قاذفة قنابل يدوية[٥].

وكانت واشنطن تراقب هذه التطورات عن كثب؛ حيث كانت تنظر بعناية في الآثار المترتبة على التقدم «التدريجي الواضح» للتدخل السوڤيتي في أفغانستان؛ فإذا كان الاتحاد السوڤيتي بصدد تقديم

---

(1) J. Amstutz, *Afghanistan: The First Five Years of Soviet Occupation* (Washington, DC, 1986), p. 130; H. Bradsher, *Afghanistan and the Soviet Union* (Durham, NC, 1985), p. 1010.

(2) N. Newell and R. Newell, *The Struggle for Afghanistan* (Ithaca, NY, 1981), p. 86.

(3) N. Misdaq, *Afghanistan: Political Frailty and External Interference* (2006), p. 108.

(4) A. Assifi, 'The Russian Rope: Soviet Economic Motives and the Subversion of Afghanistan', *World Affairs* 145.3 (1982–3), 257.

(5) V. Bukovsky, *Reckoning with Moscow: A Dissident in the Kremlin's Archives* (London, 1998), pp. 380–2.

مساعدة عسكرية مباشرة لـ تراقي بإرسال قوات عسكرية، فستكون لهذا التصرف عواقب، ليس فقط في أفغانستان نفسها، بل عبر العمود الفقري لآسيا في إيران، وباكستان، والصين، بل الحق أن تأثير ذلك قد يمتد إلى أبعد من ذلك، كما جاء في تقرير رفيع المستوى[١]. وتجسدت حالة عدم اليقين بشأن ما سيحدث في قابل الأيام بمقتل السفير الأمريكي في كابول في فبراير ١٩٧٩؛ فبعد أيام قليلة من عودة الخميني إلى بلاده، خُطفت سيارة السفير أدولف دوبس (Adolph Dubs) المصفحة، نهارًا جهارًا في شوارع العاصمة الأفغانية كابول، في كمين بدا وكأنه نقطة تفتيش للشرطة؛ ثم نُقل إلى فندق كابول (هو الآن فندق سيرينا (Serena Hotel) الفاخر في كابول)، حيث احتُجز بوصفه رهينةً لبضع ساعات، قبل أن يُقتَل خلال عملية إنقاذ فاشلة[٢].

وعلى الرغم من أنه لم يتضح من كان يقف وراء اختطاف السفير، أو ما هي دوافع هذا الاختطاف، فقد كان ذلك كافيًا لتشجيع الولايات المتحدة على التفاعل -على نحو مباشر- مع ما يجري في البلاد. وعلى هذا النحو قطعت الولايات المتحدة المساعدات عن أفغانستان على الفور، وقدمت الدعم لمناهضي الشيوعية وغيرهم ممن عُرفوا بمعارضة الحكومة الجديدة[٣]. لقد شكل مصرع السفير الأمريكي بداية حقبة طويلة سعت خلالها الولايات المتحدة للتعاون مع الإسلاميين بهمة، وعن طيب خاطر؛ حيث كانت مصالحهم في مقاومة الأجندة اليسارية متوافقة على نحو طبيعي مع مصالح الولايات المتحدة. واستغرق الأمر عقودًا حتى أصبح ثمن هذه الصفقة واضحًا.

وكانت الهواجس من سقوط أفغانستان في أيدي السوڤيت الوقود الدافع لهذا النهج الجديد؛ حيث بدا وكأنهم -أعني السوڤيت- يستعدون للتدخل العسكري بحلول النصف الثاني من عام ١٩٧٩. وتصدرت مسألة نوايا الاتحاد السوڤيتي جدول الأعمال في إحاطات الاستخبارات الأمريكية، وأصبحت موضوعًا لمجموعة من أوراق تقدير المواقف التي عُنيت بآخر التطورات. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنه كان هناك نظرة ثاقبة لما كان يجري[٤]؛ حيث قُدِّم تقرير إلى مجلس الأمن القومي بعنوان «ماذا يفعل السوڤيت في أفغانستان؟» وقدم التقرير ردًا لا يمكن لومه بسبب صراحته، فقد جاء فيه: «ببساطة، لا نعرف»[٥]. وبينما استعصى فك شفرة تفكير موسكو على الأمريكيين، اتضح أن سقوط

(1) Gates, *From the Shadows*, pp. 131–2.

(2) US Department of State, Office of Security, *The Kidnapping and Death of Ambassador Adolph Dubs, February 14 1979* (Washington, DC, 1979).

(3) D. Cordovez and S. Harrison, *Out of Afghanistan: The Inside Story of the Soviet Withdrawal* (Oxford,1995), p. 35; D. Camp, *Boots on the Ground: The Fight to Liberate Afghanistan from Al-Qaeda and the Taliban* (Minneapolis, 2012), pp. 8–9.

(4) CIA Briefing Papers, 20 August; 24 August; 11 September; 14 September, 20 September; Gates, *From the Shadows*, pp. 132–3.

(5) 'What Are the Soviets Doing in Afghanistan?', 17 September 1979, National Security Archive.

الشـاه يعنـي أن الولايات المتحدة فقـدت حليفها الرئيس في المنطقة. وبدا الأمـر مقلقًا كما لو أن تأثير الدومينو كان على وشك أن يزيد الأوضاع صعوبة.

فـي تلـك الأثنـاء كان السـوفيت يشـعرون بالقلـق بشـأن الأمر نفسـه بالضبط؛ فلـم يجنوا شـيئًا من الحـوادث التـي جـرت في إيران، بل الحق أن موسـكو قيَّمـت الثورة الإيرانية على أنهـا ضارة بمصالح الاتحاد السـوفيتي؛ ذاك أن اسـتيلاء الخميني على السـلطة قلل من فرص الاتحاد السـوفيتي، بدلًا من العمل على إتاحتها؛ لذا فقد وضعت خطط الطوارئ من قبل الجيش السـوفيتي لانتشـار كبير في حال مسـت الحاجـة لتعزيـز ما أسـماه الأميـن العـام ليونيـد بريجنيـف (Leonid Brezhnev) «حكومة دولة أفغانسـتان الصديقة». وراقبت الولايات المتحدة تحركات القوات السـوفيتية إلى الشـمال من الحدود الإيرانيـة والأفغانية، مسـجلة إرسـال وحـدة من القـوات الخاصة المسـماة سبيتسـناز (Spetsnaz) إلى كابول، إلى جانب كتيبة من المظليين. وخلصت وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن نشرها كان لتأمين قاعدة بجرام الجوية، وهي نقطة الدخول الرئيسة للإمدادت السوفيتية[1].

وظهر مسـتقبل أفغانسـتان فجأة في هذه المرحلة الحرجة؛ ففي سـبتمبر ١٩٧٩، أسـفر صراع على السـلطة عـن إقالة نور محمد تراقي على يد حفيظ الله أميـن، وكان رجلًا طموحًا، تصعب معرفة نواياه. وقد شجب السوفيت صراحة صعوده إلى سدة الحكم في الافتتاحيات التي ظهرت في برافدا *Pravda*، وهـي الصحيفة الرسـمية التي كانت لسـان حال المكتب السياسـي فـي الاتحاد السـوفيتي[2]؛ فقد أُدين الرجـل في موسـكو بوصفه عدوًا للثورة، وبوصفه أيضًا رجلًا سـعى إلـى التلاعب بالخصومات القبلية لتحقيـق مآربـه الخاصة، و«جاسوسًـا للإمبرياليـة الأمريكية»[3]. وكان السـوفيت يشـعرون بالقلق أيضًا بشأن الشائعات التي سَرت بين الناس، وتقضي بأن أمين قد جُنّد من قِبل وكالة الاستحبارات المركزية، وعمـل أعـداء الرجـل في أفغانسـتان على النفـخ في دخانها لينتشـر على نطاق أوسـع أيضًـا[4]. وتظهر

---

(1) D. MacEachin, *Predicting the Soviet Invasion of Afghanistan: The Intelligence Community's Record* (Washington, DC, 2002); O. Sarin and L. Dvoretsky, *The Afghan Syndrome: The Soviet Union's Vietnam* (Novato, CA, 1993), pp. 79–84.

(2) M. Brecher and J. Wilkenfeld, *A Study of Crisis* (Ann Arbor, MI, 1997), p. 357.

(3) *Pravda*, 29, 30 December 1979.

(4) Amśtutz, *Afghanistan*, pp. 43–4.

كانت هذه الشـائعات قوية للغاية –ويُفترض كذلك أنها كانت مقنعة للغاية– حتى إن السـفير دوبس نفسـه تواصل مع وكالة الاستخبارات المركزية للتحقق مما إذا كانت هذه الشائعات صحيحة أم لا، انظر:

Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 78–9.

وعن تلك الشائعات، انظر:

R. Garthoff, *Détente and Confrontation: Soviet–American Relations from Nixon to Reagan* (Washington, DC, 1985), p. 904.

=

سجلات اجتماعات المكتب السياسي أن القيادة في موسكو أظهرت قلقًا بالغًا بشأن ميل أمين إلى الولايات المتحدة، ووجود رغبة أمريكية في دعم حكومة صديقة لها في كابول[1].

وأصبح السوفيت أكثر قلقًا بشأن الوضع. ويبدو أن اجتماعات أمين المتكررة مع القائم بأعمال رئيس البعثة الأمريكية في أفغانستان -قبل الانقلاب الذي وضعه على رأس السلطة- أشارت إلى أن واشنطن كانت تعيد ترسيخ أقدامها بعد الفشل الكارثي لسياساتها في إيران. ولما أصبح أمين عدوانيًا على نحو متزايد في تعاملاته مع السوفيت في كابول أثناء تقديمه سلسلة من المبادرات إلى الولايات المتحدة فور توليه السلطة، حان وقت العمل[2].

إذا لم يقف الاتحاد السوفيتي بحزم ويدعم حلفائه الآن، فسيغيب المنطق؛ وسيخسر ليس في أفغانستان فحسب، بل في المنطقة برمتها. وأشار الجنرال فالنتين فارنيكوف (Valentin Varennikov) -لاحقًا- إلى أن كبار الضباط أبدوا قلقهم من أن الولايات المتحدة -بعد طردها من إيران- بصدد نقل قواعدها إلى باكستان، والاستيلاء على أفغانستان[3]. وكانت التطورات في أماكن أخرى تتعلق أيضًا بالقيادة السوفيتية، وأعطت انطباعًا بأن الاتحاد السوفيتي كان يُدفع في صدره إلى الخلف بقوة. وناقش المكتب السياسي الطريقة التي حسَّنت بها واشنطن وبكين العلاقات بينهما في أواخر السبعينيات، مشيرًا إلى أن موسكو أيضًا تخلفت عن الركب[4].

وكانت الولايات المتحدة تحاول إنشاء «إمبراطورية عثمانية[5] عظيمة جديدة» تمتد عبر آسيا الوسطى، على حد قول كبار مسؤولي الحزب الشيوعي لـ بريجنيف في ديسمبر ١٩٧٩. وتفاقمت هذه المخاوف بسبب الافتقار إلى نظام دفاع جوي شامل عبر الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي. وكان هذا يعني أن أمريكا قد توجه خنجرًا إلى قلب الاتحاد السوفيتي[6]. وقال بريجنيف -بُعيد ذلك- في مقابلة له مع صحيفة برافدا: إن الاضطرابات في أفغانستان تمثل «تهديدًا كبيرًا للغاية لأمن الدولة السوفيتية»[7]. وكان الاضطرار إلى فعل شيء ما أمرًا ملموسًا.

= وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Andrew and Mitrokhin, *Mitrokhin Archive II*, pp. 393–4.

(1) A. Lyakhovskii, *Tragediya i doblesì'Afgana* (Moscow, 1995), p. 102.

(2) Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 78–9, 71; Lyakhovskii, *Tragediya i doblesî'Afgana*, p. 181.

(٣) نقلاً عن:

V. Zubok, *A Failed Empire: The Soviet Union in the Cold War from Stalin to Gorbachev* (Chapel Hill, NC, 2007), p. 262; Coll, *Ghost Wars*, p. 48.

(4) 'Meeting of the Politburo Central Committee', 17 March 1979, pp. 142–9, in Dimitrakis, *Secret War*, p. 133.

(٥) كذا في الأصل الإنجليزي 'new Great Ottoman Empire'. وأظن الصواب فيها «مغولية»؛ حيث لم تمتد حدود الدولة العثمانية لتشتمل على شرق آسيا، وآسيا الوسطى. (المترجم)

(6) Lyakhovskii, *Tragediya i doblesì'Afgana*, pp. 109–12.

(7) *Pravda*, 13 January 1980.

وبعد يومين من الاجتماع بين بريجينيف وكبار مسؤوليه، صدر الأمر بوضع خطة غزو تستند إلى نشر قوات عسكرية، يتراوح عددها بين ٧٥ ألف، و٨٠ ألف جندي، بصفة أولية. وكان رد فعل رئيس الأركان العامة، الجنرال نيكولاي أوجاركوف (Nikolai Ogarkov) -وكان ضابطًا متشددًا من المدرسة العتيقة، وكان مهندسًا من خلال التدريب- غاضبًا وعصبيًّا. وقال: إن هذه القوة صغيرة للغاية بحيث لا يسعها الحفاظ على طرق الاتصال بنجاح، ولا تأمين النقاط الرئيسة في جميع أنحاء البلاد[1]. وانبرى وزير الدفاع، ديمتري أوستينوف (Dmitri Ustinov) -السياسي القديم البارز الذي أخذ يدلي بتصريحات متفاخرة حول تألق القوات المسلحة السوفيتية- قائلًا: إن قدراتها القتالية ستمكنها من «إنجاز أي مهام ينيطها بها الحزب والشعب»[2].

إن مسألة ما إذا كان الرجل يعتقد بالفعل أن الشعب والحزب هما الشيء نفسه ليس أمرًا ذا بال الآن؛ ما يهمنا في هذا الصدد هو أنه -وكذلك جيله من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية، الذين فقدوا الحس بشأن العالم الذي أخذ يتغير من حولهم- كان على يقين من أن الأمريكيين يخططون ليحلوا محل الاتحاد السوفيتي. وبحسب ما قيل، سأل أوستينوف في أواخر عام ١٩٧٩: «إذا كان بوسعهم [يعني الأمريكيين] إجراء كل هذه الاستعدادات تحت أنوفنا، فلماذا نتسكَّع نحن ونلعب بحذر، ونخسر أفغانستان؟»[3]. وفي اجتماع المكتب السياسي في ١٢ ديسمبر (كانون الأول)، أعطى أوستينوف -إلى جانب مجموعة من الرجال المسنين ذوي الشعر الرمادي مثل: ليونيد بريجنيف، وأندريه جروميكو (Andrei Gromyko)، ويوري أندروبوف (Yuri Andropov)، وقنستنطين تشيرنينكو (Konstantin Chernenko)- الضوء الأخضر لنشر كامل للقوات في أفغانستان[4]. ولم يكن ذلك القرار قرارًا سهلًا، كما نُقل عن بريجنيف قوله -في برافدا- بعد بضعة أسابيع[5].

وبعد أسبوعين من الاجتماع، وتحديدً في عشية عيد الميلاد عام ١٩٧٩، بدأت القوات السوفيتية في التدفق عبر الحدود، وذلك جزءًا من عملية العاصفة ٣٣٣ (Operation Storm 333). وأعلن أوستينوف قادة الجيش الذين قادوا قواتهم عبر الحدود، أن هذا لا يعد غزوًا -في جملة ستتكرر مرارًا على ألسنة الدبلوماسيين والسياسيين السوفيت على مدار العقد التالي- بل لم يكن يعدو كونه محاولة لاستعادة الاستقرار في وقت أضحى فيه «الوضع السياسي والعسكري في الشرق الأوسط» مضطربًا، وبعد التماس من الحكومة في كابول «لتقديم مساعدة دولية للشعب الأفغاني الصديق»[6].

(1) Braithwaite, *Afgantsy*, p. 77.

(2) 'The Current Digest of the Soviet Press', *American Association for the Advancement of Slavic Studies* 31 (1979), 4.

(3) Zubok, *A Failed Empire*, p. 262.

(4) Lyakhovskii, *Tragediya i doblest' Afgana*, p. 215.

(5) *Pravda*, 13 January 1980.

(٦) نقلاً عن:

Lyakhovskii, *Tragediya i doblest' Afgana*, p. 252.

مـن منظـور واشـنطن، لـم يكن من الممكـن أن يكون توقيت الغزو السـوڤيتي أسـوأ ممـا كان عليه بالفعـل. فعلـى الرغم من كل المخاوف السـوڤيتية بشـأن توسـع الولايات المتحدة في أفغانسـتان، فإن المـدى الكامـل للضعف الأمريكـي عبر المنطقة أضحـى واضحًا على نحو مؤلم. فبعد أن غادر الشـاه طهران في بداية عام ١٩٧٩، أخذ ينتقل من دولة إلى أخرى بحثًا عن ملاذ. وبحلول الخريف، أخذ كبار أعضاء إدارة الرئيس كارتر يحثون الرئيس على أن يأذن لرجل يُحتضَر -وكان صديقًا مخلصًا للولايات المتحدة- بدخول البلاد لتلقي العلاج الطبي. وفي أثناء مناقشة هذا الأمر، حذر وزير خارجية الخميني الجديـد مستشـار الرئيـس -علـى الفـور- قائـلًا: إنـك «تفتـح صنـدوق بانـدورا إن تصرفـت على هذا النحو»[1]. وتظهر سـجلات البيت الأبيض أن كارتر كان محيطًا علمًا بمدى ارتفاع سـقف المخاطر إذا أذن للشـاه بدخول إلى الولايات المتحدة؛ حيث سـأل الرئيس مستشـاريه: «بمَ تُشيرون عليَّ يا رفاق إذا اجتاحوا [يعني الإيرانيين] سفارتنا، وأخذوا أبناءنا رهائن؟». بيد أن الرئيس لم يُسمِع حيًّا[2].

وفي ٤ نوفمبر (تشـرين الثاني) وبعد أسـبوعين من دخول الشـاه إلى مركز كورنيل الطبي (Cornell Medical Center) فـي نيويـورك، تغلب الطلاب الإيرانيون المتطرفون على حراس الأمن في السـفارة الأمريكية في طهران، واقتحموا مجمع السـفارة، واسـتولوا عليه واحتجزوا نحو ٦٠ موظفًا دبلوماسـيًّا بوصفهم رهائن. وعلى الرغم من أن الهدف الأولي من ذلك الاقتحام كان تقديم احتجاج قصير وحاد علـى قـرار قبول للولايات المتحدة الشـاه على مـا يبدو، فإن التصعيد تواصـل سـريعًا[3]. وفي ٥ نوفمبر (تشـرين الثانـي) علق آيـة الله الخميني على الأوضاع في السـفارة الأمريكيـة، دون أن يذكرها صراحة، ناهيـك عـن أن يطالـب أنصاره بالهـدوء، بل اكتفى بالقـول: لطالما كانت السـفارات في طهـران أرضًا خصبة لـ «لسراديب تحت الأرض يجري إقامتها لإسقاط جمهورية إيران الإسلامية». ثم استطرد قائلًا: إن الحائـك الرئيـس لهـذه المؤامـرات هـو «أمريكا الشـيطان الأعظـم». ثم انتهـى إلى دعـوة الولايات المتحدة لتسليم «الخائن» حتى يواجه العدالة[4].

وتراوحـت جهـود الولايـات المتحدة الأولية لنزع فتيـل الأزمة من محاولات افتقـرت إلى الكفاءة بالكلية، إلى محاولات باءت بالخزي؛ فقد حُرم أحد مبعوثي كارتر -كان قد حُمّل مناشدة شخصية من الرئيس إلى الخميني- من مقابلة الخميني قطعيًّا، ومن ثم لم يتمكن من تسـليم رسـالته قط. ثم سـرعان ما اتضح أن مبعوثًا آخر قد سُمِح له ببدء مفاوضات من خلال منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) -وكان أعضاؤها يقفون وراء الهجمات الإرهابية[5]، مثل مذبحة دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ والتي كان

---

(1) Brzezinski downplays such warnings, *Power and Principle*, pp. 472–5; Vance, *Hard Choices*, pp. 372–3; Glad, *Outsider in the White House*, pp. 176–7.

(2) D. Harris, *The Crisis: The President, the Prophet, and the Shah: 1979 and the Coming of Militant Islam* (New York, 2004), p. 193.

(3) Ibid., pp. 199–200.

(4) Farber, *Taken Hostage*, pp. 41–2.

(٥) كذا في الأصل الإنجليزي (terror attacks). (المترجم)

هدفها الرئيس إقامة دولة فلسطينية على حساب إسرائيل[1]. وشعرت الولايات المتحدة بالحرج عندما كُشِف النقاب عن أنها كانت تحاول استخدام منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها قناة للوصول إلى الإيرانيين. وزاد شعورها بالحرج أضعافًا مضاعفةً عندما جاءت الأخبار تترى، تفيد بأن الإيرانيين أنفسهم رفضوا السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بلعب دور الوسيط في هذه الأزمة مطلقًا[2].

ثم قرر الرئيس كارتر بعد ذلك اتخاذ إجراءات أكثر حسمًا، لن تؤدي فقط إلى تحرير الرهائن، بل ستكون بمثابة بيان نوايا، وتقضي بأنه على الرغم من سقوط الشاه، فإن الولايات المتحدة تُعد قوة لا يستهان بها في وسط آسيا. فقد أعلنت الولايات المتحدة في ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩ عن فرض حظر على النفط الإيراني، في محاولة منها لوضع نظام الخميني تحت ضغط مالي. وذُكر عند إعلان حظر الواردات أنه «لا ينبغي لأحد أن يقلل من شأن تصميم الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكي وعزمهما»[3]. وبعد يومين، ذهب الرئيس إلى أبعد من ذلك، فأصدر أمرًا تنفيذيًا يقضي بتجميد ١٢ مليار دولار من أصول إيران في البنوك الأمريكية. وأبلى هذا الإجراء الحاسم حسنًا على المستوى المحلي، حيث ارتفعت شعبية كارتر إلى ما وُصِف بأنه أكبر زيادة في شعبية رئيس منذ أن ابتُكِر استطلاع جالوب (Gallup poll)[4].

ومع ذلك لم تسفر هذه الإجراءات عن تحسن يُذكر؛ فقد رفضت طهران الحظر على نفطها، ووصفته بأنه غير واقعي. وقال آية الله الخميني في خطاب ألقاه -بعد أسبوع من إعلان كارتر عن العقوبات المفروضة على إيران-: «إن العالم بحاجة إلى النفط، وليس بحاجة إلى أمريكا. ولسوف تلجأ البلدان الأخرى إلى أولئك الذين لديهم النفط، وليس إليكم»[5]. ولم يكن من السهل تطبيق الحظر على أي حال من المنظور اللوجستي؛ ذلك أن النفط الإيراني غالبًا ما كان يمر عبر أطراف ثالثة، بل كان من الممكن أن ينتهي به المطاف إلى الولايات المتحدة نفسها. كما شكلت المقاطعة ضغوطًا على الإمداد، الأمر الذي هدد حتمًا بدفع أسعار النفط إلى الأعلى. وهو الأمر الذي لعب لصالح النظام الإيراني من خلال زيادة عائداته[6].

---

(١) كذا في الأصل. (المترجم)

(2) Saunders, 'Diplomacy and Pressure, November 1979 – May 1980', in W. Christopher (ed.), *American Hostages in Iran: Conduct of a Crisis* (New Haven, 1985), pp. 78–9.

(3) H. Alikhani, *Sanctioning Iran: Anatomy of a Failed Policy* (New York, 2001), p. 67.

(4) 'Rivals doubt Carter will retain poll gains after Iran crisis', *Washington Post*, 17 December 1979.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

C. Emery, 'The Transatlantic and Cold War Dynamics of Iran Sanctions, 1979–80', *Cold War History* 10.3 (2010), 374–6.

(5) 'Text of Khomeini speech', 20 November 1979, NSC memo to President Carter,

نقلًا عن:

Emery, 'Iran Sanctions', 374.

(6) Ibid.

وأثارت مصادرة الأصول فزع عدد كبير في العالم العربي، حيث أبدوا قلقهم بشأن السابقة التي أقرّها الإجراء الأمريكي. وأدت المواجهة إلى تفاقم الخلافات السياسية مع دول مثل المملكة العربية السعودية، التي لم تكن على وفاق مع واشنطن بشأن سياستها في الشرق الأوسط، لا سيما فيما يتعلق بإسرائيل(١). كما أعدت وكالة الاستخبارات المركزية تقريرًا بعد أسابيع قليلة من انتهاء تطبيق الحظر، جاء فيه: «من غير المرجح أن يكون لضغوطنا الاقتصادية الحالية تأثير إيجابي؛ [بل الحق] أن تأثيرها قد يكون سلبيًّا»(٢).

وفوق ذاك، أبدى عدد كبير من الدول الغربية التردد في الدخول طرفًا في الأزمة مع طهران. وكتب كارتر قائلًا: «سرعان ما أصبح واضحًا لنا أن أقرب حلفائنا في أوروبا لن يعرضوا أنفسهم لمقاطعات النفط المحتملة، أو يعرضوا ترتيباتهم الدبلوماسية للخطر في سبيل الرهائن الأمريكيين». وهكذا كانت الطريقة الوحيدة المعقولة هي «التهديد المباشر بمزيد من التحركات من قبل الولايات المتحدة»(٣)؛ لذلك أرسل كارتر وزير دفاعه، سايروس ڤانس (Cyrus Vance)، في جولة في أوروبا الغربية، حاملًا رسالة مفادها أنه إذا لم تُفرض العقوبات على إيران ستتخذ الولايات المتحدة إجراءات من جانب واحد، بما في ذلك تلغيم الخليج العربي إذا اضطرت إلى اللجوء إلى هذا الخيار(٤). وكان من الطبيعي أن يكون لهذا التهديد تأثير على أسعار النفط، ومن ثم على الاقتصادات في العالم المتقدم. وهكذا كان ينبغي على واشنطن أن تهدد أنصارها من أجل زيادة الضغط على طهران.

وفي ظل هذه الخلفية المتوترة من اليأس، والإجراءات التي أتت بنتائج عكسية، فضلًا عن سوء التدبير لفرض التسوية مع إيران؛ وردت الأنباء تترى عن تحرك الأرتال السوڤيتية جنوبًا إلى أفغانستان. وبوغت صُنَّاع السياسات في الولايات المتحدة تمامًا؛ فقبل أربعة أيام من الغزو، كان الرئيس كارتر ومستشاروه يفكرون في وضع خطط للاستيلاء على جزر إيران البحرية، والنظر في العمليات العسكرية والسرية للإطاحة بنظام الخميني. وهكذا تحول الوضع من حرج إلى مشؤوم بغتةً(٥).

باتت الولايات المتحدة -التي كانت تواجه وضعًا كارثيًّا في أزمة رهائنها- مجبرة آنئذ على التفكير

---

(1) Ibid., 375.

(2) 'The Hostage Situation', Memo from the Director of Central Intelligence, 9 January 1980,

نقلًا عن:

Emery, 'Iran Sanctions', 380.

(3) Carter, *Keeping Faith*, p. 475.

(4) Ibid.

وانظر أيضًا:

G. Sick, 'Military Operations and Constraints', in Christopher, *American Hostages in Iran*, pp. 144–72.

(5) Woodrow Wilson Center, *The Origins, Conduct, and Impact of the Iran–Iraq War, 1980–1988: A Cold War International History Project Document Reader* (Washington, DC, 2004).

في امتداد رئيس للقوة السوڤيتية في هذه المنطقة. وفوق ذاك، عكست الآراء في واشنطن مخاوف موسكو، أي أن التحرك في أفغانستان قد يكون -على الأرجح- مقدمة لمزيد من التوسع لإحدى القوتين العظميين على حساب الأخرى. وكان من قَبيل المحتمل أن تحذو الولايات المتحدة حذو السوڤيت في أفغانستان، فتغزو إيران؛ حيث كان من المحتم أن يثير المشاغبون القلاقل، على حد وصف تقرير استخباراتي صدر في أوائل عام ١٩٨٠؛ لذا كان ينبغي على الرئيس أن يشرع في النظر في الظروف التي «[سنكون] مستعدين فيها لنشر القوات الأمريكية في إيران»[١].

وكشر كارتر عن أنيابه في خطاب حالة الاتحاد -الذي ألقاه في ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠. وقال: إن الغزو السوڤيتي لأفغانستان يعني أن منطقة ذات «أهمية استراتيجية كبيرة» باتت تحت التهديد. وقضت خطوة موسكو على المنطقة العازلة، وجعلتها تقترب من منطقة لا «تحتوي على أكثر من ثلثي النفط القابل للتصدير في العالم» فحسب؛ بل من مضيق هرمز الحساس «الذي يتدفق عبره معظم نفط العالم» أيضًا؛ لذا فقد تلفظ بتهديد صيغ بعناية، قائلًا: «ليكن موقفنا واضحًا تمامًا»، ستُعدُّ محاولة أي قوة خارجية السيطرة على منطقة الخليج العربي بمثابة اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسيجري التصدي لهذا الاعتداء بأية وسيلة ضرورية، بما في ذلك اللجوء إلى القوة العسكرية. وكان هذا بيانًا متحديًا لخص المواقف تجاه نفط الشرق الأوسط، والمركز الذي شيده البريطانيون أولًا ثمة، ثم ورثته الولايات المتحدة عنها. وعلى هذا النحو فإن أية محاولة لتغيير الوضع الراهن ستواجه مقاومة شرسة. لقد كانت هذه سياسة إمبريالية في كل شيء، خلا الاسم[٢].

بيد أن كلمات كارتر البراقة كانت تتناقض مع ما كان يحدث على الأرض فعليًا. فكانت المناقشات مع الإيرانيين حول إطلاق سراح الرهائن مستمرة في الخلفية، بيد أنها أصبحت هزلية أكثر من ذي قبل. ولم يقتصر الأمر على إجراء محادثات بين ممثلين عن طهران، ومساعد رئاسي يرتدي شعرًا وشاربًا مستعارين وعوينات في بعض الاجتماعات؛ بل استمر آية الله الخميني -مع استمرار هذه المناقشات- في إلقاء الخطب حول «الولايات المتحدة الأمريكية التي تلتهم العالم»، وحول وجوب تلقين «الشيطان الأكبر» درسًا[٣].

وفي الأخير، قرر الرئيس كارتر إنهاء الأمور على طريقته؛ ففي أبريل (نيسان) ١٩٨٠ أذن بإطلاق العنان لعملية «مخلب العقاب (Operation Eagle Claw)»، وهي مهمة سرية كانت تهدف لإنقاذ

---

(1) 'NSC on Afghanistan', Fritz Ermath to Brzezinski,

نقلًا عن:

Emery, 'Iran Sanctions', 379.

(2) 'The State of the Union. Address Delivered Before a Joint Session of the Congress', 23 January 1980, p. 197.

(3) M. Bowden, *Guests of the Ayatollah: The First Battle in America's War with Militant Islam* (2006), pp. 359-61.

الرهائن من طهران. وكانت النتيجة إخفاقًا تامًّا، وعلى نحو جعل وجنات تلاميذ المدارس تحمر خجلًا؛ فكان من المفترض أن تلتقي ثماني طائرات مروحية تقلع من حاملة الطائرات التي تعمل بالطاقة النووية يو إس إس نيميتز (USS *Nimitz*) بقوات برية في موقع يقع قرب «طبس» في وسط إيران؛ حيث كان من المقرر أن يقودهم الكولونيل تشارلي بيكويث (Charlie Beckwith) ووحدة جديدة من القوات الخاصة تسمى قوة دلتا (Delta Force). وثبت أن العملية وُلدت ميتة، فقد عادت طائرة مروحية أدراجها بسبب الظروف الجوية؛ بينما تصدعت شفرة مروحية أخرى، في حين اكتشف طيار آخر أن النظام الهيدروليكي لطائرته قد تعرض للتلف. وخلص بيكويث إلى أن المهمة لم تعد قابلة للتنفيذ، وحصل على إذن من الرئيس بإجهاضها. وعند عودة المروحيات إلى نيميتز، حلقت إحداها بالقرب من طائرة أخرى من طراز C-130 للتزود بالوقود، مما أدى إلى انفجار أسقط كليهما، وقُتل جراء سقوط الطائرتين ثمانية جنود أمريكيين[1].

لقد كانت كارثة دعائية بكل المقاييس. ولم يكن من المستغرب أن يصور الخميني الأمر على أنه تدخل إلهي[2]. ونظر آخرون بذهول إلى افتقار القوات الأمريكية إلى الكفاءة في هذه المهمة الفاشلة. وتحدثت حقيقة أن الولايات المتحدة لم تكن قادرة على الإفراج عن رهائنها -سواء من خلال المفاوضات، أو من خلال اللجوء إلى القوة- عن الكثير فيما تعلق بالكيفية التي كان العالم يتغير بها. وشعر بعض مستشاري الرئيس -حتى قبل أن تفشل مهمة الإنقاذ- أن هناك حاجة للعمل على نحو حاسم؛ حتى لا تبدو بلادهم في صورة العاجز. وقال مستشار الرئيس للأمن القومي زبيجنيو بريجينسكي (Zbigniew Brzezinski)«نحن بحاجة إلى فعل شيء ما لطمأنة المصريين والسعوديين وغيرهم في شبه الجزيرة العربية بأن الولايات المتحدة مستعدة لإقامة البرهان على قوتها»، وكان ذلك يعني «وجود عسكري مرئي في المنطقة الآن»[3].

* * *

مع ذلك لم تكن الولايات المتحدة وحدها، هي التي تحاول إيجاد صيغة مناسبة للرد على الحوادث

---

(1) J. Kyle and J. Eidson, *The Guts to Try: The Untold Story of the Iran Hostage Rescue Mission by the On-Scene Desert Commander* (New York, 1990);

وانظر أيضًا:

P. Ryan, *The Iranian Rescue Mission: Why It Failed* (Annapolis, 1985).

(2) S. Mackey, *The Iranians: Persia, Islam and the Soul of a Nation* (New York, 1996), p. 298.

(3) Brzezinski to Carter, 3 January 1980, in H. Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran: Was There a Green Light?', *Cold War History* 12.2 (2012), 322–3;

وانظر أيضًا:

O. Njølstad, 'Shifting Priorities: The Persian Gulf in US Strategic Planning in the Carter Years', *Cold War History* 4.3 (2004), 30–8.

المضطربة التي من شأنها أن تمكنها من حماية مصالحها وسمعتها. فقد شن العراق هجومًا مفاجئًا على إيران ففي ٢٢ سبتمبر (أيلول)؛ حيث قصفت الطائرات العراقية المطارات الإيرانية، وبدأ العراق غزوًا بريًا ثلاثي المحاور استهدف محافظة خوزستان، ومدينتي عبادان، وخرمشهر. ولم ينتب الإيرانيين أدنى شك في هوية مَن يقف وراء هذا الغزو. وأرعد الخميني وأبرق وهو يقول: إن «يدي أمريكا خرجت من كُمَّي صدام»[١]. وكان الهجوم -كما زعم الرئيس «باني صدر»- نتيجة لخطة رئيسة أميركية-عراقية-إسرائيلية وُصِفت أهدافها على أنها محاولات لعزل الحكومة الإسلامية، أو إعادة الشاه، أو العمل على تفكيك إيران إلى خمس جمهوريات. وعلى أية حال، فقد زودت واشنطن العراقيين بمخطط الغزو، وفق زعمه[٢].

وعلى الرغم من أن مفهوم وقوف الولايات المتحدة خلف الهجوم قد تأيّد من قبل بعض المعلقين، وكرره كثيرون غيرهم، إلا أنه ليس ثم دليل قوي من شأنه إثبات ذلك. بل على النقيض من ذلك، تشير المصادر -التي تضم ملايين الصفحات من الوثائق والتسجيلات الصوتية والنصوص المسترجعة من القصر الرئاسي في بغداد في عام ٢٠٠٣- بقوة إلى حقيقة أن صدام قد تصرف من تلقاء نفسه، واختار لحظة مناسبة لضرب جار متقلب، كان له معه حساب وينبغي تصفيته بعد خروج العراق من الجانب الخاطئ في الاستيطان الإقليمي[٣] قبل خمس سنوات[٤]. وتظهر هذه الوثائق تصعيدًا شديدًا من جانب الاستخبارات العراقية في جمع المعلومات في الأشهر التي سبقت الهجوم؛ حيث كانت القيادة في بغداد تنوي شن غزو مفاجئ[٥].

كما كان صدام مدفوعًا بقدر كبير من الشعور بانعدام الأمن، وشعورًا قويًا بجنون العظمة. وكان مهووسًا بإسرائيل، وبعجز العرب عن هزيمة بلد كان «امتدادًا للولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا»، بينما كان يشكو في الوقت نفسه من أن أي عمل عدواني يقوم به العرب ضد إسرائيل سيؤدي إلى قرار الغرب بالانتقام من العراق. وعلى هذا فقد حذر كبار ضباطه قائلًا: إذا هاجمنا إسرائيل، فإن الأمريكيين «سيرموننا بقنبلة ذرية». كما أشار إلى أن «الهدف الأول [للغرب] سيكون بغداد، وليس دمشق، ولا

(1) R. Takeyh, 'The Iran-Iraq War: A Reassessment', *Middle East Journal* 64 (2010), 367.

(2) A. Bani-Sadr, *My Turn to Speak: Iran, the Revolution and Secret Deals with the US* (Washington, DC, 1991), pp. 13, 70-1; D. Hiro, *Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict* (New York, 1991), pp. 71-2; S. Fayazmanesh, *The United States and Iran: Sanctions, Wars and the Policy of Dual Containment* (New York, 2008), pp. 16-17.

(٣) الإشارة إلى اتفاق الجزائر ١٩٧٥، الذي رسمت الحدود في شط العرب بمقتضاه بين العراق وإيران. (المترجم)

(4) Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran', 321-37.

(5) K. Woods and M. Stout, 'New Sources for the Study of Iraqi Intelligence during the Saddam Era', *Intelligence and National Security* 25.4 (2010), 558.

عمان»[١][٢]. وعلى هذا النحو فإن الهجوم على إسرائيل سيعرض العراق لخطر الإبادة؛ لذا فإن الهجوم على إيران ينبغي أن يكون له الأولوية، هكذا بدا الأمر منطقيًا في ذهن صدام بطريقة ما.

ويسع المرء أن يجد إسرائيل وإيران مقترنين في الخطاب المهيب الذي استخدمه صدام وكبار رجاله في الإدارة العراقية، حيث أشار بحماسة إلى ولاية العراق زمام قيادة العرب أينما كانوا. وقُدِّم الهجوم على إيران في عام ١٩٨٠ بوصفه مثالًا على استعادة الأراضي التي «سُلبت» أثناء الاستيطان الإقليمي لعام ١٩٧٥. وهذا من شأنه أن يشجع غيرنا -هكذا أعلن صدام كبار مسؤوليه- ويحفز «الناس جميعًا» على النهوض والمطالبة بحقوقهم وأراضيهم السليبة. وكانت هذه الرسالة موجهة للفلسطينيين في المقام الأول[٣]. وهكذا أقنع صدام نفسه بأن غزو إيران من شأنه أن يساعد قضية العرب في أماكن أخرى. وفي معرض معالجة هذا المنطق المنحرف، لم يكن من الغريب أن يصف رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجن (Menachem Begin) العراق بأنه «أكثر الأنظمة العربية انعدامًا للمسؤولية، ربما باستثناء نظام القذافي»[٤].

وكان صدام قد أبدى انزعاجه من الثورة الإيرانية أيضًا، حيث قال: إن الإطاحة بالشاه وصعود آية الله الخميني كان «قرارًا أمريكيًا بالكلية». كما قال: إن الاضطرابات كانت بداية لخطة رئيسة من شأنها أن تستخدم رجال الدين المسلمين «لتخويف شعوب الخليج، حتى يتمكن [الأمريكيون] من التواجد وترتيب الوضع في المنطقة»[٥][٦]. ومع ذلك فقد امتزج جنون العظمة بلحظات من البصيرة الحقيقية، عندما أدرك الزعيم العراقي على الفور أهمية غزو السوفيت أفغانستان، وما يعنيه هذا بالنسبة

(1) 'Transcript of a Meeting between Saddam Hussein and his Commanding Officers at the Armed Forces General Command', 22 November 1980,

نقلًا عن:

H. Brands and D. Palkki, 'Saddam Hussein, Israel, and the Bomb: Nuclear Alarmism Justified?', *International Security* 36.1 (2011), 145–6.

(٢) ما بين علامتي تنصيص من أقوال منسوبة إلى صدام حسين، إنما ترجمة للعبارات الإنجليزية في الأصل؛ حيث لم أهتدِ للأصل العربي لها. فليتنبه (المترجم)

(3) 'Meeting between Saddam Hussein and High-Ranking Officials', 16 September 1980, in K. Woods, D. Palkki and M. Stout (eds), *The Saddam Tapes: The Inner Workings of a Tyrant's Regime* (Cambridge, 2011), p. 134.

(٤) نقلاً عن:

Brands and Palkki, 'Saddam, Israel, and the Bomb', 155.

(5) 'President Saddam Hussein Meets with Iraqi Officials to Discuss Political Issues', November 1979, in Woods, Palkki and Stout, *Saddam Tapes*, p. 22.

(٦) ما بين علامتي تنصيص من أقوال منسوبة إلى صدام حسين، إنما ترجمة للعبارات الإنجليزية في الأصل؛ حيث لم أهتدِ للأصل العربي لها. فليتنبه (المترجم)

للعراق. وتساءل: هل سيفعل الاتحاد السوفيتي الشيء نفسه في المستقبل ليشق طريقه إلى بغداد؛ هل سيجري إنشاء حكومات عميلة في العراق أيضًا تحت ستار تقديم المساعدات؟ ثم سأل موسكو، «هل هذه»، الطريقة التي ستتعاملون بها مع «أصدقائكم الآخرين مستقبلًا»؟[١].

ونمت مخاوف صدام عندما عمل الاتحاد السوفيتي على الاستفادة من المشاعر المعادية لأمريكا في إيران، وبدأ في مغازلة الخميني والمقربين منه[٢]. وأدرك صدام أن هذا أيضًا قد يكون ضارًا به، وأن موسكو قد تتخلى عن العراق لصالح جارتها. وقال لوفد دبلوماسي أردني في عام ١٩٨٠: «ينبغي العمل على وقف التغلغل السوفيتي في المنطقة...»[٣]. ولما بدأ صدام يشعر بالعزلة شيئًا فشيئًا، أبدى استعداده للابتعاد عن مؤيديه السوفيت ، الذين وقفوا وراء صعوده إلى السلطة في السبعينيات. وكانت خيبة أمله في السوفيت أحد الأسباب التي جعلته يحجم عن إبلاغهم بالهجوم المرتقب على إيران حتى اليوم السابق على إطلاقه، الأمر أدى إلى رد فعل فاتر من موسكو[٤]. في تلك الأثناء كانت حقيقة أن إيران كانت تعاني من «أزمة اقتصادية خانقة»، ولم تكن مؤهلة «للدفاع عن [نفسها] على نطاق واسع»، وفقًا لتقارير الاستخبارات العراقية، بمثابة فرصة سانحة تمامًا، بدت في عيون العراقيين أكبر من أن تُفوَّت[٥].

وكان سقوط الشاه قد أطلق سلسلة استثنائية من الحوادث؛ فبحلول نهاية عام ١٩٨٠، كان وسط آسيا بأكمله في حالة تغيير مستمر. وكان مستقبل إيران، والعراق، وأفغانستان على المحك، ويعتمد على الخيارات التي يتخذها قادة هذه الدول، وعلى تدخل القوى الخارجية كذلك. وكان تخمين

---

(١) نقلاً عن:

Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran', 331.

عن آراء صدام التي حملت قدرًا لا بأس به من الذعر، انظر:

K. Woods, J. Lacey and W. Murray, 'Saddam's Delusions: The View from the Inside', *Foreign Affairs* 85.3 (2006), 2–27.

(2) J. Parker, *Persian Dreams: Moscow and Teheran since the Fall of the Shah* (Washington, DC, 2009), pp. 6–10.

(3) Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran', 331.

(4) O. Smolansky and B. Smolansky, *The USSR and Iraq: The Soviet Quest for Influence* (Durham, NC, 1991), pp. 230–4.

(5) 'Military Intelligence Report about Iran', 1 July 1980,

نقلًا عن:

Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran', 334.

وانظر أيضًا:

H. Brands, 'Why Did Saddam Hussein Invade Iran? New Evidence on Motives, Complexity, and the Israel Factor', *Journal of Military History* 75 (2011), 861–5; idem, 'Saddam and Israel: What Do the New Iraqi Records Reveal?', Diplomacy & Statecraft 22.3 (2011), 500–20.

الطريقة التي ستسير بها الأمور في هذه البلدان -ناهيك عن المنطقة ككل- شيء أقرب إلى المستحيل. فأما الولايات المتحدة فقد استجابت بسياسة عبثية لعبت بها على جميع الأحبال، وجاءت نتائج هذه السياسة كارثية. وفي حين أنه كان صحيحًا أن بذور المشاعر المعادية لأمريكا قد غُرست في وقت سابق في القرن العشرين، لم يكن من المحتم بأي حال من الأحوال أن تتحول إلى كراهية شاملة. بيد أن قرارات السياسة الأمريكية خلال العقدين الأخيرين من القرن أدت إلى تسميم المواقف تجاهها في جميع أنحاء المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وجبال الهيمالايا.

ومن المؤكد أن الولايات المتحدة واجهت صعوبة في اللعب في بداية الثمانينيات. فبادئ ذي بدء، بدا الهجوم العراقي نعمة لصناع السياسة الأمريكيين، الذين رأوا في عدوان صدام حسين فرصة لفتح باب النقاش الموصد مع طهران مجددًا. ولم يخف بريجنسكي -مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر- «حقيقة أن الهجوم العراقي كان تطورًا إيجابيًا محتملًا، من شأنه أن يضغط على إيران للإفراج عن الرهائن»، وفقًا لشهادة واحد من كبار المستشارين الذين حضروا اجتماعات مناقشة الأزمة التي جرت في هذه الآونة[1]. وجرى تضخيم أمر الضغط على نظام الخميني من خلال حقيقة أن الرد على الهجوم العراقي يستلزم توفر قطع غيار للمعدات العسكرية التي اشترتها إيران من الولايات المتحدة سابقًا. وقيل للإيرانيين: إن واشنطن قد تفكر في توفير المواد المطلوبة -التي تصل قيمتها إلى مئات الملايين من الدولارات- إذا أطلقت طهران سراح الرهائن. وتجاهلت طهران هذا العرض -الذي حظي بموافقة شخصية من رئيس الولايات المتحدة- وعاملته كأن لم يكن[2]. ولم تكن هذه المرة هي المرة الأولى التي تخطو فيها إيران خطوة إلى الأمام؛ ذاك أن عملاءها أثبتوا أنهم يتمتعون بسعة الحيلة؛ حيث اشتروا قطع الغيار التي اشتد الطلب عليها من أماكن أخرى، بما في ذلك ڤيتنام، التي كان لديها مخزون كبير من المعدات الأمريكية كانت قد استولت عليها خلال الحرب[3].

كما زُوّدت إيران بكميات كبيرة من السلاح من خلال إسرائيل، التي كانت ترى وجوب كبح جماح صدام حسين بأي ثمن. وكان استعداد الإيرانيين والإسرائيليين القيام معًا بعمل مشترك مفاجئًا من نواحٍ عديدة، لا سيما بالنظر إلى الطريقة المهينة التي تحدث بها الخميني -خاصةً- عن اليهود وعن إسرائيل. فقد كتب في عام ١٩٧٠ قائلًا: «صادف الإسلام والمسلمون أول مخرب في بني إسرائيل الذين كانوا مصدرًا لكل طعن، وحائكًا لكل مؤامرة معادية للإسلام»[4]. وعلى هذا النحو أضحت إيران وإسرائيل -آنئذٍ- صديقين غير محتملين بفضل تدخل صدام حسين في الخليج.

(1) Brands, 'Saddam Hussein, the United States, and the Invasion of Iran', 323.

(2) Sick, All Fall Down, pp. 313–14; J. Dumbrell, The Carter Presidency: A Re-Evaluation (Manchester, 2005), p. 171.

(3) Brzezinski, Power and Principle, p. 504.

(4) J.-M. Xaviere (tr.), Sayings of the Ayatollah Khomeini: Political, Philosophical, Social and Religious: Extracts from Three Major Works by the Ayatollah (New York, 1980), pp. 8–9.

وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى تليين الخميني لخطابه تجاه الأقليات والأديان الأخرى في أوائل الثمانينيات، ففي تلك المرحلة دأب الخميني على الإشارة إلى اليهودية على أنها «ديانة شريفة نشأت بين عامة الناس»، ومع ذلك فكان يبدي حرصًا على تمييزها عن الصهيونية، التي كان ينظر إليها على أنها حركة سياسية (انتهازية)، تعد في جوهرها معارضة للدين. وكان هذا التغيير في الموقف تجاه الأديان واسع النطاق حتى إن جمهورية إيران الإسلامية أصدرت طوابع بريدية عليها صورة ظلية للمسيح، وآية من القرآن مترجمة إلى اللغة الأرمينية[1].

ولم يتوقف أمر تعاون إيران وإسرائيل عند صفقات الأسلحة فحسب، بل امتد إلى التخطيط للعمليات العسكرية أيضًا. وكان أحد الأهداف المحددة ذات الاهتمام المشترك هو مفاعل أوزيراك النووي العراقي؛ فوفقًا لأحد ضباط الاستخبارات، ناقش ممثلون إيرانيون وإسرائيليون مهمة مهاجمة المنشأة خلال محادثات سرية جرت بينهما في باريس حتى قبل بدء هجوم صدام[2]. وبعد ما يزيد عن الأسبوع -بقليل- من بدء الهجوم العراقي على إيران، تعرض المفاعل لغارة جريئة من قبل أربع طائرات إيرانية من طراز فانتوم إف ٤ (F-4 Phantom) استهدفت مختبر الأبحاث ومبنى التحكم. وبعد ثمانية أشهر من تلك الغارة، أغار الطيارون الإسرائيليون المقاتلون غارة حققت نتائج أفضل في يونيو ١٩٨١؛ حيث ألحقوا أضرارًا بالغة بالمفاعل في وقت كان يُخشى فيه على نطاق واسع أنه أوشك على أن يصبح حرجًا[3].

وكان الهدف من الهجوم العراقي على إيران تحقيق نصر قصير ولطيف. فبادئ ذي بدء، بدت الأمور واعدة من منظور بغداد على الرغم من الغارة الإيرانية على مفاعل أوزيراك. ولكن بمرور الوقت، بدأ السحر ينقلب على الساحر؛ فقد عاقب الاتحاد السوفيتي صدام بسبب تصرفه أحادي الجانب، فأوقف إمدادات السلاح، وعلق شحنه إلى العراق، الأمر الذي أحبط الرئيس العراقي، الذي ألفى خياراته محدودة. وكان دأبه جمع المقربين منه بانتظام للتأوه والشكاية، موضحًا لهم وجود مؤامرة دولية محكمة حيكت ضده، وما أن تنتهي إحدى حلقاتها حتى تبدأ أخرى. وكان يشرح الانتكاسات لهم في اعتراف صريح بأن الحرب لم تعد تسير كما كان يُتوقَّع لها. ولكن بيت القصيد لم يكن هنا، بل كان يكمن في أن العراقيين وجدوا أنفسهم يقاتلون عدوًّا شديد البأس ومتفوقًا على نحو متزايد. وفي إحدى المناسبات التي جمعت صدام بقواده في منتصف عام ١٩٨١، سألهم سؤالًا شبه يائس: «فلنحاول شراء السلاح من السوق السوداء. أيمكننا فعل ذلك بالطريقة نفسها التي يفعل بها الإيرانيون ذلك؟»[4].

---

(1) E. Abrahamian, *Khomeinism: Essays on the Islamic Republic* (London, 1989), p. 51.

(2) T. Parsi, *The Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Iran, Israel and the United States* (New Haven, 2007), p. 107.

(3) R. Claire, *Raid on the Sun: Inside Israel's Secret Campaign that Denied Saddam Hussein the Bomb* (New York, 2004).

(4) Woods, Palkki and Stout, *Saddam Tapes*, p. 79.

لقد أثبتت إيران بالفعل أنها تتمتع بالحيلة، والحيوية، والطموح المتزايد. فبحلول صيف عام ١٩٨٢، لم تكن القوات الإيرانية قد تمكنت من إجبار العراقيين على الجلاء عن الأراضي التي استولت عليها فحسب، بل اخترقت قواتها خط الحدود. ورسم تقرير استخباراتي خاص أعدته وكالة الأمن القومي في الولايات المتحدة في يونيو من ذلك العام صورة لا لبس فيها لوضع الحرب آنذاك: «لقد خسر العراق الحرب مع إيران... وليس هناك الكثير الذي يمكن للعراقيين فعله وحدهم، أو بالاشتراك مع غيرهم من العرب لتغيير الوضع العسكري»[1]. ولما جاءت الريح بما اشتهته السفن الإيرانية، بات الإيرانيون يسعون -آنئذ- لنشر فكرة الثورة الإسلامية في بلدان أخرى. وجرى تقديم التمويل والدعم اللوجستي لقوى شيعية متطرفة في لبنان ومنظمات مثل حزب الله، بينما بُذلت جهود لإثارة الشغب في مكة، ورعاية انقلاب على الحكم في البحرين. ونُقل عن وزير الدفاع، كاسبار واينبرجر (Caspar Weinberger)، قوله في يوليو (تموز) ١٩٨٢: «أعتقد -دون أدنى شك- أن الإيرانيين باتوا يشكلون تهديدًا كبيرًا على دول الشرق الأوسط. إن إيران بلد يديره مجموعة من المجانين»[2].

* * *

ومن المفارقات إذن، أن الصعوبات المتزايدة التي كانت تواجه عراق صدام حسين كانت هبة من السماء للولايات المتحدة. فعلى الرغم من إطلاق سراح رهائن السفارة الأمريكية أخيرًا من طهران -بعد احتجازهم لأكثر من عام بعد إبرام صفقة خلف الكواليس- فإن نهاية المأزق لم تعكس تحسنًا في العلاقات الأمريكية مع إيران. وفي المقابل، استمر السوفيت في ملاحقة الخميني، كما لاحظت وكالة الاستخبارات المركزية بقلق. وبدا نجم الاتحاد السوفيتي في التألق، لا سيما بالنظر إلى نجاحه الواضح في أفغانستان حيث احتلت قواته المدن، وأمنت طرق الاتصال الرئيسة وبدا -ظاهريًا على الأقل- أنها تسيطر على الموقف. وفشل الضغط الدبلوماسي على الاتحاد السوفيتي -الذي اشتمل على مقاطعة أولمبياد موسكو ١٩٨٠- في تحقيق نتائج ملموسة. ومن منظور واشنطن، لم يكن هناك الكثير مما يدعو للأمل، حتى اتضح لصناع السياسة أن هناك خيار واضح ينبغي العمل به فورًا، لقد كان ذلك الخيار هو دعم صدام.

وكما قال وزير الخارجية جورج شولتز (George Shultz) -بأخرة-: إذا استمر العراق في التراجع، فمن الممكن أن ينهار البلد بسهولة. وهو ما كان سيتسبب في «كارثة استراتيجية للولايات المتحدة»[3]. وكان من شأن انهيار العراق أن يتسبب في إطلاق يد طهران فيما يتعلق بأسواق النفط الدولية، هذا فضلًا عن التسبب في سلسلة من الاضطرابات عبر الخليج العربي والشرق الأوسط برمته. وظهرت

---

(1) 'Implications of Iran's Victory over Iraq', 8 June 1982, National Security Archive.

(2) *The Times*, 14 July 1982.

(3) G. Shultz, *Turmoil and Triumph: Diplomacy, Power and the Victory of the American Deal* (New York, 1993), p. 235.

سياسة جديدة ببطء، ولكن بثبات؛ لقد قررت الولايات المتحدة الرهان بكل ما تبقى لديها على العراق. وكان هذا هو بيت القصيد؛ حيث بدت فرص واشنطن للتأثير على ما يجري في وسط آسيا أقوى. وكانت مساعدة صدام وسيلة للبقاء ثمة، فضلًا عن كبح جماح إيران والاتحاد السوفيتي معًا.

واتخذ دعم الولايات المتحدة للعراق عدة أشكال. فبعد أن محت الولايات المتحدة اسم العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب، تحركت للمساعدة في دعم الاقتصاد العراقي، وقدمت الائتمان المالي لدعم القطاع الزراعي، وسمحت لصدام بشراء المعدات غير العسكرية أولًا، ثم التقنيات «المزدوجة الاستخدام»، مثل المعدات الثقيلة، والشاحنات التي يمكن استخدامها لنقل المعدات إلى الخطوط الأمامية. وجرى تشجيع الحكومات الغربية في أوروبا على بيع الأسلحة لبغداد، بينما عمل الدبلوماسيون الأمريكيون بجهد كبير لإقناع القوى الإقليمية الأخرى، مثل الكويت والمملكة العربية السعودية، بالمساعدة في تمويل المجهود الحربي للعراق. وبدأت المعلومات الاستخباراتية التي جمعها عملاء الولايات المتحدة تتسرب إلى بغداد، غالبًا عن طريق الملك حسين ملك الأردن، وكان وسيطًا موثوقًا[1]. وساعدت الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس ريجان (Reagan) أيضًا على تعزيز صادرات النفط العراقية -ونتيجة لذلك تعززت عائدات العراق- من خلال تشجيع نقل النفط من خلال خطوط الأنابيب إلى المملكة العربية السعودية والأردن لمواجهة مشكلات الشحن عبر الخليج العربي التي سببتها الحرب مع إيران، وكذلك عملت على تسهيل عمليات توسيعها. وكان القصد من ذلك «تصحيح الخلل في تصدير النفط الإيراني-العراقي»؛ أو بعبارة أخرى، تسوية ساحة اللعب[2].

وإضافة إلى ما سبق ذكره، اتُّخذت خطوات نشطة منذ نهاية عام ١٩٨٣ لخفض مبيعات السلاح وقطع الغيار لإيران في محاولة لوقف تقدمها في ساحة المعركة، في مبادرة أُطلق عليها «عملية الصامد» (Operation Staunch). وصدرت تعليمات للدبلوماسيين الأمريكيين لمطالبة الدول المضيفة «بالنظر في وقف حركة المعدات العسكرية لأي مصدر قد يتوسط بين بلادكم وبين إيران»، حتى يجري الاتفاق على وقف إطلاق النار في الخليج. ويجب على الدبلوماسيين التأكيد على أن القتال «يهدد مصالحنا جميعًا». وجاء في الأمر أنه بات من الضروري «تقليص قدرة إيران على إطالة أمد الحرب»[3].

---

(1) B. Jentleson, *Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982–1990* (New York, 1994), p. 35; J. Hiltermann, *A Poisonous Affair: America, Iraq and the Gassing of Halabja* (Cambridge, 2007), pp. 42–4.

(2) 'Talking Points for Amb. Rumsfeld's Meeting with Tariq Aziz and Saddam Hussein', 14 December 1983,

نقلًا عن:

B. Gibson, *Covert Relationship: American Foreign Policy, Intelligence and the Iran–Iraq War, 1980–1988* (Santa Barbara, 2010), pp. 111–12.

(٣) نقلاً عن:

Gibson, *Covert Relationship*, p. 113.

كان هـذا الإجـراء يهـدف أيضًـا إلى كسـب ثقـة العراقيين وصـدام، الذيـن أظهروا ريبة شـديدة في الولايات المتحدة ودوافعها، حتى بعد أن اتخذت الأخيرة كل هذه الخطوات[١]. وعندما أرسل الرئيس ريجـان مبعوثـه المتجول دونالد رامسـفيلد (Donald Rumsfeld) إلى بغـداد في نهاية عام ١٩٨٣، كان أحد الأهداف الصريحة للأخير هو «بدء حوار وإقامة علاقة شخصية» مع صدام حسين. وكما أوضحت ملحوظات رامسفيلد في إحاطته، فقد كان عليه طمأنة الزعيم العراقي بأن الولايات المتحدة «ستعد أي تغيير كبير في حظوظ العـراق بمثابة هزيمـة اسـتراتيجية للغرب»[٢]. وعُـدَّت مهمة رامسـفيلد ناجحة نجاحًا ملحوظًا، سواء من قبل الأمريكيين، أو حتى من قبل العراقيين. وفوق ذاك، كان ما جرى «تطورًا جيـدًا للغايـة» في رأي السـعوديين، الذين كانوا يشـعرون بالقلق أيضًا بشـأن تصدير الخميني للإسـلام الشيعي عبر الشرق الأوسط[٣].

وكان التوافق مع العراق مهمًّا للغاية؛ حتى إن واشنطن كانت مستعدة للتغاضي عن استخدام صدام الأسـلحة الكيميائية؛ حيث ذكر أحد التقارير أن اسـتخدامها كان حدثًا «شبه يومي»[٤]. ويجب أن تُبذل الجهـود لـردع العراقييـن عن ذلك، ولكـن على انفراد، من أجـل «تجنب مفاجأة غير سـارة للعراق من خـلال المواقـف العامـة»[٥]. ولوحـظ أيضًا أن انتقاد اسـتخدام الأسـلحة الكيماوية (المحظـورة حظرًا صارمًا بموجب بروتوكول جنيف لعام ١٩٢٥) من شـأنه أن يمنح إيران انتصارًا دعائيًا، ولن يفعل شـيئًا لتهدئة التوترات. وسعت الولايات المتحدة إلى وقف تصدير شحنات المواد الكيميائية المستخدمة في تصنيع غاز الخردل (Mustard gas) إلى العراق، وضغطت بشـدة على العراقيين لإثنائهم عن اسـتخدام المواد الكيميائية في ساحة المعركة، ولا سيما بعد أن شكت إيران العراق إلى الأمم المتحدة رسميًا في أكتوبر ١٩٨٣[٦].

---

(1) H. Brands and D. Palkki, 'Conspiring Bastards: Saddam Hussein's Strategic View of the United States', *Diplomatic History* 36.3 (2012), 625–59.

(2) 'Talking Points for Ambassador Rumsfeld's Meeting with Tariq Aziz and Saddam Hussein', 4 December 1983,

نقلًا عن:

Gibson, *Covert Relationship*, p. 111.

(3) Gibson, *Covert Relationship*, pp. 113–18.

(4) Admiral Howe to Secretary of State, 'Iraqi Use of Chemical Weapons', 1 November 1983,

نقلًا عن:

Gibson, *Covert Relationship*, p. 107.

(٥) نقلاً عن:

Z. Fredman, 'Shoring up Iraq, 1983 to 1990: Washington and the Chemical Weapons Controversy', *Diplomacy & Statecraft* 23.3 (2012), 538.

(٦) أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٥٤٠، الذي يدعو إلى إنهاء العمليات العسـكرية، إلا أنه لم يذكر شيئًا عن الأسلحة الكيميائية. ووفقًا لأحد كبار مسؤولي الأمم المتحدة، أراد الأمين العام، خافيير بيريز =

ومع ذلك، حتى عندما اتضح أن العراق استخدم الغازات السامة ضد إيران في سياق هجوم بدر عام ١٩٨٥، لم يُذكَر شيء حاسم علنًا، اللهم إلا تلك التصريحات التي صدرت على استحياء، وتقضي بأن الولايات المتحدة نفسها تشجب استخدام الأسلحة الكيماوية بشدة[1]. ومع ذلك، كان من المحرج للغاية -كما أشار أحد كبار المسؤولين الأمريكيين- أن تكون القدرة الإنتاجية للعراق في هذا الصدد «مستندة إلى الشركات الغربية، على نحو أساسي، بما في ذلك شركة أجنبية ربما تكون تابعة للولايات المتحدة». ولم يستغرق الأمر الكثير لإدراك أن هذه القرينة قد تثير أسئلة مزعجة حول التواطؤ الأمريكي في حيازة صدام للأسلحة الكيماوية واستخدامها[2].

وبمرور الوقت، أُسقِطت حتى التعليقات العامة البسيطة، والتوسلات الخاصة إلى كبار المسؤولين العراقيين بشأن الأسلحة الكيماوية. ففي منتصف الثمانينيات، خلصت تقارير الأمم المتحدة إلى أن العراق كان يستخدم الأسلحة الكيميائية ضد مواطنيه المدنيين، وردت الولايات المتحدة على تلك التقارير بالتزام الصمت المطبق. وكانت تخلفها عن إدانة تحركات صدام الوحشية والمتواصلة ضد السكان الأكراد في العراق واضحًا. لقد لوحظ ببساطة في التقارير العسكرية الأمريكية أن «العوامل الكيميائية» كانت تُستخدم على نطاق واسع ضد أهداف مدنية. لقد كان العراق بالنسبة للولايات المتحدة أكثر أهمية من مبادئ القانون الدولي، بل وأهم من الضحايا أنفسهم[3].

وبالمثل، لم تنبس الولايات المتحدة ببنت شفة، فضلًا عن أن تفعل شيئًا- لتقليص البرنامج النووي في باكستان بفضل القيمة الإستراتيجية المتزايدة للبلاد في أعقاب الغزو السوفيتي لأفغانستان. لقد جاءت حقوق الإنسان -في جميع أنحاء العالم- في المرتبة الثانية بعد المصالح الأمريكية. وهكذا لم تتعلم الولايات المتحدة شيئًا من دروس إيران ما قبل الثورة. نعم لم تسع الولايات المتحدة إلى تأييد السلوك السيئ بالتأكيد، ولكن كان من المحتم أن يكون هناك ضرر يحيق بسمعتها، وثمن يجب أن تدفعه مقابل دعمها للزعماء الديكتاتوريين، وأولئك المستعدين لإساءة معاملة شعوبهم، أو الذين كان في نيتهم استفزاز جيرانهم[4].

= دي كويار (Javier Pérez de Cuéllar)، النظر في هذه المسألة، «فواجه جوًّا كالصقيع في القطب الجنوبي؛ إذ لم يكن مجلس الأمن يريد النظر في هذا الأمر».

Hiltermann, *A Poisonous Affair*, p. 58.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

Gibson, *Covert Relationship*, pp. 108–9.

(1) Fredman, 'Shoring up Iraq', 539.

(2) 'Iraqi Use of Chemical Weapons', in Gibson, *Covert Relationship*, p. 108.

(3) Fredman, 'Shoring Up Iraq', 542.

(4) A. Neier, 'Human Rights in the Reagan Era: Acceptance by Principle', *Annals of the American Academy of Political and Social Science* 506.1 (1989), 30–41.

١

ومما يجري مجرى ذلك تلك المساعدة التي قدمتها للثوار في أفغانستان الذين عارضوا الغزو السوفيتي والذين عُرفوا جميعًا في الصحافة الغربية باسم «المجاهدين»، أي أولئك المنخرطين في الجهاد. والحق أنهم كانوا مجموعة متنوعة، مؤلفة من القوميين، والضباط السابقين في الجيش، والمتدينين المتطرفين، وزعماء القبائل، والانتهازيين، والمرتزقة. كما كانوا أيضًا، خصومًا -أحيانًا- نافس بعضهم بعضًا على المجندين والمال، والسلاح، بما في ذلك آلاف القطع من البنادق شبه الآلية، والآر بي جي ٧ (RPG-7) (وهي قاذفات القنابل الصاروخية) التي قدمتها وكالة الاستخبارات المركزية منذ أوائل عام ١٩٨٠، من خلال باكستان غالبًا.

وعلى الرغم من التفكك التنظيمي، أثبتت مقاومة المجاهدين للقوة العسكرية السوفيتية أنها مزعجة، ومستمرة، ومحبطة للمعنويات. وأصبحت الهجمات الإرهابية سمة أساسية للحياة في المدن الكبرى، وعلى طول طريق سالانج السريع (Salang highway)، والطريق الممتد جنوبًا من أوزبكستان إلى هرات وقندهار، وكان الشريانين الرئيسين اللذين ضخَّا القوات والمعدات من الاتحاد السوفيتي إلى أفغانستان. وأشارت التقارير -التي أُرسلت إلى موسكو- إلى الارتفاع المقلق في عدد الحوادث العدائية، فضلًا عن صعوبة تحديد الجناة؛ فقد صدرت تعليمات للمجاهدين -كما ورد في إحدى المذكرات- بالاندماج مع الأهاليْ حتى لا يسع الروس اكتشافهم[١].

وكان النجاح المتزايد للمجاهدين الأفغان مثيرًا للإعجاب. ففي عام ١٩٨٣، على سبيل المثال، نجحت غارة قادها جلال الدين حقاني -وكان أحد قادة المجاهدين- في الاستيلاء على دبابتين من طراز تي ٥٥ (T-55)، إلى جانب معدات اشتملت على مدافع مضادة للطائرات، وقاذفات صواريخ، ومدافع هاوتزر (Howitzers) التي عمل على حمايتها في وكر من الأنفاق بالقرب من خوست، على مقربة من الحدود الباكستانية. ثم باتت تُستخدَم في شن الضربات على القوافل التي تمر على طول الطرق السريعة المكشوفة، الأمر الذي وفر أدوات دعائية لا تقدر بثمن، وأقنعت الأهالي أن أنف الاتحاد السوفيتي العظيم يمكن أن يلطخ بالدماء[٢].

وأحبطت انتصارات مثل هذه القوات السوفيتية التي ردت بوحشية. وكتب بعض المراقبين عن «التعطش للدماء»، والرغبة العارمة في الانتقام بعد رؤية الزملاء والرفاق يسقطون بين قتيل وجريح. وكانت الأعمال الانتقامية مروعة، حيث قُتل الأطفال، واغتُصِبت النساء، واشتُبه في كل مدني على أنه مجاهد. وأدى ذلك إلى حلقة مفرغة، حيث انجذب المزيد والمزيد من الأفغان إلى دعم المجاهدين[٣].

---

(1) Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 201–2, and M. Bearden and J. Risen, *Afghanistan: The Main Enemy* (New York, 2003), pp. 227, 333–6.

(2) Braithwaite, *Afgantsy*, p. 214; D. Gai and V. Snegirev, *Vtorozhenie* (Moscow, 1991), p. 139.

(3) Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 228–9.

وكتب أحد المعلقين قائلًا: من قبيل الواقعي أن يدرك القادة السوفيت أن المطرقة الثقيلة للجيش الأحمر لم تستطع كسر جوزة العدو المراوغ، وغير المنسق[1].

وأثار بأس المجاهدين إعجاب الولايات المتحدة، حيث لم يعد احتواء التوسع السوفيتي في أفغانستان هو الهدف؛ بل تحول الحديث بحلول أوائل عام ١٩٨٥ إلى هزيمة الاتحاد السوفيتي، وطرد السوفيت من البلاد تمامًا[2]. وفي مارس، وقع الرئيس ريجان على قرار الأمن القومي التوجيهي رقم ١٦٦ (National Security Decision Directive 166) الذي ينص على أن «الهدف النهائي لسياسة [الولايات المتحدة] هو إخراج القوات السوفيتية من أفغانستان». وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف، أضاف التوجيه أنه بات من الضروري «تحسين الفعالية العسكرية للمقاومة الأفغانية»[3]. وسرعان ما اتضح معنى هذا؛ إنه تصعيد جذري في كمية السلاح التي كانت الولايات المتحدة تزود بها المتمردين. وأثار القرار نقاشًا مطولًا حول ما إذا كان ينبغي أن يشتمل ذلك على صواريخ ستينجر (Stinger missiles)- وهي منصات إطلاق محمولة مخيفة قادرة على إسقاط الطائرات على مدى ثلاثة أميال كاملة، وبدقة أكبر بكثير من غيره من الأسلحة الأخرى التي كانت متاحة آنئذ[4].

وكان المستفيدون من السياسة الجديدة رجالًا مثل: جلال الدين حقاني، الذي أثار بلاؤه ضد السوفيت، وتدينه الشديد إعجاب عضو الكونجرس الأمريكي تشارلي ويلسون (Charlie Wilson) -الذي أصبح لاحقًا موضوعًا لفيلم هوليوود الشهير حرب تشارلي ويلسون *Charlie Wilson's War* (٢٠٠٧) - ليصفه بأنه «تجسيد للخير». ونظرًا لقدرته على الوصول إلى أجهزة أكثر وأفضل، تمكن جلال الدين من بناء معقله الخاص في جنوب أفغانستان، وتعززت آراؤه المتشددة بالنجاح العسكري الذي أصبح ممكنًا بسبب تدفق الأسلحة الأمريكية عليه بعد عام ١٩٨٥. ولا يعني هذا أن جلال الدين كان يشعر بأي نوع من الولاء لـ الولايات المتحدة. بل الحق، أنه كان ماض في طريقه ليصبح شوكة في جنبها؛ فبعد ١١ سبتمبر أصبح حقاني ثالث أكثر المطلوبين في أفغانستان[5]. ودعمت الولايات المتحدة نحو خمسين من هؤلاء القادة، ودفعت لهم ما تراوح بين ٢٠ ألف و١٠٠ ألف دولار، شهريًا اعتمادًا على النتائج والحالة.

(1) Ibid., p. 223.

(2) J. Hershberg, 'The War in Afghanistan and the Iran–Contra Affair: Missing Links?', *Cold War History* 3.3 (2003), 27.

(3) National Security Decision Directive 166, 27 March 1985, National Security Archive.

(4) Hershberg, 'The War in Afghanistan and the Iran–Contra Affair', 28;

وانظر أيضًا:

H. Teicher and G. Teicher, *Twin Pillars to Desert Storm: America's Flawed Vision in the Middle East from Nixon to Bush* (New York, 1993), pp. 325–6.

(5) Braithwaite, *Afgantsy*, p. 215.

كما كانت هناك موجة من الأموال القادمة من السعودية لدعم المجاهدين، وذلك نتيجة تعاطف السعودية مع الخطاب الإسلامي المتشدد الذي كانت المقاومة تستخدمه من جهة، والرغبة في مساعدة المسلمين المضطهدين من جهة أخرى. وكان السعوديون -الذين اتبعوا ما أملته عليهم ضمائرهم وذهبوا للجهاد في أفغانستان- موضع تقدير كبير من المجاهدين. وتمتع رجال مثل أسامة بن لادن بصلات جيدة، واضطلعوا بدور بارز، ومثير للإعجاب على الصعيد الشخصي. لقد كانوا في وضع مثالي للعمل بوصفهم قنوات لضخ مبالغ كبيرة من المال التي كان المحسنون السعوديون يتبرعون بها؛ وأدت قدرتهم على جلب هذه الموارد إلى جعلهم شخصيات مهمة داخل حركة المجاهدين نفسها على نحو حتمي[1]. إلا أن أهمية هذا أيضًا ما كانت لتتضح إلا بأَخَرة.

وكان للدعم الصيني للمقاومة تداعيات طويلة المدى. فقد أعلنت الصين معارضتها للغزو السوفيتي منذ البداية؛ حيث رأت فيه سياسة توسعية لها عواقب وخيمة. وكانت خطوة الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٧٩ «تهديدًا للسلام والأمن في آسيا، والعالم بأسره»، وفقًا لإحدى الصحف اليومية الصينية التي كانت تصدر في ذلك الوقت؛ ولم تكن أفغانستان الهدف الحقيقي للسوفيت، الذين كانوا يعتزمون استخدام البلد بوصفه «نقطة انطلاق للتوجه جنوبًا نحو باكستان، وشبه القارة الهندية برمتها» ببساطة[2].

وتوددت بكين أيضًا إلى أولئك الذين قاوموا الجيش السوفيتي، وزودتهم بالسلاح، بأحجام أخذت في الزيادة على نحو مطرد في الثمانينيات. والحق، أن القوات الأمريكية لما استولت على قواعد طالبان والقاعدة في تورا بورا (Tora Bora) في عام ٢٠٠١، اكتشفت مخزونًا كبيرًا من قاذفات القنابل الصاروخية الصينية، وقاذفات الصواريخ متعددة الأسطوانات، إلى جانب الألغام والبنادق التي أُرسلت إلى أفغانستان قبل عقدين من الزمن. كما جندت الصين أيضًا -في خطوات ندمت عليها لاحقًا- مسلمي الأويغور في شينجيانغ ودربتهم، قبل أن تساعدهم على التواصل مع المجاهدين وتسهل لهم طريق الانضمام إليهم[3]. وأثبت التطرف في غرب الصين أنه يمثل مشكلة منذ ذلك الحين.

وهكذا ساعدت عناية القوى الخارجية بالمجاهدين على تكثيف عمليات مقاومة الجيش الأحمر، وألفى السوفيت أنفسهم يتراجعون، ويتكبدون خسائر فادحة في المعدات، والقوى العاملة، والمال؛ فقد شهد شهر أغسطس من عام ١٩٨٦، تفجير ما يقدر بنحو ٤٠,٠٠٠ طن من الذخيرة، بقيمة ٢٥٠ مليون دولار تقريبًا، في مكب للأسلحة خارج كابول. ثم كان هناك نجاح صواريخ ستينجر الأمريكية

(1) Coll, *Ghost Wars*, pp. 161–2, 71–88.

(2) *Beijing Review*, 7 January 1980.

(3) M. Malik, *Assessing China's Tactical Gains and Strategic Losses Post-September 11* (Carlisle Barracks, 2002),

نقلًا عن:

S. Mahmud Ali, *US–China Cold War Collaboration: 1971–1989* (Abingdon, 2005), p. 177.

التي أسقطت ثلاث مروحيات حربية من طراز مي ٢٤ (MI-24) بالقرب من جلال آباد في عام ١٩٨٦، وأثبتت فعاليتها حتى إنها غيرت الطريقة التي استُخدم بها المجال الجوي في أفغانستان، فقد اضطر الطيارون السوفيت إلى تعديل أنماط هبوطهم، بينما كان يجري تنفيذ الطلعات الجوية ليلًا على نحو متزايد، لتقليل فرص إسقاط الطائرات بهذه الصواريخ[١].

* * *

بدت الآفاق وردية -من منظور واشنطن- في منتصف عام ١٩٨٠. لقد بُذلت جهود كبيرة لتهذيب صدام حسين وبناء جسور الثقة مع العراق. وأخذ الوضع في أفغانستان يتحسن؛ حيث اضطرت القوات السوفيتية إلى اتخاذ أوضاع دفاعية؛ وفي الأخير، خرجت من البلاد تمامًا بحلول مستهل عام ١٩٨٩. ومن جميع الزوايا، لم تنجح الولايات المتحدة في صد محاولات موسكو لتوسيع نفوذها وسلطتها في وسط آسيا فحسب، بل تمكنت أيضًا من بناء شبكات جديدة خاصة بها، وبرهنت على أنها تستطيع التكيف مع الوضع متى جد الجد. لقد كان من العار أن تظل العلاقات بين واشنطن وطهران متردية على هذا النحو الذي كانت عليه، وذلك نظرًا إلى «الأهمية التاريخية والجيواستراتيجية لإيران»، حسبما جاء في إحدى وثائق الاستخبارات التي كُتبت في ربيع عام ١٩٨٥[٢]. والحق أن إيران كانت في العام السابق مصنفة رسميًّا بوصفها «دولة راعية للإرهاب»، الأمر الذي كان يعني أن هناك حظرًا شاملًا على الصادرات والمبيعات المتعلقة بالسلاح، وضوابط صارمة على التقنيات والمعدات ذات الاستخدام المزدوج، فضلًا عن مجموعة من القيود المالية والاقتصادية.

وكان من المؤسف بالفعل -كما أشار تقرير آخر كُتب في الوقت نفس تقريبًا- أن الولايات المتحدة «ليس لديها أوراق لتلعب بها» في تعاملاتها مع إيران. وربما كان من المفيد التفكير في «سياسة أكثر جرأة - وربما أكثر خطورة»، كما اقترح واضع التقرير[٣]. وكان هناك الكثير من المكاسب لكلا الجانبين، فمع تقدم الخميني في العمر ومرضه، أبدت واشنطن حرصًا على معرفة الجيل القادم من القادة الذين سيرتقون إلى مناصب السلطة. ووفقًا لبعض التقارير، فقد كان هناك «فصيل معتدل» في السياسة الإيرانية كان حريصًا على التواصل مع الولايات المتحدة، والتقارب معها. وكان من شأن التعامل مع هؤلاء المعتدلين المساعدة في بناء علاقات قد تُثبت قيمتها مستقبلًا. كما كانت هناك آمال علقتها واشنطن على إيران فيما تعلق بالمساعدة في تأمين الإفراج عن الرهائن الغربيين الذين اختطفهم إرهابيو حزب الله في لبنان في أوائل عام ١٩٨٠[٤].

---

(1) Braithwaite, *Afgantsy*, pp. 202–3.

(٢) نقلاً عن:

Teicher and Teicher, *Twin Pillars to Desert Storm*, p. 328.

(3) 'Toward a Policy in Iran', in *The Tower Commission Report: The Full Text of the President's Special Review Board* (New York, 1987), pp. 112–15.

(4) H. Brands, 'Inside the Iraqi State Records: Saddam Hussein, "Irangate" and the United States', *Journal of Strategic Studies* 34.1 (2011), 103.

ومـن منظـور إيـران أيضًـا، بـدت هنـاك عوامل جذابـة لنهج أكثـر إيجابية، فـكان تطـور الوضع في أفغانسـتان -حيـث تتوافـق المصالح الإيرانيـة والأمريكية توافقًـا دقيقًا- بداية واعـدة، وعلامة على أن التعـاون ليس ممكنًا فحسـب، بل قد يكون مثمرًا لكلا الطرفيـن كذلك. وفوق ذاك، أبدت إيران حرصًا على المضي قدمًا في تحسين العلاقات لأسباب أخرى، أخصها وجود أكثر من مليوني لاجئ فروا عبر الحـدود منـذ عـام ١٩٨٠. ولم يكن من السـهل استيعاب تدفقهم إلى البلاد، الأمر الـذي كان يعني أن القيادة في طهران ربما كانت أكثر استعدادًا لتكوين صداقات قد تعمل على التقليل من الاضطرابات في جميع أنحاء المنطقة[1]. وفي غضون ذلك، كانت إيران تجد صعوبة في الحصول على العتاد العسكري في وقت استمر فيه قتالها العنيف مع العراق. وعلى الرغم من تحول المد لصالحها، وعلى الرغم أيضًا من عمليات شـراء الأسـلحة المكثفة من السوق السـوداء، فإن تأمين السلاح وقطع الغيار من الولايات المتحدة نفسها بدا خيارًا أكثر جاذبية[2]. وعلى هذا النحو طُرحت مبادرات مبدئية لفتح قنوات الاتصال.

وكانـت الاجتماعـات الأولية رتيبة، وصعبة، ومزعجة. وقدم الأمريكيون -الذين عقدوا العزم على كسـب ود الإيرانيين- ما كُشـف النقاب عنه -بأخرة- على أنه «معلومات اسـتخباراتية بعضها حقيقي، وبعضهـا الآخـر مضلـل» حـول النوايا السـوفيتية تجـاه إيران، مـع التركيز علـى المخططـات الإقليمية المفترضـة للاتحاد السـوفيتي في أجـزاء من البلاد في المقام الأول، وذلك فـي إطار محاولة رمت إلى إقناع إيران أن للتوافق مع الولايات المتحدة فوائد واضحة[3]. ومع تقدم المناقشات، تدفقت المعلومات حول الأمور التي كانت ذات أهمية خاصة للولايات المتحدة، مثل الجدارة القتالية للمعدات السوفيتية. لقد كان الأمريكيون يتابعون مثل هذه الأمور باهتمام، ودفعوا بالفعل ٥٠٠٠ دولار لقاء الحصول على بندقيـة هجوميـة مـن طـراز أك ٧٤ (AK-74) اسـتولي عليهـا المجاهـدون في أفغانسـتان بعيـد دخولها الخدمة في الجيش السـوفيتي[4]. واسـتمع الأمريكيون باهتمام إلى شهادات المقاتلين الأفغان في تقييم مزايـا، وقيـود، ونقاط ضعف دبابة تي ٧٢ (T-72) والطائـرة المروحية الهجومية من طراز مي ٢٤ (MI-24) «كروكوديل Krokodil»؛ وعلموا باستخدام السوفيت المكثف للنابالم وغيره من الغازات السامة. واسـتمعوا أيضًا إلى آراء المجاهدين في قوات سبيتسـناز (Spetsnaz) الخاصة العاملة في جميع أنحاء البـلاد؛ حيـث أشـادوا بهـا وبـلائها. وربمـا كان ذلـك نتيجة للتدريـب الأفضل الذي تلقتـه هذه القوات مقارنة بجنود الجيش الأحمر النظاميين[5]. وقدم هذا كتابًا تمهيديًا ثمينًا كُتب بعد عقدين.

---

(1) H. Emadi, *Politics of the Dispossessed: Superpowers and Developments in the Middle East* (Westport, CT, 2001), p. 41.

(2) Hershberg, 'The War in Afghanistan and the Iran–Contra Affair', 30–1.

(3) Ibid., 35, 37–9.

(4) M. Yousaf and M. Adkin, *The Bear Trap* (London, 1992), p. 150.

(5) 'Memorandum of Conversation, 26 May 1986', *Tower Commission Report*, pp. 311–12; Hershberg, 'The War in Afghanistan and the Iran–Contra Affair', 40, 42.

وكان هناك تداخل طبيعي للمصالح بين إيران والولايات المتحدة. ومن ذلك تصريحات المفاوضين الإيرانيين بأن «الأيديولوجية السوفيتية تتعارض -على نحو مباشر- مع توجهات إيران»، وكان ذلك يوازي المواقف الأمريكية تجاه الشيوعية، والتي كان يسع الأمريكيين التعبير عنها بعبارات قاطعة. كما كان تقديم الاتحاد السوفيتي دعمًا عسكريًا كبيرًا للعراق في هذا التوقيت أمرًا حاسمًا أيضًا. وقال أحد كبار الشخصيات خلال المناقشات إن «السوفيت يقتلون الجنود الإيرانيين»[1]. وهكذا لم تنتقل إيران والولايات المتحدة من كونهما عدوين لدودين إلى صديقين حميمين في غضون بضع سنوات، بيد أنهما أبدتا استعدادًا قويًا لنبذ الخلافات ظهريًا، والعمل سويًا على تحقيق هدف مشترك. وكانت هذه المحاولة لرسم مسار عبر وسط من الخصومات بين القوى العظمى سياسة كلاسيكية، كان يمكن التعرف عليها على الفور من خلال ممارسات أجيال السابقة من الدبلوماسيين والقادة الإيرانيين.

وبدأت الولايات المتحدة -حرصًا منها على توطيد العلاقة مع إيران- في شحن الأسلحة إلى طهران في انتهاك قانوني لحظرها، بل وفي تعارض مع ضغطها على الحكومات الأجنبية بعدم بيع السلاح لطهران كذلك. وعارض بعض المسؤولين الأمريكيين هذا التطور، وعلى رأسهم وزير الخارجية جورج شولتز (George Shultz)، الذي أشار إلى أن المبادرة قد تُفضي إلى انتصار إيراني، ومن ثم «دفعة جديدة من الطاقة لمناهضة أمريكا في جميع أنحاء المنطقة»[2]. وكان هناك آخرون يرون بالفعل أنها تخدم المصالح الأمريكية؛ حيث تستنفد إيران والعراق كل منهما طاقة الآخر. وصرح ريتشارد مورفي (Richard Murphy) -وكان أحد نواب شولتز- في جلسات استماع بالكونجرس قبل عام أن «انتصار [إيران أو العراق] لا يمكن تحقيقه عسكريًا، ولا نرغب فيه من الناحية الاستراتيجية»، وهي المشاعر التي تردد صداها في تعليقات كبار مسؤولي البيت الأبيض[3].

وأُرسلت الشحنة الأولى المكونة من ١٠٠ قطعة من نظام صاروخي موجه بالأنابيب، ومتعقب بصريًا، وموجه سلكيًا من طراز تو (TOWs)، في صيف عام ١٩٨٥. وشُحنت الأسلحة عبر وسيط أبدى حرصًا على بناء روابط مع طهران، أعني إسرائيل بالطبع[4]. في أوائل القرن الحادي والعشرين

---

(١) نقلاً عن:

Hershberg, 'The War in Afghanistan and the Iran–Contra Affair', 39.

(2) S. Yetiv, *The Absence of Grand Strategy: The United States in the Persian Gulf, 1972–2005* (Baltimore, 2008), p. 57.

(3) E. Hooglund, 'The Policy of the Reagan Administration toward Iran', in Keddie and Gasiorowski, *Neither East nor West*, p. 190.

وعن أمثلة أخرى، انظر:

Brands, 'Inside the Iraqi State Records', 100.

(4) K. Woods, *Mother of All Battles: Saddam Hussein's Strategic Plan for the Persian Gulf War* (Annapolis, 2008), p. 50.

كان القادة الإيرانيون يدعون -مرارًا وتكرارًا- إلى «محو إسرائيل من على الخريطة»، لكن في منتصف عـام ١٩٨٠ كانـت العلاقات وثيقة للغاية؛ حتى إن رئيس الوزراء الإسـرائيلي إسـحاق رابين (Yitzhak Rabin) تجرأ على التصريح قائلًا: «إسرائيل هي أفضل صديق لإيران، ولا نعتزم تغيير موقفنا»(١).

ودان اسـتعداد إسـرائيل للمشاركة في برنامج التسـلح الأمريكي بالكثير إلى رغبتها في إبقاء العراق فـي وضـع يُجبر فيـه على تركيز انتباهه بقـوة على جارته الشـرقية، بدلًا من التفكير فـي اتخاذ إجراءات أخرى في مكان آخر. ومع ذلك، فقد كانت هناك حساسيات كبيرة فيما يتعلق بالترتيبات مع إيران. فقد تضمـن الاقتـراح الأمريكـي قيام إسـرائيل بشـحن ذخائر ومعـدات أمريكية إلى طهران، قبـل أن يجري تعويضهـا مـن قِبـل واشـنطن. ونتيجة لذلك، طلبـت الحكومة الإسـرائيلية تأكيدًا علـى أن المخطط قد صُدّق عليه من أعلى مستوى في الولايات المتحدة. وكان لها ما أرادت. والحق أن الخطة برمتها كانت تحظى بالموافقة المباشرة والشخصية من الرئيس ريجان نفسه(٢).

وهكذا تلقت إيران بين صيف عام ١٩٨٥ وخريف عام ١٩٨٦ عددًا كبيرًا من الشحنات الرئيسة من الولايات المتحدة، بما في ذلك أكثر من ٢٠٠٠ صاروخ من طراز تو (TOW)، وثمانية عشـر صاروخًا مضادًا للطائرات من طراز هوك (Hawk)، وشحنتين من قطع الغيار لأنظمة صواريخ هوك(٣). ولـم يجر تسـليم كل شـيء من خلال إسـرائيل؛ ذاك أنه لم يمض وقت طويل قبل أن يجري التسـليم بين الطرفين مباشـرة، على الرغم من أن الأجواء كانت أكثر تعقيدًا في أثناء هذه العملية؛ حيث اسـتُخدمت عائدات المبيعـات لتوفيـر الأموال لعصابات الكونترا (Contras) في نيكاراجوا. وكانـت واشـنطن تشـعر بالفزع -منذ أزمة الصواريخ الكوبية- من تمدد الشيوعية إلى أعتاب الولايات المتحدة، ومن ثم كانت حريصة علـى تمويـل مجموعـات ديناميكيـة قادرة علـى العمل بوصفهـا حصنًا فعـالًا ضد الخطاب والسياسة اليسـاريين، وتتجـاوز عـن عيوبهـا ونقائصهـا في صمـت. وكانت عصابـات الكونترا -وهـم فـي الواقع مجموعة فضفاضة من المتمردين، غالبًا ما يخوضون صراعًا شرسًا ضد بعضهم بعضًا- أحد المستفيدين الرئيسـيين من العقيدة الأمريكية المناهضة للشـيوعية، وعمى السياسـة الخارجيـة. وهكذا جرى تمرير المساعدات إلى قوى المعارضة في أمريكا الوسطى في صورة طبق الأصل لكيفية اختلاف الإجراءات الأمريكية الخاصة والعامة في الشرق الأوسط، على الرغم من التشريعات التي تمنع الحكومة الأمريكية تحديدًا من فعل ذلك(٤).

---

(1) B. Souresrafil, *Khomeini and Israel* (London, 1988), p. 114.

(2) *Report of the Congressional Committees Investigating the Iran–Contra Affair, with Supplemental, Minority, and Additional Views* (Washington, DC, 1987), p. 176.

(٣) عن مبيعات الأسلحة، انظر:

Report of the Congressional Committees Investigating the Iran–Contra Affair, passim.

(4) A. Hayes, 'The Boland Amendments and Foreign Affairs Deference', *Columbia Law Review* 88.7 (1988), 1534–74.

وبلغ السيل الزبى في نهاية عام ١٩٨٦، عندما كشفت سلسلة من التسريبات عما كان يجري خلف الأكمة، وهددت الفضيحة الناجمة بإسقاط الرئيس. وفي ١٣ نوفمبر (تشرين الثاني)، توجه الرئيس ريجان لإلقاء خطاب عبر موجات الأثير -في وقت الذروة- على مستوى البلاد حول «مسألة حساسة للغاية، ومهمة للغاية تتعلق بالسياسة الخارجية». لقد كانت لحظة فارقة بين النجاح أو الإخفاق، وتطلبت استخدام كل مواهب الرئيس وسحره الكبير[1] لنفض اليد من الأمر برمته. وتعمد الرئيس في خطابه تجنب الاعتذار، أو اتخاذ موقف دفاعي؛ وأبدى حرصًا على التفسير فحسب. وعكست تعليقاته أهمية بلدان هذه المنطقة، وحاجة أمريكا إلى النفوذ فيها بأي ثمن.

وقال للمشاهدين الذين تملكهم الذهول: إن «إيران تشتمل على بعض الجغرافيا الأكثر أهمية في العالم». فهي تحول بين الاتحاد السوفيتي والمياه الدافئة للمحيط الهندي. وتوضح الجغرافيا سبب إرسال الاتحاد السوفيتي جيشًا إلى أفغانستان للسيطرة على ذلك البلد، فإذا أمكن، فإيران وباكستان لاحقًا. وتمنح الجغرافيا إيران موقعًا حاسمًا يمكن للأعداء أن يتدخلوا من خلاله في تدفقات النفط القادمة من الدول العربية المطلة على الخليج العربي. وبصرف النظر عن الجغرافيا، فإن احتياطات النفط الإيرانية مهمة «لصحة الاقتصاد العالمي على المدى الطويل». ومن ثم فإن ذلك يبرر «نقل كميات صغيرة من الأسلحة الدفاعية وقطع الغيار». وقال - دون أن يحدد ما الذي أُرسل إلى طهران بالضبط تحديدًا دقيقًا: «إن هذه الشحنات المتواضعة مجتمعة، يمكن أن تستوعبها طائرة شحن واحدة بسهولة». وكل ما كان يحاول فعله هو تحقيق «نهاية مشرفة للحرب الدموية التي دامت ست سنوات» بين إيران والعراق، «للقضاء على الإرهاب الذي ترعاه الدولة، وتحقيق العودة الآمنة لجميع الرهائن»[2].

لم يفعل هذا الأداء الكثير لتجنب الانشقاق المذهل في واشنطن؛ حيث انتشر خبر بيع الولايات المتحدة السلاح لإيران فيما بدا وكأنه صفقة تجارية مباشرة لإعادة الرهائن الأمريكيين بين الناس انتشار النار في الهشيم. وأصبحت الأجواء أكثر سُمية عندما تبين أن أولئك المنخرطين عن كثب في فضيحة إيران-كونترا كانوا يمزقون الوثائق التي كانت شاهد الإثبات على الإجراءات السرية وغير القانونية التي أذن بها الرئيس نفسه. ومثل ريجان أمام لجنة عُيِّنت للتحقيق في القضية، حيث دافع عن نفسه بأن ذاكرته لم تعد تسعفه في الآونة الأخيرة، وأنه لا يذكر ما إذا كان قد أذن ببيع الأسلحة لإيران أم لا. وفي مارس (آذار) من عام ١٩٨٧، ألقى خطابًا متلفزًا آخر، عبّر فيه -هذه المرة- عن غضبه بشأن «الأنشطة التي تمت دون علمي»، وهو تصريح سرعان ما اصطدم بالحقيقة الناصعة، كما أشار إلى ذلك ريجان نفسه عندما قال: «قبل بضعة أشهر، أخبرت الشعب الأمريكي أنني لا أبادل الأسلحة بالرهائن.

---

(١) إيماءة من المؤلف لقدرات الرئيس رونالد ريجان (١٩٨١-١٩٨٩) بوصفه ممثلاً، ووجهًا سينمائيًا مألوفًا في هوليود قبل أن يصبح الرئيس الأربعين للولايات المتحدة. (المترجم)

(2) 'Address to the Nation on the Iran Arms and Contra Aid Controversy', 13 November 1986, *PPPUS: Ronald Reagan, 1986*, p. 1546.

ومـازال قلبـي وأطيـب النوايا الحسـنة يخبراني بـأن هذا حق، بيـد أن الحقائق والأدلـة تخبرني بخلاف ذلك»[١].

وكان لهـذه الاكتشـافات المحرجـة عواقب عميقة فـي إدارة ريجان؛ حيث وُجِّهـت لاحقًا اتهامات لمجموعة من كبار الشخصيات بتهم تراوحت من التآمر، إلى الحنث باليمين، إلى حجب الأدلة. وكان مـن بيـن أولئك المتهمين وزيـر الدفاع كاسـبار واينبرجـر (Caspar Weinberger). وروبرت مكفارلين (Robert McFarlane) مستشار الأمن القومي، وخليفته جون بويندكستر (John Poindexter). وإليوت أبرامـز (Elliott Abrams)، مسـاعد وزيـر الخارجيـة لشـؤون البلـدان الأمريكيـة؛ ومجموعـة مـن كبار الضبـاط فـي وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة، بمـن فيهـم كليـر جـورج (Clair George)، نائـب مديـر العمليات. وأظهرت تلك القائمة من الرجال المرموقين المدى الذي كانت الولايات المتحدة مستعدة للذهاب إليه من أجل تأمين موقعها في قلب العالم[٢].

وكذلك حقيقة أن التهم لم تكن أكثر من مجرد ذر للرماد في العيون؛ ذاك أن كل هذه الشـخصيات البارزة قد نالت فيما بعد عفوًا رئاسيًّا من الرئيس جورج هـ. و. بوش (الأب) (George H. W. Bush)، أو ألغيت إداناتهم عشية عيد الميلاد عام ١٩٩٢. لقد كانت «الوطنية القاسم المشترك لدوافعهم، سواء عُـدَّت أفعالهـم صحيحـة أم خاطئـة»، كما جاء فـي بيان العفو. واسـتطرد الرئيس قائـلًا: إن التأثير على شـؤونهم الماليـة الشـخصية ومهنهم وعائلاتهم جاء «مبالغًـا فيه -بإزاء أي أفعال سـيئة، أو أخطاء ربما أدينـوا بارتكابهـا- كل المبالغـة»[٣]. وكان عدد كبيـر من الذين جرى العفو عنهم قـد أدينوا بالفعل بتهم تراوحـت بيـن الحنث باليمين إلى حجب المعلومات عن الكونجرس، في حين كان من المقرر أن تبدأ محاكمة واينبرجر بعد أسـبوعين لاحقًا. لقد كانت تلك الحالة حالة كلاسـيكية من الحالات التي تبدي فيـه العدالـة مرونـةً، وكذلك الحديث عـن الغايات التي تبرر الوسـائل. بيد أن تداعيـات تلك الفضيحة تجاوزت طريق واشنطن بيلتواي (Washington Beltway)[٤] إلى مسافة أبعد كثيرًا.

* * *

شعر صدام حسين بالغضب عندما تسربت أنباء تعاملات الولايات المتحدة مع إيران، في وقت كان العراق يعتقد فيه أنه يحظى بدعم واشنطن ضد جارته وخصمه اللدود. وفي سلسلة من الاجتماعات التي

(1) 'Address to the Nation on the Iran Arms and Contra Aid Controversy', 4 March 1987, *PPPUS: Ronald Reagan, 1987*, p. 209.

(2) L. Walsh, *Final Report of the Independent Counsel for Iran/Contra Matters*, 4 vols (Washington, DC, 1993).

(3) G. H. W. Bush, 'Grant of Executive Clemency', Proclamation 6518, 24 December 1992, *Federal Register* 57.251, pp. 62145–6.

(٤) طريـق سـريع محيطـي، يُطـوق العاصمة واشـنطن، ويسـتخدم كثيرا على نحـو مجازي مـن قِبل كثير مـن الكتاب للإشارة إلى الحكومة الفيدرالية. (المترجم)

عُقدت مباشرة بعد أول خطاب متلفز لـ ريجان في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦ لمناقشة ما قاله الرئيس، تحدث صدام عن كيف مثلت مبيعات الأسلحة «طعنة [مُشينة] في الظهر» وكيف وضع سلوك الولايات المتحدة تعريفًا جديدًا للانحطاط «والسلوك الدوني وغير الأخلاقي»[١]. وخلص إلى أن الولايات المتحدة صممت على «إراقة المزيد من الدماء [العراقية]»[٢]. واتفق آخرون على أن ما كُشف النقاب عنه ما هو إلا غيض من فيض، وأن ما خفي أعظم. وعلق أحد المسؤولين الكبار -بعد أسابيع قليلة- على أنه كان من المحتم أن تستمر الولايات المتحدة في التآمر ضد العراق؛ لقد كان هذا نموذجًا للقوى الإمبريالية، كما أقر نائب رئيس الوزراء طارق عزيز[٣]. وكان الغضب والشعور بالخيانة ملموسين، ويمكن سماع صوت يتوسل على الأشرطة الصوتية التي جُلبت من بغداد -بعد أكثر من عشرين عامًا لاحقًا- وهو يقول: «لا تثقوا في الأمريكيين؛ الأمريكيون كذابون؛ لا تثقوا في الأمريكيين»[٤].

لقد كلفت فضيحة إيران جت وظائف في واشنطن، إلا أنها لعبت دورًا حاسمًا في تطوير عقلية الحصار في العراق في منتصف الثمانينيات. وبات صدام ومسؤوليه -الذين خذلتهم الولايات المتحدة- يرون المؤامرات تُحاك في كل مكان آنذاك. وبدأ الزعيم العراقي يتحدث عن الطابور الخامس، ويقطع رقابهم متى وجدهم. وشرعت الدول العربية الأخرى التي كانت علاقاتها مع إيران أو الولايات المتحدة حميمة في النظر إلى تلك العلاقات بريبة عميقة فجأة. وهكذا أصبح صدام مقتنعًا بعد فضيحة إيران جت بأنه «لا يمكن الوثوق بواشنطن، وأنها كانت تسعى لرأسه شخصيًا» كما خلص تقرير أمريكي رفيع المستوى لاحقًا[٥].

ولم يكن الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تلعب على الحبلين بلا أساس؛ لقد كان الأمريكيون مستعدين لتكوين صداقات مع الشاه، وها هم يحاولون توطيد العلاقات مع نظام آية الله الخميني. وجرى تقديم دعم عسكري واقتصادي كبير لمجموعة بغيضة من الشخصيات في أفغانستان على أساس الخصومة الطويلة الأمد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتي فحسب. بل ضمت الولايات المتحدة صدام في أحضانها وكان يرتجف من البرد عندما كان ذلك مناسبًا لصانعي السياسة في

---

(١) اجتماع مجلس الوزراء بشأن الحرب العراقية الإيرانية، منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦، و«اجتماع صدام حسين مع مسؤولي حزب البعث، أوائل عام ١٩٨٧.

وتجد كليهما في: Brands, 'Inside the Iraqi State Records', 105.

(٢) جميع العبارات المنسوبة إلى صدام حسين بين علامتي تنصيص، إنما هي ترجمة للعبارات الإنجليزية التي وردت في الأصل الإنجليزي منسوبة إلى الرجل. ولما لم أهتد إلى أصلها العربي ترجمتها على الإنجليزية بالكيفية نفسها التي وردت في الأصل. فلينتبه (المترجم)

(٣) اجتماع صدام حسين مع مسؤولي حزب البعث، أوائل عام ١٩٨٧. نقلاً عن:

Brands, 'Inside the Iraqi State Records', 112–13.

(4) Ibid., 113.

(5) *Comprehensive Report of the Special Advisor to the Director of Central Intelligence on Iraq's Weapons of Mass Destruction*, 3 vols (2004), 1, p. 31; Brands, 'Inside the Iraqi State Records', 113.

واشنطن، إلا أنهم ضحوا به بعد ذلك عندما لم يعد ذلك خيارًا مناسبًا لهم. لم يكن وضع المصالح الأمريكية أولًا هو المشكلة في حد ذاته؛ بل كانت القضية أن إدارة السياسة الخارجية على النمط الإمبراطوري تطلبت لمسة أكثر حذرًا، إضافة إلى تفكير أكثر شمولًا في العواقب بعيدة المدى. ومع ذلك ففي كل حالة -في أواخر القرن العشرين- كانت الولايات المتحدة تعقد الصفقات، وتبرم الاتفاقيات اعتمادًا على اللحظة الراهنة، وتحل مشاكل اليوم دون أن تبدي أدنى قلق بشأن الغد، من أجل السيطرة على البلدان في طرق الحرير. وأحيانًا كانت تُرسي دعائم مشكلات أكثر صعوبة؛ فها قد تحقق هدف طرد السوڤيت من أفغانستان؛ بيد أن الأمريكيين لم يشغلوا أنفسهم بالتفكير فيما قد يحدث بعد ذلك كثيرًا.

وكان الواقع الصارخ للعالم الذي أوجدته الولايات المتحدة واضحًا للغاية في العراق في أواخر الثمانينيات والتسعينيات. لقد بذل المسؤولون الأمريكيون -الذين شعروا بالحرج- قصارى جهدهم بعد كارثة إيران جيت من أجل «استعادة المصداقية مع الدول العربية»، كما ذكر وزير الدفاع[1]. وفي حالة العراق خاصةً، كان هذا يعني منح تسهيلات ائتمانية استثنائية كبيرة، وتطوير مبادرات لبناء التجارة، تضمنت تخفيف القيود المفروضة على التقنيات مزدوجة الاستخدام، وصادرات التقنية المتقدمة الأخرى، وتمويل القطاع الزراعي المتعثر في العراق. وكانت هذه كلها خطوات لمحاولة إعادة بناء الثقة مع صدام[2]. والحق، أنها فُهِمت على نحو مختلف تمامًا في بغداد. فعلى الرغم من أن الزعيم العراقي قبل الصفقات التي عُرضت عليه، فقد كان يعتقد أن هذه الصفقات إنما هي جزء من فخ آخر؛ فربما كانت مقدمة لهجوم عسكري، وربما كانت جزءًا من محاولة تصعيد الضغوط في وقت أصبحت فيه تسوية الديون المتراكمة خلال الحرب العراقية الإيرانية تمثل مشكلة راهنة.

وذكر السفير الأمريكي في بغداد أن العراقيين باتوا «على قناعة تامة بأن الولايات المتحدة... كانت تستهدف العراق؛ حيث كانوا يشتكون من ذلك طيلة الوقت... وأعتقد أن صدام حسين صدَّق ذلك حقًا»[3]. وفي نهاية عام ١٩٨٩، بدأت الشائعات تسري في أوساط القيادة العراقية بأن الولايات المتحدة تخطط لانقلاب ضد صدام حسين. وأخبر طارق عزيز وزير الخارجية الأمريكي، جيمس بيكر (James Baker)، على الفور أن العراق لديه دليل على أن الولايات المتحدة كانت تخطط للإطاحة بصدام[4]. لقد تطورت عقلية الحصار إلى جنون العظمة، حتى إنه بات من المحتمل أن يساء تفسير الخطوة التي يتخذها الأمريكيون بغض النظر عن ماهيتها.

---

(1) Colin Powell Notes of meeting 21 January 1987, Woodrow Wilson Center, *The Origins, Conduct, and Impact of the Iran–Iraq War*.

(2) Brands, 'Inside the Iraqi State Records', 112.

(3) D. Neff, 'The US, Iraq, Israel and Iran: Backdrop to War', *Journal of Palestinian Studies* 20.4 (1991), 35.

(4) Brands and Palkki, 'Conspiring Bastards', 648.

ولم يكن من الصعب فهم مخاوف العراق، ولا سيما عندما أُلغيت ضمانات القروض التي وعدت بها واشنطن فجأة في يوليو ١٩٩٠، بعد أن أخرج الكونجرس محاولات البيت الأبيض الرامية إلى تقديم الدعم المالي إلى بغداد عن مسارها. وزاد الطين بلة سحب ٧٠٠ مليون دولار من التمويل، ثم فرض عقوبات على استخدام العراق للغازات السامة في السابق. ومن منظور صدام، كانت هذه حالة من الحالات التي يعيد فيها التاريخ نفسه؛ إذ تعِد الولايات المتحدة بشيء، ثم تفعل نقيضه، وفي السرّ أحيانًا[1].

وبحلول ذلك الوقت، كانت القوات العراقية تحتشد جنوب البلاد. وقالت أبريل جلاسبي (April Glaspie) سفيرة الولايات المتحدة في بغداد، عندما التقت صدام حسين في ٢٥ يوليو (تموز) من عام ١٩٩٠: «ليس هذا من شأننا عادةً». وكشفت نسخة مسربة من لقاء السفيرة الأمريكية مع الرئيس العراقي -في واحدة من أكثر الوثائق إدانة في أواخر القرن العشرين- أنها أبلغت صدام بأن لديها «تعليمات مباشرة من الرئيس بوش (الابن) تقضي بتحسين علاقاتنا بالعراق»، مشيرة بإعجاب إلى «جهود صدام الاستثنائية لإعادة بناء بلاده». ومع ذلك، قالت جلاسبي للزعيم العراقي: «نعلم أنك بحاجة إلى المال».

لقد كان العراق يمر بأوقات عصيبة -كما اعترف صدام- الذي بدا «ودودًا، وعقلانيًا، بل وحميمًا أثناء الاجتماع»، وفقًا لمذكرة منفصلة نُشِرت بأخرة[2]. وأردف صدام قائلاً: إن التنقيب عن الغاز الزاوي، والنزاعات الحدودية طويلة الأمد، وانخفاض أسعار النفط، كلها عوامل مثلت مشكلات للاقتصاد، كما تراكمت الديون على البلاد خلال الحرب مع إيران. وقال: إن هناك حل واحد محتمل... السيطرة على مجرى شط العرب المائي، وهي المنطقة التي كان العراق طرفًا في نزاع طويل الأمد مع الكويت بشأنها، ومن شأن تلك السيطرة أن تساعد في حل بعض المشكلات الحالية. ثم سأل السفيرة الأمريكية قائلًا: «فما هو رأي الولايات المتحدة في هذا؟». فأجابته السفيرة قائلة: «ليس لنا رأي في خلافاتكم العربية-العربية، من قبيل خلافكم مع الكويت». ومضت قدمًا لتوضيح ما يعنيه قولها: «وجهني وزير الخارجية [جيمس] بيكر (James] Baker]) للتأكيد على التعليمات التي أعطيت للعراق لأول مرة في الستينيات، بأن أمريكا لا علاقة لها بقضية الكويت»[3]. وعلى هذا النحو طلب صدام الضوء الأخضر من الولايات المتحدة، وأعطته الولايات المتحدة طلبته بالفعل. وفي الأسبوع التالي، غزا صدام الكويت.

لقد ثبت بعد ذلك أن عواقب ذلك القرار جاءت وخيمة. فعلى مدار العقود الثلاثة المقبلة، هيمن ذلك الحدث على الشؤون العالمية في البلدان التي تمر عبر العمود الفقري لآسيا. ونجم عن الصراع

---

(1) Fredman, 'Shoring Up Iraq', 548.

(2) WikiLeaks. 90 BAGHDAD 4237.

(3) 'Excerpts from Iraqi Document on Meeting with US Envoy', *New York Times*, 23 September 1990.

من أجل السيطرة والنفوذ في هذه البلدان الحروب، والثورات، والإرهاب الدولي. بيد أن هذا لم يكن كل شيء، لقد نجم ذلك أيضًا عن ذلك الصراع الفرص والآفاق، ليس في إيران، والعراق، وأفغانستان فحسب، بل في حزام من البلدان الممتدة شرقًا من البحر الأسود، من سوريا إلى أوكرانيا، ومن كازاخستان إلى قيرغيزستان، وتركمانستان وصولًا إلى أذربيجان، ومن روسيا إلى الصين أيضًا. لطالما كانت قصة العالم تتمحور حول هذه البلدان. ولكن منذ أن غزا العراق الكويت، دار كل شيء حول ظهور طريق الحرير الجديد.



-٢٥-

الطريق إلى المأساة

أثار غزو الكويت عام ١٩٩٠ سلسلة استثنائية من الحوادث التي رسمت خطا فاصلًا بين أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. كان صدام قد أدهش البريطانيين ذات مرة بوصفه «شابًا أنيقًا، ذا ابتسامة جذابة» وليس من ذلك الطراز من الرجال الذين «يتصنعون المودة» لعدد كبير من زملائه؛ كما أنه يحب الحديث «المباشر دون مواربة». وخلص السفير البريطاني في بغداد في أواخر العقد السابع من القرن العشرين إلى أنه كان رجلًا «إذا كان بوسع المرء أن يرى المزيد منه، فسيكون من الممكن إبرام صفقات جيدة»[١]. ونظر إليه الفرنسيون على أنه الرجل الذي حظيت «قوميته واشتراكيته» بإعجاب الرئيس جاك شيراك (Jacques Chirac) الشديد. وكانت الولايات المتحدة أيضًا مستعدة للمراهنة عليه في أوائل الثمانينيات في محاولة لتحسين -ما أسماه دونالد رامسفيلد- «الموقف الأمريكي في المنطقة»[٢].

وقال صدام حسين لأقرب مستشاريه في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٠: إن الهجوم على الكويت كان شكلًا من أشكال الدفاع عن النفس في أعقاب فضيحة إيران جيت، وكشف اللثام عن التعامل ذي الوجهين من قبل الولايات المتحدة[٣]. بيد أن هذه لم تكن هي الطريقة التي نظر بها العالم إلى الأمر. وسرعان ما طُبِّقت العقوبات الاقتصادية في أعقاب الغزو، حيث طالبت الأمم المتحدة العراق بالانسحاب الفوري. ولما تجاهلت بغداد الضغوط الدبلوماسية المتصاعدة ببساطة، وُضِعت الخطط لحل الأمور على نحو حاسم. ففي ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، أذن الرئيس جورج بوش الأب

(1) Paul to Foreign & Commonwealth Office, 'Saddam Hussein al-Tikriti', 20 December 1969, FCO 17/871; 'Saddam Hussein', Telegram from British Embassy, Baghdad to Foreign and Commonwealth Office, London, 20 December 1969, FCO 17/871.

(2) 'Rumsfeld Mission: December 20 Meeting with Iraqi President Saddam Hussein', National Security Archive.

عن الفرنسيين وصدام، انظر:

C. Saint-Prot. *Saddam Hussein: un gaullisme arabe?* (Paris, 1987);

وانظر أيضًا:

D. Styan, *France and Iraq: Oil, Arms and French Policy Making in the Middle East* (London, 2006).

(3) 'Saddam and his Senior Advisors Discussing Iraq's Historical Rights to Kuwait and the US Position', 15 December 1990, in Woods, Palkki and Stout, *Saddam Tapes*, pp. 34–5.

(George H. W. Bush) باستخدام القوة العسكرية «وفقًا لمسؤولياتي وسلطتي بموجب الدستور -بوصفي رئيسًا وقائدًا أعلى للقوات المسلحة، وبموجب قوانين ومعاهدات الولايات المتحدة». لقد كانت هذه هي الجملة الافتتاحية للتوجيه الوطني (National Directive) الذي حمل رقم ٥٤، والذي أجاز استخدام القوة من قِبل «القوات العسكرية التقليدية: الجوية، والبحرية، والبرية الأمريكية، بالتنسيق مع قوات شركائنا في التحالف». ولم يشر التوجيه إلى العدوان العراقي، أو إلى انتهاك سيادة الكويت، أو القانون الدولي على نحو واضح. بل صرح الرئيس -في بيان حدد نغمة السياسة الخارجية الأمريكية على مدى العقود الثلاثة المقبلة- قائلًا: «الوصول إلى نفط الخليج العربي، وأمن الدول الصديقة الرئيسة في المنطقة أمر حيوي للأمن القومي للولايات المتحدة»[1]. لقد كان غزو صدام حسين للكويت تحديًا مباشرًا للقوة الأمريكية، والمصالح الأمريكية على حد سواء.

تبع ذلك هجوم طموح، شنته قوات جُمعت في تحالف واسع من الدول بقيادة الجنرال نورمان شوارزكوف (Norman Schwarzkopf) الذي ساعد والده في تأمين إيران للحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، ولعب دورًا ما في عملية أياكس (Operation Ajax)، التي أطاحت بمصدّق، ليس هذا فحسب، بل كان له دور أيضًا في تشكيل الـ «سافاك»، وقد علِمت أنه جهاز الاستخبارات الإيراني الذي أرهب الشاه به شعبه بين عامي ١٩٥٧-١٩٧٩ أيضًا. وعلى أية حال فقد استهدفت الضربات الجوية للحلفاء منشآت الدفاع، والاتصالات، والأسلحة الرئيسة. وفي غضون ذلك تقدمت القوات البرية في جنوب العراق والكويت في عملية عاصفة الصحراء. وكانت الرحلة مذهلة، بيد أنها كانت سريعة أيضًا. فبعد ستة أسابيع من بدء العمليات في يناير ١٩٩١، أعلن الرئيس بوش (الأب) وقف إطلاق النار، مشيرًا في خطاب تلفزيوني ألقاه في ٢٨ فبراير (شباط) إلى أن «الكويت باتت حرة. وهُزم الجيش العراقي. وحققنا أهدافنا العسكرية. وباتت الكويت في أيدي الكويتيين مجددًا، وهم يحددون مصيرهم». واستطرد قائلًا: إن هذا «ليس وقت الاحتفال، وبالتأكيد ليس وقت الشماتة». ثم أردف قائلًا: «ينبغي علينا الآن أن ننظر إلى ما هو أبعد من النصر والحرب»[2].

وارتفعت معدلات شعبية بوش (الأب)، فارتقت إلى القمة التي بلغها الرئيس ترومان يوم استسلام ألمانيا في عام ١٩٤٥[3]. وكان السبب في ذلك -جزئيًا- هو أن أهداف الحرب قد حُدِّدت بوضوح، وجرى تحقيقها سريعًا، ولحسن الحظ كان عدد الضحايا من قوات التحالف قليلًا. وكانت الولايات المتحدة قد استبعدت هدف الإطاحة بصدام نفسه، ما لم يستخدم الأخير «أسلحة كيميائية، أو بيولوجية،

(1) President George H. W. Bush, 'National Security Directive 54. Responding to Iraqi Aggression in the Gulf', 15 January 1991, National Security Archive.

(2) G. Bush, *Speaking of Freedom: The Collected Speeches of George H. W. Bush* (New York, 2009), pp. 196–7.

(3) J. Woodard, *The America that Reagan Built* (Westport, CT, 2006), p. 139, n. 39.

أو نوويـة»، أو يقـف خلـف هجمات إرهابية، أو يدمر حقول النفط الكويتية. فإن فعل: «يجب أن يصبح الهدف المحدد لـ«الولايات المتحدة هو أن تحل محل القيادة الحالية في العراق» على حد قول الرئيس بوش (الأب)[1].

وحظـي قـرار إنهاء العمل العسـكري -فـي أقرب فرصة- بإعجاب واسـع النطاق فـي جميع أنحاء العالـم العربـي وخارجـه. وعلى الرغم من حقيقة أن القـوات العراقية خربت عددًا كبيـرًا من آبار النفط الكويتية، وأشعلت فيها النيران، فإن التحالف غض الطرف عن ذلك. ونبع ذلك الموقف -جزئيًّا- من أنه سـاد شـعور بـأن التحرك صـوب العاصمة العراقية سـيكون «تغييـرًا للمهمة» غير مقبـول، كما كتب الرئيس في كتاب شـارك في تأليفه مع مستشـار الأمن القومي برنت سـكوكروفت (Brent Scowcroft) في أواخر التسـعينيات. وبصرف النظر عن اسـتعداء الحلفاء في العالم العربي وفي غيره أيضًا، فقد كان هناك اعتراف بأن تمديد الحرب البرية لتطال العراق نفسه، و«محاولة القضاء على صدام» كانا سيأتيان بثمن باهظ[2].

وصـدَّق ديـك تشـيني (Dick Cheney) -وكان وزير الدفاع- في خطاب ألقاه في معهد ديسـكفري (Discovery Institute) فـي عـام ١٩٩٢ علـى ذلك بقوله: «لقد اتخذنا قرارًا بعـدم الذهاب إلى بغداد؛ لأن ذلـك لـم يكـن جزءًا من هدفنا قط. ولـم يكن هذا ما وقعت عليـه [الولايات المتحدة]، ولـم يكن ما وقع عليه الكونجرس، ولـم يكن ما تشكل التحالف من أجله». واستطرد قائلًا: إن الولايات المتحدة لا تريد «التورط في مشـكلات محاولة السـيطرة على العراق وحكمه». واعترف بأن تنحية صدام سـتكون مهمـة صعبـة، «والسـؤال الـذي يدور فـي ذهني الآن: كم عـدد الضحايـا الأمريكييـن الإضافيين الذين يستحقهم صدام؟ إن عددًا كبيرًا من الناس سيكره سماع الجواب»[3].

وهكـذا كان الموقـف العـام هـو السـعي لاحتواء صـدام حسـين لا الإطاحة به. وعلـى الصعيد الشـخصي، كانـت هنـاك قصـة مختلفة؛ ففـي مايو (آيـار) ١٩٩١ -أي بعد أسـابيع قليلة من إعلان وقـف إطـلاق النار- وافـق الرئيس بوش (الأب) علـى خطـة «لتهيئة الظروف لعزل صدام حسـين مـن السـلطة». وفـي سـبيل تحقيـق ذلـك الهـدف، خُصـص مبلـغ كبيـر، ناهـز ١٠٠ مليـون دولار للعمليـات السـرية اللازمـة لتحقيق هذا الهـدف[4]. وانخرطـت الولايات المتحـدة منذ العقد الثالث

---

(1) President George H. W. Bush, 'National Security Directive 54. Responding to Iraqi Aggression in the Gulf'.

(2) G. Bush and B. Scowcroft, *A World Transformed* (New York, 1998), p. 489.

(٣) نقلاً عن:

J. Connelly, 'In Northwest: Bush–Cheney Flip Flops Cost America in Blood', *Seattle Post-Intelligencer*, 29 July 2004.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

B. Montgomery, *Richard B. Cheney and the Rise of the Imperial Vice Presidency* (Westport, CT, 2009), p. 95.

(4) W. Martel, *Victory in War: Foundations of Modern Strategy* (Cambridge, 2011), p. 248.

من القرن العشـرين، بنشـاط في دعم الأنظمة التي كانت تناسـب مصالحها الإسـتراتيجية الأوسـع. وهكـذا أظهـرت واشـنطن مجـددًا أنها مسـتعدة للنظر في تغييـر النظام من أجل فـرض رؤيتها على هـذا الجزء من العالم.

* * *

كان الطمـوح الممـزوج باسـتخدام القـوة من جانـب الولايـات المتحدة -آنـذاك- مدفوعًـا جزئيًّا بالتغيرات الجيوسياسـية العميقة التي شـهدتها السـنوات الأولى من عقد التسـعينيات. فقد انهار سـور برليـن قبيـل غـزو الكويـت، بل انهار الاتحاد السـوڤيتي نفسـه في الأشـهر التي أعقبت هزيمـة العراق. واسـتقال الرئيس ميخائيل جورباتشوف (Mikhail Gorbachev) من رئاسة الاتحاد السوڤيتي -في يوم عيـد الميـلاد عام ١٩٩١- وأعلن عن تفكك الاتحاد السـوڤيتي إلى خمس عشـرة دولة مسـتقلة. وقال الرئيـس بـوش (الأب) للكونجـرس بعد بضعة أسـابيع إن العالـم يشـهد «تغييـرات ذات أبعـاد كتابيَّة[١] تقريبًا. لقد انتصرت أمريكا في الحرب الباردة بفضل الله»[٢].

وفي روسـيا نفسـها، أججت العملية الانتقالية نيران معركة شرسـة اندلعت حول السـيطرة، وانتهت بأزمة دستورية أُقيل على إثرها الحرس القديم بعد أن قصفت دبابات الجيش البيت الأبيض في موسكو -وهـو مقـر الحكومة الروسـية- فـي عام ١٩٩٣. وكانت هـذه أيضًا فترة تحول كبير فـي الصين، حيث دخلـت الإصلاحـات التي أجراها دنج شـياو بينغ (Deng Xiaoping) -وغيره بعد وفاة ماو تسـي تونغ (Mao Zedong) في عام ١٩٧٦- حيز التنفيذ؛ حيث تحولـت البلاد من قوة إقليمية معزولة إلى قوة ذات طموحات اقتصادية، وعسكرية، وسياسية متصاعدة[٣]. وكانـت السياسات القمعية للفصـل العنصري في طريقها للزوال في جنوب إفريقيا أخيرًا. وبدت طبول الحرية، والسـلام، والازدهار في الدوي بصوت عالٍ وظافر.

وقال الرئيس بوش (الأب) في جلسـة مشـتركة لمجلس الشيوخ ومجلس النواب: إن العالم انقسم ذات يـوم إلـى قطبيـن. أما الآن فهنـاك «قوة واحدة بـارزة؛ الولايات المتحدة الأمريكيـة»[٤]، لقد انتصر

(١) يعني توراتية-إنجيلية. (المترجم)

(2) President Bush, 'Address before a Joint Session of the Congress on the State of the Union', 28 January 1992, *PPPUS: George Bush, 1992–1993*, p. 157.

(٣) عن انهيار الاتحاد السـوڤيتي، انظر:

S. Plokhy, *The Last Empire: The Final Days of the Soviet Union* (New York, 2014);

وعن الصين في هذه الحقبة، انظر:

L. Brandt and T. Rawski (eds), *China's Great Economic Transformation* (Cambridge, 2008).

(4) Bush, 'State of the Union,' 28 January 1992, p. 157.

الغرب. وكان تجاهل بعض الأبعاد الأخلاقية في العراق مُبرَّرًا عندما كان الهدف التبشيري السائد هو تسريع انتشار السمة المميزة للإمبراطورية الأمريكية وهبتها؛ أعني الديمقراطية.

واتبعت الولايات المتحدة سياسة غامضة وطموحة في الوقت نفسه، على مدار العقد الذي أعقب غزو الكويت. وكررت شعار تحرير الدول -مثل العراق- وتعزيز مفهوم الديمقراطية وممارستها مرارًا. بيد أنها سعت أيضًا بغيرة -وأحيانًا بوحشية- إلى حماية مصالحها في هذا العالم سريع التغير وتعزيزها، وذلك بغض النظر عن الثمن تقريبًا. ففي العراق، تضمن قرار الأمم المتحدة رقم ٦٨٧ -الذي صدر في أعقاب حرب الخليج- تدابير تتعلق بالسيادة الكويتية، بيد أنه طبق أيضًا عقوبات على «بيع أو توريد... السلع أو المنتجات بخلاف الأدوية، والمستحصرات الصحية»، مع استبعاد «المواد الغذائية» بالمثل[1]. وكانت هذه الإجراءات تهدف إلى فرض نزع السلاح، بما في ذلك إنهاء برامج الأسلحة البيولوجية والكيماوية، وفرض اتفاق يقضي بالاعتراف بسيادة الكويت. وكان التأثير مدمرًا مع فرض القيود الشاملة على الصادرات العراقية والمعاملات المالية، ولا سيما على الفقراء في هذا البلد. فقد أشارت التقديرات الأولية في مجلة لانسيت *Lancet* إلى أن نصف مليون طفل قضوا نحبهم بسبب سوء التغذية والمرض، نتيجة مباشرة لهذه السياسات في خمس سنوات فحسب[2]. وفي عام ١٩٩٦، أجرت ليزلي ستال (Leslie Stahl) مقابلة مع مادلين أولبرايت (Madeleine Albright)، سفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، في البرنامج التلفزيوني المسمى ٦٠ دقيقة *60 Minutes*؛ حيث ذكَّرتها بأن عدد الأطفال الذين لقوا حتفهم في العراق نتيجة للعقوبات يفوق عدد الضحايا من الأطفال في هيروشيما عام ١٩٤٥. فردت أولبرايت قائلة: «أظن أنه خيار صعب للغاية». ثم أردفت قائلةً: ومع ذلك «نظن أن الأمر يستحق ذلك»[3].

ولم تكن العقوبات هي الخطوات الوحيدة التي اتُّخِذت ضد العراق بعد وقف إطلاق النار. لقد فُرضت مناطق حظر طيران إلى الشمال من خط العرض ٣٦، وإلى الجنوب من خط العرض ٣٢ بُعيد الاتفاق على وقف إطلاق النار؛ حيث نفذت الطائرات الحربية الأمريكية، والفرنسية، والبريطانية دوريات اقتربت من ٢٠٠ ألف طلعة جوية مسلحة حامت فوق تلك المنطقة في التسعينيات[4]. وغطت مناطق حظر الطيران، أكثر من نصف الأراضي العراقية، وأقيمت -في الظاهر- لحماية الأقلية الكردية في الشمال والسكان الشيعة في الجنوب. وأظهر فرضها من جانب واحد -دون تفويض من مجلس

---

(1) UN Resolution 687 (1991), Clause 20.

(2) S. Zahdi and M. Smith Fawzi, 'Health of Baghdad's Children', *Lancet* 346.8988 (1995), 1485; C. Ronsmans et al., 'Sanctions against Iraq', *Lancet* 347.8995 (1996), 198–200.

والحظ أنه جرى تخفيض عدد الوفيات -لاحقًا- إلى رقم أقل. انظر:

S. Zaidi, 'Child Mortality in Iraq', *Lancet* 350.9084 (1997), 1105.

(3) *60 Minutes*, CBS, 12 May 1996.

(4) B. Lambeth, *The Unseen War: Allied Air Power and the Takedown of Saddam Hussein* (Annapolis, 2013), p. 61.

الأمن التابع للأمم المتحدة- أن الغرب مستعدٌّ للتدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وانتزاع زمام المبادرة بيده متى رأى ذلك مناسبًا[١].

وتجلى هذا -مجددًا- في عام ١٩٩٨، عندما وقع الرئيس كلينتون (Clinton) قانون تحرير العراق ليصبح «السياسة الرسمية للولايات المتحدة لدعم الجهود الرامية إلى إزاحة النظام بقيادة صدام حسين من السلطة في العراق، وتعزيز تشكيل حكومة ديمقراطية لتحل محل هذا النظام»[٢]. وأعلن كلينتون أيضًا أنه جرى توفير نحو ٨ ملايين دولار لـ«المعارضة الديمقراطية العراقية»، بهدف صريح، هو تمكين الأصوات المتنافرة المعارضة لصدام من «التوحّد [والعمل] معًا على نحو أكثر فعالية»[٣].

ولم تقتصر محاولات الولايات المتحدة وحلفائها على العراق للحصول على ما يريدون. بل اقترب الرئيس كلينتون من القيادة الإيرانية -على سبيل المثال- في محاولة لفتح حوار، وتحسين العلاقات التي تدهورت في أعقاب فضيحة «إيران جيت» وعقب كارثة إسقاط طائرة ركاب إيرانية عام ١٩٨٨ من قِبل الطراد الأمريكي يو إس إس ڤينسينز USS *Vincennes*. وعلى الرغم من أن المدى الكامل للأعمال الانتقامية التي قامت بها طهران ما يزال غير واضح، إلا أن عددًا كبيرًا من الأدلة يشير إلى وقوع سلسلة واسعة من الهجمات الإرهابية ضد أهداف أمريكية، وربما اشتمل ذلك الرد على إسقاط طائرة بان أمريكان ١٠٣ (Pan Am 103) فوق لوكربي في ديسمبر (كانون الأول ١٩٨٨). وكذلك تفجير قاعدة أمريكية بالقرب من الظهران في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦[٤].

وبعد أن أشار تحقيق أمريكي بقوة إلى تورط إيران في القضية الأخيرة، بعث الرئيس كلينتون برسالة احتجاج للرئيس خاتمي من خلال وسيط في أواخر التسعينيات. ورد الإيرانيون ردًّا قويًّا رافضين المزاعم الأمريكية بالتواطؤ الإيراني في مقتل تسعة عشر جنديًا، ووصفوها بأنها «غير دقيقة، وغير مقبولة». وفوق ذلك، أكد الرد على أن الولايات المتحدة تُرائي عندما تعلن عن غضبها من الهجمات الإرهابية؛ ذاك أنها لم تفعل شيئًا على الإطلاق «لمحاكمة المواطنين الأمريكيين المسؤولين

---

(١) لإلمامة عامة هنا، انظر:

C. Gray, 'From Unity to Polarization: International Law and the Use of Force against Iraq', *European Journal of International Law* 13.1 (2002), 1–19.

وانظر أيضًا في هذا الصدد:

A. Bernard, 'Lessons from Iraq and Bosnia on the Theory and Practice of No-Fly Zones', *Journal of Strategic Studies* 27 (2004), 454–78.

(2) Iraq Liberation Act, 31 October 1998.

(3) President Clinton, 'Statement on Signing the Iraq Liberation Act of 1998', 31 October 1998, *PPPUS: William J. Clinton, 1998*, pp. 1938–9.

(4) S. Aubrey, *The New Dimension of International Terrorism* (Zurich, 2004), pp. 53–6; M. Ensalaco, *Middle astern Terrorism: From Black September to September 11* (Philadelphia, 2008), pp. 183–6; =

عن إسقاط الطائرة المدنية الإيرانية، أو تسليمهم إلى إيران، مع أنه يسعها تحديد أسمائهم بسهولة»، ومنذ عقد من الزمن. ومع ذلك، فإن طهران أومأت إلى أن ثم بصيص من الأمل مستقبلًا، حيث جاء في ردها: إن الرئيس ينبغي أن يطمئن إلى أن إيران «ليس لديها نوايا عدائية تجاه الأمريكيين». بل الواقع، أن «الشعب الإيراني لا يحمل في صدره ضغينة للأمريكيين فحسب، بل إنه يحترم الشعب الأمريكي العظيم أيضًا»[1].

وقد تردد صدى هذه الخطوة قدمًا في أفغانستان، حيث فُتحت قنوات اتصال مع نظام طالبان المتطرف بعد أن أجرى المرشد الأعلى الملا عمر اتصالات -جرت من خلال وسيط- في عام ١٩٩٦. وكانت المؤشرات الأولى واعدة مجددًا؛ فقد قال أحد كبار قادة طالبان، وفقًا لتقرير سري للاجتماع الأول الذي أعدته السفارة الأمريكية في كابول، إن «طالبان تفكر كثيرًا بالولايات المتحدة». وفوق ذاك، فإن الدعم الذي قدمته واشنطن «أثناء الجهاد ضد السوفيت» لم يُنس بعد. و«تريد طالبان علاقات جيدة مع الولايات المتحدة» في المقام الأول[2]. ومنحت هذه الرسالة التصالحية أسبابًا للتفاؤل، وكذلك فعلت حقيقة أن الولايات المتحدة كان لديها اتصالات، وأصدقاء قدامى محليًا قد يفيدون في المستقبل. وكان أمير الحرب جلال الدين حقاني، واحدًا من هؤلاء الذخائر لوكالة الاستخبارات المركزية على المدى الطويل منذ الغزو السوفيتي؛ حيث أُشير إلى مواقفه الليبرالية -نسبيًا- تجاه السياسة الاجتماعية، وحقوق المرأة في مذكرة سلطت الضوء على أهميته المتزايدة داخل حركة طالبان[3].

وأبدت الولايات المتحدة اهتمامها بدور أفغانستان بوصفها منطقة ساخنة تؤوي المسلحين والإرهابيين في المقام الأول. وسيطرت طالبان على كابول خلال عام ١٩٩٦، الأمر الذي أثار قلقًا متزايدًا في البلدان المجاورة بشأن عدم الاستقرار الإقليمي المحتمل، وصعود الأصولية الدينية، واحتمال انجرار روسيا إلى منطقة كانت قد تراجعت عنها لتوها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

= عن هجوم الظهران، انظر على أية حال:

C. Shelton, 'The Roots of Analytic Failure in the US Intelligence Community', *International Journal of Intelligence and CounterIntelligence* 24.4 (2011), 650–1.

(1) Response to the Clinton letter, undated, 1999. Clinton Presidential Records, Near Eastern Affairs, Box 2962; Folder: Iran–US, National Security Archive.

وفيما يتعلق برسالة كلينتون، التي سلَّمها وزير خارجية عمان، انظر:

'Message to President Khatami from President Clinton', undated, 1999, National Security Archive.

(2) 'Afghanistan: Taliban seeks low-level profile relations with [United States government] – at least for now', US Embassy Islamabad, 8 October 1996, National Security Archive.

(3) 'Afghanistan: Jalaluddin Haqqani's emergence as a key Taliban Commander', US Embassy Islamabad, 7 January 1997, National Security Archive.

وجرى حصر هذه المخاوف في اجتماع رفيع المستوى ضم الشخصيات الفاعلة في طالبان في قندهار في أكتوبر ١٩٩٦. وحصل المسؤولون الأمريكيون على تأكيدات بأن معسكرات تدريب المقاتلين قد أُغلقت وأنه سيجري السماح بعمليات التفتيش لإثبات أن هذا هو ما جرى بالفعل. ورد مسؤولو طالبان -بمن فيهم الملا غوص، وكان وزير الخارجية الأفغاني بحكم الواقع- ردًّا مشجعًا عندما سُئل عن أسامة بن لادن، الذي كانت أنشطته مصدر قلق متزايد للاستخبارات الأمريكية. وربطت وكالة الاستخبارات المركزية بين ابن لادن والهجمات على الجنود الأمريكيين في الصومال في عام ١٩٩٢، وكذلك تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك في عام ١٩٩٣ و«إنشاء» شبكة من مراكز التجنيد ودور الضيافة التابعة للقاعدة في مصر، والمملكة العربية السعودية، وباكستان». وبحسب ما جاء في تقرير استخباراتي، فقد كان «أحد أهم الرعاة الممولين للأنشطة الإسلامية المتطرفة في العالم»[1].

وقال المسؤولون الأمريكيون للممثلين الأفغان: «سيكون مفيدًا إذا تمكنت طالبان من إخبارنا بمكان وجوده، وتأكدت من عدم قدرته على شن هجمات [إرهابية][2]». ورد المسؤولون الأفغان بأن ابن لادن «يقيم بين ظهرانينا بوصفه ضيفًا، ولاجئًا»، ومن ثم فإننا ملتزمون بـ«بإحسان وفادة الضيف، ومعاملته باحترام، وكرم» بما يتماشى مع ثقافة الباشتو. ثم أردفوا قائلين إن: «طالبان لن تسمح لأي شخص -أيًا كان- باستغلال أراضينا في أنشطة إرهابية». وعلى أية حال، فإن ابن لادن كان قد «وعد بأنه لن ينفذ [هجمات إرهابية]» في أثناء إقامته في أفغانستان. وفوق ذلك امتثل عندما لم تظهر طالبان ارتياحًا لإقامته في الكهوف جنوب جلال آباد بالقرب من تورا بورا، وطلبت منه «أن يخرج [و] وأن يعيش في منزل عادي»[3].

وعلى الرغم من أن هذا بدا مطمئنًا في الظاهر، إلا أنه لم يكن مؤكدًا كما أراد الأمريكيون، الأمر الذي أدى إلى تغيير مسار المفاوضات. فقد قال المسؤولون الأمريكيون لمبعوثي طالبان بشكل قاطع: «إن هذا الرجل أفعى». ثم أردفوا قائلين: «إن جميع البلدان، حتى الكبيرة والقوية مثل الولايات المتحدة، تحتاج إلى أصدقاء. [و] أفغانستان خاصةً بحاجة إلى أصدقاء». لقد كان إلقاء هذه القيلة، وعلى هذا النحو بمثابة طلقة تحذير؛ فكانت بمثابة تلميح إلى أنه ستكون هناك عواقب إذا وُجِد ابن لادن متورطًا في أي هجوم إرهابي آخر. وكان رد الملا رباني -وكان قياديًا بارزًا في حركة طالبان- واضحًا عندما كرر ما قيل من قبل. ونُقِل رده بأكمله في برقية أُرسلت إلى واشنطن؛ حيث استُنسِخت،

(1) 'Usama bin Ladin: Islamic Extremist Financier', CIA biography 1996, National Security Archive.

(٢) ما بين حاصرتين استدراك من المؤلف نفسه، على سبيل التوضيح ليس إلا، وكذلك الاستدراك بين حاصرتين في الفقرة نفسها بعد عدة أسطر. فلينتبه. (المترجم)

(3) 'Afghanistan: Taliban agrees to visits of militant training camps, admit Bin Ladin is their guest', US Consulate (Peshawar) cable, 9 January 1996, National Security Archive.

ثم نُقِلت إلى البعثات الأمريكية في إسلام آباد، وكراتشي، ولاهور، والرياض، وجدة، وجاء فيها: «في هذا الجزء من العالم، هناك عُرفٌ سائد، يقضي بأنه متى استجار أحد بنا، فتنبغي إجارته. ولكن إذا وُجد أشخاص ينفذون أنشطة إرهابية، فيمكنكم الإشارة إلى ذلك؛ كما أن لدينا مصادرنا، ولن نسمح لأحد بأن يقوم بهذه الأعمال القذرة»[1].

* * *

لم تُختبر هذه التأكيدات على نحو كامل، وكذلك لم تُحمَل على علاتها. فبحلول ربيع عام ١٩٩٨، كانت وكالة الاستخبارات المركزية تتوفر على إعداد خطة لاعتقال ابن لادن، تتضمن دعمًا وتعاونًا من «القبائل» في أفغانستان فيما وصفه المخططون بـ«عملية مثالية». وبحلول مايو (آيار) «كان التخطيط لتسليم [أسامة بن لادن] يسير على ما يرام». ووفقًا لتقرير -جرى تنقيحه بشدة- من قِبل وكالة الاستخبارات المركزية؛ جرى تطوير مخطط «مفصل، ومدروس، وواقعي»، ومع ذلك فلم يكن يخلو من مخاطرة. أما مسألة ما إذا كانت تلك الخطة ستحصل على التصديق، فتلك مسألة أخرى؛ كما قال أحد المعنيين: «إن احتمالات حصول الخطة على الضوء الأخضر [هي] ٥٠ بالمئة». وتبنى كبار الضباط بالجيش الأمريكي وجهة نظر أقل تفاؤلًا، فقد قيل إن قائد قوة دلتا (Delta Force) «لم يبد ارتياحًا» لتفصيلات الخطة. بينما اعتقد قائد العمليات الخاصة المشتركة أن خطة وكالة الاستخبارات المركزية كانت «دون المستوى»، وذلك على الرغم من وجود «مسودة نهائية متدرجة للعملية»، سارت على نحو جيد في البداية، ثم سُحِب المقبس فجأة، على حد وصفه[2].

وقبل أن تجري أية محاولة للتعامل مع ابن لادن على نحو حاسم، اتخذت الحوادث منعطفًا حاسمًا بغتةً؛ ففي ٧ أغسطس (آب) ١٩٩٨، نفذت القاعدة تفجيرات متزامنة لسفارتي الولايات المتحدة في نيروبي، ودار السلام، أكبر مدن كينيا وتنزانيا على الترتيب، الأمر الذي أسفر عن مقتل ٢٢٤ شخصًا وإصابة آلاف غيرهم. وتوجهت إصبع الاشتباه إلى ابن لادن على الفور.

واتخذت الولايات المتحدة إجراءات في غضون أسبوعين، حيث أطلقت ثمانية وسبعين صاروخًا من طراز كروز ضد أربع قواعد مشتبه بها لتنظيم القاعدة في أفغانستان. وقال الرئيس كلينتون في خطاب متلفز ألقاه في ٢٠ أغسطس (آب): «كان الإرهاب هدفنا. وكانت مهمتنا واضحة، وهي ضرب شبكة الجماعات المتطرفة المرتبطة بأسامة بن لادن، والذي قد يكون الرأس المدبرة، والممول البارز للإرهاب الدولي في العالم اليوم. وكان كلينتون في تلك المرحلة يعاني جراء فضيحة جنسية تعلقت بعلاقته بالمتدربة مونيكا لوينسكي (Monica Lewinsky)؛ وهي الفضيحة التي هددت بإبطال رئاسته.

(1) Ibid.

(2) *National Commission on Terrorist Attacks upon the United States* (Washington, DC, 2004), pp. 113-14.

وتطلبت أزمته إلقاء خطاب منفصل في التلفاز كان قد ألقاه قبل ثلاثة أيام. ولم يتشاور كلينتون مع طالبان قبل محاولته القضاء على العقل المدبر للمؤامرة. وفي محاولة منه لاستباق النقد، قال في إعلامه: «أريد أن يفهم العالم أن أفعالنا ليست ضد الإسلام». واستطرد الرئيس المحاصَر قائلًا: بل على النقيض من ذلك، فإن الإسلام «دين عظيم»[1].

وزاد الطين بلة أن محاولات التعامل مع أسامة بن لادن أخفقت، وأثارت عداوة حركة طالبان، التي أعربت -على الفور- عن غضبها العارم من الهجوم على الأراضي الأفغانية، وضد ضيف لم تثبت إدانته بالضلوع في الهجمات في شرق إفريقيا. وأعلن الملا عمر أن طالبان «لن تسلم ابن لادن أبدًا لأي جهة كانت، وستحميه بدمائنا مهما كان الثمن»[2]. وكان هناك تعاطف كبير مع ابن لادن وتطرفه في العالم العربي، كما أوضح ذلك أحد تقييمات الاستخبارات الأمريكية؛ حيث سارت رسالة «الظلم والإيذاء» للشعوب الإسلامية كتفًا بكتف مع الاعتقاد السائد بأن «السياسات الأمريكية تدعم أنظمة فاسدة... وقد وُضِعت بهدف تقسيم العالم العربي، وإضعافه، واستغلاله». وخلص التقرير إلى أن قلة هم الذين يؤيدون إرهاب ابن لادن، بيد أن «الكثيرين يشاركونه بعض مشاعره السياسية على الأقل»[3].

كانت هذه هي الآراء التي تبناها الملا عمر نفسه، الذي ذكر في مكالمة هاتفية رائعة أجراها مع وزارة الخارجية في واشنطن بعد ثلاثة أيام من الضربات الصاروخية: «إن الضربات ستؤدي إلى نتائج عكسية، وتثير مشاعر معادية لأمريكا في العالم الإسلامي». وفي سياق هذه المكالمة الهاتفية -التي رُفِعت عنها السرية مؤخرًا، وهي الاتصال المباشر الوحيد المعروف بين المرشد الأعلى الأفغاني والمسؤولين الأمريكيين- أشار الملا عمر إلى أن النظر بعين الاعتبار إلى «الصعوبات المحلية الحالية» التي يواجهها الرئيس كلينتون -في إلماحة إلى قضية لوينسكي- وكذلك «إعادة بناء شعبية الولايات المتحدة في العالم الإسلامي» في أعقاب الهجوم الأحادي الكارثي «تقتضي من الكونجرس أن يجبر الرئيس كلينتون على الاستقالة»[4].

---

(1) President Clinton, 'Address to the Nation', 20 August 1998, *PPPUS: Clinton, 1998*, p. 1461.

وقبل ثلاثة أيام، أدلى الرئيس بشهادته الشهيرة في البيان السابق الذي أدلى به:

«لم تكن لي علاقة جنسية مع تلك المرأة. والآنسة [مونيكا] لوينسكي» Miss [Monica] Lewinsky صادقة، وادعاؤها بأنه «لم تكن هناك علاقة جنسية، أو علاقة جنسية غير لائقة، أو أي نوع آخر من العلاقات غير السوية» صحيح، اعتمادًا على معنى كلمة «تكن».

Appendices to the Referral to the US House of Representatives (Washington, DC, 1998), 1, p. 510.

(2) 'Afghanistan: Reaction to US Strikes Follows Predictable Lines: Taliban Angry, their Opponents Support US', US Embassy (Islamabad) cable, 21 August 1998, National Security Archive.

(3) 'Bin Ladin's Jihad: Political Context', US Department of State, Bureau of Intelligence and Research, Intelligence Assessment, 28 August 1998, National Security Archive.

(4) 'Afghanistan: Taliban's Mullah Omar's 8/22 Contact with State Department', US Department of State cable, 23 August 1998, National Security Archive.

في غضون ذلك، ندد وكيل أحمد متوكل -وكان المتحدث باسم طالبان- بالضربات الأمريكية ووصفها بأنها هجوم على «الشعب الأفغاني برمته». وخرجت مظاهرات كبيرة مناهضة لأمريكا في قندهار وجلال آباد في أعقاب الهجوم؛ بحسب أحمد، الذي ناقش الهجمات مع المسؤولين الأمريكيين بعد ذلك بوقت قصير. وقال: «لو كان يسع [طالبان] أن ترد بضربات مماثلة ضد واشنطن، لما ترددت في ذلك»[1]. لقد كان الشعور بالخيانة والوجه المزدوج هو الذي يضر، لقد كان مثَل طالبان في ذلك مثَل صدام حسين عندما اكتشف أن الولايات المتحدة كانت تبيع أسلحة لإيران بينما كانت تدعي دعمها العراق؛ لقد بعثت الولايات المتحدة برسائل ودية من جهة، ثم تصرفت بوحشية من جهة أخرى.

وأعرب وكيل أحمد عن استيائه من تهافت الأدلة التي قدمها الأمريكيون بعد الضربات العسكرية الأمريكية. لطالما كانت قيادة طالبان واضحة في أنه إذا وُجِد ابن لادن مدانًا بتنفيذ أنشطة إرهابية من الأراضي الأفغانية، فسيجري اتخاذ إجراءات ضده[2]. والحق أن الملا عمر طلب من وزارة الخارجية تقديم الأدلة على الفور تقريبًا[3]. وقال مسؤول طالبان: إن بعض الناس يظن أن تلك الاتهامات ملفقة، بينما أشار آخرون إلى أن ابن لادن «كان ذات يوم مقاتلًا مدرَّبًا تدعمه الولايات المتحدة». وما قدمه الأمريكيون لم يكن أكثر من «بعض الأوراق» التي لا تشكل دليلًا. وكان شريط الفيديو المصوَّر الذي جرى تسليمه إلى طالبان، والذي كان من المفترض أن «يحتوي على شيء جديد» عن ابن لادن محرجًا، فقد كان بلا قيمة بوصفه دليلًا.

وقال أحمد: إن الهجوم عمل مشين، وأسفر عن مقتل أفغان أبرياء، فضلًا عن كونه انتهاك للسيادة الأفغانية. وخلص إلى أنه إذا كان الأمريكيون يريدون حقًّا حلًّا لمشكلة ابن لادن، فعليهم التحدث مع السعوديين. فإذا فعلوا، ستنتهي المشكلة في «دقائق وليس ساعات»[4]. ومن المفارقات أن هذا الاستنتاج نفسه جرى التوصل إليه بالفعل في الولايات المتحدة في سياق منفصل، في موجة من البرقيات الدبلوماسية، والأوراق البحثية، والتوصيات حول كسب الدعم في معرض الرياض[5].

وكانت تداعيات الضربات الأمريكية كارثية، كما أوضحت دراسة استخباراتية أمريكية رئيسة

(1) 'Osama bin Laden: Taliban Spokesman Seeks New Proposal for Resolving bin Laden Problem', US Department of State cable, 28 November 1998, National Security Archive.

(2) Ibid.

(3) 'Afghanistan: Taliban's Mullah Omar's 8/22 Contact with State Department', US Department of State cable, 23 August 1998, National Security Archive.

(4) Ibid.

(٥) انظر على سبيل المثال:

'Afghanistan: Tensions Reportedly Mount within Taliban as Ties with Saudi Arabia Deteriorate over Bin Ladin', US Embassy (Islamabad) cable, 28 October 1998; 'Usama bin Ladin: Coordinating our Efforts and Sharpening our Message on Bin Ladin', US Embassy (Islamabad) cable, 19 October 1998; 'Usama bin Ladin: Saudi Government Reportedly Turning the Screws on the Taliban on Visas', US Embassy (Islamabad) cable, 22 December 1998, National Security Archive.

حـول تهديـد القاعـدة كُتبت بعد نحو عام، وجـاء فيها أنه بصرف النظر عن حقيقـة أن محاولة القضاء على ابن لادن قد أخفقت، فقد أدى الهجوم إلى زيادة شـعبيته في كثير من دول العالم العربي، فضلًا عن غيره؛ ذاك أن تلك الهجمات أظهرته بصورة «المستضعَف الذي يقف بحزم في مواجهة العدوان المتنمر». وكانـت هناك مخاطر حقيقية فـي الإدراك المتزايد لـ«الغطرسـة الثقافية الأمريكية». وحذر التقرير من أن الهجوم الأمريكي «بات موضع تسـاؤل من الوجهة الأخلاقية»، وكان أشـبه بوجه مرآة معكوس لتفجيرات ابن لادن نفسـه؛ حيث تسـبب في سـقوط ضحايا أبرياء بسبب أجندة سياسية يُنظَر إليهـا علـى أنهـا تبـرر اسـتخدام القـوة، وكان ذلـك باعثًا علـى القلق أيضًـا. ومن ثم، فـإن «الضربات الانتقامية بصواريخ كروز... ربما ثبت في النهاية أن ضررها كان أكثر من نفعها». وأضاف التقرير أن علـى الولايـات المتحـدة أن تدرك أيضًا أن الغارات الجوية «تثير جولـة جديدة من مؤامرات القصف الإرهابي» على الأرجح[1].

* * *

أدى إخفاق التدخل الأمريكي إلى نتائج سيئة؛ حتى قبل حدوث تلك المؤامرات التي تحدث عنها التقرير؛ فقد أدى إلى تشدد الآراء داخل قيادة طالبان حول العالم الخارجي، مع ترسيخ الشكوك حول ازدواجية الغرب في التعامل. وتطورت عقلية الحصار التي عملت -بدورها- على تسريع وتيرة تطرف الآراء الدينيـة علـى نحـو متزايـد، بالإضافـة إلى الاهتمـام المتزايد بتصديـر علامتها التجارية للإسـلام الراديكالي على أساس عالمي، وذلك على الرغم من أن تقريرًا معاصرًا لوكالة الاستخبارات المركزية استبعد تمامًا أن يجري ذلك على نحو فعال[2].

ومـع ذلـك فقد سـاعد الضغط الأمريكي على جعـل الأصوات المحافظة تصبـح أكثر أصولية، فقد كان المـلا ربانـي -وكان نائب زعيم ورئيس مجلس شـورى كابول- يخشـى أن يـؤدي الإبقاء على ابن لادن في البلاد إلى تعميق العزلة الدولية لأفغانستان. وقد دحر الملا عمر هذا التيار؛ حيث كان سياسته المتشـددة تقضي بعدم التعاون مع الغرباء، أو الاستسـلام لهم. ونتيجة لذلك، اقتربت حركة طالبان من مقترحـات ابـن لادن العدوانيـة لتحريـر المسـلمين من قبضـة الغرب، وإعـادة عالم خيالـي متصور من القرون الوسطى[3].

---

(1) *Osama bin Laden: A Case Study*, Sandia Research Laboratories, 1999, National Security Archive.

(2) 'Afghanistan: Taleban External Ambitions', US Department of State, Bureau of Intelligence and Research, 28 October 1998, National Security Archive.

(3) A. Rashid, *Taliban: The Power of Militant Islam in Afghanistan and Beyond* (rev. edn, London, 2008).

كان هذا بالضبط هو الهدف من هجمات الحادي عشر من سبتمبر. فقد أشار تقرير استخباراتي كتب في عام ١٩٩٩ -بالفعل- إلى أن ابن لادن مصاب «بقدر كبير من الغرور، وتضخم الذات [ويرى] نفسه لاعبًا في مرحلة تاريخية كبيرة للغاية، وموغلة في القدم؛ فقد كان يرى نفسه يقاوم آخر الصليبيين على سبيل المثال»[1]. ومن الواضح تمامًا، أنه كان يذكر -في كل تسجيل صوتي ومرئي بثه في الناس بعد الهجوم على البرجين- الحروب الصليبية أو الصليبيين بوصفها نقاطًا مرجعية في خطابه. وغالبًا ما يختار الثوار استحضار ماضٍ مثالي، بيد أن قليلًا منهم ينظرون إلى الوراء ألف عام لاستلهام الأعمال الإرهابية وتبريرها.

وأشارت المعلومات الاستخباراتية في الأشهر التي سبقت ١١ سبتمبر، إلى التهديد المتزايد الذي باتت تشكله القاعدة. واتخذت مذكرة أُعدت للعرض على «الرئيس فقط» عنوانًا مشؤومًا «ابن لادن [كذا] مصمم على ضرب الولايات المتحدة 'Bin Ladin [sic] Determined to Strike in US'»، وهذه المذكرة مؤرخة بـ ٦ أغسطس (آب) ٢٠٠١، واستنتج فيها مكتب التحقيقات الفيدرالي -من خلال المعلومات التي جمعت من «نحو ٧٠ تحقيقًا ميدانيًا كاملًا» أجريت في جميع أنحاء الولايات المتحدة»- وجود «أنماط من النشاط المشبوه في هذا البلد بما يتفق مع استعدادات لارتكاب عمليات اختطاف، أو غيرها من ضروب الهجمات»[2]. وشعرت الولايات المتحدة بالتوتر الشديد في هذه الأثناء وحرصت على إبقاء الباب مفتوحًا أمام النظام في كابول، الأمر الذي كان باعثًا على اطمئنان طالبان بأن «الولايات المتحدة لا تقف ضد طالبان، في حد ذاتها [و]لم تقصد تدمير طالبان». وأن مشكلتها هي ابن لادن نفسه. ونصح دبلوماسيون أمريكيون في المنطقة بأنه إذا كان يسع تحييده، «فسيكون لدينا نوع مختلف من العلاقات»[3].

ولما لم يجر تحييد الرجل فقد أضحى من الواضح أن شيئًا ما كان يسير على نحو خاطئ بالكلية عندما أشارت عقارب الساعة إلى ٨:٢٤ صباح يوم ١١ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١. في هذا التوقيت كانت مراقبة الحركة الجوية تحاول الاتصال برحلة الخطوط الجوية الأمريكية رقم ١١ المتجهة من بوسطن إلى لوس أنجلوس لمدة ١١ دقيقة منذ أن طلبت من الطيارَيْن الارتفاع إلى ٣٥ ألف قدم. وعندما جاء الرد، بُهت المستمع؛ حيث جاء -صوت عبر الأثير- يقول: «لدينا بعض الطائرات. كن هادئًا فحسب، وستكون على ما يرام. سنعود إلى المطار»[4]. وفي الساعة ٨:٤٦ صباحًا بالتوقيت الشرقي، اصطدمت طائرة بوينج من طراز ٧٦٧ بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي. وفي الساعة ٩:١٧ ارتطمت ثلاث

(1) *Osama bin Laden: A Case Study*, p. 13.

(2) 'Bin Ladin Determined to Strike in US', 6 August 2001, National Security Archive.

(3) 'Searching for the Taliban's Hidden Message', US Embassy (Islamabad) cable, 19 September 2000. National Security Archive.

(4) *The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks upon the United States* (New York, 2004), p. 19.

طائرات ركاب أخرى مختطفة بأهداف مختلفة: فاصطدمت طائرة المتحدة ١٧٥ (United 175) بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي؛ وارتطمت طائرة أمريكان ٧٧ (American 77) بالبنتاجون؛ وتحطمت الطائرة يو اس (US 93) بالقرب من شانكسفيل (Shanksville)، بولاية بنسلفانيا[١].

وكانت المحصلة مقتل ٢٩٧٧ شخص في ١١ سبتمبر، إلى جانب ١٩ إرهابيًا. وكان التأثير النفسي للهجمات -التي أدت إلى انهيار البرجين التوأمين وتضرر مبنى البنتاغون- شديدًا. وكانت الأعمال الإرهابية التي ارتكبت ضد مباني السفارات، أو القوات الأمريكية في الخارج صادمة للغاية، بيد أن أثر الهجوم المنسق على أهداف داخل البلاد كان مدمرًا. وتطلبت اللقطات المؤرقة والمخيفة للطائرات التي كانت تتوجه عمدًا لتصطدم بالمباني، فضلًا عن مشاهد الكارثة، والفوضى، والمأساة التي حدثت في أعقاب ذلك استجابة فورية وملحمية. وقال الرئيس جورج و. بوش (الابن) في خطاب متلفز ألقاه مساء يوم الهجمات «ما زال البحث جار عن أولئك الذين يقفون وراء هذه الأعمال الشريرة. لقد وجهت الموارد الكاملة لمجمعات الاستخبارات، ووحدات إنفاذ القانون لدينا للعثور على المسؤولين عن هذه الهجمات وتقديمهم للعدالة. وحذر قائلًا: «لن نُفرق بين الإرهابيين الذين ارتكبوا هذه الأعمال، وبين من يؤوونهم»[٢].

وتدفقت عبارات الدعم من جميع أنحاء العالم، بما في ذلك من جهات غير متوقعة مثل: ليبيا، وسوريا، وإيران، التي أعرب رئيسها عن «أسفه العميق، وعن تعاطفه مع الضحايا»، مُضيفًا أن «محاولة تقويض الإرهاب تُعد واجبًا دوليًا»[٣]. وكان من الواضح أن ابن لادن كان يقف وراء تلك الهجمات، على الرغم من أن سفير طالبان في باكستان زعم أن ابن لادن ليس لديه الموارد اللازمة لتنفيذ مثل هذه «الخطة المنظمة تنظيمًا جيدًا»[٤]. وقال وكيل أحمد متوكل -لقناة الجزيرة القطرية في اليوم التالي للهجمات-: إن طالبان «تندد بهذا الهجوم الإرهابي، أيًا كان من يقف وراءه»[٥].

ووُضِعت استراتيجيات للتعامل مع ابن لادن في غضون ساعات من الهجمات. وحددت خطة العمل الصادرة صباح يوم ١٣ سبتمبر أهمية إشراك إيران، والاتصال بالسلطات في تركمانستان، وأوزبكستان، وقيرغيزستان، وكازاخستان، والصين -وهي دول الجوار لأفغانستان. ووُضِعت خطة

(1) Ibid., passim.

(2) President George W. Bush, Address to the Nation on the Terrorist Attacks, 11 September 2001, *PPPUS: George W. Bush, 2001*, pp. 1099–100.

(3) 'Arafat Horrified by Attacks, But Thousands of Palestinians Celebrate; Rest of World Outraged', Fox News, 12 September 2001.

(4) Statement of Abdul Salam Zaeef, Taliban ambassador to Pakistan, 12 September 2001, National Security Archive.

(٥) مقابلة مع قناة الجزيرة، ١٢ سبتمبر (أيلول)، ٢٠٠١.

«لإعادة تنشيطها» في غضون الأسبوع الذي يليه، بهدف الإعداد للعمل العسكري المرتقب ضد طالبان[1]. وهكذا كانت الخطوة الأولى من خطوات الاستجابة لأحداث ١١ سبتمبر هي محاذاة بلدان طرق الحرير.

وحظي أحد جيران أفغانستان باهتمام خاص من الولايات المتحدة. فقد كانت باكستان تتعاطف مع طالبان، وبينهما علاقات وثيقة تعود إلى جيل، إن لم يكن جيلين مضَيا. وقيل لرئيس الاستخبارات الباكستانية: إن الهجمات الإرهابية باتت تتطلب الآن اختيارًا صريحًا لإسلام آباد بين «أسود وأبيض ... وليس هناك لون رمادي». وهكذا انحصرت خيارات الدولة بين إحدى اثنتين: إما «الوقوف في صف الولايات المتحدة في حربها على الإرهاب، أو الوقوف ضدنا»[2].

ومع حشو الطلقات في البنادق، وجّه تحذير أخير مشؤوم لطالبان، على أن يجري تسليمه شخصيًّا إما من قِبل رئيس باكستان نفسه، أو من قبل رئيس جهاز أمنه. وجاء في هذا التحذير: «تقتضي مصلحتكم، ومصلحة بقائكم تسليم جميع قادة القاعدة، وإغلاق معسكرات الإرهابيين، والسماح بدخول الولايات المتحدة إلى المنشآت الإرهابية». وسيكون الرد «مدمرًا» إذا تورط «أي شخص، أو جماعة ارتبطت بأي شكل من الأشكال بأفغانستان» في هجمات إرهابية على الولايات المتحدة. وقالت الرسالة المقتضبة إن «كل ركن من أركان نظام طالبان سيجري تدميره»[3]. وهكذا كان الإنذار النهائي مؤكدًا وواضحًا: إما تسليم ابن لادن، أو تحمل العواقب.

أما عن جميع الجهود التي بُذلت لتعقب ابن لادن، وتدمير قدرات القاعدة، فقد كان هناك ما هو أكثر من المطاردة. فالحق أن الاهتمام في واشنطن سرعان ما تحول إلى الصورة الأكبر؛ أي السيطرة على مركز آسيا على نحو حاسم وسليم. وجادلت الأصوات المؤثرة بأن المطلوب هو إعادة تشكيل كاملة لبلدان هذه المنطقة؛ حيث ستتحسّن مصالح الولايات المتحدة، وأمنها على نحو جذري.

لقد كانت الولايات المتحدة تلعب النرْد مع الشيطان لعقود من الزمان. ولعقود من الزمان أيضًا، كانت تنظر إلى قلب آسيا على أنه مهم بالنسبة إليها على نحو فريد؛ حتى إنه أصبح من المعتاد الإشارة صراحة إلى هذه المنطقة بوصفها ذات صلة مباشرة بالأمن القومي للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. فقد جعلها موقعها بين الشرق والغرب حاسمة من الوجهة الاستراتيجية فيما يتعلق بتنافس القوى العظمى، في حين أن الموارد الطبيعية -وعلى رأسها النفط والغاز قبل أي مورد آخر- جعلت ما يحدث في دول الخليج وعند جيرانها المباشرين أمرًا مهمًّا حقًّا للأمن القومي للولايات المتحدة.

(1) 'Action Plan as of 9/13/2001, 7:55am', US Department of State, 13 September 2001, National Security Archive.

(2) 'Deputy Secretary Armitage's Meeting with Pakistani Intel Chief Mahmud: You're Either with Us or You're Not', US Department of State, 13 September 2001, National Security Archive.

(3) 'Message to Taliban', US Department of State cable, 7 October 2001, National Security Archive.

بحلول ٣٠ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١ -أي بعد ثلاثة أسابيع من فظائع ١١ سبتمبر (أيلول)- قدم وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، «أفكاره الاستراتيجية» للرئيس، ودارت حول ما يمكن للولايات المتحدة تحقيقه، أو ينبغي أن تسعى إلى تحقيقه في المستقبل القريب بوصفه جزءًا من «هدفها من الحرب». وأشار إلى أن «بعض الضربات الجوية ضد أهداف للقاعدة وطالبان من المقرر أن تبدأ قريبًا»، في إشارة إلى بدء ما أشار إليه بـ«الحرب». واستطرد قائلًا: إنه من المهم «إقناع الدول، أو إجبارها على التوقف عن دعم الإرهاب». بيد أن ما اقترحه بعد ذلك كان مثيرًا وطموحًا على نحو مذهل؛ حيث استطرد قائلًا: «إذا لم تغير الحرب الخريطة السياسية للعالم إلى حد كبير، فلن تحقق الولايات المتحدة هدفها». ثم شرع في توضيح ما يعنيه قوله هذا بجلاء: «يجب أن تتصور [حكومة الولايات المتحدة] هدفًا على هذا المنوال: أنظمة جديدة في أفغانستان، ودولة رئيسة أخرى (أو دولتين)»[١]. ولم تكن هناك حاجة إلى تحديد الدولة أو الدولتين اللتين كان يتحدث عنهما، لقد كانتا: إيران والعراق ببساطة.

وعلى هذا النحو غيرت هجمات الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) الطريقة التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع العالم ككل. واعتمد مستقبل أمريكا على تأمين العمود الفقري لآسيا، الممتد من الحدود الغربية للعراق مع سوريا وتركيا إلى هندوكوش. وصاغ الرئيس بوش (الابن) الرؤية على نحو قاطع في نهاية يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٢. وبحلول ذلك الوقت، جرى التعامل مع طالبان بشكل حاسم؛ حيث طُردوا من المدن الرئيسة، وعلى رأسها كابول، في غضون أسابيع من بدء عملية الحرية الراسخة (Operation Enduring Freedom)، والتي شملت هجمات جوية واسعة النطاق، وانتشارًا كبيرًا للقوات البرية. وعلى الرغم من أن ابن لادن كان حرًّا طليقًا لم يزل، فإن الرئيس أوضح في خطابه عن حالة الاتحاد (State of the Union) لماذا بات متعينًا على الولايات المتحدة أن تركز على أهداف أكثر طموحًا. لقد ظل عدد كبير من الأنظمة التي كانت في السابق معادية للمصالح الأمريكية «هادئة للغاية منذ ١١ سبتمبر، بيد أننا نعرف طبيعتها الحقيقية». وكانت كوريا الشمالية -الدولة المارقة بامتياز- إحدى هذه الدول. بيد أن التركيز الحقيقي كان على التهديد الذي مثلته دولتان أخريان: إيران والعراق. هاتان الدولتان، إلى جانب النظام في بيونج يانج، «كانت تشكل محور الشر (Axis of evil)، وهي تتسلح لتهديد سلام العالم». وكان تفكيك هذا المحور أمرًا بالغ الأهمية. وعقب الرئيس قائلًا: «حربنا على الإرهاب بدأت بداية مبشرة، إلا أنها بدأت للتو»[٢].

وكان التصميم على السيطرة ساحقًا، وأصبح الإطاحة بالأنظمة الحالية التي تعد مزعزعة للاستقرار وخطيرة أمرًا بالغ الأهمية في الفكر الاستراتيجي للولايات المتحدة وحلفائها. ومُنحت الأولوية للتخلص من الأخطار الواضحة والقائمة، مع إيلاء قليل من الاهتمام فيما يحدث، أو قد يحدث، أو

(1) 'Memorandum for President Bush: Strategic Thoughts', Office of the Secretary of Defense, 30 September 2001, National Security Archive.

(2) President Bush, State of the Union address, 29 January 2002, *PPPUS: Bush, 2002*, p. 131.

ينبغي أن يحدث بعد ذلك. وكان إصلاح المشكلات قصيرة الأجل أكثر أهمية من السيناريو طويل الأجل. وكان هذا واضحًا في الخطط الموضوعة المتعلقة بأفغانستان خاصة في خريف عام ٢٠٠١. ورأت ورقة صدرت بعد أن بدأت الضربات الجوية بالفعل أنه ينبغي «على [الحكومة الأمريكية] ألا تتألم من ترتيبات ما بعد طالبان». وكانت هزيمة القاعدة وطالبان أساسية؛ وما قد يحدث بعد ذلك قد يكون باعثًا على القلق، ولكن ليس الآن، بل لاحقًا[١].

وكان المدى القصير نفسه واضحًا في حالة العراق، حيث جرى التركيز بشدة على إزاحة صدام حسين من السلطة بإزاء الافتقار لخطط تُعنى بمستقبل البلاد. وكانت الرغبة في التخلص من صدام على جدول الأعمال منذ الأيام الأولى لإدارة بوش (الابن)؛ حيث طلب وزير الخارجية الجديد، كولن باول (Colin Powell)، توضيحًا بشأن «سياسة [أمريكا حول] تغيير النظام في العراق» بعد أقل من اثنين وسبعين ساعة من تنصيب جورج بوش (الابن)، وقبل أشهر من أحداث ١١ سبتمبر[٢]. وتحول الانتباه على الفور تقريبًا إلى صدام حسين في أعقاب الهجمات الإرهابية، ففي الوقت الذي بدا فيه أن القوات الأمريكية تسيطر على أفغانستان سيطرة تامة، كانت وزارة الدفاع تعمل جاهدة للاستعداد لتحرك كبير ضد العراق. وجاء السؤال بسيطًا -كما أوضحت ملحوظات التخطيط في لقاء جرى بين رامسفيلد والجنرال تومي فرانكس (Tommy Franks)، رئيس القيادة المركزية- لقد كان ذلك السؤال: «كيف [نبدأ]؟»[٣].

في تلك الأثناء جرى تصور ثلاثة محفزات محتملة، وكلها يمكن أن تبرر العمل العسكري. وتساءل دونالد رامسفيلد في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١، ربما «تحركات صدام ضد الأكراد في الشمال؟». ربما «صلته بهجمات ١١ سبتمبر (أيلول) أو بهجمات الجمرة الخبيثة (Anthrax attacks) (وهي رسائل بريدية بُعث بها إلى عدد كبير من وسائل الإعلام، وإلى اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في سبتمبر ٢٠٠١)؛ أو ماذا لو كان هناك «نزاع حول عمليات التفتيش على أسلحة الدمار الشامل WMD؟». وبدا هذا الخيط الأخير واعدًا، كما اتضح من التعليق التالي: «ابدأ من الآن بالتفكير في مطالب التفتيش»[٤].

وتصاعد الضغط على العراق خلال عام ٢٠٠٢ وبداية عام ٢٠٠٣، حيث احتلت قضية الأسلحة الكيماوية، والبيولوجية، وأسلحة الدمار الشامل الصدارة. وتابعت الولايات المتحدة هذا الأمر

---

(1) 'US Strategy in Afghanistan: Draft for Discussion', National Security Council Memorandum, 16 October 2001, National Security Archive.

(2) 'Information Memorandum. Origins of the Iraq Regime Change Policy', US Department of State, 23 January 2001, National Security Archive.

(3) 'Untitled', Donald Rumsfeld notes, 27 November 2001, National Security Archive.

(4) Ibid.

بحماسة إنجيلية. وفي غياب «دليل قابل للجدل» على وجود صلة بين بغداد وحوادث ١١ سبتمبر (أيلول)، أشار أحد التقارير إلى أنه يمكن الاعتماد على توني بلير (Tony Blair) وحده لدعم الحرب، وإن كان ذلك سيكون «بكلفة سياسية كبيرة»، بينما أكد تقرير آخر على حقيقة أن «لدى كثير من الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة أو الصديقة لها -إن لم يكن معظمها، خاصة في أوروبا- شكوكًا كبيرة حول... هجوم شامل على العراق»؛ لذلك انصرفت الأذهان إلى وضع إطار قانوني لحرب واسعة النطاق، تحسبًا لاحتمال رفض الأمم المتحدة منح تفويض واضح للولايات المتحدة بالعمل[1].

وجرى التركيز خاصة على بناء القضية القائلة: إن العراق لم يكن يخطط لصنع أسلحة دمار شامل فحسب، بل كان يفعل ذلك سرًا. كما أنه عرقل عمل المفتشين من الوكالة الدولية للطاقة الذرية International Atomic Energy Agency (IAEA) في الوقت نفسه. وتسبب هذا في مشكلات مع المفتشين أنفسهم في بعض الحالات؛ حيث ألفَوا مواقفهم إما مبالغ فيها، أو مفضوحة، أو حتى معرضة لخطر التفنيد بالكلية. ففي ربيع عام ٢٠٠٢، على سبيل المثال، أُطيح بـ خوسيه بستاني (Jose Bustani)، المدير العام البرازيلي لمنظمة حظر الأسلحة الكيميائية Organisation for the Prohibition of Chemical Weapons، عقب جلسة خاصة مغلقة- وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُطرد فيها رئيس منظمة دولية كبرى من منصبه[2]. وجرى إبراز المعلومات التي جمعت من مصادر غير موثوقة في كثير من الأحيان، وقُدّمت التكهنات على أنها حقائق، نتيجة تصميم مسبق أحادي المنظور كان يقضي بجعل القضية ضد العراق وصدام تبدو جامدة. وقال كولن باول أمام الأمم المتحدة في ٥ فبراير (شباط) ٢٠٠٣: «إن كل بيان أدلي به اليوم مدعوم بمصادر، ومصادر موثوقة. وما نقدمه ليس تأكيدات. بل حقائق واستنتاجات شيدتها أجهزة استخبارات قوية»[3].

ولم تكن الأدلة المزعومة شيئًا من هذا القبيل قط؛ فقبل أسبوع من خطاب باول، خلص تقرير صادر عن الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى أنه: «لم نعثر حتى الآن على دليل دامغ على أن العراق أعاد إحياء برنامج أسلحته النووية منذ بدأ العمل به في التسعينيات». وأضاف التقرير أن «مزيدًا من أنشطة التحقق [ستكون] ضرورية»[4]. وتزامن هذا مع تحديث صدر في نفس اليوم، ٢٧ يناير (كانون الثاني)

---

(1) 'Europe: Key Views on Iraqi Threat and Next Steps', 18 December 2001; 'Problems and Prospects of "Justifying" War with Iraq', 29 August 2002.

وكلا التقريرين صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب الاستخبارات، وتقييم الاستخبارات البحثية (Bureau of Intelligence and Research Intelligence Assessment).

National Security Archive. Lord Goldsmith to Prime Minister, 'Iraq', 30 July 2002; 'Iraq: Interpretation of Resolution 1441', Draft, 14 January 2003; 'Iraq: Interpretation of Resolution 1441', Draft, 12 February 2003, The Iraq Enquiry Archive.

(2) 'To Ousted Boss, Arms Watchdog Was Seen as an Obstacle in Iraq', *New York Times*, 13 October 2013.

(3) 'Remarks to the United Nations Security Council', 5 February 2003, National Security Archive.

(4) 'The Status of Nuclear Weapons in Iraq', 27 January 2003, IAEA, National Security Archive.

٢٠٠٣، بمعرفة هانز بليكس (Hans Blix)، رئيس لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقق والتفتيش (أنموفيك United Nations Monitoring, Verification and Inspection Commission (UNMOVIC)، الذي ذكر أنه على الرغم من أن المفتشين واجهوا أحيانًا بعض المضايقات، «فإن تعاون العراق بصفة عامة يعد جيدًا إلى حد ما حتى الآن» مع مطالب المفتشين[١].

ثم تبين لاحقًا أنه لم تكن ثم صلة بين صدام حسين وهجمات القاعدة في عام ٢٠٠١. وبالفعل، فإن ملايين الصفحات التي عثر عليها في بغداد عقب الغزو الذي بدأ في ١٩ مارس (آذار) ٢٠٠٣ لم تكشف عن صلة واضحة للنظام العراقي بالإرهاب قط. بل على النقيض أشارت الوثائق المتعلقة بجهاز الاستخبارات العراقي إلى أن الجهاز بذل جهودًا كبيرة لكبح جماح جماعة مثل: أبي عباس -زعيم منظمة التحرير الفلسطينية الذي شن بعض الهجمات المذهلة في الثمانينيات- حيث أوضح العراقيون له أنه لا ينبغي شن أية هجمات على الأهداف الأمريكية، تحت أي ظرف، اللهم إلا في حالة شن أمريكا الهجوم على العراق[٢].

وبالمثل -كما بتنا نعلم الآن- فإن برنامج الأسلحة النووية المفترض، والواسع، والمتطور، والذي بدا حقيقيًا في أذهان أولئك الذين رأوا أن العراق يمثل تهديدًا للسلام الإقليمي والعالمي، لم يكن له أساس من الصحة. فالمقطورات التي وصفها كولن باول بأنها منشآت متنقلة للأسلحة البيولوجية مخبأة في بساتين كبيرة من أشجار النخيل، وتتحرك في فترة تتراوح بين أسبوع إلى أربعة أسابيع لتجنُّب اكتشافها»، تبين أنها تابعة للأرصاد الجوية للتنبؤ بالطقس، أي تمامًا كما ذكرت الرواية العراقية[٣].

كان التصميم على التخلص من صدام حسين -بأي ثمن- رديفًا للتخطيط السيء المزمن لما بعد ذلك. وحددت المخططات والكتب -التي أُخرِجت قبل بدء الغزو- الخطوط العريضة للمستقبل المثالي الذي ينتظر العراق بعد التحرير. وزعمت إحدى الدراسات الرئيسة بتفاؤل أن نفط العراق يمثل «رصيداً هائلًا»، ومن الممكن أن «يفيد كل مواطن آخر في البلاد، بغض النظر عن العرق أو الانتماء الديني»[٤]. ويشي الافتراض الساذج -الذي يقضي بأن الثروة سيجري تقاسمها بسعادة وعدل- بالكثير عن التوقعات الخيالية لما ستكون عليه عواقب الغزو. ومع ذلك، فقد كانت الدوافع الكامنة خلف القرارات التلقائية حاضرةً في كل مكان؛ حيث صرح المتحدث باسم البيت الأبيض، آري فليشر (Ari Fleischer)، في إفادة صحفية في فبراير (شباط) من عام ٢٠٠٣ قائلًا: إن «العراق، بلد غني إلى حدٍّ ما، على النقيض من أفغانستان». ويمتلك «موارد هائلة تخص الشعب العراقي. ومن ثم... فإن العراق

---

(1) 'An Update on Inspection', 27 January 2003, UNMOVIC, National Security Archive.

(2) Woods and Stout, 'New Sources for the Study of Iraqi Intelligence', esp. 548–52.

(3) 'Remarks to the United Nations Security Council', 5 February 2003; cf. 'Iraqi Mobile Biological Warfare Agent Production Plants', CIA report, 28 May 2003, National Security Archive.

(4) 'The Future of the Iraq Project', State Department, 20 April 2003, National Security Archive.

[ينبغي بسهولة] أن يكون قادرًا على تحمل الكثير من الأعباء لإعادة الإعمار». وردد بول وولفويتز (Paul Wolfowitz)، نائب دونالد رامسفيلد، صدى ذلك على نحو دقيق تقريبًا، في جلسة استماع مع لجنة مخصصات مجلس النواب بعد ثمانية أيام من بدء الغزو في مارس (آذار) ٢٠٠٣ بقوله: ليس هناك باعث على القلق، واستطرد مفسّرًا: «نحن نتعامل مع دولة يمكن أن تمول بالفعل إعادة الإعمار خاصتها، وقريبًا نسبيًّا». وتوقع منتشيًا أن تدر عائدات النفط ما بين ٥٠ مليار دولار إلى ١٠٠ مليار دولار على مدى «العامين أو الثلاثة أعوام المقبلة»[١].

وكان المفهوم الذي يقضي بأن الإطاحة بصدام حسين ستحول العراق إلى أرض لبن وعسل تفكيرًا بالتمني، وعلى نطاق ملحمي. فعندما توجهت القوات إلى أفغانستان، أشار مخططو السياسة بجدية إلى أن الولايات المتحدة «لا ينبغي أن تلزم نفسها بأي مشاركة عسكرية في مرحلة ما بعد طالبان؛ ذاك أنها ستنخرط بشدة في جهود مكافحة الإرهاب في جميع أنحاء العالم»[٢]. وكانت التوقعات في العراق مشابهة: ستمُسُّ الحاجة إلى ٢٧٠ ألف جندي لغزو البلاد -وفقًا للخطط التي وضعتها القيادة المركزية الأمريكية- ولكن بعد ثلاث سنوات ونصف لن تكون هناك حاجة لأكثر من ٥٠٠٠ جندي من القوات البرية. لقد بدا كل هذا معقولًا عند تقديمه على هيئة شرائح معروضة على برنامج باور بوينت (PowerPoint) على مرأى ومسمع من أولئك الذين رأوا ما كانوا يريدون رؤيته فحسب[٣]. لقد كانت هذه حروبًا خفيفة (Light wars) أو بعبارة أخرى، حروب يمكن الانتهاء منها سريعًا، بحيث تمكّن من تحقيق توازن جديد عبر منطقة محورية في آسيا.

* * *

لكن في كلتا الحالتين -أعني العراق وأفغانستان- أثبتت الحروب أنها طويلة ومكلفة. فقد غرق العراق في الحرب الأهلية بعد سقوط بغداد، واندلاع أعمال المقاومة التي أعقبت ذلك. بينما كان ردود الفعل في أفغانستان على التدخل حاذقة وشديدة العزم -تمامًا كما كانت ضد الاتحاد السوفيتي في الثمانينيات- حيث قدمت باكستان -مجددًا- دعمًا حاسمًا لمقاتلي المقاومة المتشددين. وضحى عدة آلاف من الجنود بحيواتهم، في حين أُدرج أكثر من ١٥٠ ألف من قدامى المحاربين الأمريكيين في قوائم وصفتهم بأنهم يعانون من جروح وإصابات صنفتهم -بدورها- على أنهم معاقون بنسبة ٧٠٪ على الأقل[٤]. كما جرى تصنيف مئات الآلاف من المدنيين الأفغان والعراقيين الذين قتلوا أو جرحوا

(1) Ari Fleischer, Press Briefing, 18 February 2003; Paul Wolfowitz, 'Testimony before House Appropriations Subcommittee on Defense', 27 March 2003.

(2) 'US Strategy in Afghanistan: Draft for Discussion', National Security Council Memorandum, 16 October 2001, National Security Archive.

(3) Planning Group Polo Step, US Central Command Slide Compilation, c. 15 August 2002, National Security Archive.

(4) H. Fischer, 'US Military Casualty Statistics: Operation New Dawn, Operation Iraqi Freedom and Operation Enduring Freedom', *Congressional Research Service*, RS22452 (Washington, DC, 2014).

في خضم الأعمال العسكرية -أو بسبب التواجد في المكان الخطأ في الوقت الخطأ، في أثناء تبادل إطلاق النار، أو غارات الطائرات بدون طيار، أو تفجير السيارات المفخخة- على أنها «أضرار جانبية»[١].

وارتفعت التكاليف المالية بوتيرة مذهلة. وقدر أحد الاستطلاعات الحديثة تكلفة التورط في حربي العراق وأفغانستان بما يناهز على ٦ تريليون دولار، أي ٧٥ ألف دولار لكل أسرة أمريكية إذا أخذنا الرعاية الطبية طويلة الأجل، وتعويضات العجز بعين الاعتبار. ويمثل هذا نحو ٢٠٪ من الزيادة في الدَّين القومي للولايات المتحدة بين عامي ٢٠٠١- ٢٠١٢[٢].

وكان تأثير التدخلات في الخارج أكبر مما كان متوقعًا، ومن ثم فقد زاد الطين بلة. وبحلول عام ٢٠١١، كان الرئيس أوباما قد تخلى تمامًا عن أفغانستان، وفقًا لوزير دفاعه السابق، روبرت جيتس (Robert Gates)، -الذي أدرك مدى كآبة الموقف في اجتماع عُقِد في البيت الأبيض في مارس (آذار) ٢٠١١. ووصف الرئيس كرزاي -الذي أقامه الغرب، ودعمه، وعظَّم صورته في أعين كثير من الناس- ما حدث غاضبًا بقوله: «عندما جلست هناك، جال في خاطري أن الرئيس لا يثق بقائده [يعني الجنرال بترايوس Petraeus]، ولم يعد يسعه تحمل كرزاي [يعني نفسه]، ولا يؤمن باستراتيجيته الخاصة، ولا يعد تلك الحرب حربه. لقد كان كل ما يفكر به متعلق بالخروج فحسب[٣]. وقال للمؤلف وليم دالريمبل (William Dalrymple): «لقد عانت أفغانستان -بوصفها أمة- إلى حد كبير بسبب السياسة الأمريكية؛ فلم يقاتل الأمريكيون الإرهاب حيث كان، وحيث لم يزل موجودًا. بل استمروا في إلحاق الضرر بأفغانستان وشعبها فحسب. وأردف قائلًا: «إن هذه خيانة»[٤]. وعلى هذا النحو، لم يجد الرجل عبارة أخرى أنسب من هذه العبارة في هذا المقام.

في غضون ذلك، لم يكن هناك الكثير مما يمكن إعلانه على الملأ فيما يتعلق بالخسائر في الأرواح، والتكلفة الباهظة، والآمال المحطمة في المستقبل في العراق. فبعد عشر سنوات من سقوط صدام حسين، كانت العين تلحظ وجود العراق في الطرف الأدنى من المؤشرات التي تجسد الانتقال إلى الديمقراطية السليمة. ولم يحتل العراق مرتبة أعلى مما كان عليه أمره في عهد صدام حسين فيما يتعلق

---

(١) أشارت التقديرات إلى أن أعداد الضحايا المدنيين في العراق وأفغانستان بين عامي ٢٠٠١ -٢٠١٤ تراوحت بين ١٧٠ ألف و ٢٢٠ ألف شخص. انظر على سبيل المثال:

www.costsofwar.org.

(2) L. Bilmes, 'The Financial Legacy of Iraq and Afghanistan: How Wartime Spending Decisions Will Constrain Future National Security Budgets', *Harvard Kennedy School Faculty Research Working Paper Series*, March 2013.

(3) R. Gates, *Memoirs of a Secretary at War* (New York, 2014), p. 577.

(4) 'How is Hamid Karzai Still Standing?', *New York Times*, 20 November 2013

بمجالات حقوق الإنسان، وحرية الصحافة، وحقوق الأقليات، والفساد، وحرية التعبير. بل الحق أنه تراجع في بعض الحالات عما كان عليه أمره في عهد صدام. وعلى هذا النحو أصيب البلد بالشلل بسبب المشهد الضبابي، والاضطرابات، في ظل تعرض الأقليات لاضطرابات كارثية، وأعمال عنف بشعة. وهكذا كانت آفاق المستقبل تبدو قاتمة.

ثم هناك بالطبع الإضرار بسمعة الغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة بصفة خاصة. ونصح دونالد رامسفيلد الرئيس بوش (الابن) بعد أسبوعين من أحداث ١١ سبتمبر بقوله: «يجب أن نتجنب التقاط الصور لأمريكيين يقتلون مسلمين قدر الإمكان»[1]. وسرعان ما استُبدِلت هذه الحساسية الواضحة بصور السجناء المعتقلين دون محاكمة في حالة من النسيان المتعمد في خليج جوانتانامو (Guantanamo)؛ وهو موقع اختير بعناية على أساس أنه يمكن حرمان رواده من المعتقلين من الحقوق الممنوحة لهم بموجب الدستور الأمريكي. ووجدت التحقيقات في الفترة التي سبقت حرب العراق في الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة -على حدٍّ سواء- أن الأدلة قد حُرِّفت، وجرى التلاعب بها، وتشكيلها لدعم قرارات جرى التوصل إليها مسبقًا خلف الأبواب المغلقة. واستدعت الجهود المبذولة للسيطرة على وسائل الإعلام في عراق ما بعد صدام، وإشادات الصحفيين بمفهوم الحرية باستخدام «معلومات الحكومة الأمريكية المعتمدة» -في معرض التأكيد على «الآمال في تحقيق مستقبل ديمقراطي مزدهر»- ذكريات المفوضين على الطريقة السوفيتية، الذين كانوا يقصون القصص التي لا تنتمي إلى الواقع، بل هي إلى الأحلام أقرب[2].

وفوق ذاك، جاءت عمليات الاعتقال خارج نطاق القانون، والتعذيب الممنهج على نطاق مؤسسي، وغارات الطائرات بدون طيار ضد الشخصيات التي شكلت تهديدًا ما، ولكن لم يجر إثبات ذلك بالضرورة. لقد قالت تلك القضايا الكثير عن التطور والتعددية في الغرب؛ وعلى الرغم من أنه كان بالوسع مناقشة تلك القضايا علنًا، فإن كثيرين شعروا بالذعر من نفاق رسالة أولوية الديمقراطية من جهة، وممارسة السلطة الإمبريالية من جهة أخرى؛ لذا كان بعض الناس مروَّعًا تمامًا، حتى إنهم قرروا تسريب معلومات سرية كشفت عن الكيفية التي صُنعت بها السياسة: براجماتيًّا، ووفقًا لمقتضيات اللحظة الراهنة، مع عدم الاكتراث للقانون الدولي ومقتضيات العدالة غالبًا. وعملت كل هذه العوامل على تشويه صورة الغرب، وهو أمر شعرت به وكالات الاستخبارات نفسها بشدة، فناضلت دون صيانة سرية التقارير عن طبيعة التعذيب، وعن المدى الذي بلغه، حتى في مواجهة التحديات المباشرة التي شكلها الكونجرس الأمريكي نفسه على هذه السرية.

بينما تركز الاهتمام على الجهود المبذولة للتأثير في العراق وأفغانستان، وإعادة تشكيلهما، فقد كان من المهم ألا يجري التغاضي عن محاولات إحداث التغيير في إيران. وقد تضمنت هذه

---

(1) 'Memorandum for President Bush: Strategic Thoughts', National Security Archive.

(2) '"Rapid Reaction Media Team" Concept', US Department of Defense, Office of the Assistant Secretary for Special Operations and Low-Intensity Conflict, 16 January 2003, National Security Archive.

المحاولات، العقوبات التي فرضتها واشنطن آليًا، والتي يمكن القول: إنها جاءت بنتائج عكسية. وكما حدث في العراق في التسعينيات، فمن الواضح أن التأثير الأقوى والأكثر وضوحًا كان على الفقراء والمستضعفين والمساكين، الأمر الذي جعل أحوالهم السيئة تزداد سوءًا. وكان لتقييد صادرات النفط الإيراني تأثير على مستوى المعيشة بطبيعة الحال، ليس على المواطنين الإيرانيين فحسب، بل على الأشخاص الذين يعيشون في الجانب الآخر من العالم أيضًا. ففي سوق الطاقة العالمي، يؤثر سعر وحدة الغاز، والكهرباء، والوقود على المزارعين في ولاية مينيسوتا (Minnesota)، تأثيره على سائقي سيارات الأجرة في مدريد (Madrid)، وكذلك على الفتيات اللائي يدرسن في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وعلى مزارعي البن في ڤيتنام (Vietnam). باختصار نتأثر جميعًا -وعلى نحو مباشر- بسياسات القوة المستمرة على بعد آلاف الأميال. ومن السهل أن نتجاهل أنه في العالم النامي، يمكن لبضع سنتات أن تحدث فرقًا بين الحياة والموت؛ ويمكن أن يعني إنفاذ حظر ما الاختناق الصامت لأولئك الذين لا يسع آذاننا التقاط أصوات احتضارهم، مثل: الأمهات في الأحياء الفقيرة في مومباي (Mumbai)، أو النساجين في ضواحي مومباسا (Mombasa)، أو النساء اللائي يحاولن معارضة أنشطة التعدين غير القانونية في أمريكا الجنوبية. وكل ذلك جعل إيران مجبرة على التوقف عن تطوير برنامج نووي مبني على تقنية أمريكية في الأصل، بيعت في السبعينيات لنظام استبدادي، وقمعي، وفاسد.

وبغض النظر عن الضغط الدبلوماسي والاقتصادي على طهران، أوضحت الولايات المتحدة مرارًا أنها سوف تنظر في استخدام القوة ضد إيران لفرض إنهاء برنامج تخصيب اليورانيوم. وزعم ديك تشيني -بأخرة- أنه مارس ضغطًا شديدًا من أجل توجيه ضربات للمنشآت النووية الإيرانية، في المراحل الأخيرة من فترة رئاسة بوش (الابن)، وذلك على الرغم من أن المفاعلات مثل: بوشهر أضحت تتمتع بحماية جيدة بواسطة أنظمة صاروخية روسية متطورة من طراز (Tor). وقال في عام ٢٠٠٩: «ربما كنت من أشد المدافعين عن العمل العسكري من عدد كبير من زملائي»[1]. وحذره آخرون من أن الضربات الوقائية ستجعل الوضع في جميع أنحاء المنطقة أسوأ، ولن تعمل على تحسينه قط. لقد كرر الفكرة نفسها مرارًا، وقال في عام ٢٠١٣ على سبيل المثال: إن المفاوضات ستفشل ما لم تكن مقرونة بالتهديد بعمل عسكري. وقال في مقابلة مع وكالة أخبار أ. ب. س (ABC News): «أجد صعوبة في رؤية كيف سنحقق هدفنا بأقل من ذلك السعي»[2].

إن المفهوم القائل: إن الغرب بحاجة للتهديد باستخدام القوة، فضلًا عن الاستعداد لاستخدامها، للحصول على ما يريد أصبح أمرًا أشبه بالتعويذة في واشنطن. فقد قال وزير الخارجية جون كيري

(1) M. Phillips, 'Cheney Says He was Proponent for Military Action against Iran', *Wall Street Journal*, 30 August 2009.

(2) 'Kerry presses Iran to prove its nuclear program peaceful', Reuters, 19 November 2013.

(John Kerry) في نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠١٣: «سيتعين على إيران إثبات أن برنامجها سلمي حقًا». وحـذر مـن أن إيـران يجـب أن تضع نصـب عينيها أن «الرئيـس... قال تحديـدًا: إنه يعـد التهديد بعمل عسـكري خيارًا مطروحًا على الطاولة». إنها رسـالة عبّر عنها مرارًا. كما قال كيري في مقابلة له مع قناة العربية -المملوكة للسـعودية- في يناير (كانون الثاني) ٢٠١٤: «إن الخيار العسـكري المتاح للولايات المتحدة جاهز». واستطرد قائلًا: إذا لزم الأمر، فإن الولايات المتحدة «ستفعل ما يتعين عليها فعله»[١]. وأكد الرئيس أوباما قائلًا: كما أوضحت مرارًا خلال فترة رئاسـتي، «لن أتردد في اسـتخدام القوة عندما يكون ذلك ضروريًا للدفاع عن الولايات المتحدة، وعن مصالحها»[٢].

وعلـى الرغـم مـن صـدور تهديـدات كان الهـدف منهـا إجبـار إيـران علـى الجلـوس إلـى طاولـة المفاوضـات، فـإن الولايـات المتحـدة اتخـذت إجـراءات وراء الكواليـس لتحقيق ما تريـد بأية صورة ممكنـة؛ فبينـا كانـت هناك عدة مصـادر محتملـة لفيـروس ستوكسـنت (Stuxnet virus) -الذي هاجم أجهـزة الطرد المركزي في منشـأة ناتنـز (Natanz) النووية في إيران، ثم فـي مفاعلات أخرى في جميع أنحاء البلاد- أشـار عدد كبير من القرائن إلى أن الاسـتراتيجيات السـيبرانية شـديدة التعقيد والعدوانية التـي تسـتهدف البرنامـج النـووي قد تعود إلـى الولايات المتحدة، بـل وإلى البيت الأبيض مباشـرة[٣]. وعلـى مـا يبـدو فإن الإرهـاب الإلكتروني مقبـول، طالما أنه جرى علـى أيدي وكالات الاسـتخبارات الغربية. إن حماية نظام عالمي يناسب المصالح الغربية -مثله مثل التهديد باستخدام القوة ضد إيران- إنمـا هـو مجـرد فصل جديد في محاولـة الحفاظ على النفوذ فـي بقعة تقع على مفتـرق طرق الحضارة القديمة. والمخاطر أكبر من أن تأذن بخلاف ذلك.

(١) النص الكامل لمقابلة جون كيري (John Kerry) مع قناة العربية، بتاريخ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ٢٠١٤. انظر: www.alarabiya.com.

(2) President Obama, 'Remarks by the President at AIPAC Policy Conference', 4 March 2012, White House.

(3) D. Sanger, 'Obama Order Sped Up Wave of Cyber-Attacks against Iran', *New York Times*, 1 June 2012; idem, *Confront and Conceal: Obama's Secret Wars and Surprising Use of American Power* (New York, 2012).

الخاتمة

طريق الحرير الجديد

حملت أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين شيئًا من الكارثة للولايات المتحدة وأوروبا من نواح كثيرة؛ حيث ناضلت هذه القوى عبثًا للاحتفاظ بمواقعها في المناطق الحيوية التي ربطت الشرق بالغرب. واللافت للنظر -من خلال الحوادث التي شهدتها العقود الأخيرة- هو افتقار الغرب للمنظور حول التاريخ العالمي، أي حول الصورة الأكبر، والموضوعات الأوسع، والأنماط الأكبر التي تظهر في المنطقة. لقد بدت مشكلات أفغانستان، وإيران، والعراق متميزة، ومنفصلة، ومرتبطة ببعضها بعضًا على نحو فضفاض في أذهان مخططي السياسة، والسياسيين، والدبلوماسيين، والجنرالات.

ومع ذلك، فإن التراجع خطوة للخلف يوفر منظورًا قيمًا، إضافة إلى رؤية رائعة، الأمر الذي يمكننا من رؤية منطقة واسعة تعاني من حالة من حالات الاضطراب؛ ففي تركيا، هناك معركة مستعرة في سبيل روح البلاد، اندلعت عندما أمرت حكومة -انقسمت على نفسها حول المستقبل- بإغلاق مزودي خدمة الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي لمجرد نزوة عنَّت لها. وتكررت تلك المعضلة في أوكرانيا، حيث مزقت الرؤى الوطنية المتباينة البلاد. وتمر سوريا أيضًا بتجربة مؤلمة من التغيير العميق، حيث تقاتل قوى المحافظين والليبراليين بعضها بعضًا بكلفة باهظة. ومرت منطقة القوقاز بفترة انتقالية أيضًا، حيث ظهرت قضايا متعددة متعلقة بالهوية والقومية، ولا سيما في الشيشان وجورجيا. ثم هناك المنطقة الواقعة في أقصى الشرق بطبيعة الحال، حيث كانت «ثورة الزنبق» (Tulip Revolution) في قيرغيزستان في عام ٢٠٠٥ مقدمة لحقبة طويلة من عدم الاستقرار السياسي، وهناك أيضًا إقليم شينجيانغ (Xinjiang) غربي الصين؛ حيث أصبح سكان الأويغور (Uighur) غير مستقرين، وعدائيين على نحو متزايد، في ظل الهجمات الإرهابية التي أمست تمثل تهديدًا؛ حتى إن السلطات أصدرت مرسومًا يقضي بأن إطالة اللحية يعد أمارة على نوايا مشبوهة، وبدأت برنامجًا رسميًا يعرف باسم مشروع الجمال (Project Beauty)، يقضي بمنع النساء من ارتداء الحجاب.

إذن، فهناك المزيد من التدخلات الخرقاء للغرب في العراق وأفغانستان، إضافةً إلى استخدام أسلوب الضغط في أوكرانيا وإيران فضلًا عن غيرها. لقد ظهرت طرق الحرير من الشرق إلى الغرب مجددًا، ومن السهل أن يشعر المرء بالارتباك والاضطراب بسبب التفكك والعنف في العالم الإسلامي، أو الأصولية الدينية، أو الصدامات بين روسيا وجيرانها، أو بسبب صراع الصين مع التطرف في مقاطعاتها الغربية. ومع ذلك، فإن ما نشهده هو آلام المخاض في منطقة كانت تهيمن في السابق على المشهد الفكري، والثقافي، والاقتصادي؛ حيث تعاود الظهور الآن. ونرى علامات تحول مركز الثقل في العالم إلى حيث كان موجودًا، وظل كذلك لآلاف السنين.

هناك أسباب واضحة لتحول مركز الثقل؛ إلا أن أهمها هو الموارد الطبيعية التي حظيت بها المنطقة بطبيعة الحال. فكان احتكار موارد بلاد فارس وبلاد الرافدين والخليج العربي أولوية للغرب خلال الحرب العالمية الأولى، وقد هيمنت الجهود المبذولة لتأمين «أكبر جائزة في التاريخ» على مواقف العالم الغربي تجاه هذه المنطقة منذ ذلك الحين. وإذا كان هناك شيء يجدر ذكره، فهناك الآن الكثير الذي يستحق اللعب من أجله مقارنةً بما كان عليه الأمر في السابق حين اتضح حجم اكتشافات نوكس دارسي لأول مرة؛ فإجمالي احتياطات النفط الخام المؤكدة تحت بحر قزوين وحده تقارب ضعف احتياطات الولايات المتحدة برمتها[1]. وكذلك في كردستان -حيث حقول النفط المكتشفة حديثًا، مثل حقل طق طق، الذي ارتفع إنتاجه من ألفي برميل إلى ٢٥٠ ألف برميل يوميًا منذ عام ٢٠٠٧، بقيمة مئات ملايين الدولارات شهريًا. وهناك أيضًا احتياطي كاراشجناك (Karachaganak) الضخم على الحدود بين كازاخستان وروسيا والذي يحتوي على ما يقدر بـ ٤٢ تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي، بالإضافة إلى الغاز المسال، والنفط الخام. إن دول هذه المنطقة تئن تحت وطأة مواردها الطبيعية.

ثم هناك حوض دونباس (Donbas basin) الذي يمتد على الحدود الشرقية لأوكرانيا مع روسيا، والذي اشتهر منذ القدم برواسب الفحم؛ حيث تقدر الاحتياطات القابلة للاستخراج فيه بنحو ١٠ مليار طن. وهي أيضًا منطقة ذات أهمية متزايدة بسبب زيادة الثروة المعدنية فيها. وأشارت التقييمات الجيولوجية الأخيرة التي أجرتها دائرة الجيولوجيا الأمريكية إلى وجود ١,٤ مليار برميل من النفط، و ٢,٤ تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي، إضافة إلى كميات كبيرة من سوائل الغاز الطبيعي[2]. إلى جانب ذلك تكمن إمدادات الغاز الطبيعي لتركمانستان، الذي قُدِّر بما لا يقل عن ٧٠٠ تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي تحت الأرض، وتحتل البلاد المركز الرابع بين أكبر مصدري الغاز الطبيعي في العالم.

ثم هناك مناجم أوزبكستان وقيرغيزستان التي تشكل جزءًا من حزام تيان شان (Tian Shan belt)، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد حوض ويتواترسراند (Witwatersrand basin) في جنوب إفريقيا من حيث حجم رواسب الذهب. وهناك أيضًا البريليوم (Beryllium)، والديسبروسيوم (Dysprosium)، وغيرها من «العناصر الأرضية النادرة» الموجودة في كازاخستان، والتي تعد حيوية في عملية تصنيع الهواتف المحمولة، وأجهزة الحواسيب المحمولة، والبطاريات القابلة لإعادة الشحن، فضلًا عن اليورانيوم، والبلوتونيوم الضروريين للطاقة النووية، والرؤوس الحربية النووية.

حتى التربة نفسها تعد غنية وقيمة. ذات يوم كانت خيول آسيا الوسطى سلعة عالية القيمة، اشتد الطلب

---

(1) B. Gelb, *Caspian Oil and Gas: Production and Prospects* (2006); *BP Statistical Review of World Energy June 2006*; PennWell Publishing Company, *Oil & Gas Journal*, 19 December 2005; Energy Information Administration, *Caspian Sea Region: Survey of Key Oil and Gas Statistics and Forecasts*, July 2006; 'National Oil & Gas Assessment', US Geological Survey (2005).

(2) T. Klett, C. Schenk, R. Charpentier, M. Brownfield, J. Pitman, T. Cook and M. Tennyson, 'Assessment of Undiscovered Oil and Gas Resources of the Volga-Ural Region Province, Russia and Kazakhstan', US Geological Service (2010), pp. 3095–6.

عليها في البلاط الإمبراطوري في الصين، وفي أسواق دلهي، كما عرفها المؤرخون في كيف، مثّلهم في ذلك مثَل نظرائهم في القسطنطينية وبكّين. اليوم، تحولت أجزاء كبيرة من أراضي المراعي في السهوب لتصبح حقول غلال منتجة على نحو مذهل في جنوب روسيا وأوكرانيا. والحق أن هذه التربة الخصبة -التي اشتد عليها الطلب- هي العلامة التجارية المعروفة باسم «شيرنوزيم» (Chernozem) (وتعني حرفيًا «الأرض السوداء») حيث وجدت إحدى المنظمات غير الحكومية *NGO* أن الدخل المتولد عن هذه التربة يناهز على المليار دولار سنويًا في أوكرانيا وحدها؛ إذ يجري تجريف تلك التربة وبيعها[١].

ولا يقتصر تأثير القلاقل، أو الاضطرابات، أو الحروب في هذه المنطقة على أسعار النفط في مضخات البنزين في جميع أنحاء العالم؛ بل إنه يؤثر على سعر التقنية التي نستخدمها، بل وعلى سعر الخبز الذي نأكله. فعلى سبيل المثال، تسببت الظروف الجوية في صيف عام ٢٠١٠ في موسم حصاد رديء في روسيا، حيث قصر حجم الغلال دون تلبية الطلب المحلي بكثير. وما أن اتضح حجم العجز المحتمل، حتى فرضت روسيا حظرًا فوريًا على تصدير الغلال إلى الخارج بأثر فوري، مع فترة سماح بلغت عشرة أيام. وكان تأثير ذلك القرار على أسعار الغلال العالمية فوريًا: فقد ارتفعت بنسبة ١٥٪ خلال يومين فحسب[٢]. وكان للاضطراب في أوكرانيا في بداية عام ٢٠١٤ تأثير مماثل، الأمر الذي دفع سعر القمح إلى الارتفاع ارتفاعًا حادًا بسبب المخاوف من تأثير ذلك الاضطراب على الإنتاج الزراعي في ثالث أكبر بلد مُصدِّر للقمح في العالم[٣].

وتتبع زراعة المحاصيل الأخرى في هذا الجزء من العالم مبادئ مماثلة. فذات مرة، اشتهرت آسيا الوسطى بأشجار البرتقال في [حدائق] بابُر، ثم اشتهرت لاحقًا بأزهار الزنبق التي باتت تحظى بتقدير كبير في عواصم أوروبا الغربية في القرن السابع عشر، حيث بيعت المنازل المطلة على القناة في أمستردام ببضع بصيلات من تلك الزهرة. وتجري محاربة زراعة الخشخاش؛ إذ تدعم زراعته -في أفغانستان في المقام الأول- أنماط استهلاك الهيروين في جميع أنحاء العالم، بل وتحدد سعره أيضًا. وبطبيعة الحال تؤثر على تكاليف علاج إدمان المخدرات، والرعاية التأهيلية، وكذلك ثمن محاولة كبح جماح الجريمة المنظمة[٤].

قد يبدو هذا الجزء من العالم غريبًا وغير مألوف للغرب، بل قد يتجاوز حد الغرابة إلى العجب. ففي تركمانستان، نُصب تمثال ذهبي عملاق للرئيس في عام ١٩٩٨، بحيث يدور فيلاحق الشمس أينما

(1) Zelenyi Front, 'Vyvoz chernozema v Pesochine: brakon'ervy zaderrzhany', Press Release (Kharkiv, 12 June 2011).

(2) World Bank, *World Price Watch* (Washington, DC, 2012).

(٣) قلت: اليوم تتهدد المجاعة العالم بسبب الحرب الروسية الأوكرانية وتبعاتها، وعلى الأخص منع القمح الأوكراني من الوصول إلى الأسواق الدولية. (المترجم)

(٤) تنتج أفغانستان وحدها ٧٤٪ من مجمل الإنتاج العالمي للأفيون، وهذه النسبة انحدرت انخفاضًا، فقد بلغ إنتاجها نحو ٩٢٪ في عام ٢٠٠٧. انظر في هذا الصدد:

United Nations Office on Drugs and Crime- World Drug Report 2011 (Vienna, 2011), p. 20. =

يمَّمَت، في حين تغيرت اسماء الأشهر بعد أربع سنوات، فتغير اسم شهر أبريل (نيسان) إلى «جوربان سلطان» (Gurbansoltan) بعد وفاة والدة الزعيم. كما أعيد انتخاب الرئيس نور سلطان نزاربايف (Nursultan Nazarbayev) -في كازاخستان المجاورة- في عام ٢٠١١ بعد فوزه بنسبة ٩٦٪ من الأصوات. وكشفت البرقيات الدبلوماسية المسربة أن نجوم البوب مثل إلتون جون (Elton John)، ونيللي فورتادو (Nelly Furtado) قد أحييا حفلات موسيقية خاصة لأسرة الرئيس، بعد أن تلقيا عرضًا جيدًا للغاية؛ بحيث لم يتمكنا من رفضه[١]. وفي طاجيكستان، تحول تركيز البلاد إلى بناء أكبر مسرح في آسيا الوسطى، للوقوف -رأسًا برأس- مع أكبر مكتبة في المنطقة، وأكبر متحف، وأكبر بيت للشاي، بعد الاحتفاظ بالرقم القياسي لأطول سارية علم في العالم إلى حين[٢].

في هذه الأثناء، اكتفى الرئيس علييف (Aliyev) -في أذربيجان، على الجانب الغربي من بحر قزوين- الذي شبَّه الدبلوماسيون الأمريكيون أسرته بـ«الكورليونيين في [فيلم] الأب الروحي the Corleones of Godfather»[٣] بنسبة ٨٦٪ من الأصوات في الانتخابات الأخيرة، لتبدو أكثر إقناعًا. وقيل: إن نجل الحاكم يمتلك مجموعة من القصور والشقق في دبي تبلغ قيمتها مجتمعة نحو ٤٥ مليون دولار، أي ١٠٠٠٠ سنة لدخل رجل متوسط الدخل في أذربيجان؛ ويعد هذا إنجازًا كبيرًا حققه شخص يبلغ من العمر أحد عشر عامًا[٤]. أو هناك إيران في الجنوب؛ حيث أنكر رئيس سابق «المحرقة *Holocaust*»، ولم يكتف بهذا، بل اتهم «القوى الغربية والطغاة» بتطوير ڤيروس نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) *HIV* «حتى يتمكنوا من بيع أدويتهم ومعداتهم الطبية إلى الدول الفقيرة!»[٥][٦].

= ومن قَبِيل المفارقات، كما تظهر أسعار الأفيون المحلية، أنه كلما زادت فعالية الحملة الرامية إلى الحد من إنتاج الأفيون، ارتفعت الأسعار، ومن ثم أصبحت زراعة الأفيون، والاتجار فيه أكثر ربحية. عن بعض الأرقام والمعدلات الأخيرة، انظر:

Afghanistan Opium Price Monitoring: Monthly Report (Ministry of Counter Narcotics, Islamic Republic of Afghanistan, Kabul, and United Nations Office on Drugs and Crime, Kabul, March 2010).

(1) 'Lifestyles of the Kazakhstani leadership', US diplomatic cable, EO 12958, 17 April 2008, WikiLeaks.

(2) *Guardian*, 20 April 2015.

(٣) أسرة دون كورليوني زعيم المافيا في فيلم هوليود الشهير المكون من عدة أجزاء والمسمى «الأب الروحي». (المترجم)

(4) 'President Ilham Aliyev – Michael (Corleone) on the Outside, Sonny on the Inside', US diplomatic cable, 18 September 2009, WikiLeaks EO 12958;

عن شركات عليف القابضة في دبي، انظر:

Washington Post, 5 March 2010.

(5) Quoted in 'HIV created by West to enfeeble third world, claims Mahmoud Ahmadinejad', *Daily Telegraph*, 18 January 2012.

(٦) الإشارة هنا إلى الرئيس الإيراني الأسبق أحمدي نجاد. (المترجم)

إنها منطقة تتسم -في عقول الغرب- بأنها متخلفة، ومستبدة، وعنيفة. وقالت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون (Hillary Clinton) في عام ٢٠١١، إن قلب آسيا «مُزّق بسبب الصراع والانقسام» لوقت طويل جدًا، وخُنقَت فيه التجارة والتعاون بسبب «الحواجز البيروقراطية، فضلًا عن العوائق الأخرى أمام تدفق البضائع والأشخاص». ثم خلصت إلى أن الطريقة الوحيدة لـ «مستقبل أفضل للأشخاص الذين يعيشون هناك» هي محاولة خلق حالة دائمة من الاستقرار والأمن. عندئذ سيكون من الممكن «جذب المزيد من الاستثمارات الخاصة» التي تُعد -في رأيها على الأقل- ضرورية للتنمية الاجتماعية والاقتصادية[1].

* * *

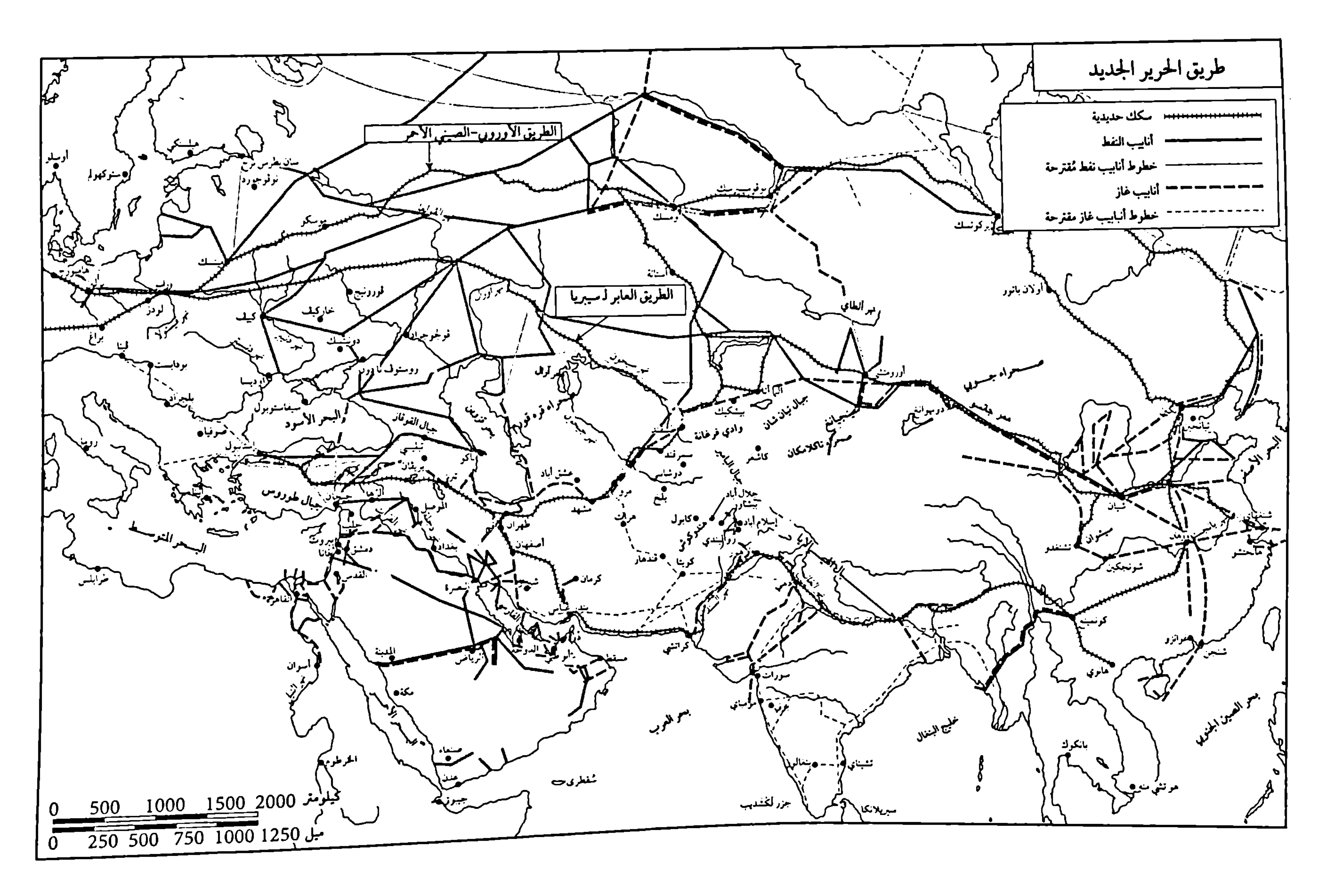
على الرغم من هذا «الاختلاف» الظاهر، ظلت هذه الأراضي تحظى بأهمية محورية في التاريخ العالمي دائمًا على نحو أو آخر؛ حيث ربطت بين الشرق والغرب، وكانت بمثابة بوتقة انصهرت فيها الأفكار، والعادات، واللغات مع بعضها بعضًا منذ أقدم العصور حتى يوم الناس هذا. واليوم، تظهر طرق الحرير مجددًا، ولا يكاد يلحظها أحد، ويتجاهلها الكثيرون. ولم يوجه الاقتصاديون انتباههم بعد إلى الثروات التي تكمن في التربة أو تحتها، أو تلك المغمورة تحت المياه، أو المطمورة في سلاسل الجبال التي ربطت بين البحر الأسود وآسيا الصغرى والشام بجبال الهيمالايا. بل ركزوا على مجموعات من البلدان التي لا تجمع بينها صلات تاريخية، بل مجرد بيانات قابلة للقياس في الظاهر، مثل دول البريكس *BRICS* (البرازيل، وروسيا، والهند، والصين، وجنوب إفريقيا)، والتي غالبًا ما تُستبدل الآن على نحو صريح بدول ميست *MIST* (ماليزيا، وإندونيسيا، وكوريا الجنوبية، وتركيا)[2]. والحق إن هذه البقاع هي «البحر المتوسط الحقيقي»، أو بعبارة أخرى «قلب العالم» الذي يجب أن ننظر إليه. وهذا الشرق ليس شرقًا متوحشًا، ولا عالمًا جديدًا ينتظر من يستكشفه؛ بل هو منطقة، وسلسلة من الروابط تعاود الظهور أمام نواظرنا.

تزدهر المدن، مع ظهور المطارات الجديدة، والمنتجعات السياحية، والفنادق فاخرة، والمباني السامقة في البلدان التي تجد لديها مبالغ طائلة تحت تصرفها، فتحاول بواسطتها تنفيذ ما يجول في خيالها. وشُيِّد قصر رئاسي جديد في عشق آباد في تركمانستان، إضافة إلى صالة مغطاة للرياضات الشتوية تكلفا معًا مئات الملايين من الدولارات، بينما تشير التقديرات المتحفظة إلى أن منطقة أفازا (Avaza) السياحية الواقعة على الساحل الشرقي لبحر قزوين قد أُنفق عليها أكثر من ملياري دولار بالفعل. ولا تدع المحطة الحديثة في مطار حيدر علييف (Heydar Aliyev) الدولي في باكو -بشرانقها الخشبية العملاقة، وجدرانها الزجاجية المقعرة- أدنى شك في نفوس المسافرين الذين يصلون إلى أذربيجان -التي تطفو على بحر من النفط- في طموح البلاد وثروتها. وكذلك لسان الحال في قاعة الكريستال (Crystal Hall)، وهي مكان خُصِّص لإقامة الحفلات الموسيقية، واستضاف مسابقة (Eurovision Song Contest) في عام ٢٠١٢. ومع ازدهار باكو، تتوفر خيارات متعددة للمسافر الدولي، الذي يسعه الآن الاختيار بين فنادق هيلتون (Hilton)، وكمبينسكي

---

(1) Hillary Clinton. 'Remarks at the New Silk Road Ministerial Meeting', New York, 22 September 2011. US State Department.

(2) J. O'Neill, *Building with Better BRICS*, Global Economics Paper, No. 66, Goldman Sachs (2003): R. =


طريق الحرير الجديد
سكك حديدية
أنابيب النفط
خطوط أنابيب نفط مقترحة
أنابيب غاز
خطوط أنابيب غاز مقترحة
الطريق الأوروبي-الصيني الأهم
الطريق العابر لسيبريا
البحر الأسود
جبال القوقاز
جبال طوروس
البحر المتوسط
بحر العرب
خليج البنغال
بحر الصين الجنوبي
صحراء جوبي
صحراء تاكلاماكان
وادي فرغانة
جبال تيان شان
صحراء قره قوم
موسكو
كييف
خاركيف
طهران
أصفهان
كرمان
مشهد
بغداد
البصرة
الرياض
المدينة
مكة
صنعاء
عدن
جيبوتي
القاهرة
أسوان
الخرطوم
طرابلس
دمشق
القدس
كابول
قندهار
كويتا
كراتشي
سورات
مومباي
تشيناي
كاشغر
أورومتشي
شيان
شنغهاي
كونمينغ
هانوي
بانكوك
شنجن
أولان باتور
إركوتسك
نوفوسيبيرسك
أومسك
أستانة
سمرقند
دوشانبه
عشق أباد
0 500 1000 1500 2000 كيلومتر
0 250 500 750 1000 1250 ميل

(Kempinski)، ورادیسون (Radisson)، ورمادا (Ramada)، وشيراتون (Sheraton)، وحياة ريجنسي (Hyatt Regency). إضافة إلى مجموعة جديدة من الفنادق الصغيرة. وهذه مجرد بداية فحسب. وشهد عام ٢٠١١ وحده، تضاعف عدد غرف الفنادق في المدينة، مع توقعات تشير إلى أن الرقم سيتضاعف مجددًا على مدار السنوات الأربع التالية[1]. وهناك أيضًا أربيل -وهي مدينة غير معروفة للكثيرين خارج إطار صناعة النفط، بيد أنها المدينة الرئيسة في كردستان العراق- حيث تعد الأسعار في فندق أربيل روتانا الجديد (Erbil Rotana hotel) أعلى مما هي عليه في معظم عواصم أوروبا، وعدد كبير من المدن الكبرى في الولايات المتحدة؛ حيث تبدأ أسعار الغرف الأساسية من ٢٩٠ دولارًا في الليلة، تشتمل على الإفطار، واستخدام المنتجع الصحي (ولكن ليس شبكة الإنترنت الداخلية wi-fi)[2].

وأُنشِأت مراكز حضرية كبرى جديدة، بما في ذلك العاصمة الجديدة- آستانا (Astana) في كازاخستان، والتي نبتت من التراب في أقل من عشرين عامًا. وهي الآن مقر لقصر مذهل يقال له: السلام والمصالحة (Peace and Reconciliation)، صممه نورمان فوستر (Norman Foster)، وفيها أيضًا بايتيريك (Bayterek)، وهو برج يبلغ ارتفاعه ٣٣٠ قدمًا على شكل شجرة تستقر أعلاه بيضة ذهبية، حيث يجري تشجيع الزوار على وضع أيديهم في بصمة شكّلها رئيس كازاخستان، ثم يتمنى كل منهم أمنيته. قد يبدو هذا للعين غير الخبيرة وكأنه أرض حدودية جديدة، أو مكان يظهر فيه المليارديرات من العدم لشراء أفضل الأعمال الفنية في دور المزادات في لندن، ونيويورك، وباريس، ويسعدهم الحصول على أفضل العقارات في العالم بأسعار يصعب تصديقها للمقيمين فيها على المدى الطويل. ويفوق متوسط إنفاق المشترين من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق -في سوق العقارات في لندن- متوسط إنفاق المشترين من الولايات المتحدة أو الصين بثلاث مرات تقريبًا، كما يفوق متوسط إنفاق المشترين المحليين بأربع مرات[3]. وتُشترى المنازل الخاصة، والمباني التاريخية في مانهاتن (Manhattan)، ومايفير (Mayfair)، ونايتسبريدج (Knightsbridge)، وجنوب فرنسا واحدًا تلو الآخر، من قِبل أباطرة النحاس الأوزبكيين، أو أباطرة الأعمال الذين حققوا ثرواتهم من تجارة البوتاس في جبال الأورال، أو أباطرة النفط في كازاخستان الذين يدفعون سعرًا أعلى بالدولار، وعادة ما يدفعون نقدًا. وينفق بعض الناس ثرواتهم على شراء لاعبي كرة القدم المشهورين عالميًا، مثل صمويل إيتو (Samuel Eto'o)، الذي اشتراه أحد الأوليجارشيين[4] من بحر قزوين ليلعب لصالح نادي أنزهي ماخشاكلا (Anzhi Makhachkala)، وهو نادٍ داغستاني؛ حيث ظل اللاعب الأعلى أجرًا في العالم إلى حين. ولم يدخر هؤلاء القوم نفقة في بناء صورة بلدهم، حيث تميزت

= Sharma, *Breakout Nations: In Pursuit of the Next Economic Miracles* (London, 2012); J. O'Neill, *The Growth Map: Economic Opportunity in the BRICs and Beyond* (London, 2011).

(1) Jones Lang Lasalle, *Central Asia: Emerging Markets with High Growth Potential* (February 2012).

(2) www.rotana.com/erbilrotana.

(3) *The World in London: How London's Residential Resale Market Attracts Capital from across the Globe*, Savills Research (2011).

(٤) رجال الأعمال في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق الذين كونوا ثرواتهم خلال حقبة الخصخصة وبيع أصول الدولة أو الاستيلاء عليها. (المترجم)

استضافة باكو لكأس العالم لكرة القدم للسيدات تحت ١٧ سنة بأداء جنيفر لوبيز (Jennifer Lopez) في حفل الافتتاح، فيما عُدَّ فرقًا حادًّا عن الافتتاح الكبير الذي استمر عشر دقائق للحدث نفسه قبل عامين عندما أقيم في ترينيداد وتوباجو (Trinidad and Tobago)، عندما تفرج بضع مئات من المتفرجين على أداء فرقة رقص محلية صغيرة[1].

وتظهر روابط جديدة عبر العمود الفقري لآسيا، وتربط هذه المنطقة الرئيسة بالشمال والجنوب والشرق والغرب، وتتخذ عددًا كبيرًا من المسارات، والأشكال، والنماذج المختلفة؛ تمامًا كما فعلت لآلاف السنين. واستُكمِلت بأنواع جديدة من الشرايين، مثل شبكة التوزيع الشمالية، وهي سلسلة من ممرات العبور لتسليم «السلع غير الفتاكة» إلى القوات الأمريكية وقوات التحالف في أفغانستان عبر روسيا، وأوزبكستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، مع الاستفادة من البنية التحتية التي أقامها الاتحاد السوفيتي في الثمانينيات خلال حقبة الاحتلال السوفيتي إلى حدٍّ كبير[2].

ثم هناك خطوط أنابيب النفط والغاز التي توفر الطاقة للمستهلكين الراغبين والقادرين على دفع ثمنها في أوروبا، والهند، والصين، وخارجها. وتعبر خطوط الأنابيب المنطقة في كل حدب وصوب، وتنتهي بميناء جيهان (Ceyhan) الواقع جنوبي شرق تركيا، أو تمتد عبر آسيا الوسطى لتلبية الحاجة إلى الوقود الأحفوري في الصين مع نمو الاقتصاد. كما تفتح أيضًا أسواقًا جديدة وتُربط ببعضها بعضًا، الأمر الذي أدى إلى تعاون وثيق بين أفغانستان، وباكستان، والهند، التي تتوافق مصالحها توافقًا وثيقًا متى تعلق الأمر بالوصول إلى طاقة أوفر وأرخص عبر خط أنابيب جديد ستبلغ طاقته ٩٥٠ مليار قدم مكعب من الغاز الطبيعي في السنة. وكان الطريق الذي يسير بموازاة الطريق السريع، ويمر بحقول الغاز في تركمانستان ثم يتجه صوب هرات، ثم قندهار، مرورًا بـ كويتا (Quetta)، وانتهاءً مولتان (Multan) مألوفًا لتجار الصُغد الذين نشطوا قبل ٢٠٠٠ عام، كما كان معروفًا لتجار الخيول في القرن السابع عشر، وكذلك كان معروفًا أيضًا لمخططي السكك الحديدية البريطانيين والاستراتيجيين في العصر الڤيكتوري، كما كان معروفًا للشعراء الذين سافروا لخدمة البلاط الغزنوي في القرون الوسطى.

وتربط خطوط الأنابيب الحالية والمقترحة أوروبا باحتياطات النفط والغاز في وسط العالم أيضًا؛ الأمر الذي زاد من الأهمية السياسية، والاقتصادية، والاستراتيجية، ليس للدول المصدرة فحسب، بل لتلك التي تعبر خطوط الأنابيب أراضيها أيضًا. فكما أوضحت روسيا بالفعل يمكن استخدام إمدادات

---

(١) وقَّع النجم الكاميروني الدولي صمويل إيتو (Samuel Eto'o) لهذا النادي قادمًا من برشلونة في عام ٢٠١١. انظر: Associated Press, 23 August 2011.

تميز افتتاح كأس العالم للسيدات للناشئات تحت ١٧ الذي أقيم ٢٠١٠ بحفل افتتاح استمر عشر دقائق شهد عرضًا لـ «فرقة الرقص شيف شاكيت (Shiv Shakit) الحائزة على جوائز». انظر في هذا الصدد:

'Grand Opening: Trinbagonian treat in store for U-17 Women's World Cup', *Trinidad Express*, 27 August 2010.

(2) T. Kutchins, T. Sanderson and D. Gordon, *The Northern Distribution Network and the Modern Silk Road: Planning for Afghanistan's Future*, Center for Strategic and International Studies (Washington, DC, 2009).

الطاقة بوصفها سلاحًا، سواء من خلال العمل على رفع الأسعار، أو من خلال إيقاف الإمدادات عن أوكرانيا ببساطة. وفي ظل اعتماد عدد كبير من الدول في أوروبا على الغاز الروسي اعتمادًا كبيرًا، فضلًا عن عدد كبير من الدول الأخرى التي تمتلك فيها شركة غازبروم (Gazprom) -المدعومة من الكرملين- حصة استراتيجية، أو حتى الحصة الغالبة، فمن المحتمل أن يكون استخدام الطاقة والموارد وخطوط الأنابيب بوصفها أسلحة اقتصادية، ودبلوماسية، وسياسية مشكلة في القرن الحادي والعشرين. وربما تكون أطروحة الدكتوراه للرئيس بوتين المعنية بالتخطيط الاستراتيجي، واستخدامات الموارد المعدنية الروسية أمارة منذرة بالسوء. وذلك على الرغم من أن بعض الناس شككوا في أصالة الأطروحة، وحتى في صحة إجراءات منحه درجة الدكتوراه[1].

وتعد خطوط الأنابيب هذه شريان الحياة في الشرق مستقبلًا؛ حيث تشتري الصين إمدادات الغاز في المستقبل بموجب عقد يمتد إلى ثلاثين عامًا، بقيمة ٤٠٠ مليار دولار على مدى العقد. ويمنح هذا المبلغ الضخم -الذي سيُدفع مقدمًا جزئيًا- بكين أمن الطاقة الذي تتوق إليه، بينما يبرر تكلفة ٢٢ مليار دولار لإقامة خط أنابيب جديد، ويوفر لموسكو الحرية والثقة الإضافية في تعاملها مع جيرانها وخصومها على حد سواء. لا نستغربنَّ إذن أن الصين كانت العضو الوحيد في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي لم يوبخ روسيا على فِعالها خلال أزمة أوكرانيا عام ٢٠١٤؛ وتعد الحقيقة الباردة المتعلقة بالتجارة وتبادل المنفعة أكثر إلحاحًا بكثير من النظر في سياسة حافة الهاوية السياسية في الغرب.

وتوسعت روابط النقل، وكذلك خطوط الأنابيب إلى حد كبير في العقود الثلاثة الماضية. وقد أدى الاستثمار الكبير في خطوط السكك الحديدية العابرة للقارات إلى تدشين خط السكك الحديدية الدولي للشحن يوكسينو (Yuxinou) بطول ٧٠٠٠ ميل من السكك الحديد، تمتد من الصين إلى مركز توزيع رئيس يقع على مقربة دويسبرج (Duisburg) في ألمانيا، وقد زارها الرئيس الصيني شي جين بينغ (Xi Jinping) بنفسه في عام ٢٠١٤. وبدأت القطارات -التي يناهز طولها نصف الميل- في نقل ملايين من أجهزة الحاسوب المحمولة، والأحذية، والملابس، وغيرها من العناصر غير القابلة للتلف في اتجاه، بينما تذهب الإلكترونيات، وقطع غيار السيارات، والمعدات الطبية، في الاتجاه الآخر في رحلة تستغرق ستة عشر يومًا. وهي رحلة أسرع بكثير من الطريق البحري من موانئ الصين في المحيط الهادئ.

ومع الإعلان عن استثمارات بقيمة ٤٣ مليار دولار في تحسين خطوط السكك الحديدية، يتوقع بعض الناس ارتفاعًا في عدد الحاويات التي تُنقل بالقطار كل عام من ٧,٥٠٠ في عام ٢٠١٢ إلى ٧,٥ مليون حاوية بحلول عام ٢٠٢٠[2]. ويجري التخطيط حاليًا لإنشاء خطوط السكك الحديدية على أن تمر عبر إيران، وتركيا، والبلقان، وسيبيريا إلى موسكو، وبرلين، وباريس، لتربط بين بكين، وباكستان، وكازاخستان، والهند بطرق جديدة. وهناك حديث يدور عن نفق يبلغ طوله ٢٠٠ ميل يجري تشييده تحت

---

(1) I. Danchenko and C. Gaddy, 'The Mystery of Vladimir Putin's Dissertation', edited version of presentations by the authors at a Brookings Institution Foreign Policy Program panel, 30 March 2006.

(2) 'Putin pledges $43 billion for infrastructure', Associated Press, 21 June 2013

عن تلك التقديرات، انظر:

=

مضيق بيرينغ (Bering)، وسيتيح هذا النفق مرور القطارات من الصين عبر ألاسكا، وكندا، إلى الولايات المتحدة القارية[1].

وتبني الحكومة الصينية شبكات الطرق بعناية، وعلى نحو متعمد للاتصال بمصادر المعادن، ومصادر الطاقة، والمدن، والموانئ، والمحيطات. ولا يكاد يمضي شهر دون أن يُعلن عن تمويل كبير إما لتشييد البنية التحتية، أو تحديث القائمة منها؛ حيث ترتفع أحجام التبادل التجاري، فضلًا عن سرعة نموه على نحو حاد. وتفعل الصين ذلك بالشراكة مع البلدان التي ترقى علاقتها بها إلى أن توصف بـ«أصدقاء لدودين»، وتحاول الصين جاهدة تحويلها إلى علاقات يمكن أن تعيش في «جميع الأحوال الجوية»[2].

وأدت هذه التغييرات بالفعل إلى عودة ظهور المقاطعات الغربية في الصين، في ظل وجود عمالة أرخص في المناطق الداخلية منها على الساحل. ومن ثم بدأ عدد كبير من الشركات في الانتقال إلى مدن قريبة من بوابة جونغاريا (Dzungarian)، وهي نقطة الدخول القديمة في غرب البلاد التي تمر عبرها القطارات الحديثة الآن. فقد نقلت شركة هيوليت باكارد (Hewlett Packard) إنتاجها من شنغهاي إلى شونجكين (Chongqing) الواقعة في الجنوب الغربي؛ حيث تنتج الآن ٢٠ مليون جهاز حاسوب محمول، و١٥ مليون طابعة في السنة. وتشحن ملايين الوحدات بالقطار إلى الأسواق في الغرب. وحذت شركات أخرى حذوها مثل شركة فورد موتور (Ford Motor Company). أو شركة فوكسكون (Foxconn)، وهي الشركة الرائدة في مجال تصنيع تقنية المعلومات والمورد الرئيس لشركة آبل (Apple) التي عززت وجودها في تشنجدو (Chengdu) على حساب منشآتها السابقة في شنجن (Shenzhen) [3].

كما تعج شبكات النقل الأخرى بالحيوية. فهناك خمس رحلات جوية في اليوم تنقل رجال الأعمال والسياح من الصين إلى ألماتي في كازاخستان. بينما ترسل باكو -في أذربيجان- ٣٥ طائرة شحن في الأسبوع من إستانبول وإليها، فضلًا عن عدد كبير من المدن في جميع أرجاء روسيا. وتُظهر جداول الوصول والمغادرة في مطارات مثل عشق آباد (Ashgabat)، وطهران، وآستانا (Astana)، وطشقند شبكة نقل واسعة ومتنامية بين مدن هذه المنطقة، بينما تُظهر أيضًا مدى خفة الاتصال مع أوروبا؛ حيث تندر الرحلات القادمة منها، ولا سيما عند المقارنة مع الرحلات إلى الخليج، والهند، والصين.

كما تظهر مراكز امتياز فكرية جديدة في منطقة خرج منها -في وقت ما- أبرز العلماء في العالم. وظهرت الحُرم الجامعية عبر الخليج العربي التي وهبها الحكام المحليون والأعيان وتديرها جامعات بل

= International Association 'Coordinating Council on Trans-Siberian Transportation', 'Transsib: Current Situation and New Business Perspectives in Europe–Asian Traffic', UNECE Workgroup, 9 September 2013.

(١) انظر على سبيل المثال:

Beijing Times, 8 May 2014.

(2) 'Hauling New Treasure along Silk Road', *New York Times*, 20 July 2013.

(٣) عن تقرير حول تأثير الصين على أسعار الذهب بالتجزئة، انظر:

World Gold Council, *China's Gold Market: Progress and Prospects* (2014).
=

(Yale)، وكولومبيا (Columbia) وغيرهما؛ وهناك معاهد كونفوشيوس (Confucius Institutes)، وهي مراكز ثقافية غير هادفة للربح، تروج للغة والثقافة الصينيتين، أُنشِأت في كل بلد من البلدان الواقعة بين الصين والبحر المتوسط إظهارًا لكرم بكّين، وحسن نيتها.

كما شُيِّدت مراكز جديدة للفنون، بدءًا من متحف قطر الوطني الاستثنائي، مرورًا بمتحف جوجنهايم (Guggenheim Museum) في أبو ظبي، وانتهاءً بمتحف باكو للفن الحديث (Baku Museum of Modern Art). كما ظهرت مبانٍ جديدة مثل المكتبة الوطنية (National Library) في طشقند، أو كاتدرائية سامبا (Sameba Cathedral) في تبليسي (Tblisi)، التي تكفَّل ببنائها الملياردير الجورجي بيدزينا إيفانيشفيلي (Bidzina Ivanishvili) الذي اشترى لوحة (Dora Maar) لـ بيكاسو مقابل ٩٥ مليون دولار في مزاد أقيم عام ٢٠٠٦. إن هذه منطقة يجري إحياؤها الآن، وإعادتها إلى مجدها السابق على قدم وساق.

وتبني دور الأزياء الغربية مثل برادا (Prada)، وبوربري (Burberry)، ولويس فويتون (Louis Vuitton) متاجر جديدة ضخمة، وتشهد أرقام مبيعات مذهلة في جميع أنحاء دول الخليج، وروسيا، والصين، والشرق الأقصى (في مفارقة باسمة، حيث يجري بيع الأقمشة الفاخرة والحرير مجددًا للأماكن التي نشأ فيها إنتاج الأقمشة الحريرية الفاخرة)[1]. لطالما كانت الملابس أمارة على التمايز الاجتماعي، من زعماء قبيلة شيونجنو قبل ٢٠٠٠ عام إلى الرجال والنساء في عصر النهضة قبل خمسة قرون. إن للشهية النهمة للعلامات التجارية الأكثر تميزًا في يومنا هذا تاريخ طويل غني، وهي مؤشر واضح على النخب الجديدة الناشئة في بلدان تزداد ثروتها، ومن ثم أهميتها.

أما بالنسبة لأولئك تتسم أذواقهم بالغرابة والخبث، فهناك موقع ويب مُشفَّر، يمكنهم من خلاله تداول الأسلحة، والمخدرات، وغير ذلك الكثير دون أن يُكشف عن هوياتهم قط. ويستحضر اسمه شبكات الاتصالات والمحلات التجارية في الماضي، إنه موقع الويب المسمى طريق الحرير (the Silk Road). وبينا تشارك وكالات إنفاذ القانون في ألعاب القط والفأر على نحو مستمر مع أولئك الذين يطورون التقنيات الجديدة، أضحت معركة الماضي أيضًا جزءًا مهمًا من العصر الجديد الذي نتجه إليه، في سبيل إحكام السيطرة على المستقبل.

ولم يقتصر الأمر على إعادة فحص التاريخ، وإعادة تقييمه لخدمة المصالح الخاصة، على الرغم من أن هذا سيحدث أيضًا مع ازدهار الجامعات وحرمها الجديدة ونموها. بيد أن الماضي هو موضوع حي

= وارتفعت المبيعات في الصين لمجموعة برادا (Prada) والشركات ذات الصلة بنسبة ٤٠٪ في ٢٠١١ وحده. انظر:
Annual Report, Prada Group (2011).

وبحلول نهاية عام ٢٠١٣، كانت إيرادات مجموعة برادا (Prada) في الصين الكبرى قد بلغت ضعف إيراداتها في أمريكا الشمالية والجنوبية مجتمعتين. انظر:

Annual Report (2014).

(١) انظر على سبيل المثال الإعلان الصيني الباكستاني الأخير عن استثمار بقيمة ٤٦ مليار دولار تُخصص لبناء الممر الاقتصادي الصيني الباكستاني شينخوا (Xinhua)، ٢١ أبريل ٢٠١٥.

عبر طرق الحرير. فالمعركة من أجل روح الإسلام، بين الطوائف المتنافسة، والزعماء المتنافسين، والمذاهب المتنافسة، لم تزل شديدة، تمامًا كما كانت كذلك في القرن الأول الهجري، في ظل الاعتماد الكثيف على تفسيرات الماضي. كما أثبتت العلاقات بين روسيا وجيرانها من جهة، ومع الغرب من جهة أخرى، أنها متقلبة وانفعالية. ويمكن إثارة الخصومات والعداوات القديمة -أو تهدئتها- من خلال اللجوء إلى أمثلة منتقاة بعناية من التاريخ؛ حيث جرت تسوية الحسابات، أو تنحيتها جانبًا. ويمكن أن يكون تحديد فائدة الروابط القديمة وأهميتها في الماضي مفيدًا للغاية فيما تعلق بالمستقبل. وأحد الأسباب التي تدفع الصين للاستثمار بكثافة في ربط نفسها بطرق الحرير الواقعة في الغرب، هو التأكيد على تراث مشترك من التجارة والتبادل الفكري تحديدًا.

والحق أن الصين كانت في طليعة ثورة الاتصالات في جميع أنحاء المنطقة؛ حيث اندفعت في بناء كوابل الخطوط الثابتة، إلى جانب أجهزة إرسال البيانات التي تسمح ببعض سرعات التحميل الأسرع في العالم. وشُيد الكثير من هذه الكوابل على أيدي شركتي هواوي (Huawei) و زد. تي. إي (ZTE) -وهما شركتان تربطهما صلات وثيقة بجيش التحرير الشعبي الصيني- بقروض ميسرة قدمها بنك التنمية الصيني، أو على هيئة مساعدات حكومية، الأمر الذي أتاح بناء المنشآت الفنية في طاجيكستان، وقيرغيزستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وهي دول تحرص فيها الصين على بناء مستقبل طويل الأجل بسبب الاستقرار الإقليمي، والثروة المعدنية في المقام الأول. وكان القلق بشأن شركات الاتصالات هذه كافيًا للحث على عقد جلسات استماع في الكونجرس الأمريكي خلصت إلى أن شركتي هواوي وزد. تي. إي «لا يمكن الوثوق بهما» على أساس أنهما قريبتان للغاية من «نفوذ الدولة الصينية، ومن ثم فإنهما تشكلان تهديدًا أمنيًا للولايات المتحدة»- وهي مفارقة بالنظر إلى ما كُشف عنه النقاب بأخَرة؛ حيث أنشأت وكالة الأمن القومي (National Security Agency) برنامجًا سريًا باسم (Operation Shotgiant) للتسلل إلى خوادم هواوي واختراقها[1]. وعلى أية حال فلم يكن انشغال الغرب المتزايد بالصين مفاجئًا؛ ذاك أن شبكة صينية جديدة في طور البناء تمتد عبر العالم.

كان يسع المرء -في نهايات النصف الأول من القرن العشرين- الإبحار من ساوثهامبتون (Southampton) أو لندن، أو ليفربول (Liverpool) إلى الجانب الآخر من العالم دون أن يغادر الأراضي البريطانية، فكان يسعه الإبحار إلى جبل طارق، ثم يمر بمالطا، فبورسعيد؛ ومن هناك يواصل طريقه إلى عدن، فبومباي، فكولومبو (Colombo)، ثم يتوقف في شبه جزيرة الملايو، ثم يصل أخيرًا إلى هونج كونج. اليوم، يسع الصينيين أن يفعلوا شيئًا مشابهًا؛ فقد ارتفع الاستثمار الصيني في منطقة البحر الكاريبي بأكثر من أربعة أضعاف بين عامي ٢٠٠٤-٢٠٠٩، بينما يجري تشييد الطرق، والملاعب الرياضية، والمباني الحكومية الرائعة عبر منطقة المحيط الهادئ بفضل المساعدات، أو القروض الميسرة، أو الاستثمار المباشر من الحكومة الصينية. كما شهدت إفريقيا أيضًا تكثيفًا كبيرًا لنشاط الصينيين؛ حيث تبني الصين سلسلة من مواطئ الأقدام لمساعدتها على المضي قدمًا في مجموعة الألعاب الكبرى الجارية،

(1) *Investigative Report on the US National Security Issues Posed by Chinese Telecommunications Companies Huawei and ZTE*, US House of Representatives Report, 8 October 2012.

وهي جزء من المنافسة على الطاقة، والموارد المعدنية، والإمدادات الغذائية، والنفوذ السياسي في وقت من المحتمل أن يكون للتغير البيئي الحاصل تأثير كبير على كل مجال من هذه المجالات.

بات عصر الغرب عند مفترق طرق، إن لم يكن في نهاية طريق؛ فقد صوَّرت الجملة الأولى للرئيس أوباما -في البيان الافتتاحي للمراجعة التي أعدتها وزارة الدفاع الأمريكية في عام ٢٠١٢- المستقبل على المدى الطويل بعبارات لا لبس فيها: «إن أمتنا تمر بمرحلة انتقالية». واستطرد الرئيس قائلًا: إن العالم يتغير أمام ناظرينا، وهو أمر «يتطلب قيادتنا [حتى] تظل الولايات المتحدة الأمريكية أعظم قوة على الإطلاق للحرية والأمن، عرفها العالم»[١]. أوضحت هذه المراجعة -عمليًا- أن هذا يعني إعادة التوجيه الكامل لاستراتيجيات الولايات المتحدة؛ حيث أوضحت: «سنقوم بالضرورة بإعادة التوازن في منطقة آسيا والمحيط الهادئ». على الرغم من التخفيضات في الميزانية البالغة ٥٠٠ مليار دولار للإنفاق الدفاعي المخطط لها بالفعل على مدى العقد المقبل، ومع احتمال حدوث مزيد من التخفيضات، بذل الرئيس أوباما جهدًا للتأكيد على أن هذا «لن يكون على حساب هذه المنطقة الحرجة [آسيا والمحيط الهادئ]»[٢]. وإذا كان يسعنا إعادة صياغة التقرير بقسوة، فإنه يقول: إن الولايات المتحدة وجهت الكثير من اهتمامها طيلة قرن لعلاقاتها الخاصة بدول أوروبا الغربية. لقد حان الوقت الآن للبحث عن مكان آخر.

وجرى التوصل إلى النتيجة نفسها على نحو منفصل من قبل وزارة الدفاع في لندن، والتي أقر تقريرها الأخير -بالمثل- بأن العالم يمر بفترة من الاضطراب والتحول. وأشار مؤلفو الدراسة إلى أن الفترة حتى عام ٢٠٤٠ «ستكون فترة انتقالية»، مع تراجع السمات المميزة للخدمة المدنية البريطانية. وقال التقرير: إن من بين التحديات التي ينبغي مواجهتها في العقود القادمة «واقع تغير المناخ، والنمو السكاني السريع، وندرة الموارد، وعودة الأيديولوجيا، وتحولات السلطة من الغرب إلى الشرق»[٣].

وبينما يتشكل قلب العالم، تظهر المؤسسات والمنظمات -التي تضفي الطابع الرسمي على العلاقات عبر هذه المنطقة المحورية- إلى الوجود. لقد أخذ نفوذ منظمة شنغهاي للتعاون (Shanghai Co-Operation Organisation) (SCO) -التي أُنشِئت في الأصل لتسهيل التعاون السياسي، والاقتصادي، والعسكري بين روسيا، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وأوزبكستان، والصين- يتزايد شيئًا فشيئًا، وأخذت المنظمة تتحول تدريجيًا إلى بديل قابل للتطبيق للاتحاد الأوروبي. وعلى الرغم من استنكار بعض الناس لهذه الرابطة بوصفها «وسيلة لانتهاكات حقوق الإنسان»، وتسليط الضوء على فشل الدول الأعضاء في احترام اتفاقية الأمم المتحدة بشأن التعذيب، وافتقارها الصارخ إلى حماية الأقليات، يرى بعض الناس أنها المستقبل، في ظل وجود دول مثل بيلاروسيا، وسريلانكا التي مُنحت إذنًا رسميًا

(1) Department of Defense, *Sustaining US Global Leadership: Priorities for 21st Century Defense* (Washington, DC, 2012).

(2) President Obama, 'Remarks by the President on the Defense Strategic Review', 5 January 2012, White House.

(3) Ministry of Defence, *Strategic Trends Programme: Global Strategic Trends – Out to 2040* (London, 2010), p. 10.

لحضـور الاجتماعـات بصفة مراقب[1]. بيد أن تركيا لم تر هـذا كافيًا، وطالبت بالانضمام بوصفها عضوًا كامل العضوية، تعيد على إثرها توجيه بوصلتها بعيدًا عن أوروبا. وأعلن رئيس الوزراء التركي في مقابلة تلفزيونيـة فـي عـام ٢٠١٣، أن الدولة سـتدير ظهرهـا لطلبها -الذي طـال أمده، وطالـه الإحباط كذلك- للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وتتطلع إلى الشرق؛ وصرح بأن منظمة شنغهاي للتعاون «أفضل، وأكثر قوة، كما أن لدينا قيمًا مشتركة»[2].

ربما لا ينبغي أن تؤخذ هذه التعليقات على علاتها؛ لأن البلدان والشـعوب في هذا الجزء من العالم اعتادت منذ فترة طويلة على اللعب على الحبلين، وضد بعضها بعضًا، وكذلك على اسـتغلال المصالح المتنافسة لصالحها. ومع ذلك، فليس من قبيل المصادفة أنه مع تحول الأفكار إلى النظام العالمي الجديد الناشئ، أن يجري استخلاص نفس الاستنتاجات في واشنطن، وبگين، وموسكو، فضلًا عن أماكن أُخر. لقـد حـان الوقت، كما قـال وزير الخارجيـة الأمريكي في عـام ٢٠١١، «لنضع أنظارنا علـى طريق حرير جديد» من شأنه أن يساعد المنطقة ككل على الازدهار[3].

إنـه موضـوع تناوله الرئيس الصيني شـي جين بينغ؛ حيث أعلن في «آسـتانا» -خلال جولة كبرى في وسط آسيا- في خريف ٢٠١٣، أن الشعوب التي تعيش في المنطقة التي تربط بين الشرق والغرب تمكنت من التعايش والتعاون والازدهار لأكثر من ٢٠٠٠ عام، على الرغم من «الاختلافات في العِرق، والمعتقد، والخلفية الثقافية». واستطرد قائلًا: إن «تطوير العلاقات التعاونية الودية مع دول آسيا الوسطى من أولويات السياسة الخارجية للصين». ومضى قائلًا: حان الوقت لتقريب العلاقات الاقتصادية، وتحسين الاتصال، وتشجيع التجارة، وتعزيز التداول النقدي. لقد حان الوقت، كما قال، لبناء «حزام اقتصادي لطريق الحرير»، أو بعبارة أخرى، طريق حرير جديد[4].

العالـم آخـذ في التغير من حولنا. وبينما ننتقل إلى عصر تتعرض فيه الهيمنة السياسـية، والعسـكرية، والاقتصادية للغرب للضغط، فإن الشعور بضبابية المشهد باعث على القلق. لقد أفسح الفجر الكاذب لـ «الربيع العربي» -الذي وعد بموجة من الليبرالية واندفاع الديمقراطية- الطريق أمام التعصب، والمعاناة، والخوف في جميع أرجاء المنطقة وخارجها؛ حيث يسـعى تنظيم «الدولة الإسـلامية في العراق وسوريا» وأذنابـه إلـى السـيطرة علـى الأراضي والنفط، فضـلًا عن عقول ضحايـاه. وقلة هـم الذين يشـكّون في أن المسـتقبل سيشـهد المزيد من الاضطرابات، لأسـباب أخصها الانخفاض الكبير في أسـعار النفط، الذي يهدد بالتأثير على اسـتقرار دول الخليج، وشـبه الجزيرة العربية، وآسـيا الوسطى التي ألفَت نفسـها تناضل لتحقيق التوازن في ميزانياتها، وتضطر إلى تطبيق تدابير التقشـف بعد أجيال شـهدت بحبوحة من العيش

(1) International Federation for Human Rights, *Shanghai Cooperation Organisation: A Vehicle for Human Rights Violations* (Paris, 2012).

(2) 'Erdoğan's Shanghai Organization remarks lead to confusion, concern', *Today's Zaman*, 28 January 2013.

(3) Hillary Clinton, 'Remarks at the New Silk Road Ministerial Meeting', 22 September 2011, New York City.

(4) President Xi Jinping, 'Promote People-to-People Friendship and Create a Better Future', 7 September 2013, Xinhua.

على رواسب غنية من النفط والغاز. ويسير الضغط الاقتصادي والتقلب السياسي كتفًا بكتف، ونادرًا ما ينفصلان بسرعة أو بسهولة.

وإلى الشمال من البحر الأسود، أدى استيلاء روسيا على شبه جزيرة القرم، وتورطها في أوكرانيا إلى زعزعة استقرار العلاقات بين موسكو وواشنطن، وكذلك مع الاتحاد الأوروبي- في تناقض مباشر مع مسار إيران -وهي دولة منبوذة منذ فترة طويلة- ولكن يبدو الآن أنها تعود إلى ممارسة دورها التقليدي بوصفها مرتكزًا قد ينتشر من خلالها السلام والازدهار. ثم هناك الصين بطبيعة الحال، التي تدخل بوضوح في مرحلة انتقالية، حيث تتباطأ سرعة النمو الاقتصادي خلال العقدين الماضيين إلى وتيرة يُشار إليها على نطاق واسع على أنها «طبيعية جديدة»، متسقة، إلا أنها ليست مأساوية. وستساعد الكيفية التي تعامل الصين بها جيرانها الأقربين ومن يلونهم، والدور الذي تلعبه على المسرح العالمي، في تشكيل القرن الحادي والعشرين.

وتشير الموارد الهائلة التي تُستثمر في رؤية «طريق واحد؛ حزام واحد» (One Road One Belt)؛ التي وضعها تشي جين بينغ في عام ٢٠١٣ بقوة إلى أن الصين تخطط للمستقبل. وفي حين تبدو الصدمات، والصعوبات، والتحديات، والمشكلات في أماكن أخرى وكأنها آلام المخاض، فإنها أمارات دالة على ظهور عالم جديد أمام أعيننا. وبينما نشغل أنفسنا بالتفكير في مصدر التهديد التالي، وأفضل السبل للتعامل مع التطرف الديني، وكيفية التفاوض مع الدول التي تبدو على استعداد لنبذ القانون الدولي ظهريًّا، وكيفية بناء العلاقات مع الشعوب والثقافات والمناطق التي لم نستطع فهمها، أو لم يكن لدينا الوقت لنحاول فهمها، فإن الشبكات والاتصالات تترابط بهدوء معًا عبر العمود الفقري لآسيا؛ أو بالأحرى، يجري استعادتها. ها هي طُرق الحرير تنشأ مجددًا.

شكر وتقدير

لا يكاد المؤرخ يجد مكانًا مناسبًا للعمل يمكن أن يُقارَن بـ أكسفورد (Oxford)؛ ذاك أن المكتبات والمجموعات هناك لا نظير لها، كما أن أمناء مكتباتها متفننون في تتبع المادة والبحث عنها. وأنا ممتن لمكتبة بودليان (Bodleian Library) خاصةً، ومكتبة المعهد الشرقي (Oriental Institute Library)، ومكتبة ساكلر (Sackler Library)، ومكتبة تايلور السلافية واليونانية الحديثة (Taylor Slavonic and Modern Greek Library)، ومكتبة الشرق الأوسط (Middle Eastern Library) في كلية سانت أنتوني (St Antony's College) ولجميع العاملين ثمة. ولم يكن يسعني تأليف هذا الكتاب دون استخدام الموارد المذهلة لجامعة أكسفورد، ودون دعم أولئك المسؤولين عنها وصبرهم.

أنفقتُ كثيرًا من الوقت في دار السجلات الوطنية في كيو (Kew)، وتوفرتُ على قراءة الرسائل، والبرقيات، والمذكرات المحفوظة في سجلات وزارة الخارجية، أو دراسة محاضر اجتماعات مجلس الوزراء، أو فحص مقترحات وزارة الدفاع؛ وكلها كانت تصلني في غضون أربعين دقيقة. وأنا ممتن لكفاءة جميع العاملين هناك، ولدماثة أخلاقهم كذلك.

كما سمحت لي مكتبة الجامعة في كامبريدج (Cambridge) بالاطلاع على أوراق اللورد هاردينغ (Lord Hardinge)، في حين أن مركز سجلات تشرشل (Churchill Archives Centre) في كلية تشرشل في كامبريدج (Churchill College-Cambridge) سمح لي بالاطلاع على اليوميات الخاصة بـ موريس (Maurice) (اللورد) هانكي (Lord Hankey)، كما أتاح لي الاطلاع على السجلات الرائعة التي تضم أوراق قسم أبحاث الدعاية التي جمعها مارك أبرامز (Mark Abrams). كما أجد لزامًا عليَّ أن أشكر قسم سجلات شركة البترول البريطانية BP في جامعة وارويك (University of Warwick)، وأخص بالشكر بيتر هوسجو (Peter Housego)، مدير السجلات، على التنقيب عن عدد كبير من الملفات المتعلقة بشركة البترول البريطانية، سليلة شركتي الأنجلو-فارسية، ثم الأنجلو-إيرانية فيما بعد.

أود أيضًا أن أعرب عن شكري لـ سجلات الأمن القومي (National Security Archive) في جامعة جورج واشنطن (George Washington)، وهو يضم مجموعة غير حكومية من الوثائق التي رُفِعت عنها السرية فيما يتعلق بالشؤون الدولية، وتاريخ الولايات المتحدة في القرنين العشرين، والحادي والعشرين وفي المقام الأول. وتعُد هذه الوثائق كنز من المادة المصدرية المهمة العائدة إلى العقود الأخيرة. إن تمكني من العثور على عدد كبير من الوثائق في مكان واحد أنقذني من عدد من الرحلات المتكررة عبر المحيط الأطلسي التي كان من شأنها أن تكون محبطةً، فضلًا عن الوقت الطويل الذي كانت تلك الرحلات ستستغرقه.

كما وجب عليَّ شكر عميد كلية ورسيستر، أكسفورد (Worcester College- Oxford)، وزملائي ثمة. إن عهدي بهم اللطف والسماحة منذ أن جئت إلى الكلية بوصفي زميلًا باحثًا مبتدئًا قبل ما يقرب من عشرين عامًا وإلى يومنا هذا. كما أنني محظوظ بالعمل إلى جانب مجموعة رائعة من الباحثين في مركز أكسفورد للبحوث البيزنطية (Oxford Centre for Byzantine Research)، حيث كان مارك ويتو (Mark Whittow) خاصةً مصدرًا لا ينضب معينه من الإلهام والتشجيع. وقد ساعدت السجالات والمناقشات مع الزملاء والأصدقاء في أكسفورد فضلًا عن غيرها من المحافل، وفي الرحلات عبر بريطانيا، وأوروبا، وآسيا، وإفريقيا على تخليص الأفكار الجيدة من الرديئة.

كما أنني مدين لعدد كبير من الزملاء والأصدقاء الذين قرأوا فصولًا من هذا الكتاب، وعلى رأسهم بول كارتليدج (Paul Cartledge)، وأفيريل كاميرون (Averil Cameron)، وكريستوفر تيرمان (Christopher Tyerman)، وماريك يانكوياك (Marek Jankowiak)، ودومينيك بارڤيز بروكشو (Dominic Parviz Brookshaw)، وليزا جاردن (Lisa Jardine)، وماري لاڤين (Mary Laven)، وسينا فاضل (Seena Fazel)، وكولن جرينوود (Colin Greenwood)، وأنتوني ماكجوان (Anthony McGowan)، ونيكولاس وندسور (Nicholas Windsor)، وكلهم قرأ فصولًا من هذا الكتاب، وعلقوا عليها بتعليقات مفيدة وثاقبة، ساعدت في جعله أفضل مما لو خرج دون مراجعاتهم. وأنا ممتن لأنجيلا ماكلين (Angela McLean)؛ ذاك أنها لفتت نظري إلى أحدث البحوث حول الطاعون وانتشار الجوائح في آسيا الوسطى.

مالت كتب التاريخ -في السنوات الأخيرة- ميلًا واضحًا إلى التركيز على الموضوعات الضيقة، مع أُطر زمنية يجري تقصيرها على نحو مستمر. وأنا أشعر بسعادة غامرة لأن دار بلومزبوري (Bloomsbury) وكنوبف (Knopf) أبديا حرصًا على طباعة كتاب طموح يمتد عبر القرون والقارات والثقافات. لقد كان محرر نص كتابي مايكل فيشويك (Michael Fishwick) ركيزة داعمة منذ البداية؛ حيث حثني على فتح باب آفاقي على مصراعيه، ثم انتظر بصبر، بينما كنت أفعل ذلك بتؤدة. ولم تكن مِلَحه الجيدة، ونظراته الثاقبة، ودعمه الذي لا يتزعزع مصدرًا للثقة، بقدر ما كانت قيمة لا تقدر بثمن.

وأنا ممتن أيضًا لأندرو ميلر (Andrew Miller) -من كنوبف- على الملحوظات الذكية، والأسئلة، والأفكار المفيدة التي جاءت في وقتها المناسب. وهناك عدد كبير في بلومزبوري ينبغي عليَّ أن أخصهم بالشكر؛ فقد لعبت آنا سيمبسون (Anna Simpson) دور مديرة الحلبة باقتدار؛ حيث ضمنت أن كل شيء وُضِع في مكانه المناسب، وفي أبهى حلة ممكنة، بدءًا من الخط إلى الخرائط، ومن الصور إلى ترقيم الصفحات، وعلى هذا النحو تحول مستند الحاسوب إلى كتاب حقيقي. وعمل بيتر جيمس على المسودة أكثر من مرة، وقدم اقتراحات أنيقة حول كيفية تحسين الكتاب؛ وكانت أحكامه الرصينة موضع تقدير كبير. وقامت كاثرين بيست (Catherine Best) بعمل رائع بوصفها مدققًا لغويًّا، حيث التقطت إشكاليات لم ألحظها قط، بينما وضع ديڤيد أتكينسون (David Atkinson) الكشافات بشهامة. وصمم مارتن لوبيكوفسكي (Martin Lubikowski) الخرائط، وكانت مهارته تضاهي صبره. وساعد فيل بيريسفورد (Phil Beresford) في جمع الصور الجميلة معًا. وصممت إيما إيوبانك (Emma

(Ewbank غلافًا مذهلًا ببساطة. وأنا ممتن لـ جود دريك (Jude Drake)، وهيلين فلود (Helen Flood) للدعاية لهذا الكتاب.

كما أنني مدين -كذلك- لكاثرين كلارك (Catherine Clarke) خاصةً؛ إذ هي التي أخبرتني -في أثناء الغداء في أكسفورد قبل عدة سنوات- باعتقادها أنني قادر على جمع خيوط متعددة معًا في سلك عمل واحد، وهو اعتقاد شككت فيه آنذاك. ثم كانت تلك الشكوك تساورني في كثير من الأحيان بينما كنت أكتب، وعادة ما كان ذلك في وقت متأخر من الليل. وأنا ممتن لمشورتها ودعمها وتشجيعها، كما أنا ممتن لبطلتي في نيويورك زوي باجنامنتا (Zoe Pagnamenta) التي لا تعرف الكلل. وكانت كلوي كامبل (Chloe Campbell) ملاكي الحارس، تقرأ جميع فصول المسودة، وتتخلص من الحشو، والعبارات المتنمِّرة، برشاقة ودبلوماسية.

ويحلو لأبواي تذكيري -دائمًا- بأنهما علماني المشي والحديث. وأنهما هما اللذان منحاني خريطتي الثمينة للعالم عندما كنت صبيًّا، وأنهما أذنا لي بوضعها على جدار غرفة نومي (على الرغم من أنهما لم يأذنا لي باستخدام شريط لاصق في ذلك، كما لم يأذنا بلصق ملصقات صور حرب النجوم على المحيطات المفتوحة). كما علماني أن أفكر وأن أنقد ما سمعته وما قرأته. وكنت -وإخوتي- محظوظين لأننا نشأنا في بيت كان يسعنا فيه سماع عدد كبير من اللغات على مائدة العشاء؛ حيث لم يكن يُتوقَّع منا أن نتابع المحادثة فحسب، بل أن نشارك فيها أيضًا. وقد ثبت لي أن الدرس الذي تعلمته من فهم ما قاله الآخرون، بل ومعرفة ما يقصدونه حقًّا، أنه درس ثمين لا يقدر بثمن. وأنا ممتن لإخوتي وأخواتي -وهم أفضل أصدقائي منذ الحضانة- على وضعهم المعايير العالية، وعلى كونهم أشد الناس انتقادًا لي؛ إنهم وحدهم -من بين الذين أعرفهم- الذين يعتقدون أن دراسة الماضي أمر سهل!

كما كانت زوجتي جيسيكا (Jessica) بجانبي لربع قرن، وألهمتني -منذ أن كنا طلابا جادين معًا في الجامعة- عندما ناقشنا معنى الحياة، وتحدثنا عن أهمية الشعوب القبلية، ورقصنا في أقبية كليات كامبريدج. وأجد لزامًا عليَّ أن أقرص نفسي كل يوم؛ لأذكِّرها كم أنا محظوظ. ولم يكن يسعني تأليف **طرق الحرير** بدونها.

على أنني أهدي هذا الكتاب لأطفالنا الأربعة، الذين رأوا، واستمعوا، وطرحوا أسئلة جيدة عديدة كلما كنت أنتهي مؤقتًا من دراستي، أو أظهر مجددًا قادمًا من دور سجلات مكيفة الهواء، أو مكتبات غريبة للتفكير في مشكلة اليوم. فيا كاتارينا، وفلورا، وفرانسيس، ولوقا؛ أنتم مصدر فخري وسعادتي. ها قد انتهى الكتاب يا أولاد، وبات يسعني أخيرًا اللعب معكم في الحديقة، متى شئتم، وأنَّى شئتم.

بيتر فرانكوبان



طرق الحرير

يُعنى هذا الكتاب بدراسة طرق الحرير من منظور التاريخ العالمي. إلا أنه لا يتناول طرق الحرير بمفهومها الكلاسيكي، بل حاول المؤلف إقامة البرهان على أنه كان لكل إمبراطورية كبرى طرق الحرير الخاصة بها، وأن انهيار تلك الإمبراطوريات جاء مرتبطاً بانهيار طرق الحرير فيها. لقد كان لطرق الحرير دور مركزي في الصراع بين الإمبراطوريات الكبرى، وهكذا كانت سببًا رئيسًا من أسباب الحربين العالميتين.

نشر فرانكوبان هذا الكتاب في عام 2015. وأثار الكتاب ضجة كبيرة في أعقاب صدوره، واختارته صحيفة الديلي تلغراف Daily Telegraph كتاباً للعام في السنة التي صدر فيها. واحتل مكانة بارزة في قائمة أكثر الكتب مبيعًا حول العالم، وقيل: إن عدد النسخ التي ابتيعت منه بلغت 1.5 مليون نسخة.

أدب adab
إثراء ithra

ISBN 978-603-91900-3-5
9 786039 190035